الآباء والأنبياء

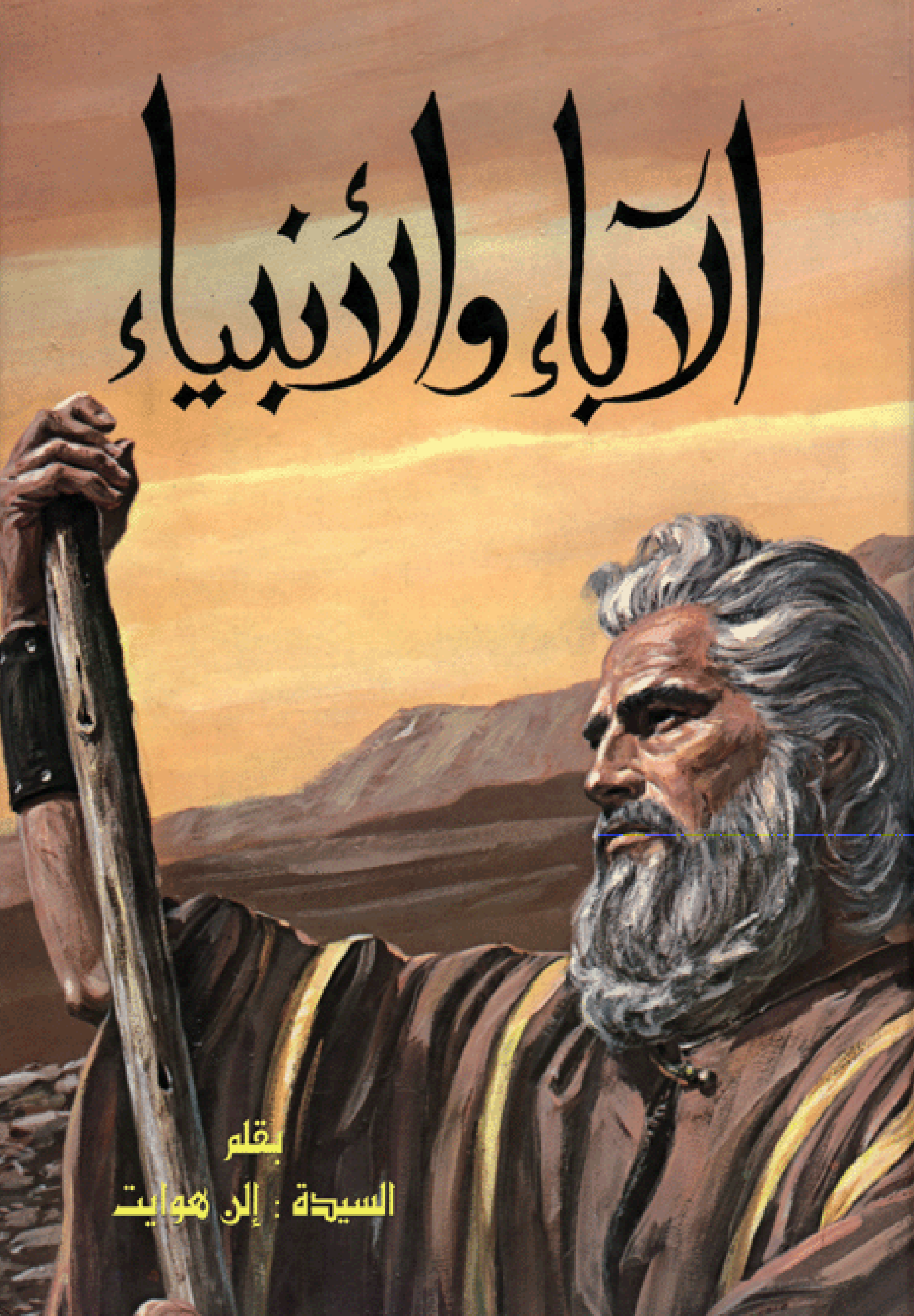

بقلم

السيدة : إلن هوايت

الصراع العظيم في سيرة

الآباء والأنبياء

بقلم : إلن هوايت

ترجمة : إسحاق فرج الله

THE STORY OF PATRIARCHS AND PROPHETS
THE CONFLICT OF THE AGES - BOOK 1

طُبع بالإنجليزية أول مرة عام ١٨٩٠

دَارُ الشَّرْقِ الأَوْسَطِ لِلطَّبْعِ وَالنَّشْرِ
بَيْرُوت لُبْنَان

محتويات الكتاب

الرقم	المادة	صفحة
١-	كيف دخلت الخطية	١٣
٢-	الخلق (تكوين ١،٢)	٢٤
٣-	التجربة والسقوط (تكوين ٣)	٣٣
٤-	تدبير الفداء	٤٤
٥-	امتحان قايين وهابيل (تكوين ٤: ١-١٥)	٥٢
٦-	شيث وأخنوخ (تكوين ٤: ٢٥ إلى ٦: ٢)	٦٠
٧-	الطوفان (تكوين ٦،٧)	٧٠
٨-	بعد الطوفان (تكوين ٧: ٢٠ إلى ٩: ١٧)	٨٤
٩-	الأسبوع الحرفي	٩٠
١٠-	برج بابل (تكوين ٩: ٢٥-٢٧؛ ١١: ١-٩)	٩٦
١١-	دعوة إبراهيم (تكوين ١٢)	١٠٢
١٢-	إبراهيم في كنعان (تكوين ١٣ إلى ١٥؛ ١٧: ١-١٦؛ ١٨)	١٠٩
١٣-	محك الإيمان (تكوين ١٦؛ ١٧: ١٨-٢٠؛ ٢١: ١-١٤؛ ٢٢: ١-١٩)	١٢٢
١٤-	هلاك سدوم (تكوين ١٩)	١٣١
١٥-	زواج اسحق (تكوين ٢٤)	١٤٥
١٦-	يعقوب وعيسو (تكوين ٢٥: ١٩-٣٤؛ ٢٧)	١٥١
١٧-	هروب يعقوب ومنفاه (تكوين ٢٨ إلى ٣١)	١٥٧
١٨-	ليلة الصراع (تكوين ٣٢،٣٣)	١٦٧

الرقم | المادة | صفحة

١٩- الرجوع إلى كنعان ١٧٤
(تكوين ٣٤؛ ٣٥؛ ٣٧)
٢٠- يوسف في مصر ١٨٣
(تكوين ٣٩ إلى ٤١)
٢١- يوسف وإخوته.. ١٩٢
(تكوين ٤١: ٥٤-٥٦؛ ٤٢ إلى ٥٠)
٢٢- موسى ٢٠٩
(خروج ١ إلى ٤)
٢٣- ضربات مصر ٢٢٢
(خروج ٥ إلى ١٠)
٢٤- الفصح ٢٣٦
(خروج ١١؛ ١٢: ١-٣٢)
٢٥- الخروج.. ٢٤٢
(خروج ١٢: ٣٤-٥١؛ ١٣ إلى ١٥)
٢٦- من بحر سوف إلى سيناء ٢٥٠
(خروج ١٥: ٢٢-٢٧؛ ١٦ إلى ١٨)
٢٧- إعطاء الشريعة.. ٢٦١
(خروج ١٩ إلى ٢٤)
٢٨- عبادة الأوثان في سيناء.. ٢٧٤
(خروج ٣٢ إلى ٣٤)
٢٩- عداء الشيطان للشريعة ٢٨٨
٣٠- الخيمة وخدماتها.. ٢٩٩
(خروج ٢٥ إلى ٤٠؛ لاويين ١٦،٤)
٣١- خطية ناداب وأبيهو.. ٣١٣
(لاويين ١٠: ١-١١)
٣٢- الشريعة والعهدان.. ٣١٧
٣٣- من سيناء إلى قادش.. ٣٢٨
(عدد ١٢،١١)
٣٤- الجواسيس الاثنا عشر ٣٤٠
(لاويين ١٤،١٣)
٣٥- عصيان قورح.. ٣٤٨
(عدد ١٧،١٦)
٣٦- في البرية.. ٣٥٩
٣٧- الصخرة المضروبة ٣٦٤
(عدد ٢٠: ١-١٣)
٣٨- الدوران حول أدوم ٣٧٣
(عدد ٢٠: ١٤-٢٩؛ ٢١: ١-٩)

الرقم	المادة	صفحة

٣٩- غزو باشان.. ٣٨٤
(تثنية ٢؛ ٣: ١-١١)
٤٠- بلعام ٣٨٩
(عدد ٢٢ إلى ٢٤)
٤١- الارتداد عند الأردن.. ٤٠٢
(عدد ٢٥)
٤٢- تكرار الشريعة ٤١١
(تثنية ٤ إلى ٦؛ ٢٨)
٤٣- موت موسى.. ٤١٧
(تثنية ٣١ إلى ٣٤)
٤٤- عبور الأردن ٤٢٧
(يشوع ١ إلى ٥: ١٢)
٤٥- سقوط أريحا ٤٣٣
(يشوع ٥: ١٣-١٥؛ ٦؛ ٧)
٤٦- البركات واللعنات.. ٤٤٣
(يشوع ٨)
٤٧- التحالف مع الجبعونيين ٤٤٧
(يشوع ٩،١٠)
٤٨- تقسيم كنعان.. ٤٥٢
(يشوع ١٠: ٤٠-٤٣؛ ١١؛ ١٤ إلى ٢٢)
٤٩- كلمات يشوع الأخيرة ٤٦٤
(يشوع ٢٣،٢٤)
٥٠- العشور والتقدمات ٤٦٩
٥١- رعاية الله للفقراء ٤٧٤
٥٢- الأعياد السنوية ٤٨١
(لاويين ٢٣)
٥٣- القضاة الأولون.. ٤٨٧
(قضاة ٦ إلى ٨؛ ١٠)
٥٤- شمشون ٥٠١
(قضاة ١٣-١٦)
٥٥- الصبي صموئيل ٥١٠
(اصموئيل ١؛ ٢: ١-١١)
٥٦- عالي وبنوه.. ٥١٦
(اصموئيل ٢: ١٢ -٣٦)
٥٧- الفلسطينيون يستولون على التابوت ٥٢٢
(اصموئيل ٣ إلى ٧)
٥٨- مدارس الأنبياء ٥٣٣

الرقم	المادة	صفحة

٥٩- أول ملوك إسرائيل ٥٤٢
(١صموئيل ٨ إلى ١٢)
٦٠- تصلف شاول ٥٥٥
(١صموئيل ١٣،١٤)
٦١- رفض شاول ٦٥٣
(١صموئيل ١٥)
٦٢- مسح داود ٥٧٤
(١صموئيل ١٦: ١-١٣)
٦٣- داود وجليات.. ٥٧٨
(١صموئيل ١٦: ١٤-٢٣؛ ١٧)
٦٤- داود المطارد ٥٨٤
(١صموئيل ١٨ إلى ٢٢)
٦٥- شهامة داود وصفحه ٥٩٥
(١صموئيل ٢٢: ٢٠-٢٣؛ ٢٣؛ ٢٧)
٦٦- موت شاول.. ٦٠٧
(١صموئيل ٢٨؛ ٣١)
٦٧- العرافة قديما وحديثا.. ٦١٤
٦٨- داود في صقلغ ٦٢١
(١صموئيل ٢٩؛ ٣٠؛ ٢صموئيل ١)
٦٩- داود يدعى لاعتلاء العرش ٦٢٨
(٢صموئيل ٢ إلى ٥: ٥)
٧٠- ملك داود ٦٣٣
(٢صموئيل ٥: ٦-٢٥؛ ٦؛ ٧؛ ٩؛ ١٠)
٧١- خطية داود وتوبته ٦٤٤
(٢صموئيل ١١،١٢)
٧٢- تمرد أبشالوم.. ٦٥٣
(٢صموئيل ١٣ إلى ١٩)
٧٣- سنو حياة داود الأخيرة.. ٦٦٩
(٢صموئيل ٢٤؛ ١ ملوك١؛ ١أخبار الأيام ٢١،٢٨،٢٩)

المقدمة

إن السلسلة المؤلفة من خمسة مجلدات للسيدة إلن هوايت ، والتي تصف الصراع العظيم بين المسيح والشيطان منذ بدئه في السماء حتى تكملته النهائية بالقضاء على الشيطان والشر ، والتي يشكل هذا المجلد الجزء الأول منها- هذه السلسلة قد ظفرت بحب القارئ العربي ، فنشأت رغبة ملحة في ترجمتها . إن فصولا مختلفة منها قد سبق ترجمتها إلى العربية في أوقات ، ووقعت من نفوس قرائها موقعاً حسناً ، مما اقتضى التفكير في ترجمة ونشر السلسلة كلها .

ويسعدنا أن يكون الوقت قد حان لتقديم هذا المجلد بلغة الضاد ، ولا يسعنا إلا أن نشكر لمجلس أمناء كتابات السيدة هوايت ما تفضل به من الإذن لنا في ترجمة هذا السفر الجليل ونشره بالعربية ، وخاصة ما زودنا به من مساعدة مالية أتاحت لنا أن نبيعه بسعر منخفض .

وإن القراء ليجدون في هذا المجلد ، فضلا عن القصة الرائعة التي تهز العواطف ، مفسرا للكتاب المقدس ومعقِّبا يُركن إليه . وقد جعلنا في نهايته فهرسا بما ورد فيه من آيات الكتاب المقدس ، إذ قرنّا كل آية مقتبسة بمصدرها الكتابي ، كما أن فهرس محتويات الكتاب يشتمل على المصدر الكتابي لكل فصل فيه .

لقد لمسنا في هذا المشروع كله بركة الله الخاصة . إننا نعلم أن عملنا هذا تناول كلمات موحى بها ، ونؤمن أن كل قارئ يتصفح هذا السفر برغبة في التعرف بالله وخدمته خدمة أفضل لن يتركه إلا وقد أحس بأنه قد نال بركة .

الديباجة

إن جماعة الناشرين يصدرون هذا الكتاب بدافع اقتناعهم بأنه يلقي نورا على موضوع فائق الأهمية وذي نفع عام ، موضوع يرغب الكثيرون ويرحبون بالمزيد من النور الذي يراق عليه ، إذ يقدم حقائق يعرفها قلة من الناس ويجهلها الكثيرون . إن الصراع العظيم بين الحق والباطل ، بين النور والظلمة ، بين قوة الله والمحاولة التي يبذلها عدو كل بر ليغتصب سلطان العلي- هي المشهد العظيم الذي نتوقع أنه يسترعي انتباه كل العالمين . وإن حقيقة كون هذا الصراع ناشبا نتيجة الخطية ، وحقيقة كونه لا بد أن يمر في مراحل النجاح المختلفة ، وأنه لا بد أن ينتهي إلى ما يؤول إلى مجد الله العظيم وتعظيم خدامه المخلصين لجلاله- كل هذا حق ثابت بقدر ما أن الكتاب المقدس هو إعلان الله لبني الإنسان . وكلمة الله هذه تكشف لنا عن الأطوار العظيمة لذلك الصراع الذي يشمل فداء العالم . وهناك بعض العصور الخاصة التي لاقت فيها هذه المسائل اهتماماً غير عادي ، ومن أهم الأمور بالنسبة إلينا كوننا ندرك علاقتنا بها .

والوقت الذي نعنيه هو وقتنا الراهن ، لأن كل الدلائل تشير لي أنه يمكننا بكل ثقة ، أن نرجو أن هذا الصراع الطويل يوشك أن ينتهي ، ومع ذلك فكثيرون يقولون إن ذلك الجزء من الكتاب الذي يكشف لأبصارنا عن الخطوات التي أدت إلى جعل عالمنا هذا مشتبكا في هذا المصير العظيم إن هو إلا محض خرافة ، كما أن آخرين ، مع كونهم يتحاشون هذا الرأي المتطرف فهم يميلون إلى اعتباره من الآراء القديمة البالية العديمة الأهمية ، وهذا يسوقهم إلى إهماله .

ولكن من ذا الذي لا يرغب في أن ينعم النظر في العوامل الخفية في هذا الانحراف الغريب ليمتحن روحه ويلاحظ آثاره ويتجنب نتائجه ؟ إن هذا الكتاب يتناول هذه الموضوعات ، والقصد منه أن يخلق في نفوس القراء اهتماما حيويا بدراسة أجزاء الكتاب المقدس التي نهملها في غالب الأحيان . وهو يلبس المواعيد والنبوات الموجودة في كتاب الله معاني جديدة ، ويؤيد ويزكي معاملات الله لكل عصيان ، ويوضح نعمة الله العجيبة في تدبير طريق الخلاص للإنسان الأثيم . وفي التاريخ المدون في هذا الكتاب نعود إلى الوقت الذي فيه كُشفت تدابير الله ومقاصده لشعبه المختار بكل جلاء .

ومع أن هذا الكتاب يتناول مواضيع سامية جدا تثير كوامن القلب وتوقظ أنشط انفعالات الذهن فإن أسلوبه واضح كل الوضوح ، ولغته بسيطة وصريحة . إننا نقدم هذا الكتاب لكل من تحلو لهم دراسة التدبير الإلهي لفداء بني الإنسان والذين يهمهم معرفة علاقة نفوسهم بعمل المسيح الكفاري . كما نقدمه للجميع لعله يوقظ في نفوسهم اهتماماً بهذه الأمور .

وإنا نسأل الله أن يبارك من يتصفحون هذا السفر الجليل حتى يقودهم في طريق الحياة .

الناشرون

الفصل الأول

كيف دخلت الخطية

«اَللهُ مَحَبَّةٌ» (١ يوحنا ٤: ١٦) ، طبيعته وشريعته هي المحبة . كانت كذلك دائما ، وستظل كذلك أبداً ، فإن «الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ، سَاكِنُ الأَبَدِ» الذي «مَسَالِكُ الأَزَلِ لَهُ» «لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ (إشعياء ٥٧: ١٥؛ حبقوق ٣: ٦؛ يعقوب ١: ١٧).

كل مظهر من مظاهر قدرته الخالقة هو تعبير عن محبته غير المحدودة ، وسلطانه في ملكوته يشمل ملء البركة لجميع خلائقه . يقول المرنم : «لَكَ ذِرَاعُ الْقُدْرَةِ. قَوِيَّةٌ يَدُكَ. مُرْتَفِعَةٌ يَمِينُكَ. الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّكَ . الرَّحْمَةُ وَالأَمَانَةُ تَتَقَدَّمَانِ أَمَامَ وَجْهِكَ . طُوبَى لِلشَّعْبِ الْعَارِفِينَ الْهُتَافَ . يَا رَبُّ ، بِنُورِ وَجْهِكَ يَسْلُكُونَ . بِاسْمِكَ يَبْتَهِجُونَ الْيَوْمَ كُلَّهُ ، وَبِعَدْلِكَ يَرْتَفِعُونَ . لأَنَّكَ أَنْتَ فَخْرُ قُوَّتِهِمْ ... لأَنَّ الرَّبَّ مِجَنُّنَا ، وَقُدُّوسَ إِسْرَائِيلَ مَلِكُنَا» (مزمور ٨٩: ١٣-١٨) .

إن تاريخ الصراع الهائل بين الخير والشر منذ وقت ظهوره في السماء إلى أن يخمد كل عصيان وتستأصل شأفة الخطية نهائيا هو إعلان أيضا لمحبة الله الثابتة على الزمن .

إن سيد الكون لم ينفرد بعمله الخير ، فلقد كان معه في العمل الأقنوم الثاني الذي قدر أهدافه ، وشاركه في فرحه بإسعاد خلائقه ، «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ . هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ . (يوحنا ١: ١،٢) . فالمسيح الكلمة وابن الله الوحيد كان والآب السرمدي واحدا –في الطبيعة والصفات والقصد ، وكان هو الكائن الوحيد الذي استطاع أن يطَّلع على كل مشورات الله ومقاصده ، «وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا ، إِلهًا قَدِيرًا ، أَبًا أَبَدِيًّا ، رَئِيسَ السَّلاَمِ» (إشعياء ٩: ٦) . «وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ» (ميخا ٥: ٢) . وقد أعلن ابن الله عن نفسه ما جاء في أمثال ٨: ٢٢– ٣٠: «اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ

طَرِيقِهِ، مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ، مُنْذُ الْقِدَمِ. مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ ... لَمَّا رَسَمَ أُسُسَ الأَرْضِ، كُنْتُ عِنْدَهُ صَانِعًا، وَكُنْتُ كُلَّ يَوْمٍ لَذَّتَهُ، فَرِحَةً دَائِمًا قُدَّامَهُ» (أمثال ٨: ٢٢–٣٠) .

لقد عمل الآب بواسطة ابنه في خلق كل الخلائق السماوية ، «فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ ... سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ» (كولوسي ١: ١٦) . إن الملائكة هم خدام الله ، وهم متألقون بالضياء الذي يشع عليهم من حضوره ، ويطيرون بسرعة عظيمة لتنفيذ إرادته . ولكن الابن الممسوح من الله الذي هو «رَسْمُ جَوْهَرِهِ» و«بَهَاءُ مَجْدِهِ» «وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ» هو أرفع وأسمى منهم جميعا (عبرانين ١: ٣) وموضع قدسه «كُرْسِيُّ مَجْدٍ مُرْتَفِعٌ مِنَ الابْتِدَاءِ» (إرميا ١٧: ١٢) ، قضيب استقامة قضيب ملكه (عبرانيين ١: ٨) الرحمة والأمانة تتقدمان أمام وجهه ، (مزمور ٨٩: ١٤) .

وبما أن شريعة المحبة هي أساس حكم الله ، فسعادة كل الخلائق العاقلة تتوقف على التوافق الكامل بين إرادتهم ومبادئ برها العظيمة . والله يطلب من كل خلائقه خدمة المحبة النابعة من تقديرهم لصفاته . إنه لا يسر بالطاعة التي يكره عليها الناس ، بل يقدم للجميع إرادة حرة حتى يقدموا له خدمة تطوعية .

لقد كان هنالك انسجام تام في كل المسكونة طوال ما اعترفت كل الخلائق بولاء المحبة لله ، وكانت مسرة الجند السماويين أن يتمموا قصد خالقهم ، وابتهجوا بأن يعكسوا بهاء مجده ويسبحوا بحمده . وفيما كانت محبتهم لله تستحوذ على قلوبهم كانت محبتهم بعضهم لبعض أمرا يقينيا ، ولا أثر فيها للأنانية ، ولم يكن هنالك اي نشاز في تسبيحات السماويين . ولكن تغييرا محزنا طرأ على تلك السعادة ، فقد وجد من أساء استعمال الحرية التي منحها الله لخلائقه ، إذ بدأت الخطية بالذي إذ لم يفقه سوى المسيح خالقه حصل على أعظم كرامة من الله ، وكان أسمى سكان السماء في القوة والمجد . إن لوسيفر ، «زهرة بنت الصبح» كان الأول بين الكروبيم المظللين ، مقدسا وبلا دنس . لقد وقف في حضرة الخالق العظيم ، وكانت أشعة المجد الدائمة التي تغمر الله السرمدي مستقرة عليه . «هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ، مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ. كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ ... أَنْتَ الْكَرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ، وَأَقَمْتُكَ. عَلَى جَبَلِ اللهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ. أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمَ خُلِقْتَ حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ» (حزقيال ٢٨: ١٢–١٥) .

رويدا رويدا تملكت لوسيفر الرغبة في أن يكون عظيما . والكتاب يقول «قَــدِ ارْتَفَــعَ قَلْبُكَ لِبَهْجَتِكَ. أَفْسَدْتَ حِكْمَتَكَ لأَجْلِ بَهَائِكَ» (حزقيال ٢٨: ١٧) «وَأَنْتَ قُلْتَ فِــي قَلْبِــكَ: أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ ... أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ» (إشــعياء ١٤: ١٣،١٤) . ومع أن كل مجد هذا الملاك القوي كان مستمدا من الله فإنه بدا يعتــبر هــذا المجد خاصا بذاته . وإذ لم يقنع بمركزه ، مع كونه قد أكرم فوق كل أجناد السماء فقــد تجاسر فاشتهى أن يقدم له السجود والولاء اللذان لا يحقان لغير الخالق وحده . وبدلا مــن أن يسعى لوسيفر لجعل الله أسمى كائن في عواطف كل الخلائق وولائها فقد حاول الظفــر بخدمتهم وولائهم له هو ، بل كان يطمع في الحصول على المجد الذي قــد أعطــاه الآب السرمدي لابنه ، فقد اشتاق رئيس الملائكة هذا إلى الحصول على السلطان الذي هو مــن حق المسيح وحده .

وهنا ظهرت ثغرة في الوفاق الذي كان يسود السماء ، فإن ميل لوسيفر إلى خدمــة نفســه بدل خدمته لخالقه أشاع الشعور بالخوف بين الذين يعتبرون أن مجد الله ينبغي ألا يدانيه مجد . وفي محفل السماويين توسل الملائكة الي لوسيفر ، واستعرض ابن الله أمامه عظمــة الخــالق وصلاحه وعدله وطبيعة شريعته المقدسة التي لا تتغير . إن الله نفسه هو الذي رســم نظــام السماء وأقره ، فإذا خرج لوسيفر على ذلك النظام فهو يهين خالقه ويجلب الدمار على نفســه . ولكن ذلك الإنذار المقدم إليه في رحمة ومحبة لا متناهية أثار فيه روح المقاومة ، فلقد جعــل لوسيفر حسده للمسيح يتحكم فيه ، وبذلك أمعن في عناده .

صار هدف رئيس الملائكة هذا أن ينازع ابن الله السيادة ، وهكذا طعن في حكمة الخــالق ومحبته . وفي ذلك الاتجاه كاد أن يحوّل قوى ونشاط ذلك الحقل الجبار الذي إذ لم يفقه ســوى فكر المسيح الخالق كان هو الأول بين جنود الله . ولكن ذاك الذي يريد أن يكون كل خلائقــه أحرارا في إرادتهم لم يترك أحدا غير مصون من السفسطة المربكة التــي أراد العــاصي أن يبرر بها نفسه . وقبلما انكشف النزاع العظيم كان لا بد في الذي كانت حكمته وصلاحه نبــع كل أفراح أولئك السماويين أن يظهر إرادته ومقاصده أمامهم بكل وضوح .

استدعى ملك الكون جند السماء للمثول أمامه حتى يبسط أمامهم حقيقة مركز ابنه ، ويبيــن علاقته بكل الخلائق . فلقد شارك الابن الآب في عرشه ، وكان مجــد الله الســرمدي يحيــط

بكليهما . فاجتمع حول العرش الملائكة القديسون ، جمع كثير لا يحصى عديدهم ، وهم «رِبَوَاتِ رِبَوَاتٍ وَأُلُوفَ أُلُوفٍ» (رؤيا ٥: ١١) الملائكة المبجلون جدا كخدام ورعايا ، الفرحون بالنور الذي يشع عليهم من حضرة الله ، فأعلن الملك أمام سكان السماء المحتشدين لديه أنه ليس لأيٍّ غير المسيح ابن الله الوحيد أن يطَّلع على مقاصده ، وله أعطي أن ينفذ مشورات إرادته القوية . إن ابن الله قد عمل إرادة الآب في خلقه كل جند السماء ، وله ، كما لله ، يليق بهم أن يقدموا ولاءهم وسجودهم . وقد كان المسيح سيستخدم قوته الإلهية في خلق الأرض وسكانها ، ولكن في كل هذا لن يطلب لنفسه سلطانا أو مجدا يتعارض مع تدبير الله ، بل كان يعظم مجد الآب وينفذ مقاصد رحمته .

اعترف الملائكة بكل سرور بسمو المسيح وعظمته ، وإذ انطرحوا أمامه سكبوا في حضرته محبتهم وعبادتهم . وقد انحنى لوسيفر معهم ، ولكن صراعا غريبا عنيفا كان يعتمل في نفسه ، لقد كان الحق والعدل والولاء في صراع مع الحسد والغيرة . وبدا كأن تأثير الملائكة القديسين فيه جعله يقف إلى جانبهم إلى حين . وما أن ارتفعت أغاني الحمد في لحن عذب شجي من آلاف الأفواه حتى ظهر أن روح الشر فيه قد انهزم ، واهتز كيانه كله بمحبة لا ينطق بها ، وخضعت نفسه وانسجمت مع أولئك الساجدين الأبرار في محبة خاشعة للآب والابن ، إلا أن كبرياءه عاودته ، فجعل يفخر بمجده ، وعاد إليه الحنين إلى التعالي والرفعة ، وامتلأ قلبه حسدا للمسيح . والكرامات العظيمة التي أُغدقت عليه لم يقدّرها على أنها هبة الله الخاصة له ، ولذلك لم يشكر الخالق عليها . لقد افتخر ببهائه وعظمته وسعى في أن يكون معادلا لله . كان محبوبا ومكرما من الجند السماويين ، وقد سر الملائكة بتنفيذ أوامره ، كما كان مسربلا بحكمة ومجد أكثر من جميعهم . ومع ذلك فإن ابن الله كان أسمى وأفضل منه كمن له القوة والسلطان مع الآب . لقد اشترك الابن مع الآب في كل مشوراته ، بينما لم يطَّلع لوسيفر على مقاصد الله ، فسأل ذلك الملاك القوي قائلاً : «لماذا يتفوق المسيح عليَّ ولماذا ينال كرامة أعظم مني ؟» .

وإذ ترك لوسيفر مكانه في محضر الآب المباشر خرج لينشر روح التذمر بين الملائكة ، وأخذ يقوم بهذا العمل بتكتم عجيب ، مخفيا ، إلى حين ، حقيقة غرضه تحت قناع التوقير لله ، وبدأ يوعز إلى غيره بالشكوك فيما يختص بالشرائع المفروضة على الخلائق السماوية ، قائلاً

36,37

إنه مع كون الشرائع لازمة لسكان العوالم ، إلا أن الملائكة ، لكونهم أرفع مقاما من باقي الخلائق ، فلا حاجة بهم إلى وازع أو رادع ، لأن حكمتهم هي خير مرشد لهم ، وليسوا هم من الخلائق التي تفكر في إهانة الله ، فكل أفكارهم مقدسة . وكما يستحيل على الله أن يخطئ يستحيل عليهم أيضاً ذلك . وصور المركز الرفيع الذي يحتله ابن الله الذي كان معادلا للآب على أنه ظلم وإجحاف وقع على لوسيفر الذي ادعى أنه هو أيضاً أهل للتوقير والإكرام ، وأن رئيس الملائكة هذا لو تبوأ مكانته الرفيعة التي يستحقها لكان يفيض الخير العظيم على كل جند السماء ، لأنه ينوي أن يمنح الحرية للجميع ، أما الآن فحتى الحرية التي يتمتعون بها قد انتهى زمانها ، لأن حاكما مطلقا قد عين عليهم ، وينبغي للجميع أن يقدموا لجلاله الولاء والسجود . مثل تلك المغالطات والمخادعات الخبيثة انتشرت بين جماهير السماويين بفعل مكايد لوسيفر .

لم يحدث أي تغيير في مركز المسيح أو سلطانه ، أما حسد لوسيفر وتمويهه ، وادعاؤه بأنه معادل للمسيح فقد جعلت من الضروري تبيان المركز الحقيقي لابن الله ، ولكن الحال هكذا كانت منذ البدء ، وانخدع كثيرون من الملائكة بمخاتلاته .

إذ أراد لوسيفر أن يستغل ثقة الخلائق المقدسة التي تحت سلطانه وولاءها ومحبتها له فإنه ، بمهارة ، رسَّخ في أذهانهم الشك والتبرم بأنه مقامه هو لم يُفطن له ، وعرض مقاصد الله في نور كاذب ، إذ جعل الملائكة يسيئون فهمها لأنه شوّهها بحيث تثير الشقاق والسخط . وبدهائه المعهود ساق سامعيه إلى التصريح بمشاعرهم ، ثم جعل يردد أقوالهم تلك كلما رأى أن ذلك يخدم غرضه ، دليلا على أن الملائكة ليسوا على انسجام تام مع حكم الله . وإذ كان يدعي أنه يكن الولاء التام لله جعل يطالب بإلحاح بوجوب تبديل النظم والشرائع السماوية لضمان استقرار حكم الله . وهكذا ، فبينما كان يعمل على إثارة المقاومة لشريعة الله وترسيخ التبرم في عقول الملائكة الذين تحت إمرته كان يتظاهر بمحاولة إزالة السخط ، والتوفيق بين رغبات الملائكة الساخطين وأنظمة السماء . ففيما كان يثير النزاع والتمرد سراً فبدهائه الذي لا يبارى كان يتظاهر بأن غرضه الأوحد هو نشر الولاء وحفظ الانسجام والسلام .

وإذ اشتعلت روح السخط هكذا ، كانت تعمل عملها المدمر المهلك . ولئن لم تكن هنالك ثورة علنية فقد انتشر الانقسام في المشاعر بشكل غير ظاهر بين الملائكة ، فمنهم من نظر

إلى الدسائس التي كان ينشرها لوسيفر ضد حكم الله بعين الرضى . ومع أنهم كانوا إلى ذلك الحين في حالة انسجام كامل مع النظام الذي رسمه الله بدا عليهم الآن السخط والإحساس بالتعاسة لسبب عدم استطاعتهم الاطلاع على مشوراته التي لا تفحص . وكانوا ساخطين بسبب قصده في تمجيد المسيح ، ووقف هؤلاء إلى جانب لوسيفر في المطالبة بمنحه سلطانا مساويا لسلطان المسيح ، ولكن الملائكة المخلصين الأمناء تمسكوا بحكمة الله وعدالة حكمه ، وحاولوا إخضاع هذا المخلوق الساخط لإرادة الله . لقد كان المسيح ابنا لله ، وكان واحدا معه قبل خلق الملائكة ، وكان أبداً يقف عن يمين الآب ، وإن تفوقه وسموه الذي فيه ملء البركة لكل من احتموا تحت ظل حكمه لم يكن إلى ذلك الحين موضع شك أو جدال ، ولم يسبق أن تشوش الانسجام والمحبة والسلام في السماء ، فمن أين يجيء الانقسام الآن ؟ وقد كان الملائكة الأمناء لا يرون إلا النتائج المرعبة الرهيبة لتلك الفتنة ، فبكل غيرة وتوسل جعلوا يتشاورون مع أولئك الساخطين المنشقين وينصحونهم أن ينفضوا أيديهم من مقاصدهم ويبرهنوا على إخلاصهم لله وخضوعهم لحكمه .

إن الله ، في رحمته العظيمة كما هو المعهود في صفاته الإلهية ، صبر على لوسيفر طويلا . لم يكن للسماء ، من قبل ، عهد بهذه الروح ، روح التذمر والنفور التي ظهرت كعنصر جديد غريب وغامض لا يمكن تعليله . ولم يكن لوسيفر نفسه عالما في البداءة بطبيعة مشاعره الحقيقية ، ولبعض الوقت كان يخشى التعبير عن التخيلات التي كانت تعتمل في ذهنه ، ومع ذلك فهو لم يطردها . لم يكن يرى في أي اتجاه كان التيار يجرفه ، ولكن بعض المساعي مما يمكن أن تبتكرها الحكمة والمحبة غير المحدودة بذلت لإقناعه بخطئه ، ولقد تبرهن أن نفوره كان بلا سبب ، والتزم لوسيفر أن يرى ما ينجم عن الإصرار على العصيان ، واقتنع بأنه كان مخطئا ، ورأى أن «الرَّبُّ بَارٌّ فِي كُلِّ طُرُقِهِ، وَرَحِيمٌ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ» (مزمور ١٤٥: ١٧) . وأن شرائع الله عادلة ، وينبغي له أن يعترف بأنها كذلك أمام كل السماء . فلو أنه فعل ذلك لأمكنه أن ينجي نفسه وكثيرين من الملائكة . لم يكن إلى ذلك الحين قد طرح عنه الولاء لله نهائيا ، ومع أنه كان قد ترك مركزه كالكروب المظلل فإنه لو كان راغبا في الرجوع إلى الله ، معترفا بحكمة الخالق ، واكتفى بأن يشغل المكان المعين له في تدبير الله العظيم لكان أعيد تثبيته في وظيفته . وحان الوقت للبث النهائي في الأمر ، فإما أن

يسلم تسليما كاملا للسلطان الإلهي أو يجاهر بالعصيان . وكاد يقرر الرجوع لـــولا أن كبرياءه صدمته ومنعته من ذلك . لقد كان تضحية هائلة لمن حصل على تلك الكرامـــة العظيمة أن يعترف بأنه كان مخطئا ، وبأن تخيلاته كانت كاذبة ، وأن يخضع للسلطان الذي حاول أن يبرهن عدم نزاهته وعدم عدالته .

إن الخالق الرحيم ، في إشفاقه العظيم على لوسيفر وتابعيه ، كان يعمل جـــاهدا للحيلولـــة دون تردِّيهم في هوة الهلاك التي أوشكوا على التردي فيها ، ولكنـــهم أســـاءوا تفســـير تلـــك الرحمة . فلقد أشار لوسيفر إلى إمهال الله وطول أناته كبرهان على سموه هو ودلالة علـــى أن ملك الكون سيذعن لشروطه ، كما أعلن لأولئك الملائكة أنهم إذا ثبتوا إلى جانبه فـــلا بـــد أن يحصلوا على مأربهم . فبكل إصرار دافع عن مسلكه وهكذا ألقى بنفسه في غمار تلك الحـــوب مع خالقه ، فكان أن لوسيفر «حامل النور» والمغمور بمجد الله والمـــلازم لعرشـــه أصبـــح ، بعصيانه ، شيطانا أو «خصما»– خصم الله والخلائق المقدسة ومهلك أولئـــك الذيـــن أنـــاطت السماء به أمر قيادتهم وحراستهم .

إذ رفض بكل ازدراء حجج الملائكة الأمناء وتوسلاتهم اتهمهم بأنهم عبيد مخدوعون ، كما أعلن أن الأفضلية التي للمسيح هي عمل من أعمال الظلم الواقع عليه هو وعلى كـــل الجنـــد السماويين ، وأعلن أنه لن يسمح فيما بعد بهذا التعدي على حقوقه وحقوقهم ، ولن يعترف بعـــد ذلك بتفوق المسيح وسموه . وعقد العزم على أن يطالب بالكرامة التي كان ينبغي أن تعطـــى له ، وأن يكون قائدا لكل من يرغبون في الانضواء تحت لوائه واعدا إياهم بحكم جديد أفضـــل يتمتع فيه الجميع بالحرية . وقد قبل عدد كبير من الملائكة أن يتخذوه قائدا لهم . وإذ انخـــدع بقبولهم هذا لكل إجراءاته كان يرجو أن يكسب كل الملائكة إلى جانبه ، وأن يكون هو معـــادلا لله نفسه ، وأن يطيعه كل جند السماء .

واصل الملائكة الأمناء حثه هو ومريديه على الخضـــوع لله ، وصـــوروا لـــهم النتيجـــة المحتومة إذا رفضوا . فذاك الذي خلقهم يستطيع أن يقهرهم ويفني قوتهم ويعـــاقب جرأتـــهم وتمردهم على مرأى من الجميع . إنه لم يوجد ملاك واحد أفلح في مقاومة شـــريعة الله التـــي هي مقدسة كذاته . وقد أنذروهم جميعا أن يصموا آذانهم عـــن الاســـتماع لحجـــج لوســـيفر

الخادعة ، وألحوا عليه وعليهم أن يمثلوا أمام الله بلا إبطاء ، معترفين بخطئهم إذ شكوا في حكمته وعدالة سلطانه .

حبَّذ كثيرون منهم العمل بهذه المشورة ، والتوبة عن هذا الجفاء ، والسعي في الظفر برضى الله وابنه ، إلا أن لوسيفر كان قد أعد لهم خدعة جديدة ، فلقد أعلن ذلك الثائر القوي أن الملائكة الذين انضووا تحت لوائه كانوا قد تورطوا وذهبوا شوطا بعيدا بحيث يصعب رجوعهم ، وأنه خبير بشريعة الله ، وأن الله لن يغفر لهم . كما أعلن أن الخاضعين لسلطان السماء سيجردون جميعهم من كرامتهم وينحطون عن مقامهم . أما عن نفسه فقد عقد العزم على ألا يعترف بسيادة المسيح فيما بعد ، وقال أن الطريق الوحيد الذي يجب أن يسير هو وأتباعه فيه هو المحافظة على حريتهم والحصول ، بالقوة ، على حقوقهم التي لم توهب لهم عن رضىً .

وفيما يختص بالشيطان نفسه فقد كان صحيحا أنه اشتط في عصيانه بحيث لم يعد يمكنه الرجوع ، أما بالنسبة إلى أولئك الذين أعمتهم أكاذيبه فلم يكن الأمر كذلك ، إذ قد فتحت أمامهم مشورة الملائكة الأمناء وتوسلاتهم بابا للرجاء ، فلو أنهم أصغوا إلى هذا الإنذار لأمكنهم الإفلات من شرك الشيطان ، ولكن كبرياءهم وحبهم لقائدهم ورغبتهم في الحرية الغير المشروطة ، كل ذلك تغلب عليهم ، فرفضوا ، رفضا باتا ، كل توسلات المحبة والرحمة الإلهية .

لقد سمح الله للشيطان أن ينفذ أعماله إلى أن أثمر روح الجفاء ثمرته وهى العصيان الفعلي ، فكان ضروريا أن تتقدم خططه وتنمو وتتضح حتى يرى الجميع طبيعتها واتجاهها . إن لوسيفر الكروب الممسوح كان قد رفع إلى مرتبة عالية ، وكان السماويون يكنون له أعمق الحب ، وكان له عليهم نفوذ عظيم . هذا ، وان حكم الله لم يشمل سكان السماء وحدهم ، بل شمل أيضاً كل سكان العوالم الأخرى التي خلقها . واستنتج لوسيفر أنه لو استطاع ملائكة السماء الاشتراك معه في العصيان فسيكون قادرا على تأليب سكان العوالم الأخرى كلها ضد الله . لقد أخبرهم عن وجهة نظره في المشكلة بكل دهاء ، مستخدما السفسطة والخديعة لضمان تحقيق أغراضه ، وكانت له قوة هائلة على تضليل أتباعه . وإذ انتشح برداء الكذب حصل على ميزة . وكان في كل أعماله يتوخى السرية والغموض بحيث أمسى من العسير عليه أن

يكشف للملائكة عن حقيقة عمله . وإلى أن اكتمل ذلك العمل لم يكن يُرى شره وخطورتـــه ، ولم يكن يُرى جفاؤه على أنه عصيان . وحتى الملائكة الأمناء لم يكونـــوا يدركـــون صفـــات لوسيفر إدراكا كاملا ، ولا رأوا إلى أي النتائج كان سيؤدي عمله .

في البداءة كان لوسيفر قد أعد تجاربه بحيث بدا كأنه بريء لم يرتكب إثما ، واتهم الملائكة الذين أخفق في استمالتهم إلى جانبه ، بعدم المبالاة بمصالح الخلائق السماوية ، واتهم الملائكـة الأمناء بارتكاب العمل نفسه الذي كان هو يباشره ، وكانت سياسته أن يبلبل العقـــول بحججـــه الماكرة عن مقاصد الله وأحاط بالغموض كل شيء بسيط ، وبانحرافـــه المـــاكر عـــن جـــادة الصواب ألقى ظلال الشك على أبسط أقوال الرب ، ثم أن مركزه الرفيع وصلته الوثيقة بحكـــم الله أكسبا تمثيلاته قوة أعظم .

استخدم الله الوسائل التي تتفق والحق والبر دون سواها ، أما الشـــيطان فكـــان يســـتطيع استخدام ما لم يكن الله يستطيع استخدامه– كالتملق والخداع . لقد حاول أن يزيـــف كلمـــة الله وشوه قصده في حكمه ، مدعيا أن الله لم يكن عادلاً في فرض شريعته على الملائكـــة وفـــي فرض الخضوع والطاعة له على خلائقه ، وأنه كان في ذلك يطلب تعظيم نفسه ، لذلك كـــان من اللازم إقامة الدليل أمام كل سكان السماء وكل سكان العوالم الأخرى على كون حكـــم الله حكما عادلا ، وشريعته كاملة . وادعى الشيطان أنه هو نفسه يعمل على ترقية مصالح الكـــون وما يؤول إلى خيره ، ولكن لا بد أن يدرك الجميع صفات هذا المغتصب على حقيقتـــها ، ولا بد من أن تعطى له مهـــلة ليظهر على حقيقته بأعماله الشريرة .

إن ذلك النزاع الذي حدث في السماء بسبب المسلك الذي سلكه الشيطان ، أنحى الشـــيطان باللائمة فيه على حكم الله ، كما أعلن أن كل الشر ناشئ عن سياسة الله ، وادعى أن غرضـــه هو إدخال التحسين على شرائع الرب ، ولذلك سمح له الله أن يبين طبيعة ادعاءاته ليري تنفيـذ تغييراته المقترحة في الشريعة الإلهية ، ولا بد أن عمله يدينه . لقد ادعى الشيطان أولا أنه لـــم يكن متمردا . ولا بد أن يرى الكون كله ذلك المحتال على حقيقته وقد سقط عنه القناع .

وحتى بعد ما طرح الشيطان من السماء فإن الحكمة الإلهية غـــير المحـــدودة لـــم تســـمح بهلاكه . وحيث أن خدمة المحبة وحدها هي التي يمكن أن يقبلها الله فإن ولاء خلائقه له ينبغي أن يبنى على الاقتناع بعدله وإحسانه . وإن ساكني السماء والكون ، إذ لـــم يكونـــوا مـــهيئين

لإدراك طبيعة الخطية أو نتائجها ، لم يكن يمكنهم أن يروا عدالة الله في إهلاك الشيطان ، فلو أبيد من الوجود فجأة لكان بعض الخلائق يعبدون الله مدفوعين بدافع الرهبة والخوف لا بدافع المحبة ، وما كان ممكنا ملاشاة تأثير ذلك المخادع تماماً ، ولا كان من الممكن استئصال شأفة روح التمرد . فلأجل خير المسكونة كلها مدى أجيال التاريخ المتعاقبة لا بد له أن يترك ليكشف تماماً عن مقاصده حتى تظهر اتهاماته التي يوجهها إلى حكم الله على حقيقتها أمام عيون كل خلائقه ، ولكي يرتفع عدل الله ورحمته ، ولأجل ثبات شريعته فوق كل الشبهات والشكوك .

صار تمرد الشيطان درسا وعبرة للكون مدى الدهور اللاحقة- شهادة دائمة على طبيعة الخطية ونتائجها المرعبة . وإن توطيد حكم الشيطان وتأثيره في الناس والملائكة يرينا ثمار طرحنا جانبا حكم الله عنا ، وذلك يشهد بأن وجود حكم الله مرتبط بخير الخلائق التي خلقها . وهكذا نرى أن تاريخ تجربة ذلك العصيان الرهيب كان الحصن الدائم لحماية كل الخلائق المقدسة ، حتى لا ينخدعوا فيما يختص بطبيعة التحدي ، ولحفظهم من ارتكاب الخطية ومكابدة قصاصها .

إن الذي يحكم في السموات هو الذي يرى النهاية من البداية- الذي كل أسرار الماضي والمستقبل مكشوفة أمامه ، والذي يرى ، خلف الويل والظلام والخراب الذي أحدثته الخطية ، إتمام مقاصده التي هي مقاصد المحبة والبركة . ومع أن «السَّحَابُ وَالضَّبَابُ حَوْلَهُ» فإن «الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّهِ» (مزمور ٩٧: ٢) . وهذا ما سيفهمه يوما ما سكان هذا الكون الأمناء منهم وغير الأمناء . «هُوَ ... الْكَامِلُ صَنِيعُهُ . إِنَّ جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدْلٌ . إِلهُ أَمَانَةٍ لاَ جَوْرَ فِيهِ . صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ» (تثنية ٣٢: ٤) .

الفصل الثاني

الخلق

«بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا. لأَنَّهُ قَالَ فَكَانَ. هُوَ أَمَرَ فَصَارَ» (مزمور ٣٣: ٦،٩) ، «الْمُؤَسِّسُ الأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلاَ تَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ» (مزمور ١٠٤: ٥) .

إن الأرض بعدما خرجت من بين يدي صانعها كانت آية في الجمال ، فلقد ازدان سطحها بأشكال متعددة من الجبال والتلال والسهول ، وكان فيها أنهار عظيمة وبحيرات جميلة . ولكن الجبال والتلال لم تكن وعرة ولا خشنة عابسة ، ولا تكاثرت فيها المنحدرات السحيقة أو الفجوات المخيفة كما هي الحال اليوم ، فتلك الحافات الحادة الوعرة ، حافات ذلك الإطار الصخري كانت مختفية تحت تربة الأرض المخصبة التي أخرجت خضرة يانعة . ولم تكن هنالك مستنقعات كريهة ولا صحاري قفراء ، بل كانت تبتسم لعيون الناظرين الشجيرات اليانعة والأزهار الجميلة في كل مكان . والمرتفعات كانت مكللة بالأشجار العظيمة التي هي أعظم في ارتفاعها من كل ما نراه اليوم . والهواء الذي لم يكن مشوبا بالأبخرة العفنة كان صافيا ومنعشا وعليلا ، وكان المنظر كله يفوق في جماله كل ما يمكن أن تخرجه يد أعظم فنان في أفخم القصور . ولقد سر الجند السماويون من هذه المناظر ، وفرحوا بأعمال الله العجيبة .

وبعد ما ظهرت الأرض في الوجود بما امتلأ به من حيوان ونبات ظهر على مسرح العمل الإنسان الذي هو تاج كل أعمال الخالق والذي لأجله أعدت الأرض الجميلة . وأعطي له السلطان على كل ما وقع عليه نظره ، «وَقَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى ... كُلِّ الأَرْضِ ... فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ ... ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ» (تكوين ١: ٢٦،٢٧) هنا أصل الجنس البشري موضحا بكل جلاء . هنا شهادة الله مدونة بكل وضوح بحيث لا مجال للاستنتاجات الخاطئة . لقد خلق الله الإنسان

على صورته ، فلا غموض هنا ، ولا أساس لافتراض كون الإنسان قد خضع للتطور في أطوار نمو بطيء ، من الطور الحيواني أو النباتي المنحط . مثل هذا التعليم يحقر العمل العظيم الذي عمله الخالق ويحطه إلى مستوى فهم الإنسان الترابي الضيق . إن الناس يصرون على تجريد الله من التسلط على الكون إلى حد أنهم يحطون من قدر الإنسان ويختلسون منه نبل أصله . إن الذي زيّن السماء بالكواكب ، وجمّل الأرض بالأزهار والأشجار ، والذي ملأ الأرض والسموات بعجائب قدرته ، حين أراد أن يتوج عمله المجيد هذا ويضع واحدا في الوسط ليقف حاكما على الأرض الجميلة لم يقصر في أن يخلق كائنا جديرا باليد التي وهبته الحياة . إن سلسلة نسب جنسنا كما يذكرها الوحي يتأثرها من أصلها ، لا إلى سلسلة من الجراثيم المتطورة والحيوانات اللافقرية والحيوانات ذوات الأربع ، بل إلى الخالق العظيم . فمع أن آدم جبل من التراب فقد كان «ابْنِ اللهِ» (لوقا ٣: ٣٨) .

أقام الله آدم نائبا عنه في التسلط على الخلائق الدنيا . إنها لا تستطيع أن تدرك سلطان الله ولا أن تعترف به ، ومع ذلك فقد كان في مقدورها أن تحب الإنسان وتخدمه . يقول المرنم : «تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ : بَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضًا ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ ، وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ» (مزمور ٨: ٦-٨) .

وكان للإنسان أن يحمل صورة الله في الشبه الظاهر وفي الصفات أيضاً . إن المسيح هو وحده رسم جوهر الآب (عبرانيين١: ٣) . ولكن الإنسان قد تكّون على صورة الله ، وكانت طبيعته في وفاق وإرادة الله ، وكان عقله قادرا على إدراك الأمور الروحية ، وكانت عواطفه طاهرة ، وأشواقه وانفعالاته النفسية تحت سيطرة العقل ، وكان مقدسا وسعيدا لكونه يحمل صورة الله ، وكان يقدم لله طاعة كاملة .

بعدما خرج الإنسان من بين يدي جابله كان فارع الطول متناسق الأعضاء ، وكان وردي اللون دليلا على الصحة ، ومن عينيه يشع نور الحياة والفرح . وكان آدم أطول قامة من كل من يعيشون على الأرض اليوم . أما حواء فكانت أقصر منه قليلا ، ومع ذلك فقد كانت نبيلة التكوين بارعة الجمال ولم يكن ذانك الزوجان الباران يلبسان ثيابا مصطنعة ، بل كانا متسربلين بثياب النور والمجد كالتي يلبسها الملائكة ، وإن رداء

النور هذا قد سترهما ما ظلا عائشين في طاعة الله .

وبعد ما خُلق أدم جيء إليه بكل المخلوقات الحية ليدعوها بأسمائها ، ورأى آدم أن لكل حيوان إلفا من جنسه ، «وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ» (تكوين ٢: ٢٠) . وبين كل المخلوقات التي خلقها الله على الأرض لم يكن ما يعادل الإنسان ، «قَالَ الرَّبُّ الإِلهُ : لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِيناً نَظِيرَهُ» (تكوين ٢: ١٨) . إن الإنسان لم يخلق ليعيش منفردا مستوحشا ، بل ليكون كائنا اجتماعيا ، إذ بدون رفيق يؤنسه لم تكن كل المناظر المبهجة والأعمال المفرحة في جنة عدن كفيلة بإدخال السعادة الكاملة إلى نفسه ، بل حتى مصاحبته للملائكة لم تكن لتشبع شوقه إلى العطف والرفق والمؤانسة . لم يكن يجد شخصا آخر نظيره يبادله حبا بحب .

إن الله نفسه قد أعطى آدم عشيرا ، إذ دبر له «مُعِيناً نَظِيرَهُ»- معينا يتحدث معه ويأنس إليه ، أهلا لأن يكون رفيقا له ، يتحد معه في الحب والعطف . ولقد خلقت حواء من ضلع أخذها الله من جنب آدم ، دليلا على أن حواء لم تكن لتسيطر عليه كما لو كانت هي الرأس ، ولا أن يطأها بقدميه كما لو كانت أدنى منه مقاما ، بل لتقف معه جنبا إلى جنب كصنو له ، ليحبها ويحميها . فإذ كانت بضعة من آدم وعظما من عظامه ولحما من لحمه كانت شخصه الثاني ، برهانا على الاتحاد المتين والملازمة الحبية التي ينبغي أن توجد في هذه العلاقة ، «فَإِنَّهُ لَمْ يُبْغِضْ أَحَدٌ جَسَدَهُ قَطُّ، بَلْ يَقُوتُهُ وَيُرَبِّيهِ» (أفسس ٥: ٢٩) «لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا» (تكوين ٢: ٢٤) .

لقد احتفل الله بأول حفلة زواج ، فأول من ابتدع سنة الزواج هو خالق الكون نفسه ، «لِيَكُنِ الزِّوَاجُ مُكَرَّمًا» (عبرانين ١٣: ٤) . لقد كان الزواج هبة من أولى الهبات التي منحها الله للإنسان ، وإحدى السُّنَّتين اللتين خرج بهما آدم من الجنة بعد السقوط . فحين تراعى المبادئ الإلهية وتطاع في هذه العلاقة يكون الزواج بركة ، إذ يكون سورا وسياجا يحفظ طهارة الجنس البشري وسعادته ، ويسد حاجات الإنسان الاجتماعية ، ويسمو بطبيعته الجسدية والخلقية والأدبية .

«وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ» (تكوين ٢: ٨) . إن كل ما عمله الله كان كمال الجمال . ولم يكن هنالك شيء ناقصا مما يعمل على إسعاد ذينك الزوجين المقدسين . ومع ذلك فقد أعطاهما الله دليلا على محبته حين أعد لهما جنة لتكون مأواهما .

وكان في الجنة أشجار من كل نوع ، وكان كثير منها محملا بالأثمار الشهية العطرة الرائحة . كانت هنالك أشجار كرم كثيرة مما ينمو منتصبا ، وكان منظرها جميلا جدا بأغصانها المنحنية تحت ثقل الفاكهة المغرية ذات الألوان الجميلة المختلفة . وكان عمل آدم وحواء تشذيب أغصان الكرم وإعدادها لعمل مخادع لهما ، وبذلك أعدا لنفسيهما مسكنا من الأشجار الحية ، مغطى بالثمار وأوراق النبات ، وكانت هناك أزهار عطرة وفيرة من كل الألوان بوفرة ، وفي وسط الجنة كانت شجرة الحياة تفوق في المجد كل الأشجار الأخرى ، وكان ثمرها شبيها بالتفاح الذهبي والفضي ، وكان لثمرها قوة على تخليد الحياة .

لقد أكملت الخليقة الآن ، «فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا» «وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا» (تكوين ٢: ١؛ ١: ٣١) وازدهت جنة عدن على الأرض وتفتحت أزهارها ، وكان آدم وحواء كامل الحرية للأكل من شجرة الحياة ، ولم تكن هنالك وصمة من وصمات الخطية ولا أثر لظل الموت ليفسد تلك الخليقة الجميلة ، بل «تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعًا، وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ» (أيوب ٣٨: ٧) .

إن يهوه العظيم قد وضع أساسات الأرض ، وكسا العالم كله ثوبا من الجمال ، وملأه بكل ما هو نافع للإنسان ، وخلق كل عجائب الأرض والبحر . لقد أكمل عمل الخلق العظيم في ستة أيام «فَاسْتَرَاحَ (الله) فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِه الَّذِي عَمِلَ . وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا» . ونظر إلى عمل يديه بعين الرضى ، فقد كان كل شيء كاملا جديرا بمبدعه الإلهي ، واستراح ، لا كمن قد أعيا وتعب بل كمن أرضته ثمار حكمته وصلاحه ومظاهر مجده .

بعدما استراح الله في اليوم السابع قدسه أي أفرزه يومَ راحةٍ للإنسان ، وكان على الإنسان أن يستريح في هذا اليوم المقدس اقتداءً بالخالق ، حتى أنه إذ ينظر إلى السموات والأرض يتأمل في عمل الخلق العظيم . وحين يرى أدلة حكمة الله وصلاحه يمتلئ قلبه حبا وتقديرا لخالقه .

وفي عدن أقام الله تذكار عمله خالقا بأن بارك اليوم السابع ، وائتمن الله آدم على السبت باعتباره أباً للأسرة البشرية ونائبا عنها كلها ، وكان تقديسه اعترافا بالشكر للرب من جانب كل ساكني الأرض ، وبأن الله هو خالقهم وملكهم الشرعي ، وبأنهم صنعة يديه ورعايا

سلطانه . وهكذا كانت هذه الشريعة بجملتها تذكارية سلمت للجنس البشري كله ، وليس فيها شيء ظلي ، ولا غرضها مقصور على شعب معيَّن .

ورأى الله جوهريا أن يجعل للإنسان سبتا ، حتى وهو في الفردوس ، فلقد كان بحاجة إلى أن يلقي جانبا مصالحه الخاصة ومطالبه لمدة يوم واحد من سبعة أيام ، حتى يكون لديه وقت كاف للتفكر في أعمال الله والتأمل في قوته وصلاحه . كان بحاجة إلى سبت ليذكره بالله ويوقظ في قلبه روح الشكران ، لأن كل ما كان يتمتع به ويملكه جاءته به يد الخالق السخية الكريمة .

إن الله يقصد من السبت توجيه عقول بني الإنسان للتأمل في خليقته . فالطبيعة تتحدث إلى حواسهم معلنة أن هنالك إلها حيا ، هو الخالق والحاكم المطلق على الجميع «اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ. يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذِيعُ كَلاَمًا، وَلَيْلٌ إِلَى لَيْلٍ يُبْدِي عِلْمًا» (مزمور ١٩: ١،٢) . والجمال الذي يكسو الأرض هو علامة من علائم محبة الله . ويمكننا أن نرى هذه المحبة في الآكام الدهرية وفي الأشجار العالية ، وفي البراعم المتفتحة والأزهار الجميلة . كل هذه تحدثنا عن الله . إن السبت الذي يرشدنا إلى ذاك الذي صنع كل هذه الأشياء يحض الناس على أن يفتحوا سفر الطبيعة العظيم ليروا فيه حكمة الخالق وقوته ومحبته .

إن أبوينا الأولين مع كونهما قد خلقا في حالة الطهارة والقداسة إلا أنهما لم يجردا من إمكانية الخطأ . لقد خلقهما الله ولهما إرادة حرة ، قادرين على تقدير حكمة الخالق وإحسانه وعدالة مطالبيه ، ولهما ملء الحرية في أن يطيعاه أو يمتنعا عن الطاعة . كان لهما أن يتمتعا بالشركة مع الله ومع الملائكة القديسين . ولكن قبلما يعتبران آمنين إلى الأبد لا بد من امتحان ولائهما . فالإنسان ، عند بدء وجوده ، أعطي القدرة على قمع شهواته ، شهواته القاتلة التي كانت علة وأساس سقوط الشيطان ، فإن شجرة المعرفة التي كانت قريبة من شجرة الحياة في وسط الجنة كانت لامتحان طاعة أبوينا الأولين وإيمانهما ومحبتهما ، فبينما كان مسموحا لهما بالأكل من كل شجرة أخرى ، فقد حرّم عليهما الأكل من هذه الشجرة تحت طائلة الموت . وكان لابد لهما من أن يتعرضا لتجارب الشيطان ، ولكن إذا ثبتا أمام هذه التجربة فإنهما أخيرا سينجوان إلى الأبد من سلطانه ويتمتعان برضى الله الدائم .

48,49

وضع الله الإنسان تحت الناموس كشرط لازم لكيانه . لقد كان خاضعا لحكم الله ، إذ ليس هنالك حكم بدون ناموس ، وكان بإمكان الله أن يخلق الإنسان في حالة العجز عن عصيان شريعته ، وكان بإمكانه أن يكف يد آدم عن أن تمس الثمرة المحرمة ، ولكن في هذه الحالة ما كان الإنسان يعتبر كائنا أدبيا حر الإرادة بل مجرد آلة متحركة ، فبدون حرية الاختيار لا تعتبر طاعته طوعية بل قسرية ، وليس لأخلاقه مجال لتنمو . إن هذا السبيل يتعارض وتدبير الله في معاملته لسكان العوالم الأخرى ، وما كان هذا خليقا بالإنسان ككائن عاقل ، بل كان قمينا بأن يؤيد اتهام الشيطان لله بأنه مستبد ومتعسف في حكمه .

صنع الله الإنسان مستقيما ، وأعطاه مسحة من الخلق النبيل الكريم دون أي انحراف إلى الشر ، كما منحه قوى ذهنية سامية ، وقدم له أقوى الدوافع الممكنة لأن يكون مخلصا في ولائه . كان شرط حصوله على السعادة الأبدية هو الطاعة الكاملة المستمرة ، وعلى هذا الشرط كان يسمح له بالاقتراب من شجرة الحياة .

لقد رُسم أن يكون بيت أبوينا الأولين نموذجا للبيوت الأخرى حين يخرج أولادهما لامتلاك الأرض . وذلك البيت الذي جعله الله نفسه بيده لم يكن قصرا فخما . إن الناس في كبريائهم يسرون بالسكن في العمارات الفخمة الغالية القيمة ، ويفخرون معتزين بأعمال أيديهم ، ولكن الله وضع آدم في جنة ، وكان هذا مسكنه ، فكان يعيش تحت القبة الزرقاء ، ويفترش الأرض التي ازدانت بالأزهار الجميلة والأعشاب اليانعة الخضراء ، وكانت مظلته أغصان الأشجار الجميلة الغبياء . وكانت تتدلى من جدران ذلك المسكن أجمل الزينات– صنعة يدي الفنان الماهر الحكيم . وفي كل ما كان يحيط بذينك الزوجين القديسين درس لكل عصور التاريخ . إن تلك السعادة الحقيقية لا نجدها في الانغماس في الكبرياء والترف ، بل في الشركة مع الله عن طريق أعماله التي خلقها ، فلو أن الناس لا يلتفتون كثيرا إلى الأمور المصطنعة الكاذبة بل عكفوا على البساطة لكانوا يزدادون قربا إلى تحقيق قصد الله في خلقهم . إن الكبرياء والطموح لا يمكن إشباعهما أبداً . ومن الذين هم حكماء حقا سيجدون السرور الجوهري العملي في منابع الغبطة التي قد جعلها الله في متناول أيدي الجميع .

وقد عهد الله إلى ساكني جنة عدن أمر العناية بالجنة ليعملاها ويحفظاها ، (تكوين ٢: ١٥) ولم يكن ذلك بالعمل المضني أو المتعب ، بل كان مفرحا ومنشطا . لقد عين الله العمل بركة

للإنسان ، إذ به يشغل تفكيره ويقوي جسمه وينمي قـــواه العاقلـــة . ففـــي النشـــاط الذهنـــي والجسماني وجد آدم عاملا من أعظم عوامل البهجة في وجوده المقدس . فلما طرد من هـــذا البيت الجميل نتيجة لعصيانه واضطر إلى أن يكافح مع الأرض القاسية العنيدة ليحصل علـــى قوته اليومي ، فإن هذا العمل وهذا الكد ، مع وجود بون شاسع بينه وبين عمله المفـــرح فـــي الجنة ، كان حرزا يقيه من التجارب ، ومصدرا للسعادة . إن الذين يعتبرون العمـــل ســبة أو لعنة ، مع ما يصاحبه من الإعياء والألم ، يرتكبون خطأ جسيما . كثيرا ما يلقي الأغنياء علـى طبقات العمال نظرات الترفع والازدراء ، ولكن هذا يتنافي ، كلية ، مع قصد الله فـــي خلـــق الإنسان . ما هي أملاك أغنى الأغنياء لو قورنت بالميراث العظيم الـــذي أعطـــى لآدم ســيد الأرض ؟ ومع ذلك فإن آدم ما كان يركن إلى البطالة والكسل . إن خالقنا الذي يعرف جيدا ما يؤول إلى سعادتنا هو قد عيّن لآدم عمله . وإن فرح الحياة الحقيقي يجده العاملون المجـــدون من الرجال والنساء دون سواهم . والملائكة هم عاملون نشيطون مجتهدون ، إذ هم خـــدام الله الذين أقامهم لخدمة بني الإنسان . ولا مكان في مسكونة الخالق لمن يركنـــون إلـــى البـــلادة والخمول والجمود .

وكان لآدم وشريكته أن يتسلطا على الأرض ما بقيا أمينين لله ، فلقد أعطيت لهما ســـلطة غير محدودة على كل الخلائق الحية . فقد كان الأسد والحمل يلـــهوان ويلعبـــان فـــي ســـلام حولهما ، أو يضطجعان وينامان معا تحت أقدامهما ، وكـــانت الطيـــور المرحـــة ترفـــرف بأجنحتها حولهما بلا خوف . وإذ كانت تغرد بأغاني الحمد لخالقها اشترك معها آدم وحواء في ترديد الشكر للآب والابن .

إن ذينك الزوجين القديسين لم يكونا فقط طفلين يتمتمان برعاية الله أبيهما ، بل كانا أيضـــاً تلميذين يتلقيان التعليم من الخالق الكلي الحكمة . كان الملائكة يزورونهما ، كما ســـمح بـــأن تكون لهما شركة مع جابلهما دون أن يكون هنالك حجاب يفصله عنهما . كانا ممتلئين نشـــاطا بفضل أكلهما من شجرة الحياة ، وكانت قواهما العقلية أقل قليلا مما للملائكـــة . وإن أســـرار الكون المنظور و«مُعْجِزَاتِ الْكَامِلِ الْمَعَارِفِ» (أيوب ٣٧: ١٦) فتحت أمامهما نبعا لا ينضـــب من المعرفة والسرور . ثم أن قوانين الطبيعة وأعمالها التي ظلت موضع دراسة البشـــر مـــدة ستة آلاف سنة انفتحت . وانكشفت أمام ذهنيهما بواسطة ذاك الذي هو مصور الكل وحـــامل

الكل . كانا يتحدثان مع الأزهار والأشجار ويستخلصان منها أسرار حياتها . وقـــد كـــان آدم عارفا بكل الخلائق الحية من لوياثان العظيم الذي يلعب في الماء إلى الهوام الصغـــيرة التـــي تطير فوق وجه الأرض ، وقد دعا كل تلك الخلائق بأسمائها ، كما كان خيرا بطبيعة كل منـــها وعاداتها . إن مجد الله في السموات ، والعوالم التي لا حصر لـــها فـــي دوراتـــها المنتظمـــة و«مُوازَنَةَ السَّحَابِ» (أيوب ٣٧: ١٦) وأسرار النور والصوت والنهار والليل– كل هذه كـــانت موضوع دراسة أبوينا الأولين . فعلى كل ورقة من أوراق أشجار الغابات وكل حجـــر فـــي الجبال ، وفي كل كوكب ساطع وفي الأرض والهواء والجلد ، كان اســـم الله مكتوبـــا . وإن النظام والانسجام العجيب في الخليقة حدثاهما عن حكمة الله وقوته اللتين لا حد لـــهما . كانـــا على الدوام يكتشفان بعض الجوانب التي ملأت قلبيهما بحب أعمق لله ، وكانا يرغبـــان فـــي التعبير عن شكرهما لجلاله .

لقد ازداد استعدادهما للمعرفة والتمتع والحب ما بقيا مخلصين لشريعة الله .. كانا يرغبـــان دائما في اكتشاف كنوز جديدة من المعرفة ، ويكتشفان ينابيع جديدة للسعادة ، ويحصلان علـــى إدراك جديد لمحبة الله التي لا تقاس ولا تنفد .

الفصل الثالث

التجربة والسقوط

إن الشيطان إذ لم يجد لنفسه مجالا لإثارة التمرد في السماء وجدت عداوته لله مجالا للتآمر على إهلاك الجنس البشري ، فلقد رأى في السعادة والسلام اللذين كان ينعم بهما ذانك الزوجان القديسان لمحة من الغبطة التي خسرها إلى الأبد ، فبدافع الحسد عوّل على تحريضهما على العصيان ، وحاول أن يجلب عليهما جرم الخطية وقصاصها . إنه سيحول محبتهما إلى شك ، وأغاني الحمد إلى الطعن في حق جابلهما ، وبهذه الطريقة لا يوقع هذين المخلوقين البريئين في نفس شقائه الذي يعانيه هو فحسب ، بل يلقي على الله الهوان والعار ، ويسبب حزنا لساكني السماء .

ولم يُترك أبوانا الأولان بدون إنذار بالخطر الذي يهددهما ، فلقد أوضحت لهما رسل السماء تاريخ سقوط الشيطان ومؤامراته التي يحيكها لإسقاطهما ، كما أوضحوا لهما بكل إسهاب طبيعة حكم الله الذي كان سلطان الشر يحاول أن يقلبه . إن سبب سقوط الشيطان وجنوده هو عصيانهم لوصية الله العادلة ، فكم إذاً هو ضروري أن يكرم آدم وحواء الشريعة ، إذ بذلك وحده يمكن أن يستتب النظام والمساواة .

إن شريعة الله مقدسة كالله نفسه ، هي إعلان إرادته ، وصورة طبق الأصل من صفاته ، وهي التعبير عن محبة الله وحكمته . إن الوفاق في الخليقة يتوقف على امتثال كل الخلائق وكل الكائنات العاقلة وغير العاقلة لشريعة الخالق . لقد رسم الله القوانين ليس فقط لتدبير شؤون الخلائق الحية ، بل أيضا لكل ما يجري في الطبيعة من أحداث ، فكل شيء يخضع لقوانين ثابتة لا يمكن تعديها ، ولكن في حين أن كل شيء في الطبيعة تسيطر عليه قوانين طبيعية ، فالإنسان وحده ، دون كل سكان الأرض ، مسؤول أمام الناموس الأدبي . فللإنسان الذي هو تاج الخلائق كلها أعطى الله قوة ليفهم مطالبيه ويدرك العدل والإحسان المتضمنين في شريعته وحقوقها المقدسة عليه . فالمطلوب من الإنسان هو الطاعة التي لا أثر فيها للانحراف .

كان أبوانا يسكنان جنة عدن في حالة امتحان كالملائكة . فيمكن أن تدوم لهما السعادة على شرط الولاء والطاعة لشريعة الخالق ، فإن أطاعا نعما بالحياة ، أما إذا عصيا فمصيرهما الهلاك . لقد أغدق الله عليهما من بركاته الغنية ، فإذا احتقرا إرادته فذاك الذي لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا لا يمكن أن يبقي عليهما . فالتحدي يسقط حقهما في هباته ويجلب عليهما الشقاء والهلاك .

لقد حذّرهما الملائكة بأن يسهرا على نفسيهما ضد مكايد إبليس ، لأنه لا يكل من محاولة إيقاعهما في أشراكه . لم يكن الشرير بمستطيع أن يمسهما ما بقيا مطيعين لله ، ولو دعت الحاجة لكان كل ملائكة السماء يخفُّون إلى نجدتهما . فلو أنهما بكل ثبات صدّا أولى محاولاته لكانا يصبحان في أمان كرسل السماء أنفسهم . أما إذا خضعا للتجربة مرة واحدة فلا بد من أن تفسد طبيعتهما بحيث لن تعود لهما قوة أو ميل في نفسيهما لمقاومة الشيطان .

وكانت شجرة المعرفة قد جعلت امتحانا لطاعتهما ومحبتهما لله . فرأى الرب مناسبا أن ينهاهما عن أمر واحد فيما يختص باستعمال كل ما في الجنة . ولكن إذا عصيا إرادته في هذا الأمر الواحد فلا بد أن يوجبا على نفسيهما جرم العصيان . وما كان على الشيطان أن يلاحقهما بتجاربه ، بل كان يمكنه الوصول إليهما عند الشجرة المنهي عنها ولو أنهما حاولا فحص طبيعة تلك الشجرة فلا بد أن يتعرضا لمكايده . وقد أُنذِرا بأن يحتاطا ويتحفظا لنفسيهما ، ويلتفتا إلى ذلك الإنذار الذي أرسل الله به إليهما ، ويحرصا على العمل به .

أما الشيطان فلكي يتمم غرضه دون أن يلحظه أحد وقع اختياره على الحية لتكون وسيلته ، وهذا تنكُّر يتفق مع مقاصده الخادعة ، وكانت الحية حينئذ من أحكم وأجمل الخلائق التي على الأرض . كانت ذات أجنحة ، وإذ كانت تطير في الهواء كان يُرى لها منظر يتألق بالنور والضياء في مثل لون الذهب المصفي . وإذ استقرت على أغصان الشجرة المنهي عنها والمحملة بالثمار وهي تمتع نفسها بالفاكهة الشهية ، كان منظرها يسترعي التفات النفس إليها ويشيع فيه البهجة . وهكذا ، ففي جنة السلام كان يربض المهلك متأهبا للوثوب على فريسته .

كان الملائكة قد حذَّروا حواء من الابتعاد عن زوجها وهما يقومان بعملهما اليومي في

الجنة ، إذ في قربها منه تكون في أمان أكثر مما لو كانت في مكان منفرد ، ولكن بينما هي منهمكة في عملها المسر ابتعدت عن رجلها دون أن تشعر ، فلما عرفت أنها وحيدة داخَلَها الشعور بالخطر ، ولكنها طرحت عنها مخاوفها قائلة لنفسها إن عندها من الحكمة والقوة ما يساعدها على اكتشاف الشر والثبات في وجهه ، وإذ لم تعد تكترث لإنذارات الملائكة وجدت نفسها تشخص إلى الشجرة المحرمة بمزيج من الإعجاب وحب الاستطلاع . كان الثمر جميلا جدا ، فجعلت حواء تسائل نفسها عن السبب الذي لأجله نهاهما الخالق عن الأكل منها ، وكانت هذه هي فرصة المجرب المرتقبة ، فكأنما كان يعرف أفكار قلبها ، ولذلك خاطبها قائلاً : «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» (انظر تكوين ٣) بهتت حواء وفزعت حين سمعت كلاما هو صدى أفكارها ، ولكن الحية ظلّت تتحدث بصوتها الموسيقي ، وبكل دهاء جعلت تطري جمال حواء . بالطبع لم يكن هذا الكلام مما يكدّرها ، وبدلا من أن تلوذ بالفرار من ذلك المكان جعلت تتلكأ وهي مندهشة لسماعها الحية تتكلم . لو أن الذي يحدثها كان شخصا كالملائكة لتملكها الخوف ، ولكنها لم تكن تظن أن تلك الحية الساحرة هي الوسيط بينها وبين العدو الساقط .

وجوابا على سؤال المجرب المضلل أجابت قائلة : «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ»» .

وقد أعلن الشيطان قائلاً : إنهما إذا أكلا من هذه الشجرة يصبحان في حياة أفضل ووجود أسمى ويصلان إلى أفق من المعرفة أوسع مما لهما الآن . ثم قالت الحية إنها نفسها قد أكلت من هذه الثمرة المنهي عنها فأعطيت لها القوة على الكلام . ثم أوعزت إلى المرأة بأن الله ، في حسده وغيرته ، قصد بتحريمها عليهما أن يحول بينهما وبين التسامي ، حتى لا يكونا معادلين لله ، وأنه بسبب خاصيّاتها العجيبة ، إذ أنها تمنح الحكمة والقوة ، حرّم عليهما الأكل منها بل حتى مجرد لمسها . وقد أوعز المجرب إلى المرأة بأن القصد من هذا الإنذار الإلهي لا أن يعملا به بل هو لمجرد التهويل عليهما . وكيف يمكن أن يموتا– ألم يأكلا من شجرة الحياة ؟ إن الله أراد بهذه الوصية أن يحول بينهما وبين الوصول إلى نمو أنبل والحصول على سعادة أكمل .

هذا هو عين ما يفعله الشيطان منذ أيام آدم إلى يومنا هذا ، وقد أحرز فيه نجاحا عظيما . إنه يجرب الناس ليشكوا في محبة الله وفي حكمته ، وهو على الدوام يحاول أن يثير في النفس روح الفضول الوقح والرغبة الفضولية المتبرمة لتنفذ إلى أسرار حكمة الله وقوته . إن جماهير من الناس ، في محاولتهم اكتشاف ما قد سُرَّ الله أن يبقيه في طي الخفاء يغفلون الحقائق التي قد أعلنها والتي هي جوهرية للخلاص . والشيطان يجرب الناس حتى يسيروا في طريق العصيان بإقناعه إياهم بأنهم بذلك يدخلون في نطاق المعرفة العجيبة . ولكن هذا كله خداع . وإذ يزهون ويتفاخرون بأفكارهم عن التدرج والسمو فإنهم إذ يدوسون بأقدامهم مطاليب الله يسيرون في الطريق المؤدي إلى الانحطاط والموت .

صوَّر الشيطان لذينك الزوجين القديسين أنهما إذا تعديا شريعة الله فسيكونان من الرابحين . ألا نسمع في هذه الأيام مثل هذه الأفكار ؟ كثيرون يتحدثون عن ضيق تفكير من يطيعون وصايا الله ، بينما يدعون هم لأنفسهم أن عندهم أفكارا سامية واسعة الأفق ويتمتعون بحرية أعظم . أليس هذا إلا صدى لذلك الصوت الذي سُمع في عدن القائل : في ذلك اليوم ، «يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ» – أي يوم تتعديان مطاليب الله «تَكُونَانِ كَاللهِ» ؟ ادعى الشيطان أنه بالأكل من الشجرة المحرمة قد حصل على خير جزيل ، ولكنه لم يشأ أن يكشف عن حقيقة كون تعديه تسبب في طرده من السماء ، ومع أنه وجد بالاختبار أن الخطية تنتهي إلى خسارة لا تقدر ولا تعوض فقد أخفى شقاءه كي يستطيع أن يجر غيره إلى مصيره هو عينا ، وهكذا نرى الآن المتعدي الأثيم يحاول إخفاء خلقه الحقيقي وراء قناع . قد يدعي لنفسه القداسة ، ولكن اعترافه المتفاخر المتعالي يجعله أشد خطرا وأقدر على التضليل . إنه يقف إلى جانب الشيطان ، يطأ شريعة الله ويقود الآخرين إلى التشبه به ، فيؤول ذلك إلى هلاكهم الأبدي .

صدَّقت حواء كلام الشيطان ، ولكن هذا التصديق لم ينقذها من قصاص الخطية . لقد كذَّبت كلام الله ، وهذا قادها إلى السقوط . وفي يوم الدينونة لن يدان الناس لكونهم بسلامة طويَّة صدَّقوا الكذب ، بل لكونهم لم يصدقوا الحق ، ولأنهم أهملوا فرصة تعلم ما هو حق . وبالرغم من أن سفسطة الشيطان هي على عكس الحق فإن عصيان الإنسان لله لمما يجلب الويلات والنكبات . ينبغي لنا أن نوجه كل قلوبنا لمعرفة ما هو حق . إن كل الدروس التي أمر الرب بتدوينها في كتابه إنما هي لأجل إنذارنا وتعليمنا ، وقد دونت

لكي تقينا من الخداع ، ففي إهمالنا إياها هلاك لنفوسنا . فلنتأكد أن كل ما يناقض كلمة الله يجيء من الشيطان .

قطفت الحية إحدى ثمار الشجرة المنهي عنها ووضعتها بين يدي حواء التي ترددت بعض التردد . ومن ثم ذكَّرها العدو بنفس كلامه من أن الله قد حرم عليهما أن يمسا تلك الثمرة لئلا يموتا ، وقال لها إنه لن يصيبها أي أذى لو أكلت من تلك الشجرة كما لم يصبها أذى بعدما لمستها . فلما لم تر حواء بأسا بلمس الثمرة زادت جرأتها ، فلما «رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ (تجعل الإنسان حكيما) . فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ» . كانت الثمرة حلوة المذاق ، فلما أكلت منها أحست بانتعاش وقوة ، وتخيلت أنها قد دخلت إلى حالة وجود أسمى . وبدون خوف قطفت وأكلت ، أما وقد تعدت بنفسها فقد أمست آلة في يد الشيطان للعمل على إهلاك زوجها . وفي حالة اهتياج غريب وغير طبيعي ذهبت تبحث عن رجلها ويداها مملوءتان بالثمرة المحرمة ، وأخبرته بكل ما حدث .

علت وجه آدم سحابة من الحزن ، وبدا عليه الذهول والذعر ، ثم أجاب على كلام حواء قائلاً : لا بد أن يكون هذا هو العدو الذي قد حذرنا الرب منه ، وبموجب حكم الله لا بد من موتها . ورداً علي كلام آدم ألحت عليه أن يأكل ، مرددة كلام الحية من أنهما لن يموتا . وجعلت تحاجَّه قائلة : لا بد أن يكون كلام الحية صادقا لأنها لا تحس بأي دليل على غضب الله ، بل على عكس ذلك هي متحققة من أن تأثيرا مسرا مبهجا يملأ قواها بحياة جديدة كالذي ألهم رسل السماء- هكذا تخيلت .

أدرك آدم أن شريكته قد تعدت أمر الله ، واستخفت بالنهي الوحيد الذي قدم لهما كامتحان لولائهما ومحبتهما ، ونشب في ذهنه صراع رهيب ، وحزن أشد الحزن لكونه سمح لها بالابتعاد عنه . ولكن ها قد وقع المحظور ، ولا بد من أن ينفصل عن تلك التي وجد في صحبتها فرحه وسعادته ، فكيف يكون له هذا ؟ لقد سعد آدم بعشرة الله والملائكة القديسين ، وشاهد مجد خالقه ، وكان يدرك الحالة السامية التي يصير إليها الجنس البشري لو أنهما ثبتا على أمانتهما لله . على أن كل هذه البركات كانت قد توارت عن عينيه لخوفه من أن يفقد تلك الهبة التي فاقت في نظره كل الهبات الأخرى . فالمحبة والشكران والولاء للخالق- كل هذه فاقت عليها وغلبتها محبته لحواء . لقد كانت جزءا منه ، ولم يكن يحتمل فكرة الانفصال

55,56

عنها . لم يكن يدرك أن تلك القوة غير المحدودة التي قد جبلته من التراب وصيرته كائنا حيا جميلا ، وفي محبتها له أعطته شريكة ، تستطيع أن تأتيه بمن تحل مكانها ، ولذلك عزم على مشاطرة حواء مصيرها ، فإن ماتت مات معها . وتساءل في نفسه قائلاً : ألا يمكن أن يكون كلام الحية الحكيمة صادقا ؟ وها هي ذي حواء واقفة أمامه ، جميلة وحسب الظاهر بريئة كما كانت قبلما ارتكبت تلك المعصية . وقد عبَّرت عن محبتها له أكثر مما فعلت من قبل ، ولم تبد عليها أية ظاهرة من ظواهر الموت ، فعوَّل على تحمل كل نتائج العصيان ، فأمسك بالثمرة المنهي عنها وجعل يأكل في إسراع .

بعدما تعدى آدم الوصية تخيل ، بادئ ذي بدء ، أنه قد دخل إلى حالة أسمى في الوجود ، ولكن سرعان ما ملأه تفكيره في الخطية رعبا . فالهواء الذي كان إلى تلك الساعة لطيفا ثابت الحرارة بدا يملأ جسمي الزوجين المذنبين قشعريرة ، وتركتهما المحبة والسلام اللذان كانا يتمتعان بهما ، وحل عوضا عنهما الشعور بالخطية ، والخوف من المستقبل ، وعري النفس . وإن رداء النور الذي كانا متسربلين به اختفى الآن ، فلكي يسدا ذلك النقص حاولا أن يجدا شيئا يستتران به ، إذ لم يكونا يستطيعان مواجهة الله وملائكته القديسين وهما عريانان .

أدركا الآن حقيقة خطيتهما فوبخ آدم شريكته على جهالتها في الابتعاد عنه والسماح لنفسها بالانخداع بأكاذيب الحية ، ولكنهما كانا يتملقان نفسيهما بأن ذاك الذي أعطاهما براهين كثيرة على محبته سيغفر لهما زلتهما هذه الوحيدة ، أو ربما لن يلحقهما قصاص رهيب كالذي يخافانه .

طرب الشيطان وفرح جدا بنجاحه ، فها قد جرب المرأة لتشك في محبة الله وحكمته ، وجعلها تتعدى شريعته ، وعن طريقها أسقط آدم .

لكن المشترع العظيم كان موشكا أن يُعرّف آدم وحواء نتائج معصيتهما . كان الله في الجنة ، وعندما كانا في حالة البر والقداسة كانا ، بكل سرور ، يرحبان بقدوم خالقهما ، أما الآن فها هما يهربان مرتعبين ويبحثان عن أبعد مكان في الجنة يختبئان فيه ، ولكن الرب الإله «نَادَى ... آدَمَ وَقَالَ لَهُ : «أَيْنَ أَنْتَ؟». فَقَالَ : «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟»» .

لم يستطع آدم أن ينكر خطيته ، ولا أن يقدم عذرا مقبولا ، ولكن بدلا من إعلان ندامته

وتوبته حاول أن يلقي التبعة على امرأته ، وبالتالي على الله نفسه ، إذ قال : «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ» (تكوين ٣: ١٢) فذاك الذي بسبب محبته لحواء اختار ، وهو متعمد ، أن يخسر رضى الله وبيته في الجنة والحياة الأبدية السعيدة نراه الآن بعد السقوط يحاول أن يجعل شريكته وحتى الله نفسه مسؤولين عن ذلك العصيان . ما أرهب سلطان الخطية !

وعندما استجوب الله المرأة قائلاً : «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» قال : «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ» (انظر تكوين ٣: ١٣-١٩) وكأنما تقول : لماذا خلقت الحية ، ولماذا سمحت للشيطان بدخول الجنة ؟ مثل هذه الأسئلة كانت متضمنة في عذرها الذي قدمته عن خطيتها . فكآدم عادت باللائمة على الله في هذا السقوط . لقد بدأت روح تبرير النفس والتنصل من المسؤولية بأبي الأكاذيب ، فانغمس أبوانا الأولان في هذه الخطية حالما خضعا لسلطان الشيطان ، وهي الخطية نفسها التي يرتكبها كل نسل آدم . فبدلا من الاعتراف بالخطية بروح الانسحاق حاولا أن يحتميا وراء الأعذار بإلقاء اللوم على غيرهما ، أو على الظروف ، أو على الله ، إذ جعلا حتى البركات التي كانا يتمتعان بها ذريعة للتذمر عليه تعالى .

حينئذ أصدر الرب حكمه على الحية قائلاً : « لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ» . وحيث قد جعلت من نفسها مطيَّة للشيطان فلا بد من أن تشاطر الحية الشيطان في تحمل دينونة الله . وبعدما كانت أبدع وأجمل كل حيوانات الحقل صارت من أحط الحيوانات الزاحفة ، يزدريها ويخافها ويبغضها جميع الناس والبهائم . والكلام الذي خاطب به الرب الحية بعد ذلك كان موجها إلى الشيطان نفسه مشيرا إلى هزيمته الكاملة وهلاكه في المستقبل إذ قال : «وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ» .

وقد أنبأ الرب حواء بالأحزان والأوجاع التي ستكون من نصيبها منذ ذلك اليوم ، وقال لها «إِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ» وكأن الله ، في الخلق ، قد جعل المرأة مساوية للرجل ، فلو أنهما داوما على طاعتهما لله وكانا في حالة وفاق مع شريعته العظيمة ، شريعة المحبة ، لظلا في حالة وفاق أحدهما مع الآخر . ولكن الخطية هي التي جلبت الخلاف والنزاع . والآن يمكن الإبقاء على وحدتهما وحفظ الوفاق بينهما بخضوع أحدهما للآخر . لقد

كانت حواء هي الأولى في العصيان ، فسقطت في الخطية نتيجة لانفصالها عن رجلها ، وكان هذا مناقضا لإرشادات الرب . وبسبب إغراءاتها أخطأ آدم ، فها هي الآن تحت التزام أن تخضع لرجلها . لو أن الجنس البشري الضال راعى الفرائض المتضمنة في شريعة الله ، فهذا الحكم ، مع كونه صدر نتيجة للخطية ، كان يصير بركة لهم . إلا أن سوء استخدام الإنسان للسيادة الممنوحة له يجعل ، في أغلب الأحيان ، كأس المرأة مرة المذاق ، ويجعل حياتها عبئا ثقيلا .

لقد كانت حواء في منتهى السعادة إلى جانب رجلها في بيتهما في الجنة ، غير أنها كغيرها من الزوجات المتبرمات في عصرنا الحديث قُدّمت لها وعود خلابة بأنها ستحصل على مركز أرقى مما عيّنه لها الله ، ففي محاولتها أن ترتفع فوق مركزها الأصلي سقطت إلى مكان أحط منه جدا ، وهكذا سيكون مصير كل من لا يردن أن يقبلن بسرور وشكر واجباتهن في الحياة بما يطابق تدبير الله . وفي محاولتهن الوصول إلى مراكز لم يؤهلهن الله لها يتركن المكان الذي كان يمكن أن يكن بركة فيه ، شاغرا . إن كثيرات في سبيل محاولتهن الوصول إلى مراكز أرقى قد ضحين بعظمة المرأة الحقة ونبل أخلاقها ، وأهملن القيام بالعمل الذي عينته لهن السماء .

أما آدم فقال له الله : «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً : لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا ، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ . وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ . بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» .

لم تكن إرادة الله أن ذينك الزوجين المقدسين يعرفان من الشر أي شيء . لقد منحهما الخير مجانا وبكل سخاء ومنع عنهما الشر ، ولكنهما خالفا أمره وأكلا من الشجرة المنهي عنها ، والآن أصبح في مقدورهما أن يداوما على الأكل منها ، وأن يحصلا على معرفة الشر مدى أيام حياتهما . ومنذ ذلك اليوم كان على الجنس البشري أن يقاسي من تجارب الشيطان ، وبدلا من العمل المفرح السعيد ، الذي كانا يزاولانه إلى ذلك اليوم ، صار نصيبهما القلق والتعب ، وأمسيا عرضة للخيبة والحزن والألم وأخيرا الموت .

وتحت لعنة الخطية كان لا بد للطبيعة كلها أن تشهد للإنسان عن طبيعة العصيان على الله

58,59

ونتائجه . إن الله حين خلق الإنسان سلطه على الأرض وكل الخلائق الحية ، وظلت الطبيعة خاضعة له ما ظل هو في حالة الولاء للسماء ، ولكن حين عصى شريعة الله فكل الخلائق الدنيا تمردت على سلطانه ، وهكذا الرب ، في رحمته العظيمة ، أراد أن يُري الناس قدسية شريعته ، ويقودهم عن طريق اختبارهم الشخصي لأن يروا خطر طرح شريعة الرب جانبا ولو بقدر ضئيل جدا .

إن حياة الكدح والهموم التي صارت من نصيب الإنسان منذ ذلك الحين فرضت عليه في محبة . لقد كانت تدريبا فرضته عليه الخطية لكبح جماح أهوائه وشهواته ولأجل تنمية عادة ضبط النفس فيه ، وكانت جزءا من تدبير الله العظيم لأجل إرجاع الإنسان إلى الله من هلاك الخطية وانحطاطها .

وإن الإنذار المقدم لأبوينا الأولين القائل : «يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» (تكوين ٢: ١٧) . لا يفهم منه أنهما سيموتان في اليوم نفسه الذي يأكلان فيه من الثمرة المحرمة ، بل في ذلك اليوم ينطق عليهما بالحكم الذي لا يرد . لقد كان الله قد وعدهما بالخلود على شرط الطاعة ، فلما تعديا الوصية سقط حقهما في الحياة الأبدية ، وفي ذلك اليوم نفسه حكم عليهما بالموت .

ولكي يحصل الإنسان على حياة الخلود كان لا بد له أن يداوم على الأكل من شجرة الحياة . فإذا حرم عليه الأكل منها كان لا بد أن تضعف حيويته تدريجيا إلى أن تنقضي الحياة . ولقد كانت خطة الشيطان أن آدم وحواء بعصيانهما يستوجبان على نفسيهما سخط الله ، فإذا لم يحصلا على الغفران كان يرجو أنهما سيأكلان من شجرة الحياة ، وبذلك تخلد حياة الخطية والشقاء . ولكن عقب السقوط أرسل الملائكة في الحال لحراسة شجرة الحياة ، وفوق أولئك الملائكة لمع نور باهر اتخذ هيئة السيف اللامع ، فلم يسمح لأي واحد من بني آدم أن يعبر ذلك السياج ليأكل من تلك الثمرة المعطية الحياة ، ولهذا السبب فلا يمكن أن إنسانا خاطئا يخلد في هذا العالم .

إن سيول الشقاء التي نتجت عن خطية أبوينا الأولين اعتبرها كثيرون نتيجة أرهب مع أن يستحقها ذلك الذنب الطفيف ، وهم بذلك يطعنون في حكمة الله وعدالته في معاملته للإنسان . ولكن لو أنهم أنعموا النظر في الأمر جيدا لأدركوا خطأهم . لقد خلق الله الإنسان على صورته ، بلا خطية ، ورسم أن يسكن العالم خلائق لا تقل عن الملائكة إلا قليلا ، ولكن لا بد

من اختبار طاعتهم ، لأن الله لم يشأ أن يمتلئ العالم بالذين يحتقرون شريعته . ومع ذلك فإنه تعالى ، في رحمته ، لم يقدم لآدم امتحانا قاسيا ، إن خفة ذلك الامتحان وذلك النهي هي نفسها زادت من هول الخطية . فإذا لم يكن آدم قادرا على احتمال أصغر امتحان ، فهو لا يستطيع أن يتحمل امتحانا أعظم لو أسندت إليه مسؤوليات أعظم .

ولو أعطي لآدم امتحان أعظم لكان الذين يميلون إلى الشر يعتذرون لأنفسهم عن أخطائهم قائلين : هذه مسألة تافهة والله لا يدقق في الأمور الصغيرة ، ويحصل التعدي باستمرار في الأشياء التي تعتبر تافهة والتي يرتكبها الناس دون أن يوبخوا عليها . ولكن الله جعل هذا الأمر واضحا ، وهو أن الخطية مكروهة لديه مهما كانت صغيرة .

وقد بدا هينا على حواء أن تعصى الله بالأكل من الشجرة المنهي عنها وتجرب رجلها ليأثم . ولكن خطيتهما فتحت أبواب سيول الويل والشقاء على العالم . من ذا الذي يدرك في ساعة التجربة النتائج المخيفة التي تنجم عن خطية واحدة ؟

إن كثيرين ممن يعلّمون الناس أن ناموس الله ليس ملزما للإنسان يقولون بأنه يستحيل عليه أن يحفظ وصاياه . ولكن لو كان هذا حقا فلماذا تحمَّل آدم قصاص معصيته ؟ إن خطية أبوينا الأولين جلبت على العالم الجرائم والأحزان ، ولولا صلاح الله ورحمته لطوح بجنسنا في هاوية يأس لا يرجى منها خلاص . لا يخدعن أحد نفسه ، فإن «أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ» (رومية ٦: ٢٣) إن شريعة الله لا تنتهك كرامتها بدون عقاب الآن ، بل لم تزل الحال كما كانت حين حكم الله بالقصاص على أبي الجنس البشري .

وبعدما ارتكب آدم وحواء خطيتهما لم يظلا عائشين في عدن بعد ذلك . وقد توسلا إلى الله ، بكل حرارة ، أن يسمح لهما بالبقاء في بيتهما الذي كان موطن البرارة والفرح . اعترفا بأنهما أسقطا حقهما في البقاء في ذلك المسكن السعيد ، ولكنهما تعهدا بأنهما في المستقبل سيقدمان لله طاعة كاملة ، ولكن قيل لهما بأن طبيعتهما قد فسدت بسبب الخطية ، وأنهما ، بعصيانهما ، قد أضعفا من قوتهما في مقاومة الشر ، وفتحا للشيطان الباب على سعته ليصل إليهما . إنهما حين كانا في حالة الطهارة انهزما أمام التجربة ، فالآن وهما يحسان بذنبهما لا بد من أن تضعف قوتهما عن الاحتفاظ باستقامتهما .

ففي تذلل وحزن لا يعبر عنه ودَّعا مسكنهما الجميل وخرجا ليعيشا على الأرض التي

استقرت عليها لعنة الخطية . فالجو الذي كان قبلا لطيفا صار الآن عرضة لتطورات مختلفة ، وقدم لهما الرب ، في رحمته ، أقمصة من جلد لحمايتهما من شدة الحر والبرد .

وإذ شاهدا الزهور الذابلة والأوراق المتساقطة التي كانت أول علامات الانحلال والموت ، ناح آدم وامرأته وحزنا أعمق الحزن ، أكثر مما يحزن الناس اليوم على موتاهم . كان موت الأزهار الرقيقة الضعيفة ، مدعاة للحزن ، ولكن عندما تساقطت أوراق الأشجار الجميلة بدت لدى أذهانهما بكل جلاء تلك الحقيقة المحزنة ، وهي أن الموت هو نصيب كل حي .

بقيت جنة عدن على الأرض وقتا طويلا بعدما طرد الإنسان منها[١] . وقد سمح لبني جنسنا الضال أن يروا ، لمدة طويلة ، موطن الطهارة ، ولكن الطريق إليه كان مسدودا إذ كان الملائكة يحرسونه . وعند باب ذلك الفردوس الذي كان يحرسه الكروبيم أعلن مجد الله ، وإلى هناك أتى آدم وبنوه ليقدموا سجودهم لله ، وهناك جددوا عهودهم لإطاعة الشريعة التي تسبب تعديهم إياها في طردهم من جنة عدن . وعندما طغى على العالم طوفان الإثم ، وأوجبت شرور الناس الحكم عليهم بالهلاك بمياه الطوفان ، فاليد التي كانت قد غرست جنة عدن نقلتها من الأرض . ولكن أخيرا عند أزمنة رد كل شيء حين يخلق الله «سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً» (رؤيا ٢١: ١) ستعود الجنة أجمل مما كانت ، مزينة بأجمل مما ازدانت به في البداءة .

وحينذاك فالذين حفظوا وصايا الله سيتنسمون نسائم النشاط والخلود تحت شجرة الحياة (رؤيا ٢: ٧؛ ٢٢: ١٤) ومدى أجيال الأبد سيرى سكان العوالم التي لم تدخلها خطية ، في جنة المسرات تلك ، نموذجا لعمل الله الكامل في الخليقة التي لم تمسها لعنة الخطية– نموذجا لما كان يمكن أن يصير إليه العالم كله لو كان الإنسان قد تمم تدبير الله المجيد .

---

[١]- انظر تكوين ٤: ١٦

الفصل الرابع

تدبير الفداء

ملأ نبأ سقوط الإنسان أرجاء السماء حزنا ، فالعالم الذي خلقه الله ضربته لعنة الخطية ، وأمسى ساكنوه خلائق محكوما عليها بالشقاء والموت ، ولم ير باب لنجاة من قد تعدوا الشريعة ، وكف الملائكة عن ترديد أغاني الحمد ، وفي أرجاء السماء ساد الحزن والنوح بسبب الدمار الذي أحدثته الخطية .

وابن الله ، رب السماء المجيد ، امتلأ قلبه بالإشفاق على البشرية الساقطة ، فإذ رأى هول الويلات التي حلت بالعالم الهالك تحرك قلبه باللطف الذي لا يحد ، وابتكرت محبة الله تدبيرا به يمكن افتداء العالم . إن شريعة الله التي انتهكت كرامتها تطلب موت الخاطئ ، وفي كل الكون لم يكن غير واحد يمكنه أن يتمم مطاليب الشريعة كنائب عن الإنسان ، وحيث أن شريعة الله مقدسة مثله تماما فالذي يكفر عن خطايا العالم ينبغي أن يكون معادلا لله ، ولم يكن أحد غير المسيح يستطيع أن يفتدي الإنسان الساقط من لعنة الناموس ويعيده إلى حالة الوفاق مع السماء . وقد رضي المسيح أن يأخذ على نفسه ذنب الخطية وعارها- الخطية الكريهة لدى إله قدوس إلى حد أنها تفصل الآب عن ابنه ، ورضي أن ينحدر إلى عمق أعماق الشقاء لينقذ البشرية الهالكة .

رافع المسيح عن الإنسان الخاطئ أمام الآب ، بينما انتظر جند السماء النتيجة باهتمام بالغ لا يمكن التعبير عنه بالكلام ، واستغرقت تلك المشاورة السرية وقتا طويلا- وهي «مَشُورَةُ السَّلاَمِ» (زكريا ٦: ١٣) لأجل بني الإنسان الساقطين . على أن تدبير الخلاص هذا كان قد أعد قبلما خلقت الأرض ، لأن المسيح هو «الحمل المذبوح منذ إنشاء العالم» (رؤيا ١٣: ٨)[١] . ومع هذا فقد كان ذلك صراعا مع ملك الكون نفسه ، أن يبذل ابنه ليموت عن جنسنا . «لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ

١- طبعة سنة ١٨٧٨.

الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٦) . آه ما أعظم سر الفداء ، وما أعجب محبة الله لعالم لم يحببه ! من ذا الذي يستطيع أن يسبر أعماق هذه المحبة «الْفَائِقَةَ الْمَعْرِفَةِ» ؟ ومدى أجيال لا نهاية لها إذ تحاول أفهام الأبرار في سماء الخلود إدراك سر تلك المحبة الفائقة الإدراك سيتعجبون ويقدمون للعلي عبادتهم وسجودهم .

كان لا بد أن يتجلى الله في المسيح «مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ» (٢كورنثوس ٥: ١٩) لقد انحدر الإنسان إلى أدنى دركات الانحطاط بسبب الخطية ، بحيث صار من المستحيل عليه العودة بقوته الذاتية إلى حال الانسجام والوفاق مع ذاك الذي طبعه الطهارة والصلاح ، ولكن المسيح بعدما افتدى الإنسان من دينونة الشريعة أمكنه أن يضيف إلى مجهود الإنسان قدرته الإلهية ، وهكذا بالتوبة إلى الله والإيمان بالمسيح أمكن أبناء آدم الساقطون أن يصيروا «أَوْلاَدُ اللهِ» (١يوحنا ٣: ٢) .

إن التدبر الذي به ، دون سواه ، يمكن أن يتم الخلاص قد شمل كل السماء في تضحيتها غير المحدودة ، فالملائكة لم يستطيعوا أن يفرحوا أو يتهللوا حين بسط المسيح أمامهم تدبير الفداء ، لأنهم رأوا أن خلاص الإنسان لا بد من أن يكبد قائدهم الحبيب ويلات هائلة لا يمكن وصف قسوتها ، ففي حزن ودهشة أصغوا إليه يحدثهم كيف أنه سينزل من سماء الطهارة والسلام والفرح والمجد والخلود ليحتك بانحطاط الأرض ، ليتحمل أحزانها وأقذارها ويكابد عارها وموتها ، كان لا بد له أن يحول بين الخاطئ وقصاص خطيته ، ومع ذلك فقليلون هم الذين سيقبلونه على أنه ابن الله . كان عليه أن يتخلى عن مركزه كمن هو سلطان السماء وبهاؤها وجلالها ويظهر على الأرض في حالة وضيعة كإنسان ، ويختبر بنفسه الأحزان والتجارب التي كان على الإنسان أن يحتملها . كان كل ذلك لازما وضروريا له لكي يقدر أن يعين المجربين (عبرانيين ٢: ١٨) ومتى انتهت مهمته كمعلم يجب أن يُسلَّم لأيدي الأشرار ويتعرض لكل صنوف الإهانة والتعذيب التي لا يمكن أن يوحي إليهم الشيطان بإيقاعها عليه ، ويموت أقسى ميتة ، معلقا على صليب بين السماوات والأرض كخاطئ مجرم ، ويمر في ساعات عذاب طويلة ورهيبة جدا حتى أن الملائكة لا يستطيعون مشاهدة ذلك المنظر ، فيغطون وجوههم حتى لا

بروه . وعليه أن يجوز في عذاب نفسي رهيب إذ يحجب الآب وجهه عنه حين يستقر عليه جرم الخطية– أي أحمال خطايا العالم كله .

سجد الملائكة عند قدمي سيدهم ورئيس جندهم ، وقدموا أنفسهم ليكونوا ذبيحة لأجل الإنسان ، ولكن حياة أي ملاك لا يمكنها أن تفي الدين ، أما ذاك الذي جبل الإنسان فهو وحده الذي يستطيع أن يفتديه . ومع ذلك فقد كان على الملائكة أن يقدموا بعض الخدمات في تدبير الفداء . وكان لا بد أن يوضع المسيح «قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ ... مِنْ أَجْلِ أَلَمِ الْمَوْتِ» (عبرانيين ٢: ٩) وحيث أنه سيتخذ طبيعة بشرية فقوته لن تكون في مثل قوة الملائكة ، فعليهم أن يخدموه ويقووه ويسكنوا اضطراب نفسه حين يقاسي الآلام ، كما كان عليهم أن يكونوا أرواحا خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص (عبرانيين ١: ١٤) ولا بد لهم أن يحرسوا أبناء النعمة من قوة الملائكة الأشرار ومن الظلمة التي ينشرها الشيطان حولهم .

إن الملائكة حين يشاهدون آلام سيدهم وإذلاله تمتلئ قلوبهم حزنا ويتملكهم الغضب ويتمنون لو يسمح أن ينقذوه من أيدي قاتليه . ولكنه غير مسموح لهم أن يتدخلوا ليمنعوا وقوع شيء مما يرونه . فإن هذا كله جزء من تدبير الفداء ، إن المسيح ينبغي له أن يتحمل الازدراء والإهانة من الأشرار ، وقد ارتضى هو نفسه بذلك كله حين صار فادي البشر .

أكد المسيح لملائكته أنه بموته سيفتدي كثيرين ، وسيبيد ذاك الذي له سلطان الموت ، وسيسترجع الملك الذي أضاعه الإنسان بعصيانه ، وسيرثه المفديون مع سيدهم ويسكنون هناك إلى الأبد ، ولن تعود الخطية والخطاة بعد يعكرون صفاء السماء أو يزعجون سلام الأرض ، لأن الخطية والخطاة سيمحون إلى الأبد ، وقد أمر المسيح الجند السماويين أن يكونوا على وفاق مع التدبير الذي قبله الآب ، وأن يفرحوا لأنه بموته سيتصالح الإنسان الخاطئ مع الله .

حينئذ ملأت أرجاء السماء أفراح لا يمكن وصفها . إن مجد وسعادة العالم المفتدى فاقت حتى آلام رئيس الحياة وموته ، وفي كل الأرجاء العلوية رن صوت ذلك اللحن وتلك الأغنية التي كانت ستسمع أنغامها فوق تلال بيت لحم– «الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ» (لوقا ٢: ١٤) . وبنغمة فرح أعمق مما حدث عند الخليقة الجديدة «تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعًا، وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ» (أيوب ٣٨: ٧) .

إن أول إشارة إلى الفداء قد أبلغت الإنسان في حكم الله الذي أوقعه على الشيطان في الجنة . فلقد أعلن الله قائلاً : «وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا . هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ» (تكوين ٣: ١٥) . فهذا القول الذي نطق به الله في مسامع أبوينا الأولين كان بمثابة وعد بالنسبة لهما . فإذ أنبأ بقيام حرب بين الإنسان والشيطان أعلن أن قوة ذلك الخصم العظيم ستسحق نهائيا . لقد وقف آدم وحواء كمذنبين أمام الديان العادل ، منتظرين الحكم الذي أوجبه عليهما تحديهما ، ولكن قبلما حكم عليهما بحياة كلها كد وعناء وحزن وشقاء ، وقبلما حكم عليهما بأنهما سيعودان إلى التراب أصغيا إلى هذا الوعد الذي أنعش قلبيهما بالرجاء . فمع أنهما لا بد من أن يقاسيا من قوة عدوهما الجبار فقد كانا يتطلعان إلى النصرة النهائية .

وحين سمع الشيطان أنه ستقوم عداوة بينه وبين المرأة وبين نسله ونسلها أيقن أن عمله في إفساد الجنس البشري سيتعطل ويتوقف ، إذ أن الإنسان ، بوسيلة أو بأخرى ، سيكون قادرا على مقاومة سلطانه . ولكن حين أعلن تدبير الخلاص كاملا فرح الشيطان وجنوده لكونه ، إذ تسبب في سقوط الإنسان ، أمكنه أن ينزل ابن الله من مرتبته ومقامه العظيم ، وأعلن أن خطته ، حتى ذلك الحين ، قد نجحت في الأرض ، وأن ابن الله حين يتخذ طبيعة بشرية قد ينهزم هو أيضا ، وهكذا لن يتم فداء الجنس الساقط .

وقد أعلن ملائكة السماء لأبوينا الأولين بوضوح أكثر التدبير الذي رسم لخلاص البشرية . وأكدوا لآدم وشريكته أنه بالرغم من خطيتهما العظيمة فالرب لن يتخلى عنهما تاركا إياهما لسلطان الشيطان ، لأنه قد تطوع ابن الله لأن يكفر عن معصيتهما ببذل حياته ، وأنه أعطيت لهما فترة امتحان ، وبالتوبة والإيمان بالمسيح يمكنهما أن يكونا ثانية من أولاد الله .

إن الذبيحة التي أوجبها عصيانهما كشفت لآدم وحواء صفة القداسة التي لشريعة الله وقد رأيا ، كما لم يريا من قبل ، جرم الخطية ونتائجها الرهيبة ، وفي حزن وانسحاق طلبا ألا يقع القصاص على ذلك الذي كانت محبته نبع أفراحهما بل أن يقع بالحري عليهما وعلى نسلهما .

وقد قيل لهما أنه حيث أن شريعة الرب هي أساس حكمه في السماء كما على الأرض ، فحتى حياة ملاك لا يمكن قبولها ذبيحة عن التعدي عليها . ولا يمكن تغيير أو إلغاء جزء ولو

صغير من تلك الشريعة ليناسب الإنسان في حالته بعد السقوط ، ولكن ابن الله الذي خلق الإنسان يمكنه أن يصنع كفارة عنه ، فكما أن معصية آدم قد جلبت الشقاء والموت ، فكذلك ذبيحة المسيح ستأتي بالحياة والخلود .

وليس الإنسان وحده هو الذي وقع تحت سلطان الشرير ، ولكن حتى الأرض أيضا بسبب الخطية خضعت لسلطانه ، وكان لابد أن ترد بالفداء . إن آدم بعدما خلق أقيم سيدا على الأرض ، ولكنه إذ انهزم أمام التجربة صار تحت سلطان الشيطان ، «لأَنَّ مَا انْغَلَبَ مِنْهُ أَحَدٌ، فَهُوَ لَهُ مُسْتَعْبَدٌ أَيْضًا» (٢بطرس ٢: ١٩) وبعدما صار الإنسان أسيرا للشيطان انتقلت السيادة منه إلى آسره ، وهكذا صار الشيطان «إِلهُ هذَا الدَّهْرِ» (٢كورنثوس ٤: ٤) لقد اغتصب السلطان الذي كان قد أعطي لآدم على الأرض ، ولكن المسيح إذ حمل قصاص الخطية بذبيحته فهو لا يفتدي الإنسان فقط بل سيعيد إليه سلطانه الذي قد أضاعه ، فكل ما خسرناه في آدم الأول سنسترجعه في آدم الثاني . يقول ميخا النبى : «وَأَنْتَ يَا بُرْجَ الْقَطِيعِ، أَكَمَةَ بِنْتِ صِهْيَوْنَ إِلَيْكِ يَأْتِي. وَيَجِيءُ الْحُكْمُ الأَوَّلُ» (ميخا ٤: ٨) وبولس الرسول يشير إلى المستقبل إلى «فِدَاءِ الْمُقْتَنَى» (أفسس ١: ١٤) لقد خلق الله الأرض لتكون مسكنا للخلائق المقدسة السعيدة . إن الرب هو «مُصَوِّرُ الأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ قَرَّرَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلاً. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا» (إشعياء ٤٥: ١٨) وسيتم ذلك القصد حينما تصبح الأرض مسكن المفديين الأبدي بعدما تتحرر ، بقوة الله ، من الخطية والحزن : «الصِّدِّيقُونَ يَرِثُونَ الأَرْضَ وَيَسْكُنُونَهَا إِلَى الأَبَدِ» (مزمور ٣٧: ٢٩) «وَلاَ تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِي مَا بَعْدُ. وَعَرْشُ اللهِ وَالْخَرُوفِ يَكُونُ فِيهَا ، وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ» (رؤ يا ٢٢: ٣) .

لقد تمتع آدم وهو في حال الطهارة باتصال مباشر بجابله ، ولكن الخطية فصلت بين الله والإنسان . إلا أن كفارة المسيح أقامت جسرا على تلك الهوة ، وجعلت من الممكن إيصال البركة والخلاص من السماء إلى الأرض . كان الإنسان لا يزال محظورا عليه الدنو المباشر من خالقه ، ولكن الله أراد أن يتصل به عن طريق المسيح والملائكة .

وهكذا أعلنت لآدم حوادث هامة في تاريخ البشرية منذ الوقت الذي فيه نطق الله بحكمه في الجنة إلى الطوفان ، ثم إلى مجيء ابن الله أول مرة . وقيل له إنه مع كون ذبيحة المسيح ذات قيمة عظيمة كافية لتخليص العالم كله فإن كثيرين سيفضلون حياة الخطية على حياة التوبة

والطاعة . وستزيد الجرائم في الأجيال المتعاقبة ، وستستقر لعنة الخطية بأكثر قــوة وقســوة على الجنس البشري ، وعلى البهائم والأرض ، وستقصر أيام حياة الإنسان بسبب الخطية التي سيختارها ، وسيصيب جسمه التشويه والضعف ، كما ستضعف قواه الأدبية والذهنية ، وقوتــه على الاحتمال ، حتى تمتلئ الأرض من كل ألوان الشقاء وبسبب انغماس النــاس فــي النــهم والشهوات لن يقدّروا الحقائق العظيمة الخاصة بتدبير الفداء ، ومع ذلك فالمسيح لكونه أمينـــا وحريصا على إتمام القصد الذي لأجله ترك السماء سيظل على اهتمامه بالنـــاس وســيواصل دعوته إياهم لأن يأتوا إليه ويخفوا ضعفاتهم ونقائصهم فيه . وهو سيسدد احتياجات كــل مــن يأتون إليه بالإيمان . والذين يحفظون معرفة الله ويظلون طاهري الذيل في وسط تيــار الإثــم الجارف سيكونون قليلي العدد .

وقد رسم الله نظام الذبائح الكفارية لتكون مذكرا دائما للإنسان واعترافا منه بتوبتـــه عــن خطيته وبإيمانه بالفادي الموعود به ، وكان القصد من تلك الذبائح ترسيخ هذا الحق في عقــول الناس الساقطين وقلوبهم ، وهو أن الخطية هي علة الموت . وقد أحس آدم بألم وحزن بــالغين عندما قدمت أول ذبيحة ، إذ كان لا بد ليده من أن ترتفع لتنتزع الحياة التي لا يعطيــها غــير الله . كانت تلك أول مرة شاهد فيها الموت ، وعرف أنه لو ظل مطيعا لله لما مات إنســان أو حيوان ، وعندما ذبح أول ذبيحة ارتجت نفسه عندما برق في ذهنه هذا الخاطر وهو أن خطيته لا بد أن تسفك دم حمل الله الذي بلا عيب . وهذا المنظر جعله يحس إحساسا أوضح وأعمــق بهول معصيته التي لا يمكن أن يكفر عنها غير موت ابن الله الحبيب . وقد ملكته الدهشة وهو يتأمل في صلاح الله غير المحدود الذي يقدم هذه الفدية الفادحة الكلفة لكي يخلــص الأثمــة ، ولمع في سماء حياته نور الرجاء الذي بدد غياهب المستقبل المظلم المرعـــب وخفــف مــن وحشته وكآبته .

غير أن تدبير الفداء كان له غرض أوسع وأعمق من خلاص الإنسان . لم يكن هـــذا هو القصد الوحيد الذي لأجله أتى المسيح إلى الأرض ، لم يكن القصد الوحيد هو مجــرد أن ينظر سكان كوكب الأرض الصغير هذا إلى شريعة الله بعين الاعتبار كمــا ينبغــي ، ولكن القصد كان تبرير وتزكية صفات الله في أعين سكان الكون كلــهم . ولأجــل هــذه الغاية من ذبيحته العظيمة– أي تأثيرها في عقول الكائنات العاقلة في كل العوالم كما فــي الإنسان ، كان المخلص ينظر إلى الأمام حين قال قبل صلبه: «اَلآنَ دَيْنُونَةُ هــذَا الْعَــالَمِ.

اَلآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هذَا الْعَالَمِ خَارِجًا. وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَــيَّ الْجَمِيــعَ» (يوحنا ١٢: ٣١،٣٢) . إن عمل المسيح في كونه مات لأجل خلاص الإنسان ليس فقــط يسهل طريق وصول الناس إلى السماء ، بل يبرر الله أمام سكان الكون جميعا ، يبرر الله وابنه في كيفية معاملتهما لعصيان الشيطان ، ثم أن موت المسيح يثبت دوام شــريعة الله ويكشف عن طبيعة الخطية وعواقبها .

لقد كان النزاع من البدء حول شريعة الله . فلقد حاول الشيطان أن يبرهن أن الله ظــالم ، وأن شريعته مخطئة ، وأنه ينبغي تغييرها لأجل خير الكون . وفي مهاجمته للشــريعة كــان يرمي إلى هدم سلطان واضعها . وفي هذا النزاع لابد من البت فيمــا إذا كــانت شــريعة الله ناقصة وعرضة للتغيير أم كاملة لا تتغير .

ولما طرد الشيطان من السماء عول على جعل العالم مملكة لــه ، ولمــا جــرب آدم وحواء وانتصر عليهما ظن أنه قد ملك زمام العالم قائلاً : «إنهم قــد اختــاروني ملكــا عليهم» . وقد ادعى أنه لا يمكن أن يمنح الغفران للخاطئ ، ولذلك فكل الجنس البشــري صاروا رعاياه الشرعيين ، وصار العالم ملكا له . ولكن الله بذل ابنه الحبيب المســاوي له ، ليتحمل قصاص العصيان ، وبذلك أعد طريقة بها يستعيد الإنسان رضا الله فيعاد إلى بيته في جنة عدن . وقد أخذ المسيح على نفسه أمر فداء الإنسان وتحريــر العــالم مــن قبضة الشيطان . وذلك النزاع الذي بدا في السماء كان لا بد أن يتقرر في نفــس العــالم ونفس الميدان الذي ادعى الشيطان أنه ملكه .

والذي أدهش الكون كله أن المسيح وضع نفسه لكي يخلص الإنسان الساقط ، فكــون ذاك الذي سار من نجم إلى آخر ومن عالم إلى آخر وهو مشرف على الكل وبعنايته يسد أعــواز كل خلائقه في الكون الواسع- كونه يرتضي التخلي عن مجده واتخاذ الطبيعة البشرية- كــان هذا سرا تاقت عقول الأبرار في العوالم الأخرى أن تتفهمه وتسبر غوره . وحين أتى المســيح إلى عالمنا في صورة إنسان اهتم الجميع أعظم اهتمام في تأثر خطواته وهــو يســير خطــوة فخطوة في الطريق المخضب بالدم من المذود إلى جلجثة . وقد لاحظت السماء كل إهانة وكل سخرية وقعت عليه ، وعرفت أن ذاك كله بتحريض من الشيطان ، ولاحظــوا أيضــا عمــل القوات المضادة يتقدم ، فكان الشيطان يضغط بالظلمــة والأحــزان والكــلام علــى الجنــس

البشري ، بينما كان المسيح يعمل عكس هذا ، وكذلك لاحظوا المعركة بين النور والظلمة حين حمي وطيسها . وحين صرخ المسيح وهو يعاني سكرات الموت قائلا : «قد أكمل» (يوحنا ١٩: ٣٠) ارتفعت هتافات الانتصار من كل العوالم ومن السماء نفسها . وذلك النضال الذي طال أمده في هذا العالم تقرر الآن مصيره ، وانتصر المسيح ، الذي موته أعلن ما إذا كان في قلب الآب والابن محبة للانسان كافية تدفعهما إلى إنكار الذات والتضحية . وقد كشف الشيطان عن أخلاقه على حقيقتها ، فتبرهن أنه كذاب وقاتل ، وظهر أن نفس الروح التي كان قد سيطر بها على بني الإنسان الذين كانوا تحت سلطانه كان سيظهرها لو سمح له بأن يسيطر على الكائنات السماوية . فبصوت واحد اتحدت المسكونة المخلصة لله في تمجيد سياسته الإلهية .

لو أمكن تغيير الشريعة لأمكن خلاص الإنسان بدون ذبيحة المسيح ، ولكن حقيقة كونه لازما جدا أن يبذل المسيح حياته لأجل الجنس الساقط تبرهن على أن شريعة الله لا يمكن أن تعفي الخاطئ من مسؤولية حفظها . ولقد أعلن أن أجرة الخطية هي موت ، فحين مات المسيح أصبح هلاك الشيطان أمرا مؤكدا ، ولكن لو أن الناموس أبطل عند الصليب ، كما يدعي كثيرون ، إذا فآلام ابن الله الحبيب وموته إنما كان القصد من احتماله إياها إعطاء الشيطان ما طلبه ، وأن سلطان الشر قد انتصر ، وثبتت كل اتهاماته لله في حكمه . إن نفس حقيقة كون المسيح حمل قصاص عصيان الإنسان هي حجة قوية للعقل البشري بأن الشريعة لم ولن تتغير ، وأن الله بار ورحيم ومنكر لنفسه ، وأن العدل والرحمة غير المحدودين يتلاقيان ويتحدان فيي سياسته وحكمه .

الفصل الخامس

امتحان قايين وهابيل

كان هنالك اختلاف بيّن وفرق عظيم بين صفات كل من قايين وهابيل ابنـــي آدم ، فــروح هابيل كانت روح الإخلاص والوفاء لله . لقد رأى العدل والرحمة في معاملة الخالق للجنـــس البشري الساقط ، وبكل شكر قبل رجاء الفداء . أما قايين فقد راعـــى فـــي نفســه أحاســيس التمرد ، وتذمر على الله لكونه قد لعن الأرض والجنس البشري بسبب خطيـــة آدم ، وســمح لعقله أن يسير في نفس الاتجاه الذي أدى إلى سقوط الشيطان ، أي الرغبة في تعظيم النفـــس والشك في عدالة الله وسلطانه .

امتُحِن هذان الأخوان كما امتحن آدم من قبل ، ليبرهنا هـــل كانـــا ســيؤمنان بكلمـــة الله ويطيعانها . كانا عارفين بما قد أعده الله لخلاص الإنسان ، وفهما نظام الذبائح الذي قد رســمه الله ، وعرفا أنه بهذه الذبائح كان يجب أن يعبرا عن إيمانهما بالمخلص الذي كانت تلك الذبائح ترمز إليه ، وأن يعترفا في الوقت نفسه باعتمادهما الكلي عليه لأجل الغفران ، كمـــا عرفـــا أنهما ، بقبولهما لتدبير الله في فدائهما ، كانا يقدمان البرهان على طاعتهما وخضوعهما لإرادة الله . إنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة ، فكان عليهما أن يعلنا عن إيمانهما بالمسيح وبدمـــه كالكفارة الموعود بها ، بتقديمهما من أبكار الغنم ذبائح لله . وفضلا عن ذلك كان ينبغي لـــهما أن يقدما من باكورات أثمار الأرض تقدمة شكر .

بنى كل من الأخوين مذبحا مشابها لمذبح الآخر ، وقدم كل منهما تقدمة ، فقـــدم هـــابيل ذبيحة من القطيع امتثالاً لأمر الرب ، «فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ» (انظر تكويـــن ٤: ١-١٥) ونزلت نار من السماء وأكلت الذبيحة . أما قايين الذي استخف بأمر الله المباشر القـــاطع فقد قدم قربانا من الأثمار ، ولم تظهر علامة من السماء على أن قربانه قد قبل . توسل هـــابيل إلى قايين أخيه ليتقدم إلى الله بالطريقة التي رسمها الله ، ولكن توسلاته زادت مـــن إصـــرار

قايين على عمل ما يريده هو . وحيث أنه هو الأخ الأكبر فقد شعر بأنه أرفع من أن يقبل نصحا من أخيه الأصغر ، فاحتقر مشورته .

مثل قايين أمام الله بروح التذمر والإلحاد في قلبه فيما يختص بالذبيحة الموعود بها وضرورة تقديم الذبائح الكفارية . ولم تكن تقدمته لتعبر عن توبته عن الخطية ، وشعر كما يشعر كثيرون اليوم أن اتباع التدبير الذي قد رسمه الله هو اعتراف بالضعف ، إذ أن ذلك يتطلب وضع ثقته الكاملة للخلاص في كفارة المخلص الموعود به . لقد اختار طريق الاعتماد على النفس ، فهو يريد التقدم باستحقاقه الشخصي . لم يرد أن يأتي بخروف ويمزج دمه بتقدمته ، ولكنه سيقدم أثماره التي هي ثمرة تعبه . فقدم قربانه على أنه معروف أسداه إلى الله ، وأراد أن يحصل بواسطته على رضى الله واستحسانه . لقد أطاع قايين الله في بناء مذبح وفي تقديم قربانه ، إلا أنه قدم طاعة ناقصة مبتورة ، إذ أغفل الجزء الجوهري ، ألا وهو اعترافه بالحاجة إلى فادٍ .

كان ذانك الأخوان من حيث المولد والتعاليم الدينية متساويين ، كانا كلاهما خاطئين ، كما اعترفا كلاهما بحق الله في التوقير والعبادة ، ولو حكمنا حسب الظاهر لقلنا أن ديانتهما كانت واحدة إلى حد ما ، ولكن فيما خلا ذلك كان الفرق بينهما شاسعا .

«بِالإِيمَانِ قَدَّمَ هَابِيلُ ِللهِ ذَبِيحَةً أَفْضَلَ مِنْ قَايِينَ» (عبرانيين ١١: ٤) لقد فهم هابيل مبدأ الفداء العظيم ، رأى نفسه خاطئا ورأى الخطية التي قصاصها الموت حائلا بينه وبين الشركة مع الله ، فأتى بذبيحته ، وبذلك اعترف بحقوق الشريعة التي انتهكت . وعن طريق الدم المسفوك جعل نظره وقلبه على الذبيحة العتيدة– أي المسيح المائت على صليب جلجثة ، وإذ اتكل على الكفارة التي ستقدم شُهد له بأنه بار ، وقبل الله قربانه .

كانت لدى قايين الفرصة نفسها لتعلم هذه الحقائق وقبولها ، كهابيل تماما . لم يكن ضحية لغرض استبدادي ، فلم يُختر أحد الأخوين ليُقبل أمام الله ، والآخر يرفض ، ولكن هابيل اختار الإيمان والطاعة ، أما قايين فاختار عدم الإيمان والعصيان . هذا هو السر في الأمر .

إن قايين وهابيل يمثلان فريقين من الناس سيبقيان في العالم إلى انقضاء الدهر . أحد هذين الفريقين ينتفع بالذبيحة المعينة للخطية ، أما الفريق الآخر فيخاطر معتمدا على

استحقاقه ، مثل هذه الذبيحة لا نصيب لأصحابها في استحقاق الشفيع الإلهي ، ولذلك فهي لا يمكنها أن تضمن لهم رضى الله عنهم . إن تعدياتنا لا يمكن أن تُغفر إلا باستحقاقات يسوع وحده ، أما الذين يشعرون بحاجتهم إلى دم المسيح ، الذين يظنون أنهم بدون نعمة الله يمكنهم بأعمالهم أن يظفروا برضاه- هؤلاء يرتكبون الغلطة نفسها التي ارتكبها قايين ، فإذا لم يقبلوا الدم المطهِّر فهم ولا شك واقعون تحت الدينونة ، إذ ليس من تدبير آخر به يتحررون من عبودية الخطية .

إن فريق العابدين الذين يتبعون مثال قايين يمثلون الأكثرية العظمى في العالم ، لأن كل الديانات الكاذبة تقريبا مبنية على المبدأ نفسه- أي أن الإنسان يمكنه أن يعتمد على جهوده الذاتية لأجل الخلاص . بعضهم يعتقدون أن الجنس البشري بحاجة لا إلى الخلاص بل إلى التطور ، أي أن الجنس البشري يمكنه أن يهذب نفسه ويرفع من شأن نفسه ويجدد نفسه ، كما ظن قايين أنه يمكنه أن يظفر برضى الله بتقدمة خالية من دم الذبيحة ، هكذا ينتظر هؤلاء أن يسموا بالبشرية إلى المستوى الإلهي دون الاعتماد على الكفارة . إن تاريخ قايين يرينا النتيجة المحتومة . فهو يرينا ما يصير إليه الإنسان بدون المسيح . إن البشرية لا قوة لها على تجديد ذاتها ، وهي لا تتجه إلى الأعلى ، إلى الأمور الإلهية ، بل إلى الأسفل حيث الأمور الشيطانية . إن المسيح هو رجاؤنا الوحيد : «وَلَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ الْخَلاَصُ . لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ» (أعمال الرسل ٤: ١٢) .

والإيمان الحقيقي الذي يعتمد بكليته على المسيح يظهر في الطاعة لكل مطاليب الله ، فمنذ أيام آدم إلى اليوم والنزاع العظيم يحتدم حول الطاعة لشريعة الله ، وفي كل عصر وجد قوم ادعوا أن لهم الحق في الحصول على رضى الله حتى مع كونهم قد ازدروا بعض وصاياه ولم يحفظوها ، ولكن الكتاب يعلن أنه «بِالأَعْمَالِ أُكْمِلَ الإِيمَانُ» وأن الإيمان بدون أعمال الطاعة «مَيِّتٌ» (يعقوب ٢: ١٧،٢٢) . «مَنْ قَالَ : «قَدْ عَرَفْتُهُ» وَهُوَ لاَ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ ، فَهُوَ كَاذِبٌ وَلَيْسَ الْحَقُّ فِيهِ» (١يوحنا ٢: ٤) .

لما رأى قايين أن قربانه قد رُفض ثار على الله وعلى هابيل ، اغتاظ من الله الذي لم يقبل بديلا من صنع الإنسان عوضا عن الذبيحة المعينة من الله ، واغتاظ من أخيه الذي اختار الطاعة لله بدلا من الاشتراك مع أخيه في التمرد على الرب . وبالرغم من استهانة قايين بأمر

الرب فالله لم يتركه لنفسه ، بل تنازل ليتحاجَّ مع ذلك الإنسان الذي برهن على كونــــه شــاذا «فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ : «لِمَاذَا اغْتَظْتَ ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ ؟»» وقد أرسل إليه على يد مـــــلاك هذا الإنذار الإلهي : «إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ (ألا تُقبل ؟) وَإِنْ لَمْ تُحْسِـنْ فَعِنْـدَ الْبَـابِ خَطِيَّـةٌ رَابِضَةٌ» . كان حق الاختيار متروكا لقايين نفسه ، فإن هو اتكل على اســـتحقاقات المخلـص الموعود به وتمم مطاليب الله فسيتمتع برضاه ، أما إذا أصر على العصيان وعدم الإيمان فــلا حق له في التذمر أو الشكوى من أن الله قد رذله .

ولكن بدلا من أن يعترف قايين بخطيته استمر يشكو من ظلم الله ، وأوغر الشيطان صـدره بالحسد والكراهية لأخيه هابيل ، فوبخ أخاه بغضب وحاول أن يشتبك معه في جـــدال حـول معاملات الله لهما ، فبدون خوف ، بل بكل ثبات ووداعـــة دافـع هـابيل عـن عدالــة الله وصلاحه ، وأبان لقايين غلطته ، وحاول إقناعه بأن الخطأ فيه هو ، ووجه التفاته إلى شـــفقة الله الظاهرة في الإبقاء على حياة أبويهما مع أنه كان يمكنه أن يقاصهما بـــالموت المبــاغت ، وقال له إن الله قد أحب أبويهما وإلا ما كان قد بذل ابنه البـــار القــدوس ليحتمـل قصــاص معصيتهما الذي أوجباه على نفسيهما . كل هذا زاد من اشتعال نار الغضب في صدر قـــايين الذي أنبأه عقله وضميره أن هابيل كان على صواب ، ولكنه كان ثائرا ومغتاظـــا لأن أخــاه هابيل الذي كان يجب أن يعمل بمشورته يخالفه في الرأي الآن ، ولا يوافقه على التمرد ، ففي جنون غضبه ذبح أخاه .

إن قايين أبغض أخاه وقتله لا لظلم وقع من هابيل عليه بل «لأَنَّ أَعْمَالَهُ كَـانَتْ شِـرِّيرَةً ، وَأَعْمَالَ أَخِيهِ بَارَّةٌ» (١يوحنا ٣: ١٢) وهكذا في كل العصور نجد أن الأشرار قد أبغضوا الذين هم أفضل منهم . إن حياة الطاعة والإيمان غير المنحرف التي عاشها هابيل كانت في نظـــر قايين توبيخا دائما له «كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّآتِ يُبْغِضُ النُّورَ ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّـورِ لِئَـلاَّ تُوَبَّـخَ أَعْمَالُهُ» (يوحنا ٣: ٢٠) كلما اشتد سطوع النور الذي ينعكس من أخـلاق عبيـد الله الأمنــاء انكشفت بالأكثر خطايا الأشرار وظهرت في شناعتها ، وازداد عزمـــهم علـى إهـلاك مـن يعكرون سلامهم .

كان مقتل هابيل أول شاهد على العداوة التي كان الله قد أعلن عن نشوبها بين الحية ونسـل المرأة– بين الشيطان وأتباعه من جهة والمسيح ورعاياه من جهة أخـــرى ، فبســبب خطيــة

الإنسان صارت للشيطان السيادة على الجنس البشري ، ولكن المسيح يمنحهم القوة على طـوح نيره عن أعناقهم ، فكلما رفضت نفس خدمة الخطية ، بالإيمان بحمل الله ، فالشيطان يستشـيط غيظا . ولقد كذبت حياة هابيل المقدسة ادعاء الشيطان استحالة حفظ الإنســان لشــريعة الله . ولما رأى قايين الذي كان يحركه روح الشيطان أنه لا يستطيع إخضاع هابيل احتدم غيظه إلى حد جعله يقوم عليه ويقتله . وأينما وجد أناس يقفون في جانب عدالة شــريعة الله ويزكونــها يتعرضون لنفس تلك الروح الشريرة . إنها الروح التي على مدى أجيال التاريخ قـد نصبـت آلات الإعدام وأشعلت النيران لإهلاك تلاميذ المسيح ، ولكن كل قساوة وقعت على أي تــابع للمسيح كانت بإيعاز من الشيطان وجنوده لعجزهم عن إرغامه على الخضوع لهم . هذا هــو الاهتياج الذي يبدو على العدو المنهزم . إن كل شهيد من شهداء يسوع مات منتصرا غالبــا . يقول الرائي : «وَهُمْ غَلَبُوهُ (الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان) بِــدَمِ الْخَــرُوفِ وَبِكَلِمَــةِ شَهَادَتِهِمْ ، وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ» (رؤيا ١٢: ٩،١١) .

وفي الحال استُدعي قايين القاتل أمام الله . ليحاكم على جريمته ، «فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ : «أَيْــنَ هَابِيلُ أَخُوكَ ؟» فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي ؟»» . لقد تمادى قايين في خطيته حتــى فقـد الإحساس بوجود الله المستمر وبعظمته وعلمه بكل شيء ، ولذلك عمد إلى الكذب ليستر جريمته .

فعاد الله يقول لقايين : «مَاذَا فَعَلْتَ ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ» . لقد أعطى الله قايين فرصة يعترف فيها بخطيته ، وكان لديه وقت للتأمل والتذكر . لقــد عــرف هــول فعلته ، كما عرف الكذبة التي نطق بها ليستر تلك الفعلة ، ولكنه ظل سادرا في تمرده ، ولهذا فالرب لم يرجئ النطق بالحكم عليه . فذلك الصوت الذي سمع يتوسل إليه وينذره نسـمعه الآن ينطق بهذا القول المرعب : «فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ . مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا . تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ» .

وبالرغم من كون قايين استحق الموت لأجل جرائمه فقد أبقى الخالق الرحيم على حياتــه وأعطاه فرصة للتوبة ، ولكن قايين عاش ليقسي قلبه وليشجع التمرد على سلطان الله ، وليكون في طليعة سلالة قوم خطاة متهورين مرذولين . وهذا المرتد الذي أسلم قياده للشيطان أصبــح مجرِّبا لآخرين غيره ، فكان مثاله وتأثيره مفسدا لأخلاقهم وأخلاق ذويهم بحيث فسدت الأرض وامتلأت ظلما ، الأمر الذي استوجب إهلاكها .

77,78

إن في الإبقاء على حياة القاتل الأول يقدم الله للكون كله درسا خاصا بالنزاع العظيم . إن تاريخ قايين ونسله ، ذلك التاريخ المظلم ، كان تفسيرا لما كان يمكن أن يحدث لو سمح للخاطئ أن يحيا إلى الأبد حاملا في قلبه عصيانه وتمرده على الله . إن صبر الله واحتماله جعل الأشرار يتمادون في شرهم ويمعنون في جرائمهم وتحديهم لله في آثامهم . وبعد خمسة عشر قرنا من اليوم الذي نطق فيه الله بحكمه على قايين رأى الكون كله اكتمال تأثيره (قايين) ومثاله في الجرائم والمفاسد التي طغت على العالم . وقد وضح أن حكم الله الذي نطق به على الجنس الساقط بسبب تعديهم شريعة الله كان حكما عادلا ورحيما . وكلما طال زمان ارتكاب الناس للخطية ازدادوا إباحية . إن حكم الرب الذي قطع من أرض الأحياء تيار الإثم المندلع ، وحرر العالم من تأثير الذين قد تقسوا في عصيانهم وتمردهم كان بركة لا لعنة .

إن الشيطان دائب في العمل ، وله نشاط هائل ويستطيع إخفاء نفسه تحت آلاف الأقنعة ليشوه حكم الله وصفاته ، وبخططه الواسعة النطاق والمنظمة تنظيما دقيقا وبقوته العجيبة ، لا يزال يعمل ليبقي العالم تحت قوة مخاتلاته وأكاذيبه . ولكن الله غير المحدود والكلي الحكمة يعرف النهاية من البداية ، وفي معاملته للشر كانت تدابيره بعيدة المدى وشاملة . ولم يكن غرضه الأوحد هو القضاء على العصيان ، بل أن يعلن للكون بأسره طبيعة التمرد والعصيان . لقد كان تدبيره هو كشف وإظهار عدله ورحمته ، وتزكية عدالته وحكمته تزكية كاملة في معاملته للشر .

وكان سكان العوالم الأخرى القديسون يتتبعون بأعظم اهتمام سير الحوادث الجارية على الأرض . وفي الحالة التي كان العالم عليها قبل الطوفان رأوا مثالا لنتائج حكم لوسيفر الذي حاول أن يفرضه في السماء برفض سلطان المسيح وطرح شريعة الله جانبا . ورأوا في أولئك الخطاة المتعظمين المستكبرين الذين عاشوا قبل الطوفان نوع الرعايا الذين ملك عليهم الشيطان . كان تصور أفكار قلوب الناس شريرا في كل يوم (تكوين ٦: ٥) فكل عاطفة وكل باعث وكل تصور كان في حالة حرب ونضال مع مبادئ الله ، مبادئ الطهارة والسلام والمحبة ، وكان ذلك مثالا للانحطاط المريع الناجم عن سياسة الشيطان في أن يلاشي من قلوب الناس ضوابط شريعة الله المقدسة .

وفي الحقائق التي انكشفت في سير الحرب العظمى الروحية سيعلن الله مبادئ حكمه

وسياسته التي قد زيفها الشيطان وكل من قد خدعهم ، وفي النهاية سيعترف العالم كله بعـــدل الله ، ولو بعد فوات الفرصة ، حين لا يمكن إنقاذ المتمردين . إن الله يظفر بعطف واستحسـان الكون كله إذ يتقدم تدبيره خطوة بعد خطوة في طريقه إلى الكمال التام ، وهكذا ستكون الحـال حين يستأصل شأفة العصيان نهائيا . سيُرى أن كل من قد تركوا شريعة الله قد انحازوا إلـــى جانب الشيطان وصاروا محاربين للمسيح . وحين يدان رئيس هذا العالم ، ويشاطره في المصير نفسه كل من انضموا إليه ، فكل سكان الكون الذين سيكونون شهودا علـــى ذلـك الحكـم سيقولون : «عَادِلَةٌ وَحَقٌ هِيَ طُرُقُكَ يَا مَلِكَ الْقِدِّيسِينَ!» (رؤيا ١٥: ٣) .

الفصل السادس

شيث وأخنوخ

أُعطي لآدم ابن آخر ليكون وارثا للوعد الإلهي ، وارثا للبكورية الروحية . إن معنى اسم شيث الذي أطلق على الابن هو «مُعيَّن» أو «عِوَض» لأن أمه قالت : «اللهَ قَدْ وَضَعَ لِي نَسْلاً آخَرَ عِوَضًا عَنْ هَابِيلَ». لأَنَّ قَايِينَ كَانَ قَدْ قَتَلَهُ» (تكوين ٤: ٢٥) . وكان شيث أطول قامة من قايين وهابيل وأشد من أخويه شبها بأبيه ، وكان رجلا فاضلا ، سار في خطوات هابيل . أما في الأمور الطبيعية فلم يرث إمكانيات أفضل من قايين . قيل عن آدم حين خُلق «عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ» (تكوين ١: ٢٧) أما بعد السقوط فقد قيل عن بني الإنسان: «وَوَلَدَ وَلَدًا عَلَى شَبَهِهِ كَصُورَتِهِ» (تكوين ٥: ٣) فمع أن آدم خلق بلا خطية ، على صورة الله ، فإن شيث ، كقايين ، ورث طبيعة أبويه الساقطة ، ولكنه هو أيضا حصل على معرفة الفادي والتعليم في البر . وبنعمة الله خدم الرب وأكرمه ، واجتهد ، كما كان يمكن أن يفعل هابيل لو عاش ، في رد قلوب الخطاة إلى إكرام الخالق وطاعته .

«وَلِشِيثَ أَيْضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ . حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ» (تكوين ٤: ٢٦) لقد كان الأمناء يعبدون الرب من قبل ، ولكن إذ تكاثر الناس ظهر الفارق بين الفريقين بأكثر وضوح ، فإن فريقا منهما اعترفوا علنا بولائهم لله ، أما الفريق الثاني فاحتقروا الله العلي وعصوه .

ولقد حفظ أبوانا الأولان السبت قبل السقوط ، إذ كان السبت قد أُعطي لهما في جنة عدن . وحتى بعد طردهما من الجنة ظلا يقدسانه . لقد ذاقا ثمار العصيان المرة ، وتعلما ما لا بد أن يتعلمه كل من يدوس وصايا الله ، إنْ عاجلا أو آجلا ، وهو أن وصايا الله مقدسة وثابتة ، وأنه لا بد من وقوع القصاص على كل عصيان . ولقد حفظ السبت كل من ظلوا ثابتين على ولائهم لله من نسل آدم ، أما قايين ونسله فلم يحفظوا ذلك اليوم الذي استراح الله فيه ، بل اختاروا لأنفسهم الوقت الذي يحلو لهم للعمل والراحة ، دون ما

اعتبار لأمر الرب الواضح .

بعدما سمع قايين اللعنة التي أوقعها الله عليه ، انسحب من بين عائلة أبيه . كان قد اختار حرفته أولا عاملا في الأرض ، وبنى مدينة ودعاها باسم ابنه الاكبر . لقد خرج من حضرة الرب ، وألقى بالوعد باسترجاع عدن بعيدا عنه ليبحث عن أملاكه وتمتعاته في الأرض تحت لعنة الخطية ، وهكذا صار رئيسا للجمهور العظيم من الناس الذين يتعبدون لإله هذا العالم . وفيما يختص بالأمور الأرضية والنجاح المادي اشتهر نسله ، ولكنهم كانوا عديمي الاكتراث لله ومقاومين لمقاصده نحو الإنسان . وأضاف لامك ، الخامس من قايين ، إلى جريمة القتل التي كان قايين أول مرتكبيها ، تعدد الزوجات ، وفي تعديه وتفاخره اعترف بالله فقط ليستخرج من انتقامه لقايين ضمانا لسلامته هو ، أما هابيل فكان قد عاش عيشة هادئة ، سلكنا في خيام أو مظلات . واتبع نسل شيث مثال هابيل في ذلك إذ «أَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ غُرَبَاءُ وَنُزَلاَءُ» إذ كانوا «يَبْتَغُونَ وَطَنًا أَفْضَلَ، أَيْ سَمَاوِيًّا» (عبرانيين ١١: ١٣،١٦) .

ظل الفريقان منفصلين بعض الوقت ، فنسل قايين انتشروا من مسكنهم الأول وتفرقوا في السهول والوديان حيث كان يعيش نسل شيث ، فلكي ينجو نسل شيث من عدوى هؤلاء القوم وتأثر أخلاقهم الشريرة نزحوا إلى الجبال وعاشوا هناك . وقد احتفظوا بعبادة الله في طهارتها ما ظل هذا الانفصال قائما ، ولكن بمرور الزمن بدأوا يجازفون قليلا قليلا للاندماج في سكان السهول حتى ، نتج عن هذا الاندماج أسوأ النتائج ، ذلك «أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ» (تكوين ٦: ٢) فإذ اجتذب جمال بنات قايين أنظار أبناء شيث أسخطوا الله بسبب تزوجهم بهن ، وكثيرون من عبيد الله أغوتهم الإغراءات التي كانت أمام أنظارهم دائما لارتكاب الخطية ، وبذلك خسروا صفة القداسة التي كانت طابعهم الخاص . وإذ اندمجوا بالفاسدين صاروا مثلهم في روحهم وأعمالهم ، وعادوا لا يراعون مطاليب الوصية السابعة أو يتقيدون بها ، بل «اتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا» (تكوين ٦: ٢) إن أبناء شيث «سَلَكُوا طَرِيقَ قَايِينَ» (يهوذا ١١) فلقد ركزوا تفكيرهم في النجاح المادي والتمتعات الخاطئة ، مهملين وصايا الرب . «لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ» «بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ» لذلك «أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ» (رومية ١: ٢١،٢٨) لقد انتشرت الخطية في الأرض مثل برص مميت .

عاش آدم بين الناس ما يقرب من ألف سنة كشاهد لنتائج الخطية ، وبأمانة حاول أن يصد تيار الشر . لقد أمر بأن يعلم نسله طريق الرب ، وبكل حرص على كل ما أعلنه له الله واختزنه في قلبه ، وجعل يتلوه على الأجيال المتعاقبة من نسله ، فوصف لبنيه وبني بنيه حتى الجيل التاسع حالة الإنسان المقدسة السعيدة حين كان في الفردوس ، وتلا على مسامعهم تاريخ سقوطه ، وأخبرهم عن الآلام التي بواسطتها علمه الله ضرورة التمسك الشديد بشريعته ، كما أوضح لهم عن التدبير الرحيم الذي قد أعده لخلاصهم ، ومع ذلك فقليلون جدا هم الذين التفتوا إلى ما قال ، وفي غالب الأحيان كانوا يواجهونه باللوم والتقريع على خطيته التي جلبت على نسله كل تلك الويلات .

كانت حياة آدم حياة الحزن والاتضاع والانسحاق . ولما أخرج من عدن ازعجته فكرة كونه لا بد أن يموت ، فامتلأ قلبه رعبا . لقد اختبر حقيقة الموت في الأسرة البشرية يوم صار قايين ابنه البكر قاتلا لأخيه ، وإذ امتلأ قلبه ندامة مُرة على خطيته ، وشعر بحزن مضاعف على ابنه هابيل ، ولكون قايين قد رُفض انحنت نفسه تحت ضغط الحزن والألم . ولقد شهد انتشار الفساد المتفشي الذي كان سيسبب هلاك العالم بالطوفان ، ومع أن حكم الموت الذي كان جابله قد حكم به عليه ظهر مرعبا له في البداءة ، فإنه بعد ما شاهد نتائج الخطية لمدة تقرب من الألف سنة أحس أنها رحمة عظيمة من الله أن ينهي حياته المفعمة بالأحزان والآلام .

وبالرغم من شر الناس الذين عاشوا قبل الطوفان فإن ذلك العصر لم يكن عصر جهالة أو همجية كما ظن الناس طويلا ، فلقد أعطيت للناس فرصة لبلوغ مقياس أدبي وعقلي سامٍ ، وكانت لديهم قوة عقلية وبدنية عظيمة كما كانت لديهم فرص لا تبارى للحصول على قدر كبير من المعرفة الدينية والعلمية . فمن الخطأ أن نظن أنه لكونهم عاشوا أعمارا طويلة جاء نضج عقولهم متأخرا ، فإن قواهم العقلية نمت في بكور حياتهم ، والذين كان خوف الله في قلوبهم وعاشوا في وفاق مع إرادته ، واظبوا على الاستزادة من المعرفة والحكمة مدى حياتهم . ولو أجريت مقارنة بين العلماء الأفذاذ في هذه الأيام ومن عاشوا قبل الطوفان ممن كانوا في مثل أعمارهم لتبرهن أن علماء اليوم أدنى ، إلى حد بعيد ، في قواهم العقلية والجسمانية مما كان أولئك . وبقدر ما قصرت أيام حياة الإنسان وضعفت قواه الجسمية

تضاءلت كذلك قواه العقلية . في هذه الأيام يعكف الناس على الدرس والتحصيل مدة عشرين إلى خمسين سنة ، فتملأ الدهشة العالم لكثرة ما قد أحرزوه ووصلوا إليه . ولكن ما أقل ما حصلوا عليه بالمقارنة مع ما حصل عليه أولئك الذين ظلت قواهم العقلية والجسمانية تنمو قرونا طويلة ؟

صحيح أن أهل العصر الحاضر قد انتفعوا بما حصل عليه أسلافهم من اختبارات واكتشافات . إن أولئك الرجال ذوي العقول الجبارة الذين رسموا خططهم ودرسوا وكتبوا تركوا ثمرات جهودهم لمن جاءوا بعدهم ، ولكن حتى من هذه الوجهة ومن وجهة نظر المعرفة البشرية كم كانت امتيازات أولئك القوم الذين عاشوا في الأجيال السالفة أعظم بكثير مما هي في هذه الأيام . لقد كان بينهم ، لمئات السنين ، ذاك الذي خلق على صورة الله والذي قال عنه الخالق نفسه أنه «حَسَنٌ»– الإنسان الذي علمه الله بكل حكمة تختص بالعالم المادي . لقد تعلم آدم من خالقه تاريخ الخلق ، وشاهد بعينيه ما حدث خلال تسعة قرون ، ونقل تلك المعرفة إلى نسله . لم تكن لدى الناس الذين عاشوا قبل الطوفان كتب ولا سجلات مكتوبة ، ولكن بسبب نشاطهم الجسماني والعقلي كانت لهم ذاكرة قوية لإدراك واستيعاب كل ما قد تعلموه ، وأمكنهم أن يسلموه لمن أتوا بعدهم سليما لم يعتره نقص ولا تحوير . ولمدة مئات السنين كانت هناك سبعة أجيال معاصرة لبعضها البعض على الأرض ، وكانت لهم الفرصة للتشاور معا ، وليستفيد كل منهم من معرفة الجميع واختبارهم .

وإن الامتياز الذي تمتع به الناس في ذلك العصر للحصول على معرفة الله عن طريق أعماله ليس له مثيل منذ ذلك الحين ، فبدلا من أن يكون ذلك التاريخ تاريخا مظلما من الوجهة الدينية كان عصر نور عظيم ، وكان لكل العالم فرصة تلقي النور والمعرفة من آدم . وأولئك الذين كانوا يخافون الله كان المسيح والملائكة يتولون أمر تعليمهم ، وكان لهم من جنة الله التي ظلت باقية بين الناس أجيالا طويلة شاهد صامت للحق . ولقد تجلى مجد الله عند باب الفردوس الذي كان يحرسه الكروبيم ، وكان العابدون الأولون يأتون إلى ذلك المكان ، فكانوا يبنون مذابحهم ويقدمون قرابينهم . إلى ذلك المكان أتى قايين وهابيل بتقدماتهما ، فتنازل الله ليتصل بهما .

ولم يستطع الإلحاد إنكار وجود جنة عدن التي كانت ترى رأي العين والملائكة يحرسون مدخلها . ثم أن نظام الخليقة والغاية من الجنة وتاريخ الشجرتين المغروستين فيها واللتين كانتا مرتبطتين بمصير الإنسان- كل هذه حقائق لا موضع للجدل فيها . كما أن وجود الله وسلطانه العظيم والتزام الإنسان بحفظ شريعته- كل تلك كانت حقائق لا مجال لأن يشك الناس فيها- طيلة ما كان آدم عائشا بينهم .

وبالرغم من انتشار الإثم فقد كان هنالك قافلة من القديسين الذين إذ عظمتهم ورفعت من شأنهم شركتهم مع الله عاشوا كعشراء السماء ، وكانوا ذوي عقول جبارة وإدراك عجيب ، وكانت لديهم رسالة عظيمة ومقدسة ، ألا وهي صوغ صفات البر ، وتعليم الناس مبادئ التقوى ، ليس فقط لمعاصريهم ، بل أيضا لأجل الأجيال اللاحقة . ومن بين أشهر القديسين ذكر عدد قليل في الكتاب المقدس . ولكن كان لله في كل جيل شهود أمناء من المتعبدين الكاملي القلوب .

وورد عن أخنوخ أنه عاش خمسا وستين سنة وولد ابنا ، وبعد ذلك سار مع الله ثلاث مئة سنة ، وفي خلال سني حياته الأولى أحب الله واتقاه وحفظ وصاياه . كان أخنوخ من نسل القديسين حافظي الإيمان القويم أسلاف النسل الموعود به ، وسمع من فم آدم قصة السقوط المحزنة والخبر المفرح عن نعمة الله التي تجلت في الوعد ، فاعتمد على الفادي الآتي . ولكن بعدما ولد لأخنوخ ابنه البكر حصل على اختبار أسمى ، فلقد وصل إلى ثقة وثيقة في القرب من الله ، وتحقق ، بأكثر يقين ، من التزاماته ومسئوليته كابن الله . وعندما رأى محبة الابن لأبيه وثقته البسيطة في حمايته ، وحينما شعر في قلبه بالشوق العميق والحنو العظيم نحو ابنه البكر ، تعلم درسا عظيما عن محبة الله العجيبة للناس في بذله ابنه ، والثقة التي يمكن أولاد الله أن يضعوها في أبيهم السماوي . وأن محبة الله غير المحدودة في ابنه يسوع المسيح ، تلك المحبة التي لا يسبر غورها ، صارت موضوع تأمل أخنوخ نهارا وليلا ، وبكل غيرة مضطرمة في نفسه عوَّل على أن يكشف للناس الذين عاش بينهم عن تلك المحبة العجيبة .

لم يكن سير أخنوخ مع الله في غيبة أو رؤيا ، بل في كل أعماله وواجباته اليومية . لم يصبح ناسكا ولا حبس نفسه كلية عن العالم ، بل كان لديه عمل يعمله لله في العالم ، ففي

عائلته وفي أحاديثه مع الناس ، وكزوج وأب وصديق ومواطن كان عبدا للرب أمينا وثابتا .

كان قلبه حسب إرادة الله ، لأنه «هَلْ يَسِيرُ اثْنَانِ مَعًا إِنْ لَمْ يَتَوَاعَدَا ؟» (عاموس ٣: ٣) وقد ظل سائرا مع الله مدة ثلاث مئة سنة . قليلون من المسيحيين هم الذين لا يرغبون في أن يكونوا غيورين وحارين في عبادتهم وصلاتهم لو عرفوا أنهم لن يعيشوا طويلا ، أو أن مجيء المسيح قريب على الأبواب ، أما أخنوخ فقد صار إيمانه أقوى ومحبته أشد التهابا بمرور الأجيال .

كان أخنوخ رجلا ذا عقل قوي ، مهذبا تهذيبا عاليا وواسع الأفق في المعرفة ، وقد أكرمه الله بإعلانات خاصة ، ومع ذلك فلأنه كان في شركة مستمرة مع السماء ، يشعر شعورا عميقا دائما بعظمة الله وكماله كان من أكثر الناس وداعة واتضاعا ، فكلما زاد اتصاله بالله زاد شعورا بضعفه هو ونقصه .

وإذ أزعجه تفاقم شرور الناس الفجار ، ولخوفه من أن يقلل إلحادهم من توقيره وإكرامه لله قلل من اجتماعه بهم وقضى وقتا طويلا منفردا مختليا للتأمل والصلاة ، وهكذا انتظر أمام الرب في طلب معرفة أوضح لإرادته ليتممها . وكانت الصلاة في نظره هي نسمة الحياة التي تتنسمها نفسه ، فلقد عاش في جو السماء .

وبواسطة الملائكة القديسين أعلن الله لأخنوخ قصده في إهلاك العالم بطوفان ، وبسط له ، بأكثر وضوح تدبير الفداء ، وبروح النبوة حمله عبر الأجيال التي كانت ستعيش بعد الطوفان ، وأراه الحوادث المتعلقة بالمجيء الثاني للمسيح وانقضاء العالم .

انزعج أخنوخ بالنسبة للأموات ، إذ تراءى له أن الأبرار والأشرار سيضمهم التراب معا ، وتكون هذه نهايتهم جميعا ، ولم يكن يعرف شيئا عن حياة الأبرار بعد القبر . ففي رؤيا نبوية تعلم أشياء خاصة بموت المسيح ، وأعلن له مجيئه ثانية في مجده مع جميع الملائكة القديسين ليفدي شعبه من القبر ، كما رأى حالة الفساد الذي سيكون سائدا في العالم حين يظهر المسيح ثانية– وأنه ليكون هنالك جيل متفاخر عات متكبر ينكر الإله الوحيد والرب يسوع المسيح ، يدوس الشريعة ويحتقر الكفارة . ورأى الأبرار مكللين بالمجد والكرامة ، كما رأى الأشرار يطردون من حضرة الرب ليهلكوا في سعير النار .

وصار أخنوخ كارزا للبر ، فأخبر الناس بما قد أعلنه له الله . فالذين اتقوا الرب سعوا إلى هذا القديس ليستمعوا إلى تعاليمه وصلواته ، وأخذ هو يخدم الجمهور أيضـا حـاملا رسـالة السماء لكل الراغبين في سماع الإنذارات ، ولم تقتصر خدماته على نسل شـيث ، بـل فـي الأرض التي حاول قايين فيها الهروب من وجه الرب هناك أيضا حدّث نبي الله ذاك (أخنـوخ) كل الناس بالمناظر العجيبة التي كان قد رآها ، وأعلن قائلاً : «هُوَذَا قَدْ جَاءَ الرَّبُّ فِي رَبَـوَاتِ قِدِّيسِيهِ ، لِيَصْنَعَ دَيْنُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ ، وَيُعَاقِبَ جَمِيعَ فُجَّارِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَـالِ فُجُورِهِـمُ » (يهوذا ١٤،١٥) .

وكان موبخا للخطية غير هياب ، وعندما كان يكرز بمحبة الله في المسيح لبنـي جنسـه متوسلا إليهم أن يتركوا طرقهم الشريرة كان يوبخ الآثام المتفشية بينهم وينذر معاصريه بـأن الدينونة ستحل بالعصاة ، ما من ذلك بد . لقد كان روح المسيح هو الذي تكلـم علـى لسـان أخنوخ ، وذلك الروح لا يعلن فقط في ألفاظ المحبـة والرفـق والتوسـل ، لأن القديسـين لا يتكلمون بالناعمات فقط ، بل إن الله يضع على ألسنة رسله وفي قلوبهم حقائق قاسية خارقـة قاطعة كسيف ذي حدين لينطقوا بها .

أحس السامعون بقوة الله العاملة مع خادمه ، فالتفت بعضهم إلى الإنذار وتركوا خطاياهم ، ولكن الغالبية العظمى سخروا من تلك الرسالة الخطيرة وأوغلوا في طرقهم الشريرة بـأعظم جرأة . على خدام الله أن يحملوا إلى العالم في هذه الايام الأخـيرة رسـالة شـبيهة برسـالة أخنوخ ، ولا بد أن يقابلها العالم بعدم الإيمان والسخرية . لقد رفض الناس الذين عاشوا قبـل الطوفان كلمات الإنذار التي فاه بها ذلك الرجل الذي سار مع الله ، كذلك سيستخف النـاس ، في هذه الأيام الأخيرة ، بإنذارات رسل الرب .

وفي غمرة الحياة المزدحمة بالعمل النشيط داوم أخنوخ ، بكل ثبات ، على شركته مع الله . فكلما كثرت أعماله وضغطته واجباته ازداد غيرة وحرارة في صلواته . وفي بعض الأوقـات استمر معتزلا المجتمع كله . فبعدما كان يقضي بعض وقته بين الناس معلما إيـاهم بأقوالـه ومثاله ، كان يعتزل ليقضي وقتا وهو منفرد وجائع وظامئ إلى تلك المعرفة الإلهية التـي لا يعطيها أحد غير الله ، وإذ كان أخنوخ متمتعا بتلك الشركة الجميلة مـع الله انعكسـت عليـه صورة الرب ، فكان وجهه يلمع بنور مقدس ، وهو النور الذي يشع من وجه يسـوع ، فلمـا

86,87

كان يخرج من مخدع الشركة والصلاة ، كان الناس ، حتى الأشرار منـــهم ، يـرون ، فـي رهبة ، صورة السماء منطبعة على وجهه .

لقد بلغ شر الناس إلى عنان السماء حتى لقد حكم عليهم بالهلاك . وبمرور السنين انحـــدر الناس في جرائمهم وشرورهم إلى أحط الدركات ، فبدأت سحب دينونة الله تتجمع في أفق حياة أولئك القوم . ومع ذلك فإن أخنوخ ، الشاهد الأمين ، ظل سائرا في طريقـــه منــذرا النــاس ومحاجّا ومتوسلا محاولا أن يصد تيار الجرائم ليحول دون انسكاب جامات النقمة . ومـــع أن الناس الخطاة ، محبي المسرات والملذات ، استخفوا بإنذاراته فقد قدم الشهادة التي ســـر بـــها الله ، واستمر بكل أمانة يناضل ضد الشرور المتفشية بين الناس حتى نقله الله من عالم الخطية والإثم إلى سماء الفرح والقداسة .

إن أهل ذلك العصر سخروا من جهالة ذلك الذي لم يحاول أن يجمع لنفسه فضـــة أو ذهبا أو يبني لنفسه بيوتا وتكون له ثروة . ولكن أخنوخ وضع قلبه على الكنوز الأبديـــة الباقية . كان ينتظر المدينة السماوية ، ولقد رأى الملك ، رب الجنود ، في مجـــده فـي وسط صهيون ، وكان فكره وقلبه وسيرته وحديثه في السماء . وعلى قدر ما تفاقمت آثام الناس التهب قلبه شوقا إلى مسكن الله . ومع أنه كان لا يزال على الأرض فبالإيمان كـان يسكن في ديار النور .

«طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ» (متى ٥: ٨) . لمدة ثلاث مئـــة ســنة كــان أخنوخ يطلب طهارة النفس ليكون على وفاق مع السماء ، ولمدة ثلاثة قرون ســـار مـــع الله ، ومن يوم إلى يوم كان يتوق إلى اتحاد أوثق بالله ، وكان في شركته مع الله يـــزداد قربا منه حتى أخذه الله إليه . لقد وقف على أعتاب العالم الأبدي ، ولم يكن بينـــه وبيـن موطن المباركين غير خطوة واحدة ، والآن هوذا قد فتحت الأبواب ، فظل سائرا في ذلك الطريق الذي كان قد قطع فيه شوطا بعيدا حتى دخل من أبواب المدينة المقدسة- وكـــان أول إنسان دخل إلى هناك .

أحس سكان الأرض بالخسارة بعد انتقاله ، وسكت ذلك الصوت الذي طالما ارتفع منـــذرا ومعلما . إن بعضا من الأبرار والأشرار شاهدوه عند ارتحاله ، وإذ كان بعض محبيه يؤملون أنه ربما يكون قد حمل إلى أحد الأماكن التي كان يعتكف فيها جعلوا يفتشون عنه باجتـــهاد ،

كما فتش بنو الأنبياء عن إيليا بعد ذلك ، ولكن بلا جدوى ، فأخبروا الناس قائلين أنه لم يوجد لأن الله نقله .

أراد الله بنقل أخنوخ إليه أن يعلمنا درسا هاما . كان هنالك خطر من أن الناس قد تثبط هممهم بسبب النتائج المخيفة لخطية آدم ، فقد يصرخ كثيرون قائلين : «ما الفائدة من أننا اتقينا الله وحفظنا وصاياه ما دام أن لعنة ثقيلة حالة على الجنس البشري كله ، والموت هو نصيب كل الناس ؟» ولكن التعليمات التي أعطاها الله لآدم ، ورددها شيث وعاشها أخنوخ طردت الظلمات الحالكة ومنحت الإنسان الرجاء ، حتى كما في آدم أتى الموت كذلك في الفادي الموعود به تأتي الحياة والخلود . لقد حاول الشيطان أن يقنع الناس بأنه لا ثواب للأبرار ولا عقاب على الأشرار ، وأنه يستحيل على الناس أن يحفظوا وصايا الله . ولكن في حادث أخنوخ أعلن الله «أَنَّهُ مَوْجُودٌ ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ» (عبرانيين ١١: ٦) وهو يرينا ما سيفعله لحافظي وصاياه . وقد تعلم الناس أنه يمكنهم حفظ وصايا الله ، وأنه حتى لو عاش الإنسان بين الأثمة والفاسدين يستطيع ، بالاتكال على نعمة الله ، أن يقاوم التجربة ويصير طاهرا وقديسا ، ورأوا ذلك في حياة أخنوخ . وكان صعوده برهانا على صدق نبوته بخصوص الأبدية بما يشملها من ثواب الفرح والمجد والحياة الأبدية لمن يطيعون ، والدينونة والموت والويلات للعصاة .

«بِالإِيمَانِ نُقِلَ أَخْنُوخُ لِكَيْ لاَ يَرَى الْمَوْتَ ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ نَقَلَهُ . إِذْ قَبْلَ نَقْلِهِ شُهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَرْضَى اللهَ» (عبرانيين ١١: ٥) ففي وسط عالم مليء بالإثم محكوم عليه بالهلاك عاش أخنوخ حياة الشركة الوطيدة مع الله حتى لم يسمح له أن يقع في قبضة الموت . إن صفة التقوى التي كانت لهذا النبي تمثل لنا حالة القداسة التي ينبغي أن يصل إليها الذين «اشْتُرُوا مِنَ الأَرْضِ» (رؤيا ١٤: ٣) في مجيء الرب ثانية . وكذلك فكما كانت الحال قبل الطوفان هكذا عند مجيء الرب سيعم الإثم كل مكان ، فإذ يخضع الناس لأميال قلوبهم الشريرة والتعاليم الفلسفية الكاذبة سيتمردون على سلطان السماء . لكن شعب الله سيسعون ، كأخنوخ ، إلى نقاوة القلب والخضوع لمشيئة الرب ، حتى ينعكس عليهم شبه المسيح . وكأخنوخ سينذرون العالم بمجيء الرب ثانية وبالدينونة التي ستحل بالعصاة . وبسيرتهم المقدسة ومثالهم الصالح سيدينون خطايا الأشرار . وكما نقل أخنوخ إلى السماء قبلما هلك العالم بالطوفان فكذلك الأبرار الأحياء سينقلون من الأرض قبل هلاكها بالنار . يقول الرسول : «لاَ نَرْقُدُ كُلُّنَا ، وَلَكِنَّنَا

كُلَّنَا نَتَغَيَّرُ ، فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، عِنْدَ الْبُوقِ الأَخِيرِ» (اكورنثــوس ١٥: ٥١،٥٢) «لأَنَّ الرَّبّ نَفْسَهُ بِهُتَاف ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ ، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَمْوَاتُ فِــي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً . ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاة الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ ، وَهكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ . لِذلِكَ عَــزُّوا بَعْضُكُــمْ بَعْضًــا بِــهذَا الْكَــلاَمِ» (تسالونيكي الأولى ٤: ١٦-١٨) .

الفصل السابع

الطوفان

في أيام نوح حلت على الأرض لعنة مضاعفة نتيجة لعصيان آدم وجريمة قـايين إذ قتـل أخاه ، على أن هذا لم يغير وجه الطبيعة إلى حد كبير . لقد كانت هنالك علامات واضحة على الانحلال ، ومع ذلك فقد كانت الأرض لم تزل غنية وجميلة بهبات عناية الله . لقد كانت التلال مكللة بأشجار عظيمة تستند عليها أغصان أشجار الكرم ، كما اكتست السهول الواسعة بالعشب والخضرة اليانعة ، هذا فضلا عن الأزهار العطرة التي نمت بكثرة وعطّرت الأرجاء . وكانت ثمار الأرض متعددة الأنواع تكاد لا تقع تحت حصر ، وكانت الأشجار هائلـة فـي حجمـها وجمالها وتناسقها الكامل ، أعظم من كل ما نراه اليوم ، وكانت أخشابها متينة دقيقة الـذرات جدا شبيهة بالأحجار وتكاد تكون مثل قوة احتمالها ، أما الفضة والذهب والحجارة الكريمة فقد وجدت بكثرة .

وكان الجنس البشري لا يزال محتفظا بكثير من حيويته السابقة ، ولكن مرت بضعة أجيال منذ كان مسموحا لآدم بأن يأكل من شجرة الحياة التي كان القصد منها إطالة الأعمار ، وكـان عمر الإنسان لا يزال يقاس بالقرون . ولو أن أولئك الناس الطوال الأعمار ، بقوتهم النـادرة على الابتكار والتنفيذ ، كرسوا نفوسهم لعبادة الله وخدمته لكانوا قد جعلوا اسم خالقهم تسـبيحة في الأرض ، وكانوا قد تمموا الفرض الذي لأجله منحهم الحياة ، ولكنهم أخفقوا في هذا . لقـد كان بينهم جبابرة كثيرون ، أناس لهم قامات طويلة وقوة هائلة ، اشتهروا بالحكمة ومهروا في القيام بالأعمال الدقيقة العجيبة ، ولكن جريمتهم في إطلاق العنان للإثم كـانت متناسـبة مـع مهارتهم ومقدرتهم العقلية .

لقد منح الله الناس قبل الطوفان هبات كثيرة وسخية ، ولكنهم استخدموا هباته فـي تمجيـد أنفسهم ، فحولوا تلك الهبات إلى لعنات إذ ركزوا عواطف محبتهم على العطايا دون المعطي ، واستخدموا الفضة والذهب والحجارة الكريمة وأفضل الأخشاب في بناء مساكن لهم ، وحـاول

كل منهم أن يفوق الآخرين في تجميل تلك المساكن بأجمل وأندر ما أخرجته أيدي الصنـــاع . لقد أرادوا فقط إشباع غرورهم ورغبات قلوبهم المتكبرة . وسروا وتهللوا بمنـــاظر الملــذات والإثم . وحيث أنهم لم يريدوا أن يبقوا الله في معرفتهم فسرعان ما أنكروا وجوده . لقد مجدوا الطبيعة بدلا من إله الطبيعة ومبدعها ، مجدوا وعظموا العبقرية البشرية ، وعبـــدوا أعمـــال أيديهم وعلموا أولادهم أن يتعبدوا للتماثيل المنحوتة .

وفي الحقول الخضراء وتحت كل شجرة جميلة غبياء أقاموا مذابح لأوثانـــهم ، وكرســوا الغابات الواسعة التي بها أشجار دائمة الإخضرار على مدار السنة لعبادة الآلهة الكاذبة . وقــد اتصلت بهذه الغابات حدائق جميلة بطرقاتها الطويلة المتعرجة تتدلى من فوقها أثمار الأشــجار من كل صنف ، وهى مزدانة بالتماثيل وبكل ما يبهج الحواس أو يثير الشــهوات . وهكــذا إذ انخدعوا تردوا في هاوية العبادة الوثنية .

لقد أخرج الناس الله من معرفتهم وعبدوا خلائــق مــن تصوراتــهم ، فــزاد ذلــك مــن انحطاطهم . إن المرنم يصف التأثير الذي يحدث لمن يتعبدون للأوثان فيقول : «مِثْلَهَا يَكُـــونُ صَانِعُوهَا ، بَلْ كُلُّ مَنْ يَتَّكِلُ عَلَيْهَا» (مزمور ١١٥: ٨) من قوانين العقل البشري أننـــا نتغـــير بالنظر ، إن الإنسان لا يرتفع فوق تصوره للحق والنقاوة والقداسة ، فإذا لم يرتفع فوق مستوى البشرية ، إذا لم يرتفع بالإيمان ليتأمل في الحكمة والمحبة غير المحدودتيـــن فســينحدر إلـــى الأسفل باستمرار . إن عبدة الآلهة الكاذبة قد ألبسوا آلهتهم صفات شهوانية بشـــرية ، ولذلـــك انحط مقياسهم إلى شبه البشرية الخاطئة ، فتنجسوا تبعا لذلك ، «وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَـــانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ ... وَفَسَـــدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ ، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا» (تكوين ٦: ٥،١١) . لقد أعطى الله الناس وصايـــاه لتكـــون قانونا لحياتهم ، ولكنهم تعدوا الشريعة فنتج عن ذلك أنهم ارتكبوا كل أنواع الخطايا التي يمكـن تصورها . كان شر الناس علنيا وجريئا ، وديس العدل في التراب وصعد صراخ المظلوميـــن إلى عنان السماء .

إن بدعة تعدد الزوجات دخلت إلى العالم منذ القديم خلافا للنظام الذي وضعه الله منـــذ البدء إذ أعطى الله آدم امرأة واحدة ، معلنا بذلك نظامه في هذه المسألة ، ولكن الناس بعد السقوط اختاروا اتباع شهواتهم الخاطئة ، ونجم عن ذلك أن كثرت الجرائم وعم الشـــقاء

بسرعة مذهلة ، ولم يعد الناس يراعون صلات الزواج ولا حقوق الملكية ، فكل من اشتهى امرأة قريبه أو أملاكه اغتصبها منه لنفسه ، واعتز الناس وابتهجوا بالمظالم ، كما وجدوا مسرتهم في قتل الحيوانات . وكونهم استعملوا اللحم طعاما لهم زاد من وحشيتهم وقسوتهم وحبهم لسفك الدماء ، وقادهم ذلك إلى عدم الاكتراث للحياة البشرية ، وكان ذلك أمرا مذهلا .

ومع أن العالم كان في دور الطفولة فقد تأصلت الآثام في أعماق طبيعة البشر وانتشرت انتشارا ذريعا بحيث لم يعد الله قادرا على الاحتمال ، «فَقَالَ الرَّبُّ : أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ» (تكوين ٦: ٧) وأعلن أن روحه لا يدين في الإنسان إلى الأبد . وما داموا لم يكفوا عن أن يفسدوا بخطاياهم العالم وكنوزه الثمينة فسيمحوهم من خليقته ، وسيلاشي كل الأشياء التي سر بأن يباركهم بها ، وسيمحو من الوجود كل حيوانات الحقل والأعشاب والأشجار التي أمدتهم بالطعام الوافر ، وسيحوّل الأرض الجميلة إلى كتلة ضخمة من الدمار والخراب .

وفي وسط ذلك الفساد المتفشي اجتهد متوشالح ونوح وآخرون غيرهما أن يبقوا معرفة الإله الحقيقي حية ، وأن يصدوا عن العالم تيار الشرور الأدبية الجارف . وقبل مجيء الطوفان بمئة وعشرين سنة أعلن الرب لنوح بواسطة ملاك بار قصده ، وأرشده إلى بناء فلك ، وفي أثناء بناء الفلك كان عليه أن يعلن للناس أن الله مزمع أن يرسل على الأرض طوفانا من الماء يهلك الأشرار . فالذين يؤمنون بالرسالة ويتأهبون لتلك الكارثة بالتوبة والإصلاح سيجدون غفرانا ويخلصون . لقد سبق لأخنوح أن ردد على مسامع أولاده ما قد أراه الله إياه بشأن الطوفان . وأن متوشالح وبنيه الذين عاشوا حتى سمعوا كرازة نوح ، أعانوا في بناء الفلك .

وأعطى الله لنوح الأبعاد والقياسات المضبوطة للفلك والتعليمات اللازمة للبناء بكل تفاصيلها ، وكانت الحكمة البشرية عاجزة عن تصميم بناء كذلك البناء في قوته ومتانته . لقد كان الله هو الذي صمم ، وكان نوح البنّاء العظيم . لقد بني الفلك على هيئة هيكل سفينة لكي يطفو على وجه الماء ، ولكنه من بعض الوجوه كان يشبه البيت ، كان مكونا من ثلاث طبقات ، ولم يكن له غير باب واحد على أحد جوانبه ، وكان النور ينفذ إلى داخله من أعلاه .

وقد رتبت الحجرات بحيث كان النور يدخلها جميعها . والخشب الذي استعمله نوح في صنع الفلك هو شجر الجفر أو السرو الذي لا يتطرق إليه التلف بعد مئات السنين ، وكانت عملية بناء الفلك الهائل الحجم عملية بطيئة ومضنية . وبسبب ضخامة الأشجار ومتانة أخشابها كان أمر إعداد الخشب يتطلب جهدا أعظم مما هو الآن ، رغم القوة الهائلة التي امتاز بها أهل ذلك العصر . ولقد عمل كل ما في إمكان البشر عمله لكي يكون العمل كاملا ، ولكن الفلك لم يكن ، بحد ذاته ، قادرا على تحمل تلك العاصفة الهائلة التي كانت موشكة أن تجتاح الأرض ، إلا أن الله وحده كان يستطيع أن يحفظ عبيده من وسط تلك اللجج الهائجة .

«بِالإِيمَانِ نُوحٌ لَمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ عَنْ أُمُورٍ لَمْ تُرَ بَعْدُ خَافَ ، فَبَنَى فُلْكًا لِخَلاَصِ بَيْتِهِ ، فَبِهِ دَانَ الْعَالَمَ ، وَصَارَ وَارِثًا لِلْبِرِّ الَّذِي حَسَبَ الإِيمَانِ» (عبرانيين ١١: ٧) وفيما كان نوح يقدم إنذاراته للعالم برهنت أعماله على إخلاصه ، وبهذه الكيفية كمل إيمانه وبدا صريحا . فلقد قدم للعالم مثالا للرجل الذي يصدق نفس ما قاله الله ، فاستخدم كل ما كان يملكه في بناء الفلك ، وعندما بدأ في صنع ذلك الفلك الهائل على الأرض اليابسة أتت جماهير الناس من كل صوب لمشاهدة ذلك المنظر الغريب ولسماع كلمات الإنذار الغيورة الملتهبة من فم ذلك الكارز الفريد . فكل ضربة من ضربات المطارق في بناء الفلك كانت شهادة للناس .

ظهر في البداءة أن كثيرين قبلوا الإنذار ، إلا أنهم لم يرجعوا إلى الله بتوبة صادقة ، فلم يرضوا أن يهجروا خطاياهم ، وفي خلال المدة التي مرت قبل مجيء الطوفان امتحن إيمان أولئك القوم ولكنهم أخفقوا في الامتحان ، فإذ انهزموا أمام تيار عدم الإيمان المتفشي انضموا إلى رفقائهم السابقين في رفض تلك الرسالة الخطيرة . وقد تبكت بعض منهم تبكيتا عميقا وكان يمكنهم قبول الإنذار ، ولكن كانت هناك جماهير كثيرة جدا عمدت إلى التندر والسخرية ، حتى أن هؤلاء اشتركوا معهم في الروح نفسها ، فقاوموا دعوات الرحمة ، واندمجوا في وسط أكثر المستهزئين جرأة وتحديا ، لأن أكثر الناس طيشا ممن يوغلون في طريق الخطية هم أولئك الذين قد استنيروا مرة ولكنهم قاوموا تبكيت روح الله .

إن أهل ذلك العصر لم يكونوا كلهم عبدة أوثان بكل معنى الكلمة ، فلقد اعترف كثيرون منهم أنهم يعبدون الله ، وادعوا أن أوثانهم ما هي إلا تمثيلات أو صورة لله ، وأنه عن طريقها يمكنهم إدراك الكائن الإلهي إدراكا واضحا . هذا الفريق من الناس كانوا أول من رفضوا

كرازة نوح ، فإذ أرادوا أن يمثلوا الله بأشياء مادية عميت أفكارهم عن إدراك جلاله وقدرتــه ، ولم يتحققوا من قداسة صفاته أو قداسة طبيعة مطاليبه التي لا تتغير . فإذ عمت الخطية جميــع الناس لم تعد في نظرهم خاطئة جدا ، فأعلنوا أخيرا أن شريعة الله لم تعد سارية المفعـــول ، وأنه مما يناقض صفات الله كونه يعاقب العصاة على عصيانهم ، وعادوا لا يصدقـــون أن الله سيوقع ضرباته على ساكني الأرض . ولكن لو أن أهل ذلك العصر أطاعوا شريعة الله لكــانوا قد ميّزوا صوته في إنذارات عبده نوح . ولكن عقولهم كانت قد عميت لكونهم رفضوا النور ، فاعتبروا رسالة نوح خداعا وتضليلا .

إن الذين وقفوا إلى جانب الحق لم يكونوا جماهير أو أكثرية . فلقد هب العـــالم يحــارب عدالة الله وشرائعه ، كما اعتبروا نوحا رجلا متعصبا . لما جرب الشيطان حواء لتعصـــى الله قال لها : «لَنْ تَمُوتَا» إن رجال العلم العظماء والشرفاء والحكماء قالوا : «إن قصد الله من هذه التهديدات هو تخويفنا ، ولكنها لن تتحقق ولن تحدث فلا داعي للانزعاج . إن كون الله يـــهلك العالم الذي قد خلقه ويعاقب الخلائق التي قد جبلها هذا أمر لن يحـــدث ، فـــلا تخــافوا بـــل اطمئنوا . إن نوحا هذا رجل همجي ومتعصب .» ومضى العالم يسخر من غباوة ذلك الشـــيخ المخدوع . وبدلا من أن يتضعوا أمام الله أمعنوا في عصيانهم وشرهم كأن الله لم يحذرهم على لسان عبده .

على أن نوحا وقف كالطود أمام العاصفة . فمع أنه كان مكتنفا باحتقار الناس وســـخريتهم فقد تمسك باستقامته وأمانته . كان كلامه مصحوبا بقوة ، إذ كان هو صوت الله موجها إليـــهم على فم عبده . إن صلته بالله زودته بقوة عظيمة حين كان صوته الوقور يقرع آذان أهل ذلــك العصر مدة مئة وعشرين سنة بخصوص حوادث ظهرت مستحيلة من وجهة النظر البشرية .

كان الناس قبل الطوفان يتحاجون قائلين إن نواميس الطبيعة ظلت ثابتـــة مـــدى عصـــور طويلة ، فالفصول المتعاقبة جاءت في أوقاتها وبموجب نظامها ، ولم يسبق للأمطار أن سقطت قبل الآن ، فالأرض كانت تروى بالضباب أو الندى ، والأنهار لم يسبق لها أن طغـــت علـــى شواطئها ، بل حملت مياهها إلى البحر بسلام ، والقوانين الثابتة منعت المياه مـــن أن تطغـــي على شواطئها . ولكن أولئك المتحاجّين أسقطوا من اعتبارهم يد ذلك الذي أوقف المياه بقوله : «إِلَى هُنَا تَأْتِي وَلاَ تَتَعَدَّى» (أيوب ٣٨: ١١) .

فلما مرت أيام طويلة ولم يحدث أي تغيير في الطبيعة فبعض الناس الذين سبق وارتجفت قلوبهم خوفا بدأوا يستشعرون الأمان . قالوا كما يقول كثيرون اليوم إن الطبيعة تسمو على إله الطبيعة وأن قوانينها ثابتة بحيث لا يستطيع الله نفسه أن يغيرها . ثم قالوا : إذا كانت رسالة نوح صحيحة فلابد من أن تخرج الطبيعة عن مألوف عادتها وقوانينها . وأقنعوا الناس بأن تلك الرسالة هي تضليل وخدعة هائلة ، وبرهنوا على احتقارهم لإنذار الله بكونهم عملوا نفس ما كانوا يعملونه قبل تقديم الإنذار إليهم . وقد ظلوا يولِمون ولائمهم ويقيمون أعيادهم التي تجلت فيها الشراهة والسكر ، فكانوا يأكلون ويشربون ويغرسون ويبنون ويعدون خططهم بالنسبة إلى منافع كانوا يؤملون في الحصول عليها في المستقبل ، وأوغلوا في الشر إلى مدى بعيد ، وتحدوا الله واستخفوا بمطالبيه ليبرهنوا على أنهم لا يخافون الإله غير المحدود ، وتوهموا أنه إذا كان ما قاله نوح صادقا فإن الحكماء والفهماء والرجال العظماء المشهورين سيفهمون الأمر .

لو أن الناس الذين عاشوا قبل الطوفان صدقوا الإنذار وتابوا عن أعمالهم الشريرة لكان الرب رد عنهم حمو غضبه كما فعل بعد ذلك مع أهل نينوى . ولكن ، بمقاومتهم العنيدة لتبكيت ضمائرهم وإنذارات نبي الله ، كمل مكيال إثمهم وفاض ، وصاروا ناضجين ومهيئين للهلاك .

أوشكت مدة امتحانهم أن تنتهي ، وكان نوح قد اتبع ، بكل أمانة ، التعليمات التي كان قد تلقاها من الله ، وكمل الفلك بكل أجزائه كما أمر الله ، وخزن نوح فيه طعاما له ولعائلته وللحيوانات التي ستدخله ، والآن فها رجل الله يقدم آخر إنذار خطير . وبكل حزن ورغبة حارة لا يمكن التعبير عنها توسل إليهم أن يطلبوا ملجأ ما دام يوجد ، فعادوا يرفضون كلامه ، ورفعوا أصواتهم هازئين وساخرين ، وفجأة استولى السكوت والوجوم على تلك الجماهير الساخرة ، ذلك أنهم أبصروا الحيوانات من كل نوع ، من أضرى وحوش الغاب إلى الحيوانات الأليفة نازلة من الجبال وخارجة من الغابات وسائرة بسكون نحو الفلك . ثم سمع صوت كما من هبوب ريح عاصفة ، وإذا بالطيور قادمة من كل صوب وقد امتلأت بها السماء ، وبنظام تام تتجه إلى الفلك . لقد أطاعت البهائم صوت الله أما الناس فعصوه ، فإذ كانت الملائكة تقودها دخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين ، بينما الطاهرة منها دخلت سبعة سبعة . وذهل الناس لهذا المنظر ، بينما وقع على الآخرين خوف . واستدعي الفلاسفة ليعللوا هذا الحادث

الفريد، ولكنهم عبثا حاولوا ، فلقد كان سرا عجزوا عن أن يسبروا غوره ، ولكن الناس كـانوا قد تقسّوا بإصرارهم على رفض النور حتى أن تأثير ذلك المنظر لم يدم طويلا . وحين أبصـر أولئك الناس المحكوم بهلاكهم الشمس وهي تشرق في بهائها ومجدها ، والأرض وقد اكتسـت حلة جميلة كما لو كانت جنة عدن طردوا عنهم مخاوفهم وأغرقوها في المسـرات والولائـم الصاخبة ، وبأعمال الظلم والاغتصاب التي كانوا يرتكبونها ، فلكأنهم يستمطرون على أنفسـهم ما قد سبق فحمي من غضب الله .

«وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ : ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ ، لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هـذَا الْجِيلِ» (تكوين ٧: ١) لقد رفض العالم إنذارات نوح ، ولكن تأثيره ومثاله نتجت عنهما بركات لعائلته . وجزاءً له على أمانته واستقامته خلّص الله معه كل أفراده عائلته . ما أعظم هذا مـن تشجيع للآباء الأمناء !

لقد كفّت رحمة الله عن التوسل إلى العالم الأثيم . ودخلت حيوانات الحقل وطيور السـماء إلى الفلك لتحتمي فيه ، وكان نوح وعائلته في داخل الفلك ، «وَأَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْـهِ» (تكويـن ٧: ١٦) وشوهد نور يبهر الأبصار ورئيت سحابة من مجد أبهى من البرق نازلة من السـماء وحلّقت أمام باب الفلك . والباب الكبير الذي كان من المستحيل على من في داخل الفلك إغلاقه أدارته على صائره ببطء يد خفية حتى أغلقته . أُغلق الباب على نوح وعائلته في الداخل ، أما الذين رفضوا رحمة الله فقد أُغلق الباب دونهم ، وختم على ذلك الباب بختم السماء . وحيـث أن الله هو الذي أغلقه فليس آخر سواه يستطيع أن يفتحه . وهكذا حين يكف المسيح عن التشفع في المذنبين ، وقبل مجيئه في سحاب السماء سيغلق باب الرحمة ، وحينئذ لن تعود نعمـة الله تردع الأشرار بعد ، وسيسيطر الشيطان سيطرة كاملة علـى مـن قـد رفضـوا الرحمـة ، وسيحاولون إهلاك شعب الله . ولكن كما أُغلق على نوح في داخل الفلك سيحتمي الأبرار فـي قدرة الله .

ولمدة سبعة أيام بعد دخول نوح وعائلته إلى الفلك لم تظهر أية علامة تدل علـى مجـيء العاصفة المنتظرة ، وفي خلال هذه المدة امتحن إيمانهم . لقد كان ذلك الوقت وقت انتصـار للعالم خارج الفلك ، وذلك التأخير الظاهري زاد في اقتناعهم بأن رسالة نوح كـانت خداعـا وتضليلا ، وأن الطوفان لن يجيء . وبالرغم من كل المناظر الخطيرة التي قد رأوهـا مـن

دخول الحيوانات والوحوش والطيور إلى الفلك وقيام ملاك الرب ليغلق الباب فقد ظل أولئك الأشرار سادرين في لهوهم وعربدتهم ، بل أنهم اتخذوا من ظواهر قوة الله الفريدة هذه موضوعا للهزل ، واجتمعت جماعات منهم حول الفلك ساخرين وهازئين بمن احتموا فيه ، في جرأة وعنف لم يكونوا يجسرون عليهما من قبل .

ولكن في اليوم الثامن انتشرت السحب القاتمة في السماء ، وتبع ذلك دمدمة الرعود ووميض البروق ، وسرعان ما بدأت قطرات المطر الكبيرة تتساقط ، ولم يسبق للعالم أن رأى شيئا كهذا ، فامتلأت قلوب الناس خوفا ورعبا ، وجعلوا يتساءلون سرا قائلين : «أيمكن أن يكون نوح على صواب وأن العالم محكوم عليه بالهلاك ؟» ثم اكفهر الجو أكثر فأكثر ونشرت الظلمة ألويتها على كل العالم وزاد انصباب المطر . أما البهائم والوحوش فهامت على وجوهها في رعب عظيم ، وكأنها في عوائها وصراخها تندب مصيرها ومصير الإنسان ، ثم «انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ ، وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ» (تكوين ٧: ١١) ونزلت المياه من السحب على هيئة سيول جارفة ، وفاضت مياه الأنهار على شطوطها فغمرت الأودية ، وانفجرت نافورات المياه من قلب الأرض بقوة لا يمكن وصفها دافعة الصخور العظيمة في الهواء مئات الأقدام من قوة اندفاع المياه . فلما عادت الصخور وسقطت على الأرض غاصت عميقا فيها .

شاهد الناس أول ما شاهدوا الدمار الذي حل بأعمال أيديهم ، فالأبنية الفخمة والحدائق والأحراش الجميلة حيث نصبوا أصنامهم دمرتها بروق السماء فتناثرت أنقاضها في كل مكان . والمذابح التي كانت تقدم عليها الذبائح البشرية هدمت ، فارتعب عبدة الأوثان من قدرة الله الحي وعرفوا أن فسادهم ووثنيتهم هما اللذان أحدثا ذلك الدمار .

ولما اشتد عنف العاصفة اقتلعت الأشجار والبيوت والصخور والتراب وقذفت بها في كل اتجاه ، وكان رعب الناس والحيوانات والوحوش مما لا يستطاع وصفه ، فارتفع عويل الناس الذين احتقروا سلطان الله فوق صوت العاصفة . والشيطان نفسه إذ كان مضطرا لأن يكون حاضرا في وسط ميدان العناصر المتحاربة خاف على كيانه . لقد كان مسرورا لأنه سيطر على أولئك الناس الأقوياء ، وكان يريدهم أن يعيشوا ليمارسوا رجاساتهم ويظلوا متمردين على سلطان السماء ، أما الآن فهو يقذف الله العلي باللعنات متهما إياه بالظلم والقسوة . وتمثل

بالشيطان كثيرون من الناس في التجديف على الله ، ولو أمكنهم لكانوا خلعوه عن عرش القدرة . آخرون تملكهم الغضب والخوف وجعلوا يبسطون أيديهم نحو الفلك طالبين الدخول ، ولكن عبثا كانوا يتوسلون . استيقظت ضمائرهم أخيرا ليعلموا أنه يوجد إله يملك في السماء ، فتوسلوا إليه بكل لجاجة ، ولكن أذنه لم تستمع لصرخاتهم . وفي تلك الساعة الرهيبة علموا أن تعديهم شريعة الله كان علة هلاكهم . ومع ذلك فحين اعترفوا بخطيتهم مدفوعين بدافع الخوف من القصاص لم يشعروا بانسحاق صادق أو تذلل أو كراهية للشر . فلو رفعت عنهم الدينونة لعادوا إلى تحديهم للسماء . كذلك حين تنصب أحكام الله على الأرض قبلما يغمرها طوفان من النار ، فغير التائبين سيعرفون أين خطيتهم وما هي – إذ هي احتقار شريعة الله المقدسة . ومع ذلك فلن تكون توبتهم صادقة كما لم تكن توبة الخطاة في تلك العصور القديمة .

وساق اليأس بعض الناس إلى محاولة الدخول إلى الفلك عنوة ، ولكن متانة الفلك حالت دون كل محاولاتهم . آخرون تعلقوا بالفلك إلى أن جرفتهم الأمواج العاتية ، أو أنهم أفلتوا أيديهم حين اصطدموا بالصخور والأشجار . ومع ضخامة الفلك ومتانته فقد كان يهتز ويترنح أمام الرياح القوية الجبارة ، وكانت تتقاذفه اللجج الهائلة ، وإن صرخات الحيوانات التي كانت في داخل الفلك كانت تعبيرا عن مخاوفها وآلامها . ولكن في وسط العناصر المصطرعة سار الفلك آمنا ، إذ قد كُلِّف الملائكة المقتدرون قوة أن يحفظوه .

ثم أن الحيوانات ، إذ تعرضت للعاصفة ، اندفعت صوب الناس كأنما كانت تنتظر منهم العون ، وربط بعض الناس أنفسهم وأولادهم على ظهور بعض الحيوانات القوية لعلمهم أن من طبعها التشبث بالحياة ، وأنها لا بد أن تتسلق أعلى المرتفعات لتنجو من المياه الطامية . وبعضهم تعلقوا بالأشجار العالية فوق الجبال والتلال ، ولكن تلك الأشجار اقتلعت فسقطت بمن عليها في أعماق المياه ، كما أن الأماكن التي اعتصموا بها لتحميهم كانت تخذلهم . وإذ تعاظمت المياه في ارتفاعها هرع الناس إلى أعلى الجبال لينجوا بأنفسهم . وفي غالب الأحيان كان الناس والبهائم يتقاتلون على مكان يضعون فيه أقدامهم ، ولكن سرعان ما جرفتهم المياه معا .

ومن أعالي قمم الجبال كان الناس ينظرون إلى المحيط الذي لا شاطئ له ولا حدود ، وتلك الإنذارات الخطيرة التي نطق بها رجل الله لم تعد موضوعا للهزء أو السخرية ، وكم تاق أولئك الخطاة المحكوم بهلاكهم لعودة فرص الرحمة التي استخفوا بها ، وكم توسلوا في طلب

ساعة إمهال واحدة ، وامتياز رحمة واحد ، ودعوة واحدة من فم نوح ، لكنهم لم يعودوا يسمعون صوت الرحمة الرفيق الجميل مرة أخرى ، فلقد تطلبت محبة الله وعدالته أن توقف أحكام الله الخطية عند حدها . وارتفعت مياه طوفان الانتقام حتى غطت آخر ملاذ ، فهلك بها كل من ازدروا الله .

«أَنَّ السَّمَاوَاتِ كَانَتْ مُنْذُ الْقَدِيمِ ، وَالأَرْضَ بِكَلِمَةِ اللهِ قَائِمَةً مِنَ الْمَاءِ وَبِالْمَاءِ ، اللَّوَاتِي بِهِنَّ الْعَالَمُ الْكَائِنُ حِينَئِذٍ فَاضَ عَلَيْهِ الْمَاءُ فَهَلَكَ . وَأَمَّا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ الْكَائِنَةُ الآنَ ، فَهِيَ مَخْزُونَةٌ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ عَيْنِهَا، مَحْفُوظَةً لِلنَّارِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَهَلاَكِ النَّاسِ الْفُجَّارِ» (٢بطرس ٣: ٥-٧) إن عاصفة أخرى قادمة ، فسيكتسح الأرض غضب الله المهلك وسيهلك الخطاة والخطية .

إن الخطايا التي استوجبت انصباب غضب الله على عالم ما قبل الطوفان تسود العالم اليوم . لقد أبعد الناس خوف الله عن قلوبهم ، وهم ينظرون إلى شريعته باحتقار وعدم مبالاة . وإن محبة العالم المفرطة التي كانت في ذلك العصر يوجد ما يماثلها في هذه الأيام التي نحن عائشون فيها . قال المسيح : «لأَنَّهُ كَمَا كَانُوا فِي الأَيَّامِ الَّتِي قَبْلَ الطُّوفَانِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوِّجُونَ ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ نُوحٌ الْفُلْكَ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى جَاءَ الطُّوفَانُ وَأَخَذَ الْجَمِيعَ ، كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الإِنْسَانِ» (متى ٢٤: ٣٩،٣٨) إن الله لم يدن أولئك الناس لأنهم كانوا يأكلون ويشربون ، فقد أعطاهم أثمار الأرض بوفرة عظيمة لسد احتياجاتهم الجسدية ، ولكن خطيتهم انحصرت في كونهم تناولوا العطايا دون أن يشكروا المعطي ، وكونهم انحطوا بالانغماس في النهم والشهوات بدون وازع . لقد كان أمرا مشروعا أن يتزوجوا ، فلقد أمر الرب لهم بالزواج الذي كان أول فريضة أسسها لهم ، وأصدر تعليمات خاصة به ، وبذلك ألبسه ثوب القدسية والجمال ، ولكن هذه الإرشادات نسيها الناس ، ففسد الزواج وصار مَطِيَّة للشهوات .

إن مثل هذه الحالة موجودة اليوم ، فلقد أفرط الناس في ما هو مشروع في حد ذاته ، وانغمسوا في النهم والشراهة بدون رادع . كثيرون من المدعوين مسيحيين اليوم يأكلون ويشربون مع السكارى ، في حين أن أسماءهم مسجلة في الكنيسة بين المكرمين . إن الإفراط في الأكل وعدم الاعتدال يخدران قوانا الأدبية والروحية ، ويعدان الطريق

للانغماس في الشهوات الدنيئة . ثمة جماهير غفيرة من الناس يظنون أنهم غير ملزمين بأن يلجموا شهواتهم ، لذلك يصبحون عبيدا لها ، فالناس يعيشون لأجل التمتع بالمسرات الحسية ، يعيشون لهذا العالم وهذه الحياة وحدها . والإسراف شائع بين كل طبقات المجتمع ، والناس يضحون بالاستقامة في سبيل الترف والتفاخر والظهور . والذين يتعجلون الغنى يدوسون العدل ويظلمون الفقراء . وإن «العبيد ونفوس الناس» لا تزال تباع وتشترى ، والغش والرشوة والسرقة تصول وتجول بين الفقراء والأغنياء بلا رادع ، وأعمدة الصحف تفيض بأنباء وجرائم القتل- جرائم ترتكب بدون مبالاة وبدون سبب حتى يبدو كأن الناس قد فقدوا كل شعورهم . مثل هذه الفظائع صارت شائعة وكثيرة الحدوث بحيث عادت لا تستدعي انتقادا أو دهشة . وروح الفوضى سادت على كل الأمم ، والثورات التي من حين إلى آخر تثير الرعب في العالم هي دلائل على نيران الغضب والتمرد المكبوتة التي إذا أفلت زمامها فلا بد من أن تملأ الأرض ويلا ودمارا . إن الصورة التي يقدمها لنا الوحي عن العالم قبل الطوفان تمثل لنا بصورة صادقة جدا الحالة التي يندفع إليها مجتمعنا اليوم ، وحتى في العصر الحاضر وفي البلاد التي تدين بالمسيحية جرائم ترتكب كل يوم وهي هائلة وشنيعة ومرعبة كالتي سببت هلاك الخطاة الذين عاشوا في العالم القديم .

قبل الطوفان أرسل الله نوحا لينذر العالم لعل لطف الله يقتاد الناس إلى التوبة وهكذا ينجون من الهلاك الذي كان يتهددهم . وإذ يقترب ظهور المسيح ثانية يرسل الرب عبيده لينذروا العالم ليستعد للحادثة العظيمة . لقد عاش كثيرون من الناس في حالة تعد لشريعة الله ، والآن وهو يدعوهم في رحمته ليطيعوا وصاياه المقدسة . فكل من يتركون خطاياهم بالتوبة إلى الله والإيمان بالمسيح ينالون الغفران ، ولكن كثيرين يعتقدون أن تركهم لخطاياهم يتطلب منهم تضحية فوق طاقتهم ، وبما أن حياتهم لا تتفق مع مبادئ حكم الله الأدبي النقية فهم يرفضون إنذاراته وينكرون سلطان شريعته .

ومن بين سكان العالم قبل الطوفان البالغي الكثرة ، لم يصدق ويطع كلام الرب على فم نوح غير ثماني أنفس . ولمدة مئة وعشرين سنة ظل ذلك الكارز بالبر ينذر العالم بالهلاك القادم عليهم ، ولكنهم رفضوا رسالته واحتقروها وهكذا ستكون الحال اليوم ، فقبلما يجيء المشترع ليعاقب العصاة سيقدم لهم الإنذار ليتوبوا ويعودوا إلى ولائهم له ،

ولكن هذه الإنذارات ستكون بلا جدوى بالنظر إلى الغالبية . يقول الرسول بطرس: «سَيَأْتِي فِي آخِرِ الأَيَّامِ قَوْمٌ مُسْتَهْزِئُونَ ، سَالِكِينَ بِحَسَبِ شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ ، وَقَائِلِينَ : «أَيْنَ هُوَ مَوْعِدُ مَجِيئِهِ ؟ لأَنَّهُ مِنْ حِينَ رَقَدَ الآبَاءُ كُلُّ شَيْءٍ بَاقٍ هكَذَا مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ»» (٢بطرس ٣: ٣،٤) ألا نسمع هذا الكلام عينه يتكرر ، ليس فقط على أفواه الأشرار المكشوفين بل أيضا على أفواه بعض من يعتلون المنابر في بلادنا ؟ يصرخون قائلين : «لا داعي للخوف ، فقبل مجيء المسيح لابد من أن العالم كله يتجدد ويهتدي ، وسيحكم البر لمدة ألف سنة . سلام ، سلام ، كل شيء باق هكذا منذ بدء الخليقة . لا ينزعج أحدكم من أية رسالة يسمعها من هؤلاء الناس مروجي الأراجيف» . ولكن هذا التعليم عن الألف السنة لا يتفق مع تعاليم المسيح ورسله . لقد سأل يسوع هذا السؤال الهام قائلاً : «مَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ ، أَلَعَلَّهُ يَجِدُ الإِيمَانَ عَلَى الأَرْضِ ؟» (لوقا ١٨: ٨) وكما سبق القول هو يعلن أن حالة العالم في الأيام الأخيرة ستكون كما كانت في أيام نوح . إن بولس ينذرنا بأنه يمكننا أن نتوقع تفاقم الشر قرب النهاية إذ يقول : «وَلكِنَّ الرُّوحَ يَقُولُ صَرِيحًا : إِنَّهُ فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ يَرْتَدُّ قَوْمٌ عَنِ الإِيمَانِ ، تَابِعِينَ أَرْوَاحًا مُضِلَّةً وَتَعَالِيمَ شَيَاطِينَ» (١تيموثاوس ٤: ١) والرسول نفسه يقول : «فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ سَتَأْتِي أَزْمِنَةٌ صَعْبَةٌ» (٢تيموثاوس ٣: ١) ثم يقدم لنا قائمة مفزعة بالخطايا التي ستكون شائعة بين الذين لهم صورة التقوى .

إذ اقتربت فرصة إنذار الناس قبل الطوفان من نهايتها أسلموا أنفسهم للتسليات والولائم المثيرة ، وإن أصحاب النفوذ والسلطان بذلوا جهدهم في جعل عقول الناس الذين حولهم تنشغل بالمرح والمسرات حتى لا يتأثر أحدهم بذلك الإنذار الأخير الخطير . ألسنا نرى هذا الأمر يتكرر في أيامنا هذه ؟ ففيما يقدم خدام الله الرسالة القائلة إن نهاية كل شيء قد اقتربت نرى العالم منغمسا في تمتعاته وطلب الملذات . ثمة اهتياج مثير في كل مكان يجعل الناس عديمي اكتراث الله ، ويحول بينهم وبين التأثر بالحقائق التي تستطيع وحدها أن تخلصهم من الهلاك القادم عليهم .

وفي أيام نوح أعلن الفلاسفة أنه يستحيل أن يهلك العالم بطوفان الماء . وكذلك في هذه الأيام يحاول العلماء أن يبرهنوا على أنه لا يمكن أن يهلك العالم بالنار ، وأن هذا لا يتفق مع

قوانين الطبيعة . ولكن خالق الطبيعة وواضع نواميسها والمتحكم فيها يستطيع أن يسخر عمل يديه فى تنفيذ أغراضه .

حين برهن العظماء والحكماء ، إرضاءً لأنفسهم ، على أن العالم يستحيل أن يهلك بطوفان الماء ، وحين هدأت مخاوف الناس ، وحين اعتبر الناس نبوة نوح خداعا أو خبلا في عقله واعتبروه رجلا متعصبا- حينئذ جاء وقت الله . وإذ ذاك : «انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ، وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ» (تكوين ٧: ١١) وحينئذ غمرت مياه الغمر العظيم كل الساخرين . فبكل فلسفتهم التي كانوا يتشدقون بها علم الناس ، بعد فوات الفرصة ، أن كل حكمتهم جهالة ، وأن واضع قوانين الطبيعة هو أعظم من قوانين الطبيعة ، وأن القدير على كل شيء لن تعوزه الوسائل لتحقيق أغراضه ، «كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ نُوحٍ ... هكَذَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يُظْهَرُ ابْنُ الإِنْسَانِ» (لوقا ١٧: ٢٦،٣٠) لأنه «سَيَأْتِي كَلِصٍّ فِي اللَّيْلِ ، يَوْمُ الرَّبِّ ، الَّذِي فِيهِ تَزُولُ السَّمَاوَاتُ بِضَجِيجٍ ، وَتَنْحَلُّ الْعَنَاصِرُ مُحْتَرِقَةً ، تَحْتَرِقُ الأَرْضُ وَالْمَصْنُوعَاتُ الَّتِي فِيهَا» (٢بطرس ٣: ١٠) فحين تُبعِد مُحاجّة الفلاسفة عن الناس الخوف من دينونة الله ، وحين يشير بعض رجال الدين إلى أجيال قادمة يسود فيها السلام والرخاء ، ويكون أهل العالم منهمكين في أعمالهم ومسراتهم- يغرسون ويبنون ويفرحون ويطربون ويرفضون إنذارات الله ويسخرون من رسله- حينئذ «يُفَاجِئُهُمْ هَلاَكٌ بَغْتَةً ، كَالْمَخَاضِ لِلْحُبْلَى، فَلاَ يَنْجُونَ» (١ تسالونيكي ٥:٣) .

الفصل الثامن

بعد الطوفان

تعاظمت مياه الطوفان وارتفعت خمس عشرة ذراعا فوق أعلى الجبال ، وكثيرا ما تـــواءى لأفراد تلك العائلة التي في داخل الفلك أنهم لا بد هالكون ، إذ ظلوا ، كما ظهر لـــهم ، تحـــت رحمة الأمواج والعواصف تتقاذفهم خمسة أشهر كاملة . لقد كانت محنة قاسية ، ولكن إيمـــان نوح لم يتزعزع لأنه كان موقنا من أن يد الرب على الدفة .

فلما بدأت المياه بالتراجع جعل الرب الفلك يسير مع التيار إلى بقعة تحيط بها مجموعة من الجبال التي بقيت راسخة بقوة الله ، وكانت تلك الجبال متقاربة من بعضها البعـــض ، فدخـــل الفلك إلى هذا المرفأ الهادئ ، ولم تعد المياه تتقاذفه في ذلك المحيط الذي لا شاطئ له ، وهـــذا خفف من متاعب أولئك المسافرين المتعبين الذين أضناهم الإعياء وهدّهم .

وكان نوح وعائلته ينتظرون تناقص مياه الطوفان بصبر جميل إذ كانوا مشتاقين إلـــى النزول على اليابسة ، وبعد ظهور أعالي الجبال بأربعين يوما أرسلوا غرابا ، وهو طائر حاسة الشم فيه قوية ، ليستكشف هل كانت الأرض قد جفت أم لا ، فهذا الغراب إذ لم يجد غير الماء ظل يطير من الفلك وإليه . وبعد سبعة أيام أخرى أرسلوا حمامة ، فإذ لم تجـــد مقرا لرجلها عادت إلى الفلك . وبعد سبعة أيام أخرى عاد نوح فأرسل الحمامـــة ، فلمـــا عادت في المساء وفي فمها ورقة زيتون فرح نوح وعائلته فرحا عظيما . وبعــــد ذلـــك «كَشَفَ نُوحٌ الْغِطَاءَ عَنِ الْفُلْكِ وَنَظَرَ ، فَإِذَا وَجْهُ الأَرْضِ قَدْ نَشِفَ» (تكوين ٨: ١٣) . ومـــع ذلك فقد لبث منتظرا بصبر في داخل الفلك . فكما دخل إلى الفلك بأمر الله كذلك انتظـــر أمره له بالخروج .

أخيرا نزل ملاك من السماء وفتح باب الفلك الضخم وأمر ذلك الشيخ الجليل وعائلتـــه بالخروج من الفلك إلى اليابسة ، كما أمرهم بإخراج كل الخلائق الحية ، ومـــع فرحـــهم

الشديد بالإفراج عنهم لم ينس نوح ذاك الذي حفظهم برعايته الرحيمة ، فكان أول ما عمله بعد مغادرة الفلك أنه بنى مذبحا وقدم ذبيحة من كل الحيوانات والطيور الطاهرة معلنا بذلك شكره لله وإيمانه بالمسيح الذي هو الذبيحة العظمى . وقد سر الله بهذه الذبيحة ونتجت عن ذلك بركة عظيمة ليس لنوح وعائلته فحسب بل أيضا لكل من سيعيشون على وجه الأرض ، إذ يقول الكتاب : «فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا . وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ : «لاَ أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الإِنْسَانِ ... مُدَّةَ كُلِّ أَيَّامِ الأَرْضِ : زَرْعٌ وَحَصَادٌ ، وَبَرْدٌ وَحَرٌّ ، وَصَيْفٌ وَشِتَاءٌ ، وَنَهَارٌ وَلَيْلٌ ، لاَ تَزَالُ»» (تكوين ٨: ٢١،٢٢) . وهنا درس ينبغي أن تتعلمه كل الأجيال المتعاقبة . لقد خرج نوح إلى عالم خرب ، ولكنه قبل أن يعد مسكنا لنفسه بنى مذبحا للرب . ومع أن ما تبقى له من المواشي كان قليلا وكلفه الاحتفاظ بها الشيء الكثير فإنه بكل سرور قدم بعضا منها للرب اعترافا منه بأن الكل للرب . وكذلك يجب أن يكون اهتمامنا الأول أن نقدم عطايانا الطوعية لله . وكل مظهر من مظاهر محبته ورحمته لنا ينبغي أن نعترف به شاكرين بالعبادة وبتقديم عطايانا لخدمة الملكوت .

ولكي لا تمتلئ قلوب الناس رعبا من حدوث طوفان آخر وهم يرون السحب تملأ السماء والأمطار تتساقط ، طمأن الرب عائلة نوح بوعد قال فيه : «أُقِيمُ مِيثَاقِي مَعَكُمْ ... لاَ يَكُونُ أَيْضًا طُوفَانٌ لِيُخْرِبَ الأَرْضَ ... وَضَعْتُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ فَتَكُونُ عَلاَمَةَ مِيثَاق بَيْنِي وَبَيْنَ الأَرْضِ . فَيَكُونُ مَتَى أَنْشُرْ سَحَابًا عَلَى الأَرْضِ ، وَتَظْهَرِ الْقَوْسُ فِي السَّحَابِ أَنِّي أَذْكُرُ مِيثَاقِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ» (تكوين ٩: ١١-١٥) .

كم كان الله عظيما في تنازله وشفقته على خلائقه الخاطئة في وضع قوسه الجميلة في السحاب علامة ميثاق مع الناس ! فالرب يعلن أنه حين ينظر القوس سيذكر ميثاقه ، ولكن هذا لا يعني أنه يمكن أن ينسى ، إنما يخاطبنا بلغتنا لنفهمه فهما أفضل . وكان قصد الله أنه عندما يسأل أبناء الأجيال اللاحقة عن معنى وجود تلك القوس المجيدة الظاهرة في السماء فإن آباءهم سيرددون على أسماعهم قصة الطوفان ، ويقولون لهم إن الله العلي قد وضع هذه القوس في السحاب كضمان على أن المياه لن تعود لتغمر الأرض ، وهكذا من جيل إلى جيل تشهد هذه القوس لمحبة الله للإنسان وتقوي ثقته بالرب .

105,106

وفي السماء يحيط بالعرش شبه قوس تحيط برأس المسيح . والنبى يقول : «كَمَنْظَرِ الْقَوْسِ الَّتِي فِي السَّحَابِ يَوْمَ مَطَرٍ، هكَذَا مَنْظَرُ اللَّمَعَانِ مِنْ حَوْلِهِ (حوال العرش) . هذَا مَنْظَرُ شِبْهِ مَجْدِ الرَّبِّ» (حزقيال ١: ٢٨) . والرائي يعلن قائلاً : «وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَعَلَى الْعَرْشِ جَالِسٌ ... وَقَوْسُ قُزَحَ حَوْلَ الْعَرْشِ فِي الْمَنْظَرِ شِبْهُ الزُّمُرُّدِ» (رؤيا ٤: ٣،٢) فحين يستمطر الإنسان بشروره العظيمة الدينونة الإلهية على نفسه فالمخلص يتشفع فيه لدى الآب ، مشيرا إلى القوس التي في السحاب ، وإلى القوس التي حول العرش وحول رأسه ، كعلامة لرحمة الله نحو الخطاة التائبين .

ومع اليقين الذي أعطاه الله لنوح بشأن الطوفان فالرب نفسه قدم وعدا من أجمل وعود نعمته إذ يقول : «كَمَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ تَعْبُرَ بَعْدُ مِيَاهُ نُوحٍ عَلَى الأَرْضِ ، هكَذَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ أَغْضَبَ عَلَيْكِ وَلاَ أَزْجُرَكِ . فَإِنَّ الْجِبَالَ تَزُولُ ، وَالآكَامَ تَتَزَعْزَعُ ، أَمَّا إِحْسَانِي فَلاَ يَزُولُ عَنْكِ ، وَعَهْدُ سَلاَمِي لاَ يَتَزَعْزَعُ ، قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ» (إشعياء ٥٤: ٩،١٠) .

إذ نظر نوح إلى الوحوش القوية التي خرجت معه من الفلك خاف منها لئلا تفترس أفراد عائلته التي لم يتجاوز عدد أفرادها ثماني أنفس ، ولكن الرب أرسل إلى عبده ملاكا يحمل إليه هذه الرسالة المطمئنة : «لْتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ وَكُلِّ طُيُورِ السَّمَاءِ ، مَعَ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ ، وَكُلِّ أَسْمَاكِ الْبَحْرِ . قَدْ دُفِعَتْ إِلَى أَيْدِيكُمْ. كُلُّ دَابَّةٍ حَيَّةٍ تَكُونُ لَكُمْ طَعَامًا . كَالْعُشْبِ الأَخْضَرِ دَفَعْتُ إِلَيْكُمُ الْجَمِيعَ» (تكوين ٩: ٣،٢) . قبل ذلك لم يكن الله قد سمح للإنسان بأكل لحوم الحيوانات ، وكان يقصد أن يعيش الناس على منتجات الأرض وحدها ، أما الآن فبعدما تلاشى كل عشب أخضر سمح الله لهم بأكل لحوم الحيوانات الطاهرة التي حفظت في الفلك .

لقد غير الطوفان معالم وجه الأرض كلها ، إذ استقرت على الأرض لعنة ثالثة نتيجة للخطية . لما بدأت المياه تتناقص كان يحيط بالجبال والتلال بحر كدر مترامي الأطراف ، وفي كل مكان ملأت جثث الموتى من الناس والحيوانات كل البقاع ، ولم يرد الرب أن تبقى تلك الجثث لتفسد الهواء وتنجسه ، ولذلك جعل من الأرض مقبرة واسعة ، فأرسل الرب ريحا عاتية لتجفف المياه فساقت الريح الجثث بقوة هائلة حتى أنها في بعض الحالات أطاحت بقمم الجبال واقتلعت الأشجار والصخور وذرت التراب وألقت بكل هذه فوق جثث القتلى ، وبهذه

الوسيلة نفسها اختفت الفضة والذهب والأخشاب النادرة والحجارة الكريمة التي أغنت الناس قبل الطوفان وازدانت بها الأرض ، والتي جعل الناس منها أصناما- كل هذه اختفت عن أنظار الناس وعن تقصِّيهم ، إذ أن المياه في قوتها كومت التراب والصخور فوق تلك الكنوز . وفي بعض الأماكن تكونت فوقها جبال ، فلقد رأى الله أنه كلما أغنى الناس الخطاة وأنجحهم أوغلوا في إفسادهم طرقهم أمامه . لقد عبدوا الكنوز التي كان ينبغي أن تقودهم إلى تمجيد المعطي الكريم ، بينما هم أهانوه واحتقروه .

استحالت الأرض إلى خراب وعدم انسجام يستحيل وصفهما ، فالجبال التي كانت تبدو قبلا جميلة ومتناسقة تشققت الآن وتكسرت ، والأحجار وشعب الصخور ، والصخور المسننة كانت مبعثرة هنا وهناك على سطح الأرض ، وفي أماكن كثرة اختفت التلال والجبال ولم يبق لها أثر ، وفي مكان بعض السهول ارتفعت سلاسل الجبال ، وهذه التغيرات ظهرت واضحة جلية في أماكن دون أخرى ، فحيث كانت توجد أغنى كنوز الأرض من الفضة والذهب والحجارة الكريمة كانت تشاهد أقسى آثار اللعنة ، أما البلاد التي لم تكن مسكونة والتي كانت الجرائم فيها أخف وطأة فكانت اللعنة أخف وطأة عليها .

في هذا الوقت دفنت غابات عظيمة في جوف الأرض ، فتحولت بعد ذلك إلى فحم ، مكونة مناجم الفحم العظيمة الموجودة اليوم ، ومنتجة كميات كبيرة من الزيت (البترول) إذ غالبا ما يشتعل الفحم والزيت تحت سطح الأرض ، فتسخن الصخور ويحترق الحجر الجيري ويذوب الحديد الخام ، ثم أن تفاعل الماء مع الحجر يجعل الحرارة هائلة جدا ، فتنشأ عن ذلك الزلازل والبراكين ، وتخرج ألسنة من النار من جوف الأرض ، فمتى اتصلت النار والماء بشعب الصخور والمعادن تحدث انفجارات هائلة في جوف الأرض يشبه صوتها صوت الرعود المكبوتة فيصير الهواء حارا وخانقا ويتبع ذلك انفجار البراكين . وإذ لا تستطيع هذه ، في الغالب ، أن تجعل مخرجا كافيا للعناصر الساخنة ، فالأرض نفسها تهتز ، وتعلو وتهبط كأمواج البحر ، ثم تظهر أحيانا شقوق هائلة تبتلع القرى والمدن والجبال المضطرمة بالنار . هذه الظواهر العجيبة سترى في فترات أكثر تقاربا ورعبا مما كانت قبلا ، وذلك قبيل مجيء المسيح ثانية ، عند انقضاء العالم ، كعلائم على سرعة هلاك العالم .

108,109

إن أعماق الأرض هي مستودع الرب الذي منه جرد الأسلحة التي استخدمها في إهـــلاك العالم القديم ، فالمياه المتفجرة من أعماق الأرض التقت والمياه الهاطلة من الســماء لتخريــب الأرض ، ومنذ أيام الطوفان كانت النار والماء أداتين في يد الله لإهلاك المدن الشريرة ، وهذه الأحكام ترسل لكي يرتعب أمام قدرة الله ويعترف بحكمه وســلطانه العــادل أولئــك الذيــن يستخفون بشريعته ويدوسون سلطانه . وحين أبصر الناس الجبال المشتعلة بالنار تقذف نـــارا ولهيبا وسيولا من المعادن الذائبة وتنشّف أنهارا وتقلب مدنا عامرة وتنشر الخراب والدمار في كل مكان ملك الرعب والهلع أقوى القلوب ، واعترف الملحدون والمجدفون بقــدرة الله غــير المحدودة .

قال الأنبياء في القديم مشيرين إلى مشاهد مثل هذه : «لَيْتَكَ تَشُقُّ السَّمَاوَاتِ وَتَنْزِلُ ! مِــنْ حَضْرَتِكَ تَتَزَلْزَلُ الْجِبَالُ . كَمَا تُشْعِلُ النَّارُ الْهَشِيمَ ، وَتَجْعَلُ النَّارُ الْمِيَاهَ تَغْلِي ، لِتُعَرِّفَ أَعْدَاءَكَ اسْمَكَ ، لِتَرْتَعِدَ الأُمَمُ مِنْ حَضْرَتِكَ . حِينَ صَنَعْتَ مَخَاوِفَ لَمْ نَنْتَظِرْهَــا ، نَزَلْــتَ ، تَزَلْزَلَــتِ الْجِبَالُ مِنْ حَضْرَتِكَ» (إشعياء ٦٤: ١-٣) «الرَّبُّ فِي الزَّوْبَعَةِ ، وَفِــي الْعَــاصِفِ طَرِيقُــهُ ، وَالسَّحَابُ غُبَارُ رِجْلَيْهِ . يَنْتَهِرُ الْبَحْرَ فَيُنَشِّفُهُ وَيُجَفِّفُ جَمِيعَ الأَنْهَارِ» (ناحوم ١: ٣،٤) .

هنالك ظواهر أدعى إلى الرعب من كل ما سبق أن رآه العالم سترى في مجيء المســيح ثانية ، «اَلْجِبَالُ تَرْجُفُ مِنْهُ ، وَالتِّلاَلُ تَذُوبُ ، وَالأَرْضُ تُرْفَعُ مِــنْ وَجْهِــهِ ، وَالْعَــالَمُ وَكُــلُّ السَّاكِنِينَ فِيهِ . مَنْ يَقِفُ أَمَامَ سَخَطِهِ ؟ وَمَنْ يَقُومُ فِي حُمُوِّ غَضَبِهِ ؟ غَيْظُهُ يَنْسَــكِبُ كَالنَّــارِ ، وَالصُّخُورُ تَنْهَدِمُ مِنْهُ» (ناحوم ١: ٥،٦). «يَا رَبُّ ، طَأْطِئْ سَمَاوَاتِكَ وَانْزِلِ . الْمِسِ الْجِبَــالَ فَتُدَخِّنَ . أَبْرِقْ بُرُوقًا وَبَدِّدْهُمْ . أَرْسِلْ سِهَامَكَ وَأَزْعِجْهُمْ» (مزمور ١٤٤: ٥،٦) .

«وَأُعْطِي عَجَائِبَ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَآيَاتٍ عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ : دَمًا وَنَــارًا وَبُخَــارَ دُخَانٍ» (أعمال ٢: ١٩) «فَحَدَثَتْ أَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَبُرُوقٌ . وَحَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ ، لَمْ يَحْـدُثْ مِثْلُهَا مُنْذُ صَارَ النَّاسُ عَلَى الأَرْضِ ، زَلْزَلَةٌ بِمِقْدَارِهَا عَظِيمَةٌ هكَذَا ... وَكُلُّ جَزِيرَةٍ هَرَبَــتْ ، وَجِبَالٌ لَمْ تُوجَدْ . وَبَرَدٌ عَظِيمٌ، نَحْوُ ثِقَلِ وَزْنَةٍ، نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَــى النَّــاسِ» (رؤيــا ١٦: ١٨،٢٠،٢١) .

عندما يتلاقى البرق من السماء والنار على الأرض فالجبال تحترق كالأتون وتسكب سيولا من الحمم أو المقذوفات البركانية فتكتسح الحدائق والحقول والقرى والمدن ، وإذ تقذف الكتــل

الملتهبة إلى الأنهار فالمياه ستغلي وتقذف بدورها كتل الصخور العظيمة بقوة لا يمكن وصفها ، فتتناثر أجزاؤها على الأرض ، وستجف الأنهار والأرض ترتج ، وفي كل مكان ستحدث زلازل وانفجارات مخيفة .

هكذا سيلاشي الله الأشرار من على وجه الأرض ، أما الأبرار فسيحفظون في وسط تلك الاضطرابات كما حفظ نوح في الفلك ، وسيكون الله ملجأهم ، وتحت جناحيه يحتمون . يقول المرنم : «لأَنَّكَ قُلْتَ : «أَنْتَ يَا رَبُّ مَلْجَإِي» . جَعَلْتَ الْعَلِيَّ مَسْكَنَكَ ، لاَ يُلاَقِيكَ شَرٌّ» (مزمور ٩١: ٩،١٠) «لأَنَّهُ يُخَبِّئُنِي فِي مَظَلَّتِه فِي يَوْمِ الشَّرِّ . يَسْتُرُنِي بِسِتْرِ خَيْمَتِهِ» (مزمور ٢٧: ٥) ووعد الله هو هذا : «لأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِي أُنَجِّيهِ . أُرَفِّعُهُ لأَنَّهُ عَرَفَ اسْمِي» (مزمور ٩١: ١٤) .

الفصل التاسع

الأسبوع الحرفي

كما بدأ السبت عند الخلق كذلك بدأ الأسبوع ، وقد حفظ الأسبوع وأعطي لنا في تاريخ الكتاب ، والرب نفسه حدد مدة الأسبوع الأول كنموذج لما يتلوه من الأسابيع إلى نهاية الزمن . وكغيره من الأسابيع كان مكونا من سبعة أيام حرفية ، ففي ستة أيام أكمل عمل الخلق ، أما اليوم السابع فاستراح الله فيه وباركه وأفرزه يوم راحة للإنسان .

وفي الشريعة المعطاة في سيناء أقر الله الأسبوع والحقائق التي بني عليها ، فبعدما أصدر أمره القائل : «اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ» (خروج ٢٠: ٨) وبعد تحديد ما يجب عمله في الستة الأيام ، وما يجب ألا يُعمل في اليوم السابع ، يذكر السبب في مراعاة أو حفظ الأسبوع مشيرا إلى مثاله هو في الماضي قائلاً : «لأَنْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا ، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ . لِذلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ» (خروج ٢٠: ١١) . ويبدو هذا السبب جميلا وملزما لنا متى فهمنا أن أيام الأسبوع هي أيام حرفية ، فالستة الأيام الأولى من كل أسبوع قد أعطيت للإنسان لمزاولة أعماله ، لأن الله استخدم هذه المدة عينها من الأسبوع الأول في عملية الخلق ، أما في اليوم السابع فعلى الإنسان أن يمسك عن العمل تذكارا لراحة الخالق .

إن افتراض أن حوادث الاسبوع الأول كانت تتطلب آلاف السنين يطعن مباشرة في أسس الوصية الرابعة ، وهذا يصور الخالق كمن يأمر الناس بحفظ أيام الأسبوع الحرفي تذكارا لحقب غير محدودة من الزمن ، مما يخالف طريقته في معاملة خلائقه ، كما يجعل الأمور التي جعلها الله واضحة جدا ، معقدة وغامضة . هذا هو الإلحاد في أقصى حالات خداعه ، ولذا فهو أخطره ، وإن حقيقة هذا الافتراض مستورة عن أفهام الناس حتى أن كثيرين ممن يؤمنون ويعترفون بالكتاب يعتنقون هذا الالحاد ويبشّرون به .

«بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا ... لأَنَّهُ قَالَ فَكَانَ . هُوَ أَمَرَ فَصَارَ» (مزمور ٣٣: ٦،٩) . إن الكتاب المقدس لا يعترف بأن الأرض مرت في تطورات مختلفة مدة أجيال حتى خرجت من حالة الخراب والتشويش إلى حالها التي نراها عليها اليوم . فالكتاب المقدس في كلامه عن أيام الخلق المتعاقبة يعلن أن كل يوم كان مكونا من المساء والصباح ككل الأيام التي جاءت بعد ذلك ، وفي نهاية كل يوم يقدم لنا الكتاب نتيجة عمل الخالق ، وفي ختام الأسبوع الأول يقرر الكتاب قائلاً : «هذِهِ مَبَادِئُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حِينَ خُلِقَتْ» (تكوين ٢: ٤) ، ولكن هذا لا يفيد أن أيام الخلق لم تكن أياما حرفية بالمعنى المفهوم . وكل يوم يسمى «مبدأ» لأن الله قد أبدأ أو أوجد أو أبدع فيه جزءا جديدا من عمله .

إن علماء الجيولوجيا يدعون أنهم قد وجدوا في الأرض نفسها ما يبرهن على أن عمرها أطول بكثير مما تقدره وتعلم به أسفار موسى ، فلقد اكتشفت عظام بعض الناس والحيوانات وبعض عِدَد الحرب والأشجار المتحجرة وغير ذلك أكبر حجما مما نراه اليوم أو ما وجد منذ آلاف السنين ، مما يدل على أن الأرض كانت مسكونة منذ سنين ضاربة في القدم قبل الوقت المذكور عن الخلق في الكتاب ، وكان يسكنها جنس من البشر أضخم أجساما من كل من يعيشون اليوم . مثل هذه الآراء جعلت كثيرين ممن يؤمنون ويعترفون بالكتاب يعتنقون فكرة كون أيام الخلق استغرقت حقبا طويلة غير محدودة .

ولكن لو ألقينا تاريخ الكتاب جانبا فعلم طبقات الأرض «الجيولوجيا» لا يمكنه التدليل على شيء ، فالذين يناقشون ، بثقة ، استنادا إلى استكشافات هذا العلم ليست لديهم أية فكرة صحيحة عن حجم أجسام الناس أو الحيوانات أو الأشجار قبل الطوفان ، ولا عن التطورات العظيمة التى حدثت حينئذٍ . فالآثار التي وجدت في الأرض تثبت لنا وجود هذه الحالات يمكن معرفته من كتاب الوحي فقط ، إذ في تاريخ الطوفان أوضح لنا الوحي ما لم يستطع علم الجيولوجيا وحده أن يسبر غوره ، ففي أيام نوح دفن في الأرض أناس وحيوانات وأشجار أكبر حجما عدة مرات من كل ما نراه اليوم ، وقد حفظوا كدليل للأجيال التي جاءت بعدهم على أن أولئك الناس قد أهلكتهم مياه الطوفان ، وقصد الله أن اكتشاف تلك الآثار يثبت إيمان الناس بتاريخ الوحي ، ولكن

الناس بمناقشاتهم الباطلة يرتكبون الخطأ نفسه الذي ارتكبه أولئك الذين عاشوا قبل الطوفان ، فما يعطيه لهم الله على أنه بركة يحولونه إلى لعنة بسوء استعمالهم إياه .

إن إحدى مكايد الشيطان هي أنه يقود الناس لقبول الخرافات الكفرية ، إذ بهذه الطريقة يجعل شريعة الله غامضة ، مع أنها في ذاتها واضحة جدا ، ثم هو يشجع الناس على التمرد على حكم الله ، وأن مساعيه موجهة ، بنوع خاص ، ضد الوصية الرابعة ، لأنها تشير ، بكل وضوح ، إلى الله الحي صانع السموات والأرض .

هنالك مساع مستمرة تبذل لتوضيح عمل الخالق على أنه نتيجة علل طبيعية ، وهذا التفكير البشري يجد قبولا وإقبالا حتى من المدعوين مسيحيين ، ضدا للحقائق الكتابية السهلة الواضحة . كثيرون يعارضون فكرة فحص النبوات ، ونخص بالذكر نبوات سفري دانيال والرؤيا ، معلنين أنها نبوات غامضة يعسر فهمها ، ومع ذلك فأولئك أنفسهم يقبلون تخمينات علماء طبقات الأرض «الجيولوجيا» بلهف ضدا لما كتبه موسى . ولكن إذا كان ما قد أعلنه الله أمرا يصعب فهمه إلى هذا الحد فكم يكون أمرا مناقصا للعقل أن يقبل الإنسان مجرد افتراضات وتخمينات بالنسبة لما لم يعلنه الله !

«السَّرَائِرُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا ، وَالْمُعْلَنَاتُ لَنَا وَلِبَنِينَا إِلَى الأَبَدِ» (تثنية ٢٩: ٢٩) . إن الله لم يعلن قط للناس كيف أتم عملية الخلق ، والعلوم البشرية لا يمكنها فهم أسرار العلي ، وقوته الخالقة لا يمكن إدراكها كما لا يمكن إدراك وجوده .

لقد سمح الله أن يسطع على العالم نور العلوم والفنون ، ولكن إذا كان محترفو العلم يتناولون هذه المواضيع من وجهة النظر البشرية وحدها فلابد من أن يحصلوا على استنتاجات خاطئة . قد يكون أمرا بريئا أن يتفكر الإنسان في أشياء أبعد مما أعلنته كلمة الله إذا لم تتعارض نظرياته مع الحقائق المدونة في كتاب الله ، ولكن الذين يتركون كلمة الله ويحاولون تعليل خليقته بمبادئ علمية فإنما يسيرون مع التيار في خضم البحر العظيم بدون خريطة أو بوصلة في أماكن يجهلونها تماما . إن أقوى العقول الجبارة إذا لم تسر على هدى كلمة الله في أبحاثها فلابد من أن يصيبها الإرتباك عندما تحاول تتبع علاقة العلم بالمعلنات الإلهية . فلكون الخالق وأعماله أسمى جدا من إدراكهم بحيث لا يمكن تفسيرها بالقوانين الطبيعية لذلك يعتبرون أن تاريخ الكتاب المقدس لا يصلح سندا يركن

إليه . والذين يشكون في صدق وثبات ما ورد في العهدين القديم والجديد لابد من أن ينحدروا إلى أبعد من ذلك فيشكون في وجود الله ، فحيث قد أفلتت منهم المرساة لابد من أن تتحطم سفينتهم على صخور الإلحاد .

هؤلاء الناس قد فقدوا بساطة الإيمان . ينبغي أن يكون ثمة اعتقاد راسخ لا يتزعزع في سلطان كلمة الله المقدسة . ويجب عدم اختبار الكتاب المقدس بآراء الناس العلمية ، فالمعرفة البشرية ليست دليلا يركن إليه . إن جماعة المرتابين الذين يقرأون الكتاب بقصد المكابرة والمماحكة يمكنهم ، بسبب إدراكهم الناقص للعلم أو الوحي ، أن يدَّعوا وجود تناقض بين الاثنين ولكن إذا أحسن الإنسان فهمهما فلابد من أن يجد فيهما الانسجام التام . لقد كتب موسى كتبه بارشاد روح الله ، والنظرية الجيولوجية السليمة لن يمكنها أن تدعي وجود اكتشافات غير متفقة مع كلمة الله ، فكل الحقائق ، سواء في الطبيعة أو في الوحي ، هي متفقة مع بعضها البعض في كل مظاهرها .

في كلمة الله تثار استفسارات كثيرة لا يستطيع أقوى العلماء عقلا أن يجيب عنها ، فهي تسترعي الالتفات إليها للبرهنة على أنه يوجد شيء كثير حتى في أمور الحياة اليومية العادية مما لاتستطيع العقول المحدودة ، بكل ما أوتيت من حكمة وكل ما تفخر به من علم ، أن تفهمه فهما كاملا .

ومع ذلك فرجال العلم يظنون أنهم يستطيعون إدراك حكمة الله ، وكل ما قد فعله أو يستطيع أن يفعله . وهنالك اعتقاد شائع بين الناس وهو أن الله مقيد بشرائعه ، والناس بين منكر لوجوده ومتجاهل إياه ، أو يظنون أنهم يستطيعون تفسير كل شيء حتى عمل روحه في قلوب الناس ، وعادوا لا يوقرون اسمه أو يخشون قدرته ، إنهم لا يؤمنون بما فوق الطبيعة إذ لا يفهمون شرائع الله أو قدرته غير المحدودة على إتمام إرادته عن طريق تلك الشرائع . إن التعبير الشائع الاستعمال المسمى «قوانين الطبيعة» يشمل ما استطاع الناس أن يكتشفوه بشأن القوانين التي تتحكم في العالم المادي ، ولكن ما أعظم محدودية معرفتهم ، وما أعظم المجال الذي يستطيع الخالق أن يعمل فيه بما يتفق مع شرائعه ، ويكون كل ذلك فوق إدراك الخلائق المحدودة .

يعلّم الكثيرون أن المادة تملك في ذاتها قوة حيوية ، وأن بعض الخواص معطاة للمادة ،

وأنها تترك لتعمل عن طريق نشاطها الفطري ، وأن قوانين الطبيعة تسير بموجب قوانين ثابتة لا يستطيع الله نفسه أن يتدخل فيها . هذا هو العلم الكاذب ، وهو لا يجد له مسندا من كلمة الله . إن الطبيعة خادمة لخالقها ، والله لا يلغي شرائعه أو يعمل ما يناقضها ، ولكنه يستعملها دائما كآلات في يده . إن الطبيعة تشهد بوجود ذكاء وحضوره قوة عاملة ، تعمل في قوانينها وعن طريقها ، ففي الطبيعة يوجد على الدوام عمل الآب والابن . والمسيح يقول : «أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ» (يوحنا ٥: ١٧) .

إن اللاويين يتغنون في تسبيحتهم التي سجلها نحميا قائلين : «أَنْتَ هُوَ الرَّبُّ وَحْدَكَ. أَنْتَ صَنَعْتَ السَّمَاوَاتِ وَسَمَاءَ السَّمَاوَاتِ وَكُلَّ جُنْدِهَا، وَالأَرْضَ وَكُلَّ مَا عَلَيْهَا، وَالْبِحَارَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَأَنْتَ تُحْيِيهَا كُلَّهَا» (نحميا ٩: ٦) . ففيما يختص بهذا العالم فإن عمل الله في الخلق قد كمل ، لأن «الأَعْمَالِ قَدْ أُكْمِلَتْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ» (عبرانيين ٤: ٣) ولكنه لا يزال يستخدم قدرته في إسناد خليقته وحفظها . إن السبب في كون القلب ينبض بالحياة ، ونسمة الحياة تتردد في جسم الإنسان ليس هو كون المؤثر الميكانيكي الذي بدأ بالحركة لا يزال يعمل بالقوة الكامنة فيه ، ولكن كل نبضة من نبضات القلب وكل نسمة تتردد في الجسم هي برهان قاطع على العناية الشاملة لذاك الذي «بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ» (أعمال ١٧: ٢٨) . إن السبب في كون الأرض تنتج خيراتها وتدور دوراتها عاما بعد عام ليس هو في القوة الكامنة فيها ، إن يد الله هي التي تُسيِّر الكواكب وتحفظها في مداراتها المنتظمة في دائرة أفلاكها ، إنه «يُخْرِجُ بِعَدَدٍ جُنْدَهَا ، يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ ؟ لِكَثْرَةِ الْقُوَّةِ وَكَوْنِهِ شَدِيدَ الْقُدْرَةِ لاَ يُفْقَدُ أَحَدٌ» (إشعياء ٤٠: ٢٦) . بقوته يزهر النبات وتظهر الأوراق وتتفتح الأزهار ، فهو «الْمُنْبِتِ الْجِبَالَ عُشْبًا» (مزمور ١٤٧: ٨) وهو الذي يجعل الأودية تثمر . إن كل حيوانات الوعر تلتمس من الله طعامها ، وكل مخلوق حي ، من أصغر حشرة إلى الإنسان نفسه تعتمد على عنايته ورعايته يوما فيوما . والمرنم يقول في مزموره الجميل (مزمور ١٠٤: ٢٠،٢١،٢٧،٢٨) «كُلُّهَا إِيَّاكَ تَتَرَجَّى لِتَرْزُقَهَا قُوتَهَا فِي حِينِهِ . تُعْطِيهَا فَتَلْتَقِطُ . تَفْتَحُ يَدَكَ فَتَشْبَعُ خَيْرًا» . إن كلمة الله تحكم في العناصر ، يملأ الأجواء سحابا ويعد مطرا للأرض ، «يُعطِي الثَّلْجَ كَالصُّوفِ ، وَيُذَرِّي الصَّقِيعَ كَالرَّمَادِ» (مزمور ١٤٧: ١٦) . «إِذَا أَعْطَى قَوْلاً تَكُونُ كَثْرَةُ مِيَاهٍ فِي

السَّمَاوَاتِ ، وَيُصْعِدُ السَّحَابَ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ . صَنَعَ بُرُوقًا لِلْمَطَرِ ، وَأَخْرَجَ الرِّيحَ مِنْ خَزَائِنِهِ» (إرميا ١٠: ١٣) .

إن الله هو أساس كل شيء ، فكل علم حقيقي صحيح متوافق مع أعماله ، وكل تهذيب حقيقي يقود النفس إلى الطاعة لحكمه . إن العلم يفتح أمامنا آفاقا من العجائب ، إنه يحلق في الأجواء العليا ويكتشف أعماقا جديدة ، ولكنه لا يأتي بشيء من تنقيبه وبحثه يتعارض مع الوحي الإلهي . إن الجهل يحاول أن يسند الآراء الخاطئة عن الله بالعلم ، ولكن كتاب الطبيعة وكتاب الله يلقي كلاهما نورا على الآخر ، وهذا يقودنا إلى تمجيد الخالق وإلى الثقة الواعية بكلامه .

لا يمكن العقل البري المحدود إدراك وجود الله غير المحدود أو قوته أو حكمته أو أعماله . يقول الكاتب الملهم : «أَإِلَى عُمْقِ الله تَتَّصِلُ ، أَمْ إِلَى نِهَايَةِ الْقَدِيرِ تَنْتَهِي ؟ هُوَ أَعْلَى مِنَ السَّمَاوَاتِ ، فَمَاذَا عَسَاكَ أَنْ تَفْعَلَ ؟ أَعْمَقُ مِنَ الْهَاوِيَةِ ، فَمَاذَا تَدْرِي ؟ أَطْوَلُ مِنَ الأَرْضِ طُولُهُ ، وَأَعْرَضُ مِنَ الْبَحْرِ» (أيوب ١١: ٧-٩) . إن أقوى العقول الجبارة على الأرض لا يمكنها إدراك الله . قد يداوم الناس على البحث ويواصلون طلب العلم ، ومع ذلك ، تبقى أمامهم آفاق لا نهائية .

على أن أعمال الخليقة مع ذلك تشهد لقدرة الله وعظمته : «اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ ، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ» (مزمور ١٩: ١) . والذين يتخذون كلمة الله نصيحا لهم ومشيرا سيجدون في العلم ما يساعدهم على معرفة الله لأن «أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ» (رومية ١: ٢٠) .

الفصل العاشر

برج بابل

إن الله لكي يعمّر الأرض الخربة التي كان الطوفان قد اكتسح فسادها الأدبي منذ عهد قريب ، أبقى عائلة واحدة هي عائلة نوح الذي قال له الله : «إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هذَا الْجِيلِ» (تكوين ٧: ١) ومع ذلك فسرعان ما ظهر الفرق العظيم بين أبناء نوح الثلاثة ، كالفرق العظيم الذي ظهر في العالم قبل الطوفان ، ففي سام وحام ويافث الذين كانوا سيصبحون نواة الجنس البشر ظهرت صفات نسلهم اللاحق .

وإذ كان نوح يتكلم بوحي إلهي سبق فأنبأ بتاريخ الأجناس الثلاثة العظيمة التي ستخرج من صلب آباء الجنس البشري أولئك ، فإذ تتبع نسل حام عن طريق الابن لا عن طريق الأب أعلن قائلاً : «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ» (انظر تكوين ٩: ٢٥-٢٧) إن جريمة حام غير الطبيعية أعلنت أن إكرامه لأبيه كابن كان قد انتزع من قلبه منذ عهد طويل ، كما أعلنت شره وسفالة أخلاقه ، فتلك الصفات الشريرة ظلت متفشية في حياة كنعان ونسله الذين إذ ظلوا متعلقين بجرائمهم أوقعوا على أنفسهم دينونة الله .

ومن الناحية الأخرى فإن الاحترام أو التوقير الذي أظهره سام ويافث لأبيهما وبالتالي للشرائع الإلهية أعطاهما وعدا بمستقبل أفضل لنسلهما . وقد أعلن بخصوص هذين الابنين «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ . وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ» . كان نسل سام هو الذي سيكون الشعب المختار ، شعب العهد الإلهي الذي منه سيأتي الفادي الموعود به . لقد كان يهوه هو إله سام ، ومنه يأتي إبرهيم وشعب إسرائيل الذين منهم يأتي المسيح . «طُوبَى لِلشَّعْبِ الَّذِي الرَّبُّ إِلهُهُ» (مزمور ١٤٤: ١٥) .

أما «يَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ» . وقد كان نسل يافث سيشترك بكيفية خاصة في بركـــات الإنجيل .

أما نسل كنعان فقد انحطوا إلى أدنى دركات الوثنية ، ومع أن النبوة بوقوع اللعنة عليـــهم حكمت بأن يكونوا عبيدا فإن الدينونة لم تحل عليهم إلا بعد مرور قرون مـــن الزمـــن . لقـد احتمل الله شرهم وفسادهم حتى تعدوا حدود صبر الله ، وحينئذ جردوا من أملاكهم ، وصاروا عبيدا لنسل سام ويافث .

إن نبوة نوح لم تكن إخطارا استبداديا دافعه الغضب أو إعلانا للرضى ، فهي لـــم تقـرر أخلاق أبناء نوح ومصيرهم ، ولكنها فقط أبانت النهاية التي سينتهي إليها الطريق الذي اختاره كل منهم بمفرده ، والأخلاق التي نمّوها . كانت تلك النبوة تعبيرا عن قصد الله لـــهم ونســلهم بالنظر إلى أخلاقهم وتصرفاتهم . وإنها لقاعدة عامة أن الأبناء لهم أميال والديهم وأمزجتـــهم ويتبعون مثالهم بحيث أن الأبناء يرتكبون نفس خطايا آبائهم جيلا بعد جيل . وهكذا نـــرى أن سفالة حام ووقاحته ظهرت في نسله فجلبت عليهم اللعنة أجيالا طويلة . «أَمَّا خَـــاطِئٌ وَاحِـدٌ فَيُفْسِدُ خَيْرًا جَزِيلاً» (جامعة ٩: ١٨) .

ومن الناحية الأخرى كم كانت عظيمة وغنية تلك المكافأة التي نالها ســام جـزاء احترامــه لأبيه ، وما أعظم وأسمى وأمجد قافلة الرجال القديسين الذين جاءوا من نسله ، «الرَّبُّ عَـــارِفٌ أَيَّامَ الْكَمَلَةِ ... وَنَسْلُهُ لِلْبَرَكَةِ» (مزمور ٣٨: ١٨، ٢٦) «فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّبَّ إِلـــهَكَ هُـوَ اللهُ ، الإِلــهُ الأَمِينُ ، الْحَافِظُ الْعَهْدَ وَالإِحْسَانَ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ وَيَحْفَظُونَ وَصَايَاهُ إِلَى أَلْفِ جِيل» (تثنية ٧: ٩) .

ظل أبناء نوح ساكنين ، بعض الوقت ، بين الجبال حيث استقر الفلك . فلما تكاثر عددهـــم ساقهم الارتداد إلى الانقسام ، فالذين رغبوا في نسيان خالقهم وطرح نير شريعته عن أعناقـــهم أحسوا بمضايقة مستمرة من تعاليم ومثال عشرائهم الخائفين الله ، وبعد قليـــل عوّلـــوا علـــى الانفصال عنهم ، وتبعا لذلك رحلوا إلى سهول شنعار على شاطئ نهر الفرات إذ اجتذبهم إلـــى هناك جمال تلك البقعة وخصوبة أراضيها ، فعزموا على السكنى فيها .

هنا قرروا أن يبنوا مدينة في ذلك المكان ويبنوا فيها برجا عاليا جدا بحيث يصير أعجوبــة الدنيا ، وكان غرضهم من ذلك المشروع أن يحول دون تشـــتت ذلـك الشـعب بعيـدا فـــي مستعمرات أخرى ، ولكن الله كان قد أمر الناس أن ينتشـــروا فـــي كـل الأرض ويملأوهـــا

ويخضعوها ، غير أن بناة بابل هؤلاء عزموا على أن يوحدوا تلك الجماعة ليؤسسوا مملكة تبسط سلطانها على كل الأرض في النهاية ، وبذلك تصير مدينتهم قصبة لإمبراطورية مسكونية ، وتظفر بإعجاب كل العالم وولائه ، ويشتهر مؤسسوها . أما البرج الفخم الذي سيرتفع إلى عنان السماء فقد كان القصد منه أن يقف تذكارا لقوة البنائين وحكمتهم ، فتدوم شهرتهم إلى نهاية الأجيال .

غير أن أولئك القوم الذين سكنوا في سهل شنعار لم يكونوا يؤمنون بعهد الله بأنه لن يأتي الطوفان على الأرض مرة أخرى ، بل لقد أنكر كثيرون منهم وجود الله ونسبوا كارثة الطوفان إلى تداخل أسباب طبيعية . وكان آخرون غير هؤلاء يؤمنون بوجود كائن سام وبأنه هو الذي أهلك العالم القديم بالطوفان ، لكن قلوبهم تمردت عليه كقايين . ومن بين الأغراض التي وضعوها أمامهم عند بناء البرج كونهم أرادوا أن يستوثقوا من سلامتهم لو جاء الطوفان ثانية ، وكانوا يتخيلون أنهم لو رفعوا البرج إلى علو أعظم مما وصلت إليه مياه الطوفان فسينجون من كل خطر ، ولو استطاعوا الوصول إلى منطقة السحاب فقد كانوا يؤمنون أنهم سيعرفون أسباب حدوث الطوفان . وكان القصد من ذلك المشروع هو تمجيد كبرياء القائمين به ، وتحويل عقول أبناء الأجيال اللاحقة وقلوبهم بعيدا عن الله ، والانحدار بهم إلى عبادة الأوثان .

بعدما كمل جزء من ذلك البرج سكن البناؤون في قسم منه ، أما بعض الحجرات الأخرى التي وضعوا فيها بعض قطع الأثاث الفاخرة وزينوها فقد كرسوها لأوثانهم . فرح أولئك القوم بنجاحهم ، ومجدوا آلهة الفضة والذهب التي صنعوها وجندوا أنفسهم لمقاومة ملك السماء والأرض ، ولكن فجأة توقف ذلك العمل الذي كان يتقدم بنجاح ، فلقد أرسل الله من قبله ملائكة لكي يبطلوا ذلك العمل ، فيفشل البناؤون في تحقيق أغراضهم . كان البرج قد وصل إلى ارتفاع هائل ، فغدا من المستحيل على الفعلة الذين في أعلاه أن يتصلوا مباشرة بالذين في أسفله ، ولذلك أوقف رجال في أماكن مختلفة ليتلقى كل منهم الأوامر في طلب المواد التي يحتاج إليها العمل أو بعض التعليمات الخاصة بالبناء ، وهؤلاء يوصلونها بدورهم لمن هم تحتهم ، فإذ كانت الرسائل تنتقل من فم إلى آخر ارتبكت لغاتهم بحيث طلبوا المواد التي لم يكن العمل يحتاج إليها ، كما أن التعليمات التي أعطيت كانت على عكس تلك التي تلقوها ، وتبع ذلك البلبلة والفزع ، فتوقف العمل كله ، ولم يعد هنالك أي وفاق أو تعاون ، ولم يستطع البناؤون أن يعللوا سوء التفاهم الغريب

بينهم . وفي اهتياجهم وفشلهم جعلوا يلومون بعضهم بعضا ، وانتهى تحالفهم إلى المنازعات وسفك الدماء . وقد هدمت البروق المنقضة عليهم من السماء ، دليلا على سخط الله عليهم ، جزءا من أعلى ذلك البرج ، وألقت به إلى الأرض ، وشعر الناس أخيرا أنه يوجد إله يملك في السماوات .

وإلى ذلك الحين كان الناس يتكلمون لغة واحدة ، أما الآن فالذين كانوا يفهمون نفس اللغة كانوا يجتمعون معا ويكونون جماعة ، فذهب بعضهم في طريق ، وذهب آخرون في طريق آخر ، «وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ» (تكوين ١١: ٩) وكان هذا التشتيت والتبديد وسيلة تعمير الأرض ، وهكذا تم قصد الله بالوسيلة نفسها التي استخدمها الناس ليحولوا بها دون إتمامه .

ولكن ما كان أعظم خسارة أولئك الذين وقفوا يتحدون الله ! لقد كان قصده تعالى أنه إذ يخرج الناس ليؤسسوا أمما في أنحاء الأرض المختلفة يحتفظون بمعرفة إرادته حتى يشع نور الحق باهرا للأجيال اللاحقة . إن نوحا الكارز الأمين بالبر عاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة ، كما عاش سام خمس مئة سنة ، وهكذا كانت لأبنائهم فرصة فيها يعرفون مطاليب الله وتاريخ معاملاته لآبائهم ، ولكنهم لم يكونوا يريدون الإصغاء إلى تلك الحقائق التي لم يستسيغوها ، إذ لم يكونوا يرغبون في إبقاء الله في معرفتهم . وبسبب تبلبل الألسنة حرموا إلى حد ما من التحدث مع الذين كان يمكنهم أن يعطوهم النور .

انغمس بناة برج بابل في روح التذمر على الله ، فبدلا من أن يذكروا بالشكر رحمته التي أجزلها لآدم ، وعهده الكريم الذي قطعه مع نوح جعلوا يشتكون من قسوته في طرد الزوجين الأولين من عدن وإهلاك العالم بالطوفان . ولكن في حين كانوا يتذمرون على الله قائلين إنه مستبد وقاس كانوا في الوقت نفسه يقبلون ، بكل رضى ، ملك أقسى الطغاة . كان الشيطان يحاول تحقير شأن الذبائح الكفارية التي كانت رمزا إلى موت المسيح ، وإذ كانت عقول الناس قد أظلمت بسبب عبادتهم للأصنام فقد جعلهم الشيطان يزيفون هذه الذبائح ويقدمون أولادهم ذبائح على مذابح آلهتهم . وعندما ابتعد الناس عن الله أبدلوا الصفات الإلهية كالعدل والطهارة والمحبة بالظلم والقسوة والوحشية .

119,120

عقد أهل بابل العزم على إنشاء حكومة مستقلة عن الله ، ومع ذلك فقد وجد بينهم جماعة كانوا يخافون الله ، ولكنهم انخدعوا بادعاءات الأشرار وانجذبوا إلى تدبيراتهم . فلأجل هؤلاء القوم الأمناء أخّر الرب وقوع الدينونة ، وأعطى للناس وقتا لإظهار صفاتهم على حقيقتها ، فإذ انكشفت صفاتهم حاول أبناء الله أن يكفُّوهم عن إتمام غرضهم ، ولكن أولئك الناس كانوا متحدي الرأي في العمل على محاربة السماء . فلو أنهم ساروا في عملهم دون رادع لأفسدوا أخلاق العالم وهو بعد في طفولته . وقد كونوا اتحادهم في تمرد وعصيان ، فأنشئت مملكة لأجل تعظيم الذات ، وبالطبع لم يكن لله فيها حكم أو كرامة . فلو سمح لهذا التحالف بالبقاء لقامت قوة عظيمة وطردت من الأرض البر والسلام والطمأنينة ، أما وصايا الله التي هي «مُقَدَّسَةٌ وَعَادِلَةٌ وَصَالِحَةٌ» (رومية ٧: ١٢) فقد حاول الناس إبدالها بقوانين توافق قلوبهم القاسية المحبة لذاتها .

أما الذين كانوا يخافون الله فقد صرخوا إليه لكي يتدخل ، «فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا» (تكوين ١١: ٥) وفي رحمته للعالم عرقل وأبطل غوض بناة البرج وقلب تذكار جرأتهم ، وفي رحمته بلبل كلامهم ، وبذلك أوقف غرضهم وأحبط مقاصد عصيانهم . إن الله يصبر طويلا على فساد الناس معطيا إياهم وقتا كافيا للتوبة ، ولكنه يراقب كل حيلهم التي بها يقاومون سلطان شريعته العادلة المقدسة ، فمن حين إلى آخر تمتد اليد الغير المنظورة الممسكة بقضيب الملك لتوقف الإثم عند حده . وهنالك برهان لا يخطئ على أن خالق الكون غير المحدود في حكمته ومحبته وحقه له السلطان المطلق في السماء وعلى الأرض ، وعلى أنه لا يمكن أن يتحدى أحد بالإثم قدرته .

انتهت مشاريع بناة بابل بالعار والهزيمة ، فتمثال كبريائهم أمسى تمثالا لجهالتهم وحماقتهم ، ومع ذلك فالناس يسيرون في الطريق نفسه على الدوام– طريق الاعتماد على الذات ورفض شريعة الله . إنه المبدأ عينه الذي حاول الشيطان تنفيذه في السماء ، وهو المبدأ عينه الذي سار عليه قايين وهو يقدم قربانه .

هناك بناة أبراج في أيامنا هذه ، فالملحدون يبنون نظرياتهم ويجمعونها من الاستنتاجات العلمية المزعومة ، ويرفضون شريعة الله المعلنة ، ويزمعون أنهم يصدرون حكمهم على سياسة الله الأدبية . إنهم يحتقرون شريعته ، ويتباهون بكفاية العقل البشري ، وحينئذ: «لأَنَّ

الْقَضَاءَ عَلَى الْعَمَلِ الرَّدِيءِ لاَ يُجْرَى سَرِيعًا ، فَلِذلِكَ قَدِ امْتَلأَ قَلْبُ بَنِي الْبَشَرِ فِيهِمْ لِفَعْلِ الشَّـرِّ» (جامعة ٨: ١١) .

في العالم المدعو مسيحيا كثيرون يبتعدون عن تعاليم الكتاب الواضحة ، ويتبنون عقيدة من الأفكار والتخيلات البشرية والخرافات المصنَّعة ، ويشيرون إلى برجهم علـى أنـه الطريـق للوصول إلى السماء . الناس يعجبون بذلاقة اللسان والفصاحة التي يتكلم بها الخطبـاء الذيـن يعلِّمون أن العاصي لن يموت ، وأن الخلاص يمكن الحصول عليه دون الطاعة لشـويعة الله . فلو أن المدعوين مسيحيين يقبلون قانون الله لكان هذا القانون يوحد بينهم ، ولكن لابـد مـن الخصومات والانقسامات ما ظلوا يعظمون الحكمة البشرية على كلمة الله المقدسة . إن البلبلـة الحادثة من العقائد المتضاربة والطوائف المختلفة تمثل تماما بالتعبير «بابل» الذي تطبقه النبـوة على كنائس الأيام الخيرة المحبة للعالم ، (رؤيا ١٤: ٨، ١٨:٢) .

كثيرون يحاولون أن يصنعوا لأنفسهم سماء في هذا العالم بالحصول على الغنى والصولـة والنفوذ . «يَتَكَلَّمُونَ بِالشَّرِّ ظُلْمًا . مِنَ الْعَلاَءِ يَتَكَلَّمُونَ» (مزمور ٧٣: ٨) دائسين حقـوق الـبر ومستخفين بسلطان الله . إن المتكبرين قد يحصلون على نفوذ وقوة إلى حين ، وقد ينجحـون في كل ما يشرعون في عمله ، ولكن في النهاية سيكون مصيرهم الفشل والتعاسة .

إن وقت الفحص الذي سيقوم به الله قريب جدا ، فسينزل العلي لينظر ما قـد بنـاه بنـو الإنسان ، وستعلن قدرته الإلهية ، ولا بد من أن ينحط ويسقط كل ما عملته الكبرياء البشرية . «مِنَ السَّمَاوَاتِ نَظَرَ الرَّبُّ . رَأَى جَمِيعَ بَنِي الْبَشَرِ . مِنْ مَكَانِ سُكْنَاهُ تَطَلَّعَ إِلَى جَمِيعِ سُـكَّانِ الأَرْضِ» «الرَّبُّ أَبْطَلَ مُؤَامَرَةَ الأُمَمِ . لاَشَى أَفْكَارَ الشُّعُوبِ . أَمَّا مُؤَامَرَةُ الرَّبِّ فَـإِلَى الأَبَـدِ تَثْبُتُ . أَفْكَارُ قَلْبِهِ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ» (مزمور ٣٣: ١٣،١٤،١٠،١١) .

الفصل الحادي عشر

دعوة إبراهيم

بعدما تشتت الناس من بابل كانت عبادة الأوثان تشمل العالم كله مرة ثانية ، فترك الله العصاة القساة القلوب يسيرون أخيرا في طرقهم الشريرة ، بينما اختار إبراهيم الذي هو من نسل سام ، وجعله حافظا لشريعته للأجيال القادمة . لقد عاش إبراهيم في وسط الخرافات والوثنية ، وحتى بيت أبيه الذين حفظوا معرفة الله كانوا تحت تأثير المؤثرات المضللة المحيطة بهم ، «وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى» (يشوع ٢٤: ٢) . ولكن الإيمان الحقيقي لم يكن لينقرض ، فلقد حفظ الله دائما بقية يعبدونه ، فآدم وشيث وأخنوخ ومتوشالح ونوح وسام في صف متصل ، ومن جيل إلى جيل ، حفظوا إعلانات إرادة الله الثمينة ، وقد صار ابن تارح وارثا لهذه الأمانة المقدسة . كانت الوثنية تستهويه من كل جانب ، ولكن عبثا ، فإذ كان أمينا مؤمنا بين الملحدين ، ولم يتنجس بالارتداد الشامل ، تمسك ، بكل أمانة ، بعبادة الإله الحقيقي وحده ، «الرَّبُّ قَرِيبٌ لِكُلِّ الَّذِينَ يَدْعُونَهُ ، الَّذِينَ يَدْعُونَهُ بِالْحَقِّ» (مزمور ١٤٥: ١٨) . وقد أعلن إرادته لإبراهيم ، وأعطاه معرفة ممتازة عن مطاليب شريعته ، وعن الخلاص الذي سيتم بالمسيح .

لقد أعطي لإبراهيم الوعد الذي كان يعتز به أهل ذلك العصر ، بوجه خاص ، عن النسل الكثير وعظمة أمتهم : «فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ ، وَتَكُونَ بَرَكَةً» (تكوين ١٢: ٢) . وأضيفَ إلى هذا الوعد اليقين الذي كان أثمن من كل ما عداه ، بالنسبة لوارث الإيمان ، أن من نسله سيأتي فادي العالم ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ»» (تكوين ١٢: ٣) . ولكن من أول شروط إتمام هذه المواعيد كان لابد أن إيمانه يجوز في امتحان ، إذ كان الأمر يتطلب تضحية .

وجاءت رسالة الله إلى إبراهيم قائلة : «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ» (تكوين ١٢: ١) . فلكي يؤهله الله لعمله العظيم كحافظ لكلام الله ،

وجب عليه أن ينفصل عن عشراء شبابه . إن تأثير الأقارب والأصدقاء يعطل التدريب الذي قصد الله أن يدرب به عبده ، والآن بعدما صار إبراهيم ، بمعنى خاص ، متصلا بالسماء ، فلا بد له من السكنى بين الغرباء ، وينبغي أن تكون له صفات خاصة تختلف عن صفات كل العالم ، ولم يكن يستطيع أن يفسر مسلكه ليفهمه أصدقاؤه ، فالأشياء الروحية تدرك روحيا ، ولم يكن أقاربه ، عابدو الأوثان ، ليدركوا بواعثه أو تصرفاته .

«بِالإِيمَانِ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا دُعِيَ أَطَاعَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ عَتِيدًا أَنْ يَأْخُذَهُ مِيرَاثًا ، فَخَرَجَ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَأْتِي» (عبرانيين ١١: ٨) . إن طاعة إبراهيم بدون سؤال هي من أنصع الأدلة على الإيمان الذي نجده في الكتاب المقدس ، وبالنسبة إليه كان «وَأَمَّا الإِيمَانُ فَهُوَ الثِّقَةُ بِمَا يُرْجَى وَالإِيقَانُ بِأُمُورٍ لاَ تُرَى» (عبرانيين ١١: ١). وإذ اتكل على وعد الله دون أن يكون هنالك أدنى يقين خارجي بإتمامه ترك بيته وعشيرته وأرض وطنه وخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي ، متبعا قيادة الله ، «بِالإِيمَانِ تَغَرَّبَ فِي أَرْضِ الْمَوْعِدِ كَأَنَّهَا غَرِيبَةٌ ، سَاكِنًا فِي خِيَامٍ مَعَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ الْوَارِثَيْنِ مَعَهُ لِهذَا الْمَوْعِدِ عَيْنِهِ» (عبرانيين ١١: ٩) .

إن هذا الامتحان الذي امتحن به إبراهيم لم يكن امتحانا سهلا ، والتضحية المطلوبة منه لم تكن هينة ، فلقد كانت هنالك أواصر وثيقة تربطه بوطنه وعشيرته وبيته ، غير أنه لم يتردد في إطاعة الدعوة ، ولم يكن لديه سؤال يسأله عن أرض الموعد– لم يسأل هل كانت الأرض خصبة و المناخ صحيا ، ولا هل كان موقع البلاد والجيرة مقبولين ، بحيث يتمكن من أن يجمع لنفسه ثروة هناك ، فما دام أن الله قد تكلم فعلى عبده أن يطيع . إن أسعد مكان على الأرض هو ذاك الذي يريده الله أن يكون فيه .

إن كثيرين لا يزالون يمتحنون كما امتُحن إبراهيم . لا يسمعون صوت الله يكلمهم مباشرة من السماء ، ولكنه يدعوهم بتعاليم كلمته وبحوادث عنايته ، ربما يطلب منهم أن يتركوا حياة تضمن لهم الثروة والكرامة ، وأن يتركوا عشراءهم الذين تعجبهم أخلاقهم ويمكنهم الاستفادة منهم ، وينفصلوا عن أقاربهم ، ويدخلوا إلى ما يبدو أنه طريق إنكار الذات ، والمتاعب والتضحيات . إن لدى الله عملا لهم ليعملوه ، إلا أن حياة الراحة وتأثير الأصدقاء والأقرباء يعطلانهم عن تنمية المميزات اللازمة لإنجازه . إنه يدعوهم ليخرجوا من نطاق المؤثرات البشرية والمعونات الإنسانية ، ويقودهم إلى الشعور

بحاجتهم إلى معونته هو والاتكال عليه دون سواه ، ليعلن نفسه لهم ، فمن هو الإنسان المستعد لقبول دعوة العناية الإلهية له لنبذ الخطط التي يعتز بها ، والأصدقاء والعشراء الذين يعرفهم ؟ من ذا الذي يقبل القيام بواجبات جديدة ، والدخول إلى ميادين جديدة ، والقيام بعمل الله بقلب ثابت راغب ، ولأجل المسيح يحسب خسائره ربحا ؟ إن من يفعل هذا له إيمان إبراهيم ، ولابد من أن يشاطره «ثِقَلَ مَجْدٍ أَبَدِيًّا» لا تقاس به «آلاَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ» (٢كورنثوس ٤: ١٧؛ رو ٨: ١٨) .

إن الدعوة التي أتت من السماء جاءت إلى إبراهيم أولا وهو ساكن في «أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ» (تكوين ١١: ٣١) فإطاعةً منه لتلك الدعوة انتقل إلى حاران ، وإلى هنا كان بيت أبيه يرافقونه ، لأنهم جمعوا بين الوثنية وعبادة الإله الحقيقي . وقد بقي إبراهيم هناك إلى أن مات تارح ، ولكنه وهو عند قبر أبيه أمره صوت الله بالتقدم إلى الأمام ، أما أخوه ناحور وأهل بيته فقد تعلقوا بوطنهم وأوثانهم ، وأن لوطا وحده ، ابن هاران الذي كان قد مات منذ أمد طويل ، بالإضافة إلى سارة ، اختار مقاسمة إبراهيم حياة الاغتراب ، ومع ذلك فقد كانت تلك الجماعة التي نزحت عن بلاد ما بين النهرين ، جماعة كبيرة ، ومن ذلك الحين كان إبراهيم يملك قطعانا كبيرة من الغنم والماشية التي هي ثروة الشرق ، كما كان معه عدد كبير من العبيد والأتباع ، لقد رحل عن بلاد آبائه على ألا يعود إليها ، فأخذ معه كل أملاكه ، لقد أخذا (إبراهيم ولوط) «كُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ» (تكوين ١٢: ٥) وبين هؤلاء كانت جماعة مدفوعة باعتبارات أسمى من دوافع الخدمة والمصلحة الشخصية ، وفي أثناء إقامتهم في حاران قاد إبراهيم وسارة الآخرين لأن يعبدوا ويخدموا الإله الحقيقي ، فالتصق هؤلاء بعائلة ذلك الشيخ ورافقوه إلى أرض الموعد ، «وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ . فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ» (تكوين ١٢: ٥) .

والمكان الذي نزلوا فيه أولا كان شكيم ، فهناك في ظلال بلوطات مورة ، وفي واد فسيح به عشب كثير حيث كروم الزيتون والينابيع الجارية ، بين جبل عيبال من هنا ، وجبل جرزيم من هناك- في ذلك المكان نصب إبراهيم خيامه ، وكانت البلاد التي أتى إليها إبراهيم جيدة وجميلة «أَرْضِ أَنْهَارٍ مِنْ عُيُونٍ ، وَغِمَارٍ تَنْبَعُ فِي الْبِقَاعِ وَالْجِبَالِ . أَرْضِ حِنْطَةٍ وَشَعِيرٍ وَكَرْمٍ وَتِينٍ وَرُمَّانٍ . أَرْضِ زَيْتُونِ زَيْتٍ ، وَعَسَل» (تثنية ٨: ٧،٨) ولكن في

نظر ذلك الرجل الذي كان يعبد الله جثم على ذلك التل المكسو بأشجار الغابات ، وعلى ذلك السهل الخصيب ظل مزعج ، ذلك أنه «كَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ» . لقد وصل إبراهيم إلى مطمح آماله ليجد بلادا يحتلها شعب أجنبي وتملؤها الوثنية ، ففي الغابات أقيمت مذابح للآلهة الكاذبة إذ كانت الذبائح البشرية تقدم على المرتفعات المجاورة . وإذ كان إبراهيم متمسكا بالوعد الإلهي نصب خيمته وكانت تتنازعه المخاوف والأحزان «وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ : «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ»» (تكوين ١٢: ٧) . فتقوى إيمانه موقنا أن الله معه ، وأنه لن يتركه تحت رحمة الأشرار ، «فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ» . وإذ كان لا يزال متغربا فسرعان ما انتقل إلى بقعة قريبة من بيت إيل ، ثم عاد فبنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب .

إن إبراهيم الذي هو «خَلِيل اللهِ» يقدم لنا مثالا نبيلا ، لقد كانت حياته حياة الصلاة ، فأينما نصب خيمته كان يقيم إلى جوارها مذبحا ، داعيا كل من في محلته للاشتراك معه في تقديم الذبائح الصباحية والمسائية ، وحين كان ينقل خيمته كان المذبح يظل قائما ، وكان بين الكنعانيين الجوَّابين من قبلوا التعليم من إبراهيم ، وحدث في السنين التالية أنه كلما أتى واحد منهم إلى ذلك المذبح عرف الشخص الذي كان هناك قبله ، وبعدما ينصب خيمته كان يرمم المذبح ويقدم عبادته لله الحي .

واصل إبراهيم رحلاته صوب الجنوب ، ومرة أخرى امتُحن إيمانه . لقد منعت السماء أمطارها ولم تعد جداول المياه تفيض في الأودية ، فجفت مراعي السهول ، فلم تجد قطعان الغنم أو الماشية مرعى ، وهددت المجاعة المحلة كلها ، ألم يبدأ ذلك الشيخ يتساءل عن الحكمة في تصرفات العناية الإلهية ؟ ألم ينظر إلى الخلف وقد عاوده الحنين إلى الخيرات الوفيرة في سهول الكلدانيين ؟ كان الجميع ينتظرون في لهفة معرفة ما سيفعله إبراهيم إذ تراكمت عليه المتاعب بعضها في أثر بعض . وكان الجميع يحسون أنه لم يزل هناك رجاء ما ظلت ثقته هو ثابتة غير متزعزعة . كانوا موقنين أن الله خليل إبراهيم ، وأنه لايزال يرشده .

لم يستطع إبراهيم تفسير تصرفات العناية ، ولم يحقق ما كان ينتظره ، غير أنه تمسك بالوعد القائل : «أُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ ، وَتَكُونَ بَرَكَةً» . فبالصلاة الحارة اللجوجة جعل يفكر في كيف يحفظ حياة أهله وقطعانه ، ولكنه لم يسمح للظروف أن تزعزع إيمانه بكلمة

الله ، فلكي يتقي شر الجوع نزل إلى مصر ، إنه لم يهجر كنعان ، ولم يرجع ، وهو تحت ضغط محنته ، إلى أرض الكلدانيين التي أتى منها والتي كان فيها الخبز بوفرة ، ولكنه قصد الالتجاء ، بصفة موقتة ، إلى بلد يكون قريبا ، بقدر المستطاع ، من أرض الموعد ، وكان يقصد أن يعود ، بعد قليل ، إلى حيث قد أنزله الله .

والرب ، في عنايته ، أوقع هذه التجربة على إبراهيم ليعلمه دروسا في التسليم والصبر والإيمان- دروسا تسجل لأجل فائدة كل من يُدعَوْن ، فيما بعد ، لاحتمال الضيقات . إن الله يقود أولاده في طريق لا يعرفونه ، غير أنه لا ينسى ولا يطرح بعيدا الذين يضعون اتكالهم عليه . لقد سمح بوقوع الضيقات على أيوب ولكنه لم يتركه ، سمح بنفي يوحنا الحبيب إلى جزيرة بطمس الموحشة ، ولكن ابن الله التقاه هناك ، وقد امتلأت رؤياه بمناظر المجد الأبدي . إن الله يسمح للتجارب بمهاجمة شعبه حتى بثباتهم وطاعتهم يحصلون هم أنفسهم على الغنى الروحي ، وليكون مثالهم نبع قوة للآخرين . «لأَنِّي عَرَفْتُ الأَفْكَارَ الَّتِي أَنَا مُفْتَكِرٌ بِهَا عَنْكُمْ ، يَقُولُ الرَّبُّ ، أَفْكَارَ سَلاَمٍ لاَ شَرّ» (إرميا ٢٩: ١١). إن نفس التجارب التي تضغط إيماننا بقسوة عظيمة حتى يتراءى لنا كأن الرب قد تركنا القصد منها أن تزيدنا اقترابا من المسيح ، حتى نضع كل أثقالنا عند قدميه ، نختبر السلام الذي يمنحنا إياه عوضا عنها .

إن الله كثيرا ما يجيز شعبه في كور المشقة ، وفي شدة حرارة الآتون يعزل الزغل من الذهب الحقيقي في الأخلاق المسيحية ، إن يسوع يراقب عملية الامتحان ، ويعرف ما يلزم لأجل تنقية المعدن الثمين وتصفيته ، حتى يعكس لمعان محبته . وإنما بتجارب ممحصة ، يدرب عبيده ، يرى أن لدى البعض قوى يمكن استخدامها لتقدم عمله ونجاحه ، فيضع هؤلاء الناس تحت محك الاختبار ، وفي عنايته يضعهم في مراكز فيها تمتحن أخلاقهم ، فتكشف عن نقائص وضعفات كانت خافية على معرفتهم ، ثم يعطيهم فرصة لإصلاح هذه الضعفات وإعدادهم لخدمته ، يريهم ضعفهم ويعلمهم كيفية الاتكال عليه ، لأن لا عون ولا أمان لهم إلا به ، وهكذا تتحقق غايته . إنهم يثقَّفون ويدربون ويهذبون ويهيأون ليتمموا القصد الجليل الذي لأجله وُهِبوا تلك القوى ، فحين يدعوهم

للعمل يكونون على أهبة الاستعداد ، ويمكن ملائكة السماء أن يشاركوهم في العمل الــذي يلزم إنجازه على الأرض .

وفي أثناء وجود إبراهيم في مصر برهن على أنه لم يكن متحررا من الضعفات والنقــائص البشرية ، ففي إخفائه لحقيقة كون سارة زوجته كشف عن عدم ثقته في رعاية الله وعنايتــــه ، وإلى افتقاره إلى ذلك الإيمان الرفيع والشجاعة النادرة اللذين تمثلا في حياته كثــــيرا بجــلال عظيم ، كانت سارة «حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ» ، ولم يشكّ في أن المصريين السمر البشرة قد يشــتهون تلك النزيلة الفاتنة ، وأنهم لم يتحرجوا من قتل رجلها في سبيل الظفر بها ، وقد ظــن أنـــه لا ينطق بالكذب بقوله عنها إنها أخته ، لأنها كانت ابنة أبيه ، وإن لم تكن ابنة أمه . ولكن إخفـاء تلك العلاقة الحقيقية بينهما كان تضليلا . إن الله لا يمكن أن يرضى عن أقل انحــــراف عــن الاستقامة الكاملة ، وبسبب عدم إيمان إبراهيم وقعت سارة في خطر عظيم ، فعندما سمع ملــك مصر وصفا لجمالها أمر بنقلها إلى قصره ، وكان يريد أن يتخذها زوجة ، ولكن الرب فــــي رحمته العظيمة حفظ سارة بإرساله الضربات على العائلة المالكة ، وبهذه الوسيلة عرف الملك حقيقة الأمر ، وإذ سخط بسبب الخداع الذي وقع عليه وبخ إبراهيم ، وأعاد إليه امراته قــائلا له : «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي ؟ ... لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ ؟ لِمَاذَا قُلْتَ : هِــيَ أُخْتِــي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي ؟ وَالآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ! خُذْهَا وَاذْهَبْ !» (تكوين ١٢:١٨،١٩) .

حصل إبراهيم على إنعامات كثيرة من الملك ، وحتى بعد كل هذا لم يسمح فرعون بأن يقع عليه أو على أي واحد من أتباعه أي أذى ، بل أمر حارسا بمرافقتهم حتى يخرجوا من أرضه بأمان . وفي هذا الوقت كانت القوانين تحرِّم على المصريين مخالطة الرعاة الأجانب فــــي أي علاقة كالأكل والشرب معهم ، وكان أمر فرعون لإبراهيم بالخروج من أرضه مشبعا بـــروح الشفقة والكرم ، ولكنه أمره بترك مصر لأنه لم يكن يجرؤ على السماح له بالبقاء ، فلقد كـــان موشكا أن يصنع به شرا عظيما ، وذلك جهلا منه ، غير أن الله تدخل وحفـــظ الملــك مــن ارتكاب تلك الخطية الفظيعة . رأى فرعون في هذا القريب إنسانا أكرمه إله السماء ، فخـــاف الملك أن يكون في بلاده إنسان يتمتع برضى الله على هذا الشكل الواضح ، ولو بقي إبراهيـــم في مصر لكان من المرجح أن ثروته وكرامته المتزايدتين تثيران حسد المصريين وجشــعهم ، وربما لحقه بعض الأذى الذي قد يعتبر الملك مسؤولا عنه ، فيوقع الرب الضربات على بيــت الملك لأجل ذلك .

130,131

برهن هذا الإنذار المقدم لفرعون على حماية الله لإبراهيم في اختلاطه بالشعوب الوثنية بعد ذلك ، لأن الأمر لم يكن ممكنا كتمانه ، وقد رؤي كيف كان لا بد لله من أن يحفظ إبراهيم الذي كان يعبده ، وأن كل ضرر أو إهانة تلحقه لابد أن ينتقم من صاحبها ، إنه أمر خطير جدا أن تظلم أحدا من أبناء ملك السماء . والمرنم يشير إلى هذه الحادثة في اختبار إبراهيم حيث يقول ، في معرض كلامه عن الشعب المختار ، إن الله «وَبَّخَ مُلُوكًا مِنْ أَجْلِهِمْ ، قَائِلاً : «لاَ تَمَسُّوا مُسَحَائِي ، وَلاَ تُسِيئُوا إِلَى أَنْبِيَائِي» (مزمور ١٠٥: ١٤،١٥) .

هناك مشابهة عجيبة بين اختبار إبراهيم في مصر واختبار نسله من بعده بعدة قرون ، فكلاهما نزل إلى مصر بسبب الجوع ، وكلاهما تغرب هناك ، وبسبب وقوع الضربات والدينونة على المصريين من أجلهم وقع رعبهم على المصريين ، وإذ اغتنوا من هدايا أولئك الوثنيين خرجوا بثروة عظيمة .

الفصل الثاني عشر

إبراهيم في كنعان

عاد إبراهيم إلى كنعان «غَنِيًّا جِدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ» (انظر تكوين ١٣: ١ ٩) . وكان لوط لا يزال معه ، وعادا إلى بيت إيل ، ونصبا خيامهما إلى جوار المذبح الذي كانا قد أقاماه قبلا ، واكتشفا أن كثرة الأملاك زادت من همومهما . لقد عاشا معا من قبل في وفاق في وسط المشقات والتجارب ، ولكنهما في نجاحهما كان يُخشَى من أن تتشب الخصومة بينهما . لم تكن المراعي كافية لأغنامهما ومواشيهما معا ، وكان رعاة مواشي كل منهما يأتون بالمنازعات الكثيرة التي كانت تنشب بينهم إلى ذينك السيدين ليقضيا فيها ، وبدا واضحا أنه لابد من انفصالهما ، وكان إبراهيم أكبر سنا من لوط إذ كان عمه ، وكان متفوقا عليه في الثروة والمركز ، ومع ذلك فقد كان هو المقدام في اقتراح خطط لصون السلام ، ومع أن الله نفسه كان قد أعطى كل الأرض لإبراهيم فإنه بكل لطف ورقة تنازل عن هذا الحق .

قال : «لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ . أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي . إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأَنَا يَمِينًا ، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالاً» .

هنا تجلت روح إبراهيم النبيلة المنكرة لذاتها . ما أكثر أولئك الذين في مثل هذه الأحوال يتمسكون بحقوقهم الشخصية ، ويؤثرون أنفسهم على الآخرين مهما حدث ! وما أكثر العائلات التي تفرقت وتشتت شملها بهذه الكيفية ! وما أكثر الكنائس التي انقسمت على نفسها وجعلت حق الله مثلا وتعييرا بين الأشرار ! قال إبراهيم : «لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ» ليس فقط لعلاقتهما الشخصية وصلة القرابة ، بل أيضا لكونهما من عبيد الإله الحقيقي ، إن أولاد الله في كل العالم هم أفراد أسرة واحدة ، وينبغي أن يملك عليهم الروح الواحد ، روح المحبة والوفاق ، «وَادِّينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ ، مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْكَرَامَةِ» (رومية ١٢: ١٠) . هذا ما يعلمنا إياه مخلصنا ، أن إنماء روح اللطف غير المنحرفة ورغبتنا في معاملة الناس بمثل ما نحبهم أن يعاملونا به لمما يقضي على نصف مآسي الحياة

ومتاعبها . إن روح تعظيم الذات هي روح الشيطان ، ولكن القلب الذي قد انغرست فيه محبة المسيح ستملك فيه تلك المحبة التي تطلب ما لنفسها . مثل هذا القلب يحفظ وصية الله القائلة : «لاَ تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لآخَرِينَ أَيْضًا» (فيلبي ٢:٤) .

ومع أن لوطا كان مدينا بنجاحه لصلته بإبراهيم إلا أنه لم يعبر عن شكره لمن قد أحسن إليه ، إن اللطف والكياسة كان يجب أن يوجهاه إلى ترك حق الاختيار لإبراهيم ، ولكن بدلا من ذلك فإنه ، في أنانيته ، أراد أن يغتنم الفرصة ويحتفظ لنفسه بكل مزايا ذلك الاختيار ، «فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ ... كَجَنَّةِ الرَّبِّ ، كَأَرْضِ مِصْرَ . حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى صُوغَرَ» (انظر تكوين ١٣: ١٠-١٣) . كان أخصب إقليم في كل فلسطين هو وادي الأردن ، وكان يذكِّر من يشاهدونه بالفردوس المفقود ، ويضارع في جماله ووفرة ثماره السهول التي يخترقها نهر النيل التي كانوا قد رحلوا عنها منذ عهد قريب ، وكانت هنالك أيضا مدن غنية وجميلة تغري الناس بالمتاجرة الرابحة في أسواقها المزدحمة ، فإذ بهرت لوطا مناظر الأرباح المادية لم يعد يرى المآسي والشرور الأدبية والروحية التي كان سيلاقيها هناك ، وكان سكان السهل «أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا» ولكنه كان يجهل هذا ، أو ربما عرف ولم يقم له وزنا ، «فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ ... وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ» . كم كان قصر النظر ، وما كان أقل إدراكه للنتائج المرعبة لذلك الاختيار الأناني !

بعد اعتزال إبراهيم عن لوط أعاد الرب له الوعد بأنه سيعطيه كل الأرض ، وبعد ذلك بقليل انتقل إلى حبرون ، ونصب خيمته تحت بلوطات ممرا ، وأقام إلى جوارها مذبحا للرب . ففي الهواء الطلق في تلك السهول المرتفعة بما فيها من أشجار الزيتون والكروم والحقول المتموجة بالحنطة ، والمراعي الواسعة التي تحيط بها التلال ، سكن إبراهيم قانعا بحياته البسيطة ، حياة القداسة والتقوى ، تاركا للوط وادي سدوم المترف المحفوف بالمخاطر .

كانت الأمم المجاورة لإبراهيم تحترمه وتوقره كأمير عظيم ورئيس مقتدر حكيم ، ولم يعش منطويا على نفسه ، ولا حجز تأثره عن جيرانه ، فإن حياته وتأثيره ، على نقيض حياة عبدة

الأوثان ، كان لها تأثر ملحوظ في صالح الإيمان القويم . وكان ولاؤه لله ثابتا لا يــــتزعزع ، بينما لطفه وحبه للإحسان أوحيا بمصادقته والثقة به ، وإن عظمته غير المتكلفة جعلت النـــاس يحترمونه ويوقرونه .

ولم تكن ديانته ككنز ثمين يحرسه صاحبه بكل حرص حتى لا يتمتع به أحد سواه ، إن من يعتنق الديانة الحقيقية لا يتصرف هكهذا ، لأن هذه الروح تنافي مبادئ الإنجيل ، فحين يكــون المسيح ساكنا في القلب يصبح من المستحيل على الإنسان إخفاء نور حضوره ، أو أن نـــوره يصير ظلاما ، بل يكون الأمر على عكس ذلك ، فإن نوره يزداد تألقا ولمعانا يوما بعد يــوم ، طاردا ظلمات الأنانية والخطية التي تكتنف النفس ، بأشعة النور المنبعثة من شمس البر .

إن شعب الله هم ممثلوه على الأرض ، وهو يريدهم أن يكونوا أنوارا تبدد ظلمـــات هــذا العالم الأدبية ، وإذ يكونون متفرقين في كل البلاد ، في القرى والمدن الكبرة والصغيرة فـــهم شهود الله والمجاري التي عن طريقها يوصل إلى العالم العديم الإيمان معرفة إرادته وعجــائب نعمته ، فتدبيره هو أن كل من قد أخذوا نصيبا من خلاصه العظيم يكونـــون مرســلين لــه ، وتقوى المسيحيين تقرر المقياس الذي يحكم بل أهل العالم على الإنجيـــل ، فالتجــارب التـــي يحتملونها بصبر ، والبركات التي يتناولونها بالشكر ، والوداعة والرفق والرحمة والمحبـــة إذ يعتادون إظهارها تكون هي الأنوار التي تلمع في الأخلاق أمام العالم ، مبينة الفارق العظيـــم بينها وبين الظلمة الناشئة عن الأنانية والقلب الطبيعي .

إن إبراهيم الذي كان غنيا في إيمانه نبيلا في كرمه وغير متردد في طاعته ، ومتواضعـــا في بساطة حياة الغربة التي عاشها ، كان أيضا حكيما في معاملاته ، وشجاعا ومـــاهرا فـــي الحرب ، ومع أنه كان معروفا عنه أنه كارز بدين جديد فإن ثلاثة إخوة من النســل الملوكـــي الذين كانوا يحكمون على سهول الأموريين التي كان إبراهيم ساكنا فيها أظهروا صداقتهم لـــه بدعوتهم إياه للدخول في تحالف معهم لضمان سلامتهم ، لأن القسوة والظلم كانا متفشيين فـــي تلك البلاد . وسرعان ما حدثت حادثة جعلته ينتفع من ذلك التحالف .

كان كدر لعومر ملك عيلان قد غزا كنعان منذ أربع عشرة سنة وأرغمهما علـــى أن تدفع له الجزية ، أما الآن فقد ثار عليه عدة ملوك ، فجاء ملك عيلام هذا ومعـــه أربعـــة ملوك آخرون وهجموا على تلك البلاد لإخضاعها ، فاتحدت جيوش خمســة مـــن ملـــوك

كنعان والتحموا مع الغزاة في عمق السديم ، ولكنهم هُزِموا شر هزيمة ، وقُتِل أغلب رجال الجيش ، والذين نجوا اعتصموا بالجبال لينجوا بحياتهم ، ونهب المنتصرون مدن السهل وحملوا معهم غنائم عظيمة وكثيرين من الأسرى ، ومن بينهم لوط وعائلته ، ثم رحلوا .

أما إبراهيم الذي كان يقيم عند بلوطات ممرا في سلام فقد علم من أحد الهاربين من الحرب بقصة المعركة والكارثة التي حلت بابن أخيه . لم يكن إبراهيم يحقد على لوط بسبب نكرانه لفضله عليه ، فاستيقظت كل عواطف محبته نحوه وعزم على إنقاذه ، فكان أول ما فعله أنه طلب أن يعرف مشورة الله ، ومن ثم تأهب للحرب ، فجند من عبيده ثلاث مئة وثمانية عشر رجلا متمرنين ، وكانوا كلهم متربين في خوف الله وفي خدمة مولاهم ، ومتدربين على استخدام الأسلحة . كما أن حلفاء إبراهيم ، أي ممرا وأشكول وعانر ، ساروا معه إلى الحرب يتبعهم رجال حربهم ، فانطلق الجميع يتعقبون الغزاة ، وكان العيلاميون وحلفاؤهم قد عسكروا في دان على حدود كنعان الشمالية ، فإذ كانوا سكارى بخمرة الانتصار ولم يكونوا يخشون من هجوم يأتيهم من أعدائهم المنهزمين أسلموا أنفسهم للطرب والمرح ، أما إبراهيم فقد قسم الجيش بحيث يطبقون على العدو من عدة نواح ، وباغتوا جيش العدو ليلا ، فذلك الهجوم الشديد الغير المتوقع تكلل بالانتصار السريع ، فقتل ملك عيلام وهلك رجاله الذين استولى عليهم الرعب ، كما استرجع لوط وعائلته وكل الأسرى مع أملاكهم ، وسقط في أيدي المنتصرين غنائم عظيمة ، أما الفضل في هذا الانتصار فقد نسب إلى إبراهيم بعد الله . فذلك الرجل الذي كان يعبد الله فضلا عن كونه قدم خدمة جليلة لبلاده قد برهن أنه رجل شديد البأس ، وظهر من هذا أن حياة الاستقامة والبر ليست حياة الخنوع والجبن ، وأن ديانة إبراهيم جعلته شجاعا في إعادة الحق إلى أصحابه والدفاع عن المظلومين ، وهذا العمل الباهر الدال على البطولة جعل تأثير إبراهيم ينتشر بين القبائل المجاورة . وعند عودته خرج ملك سدوم على رأس حاشيته لإكرام ذلك القائد الظافر ، وقال الملك لإبراهيم أن يأخذ الأملاك ، وإنما رجاه أن يعيد له الأسرى فقط ، وبموجب العرف المصطلح عليه في الحروب كانت الغنائم من حق الغالبين ، ولكن غرض إبراهيم مع تلك الحملة لم يكن الحصول على مغنم مادي ، فرفض أن يستفيد بشيء من أولئك الأسرى المنكودي الحظ ، إنما اشترط فقط أن يأخذ

حلفاؤه النصيب الذي يستحقونه .

ما أقل الذين إذا تعرضوا لمثل هذه التجربة يبرهنون على نبل أخلاقهم كإبراهيم ! قليلون هم الذين يقاومون تجربة الظفر بمغانم عظيمة كهذه ، إن مثال إبراهيم هو توبيخ صارم للنفوس الطامعة التي تطلب ما لنفسها فقط . لقد حافظ إبراهيم على مطاليب العدالة والمروءة ، وإن مثاله يفسر لنا القول الموحى به «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» (لاويين ١٩: ١٨) . قال إبراهيم لملك سدوم : «رَفَعْتُ يَدِي إِلَى الرَّبِّ الإِلهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، لاَ آخُذَنَّ لاَ خَيْطًا وَلاَ شِرَاكَ نَعْل وَلاَ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ، فَلاَ تَقُولُ : أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ» (انظر تكوين ١٤: ١٧-٢٤) . فلم يرد أن يعطيهم مجالا لأن يظنوا أنه قد دخل الحرب سعيا وراء الربح المادي ، أو أن ينسبوا نجاحه لخطاياهم أو معروفهم ، لقد وعد الله إبراهيم بالبركة ، فله وحده يرجع المجد .

وهناك شخص آخر جاء ليرحب بإبراهيم ، وهو ملكي صادق ، ملك ساليم ، الذي أخرج خبزا وخمرا لإنعاش جيشه ، وبوصفه «كاهنا كَاهِنًا للهِ الْعَلِيِّ» بارك إبراهيم وشكر الرب الذي صنع على يدي عبده ذلك الخلاص العظيم ، «فَأَعْطَاهُ (إبراهيم) عُشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» .

رجع إبراهيم فرحا إلى خيامه وقطعانه ، ولكن أفكارا مزعجة خطرت له ، لقد كان رجل سلام ، وعلى قدر طاقته كان يعرض عن العداوة والنزاع ، فبكل رعب استعاد إلى ذاكرته منظر المذبحة التي قد شهدها ، وأن تلك الأمم التي كان قد هزم جيوشها لابد أن تعود لتغزو كنعان ، وسيجعلونه هو هدفا لانتقامهم ، فحيث قد اندمج في المنازعات القومية إلى هذا الحد قد تضطرب حياته الوادعة المسالمة ، وفوق ذلك فهو لم يكن قد امتلك أرض كنعان ، ولم يستطع الآن أن ينتظر وارثا يرثه ويتمم له الرب ذلك الوعد .

ففي رؤى الليل عاد إبراهيم يسمع صوت الرب قائلا له : «لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ»- هذا ما قاله له ملك الملوك «أَنَا تُرْسٌ لَكَ . أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا» (انظر تكوين ١٥: ١-٥) ولكن عقل إبراهيم كان يطغى عليه التشاؤم بحيث لم يكن يستطيع الاستناد على الوعد بثقة لا يتطرق إليها الشك كما فعل قبلا فصلى بطلب برهان ملموس على أن الوعد سيتم ، وكيف يتحقق عهد الله معه في حين أنه محروم من عطية البنين ؟ فقال : «مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ

عَقِيمًا ... وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي» ، واقترح أن يكون أليعازر عبده الذي يثق به ابنا لــه بالتبني ووارثا لأملاكه من بعده ، ولكن الله أكد له أن الابن الذي سيخرج من أحشائه هــو الذي سيرثه ، ثم أخرجه إلى خارج خيمته وقال له أن ينظر إلى نجوم الســماء اللامعــة التي لا تعد ، فإذ نظر إلى فوق جاءه القول الإلهي : «هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ» «فَآمَنَ إِبْرَاهِيــمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا» (رومية ٤: ٣) .

مع ذلك ، توسل ذلك القديس الشيخ في طلب علامة ظاهرة لتثبيت إيمانه ولتكون برهانــا للأجيال القادمة على أن مقاصد الله الرحيمة نحوهم ستتم ، وتنازل الرب فدخل في عهد مــع عبده ، مستخدما الطقوس المتبعة بين الناس لأجل التصديق على ميثاق خطــير ، وبموجــب إرشاد الله قدم إبراهيم ذبيحة من عجلة وعنزة وكبش عمر كل منها ثلاث سنين ، وشقها كلــها من الوسط ، وجعل كل شق مقابل صاحبه ، كما أضاف إلى هذه يمامة وحمامــة ولكنــه لــم يشقهما . وبعدما عمل كل ذلك جاز بكل احترام ووقار بين قطع ذبيحته ونذر لله نذرا خطــيرا أن يطيعه طاعة دائمة ، وظل ماكثا وثابتا بجوار الجثث إلى مغيب الشمس ليحرسها خيفــة أن تنجسها أو تختطفها الجوارح ، وعند مغيب الشمس وقع عليه سبات عميق «وَإِذَا رُعْبَةٌ مُظْلِمَةٌ عَظِيمَةٌ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ» (أنظر تكوين ١٥: ٧-١٨) وسمع صوت الله يقول له ألا يتوقع امتــلاك أرض الموعد في زمن قريب ، كما أخبره عن آلام ستصيب نسله في المستقبل قبلما يسـتقرون في كنعان ، وكشف له حينئذٍ عن تدبير الفداء بموت المسيح وذبيحته العظيمة ، ومجيئــه فــي المجد ، كما رأى إبراهيم الأرض تستعيد جمالها كما في أيام جنة عدن ، وأنها ستعطى له ملكا أبديا إنجازا للوعد بكيفية نهائية كاملة .

وضمانا لعهد الله مع الناس جاز تنور دخان ومصباح نار كرمز لحضور الله ، بيــن تلــك القطع ثم التهمتها كلها النار . ثم سمع إبراهيم صوت الله ثانية مثبتا وعده بأنه ســيعطي أرض كنعان لنسله «مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ ، نَهْرِ الْفُرَاتِ» .

بعد حوالي خمس وعشرين سنة من سكنى إبراهيم في أرض كنعان ظهر له الرب قــائلاً : «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ . سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً» (انظر تكوين ١٧: ١-١٦) ففي وقار وخشــوع ســقط ذلك الشيخ على وجهه ، وإذا بالرب يتابع كلامه قائلاً : «فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ ، وَتَكُــونُ أَبًــا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ» وكعلامة لإنجاز عهده معه تغير اسمه الذي كان قبلا أبرام ، فصار اســمه

إبراهيم ، ومعناه «أب لجمهور عظيم» . كما تغير اسم ساراي إلى سارة ، ومعناه «أميرة» . لأن صوت الله سُمِع يقول : «إنها تكون أمما وملوك شعوب منها يكونون» .

في هذا الوقت أعطى الله لإبراهيم فريضة الختان «خَتْمًا لِبِرِّ الإِيمَانِ الَّذِي كَانَ فِي الْغُرْلَةِ» (رومية ٤: ١١) وكان ينبغي لإبراهيم ولنسله أن يحفظوا تلك الفريضة علامة على أنهم مكرسون لخدمة الله وعبادته ، وأنهم لذلك منفصلون عن عبدة الأوثان ، وأن الله قد قبلهم خاصة له ، وبموجب تلك الفريضة كانوا ملتزمين من جانبهم أن يتمموا شروط العهد الذي عقده الله مع إبراهيم ، فلقد حرم عليهم الارتباط بالوثنيين عن طريق الزواج ، فإن من شأن هذا الارتباط أن يفقدهم توقيرهم لله ولشريعته المقدسة ، ويمسون مجرَّبين لأن يشتركوا مع الأمم الأخرى في ممارساتهم الشريرة التي ستغرر بهم حتى ينتحلوا الوثنية .

لقد منح الله إبراهيم كرامة عظيمة ، فكان ملائكة السماء يسيرون معه ويحادثونه كما يحادث الصديق صديقه ، وعندما كانت الأحكام موشكة أن تنصب على سدوم لم يكن ذلك السر خافيا على إبراهيم ، بل صار إبراهيم شفيعا في الخطاة أمام الله ، وكان في استقباله للملائكة مثالا جميلا لكرم الضيافة .

ففي حر النهار ، في وقت الظهيرة ، كان ذلك القديس الشيخ جالسا في باب خيمته يتطلع أمامه في ذلك البر الهادئ ، وإذا به يرى على البعد ثلاثة مسافرين مقبلين عليه ، وقبل وصول أولئك الغرباء إلى الخيمة توقفوا كأنما يتشاورون في أي طريق يسيرون . ولم ينتظر إبراهيم حتى يطلبوا منه أن يضيفهم ، بل أسرع إلى حيث كانوا ، وبينما هم يتظاهرون بالاتجاه إلى طريق آخر ، ركض وراءهم ، وبكل لطف ألح عليهم أن يكرموه بالانتظار عنده ريثما يسندون قلوبهم ، وأحضر لهم بنفسه ماء ليغسلوا أرجلهم من وعثاء السفر ، واختار لهم طعامهم بنفسه ، وإذ كانوا متكئين تحت ظل الأشجار في الهواء المنعش أعدت لهم مائدة حافلة ، وباحترام و قف هو لديهم ريثما تناولوا من تلك المائدة الدالة على كرمه ، فاعتبر الله هذا اللطف من إبراهيم وهذه الضيافة لأولئك الغرباء أمرا هاما جدا بحيث اقتضى تسجيله في كتابه ، وبعد ذلك بألف سنة أشار إليها الرسول بوحي الله قائلاً : «لاَ تَنْسَوْا إِضَافَةَ الْغُرَبَاءِ ، لأَنْ بِهَا أَضَافَ أُنَاسٌ مَلاَئِكَةً وَهُمْ لاَ يَدْرُونَ»

(عبرانيين ١٣: ٢) .

لم يكن إبراهيم قد رأى في ضيوفه أكثر من ثلاثة مسافرين أعياهم التعب ، ولم يكن يظن أن بينهم واحدا يمكنه أن يعبده دون أن يرتكب خطية ، ولكن بعد ذلك انكشف له أمر رسل السماء أولئك ، ومع أنهم كانوا سائرين في طريقهم كرسل الغضب ، إلا أنهم كلموا إبراهيم رجل الإيمان عن البركات أولا ، ومع كون الله دقيقا وحازما في مراقبة الإثم ومعاقبة العصيان فإنه لا يسر بالانتقام ، إن عمل الإهلاك هو «عَمَلَهُ الْغَرِيبَ» لذاك الذي هو غير محدود في محبته .

«سِرُّ الرَّبِّ لِخَائِفِيهِ» (مزمور ٢٥: ١٤) . لقد أكرم إبراهيم الله فأكرمه الله وأطلعه على مشوراته ، وكشف له عن مقاصده ، قال الرب : «هَلْ أُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ ؟» (انظر تكوين ١٨: ١٧-٣٣) . «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا . أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ» . لقد عرف الرب جيدا مكيال إثم سدوم ، ولكنه عبر عن فكره كما هي عادة الناس لكي يفهم عدله في معاملته للعصاة فقبلما يوقع دينونته عليهم سيذهب بنفسه ليمتحن طرقهم ، فإذا لم يكونوا قد جاوزوا حدود الرحمة الإلهية سيعطيهم فرصة إمهال للتوبة .

انصرف اثنان من رسل السماء تاركين إبراهيم وحده مع ذاك الذي عرفه إبراهيم الآن بأنه ابن الله ، فتوسل رجل الإيمان ذاك لأجل سكان سدوم الذين خلصهم مرة بعد سيفه ، أما الآن فهو يحاول إنقاذهم بالصلاة . كان لوط وعائلته لا يزالون ساكنين هناك . إن محبة إبراهيم المنكرة لذاتها قد استفزته ليخلصهم من العيلاميين ، والآن ها هو يحاول ، لو أراد الرب ، أن يخلصهم من عاصفة الدينونة الإلهية .

باحترام عميق ووداعة عظيمة توسل إبراهيم إلى الرب قائلاً : «قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ» لم تكن هنالك ثقة في النفس ولا افتخار بالبر الذاتي ، لم يطلب إبراهيم الرحمة على أساس طاعته هو ، ولا على أساس التضحيات التي بذلها متمما إرادة الرب ، وإذ كان هو خاطئا فقد توسل لأجل الخطاة . فلتكن هذه الروح هي روح كل من يقتربون إلى الله . تقدم إبراهيم إلى الله في ثقة كطفل يتقدم إلى أبيه الحبيب ، اقترب من رسول السماء ، وبكل حراره جعل يلح في توسلاته ، ومع أن لوطا كان محسوبا من سكان سدوم فهو لم يشارك

السكان في آثامهم . وقد ظن إبراهيم أن تلك المدينة المزدحمة بالسكان لابد أن يكون فيها أناس آخرون يعبدون الإله الحقيقي ، وبهذا الاعتبار توسل قائلاً : «حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ ... حَاشَا لَكَ ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلاً ؟» ولم يتوسل إبراهيم مرة واحدة بل مرارا ، وإذ ازداد جرأة حين أجيب إلى طلبه ظل مواظبا على الصلاة حتى حصل على التأكيد بأنه إن وجد الرب في المدينة عشرة أبرار فسيبقي على المدينة .

إن محبة إبراهيم للنفوس الهالكة ألهمته هذه الصلاة ، ففي حين كان يشمئز من خطايا تلك المدينة الفاسدة اشتاق إلى خلاص أولئك الخطاة ، إن اهتمامه العميق بسدوم يرينا مبلغ الجزع الذي ينبغي أن نحس به نحو غير التائبين ، ففي حين يجب أن نكره الخطية علينا أن نشفق على الخاطئ ونحبه . إن حولنا نفوسا كثيرة جدا تنحدر إلى الهلاك في حالة مرعبة وبلا رجاء ، تماما كما كانت الحال مع سدوم ، وفي كل يوم تنتهي مدد الإمهال المقدمة لبعض النفوس ، وفي كل ساعة ينحدر بعض الناس إلى حيث لا تصل الرحمة . فأين أصوات الإنذار والتوسل لتأمر الخاطئ بالهروب من هذه الدينونة المخيفة ؟ وأين الأيدي الممتدة لإبعاده عن الموت ، وأين أولئك الذين بالإيمان المثابر والوداعة يتوسلون إلى الله لأجلهم ؟

إن روح إبراهيم كانت هي روح المسيح ، وإن ابن الله هو نفسه أعظم شفيع في الخطاة ، وذاك الذي دفع ثمن فداء النفس البشرية يعرف قيمتها ، وبعداوة وخصومة عظيمة للشر لا يمكن أن توجدا إلا في نفس طاهرة بلا عيب أظهر المسيح للخاطئ محبة لا يمكن أن تشعر بها أو تدركها إلا النفس الكلية الصلاح . ففي آلام الصليب إذ كان هو نفسه يحمل حمل خطايا العالم الرهيبة صلى لأجل من سخروا به وقتلوه قائلاً : «اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» (لوقا ٢٣: ٣٤) .

يقول الكتاب عن إبراهيم إنه «دُعِيَ خَلِيلَ اللهِ» و «أَبًا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ» (يعقوب ٢: ٢٣؛ رومية ٤: ١١) وشهادة الله لهذا الشيخ الأمين هي هذه : «إِبْرَاهِيمَ سَمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي : أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي» وأيضا: «لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً ، لِكَيْ يَأْتِيَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ» (تكوين ٢٦: ٥) . لقد كانت كرامة عظيمة تلك التي دعي إبراهيم إليها ، أن

يكون أبا لشعب كانوا ، لمدة أجيال ، حراسا وحفاظا على حق الله للعـــالم ، أبـــا لذلـــك الشعب الذي عن طريقه ستتبارك كل أمم الأرض بمجيء مسيا الموعود به ، ولكن الـــذي دعا ذلك الأب حكم بأنه مستحق . إن الله هو الذي يتكلم ، فذاك الذي يفهم الأفكـــار مـــن بعيد ويقدر الناس التقدير الصحيح يقول : «عَرَفْتُهُ» . إن إبراهيم لم يكن ليغدر بالحق فـــي سبيل أغراض أنانية ، بل حفظ الشريعة وعمل حقا وعدلا . ولم يكتف بأن يخاف الـــرب بنفسه ، ولكنه أراد أن ينشر الدين في بيته ، ويعلم عائلته طريق الـــبر ، أراد أن يجعـــل شريعة الله قانونا يسير بموجبه أهل بيته .

كانت عائلة إبراهيم مكونة من أكثر من ألف نفس ، والذين قادتهم تعاليمه إلى عبـــادة الإله الواحد وجدوا في محلته مأوى وملاذا ، وهنا ، كما في مدرسة ، حصلوا على تعاليم تؤهلهم لأن يكونوا ممثلين للإيمان الحقيقي . هكذا نرى أن إبراهيم كان تحت مســـؤولية خطرة . كان يدرب رؤساء عائلات ، وكانت أساليبه في الحكم تنفذ فـــي البيـــوت التـــي يرأسونها .

في العصور الأولى كان الأب حاكما في عائلته وكاهنا لها ، وكان ينفذ سلطانه علـــى أولاده حتى بعد ما يكونون لهم عائلات خاصة بهم ، وكان أولاده يتعلمون أنه ينبغي لـــهم أن ينظروا إليه كرئيس لهم في الشؤون الدينية والزمنية . وقد جدَّ إبراهيم في تنفيذ هـــذا النظام الأبوي في الحكم ، إذ أن مآله كان إلى حفظ معرفة الله . لقد كان من الضـــروري حفظ وحدة العائلة معا لأجل إقامة حاجز يصد عنها الوثنية التي كـــانت قـــد استشـــرت وتأصلت في النفوس ، وحاول إبراهيم بكل وسيلة في مقدوره أن يحول بين نزلاء محلتـــه والاختلاط بالوثنيين ومشاهدة ممارساتهم الوثنية ، لأنه كان يعلم أن التعرف بالشر يفســـد مبادئهم وهم لا يشعرون ، فكان حريصا أشد الحرص على أن يبعد عنهم كـــل طقـــوس العبادة الكاذبة وأشكالها ، وأن يطبع على عقولهم جلال الإله الحي ومجده بوصفه الكـــاهن الوحيد الذي تنبغي له العبادة والسجود .

كان ترتيبا حكيما ذاك الذي عمله الله ليقطع كل صلة بين شعبه والوثنييـــن ، علـــى قـــدر الإمكان ، جاعلا إياهم شعبا يسكن وحده ، وبين الشعوب لا يحسب . لقد فصل إبراهيم عـــن أقربائه الوثنيين حتى يتمكن ذلك الشيخ من أن يربي ويهذب عائلته بعيدا عن المؤثرات المضلة

التي كان يمكن أن تحيط بهم في ما بين النهرين ، وحتى يحفظ نسله الحق في نقاوته من جيل إلى جيل .

إن محبة إبراهيم لأولاده وأهل بيته قادته إلى أن يحرس عقيدتهم الدينية ، ويسلم لهم معرفة الوصايا الإلهية كأثمن إرث يمكن أن يورثهم إياه ، ثم يسلمه عن طريقهم للعالم . وتعلم الجميع أنهم تحت حكم إله السماء ، فما كان على الآباء أن يستبدوا بأولادهم ، وما كان على الأولاد أن يعصوا والديهم ، فلقد عينت الشريعة لكل واحد واجبه ، وفي الطاعة لتلك الشريعة فقط يمكنهم أن يحظوا بالسعادة والنجاح .

كان مثال إبراهيم وتأثيره الصامت في حياته اليومية درسا مستمرا للجميع ، إن استقامته التي لا انحراف فيها ، وإحسانه ، ولطفه الذي لا تشوبه الأنانية– هذه الصفات التي حازت إعجاب الملوك ، كانت سائدة في البيت ، فلقد كان يفوح من حياته شذا رائحة طيبة ، كما كان في أخلاقه نبل وجمال كشف للناس جميعا أن هذا الرجل كان على صلة بالسماء ، إنه لم يهمل نفس أحقر عبد من عبيده . وفي بيته لم تكن هنالك شريعة للسيد وأخرى للعبد ، لم تكن هنالك طريق ملكية للأغنياء وأخرى للفقراء ، ولكن الجميع كانوا يعاملون بالعدل والرفق كالوارثين معه لنعمة الحياة .

«لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ ...» لن يكون هنالك إهمال خاطئ في ضبط وكبح أميال أولاده الشريرة ، ولن تكون محاباة ضعيفة ومتساهلة غير حكيمة ، لن يخضع اقتناعه بالواجب لمطاليب المحبة المخطئة ، إن إبراهيم لم يكن يكتفي بتقديم التعليم الصحيح بل أراد الاحتفاظ بسلطان الشرائع العادلة المستقيمة .

ما أقل الذين يتبعون هذا المثال في هذه الأيام ! إن عددا كبيرا جدا من الآباء يكنون لأولادهم حنوا أنانيا أعمى يسمّونه ، خطأ ، محبة ، وهو يبدو في تركهم لأولادهم بتفكيرهم غير الناضج وانفعالاتهم غير المدربة لحكم إرادتهم ، تلك أعظم قسوة نحو الشباب ، وأعظم ظلم للعالم ، ذلك لأن تساهل الآباء يسبب التشويش والارتباك في العائلات وفي المجتمع ، وهذا يقوي في الشباب الميل إلى اتباع ميولهم بدلا من الخضوع لمطاليب الله ، فيشبون وقلوبهم كارهة لعمل إرادة الله ويورثون روحهم الكافرة العاصية لأولادهم وأولاد أولادهم ، ولكن على الآباء أن يوصّوا أولادهم من بعدهم كما فعل إبراهيم . ينبغي أن يتعلم الأولاد

الطاعة لسلطة والديهم ويلزموا بذلك كأول خطوة في طريق طاعتهم لسلطان الله .

إن كون الناس ، حتى القادة الدينيين بينهم ، لا يقيمون وزنا لشريعة الله ، قد أنتج شرورا عظيمة ، وإن التعليم السائد الآن والقائل بأن الشرائع الإلهية لم تعد ملزمة للناس هو تعليم نظير الوثنية في تأثيره الضار بأخلاق الناس ، والذين يحاولون التقليل من قوة مطاليب شريعة الله المقدسة يوجهون ضربات مباشرة إلى أساس حكم العائلات والأمم ، إن الآباء المتدينين لكونهم يفشلون في السير في طريق وصايا الله لا يوصون عائلاتهم بحفظ طريق الرب ، فلم تعد شريعة الله هي قانون الحياة ، والأولاد إذ يكونون لأنفسهم بيوتا لا يحسون بأنهم تحت التزام أن يعلموا أولادهم ما لم يتعلموه قط ، وهذا هو السبب في كون عائلات كثيرة قد تفشى فيها الإلحاد ، وهذا هو السبب في تأصل الفساد في القلوب وانتشاره في كل مكان .

وما لم يسلك الآباء أنفسهم في شريعة الرب بقلوب كاملة فلن يكونوا مستعدين لأن يوصوا أولادهم من بعدهم . إن الحاجة هي إلى إصلاح ، إصلاح عميق وعلى نطاق وسيع ، إن الآباء لفي حاجة إلى إصلاح ، وكذلك الخدام ، إنهم يحتاجون إلى وجود الله في بيوتهم ، فإذا أرادوا أن يروا تحسنا ، عليهم أن يدخلوا كلمة الله في عائلاتهم ويجعلوها مشيرا لهم . ويعلموا أولادهم أنها صوت الله موَجَّها إليهم ، وينبغي أن يطاع طاعة كاملة ، وعليهم أن يعلموا أولادهم بكل صبر ، وبترفق وبدون ملل ، كيف يعيشون لإرضاء الله . إن مثل هؤلاء الأولاد يكونون مستعدين لمجابهة سفسطة الإلحاد ، لقد قبلوا كتاب الله أساسا لإيمانهم ، وهو أسلس لا يمكن أن تكتسحه كل سيول الإلحاد المهاجمة .

إن الصلاة مهملة في غالبية العائلات ، فالآباء يحسون أن لا وقت لديهم لممارسة الصلاة الصباحية والمسائية ، إنهم لا يستطيعون توفير دقائق قليلة يقضونها في شكر الله على مراحمه الجزيلة– على نور الشمس والأمطار التي تنمي الأغراس ، ولأجل حراسة الملائكة الأبرار لهم ولذويهم ، لا وقت لديهم لطلب معونة الله وإرشاده ولأجل حلول يسوع في بيوتهم . إنهم يخرجون إلى أعمالهم كما يخرج الثور أو الحصان دون أن يفكروا في الله أو في السماء ، إن لهم نفوسا غالية حتى أن ابن الله لكي لا يتركهم يهلكون بلا رجاء بذل حياته فدية عنهم ، ولكنهم لا يقدرون صلاحه العظيم أكثر مما تفعل البهائم التي تباد .

وكما فعل الآباء قديما ، فعلى كل من يعترفون بمحبتهم لله أن يقيموا مذبحا للرب أينما

ينصبون خيامهم ، إن كان هنالك وقت وجب فيه أن يكون كل بيت بيت صلاة فهو هذا الوقت . فعلى الآباء والأمهات أن يواظبوا على رفع قلوبهم إلى الله في ابتهال وتذلل لأجل أنفسهم وأولادهم ، ليقدم الأب ، بوصفه كاهن البيت ، ذبيحة الصباح وذبيحة المساء ، كما على الزوجة والأولاد أن يشتركوا في الصلاة والتسبيح ، مثل هذا البيت يشتهي المسيح السكنى فيه .

ينبغي أن يشع نور مقدس من كل بيت مسيحي ، وينبغي أن تظهر المحبة في العمل . وتمتزج بكل المعاملات البيتية ، مظهرة نفسها في الرفق المفكر المتزن . وفي اللطف الرفيق المنكر لنفسه ، هذا المبدأ ينفذ في بعض البيوت ، وهي بيوت يعبد أهلها الله ، وتملك فيها المحبة الحقيقية ، ومن هذه البيوت تصعد الصلوات الصباحية والمسائية كالبخور العطر ، فتنزل المراحم والبركات على المصلين مثل ندى الصباح .

إن البيت المسيحي المنظم حسنا هو حجة قوية لصدق وفاعلية الديانة المسيحية– حجة لا يستطيع الملحدون أن يكذبوها أو يناقضوها ، والجميع يستطيعون أن يروا أن هنالك قوة تعمل في العائلة وتؤثر في الأولاد ، وأن إله إبراهيم معهم ، لو كانت بيوت المدعوين مسيحيين تتبع مثالا ونموذجا صحيحا لكانت لها قوة عظيمة للخير ، ولكان أهلها يصبحون حقا «نُورُ الْعَالَمِ» (متى ٥: ١٤) . إن إله السماء يخاطب كل الآباء الأمناء بهذه الكلمات الموجهة إلى إبراهيم قائلاً : «لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً ، لِكَيْ يَأْتِيَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ» .

الفصل الثالث عشر

محكّ الإيمان

لقد قبل إبراهيم وعد الله بإعطائه ابنا ، بدون سؤال . إلا أنه لم ينتظر الله ليتمم وعده في وقته المناسب وبالكيفية التي يريدها ، وقد سمح بالتأخير لاختبار إيمانه بقدرة الله ، ولكنه أخفق في احتمال التجربة . فإذ ظنت سارة أنه من المستحيل أن تُعطَى ابنا في شيخوختها اقترحت خطة ظنتها كفيلة بإتمام غرض الله ، وهي أن يتخذ إبراهيم إحدى جواريه زوجة إضافية (سُرِّيَّة) ، وكان تعدد الزوجات أمرا شائعا بحيث لم يعد ذلك معتبرا خطية ، ولكنه كان انتهاكا لشريعة الله ، وأمرا مميتا لقدسية الصلات العائلية وسلامتها ، ولقد نجم عن زواج إبراهيم من هاجر شر لم يقتصر عليه وحده بل تعداه إلى الأجيال التالية .

وإذ كانت هاجر تتملق نفسها بشرف مركزها الجديد كزوجة إبراهيم ، وتؤمل بأنها ستكون أما للشعب العظيم الذي سيخرج من صلبه بدأت تتكبر وتتفاخر ، وجعلت تعامل مولاتها باحتقار ، وعكر التحاسد المتبادل صفو البيت الذي كان قبلا سعيدا ، وإذ كان إبراهيم مضطرا لأن يستمع لشكايات كل من الزوجتين فقد حاول عبثا أن يعيد الوفاق ، ومع كون إبراهيم قد تزوج من هاجر استجابة لتوسلات سارة الملحة فقد وبخته سارة كأنه هو المخطئ ، لقد رغبت في أن تنفي ضرتها بعيدا عنها ، ولكن إبراهيم لم يسمح بذلك ، لأن هاجر مزمعة أن تكون أما لابنه الذي يرجو بكل شغف أن يكون هو ابن الموعد ، ومع ذلك كانت هاجر جارية لسارة وكانت لا تزال تحت سلطانها ، ولكن روح هاجر المتكبرة لم تكن تطيق القسوة التي كانت قد أثارتها على نفسها بوقاحتها ، «فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا» (انظر تكوين ١٦: ٦-١٣) .

سارت في طريقها إلى البرية ، وإذ جلست لتستريح عند عين ماء وهي وحيدة بلا صديق ظهر لها ملاك الرب في صورة بشرية ، وإذ خاطبها على أنها «هَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ» مذكِّرا

إياها بمركزها وواجبها أمرها قائلاً : «ارْجِعِي إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا» إلا أن التوبيخ كانت تخالطه كلمات العزاء إذ قال لها : «الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ» ثم قال : «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ» وقد أمرها أن تدعو اسم ابنها اسماعيل «الله يسمع» ليكون ذلك مذكرا دائما لها برحمته .

عندما قارب عمر إبراهيم أن يبلغ المئة سنة كرر له الرب وعده بأنه سيعطيه ابنا ، وأكد له أن الابن الذي سيرث ستنجبه سارة ، إلا أن إبراهيم لم يكن يفهم الوعد بعد ، فاتجه فكره في الحال إلى اسماعيل وهو متشبث باعتقاده أن مقاصد الله الرحيمة ستتم عن طريقه ، ففي حبه لابنه صاح قائلاً : «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ !» (انظر تكوين ١٧: ١٨-٢٠) فأعاد الرب الوعد على مسمعه بكلام لا يقبل الالتباس إذ قال : «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ . وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ» . ومع ذلك فالرب لم يتغافل عن صلاته ، بل قال له : «وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ . هَا أَنَا أُبَارِكُهُ ... وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً» .

إن ولادة إسحاق التي فيها تمت وتحققت أعذب الأماني بعد انتظار العمر بطوله ، هذه الولادة ملأت خيام إبراهيم وسارة فرحا ، ولكن ذلك الحادث كان بالنسبة إلى هاجر انهيارا لكل مطامعها وآمالها التي كانت تعتز بها ، ثم أن اسماعيل الذي كان قد بلغ دور الشباب كان إلى ذلك الحين معتبرا من كل من في المحلة وارثا لثروة إبراهيم ولكل البركات الموعود بها لنسبه ، أما الآن فقد أُهمِل اسماعيل وألقي جانبا ، ففي فشلهما هو وأمه أبغضا ابن سارة ، وتلك الأفراح التي شملت كل الجماعة زادت من حسدهما ، إلى أن تجرأ اسماعيل على أن يسخر علنا بوارث وعد الله ، ووجدت سارة في مشاغبات اسماعيل نبعا مستمرا للمنازعات ، فجعلت تلح على إبراهيم أن يطرد تلك الجارية وابنها من المحلة ، فتضايق ذلك الشيخ جدا إذ كيف يطرد بعيدا عنه ابنه اسماعيل الذي كان لا يزال يحبه جدا ؟ ففي حيرته وارتباكه توسل إلى الله في طلب الإرشاد ، وإذا بملاك الرب يرشده إلى إجابة سارة إلى طلبها ، إذ أن محبته لإسماعيل أو أمه ينبغي ألا تقف مانعا في الطريق ، فلا يمكن بغير هذه الوسيلة أن يعيد الوفاق والسعادة إلى عائلته ، وقدم له الملاك وعدا معزيا قائلاً إنه مع كون اسماعيل سيرحل عن بيت أبيه فالله لن يتركه ، بل سيحفظ حياته وسيصير أبا لأمة كبيرة . أطاع إبراهيم كلام الملاك وإن يكن ذلك مصحوبا

بآلام نفسية عظيمة ، فلقد كان ذلك الأب مثقلا بأحزان لا يمكن التعبير عنها وهو يطـــرد هاجر وابنها .

إن التعليم الذي تلقاه إبراهيم بشأن قدسية الزواج يجب أن يكون درسا لكل الأجيال ، وهــو يعلن أنه ينبغي الحرص على حقوق هذه العلاقة وسعادتها مهما تكن التضحية عظيمة . كــانت سارة هي وحدها زوجة إبراهيم الحقيقية ، ولم يكن لأية امرأة أخــرى أن تقاســمها حقوقــها كزوجة وكأم ، لقد كانت تكرم رجلها ، وفي هذا قدمت في العــهد الجديــد كمثــال للزوجــة الصالحة ، ولكنها لم تكن ترغب في أن يحب إبراهيم امرأة أخرى . والرب لم يوبخها لكونــها طلبت منه أن يطرد ضرتها . إن إبراهيم وسارة كليهما لم يثقا بقدرة الله ، وكانت هــذه هــي غلطتهما التي أدت إلى زواجه من هاجر .

لقد دعا الله إبراهيم ليكون أبا للمؤمنين ، وكان ينبغي أن تكون حياتــه نموذجــا للأجيــال القادمة في الإيمان ، إلا أن إيمانه لم يكن كاملا ، فلقد ظهر عدم ثقته بالله حين أخفــى حقيقــة كون سارة زوجته ، ثم في زواجه من هاجر ، فلكي يصل إلى أسمى مقياس قدم له الله امتحانا آخر هو أقسى امتحان أُعطِي لأي إنسان ، ففي رؤيا الليل أمره الله أن يذهب إلى أرض المريا ويقدم ابنه ذبيحة محرقة على أحد الجبال التي سيقول له عنها .

كان إبراهيم عندما صدر إليه هذا الأمر قد بلغ العشرين بعد المئة من العمر ، وكـــان معتبرا رجلا شيخا حتى في جيله . في سنيه الباكرة كان قادرا علـــى احتمــال الشــدائد والضيقات ومجابهة المخاطر ، أما الآن فقد زايلته حمية الشباب . إن إنسانا يتمتع بعزيمة الرجولة ونشاط الرجولة يستطيع بكل شجاعة أن يواجه الصعوبـــات والضيقــات التــي يضعف قلبه أمامها متى تقدمت به الأيام حين يسير مترنحا إلى قبره ، ولكن الله كان قـــد أبقى أقسى امتحاناته لإبراهيم إلى الوقت الذي فيه أثقلت كاهله السنون ، وكان يتوق إلـــى الراحة من الجزع والعناء .

كان ذلك الشيخ الجليل ساكنا في بئر سبع متمتعا بالنجاح والكرامة . كان غنيا جــدا ، وكان سادة الأرض يوقرونه كرئيس قوي بينهم ، وكانت آلاف من أغنامه تملا الســـهول الممتدة بعد خيامه ، وفي كل مكان انتشرت خيام تابعيه التي كان يسكنها مئات من عبيــده الأمناء ، وكان ابن الموعد قد نما وترعرع حتى بلغ دور الرجولة في كنف أبيه ، وكـــأن

السماء قد كللت ببركتها حياة التضحية التي بدت في توقع تحقيق الرجاء المؤجـل وهـو صابر .

إن إبراهيم ، في طاعة إيمانه ، ترك أرض ميـلاده ومدينـة مقـابر آبائـه ووطـن عشيرته ، وتجول غريبا في أرض ميراثه ، وانتظر طويلا ميلاد الوارث الموعود بـه ، وامتثالا لأمر الله طرد ابنه اسماعيل ، والآن إذ كان الابن الذي انتظره طويلا قد بلغ مبلغ الرجال ، وحين أيقن ذلك الشيخ الجليل أن آماله قد تحققت كان عليه أن يجـوز امتحانـا أقسى من كل ما سبق .

وصدر أمر الله لإبراهيم في كلمات عصرت قلب ذلك الأب عصرا قاسيا بالحزن والألم إذ قال له : «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ ، الَّذِي تُحِبُّهُ ، إِسْحَاقَ ... وَأَصْعِدْهُ ... مُحْرَقَةً» (تكوين ٢٢: ٢) . لقد كان إسحاق هو النور الذي ينير جوانب بيته وعزاءه في شـيخوخته ، وفـوق الكل ، كان إسحاق هو وارث البركة الموعود بها ، ولو مات مثل هذا الابن فـي حادثـة أو بمرض لتمزق قلب أبيه المحب وكان رأسه الأشيب ينحني تحت ثقل الأحـزان ، ولكـن الله يأمره بأن يسفك دم ذلك الابن بيده . لقد تراءى له أن ذلك العمل مستحيل ومخيف .

كان الشيطان قريبا من إبراهيم يقول له إنه لا بد أن يكون قد غرر به ، لأن الوصيـة الإلهية تقول «لاَ تَقْتُلْ» (خروج ٢٠: ١٣) والله لا يمكن أن يطلب من إنسان عمـل شـيء سبق فنهاه عن عمله . خرج إبراهيم إلى خارج خيمته ، ونظر إلى السـماوات الجميلـة الصافية ، وذكر وعد الله الذي قدمه له منذ حوالي خمسين سنة ، بأن نسله سيكون كثـيرا جدا كنجوم السماء ، فإن كان هذا الوعد سيتم في إسحاق فكيف يقتل ؟ وقد جُرب إبراهيم لأن يعتقد أنه كان واقعا تحت وهم أو تضليل ، ففي شكوكه وآلامه سـجد علـى الأرض وصلى كما لم يصل قط من قبل ، ليتحقق من أمر الرب هذا ، وهل كان لا بد له مـن أن يقوم بذلك الواجب المرعب ، وقد ذكر الملائكة وهم يأتون إليه ليكاشفوه بقصـد الله فـي هلاك سدوم ، وذكر أنهم قد قدموا له وعدا بميلاد إسحاق هذا ، ثم ذهب إلى المكان الذي فيه التقى رسل السماء مرارا على أمل لقائهم مرة أخرى ، ليتلقى منهم أوامـر جديـدة ، ولكن لم يأت أحد منهم لتفريج كربته ، وبدا كأن ظلمة داجية تكتنفه ، ولكن أمر الله كـان لا يزال يرن في أذنيه : «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ ، الَّذِي تُحِبُّهُ ، إِسْحَاقَ ... وَأَصْعِدْهُ ...

مُحْرَقَةً» إذاً فلابد من إطاعة هذا الأمر ، ولم يكن يجرؤ على التأجيل ، كان نور النـــهار قد بدأ يبزغ ، وعليه أن يشرع في السفر .

وإذ عاد إلى الخيمة ذهب إلى حيث كان إسحاق مضطجعا ونائما نومة الشاب الـبريء الذي لا يزعجه شيء ، ولمدة لحظة تطلع الآب في وجه ابنه الحبيب ثـــم تحـول عنـه مرتعبا ، ثم ذهب إلى جانب سارة التي كانت نائمة أيضا ، فهل يوقظها لكي تعانق ابنـــها مرة أخيرة ؟ وهل يخبرها بما أمره به الله ؟ لقد تاق إلى أن يخبرها عـن خبيئـة نفسـه لتحمل معه هذه المسؤولية الرهيبة ، ولكن خوفه من أنها قد تعطله عن إطاعة أمر الـوب منعه من مكاشفتها بالأمر ، لقد كان إسحاق فرحها وفخرها ، وحياتها كانت مرتبطة بـه ، فقد ترفض محبة الأم هذه التضحية .

أخيرا استدعى إبراهيم ابنه وأخبره بأمر الرب له بالذهاب إلى جبل بعيد لتقديـم ذبيحـة ، وكان إسحاق قد ذهب مع أبيه مرارا ليعبد الله عند بعض المذابح المختلفة التي كان يقيمها فـي أثناء رحلاته من مكان إلى آخر ، ولذلك فلم يكن هذا الأمر الإلهي مثيرا لدهشته ، وبســرعة تمت كل الاستعدادات لتلك الرحلة . وأعد الحطب ووضعه على الحمار وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه وذهبوا .

سار الأب والابن جنبا إلى جنب صامتين ، كان ذلك الشيخ يتأمل في سره الرهيب ، فلـم يكن لديه لذلك قلب ليتكلم . كانت أفكاره متجهة إلى الأم المحبة لابنها والفخورة بـه ، وإلـى اليوم الذي سيعود إليها فيه وابنه ليس معه . كان يعرف جيدا أن السكين التي سيذبح بها ابنـه ستخترق عندئذ قلبها .

إن ذلك اليوم الذي كان أطول يوم عرفه في حياته مر بطيئا متثاقلا ، فلما أقبل الليل وكـان ابنه وغلاماه نياما قضى هو ليلته في الصلاة ، وكان لا يزال يؤمل أن سيأتي ملاك من السماء ليقول له إنه قد امتُحن بما فيه الكفاية ، وأن لابنه أن يعود إلى أمه سالما ، ولكن نفسه ظلـت معذبة ولم يحصل على راحة أو معونة ، ثم مر بعد ذلك يوم طويل وتلاه ليل آخر قضاه فـي التذلل والصلاة ، وكان ذلك الأمر الذي سيتركه عقيما لا يزال يرن في أذنيه ، وكان الشـيطان قريبا منه ليوسوس في أذنيه بكلام الشك ، عدم الإيمان ، ولكن إبراهيم قاوم كل مقترحاتـه ، وعندما أوشكوا على السفر في صبيحة اليوم الثالث تطلع ذلك الشيخ إلى جهة الشمال فـرأى

العلامة التي وعده الرب بها ، إذ أبصر سحابة مجد محلقة فوق جبل المريا ، فأيقن حينئذ أن الصوت الذي سمعه كان آتيا من السماء .

إلى هذا الحد لم يتذمر إبراهيم على الله ، بل تقوت روحه بالتأمل في دلائل جود الله وأمانته ، لقد أعطي له هذا الابن على غير انتظار ، أفلا يحق لمن قد وهبه هذه العطية الثمينة أن يسترد ما قد وهب ؟ حينئذٍ بالإيمان كرر ذلك الوعد القائل «بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ» (تكوين ٢١: ١٢)– نسل لا يعد كالرمل الذي على شاطئ البحر ، لقد كان إسحاق ابنا لمعجزة ، أفلا تستطيع القوة التي أعطته الحياة أن تعيدها إليه ؟ وإذ نظر إبراهيم إلى ما وراء المنظور تمسك بكلمة الله «إِذْ حَسِبَ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى الإِقَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ» (عبرانيين ١١: ١٩) .

لكن ليس أحد غير الله عرف كم كانت عظيمة تضحية الأب في تسليم ابنه للموت ، وكان إبراهيم يرغب في ألا يشاهد أحد منظر الوداع بينه وبين ابنه غير الله وحده ، ولذلك أمر غلاميه بالتخلف قائلاً لهما : «أَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا» (انظر تكوين ٢٢: ٥–٨) فوضع الحطب على إسحاق الذي سيقدم ذبيحة ، وأخذ هو بيده النار والسكين ثم أخذا في الصعود إلى قمة الجبل ، وكان ذلك الشاب مندهشا يسائل نفسه قائلاً من أين لنا المحرقة ونحن بعيدان جدا عن الحظائر والقطعان ؟ وأخير قال لأبيه : «يَا أَبِي ! ... هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ ؟» آه ما أقسى هذا من امتحان ، وبأي سيف قاطع طعنت هذه الكلمة المحببة «يَا أَبِي» قلب إبراهيم ! لم يحن الوقت بعد ، لم يقدر أن يخبره الآن . قال «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي».

في المكان المعين بنيا المذبح ووضعا عليه الحطب ، وحينئذ ، وبصوت مرتجف ، أخبر إبراهيم ابنه برسالة الله ، ولما علم إسحاق بمصيره ملكه الرعب والذهول ، ولكن لم تبد منه أية مقاومة ، كان يمكنه أن ينجو من ذلك المصير لو أراد ، فذلك الشيخ المهدم الذي هده الحزن وأنهكه ذلك الصراع الذي دام ثلاثة أيام لم يكن يقوى على مقاومة إرادة ابنه الشاب القوي الناشط ، إلا أن إسحاق قد تربى منذ طفولته على الطاعة التامة الواثقة ، فلما كُشِف له قصد الله أطاع وسلم من تلقاء نفسه ، لقد كان شريكا لإبراهيم في إيمانه ، وكان يحس أنه شرف عظيم له أن يبذل حياته ذبيحة لله ، فأخذ بكل رقة يحاول التخفيف من أحزان أبيه ويشجع يديه الضعيفتين على ربطه بالحبال ليوضع على المذبح .

أخيرا بعدما قيلت آخر كلمات المحبة وسكبت آخر دمعة ، وبعد الانتهاء من المعانقة ، يرفع الأب السكين ليذبح ابنه ، ولكن فجأة توقفت يده ، ذلك أن ملاك الرب نادى ذلك الشيخ قائلا «إِبْرَاهِيمُ ! إِبْرَاهِيمُ !» فجاء الرد سريعا يقول : «هأَنَذَا» فعاد الصوت يقول له : «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي» (انظر تكوين ٢٢: ١١-١٨) .

حينئذٍ نظر إبراهيم «وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ» وإذ أحضر تلك الذبيحة الجديدة بسرعة أصعدها عوضا عن ابنه ، ففي فرحه وشكره أطلق إبراهيم على تلك البقعة المقدسة اسما جديدا «يَهْوَهْ يِرْأَهْ» أي الرب يرى (يدبر) .

على جبل المريا جدد الله عهده لإبراهيم ثانية مثبتا البركة له ولنسله مدى الأجيال القادمة بقسم قائلاً : «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً ، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» .

إن عمل إيمان إبراهيم العظيم يقف كعمود من نور لينير طريق عبيد الله في كل العصور المتعاقبة ، إن إبراهيم لم يحاول أن يعفي نفسه من عمل إرادة الله ، ففي أثناء رحلته التي استغرقت ثلاثة أيام كان لديه وقت كاف للمجادلة والمحاورة وللشك في الله لو كان ميالا للشك . كان يمكنه أن يحاور قائلاً إن ذبحه لابنه يجعل الناس يعتبرونه قايين ثانيا ، الأمر الذي يجعل الناس يرفضون تعاليمه ويحتقرونها ، وذلك يلاشي قوته على عمل الخير مع بني جنسه ، وكان يمكنه أن يحتجّ بالقول إن شيخوخته تعفيه من الطاعة ، ولكن ذلك الشيخ لم يتحصن وراء أي عذر من تلك الأعذار ، لقد كان إبراهيم بشرا مثلنا ، وكانت له آلام وانفعالات وصلات بغيره مثلنا ، ولكنه لم يقف ليتساءل عن كيف يتم الوعد لو ذبح إسحاق ، ولم يقف ليتباحث مع قلبه المتألم ، لقد عرف أن الله عادل وبار في كل مطالبيه فأطاع أمره طاعة حرفية .

«فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا وَدُعِيَ خَلِيلَ اللهِ» (يعقوب ٢: ٢٣) وبولس يقول : «الَّذِينَ هُمْ مِنَ الإِيمَانِ أُولئِكَ هُمْ بَنُو إِبْرَاهِيمَ» (غلاطية ٣: ٧) ولكن إيمان إبراهيم تجلى في

أعماله إذ يقول الكتاب : «أَلَمْ يَتَبَرَّرْ إِبْرَاهِيمُ أَبُونَا بِالأَعْمَالِ ، إِذْ قَدَّمَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ ؟ فَتَرَى أَنَّ الإِيمَانَ عَمِلَ مَعَ أَعْمَالِهِ ، وَبِالأَعْمَالِ أُكْمِلَ الإِيمَانُ» (يعقوب ٢: ٢١،٢٢) . إن كثيرين لا يفهمون العلاقة الكائنة بين الأعمال والإيمان ، فهم يقولون عليك فقط أن تؤمن بالمسيح فتكون في أمان ، ولا شأن لك بحفظ الناموس . ولكن الإيمان الحقيقي يتجلى في الطاعة . قال المسيح لليهود غير المؤمنين : «لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ ، لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ !» (يوحنا ٨: ٣٩) أما فيما يختص بأبي المؤمنين فالله يعلن قائلاً : «إِبْرَاهِيمَ سَمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي : أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي» (تكوين ٢٦: ٥) والرسول يعقوب يقول : «هكَذَا الإِيمَانُ أَيْضًا ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ ، مَيِّتٌ فِي ذَاتِهِ» (يعقوب ٢: ١٧) ويوحنا الذي يتكلم كثيرا عن المحبة يقول لنا «هذِهِ هِيَ مَحَبَّةُ اللهِ : أَنْ نَحْفَظَ وَصَايَاهُ» (١يوحنا ٥: ٣) .

وعن طريق الرمز والوعد نرى أن الله : «... سَبَقَ فَبَشَّرَ إِبْرَاهِيمَ» (غلاطية ٨:٣) . وكان إيمان إبراهيم مثبتا ومركزا في الفادي الآتي ، قال المسيح لليهود : «أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ» (يوحنا ٨: ٥٦) إن الخروف الذي قدم عوضا عن إسحاق كان يرمز إلى ابن الله الذي كان سيقدم ذبيحة عوضا عنا ، إن الإنسان إذ قد حكم عليه بالموت بسبب عصيانه لشريعة الله ، فالآب إذ نظر إلى ابنه قال للخاطئ : عش «قَدْ وَجَدْتُ فِدْيَةً» .

إن الله لكي يطبع على عقل إبراهيم حقيقة الإنجيل ولكي يختبر إيمانه أمره أن يقدم ابنه ذبيحة . إن الآلام النفسية الهائلة التي جاز فيها في تلك الأيام المظلمة ، أيام التجربة المخيفة سمح الله بها لكي يفهم إبراهيم من واقع اختباره شيئا عن عظمة الذبيحة التي قدمها الله غير المحدود لفداء الإنسان ، لم يكن أي امتحان آخر ليسبب لإبراهيم مثل ذلك العذاب النفسي الذي اختبره عند الشروع في تقديم ابنه ذبيحة ، ولقد بذل الله ابنه ليموت موت العذاب والعار . والملائكة الذين شاهدوا اتضاع ابن الله و آلامه لم يسمح لهم بالتدخل كما كانت الحال مع إسحاق ، لم يكن هنالك صوت يقول : «كفى» فلكي يخلص جنسنا الساقط بذل ملك المجد حياته . فأي برهان أعظم يمكن تقديمه على شفقة الله ومحبته غير المحدودتين ؟ «اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ ؟» (رومية ٨: ٣٢) .

إن الذبيحة التي كانت مطلوبة من إبراهيم لم تكن فقط لأجل خيره هو ولا لأجل فائدة

الأجيال القادمة دون سواها ، بل أيضا لأجل تعليم الخلائق الطاهرة البارة في السماء وفي العوالم الأخرى ، فإن ميدان الحرب بين المسيح والشيطان- الميدان الذي تم فيه تدبير الفداء هو السِّفر الذي يتعلم منه الكون ، فلأن إبراهيم كان يعوزه الإيمان بمواعيد الله اتهمه الشيطان أمام الله وأمام ملائكته بأنه أخفق في إتمام شروط العهد ، وأنه غير مستحق لبركات ذلك العهد ، فأراد الله أن يثبت ولاء عبده أمام كل السماء ليبرهن على أنه لا شيء أقل من الطاعة الكاملة يمكن قبوله ، وليعلن أمامهم تدبير الخلاص كاملا .

كانت الكائنات السماوية شهود عيان للمنظر حين امتحن إيمان إبراهيم وخضع إسحاق . وكان ذلك الامتحان أقسى جدا من امتحان آدم . إن الإذعان لأمر الله حين نهى أبوينا الأولين عن الأكل من الشجرة التي في وسط الجنة لم يكن فيه أي ألم ، أما الأمر الذي طلبه الله من إبراهيم فكان يتطلب أعظم تضحية انطوت على آلام هائلة ، وقد شاهدت السماء كلها بدهشة وإعجاب طاعة إبراهيم التي لم يكن فيها أي تردد أو تراجع ، وأثنت السماء كلها على أمانته وإخلاصه ، وتبرهن كذب الشيطان في شكاياته ، وأعلن الله لعبده قائلاً : «الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ (برغم اتهامات الشيطان) ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي» وإن عهد الله الذي تثبت لإبراهيم بقسم أمام الخلائق في العوالم الأخرى شهد على أن الطاعة لا بد لها من جزاء .

لقد كان من الصعب حتى على الملائكة أنفسهم أن يفهموا سر الفداء- أن يفهموا كيف أن ملك السماء ابن الله ينبغي أن يموت لأجل الفجار ، وحين أصدر الله أمره لإبراهيم أن يقدم ابنه أثار ذلك اهتمام كل الخلائق السماوية ، وبغيرة عظيمة راقبوا كل خطوة سار فيها إبراهيم لتنفيذ أمر الرب . وحين أجاب إبراهيم عن سؤال ابنه القائل : «أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ ؟» بقوله «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ» وحين أوقفت يد الأب وهو يشرع في ذبح ابنه ، وقدّم الكبش الذي قد أعده الله بدلا من إسحاق- حينئذٍ ألقي نور عظيم على سر الفداء ، وحتى الملائكة فهموا فهما أعمق التدبير العجيب الذي أعده الله لخلاص بني الإنسان (١بطرس ١: ١٢) .

154,155

الفصل الرابع عشر

هلاك سدوم

كانت سدوم أجمل مدن وادي الأردن ، واقعة في سهل كان «كَجَنَّةِ الرَّبِّ» (تكوين ١٣: ١٠) في خصوبته وجماله ، هنا ازدهرت خضرة المناطق الحارة اليانعة ، هنا كان موطن النخلة والزيتونة والكرمة ، وكانت رائحة الأزهار تعطّر الأرجاء على مدار السنة ، وقد ملأت المحاصيل الغنية الحقول ، واكتست بقطعان الغنم والبقر سفوح التلال الغنية بمراعيها الدسمة . ولقد ساهم الفن والتجارة في جعل تلك المدينة المتكبرة بين مدن السهل غنية ، وازدانت قصورها بكنوز الشرق ، كما أن القوافل التي كانت تقطع الصحراء كانت تأتيها بكثير من الأشياء الثمينة النادرة لتمتلئ أسواقها بأصناف السلع المختلفة ، وبقليل من التفكير والتعب كانت تسد مطاليب الحياة ، فكانت أيام السنة كلها أفراحا وأعيادا .

عن وفرة الغنى نتج الترف والكبرياء . والقلب الذي لم تضغطه الحاجة ولا تقسى بالأحزان يتقسى بالبطالة والغنى ، وأعانت الثروة والراحة على حب الملذات ، فانغمس الناس في الشهوات . يقول النبي حزقيال : «هذَا كَانَ إِثْمَ أُخْتِكِ سَدُومَ : الْكِبْرِيَاءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخُبْزِ وَسَلاَمُ الاطْمِئْنَانِ كَانَ لَهَا وَلِبَنَاتِهَا ، وَلَمْ تُشَدِّدْ يَدَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ ، وَتَكَبَّرْنَ وَعَمِلْنَ الرِّجْسَ أَمَامِي فَنَزَعْتُهُنَّ كَمَا رَأَيْتُ» (حزقيال ١٦: ٤٩،٥٠) . ليس هنالك ما يشتهيه الناس أكثر من الغنى والراحة ، ومع ذلك فقد نتج عن هذه الأشياء الخطايا التي جلبت الهلاك على مدن السهل . إن حياة الكسل العديمة النفع جعلت منهم فرائس لتجارب الشيطان ، فشوهوا صورة الله وصاروا أقرب شبها بالشيطان . والكسل هو أقسى لعنة يمكن أن تحل بالإنسان ، لأن الرذائل والجرائم تسير في أثره ، إنه يضعف العقل ويفسد الإدراك ويذل النفس ، والشيطان يقف بالمرصاد مستعدا لإهلاك غير الحذرين الذين تعطيه راحتهم فرصة للتسلل إليهم وهو

متنكر في ثوب جذاب ، إن أعظم نجاح يحرزه يتم له حين يأتي إلى الناس في ساعات البطالة .

كان في سدوم طرب وعربدة وولائم ومجون وسكر ، وأطلقوا العنان لأحط الانفعالات النفسية وأشدها وحشية ، وتحدى الناس الله وشريعته علنا ، كما ابتهجوا بأعمال القسوة والظلم ، ومع أن عبرة هلاك الناس الذين عاشوا قبل الطوفان كانت ماثلة أمامهم ، وعرفوا كيف أن غضب الله قد تجلى في هلاكهم فإنهم مع ذلك سلكوا نفس طريق الشر الذي سلك فيه أولئك .

في الوقت الذي انتقل فيه لوط إلى سدوم لم يكن الشر قد عم المدينة ، وسمح الله في رحمته أن تنير بعض أشعة النور في وسط تلك الظلمة الأخلاقية الداجية ، فحين خلّص إبراهيم الأسرى من أيدي العيلاميين اتجه اهتمام الناس إلى الإيمان الحقيقي . لم يكن إبراهيم غريبا في نظر شعب سدوم ، وكانت عبادته للإله الغير المنظور مثارا لسخريتهم ، إلا أن انتصاره على تلك الجيوش التي كانت تفوق جيشه إلى حد كبر ، وتصرفه الدال على كرم أخلاقه نحو الأسرى والغنيمة أثار فيهم الدهشة ، والإعجاب ، وبينما مجدوا مهارته وشجاعته اقتنعوا جميعهم أن قوة إلهية قد منحته النصرة . هذا ، وإن روحه النبيلة والمنكرة لذاتها والتي كانت أمرا غريبا بالنسبة لسكان سدوم الذين كانوا يطلبون ما لأنفسهم ، كانت دليلا آخر على سمو الديانة التي قد أكرمها إبراهيم بشجاعته وإخلاصه .

إن ملكي صادق حين منح البركة لإبراهيم اعترف بالرب كمن هو مصدر قوته الذي منحه النصرة ، «مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمُبَارَكٌ اللهُ الْعَلِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ» (تكوين ١٤: ١٩،٢٠) . لقد كان الله يكلم ذلك الشعب بعنايته ، ولكنهم رفضوا آخر أصوات الإنذار كما فعلوا من قبل .

والآن ها قد اقتربت آخر ليلة من ليالي سدوم ، إن سحب النقمة كانت قد ألقت ظلالها على تلك المدينة الملعونة من قبل ولكن الناس لم يلاحظوا ذلك ، فإذ كان الملاكان يقتربان من المدينة للقيام بعملية التدمير كان الناس يحلمون بالمسرات والنجاح . كان آخر يوم ككل يوم آخر من الأيام الماضية ، وقد أقبل المساء على مشهد تجلى فيه الجمال والاطمئنان ، وسطعت أشعة الشمس قبيل غروبها على منظر غاية في الجمال ، وجعل المناخ المعتدل الجميل سكان

المدينة يخرجون ليتمشوا في ذلك المساء ، فتلك الجماعات التي كانت تنشد السرور واللذة خرجت لتتنزه جيئة وذهابا بقصد التمتع بتلك الساعة .

وفي نور الغسق الضئيل كان اثنان من الغرباء يقتربان من باب المدينة ، كان يبدو عليهما أنهما مسافران دخلا إلى المدينة ليبيتا ليلتهما ، ولم يكن أحد يعلم أن ذينك المسافرين المتواضعين هما رسولا ديونة الله القويان ، ولم يكن ذلك الجمهور السادر في مرحه ولهوه يدري أن في معاملته لذينك الرسولين القادمين من السماء سيصل إلى منتهى الإجرام التي ستقضي على مدينتهم بالهلاك في تلك الليلة عينها ، ولكن كان هنالك رجل أظهر شفقة واهتماما بذينك الغريبين فدعاهما إلى بيته . لم يكن لوط يعرف شخصيتهما الحقيقية ، ولكن كياسته وكرمه كانا من طباعه ومن مبادئه الدينية ، وهما من ضمن الدروس التي كان قد تعلمها من إبراهيم مثال الكرم وحسن الضيافة ، فلو لم تكن مبادئ الرقة والكرم قد غُرست في قلبه ربما كان يُترك ليهلك مع أهل سدوم ، وكثيرا ما تغلق عائلة بابها في وجه إنسان غريب ، فتكون بذلك قد طردت رسولا من رسل الله الذي كان يمكن أن يأتيها بالبركة والرجاء والسلام .

كل عمل في الحياة مهما يكن صغيرا له نتائجه إن للخير أو للشر . إن الأمانة أو الإهمال فيما يبدو أنه أصغر واجب يمكن أن يفتح بابا يؤدى إلى أغنى بركات الحياة أو إلى أعظم النكبات . والأعمال الصغيرة هي محك الأخلاق ، فخدمات إنكار الذات غير المتصنعة التي نؤديها كل يوم بفرح وقلب راغب هي التي يسر بها الله . ينبغي أن نعيش لا لأنفسنا بل للآخرين ، وأننا إذ ننسى أنفسنا ونربى في دواخلنا روح المحبة والمعونة ، فبذلك وحده يمكن أن تكون حياتنا بركة ، إن أصغر خدمات الاهتمام واللطف والرقة هي التي تذهب بنا شوطا بعيدا لنيل سعادة الحياة ، بينما إهمال تلك الخدمات ينشأ عنه قدر من شقاء البشرية لا يستهان به .

إن لوطا ، إذ رأى الإهانات التي استهدف لها الغرباء في سدوم ، اعتبر أن من واجبه أن يحمي ذينك الغريبين عند دخولهما ، بإضافته إياهما في بيته . كان جالسا في باب المدينة حين اقترب منه ذانك المسافران ، فلما رآهما قام لاستقبالهما ، وإذ سجد بوجهه أمامهما إلى الأرض احتراما قال لهما : «يَا سَيِّدَيَّ ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا» (انظر تكوين ١٩) . وقد بدا كأنهما يتمنعان عن قبول ضيافته إذ قالا : «لاَ ، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ» . كانت غايتهما من

جوابهما غاية مزدوجة– اختبار إخلاص لوط ، والظهور بمظهر الجاهلين لصفات أهل سدوم ، كأنهما يظنان أنهما سيأمنان على نفسيهما لو باتا في الساحة ، ولكن جوابهما زاد من عزم لوط على ألا يتركهما تحت رحمة السوقة والرعاع ، فألح عليهما جدا حتى خضعا وسارا إلى بيته .

كان يرجو أن يخفي قصده عن الناس المتسكعين عند باب المدينة بالمجيء بضيفيه إلى بيته من طريق دائري ، ولكن ترددهما وتأخرهما وإلحاحه وإصراره ، كل ذلك اجتذب انتباه الناس ، فقبلما اضطجعا للمبيت عنده اجتمع جمهور من المتمردين والعصاة حول البيت ، كانوا جمهورا غفيرا من الشباب والشيوخ مدفوعين بأحط الانفعالات ، كان الغريبان يسألان عن أخلاق سكان المدينة ، فحذرهما لوط من تعريض نفسيهما للخطر بالخروج من بيته في تلك الليلة ، وإذا بهم يسمعون أولئك الرعاع يصيحون صيحات السخرية والاستهزاء ، وسمعهم لوط يأمرونه بإخراج ذينك الرجلين إليهم .

عرف لوط أنه لو لجأ إلى العنف لتمكن أولئك الناس بسهولة من أن يدخلوا بيته عنوة ، لذلك خرج إليهم محاولا التأثير فيهم بقوة الإقناع ، فقال لهم : «لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي» وقد خاطبهم بقوله «يَا إِخْوَتِي» على أنهم جيرانه مؤملا تهدئتهم حتى يخجلوا من نياتهم الشريرة الخبيثة ، ولكن كلامه زاد النار اشتعالا ، فصار اهتياجهم مثل زئير العاصفة ، وسخروا من لوط لكونه جعل نفسه قاضيا عليهم ، وهددوه بأن يسيئوا إليه أكثر مما إلى ضيفيه ، وهجموا عليه ، وكادوا يمزقونه إربا لو لم ينقذه ملاكا الرب من أيديهم ، ذلك أن الرسولين السماويين مدا أيديهما «وَأَدْخَلاَ لُوطًا إِلَيْهِمَا إِلَى الْبَيْتِ» ثم أن الحوادث التي جرت بعد ذلك كشفت للوط عن حقيقة الرجلين اللذين أضافهما ، إذ يقول الكتاب : «وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ بِالْعَمَى ، مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ ، فَعَجِزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ» . إن أولئك الرجال لو لم يكونوا قد ضربوا بالعمى المزدوج إذ أسلموا إلى قساوة القلب لجعلتهم ضربة الله لهم يخافون ويقلعون عن عملهم الشرير . إن خطاياهم في تلك الليلة الأخيرة لم تكن أعظم ولا أفظع مما ارتكبوه قبلا ، ولكن الرحمة التي استخفوا بها واحتقروها طويلا كفت أخيرا عن توسلاتها . إن سكان سدوم كانوا قد تجاوزوا حدود صبر الله وطول أناته– «الحد المخفي بين صبر الله وغضبه» وأن نيران انتقامه كانت مزمعة أن تشتعل في عمق السديم .

أفضى الملاكان إلى لوط بالغرض من إرسال الله إياهما إلى المدينة قـــائلين : «أَنَّنَـا مُهْلِكَانِ هذَا الْمَكَانَ ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ ، فَأَرْسَلَنَا الــرَّبُّ لِنُهْلِكَــهُ» . إن ذينــك الغريبين اللذين سعى لوط إلى حمايتهما يعدانه الآن بالحماية وبإنقاذ كل أفـــراد عائلتــه الذين يرغبون في الهروب من تلك المدينة الشريرة . كان الرعاع قد تعبوا بـــاطلا مــن البحث عن الباب فانصرفوا ، فخرج لوط لينذر ذويه ، وقد أخبرهم بنفس كلام الملاكيـــن إذ قال : «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ هذَا الْمَكَانِ ، لأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكٌ الْمَدِينَةَ» ، فكان كمازح في أعين أصهاره فضحكوا من أقواله قائلين إنها مخاوف خرافية ، وقد تأثرت بناته بأزواجـــهن . كانوا جميعا مستريحين وموفقين حيث كانوا ، لم يكونوا يرون أي دليـــل علـــى وجـــود خطر ، فكل شيء كان باقيا كما كان قبلا ، وكانت لهم أمـــلاك واســعة ، ولـــم يكونـــوا يصدقون أن مدينة سدوم الجميلة يمكن أن تهلك .

عاد لوط إلى البيت حزينا وأخبر الملاكين بفشله ، فأمراه أن يـــأخذ امرأتـــه وابنتيـــه الموجودتين في البيت ويخرج من المدينة ، إلا أن لوطا توانى ، فمع أنه كان يتعذب يوما فيوما من مشاهدته للأفعال الأثيمة إلا أنه لم يكن يدرك الإثم المشين الرجس الذي كـــان يرتكب في تلك المدينة الشريرة إدراكا تاما ، لم يكن متحققا من تلك الضرورة المروعـــة لقضاء الله للحد من الخطية . لقد تعلقت بعض بناته بسدوم ، كما رفضت زوجته الرحيـل بدونهن . وإن فكرة كونه ملتزما بأن يترك أولئك الذين كانوا أعز لديه من كل ما علـــى الأرض كانت فوق طور احتماله ، كما كان من الصعب عليه أن يترك بيته الفخم الجميـل وكل ثروته التي كان قد جمعها بتعبه مدى الحياة ويخرج هائما على وجهه لا يملك شيئا ، فإذ أذهله الحزن وهول الموقف توانى وهو غير راغب في الرحيل ، ولولا وجود ملاكــي الرب لكانوا كلهم قد هلكوا في وسط ذلك الانقلاب ، فأمسك الملاكان بيده وبيـــد امرأتـــه وبيد ابنتيه وأخرجاهم خارج المدينة .

هنا تركاهم الملاكان وعادا إلى سدوم ليتمما عملية تدمير المدينة ، وإن واحدا آخر- وهـــو ذاك الذي كان إبراهيم قد توسل إليه لأجل سدوم ، اقترب من لوط ، ففي كل مدن السهل لـــم يكن يوجد عشرة أبرار ، ولكن استجابة لصلاة إبراهيم الشيخ الجليل اختطف الرجـــل البـــار الوحيد من وسط الهلاك ، وصدر إليه الأمر بقوة مفزعة قائلاً : «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ . لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ ، وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ . اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلَكَ» . لقد بـــدا التـــأخير والـــتردد

مهلكين الآن ، فإن إلقائهم نظرة متلكئة أخيرة على المدينة الملعونة ، وتأخرهم لحظة واحـــدة ليبدوا أسفهم على ترك بيتهم الجميل جدا يكلفانهم حياتهم . إن عاصفة غضب الله كانت تنتظـر فقط خروج أولئك الهاربين المساكين من المدينة .

إلا أن لوطا الذي كان مرتبكا ومرتعبا توسل قائلا إنه لا يستطيع تنفيذ ما طُلب منـــه لئلا يدركه الشر فيموت ، إنه إذ كان عائشا في تلك المدينة الشريرة حيث لم يكن هنـــالك إيمان ضعف إيمانه ، لقد كان ملك السماء واقفا إلى جواره ، ومع ذلك توسل في طلـــب الإبقاء على حياته كأن الله الذي أظهر له كل هذه الرعاية وهذه المحبة لن يحفظـــه بعـد ذلك . كان ينبغي له أن يثق برسول السماء ثقة كاملة مستودعا إرادته وحياته بين يـــدي الرب بدون شك أو تردد ، ولكنه ، ككثيرين غيره ، أراد أن يرسم خطته لنفسه إذ قـال : «هُوَذَا الْمَدِينَةُ هذِهِ قَرِيبَةٌ لِلْهَرَبِ إِلَيْهَا وَهِيَ صَغِيرَةٌ . أَهْرُبُ إِلَى هُنَاكَ . أَلَيْسَتْ هِيَ صَغِـيرَةً ؟ فَتَحْيَا نَفْسِي» . إن المدينة المذكورة هنا هي بالع التي دعيت بعد ذلك صوغـر ، وكـانت تبعد عن سدوم مسافة أميال قليلة ، وكانت مثلها فاسدة ومحكوما عليها بالهلاك ، ولكـن لوطا طلب الإبقاء عليها وقال إن هذا طلب صغير ، فأجيب إلى طلبه ، وأكد لـه الـرب ذلك بقوله : «إِنِّي قَدْ رَفَعْتُ وَجْهَكَ فِي هذَا الأَمْرِ أَيْضًا ، أَنْ لاَ أَقْلِبَ الْمَدِينَةَ الَّتِي تَكَلَّمْتَ عَنْهَا» فما أعظم رحمة الرب بخلائقه الخاطئة !

ثم صدر إليه الأمر مرة أخرى بالإسراع ، لأن عاصفة النار لم يبقَ على هبوبها غير القليـل جدا ، ولكن واحدة من أولئك الهاربين تجرأت ونظرت إلى الخلف ، إلى المدينة المحكوم عليـها بالهلاك فصارت تمثالا لدينونة الله ، فلو أن لوطا نفسه لم يتردد في إطاعة أمر الملاكيـن بـل هرب راضيا إلى الجبال بدون التَّفوُّه بأي كلمة أو معارضة ، لكانت امرأتـه قـد نجـت هـي الأخرى ، لقد كان يمكنه بتأثيره ومثاله أن ينقذها من الخطية التي ختمت على هلاكـها ، ولكـن تردده وتلكؤه جعلاها تستخف بإنذار الرب ، ففيما كانت بجسمها في السهل كـان قلبـها متعلقـا بسدوم فهلكت معها ، لقد تمردت على الله لأن حكمه بإهلاك المدينة شمل كل أملاكـها وحتـى بناتها ، ومع كون الرب قد أحسن إليها إحسانا عظيما بإخراجها من تلك المدينـة الشـريرة فقـد أحست بأنها قد عوملت معاملة قاسية ، لأن الثروة التي قد تعبوا في جمعها سنين طويلة لا بـد أن تترك للهلاك ، فبدلا من قبول النجاة بشكر نظرت بكل جرأة إلى الوراء لتشـتهي حيـاة أولئـك

الذين رفضوا إنذار الله ، وبرهنت خطيتها على أنها لا تستحق الحياة التي لم تشعر إلا بقليل من الشكر على حفظه إياها .

ينبغي لنا أن نحترس من الاستخفاف بما قد أعده الله بجوده لخلاصنا ، مِن المسيحيين مَن يقول : «أنا لا أكترث لخلاصي ما لم يخلص أولادي وزوجتي معي» ، إنهم يحسون أن السماء لن تكون سماء في نظرهم ما لم يكن معهم الذين يحبونهم جدا ، ولكن هل هؤلاء الذين قد نشأ في قلوبهم هذا الشعور يدركون علاقتهم بالله على حقيقتها في نور صلاحه العظيم ورحمته نحوهم ؟ وهل نسوا أنهم مرتبطون به بأوثق ربط المحبة والكرامة والولاء وملتزمون بأن يخدموا خالقهم وفاديهم ؟ إن دعوات الرحمة مقدمة للجميع ، ولكن هل لكون أصدقائنا يرفضون محبة المخلص وتوسلاته نرتد نحن مثلهم ؟ إن فدية النفس كريمة ، فلقد دفع المسيح ثمنا هائلا وفادحا لفدائنا ، وكل من يقدر قيمة هذه الذبيحة العظيمة أو قيمة النفس الغالية لا يمكن أن يرفض رحمة الله المقدمة له لأن قوما آخرين يرفضونها ، إن نفس حقيقة كون الآخرين يتجاهلون مطاليب الله العادلة ينبغي أن تحفزنا على زيادة الاجتهاد في إكرامنا لله بأنفسنا ، وإرشاد كل من يمكننا التأثير فيهم لقبول محبته .

«وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ» وبدا كأن أشعة الشمس الجميلة تبشر بالسلام والنجاح لسكان مدن السهل ، وبدأت حركة الحياة ناشطة في الشوارع ، وكان الناس يغدون ويروحون وهم منصبّون على أعمالهم أو مسراتهم في ذلك اليوم ، وقد كان أصهار لوط يتندّرون ويتفكهون على المخاوف والإنذارات التي كانوا يسمعونها من ذلك الشيخ الخرف (لوط) ، ولكن فجأة وعلى غير انتظار كما لو كان من قصف الرعود من سماء صافية هبت العاصفة ، فلقد أمطر الرب كبريتا ونارا من السماء على المدن وعلى ذلك السهل الخصيب ، فالقصور والهياكل والمساكن الفخمة الغالية القيمة والحدائق والكروم كلها ذهبت وقودا للنار ، كما هلك ذلك الجمهور المرح الباحث عن اللذة والسرور ، أولئك الذين أهانوا رسل السماء في الليلة الماضية . وصعد دخان ذلك الحريق الهائل إلى عنان السماء كما لو كان دخان آتون عظيم ، وصار ذلك الوادي الجميل ، وادي السديم خرابا يبابا لا يمكن أن يبنى أو يُسكن– شاهدا لكل الأجيال على يقينية دينونة الله لكل عصيان .

إن تلك النيران التي التهمت مدن السهل قد أرسلت نور الإنذار إلى يومنا هذا ، فلقد تعلمنا

ذلك الدرس المخيف الخطير وهو أنه مع كون رحمة الله تحتمل العصاة طويلا فهناك حـــد لا يمكن الناس أن يتعدوه ممعنين في خطاياهم ، فمتى وصل الإنسان إلى ذلك الحد فكل هبـــات الرحمة تُسحب ، وينصب على الخطاة قضاء الدينونة .

إن فادي العالم يعلن أنه توجد خطايا أعظم من تلك التي بسببها هلكت ســدوم وعمــورة ، فأولئك الذين يسمعون دعوات الإنجيل طالبة من الخطاة أن يتوبوا ولا يكترثون لها هم أثقـــل جرما ، في نظر الله ، ممن كانوا يسكنون في عمق السديم . وهنالك خطية أعظم مـــن ذلــك كله ، وهي خطية الذين يعترفون بأنهم يعرفون الله ويحفظون وصاياه ومـــع ذلــك ينكــرون المسيح في أخلاقهم وفي حياتهم اليومية ، ففي نور إنذارات المخلص نجد في مصـــير ســدوم وعمورة تحذيرا خطرا ، ليس فقط لمرتكبي الخطايا المتفشية بل أيضا للذيـــن ترســل إليــهم السماء نورها وأفضالها .

قال الشاهد الأمين لكنيسة أفسس : «لكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ : أَنَّكَ تَرَكْتَ مَحَبَّتَكَ الأُولَى . فَـاذْكُرْ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتَ وَتُبْ ، وَاعْمَلِ الأَعْمَالَ الأُولَى ، وَإِلاَّ فَإِنِّي آتِيكَ عَنْ قَرِيبٍ وَأُزَحْزِحُ مَنَـــارَتَكَ مِنْ مَكَانِهَا ، إِنْ لَمْ تَتُبْ» (رؤيا ٢: ٤،٥) . إن المخلص ينتظر منا اســتجابة لــهبات محبتــه وغفرانه بحنان ورقة أكثر مما يحرك قلب أب بشري ليغفر لابنه العاصي الذي يتـــألم . إنــه ينادي الضالين قائلاً : «ارْجِعُوا إِلَيَّ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ» (ملاخي ٣:٧) . ولكن إذا أصر الخاطئ على عدم الاكتراث للصوت الذي يدعوه بالمحبة الرقيقة المشفقة فسيترك أخيرا فـــي الظـــلام ، إن القلب الذي يحتقر رحمة الله طويلا يتقسى بالخطية ويفقد الشعور بتأثر نعمة الله ، وكم ســتكون تلك الدينونة مخيفة للإنسان الذي سيعلن المخلص عنه في النهاية قائلاً : إنه «مُوثَقٌ بِالأَصْنَامِ . اتْرُكُوهُ» (هوشع ٤: ١٧) وفي يوم الدين ستكون حالة مدن السهل أكثر احتمالا من حالة أولئك الذين بعدما عرفوا محبة المسيح ارتدوا لأنهم اختاروا مسرات عالم الإثم .

أنتم يا من تحتقرون هبات الرحمة ، تأملوا في عدد الخطايا المتراكم ضدكم فـــي أســفار السماء ، لأن هناك سجلا سُطرت فيه آثام الأمم والعائلات والأفراد . قد يصبر الله طويلا فيما الأسفار تكتب ، وقد يقدم للناس دعوات التوبة وهبات الغفران ، ومع ذلك يأتي يوم فيه تكمـــل أدلة الإدانة ، حين يقرر الإنسان مصيره ، والإنسان باختياره يحكم على نفسه ، وحينئذ تعطـى الإشارة لتنفيذ حكم الدينونة .

إن حالة العالم المتدين اليوم تدعو إلى الخوف ، فلقد ازدرى الناس رحمة الله ، جموع الناس يبطلون شريعة الرب «يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ» (متى ١٥: ٩) لقد تفشى الإلحاد في كثير من الكنائس في بلادنا ، ليس الإلحاد في أوسع معانيه– أي المجاهرة بإنكار الكتاب المقدس– بل هو الإلحاد المتسربل برداء المسيحية ، في حين أنه يقوّض أركان الإيمان بالكتاب على أنه إعلان من الله . لقد حلت الشكليات الجوفاء محل العبادة الحارة لله ، والتقوى الحيوية ، ونتج عن ذلك انتشار الارتداد والشهوانية . قال المسيح : «كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ لُوطٍ ... هكَذَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يُظْهَرُ ابْنُ الإِنْسَانِ» (لوقا ١٧: ٢٨،٣٠) إن تاريخ الأحداث الجارية كل يوم يشهد لصدق كلام الرب . لقد صار العالم ناضجا للهلاك ، وبعد قليل ستنصبّ عليه الضربات ، وسيهلك الخطاة في خطاياهم .

قال مخلصنا : «فَاحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ لِئَلاَّ تَثْقُلَ قُلُوبُكُمْ فِي خُمَارٍ وَسُكْرٍ وَهُمُومِ الْحَيَاةِ ، فَيُصَادِفَكُمْ ذلِكَ الْيَوْمُ بَغْتَةً . لأَنَّهُ كَالْفَخِّ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِ الْجَالِسِينَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ (جميع الذين ركزوا كل اهتمامهم في هذا العالم) . اِسْهَرُوا إِذًا وَتَضَرَّعُوا فِي كُلِّ حِينٍ ، لِكَيْ تُحْسَبُوا أَهْلاً لِلنَّجَاةِ مِنْ جَمِيعِ هذَا الْمُزْمِعِ أَنْ يَكُونَ ، وَتَقِفُوا قُدَّامَ ابْنِ الإِنْسَانِ» (لوقا ٢١: ٣٤–٣٦) .

قبلما أخرب الله سدوم أرسل إلى لوط رسالة تقول : «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ . لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ ، وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ . اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ» (تكوين ١٩: ١٧) ولقد سمع نفس هذا الإنذار من فم المسيح قبل خراب أورشليم حيث يقول السيد : «وَمَتَى رَأَيْتُمْ أُورُشَلِيمَ مُحَاطَةً بِجُيُوشٍ ، فَحِينَئِذٍ اعْلَمُوا أَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ خَرَابُهَا . حِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ» (لوقا ٢١: ٢٠،٢١) يجب ألا يتأخروا لكي يستخلصوا أي شيء من أملاكهم ، بل عليهم أن ينتهزوا الفرصة للهروب .

لقد كان هنالك خروج أي انفصال جازم عن الأشرار ، وهروب للحياة ، كذلك كانت الحال في أيام نوح وفي أيام لوط ، وكذلك كانت الحال مع التلاميذ قبل خراب أورشليم ، وكذلك ستكون الحال في الأيام الأخيرة . ثم إن صوت الله يسمع ثانية في رسالة إنذار بها يأمر شعبه أن ينفصلوا ويبتعدوا عن الإثم المستشري في العالم .

إن حالة الارتداد والفساد التي ستكون في العالم المتدين في الأيام الأخيرة كُشفت ليوحنا الرائي في رؤيا بابل «الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي لَهَا مُلْكٌ عَلَى مُلُوكِ الأَرْضِ» (رؤيا

١٧: ١٨) . فقبل خرابها سيُسمع صوت من السماء يقول : «اخْرُجُوا مِنْهَا يَا شَعْبِي لِئَلاَّ تَشْتَرِكُوا فِي خَطَايَاهَا ، وَلِئَلاَّ تَأْخُذُوا مِنْ ضَرَبَاتِهَا» (رؤيا ١٨: ٤) . وكما كان في أيام نوح ولوط ينبغي أن يكون هنالك انفصال ملحوظ عن الخطية والخطاة ، لا يمكن أن يكون صلح أو وفاق بين الله والعالم ، ولا رجوع لأخذ شيء من كنوز الأرض ، «لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ» (متى ٦: ٢٤) .

وكما كانت الحال مع الناس الساكنين في عمق السديم كذلك الناس اليوم يحلمون بالنجاح والسلام ، ولكن إنذار الملاكين يقول : «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ» غير أن هنالك أصواتا أخرى تقول : لا تهتاجوا إذ لا داعي للتوجس أو الخوف ، وجموع الناس يصرخون قائلين : «سلام وأمان» بينما السماء تعلن أن هلاكا سريعا مزمع أن يفاجئ العصاة . كانت مدن السهل في الليلة السابقة للانقلاب تضج وتعربد وهي تمرح في ملذاتها وطربها ، وكان الناس يهزأون بالخوف وبإنذارات رسول الله ، ولكن أولئك الآخرين هلكوا في اللهيب ، وفي نفس تلك الليلة أغلق باب الرحمة في وجوه سكان سدوم المهملين الأشرار . إن الله لا يمكن أن يشمخ عليه دائما ، ولا يمكن الاستخفاف به طويلا : «هُوَذَا يَوْمُ الرَّبِّ قَادِمٌ ، قَاسِيًا بِسَخَطٍ وَحُمُوِّ غَضَبٍ ، لِيَجْعَلَ الأَرْضَ خَرَابًا وَيُبِيدَ مِنْهَا خُطَاتَهَا» (إشعياء ١٣: ٩) . إن غالبية الناس في العالم سيرفضون رحمة الله وسيبغتهم هلاك سريع لا يمكن الشفاء منه ، ولكن الذين يلتفتون إلى الإنذار سيسكنون «فِي سِتْرِ الْعَلِيِّ ، فِي ظِلِّ الْقَدِيرِ» يبيتون (مزمور ٩١: ١) . وسيكون حقه ترسهم ومجنهم ، وهذا هو وعد الله لهم : «مِنْ طُولِ الأَيَّامِ أُشْبِعُهُ ، وَأُرِيهِ خَلاَصِي» (مزمور ٩١: ١٦،٤) .

لم يلبث لوط في صوغر طويلا فلقد انتشر الإثم فيها كما كان في سدوم ، ولذلك خاف من البقاء فيها لئلا تخرب هي أيضا ، وبعد ذلك بقليل أحرقت صوغر كما قصد الله ، فانطلق لوط بعد ذلك إلى الجبال وسكن في مغارة ، متجردا من كل ما قد خاطر في سبيله بتعريض عائلته لتأثير مدينة شريرة ، ولكن لعنة سدوم تعقبته حتى إلى ذلك المكان ، فإن تصرف ابنتيه المعيب الشرير كان نتيجة للمعاشرات الرديئة في ذلك المكان الدنس . إن فساد ذلك المكان صار محبوكا وممتزجا بأخلاق ابنتيه بحيث لم تستطيعا التمييز بين الخير والشر . إن نسل

لوط فقط ، أي المؤابيين والعمونيين كانوا عشائر وثنية سافلة ، ومتمردين على الله ومن ألد أعداء شعبه .

كم كان البون شاسعا بين حياة إبراهيم وحياه لوط ! كانا قبلا رفيقين متلازمين يتعبدان أمام مذبح واحد ويسكنان في الخيام جنبا إلى جنب ، ولكن ما أعظم شقة البعد بينهما الآن ! لقد اختار لوط سدوم بسبب مسراتها ووفرة أرباحها ، وإذ ترك مذبح إبراهيم وذبيحته اليومية التي كانت تقدم لله الحي سمح لبناته بالزواج من رجال أشرار والاندماج بين شعب وثني فاسد ، ومع ذلك فقد احتفظ في قلبه بمخافة الله ، لأن الكتاب يعلن عنه أنه كان رجلا بارا إذ كانت نفسه التقية تتعذب بالأحاديث البذيئة التي كانت تصك سمعه كل يوم ، وبالظلم والجرائم التي كان عاجزا عن صد تيارها ، لكنه خلص أخيرا مثل «شُعْلَةً مُنْتَشَلَةً مِنَ النَّارِ» (زكريا ٣: ٢) ومع ذلك فقد جرد من كل أملاكه ونكب في زوجته وبناته ، وكان يسكن في المغاير كالوحوش ، وجلله العار في شيخوخته ، وقدم للعالم لا شعبا من الناس الأبرار بل أمتين وثنيتين تضمران العداء لله وتحاربان شعبه ، حتى بعدما فاض مكيال إثمهما حكم عليهما بالهلاك . ما كان أرهب النتائج التي نجمت عن خطوة واحدة طائشة !

يقول الحكيم : «لاَ تَتْعَبْ لِكَيْ تَصِيرَ غَنِيًّا . كُفَّ عَنْ فِطْنَتِكَ» (أمثال ٢٣: ٤) كما يقول أيضا : «اَلْمُولَعُ بِالْكَسْبِ يُكَدِّرُ بَيْتَهُ ، وَالْكَارِهُ الْهَدَايَا يَعِيشُ» (أمثال ١٥: ٢٧) ويقول بولس الرسول : «وَأَمَّا الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونُوا أَغْنِيَاءَ ، فَيَسْقُطُونَ فِي تَجْرِبَةٍ وَفَخٍّ وَشَهَوَاتٍ كَثِيرَةٍ غَبِيَّةٍ وَمُضِرَّةٍ ، تُغَرِّقُ النَّاسَ فِي الْعَطَبِ وَالْهَلاَكِ» (١تيموثاوس ٦: ٩) .

إن لوطا حين دخل سدوم عزم عزما أكيدا على أن يحفظ نفسه بعيدا عن الإثم وأن يجعل أفراد بيته يتمثلون به ، غير أنه فشل فشلا ذريعا ، فالمؤثرات الفاسدة المحيطة به أثرت في إيمانه هو ، واختلاط بناته بسكان سدوم ربط مصالحه بمصالحهم إلى حد ما ، وها نحن قد رأينا النتيجة .

كثيرون يرتكبون الغلطة نفسها ، فحين يختارون بيتا للسكنى فأعظم اهتمامهم يتجه إلى المزايا المادية التي يجنونها أكثر من الاهتمام بالمؤثرات الأدبية والاجتماعية التي تحيط بهم وبعائلاتهم ، يختارون بلادا خصبة وجميلة أو مدينة زاهرة ، على أمل الحصول على نجاح أعظم ، ولكن التجارب تكتنف أولادهم ، وفي أغلب الأحيان يكوّنون صداقات مع بعض الأصحاب لا تساعدهم على النمو في التقوى وتكوين الخلق السليم . إن الجو الذي تعيش فيه

الآداب السائبة المتساهلة ، وعدم الإيمان وعدم الاكتراث للأمور الدينية يعمل على إبطال تأثير الآباء ، وحينئذ يكون أمام الشباب أمثلة التمرد على سلطة الآباء وسلطان الله ، وهي ماثلة أمامهم في حياة عشرائهم . وكثيرون يرتبطون بربط المحبة مع الملحدين وغير المؤمنين ، ويلقون قرعتهم مع أعداء الله .

في اختيار البيت يريدنا الله أن نضع نصب عيوننا المؤثرات الأخلاقية والدينية التي تحيط بنا وبعائلاتنا ، فقد نوجد في مركز شاق ومتعب ، لأن كثيرين لا يجدون المحيط الذي يعيشون فيه كما يشاءون . إن أي مكان تدعونا إليه واجباتنا وأعمالنا يستطيع الله أن يجعلنا نقف فيه طاهرين وبلا عيب إذا كنا نسهر ونصلي واثقين بنعمة المسيح . ولكن يجب ألا نعرّض أنفسنا ، دون ما داع ، للمؤثرات التي لا تساعد على تكوين الخلق المسيحي ، فحين نضع أنفسنا ، بمحض اختيارنا ، في جو من المادية وعدم الإيمان فإننا نسخط الله علينا ونطرد الملائكة القديسين بعيدا عن بيوتنا .

إن الذين يدخرون لأولادهم الثروة الزمنية والمجد والكرامة على حساب صالحهم الأبدي سيجدون في النهاية أن هذه المزايا خسارة فادحة . كثيرون ، كلوط ، يرون أولادهم وقد فسدت أخلاقهم وبالجهد يخلصون أنفسهم ، إنهم يخسرون عمل حياتهم وتمسي حياتهم فشلا محزنا . ولو كانت عندهم الحكمة الحقيقية ، لكانوا يرضون لأولادهم بقليل من النجاح العالمي ليتحققوا من حصولهم على نصيب في الميراث الأبدي .

إن الميراث الذي قد وعد به الرب شعبه ليس في هذا العالم ، فإبراهيم لم يكن له في الأرض ميراث «وَلاَ وَطْأَةَ قَدَمٍ» (أعمال ٧:٥) كانت عنده ثروة عظيمة ولكنه استخدمها فيما يؤول إلى مجد الله وخير إخوته البشر ، ولكنه لم يكن يعتبر هذا العالم وطنا له . لقد دعاه الرب لأن يترك بني وطنه عبدة الأوثان ، واعدا إياه أن يعطيه أرض كنعان ملكا أبديا ، ولكن لا هو ولا ابنه ولا ابن ابنه امتلكوها ، وحين طلب إبراهيم مكانا يدفن فيه ميته كان عليه أن يبتاعه من الكنعانيين ، فكل ما كان يمتلكه في أرض الموعد كان هو تلك المقبرة المحفورة في الصخر في مغارة المكفيلة .

ولكن كلمة الله لم تسقط ولا تمَّت نهائيا في احتلال الشعب اليهودي لأرض كنعان ، «وَأَمَّا الْمَوَاعِيدُ فَقِيلَتْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَفِي نَسْلِهِ» (غلاطية ١٦:٣) وكان على إبراهيم نفسه أن يقاسم

الميراث ، قد يبدو كأن الله قد تأخر كثيرا في إتمام وعده ، «يَوْمًا وَاحِدًا عِنْدَ الرَّبِّ كَأَلْفِ سَنَةٍ ... وَأَلْفَ سَنَةٍ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ» (٢بطرس ٣:٨) قد يبدو أنها تتأخر ، ولكنها في الوقت المحدد «إِتْيَانًا وَلاَ تَتَأَخَّرُ» (حبقوق ٢: ٣) إن الهبة المقدمة لإبراهيم ونسله لم تقتصر على أرض كنعان وحدها ولكنها شملت الأرض كلها ، وهكذا يقول الرسول : «فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالنَّامُوسِ كَانَ الْوَعْدُ لإِبْرَاهِيمَ أَوْ لِنَسْلِهِ أَنْ يَكُونَ وَارِثًا لِلْعَالَمِ ، بَلْ بِبِرِّ الإِيمَانِ» (رومية ٤: ١٣) والكتاب المقدس يعلمنا صريحا أن المواعيد المقدمة لإبراهيم تتم في المسيح . فكل الذين هم للمسيح هم «حَسَبَ الْمَوْعِدِ وَرَثَةٌ»– ورثة «لِمِيرَاثٍ لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ» (غلاطية ٣: ٢٩؛ ١بطرس ١: ٤) إذ تتحرر الأرض من لعنة الخطية لأن «الْمَمْلَكَةُ وَالسُّلْطَانُ وَعَظَمَةُ الْمَمْلَكَةِ تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ تُعْطَى لِشَعْبِ قِدِّيسِي الْعَلِيِّ» «أَمَّا الْوُدَعَاءُ فَيَرِثُونَ الأَرْضَ ، وَيَتَلَذَّذُونَ فِي كَثْرَةِ السَّلاَمَةِ» (دانيال ٧: ٢٧؛ مزمور ٣٧: ١١) .

وقد أعطى الله إبراهيم مشهدا عن هذا الميراث الأبدي ، واكتفى بهذا الرجاء . «بِالإِيمَانِ تَغَرَّبَ فِي أَرْضِ الْمَوْعِدِ كَأَنَّهَا غَرِيبَةٌ ، سَاكِنًا فِي خِيَامٍ مَعَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ الْوَارِثَيْنِ مَعَهُ لِهذَا الْمَوْعِدِ عَيْنِهِ . لأَنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ الْمَدِينَةَ الَّتِي لَهَا الأَسَاسَاتُ ، الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ» (عبرانيين ١١: ٩،١٠) .

وقد قيل عن نسل إبراهيم : «فِي الإِيمَانِ مَاتَ هؤُلاَءِ أَجْمَعُونَ ، وَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ ، بَلْ مِنْ بَعِيدٍ نَظَرُوهَا وَصَدَّقُوهَا وَحَيُّوهَا ، وَأَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ غُرَبَاءُ وَنُزَلاَءُ عَلَى الأَرْضِ» (عبرانيين ١١: ١٣) . ينبغي لنا أن نعيش كغرباء ونزلاء إذا كنا نبتغي «وَطَنًا أَفْضَلَ ، أَيْ سَمَاوِيًّا» (عبرانيين ١١: ١٦) فالذين هم أولاد إبراهيم ينبغي لهم أن ينتظروا المدينة التي كان ينتظرها هو «الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ» (عبرانيين ١١: ١٠) .

الفصل الخامس عشر

زواج إسحاق

كان إبراهيم قد بلغ دور الشيخوخة ، وكان ينتظر الموت ، ومع ذلك بقي عليه عمل واحد يعمله لأجل ضمان إتمام الوعد لنسله من بعده . كان إسحاق هو الشخص المعين من الله ليأخذ مكان أبيه ، ويكون حفيظا على شريعة الله ، وأبا للشعب المختار . ولكنه لم يكن قد تزوج بعد ، وكان سكان كنعان يتعبدون للأصنام ، وقد حرم الله على شعبه التزاوج معهم ، إذ كان يعلم أن مثل ذلك الزواج سيقود شعبه إلى الارتداد . وكان ذلك الشيخ يخشى أن تؤثر في ابنه المؤثرات المفسدة التي تكتنفه من كل صوب ، وأن إيمان إبراهيم بالله الذي كان متأصلا فيه ، وخضوعه لمشيئته انطبعا على أخلاق إسحاق ، ولكن عواطف ذلك الشاب كانت قوية ، وكان رقيق الطبع مسالما ، فلو أنه تزوج بامرأة لا تخاف الله فقد يخشى عليه مع أنه قد يضحي بمبادئه ليضمن السلام والوفاق في بيته . وكان إبراهيم يعتقد أن اختيار زوجة لابنه أمر في غاية الأهمية ، وكان يتوق إلى تزويجه بفتاة لا تبعده عن الله .

في العصور القديمة كان الآباء عادة هم الذين يقومون بعقد الخطوبة ، وكانت هذه هي العادة المتبعة عند من كانوا يعبدون الله ، ولم يكن يطلب من أي شاب أن يتزوج فتاة لم يمكنه أن يحبها ، ولكن قبلما يمنح الشاب محبته لفتاة كان يسترشد مشورة أبويه المختبرين الذين يخافان الله . فلو أن شابا خالف هذا النظام لاعتبر ذلك إهانة في حق أبويه ، بل وحسب جريمة .

وإذ كان إسحاق واثقا بحكمة أبيه ومحبته ارتضى أن يسلم الأمر إليه ، وكان مؤمنا بأن الله نفسه سيكون هو المرشد في اختيار الزوجة المطلوبة ، واتجهت أفكار أبيه إلى عشيرته في ما بين النهرين ، فمع أنهم لم يكونوا متحررين من عبادة الأوثان ، إلا أنهم كانوا محتفظين بمعرفة الإله الحقيقي وعبادته ، وكان يجب ألا يبرح إسحاق كنعان ليذهب إليهم ، ولكن ربما وجدت في تلك العائلة فتاة ترضى بترك بيتها لتتحد معه في حفظ

العبادة النقية للإله الحي ، فكلف إبراهيم «عَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ» بالقيام بهذه المأمورية الهامة ، وكان ذلك العبد رجلا تقيا مختبرا سديد الرأي ، وكان قد أمضى سنين طويلة في خدمة مولاه بكل أمانة . طلب إبراهيم من ذلك العبد أن يحلف أمام الله ألا يأخذ لابنه إسحاق زوجة من بنات الكنعانيين ، بل أن يختار له زوجة من بنات ناحور في ما بين النهرين ، وأوصاه ألا يأخذ إسحاق معه ، فإذا لم تشأ أية فتاة أن تترك عائلتها فذلك الرسول يكون بريئا من حلفه . وشجعه سيده على القيام بتلك المأمورية الصعبة الدقيقة بتأكيده له أن الله سيكلل مساعيه بالنجاح قائلاً : «اَلرَّبُّ إِلهُ السَّمَاءِ الَّذِي أَخَذَنِي مِنْ بَيْتِ أَبِي وَمِنْ أَرْضِ مِيلاَدِي ، وَالَّذِي كَلَّمَنِي وَالَّذِي أَقْسَمَ لِي قَائِلاً : لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ ، هُوَ يُرْسِلُ مَلاَكَهُ أَمَامَكَ» (انظر تكوين ٢٤) .

بدأ الرسول رحلته بدون إمهال ، آخذا معه عشرة جمال ليستخدمها لجماعته ولصديقات العروس اللواتي قد يجئن معها ، كما أخذ معه هدايا للزوجة العتيدة وصديقاتها ، فسار في تلك السفرة الطويلة حتى تجاوز دمشق ، إلى أن وصل إلى السهول الخصبة الواقعة على حدود النهر العظيم في الشرق ، فإذ وصل إلى حاران «مَدِينَةِ نَاحُورَ» ترجّل خارج أسوارها بقرب البئر التي كانت نساء المدينة يستقين منها في وقت المساء ، كان ذلك العبد يفكر تفكيرا عميقا وهو شغوف ، إن الفتاة التي سيختارها عروسا لابن سيده ستتوقف عليها نتائج هامة ، ليس فقط بالنسبة لعائلة مولاه بل للأجيال القادمة ، وكيف له أن يختار اختيارا حكيما في وسط قوم لم يكن يعرفهم ؟ و إذ ذكر كلام سيده من أن الله سيرسل ملاكه معه جعل يصلي بحرارة في طلب إرشاد إيجابي ، لقد كان معتادا في بيت سيده أعمال الشفقة والكرم ، وهو الآن يسأل أن عملا من أعمال الرقة واللطف يريه الفتاة التي اختارها الله .

لم يكد ينطق بصلاته حتى جاءته الإجابة ، فمن بين النساء اللواتي اجتمعن عند البئر اجتذب نظره واهتمامه لطف إحداهن وأدبها ، فبعدما استقت الماء تقدم ذلك الغريب للقائها طالبا منها أن تسقيه ماء من الجرة التي على كتفها ، فأجابته إلى طلبه بكل لطف ، كما تطوّعت بأن تستقي لجماله أيضا ، وهي خدمة اعتادت الفتيات ، حتى بنات الأمراء والملوك منهن ، أن يقمن بها لقطعان آبائهن ومواشيهم ، وهكذا تمت العلامة التي طلبها ، «وَكَانَتِ الْفَتَاةُ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا» ودل لطفها وبشاشتها على رقة قلبها ونشاطها وطيب

عنصرها . إلى هنا كانت يد الرب تعمل مع ذلك العبد . وبعدما اعترف لها باللطف والرقة بتقديم عطايا ثمينة لها سألها عن أبيها وعائلتها ، وإذ علم أنها بنت بتوئيل ابن أخي إبراهيم «خَرَّ الرَّجُلُ وَسَجَدَ لِلرَّبِّ» .

كان الرجل قد طلب منها أن تضيفه في بيت أبيها ، وفي تعبيره عن شكره كشف عن حقيقة صلته بإبراهيم ، فإذ عادت الفتاة إلى البيت أخبرت أهلها بما حدث عند البئر ، فركض لابان أخوها مسرعا ليأتي بذلك الغريب ورجاله ليضيفهم .

لم يرد أليعازر أن يتناول شيئا من الطعام الذي قدموه له حتى أخبرهم عن قصده من مجيئه ، وصلاته عند البئر ، وكل ما حصل ، والظروف المتصلة به ، ثم ختم كلامه بقوله : «وَالآنَ إِنْ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ مَعْرُوفًا وَأَمَانَةً إِلَى سَيِّدِي فَأَخْبِرُونِي ، وَإِلاَّ فَأَخْبِرُونِي لأَنْصَرِفَ يَمِينًا أَوْ شِمَالاً» فكان جوابهم : «مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ خَرَجَ الأَمْرُ . لاَ نَقْدِرُ أَنْ نُكَلِّمَكَ بِشَرّ أَوْ خَيْرٍ . هُوَذَا رِفْقَةُ قُدَّامَكَ . خُذْهَا وَاذْهَبْ . فَلْتَكُنْ زَوْجَةً لابْنِ سَيِّدِكَ ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ» .

بعدما ظفر العبد برضى العائلة سألوا رفقة هل ترضى بالقيام بتلك السفرة الطويلة وتترك بيت أبيها لتقترن بابن إبراهيم ، وكانت رفقة تعتقد لدى تأملها في ما قد حدث أن الله قد اختارها زوجة لإسحاق ، فقالت : «أَذْهَبُ» .

وإذ كان العبد يتوقع أن سيده سيفرح بنجاحه في مهمته كان يتوق إلى السفر ، ففي الصباح شرعوا في السفر إلى وطنهم ، وكان إبراهيم ساكنا في بئر سبع ، أما إسحاق الذي كان يرعى شؤون قطعانه في البلاد المجاورة فكان قد عاد إلى خيمة أبيه لينتظر عودة الرسول من حاران «وَخَرَجَ إِسْحَاقُ لِيَتَأَمَّلَ فِي الْحَقْلِ عِنْدَ إِقْبَالِ الْمَسَاءِ ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا جِمَالٌ مُقْبِلَةٌ . وَرَفَعَتْ رِفْقَةُ عَيْنَيْهَا فَرَأَتْ إِسْحَاقَ فَنَزَلَتْ عَنِ الْجَمَلِ . وَقَالَتْ لِلْعَبْدِ : «مَنْ هذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا ؟» فَقَالَ الْعَبْدُ : «هُوَ سَيِّدِي» . فَأَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ . ثُمَّ حَدَّثَ الْعَبْدُ إِسْحَاقَ بِكُلِّ الأُمُورِ الَّتِي صَنَعَ ، فَأَدْخَلَهَا إِسْحَاقُ إِلَى خِبَاءِ سَارَةَ أُمِّهِ ، وَأَخَذَ رِفْقَةَ فَصَارَتْ لَهُ زَوْجَةً وَأَحَبَّهَا . فَتَعَزَّى إِسْحَاقُ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ» .

كان إبراهيم قد لاحظ نتيجة تزاوج من يخافون الله مع من لا يخافونه منذ أيام قايين إلى يومه ، إن نتائج زواجه من هاجر ، والعلائق الزوجية في حياة اسماعيل ولوط كانت ماثلة أمامه . إن عدم إيمان إبراهيم وسارة نتجت عند ولادة اسماعيل واختلاط نسل الأبرار

بالأشرار ، وإن تأثير الأب في ابنه أضعفته وأبطلته وثنية أقارب الأم ، وزواج اسماعيل بزوجات وثنيات ، وإن حسد هاجر وحسد زوجات إسماعيل اللواتي اختارتهن له لمما أحاط العائلة بسياج عجز إبراهيم عن تخطيه والتغلب عليه .

لم تكن التعاليم التي تلقاها إسماعيل من أبيه إبراهيم في صباه عديمة الأثر ، إلا أن تأثير زوجاته نتج عنه إدخال الوثنية إلى عائلته ، فإذ انفصل عن أبيه وأحس بمرارة الصراع والارتباط ببيت خال من محبة الله ومخافته صار مرغما على أن يختار الحياة الوحشية ، حياة قطاع الطرق التي زاولها كرئيس في البادية «يَدُهُ عَلَى كُلٍّ وَاحِدٍ ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ» (تكوين ١٦: ١٢) وقد تاب في أخريات حياته عن طرقه الشريرة ورجع إلى إله أبيه ، ولكن الطابع الأخلاقي الذي تميز به نسله ظل كما كان ، فالأمة القوية التي تناسلت منه كانت أمة وثنية مشاغبة وقد عملت دوما على مضايقة وإذلال نسل إسحاق .

كانت امرأة لوط امرأة محبة لنفسها وغير متدينة ، استخدمت تأثيرها في انفصال زوجها عن إبراهيم ، ولولاها لما ظل لوط في سدوم ، ولما حرم من المشورة الحكيمة ، مشورة ذلك الشيخ الذي كان يخاف الله . إن تأثير امرأته ومعاشراته للناس في تلك المدينة الشريرة كان يمكن أن تسوقه إلى الارتداد عن الله لولا التعاليم التي كان قد تلقاها من إبراهيم في شبابه . إن زواج لوط واختياره لسدوم وطنا له كانا من الحلقات الأولى في سلسلة حوادث مشحونة بالشر للعالم مدى أجيال طويلة .

ليس إنسان يخاف الله ويلتصق بآخر لا يخافه دون أن يعرض نفسه للخطر ، «هَلْ يَسِيرُ اثْنَانِ مَعًا إِنْ لَمْ يَتَوَاعَدَا ؟» (عاموس ٣: ٣) . إن سعادة العلاقة الزوجية ونجاحها يتوقفان على وحدة الفريقين ، ولكن بين المؤمن وغير المؤمن فرقا جوهريا في الأمزجة والأميال والأغراض ، إنهما يخدمان سيدين لا يمكن أن يكون بينهما وفاق ، ومهما تكن مبادئ أحدهما طاهرة ومستقيمة فإن تأثير الشريك الآخر غير المؤمن لابد من أن يميل بالمؤمن للابتعاد عن الله .

إن من قد تزوج قبل تجديده يصير بعد تجديده تحت التزام أقوى لأن يكون أمينا لشريكه في الحياة مهما كان مبلغ اختلافهما في العقائد الدينية ، غير أن مطاليب الله ينبغي أن تسمو فوق كل علاقة أرضية ، حتى ولو نتج عن ذلك اضطهادات وتجارب ، فبروح المحبة

والوداعة يمكن أن يكون لهذا الولاء أثره في ربح الزوج غير المؤمن ، ولكن زواج المسيحيين بالأشرار منهي عنه في الكتاب ، فالرب يأمرنا قائلاً : «لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ» (٢كورنثوس ٦: ١٤؛ ١٧،١٨) .

لقد أكرم الله إسحاق إكراما عظيما ، إذ جعله وارثا للمواعيد التي عن طريقها سيتبارك العالم ، ومع ذلك فعندما بلغ الأربعين من العمر خضع لحكم أبيه في تعيين عبده المختبر الذي كان يخاف الله لاختيار زوجة له ، وكانت نتيجة ذلك الزواج ، كما هو مبين في الكتاب ، صورة نضرة جميلة للسعادة البيتية ، «فَأَدْخَلَهَا إِسْحَاقُ إِلَى خِبَاءِ سَارَةَ أُمِّهِ ، وَأَخَذَ رِفْقَةَ فَصَارَتْ لَهُ زَوْجَةً وَأَحَبَّهَا . فَتَعَزَّى إِسْحَاقُ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ» .

ما أعظم الفارق بين الطريق الذي سار فيه إسحاق وذاك الذي يسير فيه شبابنا في هذه الأيام حتى بين المدعوين مسيحيين ، فالشباب في غالب الأحيان يحسون أن حبهم لشخص من الجنس الآخر هو أمر شخصي لا يستشار فيه سواهم ، ومسألة يجب ألا يتحكم فيها الله أو الوالدون . وقبل وصولهم إلى دور الرجولة أو اكتمال الأنوثة بوقت طويل يظنون أنفسهم أكفاء لأن يختاروا لأنفسهم بدون مساعدة والديهم ، ولكن سنوات قليلة من سني الزواج هي في العادة كافية لإقناعهم بخطئهم ، وغالبا ما يكون ذلك بعد فوات الفرصة ، إذ لا يستطيعون تلافي النتائج المحزنة والمهلكة ، لأن نفس الافتقار إلى الحكمة وضبط النفس اللذين أمليا الاختيار المتسرع يسمح بهما ليزيدا الشر استفحالا ، حتى تصير العلاقة الزوجية نيرا ثقيلا ونبع مرارة ، وهكذا تتحطم سعادة الكثيرين في هذه الحياة ، ويتحطم أيضا رجاؤهم للعالم الآتي .

إذا كان من موضوع يستوجب التأمل والاهتمام ، وينبغي أن يستشار فيه الناس المختبرون والمتقدمون في العمر فهو موضوع الزواج . وإذا كان من حاجة إلى استقاء المشورة من كتاب الله ، وإلى طلب إرشاد الرب بالصلاة فذلك يكون قبل اتخاذ الخطوة التي تربط بين شخصين مدى الحياة .

على الوالدين ألا يغفلوا مسئوليتهم في ضمان سعادة أولادهم مستقبلا ، لقد كان احترام إسحاق لمشورة أبيه نتيجة للتربية التي بها تعلم أن يحب حياة الطاعة ، فحين طلب إبراهيم من

أولاده أن يحترموا سلطة الأبوين كانت حياته شهادة على أن تلك السلطة لم تكـــن أنانيـــة ولا تعسفية ، بل كانت مبنية على المحبة ، وكان هدفها خيرهم وسعادتهم .

وعلى الآباء والأمهات واجب توجيه عواطف الجنسين حتى تتركز فـــي الذيـــن يكونـــون أزواجا وزوجات صالحين . عليهم أن يشعروا أنه يجب عليهم ، بتعليمهم ومثالـــهم وبمعونـــة نعمة الله ، أن يصوغوا أخلاق أولادهم منذ سنيهم الباكرة ، ليكونوا أنقياء ونبلاء ، وليحبوا كل ما هو صالح وحق . وشبيه الشيء منجذب إليه . والشبيه يقدّر من يشاكله . لتغرس في النفس محبة الحق والطهارة والصلاح في بكور الحياة وحينئذ سيبحث الشبيبة عـــن الوســط الـــذي يجدون فيه من هم على شاكلتهم في الأخلاق .

ليهتم الآباء ، في أخلاقهم وفي حياتهم البيتية ، أن يمثلوا محبة الآب الســماوي وشــفقته ، ليمتلئ البيت بنور شمس البر ، هذا سيكون أثمن جدا لدى أولادكم من الأمـــلاك والأمـــوال ، اجعلوا محبتهم للبيت حية في قلوبهم حتى عندما يعودون بالذكرى إلى البيت الذي قضوا فيـــه أيام طفولتهم يعتبرونه موطن السلام والسعادة بعد السماء ، إن أفراد العائلة لا تنطبـــع علـــى قلوبهم نفس الصفات ، وستكون لديهم فرص كثيرة لإظهار صبرهم واحتمالهم ، ولكن بالمحبـة وترويض النفس يمكن أن يرتبط الجميع بأوثق ربط الاتحاد .

المحبة الصادقة مبدأ سام ومقدس ، وتختلف اختلافا بينا عن تلك المحبة التي يوقظها الدافع والتي تموت فجأة عندما تجوز في اختبار صارم . إن الشباب ، بأمانتهم لواجبهم فـــي بيـــوت آبائهم ، يعدّون أنفسهم لبيوتهم الخاصة ، فليتدربوا في بيوت آبائـــهم علـــى إنكـــار الـــذات ، وليظهروا الشفقة واللطف والعطف المسيحي ، وهكذا يظل القلب عامرا بالمحبة . وإن الـــذي يخرج من مثل هذا البيت ليصير رب عائلة سيعرف كيف يرفع من شأن ســـعادة تلـــك التـــي اختارها لتكون شريكته مدى الحياة ، وإذ ذاك فإن الزواج بدلا من أن يكـــون نهايـــة الحـــب سيكون بدايته .

الفصل السادس عشر

يعقوب وعيسو

إن يعقوب وعيسو ابني إسحاق التوأمين يقدمان لنا في أخلاقهما وحياتهما تباينا يستثير الدهشة ، وقد أنبأ ملاك الله بهذا الاختلاف قبل ولادتهما ، فحين أعلن لرفقة ، إجابة لصلاتها المضطربة التي قدمتها أنه سيُعطى لها ابنان كشف لها عن مستقبلهما أن كلا منهما سيكون على رأس أمة قوية ، وإن أحدهما سيكون أعظم من أخيه ، وأن الأفضلية ستكون للأصغر .

كبر عيسو مُحبّا لإرضاء نفسه . ومركّزا كل اهتمامه في الزمن الحاضر . وإذ كان لا يحتمل أي رادع كان يفرح بحرية الانطلاق في البر للصيد ، ومنذ صباه اختار حرفة الصيد ، ومع ذلك فقد كان المفضل عند أبيه ، فذلك الراعي الهادئ محب السلام استهوته جسارة ابنه الأكبر ونشاطه ، ذاك الذي كان يتسلق الجبال ويجوب القفار بلا خوف ويعود بصيده إلى أبيه ويقص عليه القصص المثيرة عن حياة المخاطرة التي كان يحياها . أما يعقوب الذي كان إنسانا مفكرا ومجتهدا وحريصا ، والذي كان دائم التفكير في الحياة العتيدة لا في الحياة الحاضرة فقد كان قانعا بالسكنى في البيت ، مشغولا في رعاية القطعان و فلاحة الأرض ، وأعجبت أمه بصبره ومواظبته وحسن تدبيره وبعد نظره ، فكانت عواطفه عميقة وقوية ، وإن اهتمامه بأمه ، ذلك الاهتمام الرقيق الذي لا يفتر ، زاد في سعادتها أكثر من أعمال الشفقة الصاخبة التي كانت تأتيها من عيسو في فترات متباعدة ، فكان يعقوب أعز على أمه من عيسو .

إن المواعيد التي أعطيت لإبراهيم وتثبتت لابنه تمسك بها إسحاق ورفقة كالغرض الأسمى لأشواقهما وآمالهما ، وكان يعقوب وعيسو عالمين بهذه المواعيد ، وقد تعلما أن يعتبرا البكورية أمرا في غاية الأهمية ، إذ أنها لم تكن تشمل امتلاك الثروة الأرضية فحسب ، بل أيضا السمو والتفوق الروحي ، فالذي يحصل عليها يكون كاهن عائلته ،

ومن نسله يأتي فادي العالم . ومن الناحية الأخرى كانت هناك التزامات يلتزم بـــها مـــن يحصل على البكورية ، فالذي يـــرث بركاتـــها عليـــه أن يوقـــف حياتـــه لخدمـــة الله ، وكإبراهيم ، عليه أن يكون مطيعا لكل مطاليب الله . وكان عليه أن يطلـــب مشـــورة الله سواء في الزواج أو في الحياة العائلية أو في الحياة العامة .

أفضى إسحاق لابنيه بأمر هذه الامتيازات وشروطها ، وأعلن بكل جلاء أن عيســو ابنـــه الأكبر هو صاحب الحق في البكورية . إلا أن عيسو لم يكن يحب التعبد لله ، ولا يميـــل إلـــى الحياة الدينية . والمطاليب التي كانت تلازم البكورية الروحية كانت أمورا لا يرغبـــها ، بـــل كانت رادعا مكروها لديه . وشريعة الله التي كانت من شروطـ عهده الذي عاهد به إبراهيـــم كانت في نظر عيسو نير عبودية . وإذ كان عيسو منغمسا في الملذات لم يكن يرغب في غـــير الحرية ليفعل ما يشاء ، وكان يعتبر القوة والغنى والولائم والعربدة ســـعادة ، وكـــان يفخـــر بالحرية الهمجية الجامحة ، وذكرت رفقة كلام الملاك ، ودرست أخلاق ابنيها بإدراك أعمـــق من إدراك رجلها ، واقتنعت بأن ابنها يعقوب هو الذي سيرث الوعد الســـماوي ، ورددت مـــا قاله لها الملاك على مسمع إسحاق ، ولكنه قد ركز محبته في ابنه الأكبر ، وكان عزمه ثابتـــا لا يتزعزع .

علم يعقوب من أمه نبأ الإشارة الإلهية بأن البكورية ستكون من نصيبه ، فامتلأ قلبه رغبـــة عظيمة لا يمكن التعبير عنها في امتلاك المزايا التي تمنحها البكورية لمن يحصل عليها . لـــم يشته ثروة أبيه ، ولكنه كان يصبو إلى البكورية الروحية ، فدخوله في شركة مع الله كما فعـــل إبراهيم البار ، وتقديمه ذبيحة الكفارة عن عائلته ، وصيرورته أبا للشعب المختـــار ولمســـيا الموعود به ، وإحرازه الميراث الأبدي المتضمن في بركات العهد– تلـــك كـــانت المـــيزات والأمجاد التي ألهبت أشواقه الحارة . كان عقله يفكر دائما في المستقبل ، وكان يرغب فـــي أن يستحوذ على بركاته غير المنظورة .

وبشوق خفي عظيم أصغي إلى كل ما قاله أبوه عن البكورية الروحية ، وبكل حـــرص اختزن في ذهنه ما كان قد تعلمه من أمه ، وشغل هذا الموضوع فكره نهارا وليلا ، حتى صار الاهتمام الوحيد الشاغل لحياته كلها . ولكنه في حين كان يفضل البركات الأبديـــــة على البركات الزمنية إلى هذا الحد ، لم تكن لديه معرفة اختبارية عـــن الله الـــذي كـــان

177,178

يوقره ويكرمه ، ولم يكن قلبه قد تجدد بنعمة الله ، وكان يعتقد أن الوعد الخاص بـــه لـــم يكن ليتم ما بقي عيسو محتفظا بحقوقه في البكورية ، ولذلك كان دائم التفكير في ابتكـــار وسيله يستطيع بواسطتها الحصول على البركة التي كان أخوه يستخف بها ، والتي كـــان هو يعتز بها ويعتبرها ثمينة جدا .

وإذ عاد عيسو يوما من صيده متعبا جدا وفي إعياء شديد ، طلب من يعقوب أن يقدم لـــه من طعامه الذي كان يعده ، فيعقوب الذي كان يسيطر على فكره أمر واحد اغتنـــم الفرصـــة وعرض على عيسو أن يقدم له طعاما يشبع به جوعه في مقابل التنازل له عـــن بكوريتـــه ، فصاح ذلك الصياد الطائش الشهواني قائلاً : «هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ ، فَلِمَاذَا لِي بَكُورِيَّـــةٌ ؟» في مقابل طبق واحد من العدس تخلى عن البكورية وثبَّت الصفقة بقسم ، ومع ذلك فلـــو أنـــه صبر قليلا لوجد طعاما كثيرا في خيام أبيه ، ولكن لكي يشبع شـــهوته الطارئـــة أبـــدل ذلـــك الميراث المجيد الذي وعد الله نفسه به آباءه . كان كل اهتمامه منحصرا في الزمن الحـــاضر ، وكان مستعدا للتضحية بالبركات السماوية في سبيل الأمور الأرضية ، وإبدال الخير الأبـــدي بالتمتعات الوقتية .

«فَاحْتَقَرَ عِيسُو الْبَكُورِيَّةَ» (تكوين ٢٥: ٣٢،٣٤) وفي تنازله عنها أحس بـــالانفراج ، ولـــم يبق أمامه الآن أي مانع ، ويمكنه أن يفعل ما يريد . ففي سبيل هذه اللذة الجامحة التي يســميها الناس ، خطأ ، حرية ما أكثر الذين يبيعون بكوريتهم التي تؤهلهم لميراث نقي لا يتدنس وأبدي في السماء !

وإذ كان عيسو خاضعا دائما للجواذب الأرضية الخارجية تزوج بامرأتين من بنات حـــث ، كانتا تعبدان آلهة كاذبة ، وكانت وثنيتهما مرارة نفس إسحاق ورفقة . لقد نقض عيســـو أحـــد شروط العهد الذي حرم على الشعب المختار التزوج بالوثنيات ، ومع ذلك كان إسحاق عازمـــا على أن يمنحه البكورية ، فكل منطق رفقة معه ، ورغبة يعقوب وشوقه الشديد للحصول على البركة ، وعدم مبالاة عيسو بمطاليب تلك البركة- كل ذلك لم يزحزح إسحاق عن عزمه .

مرت السنون وشاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر ، وكان ينتظر سرعة مجيء المـــوت ، ولذلك عوّل على أن يمنح البركة لابنه الأكبر بلا إبطاء ولكـــن لعلمـــه أن رفقـــة ويعقـــوب يعارضان في ذلك عزم على أن يقوم بتلك الشعائر المقدسة سرا ، ولأن العادة المتبعة هـــي أن

تعد وليمة في مثل تلك المناسبة فأمر ذلك الشيخ ابنه عيسو قائلاً : «اخْرُجْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَتَصَيَّدْ لِي صَيْدًا ، وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً ... حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ» (تكوين ٢٧: ٣،٤) .

فهمت رفقة غرضه ، وكانت واثقة من أن ذلك عكس ما قد أعلنه الله على أنه قصده . كان إسحاق في خطر من تعريض نفسه لغضب الله وعرقلة مساعي ابنه الأصغر دون الوصول إلى المركز الذي دعاه إليه الله ، وكان قد سبق لرفقة أن حاولت عبثا التأثير في تفكير إسحاق ، ولذلك عزمت على أن تلجأ إلى الحيلة .

وما إن خرج عيسو ليلتمس صيده حتى بدأت رفقة في تنفيذ غرضها . أخبرت ابنها يعقوب بما حدث ، وألحت عليه في وجوب العمل السريع لمنع إعطاء البركة لعيسو نهائيا وبلا رجوع ، وأكدت لابنها أنه إذا نفذ تعليماتها فسيظفر بالبركة كما قد وعده الله . لم يوافق يعقوب بسرعة على الخطة التي اقترحتها . إن فكرة خداعه لأبيه سببت له آلاما عظيمة ، وأحس أن مثل تلك الخطية تجلب عليه لعنة لا بركة ، ولكن أمه تغلبت على شكوكه ، فبدأ في تنفيذ ما اقترحته عليه . لم يكن يقصد أن ينطق بكذبة صريحة ، ولكن بعدما دخل إلى حضرة أبيه بدا كأنه قد تجاوز حدود التراجع ، فحصل بالخداع على البركة التي كان يشتهيها .

نجح يعقوب ورفقة في قصدهما ، إلا أنهما لم يحصلا بخداعهما إلا على المتاعب والأحزان . كان الله قد أعلن أن يعقوب هو الذي سيحصل على البكورية ، وكان يمكن أن يتم وعده في الوقت الذي عينه هو لو أنهما انتظرا بإيمان أن يعمل الله لأجلهما ، ولكنهما كانا ككثيرين غيرهما من المدعوين أولاد الله ، غير راغبين في ترك الأمر بين يديه . وقد تابت رفقة وندمت أشد الندم بسبب مشورتها الخاطئة التي أشارت بها على ابنها . لقد كانت تلك المشورة سببا في انفصال ابنها عنها . فلم تر وجهه بعد ذلك . ومنذ ذلك اليوم الذي حصل يعقوب فيه على البكورية استذنب نفسه وعاش مثقلا بالأحزان . لقد أخطأ في حق أبيه وأخيه وفي حق نفسه وفي حق الله ، ففي ساعة واحدة قصيرة عمل عملا ندم عليه طول الحياة . وظل هذا المنظر ماثلا في فكره في السنين التالية ، حين انسحقت نفسه من المسلك الشرير الذي سلكه بنوه .

وما إن ترك يعقوب خيمة أبيه حتى دخل عيسو ، فمع أنه كان قد باع بكوريته وثبت انتقالها إلى يعقوب بقسم مقدس ، فقد كان عازما الآن على أن يستحوذ على بركاتها ، غير

مبال بادعاء أخيه . وكانت البكورية الزمنية مرتبطة بالبكورية الروحية ، وكانت تخوله حق رئاسة العائلة والحصول على نصيب اثنين من ثروة أبيه . تلك كانت البركات التي قدرها عيسو ، حين قال «لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ حَتَّى تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ» .

هنالك استولت الدهشة والغم على ذلك الأب الضرير ، فارتعد ارتعادا عظيما ، وعلم بالمكيدة والحيلة التي جازت عليه . لقد خابت كل آماله العظيمة التي كان قد احتضنها طويلا ، وأحس بحزن عميق لهول الخيبة التي سيصدم بها ابنه الأكبر ، ومع ذلك فقد برق في ذهنه اقتناع بأن عناية الله هي التي هزمت قصده ، وسمحت بوقوع الشيء نفسه الذي حاول هو أن يمنع وقوعه ، عندها ذكر كلام الملاك الذي قاله لرفقة ، وبرغم الخطية التي ارتكبها يعقوب رأى أنه أنسب شخص يتمم أغراض الله ، فإذ كان ينطق بكلمات البركة على يعقوب كان يحس أن إلهاما إلهيا قد حل عليه ، والآن بعدما عرف الأمر على حقيقته أقرَّ البركة التي بارك بها يعقوب دون أن يفطن ، فقال : «بَارَكْتُهُ ؟ نَعَمْ ، وَيَكُونُ مُبَارَكًا» (تكوين ٢٧: ٣٣) .

نظر عيسو إلى البركة بكل استخفاف حين كان يبدو أنها في متناول يده ، أما الآن فهو يرغب في امتلاكها بعد ما أفلتت من يده إلى الأبد ، فثارت ثائرته واهتاجت نفسه واحتدم غيظه ، وكان حزنه وثورة نفسه مرعبين هائلين ، فصرخ صرخة عظيمة مرة قائلاً : «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي ... أَمَا أَبْقَيْتَ لِي بَرَكَةً ؟» ولكن الوعد الذي أعطي لم يعد من الممكن استرجاعه وإبطاله ، فالبكورية التي كان قد قايض عليها في عدم مبالاة لم يمكنه استردادها «لأَجْلِ أَكْلَةٍ وَاحِدَةٍ» نعم لأجل إشباع شهوة وقتية لم تكبح إطلاقا ، باع بكوريته ، ولكنه اكتشف جهالته بعد فوات الأوان ، ولم يستطع الحصول على البركة «لَمْ يَجِدْ لِلتَّوْبَةِ مَكَانًا ، مَعَ أَنَّهُ طَلَبَهَا بِدُمُوعٍ» (عبرانيين ١٢: ١٦،١٧) . إن عيسو لم يحرم من امتياز طلب رضى الله بالتوبة ، ولكنه لم يجد وسيلة لاسترجاع البكورية . إن حزنه لم ينشأ عن اقتناعه بخطيته ، فهو لم يرد أن يتصالح مع الله ، ولكن حزنه كان بسبب عواقب خطيته ، لا على خطيته نفسها .

إن عيسو بسبب عدم اكتراثه للبركات الروحية ومطاليبها سماه الكتاب «مُسْتَبِيحًا» (عبرانيين ١٢: ١٦) وهو يمثل الذين يستخفون بالفداء الذي اشتراه لهم المسيح ، الذين هم مستعدون أن يضحوا بالميراث السماوي في مقابل الأشياء الأرضية الزائلة . إن ألوفا من

الناس يعيشون للعالم الحاضر ، ولا يفكرون أو يهتمون بالأبدية ، بل يصرخون مع عيسو قائلين : «فَلْنَأْكُلْ وَنَشْرَبْ لأَنَّنَا غدًا نَمُوتُ !) (١كورنثوس ١٥: ٣٢) فأميالهم تتحكم فيهم ، وبدلا من ممارسة إنكار النفس ينسون أثمن الاعتبارات . إذا كان لا بد من التخلي عن أحد أمرين– إشباع الشهوات الفاسدة ، أو التمتع بالبركات السماوية الموعود بها فقط لمن ينكرون نفوسهم ويخافون الله ، فإن مطاليب الشهوات تغلب ، ويحتقر الناس الله والسماء احتقارا فعليا . ما أكثر الذين ينغمسون في الشهوات حتى بين المدعوين مسيحيين ، الشهوات الضارة بالصحة والتي تخدر حساسية النفس ! فحين يطلب منهم أن يطهروا نفوسهم من كل دنس الجسد والروح ، مكملين قداستهم في خوف الله فإنهم يغتاظون . يعلمون أنهم لا يستطيعون الإبقاء على تلك المسرات الخاطئة ويمكنهم ، في الوقت نفسه ، دخول السماء ، ولذلك يستنتجون أنه حيث أن الطريق إلى السماء مكرب إلى هذا الحد فلن يسيروا فيه بعد .

إن كثيرين من الناس يبيعون بكوريتهم في مقابل الانغماس في الشهوات ، فيضحون بصحتهم وتضعف قواهم العقلية ويخسروا السماء ، وكل ذلك في مقابل لذات وقتية . هذا الانغماس يضعف النفس ويفسدها . وكما صحا عيسو ليرى جهالته في الإقدام على تلك المبادلة الطائشة ، عندما كان وقت استرداد البكورية قد مضى ، كذلك ستكون الحال في يوم الرب بالنسبة للذين قد أبدلوا ميراثهم السماوي بإشباع شهواتهم وأنانيتهم .

الفصل السابع عشر

هروب يعقوب ومنفاه

إن يعقوب وهو مهدد بالقتل من عيسو الساخط عليه خرج هاربا من بيت أبيه ، ولكنه حمل معه بركة أبيه ، فإن إسحاق كان قد جدد له عهد الموعد ، وأمره ، كوارث لذلك العهد ، بأن يتخذ لنفسه زوجة من عائلة أمه في ما بين النهرين . إلا أن يعقوب خرج في رحلته الموحشة تلك بقلب مرتعد واجف ، فلقد كان عليه أن يسير على قدميه مئات الأميال ، مخترقا بلادا يسكنها أقوام متوحشون رحل ، وليس بيده غير عصاه . ففي خوفه وحزنه ووجله أراد أن يتجنب الناس لئلا يتأثر خطواتِه إخوه الساخط عليه . وخشي أن يكون قد خسر ، إلى الأبد ، البركة التي قصد الله أن يمنحه إياها ، وكان الشيطان قريبا منه يهاجمه بتجاربه .

لما أقبل مساء اليوم الثاني كان قد ابتعد كثيرا عن خيام أبيه ، وأحس كأنه طريد ، وعرف أن هذا الضيق الذي كان يقاسيه إنما سببه الطريق الخاطئ الذي سلكه ، فضغطت ظلمة اليأس نفسه ، وبالجهد اجترأ على الصلاة . ولكنه كان وحيدا تماما ، فأحس ، كما لم يحس من قبل ، بحاجته إلى حماية الله ، فاعترف بخطيته بانسحاق شديد وبكاء ، وتوسل إلى الله في طلب دليل يبرهن على أنه لم يترك كلية ، ولكن قلبه المثقل لم يجد راحة ، إذ قد أضاع كل ثقة في نفسه ، وكان يخشى لئلا يكون إله آبائه قد رفضه .

غير أن الله لم يهجره ، بل بسط رحمة لذلك العبد المخطئ المتخوف ، فالرب في شفقته أعلن ليعقوب ما كان يحتاجه تماما- أي مخلصا . كان قد أخطأ ، إلا أن قلبه امتلأ شكرا حين أبصر أمامه طريقا مفتوحا ، بواسطته يستطيع أن يستعيد رضى الله .

وإذ كان ذلك الضال قد تعب من السفر اضطجع على الأرض وتوسد حجرا ، ففيما كان نائما أبصر سلما لامعة ومنيرة ارتكزت على الأرض ورأسها يمس السماء ، ورأى على هذه السلم الملائكة يصعدون وينزلون ، ورأى في أعلاها رب المجد ، ومن السماء سمع صوته

قائلاً له : «أَنَا الرَّبُّ إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ» ووعـــده الـــرب أن الأرض التـــي كـــان مضطجعا عليها كطريد هارب سيعطيها له ولنسله ، وأكد له قائلاً : «يَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْـلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ» كان هذا الوعد قد أعطى لإبراهيم وإسحاق ، والآن هوذا الرب يجـــدده ليعقوب ، وإذ رأى الرب وحدته الحاضرة وضيقة نفسه وحزنه كلمه بكلام التشجيع والعـــزاء قائلاً : «وَهَا أَنَا مَعَكَ ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ ، لأَنِّي لاَ أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ» (تكوين ٢٨: ١٣-١٥) .

عرف الرب المؤثرات الشريرة التي ستحيط بيعقوب والمخاطر التي سيتعرض لها ، ففـــي رحمته كشف المستقبل أمام عيني ذلك الهارب التائب ليعرف قصد الله له ، ويستعد لمقاومـــة التجارب التي لا بد من أن تهاجمه حين يكون وحيدا بين عبدة الأوثـــان ومدبـــري المكـــائد ، وهناك سيكون أمامه المثل الأعلى الذي ينبغي له أن يهدف إليه ، وأن معرفته بأنه عن طريقـه يسير غرض الله في طريق الإتمام ستحفزه على الأمانة .

في هذه الرؤيا بُسط تدبير الفداء أمام يعقوب ، لا في كل ملئه ، وإنما في بعـــض أجزائـــه على قدر ما كان لازما وجوهريا له في ذلك الحين ، فتلك السلم الرمزية التي ظهرت أمامـــه في حلمه كانت هي نفسها التي أشار إليها المسيح في كلامه مع نثنائيل حين قـــال : «تَـرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً ، وَمَلاَئِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ» (يوحنـــا ١: ٥١) . قبلمـــا تمرد الإنسان على سلطان الله وحكمه كانت هنالك شركة مباحة بين الله والإنســـان ، ولكـــن خطية آدم وحواء فصلت الأرض عن السماء ، حتى لم يعد الإنسان قادرا على أن يكون فـــي شركة مع جابله ، ومع ذلك لم يترك العالم في عزلة ويأس فالسلم ترمز إلى يســـوع وسـيط الاتصال المعين من الله ، فلو لم يصنع بنفسه وباستحقاقاته معبرا فوق الـــهوة التـــي خلقتـــها الخطية لما أمكن الملائكة الخدام أن يتصلوا بالإنسان الضال ، إن المسيح يربط بين الإنســـان في ضعفه وعجزه وبين مصدر القوة غير المحدودة .

كل هذا أعلن ليعقوب في حلمه ، ومع أنه فهم جزءا من ذلك الإعلان لأول وهلة فـــإن حقائقه العظيمة العجيبة كانت موضوع دراسته مدى الحياة ، وقد كشفت لمداركه شيئا فشيئا .

استيقظ يعقوب من نومه في سكون الليل العميق ، وكانت الصورة المنيرة التي رآهـــا قـــد اختفت ، ولم ير غير منظر قاتم للتلال الموحشة ، ورأى السماء من فوقها تزينـــها النجـــوم ،

غير أنه كان يشعر شعورا مقدسا بأن الله معه ، وأن شخصا غير منظور قد بدد وحشة نفسه فقال : «حَقًّا إِنَّ الرَّبَّ فِي هذَا الْمَكَانِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ !... مَا هذَا إِلاَّ بَيْتُ اللهِ ، وَهذَا بَابُ السَّمَاءِ» (تكوين ٢٨: ١٦-٢٢) .

«وَبَكَّرَ يَعْقُوبُ فِي الصَّبَاحِ وَأَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي وَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ وَأَقَامَهُ عَمُودًا ، وَصَبَّ زَيْتًا عَلَى رَأْسِهِ» فحسب العادة المتبعة في تخليد الحوادث الهامة نصب يعقوب عمودا يذكره بمراحم الرب حتى كلما اتجه في تلك الطريق يلبث بعض الوقت في هذه البقعة المقدسة ليقدم عبادته للرب ، ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل أي «بيت الله» وبشكر عميق كرر الوعد القائل بأن الله سيكون معه ، وحينئذ نذر هذا النذر المهيب قائلاً : «إِنْ كَانَ اللهُ مَعِي ، وَحَفِظَنِي فِي هذَا الطَّرِيقِ الَّذِي أَنَا سَائِرٌ فِيهِ ، وَأَعْطَانِي خُبْزًا لآكُلَ وَثِيَابًا لأَلْبَسَ ، وَرَجَعْتُ بِسَلاَمٍ إِلَى بَيْتِ أَبِي ، يَكُونُ الرَّبُّ لِي إِلهًا ، وَهذَا الْحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُودًا يَكُونُ بَيْتَ اللهِ ، وَكُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ» .

لم يكن يعقوب هنا يسعى في عقد شروط مع الله ، لقد سبق الرب فوعده بالنجاح ، وكان هذا النذر هو فيضان قلبه الذي امتلأ شكرا لله الذي وعده بالحب والرحمة ، لقد أحس أن لله عليه حقوقا ، ومن واجبه أن يعترف بها ، وأن العلامات الخاصة لرضى الله الذي قد منحه إياه تتطلب شيئا في مقابلها . هكذا كل بركة يمنحنا إياها الله تتطلب استجابة منا لذلك الذي يمنحنا كل المراحم ، فعلى المسيحي أن يراجع حياته الماضية كثيرا ، ويستعيد بالشكر المرار التي فيها منحه الرب نجاة ثمينة ، وسنده في تجاربه وفتح أمامه طريقا حين بدا كل شيء مظلما وداعيا للتوجس والتشاؤم ، وأنعشه حين كان موشكا أن يظلع أو ينهار ، عليه أن يعتبر هذه كلها دلائل على سهر الملائكة عليه ورعايتهم له وبالنظر إلى كل هذه البركات التي لا تحصى عليه أن يسأل كثيرا بقلب خاشع شكور : «مَاذَا أَرُدُّ لِلرَّبِّ مِنْ أَجْلِ كُلِّ حَسَنَاتِهِ لِي ؟» (مزمور ١١٦: ١٢) .

ينبغي لنا أن نكرس أوقاتنا ومواهبنا وأموالنا لذاك الذي قد ائتمننا عليها ، وكلما صنع الرب لنا نجاة خاصة أو منحنا هبات جديدة لم نكن ننتظرها فعلينا أن نعترف بصلاح الله ليس فقط

بالتعبير عن شكرنا بالكلام بل أيضا بتقديم هباتنا وتقدماتنا لأجل عمله كما قد فعـل يعقـوب ، وحيث أننا نتلقى بركات الله باستمرار علينا أن نعطي باستمرار .

قال يعقوب : «كُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ» (تكوين ٢٨: ٢٢) فهل نحن الذين نتمتـع بنور الإنجيل وامتيازاته كاملة نعطي الله أقل مما أعطاه له أولئك الذين عاشوا في العهد القديـم الأقل في امتيازاته ؟ كلا ، أفلا يجب علينا نحن الذين نتمتع ببركات أعظم أن تكون واجباتنـا أعظم تبعا لذلك ؟ ولكن ما أقل تقديرنا ، وما أكثر محاولاتنا العديمة الجدوى في جعل أوقاتنـا وأموالنا ومحبتنا خاضعة للقواعد الحسابية ، بالنسبة إلى تلك المحبة التي لا يمكن قياسها وتلـك العطية التي لا يمكن تقديرها أو التعبير عنها . العشور للمسيح ! آه ، يا لها من قيمة تافهة بـل يا له من تعويض مهين لذاك الذي قدم ذلك الثمن الغالي ! إن المسيح من فوق صليب جلجثـة يطلب منا تقديسا بلا تحفظ ، فكل ما نملك وكل ما نحن عليه ينبغي تكريسه لله .

أما يعقوب فإنه بإيمان ثابت جديد بمواعيد الله ، وهو واثق من حضور ملائكة السـماء وحراستهم له تقدم في سيره إلى «أَرْضِ بَنِي الْمَشْرِقِ» (تكوين ٢٩: ١) ولكن كـم كـان الفرق عظيما بين وصوله هو إلى هناك ووصول رسول إبراهيم إلى نفس المدينة قبل ذلك بنحو مئة سنة ! إن ذلك العبد أتى إلى هناك على رأس حاشية من الأتباع راكبين الإبـل ، وكانت معه هدايا من فضة وذهب ، أما هذا الابن فكان مسافرا وحيدا ، ومتعبا من السير على قدميه ، ولم يكن يملك شيئا غير عصاه . جلس يعقوب عند البئر كمـا فعـل عبـد إبراهيم ، وفي هذا المكان التقى يعقوب راحيل ابنة لابان الصغرى ، وكان يعقـوب الآن هو الذي قدم خدمة ، إذ رفع الحجر عن البئر وسقى القطعان ، وإذ عرّفهم بقرابته لـهم رحبوا به في بيت لابان ، ومع أنه أتى وليست بيده هدية ولا بائنة ، ولا تسير في ركابـه حاشية ، فإن الأسابيع القليلة التي قضاها بينهم كشفت لهم عن مدى اجتهاده ومهارتـه ، فألحوا عليه في البقاء معهم ، واتفقوا معه على أن يخدم لابان سبع سنين على أن يـزوج براحيل .

في العصور القديمة كان العرف يقضى بأن العريس ، قبل المصادقة على الارتبـاط بالزواج ، يدفع لوالد العروس مبلغا من المال أو ما يعادله من الأملاك الأخرى بقدر مـا تسمح به ظروفه . وكان هذا يعتبر صيانة للعلائق الزوجية . وكان الآباء يظنون أنـه لا

يمكنهم أن يستأمنوا على سلامة بناتهم رجالا لا يمكنهم أن يعيلوا أسرة . فإذا لم يكن عندهم من حسن التدبير والنشاط ما يؤهلهم لإدارة عمل وامتلاك مواشٍ وأملاك ، كان يخشى من أن يجعل ذلك حياتهم بلا قيمة تذكر ، ولكنهم كانوا يعملون تدبيرا آخر لاختبار الذين لا يملكون ما يقدمونه مهرا لزوجة ، فكان يسمح لهم بأن يشتغلوا في خدمة الأب الذي أحبوا ابنته ، وكانت المدة تقرر على قدر قيمة المهر المطلوب ، فمتى كان طالب الزواج أمينا في خدمته ، وبرهن في أشياء أخرى على أنه مستحق ، كانت الابنة تعطى له زوجة ، وعادة كان المهر الذي يأخذه الأب يعطى لابنته عند زواجها ، ومع ذلك ففيما يختص براحيل وليئة احتفظ لابان ، مدفوعا بروح الأنانية ، بالمهر الذي كان ينبغي أن يعطيه لهما ، وقد أشارتا إلى ذلك حين قالتا قبيل الرحيل عن تلك البلاد : «بَاعَنَا وَقَدْ أَكَلَ أَيْضًا ثَمَنَنَا» (تكوين ٣١: ١٥) .

كانت لتلك العادة القديمة ، مع أنه قد أسيء استعمالها أحيانا كما فعل لابان ، نتائج طيبة ، فحين كان يطلب من طالب الزواج أن يقدم بعض الخدمات حتى يكون له الحق في الزواج بعروسه لم يكن الزواج يتم بعجلة ، وتكون هناك فرصة لاختبار عمق عواطفه ومقدرته على إعالة أسرة . وفي أيامنا هذه تنجم شرور كثيرة نتيجة لمخالفة هذه المادة . في غالب الأحيان لا تكون لدى الشباب أو الشابة فرصة للتعرف بعادات وطباع أحدهما الآخر قبل الزواج ، وبالنسبة إلى حياتهما اليومية يكونان بالفعل غريبين حين تتحد مصالحهما معا عند الزواج ، فيجد الكثيرون ، بعد فوات الفرصة ، أنهم غير متوافقين الواحد مع الآخر ، وتكون نتائج ذلك الزواج تعاسة متصلة مدى الحياة ، وفي غالب الأحيان تقاسي الزوجة والأولاد من كسل الزوج والأب وتراخيه وعجزه وعدم مقدرته وعاداته الفاسدة ، ولكن لو اختبرت أخلاق طالب الزواج قبل زواجه تبعا لعادة الأقدمين لوفر ذلك على الناس قدرا كبيرا من ألوان التعاسة والشقاء .

إن سبع سنين من الخدمة الأمينة أعطت ليعقوب الحق في الزواج براحيل ، وتلك السنوات التي خدم فيها «كَانَتْ فِي عَيْنَيْهِ كَأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ بِسَبَبِ مَحَبَّتِهِ لَهَا» (تكوين ٢٩: ٢٠) إلا أن لابان الرجل الأناني الطماع ، إذ أراد أن يستبقي في خدمته يعقوب ، ذلك المعين النافع ، عمد إلى خداع مرير في إبدال راحيل بليئة . ولأن ليئة نفسها كانت من ضمن المتآمرين على خداع يعقوب أصبح هو عاجزا عن أن يحبها . أما لابان فقد قابل سخطه

وتوبيخه إياه بأن قدم له راحيل ثانية في مقابل خدمته له سبع سنين أخرى . ولكن الأب رفض أن تطلق ليئة ، لأن ذلك يجلب العار على العائلة . وهكذا صار يعقوب في مأزق مؤلم حرج ، وأخيرا عزم على استبقاء ليئة والزواج براحيل ، ولكن حبه لراحيل كان هو الأعظم طوال حياته . على أن إيثاره إياها أشعل نار الحسد والغيرة ، فتمررت حياته بسبب التنافس الذي أثارته الزوجتان الأختان .

بقي يعقوب في خدمة لابان في ما بين النهرين عشرين سنة ، في خدمة ذلك الرجل الذي كان يستخف بروابط القرابة ، وكان منصبا على إحراز كل المنافع لنفسه واستغلال تلك القرابة لفائدته الخاصة ، فلقد طلب من يعقوب أن يقوم بخدمته أربع عشرة سنة في مقابل ابنتيه ، وفي المدة الباقية غيّر لابان أجرة يعقوب عشر مرات ، ومع ذلك فقد ظل يعقوب مُجدًا وأمينا في خدمته ، فكلامه الذي وجهه إلى خاله في لقائهما الأخير يصف ، بكل جلاء ، كيف كان يعقوب يسهر بلا كلال على مصالح سيده المغتصب . قال : «اَلآنَ عِشْرِينَ سَنَةً أَنَا مَعَكَ . نِعَاجُكَ وَعِنَازُكَ لَمْ تُسْقِطْ ، وَكِبَاشَ غَنَمِكَ لَمْ آكُلْ . فَرِيسَةً لَمْ أُحْضِرْ إِلَيْكَ . أَنَا كُنْتُ أَخْسَرُهَا . مِنْ يَدِي كُنْتَ تَطْلُبُهَا . مَسْرُوقَةَ النَّهَارِ أَوْ مَسْرُوقَةَ اللَّيْلِ . كُنْتُ فِي النَّهَارِ يَأْكُلُنِي الْحَرُّ وَفِي اللَّيْلِ الْجَلِيدُ ، وَطَارَ نَوْمِي مِنْ عَيْنَيَّ» (تكوين ٣١: ٣٨-٤٠) .

كان لزاما على الراعي أن يحرس قطعانه نهارا وليلا ، إذ كانت في خطر من اللصوص وكذلك من الوحوش التي كانت كثيرة وجريئة ، وكثيرا ما كانت تفترس الأغنام التي يهمل أصحابها حراستها . وفي أمر العناية بقطعان لابان الكثيرة كان ليعقوب معاونون كثيرون ، ولكنه هو نفسه كان مسؤولا عنها شخصيا . وفي بعض أشهر السنة كان مضطرا أن يلازم القطعان بنفسه ليحرسها في فصل الجفاف من الموت عطشا ، وفي الشهور الشديدة البرودة ليقيها من الموت بالصقيع الذي كان يسقط ليلا . كان يعقوب رئيس الرعاة وكان تحت إمرته رعاة مساعدون ، وإذا ضاعت شاة كان رئيس الرعاة يتحمل الخسارة ، وكان يحاسب الخدام المسؤولين الذين أسند إليهم أمر الاهتمام بالقطيع حسابا دقيقا عسيرا ، إذا لم توجد الشاة في حالة حسنة .

كانت حياة الراعي حياة جد وحرص واهتمام ، وقد استخدم كتبة الكتاب المقدس شفقة الراعي على تلك الخلائق في شرح بعض حقائق الإنجيل الثمينة . والمسيح في علاقته

لشعبه مشبه بالراعي ، وبعد السقوط رأى غنمه محكوما عليها بالهلاك في شعاب الخطيئة المظلمة ، فلكي يخلص هذه الخراف الضالة ترك الكرامات والأمجاد في بيت أبيه ، قائلاً : «أَطْلُبُ الضَّالَّ ، وَأَسْتَرِدُّ الْمَطْرُودَ ، وَأَجْبِرُ الْكَسِيرَ ، وَأَعْصِبُ الْجَرِيحَ ... فَأُخَلِّصُ غَنَمِي فَلاَ تَكُونُ مِنْ بَعْدُ غَنِيمَةً ... وَلاَ يَأْكُلُهُمْ وَحْشُ الأَرْضِ» (حزقيال ٣٤: ١٦ ٢٢،٢٨) إن صوته يسمع وهو يدعوهم إلى الحظيرة قائلاً لهم : «مِظَلَّةٌ لِلْفَيْءِ نَهَارًا مِنَ الْحَرِّ ، وَلِمَلْجَأٍ وَلِمَخْبَأٍ مِنَ السَّيْلِ وَمِنَ الْمَطَرِ» (إشعياء ٤: ٦) إنه لا يكل من رعايته لقطيعه ، فهو يقوي الضعيف ويخفف آلام المتألم . وبذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها . إن خرافه تحبه ، «أَمَّا الْغَرِيبُ فَلاَ تَتْبَعُهُ بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُ ، لأَنَّهَا لاَ تَعْرِفُ صَوْتَ الْغُرَبَاءِ» (يوحنا ١٠: ٥،١١-١٤) .

يقول المسيح : «الرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ . وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ ، وَلَيْسَ رَاعِيًا ، الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ ، فَيَرَى الذِّئْبَ مُقْبِلاً وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ ، فَيَخْطَفُ الذِّئْبُ الْخِرَافَ وَيُبَدِّدُهَا . وَالأَجِيرُ يَهْرُبُ لأَنَّهُ أَجِيرٌ ، وَلاَ يُبَالِي بِالْخِرَافِ . أَمَّا أَنَا فَإِنِّي الرَّاعِي الصَّالِحُ ، وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي» .

والمسيح ، رئيس الرعاة ، عهد إلى خدامه الذين هم الرعاة الصغار أمر رعاية القطيع ، وهو يأمرهم بالاهتمام بخرافه كما اهتم هو بها ، وبأن يحسوا بالمسؤولية المقدسة نحو تلك العهدة التي ائتمنهم عليها ، وقد أصدر إليهم أمره المهيب أن يكونوا أمناء ، وأن يرعوا قطيعه ويقودوا الضعيف وينعشوا الخائر ويحرسوهم ويدرأوا عنهم شر الذئاب المفترسة .

لقد وضع المسيح حياته ليخلص خرافه ، وهو يوجه أنظار الرعاة إلى هذه المحبة التي أظهرت هكذا كمثال لهم : «أَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ ، وَلَيْسَ رَاعِيًا ، الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ» فهو لا يهتم بالقطيع اهتماما حقيقيا ، ولكن اهتمامه منصرف إلى الربح ، فهو يهتم بنفسه فقط ، يفكر في منفعته الشخصية بدل الاهتمام والتفكير في الأمانة التي بين يديه ، وفي وقت التهلكة أو الخطر يهرب تاركا القطيع .

إن بطرس الرسول يوصي الرعاة شركاءه قائلاً : «ارْعَوْا رَعِيَّةَ اللهِ الَّتِي بَيْنَكُمْ نُظَّارًا ، لاَ عَنِ اضْطِرَارٍ بَلْ بِالاخْتِيَارِ ، وَلاَ لِرِبْحٍ قَبِيحٍ بَلْ بِنَشَاطٍ ، وَلاَ كَمَنْ يَسُودُ عَلَى الأَنْصِبَةِ ، بَلْ صَائِرِينَ أَمْثِلَةً لِلرَّعِيَّةِ» (١بطرس ٥: ٢،٣) وبولس الرسول يقول : «اِحْتَرِزُوا اِذًا

لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً ، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ . لأَنِّي أَعْلَمُ هذَا : أَنَّهُ بَعْدَ ذِهَابِي سَيَدْخُلُ بَيْنَكُمْ ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ لاَ تُشْفِقُ عَلَى الرَّعِيَّةِ» (أعمال ٢٠: ٢٨،٢٩) .

والذين يعتبرون أمر الرعاية والأحمال التي هي من نصيب الراعي الأمين على أنها عمل غير مقبول يقول لهم الرسول موبخا : «لاَ عَنِ اضْطِرَارٍ بَلْ بِالاخْتِيَارِ ، وَلاَ لِرِبْحٍ قَبِيحٍ بَلْ بِنَشَاطٍ» إن كل العبيد غير الأمناء كهؤلاء سيعفيهم الراعي الأعظم من خدمته بكل سرور . لقد اقتنى المسيح الكنيسة بدمه ، وعلى كل راع أن يدرك أن الرعية التي يرعاها قد قدمت عنها ذبيحة عظيمة ، وعليه أن يعتبر أن كل واحد من رعيته لا يمكن تقديره بثمن ، وعليه ألا يكل في بذل أقصى جهوده لحفظ الرعية كلها في حالة صحية زاهرة . إن الخادم الممتلئ بروح المسيح لابد من أن يقتفي آثاره في إنكاره لذاته ، ويدأب في عمله فيما يؤول إلى خير العهدة التي بين يديه ، وسينجح القطيع تحت رعايته .

ولا بد من أن يدعى الجميع ليعطوا حسابا دقيقا عن خدمتهم ، ولا بد من أن يسأل السيد كل راع هذا السؤال : «أَيْنَ الْقَطِيعُ الَّذِي أُعْطِيَ لَكِ ، غَنَمُ مَجْدِكِ ؟» (إرميا ١٣: ٢٠) فمن وجد أمينا سينال أجرا عظيما . يقول الرسول . «وَمَتَى ظَهَرَ رَئِيسُ الرُّعَاةِ تَنَالُونَ إِكْلِيلَ الْمَجْدِ الَّذِي لاَ يَبْلَى» (١بطرس ٥: ٤) .

بعد أن تعب يعقوب من خدمة لابان فكر في العودة إلى كنعان فقال لحميه : «اصْرِفْنِي لأَذْهَبَ إِلَى مَكَانِي وَإِلَى أَرْضِي . أَعْطِنِي نِسَائِي وَأَوْلاَدِي الَّذِينَ خَدَمْتُكَ بِهِمْ فَأَذْهَبَ ، لأَنَّكَ أَنْتَ تَعْلَمُ خِدْمَتِي الَّتِي خَدَمْتُكَ» ولكن لابان ألح عليه في البقاء قائلاً : «قَدْ تَفَاءَلْتُ فَبَارَكَنِي الرَّبُّ بِسَبَبِكَ» (تكوين ٣٠: ٢٥-٢٧،٣٠،٤٣) لقد رأى أن ثروته قد اتسعت بفضل رعاية صهره واهتمامه .

فقال يعقوب : «مَا كَانَ لَكَ قَبْلِي قَلِيلٌ فَقَدِ اتَّسَعَ إِلَى كَثِيرٍ» ولكن بمرور الزمن صار لابان يحسد يعقوب الذي أصاب نجاحا أعظم منه ، فصارت مواشيه وقطعانه أكثر مما عند لابان ، والكتاب يقول عنه : «فَاتَّسَعَ الرَّجُلُ كَثِيرًا جِدًّا ، وَكَانَ لَهُ غَنَمٌ كَثِيرٌ وَجَوَارٍ وَعَبِيدٌ وَجِمَالٌ وَحَمِيرٌ» وقد تشبه أولاد لابان بأبيهم فحسدوا يعقوب الذي وصل إلى سمعه خبر كلامهم الخبيث إذ قالوا : «أَخَذَ يَعْقُوبُ كُلَّ مَا كَانَ لأَبِينَا ، وَمِمَّا لأَبِينَا صَنَعَ كُلَّ هذَا الْمَجْدِ . وَنَظَرَ يَعْقُوبُ وَجْهَ لاَبَانَ وَإِذَا هُوَ لَيْسَ مَعَهُ كَأَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسِ» (انظر تكوين ٣١) .

لقد كان يعقوب يرغب في الرحيل عن قريبه الماكر هذا منذ وقت طويل لولا خوفه من ملاقاة عيسو ، والآن هو يحس أن الخطر سيأتيه من ناحية أولاد لابان الذين إذ كانوا ينظرون إلى ثروته على أنها ملك لهم فربما فكروا في اغتصابها منه ، كان في ارتباك وكرب عظيمين ولم يكن يعلم إلى أين يتجه ، ولكنه إذ ذكر وعد الله الرحيم الذي قدمه له الرب في بيت إيل وضع قضيته أمام الرب وطلب منه الإرشاد ، ففي حلم في الليل أجيبت صلاته ، إذ قال له الرب : «ارْجعْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكَ وَإِلَى عَشِيرَتِكَ ، فَأَكُونَ مَعَكَ» .

وقد واتته الفرصة للرحيل في غياب لابان ، فجمع القطعان والمواشي بسرعة ، وساروا بها إلى أرض كنعان ، فسار يعقوب ومعه زوجاته وأولاده وعبيده وعبروا نهر الفرات وأسرعوا في سيرهم نحو جلعاد على حدود كنعان . وبعد ثلاثة أيام علم لابان بهروبهم ، فأسرع ليلحق بهم ، فأدركهم في اليوم السابع بعد رحيلهم . كان في أشد حالات الغضب ، وقد عزم على إرغامهم على العودة ، ولم يكن يشك في قدرته على ذلك ، لأن رجاله كانوا أقوى بكثير من يعقوب وجماعته ، فكان أولئك الهاربون في خطر عظيم .

أما عدم تنفيذه غرضه العدائي فذلك لأن الله نفسه تدخل في إنقاذ عبده يعقوب وحمايته ، قال لابان : «فِي قُدْرَةِ يَدِي أَنْ أَصْنَعَ بِكُمْ شَرًّا ، وَلكِنْ إِلهُ أَبِيكُمْ كَلَّمَنِيَ الْبَارِحَةَ قَائِلاً : احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تُكَلِّمَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرّ» ومعنى ذلك أنه لن يرغمهم على العودة معه ، ولن يلح عليهم في ذلك بالتملق أو الإغراء .

إن لابان كان قد احتفظ لنفسه بمهر ابنتيه ، وكان دائما يعامل يعقوب بكل دهاء وفظاظة ، أما الآن فهو يعمد إلى الرياء الذي تميز به ، فوبخ يعقوب لأنه هرب خفية ، الأمر الذي لم يترك له فرصة لأن يولم لهم وليمة الوداع أو حتى ليودع ابنتيه وأولادهما .

وكان يعقوب مريحا في جوابه له إذ بسط له سياسته التي تجلت فيها الأنانية والطمع ، فاستشهد به ليعترف بأمانة صهره واستقامته فقال : «لَوْلاَ أَنَّ إِلهَ أَبِي إِلهَ إِبْرَاهِيمَ وَهَيْبَةَ إِسْحَاقَ كَانَ مَعِي ، لَكُنْتَ الآنَ قَدْ صَرَفْتَنِي فَارِغًا . مَشَقَّتِي وَتَعَبَ يَدَيَّ قَدْ نَظَرَ اللهُ ، فَوَبَّخَكَ الْبَارِحَةَ» .

ولم يستطع لابان أن ينكر تلك الحقائق التي كشفت ، وها هو الآن يقترح أن يعقد مع يعقوب معاهدة سلام ، فقبل يعقوب الاقتراح ، وأقاموا رجمة حجارة علامة لذلك العهد ، وقد

193,194

دعا لابان اسم ذلك العمود «الْمِصْفَاةَ» أي «برج الرقابة» قائلاً : «لِيُرَاقِبِ الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حِينَمَا نَتَوَارَى بَعْضُنَا عَنْ بَعْضٍ» .

«وَقَالَ لاَبَانُ لِيَعْقُوبَ : «هُوَذَا هذه الرُّجْمَةُ ، وَهُوَذَا الْعَمُودُ الَّذِي وَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ . شَاهِدَةٌ هذه الرُّجْمَةُ وَشَاهِدٌ الْعَمُودُ أَنِّي لاَ أَتَجَاوَزُ هذه الرُّجْمَةَ إِلَيْكَ ، وَأَنَّكَ لاَ تَتَجَاوَزُ هذه الرُّجْمَةَ وَهذا الْعَمُودَ إِلَيَّ لِلشَّرِّ . إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَآلِهَةُ نَاحُورَ ، آلِهَةُ أَبِيهِمَا ، يَقْضُونَ بَيْنَنَا». وَحَلَفَ يَعْقُوبُ بِهَيْبَةِ أَبِيهِ إِسْحَاقَ» . ولتثبيت العهد أولموا وليمة ، وقد قضوا الليلة في أحاديث حبية ومسامرات ودية ، وفي فجر اليوم التالي رحل لابان وجماعته ، وبهذا الانفصال انتهى كل أثر للعلاقة بين أولاد إبراهيم والساكنين في عبر النهر .

الفصل الثامن عشر

ليلة الصراع

مع أن يعقوب كان قد ترك فدان آرام إطاعة لأمر الله فقد سار في الطريق الذي كان قد سلكه منذ عشرين عاما ، والشكوك والمخاوف تساوره من كل جانب . إن خطيته التي ارتكبها بخداعه لأبيه كانت ماثلة أمام عينيه على الدوام ، وأدرك أن اغترابه الطويل كان هو النتيجة المباشرة لتلك الخطية ، فجعل يفكر في هذه الأمور نهارا وليلا ، حتى أن تبكيت ضميره المشتكي جعل سفرته كاسفة وحزينة . وعندما ظهرت أمامه تلال وطنه من بعد تأثر قلب ذلك القديس الشيخ تأثرا عميقا ، وظهر أمامه الماضي واضحا ، وصحب ذكرى خطيته تفكيره في فضل الرب عليه ووعوده إياه بالمعونة والإرشاد .

وإذ قاربت رحلته من نهايتها أثار تفكيره في عيسو كثيرا من التوجس المضطرب في نفسه ، فبعد هروب يعقوب اعتبر عيسو نفسه الوارث الوحيد لأملاك أبيه ، ولهذا فإن أخبار عودة يعقوب أثارت في نفسه الخوف من أنه آتٍ ليأخذ نصيبه من الميراث ، وفي تلك الآونة كان عيسو قادرا أن يوقع بيعقوب أضرارا جسيمة لو أراد ، وكان يمكنه أن يعمد إلى العنف ، وهو في ذلك لن يكون مدفوعا فقط بدافع الثأر لنفسه ، بل أيضا لكي يستحوذ ، وهو مطمئن ، على الثروة التي ظل يعتبرها أمدا طويلا ملكه الخاص .

ومرة أخرى أعطى الرب يعقوب دليلا على رعايته الإلهية ، فإذ كان يتجه نحو الجنوب في سفره من جبل جلعاد بدا كأن جيشين من ملائكة السماء يعسكران حوله من خلف ومن قدام ويسيران مع تلك الجماعة التي كان هو على رأسها للحماية والحراسة ، وذكر يعقوب الرؤيا التي كان قد رآها في بيت إيل منذ سنين طويلة فزايلته بعض الهموم التي أثقلت قلبه حين ظهر أمامه ذلك البرهان وهو أن الملائكة السماويين الذين أتوه

بالرجاء والشجاعة عند هروبه من كنعان سيكونون حراسا له في عودته ، فقال : «هــذَا جَيْشُ اللهِ ! . فَدَعَا اسْمَ ذلِكَ الْمَكَانِ «مَحَنَايِمَ»» (انظر تكوين ٣٢).

ومع ذلك فقد أحس يعقوب بأن عليه أن يفعل شـيئا لكـي يحصـل علـى السـلامة والطمأنينة ، ولذلك أرسل رسلا بتحية سلمية إلى أخيه ، وعلمهم الكلمات التي كان عليهم أن يخاطبوا بها عيسو بلا زيادة ولا نقصان . لقد قال الرب قبـل ولادتـهما أن الكبـير سيخدم الصغير ، فحتى لا تكون ذكرى هذه النبوة سببا في المرارة علّم يعقوب عبيـده أن يقولوا إنهم مرسلون إلى «سَيِّدِي عِيسُوَ» حين يمثلون أمامه ، وحين يشيرون إلى سـيدهم يجب أن يقولوا أنهم آتون من قبل «عَبْدُكَ يَعْقُوبُ» وأن يحاولوا أن يـنزعوا مـن قلبـه الخوف من أن يعقوب عائد كجوال معدم ليطلب نصيبه من ميراث أبيه ، وقد حرص على أن يقول في رسالته : «وَقَدْ صَارَ لِي بَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَغَنَمٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ . وَأَرْسَـلْتُ لأُخْـبِرَ سَيِّدِي لِكَيْ أَجِدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ» .

غير أن الرسل رجعوا إلى يعقوب قائلين إن عيسو قادم إليك وأربع مئة رجل معـه ، ولم يتلق يعقوب ردا على رسالة المحبة التي بعث بها إليه ، فتأكد لديه أن عيسـو قـادم ليثأر منه ، فامتلأت المحلة رعبا ، «فَخَافَ يَعْقُوبُ جِدًّا وَضَاقَ بِهِ الأَمْرُ» إنه لم يكن فـي استطاعته المودة ، كما أنه كان خائفا من التقدم في سيره ، ورجاله العزل الذين لم تكـن لديهم وسيلة للدفاع لم يكونوا مستعدين لمواجهة هجوم معاد ، ولذلك قسمهم يعقوب إلـى جيشين ، حتى إذا جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه تكون لدى الجيش الباقى فرصـة للهروب ، ثم أرسل من قطعانه الكثيرة هدايا سخية إلى عيسو مصحوبة برسالة ود ، لقـد بذل أقصى جهده للتكفير عن ظلمه لأخيه ، وليبعد الخطر الذي كان يتهددهم ، وفي تذلـل وتوبة صلى طالبا حماية السماء قائلاً : وأنت قلت لي : «ارْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ وَإِلَى عَشِيرَتِكَ فَأُحْسِنَ إِلَيْكَ . صَغِيرٌ أَنَا عَنْ جَمِيعِ أَلْطَافِكَ وَجَمِيعِ الأَمَانَةِ الَّتِي صَنَعْتَ إِلَى عَبْدِكَ . فَـإِنِّي بِعَصَايَ عَبَرْتُ هذَا الأُرْدُنَّ ، وَالآنَ قَدْ صِرْتُ جَيْشَيْنِ . نَجِّنِي مِنْ يَدِ أَخِـي ، مِـنْ يَـدِ عِيسُوَ ، لأَنِّي خَائِفٌ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ وَيَضْرِبَنِي الأُمَّ مَعَ الْبَنِينَ» .

كانوا قد وصلوا إلى نهر يبوق وإذ أقبل الليل عبر يعقوب عائلته مخاضة النهر ، أما هـو

فتخلف وحده ، إذ عزم على أن يقضي ليلته في الصلاة منفردا مع الله ، فقد يلين الله قلب عيسو ، وكان يعقوب قد وضع في الله كل رجائه .

كانت تلك البقعة جبلية مقفرة ومأوى للوحوش ومكمنا للصوص والسفاحين ، فإذ كان يعقوب وحيدا وأعزل سجد إلى الأرض في غم شديد ، كان الوقت منتصف الليل ، وكل الذين حببوا له الحياة كانوا على مسافة منه ، معرضين لخطر الموت ، وأقسى جرعة في كأس أحزانه هو الفكر بأن خطيته هي التي عرضت أولاده الأبرياء للخطر ، فبصرخات حارة ودموع قدم صلاته لله ، وفجأة وضعت عليه يد قوية ، فظن أن عدوا يحاول اغتياله فحاول الإفلات من قبضة مهاجمه ، وفي الظلام تصارع ذانك الرجلان ، وكل منهما يريد أن يكون هو الغالب ، لم تسمع كلمة ، ولكن يعقوب استجمع كل قوته ولم تضعف محاولاته لحظة واحدة ، وإذ كان يصارع دفاعا عن نفسه ضغط نفسه شعوره بذنبه ، واصطفت خطاياه أمامه لتباعد بينه وبين الله ، ولكنه في حاجته القصوى ومحنته الرهيبة ذكر مواعيد الله ، فبكل قلبه توسل إلى الله في طلب الرحمة ، وقد ظل الصراع ناشبا بينهما إلى قرب الفجر ، وإذا بذلك الغريب يضع اصبعه على حق فخذ يعقوب فينخلع في الحال ، وهنا ميز يعقوب ذاتية خصمه ، وعلم أنه كان في صراع مع رسول سماوي ، وهذا هو السبب الذي لأجله لم ينتصر بقوته الجبارة ، لقد كان هو المسيح «ملاك العهد» الذي أعلن نفسه ليعقوب ، وقد صار ذلك القديس عاجزا ، وأحس بآلام مبرحة ، ومع ذلك لم يرد أن يفلت مصارعه منه ، وإذ كان غارقا في دموع التوبة والانسحاق تعلق بالملاك ، «بَكَى وَاسْتَرْحَمَهُ» (هوشع ١٢: ٤) طالبا بركة ، فلا بد أن يتأكد من أن خطاياه قد غفرت . لم تكن آلامه الجسدية كافية لتحويله عن غرضه ، بل قوي عزمه ، وظل إيمانه حارا ومثابرا إلى النهاية ، حاول الملاك الإفلات منه قائلاً له : «أَطْلِقْنِي ، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ» ولكن يعقوب أجابه قائلاً : «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي» لو كانت هذه ثقة متفاخرة جريئة لكان يعقوب قد هلك في الحال ، ولكنها كانت ثقة اليقين المعترف بعدم استحقاقه ، ومع ذلك يثق بأمانة الله ، حافظ العهد !

إن يعقوب «جَاهَدَ مَعَ الْمَلاَكِ وَغَلَبَ» فبالتذلل والتوبة وتسليم النفس غلب هذا الإنسان الخاطئ الضعيف في جهاده مع ملك السماء لقد تمسك بكل قبضته المرتعشة بمواعيد الله ،

ولذلك لم تستطع المحبة غير المحدودة أن تحول أذنيها عن سماع توسلات ذلك الخاطئ .

إن خطأ يعقوب الذي قاده إلى ارتكاب الخطية في حصوله على البكورية عن طريق الخداع ظهر واضحا أمامه . في ذلك الحين لم يصدق مواعيد الله ، ولكنه حاول بمساعيه أن يحقق لنفسه ما كان الله يريد أن يتممه له في وقته وبطريقته الخاصة . وبرهانا على أن خطيته قد غفرت تغير الاسم الذي كان يذكره بخطيته إلى اسم يذكره بنصرته ، إذ قال له الملاك : «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ» «تكوين ٣٢: ٢٨) .

ها قد نال يعقوب البركة التي كان يتوق إليها ، لقد غفرت له خطيته كمتعقب ومخادع ، ومرت الأزمة من حياته بسلام . كان الارتباك والندامة يمرران حياته قبلا ، أما الآن فقد تبدل كل شيء ، وحصل على سلام المصالحة الحلوة مع الله ، ولم يعد يخشى الآن من لقائه مع أخيه ، فإذ الذي غفر له يمكنه أن يحرك قلب أخيه عيسو أيضا ليقبل تذلله وتوبته .

وفيما كان يعقوب مشتبكا في الصراع مع الملاك أرسل رسول سماوي آخر إلى عيسو ، فرأى عيسو يعقوب أخاه في حلم متغربا عن بيت أبيه عشرين سنة وشاهد حزنه حين وجد أن أمه قد ماتت . ورأى جيوش الله تعسكر من حوله ، وقص عيسو هذا الحلم على جنوده ، وأوصاهم ألا يوقعوا على يعقوب أي أذى لأن إله أبيه معه .

أخيرا اقترب الفريقان من بعضهما ، وسيد البرية على رأس رجاله ، ويعقوب مع زوجتيه وأولاده يواكبهم الرعاة والجواري ، ويتبع هؤلاء صف طويل من الغنم والبقر ، فتوكأ القديس على عصاه وتقدم ليقابل فرقة الجنود ، كان شاحب الوجه وواهن القوى من أثر الصراع الذي وقع منذ عهد قريب ، فسار متمهلا وهو يحس بآلام ويخمع عند كل خطوة ، إلا أن نور الفرح والسلام كان يشع من وجهه .

عندما رأى عيسو ذلك الرجل الأعرج المتألم «رَكَضَ ... لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ ، وَبَكَيَا» (تكوين ٣٣: ٤) فأمام هذا المنظر تأثرت حتى قلوب رجال عيسو القساة ، ومع أنه كان قد قص عليهم حلمه إلا أنهم لم يستطيعوا تعليل ذلك التغيير الذي طرأ على زعيمهم ، ومع أنهم شاهدوا ضعف يعقوب وعجزه فإنهم لم يكونوا يدركون أن ضعفه هذا صار له قوة .

في ليلة الضيق تلك التي قضاها يعقوب عند يبوق حين رأى كأن الهلاك قريب منه جدا تعلم يعقوب أن معونة الإنسان باطلة ، وأن الثقة بالقوة البشرية هي ثقة لا أساس لها ، ورأى أن المعونة لا بد أن تأتيه من ذاك الذي أخطأ هو في حقه خطأ شنيعا ، وإذ أحس بعجزه وعدم استحقاقه توسل إلى الله في طلب الرحمة التي وعد أن يمنحها للخطاة التائبين ، فذلك الوعد أكد له أن الله سيغفر له ويقبله ، إن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط كلمة الله ، وهذا ما سنده في ذلك الصراع الهائل .

إن اختبار يعقوب في ليلة الصراع والآلام تلك يصور لنا تلك التجربة التي سيجوز فيها شعب الله قبيل مجيء المسيح ثانية ، قال النبي إرميا بعد ما رأى رؤيا مقدسة خاصة بأيامنا هذه : «صَوْتَ ارْتِعَادٍ سَمِعْنَا . خَوْفٌ وَلاَ سَلاَمٌ ... تَحَوَّلَ كُلُّ وَجْهٍ إِلَى صُفْرَةٍ ؟ آه! لأَنَّ ذلِكَ الْيَوْمَ عَظِيمٌ وَلَيْسَ مِثْلُهُ . وَهُوَ وَقْتُ ضِيق عَلَى يَعْقُوبَ ، وَلكِنَّهُ سَيُخَلَّصُ مِنْهُ» «إرميا ٣٠: ٥-٧) .

حين يكف المسيح عن القيام بعمله كشفيع ووسيط عن الإنسان ، حينئذ تبدأ أيام الضيق هذه ، ويحكم في قضية كل نفس ، ولن يكون هنالك دم كفاري ليطهر من الخطية ، وإذ يترك المسيح مركزه شفيعا عن الإنسان أمام الله ، حينئذ يصدر الإعلان الخطير : «مَنْ يَظْلِمْ فَلْيَظْلِمْ بَعْدُ . وَمَنْ هُوَ نَجِسٌ فَلْيَتَنَجَّسْ بَعْدُ . وَمَنْ هُوَ بَارٌّ فَلْيَتَبَرَّرْ بَعْدُ . وَمَنْ هُوَ مُقَدَّسٌ فَلْيَتَقَدَّسْ بَعْدُ» (رؤيا ٢٢: ١١) عندئذ يؤخذ من الأرض روح الله الذي يحجز ، وكما هدد عيسو الغاضب أخاه يعقوب بالموت فكذلك سيكون شعب الله في خطر من الأشرار الطالبين هلاكهم ، وكما صارع ذلك القديس ليلة كاملة في الصلاة للنجاة من يد عيسو فكذلك سيصرخ الأبرار إلى الله ليلا ونهارا للنجاة من الأعداء المحيطين بهم .

كان الشيطان قد اشتكى على يعقوب أمام ملائكة الله مدعيا لنفسه الحق في إهلاكه بسبب خطيته ، وقد أثار عليه عيسو حتى يقوم لمحاربته ، وطيلة تلك الليلة التي قضاها يعقوب في الصراع حاول الشيطان أن يقحم على نفسه شعورا بجرمه ، ليثبط عزيمته ويرخي يديه حتى لا يتمسك بالله ، فلما تمسك يعقوب بالملاك وهو في حالة الضيق والحزن متوسلا إليه بدموع إذا برسول السماء يذكره بخطيته لكي يختبر إيمانه ، ثم يحاول الإفلات منه ، ولكن يعقوب أبى أن يعود خائبا ، لقد تعلم أن الله رحيم فألقى بنفسه

على رحمته ، فلقد أشار إلى توبته الماضية عن خطيته وتوسل في طـالب النجـاة ، وإذ عاد بالذكرى إلى حياته الماضية كاد ذلك يسوقه إلى اليأس ، ولكنـه أمسـك بـالملاك ، وبصرخاته الحارة من نفسه المعذبة ألح في طلبه حتى انتصر .

هكذا سيكون اختبار شعب الله في صراعهم الآخر مع قوات الشر ، إذ سيمتحن الله إيمانـهم ومثابرتهم وثقتهم بقدرته على تخليصهم ، وسيحاول الشيطان أن يخيفهم بالفكرة أنهم صـاروا في حالة ميؤوس منها ، وأن خطاياهم أكثر وأثقل من أن تغفر ، وسيكون عندهم شعور عميـق بتقصيراتهم ، وإذ يراجعون تاريخ حياتهم تتلاشى آمالهم ، ولكنهم إذ يذكرون عظمة الرحمـة الإلهية وأنهم مخلصون في توبتهم فسيتوسلون طالبين إنجاز وعده المقدم في المسيح للخطـاة العاجزين التائبين ، إن إيمانهم لن يضعف لكونهم لم يحصلوا على إجابة سريعة لصلواتـهم ، بل سيتمسكون بقدرة الله كما أمسك يعقوب بالملاك ، ولسان حالهم يقول : «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَـمْ تُبَارِكْنِي» .

لو لم يكن يعقوب قد تاب حقا عن خطيته إذ حصل على البكورية بالخداع لمـا سـمع الله صلاته ولا حفظ برحمته حياته ، وهكذا في وقت الضيق إذا لم يعترف شـعب الله بخطايـاهم التي تظهر أمامهم حين يكتنفهم الخوف والعذاب فلا بد من أن تغمرهم المتاعب ويقضي اليأس على إيمانهم ، ولن تكون عندهم ثقة بأن يتوسلوا إلى الله في طلب النجاة ، ولكن متى أحسـوا بعدم استحقاقهم فلن تكون هنالك أخطاء مستترة ليعترفوا بها ، فكل خطاياهم ستكون قد محيـت بدم المسيح المكفر ، ولن يستطيعوا أن يذكروها .

إن الشيطان يحاول أن يقنع الناس بأن الله سيغضي عـن خيانتـهم فـي شـؤون الحيـاة الصغيرة ، ولكن الله يرينا في معاملاته ليعقوب أنه لا يمكن أن يبيح الشر أو يسـكت عنـه ، فكل من يلتمسون الأعذار لخطاياهم أو التستر عليها ويتركونها مسجلة عليهم في أسفار السماء دون اعتراف أو غفران فسيغلبهم الشيطان ، وبقدر ما يسمو إقرارهم العلني ومراكزهم بقـدر ما يكون مسلكهم محزنا ومغيظا لله وبقدر ما يكون انتصار العدو عليهم عظيما ومؤكدا .

ومع ذلك فإن تاريخ يعقوب يؤكد لنا أن الله لن يرذل الذين خدعتهم الخطيـة ، ومـن ثـم رجعوا إلى الله بتوبة صادقة . إن يعقوب بتسليمه نفسه لله وبإيمانه الواثق به فاز بما فشل فـي الحصول عليه بالمحاربة بقوته الذاتية ، وهكذا علـم الله عبـده أن قوتـه ونعمتـه وحدهمـا

تستطيعان منحه البركة التي يشتهيها ، وكذلك هي الحال مع من يعيشون في الأيام الأخيرة ، فإذ تكتنفهم المخاطر ويقبض اليأس على أرواحهم ينبغي لهم أن يتكلوا بالتمام على استحقاقات الكفارة ، إننا لن نستطيع عمل شيء بأنفسنا ، ففي كل عجزنا وعدم استحقاقنا علينا أن نعتمد على استحقاقات المخلص المصلوب والمقام ، ولن يهلك أحد يفعل هذا . إن القائمة الطويلة السوداء المسجل فيها كل أخطائنا وتقصيراتنا هي أمام عيني الله غير المحدود . هذا السجل كامل ، ولم تنس خطية واحدة ، ولكن ذاك الذي سمع صراخ عبده في القديم سيسمع صلاة الإيمان ويغفر خطايانا وتحديدنا . لقد وعد وسيفي بما وعد .

لقد غلب يعقوب لأنه كان مثابرا على ما عقد العزم عليه ، واختباره يشهد لقوة الصلاة اللجوجة . وعلينا الآن أن نتعلم هذا الدرس درس الصلاة الغالبة صلاة الإيمان الذي لا يتراجع ، إن أعظم الانتصارات التي تحرزها كنيسة المسيح أو أي فرد مسيحي ليست هي التي تنال بالمواهب أو التهذيب أو الثروة أو رضى الناس ، ولكنها الانتصارات التي تنال في محضر الله حين يمسك بالإيمان الغيور المتألم بذراع الله القدير .

أما أولئك الذين لا يرغبون في ترك كل خطية أو طلب بركة الله بكل غيرة فلن ينالوها ، وأما كل من يتمسكون بوعد الله كما فعل يعقوب ويثابرون في غيرة كما فعل هو فسينجحون كما نجح ، «أَفَلاَ يُنْصِفُ اللهُ مُخْتَارِيهِ ، الصَّارِخِينَ إِلَيْهِ نَهَارًا وَلَيْلاً ، وَهُوَ مُتَمَهِّلٌ عَلَيْهِمْ ؟ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعًا !» ((لوقا ١٨: ٨،٧) .

الفصل التاسع عشر

الرجوع إلى كنعان

بعد عبور الأردن «أَتَى يَعْقُوبُ سَالِمًا إِلَى مَدِينَةِ شَكِيمَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ» (تكوين ٣٣: ١٨-٢٠) وهكذا أجيبت صلاة ذلك الشيخ التي قدمها في بيت إيل طالبا من الله أن يرجعه بسلام إلى أرضه ، وقد ظل زمنا ساكنا في وادي شكيم . في هذا المكان وقبل ذلك بأكثر من مئة سنة نصب إبراهيم خيامه أول مرة ، وأقام أول مذبح في أرض الموعد . وفي هذا المكان «ابْتَاعَ قِطْعَةَ الْحَقْلِ الَّتِي نَصَبَ فِيهَا خَيْمَتَهُ مِنْ يَدِ بَنِي حَمُورَ أَبِي شَكِيمَ بِمِئَةِ قَسِيطَةٍ . وَأَقَامَ هُنَاكَ مَذْبَحًا وَدَعَاهُ «إِيلَ إِلهَ إِسْرَائِيلَ»» (الله إله إسرائيل)، وكما فعل إبراهيم من قبل كذلك فعل يعقوب إذ أقام إلى جوار خيمته مذبحا للرب ، ودعا أفراد عائلته لتقديم ذبيحة الصباح وذبيحة المساء ، وفي هذا المكان حفر البئر التي أتى إليها بعد ذلك بسبعة عشر قرنا ابن يعقوب ومخلصه ، والتي جلس عليها ليستريح من حر الهجير ، وأخبر سامعيه المندهشين عن ينبوع الماء الذي «يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يوحنا ٤: ١٤).

إن فترة إقامة يعقوب وبنيه في شكيم قد انتهت بعمل قاس صارم من أعمال الظلم وسفك الدماء ، ذلك أن ابنة يعقوب الوحيدة حل بها العار والحزن ، فتورط اثنان من إخوتها في ارتكاب جريمة قتل ، فخربت مدينة برمتها ، انتقاما لعمل محرم شرعا ارتكبه مع تلك الفتاة شاب طائش ، والبداءة التي أدت إلى تلك النتائج المرعبة كانت نتيجة عمل ابنة يعقوب التي «خَرَجَتْ ... لِتَنْظُرَ بَنَاتِ الأَرْضِ» (انظر تكوين ٣٤) وهكذا زجت بنفسها بين العشراء الأشرار ، فالذي يطلب السرور بين من لا يخافون الله يضع نفسه في أرض الشيطان ، ويعرض نفسه لتجاربه .

إن قسوة شمعون ولاوي وغدرهما لم يكونا من غير مبرر أو بدون عمل مثير ، ولكنهما في معاملتهما لأهل شكيم ارتكبا خطية فظيعة ، وكانا بكل حرص قد أخفيا عن أبيهما يعقوب مقاصدهما ، فملأته أخبار انتقامهما رعبا . وإذ كان منسحق القلب بسبب

غدر ابنيه وظلمهما قال لهما «كَدَّرْتُمَانِي بِتَكْرِيهِكُمَا إِيَّايَ عِنْدَ سُكَّانِ الأَرْضِ ... وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ . فَيَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي ، فَأَبِيدُ أَنَا وَبَيْتِي» ولكن الحزن والاشمئزاز اللذين بهما وصف تلك الفعلة الدامية يريان في كلامه الذي نطق به بعد ذلك بحوالي خمسين سنة وهو مضطجع على سرير الموت في مصر إذ قال : «شِمْعُونُ وَلاَوِي إِخْوانٌ ، آلاَتُ ظُلْمٍ سُيُوفُهُمَا . فِي مَجْلِسِهِمَا لاَ تَدْخُلُ نَفْسِي . بِمَجْمَعِهِمَا لاَ تَتَّحِدُ كَرَامَتِي ... مَلْعُونٌ غَضَبُهُمَا فَإِنَّهُ شَدِيدٌ ، وَسَخَطُهُمَا فَإِنَّهُ قَاسٍ» (تكوين ٤٩: ٥-٧) .

أحس يعقوب بأن هنالك ما يدعو إلى التذلل العميق إذ قد تجلت القسوة والكذب في أخلاق ابنيه ، وفي تلك المحلة كانت آلهة كاذبة ، ورسخت قدم الوثنية في عائلته إلى حد ما ، فهل يعاملهم الله كما يستحقون ، ألا يتركهم لانتقام الأمم المحيطة بهم ؟

وإذ كان يعقوب هكذا منحني النفس تحت ضغط الكدر والانزعاج صدر إليه أمر الرب بالسفر جنوبا إلى بيت إيل ، إن التفكير في ذلك المكان لم يذكر ذلك الشيخ برؤيا الملائكة ومواعيد الله بالرحمة فقط ، بل ذكره أيضا بنذره الذي كان قد نذره هناك أن يكون الرب إلها له ، وقد عقد العزم على أنه قبل الانتقال إلى تلك البقعة المقدسة ينبغي أن يتطهر أفراد أسرته من نجاسات الأصنام ، ولذلك أصدر أمره إلى كل من في محلته قائلاً : «اعْزِلُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَتَطَهَّرُوا وَأَبْدِلُوا ثِيَابَكُمْ . وَلْنَقُمْ وَنَصْعَدْ إِلَى بَيْتِ إِيلَ ، فَأَصْنَعَ هُنَاكَ مَذْبَحًا للهِ الَّذِي اسْتَجَابَ لِي فِي يَوْمِ ضِيقَتِي ، وَكَانَ مَعِي فِي الطَّرِيقِ الَّذِي ذَهَبْتُ فِيهِ» (انظر تكوين ٣٥) .

وبانفعال عميق ردد يعقوب قصة مجيئه إلى بيت إيل أول مرة عندما ترك خيام أبيه تائها وحيدا وهاربا لحياته ، وكيف ظهر له الله في رؤيا الليل ، وعندما راجع معاملات الله العجيبة له لان قلبه ، وتأثر بنوه بقوة علوية قاهرة . لقد لجأ إلى أفعل وسيلة ليعدهم للاشتراك معه في عبادة الله حين يصلون إلى بيت إيل ، «فَأَعْطَوْا يَعْقُوبَ كُلَّ الآلِهَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ وَالأَقْرَاطَ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ ، فَطَمَرَهَا يَعْقُوبُ تَحْتَ الْبُطْمَةِ الَّتِي عِنْدَ شَكِيمَ» .

وأوقع الله خوفا على سكان الأرض بحيث لم يحاولوا الانتقام للمذبحة التي حدثت في شكيم ، ووصل أولئك المسافرون إلى بيت إيل دون أن يزعجهم أحد ، وهناك ظهر الرب ثانية

ليعقوب وجدد له عهد الموعد ، «فَنَصَبَ يَعْقُوبُ عَمُودًا فِي الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ تَكَلَّمَ مَعَهُ ، عَمُودًا مِنْ حَجَرٍ» .

وفي بيت إيل ناح يعقوب على واحدة كانت عضوا مكرما في عائلة أبيه أمدا طويلا- وهي دبورة مرضعة رفقة التي رافقت سيدتها من عبر النهر إلى أرض كنعان ، فقد كان وجود هذه المرأة العجوز رباطا ثمينا ربطه بحياة الصبا وعلى الخصوص ربطه بتلك الأم التي كانت محبتها له قوية ورقيقة جدا ، وقد دفنت دبورة بين الآهات والدموع والحزن والأنين حتى لقد سميت البطمة التي دفنت تحتها «بلوطة البكاء» ويجب أن نلاحظ أن ذكرى حياة الخدمة الأمينة التي قضتها هذه المرأة ، صديقة هذه العائلة والنوح عليها استحقا أن يحفظا في كلمة الله .

كانت المسافة بين بيت إيل وحبرون تستغرق سفر يومين فقط ، ولكن قلب يعقوب أثقله حزن عميق إذ ماتت راحيل ، لقد خدم خاله فترتين كل منهما سبع سنين ليظفر بها ، وقد خففت محبته لها ما قاساه من عناء . أما كم كانت تلك المحبة قوية وثابتة فقد ظهر بعد سنين طويلة إذ كان يعقوب مضطجعا على سريره مشرفا على الموت في مصر فأتى ابنه يوسف لزيارته ، فإذ ألقى نظرة على ماضي حياته قال ذلك الشيخ المسن: «وَأَنَا حِينَ جِئْتُ مِنْ فَدَّانَ مَاتَتْ عِنْدِي رَاحِيلُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ فِي الطَّرِيقِ ، إِذْ بَقِيَتْ مَسَافَةٌ مِنَ الأَرْضِ حَتَّى آتِيَ إِلَى أَفْرَاتَةَ ، فَدَفَنْتُهَا هُنَاكَ فِي طَرِيقِ أَفْرَاتَةَ ، الَّتِي هِيَ بَيْتُ لَحْمٍ» (تكوين ٤٨: ٧) ففي تاريخ العائلة طيلة حياته الطويلة المضطربة لم يذكر غير موت راحيل .

إن راحيل قبيل موتها أنجبت ليعقوب ابنا ثانيا ، وفيما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة سمَّت الطفل الوليد «بَنْ أُونِي» أي ابن حزني ، أما أبوه فقد سماه بنيامين أي ابن يميني أو قوتي ، وقد دفنت راحيل حيث ماتت ، وأقيم عمود فوق قبرها لتخليد ذكراها .

وفي الطريق إلى أفراتة تلطخت عائلة يعقوب بجريمة أخرى بشعة ، كانت السبب في حرمان رأوبين الابن البكر من امتيازات البكورية وأمجادها .

أخيرا وصل يعقوب إلى نهاية رحلاته ، «وَجَاءَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ إِلَى مَمْرَا ، قَرْيَةِ أَرْبَعَ ، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ ، حَيْثُ تَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ» (تكوين ٣٥: ٢٧) وقد ظل هناك طيلة السنوات الأخيرة من حياة أبيه . وفي نظر إسحاق الذي كان ضعيفا وأعمى

كانت الرعاية التي لقيها من هذا الابن الذي طال اغترابه مصدر عزاء له مـــدى سـني الوحدة والحرمان .

التقى يعقوب أخاه عيسو أمام سرير أبيه عند موته ، إن عيسو الابن الأكبر كان ينظـو إلى الأمام إلى هذه الحادثة كفرصة للانتقام ، أما الآن فقد تغيرت مشاعره تغيرا عظيما ، وأما يعقوب الذي قنع بالبركات الروحية للبكورية فقد تنازل لأخيه الأكبر عـن ميراث أبيهما وثروته ، وهذا كان كل الميراث الذي كان عيسو يشتهيه ويقدره ، وقد زال مـن قلبيهما كل نفور وحسد وعداء ، ومع ذلك فقد انفصل أحدهما عن الآخر ، وانتقل عيسـو إلى جبل سعير . والله الذي هو غني في البركات منح يعقوب ثروة زمنية فضـلا عـن الخير الأعظم الذي طلبه ، «أَنَّ أَمْلاَكَهُمَا كَانَتْ كَثِيرَةً عَلَى السُّكْنَى مَعًـا ، وَلَـمْ تَسْـتَطِعْ أَرْضُ غُرْبَتِهِمَا أَنْ تَحْمِلَهُمَا مِنْ أَجْلِ مَوَاشِيهِمَا» (تكوين ٣٦: ٧) وكان هذا الانفصال متفقا مع قصد الله حيال يعقوب ، وحيث أن كلا من ذينك الإخوين كان يخالف الآخر في معتقده الديني فكان خيرا لهما أن يعيشا منفصلين .

لقد تلقى كل من يعقوب وعيسو معرفة الله بكيفية متشابهة ، وكان كل منهما حرا فـي أن يسير في طريق وصايا الرب ويظفر برضاه ، ومنهما لم يختارا كلاهما نفس هذا الطريق ، إذ سارا في طريقين مختلفين ، وزادت شقة البعد بينهما شيئا فشيئا .

لم يكن الله متعسفا حين حرم عيسو من بركات الخلاص ، إن عطايا نعمته بالمسـيح مباحة للجميع ، فليس هنالك اختيار غير ما يختار الإنسان لنفسه ، الذي قد يكون مدعـاة لهلاكه ، لقد أوضح الله في كلمته الشروط التي بموجبها يمكن أن تختار كل نفس للحيـاة الأبدية- وهي الطاعة لوصاياه بالإيمان بالمسيح . اختار الله شخصية متفقة مع شـريعته ، وكل من يتمم مطاليبه يقدم له دخول إلى ملكوت المجد ، ولقد قال المسيح نفسه : «الَّـذِي يُؤْمِنُ بِالابْنِ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ بِالابْنِ لَنْ يَرَى حَيَاةً» (يوحنا ٣: ٣٦) «لَيْـسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي : يَارَبُّ ، يَارَبُّ ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ . بَلِ الَّذِي يَفْعَـلُ إِرَادَةَ أَبِـي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى ٧: ٢١) وفي سفر الرؤيا جاء قوله «طُوبَى لِلَّذِيـنَ يَصْنَعُـونَ وَصَايَاهُ لِكَيْ يَكُونَ سُلْطَانُهُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ ، وَيَدْخُلُوا مِنَ الأَبْوَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ» (رؤيـا ٢٢: ١٤) وفيما يتعلق بخلاص الإنسان النهائي فهذا هو الاختبار الوحيد الموضح لنا فـي

كلمة الله .

كل من يتمم خلاصه بخوف ورعدة لا بد من أن يختار ، والذي يلبس سلاح الله الكامل ويجاهد جهاد الإيمان الحسن يختار ، كذلك يختار من يصحو للصلاة ويفتش الكتب ويهرب من التجربة ، وكذلك يختار كل من يظل مؤمنا ومطيعا لكل كلمة تخرج من فم الله ، إن بركات الفداء مباحة للجميع ، وسيتمتع بثمار هذا الفداء كل من يتممون الشروط .

لقد احتقر عيسو بركات العهد ، وإذ فضل الخير الزمني على الخير الروحي حصل على ما اشتهاه ، وباختياره المتعمد هذا انفصل عن شعب الله . أما يعقوب فاختار ميراث الإيمان ، نعم إنه حاول الحصول عليه بالمكر والغدر والكذب ولكن الله سمح لخطيته أن تعمل على تقويمه ، ولكن يعقوب في كل اختباره المرير في سنيه الأخيرة لم يحد عن غرضه ، ولا نبذ اختياره . لقد تعلم أنه بالتجائه إلى المهارة البشرية والمكر للحصول على البركة كان يحارب الله ، فمنذ تلك الليلة التي قضاها مصارعا بجوار يبوق خرج من المعمعة رجلا آخر ، لقد انتزعت من قلبه كل ثقة بالنفس ، ومنذ ذلك الوقت لم يبق أثر لمكره الماضي وبدلا من المكر والخداع اتسعت حياته بالبساطة والصدق ، وتعلم درس الاعتماد البسيط على ذراع القدير . وفي وسط التجارب والضيقات انحنى أمام إرادة الله في تذلل وخضوع . إن العناصر المنحطة والزغل الذي كان يشاهد في أخلاقه احترق في آتون النار ، أما الذهب الحقيقي فقد تنقى ، حتى أن إيمان إبراهيم وإسحاق قد رؤي في بريقه في يعقوب .

إن خطية يعقوب وما جرته من حوادث كان لها أثر شرير – أثر نضجت ثماره المريرة في أخلاق أولاده وحياتهم ، فإذ بلغ أولئك الأولاد دور الرجولة نمت في حياتهم أخطاء خطيرة ، ففي العائلة ظهرت مساوئ تعدد الزوجات جلية ، هذا الشر الرهيب يعمل على تجفيف منابع المحبة ، وتأثيره يضعف أقوى الربط المقدسة . وإن غيرة الأمهات الكثيرات مررت العلائق العائلية ، وشب الأولاد – على المنازعات والتبرم بكل سلطان يفرض عليهم ، واظلمت حياة أبيهم لسبب القلق والحزن .

ومع ذلك فقد كان أحد أولئك الأبناء يختلف اختلافا بينا في أخلاقه عن باقي إخوته ، وهو ابن راحيل الأكبر – يوسف الذي بدا أن جماله الطبيعي كان انعكاسا للجمال الداخلي

المنبعث من عقله وقلبه . فإذ كان ذلك الصبي طاهرا ونشيطا وفرحا برهن على غيرته الأدبية وثباته ، لقد أصغي إلى تعاليم أبيه وأحب الطاعة لله . وإن الصفات التي اشتهر بها في مصر بعد ذلك– كاللطف والإخلاص والصدق– كانت قد ظهرت من قبل في حياته اليومية ، فإذ كانت أمه قد ماتت تعلقت كل عواطفه بأبيه ، كما ارتبط قلب أبيه بهذا الصبي ، ابن شيخوخته . فأحبه «أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ بَنِيهِ» (انظر تكوين ٣٧) .

لكن حتى هذه المحبة كانت ستصير علة للمتاعب والأحزان . إن يعقوب لم يتصرف بحكمة في تفضيله ليوسف ، لأن هذا أثار حسد باقي بنيه ، فإذ كان يوسف يعاين تصرفات إخوته الشريرة انزعج جدا ، وتجرأ على الاعتراض عليهم بلطف ، ولكن هذا لم يزدهم إلا بغضا له وسخطا عليه . إنه لم يحتمل أن يراهم يخطئون إلى الله ، فبسط أمرهم أمام أبيه على أمل أن سلطته كأب تقودهم إلى الإصلاح .

تجنب يعقوب ، بكل حرص ، إثارة غضبهم ، فلم يلجأ إلى الخشونة أو القسوة ، بل بتأثر عميق عبر الأب لأولاده عن جزعه عليهم ، وتوسل إليهم أن يوقروا شيبته ولا يجلبوا على اسمه العار ، وفوق الكل طلب منهم ألا يهينوا الله باستخفافهم بوصاياه . فإذ أحس أولئك الشبان بالخجل لأن أمرهم قد انكشف بدا كأنهم قد تابوا ، ولكنهم كانوا يخفون مشاعرهم الحقيقية التي زاد في مرارتها ذلك التشهير بهم .

إن تلك الهدية التي قدمها يعقوب لابنه والتي هى قميص غالي الثمن مما كان يلبسه ذوو الرفعة والوجاهة ، مما برهن على أنه كانت تعوزه الفطنة . هذه الهدية نظر اليها الأولاد على أنها دليل على محاباة ابيهم ليوسف ، وأثار ذلك في نفوسهم التوجس لئلا يكون قصد أبيهم أن يتخطاهم جميعا ويمنح البكورية لابن راحيل ، وزاد من حقدهم أن ذلك الصبي أتاهم يوما يقص عليهم حلما ، قال : «هَا نَحْنُ حَازِمُونَ حُزَمًا فِي الْحَقْلِ ، وَإِذَا حُزْمَتِي قَامَتْ وَانْتَصَبَتْ ، فَاحْتَاطَتْ حُزَمُكُمْ وَسَجَدَتْ لِحُزْمَتِي» .

فصاح إخوته في حسد وغضب ، «أَلَعَلَّكَ تَمْلِكُ عَلَيْنَا مُلْكًا أَمْ تَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا تَسَلُّطًا ؟» .

بعد ذلك بقليل حلم حلما آخر شبيها بالأول في دلالته ، وقصه عليهم قائلاً : «إِنِّي قَدْ حَلُمْتُ حُلْمًا أَيْضًا ، وَإِذَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا سَاجِدَةٌ لِي» وفسر الإخوة هذا الحلم بسرعة

وسهولة كالحلم الأول ، وإذ كان أبوه حاضرا وسامعا وبخه قائلاً : «مَا هـذَا الْحُلْمُ الَّـذِي حَلُمْتَ ؟ هَلْ نَأْتِي أَنَا وَأُمُّكَ وَإِخوتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إِلَى الأَرْضِ ؟» ولكن مع القسوة التي ظهرت في كلام يعقوب فقد كان يؤمن أن الرب قد كشف ليوسف عن المستقبل .

إذ وقف ذلك الصبي أمام إخوته وقد أضاء وجهه الجميل بروح الإلهام لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الإعجاب به ، ومع ذلك فلم يريدوا أن يتركوا طرقهم الشريرة ، بل كانوا يبغضون حياة النقاوة التي كان يحياها يوسف لأنها كانت توبيخا لخطاياهم . إن نفس الروح التي سيطرت على قايين ألهبت قلوبهم .

كان إخوته مضطرين للانتقال من مكان إلى آخر بحثا عن مرعى لقطعانهم ، وكثيرا ما كانوا يغيبون عن البيت شهورا عديدة ، وبعد الحوادث التي ذكرناها آنفا ذهبوا إلى المكان الذي كان أبوهم قد اشتراه في شكيم ، ومر بعض الوقت ولم تأت منهم أخبار ، فبدا أبوهم يخشى على سلامتهم بسبب القسوة التي بدت منهم نحو أهل شكيم ، ولذلك أرسل إليهم يوسف ليفتقد سلامتهم ويرد له خبرا ، ولو كان يعقوب عليما بالشعور الحقيقي الذي يكنه أولاده ليوسف لما ائتمنهم عليه ، ولكنهم كانوا بكل حرص قد أخفوا حقيقة شعورهم .

افترق يوسف عن أبيه بقلب فرحان ، ولم يكن ذلك الأب الشيخ ولا ابنه الشاب يحلمان بما ستتمخض عنه الأيام من أحداث قبلما يجتمع شملهما ثانية . فبعد ما وصل يوسف إلى شكيم وحيدا بعد سفرة طويلة لم يجد إخوته ولا أغنامهم ، فلما سأل عنهم قيل له إنهم في دوثان ، كان قد سار على قدميه مسافة تجاوزت الخمسين ميلا ، وكان باقيا عليه مسافة أخرى تبلغ الخمسة عشر ميلا ، ولكنه أسرع في سيره ولم يفكر في تعبه ، لأنه كان يريد أن يخفف من جزع أبيه ، كما كان يتوق إلى لقاء إخوته الذين كان يحبهم رغم قسوتهم عليه .

رآه إخوته قادما نحوهم ، ولكن لا تفكيرهم في سفره الطويل الذي قام به لكي يفتقدهم ويطمئن على سلامتهم ، ولا تعبه أو جوعه ، ولا ما يتطلبه ذلك من كرم ومحبة أخوية من جانبهم حياله- لا شيء من كل ذلك أمكن أن يخفف من مرارة بغضتهم له ، ولكن منظر ذلك القميص الذي كان يرمز إلى محبة أبيه له أصابهم بالجنون فصاحوا يقولون

في سخرية : «هُوَذَا هذَا صَاحِبُ الأَحْلاَمِ قَادِمٌ» . فالحسد وحب الانتقام اللذان أضمروهما له طويلا تحكما فيهم الآن ، فقالوا : «فَالآنَ هَلُمَّ نَقْتُلْهُ وَنَطْرَحْهُ فِي إِحْدَى الآبَارِ وَنَقُولُ : وَحْشٌ رَدِيءٌ أَكَلَهُ . فَنَرَى مَاذَا تَكُونُ أَحْلاَمُهُ» .

لولا رأوبين لكانوا قد نفذوا مقصدهم ، فلقد أجفل من الاشتراك معهم في قتل أخيه ، واقترح عليهم أن يطرحوه حيا في بئر ويتركوه هناك ليموت ، وكان في دخيلته ينوي أن ينقذه ويعيده إلى أبيه ، فبعدما أقنعهم رأوبين جميعا بقبول اقتراحه تركهم خشية أن تتغلب عليه عواطفه وتكشف لهم نواياه عن حقيقته .

أما يوسف فقد أقبل عليهم غير مرتاب بوجود أي خطر ، بل كان فرحا لأن غايته من بحثه الطويل عنهم قد تحققت ، ولكن بدلا من التحيات التي كان ينتظرها منهم روَّعته نظراتهم الغاضبة ، نظرات الوعيد والتهديد ، فأمسكوه وجردوه من قميصه ، وقد نم تعييرهم وتهديدهم له عن نية الغدر به ، ولم يعبأوا بتوسلاته ، لقد صار الآن تحت رحمة أولئك الذين كانوا يبغضونه إلى حد الجنون ، فبكل وحشية سحبوه إلى جب عميق وألقوا به فيه ، وإذ تأكد لديهم استحالة هروبه تركوه ليهلك جوعا ، «ثُمَّ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا طَعَامًا» .

لكن بعضا منهم كانوا غير مستريحين إذ لم يكونوا يشعرون بنشوة الفرح والرضى التي كانوا يتوقعونها من ذلك الانتقام ، وبعد ذاك بقليل كانت تقترب منهم قافلة إسماعيليين قادمة من عبر الأردن في طريقهم إلى مصر ، وهم حاملون عطورا وتجارات أخرى ، وإذا بيهوذا يقترح على إخوته أن يبيعوا أخاهم إلى هؤلاء التجار الوثنيين بدلا من تركهم إياه ليموت ، فبينما يزيحونه فعلا من طريقهم يظلون أبرياء من دمه ، وقال يلح عليهم : «لأَنَّهُ أَخُونَا وَلَحْمُنَا» فوافقوا جميعا على هذا الاقتراح ، وبادروا إلى يوسف فسحبوه من الجب .

فلما أبصر التجار برقت في ذهنه تلك الحقيقة المرعبة ، إن صيرورة المرء عبدا كان مصيرا أمر من الموت . وفي عذابه ورعبه جعل يتوسل إلى إخوته الواحد بعد الآخر ، ولكن بلا جدوى ، وقد ثارت عواطف بعضهم بالشفقة عليه ، إلا أنهم لخوفهم من سخرية الباقين بهم ظلوا صامتين ، وأحسوا جميعا أنهم كانوا قد أمعنوا في عدوانهم

بحيث لا يمكنهم التراجع ، فلو أنهم أبقوا على يوسف فلا بد من أن يخبر أباه بكل شيء ، وأبوهم لا يمكنه أن يتغاضى عن قسوتهم على ابنه الحبيب ، فإذ قسوا عليه وصموا آذانهم عن سماع توسلاته أسلموه إلى أيدي أولئك التجار الوثنيين ، وبعد ذلك سارت القافلة في طريقها حتى غابت عن الأنظار .

عاد رأوبين إلى الجب فلم يجد يوسف هناك ، ففي رعبه ولومه لنفسه مزق ثيابه ، وأتى إلى إخوته وهو يصرخ قائلاً : «الْوَلَدُ لَيْسَ مَوْجُودًا» فإذ علم رأوبين بمصير يوسف وأنه لا يمكنه استرجاعه مال إلى الاشتراك مع باقي إخوته في محاولة ستر جريمتهم ، فبعدما ذبحوا تيسا من المعزى غمسوا قميص يوسف في دمه وأحضروه إلى أبيهم قائلين إنهم وجدوه ملقى في أحد الحقول ، وأنهم يخشون لئلا يكون هو قميص أخيهم وقالوا : «حَقِّقْ أَقَمِيصُ ابْنِكَ هُوَ أَمْ لاَ ؟» لقد كانوا يتوقعون رؤية هذا المنظر برعب ، ولكنهم لم يكونوا متأهبين لرؤية ذلك الغم والعذاب الذي يمزق القلب ، وذلك الاستسلام الكلي للحزن الذي كانوا مضطرين لمشاهدته . قال يعقوب : «قَمِيصُ ابْنِي ! وَحْشٌ رَدِيءٌ أَكَلَهُ ، افْتُرِسَ يُوسُفُ افْتِرَاسًا» . فحاول بنوه وبناته باطلا أن يعزوه ، بل «مَزَّقَ ... ثِيَابَهُ ، وَوَضَعَ مِسْحًا عَلَى حَقَوَيْهِ ، وَنَاحَ عَلَى ابْنِهِ أَيَّامًا كَثِيرَةً» واتضح أن مرور الزمن لم يخفف من لوعته وحزنه ، فقد قال : «إِنِّي أَنْزِلُ إِلَى ابْنِي نَائِحًا إِلَى الْهَاوِيَةِ» تلك كانت صرخة اليأس التي صعدت من أعماقه ، فإذ كان أولئك الشبان مرتعبين مما قد فعلوا ، وخائفين في الوقت نفسه من لوم أبيهم أخفوا في قلوبهم حقيقة جريمتهم التي كانت عظيمة وهائلة جدا حتى في نظرهم .

الفصل العشرون

يوسف في مصر

في أثناء ذلك كان يوسف وآسروه سائرين في طريقهم إلى مصر ، وإذ كانت القافلة متجهة جنوبا إلى حدود أرض كنعان ، أمكن ذلك الفتى أن يرى ، من بعد ، التلال التي كانت بينها خيام أبيه ، فبكى يوسف بمرارة هو يذكر أباه المحب في وحدته ومحنته ، ثم مر أمام خاطره المنظر الذي حدث في دوثان ، فرأى إخوته الغاضبين وأحس كأن نظراتهم القاسية منصبة عليه ، كما كانت شتائمهم الجارحة التي أجابوا بها على توسلاته تصك أذنيه . وبقلب واجف نظر إلى الأمام ، إلى المستقبل ، وما كان أعظم التبدل الذي حدث في مركزه– من ابن محبوب من أبيه إلى عبد حقير قاصر ! وإذ كان وحيدا لا صديق يأخذ بناصره فماذا يكون نصيبه في البلاد الغريبة التي هو ذاهب إليها ؟ استسلم يوسف بعض الوقت لحزن ورعب لا ضابط لهما .

لكن في عناية الله حتى هذا الاختبار كان بركة له ، فلقد تعلم في ساعات قليلة ما لم يكن ممكنا أن يتعلمه في سنين بغير هذه الوسيلة ، فإن أباه ، مع أن محبته له كانت قوية ورقيقة قد ظلمه بمحاباته له وإغراقه في محبته إياه . هذا الإيثار غير الحكيم قد أسخط إخوته وأهاجهم لارتكاب تلك الفعلة القاسية التي باعدت بينهما ، وكان لهذه المحاباة أثرها في أخلاق يوسف الذي ظهرت فيه أخطاء كان يجب إصلاحها ، وصار ليوسف الاكتفاء الذاتي ، وأصبح متسلطا ، وإذ كان معتادا رقة أبيه ورعايته فقد أحس أنه غير مهيأ للدخول في نضال مع الصعوبات التي أمامه ، إذ لم يكن ندا لها ، تلك الصعوبات التي ستكتنف حياته وحيدا ، حياة العبد الغريب .

حينئذ اتجهت أفكاره إلى إله أبيه . لقد تعلم منذ طفولته أن يحب هذا الإله ويتقيه ، وقد سمع مرارا كثيرة في خيمة أبيه قصة الرؤيا التي رآها يعقوب حين هرب من البيت منفيا شريدا ، وكان قد سمع أيضا شيئا من مواعيد الله التي وعد بها يعقوب ، وكيف تحققت ،

وكيف أنه في ساعة الحاجة أتاه ملائكة الله ليوجهوه ويعزوه ويحرسوه ، كما كان قد تعلم أيضا عن محبة الله في إعداده فاديا للناس . كل هذه الدروس ظهرت واضحة جلية أمامه في تلـــك الآونة ، فآمن يوسف بأن إله آبائه سيكون إلهه هو . في ذلك المكان وتلك الساعة سلم نفســه للرب تسليما كاملا ، وصلى طالبا من حافظ إسرائيل أن يكون معه في أرض غربته .

اهتزت نفسه طربا أمام عزمه السامي على أن يـــبرهن علـــى أمانتـــه وولائـــه لله ، وأن يتصرف في كل الظروف كما يليق بمن هو من رعايا ملك السماء . إنه سيعبد الـــرب بقلـــب كامل ، وسيقابل كل التجارب التي ستصيبه بكل جلد وثبات ، وسيقوم بكل واجباته بأمانـــة . إن اختبار يوم واحد كان نقطة تحول في حياة يوسف ، فالبلية المخيفة التي حلت به في ذلك اليـوم قد أحالته من طفل مدلل إلى رجل مفكر شجاع مالك لنفسه .

بعد وصول يوسف إلى مصر بيع لفوطيفار ، رئيس شرط الملك ، وظـــل يخدمـــه عشـــر سنين ، وفي ذلك البيت تعرض يوسف لتجارب غير عادية . كان عائشا فــــي وســـط عبـــدة الأوثان ، وكانت عبادة الأوثان محاطة بكل مظاهر أبهة الملوك ، وكانت تسندها ثروة وثقافـــة أعظم ممالك العالم مدنية في ذلك العصر ، ومع كل ذلك فقد احتفظ يوسف ببساطته وولائـــه . كانت مناظر الرذيلة وأصواتها حوله ، ولكنه كان كمن لا يرى ولا يسمع ، فلم يسمح لأفكـــاره أن تحوم حول المواضيع المحرمة ، وإن رغبته في كسب رضى المصريين لـــم تســـتطع أن تجعله يخفي مبادئه ، فلو أنه حاول هذا لانهزم أمام التجربة . ولكنه لم يكن ليســـتحي بديـــن آبائه ، ولم يحاول إخفاء حقيقة كونه من عبيد الرب .

«وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ فَكَانَ رَجُلاً نَاجِحًا ... وَرَأَى سَيِّدُهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ بِيَدِهِ» (انظر تكوين ٣٩) . لقد زادت ثقة فوطيفار بيوسف يوما بعـــد يوم ، وأخيرا رقاه وجعله وكيلا له معطيا إياه حق التصرف الكامل في كل أملاكه ، «فَـــتَرَكَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَعْرِفُ شَيْئًا إِلاَّ الْخُبْزَ الَّذِي يَأْكُلُ» .

إن النجاح الملحوظ الذي رافق كل ما كان تحت يد يوسف لم يكن نتيجة معجزة مباشـــرة ، ولكن مثابرته وحرصه ونشاطه كللتها كلها بركة الله ، وقد نسب يوسف نجاحه إلى فضـــل الله ورضاه . وحتى سيده الوثني قبل هذا على أنه سر نجاحه المنقطع النظـــير . ولـــولا الســـعي الثابت الموجه توجيها صائبا لما كان هنالك نجاح ، فتمجد الله في أمانة عبده ، وكان قصـــده

تعالى أنه بالطهارة والاستقامة سيظهر المؤمن بالله مختلفا اختلافا بينا عن عبدة الأوثان ، وبذلك يضيء نور النعمة السماوية في وسط ظلام الوثنية .

اكتسبت رقة يوسف وإخلاصه قلب رئيس الشرط الذي صار يعتبره ، فيما بعد ، ابنا له لا عبدا ، وصارت لهذا الشاب صلة بذوي المقام الرفيع والعلم الواسع ، وحصل على معرفة العلوم واللغات وكل الشؤون- وهذا تهذيب كان لازما له للمستقبل حين يصير رئيس وزراء مصر .

ولكن كان لا بد من أن يجتاز يوسف امتحانا فيه يختبر إيمانه واستقامته في آتون تجارب محرقة ، ذلك أن امرأة سيده أرادت أن تطغي ذلك الشاب لينتهك حرمة شريعة الله . كان طاهر الذيل فيما مضى ولم يتلوث بالنجاسات التي امتلأت بها تلك البلاد الوثنية ، ولكن هذه التجربة المفاجئة القوية الخادعة كيف يواجهها ؟ لقد عرف يوسف جيدا نتائج المقاومة ، فعلى الجانب الواحد كان التستر والرضى والمكافآت ، بينما كان على الجانب الآخر العار والسجن وربما الموت ، فكانت كل حياته المستقبلية متوقفة على قراره في تلك اللحظة . فهل تنتصر المبادئ ، وهل سيظل أمينا لله ؟ لقد كان الملائكة يرقبون ذلك المنظر ترقبا لا يمكن التعبير عنه .

كشف جواب يوسف عن قوة المبادئ الدينية ، فهو لم يرد أن يخون سيده الأرضي الذي وضع ثقته فيه ، وهو يريد أن يكون أمينا لسيده الذي في السماء مهما تكن النتائج . إن كثيرين من الناس وهم تحت عين الله الفاحصة وأنظار الملائكة القديسين يستبيحون أشياء لا يحسبون مجرمين فيها في نظر بنى جنسهم . أما يوسف فقد اتجه فكره أول ما اتجه إلى الله حين قال : «كَيْفَ أَصْنَعُ هذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ ؟» .

لو أننا نربي في أنفسنا عادة التفكير في أن الله يرى ويسمع كل ما نفعله ونقوله ، وبكل أمانة يسجل أقوالنا وأفعالنا ، وأننا لا بد أن نحاسب على هذه كلها فإن ذلك يجعلنا نخاف من ارتكاب الخطية . ليذكر الشباب دائما أنهم أينما كانوا ، ومهما يكن ما يفعلونه فهم في حضرة الله . إن كل أعمالنا مراقبة ، إذ لا تخفي على الله خافية ، ولا يمكننا إخفاء طرقنا عن عيني الله العلي . إن الشرائع البشرية التي هي في بعض الأحيان صارمة يتعداها الناس أحيانا دون أن يلاحظ ذلك أحد ، ولذلك يعفون من القصاص .

ولكن الحال مع شريعة الله تختلف تماما . إن أشد الليالي حلوكة لا تصلح ستارا يستتر وراءه المجرمون . قد يظن المذنب أنه منفرد بنفسه ولا رقيب عليه ، ولكن كل عمل يعمل يراه الرقيب غير المنظور . إن نفس بواعث قلبه وأفكاره مكشوفة أمام عين الله الفاحصة ، فكل عمل وكل كلمة وكل فكر يلاحظ ملاحظة دقيقة كأنما ليس في كل العالم غير إنسان واحد ، وكل انتباه السماء مركز عليه .

قاسى يوسف آلاما كثيرة بسبب استقامته ، لأن تلك المرأة التي جربته انتقمت منه بأن اتهمته بجريمة دنسة شنيعة وتسببت في طرحه في السجن . لو أن فوطيفار صدق اتهامات زوجته ليوسف لكان قد حكم على ذاك الشاب العبراني بالموت ، ولكن العفة والاستقامة اللتين اتصف بهما يوسف ولم يتخل عنهما قط كانتا من أنصع البراهين على براءته ونزاهته . ولكن لكي ينقذ سمعة بيته ترك يوسف ليقاسي العار والسجن .

في بداءة الأمر عومل يوسف بقسوة من سجانيه . يقول المرنم : «آذَوْا بِالْقَيْدِ رِجْلَيْهِ . فِي الْحَدِيدِ دَخَلَتْ نَفْسُهُ ، إِلَى وَقْتِ مَجِيءِ كَلِمَتِهِ . قَوْلُ الرَّبِّ امْتَحَنَهُ» (مزامير ١٠٥: ١٨، ١٩) ومع ذلك فإن أخلاق يوسف الحقيقية تضيء بنور عظيم حتى وهو يرسف في أغلاله في ظلمات السجن ، إذ تمسك بإيمانه وصبره . لقد عوقب على سني خدمته الأمينة بمنتهى القسوة والظلم ، ولكن هذا لم يجعله شكسا أو عديم الثقة ، بل كان يملك السلام الذي جاءه من شعوره ببراءته ، وقد سلم أمره لله . لم يفكر في المظالم التي وقعت عليه ، بل نسي أحزانه في سبيل التخفيف من أحزان من هم حوله . لقد وجد عملا يعمله حتى وهو في السجن . وكان الله يعده في مدرسة الضيق والألم لنفع أعظم ، وهو لم يرفض ذلك التدريب اللازم ولا تبرم به . فإذ رأى آثار الظلم والطغيان المتفشي في السجن ، ورأى آثار الجريمة تعلم دروسا في العدل والعطف والرحمة أعدته لاستخدام سلطانه بحكمة ورفق .

وبالتدريج نال يوسف ثقة رئيس بيت السجن ، وأخيرا وكل إليه أمر كل المسجونين . إن الدور الذي قام به في السجن ، أي استقامة حياته اليومية وعطفه على المتضايقين والمحزونين هو الذي أفسح المجال لنجاحه وكرامته في مستقبل أيامه . إن كل شعاعة من النور نسلطها على الآخرين ترتد إلينا ، فكل كلمة رفق أو عطف تقال لإنسان حزين ،

وكل جهد يبذل للتخفيف من آلام المظلومين ، وكل عطية تقدم لمحتاج ، إن كان الباعث عليها صالحا وصائبا ، ستنتج عنها بركة لمقدمها .

كان رئيس خبازي الملك ورئيس سقاته قد طرحا في السجن لذنب من الذنوب ، ووضعا تحت إشراف يوسف . وفي ذات صباح إذ لاحظ أنهما مغتمان جدا سألهما بكل رفق عن السبب في انقباضهما ، فقيل له أن كلا منهما قد حلم حلما جديرا بالاعتبار وهما يتوقان لمعرفة تفسيرهما ، فقال يوسف : «أَلَيْسَتْ لِلَّهِ التَّعَابِيرُ ؟ قُصَّا عَلَيَّ» (انظر تكوين ٤٠) . فلما قص عليه كل منهما حلمه أخبرهما بالتفسير . في ثلاثة أيام يرد رئيس السقاة إلى مقامه ويعطي الكأس في يد فرعون كالسابق ، أما رئيس الخبازين فسيقتل بأمر الملك ، وكما فسر لهما كذلك حدث .

عبر ساقي الملك عن أعمق عواطف الشكر ليوسف لأجل تفسيره المفرح لحلمه ولأجل كثير من دلائل الاهتمام والشفقة التي قدمها له . فإذ أشار يوسف إلى الظلم الذي وقع عليه بطرحه في السجن بكلمات مؤثرة جدا توسل إليه أن يعرض قضيته أمام الملك قائلا : «إِنَّمَا إِذَا ذَكَرْتَنِي عِنْدَكَ حِينَمَا يَصِيرُ لَكَ خَيْرٌ ، تَصْنَعُ إِلَيَّ إِحْسَانًا وَتَذْكُرُنِي لِفِرْعَوْنَ ، وَتُخْرِجُنِي مِنْ هذَا الْبَيْتِ . لأَنِّي قَدْ سُرِقْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ ، وَهُنَا أَيْضًا لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا حَتَّى وَضَعُونِي فِي السِّجْنِ» رأى رئيس السقاة الحلم يفسر بكل تفصيلاته كما قال يوسف ، ولكن حينما عاد إليه رضى الملك لم يعد يفكر في من قد أحسن إليه ، فظل يوسف سجينا سنتين أخريين ، وذلك الأمل الذي كان قد انتعش في داخله زال شيئا فشيئا ، فأضيفت إلى كل التجارب الماضية مرارة الجحود .

لكن يدا إلهية كانت مزمعة أن تفتح أبواب السجن ، فلقد حلم ملك مصر حلمين في ليلة واحدة ، كلاهما لاح أنه يشير إلى الحادث نفسه ، كما لاح أنه ينبئ بكارثة قادمة . لم يستطع الملك تفسيرهما وظلا مبعثا لاضطراب فكره ، وكذلك لم يستطع سحرة مصر ولا حكماؤها أن يفسروا الحلمين ، فزاد ارتباك الملك واضطرابه ، وشمل الرعب كل بلاط الملك . فذلك الاهتياج الشامل أعاد إلى رئيس السقاة ذكرى ظروف حلمه ، وذكر يوسف فوخزه ضميره وخزات الندم على عدم عرفانه بالجميل ، ففي الحال أخبر الملك كيف أنه هو ورئيس الخبازين قد حلم كل منهما حلما وهما في السجن ، وكيف أن غلاما عبرانيا

فسر لهما حلميهما ، وكما عبر لهما كذلك حدث .

كان أمرا مهينا لفرعون أن يتحول عن سحرة مملكته وحكمائها ليستشير عبدا غريبا ، ولكنه كان مستعدا لقبول أحقر الخدمات إذا كان يجد راحة لفكره المضطرب . فاستدعى يوسف في الحال ، فخلع ثياب سجنه ولبس ثيابا أخرى وحلق ، لأن شعره كان قد طال في سني الهوان التي قضاها في السجن ، ثم أدخل إلى الملك .

«فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ : «حَلُمْتُ حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعَبِّرُهُ . وَأَنَا سَمِعْتُ عَنْكَ قَوْلاً ، إِنَّكَ تَسْمَعُ أَحْلاَمًا لِتُعَبِّرَهَا» . فَأَجَابَ يُوسُفُ فِرْعَوْنَ : «لَيْسَ لِي . اَللهُ يُجِيبُ بِسَلاَمَةِ فِرْعَوْنَ»» (انظر تكوين ٤١) إن جواب يوسف لفرعون يكشف عن اتضاعه وإيمانه بالله ، فهو بكل وداعة ينفي عن نفسه مجد امتلاكه لأي حكمة فائقة في قلبه . «لَيْسَ لِي» إن الله وحده هو الذي يستطيع كشف الأسرار .

وبعد ذلك بدأ فرعون يقص حلميه فقال : «إِنِّي كُنْتُ فِي حُلْمِي وَاقِفًا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ ، وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ سَمِينَةِ اللَّحْمِ وَحَسَنَةَ الصُّورَةِ ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ . ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مَهْزُولَةً وَقَبِيحَةَ الصُّورَةِ جِدًّا وَرَقِيقَةَ اللَّحْمِ . لَمْ أَنْظُرْ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مِثْلَهَا فِي الْقَبَاحَةِ . فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الرَّقِيقَةُ وَالْقَبِيحَةُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الأُولَى السَّمِينَةَ . فَدَخَلَتْ أَجْوَافَهَا ، وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّهَا دَخَلَتْ فِي أَجْوَافِهَا ، فَكَانَ مَنْظَرُهَا قَبِيحًا كَمَا فِي الأَوَّلِ . وَاسْتَيْقَظْتُ . ثُمَّ رَأَيْتُ فِي حُلْمِي وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٌ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ مُمْتَلِئَةً وَحَسَنَةً . ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ يَابِسَةً رَقِيقَةً مَلْفُوحَةً بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٌ وَرَاءَهَا . فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ . فَقُلْتُ لِلسَّحَرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُخْبِرُنِي» .

«فَقَالَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ : حُلْمُ فِرْعَوْنَ وَاحِدٌ . قَدْ أَخْبَرَ اللهُ فِرْعَوْنَ بِمَا هُوَ صَانِعٌ» . كانت سبع سني شبع عظيم قادمة ، فالحقول والحدائق كانت ستأتي بثمار وفيرة جدا ، أكثر مما في أي سنة مضت ، وهذه السنوات كانت ستعقبها سبع سني جوع . «وَلاَ يُعْرَفُ الشِّبَعُ فِي الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ ذلِكَ الْجُوعِ بَعْدَهُ ، لأَنَّهُ يَكُونُ شَدِيدًا جِدًّا» وكان تكرار الحلم دليلا على صحته وقرب إتمامه . ثم قال : «فَالآنَ لِيَنْظُرْ فِرْعَوْنُ رَجُلاً بَصِيرًا وَحَكِيمًا وَيَجْعَلْهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ . يَفْعَلْ فِرْعَوْنُ فَيُوَكِّلْ نُظَّارًا عَلَى الأَرْضِ ، وَيَأْخُذْ خُمْسَ غَلَّةِ

219,220,221

أَرْضِ مِصْرَ فِي سَبْعِ سِنِي الشِّبَعِ ، فَيَجْمَعُونَ جَمِيعَ طَعَامِ هذِهِ السِّنِينَ الْجَيِّدَةِ الْقَادِمَةِ ، وَيَخْزِنُونَ قَمْحًا تَحْتَ يَدِ فِرْعَوْنَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ . فَيَكُونُ الطَّعَامُ ذَخِيرَةً لِلأَرْضِ لِسَبْعِ سِنِي الْجُوعِ» .

كان هذا التعبير معقولا ومناسبا جدا ، كما كانت السياسة المقترحة سليمة ودليلا على الفكر الثاقب بحيث لم يكن هنالك شك في صحتها . ولكن من ذا الذي يمكن أن يؤتمن على تنفيذ تلك الخطة ؟ فعلى حكمة هذا الاختيار تتوقف سلامة الدولة . اضطرب الملك ، وظل هذا التعيين موضع تفكير وبحث بعض الوقت . وقد أخبر رئيس السقاة الملك عن الحكمة والفطن التي أبداها يوسف في تدبير أمور السجن ، وكان واضحا أن له مقدرة إدارية فائقة . إن ذلك الساقي الذي كان يلوم نفسه حينئذٍ بشدة حاول أن يكفر عن جحوده السابق بأحر المدح للذي أحسن إليه . وقد دلت تحريات الملك على صدق ما قاله الساقي ، ففي كل المملكة كان يوسف هو الشخص الوحيد المزود بالحكمة لتبصير الملك بالخطر الذي هدد الدولة ، والاستعداد اللازم لمواجهته ، فاقتنع الملك بأن يوسف هو الشخص الوحيد الكفء لتنفيذ الخطة التي قد اقترحها ، وكان واضحا أن قوة إلهية تسنده ، وأنه ليس بين كل موظفي الدولة شخص سواه يستطيع أن يدير شؤونها في تلك الأزمنة . وحقيقة كونه عبدا عبرانيا لم تكن أمرا ذا شأن بالقياس إلى حكمته وسلامة رأيه . فقال الملك لمشيريه : «هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هذَا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللهِ ؟» .

وقد تقرر تعيينه ، وأدهش يوسف ما أعلنه الملك حين قال : «بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هذَا ، لَيْسَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ . أَنْتَ تَكُونُ عَلَى بَيْتِي ، وَعَلَى فَمِكَ يُقَبِّلُ جَمِيعُ شَعْبِي إِلاَّ إِنَّ الْكُرْسِيَّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ» وتقدم الملك ليقلد يوسف أوسمة مركزه الخطير بأن «خَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بُوصٍ ، وَوَضَعَ طَوْقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ ، وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ ، وَنَادَوْا أَمَامَهُ «ارْكَعُوا»» .

«أَقَامَهُ سَيِّدًا عَلَى بَيْتِهِ ، وَمُسَلَّطًا عَلَى كُلِّ مُلْكِهِ ، لِيَأْسُرَ رُؤَسَاءَهُ حَسَبَ إِرَادَتِهِ وَيُعَلِّمَ مَشَايِخَهُ حِكْمَةً» (مزامير ١٠٥: ٢١،٢٢) . من السجن خرج يوسف ليصير رئيسا على كل أرض مصر . لقد كان مركزا مجيدا ، ومع ذلك كان محفوفا بالمكاره والمخاطر . ولا يمكن أن أحدا يقف في مكان عال شاهق دون أن يتعرض للخطر . فكما أن العاصفة

تترك زهور الوادي الوادعة دون أذى بينما هي تقتلع الأشجار العظيمة من فوق أعـــالي الجبال ، فكذلك من قد احتفظوا بأمانتهم واستقامتهم في حياتهم المتواضعة قد يجرفون إلى أعماق الجب بفعل التجارب التي تهاجم النجاح والكرامة الزمنيين . ولكن أخلاق يوســف صمدت في الضراء والسراء ، أمام الضيق وأمام النجـــاح . إن نفــس الأمانـــة ونفــس الاستقامة والإخلاص ظهرت حين وقف في قصر الفراعنة كما كانت ظاهرة حين كان في بيت السجن . كان لا يزال غريبا في أرض وثنية ، منفصلا عن عائلته التي كانت تعبـــد الله ، ولكنه كان موقنا أن يد الله تسدد خطواته . وباعتماده المستمر على الله قام بأعبـــاء واجبات وظيفته ، وبسبب يوسف اتجه انتباه ملك مصر وعظمائها إلى الإلـــه الحقيقـــي . ومع أنهم كانوا متمسكين بأوثانهم فقد تعلموا أن يكرموا المبادئ المعلنة في حياة وأخـــلاق يوسف الذي كان يعبد الرب .

ولكن كيف استطاع يوسف أن يكتب لنفسه ذلك التاريخ المجيد ، تاريخ الخلق المتيـــن والاستقامة والحكمة ؟ إنه في فجر حياته فضل الواجب على هوى النفس ، ثم أن استقامته في شبابه ، والثقة البسيطة والطبيعة النبيلة في حياته الباكرة آتت ثمارها في حياته وهـــو رجل . إن حياته النقية البسيطة وافقت النمو النشيط لقوى جسده وذهنه . وإن شركته مـــع الله في أعماله ، وتأمله في الحقائق العظيمة المسلمة لورثة الإيمان ، كل ذلك رفـــع مـــن طبيعته الروحية وعظمها ، ووسع عقله وقواه أكثر من أية دراسة أخرى . ثم إن التفاتـــه لواجبه في كل مركز من مراكزه التي مر فيها ، من أدناها إلى أسماها ، كان تدريبا لكـــل قواه للوصول إلى أعلى خدمة . إن من يحيا حياة مطابقة لإرادة الخـــالق يحـــرز لنفســـه أصدق وأنبل نمو في الأخلاق . «هُوَذَا مَخَافَةُ الرَّبِّ هِيَ الْحِكْمَةُ ، وَالْحَيَدَانُ عَنِ الشَّرِّ هُـوَ الْفَهْمُ» (أيوب ٢٨: ٢٨) .

قليلون هم الذين يدركون تأثير أمور الحياة الصغيرة في تكوين الأخلاق . ليس شـــيء مما لنا به شأن يعتبر صغيرا حقا . فالظروف المختلفة التي نواجهها يوما فيوما ، القصـــد منها اختبار أمانتنا وإعدادنا لمسؤوليات أعظم . فبثباتنا على مبادئنا في شـــؤون حياتنـــا العادية يصبح العقل قادرا على الاضطلاع بالواجب أكثر مما لو عمد الإنسان إلى الأميال الباطلة واللذات الوقتية . فالعقول التي تدرب هذا التدريب لا تترجح بين الصواب والخطأ كالقصبة التي تحركها الريح . أمثال هؤلاء يكونون مخلصين لواجبهم لأنهم دربوا أنفسهم

على صفات الأمانة والحق . ومتى كانوا أمناء في القليل فسيحصلون على قـوة تجعلـهم أمناء في الكثير .

إن الخلق القويم هو أثمن بكثير من ذهب أوفير ، إذ بدونه لا يقدر أحد أن يرقى إلى العظمة الشريفة ، ولكن الخلق ليس شيئا يورث أو يباع بالمال . إن السمو الخلقي والصفات الذهنية الجميلة لا يحصل عليها المرء بمحض الصدفة ، وإن أثمن المواهب لن تكون لها قيمة ما لم يرقّها الإنسان ويصلح من شأنها ، وإن تكوين الخلق النبيل هو عمل يحتاج إلى كل يوم من أيام العمر ، ويجب أن يكون نتيجة الجد والمثابرة المتواصلين . إن الله يعطى الفرص ، والنجاح موقوف على كيفية انتهازها .

الفصل الحادي والعشرون

يوسف وإخوته

حالما بدأت سنو الشبع بدأ معها التأهب للمجاعة القادمة ، وبموجب تعليمات يوسف بنيت مخازن واسعة جدا في كل الأماكن الرئيسية في كل أرض مصر ، وعملت الترتيبات الكافية لحفظ الفائض من المحصول المنتظر . وقد اتبعت هذه الترتيبات نفسها مدة سبع سني الشبع ، إلى أن غدت كميات القمح المخزونة فوق كل حصر .

والآن بدأت سبع سني الجوع كما تنبأ يوسف . «فَكَانَ جُوعٌ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ . وَأَمَّا جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ فَكَانَ فِيهَا خُبْزٌ . وَلَمَّا جَاعَتْ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ وَصَرَخَ الشَّعْبُ إِلَى فِرْعَوْنَ لأَجْلِ الْخُبْزِ ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِكُلِّ الْمِصْرِيِّينَ : «اذْهَبُوا إِلَى يُوسُفَ ، وَالَّذِي يَقُولُ لَكُمُ افْعَلُوا» . وَكَانَ الْجُوعُ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ ، وَفَتَحَ يُوسُفُ جَمِيعَ مَا فِيهِ طَعَامٌ وَبَاعَ لِلْمِصْرِيِّينَ» (تكوين ٤١: ٥٤-٥٦ والإصحاحات ٤٢-٥٠) .

وامتدت المجاعة حتى شملت أرض كنعان ، وأحس الناس بشدة وطأتها ، خصوصا في المكان الذي كان يعقوب ساكنا فيه . فإذ سمعوا عن وجود مؤونة كثيرة اختزنها ملك مصر سافر عشرة من أولاد يعقوب إلى هناك ليشتروا قمحا ، فلما وصلوا إلى هناك أُخذوا إلى نائب الملك ، حيث مثلوا أمام سيد الأرض مع آخرين من طالبي القمح ، «وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الأَرْضِ ... وَعَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَعْرِفُوهُ» إذ أبدل اسمه العبراني بالاسم الجديد الذي أطلقه عليه الملك ، ولم يكن هنالك غير قليل من الشبه بين رئيس وزراء مصر وذلك الفتى الذي كانوا قد باعوه للإسماعيليين . وحين رأى يوسف إخوته ينحنون ويسجدون أمامه ذكر أحلامه وظهرت أمامه صور الماضي واضحة وجلية . تفحصتهم عينه الحادة البصر فاكتشف أن بنيامين ليس بينهم ، فهل سقط هو الآخر فريسة لغدر أولئك القوم المتوحش وقسوتهم فإذ عزم على معرفة الحقيقة قال لهم بحزم : «جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ ! لِتَرَوْا عَوْرَةَ الأَرْضِ جِئْتُمْ» .

فقالوا له : «لاَ يَا سَيِّدِي ، بَلْ عَبِيدُكَ جَاءُوا لِيَشْتَرُوا طَعَامًا . نَحْنُ جَمِيعُنَا بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ . نَحْنُ أُمَنَاءُ ، لَيْسَ عَبِيدُكَ جَوَاسِيسَ» ثم أراد أن يعلم هل كانت روحهم هي نفس الروح المتغطرسة التي عهدها فيهم حين كان معهم ، كما أراد أن يعرف منهم بعض المعلومات الخاصة ببيتهم ، ومع ذلك فربما كانت روايتهم مضللة . فلما كرر التهمة أجابوه قائلين : «عَبِيدُكَ اثْنَا عَشَرَ أَخًا . نَحْنُ بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ . وَهُوَذَا الصَّغِيرُ عِنْدَ أَبِينَا الْيَوْمَ ، وَالْوَاحِدُ مَفْقُودٌ» .

فإذ أخبرهم الحاكم أنه يشك في صدق روايتهم ، وأنه لا يزال يعتبرهم جواسيس أعلن أنه يريد أن يمتحن صدق كلامهم بأن يأمرهم بالبقاء في مصر إلى أن يذهب واحد منهم وينزل إليه بأخيهم الصغير ، فإذا لم يرضوا بذلك فلا بد من معاملتهم كجواسيس . ولكن أولاد يعقوب لم يوافقوا على هذا التدبير ، لأن الوقت اللازم لتنفيذه قد يجعل عائلاتهم تقاسي احتياجا إلى الطعام ومن منهم هو الذي يشرع في ذلك السفر وحده ، تاركا إخوته في السجن ؟ كيف يستطيع أن يقابل أباه في مثل تلك الظروف وقد تراءى لهم أنهم قد يقتلون أو يصيرون عبيدا ، ولو أتى بنيامين فقد يشاركهم في مصيرهم التعس ، ولذلك عزموا على أن يبقوا معا ويتألموا معا ، فذلك أفضل عن أن يجلبوا على أبيهم أحزانا جديدة بخسارته ابنه الوحيد الباقي . ولهذا ألقى بهم في السجن ، حيث ظلوا ثلاثة أيام .

في خلال السنين التي مرت منذ افترق يوسف عن إخوته حصل تغيير في أخلاقهم . كانوا قبلا حسودين وثائرين ومخادعين وقساة ومحبين للانتقام ، أما الآن بعدما محصتهم التجارب والضيقات والمشقات فقد تبرهن أنهم منكرون لذواتهم وأمناء بعضهم لبعض ومكرسون لأبيهم . ومع أنهم كانوا رجالا في منتصف العمر فقد كانوا خاضعين لسلطان أبيهم .

كانت الثلاثة الأيام التي قضوها في سجن مصر أيام حزن مرير عليهم ، لأن أولئك الإخوة تذكروا خطاياهم الماضية ، فإذا لم يجيئوا ببنيامين صدقت التهمة الموجهة إليهم على أنهم جواسيس ، وكان أملهم ضعيفا في أن أباهم سيسمح لهم بأخذ بنيامين معهم . وفي اليوم الثالث أمر يوسف بإحضار الإخوة إليه إذ لم يجرؤ على تعويقهم أكثر من ذلك ، فلا بد من أن أباه وكل العائلات التي معه يقاسون آلام الجوع . فقال لهم : «افْعَلُوا هذَا وَاحْيَوْا . أَنَا خَائِفُ اللهِ . إِنْ كُنْتُمْ أُمَنَاءَ فَلْيُحْبَسْ أَخٌ وَاحِدٌ مِنْكُمْ فِي بَيْتِ حَبْسِكُمْ ،

225,226

وَانْطَلِقُوا أَنْتُمْ وَخُذُوا قَمْحًا لِمَجَاعَةِ بُيُوتِكُمْ . وَأَحْضِرُوا أَخَاكُمُ الصَّغِيرَ إِلَيَّ ، فَيَتَحَقَّقَ كَلاَمُكُمْ وَلاَ تَمُوتُوا» فأجمع رأيهم على قبول هذا الاقتراح ، وإن كانوا قد عبروا عن ضعف أملهم في أن أباهم سيرضى بإرسال بنيامين معهم . وكان يوسف يتحدث إليهم عن طريق ترجمان ، فإذ كانوا يظنون أن الحاكم ليس فاهما كلامهم جعلوا يتحدثون معا بكل حرية في حضوره . وقد أنحوا باللائمة على أنفسهم في معاملتهم ليوسف ، «وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : حَقًّا إِنَّنَا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ . لِذلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هذِهِ الضِّيقَةُ» فقال رأوبين الذي كان قد أعد خطة لإنقاذ أخيه في دوثان . «أَلَمْ أُكَلِّمْكُمْ قَائِلاً : لاَ تَأْثَمُوا بِالْوَلَدِ ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا ؟ فَهُوَذَا دَمُهُ يُطْلَبُ» فإذ كان يوسف يصغي إلى ما قالوا لم يستطع أن يضبط عواطفه فخرج إلى خارج وبكى . فلما عاد إليهم أمر بتقييد شمعون أمام عيونهم ووضعه في السجن . إنهم حين كانوا يعاملون أخاهم بقسوة كان شمعون هو المحرض والعامل الأكبر في إيذاء أخيه ، ولأجل هذا السبب وقع الاختيار عليه .

وقبلما سمح يوسف لإخوته بالسفر أصدر تعليماته بأن يعطى لهم قمح وأن توضع فضة كل واحد منهم سرا في فم عدله ، وأن يعطوا علفا لدوابهم في طريق عودتهم إلى وطنهم ، ففي طريق عودتهم إذ كان أحدهم يفتح عدله ليعطي عليقا لحماره أدهشه أنه رأى صرة الفضة ، وإذ أخبر الباقين بذلك خافوا وارتعدوا وطارت قلوبهم ، وقال الواحد للآخر : «مَا هذَا الَّذِي صَنَعَهُ اللهُ بِنَا ؟» فهل يعتبرون هذا دليلا على إحسان الله إليهم ، أم أنه سمح بحدوث هذا قصاصا لهم على خطاياهم ليغوصوا إلى أعماق الشقاء ؟ لقد اعترفوا أن الله قد رأى خطاياهم وها هو يعاقبهم عليها .

وكان يعقوب ينتظر عودة بنيه بفارغ صبر ، فلما وصلوا تجمهر حولهم كل من في المحلة حين سمعوهم يقصون على أبيهم كل ما حدث لهم . فامتلأت كل القلوب خوفا وفزعا ، إذ بدا لهم كأن تصرف الحاكم المصري يدل على سوء النية . ومما حقق مخاوفهم أنهم حين فتحوا عدالهم وجد كل منهم فضته في فم عدله . فصاح أبوهم الشيخ يقول في حزن : «أَعْدَمْتُمُونِي الأَوْلاَدَ . يُوسُفُ مَفْقُودٌ ، وَشِمْعُونُ مَفْقُودٌ ، وَبَنْيَامِينُ تَأْخُذُونَهُ . صَارَ كُلُّ هذَا عَلَيَّ» فأجابه رأوبين قائلا : «اقْتُلِ ابْنَيَّ إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ . سَلِّمْهُ بِيَدِي وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ» فهذا الكلام الدال على الطيش لم يفرج بال يعقوب ، فكان

جوابه : «لاَ يَنْزِلُ ابْنِي مَعَكُمْ ، لأَنَّ أَخَاهُ قَدْ مَاتَ ، وَهُوَ وَحْدَهُ بَاقٍ . فَإِنْ أَصَابَتْهُ أَذِيَّةٌ فِـي الطَّرِيقِ الَّتِي تَذْهَبُونَ فِيهَا تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ» .

ولكن الجوع طال أمده ، وبمرور الوقت كادت تنفد كمية القمح التي أتوا بها من مصـــر . كان أولاد يعقوب يعلمون أنهم عبثا يعودون إلى مصر بدون بنيامين ، وكان أملهم ضعيفا فـــي زحزحة أبيهم عن عزمه ، فانتظروا النتيجة وهم صامتون . وقد ظهر شبح المجاعة الهائلـــة القادمة عليهم بكل وضوح ، وعلى الوجوه القلقة في تلك المحلة قرأ الشـــيخ نبـــأ حاجتـــهم ، وأخيرا قال لهم «ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلاً مِنَ الطَّعَامِ» .

فأجابه يهوذا قائلا : «إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَشْهَدَ عَلَيْنَا قَائِلاً : لاَ تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ يَكُـــونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ . إِنْ كُنْتَ تُرْسِلُ أَخَانَا مَعَنَا ، نَنْزِلُ وَنَشْتَرِي لَكَ طَعَامًا ، وَلكِنْ إِنْ كُنْـــتَ لاَ تُرْسِلُهُ لاَ نَنْزِلُ . لأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا : لاَ تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ» . وإذ رأى يهوذا أن أباه قد بدا يتراجع عن عزمه أضاف قائلا : «أَرْسِلِ الْغُلاَمَ مَعِي لِنَقُومَ وَنَذْهَـبَ وَنَحْيَا وَلاَ نَمُوتَ ، نَحْنُ وَأَنْتَ وَأَوْلاَدُنَا جَمِيعًا» ثم تطوع بأن يكون ضامنا لأخيه وأن يتحمـل اللوم إلى الأبد إذا أخفق في إعادة بنيامين إلى أبيه .

لم يستطع يعقوب أن يمانع أكثر من ذلك ، فأوصى أولاده بالتأهب للسفر ، وأمرهم بـــأخذ هدية معهم ليقدموها للحاكم ، هدية مما يمكن استخلاصه من تلك الأرض التي قـــد ضربـــها الجوع «قَلِيلاً مِنَ الْبَلَسَانِ ، وَقَلِيلاً مِنَ الْعَسَلِ ، وَكَثِيرَاءَ وَلاَذَنًا وَفُسْتُقًا وَلَوْزًا» كما أمرهـــم بأخذ فضة مضاعفة ، ثم قال لهم : «وَخُذُوا أَخَاكُمْ وَقُومُوا ارْجِعُوا إِلَى الرَّجُـــلِ» وإذ كـــانوا مزمعين أن يشرعوا في تلك الرحلة المشكوك فيها نهض أبوهم الشيخ ورفع يديه إلى الســـماء ونطق بهذه الصلاة . «وَاللهُ الْقَدِيرُ يُعْطِيكُمْ رَحْمَةً أَمَامَ الرَّجُلِ حَتَّى يُطْلِقَ لَكُمْ أَخَاكُمُ الآخَـــرَ وَبَنْيَامِينَ . وَأَنَا إِذَا عَدِمْتُ الأَوْلاَدَ عَدِمْتُهُمْ» .

ساروا في رحلتهم عائدين إلى مصر ومثلوا أمام يوسف ، فحالما وقع نظره على بنيامين ، ابن أمه ، تأثر تأثرا عميقا ، ومع ذلك أخفي عواطفه وأمر بأن يؤخذوا إلى بيته ، وأن تعمـــل الترتيبات اللازمة ليتغدوا معه . وفيما هم ذاهبون إلى بيت الحاكم خاف أولئك الإخـــوة خوفـــا عظيما ، إذ ظنوا أنهم سيحاسبون على الفضة التي وجدت في عدالهم ، وخطر لهم أنه ربمـــا تكون الفضة قد وضعت في عدالهم عن عمد لتلفيق تهمة ضدهم بموجبها يؤخذون عبيدا . ففي

227,228

ضيقهم تكلموا مع وكيل بيت يوسف ، وقصوا عليه الظروف التي اضطرتهم للمجـــيء إلــى مصر ، وبرهانا على براءتهم أخبروه بأنهم ردوا الفضة التي وجدوها فـــي عدالـــهم ، كمــا أحضروا فضة أخرى ليشتروا طعاما ، وقالوا أيضا : «لاَ نَعْلَمُ مَنْ وَضَعَ فِضَّتَنَا فِي عِدَالِنَـــا» فأجابهم الرجل قائلا : «سَلاَمٌ لَكُمْ ، لاَ تَخَافُوا . إِلهُكُمْ وَإِلهُ أَبِيكُمْ أَعْطَاكُمْ كَنْزًا فِي عِدَالِكُـمْ . فِضَّتُكُمْ وَصَلَتْ إِلَيَّ» فزايلهم الانزعاج ، ولما انضم إليهم شمعون بعد ما أخرج من الســـجن أحسوا أن الله رحيم بهم حقا .

ولما قابلهم الحاكم مرة أخرى أحضروا إليه الهدية «وَسَجَدُوا لَهُ إِلَى الأَرْضِ» ومرة أخرى تذكر يوسف أحلامه . وبعدما سلم على ضيوفه أسرع يسأل : «أَسَالِمٌ أَبُوكُمُ الشَّيْخُ الَّذِي قُلْتُـمْ عَنْهُ ؟ أَحَيٌّ هُوَ بَعْدُ ؟ فَقَالُوا : عَبْدُكَ أَبُونَا سَالِمٌ . هُوَ حَيٌّ بَعْدُ» ثم وقعت عينيه على بنيامين فقال أهذا أخوكم- الصغير الذي قلتم لي عنه . ثم قال «اللهُ يُنْعِمُ عَلَيْكَ يَا ابْنِي» ولكن عواطف حنوه غلبته فلم يستطع أن يقول شيئا آخر ، «فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ وَبَكَى هُنَاكَ» .

بعدما ضبط عواطفه وتجلد عاد إليهم ثم تقدموا جميعا إلى مائدة الوليمة . وبموجب قـــانون الطبقات كان محرما على المصريين أن يأكلوا مع أي أناس من أمة أخرى ، ولذلك كان لبنـــي يعقوب مائدة خاصة بهم ، كما جلس الحاكم وحده نظرا لسمو مركزه ، وقد جلس المصريـــون على موائد أخرى وحدهم . فلما جلس الجميع اندهش الإخوة لأنهم انتظموا في جلستهم بموجب النظام المضبوط حسب أعمارهم ، «وَرَفَعَ حِصَصًا مِنْ قُدَّامِهِ إِلَيْهِمْ» أما حصة بنيامين فكــانت أكثر من حصص جميعهم خمسة أضعاف . فبهذا التفضيل الذي به ميز بنيامين أراد يوسف أن يتحقق هل كانوا سيحسدون أخاهم الأصغر ويبغضونه كما قد فعلوا به هو أم لا . وإذ كــانوا لا يزالون يظنون أن يوسف لا يفهم كلامهم جعلوا يتحدثون معا بكل حرية ، وهكذا كانت لديـــه فرصة عظيمة لمعرفة مشاعرهم الحقيقية . وإذ أراد أن يمتحنهم امتحانا آخـــر ، أمـــر قبـــل سفرهم أن يوضع طاسه الخاص الذي يشرب فيه ، طاس الفضـــة ســـرا فـــي عـــدل أخيـــهم الأصغر .

بكل فرح واغتباط عادوا في طريقهم إلى وطنهم ، وكان معهم شمعون وبنيامين ، وســـاقوا أمامهم دوابهم المحملة بالقمح وهم جميعا يحسون أنهم قد نجوا من كل المخاطر المحدقة بـــهم . ولكن ما أن وصلوا إلى أطراف المدينة حتى أدركهم وكيل الحاكم وقـــال لـــهم تلـــك الكلمـــة

الجارحة : «لِمَاذَا جَازَيْتُمْ شَرًّا عِوَضًا عَنْ خَيْرٍ ؟ أَلَيْسَ هذَا هُوَ الَّذِي يَشْرَبُ سَيِّدِي فِيهِ ؟ وَهُوَ يَتَفَاءَلُ بِهِ . أَسَأْتُمْ فِي مَا صَنَعْتُمْ» قيل أن ذلك الطاس كانت فيه خاصية عجيبة وهي اكتشاف أي مادة سامة توضح فيه . وفي تلك العصور كانت مثل تلك الكأس غالية القيمة جدا ، إذ كانت تقي صاحبها من الموت بالسم .

فأجاب أولئك المسافرون الوكيل بقولهم : «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ سَيِّدِي مِثْلَ هذَا الْكَلاَمِ ؟ حَاشَا لِعَبِيدِكَ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ هذَا الأَمْرِ ! هُوَذَا الْفِضَّةُ الَّتِي وَجَدْنَا فِي أَفْوَاهِ عِدَالِنَا رَدَدْنَاهَا إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ . فَكَيْفَ نَسْرِقُ مِنْ بَيْتِ سَيِّدِكَ فِضَّةً أَوْ ذَهَبًا ؟ الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ مِنْ عَبِيدِكَ يَمُوتُ ، وَنَحْنُ أَيْضًا نَكُونُ عَبِيدًا لِسَيِّدِي» .

فقال الوكيل : «نَعَمِ ، الآنَ بِحَسَبِ كَلاَمِكُمْ هكَذَا يَكُونُ . الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ يَكُونُ لِي عَبْدًا ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَكُونُونَ أَبْرِيَاءَ» .

وبدأ التفتيش في الحال «فَاسْتَعْجَلُوا وَأَنْزَلُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ إِلَى الأَرْضِ ، وَفَتَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ» ففتش الوكيل في كل عدل مبتدئا من عدل رأوبين وهكذا بالترتيب إلى أن وصل إلى عدل أخيهم الأصغر . وقد وجد الطاس في عدل بنيامين .

فمزق الإخوة ثيابهم علامة على منتهى الحزن والتعاسة ، ثم عادوا متباطئين إلى المدينة ، وبموجب وعدهم كان لا بد أن يصير بنيامين عبدا مدى الحياة . فتبعوا الوكيل إلى القصر ، وإذ وجدوا أن الحاكم لا يزال هناك وقعوا أمامه على الأرض ، فقال لهم : «مَا هذَا الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلْتُمْ ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَجُلاً مِثْلِي يَتَفَاءَلُ ؟» وقد قصد يوسف بهذا أن يسوقهم إلى الاعتراف بخطيتهم . إنه لم يدَّعِ قط أن له قوة على التفاؤل ، ولكنه أراد أن يجعلهم يعتقدون أنه يستطيع أن يقرأ أسرار حياتهم الخفية .

فقال يهوذا : «مَاذَا نَقُولُ لِسَيِّدِي ؟ مَاذَا نَتَكَلَّمُ ؟ وَبِمَاذَا نَتَبَرَّرُ ؟ اللهُ قَدْ وَجَدَ إِثْمَ عَبِيدِكَ . هَا نَحْنُ عَبِيدٌ لِسَيِّدِي ، نَحْنُ وَالَّذِي وُجِدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ جَمِيعًا» .

فأجابهم بقوله : «حَاشَا لِي أَنْ أَفْعَلَ هذَا ! الرَّجُلُ الَّذِي وُجِدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ هُوَ يَكُونُ لِي عَبْدًا ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاصْعَدُوا بِسَلاَمٍ إِلَى أَبِيكُمْ» .

فبحزن عميق تقدم يهوذا إلى الحاكم وصرخ قائلا : «اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي . لِيَتَكَلَّمْ عَبْدُكَ كَلِمَةً فِي أُذُنَيْ سَيِّدِي وَلاَ يَحْمَ غَضَبُكَ عَلَى عَبْدِكَ ، لأَنَّكَ مِثْلُ فِرْعَوْنَ» وبكلام فصيح مؤثر جدا

جعل يصف حزن أبيه عند فقد يوسف ، وأنه كان يرفض رفضا باتا أن ينزل ابنه بنيامين معهم إلى مصر لأنه الابن الوحيد الباقي له من أمه راحيل التي كان يحبها أعمق الحب ، ثم قال : «فَالآنَ مَتَى جِئْتُ إِلَى عَبْدِكَ أَبِي ، وَالْغُلاَمُ لَيْسَ مَعَنَا ، وَنَفْسُهُ مُرْتَبِطَةٌ بِنَفْسِهِ ، يَكُونُ مَتَى رَأَى أَنَّ الْغُلاَمَ مَفْقُودٌ ، أَنَّهُ يَمُوتُ ، فَيُنْزِلُ عَبِيدُكَ شَيْبَةَ عَبْدِكَ أَبِينَا بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ ، لأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ الْغُلاَمَ لأَبِي قَائِلاً : إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ أَصِرْ مُذْنِبًا إِلَى أَبِي كُلَّ الأَيَّامِ . فَالآنَ لِيَمْكُثْ عَبْدُكَ عِوَضًا عَنِ الْغُلاَمِ ، عَبْدًا لِسَيِّدِي ، وَيَصْعَدِ الْغُلاَمُ مَعَ إِخْوَتِهِ . لأَنِّي كَيْفَ أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَالْغُلاَمُ لَيْسَ مَعِي ؟ لِئَلاَّ أَنْظُرَ الشَّرَّ الَّذِي يُصِيبُ أَبِي» .

اكتفى يوسف بذلك ، فلقد رأى في إخوته ثمار التوبة الحقيقية . فإذ سمع كلام يهوذا وهو يقدم ذلك العرض النبيل أمر بإخراج كل من في البيت ما عدا أولئك الرجال . ثم أطلق صوته بالبكاء وصرخ قائلا : «أَنَا يُوسُفُ . أَحَيٌّ أَبِي بَعْدُ ؟» .

وقف إخوته بلا حراك . لقد عقد الخوف والذهول ألسنتهم عن الكلام . هل حاكم مصر هذا هو أخوهم يوسف الذي حسدوه وكانوا ينوون قتله وأخيرا باعوه بيع العبيد ! ومرت أمام عقولهم كل معاملاتهم الشريرة التي عاملوه بها . لقد ذكروا أنهم ازدروا أحلامه وحاولوا عدم تحقيقها ، ولكنهم قاموا بدورهم كاملا لتحقيقها . والآن ، وقد صاروا تحت سلطانه وفي قبضة يده ، فلا شك في أنه سينتقم منهم بسبب الظلم الذي أوقعوه عليه .

وإذ رأى ارتباكهم خاطبهم برفق قائلا : «تَقَدَّمُوا إِلَيَّ» فلما تقدموا إليه تابع كلامه قائلا : «أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ الَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ . وَالآنَ لاَ تَتَأَسَّفُوا وَلاَ تَغْتَاظُوا لأَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا ، لأَنَّهُ لاسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِيَ اللهُ قُدَّامَكُمْ» وإذ أحس بأنهم قاسوا ما فيه الكفاية لأجل قسوتهم عليه حاول بنبل أن يطرد مخاوفهم ويخفف من مرارة لومهم لأنفسهم .

فاستأنف كلامه قائلا : «لأَنَّ لِلْجُوعِ فِي الأَرْضِ الآنَ سَنَتَيْنِ . وَخَمْسُ سِنِينَ أَيْضًا لاَ تَكُونُ فِيهَا فَلاَحَةٌ وَلاَ حَصَادٌ . فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللهُ قُدَّامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الأَرْضِ وَلِيَسْتَبْقِيَ لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً . فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللهُ . وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَبًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ . أَسْرِعُوا وَاصْعَدُوا إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ : هكَذَا يَقُولُ ابْنُكَ يُوسُفُ : قَدْ جَعَلَنِيَ اللهُ سَيِّدًا لِكُلِّ مِصْرَ . انْزِلْ إِلَيَّ . لاَ تَقِفْ . فَتَسْكُنَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ وَتَكُونَ قَرِيبًا مِنِّي ، أَنْتَ وَبَنُوكَ وَبَنُو بَنِيكَ وَغَنَمُكَ وَبَقَرُكَ

230,231

وَكُلُّ مَا لَكَ . وَأَعُولُكَ هُنَاكَ ، لأَنَّهُ يَكُونُ أَيْضًا خَمْسُ سِنِينَ جُوعًا . لِئَلاَّ تَفْتَقِرَ أَنْتَ وَبَيْتُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ . وَهُوَذَا عُيُونُكُمْ تَرَى ، وَعَيْنَا أَخِي بَنْيَامِينَ ، أَنَّ فَمِي هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ ...» ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى . وبكى بنيامين على عنقه . وقبل جميع إخوته وبكى عليهم . وبعد ذلك تكلم إخوته معه ، وباتضاع اعترفوا بخطيتهم والتمسوا منه الصفح . لقد قاسوا طويلا من القلق وتبكيت الضمير ، وابتهجوا الآن لأنه لم يزل حياً .

وصلت تلك الأخبار بسرعة إلى الملك الذي إذ أراد أن يظهر شكره ليوسف وافق على دعوة الحاكم لإخوته قائلا : «خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ» وقد أرسل أولئك الإخوة إلى أبيهم مزودين بمؤونة وافرة وعجلات وكل ما كان لازما لنقل كل عائلاتهم وخدمهم إلى مصر . وأعطى يوسف لبنيامين عطايا أثمن مما أعطى لسائر إخوته . وإذ كان يخشى لئلا تنشب بينهم منازعات وهم في طريق عودتهم إلى وطنهم ، وإذ أوشكوا على السفر قدم لهم هذه النصيحة : «لاَ تَتَغَاضَبُوا فِي الطَّرِيقِ» .

فعاد بنو يعقوب إلى أبيهم بهذا الخبر المفرح ، «يُوسُفُ حَيٌّ بَعْدُ ، وَهُوَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ . فَجَمَدَ قَلْبُهُ لأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ . ثُمَّ كَلَّمُوهُ بِكُلِّ كَلاَمِ يُوسُفَ الَّذِي كَلَّمَهُمْ بِهِ ، وَأَبْصَرَ الْعَجَلاَتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لِتَحْمِلَهُ . فَعَاشَتْ رُوحُ يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ . فَقَالَ إِسْرَائِيلُ : كَفَى ! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ . أَذْهَبُ وَأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ» .

بقي للإخوة العشرة عمل آخر من أعمال التذلل والانسحاق . فها هم الآن يعترفون لأبيهم بكذبهم وقسوتهم التي مررت حياته وحياتهم طوال تلك السنين . ولم يكن يعقوب يظن أنهم سينحدرون إلى تلك الدركة من السفالة بارتكابهم لتلك الخطية ، ولكنه إذ رأى أن الله المتسلط على كل الأحداث قد حول ذلك الشر إلى خير غفر لأولاده المخطئين وباركهم .

بعد قليل سار الأب وأولاده وعائلاتهم وغنمهم وبقرهم وخدمهم الكثيرون متجهين إلى مصر . وتابعوا سيرهم بقلوب يغمرها الفرح . ولما وصلوا إلى بئر سبع قدم الأب الشيخ ذبائح شكر وتوسل إلى الله أن يؤكد لهم أنه سيذهب معهم . فجاءت إليه كلمة الله في رؤى الليل تقول له : «لاَ تَخَفْ مِنَ النُّزُولِ إِلَى مِصْرَ ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ . أَنَا أَنْزِلُ مَعَكَ إِلَى مِصْرَ ، وَأَنَا أُصْعِدُكَ أَيْضًا» .

إن هذا الوعد : «لاَ تَخَفْ مِنَ النُّزُولِ إِلَى مِصْرَ ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ» كان

وعدا له دلالته . لقد أعطي الوعد لإبراهيم بأن نسله سيكون كثيرا جدا كنجوم السماء ، ولكن إلى ذلك الحين كانت تلك الأمة المختارة قد نمت نموا بطيئا ، ولم تكن أرض كنعان حينئذٍ تصلح لأن تكون ميدانا لنمو تلك الأمة كما سبقت النبوات . فلقد كانت كنعان تحت سيطرة قبائل قوية لم يكن ممكنا انتزاع الأرض منهم إلى الجيل الرابع (تكوين ١٦: ١٥) . فإذا كان نسل إسرائيل سيصيرون أمة عظيمة في كنعان ، فإما أن يطردوا سكان البلاد وهذا ما لم يكونوا يستطيعون عمله كما قال لهم الله أو يتفرقوا بينهم ، ولكن لو أنهم اختلطوا بالكنعانيين فذلك يجعلهم يتعرضون لغوايات الأشرار ، فيشاركونهم في عبادة الأوثان . أما مصر فقد قدمت لهم الشروط اللازمة لإتمام قصد الله . فلقد سمح لهم بالنزول في جزء من الأرض كله ري وخصب وبذلك قدمت لهم فرصة للنمو السريع . أما النفور والكراهية التي ستبدو من المصريين نحوهم بسبب صناعتهم «لأَنَّ كُلَّ رَاعِي غَنَمٍ رِجْسٌ لِلْمِصْرِيِّينَ» (تكوين ٤٦: ٣٤)- هذا النفور سيساعدهم على أن يظلوا شعبا خاصا منعزلا ، ويباعد بينهم وبين مشاركة المصرين في عبادة الأوثان .

حالما وصلت تلك الجماعة إلى مصر تقدموا مباشرة إلى أرض جاسان ، وإلى هناك أتى يوسف في مركبته الرسمية يتبعه موكب لائق بأمير . لقد نسي يوسف جلال بيئته وعظمة مركزه ، ولكن فكرا واحدا شغل عقله وشوقا واحدا طاغيا اهتز له كيانه . فإذ أبصر أولئك المسافرين مقبلين عليه لم يعد يستطيع السيطرة على تلك الأشواق التي ظلت محتبسة في داخله سنين هذا عددها ، فقفز من مركبته وأسرع متقدما للترحيب بأبيه ، حيث «وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا . فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ : «أَمُوتُ الآنَ بَعْدَ مَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنَّكَ حَيٌّ بَعْدُ»» .

ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ليوقفهم أمام فرعون وليحصلوا على هبة الأرض التي سيسكنون فيها . وقد كان الملك يريد أن يكرم أولئك الرجال بتعيينهم في وظائف حكومية اعترافا منه بفضل رئيس وزرائه ، ولكن يوسف الذي كان أمينا في عبادته لله أراد أن يجنب إخوته التجارب التي سيتعرضون لها في بلاط الملك الوثني ، لذلك نصح لإخوته بأنه متى سألهم الملك أن يجيبوه بكل صراحة عن حرفتهم . وعمل أولاد يعقوب بنصيحة أخيهم كما حرصوا على أن يقولوا أنهم قد أتوا ليتغربوا في الأرض لا ليسكنوا فيها بصفة مستديمة ، وبذلك احتفظوا بحقهم في الرحيل إن هم أرادوا . وقد عين لهم الملك مساكن وأرضا في

«أَفْضَلِ الأَرْضِ» أي أرض جاسان .

وبعد وصولهم إلى مصر بقليل أتى يوسف بأبيه أيضا وقدمه إلى الملك . كان ذلك الشيخ الجليل غريبا في بلاط الملك ، ولكنه في وسط مناظر الطبيعة السامية الجميلة كانت له شركة مع ملك أعظم وأقوى ، والآن ، وهو عالم بسمو مكانته رفع يديه وبارك فرعون .

عندما التقى يعقوب يوسف ابنه أول مرة في مصر ، تكلم يعقوب كما لو أنه بتلك النهاية المفرحة لكل مخاوفه وأحزانه الطويلة كان مستعدا للموت . ولكن سبع عشرة سنة كانت ستوهب له ليقضيها في مقر جاسان الهادئ ، وكانت هذه السنون سعيدة ومفرحة بعكس ما كانت السنون التي سبقتها . ورأى في بنيه برهانا على صدق توبتهم كما رأى عائلته محاطة بكل الظروف المساعدة على نموها حتى تصير أمة عظيمة ، وقد تمسك إيمانه بوعد الرب الأكيد باستقرارهم في كنعان . وكان هو نفسه محاطا بكل دلائل المحبة والرضى التي أمكن رئيس وزراء مصر أن يمنحها له . وإذ كان سعيدا بوجوده مع ابنه الذي كان قد فقده سنين طويلة نزل إلى قبره بسكينة وسلام .

لما شعر يعقوب أن يوم مماته يقترب أرسل في استدعاء يوسف . وإذ كان لا يزال متمسكا بوعد الله الخاص بامتلاكهم كنعان أوصى ابنه قائلا : «لاَ تَدْفِنِّي فِي مِصْرَ ، بَلْ أَضْطَجِعُ مَعَ آبَائِي ، فَتَحْمِلُنِي مِنْ مِصْرَ وَتَدْفِنُنِي فِي مَقْبَرَتِهِمْ» فوعده يوسف بذلك ، ولكن يعقوب لم يقنع بذلك بل طلب منه أن يقسم قسما مقدسا بأن يدفنه إلى جوار آبائه في مغارة المكفيلة .

ثم بقيت هنالك مسألة أخرى هامة ، فإن ابني يوسف كان لا بد أن يحسبا من بني إسرائيل . فإذ كان ذلك آخر لقاء بين يوسف وأبيه أحضر معه ابنيه أفرايم ومنسى . فهذان الشابان كانا مرتبطين عن طريق أمهما بأسمى وظائف الكهنوت المصري . ثم أن مركز أبيهما فتح أمامهما موارد الثروة والشهرة لو أنهما اختارا الارتباط بالمصريين ومع ذلك فإن رغبة أبيهما يوسف كانت أن يتحدا بشعبهما . ولقد أعلن إيمانه بهذا الموعد نيابة عن ابنيه ، رافضا كل الكرامات التي يمكن أن يقدمها البلاط المصري في مقابل مكان بين عشائر الرعاة المحتقرين الذين استؤمنوا على أقوال الله .

فقال يعقوب : «الآنَ ابْنَاكَ الْمَوْلُودَانِ لَكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ ، قَبْلَمَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ إِلَى مِصْرَ

هُمَا لِي . أَفْرَايِمُ وَمَنَسَّى كَرَأُوبَيْنَ وَشِمْعُونَ يَكُونَانِ لِي» كان لا بد من أن يتبناهما وأن يكون كل منهما على رأس سبط مفصل . وهكذا نجد أن أحد امتيازات البكورية التي كان رأوبين قد أضاع حقه فيها صار من حق يوسف- أي نصيب اثنين في إسرائيل .

كانت عينا يعقوب ضعيفتين لكبر سنه فلم يفطن لوجود ذينك الشابين ، أما الآن وقد تراءى له أنه رأى معالم صورتهما سأل ابنه قائلا : «مَنْ هذَانِ ؟» فإذ علم من هما قال له : «قَدِّمْهُمَا إِلَيَّ لأُبَارِكَهُمَا» فلما اقتربا منه احتضنهما وقبلهما ثم وضع يديه بوقار على رأسيهما مباركا إياهما ، ومن ثم قدم هذه الصلاة ، «اللهُ الَّذِي سَارَ أَمَامَهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ ، اللهُ الَّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إِلَى هذَا الْيَوْمِ ، الْمَلاَكُ الَّذِي خَلَّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرّ ، يُبَارِكُ الْغُلاَمَيْنِ» لم يكن يرى فيه روح الاعتماد على النفس ، كلا ولا اعتمد على القوة البشرية أو المكر ، لقد كان الله هو الذي حفظه وسنده . إنه لم يتذمر على أيام الشر التي مرت به ، ولم يعتبر تجاربها وأحزانها على أنها أشياء معاكسه له ، ولم يذكر إلا رحمة الله ورأفته اللتين كانتا تلازمانه مدى أيام غربته .

وبعد ما انتهى يعقوب من بركته أعطى ابنه يقينا ، تاركا للأجيال القادمة ، مدى سنين طويلة من العبودية والآلام والأحزان- هذه الشهادة لإيمانه «هَا أَنَا أَمُوتُ ، وَلكِنَّ اللهَ سَيَكُونُ مَعَكُمْ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ» .

وفي النهاية اجتمع كل بني يعقوب حول فراش أبيهم الذي كان يحتضر . فدعا بنيه وقال لهم : «اجْتَمِعُوا وَاسْمَعُوا يَا بَنِي يَعْقُوبَ ، وَاصْغَوْا إِلَى إِسْرَائِيلَ أَبِيكُمْ» «أُنْبِئُكُمْ بِمَا يُصِيبُكُمْ فِي آخِرِ الأَيَّامِ» . ولطالما فكر في أمر مستقبلهم بخوف وجزع ، وحاول أن يرسم لنفسه صورة لتاريخ كل سبط . فالآن فيما كانوا مجتمعين حول سريره منتظرين الحصول على بركته الأخيرة حل عليه روح الوحي ، وأمامه في رؤيا نبوية انكشف له مستقبل نسله ، فجعل يذكر أسماء بنيه واحدا بعد الآخر ، ويصف أخلاق كل منهم ، ويتنبأ ، في كلمات مختصرة بتاريخ كل سبط في السنين القادمة- فقال : «رَأُوبَيْنُ ، أَنْتَ بِكْرِي ، قُوَّتِي وَأَوَّلُ قُدْرَتِي ، فَضْلُ الرِّفْعَةِ وَفَضْلُ الْعِزِّ» .

وهكذا صور الأب صورة لما كان يجب أن يكون عليه مركز رأوبين بوصفه الابن البكر . إلا أن خطيته الشنيعة التي ارتكبها في غدر جعلته غير مستحق لبركة البكورية . ثم استأنف

يعقوب كلامه عن رأوبين قائلا : «فَائِرًا كَالْمَاءِ لاَ تَتَفَضَّلُ» .

لقد أعطى الكهنوت للاوي ، والملك والوعد بمسيا ليهوذا ، ونصيب اثنين من الميراث ليوسف . أما سبط رأوبين فلم يرتفع إلى أية درجة من الرفعة أو السمو أو الشهرة في إسرائيل . لم يكن في الكثرة كما كان سبط يهوذا أو يوسف أو دان ، وكان أول الأسباط التي أخذت في السبي .

بعد رأوبين يأتي شمعون ولاوي الأصغر منه سنا . لقد اتحدا معا في قسوتهما ووحشيتهما التي عاملا بها أهل شكيم ، وكانا أكثر الإخوة إجراما عندما بيع يوسف عبدا . وقد أعلن عنهما أبوهما قائلا : «أُقَسِّمُهُمَا فِي يَعْقُوبَ ، وَأُفَرِّقُهُمَا فِي إِسْرَائِيلَ» .

وعندما عمل تعداد لإسرائيل قبيل الدخول إلى كنعان كان سبط شمعون أصغر الأسباط ، وعندما بارك موسى الشعب بركته الأخيرة لم يقل شيئا عن شمعون ، وعندما استقر الشعب في أرض كنعان لم يعط لهذا السبط غير جزء صغير من نصيب سبط يهوذا . والعائلات التي صارت قوية فيما بعد كونوا مستعمرات مختلفة وأقاموا في مقاطعات خارج حدود الأرض المقدسة . وكذلك لاوي لم يعط له ميراث ما خلا ثمانيا وأربعين مدينة متفرقة في أماكن مختلفة في البلاد . وفيما يختص بهذا السبط فإن إخلاصهم وولاءهم للرب عندما ارتدت الأسباط الأخرى حفظ لهم حقهم في خدمة الهيكل المقدسة . وهكذا استحالت اللعنة إلى بركة .

أما أفضل وأسمى بركات البكورية فقد أعطيت ليهوذا . إن معنى اسم يهوذا هو الحمد ، وهو ينكشف لنا في التاريخ النبوي لهذا السبط إذ يقول يعقوب : «يَهُوذَا ، إِيَّاكَ يَحْمَدُ إِخْوَتُكَ ، يَدُكَ عَلَى قَفَا أَعْدَائِكَ ، يَسْجُدُ لَكَ بَنُو أَبِيكَ . يَهُوذَا جَرْوُ أَسَدٍ ، مِنْ فَرِيسَةٍ صَعِدْتَ يَا ابْنِي ، جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ وَكَلَبْوَةٍ . مَنْ يُنْهِضُهُ ؟ لاَ يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ» .

إن الأسد الذي هو ملك الغابة هو رمز مناسب لهذا السبط الذي أتى منه داود وابن داود ، شيلون الذي هو«الأَسَدُ الَّذِي مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا» الذي له ستخضع كل القوات أخيرا ، وكل الأمم ستقدم سجودها وولاءها .

إن معظم أولاد يعقوب تنبأ لهم أبوهم بمستقبل ناجح . أخيرا وصل إلى اسم يوسف ، وحينئذ فاض قلب ذلك الأب حين استمطر البركات على «قِمَّةِ نَذِيرِ إِخْوَتِهِ» فقال : «يُوسُفُ ،

غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ عَلَى عَيْنٍ . أَغْصَانٌ قَدِ ارْتَفَعَتْ فَوْقَ حَائِطٍ . فَمَرَّرَتْهُ وَرَمَتْهُ وَاضْطَهَدَتْهُ أَرْبَابُ السِّهَامِ . وَلكِنْ ثَبَتَتْ بِمَتَانَةٍ قَوْسُهُ ، وَتَشَدَّدَتْ سَوَاعِدُ يَدَيْهِ . مِنْ يَدَيْ عَزِيزِ يَعْقُوبَ ، مِنْ هُنَاكَ ، مِنَ الرَّاعِي صَخْرِ إِسْرَائِيلَ ، مِنْ إِلهِ أَبِيكَ الَّذِي يُعِينُكَ ، وَمِنَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي يُبَارِكُكَ ، تَأْتِي بَرَكَاتُ السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ ، وَبَرَكَاتُ الْغَمْرِ الرَّابِضِ تَحْتُ . بَرَكَاتُ الثَّدْيَيْنِ وَالرَّحِمِ . بَرَكَاتُ أَبِيكَ فَاقَتْ عَلَى بَرَكَاتِ أَبَوَيَّ . إِلَى مُنْيَةِ الآكَامِ الدَّهْرِيَّةِ تَكُونُ عَلَى رَأْسِ يُوسُفَ ، وَعَلَى قِمَّةِ نَذِيرِ إِخْوَتِهِ» .

لقد كان يعقوب دائما إنسانا عميقا وملتهبا في محبته ، وكانت محبته لأولاده قوية ورقيقة ، وإن شهادته لهم في ساعة احتضاره لم تكن نطق إنسان محاب أو حاقد ، فلقد سامحهم جميعا وأحبهم إلى المنتهى . وإن رقته الأبوية كان يمكن أن تدفعه إلى أن يعبر عن مشاعره بكلمات التشجع والرجاء ، ومن قوة الله استقرت عليه ، وتحت تأثير الوحي الإلهي كان ملتزما أن يعلن الحق مهما كان جارحا ومؤلما .

وبعدما نطق يعقوب بأخر بركاته عاد يكرر وصيته لأولاده بخصوص مكان دفنه قائلا «أَنْضَمُّ إِلَى قَوْمِي . ادْفِنُونِي عِنْدَ آبَائِي فِي الْمَغَارَةِ الَّتِي فِي حَقْلِ عِفْرُونَ الْحِثِّيِّ . فِي الْمَغَارَةِ الَّتِي فِي حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ ... هُنَاكَ دَفَنُوا إِبْرَاهِيمَ وَسَارَةَ امْرَأَتَهُ . هُنَاكَ دَفَنُوا إِسْحَاقَ وَرِفْقَةَ امْرَأَتَهُ ، وَهُنَاكَ دَفَنْتُ لَيْئَةَ» وهكذا كان آخر ما عمله في حياته أن أعلن إيمانه بوعد الله .

كانت سنو حياة يعقوب الأخيرة سني هدوء وراحة ، بعد حياة كلها اضطرابات ومتاعب ، فلقد انعقدت السحب السوداء في سماء حياته ، ومع ذلك فقد سطع نور شمسه عند غروبها وأنار نور السماء ساعاته الوداعية . والكتاب يقول : «يَحْدُثُ أَنَّهُ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ يَكُونُ نُورٌ» (زكريا ١٤: ٧) «لاَحِظِ الْكَامِلَ وَانْظُرِ الْمُسْتَقِيمَ ، فَإِنَّ الْعَقِبَ لإِنْسَانِ السَّلاَمَةِ» (فإن نهاية ذلك الإنسان هي السلام» (مزمور ٣٧: ٣٧) .

لقد أخطأ يعقوب ولكنه قاسى أهوالا كثيرة . كانت معظم أيام حياته أيام متاعب وهموم وأحزان منذ ذلك اليوم الذي فيه ارتكب خطيته العظيمة التي جعلته يهرب من خيام أبيه ، إذ صار هاربا بلا مأوى ، وانفصل عن أمه التي لم يرها بعد ذلك ، وخدم سبع سنين ليتزوج بالفتاة التي أحبها ، ولكنه خدع خداعا دل على منتهى النذالة ، وقضى عشرين سنة في خدمة خاله الجشع الطماع ، ورأى ثروته تربو وتزيد ، وأولاده يشبون ويكبرون

من حوله ، ولكنه لم يسعد بسبب المنازعات الناشبة في عائلته المنقسمة على ذاتها ، كما حزن وتألم للعار الذي لطخ ابنته ، وبسبب الانتقام الرهيب الذي قام به أخواها ، كما حزن لموت راحيل ، وبسبب جريمة رأوبين الغير الطبيعية ، وبسبب خطية يهوذا ، وبسبب المكر والخداع الذي عومل به يوسف– يا لها من قائمة طويلة قاتمة سوداء مشحونة بالشرور الظاهرة للعيان ! إنه مرارا كثيرة حصد ثمار ذلك العمل الخاطئ الأول الذي ارتكبه ، ومرارا كثيرة رأى نفس الخطايا التي ارتكبها تتكرر في حياة أبنائه ، ولكن مع أن ذلك التأديب كان مريرا وقاسيا إلا أنه أتم عمله . إن التأديب وإن يكن جالبا للحزن إلا أنه يعطى الذين يتدربون به «ثَمَرَ بِرّ لِلسَّلاَمِ» (عبرانيين ١٢: ١١) .

إن الوحي المقدس يسجل بكل أمانة أخطاء الناس الصالحين ، أولئك الذين قد ميزهم الله بإحساناته ورضاه . وفي الحق أن أخطاءهم مشروحة بإسهاب أكثر من فضائلهم ، وكان هذا من أسباب دهشة الكثيرين ، كما أعطى للملحدين مجالا للسخرية بالكتاب . ولكن من أنصع البراهين على صدق كتاب الله أن الحقائق المذكورة فيه لا تعدل ولا تنمق ، وخطايا الشخصيات العظيمة فيه لم تحذف ولا أغفل ذكرها . إن عقول الناس خاضعة للتعصب إلى حد أنه من غير الممكن أن تكون التواريخ العالمية بريئة تماما من المحاباة . ولو أن كتبة الأسفار المقدسة كانوا أناسا غير موحى إليهم من الله فلا شك في أنهم كانوا يوردون أخلاق الشخصيات النبيلة فيها بصورة جميلة جذابة كاذبة . ولكن ، والكتاب على ما هو عليه الآن ، فإن لنا فيه شهادة مضبوطة لاختباراتهم .

إن الذين أحسن الله إليهم فأكرمهم وائتمنهم على مسؤوليات جسام انغلبوا أحيانا أمام التجربة فارتكبوا الخطية ، تماما كما نكافح نحن في أيامنا هذه ونترنح وكثيرا ما نسقط في الخطأ . فحياتهم بكل ما فيها من أخطاء وحماقات مبسوطة أمامنا لأجل تشجيعنا وإنذارنا . فلو صورهم الكتاب على أنهم معصومون من الخطأ ، فإننا بطبيعتنا الخاطئة نيأس بسبب أخطائنا وسقطاتنا . ولكن إذ نرى آخرين قد كافحوا في وسط المثبطات كما هي حالنا حيث سقطوا في التجربة كما فعلنا نحن ، ومع ذلك تشجعوا وغلبوا بنعمة الله ، فإننا نتشجع في سعينا في أثر البر . وكما كانت الحال معهم ، إذ مع كونهم انهزموا وتقهقروا فقد استردوا مواقعهم وباركهم الله فكذلك نحن أيضا يمكننا أن ننتصر بقوة يسوع . ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون شهادة حياتهم تحذيرا لنا ، فهي ترينا أن الله لا يمكن أن يبرر الفاجر ، إنه يرى الخطية في أحب الناس إليه ، ويحاسبهم عليها

بكل دقة وصرامة أكثر مما يعامل به أولئك الذين عندهم قليل من النور والمسؤولية .

بعد دفن يعقوب عاد الخوف يعتصر قلوب إخوة يوسف ، إذ بالرغم من رأفته ومظاهر محبته لهم فإن شعورهم بجريمتهم جعلهم متخوفين ومتطيرين . ربما هو أخَّر انتقامه منهم توقيرا لأبيهم ، ولكن الآن ، وقد خلا له الجو ، فلا بد من أن يصب عليهم جام انتقامه ، لأجل جريمتهم بعدما أرجأه طويلا . لم يجرؤوا على الظهور أمامه بأنفسهم فأرسلوا إليه رسالة يقولون فيها : «أَبُوكَ أَوْصَى قَبْلَ مَوْتِهِ قَائِلاً : هكَذَا تَقُولُونَ لِيُوسُفَ : آهِ ! اصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ إِخْوَتِكَ وَخَطِيَّتِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ صَنَعُوا بِكَ شَرًّا . فَالآنَ اصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ عَبِيدِ إِلهِ أَبِيكَ» تأثر يوسف من هذه الرسالة أبلغ تأثر حتى أنه بكى . وإذ تشجع إخوته بهذه العواطف النبيلة أتوا ووقعوا أمامه وقالوا : «هَا نَحْنُ عَبِيدُكَ» لقد كانت محبة يوسف لإخوته عميقة ، ولا أثر فيها للأنانية ، فآلمه الفكر بأنهم يعتبرون أنه يضمر لهم الشر أو ينوي أن ينتقم منهم ، لذلك قال لهم «لاَ تَخَافُوا . لأَنَّهُ هَلْ أَنَا مَكَانَ اللهِ ؟ أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرًّا ، أَمَّا اللهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا ، لِكَيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ ، لِيُحْيِيَ شَعْبًا كَثِيرًا . فَالآنَ لاَ تَخَافُوا . أَنَا أَعُولُكُمْ وَأَوْلاَدَكُمْ» .

كانت حياة يوسف رمزا لحياة المسيح . فالحسد هو الذي دفع إخوة يوسف ليبيعوه بيع العبيد ، وكانوا يؤملون أن يحولوا بينه وبين التفوق عليهم . وحين أخذ إلى مصر كانوا يهنئون أنفسهم بأنه لن يعود يزعجهم بأحلامه ، بحيث استبعدوا إمكانية تحقيق تلك الأحلام . ولكن الطريق الذي انتهجوه قد سيطر عليه الله لكي يتم ذلك الشيء الذي قصدوا إحباطه . وكذلك كهنة اليهود وشيوخهم يحسدون المسيح خشية أن يجتذب إليه جماهير الشعب فينفضّون من حولهم ، ولقد صلبوه وقتلوه ليحولوا بينه وبين صيرورته ملكا ، ولكنهم بعملهم هذا كانوا يساعدونه على تحقيق السيادة والملك لنفسه .

إن يوسف عن طريق بيعه عبدا في مصر صار مخلصا لعائلة أبيه ، ومع ذلك فهذه الحقيقة لم تخفف من هول جريمة إخوته . وهكذا إذ صلب المسيح بأيدي أعدائه صار فاديا ومخلصا لجنسنا الساقط ، وملكا على كل العالم ، ولكن جريمة قاتليه كانت شنيعة جدا كما لو أن العناية الإلهية لم تسيطر على الأحداث لمجده ولخير الإنسان .

وكما بيع يوسف بأيدي إخوته إلى قوم وثنيين هكذا بيع المسيح لألد أعدائه بيد أحد تلاميذه . إن يوسف اتهم باطلا وطرح في السجن لأنه كان إنسانا فاضلا ، وكذلك المسيح

احتقر ورذل لأن حياته البارة المنكرة لذاتها كانت توبيخا صارما للخطية . ومع أنه لم يرتكب ظلما ولا هفا هفوة فقد حكم عليه بالموت بناء على شهادة شهود الزور . ثم أن صبر يوسف ووداعته وهو يواجه الظلم والتعسف ، وغفرانه السريع وإحسانه النبيل لإخوته المخادعين– كل هذا يرمز إلى احتمال المخلص ، في غير تذمر أو شكوى ، حقد الأشرار وافتراءاتهم وإهاناتهم ، وغفرانه ليس فقط لقاتليه بل أيضا لكل من يأتون إليه معترفين بخطاياهم وطالبين الغفران .

لقد عاش يوسف أربعا وخمسين سنة بعد موت أبيه . عاش ليرى أولاد أفرايم إلى الجيل الثالث ، كما أن «أَوْلاَدُ مَاكِيرَ بْنِ مَنَسَّى أَيْضًا وُلِدُوا عَلَى رُكْبَتَيْ يُوسُفَ» رأى شعبه في حال النمو والنجاح . وعلى مر السنين لم يتزعزع إيمانه بأن الله سيرجع إسرائيل إلى أرض الموعد .

وحين رأى يوسف أن نهايته قد دنت استدعى أقرباءه إليه . ومع أنه كان مكرما في أرض الفراعنة فقد كان يعتبر مصر أرض مذلة له وأرض اغتراب . وكان آخر عمل عمله إعلانه لهم أنه قد ألقى قرعته مع بني إسرائيل . وكان آخر ما قاله أن «اللهَ سَيَفْتَقِدُكُمْ وَيُصْعِدُكُمْ مِنْ هذِهِ الأَرْضِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» وقد استحلف بني إسرائيل أن يحملوا عظامه إلى أرض كنعان . «ثُمَّ مَاتَ يُوسُفُ وَهُوَ ابْنُ مِئَةٍ وَعَشَرِ سِنِينَ ، فَحَنَّطُوهُ وَوُضِعَ فِي تَابُوتٍ فِي مِصْرَ» وطيلة أجيال التعب التي مرت بعد ذلك كان ذلك التابوت مذكرا لبني إسرائيل بكلمات يوسف التي نطق بها عند موته ، وشاهدا لهم بأنهم إنما هم غرباء في مصر ، وآمرا إياهم بأن يحتفظوا بآمالهم مركزة في أرض الموعد ، لأن يوم النجاة والخلاص آت ما من ذلك بد .

الفصل الثاني والعشرون

موسى

إن شعب مصر لكي يتزودوا بالطعام في سني الجوع باعوا للدولة مواشيهم وأراضيهم ، وأخيرا اضطروا أن يصيروا عبيدا مدى الحياة . وقد دبر يوسف بحكمته أمر تحريرهم فسمح لهم بأن يكونوا مستأجرين ، يأخذون أراضيهم من الملك على أن يدفعوا خراجا سنويا هو خمس حاصل كدهم .

أما بنو يعقوب فلم يكونوا ملتزمين بمثل تلك الالتزامات . لأنه في مقابل الخدمات التي أداها يوسف للأمة المصرية أعفوا من الضرائب ، فضلا عن كونهم قد أعطوا قسما من البلاد للسكنى ، كما أعطي لهم طعام بسخاء في سني الجوع . وقد اعترف الملك أمام الملأ بأن السر في وجود الخير الوفير في مصر في الوقت الذي تهلك فيه الأمم التي حولها جوعا هو تداخل إله يوسف ورحمته ، كما رأى أن حسن إدارة يوسف وتدبيره قد زادا في الغنى والرخاء الذي عم المملكة ، وكأن من مظاهر شكره لرئيس وزرائه أن شمل عائلة يعقوب بإحساناته ورضاه .

ولكن بمرور الزمن مات ذلك الرجل العظيم الذي كانت مصر مدينة له بالكثير ، كما ملت ذلك الجيل الذي تمتع بثمار جهوده وتحبه ، «ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ» (خروج ١؛ ٢: ١–١٠) ولكن هذا ليس معناه أنه كان يجهل ما قام به يوسف لمصر من خدمات ، بل معناه أنه لم يرد أن يعترف بها ، وعلى قدر الامكان جعلها تنسى من الأذهان . «فَقَالَ لِشَعْبِهِ : هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا . هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا ، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ» .

كان الإسرائيليون في ذلك الحين قد كثروا جدا «فَأَثْمَرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمَوْا وَكَثُرُوا كَثِيرًا جِدًّا ، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ» فبفضل رعاية يوسف ورضى الملك الذي كان يملك حينئذ

انتشروا في كل البلاد ، ولكنهم ظلوا شعبا منفصلا يسكن وحده ، لا صلة لهم بـــالمصريين لا في عاداتهم ولا في ديانتهم . فهذا النمو وهذا التكاثر أثار مخاوف الملك وشعبه لئلا إذا نشــبت حرب ينضموا إلى أعداء مصر . ولكن أنظمة الدولة منعت الملك من طرد الشعب من البلاد ، فقد كان كثيرون منهم عمالا مقتدرين وذوي فهم . وزادوا في ثراء الأمة كثيرا ، وكان الملــك بحاجة إلى مثل أولئك الفعلة في بناء قصوره وهياكله الفخمة ، ولذلــك جعلــهم فــي صــف المصريين الذين كانوا قد باعوا أنفسهم مع أملاكهم للدولة . وسرعان ما أقيم عليهم مســخرون فكملت عبوديتهم «فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ ، وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِــيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ . كُلِّ عَمَلِهِمِ الَّذِي عَمِلُــوهُ بِوَاسِــطَتِهِمْ عُنْفًــا» «وَلكِنْ بِحَسْبِمَا أَذَلُّوهُمْ هكَذَا نَمَوْا وَامْتَدُّوا» .

وكان ملك مصر ومشيروه يرجون أنهم سيتغلبون على الإسرائيليين بتسخيرهم إياهم فــــي الأشغال الشاقة ، وهكذا يقللون عددهم ويسحقون روحهم الاستقلالية . فإذ أخفقوا في الوصــول إلى غرضهم لجأوا إلى إجراءات أشد قسوة ، فلقد صدرت الأوامر إلى القابلتين اللتيــن كــان عملهما يعطيهما فرصة لتنفيذ أوامر الملك بأن يقتلا أبناء العبرانيين حيــن يولــدون . وكــان الشيطان هو المحرض في هذا الأمر ، لأنه كان يعلم أن مخلصا سيقوم من بين الإســرائيليين ، فإذ يسوق الملك لإهلاك أبنائهم سيكون قادرا على إحباط قصد الله . ولكن القابلتين خافتــا الله ولم تجسرا على تنفيذ ذلك الأمر القاسي . وقد رضى الرب عن مسلكهما وأنجحهما . وغضب الملك لفشله في إتمام غرضه ، ولذلك جعل أمره ناجزا وشاملا إذ أمر الأمة كلها أن تطــارد كل أولئك الضحايا العاجزين . «ثُمَّ أَمَرَ فِرْعَوْنُ جَمِيعَ شَعْبِهِ قَائِلاً : كُلُّ ابْنٍ يُولَدُ تَطْرَحُونَــهُ فِي النَّهْرِ ، لكِنَّ كُلَّ بِنْتٍ تَسْتَحْيُونَهَا» .

فإذ كان هذا الأمر ساريا أنجبت يوكابد ابنا لعمرام ، وهما زوجان تقيان من ســبط لاوي . وكان الصبي حسن الصورة . وإذ كان ذانك الأبوان يؤمنان بأن يوم تحرير إسرائيل يقــترب ، وأن الله سيقيم لهم مخلصا من شعبه صمما على أن يحولا دون هلاك ابنهما . وقد قوى قلبيهما إيمانهما بالله «وَلَمْ يَخْشَيَا أَمْرَ الْمَلِكِ» (عبرانيين ١١: ٢٣) .

أفلحت الأم في إخفاء ابنها ثلاثة أشهر ، ولكنها لم تستطع أن تخبئه أكثر فصنعت له ســفطا من البردي وطلته بالحمر والزفت منعا لتسرب المياه إليه ووضعت فيه وليدها ثم وضعته بيــن

الحلفاء على حافة النهر ، ولم تجرؤ على الوقوف لمراقبته لئلا يقضى عليها وعلى ابنها بالموت . ولكن أخت ذلك الطفل ، واسمها مريم ، وقفت من بعيد . وإذ تظاهرت بعدم الاكتراث له كانت بكل شوق ولهفة تراقبه لترى ماذا يصنع بأخيها الصغير . ولكن كان هنالك حراس آخرون ، فإن الأم بصلواتها الحارة أسلمت ابنها بين يدي الله ، ولذلك كان الملائكة يحفون بذلك المهد المتواضع وإن لم ينظرهم أحد . وقد أرشد الملائكة ابنة فرعون إلى ذلك المكان . فأثارت رؤيتها لذلك السفط فضولها ، وإذ نظرت الطفل الجميل الذي فيه ، قرأت قصته في لمحة ، واستدرت دموع ذلك الطفل عطفها ، كما تناول ذلك العطف تلك الأم المجهولة التي لجأت إلى هذه الوسيلة لحفظ حياة وليدها الغالي ، فصممت على إنقاذه واتخاذه ابنا لها .

وكانت مريم تراقب سرا كل حركة ، فإذ رأت الرعاية والشفقة اللتين عومل بهما الطفل تجرأت واقتربت أكثر ، وأخيرا قالت لابنة فرعون : «هَلْ أَذْهَبُ وَأَدْعُو لَكِ امْرَأَةً مُرْضِعَةً مِنَ الْعِبْرَانِيَّاتِ لِتُرْضِعَ لَكِ الْوَلَدَ ؟» فسمحت لها بذلك .

أسرعت الفتاة إلى أمها تزف اليها هذه البشرى وبدون إبطاء ذهبت بها إلى ابنة فرعون التي قالت للأم : «اذْهَبِي بِهذَا الْوَلَدِ وَأَرْضِعِيهِ لِي وَأَنَا أُعْطِي أُجْرَتَكِ» .

لقد سمع الله صلوات الأم وكافأ إيمانها ، فبشكر عميق لله عادت الأم لذلك العمل المفرح المحبب إلى قلبها وهو إرضاع ابنها بلا خوف ، وأحسنت استخدام هذه الفرصة في تعليم ابنها عن الله ، وكانت واثقة بأن الله قد أبقى على حياة ابنها لأن له عملا عظيما يعمله ، كما علمت أن «أمه» ابنة الملك ستأخذه إلى القصر بعد قليل ، حيث يكون محاطا بمؤثرات تعمل على إبعاده عن الله . كل هذا جعلها تبذل جهدا وحرصا أعظم في تعليمه مما بذلت مع باقي أولادها . لقد حاولت أن ترسخ في ذهنه مخافة الله ومحبته وحقه وعدله ، وصلّت بكل حرارة طالبة من الرب أن يحفظه من كل العوامل المفسدة ، وكشفت لابنها عن جهالة وخطية عبادة الأوثان ، ومنذ نعومة أظفاره علمته أن يقدم سجوده وصلواته إلى الله الحي الذي يستطيع وحده أن يسمعه ويعينه في كل الظروف التي تمر به .

أبقت ذلك الصبي عندها أطول مدة ممكنة ، ولكنها اضطرت في النهاية إلى تسليمه لابنة الملك وقد بلغ حوالي الثانية عشرة من عمره ، فأخذ من ذلك البيت المتواضع إلى ابنة فرعون

في قصرها الملكي «فَصَارَ لَهَا ابْنًا» ومع ذلك فحتى وهو في ذلك المكان لم تفارقه تلك المؤثرات التي انطبعت على قلبه في طفولته . لم يكن لذلك الصبي أن ينسى تلك الدروس التي لقنته إياها أمه ، لا بل كانت له درعا حفظته من الكبرياء والإلحاد والرذيلة المتفشية بين رجال البلاط .

ما كان أعظم وأبعد تأثير تلك الأم العبرانية مع أنها كانت متغربة وأمة مستعبدة ! إن كل حياة موسى المستقبلة والرسالة العظيمة التي قام بها قائدا لإسرائيل تشهد لأهمية عمل الأم المسيحية ، وليس عمل آخر يضارع هذا العمل . إن الأم تمسك مصير أطفالها بين يديها إلى مدى بعيد جدا . إنها تتعامل مع العقول والأخلاق في نموها وتطورها ، وهي تعمل لا للزمن الحاضر وحده بل للأبدية . إنها تبذر البذار الذي لابد من أن يطلع وينمو ويثمر ، إن خيرا وإن شرا . إنها لا ترسم صورة جميلة ولا تنحت تمثالا رائعا من المرمر ، ولكنها تطبع صورة الله على نفس بشرية . فعلى الأم تقع مسؤولية تكوين أخلاق أولادها خصوصا في بكور حياتهم ، لأن تلك الانطباعات التي تتأثر بها عقولهم النامية في طفولتهم لن تمحى ، بل لا بد من أن تلازمهم مدى الحياة . فعلى الآباء أن يهتموا بتوجيه أولادهم وهم يعلمونهم ويدربونهم في صغرهم حتى يصيروا مسيحيين . إنهم موضوعون تحت رعايتنا لنربيهم ، لا لكي يرثوا عرش مملكة أرضية بل كملوك لله ليملكوا مدى دهور الأبد .

لتشعر كل أم أن لحظات حياتها لا تقدر بثمن ، وأن عملها سيمتحن في يوم الحساب الرهيب . وحينئذ سيرى أن كثيرا مما أصاب الرجال والنساء من فشل وما اقترفوه من جرائم كان منشأه جهل وإهمال الذين كان واجبهم يقتضي أن يقودوا خطواتهم في طفولتهم في الطريق القويم ، كما سيرى أن كثيرين ممن قد باركوا العالم بنور العبقرية والحق والقداسة يعزون المبادئ التي دفعتهم إلى انتهاج طريق التأثر الصالح والنجاح إلى أمهاتهم المسيحيات المصليات .

وفي بلاط فرعون حصل موسى على أسمى تهذيب مدني وعسكري ، فلقد صمم الملك على أن يجعل حفيده المتبنى هذا خليفته على العرش ، ولذلك تهذب هذا الشاب ليكون جديرا بهذا المركز الخطير «فَتَهَذَّبَ مُوسَى بِكُلِّ حِكْمَةِ الْمِصْرِيِّينَ ، وَكَانَ مُقْتَدِرًا فِي الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ» (أعمال ٧: ٢٢) وإن مقدرته كقائد حربي حببته إلى قلوب كل جيوش مصر ، وكان الجميع يعتبرونه شخصية عظيمة . ولقد انهزم الشيطان فلم يفلح في ما كان ينتويه ،

فالمنشور نفسه الذي صدر حاكما بالموت على أطفال العبرانيين حوله الله إلى تعليم وتـــهذيب ذاك الذي سيكون قائدا لشعبه فيما بعد .

علَّم الملائكة شيوخ بني إسرائيل أن وقت نجاتهم قريب ، وأن موسى هو الشخص الــــذي سيستخدمه الله في إنقاذهم ، كما أعلم الملائكة موسى أيضا أن الله قد اختاره لكسر نير عبودية شعبه ، وإذ ظن أنهم سيحصلون على حريتهم بقوة السلاح كان ينتظر أن يجرد بني إســـرائيل ضد جيوش مصر ، فإذ كان مشغولا بهذا الأمر أراد أن يضبط عواطفه لئلا يعطله تعلقه بأمــه المربية أو بفرعون عن عمل إرادة الله .

وبموجب قوانين مصر كان على من يعتلون عرش الفراعنة أن يكونوا أعضاء في هيئـــة الكهنوت . فموسى الذي كان الوارث العتيد للعرش كان عليه أن يطلع علـــى أســرار ديانــة الأمة ، وهذا الواجب كان موكولا للكهنة ، ولكن مع أن موسى كان تلميذا مجتهدا لا يعــــرف الكسل لم يمكن إغواؤه للاشتراك في عبادة الكهنة ، فهددوه بأن ذلك قد يفقده التاج المصــوي ، وأنذروه بأن الأميرة قد تتبرأ منه إذا ظل متمسكا بعقيدته العبرانية ، ولكن لم يمكن زحزحتـــه عن تصميمه على ألا يقدم ولاءه وعبادته لغير الإله الواحد خالق السماوات والأرض . وكــان يناقش الكهنة ويجادل العابدين مبينا لهم جهالة توقيرهم الخرافي لأشياء لا تحس ولا تشــعر ، ولم يستطع أحد أن يدحض حججه أو يحوله عن غرضه ، غير أنهم صبروا على عناده وثباته إلى حين بسبب منزلته الرفيعة والرضى العام الذي كان له في قلب الملك والشعب .

«بِالإِيمَانِ مُوسَى لَمَّا كَبِرَ أَبَى أَنْ يُدْعَى ابْنَ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ ، مُفَضِّلاً بِالأَحْرَى أَنْ يُـــذَلَّ مَـــعَ شَعْبِ اللهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ تَمَتُّعٌ وَقْتِيٌّ بِالْخَطِيَّةِ ، حَاسِبًا عَارَ الْمَسِيحِ غِنًى أَعْظَمَ مِـــنْ خَزَائِـــنِ مِصْرَ ، لأَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْمُجَازَاةِ» (عبرانيين ١١: ٢٤-٢٦) لقد كان موسى مؤهـــلا لأن يكون مفضلا على كل عظماء الأرض ، وأن يشتهر في بلاط أمجد ممالكـــها ، وأن يتســلط عليها بقضيب ملكها . إن عظمة عقله الجبار جعلته ممتازا بين أعــاظم الرجــال فــي كــل الأجيال . فكمؤرخ وشاعر وفيلسوف وقائد للجيوش ومشترع لم يكن له ند يضارعــه . ومــع ذلك ففيما كان يستعرض العالم أمامه كانت له قوة أدبية عظيمة جعلتــه يرفــض مــا للغنــى والعظمة والشهرة من آمال خلابة خادعة . «مُفَضِّلاً بِالأَحْرَى أَنْ يُذَلَّ مَعَ شَعْبِ اللهِ عَلَـــى أَنْ يَكُونَ لَهُ تَمَتُّعٌ وَقْتِيٌّ بِالْخَطِيَّةِ» .

كان موسى قد تعلم شيئا عن المجازاة الأخيرة التي ستعطى لعبيد الله المتواضعين المطيعين ، لذلك أصبحت الأرباح العالمية تافهة وعديمة الأهمية في نظره . فقَصْر فرعون العظيم وعرش الملك عرضا على موسى لإغرائه ، ولكنه عرف أن تمتعات الخطية التي تجعل الناس ينسون الله كانت تربض في البلاط الملكي . لقد نظر إلى ما هو أبعد من القصر الفخم العظيم ، وتاج الملك ، إلى الكرامة العظيمة التي سيمنحها الرب العلي لقديسيه في ملكوت لا تدنسه الخطية . لقد رأى بالإيمان إكليلا لا يفنى يضعه ملك السماء على هامة الرجل المنتصر ، فهذا الإيمان جعله يتحول عن وجهاء الأرض وعظمائها ويتحد بتلك الأمة المحتقرة الفقيرة التي آثرت الطاعة لله على خدمة الخطية .

ظل موسى في بلاط فرعون حتى بلغ الأربعين من عمره ، وكثيرا ما اتجهت أفكاره إلى الحالة المحتقرة الذليلة التي كان فيها شعبه ، وزار إخوته في عبوديتهم وشجعهم ، مؤكدا لهم أن الله سيخلصهم . وفي غالب الأحيان إذ كان يثيره إلى حد الحقد الشديد منظر الظلم والطغيان الواقعين عليهم . كان قلبه يلتهب في داخله متلهفا إلى أن يثأر لهم عن تلك المظالم . ففي أحد الأيام إذ خرج لينظر في أثقالهم ورأى مصريا يضرب إسرائيليا وثب على المصري وقتله . ولم يكن هناك شاهد عيان لذلك الحادث غير الإسرائيلي . وطمر موسى جثة ذلك المصري في الرمل في الحال . فها هو قد أظهر الآن استعداده للدفاع عن حقوق بني شعبه ، وكان يرجو أنهم سيهبون لاسترداد حريتهم «فَظَنَّ أَنَّ إِخْوَتَهُ يَفْهَمُونَ أَنَّ اللهَ عَلَى يَدِهِ يُعْطِيهِمْ نَجَاةً ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا» (أعمال ٧: ٢٥) إنهم لم يكونوا مهيئين للحرية بعد . وفي اليوم الثاني رأى موسى اثنين من العبرانيين يتخاصمان ، ووضح أن أحدهما كان مخطئا في حق أخيه ومتجنيا عليه ، فوبخ موسى ذلك المعتدي الذي أراد في الحال أن يثأر من موبخه ، منكرا عليه حقه في التدخل ، وبكل خسة اتهمه بالإجرام قائلا له : «مَنْ جَعَلَكَ رَئِيسًا وَقَاضِيًا عَلَيْنَا ؟ أَمُفْتَكِرٌ أَنْتَ بِقَتْلِي كَمَا قَتَلْتَ الْمِصْرِيَّ ؟ . فَخَافَ مُوسَى وَقَالَ : حَقًّا قَدْ عُرِفَ الأَمْرُ» (خروج ٢: ١٤) .

وسرعان ما عرف المصريون بالأمر كله ، ووصل الخبر إلى مسامع فرعون مبالغا فيه جدا ، إذ صوروا الخبر لفرعون على أنه يعني الشيء الكثير ، وعلى أن موسى قصد أن يقود شعبه لمحاربة المصريين لقلب الحكومة وليقيم نفسه ملكا ، وأن المملكة لن يكون لها أمان بل ستكون مهددة ما دام موسى على قيد الحياة . فصمم الملك في الحال على قتله ، فحالما علم

بالخطر المحيق به هرب إلى بلاد العرب .

وقد أرشد الرب خطواته ، فسكن مع يثرون كاهن مديان وحاكمها الذي كان هو أيضا ممن يعبدون الله . وبعد ذلك تزوج موسى إحدى بنات يثرون ، وظل أربعين سنة يرعى غنم حميه .

إن موسى إذ قتل المصري ارتكب نفس الغلطة التي طالما ارتكبها أجداده ، وهي محاولتهم القيام بالعمل الذي وعد الله بأن يقوم به . لم تكن إرادة الله أن يخلص شعبه عن طريق إثارة الحرب كما ظن موسى ، بل بقوته العظيمة لكي ينسب المجد لله وحده . ولكن حتى هذه الفعلة الطائشة سيطر الله عليها لإتمام مقاصده ، فإن موسى لم يكن مهيأ لعمله العظيم ، فلقد بقي عليه أن يتعلم درس الإيمان الذي تعلمه إبراهيم ويعقوب من قبل- وهو ألا يعتمد على قوته أو حكمته البشرية بل على قدرة الرب لإنجاز مواعيده . كما كانت هنالك دروس أخرى وجب على موسى أن يتلقاها وهو منفرد في الجبال ، فكان عليه أيضا أن يتعلم دروس الصبر والعلم والتحكم في عواطفه وغضبه في مدرسة إنكار الذات ، والمشقات . فقبلما يستطيع أن يحكم حكما صائبا وجب أن يتدرب على الطاعة ، وأن يكون قلبه متوافقا تماما مع إرادة الله قبلما يعلم إسرائيل تلك الإرادة المقدسة . وعن طريق اختباره الشخصي كان عليه أن يعد لممارسة الرعاية الأبوية لكل من يحتاجون إلى معونته .

إن الإنسان ليود الاستغناء عن تلك الحقبة الطويلة التي قضيت في التعب والغموض والانطواء ، إذ يحسب أن ذلك الوقت قد ضاع هباء ، ولكن الحكمة الإلهية التي لا تدرك دعت ذلك الرجل الذي كان مزمعا أن يكون قائدا لشعبه ليقضي أربعين سنة يقوم بعمل راع متواضع . فإذ نمت واكتملت فيه صفات الحرص ، ونسيان الذات ، والرفق ، والاهتمام بقطيعه فقد أعده ذلك لأن يكون راعي إسرائيل المشفق الصبور الطويل الأناة . ولم يكن ممكنا لأي تربية أو تهذيب أو تدريب بشري أن ينفع بديلا عن هذا الاعتبار .

كان موسى قد تعلم أشياء كثيرة وجب عليه أن ينساها . فالمؤثرات التي أحاطت به في مصر- كمحبته لأمه المربية التي اتخذته ابنا لها ، ومركزه العظيم كحفيد الملك ، والإسراف في كل وجه ، والثقافة والدهاء وصوفية ديانة المصريين الكاذبة وشعوذتها ، وجلال العبادة الوثنية وفخامة فن البناء والنحت والنقش- كل هذه تركت آثارها العميقة في عقله المتطور كما

شكلت عاداته وأخلاقه إلى حد ما . ولكن مرور الزمن وتغير البيئة وشركته مع الله يمكنها أن تلاشي تلك المؤثرات . ومن جانب موسى كانت الحال تحتاج إلى كفاح يدوم مدى الحياة ليطرح عنه الخطأ ويعتنق الصواب والحق . ولكن إذ كان لا بد أن يخف إلى معونته حين تبرهن أن القوة البشرية أعجز من أن تنتصر في هذا النضال .

إن العنصر البشري يُرى في حياة كل من قد اختيروا للقيام بعمل الله . ولكنهم لم يكونوا أناسا ذوي أخلاق وعادات جامدة ، ولا اكتفوا بالبقاء على حالتهم . لقد تاقوا بكل قلوبهم للحصول على الحكمة من الله وتعلم خدمته . يقول الرسول : «إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ تُعْوِزُهُ حِكْمَةٌ ، فَلْيَطْلُبْ مِنَ اللهِ الَّذِي يُعْطِي الْجَمِيعَ بِسَخَاءٍ وَلاَ يُعَيِّرُ ، فَسَيُعْطَى لَهُ» (يعقوب ١: ٥) ولكن الله لا يمكن أن يمنح نوره الإلهي لقوم يقنعون بالبقاء في الظلام ، فلكي يحصل الإنسان على معونة الله ، عليه أن يتأكد من ضعفه ونقصه . وعليه أن يخضع عقله للتأثير العظيم المزمع أن يحدث فيه ، وأن ينهض لحياة الصلاة الحارة اللجوجة والجهاد ، وأن يطرح عنه كل العادات والخصال الخاطئة . فبالسعي الجدي وحده في إصلاح هذه الأخطاء والتمسك بالمبادئ القويمة يمكن إحراز النصرة . إن كثيرين لا يصلون أبدا إلى المراكز التي كان يمكنهم أن يشغلوها لأنهم ينتظرون من الله أن يحمل لهم ما قد أعطاهم القوة على عمله بأنفسهم . إن أولئك المؤهلين للنفع ينبغي لهم أن يتدربوا بأقسى التدريبات العقلية والأخلاقية ، والله سيساعدهم بكونه يضيف إلى المجهود البشري قدرته الإلهية .

إن موسى إذ كان محاصرا بالجبال من كل ناحية كان منفردا مع الله . لم تعد الهياكل الفخمة تؤثر في عقله بخرافاتها وأكاذيبها ، ففي جلال الآكام الدهرية وعظمتها رأى جلال الله العلي ، وعلى عكس ذلك فقد تحقق من عجز آلهة مصر وتفاهتها . رأى اسم الله مكتوبا في كل مكان ، وبدا كأن موسى قد وقف في حضرته واستظل بقدرته فزايلته هنا كبرياؤه واكتفاؤه بنفسه . ففي بساطة حياته الصارمة التي عاشها في البرية اختفت عواقب الراحة والترف الذي كان يتمتع به في مصر . وأصبح صبورا ووقورا ومتواضعا . «وَأَمَّا الرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جِدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ» (عدد ١٢: ٣) . ومع ذلك فقد كان إيمانه قويا بعزيز يعقوب .

وإذ كانت السنون تكر ، وكان هو يجول بقطعانه في أماكن منعزلة ، متأملا في حالة

العبودية القاسية التي كان شعبه يئن تحتها جعل يستعيد إلى ذاكرتـــه معـــاملات الله لآبائـــه ، والمواعيد التي كانت هي ميراث الشعب المختار ، فكانت صلواتـــه تصعـــد إلـــى الله لأجـــل إسرائيل ليلا نهارا ، وقد أراق ملائكة الله حوله نورا ، وهنا كتب سفر التكوين بإلهام من الله . إن السنين الطويلة التي قضاها في خلوته في تلك البرية كانت غنية بالبركة ، ليـــس لموســـى وشعبه وحدهم ، بل لكل الأجيال المتعاقبة .

«وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ مَاتَ . وَتَنَهَّدَ بَنُو إِسْـــرَائِيلَ مِـــنَ الْعُبُودِيَّـــةِ وَصَرَخُوا ، فَصَعِدَ صُرَاخُهُمْ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ الْعُبُودِيَّةِ . فَسَمِعَ اللهُ أَنِينَهُمْ ، فَتَذَكَّرَ اللهُ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . وَنَظَرَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَلِمَ اللهُ» (خروج ٢: ٢٣-٢٥) .

لقد حان وقت خلاص إسرائيل ، ولكن كان لا بد أن يتم قصد الله بكيفية تجلب العار علـــى الكبرياء البشرية . كان على المحرر أن يسير كراعي غنم متواضع وليس بيده غير عصـــاه ، ولكن الله سيجعل تلك العصا رمزا لقوته ، فإذ كان موسى يقود قطعانه في أحد الأيام إلى قرب حوريب «جَبَلِ اللهِ» رأى عليقة مشتعلة بالنار ، اشتعلت النار في أغصانها وأوراقها وجذعـــها ولكن بدا كأنها لا تحترق . فإذ اقترب منها ليرى ذلك المنظر العجيب سمع صوتا خارجا مـــن اللهيب يناديه باسمه ، فخرجت الكلمات من شفتيه المرتعشتين تقول «هأَنَذَا» فحذره الصـــوت من الاقتراب في غير وقار إذ قال له «اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّـــذِي أَنْـــتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ ... أَنَا إِلهُ أَبِيكَ ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلـــهُ يَعْقُـــوبَ» (انظـــر خروج ٣؛ ٤: ١-٢٦) لقد كان هو ملاك العهد الذي أعلن نفسه للآباء في العصور الماضية . «فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ» .

ينبغي لكل من يقتربون من محضر الله أن يتصفـــوا بالوداعـــة والوقـــار . بإمكاننـــا الاقتراب إلى الله باسم المسيح بثقة ، ولكن يجب ألا نقترب منه فـــي جـــرأة وغطرســـة ووقاحة كما لو كان في مستوانا . من الناس من يخاطبون الله القدوس القدير الساكن فـــي نور لا يدنى منه كما لو كانوا يخاطبون شخصا هو ند لهم أو أقـــل منـــهم . إن كثـــيرين يتصرفون في بيت الله بما لا يتصرفون به وهم في حضرة ملك أرضي . فعلى هؤلاء أن يذكروا أنهم في حضرة ذاك الذي يمجده السرافيم والذي في حضرتـــه يغطـــي الملائكـــة وجوههم . يجب أن نقدم لله أعظم توقير واحترام ، فكل من يتحققون من حضوره لا بـــد

من أن يسجدوا له بكل تواضع ، وكيعقوب إذ يرون رؤيا الله يهتفون : «مَا أَرْهَبَ هذَا الْمَكَانَ ! مَا هذَا إِلاَّ بَيْتُ اللهِ ، وَهذَا بَابُ السَّمَاءِ» .

وإذ كان موسى منتظرا أمام الله في وقار مقدس استأنف الله كلامه قائلا : «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ . إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ ، فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً ... فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ» .

ففي ذهوله ورعبه من هذا الأمر ارتد موسى إلى الوراء قائلا : «مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَحَتَّى أُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ؟» فجاءه جواب الرب يقول : «إِنِّي أَكُونُ مَعَكَ ، وَهذِهِ تَكُونُ لَكَ الْعَلاَمَةُ أَنِّي أَرْسَلْتُكَ : حِينَمَا تُخْرِجُ الشَّعْبَ مِنْ مِصْرَ ، تَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى هذَا الْجَبَلِ» .

لقد كان موسى يفكر في الصعوبات التي سيلاقيها وفي عمى شعبه وجهالتهم وعدم إيمانهم ، إذ كان كثيرون منهم مجردين من معرفة الله ، فقال : «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ : إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ . فَإِذَا قَالُوا لِي : مَا اسْمُهُ ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ ؟» فكان الجواب :

«أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ» فقال : «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ» .

لقد أمر موسى أولا أن يجمع شيوخ إسرائيل الذين هم أكثر الناس نبلا وبرا ، الذين حزنوا وتألموا طويلا من جراء عبوديتهم ، ويعلن لهم الرسالة التي تلقاها من الله ويقدم لهم وعدا بالخلاص . وبعد ذلك فإن عليه أن يذهب معهم إلى الملك ليقولوا له :

«الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ الْتَقَانَا ، فَالآنَ نَمْضِي سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا» .

وقد سبق الرب فأنذر موسى بأن فرعون لن يسمح بإطلاق سراح بني إسرائيل ، ومع ذلك فيجب ألا يثبط هذا من عزيمة عبد الرب ذاك ، لأن الرب سيجعل ذلك مجالا لإظهار قدرته أمام المصريين وأمام شعبه ، «فَأَمُدُّ يَدِي وَأَضْرِبُ مِصْرَ بِكُلِّ عَجَائِبِي الَّتِي أَصْنَعُ فِيهَا . وَبَعْدَ ذلِكَ يُطْلِقُكُمْ» .

وقدم له الرب أيضا بعض تعليمات بخصوص المؤونة التي يأخذونها في رحلتهم قائلا : «فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ . بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ

نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا» ، لقد اغتنى المصريون من العمل الذي فرض على الإسرائيليين ظلما ، وحيث أن هؤلاء كانوا سيرحلون إلى وطنهم الجديد ، فالصواب والعدل يقضيان بأن يطلبوا مكافأة عن سني العمل الشاق المضني ، فكان لا بد لهم من أن يطلبوا منهم أمتعة غالية القيمة مما يسهل حمله ، والرب سيعطيهم نعمة في عيون المصريين . فالمعجزات العظيمة التي ستصنع لأجل خلاصهم ستوقع الرعب في قلوب مستعبديهم بحيث يعطون أولئك العبيد ما يطلبونه .

رأى موسى أمامه صعوبات تراءى له أنه لا يمكن التغلب عليها ، فأي برهان يقدمه للشعب على أن الله قد أرسله ؟ فقال : «هَا هُمْ لاَ يُصَدِّقُونَنِي وَلاَ يَسْمَعُونَ لِقَوْلِي ، بَلْ يَقُولُونَ : لَمْ يَظْهَرْ لَكَ الرَّبُّ» فاعطي له أحد البراهين التي تقتنع بها حواسه إذ قيل له أن يطرح عصاه إلى الأرض . فلما فعل ذلك «صَارَتْ حَيَّةً ، فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا» فلما أمر أن يمسك بها وأمسكها صارت عصا في يده . وبعد ذلك أمر بأن يضع يده في عبه فلما أطاع الأمر وأخرج يده من عبه «إِذَا يَدُهُ بَرْصَاءُ مِثْلَ الثَّلْجِ» وإذ أمر بإدخالها مرة ثانية ثم أخرجها فإذا هي قد عادت كالأخرى . وأخبره الرب أن هذه الآيات ستكون كافية لإقناع شعبه وفرعون أيضا بأن كائنا أعظم وأقوى من ملك مصر قد ظهر بينهم .

إلا أن خادم الرب ذاك كان يؤرقه تفكيره في العمل العجيب الغريب الذي أمامه ، ففي ضيقته وخوفه توسل بأن يعفى لكونه تعوزه فصاحة اللسان فقال : «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ ، وَلاَ مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ» لقد غاب عن مصر سنين طويلة فنسي إتقانه للغة المصريين التي كان يحسن التكلم بها وهو معهم .

فقال له الرب . «مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا ؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى ؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ ؟» ثم أضاف الرب إلى ذلك وعدا آخر أكد له فيه أنه سيساعده ، إذ قال له : «اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ» ولكن موسى توسل إلى الرب أن يختار شخصا آخر أكثر أهلية منه . كان منشأ هذه الأعذار في البداءة وداعة موسى وعدم ثقته بنفسه ، ولكن بعد ما وعده الرب بأن يزيح من طريقه كل العوائق والموانع ويكلل أعماله بالنجاح النهائي ، فكل تراجع أو شكوى من عدم أهليته

لذلك العمل أظهر عدم الثقة بالله ، وكان دليلا على خوفه من أن الله لن يقدر أن يؤهلـــه لذلك العمل العظيم الذي دعاه إليه ، أو أنه تعالى قد أخطأ في اختياره إياه .

ووجه الرب موسى إلى هارون أخيه الأكبر الذي إذ كان يتكلم بلغة المصريين كل يوم كان يستطيع التكلم بها بطلاقة ، وقيل له إن هارون قادم لملاقاته ، وكانت كلمات الرب التالية أمرا صريحا :

«تُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الْكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَــعَ فَمِــهِ ، وَأُعَلِّمُكُمَــا مَــاذَا تَصْنَعَانِ . وَهُوَ يُكَلِّمُ الشَّعْبَ عَنْكَ . وَهُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا ، وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا . وَتَأْخُذُ فِــي يَدِكَ هذِهِ الْعَصَا الَّتِي تَصْنَعُ بِهَا الآيَاتِ» . لم يبد موسى أية مقاومة بعد ذلك لأن الــرب أزال من أمامه كل الأعذار .

إن الأمر المقدم من الله إلى موسى وجده غير واثق بنفسه وثقيل اللسان وهيابا ، وقد شـمله شعور بعدم كفاءته لأن يكلم إسرائيل عن الله . ولكن بعدما اضطلع بذلك العمل قام به بكل قلبه واضعا كل اتكاله على الرب . وإن عظمة رسالته جعلته يدرب أفضل قوى عقله ، وبـارك الله طاعته التامة ، فصار فصيحا ووطيد الرجاء ومالكا لنفسه ومؤهلا لأعظم عمل كلف بــه أي إنسان . وهذا مثال لما يفعله الله لتقوية أخلاق من يتكلون عليه اتكالا كاملا ويخضعون لأوامره بدون تحفظ .

إن الإنسان يحصل على قوة ومقدرة عندما يأخذ على نفسه المسؤوليات التي يضعها الـرب عليه ، وبكل قلبه يحاول أن يكيف نفسه لحملها بالكيفية الصائبة . إن ذلك الإنسان لا بد من أن يحصل على العظمة الحقيقية إذا كان يتكل على قدرة الله ، ويجتهد في إنجاز عمله بإخلاص ، مهما كان مركزه بسيطا وإمكانياته محدودة . لو أن موسى اتكل على قوتــه وحكمتــه وبكــل شغف قبل تلك المأمورية لكان قد برهن بذلك على عدم أهليته للقيام بذلك العمل . إن حقيقـــة كون الإنسان يحس بضعفه هي على الأقل برهان على أنه يقدّر جسامة العمل الموكول إليــه ، وأنه سيجعل الله مشيره وقوته .

عاد موسى إلى حميه وعبر له عن شوقه إلى افتقاد إخوته الذين في مصر . فأجابه يـثرون إلى طلبه وباركه قائلا : «اذْهَبْ بِسَلاَمٍ» فبدأ موسى رحلته ومعه امرأته وأولاده . إنه لم يجرؤ على التصريح بغرضه من تلك الرحلة لئلا تمنع عائلته من مصاحبته ، ومع ذلك فقبل وصوله

254,255

إلى مصر فكر في أن الأفضل إعادة عائلته إلى مديان حرصا على سلامتها .

وكان في أعماق قلب موسى خوف خفي من فرعون ومن المصريين الذين اشتعل غضبهم عليه منذ أربعين سنة خلت ، وهذا أوجد في نفسه نفورا من العودة إلى مصر ، ولكن عندما بدأ في السفر إطاعة لأمر الله أعلن له الرب أن أعداءه قد ماتوا .

وفي طريقهم من مديان تلقى موسى إنذارا مرعبا مخيفا بغضب الله عليه ، فلقد ظهر له ملاك يهدده كما لو كان سيهلكه في الحال . ومع أنه لم يقدم له أي إيضاح ، إلا أن موسى ذكر أنه قد أغفل أحد مطاليب الله ، فلكونه خضع لتحريضات زوجته أهمل إجراء فريضة الختان لابنه الأصغر ، فهو لم يتمم الشرط الذي بموجبه يصير لابنه الحق في امتلاك بركات عهد الله مع إسرائيل . ومثل هذا الإهمال من جانب القائد المختار لا بد من أن يقلل من قوة أمر الله المفروض على شعبه . فإذ خافت صفورة لئلا يموت رجلها أجرت تلك الفريضة بنفسها ، وبعد ذلك سمح الرب لموسى بالتقدم في سيره . إن موسى بذهابه إلى فرعون كان لا بد من أن يعرض نفسه لخطر جسيم ، ولا يمكن أن تحفظ نفسه ما لم يحرسه الملائكة القديسون ، ولكنه لم يكن في أمان ما ظل مهملا لواجب معلوم له كهذا ، لأنه في هذه الحالة لا يمكن الملائكة أن يحرسوه .

وفي وقت الضيق الذي سيسبق مجيء المسيح سيحفظ ملائكة السماء جماعة الأبرار . أما من يتعدى شريعة الله فلا أمان له . ولن يستطيع الملائكة حينئذ أن يحرسوا أولئك الذين يغفلون أيا من أوامر الله .

الفصل الثالث والعشرون

ضربات مصر

وبموجب تعليمات الملائكة انطلق هارون ذاهبا لملاقاة أخيه الذي كان قد افترق عنه طويلا ، فتقابلا في البرية بالقرب من حوريب حيث تحدثا معا «فَأَخْبَرَ مُوسَى هَارُونَ بِجَمِيعِ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِي أَرْسَلَهُ ، وَبِكُلِّ الآيَاتِ الَّتِي أَوْصَاهُ بِهَا» ثم سافرا معا عائدين إلى مصر . وإذ وصلا إلى أرض جاسان جمعا شيوخ إسرائيل ، وردد هارون على مسامعهم كل معاملات الله لموسى ، كما عرضا على الشعب الآيات التي أعطاها إياه الله ، «فَآمَنَ الشَّعْبُ . وَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ افْتَقَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ نَظَرَ مَذَلَّتَهُمْ ، خَرُّوا وَسَجَدُوا» (خروج ٤: ٢٧-٣١؛ والأصحاحات ٥-١٠) .

وكان موسى قد كلف برسالة يبلغها للملك ، فدخل الأخوان إلى قصر فرعون كسفيرين من قبل ملك الملوك ، وتكلما باسمه قائلين : «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ : أَطْلِقْ شَعْبِي لِيُعَيِّدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ» .

فقال فرعون : «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ ، وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ» .

فأجاباه بقولهما : «إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ الْتَقَانَا ، فَنَذْهَبُ سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا ، لِئَلاَّ يُصِيبَنَا بِالْوَبَإِ أَوْ بِالسَّيْفِ» .

وصلت أخبارهما والاهتمام الذي أثاراه بين الشعب إلى مسامع الملك ، فاشتعل غضبه وقال : «لِمَاذَا يَا مُوسَى وَهَارُونُ تُبَطِّلاَنِ الشَّعْبَ مِنْ أَعْمَالِهِ ؟ اذْهَبَا إِلَى أَثْقَالِكُمَا» لقد أصابت المملكة الخسارة بسبب تدخل هذين الغريبين . وعندما اتجه فكر فرعون إلى هذا الأمر أضاف قائلا : «هُوَذَا الآنَ شَعْبُ الأَرْضِ كَثِيرٌ وَأَنْتُمَا تُرِيحَانِهِمْ مِنْ أَثْقَالِهِمْ» .

إن بني إسرائيل في سني عبوديتهم كانوا قد أضاعوا معرفتهم لشريعة الله إلى حد ما ،

وحادوا عن وصاياه ، وأصبحوا لا يراعون كرامة يوم السبت . وإن الأعمال التي كان مسخروهم يفرضونها عليهم جعلت تقديس ذلك اليوم أمرا مستحيلا حسب الظاهر . ولكن موسى أبان لشعبه أن الطاعة لله هي أول شرط للنجاة . وقد وصلت إلى آذان مسخريهم أخبار محاولتهم لإعادة تقديس السبت .

وإذ ثار الملك واهتاج جدا ساورته الشكوك في أن الإسرائيليين قد يفكرون في القيام بثورة ضد خدمته . إن السخط ينجم عن الكسل ، ولذا اهتم الملك بألا يعطي للشعب وقتا للتآمر الخطر ، ولذلك اتخذ في الحال كل الإجراءات ليشدد عليهم نير العبودية ويسحق روحهم الاستقلالية . ففي نفس اليوم صدرت أوامر زادت بموجبها قسوة العمل وطغيان الملك ، إن مادة البناء العامة في تلك البلاد كانت هي اللبن المجفف في الشمس ، فإن جدران أفخم المباني كانت تقام من هذا اللبن ثم تغطى بالحجر ، وكانت عملية صنع اللبن تتطلب وجود كثير من العبيد ، وكان هذا العمل يتطلب أيضا وجود كميات كثيرة من التبن الذي يخلط بالطين لكي يظل متماسكا . وقد أمر الملك في تلك الآونة ألا يعطى لأولئك العبيد تبن ، بل كان عليهم أن يخرجوا للبحث عنه بأنفسهم ، على ألا ينقص من عملهم شيء .

تضايق الإسرائيليون في كل البلاد من هذا الأمر أشد الضيق ، وكان مسخرو فرعون قد أقاموا مدبرين من بني إسرائيل ليشرفوا على عمل الشعب ، وكان أولئك المدبرون مسؤولين عن العمل الذي كان يعمله من كانوا تحت رقابتهم ، فلما خرج أمر الملك إلى حيز التنفيذ تشتت الشعب في كل البلاد بحثا عن القش ليستعيضوا به عن التبن . ولكنهم وجدوا أنه من المستحيل عليهم أن يكملوا العمل المفروض عليهم ، فبسبب هذا العجز ضرب مدبرو بنى إسرائيل بكل قوة .

لقد ظن هؤلاء المدبرون أن الظلم جاءهم من المسخرين لا من الملك نفسه ولذلك ذهبوا إليه يشكون من ظلمهم . ولكن فرعون قابل احتجاجهم بالتعبير قائلا : «مُتَكَاسِلُونَ أَنْتُمْ ، مُتَكَاسِلُونَ ! لِذلِكَ تَقُولُونَ : نَذْهَبُ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ» ولقد أمروا بالعودة إلى أثقالهم ، وأعلن فرعون أن الأعمال المفروضة عليهم لن تخفف ، ففي عودتهم رأوا موسى وهارون فقالوا : «يَنْظُرُ الرَّبُّ إِلَيْكُمَا وَيَقْضِي ، لأَنَّكُمَا أَنْتَنْتُمَا رَائِحَتَنَا فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ عَبِيدِهِ حَتَّى تُعْطِيَا سَيْفًا فِي أَيْدِيهِمْ لِيَقْتُلُونَا» .

فلما سمع موسى هذه التعبيرات تضايقت نفسه جدا . فلقد زاد العذاب الـذي حـاق ببنـي شعبه . وفي طول البلاد وعرضها صعدت صرخات اليأس من أفواه الصغار والكبار ، واتهمه الجميع بأنه هو السبب في إبدال حالتهم من سيئ إلى أسوأ ، ففي مرارة نفسه رجع موسى إلى الرب قائلا : «يَا سَيِّدُ ، لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي ؟ فَإِنَّهُ مُنْذُ دَخَلْـتُ إِلَـى فِرْعَوْنَ لأَتَكَلَّمَ بِاسْمِكَ ، أَسَاءَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ . وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ» فجاءه الجواب يقـول : «الآنَ تَنْظُرُ مَا أَنَا أَفْعَلُ بِفِرْعَوْنَ . فَإِنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ يُطْلِقُهُمْ ، وَبِيَدٍ قَوِيَّةٍ يَطْرُدُهُمْ مِنْ أَرْضِهِ» ومرة أخرى أشار الرب إلى عهده الذي سبق أن أبرمه مع آبائه وأكد له أن لا بد من إتمامه .

وطيلة سني العبودية في مصر كانت بين بني إسرائيل بقية قد تمسكت بعبادة الله ، فـهؤلاء القوم تضايقوا أشد الضيق وهم يرون أولادهم يشهدون رجاسات الوثنيين يوميا ، بـل أيضـا يحنون ركبهم للآلهة الكاذبة ، ففي ضيقة نفوسهم صرخوا إلى الرب للنجاة من تحت نير مصر ليتحرروا من تأثير الوثنية المفسد . إنهم لم يخفوا إيمانهم بل أعلنوا للمصريين أن إلههم هـو صانع السماوات والأرض ، الإله الحي الحقيقي وحده . وقد رددوا على أسـماعهم براهيـن وجوده وقدرته مند بدء الخليقة إلى أيام يعقوب . وهكذا كانت للمصريين فرصة للتعرف بديانة العبرانيين . ولكن لكونهم استنكفوا من أن يتلقوا المعرفة من عبيدهم حاولوا إغواء عبيـد الله بالوعد والمكافأة فلما لم تفلح هذه الحيلة لجأوا إلى التهديد والقسوة .

ولقد حاول شيوخ إسرائيل أن ينعشوا إيمان إخوتهم الخائر بترديد المواعيد التـي قدمـت للآباء وترديد الكلمات النبوية التي نطق بها يوسف قبيل موته ، إذ أعلن مسبقا أمر نجاتهم مـن مصر . فبعضهم أصغوا وآمنوا ، بينما آخرون نظروا إلى الظروف المحزنة المحيطـة بـهم فرفضوا الرجاء . وإذ علم المصريون بما تناقلته أفواه العبيد سخروا بآمالهم ، وبكل احتقـار أنكروا قوة إلههم ، ووجهوا التفاتهم إلى مركزهم كأمة من العبيد وجعلوا يعيرونهم قائلين : لـو كان إلهكم عادلا ورحيما وله قوة تفوق قوة آلهة مصر فلماذا لم يجعلكم أمة من الأحرار ؟ ثـم وجهوا التفاتهم إلى حالتهم هم . لقد عبدوا آلهة اعتبرها الإسرائيليون آلهة كاذبة ، ومع ذلك فقد كانوا أمة غنية وقوية ، وأعلنوا أن آلهتهم قد منحتهم النجاح وسخرت الإسرائيليين لخدمتـهم ، وكانوا يفخرون بقوتهم على إذلال عابدي الرب وإهلاكهم ، وافتخر فرعون نفسـه بـأن إلـه العبرانيين لا يستطيع أن ينقذهم من يده .

259,260

فمثل هذه الأقوال لاشت آمال كثيرين من الإسرائيليين ، وظهرت قضيتهم في نظرهم كما قد صورها المصريون . نعم إنهم كانوا عبيدا ، وكان لابد لهم من أن يتحملوا كل ما أراد مسخروهم أن يوقعوه عليهم من اضطهاد ، وكان أولادهم يطاردون ويقتلون ، كما كانت حياتهم هم عبئا ثقيلا ، ومع ذلك فقد كانوا يعبدون إله السماء . فلو كان إلههم متعاليا فوق كل الآلهة حقا ما كان يتركهم هكذا عبيدا لأولئك الوثنيين . ولكن أولئك الذين كانوا أمناء لله أدركوا أنه من حيث أن بني إسرائيل قد تركوه وارتدوا عنه ، ومن حيث أنهم كانوا يميلون إلى التزوج بالوثنيين– الأمر الذي جعلهم يعتنقون الوثنية– سمح الرب بأن يصيروا عبيدا . وبكل ثقة أكدوا لإخوتهم أن الله سيكسر نير مسخريهم قريبا .

كان العبرانيون ينتظرون أن يحصلوا على حريتهم بدون أن يختبر إيمانهم وبدون أن يقع عليهم أي ضيق أو ألم أو شدة ، إلا أنهم لم يكونوا مهيئين للحرية بعد ، وكان إيمانهم بالله ضعيفا ، ولم يكونوا راغبين في احتمال ضيقاتهم بصبر إلى أن يجيء الوقت المناسب ليعمل الرب لأجلهم ، وكان كثيرون قانعين بالبقاء في عبوديتهم مفضلين ذلك على احتمال المتاعب التي يتطلبها النزوح إلى أرض غريبة . وقد أصبحت عادات بعضهم شبيهة بعادات المصريين بحيث فضلوا السكنى في مصر ، ولذلك فالرب لم يحررهم عندما أعلن قدرته لفرعون أول مرة . وقد سيطر الرب على الأحداث سيطرة كاملة بحيث تكتمل روح الطغيان في قلب الملك فرعون ، ويعلن الرب نفسه لشعبه ، فإذ ينظرون عدالته وقدرته ومحبته سيفضلون الرحيل عن مصر وتكريس أنفسهم لخدمته ، وكان يمكن أن تكون مأمورية موسى أسهل بكثير مما كانت لولا أن كثيرين من بني إسرائيل صاروا في حالة رديئة من الفساد بحيث لم يكونوا راغبين في الرحيل عن مصر .

أمر الرب موسى بأن يذهب إلى الشعب مرة أخرى ويكرر لهم الوعد بالنجاة مصحوبا بتأكيد جديد برضى الرب ورحمته ، فذهب كما أمر ، ولكنهم لم يريدوا أن يسمعوا . يقول الكتاب : «لَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى مِنْ صِغَرِ النَّفْسِ ، وَمِنَ الْعُبُودِيَّةِ الْقَاسِيَةِ» ومرة أخرى جاءت رسالة من الرب إلى موسى تقول : «اُدْخُلْ قُلْ لِفِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ أَنْ يُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِهِ» فقال موسى لله وهو خائر العزم : «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَسْمَعُوا لِي ، فَكَيْفَ يَسْمَعُنِي فِرْعَوْنُ ؟» . فأمره الرب أن يأخذ معه هارون ويذهبا إلى فرعون ويطلبا منه

«إِخْرَاجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» .

وقد أخبره الرب أن الملك لن يخضع حتى يفتقد الرب مصر بأحكامه وضرباتـــه ويخـــرج إسرائيل ، مظهرا قدرته الفريدة . وقبل وقوع كل ضربة كان موسى يصف طبيعتها وآثارهـــا حتى ينجو الملك بنفسه منها إن أراد ، وكل قصاص يرفضه الملك سيتبعه قصاص أقسى حتى يتضع قلبه المتكبر ، ويعترف بخالق السماوات والأرض أنه الإله الحي الحقيقي . وقـــد أراد الرب أن يعطي المصريين فرصة فيها يرون بطل حكمة عظمائهم وعجز قوة آلهتـــهم متـــى وقفت تحارب أوامر الرب . إنه سيعاقب شعب مصر علـــى وثنيتـــهم ، ويخـــرس تفـــاخرهم بالبركات التي تمنحهم إياها آلهتهم العديمة الشعور . إن الله سيمجد اسمه حتى تســـمع الأمـــم الأخرى أخبار قدرته فترتعب من عجائبه ، وحتى ينفض شعبه أيديهم من وثنيتـــهم ويقدمـــوا لجلاله عبادة خالصة .

ومرة أخرى دخل موسى وهارون إلى بلاط فرعون الملوكي ، فإذ وقفا هناك تحيط بـــهما الأعمدة العالية والزينات المتلألئة المتألقة ، والنقوش البديعة وتماثيل الآلهة الوثنية ، أمام ملـــك أعظم مملكة في الوجود حينئذ ، وقف ذانك الرجلان اللذان يمثلان الشعب المستعبد ليكررا أمر الرب له بإطلاق إسرائيل ، فطلب الملك منهما أن يأتياه بعجيبة تبرهن علـــى أن الـــرب قـــد أرسلهما ، وكان الرب قد أرشد موسى وهارون إلى ما يفعلان لو أمرهما فرعون بذلك ، فأخذ هارون العصا وطرحها على الأرض أمام فرعون فصارت حية . فاستدعى الملك «الْحُكَمَـــاءَ وَالسَّحَرَةَ» فلما حضروا «طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثَعَـــابِينَ . وَلكِـــنْ عَصَـــا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ» . فالملك الذي زاد تصميمه على العصيان أعلن أن السحرة متســـاوون مع موسى وهارون في القوة ، وحكم على خادمي الرب بأنهما محتالان ، وأحس بأنه ســـيكون مطمئنا لو قاوم أوامرهما . ولكن مع كونه احتقر رسالتهما فقد منعته قدرة الله عن إيذائهما .

إن القوة التي كان يملكها موسى وهارون لم تكن قوة أي إنسان ولا تأثير أي إنسان بل كـــانت قدرة الله التي بها عملا الآيات على مرأى من فرعون . كانت الغاية من تلك الآيات والعجـــائب إقناع فرعون بأن «أهيه» هو الذي أرسل موسى ، وأن على الملك أن يطلق إسرائيل ليعبـــدوا الله الحي . وقد عمل السحرة أيضا بعض الآيات أمام فرعون لأنهم لم يصنعوها بقوتهم أو مهارتهم ، بل بقوة إلههم ، الشيطان ، الذي أعانهم على تزييف عمل الرب .

إن السحرة لم يحولوا عصيهم إلى حيات حقا ، بل بالسحر وبمعونة المخادع الأعظم أمكنهم أن يصنعوا شبه ثعابين . إن الشيطان لم يكن يستطيع تحويل العصي إلى حيات تسعى ، فمع أن سلطان الشر يملك كل الحكمة والقوة التي يملكها ملاك ساقط ، إلا أنه لا قدرة له على الخلق أو منح الحياة ، فهذا من حق الله وحده . ولكن الشيطان عمل كل ما استطاع عمله ، صنع شيئا زائفا ، فأمام العين البشرية تحولت العصي إلى ثعابين ، وهكذا تصور فرعون ومشيروه . لم يكن هناك فرق ظاهر بينها وبين الحية التي خرجت من عصا موسى . ومع أن الرب جعل حية موسى تبتلع كل الثعابين الزائفة ، فحتى هذه الحية الحقيقية لم يعتبرها فرعون على أنها مظهر من مظاهر قدرة الله ، بل على أنها نوع من السحر يفوق سحر عبيده .

أراد فرعون أن يبرر عناده في مقاومته لأمر الرب ، ولهذا كان يبحث عن عذر يقدمه عن استخفافه بالعجائب التي صنعها الله على يد موسى . وقد منحه الشيطان نفس ما كان يطلبه ، فبالعمل الذي عمله بواسطة السحرة أبان للمصريين أن موسى وهارون هما ساحران وعرافان ليس إلا ، وأن الرسالة التي أتيا بها لا يمكن إثبات كونها آتية من كائن إلهي سام . وهكذا تممت خدعة الشيطان غرضها وهي تشجيع المصريين على التمادي في العصيان وجعل فرعون يقسي قلبه فلا يقتنع بالحق . وكان الشيطان يؤمل أن يزعزع إيمان موسى وهارون في كون رسالتهما صادرة من الله ، وأن وسائله هو يمكن أن تنتصر ، ولم يكن إبليس يرغب في إطلاق بني إسرائيل من أسر العبودية ليعبدوا الله الحي .

ولكن رئيس الشر كان له غرض أعمق في إظهار عجائبه بواسطة السحرة . لقد عرف جيدا أن موسى في كسره نير العبودية عن أعناق بني إسرائيل كان يرمز إلى المسيح الذي سيحطم سلطان الخطية عن الأسرة البشرية ، وعرف أن المسيح حين يظهر سيصنع معجزات وآيات وقوات برهانا للعالم على أن الله قد أرسله . كان الشيطان يرتعد خوفا على سلطانه . فبتزييفه لعمل الله بواسطة موسى كان يؤمل ، لا أن يمنع تحرير إسرائيل فحسب ، بل أن يخلق أيضا تأثيرا في الأجيال اللاحقة من شأنه أن يلاشي الإيمان بمعجزات المسيح . إن الشيطان دائب أبدا في تزييف عمل المسيح لكي يثبت سلطانه وادعاءاته . يحمل الناس على تحليل معجزات المسيح بأنها نتيجة للمهارة البشرية وخفة اليد ، وهكذا يقوض ، في كثير من

العقول ، الإيمان بالمسيح كابن الله ويسوق الناس إلى رفض هبات الرحمة المقدمة في تدبير الفداء .

أمر الرب موسى وهارون بالتوجه إلى شاطئ النهر في صبيحة اليوم التالي حيث كان الملك معتادا أن يذهب . وحيث أن نهر النيل كان بفيضانه مصدر الطعام والثروة لكل مصر كان المصريون يعبدونه كإله ، ولذلك كان الملك يأتي إلى هناك كل يوم ليقدم عبادته وسجوده . وقد كرر الأخوان (موسى وهارون) رسالتهما في مسمع الملك ، ومن ثم مدا أيديهما بالعصا وضربا بها الماء . فتحول ماء ذلك النهر المقدس إلى دم ، ومات السمك الذي فيه وصارت مياهه كريهة الرائحة . وكل المياه التي في البيوت وفي كل مجتمعات المياه استحالت إلى دم . «فَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ كَذلِكَ بِسِحْرِهِمْ» «ثُمَّ انْصَرَفَ فِرْعَوْنُ وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَلَمْ يُوَجِّهْ قَلْبَهُ إِلَى هذَا أَيْضًا» وبقيت الضربة مستقرة على النهر سبعة أيام بلا جدوى .

ومرة أخرى مدت العصا إلى المياه فخرجت الضفادع من النهر على كل البلاد ، وغطت كل الأرض ودخلت البيوت واحتلت الأسرة والمخادع وحتى التنانير والمعاجن . كان المصريون يقدسون الضفدعة وكان محرما عليهم قتلها . ولكن ذلك الطاعون اللزج القذر لم يعد أحد يستطيع احتماله ، ودخلت الضفادع إلى قصر فرعون نفسه ، وضجر الملك وأراد التخلص منها . أما السحرة الذين سبق فظهر كأنما باستطاعتهم أن يصنعوا ضفادع فلم يستطيعوا الآن أن يطردوها أو يرفعوها . وإذ رأى فرعون ذلك اتضع قلبه قليلا ، فأرسل في استدعاء موسى وهارون وقال لهما : «صَلِّيَا إِلَى الرَّبِّ لِيَرْفَعَ الضَّفَادِعَ عَنِّي وَعَنْ شَعْبِي فَأُطْلِقَ الشَّعْبَ لِيَذْبَحُوا لِلرَّبِّ» فبعدما ذكرا الملك بافتخاره السابق طلبا منه أن يعيِّن لهما متى يصليان لأجله لترتفع الضربة ، فعين لهما اليوم التالي ، على أمل أنه في خلال هذه المدة ستتقطع الضفادع من تلقاء ذاتها ، وهكذا ينقذ نفسه من ذل الخضوع لإله إسرائيل ، ومع ذلك بقيت الضربة إلى أن أتى الميعاد المتفق عليه ، ثم ماتت كل الضفادع في أرض مصر ، ولكن رائحة أجسامها العفنة أفسدت الهواء .

كان الرب يستطيع أن يجعل تلك الضفادع تتحول إلى تراب في لحظة ، ولكنه لم يفعل ذلك لئلا بعد إزالتها يقول الملك وشعبه أن ذلك جاء نتيجة عرافة أو سحر كعمل السحرة . ماتت الضفادع فكوموها أكواما . وهنا ظهر للملك ولشعبه برهان لم تستطع كل فلسفتهم الباطلة أن

تناقضه ، وهو أن هذا العمل لم يكن بفعل السحر بل كان دينونة من إله السماء .

«فَلَمَّا رَأَى فِرْعَوْنُ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ الْفَرَجُ أَغْلَظَ قَلْبَهُ» وبأمر الرب مد هارون يده فصار تراب الأرض بعوضا في كل أرض مصر ، فدعا فرعون السحرة ليفعلوا كذلك فلم يستطيعوا ، وظهر هنا أن عمل الله أسمى وأعظم من عمل الشيطان ، واعترف السحرة أنفسهم قائلين : «هذَا إِصْبَعُ اللهِ» ومع ذلك فلم يتأثر الملك .

لم تترك تلك الأوامر والإنذارات أثرا ، فوقعت على البلاد ضربة أخرى ، وقد سبق الإنذار بوقت حدوثها قبل وقوعها حتى لا يقول أحد أن ذلك إنما حدث عرضا . فامتلأت الدور من الذبان وتجمع الذباب بكثرة على الأرض . «وَفِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ خَرِبَتِ الأَرْضُ مِنَ الذُّبَّانِ» كان هذا الذباب كبير الحجم ومسماً ، وكانت لسعاته تسبب آلاما شديدة للناس والبهائم . وكما سبق موسى فأنبأ لم تصل هذه الضربة إلى أرض جاسان .

وهنا قال فرعون أنه يسمح لبني إسرائيل أن يذبحوا للرب في أرض مصر ، ولكن رفضوا قبول هذه الشروط ، فقال موسى : «لاَ يَصْلُحُ أَنْ نَفْعَلَ هكَذَا ، لأَنَّنَا إِنَّمَا نَذْبَحُ رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ لِلرَّبِّ إِلهِنَا . إِنْ ذَبَحْنَا رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ أَمَامَ عُيُونِهِمْ أَفَلاَ يَرْجُمُونَنَا ؟» . إن تلك الحيوانات التي كان يطلب من بني إسرائيل أن يقدموها للرب كانت مقدسة في نظر المصريين ، وكان اعتبارهم لهذه الحيوانات عظيما جدا بحيث أن قتلها ، أو ذبحها ، ولو عن غير قصد ، كان جريمة قصاصها الموت . وكان من المستحيل على العبرانيين أن يعبدوا الرب في مصر دون أن يستاء سادتهم ، فاقترح موسى مرة أخرى أن يذهبوا سفر ثلاثة أيام في البرية ، فقبل فرعون وطلب من موسى وهارون أن يتوسلا إلى الله حتى يرفع تلك الضربة ، فوعداه بذلك ، ولكنهما حذراه من المخاتلة معهما . وقد رفعت الضربة ، ولكن قلب الملك تقسى بإصرار على العصيان فلم يخضع للرب .

وتبع ذلك ضربة أقسى من سابقاتها . وهي وباء على كل مواشي المصريين التي في الحقل- على الحيوانات المقدسة والحيوانات حاملات الأثقال ، البقر والثيران والغنم والخيل والجمال والحمير ، هذه كلها هلكت . وقد تقرر أن مواشي العبرانيين ستنجو ، ولما أرسل فرعون رسله إلى مساكن الإسرائيليين تحقق من صدق قول موسى . «وَأَمَّا مَوَاشِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَمُتْ مِنْهَا وَاحِدٌ» ، ومع ذلك فقد ظل الملك سادرا في عناده .

266,267

بعد ذلك أمر الرب موسى أن يأخذ من رماد الآتون ويذريه نحــو السـماء أمـام عينـي فرعون ، وقد كان لهذا العمل معنى عميقا جدا . قبل ذلك بأربع مئة سنة كان الله قـد كشـف لإبراهيم عن العبودية والظلم اللذين سيحيقان بشعبه تحت رمز تنور دخان ومصباح نار ، وقد أعلن أنه سيفتقد أولئك الظالمين بضرباته وأحكامه ، ويخرج أولئك الأسرى بأملاك جزيلـة . وقد تألم إسرائيل في مصر سنين طويلة حين اجتاز في كور المشقة ، فهذا العمل الذي عملـه موسى (تذرية الرماد) كان تأكيدا للشعب بأن الله لا يزال يذكر عهده وأن وقت خلاصهم قـد حان .

وحالما ذري الرماد نحو السماء غطت الذرات الدقيقة كل أرض مصـر ، وأينمـا نـزل «صَارَ دَمَامِلَ بُثُورٍ طَالِعَةً فِي النَّاسِ وَفِي الْبَهَائِمِ» قبل الآن كان الكهنة والسحرة يشـجعون فرعون على التمادي في قسوته وعناده ، أما الآن فقد وصلت هذه الضربـة حتـى إليـهم إذ طلعت الدمامل في أجسامهم . فلما ضربوا بذلك المرض المؤلم الكريه خذلتهم قوتهم التي كانوا يفخرون بها ، فعادوا غير قادرين على تحدي إله إسرائيل أو محاربته ، وهذا جعل الأمة كلـها ترى جهالة وضع ثقتهم في السحرة الذين أمسوا عاجزين عن حماية أنفسهم من الضربات .

ازداد قلب فرعون صلابة . فأرسل الرب إليه رسالة تقول : «هذهِ الْمَرَّةَ أُرْسِـلُ جَمِيـعَ ضَرَبَاتِي إِلَى قَلْبِكَ وَعَلَى عَبِيدِكَ وَشَعْبِكَ ، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي كُـلِّ الأَرْضِ ... وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا أَقَمْتُكَ ، لِكَيْ أُرِيَكَ قُوَّتِي» وليس معنى هذا أن الله خلقه لأجل هذا الغرض ، بل أن عنايته تسلطت على الحوادث فأجلسته على العرش في نفس الوقـت المعيـن لتحريـر إسرائيل من العبودية ، ومع أن هذا الطاغية المتغطرس قد أضاع حقه في رحمة الله بجرائمـه فإن حياته قد حفظت ، حتى عن طريق عناده يعلن الرب عجائبه في أرض مصر . إن ترتيب الحوادث هو من عمل عناية الله ، فقد كان يمكنه أن يجلس على عرش مصر ملكا أكثر رحمة من هذا فلا يتجاسر أن يقف ليحارب ويقاوم مظاهر قدرة الله العظيمة ، ولكن في هذه الحالة لم تكن مقاصد الله لتتم . فلقد سمح لشعبه أن يذوقوا مرارة قسوة المصريين السـاحقة حتـى لا ينخدعوا بما يتعلق بتأثير الوثنية المفسد . ففي معاملة الله لفرعون أظهر الرب كراهيته للوثنيـة وعزمه على معاقبة القسوة والظلم .

لقد سبق الله فأعلن عن فرعون قائلا : «أُشَدِّدُ قَلْبَهُ حَتَّـى لاَ يُطْلِـقَ الشَّـعْبَ» (خـروج

٤: ٢١) . لم تستخدم قوة فائقة الطبيعة لتقسي قلب الملك . لقد أعطى الله لفرعون أعظم برهان مدهش على قدرته الإلهية ، ولكن ذلك الملك بكل عناد رفض الالتفات إلى النور ، ففي كل مرة رفض فيها مظاهر قدرة الله غير المحدودة ازداد إصرارا على العصيان . إن بذور العصيان التي زرعها عند ما رفض أول معجزة آتت ثمارها ، ولما ظل سائرا في طريقه موغلا في عناده زاد قلبه قساوة حتى اضطر أخيرا أن يتفرس في وجوه القتلى من الأبكار .

إن الله يكلم الناس بواسطة خدامه ، مقدما لهم تحذيراته وإنذاراته وموبخا الخطية ، وهو يعطي لكل واحد فرصة لإصلاح أخطائه قبلما تصير هذه الأخطاء عادات متحكمة فيه يصعب استئصالها . أما إذا رفض أحد الإصلاح فإن قدرة الله لن تتدخل لمقاومة أمياله وأعماله . إنه يجد من السهل عليه أن يسير في نفس الطريق الذي سار فيه من قبل ، ويقسي قلبه ضد تأثير الروح القدس . ومتى رفض النور بعد ذلك فهو يضع نفسه في وضع لا يستطيع معه تأثير أقوى أن يطبع فيه أثرا ثابتا .

إن من استسلم للتجربة أول مرة سيخضع لها بأكثر سهولة في المرة التالية ، وكلما كرر ارتكاب الخطية ازدادت قوة مقاومته لها ضعفا ، فتعمى عيناه ويخمد تبكيت ضميره . كل بذرة من بذار الانغماس في الخطية لا بد من أن تثمر . والله لا يصنع معجزة ليحول بين الإنسان وحصاد ما قد زرعه ، «الَّذِي يَزْرَعُهُ الإِنْسَانُ إِيَّاهُ يَحْصُدُ أَيْضًا» (غلاطية ٦: ٧) فإن من يبدي وقاحة إلحادية ولا مبالاة سمجة نحو الحق الإلهي فهو إنما يحصد ما قد زرعه بنفسه . هذا هو السبب في اللامبالاة السمجة التي بها يصغي جماهير الناس إلى الحقائق الإلهية التي سبق فأثارت نفوسهم وألهبت قلوبهم . لقد زرعوا إهمالا ومقاومة للحق ، ومثله يكون الحصاد الذي يحصدون .

إن الذين يحاولون إسكات ضمائرهم بالفكر أنهم يستطيعون أن يغيروا طريق الشر الذي يسلكون فيه متى أرادوا ، وأنه يمكنهم أن يستخفوا بدعوات الرحمة ، ومع ذلك يتأثرون مرارا عديدة ، فإن سيرهم في هذا الطريق هو مخاطرة . يظنون أنهم ، بعدما ألقوا بكل تأثيرهم في جانب العاصي الأكبر ، يستطيعون ، في لحظة من لحظات الحاجة القصوى وحين تكتنفهم المخاطر ، أن يتخذوا قائدا آخر . ولكن ذلك لا يمكن أن يتم بمثل هذه السهولة ، فالاختبار والثقافة وتدريب الحياة والانغماس في الشر قد شكلت أخلاقهم بحيث لا يمكن أن تنطبع عليها

صورة المسيح . فلو لم يكن النور قد أشرق على طريقهم لكان الأمر يختلف . إذ كان يمكن للرحمة الإلهية أن تتدخل وتعطيهم فرصة لقبول عروضها . ولكن بعدما رفض الإنسان النور واحتقره طويلا فلا بد من أن يؤخذ منه نهائيا .

بعد ذلك صار فرعون مهددا بضربة البرد ، وقد أرسل إليه هذا الإنذار : «فَالآنَ أَرْسِلِ احْمِ مَوَاشِيَكَ وَكُلَّ مَا لَكَ فِي الْحَقْلِ . جَمِيعُ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ الَّذِينَ يُوجَدُونَ فِي الْحَقْلِ وَلاَ يُجْمَعُونَ إِلَى الْبُيُوتِ ، يَنْزِلُ عَلَيْهِمِ الْبَرَدُ فَيَمُوتُونَ» لم يكن المطر أو البرد أمرا عاديا في مصر ، ولم يسبق لأحد أن شاهد مثل تلك العاصفة التي أنبئ بها . انتشر الخبر بسرعة ، وكل الذين آمنوا بكلمة الرب هربوا بمواشيهم إلى البيوت . ولكن جميع الذين احتقروا الإنذار تركوا مواشيهم في الحقل ، وهكذا ففي وسط أحكام الله ظهرت رحمته ، وامتحن الناس ، وظهر كم منهم خافوا الله عند إظهار قدرته .

هبت العاصفة كما قد أنبئ عنها ، رعد وبرد ونار مختلطة بالبرد . «شَيْءٌ عَظِيمٌ جِدًّا لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مُنْذُ صَارَتْ أُمَّةً . فَضَرَبَ الْبَرَدُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ جَمِيعَ مَا فِي الْحَقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ . وَضَرَبَ الْبَرَدُ جَمِيعَ عُشْبِ الْحَقْلِ وَكَسَّرَ جَمِيعَ شَجَرِ الْحَقْلِ» فالدمار والخراب الذي حدث بين الطريق الذي سلكه الملاك المهلك ، إنما أرض جاسان وحدها هي التي نجت من هذه الضربة . واتضح للمصريين أن الأرض هي تحت سلطان الله الحي ، وأن العناصر طوع أمره ، وأن السلامة الحقيقية هي في الطاعة له .

ارتاعت كل مصر عندما انصبت عليها صواعق دينونة الله المخيفة ، وأسرع فرعون يستدعي الأخوين ، وصرخ قائلا : «أَخْطَأْتُ هذِهِ الْمَرَّةَ . الرَّبُّ هُوَ الْبَارُّ وَأَنَا وَشَعْبِي الأَشْرَارُ . صَلِّيَا إِلَى الرَّبِّ ، وَكَفَى حُدُوثُ رُعُودِ اللهِ وَالْبَرَدُ ، فَأُطْلِقَكُمْ وَلاَ تَعُودُوا تَلْبَثُونَ» فكان جواب موسى : «عِنْدَ خُرُوجِي مِنَ الْمَدِينَةِ أَبْسِطُ يَدَيَّ إِلَى الرَّبِّ ، فَتَنْقَطِعُ الرُّعُودُ وَلاَ يَكُونُ الْبَرَدُ أَيْضًا ، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنَّ لِلرَّبِّ الأَرْضَ . وَأَمَّا أَنْتَ وَعَبِيدُكَ فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَمْ تَخْشَوْا بَعْدُ مِنَ الرَّبِّ الإِلهِ» .

عرف موسى أن النضال لم ينته بعد ، وأن اعترافات فرعون ووعوده لم تكن نتيجة تغيير جوهري في عقله أو قلبه ، ولكنه أجبر على النطق بها بسبب رعبه وآلامه ، ومع ذلك فقد قبل موسى طلبه ، لأنه لم يرد أن يعطيه مجالا للتمادي في عناده ، فخرج النبي إلى خارج غير

عابئ بعنف العاصفة ، وكان فرعون وعبيده شهودا لقوة الرب في حفظ رسوله ، فبعدما خرج موسى من المدينة «بَسطَ يَدَيْهِ إِلَى الرَّبِّ ، فَانْقَطَعَتِ الرُّعُودُ وَالْبَرَدُ وَلَمْ يَنْصَبَّ الْمَطَرُ عَلَى الأَرْضِ» ولكن ما أن زايلت الملك مخاوفه حتى عاد قلبه إلى تمرده وفساده .

حينئذ قال الرب لموسى : «ادْخُلْ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَإِنِّي أَغْلَظْتُ قَلْبَهُ وَقُلُوبَ عَبِيدِهِ لِكَيْ أَصْنَعَ آيَاتِي هذِهِ بَيْنَهُمْ . وَلِكَيْ تُخْبِرَ فِي مَسَامِعِ ابْنِكَ وَابْنِ ابْنِكَ بِمَا فَعَلْتُهُ فِي مِصْرَ ، وَبِآيَاتِي الَّتِي صَنَعْتُهَا بَيْنَهُمْ ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ» لقد أظهر الرب قدرته ليثبت إيمان إسرائيل فيه أنه الإله الحي الحقيقي الوحيد . وأراد أن يبرهن لهم ، بما لا يقبل الشك ، عن الفارق الذي جعله بينهم وبين المصريين ، ويعترف كل الأمم بأن العبرانيين الذين قد احتقروهم وظلموهم كانوا تحت حماية إله السماء .

أنذر موسى الملك بأنه إن ظل ممعنا في عناده فالرب سيرسل عليه وعلى أرضه ضربة الجراد الذي يغطي وجه الأرض ويأكل ما بقي من العشب الأخضر ، وسيملأ الجراد البيوت حتى قصر الملك نفسه ، وقال له : «الأَمْرُ الَّذِي لَمْ يَرَهُ آبَاؤُكَ وَلاَ آبَاءُ آبَائِكَ مُنْذُ يَوْمَ وُجِدُوا عَلَى الأَرْضِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ» .

وقف مشيرو فرعون ذاهلين ، لقد خسرت الدولة خسارة فادحة من جراء موت المواشي . ومات كثيرون من الشعب بسبب ضربة البرد . تكسرت أشجار الغابات وتلفت محاصيل الأرض ، وها هم يخسرون سريعا كل ما كسبوه من تعب العبرانيين وكدهم ، والبلاد كلها مهددة بخطر مجاعة ، فتقدم الأمراء والندماء وكلموا الملك في غضب قائلين : «إِلَى مَتَى يَكُونُ هذَا لَنَا فَخًّا ؟ أَطْلِقِ الرِّجَالَ لِيَعْبُدُوا الرَّبَّ إِلهَهُمْ . أَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدُ أَنَّ مِصْرَ قَدْ خَرِبَتْ ؟» .

فدعي موسى وهارون مرة أخرى وقال لهما الملك : «اذْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ . وَلكِنْ مَنْ وَمَنْ هُمُ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ ؟» .

فجاءه الجواب : «نَذْهَبُ بِفِتْيَانِنَا وَشُيُوخِنَا . نَذْهَبُ بِبَنِينَا وَبَنَاتِنَا ، بِغَنَمِنَا وَبَقَرِنَا ، لأَنَّ لَنَا عِيدًا لِلرَّبِّ» .

فامتلأ الملك غضبا وصاح قائلا : «يَكُونُ الرَّبُّ مَعَكُمْ هكَذَا كَمَا أُطْلِقُكُمْ وَأَوْلاَدَكُمْ . انْظُرُوا ، إِنَّ قُدَّامَ وُجُوهِكُمْ شَرًّا . لَيْسَ هكَذَا . اذْهَبُوا أَنْتُمُ الرِّجَالَ وَاعْبُدُوا الرَّبَّ . لأَنَّكُمْ لِهذَا طَالِبُونَ» . فَطُرِدَا مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ» لقد حاول فرعون أن يقتل الإسرائيليين بالعمل

المضني ، ولكنه هنا يتظاهر بأنه مهتم بخيرهم ، وأنه يرعى صغارهم ، وإنما كان قصده إبقاء النساء والأولاد رهائن حتى يعود الرجال .

والآن فها موسى يمد عصاه على أرض مصر فتهب ريح شرقية وتسوق الجراد . «شَيْءٌ ثَقِيلٌ جِدًّا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ جَرَادٌ هكَذَا مِثْلَهُ ، وَلاَ يَكُونُ بَعْدَهُ كَذلِكَ» لقد غطى الأرض حتى اظلمت وأكل كل شيء أخضر مما بقى . فاستدعى فرعون النبيين بسرعة وقال لهما : «أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِكُمَا وَإِلَيْكُمَا . وَالآنَ اصْفَحَا عَنْ خَطِيَّتِي هذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ ، وَصَلِّيَا إِلَى الرَّبِّ إِلهِكُمَا لِيَرْفَعَ عَنِّي هذَا الْمَوْتَ فَقَطْ» ففعلا كذلك فحملت ريح غربية قوية الجراد وطرحته إلى بحر سوف ، ومع ذلك فقد ظل الملك كما كان في قسوته وعناده .

كاد شعب مصر ييأسون ، فالضربات التي حلت بهم كادت تكون فوق طوق احتمالهم ، وكانوا في خوف شديد مما يأتي به الغد . لقد كان المصريون يعبدون فرعون على أنه ممثل إلههم ونائبه ، ولكنهم اقتنعوا الآن أنه قد وقف يتحدى إلها آخر جعل كل قوى الطبيعة خاضعة لإرادته ، أما العبيد العبرانيون الذين ميزهم الرب على مستعبديهم بعجائب إلهية فكانوا واثقين من النجاة ، ولم يعد مسخروهم يجسرون على مضايقتهم كما كانوا قبلا يفعلون ، وانتشر في طول البلاد وعرضها خوف خفي من أن تلك الأمة المستعبدة ستقوم وتثأر لنفسها من المصريين بسبب مظالمهم . وفي كل مكان كان الناس يتساءلون عما سيحدث بعد ذلك .

وفجأة انتشر في سماء البلاد ظلام دامس بحيث يكاد «يُلْمَسُ الظَّلاَمُ» فلم يحرم الشعب المصري من النور فقط بل أن الهواء كان خانقا حتى لقد كان من الصعب على الإنسان أن يتنفس . «لَمْ يُبْصِرْ أَحَدٌ أَخَاهُ ، وَلاَ قَامَ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ . وَلكِنْ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ لَهُمْ نُورٌ فِي مَسَاكِنِهِمْ» كان المصريون يتعبدون للشمس والقمر ، ففي هذه الظلمة العجيبة ضوب المصريون وآلهتهم بالقوة التي تولت الدفاع عن العبيد ، ومع أن هذه الظلمة كانت مخيفة فقد كانت دليلا على رأفة الله وعلى كونه لا يريد أن يهلك أحدا ، فقد أراد أن يعطي الناس فرصة للتأمل والتوبة قبلما يصب عليهم الضربة الأخيرة التي هي أرهب كل الضربات .

أجبر الخوف الملك فرعون على أن يذعن مرة أخرى . ففي ثالث أيام الظلمة استدعى الملك موسى وقال له إنه قد قبل أن يطلق بني إسرائيل على أن تبقى غنمهم وبقرهم ، فأجابه ذلك العبراني الصادق العزيمة بقوله : «لاَ يَبْقَى ظِلْفٌ ... وَنَحْنُ لاَ نَعْرِفُ بِمَاذَا نَعْبُدُ الرَّبَّ

حَتَّى نَأْتِيَ إِلَى هُنَاكَ» فاستشاط الملك غضبا حتى لم يستطع أن يضبط نفسه فقال : «اذْهَبْ عَنِّي . اِحْتَرِزْ . لاَ تَرَ وَجْهِي أَيْضًا . إِنَّكَ يَوْمَ تَرَى وَجْهِي تَمُوتُ» فكان جواب موسى : «نِعِمَّا قُلْتَ . أَنَا لاَ أَعُودُ أَرَى وَجْهَكَ أَيْضًا» .

«وَأَيْضًا الرَّجُلُ مُوسَى كَانَ عَظِيمًا جِدًّا فِي أَرْضِ مِصْرَ فِي عُيُونِ عَبِيدِ فِرْعَوْنَ وَعُيُونِ الشَّعْبِ» لقد كان المصريون يهابون موسى ، والملك نفسه لم يستطع أن يمد يده إليه بأذى إذ كان الشعب ينظرون إليه كمن له وحده السلطان أن يرفع الضربات ، وكانوا يرغبون في رحيل الإسرائيليين عن مصر ، ولكن الملك والكهنة هم الذين قاوموا مطاليب موسى إلى النهاية .

الفصل الرابع والعشرون

الفصح

عندما طلب من ملك مصر أن يطلق بنى إسرائيل أول مرة قدم له إنذار بحلول أرهب ضربة ، فقد أمر الرب موسى أن يقول لفرعون : «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ : إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ . فَقُلْتُ لَكَ : أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي ، فَأَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُ . هَا أَنَا أَقْتُلُ ابْنَكَ الْبِكْرَ» (خروج ٤: ٢٢،٢٣) ومع أن الإسرائيليين كانوا محتقرين في عيون المصريين فقد أكرمهم الله إذ أفرزهم واستأمنهم على شريعته . وبالنظر إلى البركات والامتيازات الخاصة التي منحت لهم كانت لهم الأفضلية على كل الأمم ، شأنهم في ذلك شأن الابن البكر بين إخوته .

إن تلك الضربة التي أنذر المصريون بها أول ما أنذروا كانت آخر الضربات . إن الله طويل الروح وكثير الرحمة ، ويهتم ويرأف بالخلائق التي جبلها على صورته . فلو أن خسارة المحاصيل والغنم والبقر ساقت شعب مصر إلى التوبة لما قتل أبكارهم ، ولكن لأن تلك الأمة رفضت إطاعة أمر الرب ، في إصرار ، فقد حان وقت وقوع الضربة الأخيرة .

كان فرعون قد نهى موسى عن المثول أمامه وإلا فسيكون جزاؤه الموت ، ولكن كان لابد من تبليغ آخر رسالة من الله لذلك الملك المتمرد ، فوقف موسى أمامه ونطق في سمعه بذلك الإعلان الرهيب قائلا : «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ : إِنِّي نَحْوَ نِصْفِ اللَّيْلِ أَخْرُجُ فِي وَسَطِ مِصْرَ ، فَيَمُوتُ كُلُّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ ، مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلْفَ الرَّحَى ، وَكُلُّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ . وَيَكُونُ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ وَلاَ يَكُونُ مِثْلُهُ أَيْضًا . وَلكِنْ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يُسَنِّنُ كَلْبٌ لِسَانَهُ إِلَيْهِمْ ، لاَ إِلَى النَّاسِ وَلاَ إِلَى الْبَهَائِمِ . لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ وَإِسْرَائِيلَ . فَيَنْزِلُ إِلَيَّ جَمِيعُ عَبِيدِكَ هؤُلاَءِ ، وَيَسْجُدُونَ لِي قَائِلِينَ : اخْرُجْ أَنْتَ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِينَ فِي أَثَرِكَ . وَبَعْدَ ذلِكَ أَخْرُجُ» (خروج ١١: ٤-٨) .

قبل تنفيذ هذا الحكم أبلغ الرب تعليماته لبني إسرائيل بواسطة موسى بشأن رحليهم عن مصر ، وعلى الخصوص لحفظهم من الدينونة القادمة . كان على كل عائلة وحدها أو بالاشتراك مع غيرها أن تأخذ شاة «صَحيحَةً» من الخرفان أو المواعز . وبعدما يذبحونه يأخذون باقة زوفا ويغمسونها في الدم الذي في الطست ويرشون الدم «عَلَى الْقَائِمَتَيْنِ وَالْعَتَبَةِ الْعُلْيَا» في بيوتهم حتى لا يدخلها الملاك المهلك الذي سيأتي في منتصف الليل . وكان عليهم أن يأكلوا اللحم مشويا مع فطير على أعشاب مرة في الليل ، كما قال موسى : «وَهكَذَا تَأْكُلُونَهُ : أَحْقَاؤكُمْ مَشْدُودَةٌ ، وَأَحْذِيَتُكُمْ فِي أَرْجُلِكُمْ ، وَعِصِيُّكُمْ فِي أَيْدِيكُمْ . وَتَأْكُلُونَهُ بِعَجَلَةٍ . هُوَ فِصْحٌ لِلرَّبِّ» (خروج ١٢: ١-٢٨) .

وقد أعلن الرب قائلا : «إِنِّي أَجْتَازُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هذِهِ اللَّيْلَةَ ، وَأَضْرِبُ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ ... وَيَكُونُ لَكُمُ الدَّمُ عَلاَمَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا ، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ ، فَلاَ يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلاَكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ» وكتذكار لهذا الخلاص العظيم كان لا بد للشعب من أن يعيّدوا عيدا سنويا في كل الأجيال اللاحقة ، «وَيَكُونُ لَكُمْ هذَا الْيَوْمُ تَذْكَارًا فَتُعَيِّدُونَهُ عِيدًا لِلرَّبِّ . فِي أَجْيَالِكُمْ تُعَيِّدُونَهُ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً» وإذ يحفظون العيد في السنين التالية كان عليهم أن يخبروا أولادهم بقصة هذا الخلاص العظيم كما أمرهم موسى قائلا : «تَقُولُونَ : هِيَ ذَبِيحَةُ فِصْحٍ لِلرَّبِّ الَّذِي عَبَرَ عَنْ بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ لَمَّا ضَرَبَ الْمِصْرِيِّينَ وَخَلَّصَ بُيُوتَنَا» .

وفوق هذا فإن جميع الأبكار من الناس والبهائم كان يجب أن يكونوا للرب ، ومن أراد استرداد بكره فليدفع عنه فدية ، لكي يكون ذلك اعترافا منهم بأنه حين هلك أبكار المصريين فإن أبكار إسرائيل مع كون الرب قد حفظهم برحمته فقد كانوا معرضين لنفس المصير لولا الذبيحة الكفارية . يقول الله : «لأَنَّ لِي كُلَّ بِكْرٍ . يَوْمَ ضَرَبْتُ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَدَّسْتُ لِي كُلَّ بِكْرٍ فِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ . لِي يَكُونُونَ» (عدد ٣: ١٣) . وبعدما ترتبت الخدمة في خيمة الاجتماع اختار الرب لنفسه سبط لاوي لأجل عمل المقدس بدلا من أبكار الشعب . فلقد قال الله : «لأَنَّهُمْ مَوْهُوبُونَ لِي هِبَةً مِنْ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ . بَدَلَ كُلِّ فَاتِحِ رَحِمٍ ، بِكْرِ كُلٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدِ اتَّخَذْتُهُمْ لِي» (عدد ٨: ١٦) . ومع ذلك فقد كان على كل الشعب ، اعترافا منهم برحمة الله ، أن يدفعوا فدية عن أبكارهم (عدد ١٨: ١٥،١٦) .

274,277

ولقد قصد بالفصح أن يكون تذكارا ورمزا ليس فقط بالنظر إلى الماضي كذكرى لنجاتهم من مصر ، بل أيضا بالنظر إلى المستقبل كرمز للخلاص الأعظم الذي سيتممه المسيح بتحرير شعبه من عبودية الخطية . إن خروف الفصح يرمز إلى «حَمَلُ اللهِ» الذي فيه وحده لنا رجاء الخلاص . يقول الرسول : «لأَنَّ فِصْحَنَا أَيْضًا الْمَسِيحَ قَدْ ذُبحَ لأَجْلِنَا» (١كورنثوس ٥: ٧) . ولم يكن ذبح خروف الفصح وحده كافيا بل كان ينبغي أن يرش دمه على العتبة العليا والقائمتين ، وكذلك لا بد للنفس أن تقبل وتأخذ استحقاقات دم المسيح . ينبغي لنا أن نؤمن ليس فقط بأنه مات لأجل العالم ، بل أنه مات لأجلنا فرديا . علينا أن نخصص لأنفسنا فاعلية الذبيحة الكفارية واستحقاقها .

أما الزوفا المستعملة في رش الدم فهي رمز للتطهير ، إذ كانت تستعمل في تطهر الأبرص وكل من قد تنجسوا بلمسهم لميت . ويمكننا أن نفهم معناها أيضا من الصلاة التي قدمها داود حين قال : «طَهِّرْنِي بِالزُّوفَا فَأَطْهُرَ . اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ» (مزمور ٥١: ٧) .

ووجب أن يهيأ الخروف صحيحا فلا يكسر عظم منه ، وكذلك حمل الله الذي كان سيموت لأجلنا ما كان ليكسر عظم منه (خروج ١٢:٤٦؛ يوحنا ١٩: ٣٦) وهكذا أيضا تمثل كمال ذبيحة المسيح .

وكان يجب أن يؤكل اللحم . ولا يكفي بالنسبة إلينا أن نؤمن بالمسيح لغفران الخطية ، بل علينا ، بالإيمان ، أن نستعد ، ونأخذ باستمرار ، قوة روحية وغذاء منه بواسطة كلمته . قال المسيح : «إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ . مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ» (يوحنا ٦: ٥٣،٥٤،٦٣) وإيضاحا لمعنى هذا الكلام قال «اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ» (يوحنا ٦: ٦٣) لقد قبل يسوع شريعة أبيه ، وتمم مبادئها في حياته ، وأعلن روحها وأبان قوتها الخيِّرة في القلب . يقول يوحنا : «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا ، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا» (يوحنا ١: ١٤) على أتباع المسيح أن يشاركوه في اختباره . عليهم أن يقبلوا كلمة الله ويغتذوا بها حتى تصير هي القوة الدافعة لهم في الحياة وفي العمل . وبقوة المسيح عليهم أن يتغيروا إلى شبهه ، ويعكسوا الصفات

الإلهية . عليهم أن يأكلوا جسد ابن الله ويشربوا دمه وإلا فلن تكون فيهم حياة ، فينبغي أن يكون روح المسيح وعمله هما روح تلاميذه وعملهم .

وكان يجب أن يؤكل الحمل على أعشاب مرة ، وكان هذا إشارة إلى مرارة العبودية في مصر . كذلك نحن حين نأكل جسد المسيح ينبغي أن يكون ذلك بانسحاق القلب على خطايانا . وكان استعمال خبز الفطير ذا مغزى ، وكان ذلك مفروضا فرضا صريحا في شريعة الفصح ، وكان اليهود يحفظونه حفظا تاما بحيث لا يوجد في بيوتهم أي أثر للخمر في العيد . كذلك ينبغي لكل من يرغبون في الحصول على الحياة والغذاء من المسيح أن يطرحوا بعيدا عنهم خميرة الخطية . والرسول بولس يكتب إلى كنيسة كورنثوس قائلا «إِذًا نَقُّوا مِنْكُمُ الْخَمِيرَةَ الْعَتِيقَةَ ، لِكَيْ تَكُونُوا عَجِينًا جَدِيدًا ... لأَنَّ فِصْحَنَا أَيْضًا الْمَسِيحَ قَدْ ذُبِحَ لأَجْلِنَا . إِذًا لِنُعَيِّدْ ، لَيْسَ بِخَمِيرَةٍ عَتِيقَةٍ ، وَلاَ بِخَمِيرَةِ الشَّرِّ وَالْخُبْثِ ، بَلْ بِفَطِيرِ الإِخْلاَصِ وَالْحَقِّ» (١كورنثوس ٥: ٧،٨) .

وقبل الحصول على الحرية كان على أولئك العبيد أن يظهروا إيمانهم بالخلاص العظيم الذي يوشك الرب أن يصنعه ، فكان ينبغي لهم أن يضعوا علامة الدم على بيوتهم ، كما كان عليهم أن ينفصلوا هم وعائلاتهم عن المصريين ويجتمعوا داخل مساكنهم . فلو أن أولئك الإسرائيليين استخفوا بحفظ شيء ولو صغير من التعليمات المعطاة لهم ، أو أهملوا في فصل أولادهم من بين المصريين ، أو لو أنهم بعد ما ذبحوا الخروف أهملوا في رش الدم على العتبة العليا والقائمتين في بيوتهم ، أو لو خرجوا من بيوتهم لما كانوا في أمان . كان يمكنهم أن يؤمنوا ، مخلصين ، بأنهم قد عملوا كل ما هو ضروري ، ولكن إخلاصهم ما كان يمكن أن يخلصهم . فكل من أهملوا اتباع تعليمات الرب كلها كان لابد من أن يموت بكْرهم بيد المهلك .

إن الشعب بطاعتهم برهنوا على إيمانهم ، وهكذا كل من يؤملون في الخلاص باستحقاقات دم المسيح ينبغي لهم أن يدركوا أنهم هم أنفسهم عليهم شيء يعملونه ليتم خلاصهم ، فمع أن المسيح هو وحده الذي يستطيع أن يفتدينا من قصاص تعدياتنا فعلينا نحن أن نترك خطايانا ونطيعه . إن الإنسان يخلص بالإيمان لا بالأعمال ، ولكن لابد أن يبرهن على إيمانه بأعماله . لقد بذل الله ابنه ليموت كفارة عن الخطية ، ولقد أعلن نور

الحق وطريق الحياة . وأعطى تسهيلات وفرائض وامتيازات . فعلى الإنسان الآن أن يتعاون مع عوامل الخلاص هذه ، وعليه أن يقدر ويستعمل المساعدات التي قد أعدها الله ، وهي أن يؤمن ويطيع كل مطاليب الله .

وعندما تلا موسى على مسامع إسرائيل ما قد أعده الله لنجاتهم «خَرَّ الشَّعْبُ وَسَجَدُوا» (خروج ١٢: ٢٧) إن رجاءهم المفرح في الحرية ومعرفتهم للدينونة المخيفة التي تهدد مستعبديهم ، وكل المشقات والهموم التي سبقت رحيلهم السريع- كل هذه ابتلعت في شكرهم لمحررهم الرحيم . إن كثيرين من المصريين اعترفوا بأن إله العبرانيين هو الإله الحقيقي الوحيد . فهؤلاء الناس جعلوا يتوسلون إليهم الآن أن يسمحوا لهم بالاحتماء داخل بيوت إسرائيل حين يعبر الملاك المهلك في البلاد . فبكل سرور رحبوا بهم . وقد تعهدوا من ذلك الحين أن يخدموا إله يعقوب ، وأن يخرجوا من مصر مع شعبه .

أطاع الإسرائيليون التعليمات المعطاة لهم من الله . وبكل سرعة وتكتم شديد أعدوا كل شيء للرحيل . فاجتمعت عائلاتهم وذبحوا الفصح وشوي اللحم بالنار وأعد خبز الفطير والأعشاب المرة . وقد رش رب كل عائلة وكاهنها الدم على قائمتي الباب ثم دخل ليجتمع مع عائلته في داخل المنزل . ثم أكلوا الفصح بعجلة وسكون . وقد كان الشعب يصلون بتهيب ووقار وهم منتظرون . وكان كل الأبكار الكبار منهم والصغار مرتجفي القلوب وخائفين خوفا لا يمكن التعبير عنه . وكان الآباء والأمهات يمسكون بأبكارهم المحبوبين بين أذرعهم وهم يفكرون في الضربة المخيفة التي ستحل بمصر في تلك الليلة ، ولكن الملاك المهلك لم يدخل بيتا واحدا من بيوت الإسرائيليين . إن علامة الدم : علامة حماية المخلص ، كانت على أبوابهم فلم يدخلها المهلك .

ففي نصف الليل «كَانَ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي مِصْرَ ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فيهِ مَيْتٌ» . فقد ضرب الملاك المهلك كل أبكار المصريين «مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلْفَ الرَّحَى ، وَكُلُّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ» (خروج ١٢: ٢٩-٣٣) ففي كل بلاد مصر الواسعة سقط فخر كل بيت من المصريين ، وقد علت في جو السماء صرخات النائحين وولولتهم . ووقف الملك وندماؤه بوجوههم الشاحبة وأعضائهم المرتجفة وقد اعتراهم الذهول وسيطر عليهم الرعب . وذكر فرعون كيف صاح مرة قائلا : «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى

أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ ، وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ» (خروج ٥: ٢) أما الآن فإن كبرياءه التي بها تحدى السماء قد أذلت في الرماد «فَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ لَيْلاً وَقَالَ : قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا ، وَاذْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ . خُذُوا غَنَمَكُمْ أَيْضًا وَبَقَرَكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ وَاذْهَبُوا . وَبَارِكُونِي أَيْضًا» ، كما أن مشيري الملك والشعب توسلوا إلى الإسرائيليين أن يرحلوا عن الأرض بعجلة «لأَنَّهُمْ قَالُوا : جَمِيعُنَا أَمْوَاتٌ» .

الفصل الخامس والعشرون

الخروج

وقف شعب إسرائيل وأحقاؤهم مشدودة وأحذيتهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم ساكتين متهيبين متوقعين ومنتظرين أمر الملك لهم بالخروج ، وقبل بزوغ نور النهار كانوا سائرين في طريقهم . في أثناء وقوع الضربات على مصر إذ أضرم إعلان قدرة الله نار الإيمان في قلوب أولئك العبيد ، وألقى الرعب في قلوب مضطهديهم بدأ أولئك الإسرائيليون يتجمعون في جاسان . فبالرغم من أن ذلك الهروب كان مفاجئا فإن تدبيرا كان قد أعد لأجل تنظيم وضبط تلك الجموع التي بدأت تتحرك ، إذ كانوا قد انقسموا إلى جماعات تحت قيادة بعض القادة المعينين .

فارتحلوا وهم «نَحْوَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الأَوْلاَدِ . وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضًا» (خروج ١٢: ٣٤-٣٩) وبين ذلك الجمع لم يكن يرى فقط أولئك الذين آمنوا بإله إسرائيل ، بل أيضا جمع غفير ممن رغبوا في النجاة من الضربات ، والذين رغبوا في اتباع تلك الجموع المتيقظة ، مدفوعين بدافع الاهتياج والفضول . هذا الفريق كان دائما معطلا وشركا لإسرائيل .

وأخذ الشعب أيضا معهم غنما وبقرا ومواشي وافرة جدا . هذه كانت أملاك الإسرائيليين الذين لم يبيعوا ممتلكاتهم للملك كما قد فعل المصريون . كان يعقوب وبنوه قد أحضروا معهم غنمهم وبقرهم إلى مصر حيث تزايد عددها كثيرا ، وقبيل رحيلهم عن مصر طلبوا ، بناء على تعليمات موسى ، تعويضا عن أعمالهم التي لم يأخذوا عنها أجرا . وكان المصريون يتوقون إلى التخلص منهم بحيث لم يرفضوا لهم طلبا ، فرحل أولئك العبيد مزودين بغنائم كثيرة من ظالميهم .

إن ذلك اليوم كان ختام التاريخ الذي سبق فأعلن لإبراهيم في رؤيا نبوية قبل ذلك بعدة

قرون ، حيث قال له الله : «أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ ، وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ . فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ . ثُمَّ الأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا ، وَبَعْدَ ذلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلاَكٍ جَزِيلَةٍ» (تكوين ١٥: ١٣،١٤) و ها قد انتهت الأربع مئة سنة . «وَكَانَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ أَنَّ الرَّبَّ أَخْرَجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِحَسَبِ أَجْنَادِهِمْ» (خروج ١٢: ٤٠،٤١،٥١؛ ١٣: ١٩) وعند رحيلهم عن مصر حمل الإسرائيليون معهم ميراثا ثمينا هو عظام يوسف التي ظلت أمدا طويلا تنتظر إتمام وعد الله ، والتي بقيت طوال سنين العبودية المظلمة مذكرة بخلاص إسرائيل .

ولكن بدلا من اتباع الطريق المباشر إلى كنعان والذي يخترق بلاد الفلسطينيين وجههم الرب إلى الجنوب ، إلى شواطئ البحر الأحمر . «لأَنَّ اللهَ قَالَ : لِئَلاَّ يَنْدَمَ الشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ» . (خروج ١٣: ١٧،١٨،٢٠-٢٢) فلو أنهم حاولوا اختراق أرض الفلسطينيين لأوقفوهم عن التقدم لأن الفلسطينيين لاعتبارهم إياهم عبيدا هاربين من سادتهم لا يترددون في إثارة الحرب عليهم ، ولم يكن الإسرائيليون متأهبين لمقاتلة ذلك الشعب القوي المحارب ، ولم يكن عندهم غير القليل من معرفة الله والإيمان به ، وكان يمكن أن يرتعبوا وتثبط هممهم . لم يكونوا مسلحين ولا متمرنين على الحرب . كانوا منقبضي النفس وفاتري الهمة بسبب طول سني العبودية . وكان يعرقلهم أولادهم ونساؤهم وغنمهم وبقرهم ، فإذ هداهم الرب في طريق بحر سوف أعلن أنه إله الرأفة كما أنه إله الدينونة .

«وَارْتَحَلُوا مِنْ سُكُّوتَ وَنَزَلُوا فِي إِيثَامَ فِي طَرَفِ الْبَرِّيَّةِ . وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ ، وَلَيْلاً فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ . لِكَيْ يَمْشُوا نَهَارًا وَلَيْلاً . لَمْ يَبْرَحْ عَمُودُ السَّحَابِ نَهَارًا وَعَمُودُ النَّارِ لَيْلاً مِنْ أَمَامِ الشَّعْبِ» ، والمرنم يقول : «بَسَطَ سَحَابًا سَجْفًا ، وَنَارًا لِتُضِيءَ اللَّيْلَ» (مزمور ١٠٥: ٣٩؛ ١كورنثوس ١٠: ١،٢) لقد كان أمام أنظارهم دائما علم قائدهم غير المنظور ، ففي النهار هداهم عمود السحاب في رحلاتهم أو انبسط كخيمة فوق ذلك الجمهور ، ووقاهم من الحرارة المحرقة . وقد أفادتهم الرطوبة المنبعثة من تلك السحابة وأنعشتهم في تلك البرية اليابسة من العطش . وفي الليل تحولت السحابة إلى عمود نار أنار محلتهم وكان مذكرا دائما لهم بحضور الله معهم .

في فصل من أجمل الفصول المعزية الواردة في نبوات إشعياء إشارة إلى عمود السحاب

والنار كدليل على رعاية الله لشعبه في صراعه العظيم الأخير مع قوات الشر ، حيث جـــاء : «يَخْلُقُ الرَّبُّ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ جَبَلِ صِهْيَوْنَ وَعَلَى مَحْفَلِهَا سَحَابَةً نَهَارًا ، وَدُخَانًا وَلَمَعَانَ نَارٍ مُلْتَهِبَةٍ لَيْلاً ، لأَنَّ عَلَى كُلِّ مَجْدٍ غِطَاءً . وَتَكُونُ مِظَلَّةٌ لِلْفَيْءِ نَهَارًا مِنَ الْحَرِّ ، وَلِمَلْجَـأٍ وَلِمَخْبَأٍ مِنَ السَّيْلِ وَمِنَ الْمَطَرِ» (إشعياء ٤: ٥،٦) .

ساروا في ذلك القفر الصحراوي الموحش ، فبدأوا يتساءلون إلى أين تنتهي طريقهم . لقـد بدا عليهم الإعياء في ذلك الطريق المكرب ، وبدأ الخوف يتسلل إلى بعــض القلــوب خشــية مطاردة المصريين لهم ، ولكن السحابة تقدمت في سيرها فتبعوها . ثم أن الرب أمر موسى أن يميل بالشعب إلى مضيق صخري ليعسكروا بجوار البحر ، وقد أعلن له الـــرب أن فرعــون سيجد في مطاردتهم ولكن الله سيتمجد في خلاصهم .

انتشر الخبر في مصر بأن بني إسرائيل بدلا من الانتظار لعبادة الله في البرية كانوا يجدون في سيرهم نحو بحر سوف . وأخبر فرعون مشيروه بأن عبيده قد هربوا ولن يعودوا ، وقـــد تأسف شعب مصر على جهلهم في الاعتقاد أن موت أبكارهم كان سببه قوة الله ، فبعدما أفـــاق عظماؤهم من خوفهم نسبوا الضربات إلى عوامل طبيعية ، فصرخوا صرخة مـــرة قـــائلين : «مَاذَا فَعَلْنَا حَتَّى أَطْلَقْنَا إِسْرَائِيلَ مِنْ خِدْمَتِنَا ؟» (خروج ١٤: ٥-٦) .

فجمع فرعون جيوشه «وَأَخَذَ سِتَّ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ مُنْتَخَبَةٍ وَسَائِرَ مَرْكَبَاتِ مِصْـــرَ» فـــأخذ فرسانا وقوادا ومشاة ، وسار الملك نفسه في طليعة الجيش المهاجم ، بصحبـــة عظمـــاء مملكته . ولكي يضمنوا رضى الآلهة ويتأكدوا من نجاح خطتهم سار الكهنة معهم . لقـــد أراد الملك أن يلقي الرعب في قلوب الإسرائيليين بكونه يقيم عرضا عظيما لقواته ، وقـــد خاف المصريون لئلا يكون خضوعهم لإله إسرائيل ، ذلك الخضوع الذي أكرهوا عليـــه مدعاة سخرية الأمم الأخرى بهم ، ولكن إذا كانوا الآن يخرجون بجيـــش عظيـــم يكـــون مظهرا لقوتهم ويعيدون الهاربين إلى عبوديتهم فإنهم سيستعيدون مجدهم وكرامتهم ، كمـــا يستعيدون خدمة أولئك العبيد .

كان العبرانيون معسكرين بجوار البحر الذي بدت مياهه كأنها حاجز عظيم يســـتحيل عليهم اجتيازه ، بينما اعترض طريقهم المتجه إلى الجنوب جبل وعر . وفجأة أبصـــروا من بعيد وميض أسلحة وجلبة مركبات تتحرك تكشف عن طليعة جيش عظيم . وعندمـــا

اقتربت تلك القوات رؤيت كل جيوش مصر جادة في مطاردتهم لهم فامتلأت قلوب بني إسرائيل رعبا . وصرخ بعضهم إلى الرب ، بينما أسرع السواد الأعظم منهم إلى موسى يبثونه تذمراتهم قائلين : «هَلْ لأَنَّهُ لَيْسَتْ قُبُورٌ فِي مِصْرَ أَخَذْتَنَا لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ ؟ مَاذَا صَنَعْتَ بِنَا حَتَّى أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ ؟ أَلَيْسَ هذَا هُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي كَلَّمْنَاكَ بِهِ فِي مِصْرَ قَائِلِينَ : كُفَّ عَنَّا فَنَخْدِمَ الْمِصْرِيِّينَ ؟ لأَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ نَخْدِمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ» (خروج ١٤: ١٠-٢٢) .

انزعجت نفس موسى كثيرا لضعف إيمان شعبه بالله رغم أنهم شاهدوا مرارا مظاهر قدرته في الدفاع عنهم . وكيف يتهمونه بأنه هو السبب في ذلك الخطر الذي يتهددهم مع أنه قد اتبع أمر الرب تماما ؟ صحيح أنه لم يكن رجاء في نجاتهم ما لم يتداخل الله لإنقاذهم ، ولكن حيث قد جيء بهم إلى ذلك المركز الحرج نتيجة لإطاعته أمر الرب فإن موسى لم يكن يخشى سوء العاقبة ، ولذلك نطق في مسامعهم بذلك القول الواثق الهادئ : «لاَ تَخَافُوا . قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ الَّذِي يَصْنَعُهُ لَكُمُ الْيَوْمَ . فَإِنَّهُ كَمَا رَأَيْتُمُ الْمِصْرِيِّينَ الْيَوْمَ ، لاَ تَعُودُونَ تَرَوْنَهُمْ أَيْضًا إِلَى الأَبَدِ . الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ» .

إن أمر ضبط صفوف إسرائيل للانتظار أمام الرب لم يكن أمرا سهلا ، فإذ كان ينقصهم التدريب والنظام وضبط النفس صاروا عنفاء ، وفقدوا التعقل والاتزان ، لقد كانوا يتوقعون أنهم سيسقطون سريعا في أيدي ظالميهم ، فارتفعت أصوات عويلهم وصراخهم إلى عنان السماء . لقد تبعوا عمود السحاب العجيب كإشارة عن الله لهم بالتقدم في سيرهم . ولكنهم الآن بدأوا يتساءلون ما إذا لم يكن ذلك العمود نذيرا بكارثة هائلة ستحل بهم ، لأنه ألم يقدهم إلى الجانب الخطأ من الجبل ، إلى طريق لا يمكن عبورها ؟ ولذلك فقد بدا ملاك الله لعقولهم المخدوعة كما لو كان نذيرا بمصيبة هائلة ستحل بهم .

أما الآن وقد اقترب المصريون منهم ، وكانوا ينتظرون أن يسقطوا في أيديهم فرائس سهلة المنال فقد ارتفع عمود السحاب بجلال في الجو ومر فوق الإسرائيليين ثم هبط ووقف بينهم وبين جيوش مصر . فكان هنالك سور من الظلام فصل بين شعب إسرائيل ومطارديهم . فلم يستطيع المصريون مشاهدة محلة العبرانيين فاضطروا للتوقف عن السير . ولكن إذ زادت ظلمة الليل صار عمود السحاب نورا عظيما أضاء على العبرانيين وغمر كل محلتهم بنور كنور النهار .

حينئذ عاد الرجاء إلى قلوب بني إسرائيل . ورفع موسى إلى الله صوتـــه «فَقَـــالَ الـــرَّبُّ لِمُوسَى : مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ ؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا . وَارْفَعْ أَنْتَ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ وَشُقَّهُ ، فَيَدْخُلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ» .

يقول المرنم في وصف عبور بني إسرائيل في البحر على اليابسة : «فِي الْبَحْرِ طَرِيقُـكَ ، وَسُبُلُكَ فِي الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ ، وَآثَارُكَ لَمْ تُعْرَفْ . هَدَيْتَ شَعْبَكَ كَالْغَنَمِ بِيَدِ مُوسَى وَهَـــارُونَ» (مزمور ٧٧: ١٩،٢٠) فلما رفع موسى عصاه انشقت المياه وسار إسرائيل في وسط البحـــر على اليابسة وكان الماء سورا لهم على الجانبين ، وإن النور من عمود الله الذي من نار قـــد أضاء على اللجج المزبدة فأنار الطريق التي شقت كأخدود عظيم وسط مياه البحـــر ، والتـــي اختفت في عتمة الشاطئ الأبعد .

«وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ . جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَـــى وَسَـــطِ الْبَحْرِ . وَكَانَ فِي هَزِيعِ الصُّبْحِ أَنَّ الرَّبَّ أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ فِـــي عَمُـــودِ النَّـــارِ وَالسَّحَابِ ، وَأَزْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيِّينَ» (خروج ١٤: ٢٣،٢٤) إن تلك السحابة العجيبة اســتحالت إلى عمود من نار أمام عيونهم المندهشة . ثم دمدمت الرعود ولمعت البروق .«سَكَبَتِ الْغُيُــومُ مِيَاهًا ، أَعْطَتِ السُّحُبُ صَوْتًا . أَيْضًا سِهَامُكَ طَارَتْ . صَوْتُ رَعْـــدِكَ فِـــي الزَّوْبَعَـــةِ . الْبُرُوقُ أَضَاءَتِ الْمَسْكُونَةَ . ارْتَعَدَتْ وَرَجَفَتِ الأَرْضُ» (مزمور ٧٧: ١٧،١٨) .

أما المصريون فقد ملكهم الارتباك والرعب ، ففي وسط غضب العناصر التي فيها ســمعوا صوت الله الغاضب حاولوا التقهقر والهروب إلى الشاطئ الآخر الذي كانوا قد برحوه ، ولكـــن موسى مد عصاه وإذا بالمياه المتجمعة التي كانت تصفر وتزأر شوقا إلى فريســـتها ، تندفـــع وتبتلع الجيش المصري في أعماقها المظلمة .

وببزوغ النهار انكشف لجماهير شعب إسرائيل كل ما تبقى من أعدائهم الأقوياء- الجثـــث المدرعة مطروحة على الشاطئ . إن ليلة واحدة نقلتهم من حالة الخطر الرهيب إلـــى النجـــاة الكاملة . فذلك الجمهور العظيم العاجز- العبيد غير المدربين على القتال ، والنساء والأطفـــال والماشية ، وأمامهم البحر ، وجيوش مصر القوية تسرع في اللحاق بهم- أولئك المساكين رأوا طريقا مفتوحا أمامهم في وسط الماء ، ورأوا أعداءهم يغرقون في اللحظة التي كانوا ينتظرون فيها الانتحار . إن الرب (يهوه) وحده هو الذي أتاهم بالنجاة . فارتفعت قلوبهم إليه وحده فـــي

شكر وإيمان . وقد عبروا عن شعورهم بأناشيد الحمد ، واستقر روح الله على موسى فقاد الشعب في تسبيحة الانتصار والشكر ، وكانت من أولى وأسمى وأمجد التسبيحات التي عرفها الناس ، وهي تقول :

«أُرَنِّمُ لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ . الْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي الْبَحْرِ . الرَّبُّ قُوَّتِي وَنَشِيدِي ، وَقَدْ صَارَ خَلاَصِي . هذَا إِلهِي فَأُمَجِّدُهُ ، إِلهُ أَبِي فَأُرَفِّعُهُ . الرَّبُّ رَجُلُ الْحَرْبِ . الرَّبُّ اسْمُهُ . مَرْكَبَاتُ فِرْعَوْنَ وَجَيْشُهُ أَلْقَاهُمَا فِي الْبَحْرِ ، فَغَرِقَ أَفْضَلُ جُنُودِهِ الْمَرْكَبِيَّةِ فِي بَحْرِ سُوفَ ، تُغَطِّيهِمُ اللُّجَجُ . قَدْ هَبَطُوا فِي الأَعْمَاقِ كَحَجَرٍ . يَمِينُكَ يَا رَبُّ مُعْتَزَّةٌ بِالْقُدْرَةِ . يَمِينُكَ يَا رَبُّ تُحَطِّمُ الْعَدُوَّ ... مَنْ مِثْلُكَ بَيْنَ الآلِهَةِ يَا رَبُّ ؟ مَنْ مِثْلُكَ مُعْتَزًّا فِي الْقَدَاسَةِ ، مَخُوفًا بِالتَّسَابِيحِ ، صَانِعًا عَجَائِبَ ؟ ... تُرْشِدُ بِرَأْفَتِكَ الشَّعْبَ الَّذِي فَدَيْتَهُ . تَهْدِيهِ بِقُوَّتِكَ إِلَى مَسْكَنِ قُدْسِكَ . يَسْمَعُ الشُّعُوبُ فَيَرْتَعِدُونَ ... تَقَعُ عَلَيْهِمِ الْهَيْبَةُ وَالرُّعْبُ . بِعَظَمَةِ ذِرَاعِكَ يَصْمُتُونَ كَالْحَجَرِ حَتَّى يَعْبُرَ شَعْبُكَ يَا رَبُّ . حَتَّى يَعْبُرَ الشَّعْبُ الَّذِي اقْتَنَيْتَهُ . تَجِيءُ بِهِمْ وَتَغْرِسُهُمْ فِي جَبَلِ مِيرَاثِكَ ، الْمَكَانِ الَّذِي صَنَعْتَهُ يَا رَبُّ لِسَكَنِكَ» (خروج ١٥: ١-١٧) .

ارتفع صوت تلك التسبيحة من أفواه جموع إسرائيل الغفيرة كصوت مياه البحر العميقة . واشتركت في إنشادها نساء إسرائيل بقيادة مريم أخت موسى حين خرجت النساء وراء مريم بدفوف ورقص ، وارتفع صوت تلك الترنيمة المفرحة فوق القفر والبحر ، ورددت الجبال صدى كلمات ذلك النشيد حين قال الشعب : «أُرَنِّمُ لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ» .

إن هذه التسبيحة والنجاة التي تخلد الترنيمة ذكراها أحدثت أثرا لا يمحى من عقول الشعب العبراني ، ومن جيل إلى جيل كان الأنبياء ومرنمو إسرائيل يرددونها شهادة على أن الرب هو قوة من يثقون به وخلاصهم ، ولكن هذه التسبيحة ليست وقفا على شعب اليهود وحدهم ، إذ هي تشير إلى الأمام ، إلى الوقت الذي يتم فيه هلاك كل أعداء البر ، وقت النصرة النهائية لشعب الله . إن نبي بطمس يرى جمهور الأبرار اللابسين الثياب البيض الذين أحرزوا النصرة واقفين على «بَحْرٍ مِنْ زُجَاجٍ مُخْتَلِطٍ بِنَارٍ» ، «مَعَهُمْ قِيثَارَاتُ اللهِ ، وَهُمْ يُرَتِّلُونَ تَرْنِيمَةَ مُوسَى عَبْدِ اللهِ ، وَتَرْنِيمَةَ الْخَرُوفِ» (رؤيا ١٥: ٢،٣) .

«لَيْسَ لَنَا يَا رَبُّ لَيْسَ لَنَا ، لكِنْ لاسْمِكَ أَعْطِ مَجْدًا ، مِنْ أَجْلِ رَحْمَتِكَ مِنْ أَجْلِ أَمَانَتِكَ» (مزمور ١١٥: ١) . تلك كانت الروح التي تخللت ترنيمة النجاة التي ترنم بها شعب

إسرائيل ، وهي نفس الروح التي ينبغي أن تسكن في قلوب كل من يحبون الله ويتقونـــــه . إن الله لكي يحرر أرواحنا من عبودية الخطية قد صنع لنا خلاصا أعظم من الخلاص الذي صنعه للعبرانيين عند بحر سوف . وكما فعل جمهور العبرانيين كذلك علينا نحن أيضـــــا أن نسـبح الرب بقلوبنا وأرواحنا وأصواتنا على «عَجَائِبِهِ لِبَنِي آدَمَ» إن الذين يعيشون على مراحم الرب ولا ينسون أقل عطية من عطاياه سيلبسون رداء الابتهاج ويسبحون الرب مـــن قلوبـــهم . إن البركات التي نتناولها من الرب كل يوم ، وفوق الكل موت يسوع لكي يجعل السعادة والسـماء في متناول أيدينا ينبغي أن تكون موضوع شكرنا الدائـــم . أي رافـــة وأي محبـــة لا تبـــارى أظهرهما الله لنا نحن الخطاة الهالكين في كونه وحّدنا بشخصه لنكـــون لـــه خاصـــة (كـــنزا خاصا) ! أي ذبيحة قدمها فادينا لكي ندعى أولاد الله ! ينبغي أن نشـــكر الله ونســـبحه لأجـــل الرجاء الموضوع أمامنا في تدبير الفداء العظيم ، وعلينا أن نسبحه لأجل الميراث الســـــماوي ولأجل مواعيده الثمينة ، ونسبحه لأن يسوع حي يشفع فينا .

يقول الله خالقنا : «ذَابِحُ الْحَمْدِ يُمَجِّدُنِي» (مزمور ٥٠: ٢٣) إن كل سكان السماء يتحـدون في تسبيح الله . فلنتعلم أغنية الملائكة الآن ، حتى يمكننا أن ننشدها حين نجتمع مع تلك الجنـــد النورانية . لنقل مع المرنم : «أُسَبِّحُ الرَّبَّ فِي حَيَاتِي ، وَأُرَنِّمُ لإِلهِي مَـــا دُمْـــتُ مَوْجُـــودًا» «يَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ يَا اَللهُ . يَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ كُلُّهُمْ» (مزمـــور ١٤٦: ٢؛ ٦٧: ٥) إن الله فـــي عنايته أتى بالعبرانيين إلى معاقل الجبل قبل البحر حتى يظهر قدرته في نجاتهم ، ويذل كبرياء ظالميهم علانية . كان يمكنه أن يخلصهم بأية وسيلة أخرى ، ولكنه استخدم هذه الوسيلة ليختبر إيمانهم ويقوي ثقتهم به . كان الشعب في أشد حالات الإعياء والرعب ، مع ذلك فلـــــو أنـــهم تراجعوا حين أمرهم موسى بالتقدم لما فتح الله الطريق أمامهم ، إنما «بِالإِيمَانِ اجْتَازُوا فِـــي الْبَحْرِ الأَحْمَرِ كَمَا فِي الْيَابِسَةِ» (عبرانيين ١١: ٢٩) وفي سيرهم حتى وصلوا إلـــى المـــاء أظهروا إيمانهم بكلمة الله التي تكلم بها موسى . لقد عملوا كل ما كان في قدرتهم أن يعملـوه ، وحينئذ شق عزيز إسرائيل البحر لكي يفتح طريقا لعبورهم .

إن الدرس العظيم الذي نتعلمه هنا نافع لكل العصور . فحياة المسيحي غالبا ما تحيط بـــها المخاطر ، ويبدو أنه من الصعب عليه القيام بواجبه . إن الخيال يصور له الهلاك الذي يتهدده من الأمام ، والعبودية وربما الموت من الخلف ، ولكن صوت الله يناديـــه بوضـــوح قـــائلا : «تقدم» . وعلينا أن نمتثل لهذا الأمر ، حتى ولو كانت عيوننا عاجزة عن اخـــتراق الظلمـــة ،

ونحس بالأمواج الباردة تتلاطم تحت أقدامنا . فالعراقيل التي تعترض تقدمنا لن تختفي من أمام الروح الكثيرة التوقف والكثيرة الشكوك . إن الذين يؤخرون الطاعة حتى يختفي من أمامهم كل أثر للالتباس ، وحينئذ لن يكون هنالك خوف من فشل أو هزيمة– هؤلاء لن يطيعوا أبدا . إن عدم الإيمان يهمس قائلا : «ننتظر حتى تزول كل العوائق وحتى نرى طريقنا واضحا» أما الإيمان فإنه بكل شجاعة يتقدم وهو يرجو كل شيء ويصدق كل شيء . والسحابة التي كانت سورا من الظلام من ناحية المصريين كانت نورا سطع بلألائه على جماعة العبرانيين ، منيرا المحلة كلها ، ومنيرا أيضا الطريق أمامهم . وهكذا إن معاملات العناية تجلب على غير المؤمنين الظلمة واليأس ، أما النفس المؤمنة الواثقة فيأتيها النور والسلام . إن الطريق الذي يقودنا الرب فيه يمكن أن يسير بنا عبر الصحراء إلى البحر ولكنه طريق مأمون .

الفصل السادس والعشرون

من بحر سوف إلى سيناء

استأنف بنو إسرائيل رحيلهم من بحر سوف (البحر الأحمر) تحت قيادة عمود السحاب ، وكان المنظر المحيط بهم موحشا جدا إذ لم يكن ثمة سوى جبال جرداء وسهول قاحلة ، وكان البحر ممتدا بعيدا عنهم وقد تبعثرت على شواطئه جثث أعدائهم ، غير أنهم ، مع ذلك ، كانوا ممتلئين فرحا لإحساسهم بالحرية ، وانقطعت تذمراتهم .

إلا أنهم ساروا مسيرة ثلاثة أيام دون أن يجدوا ماء ، فلقد نفد كل الماء الذي حملوه معهم ، ولم يكن هنالك ما يطفئون به ظمأهم المحرق وهم يسحبون أرجلهم سحبا على تلك السهول الملتهبة بوهج الشمس . أما موسى الذي كان خبيرا بذلك الإقليم فقد عرف ما لم يكن يعرفه الباقون أن في مارة التي كانت أقرب مكان يمكن الحصول على ماء فيه كان ماء الآبار غير صالح للشرب . وبقلق شديد راقب موسى قيادة السحابة له ، وبقلب حزين سمع الشعب يهتفون قائلين : لقد وجدنا ماء ، ها هو الماء . وتزاحم الرجال والنساء والأطفال حول تلك البئر ، وإذا بصرخة حزن وألم وخيبة أمل تصدر من صدورهم ، فلقد كان الماء مرا !

ففي رعبهم ويأسهم عادوا باللائمة على موسى لأنه قادهم في تلك الطريق ، ونسوا أن حضور الله في السحابة العجيبة هو الذي كان يقوده ويقودهم . أما موسى ففي حزنه على الضيق الذي حل بهم فعل ما نسوا هم أن يفعلوه إذ صرخ إلى الله بحرارة في طلب العون ، «فَأَرَاهُ الرَّبُّ شَجَرَةً فَطَرَحَهَا فِي الْمَاءِ فَصَارَ الْمَاءُ عَذْبًا» (خروج ١٥: ٢٥) وفي هذا المكان جاء الوعد لإسرائيل عن طريق موسى يقول : «إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ ، وَتَصْنَعُ الْحَقَّ فِي عَيْنَيْهِ ، وَتَصْغَى إِلَى وَصَايَاهُ وَتَحْفَظُ جَمِيعَ فَرَائِضِهِ ، فَمَرَضًا مَا مِمَّا وَضَعْتُهُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ لاَ أَضَعُ عَلَيْكَ . فَإِنِّي أَنَا الرَّبُّ شَافِيكَ» (خروج ١٥: ٢٦) .

ومن مارة ارتحل الشعب إلى ايليم حيث كان «اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنَ مَاءٍ وَسَبْعُونَ نَخْلَةً» وقد بقوا في هذا المكان بضعة أيام قبل دخولهم إلى برية سين . فلما كان قد مضى عليهم شهر منذ خروجهم من مصر حلوا بخيامهم في البرية ، وبدأ الزاد الذي كان معهم ينفد ، والأعشاب التي كانت في البرية كانت قليلة ، وبدأت القطعان التي معهم يتناقص عددها ، فكيف يمكن تدبر طعام لشعب غفير هذا عدده ؟ وإذ ملأ الشك قلوبهم جعلوا يتذمرون ، وحتى رؤساء الشعب وشيوخه اشتركوا مع الباقين في التذمر على القائدين اللذين عينهما الله قائلين : «لَيْتَنَا مُتْنَا بِيَدِ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مِصْرَ ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزًا لِلشَّبَعِ . فَإِنَّكُمَا أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هذَا الْقَفْرِ لِكَيْ تُمِيتَا كُلَّ هذَا الْجُمْهُورِ بِالْجُوعِ» (خروج ١٦: ٣) .

لم يكونوا قد قاسوا آلام الجوع بعد ، وكانت أعوازهم مدبرة ، ولكنهم كانوا جزعين من المستقبل . لم يستطيعوا أن يدركوا كيف ستعيش تلك الجموع في رحلاتهم في البرية ، وفي تصورهم رأوا أولادهم يموتون جوعا . وقد سمح الرب أن تواجههم الصعوبات ، وأن ينقص عنهم مدد الطعام ، حتى تتجه قلوبهم إليه هو الذي خلصهم إلى الآن . فإذ كانوا في حاجتهم يدعونه ويصرخون إليه فلابد أن يقدم لهم براهين على محبته ورعايته ، لقد وعدهم أنهم إن أطاعوا وصاياه فلن يحل بهم أي مرض ، ولذلك كان عدم إيمانهم الذميم هو الذي جعلهم يتوقعون الموت جوعا لهم ولأولادهم .

لقد وعدهم الله بأن يكون إلها لهم وأن يتخذهم لنفسه شعبا ، ويأتي بهم إلى أرض جيدة وواسعة ، ولكنهم كانوا موشكين أن يخوروا لدى كل صعوبة تقابلهم في طريقهم إلى تلك الأرض . لقد أخرجهم من عبوديتهم في مصر بكيفية عجيبة لكي يجعلهم كرماء مرفوعي الرؤوس ويجعلهم تسبيحة في الأرض ، ولكن كان من اللازم لهم أن يلاقوا بعض المتاعب ويذوقوا آلام الحرمان . لقد بدأ الرب يخرجهم من حال الانحطاط ويؤهلهم ليتبوأوا مكانة رفيعة وكريمة بين الأمم ، ويستأمنوا على ودائع هامة ومقدسة . فلو كان لهم إيمان به بعد كل العظائم التي صنعها معهم لاستطاعوا أن يحتملوا ، بفرح ، كل المشقات والحرمان ، وحتى الآلام الحقيقية . ولكنهم أبوا أن يثقوا بالرب إلا إذا كانوا يرون أدلة مستمرة على قدرته . لقد نسوا عبوديتهم المريرة في مصر ، كما نسوا صلاح الله وقدرته اللذين أظهرهما في إنقاذهم من العبودية ، ونسوا أيضا كيف حفظ أبكارهم في حين قتل الملاك المهلك كل أبكار مصر ، كما نسوا قدرة الله العظيمة السامية التي أظهرها عند بحر سوف . نسوا أنه حين عبورهم في

البحر على اليابسة في الطريق الذي شقه لهم الرب في أعماق اليم غرقت في مياه البحر كل جيوش أعدائهم التي حاولت اللحاق بهم ، لكنهم لم يروا ويحسوا إلا متاعبهم وتجاربهم الحاضرة ، وبدلا من أن يقولوا : إن الله قد صنع معنا عظائم إذ بعد ما كنا عبيدا ها هو يصنع منا أمة عظيمة ، فقد جعلوا يتذمرون من خشونة الطريق ويتساءلون متى تنتهي أيام اغترابهم المضني .

إن تاريخ حياة إسرائيل في البرية قد سجل لأجل فائدة إسرائيل الله إلى انقضاء الدهر ، إن تاريخ معاملات الله لأولئك السائرين في القفر في كل رحلاتهم هنا وهناك ، وفي تعرضهم للجوع والعطش والإعياء ، وفي إظهار قدرته المدهشة لإنعاشهم وإسعافهم ، ذلك التاريخ مشحون بالإنذار والتعليم لشعبه في كل جيل . إن اختبارات العبرانيين المتباينة كانت مدرسة لإعدادهم لوطنهم الموعود به في كنعان . يريد الله أن يراجع شعبه في هذه الأيام ، بقلب متواضع وبروح قابلة للتعلم ، التجارب التي جاز فيها إسرائيل قديما لكي يتعلموا ما يؤهلهم لكنعان السماوية .

كثيرون ينظرون إلى الماضي ، إلى إسرائيل قديما ، ويستغربون عدم إيمانهم وتذمرهم ويحسون أنهم هم أنفسهم ما كانوا ليظهروا الجحود كما فعل أولئك ، ولكن لو امتحن إيمانهم ولو بامتحانات قليلة لما أظهروا إيمانا أو صبرا أكثر مما فعل إسرائيل قديما ، فحينما يجوزون في مسالك عسرة يتذمرون على الطريقة التي يستخدمها الله لتطهيرهم . إن الكثيرين ، مع أن حاجاتهم الحاضرة مكفولة ، يرفضون الوثوق بالله بالنسبة إلى المستقبل ، وهم دائمو القلق والجزع لئلا يلحقهم العوز والفقر ويتألم أولادهم من الجوع . والبعض دائمو التوجس خيفة أن يباغتهم الشر ، أو أنهم يعظمون المتاعب الموجودة فعلا ويجسمونها بحيث تعمى عيونهم عن رؤية كثير من البركات التي تتطلب شكرهم . والعقبات التي يلاقونها بدلا من أن تسوقهم إلى طلب العون من الله ، مصدر القوة الوحيد ، تفصلهم عنه ، لأنها توقظ في نفوسهم الضجر والتذمر .

أيجمل بنا أن نكون عديمي الإيمان إلى هذا الحد ؟ لماذا الجحود وعدم الثقة ؟ إن يسوع هو صديقنا ، والسماء كلها مهتمة بخيرنا . إن جزعنا وخوفنا يحزنان روح الله القدوس . ينبغي ألا نستسلم للقلق الذي يقض مضاجعنا ويضنينا ، ولا يساعدنا على تحمل الضيقات . يجب ألا

نعطي مكانا لعدم الثقة بالله ، الأمر الذي يجعل اهتمامنا بالتأهب لسد الحاجة في مستقبل أيامنا عملنا الأوحد في الحياة ، كما لو كانت سعادتنا منحصرة في هذه الأشياء الأرضية . إن الله لا يريد أن ينحني شعبه تحت أثقال الهموم ، ولكن السيد لا يقول لنا إنه لا مخاطر في الطريق ، وهو لا يفكر في أن يأخذ شعبه من عالم الخطية والشر ، ولكنه يرشدنا إلى حصن أمين . فهو يدعو المتعبين والمثقلين بالهموم قائلا : «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (متى ١١: ٢٨) اطرحوا عنكم نير القلق وهموم العالم الذي أثقلتم به أعناقكم ومن ثم «اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي ، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ» (متى ١١: ٢٩) يمكننا أن نجد راحة وسلاما في الله إذا ألقينا كل همنا عليه لأنه هو يعتني بنا (١بطرس ٥: ٧) .

يقول الرسول بولس : «اُنْظُرُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ لاَ يَكُونَ فِي أَحَدِكُمْ قَلْبٌ شِرِّيرٌ بِعَدَمِ إِيمَانٍ فِي الارْتِدَادِ عَنِ اللهِ الْحَيِّ» (عبرانيين ٣: ١٢) وبالنظر إلى كل ما قد صنعه الله لأجلنا ينبغي أن يكون إيماننا قويا ونشيطا وثابتا . وبدلا من التذمر ينبغي أن تكون لغة قلوبنا هي هذه : «بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ ، وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ . بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ ، وَلاَ تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ» (مزمور ١٠٣: ١،٢) .

إن الله لم يكن عديم الاكتراث لحاجات إسرائيل ، فلقد قال لقائدهم : «هَا أَنَا أُمْطِرُ لَكُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ» ثم أعطاهم تعليمات بأن الشعب يجب أن يجمعوا حاجة اليوم بيومه ، أما في اليوم السادس فيجمعون ضعف الكمية حتى يحافظوا على قدسية يوم السبت .

أكد موسى للجماعة أن حاجاتهم ستسد قائلا لهم : «أَنَّ الرَّبَّ يُعْطِيكُمْ فِي الْمَسَاءِ لَحْمًا لِتَأْكُلُوا ، وَفِي الصَّبَاحِ خُبْزًا لِتَشْبَعُوا» . ثم أضاف قائلا : «وَأَمَّا نَحْنُ فَمَاذَا ؟ لَيْسَ عَلَيْنَا تَذَمُّرُكُمْ بَلْ عَلَى الرَّبِّ» وبعد ذلك أمر هارون أن يقول لهم : «اقْتَرِبُوا إِلَى أَمَامِ الرَّبِّ لأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ تَذَمُّرَكُمْ» فحدث إذ كان هارون يكلمهم : «أَنَّهُمُ الْتَفَتُوا نَحْوَ الْبَرِّيَّةِ ، وَإِذَا مَجْدُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ فِي السَّحَابِ» (خروج ١٦: ٨-١٠) إن مجدا وبهاء عظيمين لم يسبق لهم أن رأوهما مثلا لهم رمز الحضور الإلهي . وعن طريق إعلانات موجهة إلى حواسهم كان عليهم أن يحصلوا على معرفة الله . ووجب أن يتعلموا أن الله العلي ، وليس فقط الإنسان موسى ، هو قائدهم ، وعليهم أن يخشوا اسمه ويطيعوا صوته .

294,295

وعند إقبال الليل كانت المحلة محاطة بأسراب من السلوى تكفي حاجة كل جماعة إسرائيل ، وفي الصباح كان على الأرض «شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ . دَقِيقٌ كَالْجَلِيدِ» «وَهُوَ كَبِزْرِ الْكُزْبَرَةِ ، أَبْيَضُ» ودعاه الشعب منا «فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى : هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمُ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا» (خروج ١٦: ١٤،١٥،٣١) وفيما كان الشعب يجمعون المن وجدوا أن هنالك كميات كبيرة منه تكفي للجميع . كانوا «يَطْحَنُونَهُ بِالرَّحَى أَوْ يَدُقُّونَهُ فِي الْهَاوَنِ وَيَطْبُخُونَهُ فِي الْقُدُورِ وَيَعْمَلُونَهُ مَلاَّتٍ» (عدد ١١: ٨) وكان «طَعْمُهُ كَرِقَاقٍ بِعَسَل» (خروج ١٦: ٣١) وقد أمروا بأن يجمعوا «عُمِرًا»[١] في اليوم للفرد، ولا يبقوا منه إلى الصباح ، وقد حاول بعضهم أن يبقوا بعضا منه إلى اليوم التالي ولكنهم وجدوا أنه لا يصلح للأكل . وكان يجب عليهم أن يجمعوا مؤونة اليوم في الصباح ، لأن ما كان يبقى بعد ذلك كانت حرارة الشمس تذيبه .

وفيما هم يجمعون المن وجدوا أن بعضا من الشعب جمعوا كميات أكثر ، وأن الآخرين جمعوا أقل من الكميات المقررة . ولكن «لَمَّا كَالُوا بِالْعُمِرِ ، لَمْ يُفْضِلِ الْمُكَثِّرُ وَالْمُقَلِّلُ لَمْ يُنْقِصْ» (خروج ١٦: ١٨) إن بولس الرسول يقول لنا في رسالته الثانية إلى كورنثوس ما يفسر هذه الآية ، كما يعطينا درسا عمليا إذ يقول : «فَإِنَّهُ لَيْسَ لِكَيْ يَكُونَ لِلآخَرِينَ رَاحَةٌ وَلَكُمْ ضِيقٌ ، بَلْ بِحَسَبِ الْمُسَاوَاةِ . لِكَيْ تَكُونَ فِي هذَا الْوَقْتِ فُضَالَتُكُمْ لإِعْوَازِهِمْ ، كَيْ تَصِيرَ فُضَالَتُهُمْ لإِعْوَازِكُمْ ، حَتَّى تَحْصُلَ الْمُسَاوَاةُ . كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ :«الَّذِي جَمَعَ كَثِيرًا لَمْ يُفْضِلْ ، وَالَّذِي جَمَعَ قَلِيلاً لَمْ يُنْقِصْ» (٢ كورنثوس ٨: ١٣-١٥) .

وفي اليوم السادس جمع الشعب ضعف الكمية لكل شخص ، فأتى رؤساء الجماعة وأخبروا موسى فكان جوابه : «هذَا مَا قَالَ الرَّبُّ : غَدًا عُطْلَةٌ ، سَبْتٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ . اخْبِزُوا مَا تَخْبِزُونَ وَاطْبُخُوا مَا تَطْبُخُونَ . وَكُلُّ مَا فَضِلَ ضَعُوهُ عِنْدَكُمْ لِيُحْفَظَ إِلَى الْغَدِ» وكما أمروا هكذا فعلوا فوجدوا أن ما بقي لم يتغير «فَقَالَ مُوسَى : كُلُوهُ الْيَوْمَ ، لأَنَّ لِلرَّبِّ الْيَوْمَ سَبْتًا . الْيَوْمَ لاَ تَجِدُونَهُ فِي الْحَقْلِ . سِتَّةَ أَيَّامٍ تَلْتَقِطُونَهُ ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ ، لاَ يُوجَدُ فِيهِ» (خروج ١٦: ٢٣،٢٥،٢٦) .

يريد الله أن يومه المقدس يحفظ في أيامنا كما كان يحفظ في أيام إسرائيل ، فالأمر المعطى

[١]– العمر يساوي ٣ «كوارت» **quart** تقريباً، وكل كوارت يزيد قليلاً عن اللتر ويساوي ربع جالون.

للعبرانيين ينبغي للمسيحيين اعتباره فرضا من الرب عليهم . واليوم السابق للسبت يجب أن يكون يوم استعداد لكي يكون كل شيء معدا لساعاته المقدسة . يجب ألا تختلس أشغالنا أي جزء من الوقت المقدس مهما تكن الظروف . وقد أوصى الرب شعبه أن يرعوا المرضى والمتألمين ، فالتعب الذي يبذل في سبيل إراحتهم هو عمل من أعمال الرحمة وليس تدنيسا للسبت . أما كل عمل غير ضروري فينبغي ألا يعمل . إن كثيرين بسبب إهمالهم يؤجلون إلى بداءة السبت بعض الأعمال الصغيرة التي كان يمكن عملها في يوم الاستعداد . هذا ما لا يجب أن يكون ، فالأعمال التي أهملت حتى أقبل يوم السبت ينبغي تأجيلها حتى ينتهي اليوم . هذا المسلك يمكن أن يساعد ذاكرة أولئك العديمي التفكير ، ويجعلهم يحرصون على إنجاز أعمالهم في ستة أيام العمل .

وفي كل أسبوع طوال سني غربة بني إسرائيل في البرية كانوا يشاهدون أعجوبة ذات ثلاثة جوانب ، وكان القصد منها أن تنطبع في عقولهم قدسية يوم السبت ، ذلك أن كمية مضاعفة من المن كانت تنزل في اليوم السادس ، بينما لم ينزل شيء في اليوم السابع ، كما أن الكمية اللازمة ليوم السبت حفظت نقية وحلوة المذاق ، بينما لو أبقى شيء في أي يوم آخر غير يوم السبت لم يكن يصلح للأكل .

وفي الظروف المتصلة بإعطاء المن برهان جازم على أن السبت لم يؤسس ، كما يدعي البعض ، عندما أعطيت الشريعة في سيناء . فقبل مجيء الإسرائيليين إلى سيناء كانوا يفهمون أن حفظ السبت أمر لازم . ولكونهم كانوا ملزمين بأن يجمعوا في كل يوم جمعة كمية مضاعفة من المن استعدادا للسبت الذي لا يسقط فيه شيء فقد انطبع في عقولهم الطابع المقدس ليوم الراحة بكيفية دائمة . وعندما خرج بعض من الشعب في يوم السبت ليجمعوا المن سأل الرب قائلا : «إِلَى مَتَى تَأْبَوْنَ أَنْ تَحْفَظُوا وَصَايَايَ وَشَرَائِعِي ؟» .

«وَأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى أَرْضٍ عَامِرَةٍ . أَكَلُوا الْمَنَّ حَتَّى جَاءُوا إِلَى طَرَفِ أَرْضِ كَنْعَانَ» (خروج ١٦: ٣٥) ولمدة أربعين سنة كانوا يذكرون هذه المؤونة العجائبية دليلا على رعاية الله ومحبته ورقته التي لا تخيب . والمرنم يقول إن الله «أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ مَنًّا لِلأَكْلِ ، وَبُرَّ السَّمَاءِ (حنطة السماء) أَعْطَاهُمْ . أَكَلَ الإِنْسَانُ خُبْزَ الْمَلاَئِكَةِ . أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ زَادًا لِلشِّبَعِ» (مزمور ٧٨: ٢٤،٢٥) أي الخبز الذي أعدته لهم الملائكة . فإذ

كانوا يعالون بـ «بُر السماء» كانوا يتعلمون كل يوم أنهم إذ كانت لهم مواعيد الله فقد كانوا في أمان من العوز والاحتياج كما لو كانوا محاطين بحقول الحنطة في أرض كنعان الجيدة .

إن المن النازل من السماء لإعالة إسرائيل كان رمزا إلى المخلص الذي جاء من قبل الله ليعطي حياة للعالم . قال يسوع : «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ . آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا . هذَا هُوَ الْخُبْزُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ ... إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ . وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ» (يوحنا ٦: ٤٨-٥١) . ومن بين مواعيد البركة لشعب الله في الحياة العتيدة هذا الوعد «مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَنِّ الْمُخْفَى» (رؤيا ٢: ١٧) .

وبعدما غادر الإسرائيليون برية سين عسكروا في رفيديم . ولم يكن هناك ماء للشرب فعادوا إلى عدم الثقة بعناية الله . ففي عمى قلوبهم وعجرفتهم أتى الشعب إلى موسى قائلين : «أَعْطُونَا مَاءً لِنَشْرَبَ» ولكن صبر موسى لم يخذله ، فقال لهم «لِمَاذَا تُخَاصِمُونَنِي ؟ لِمَاذَا تُجَرِّبُونَ الرَّبَّ ؟» فصرخوا يقولون في غضب : «لِمَاذَا أَصْعَدْتَنَا مِنْ مِصْرَ لِتُمِيتَنَا وَأَوْلاَدَنَا وَمَوَاشِيَنَا بِالْعَطَشِ ؟» (خروج ١٧: ١-٧) إنهم حين قدم لهم الطعام بوفرة ذكروا بخجل عدم إيمانهم وتذمراتهم ، ووعدوا أن يثقوا بالرب في الأيام التالية ، ولكنهم سرعان ما نسوا وعدهم وفشلوا في أول امتحان لإيمانهم . وإن عمود السحاب الذي كان يقودهم بدا لعقولهم كأنه يخفي سرا مخيفا ، ثم جعلوا يتساءلون : وموسى من هو ؟ وماذا يمكن أن يكون غرضه من إخراجهم من مصر ؟ لقد ملأ قلوبهم الشك وعدم الثقة ، وبكل جرأة اتهموه بأنه ينوي أن يقتلهم وأولادهم بالحرمان والفاقة والمتاعب ليغتني هو بأملاكهم . وفي شدة سخطهم وغضبهم كانوا موشكين أن يرجموه .

ففي ضيقة نفسه صرخ موسى إلى الرب قائلا : «مَاذَا أَفْعَلُ بِهذَا الشَّعْبِ ؟» فأمره الرب أن يأخذ معه من شيوخ إسرائيل والعصا التي صنع بها الآيات في مصر ويذهب أمام الشعب ، ثم قال له الرب : «هَا أَنَا أَقِفُ أَمَامَكَ هُنَاكَ عَلَى الصَّخْرَةِ فِي حُورِيبَ ، فَتَضْرِبُ الصَّخْرَةَ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَاءٌ لِيَشْرَبَ الشَّعْبُ» وقد أطاع موسى وانفجرت المياه في جدول ماء حي فأشبعت كل الجماعة . فبدلا من أن يأمر الرب موسى بأن يرفع عصاه ويستنزل ضربة رهيبة على من كانوا في مقدمة المتذمرين ، كالضربات التي حلت بالمصريين ، فإنه ، في رحمته

العظيمة ، جعل العصا وسيلته في تخليص شعبه .

«شَقَّ صُخُورًا فِي الْبَرِّيَّةِ ، وَسَقَاهُمْ كَأَنَّهُ مِنْ لُجَجٍ عَظِيمَةٍ . أَخْرَجَ مَجَارِيَ مِنْ صَخْرَةٍ ، وَأَجْرَى مِيَاهًا كَالأَنْهَارِ» (مزمور ٧٨: ١٥، ١٦) لقد ضرب موسى الصخرة ، ولكن ابن الله المحتجب وراء عمود السحاب ، هو الذي وقف إلى جوار موسى وأجرى المياه المعطية الحياة . ولم يكن موسى وشيوخ إسرائيل وحدهم هم الذين أبصروا مجد الرب ، بل أيضا كل الشعب الذين وقفوا من بعد . ولكن لو أن السحابة رفعت لكانوا كلهم قد صعقوا وقتلوا من شدة لمعان وبهاء ذاك الساكن في السحابة .

إن الشعب في عطشهم جربوا الله قائلين : «أَفِي وَسْطِنَا الرَّبُّ أَمْ لاَ ؟» «إن كان الله أتى بنا إلى هنا فلماذا لا يعطينا ماء كما يعطينا خبزا» . إن عدم الإيمان هذا الذي جاهروا به كان إجراما ، وقد خاف موسى لئلا تنصب دينونة الله على الشعب بسببه ، فدعا موسى اسم ذلك المكان مسة «تجربة» ومريبة «تعنيف» تذكارا لخطيتهم .

ولكن خطرا جديدا كان يتهددهم ، فبسبب تذمرهم على الرب سمح للأعداء بمهاجمتهم ، ذلك أن العمالقة الذين كانوا قبيلة عنيفة ميالة للحرب ساكنة في ذلك الإقليم قاموا يحاربونهم وضربوا أولئك الذين سقطوا في المؤخرة بسبب التعب والإعياء . وحيث أن موسى كان يعرف أن الشعب عامة غير مستعدين للقتال قال ليشوع أن يختار من بين أسباط إسرائيل جنودا ويقودهم في الغد لمنازلة العدو ، بينما يقف هو على التلة القريبة وعصا الله في يده . ففي اليوم التالي قاد يشوع جيشه وهاجموا العدو ، بينما كان موسى وهارون وحور فوق التلة يرقبون المعركة . فإذ بسط موسى يديه نحو السماء والعصا في يده اليمنى صلى طالبا انتصار جيوش إسرائيل . وفي أثناء المعركة لوحظ أن إسرائيل كان هو الغالب ما ظلت يدا موسى مرتفعتين إلى فوق ، ولكن حين كانتا تنخفضان كان العدو ينتصر . فلما أعيا موسى دعم هارون وحور يديه إلى غروب الشمس حين انهزم الأعداء وولوا الأدبار .

إذ أسند هارون وحور يدي موسى أبانا للشعب واجبهما في إسناده في عمله الشاق وهو يتلقى رسالة الله ليكلمهم بها . وكان لعمل موسى مغزاه أيضا إذ أبان لهم أن الله يضع مصيرهم في يديه متى جعلوه متكلهم ، وأنه يحارب عنهم ويخضع أعداءهم ، ولكن متى تنحوا عن تمسكهم به واتكلوا على قوتهم يكونون عندئذ أضعف من أولئك الذين لم يعرفوا الله ،

وينهزمون أمام أعدائهم .

وكما انتصر العبرانيون حين كانت يدا موسى مرتفعتين إلى السماء وهو يشفع فيهم فكذلك سيغلب إسرائيل الله حينما ، بإيمانهم ، يمسكون بقدرة معينهم القدير . ومع ذلك فقوة الله يجب أن تكون مصحوبة بالمجهود الإنساني ، فلم يكن موسى يؤمن بأن الله سيغلب أعداءهم بينما يظل بنو إسرائيل قابعين في خيامهم في تكاسل واسترخاء . فحين كان ذلك القائد العظيم يصلي إلى الله كان يشوع ورجاله البواسل يبذلون أقصى جهودهم في طرد أعداء إسرائيل والله .

بعد هزيمة عماليق أمر الرب موسى قائلا : «اكْتُبْ هذَا تَذْكَارًا فِي الْكِتَابِ ، وَضَعْهُ فِي مَسَامِعِ يَشُوعَ . فَإِنِّي سَوْفَ أَمْحُو ذِكْرَ عَمَالِيقَ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ» (خروج ١٧: ١٤) وقد أوصى ذلك القائد العظيم شعبه قبيل مماته قائلا : «اُذْكُرْ مَا فَعَلَهُ بِكَ عَمَالِيقُ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ خُرُوجِكَ مِنْ مِصْرَ . كَيْفَ لاَقَاكَ فِي الطَّرِيقِ وَقَطَعَ مِنْ مُؤَخَّرِكَ كُلَّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَرَاءَكَ ، وَأَنْتَ كَلِيلٌ وَمُتْعَبٌ ، وَلَمْ يَخَفِ اللهَ ... تَمْحُو ذِكْرَ عَمَالِيقَ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ . لاَ تَنْسَ» (تثنية ٢٥: ١٧-١٩) وبخصوص هذا الشعب الشرير أعلن الرب قائلا : «إن يده ضد عرش الرب» (خروج ١٧: ١٦- ترجمة سنة ١٨٧٨) .

لم يكن العمالقة يجهلون صفات الله أو سلطانه . ولكن بدلا من أن يخشوا الرب قاموا يتحدون قدرته ، فالعجائب التي أجراها موسى أمام المصريين كانت موضوع سخرية العمالقة ، كما استهزأوا بمخاوف الأمم المجاورة . لقد أقسموا باسم آلهتهم أن يهلكوا العبرانيين بحيث لا ينجو منهم أحد ، وجعلوا يتشدقون قائلين إن إله إسرائيل لن يقوى على مقاومتهم . إن الإسرائيليين لم يلحقوا بهم أي أذى ، ولا هددوهم ، وتلك الغارة التي قاموا بها على شعب الله لم تسبقها أية إثارة أو استفزاز . إنما غرضهم كان إظهار عداوتهم وتحديهم لله ، ولهذا طلبوا هلاك شعبه . لقد ظل العمالقة أمدا طويلا خطاة متعظمين مستكبرين ، وقد صرخت جرائمهم إلى الله تطلب الانتقام ، ومع ذلك ففي رحمته دعاهم إلى التوبة ، ولهذا فحين هجم العمالقة على المستضعفين العزل من بني إسرائيل ختموا بختم الهلاك على أمتهم . إن اهتمام الله منصرف إلى أضعف الضعفاء من أولاده . فالسماء لا تسكت عن أي عمل من أعمال القسوة أو الظلم التي تمسهم . إنه يمد يده كترس ومجن ليستر بها كل محبيه ومتقيه . فليحترس الأشرار لئلا يضربوا يد الرب فإنها ممسكة بسيف العدل .

وبالقرب من المكان الذي نصب فيه بنو إسرائيل خيامهم كان وطن يثرون حمي موسى كان هذا الرجل قد سمع بخبر خلاص العبرانيين فخرج ليزورهم وليعيد إلى موسى امرأته وابنيه . كان ذلك القائد العظيم قد علم من بعض الرسل بخبر قدومهم فخرج ليستقبلهم فرحا ، وبعد التحيات الأولى أدخلهم إلى خيمته . إن موسى كان قد أعاد عائلته إلى بيت حميه حين كان ذاهبا إلى مصر ليواجه المخاطر وليخرج الشعب من أرض مصر ، أما الآن فقد أمكنه أن يتمتع بالراحة والعزاء في صحبتهم ، وقد ردد على مسامع يثرون أخبار معاملات الله العجيبة لإسرائيل ، ففرح ذلك الشيخ التقي وبارك الرب واشترك مع موسى وشيوخ إسرائيل في تقديم ذبيحة وفي إقامة وليمة مقدسة تذكارا لرحمة الرب .

وإذ بقي يثرون بعض الوقت في المحلة رأى حالا ثقل الأعباء التي كان موسى يتحملها . إن حفظ النظام بين ذلك الجمع الكبير الجاهل وغير المهذب كان عملا هائلا حقا . كان موسى يعتبر قائدا وقاضيا ، ولم يكن يؤتى إليه بمصالح الشعب العامة وواجباتهم فقط ، بل حتى المنازعات التي كانت تنشب بينهم . وسمح هو بذلك إذ وجد فيه فرصة ليعلم الشعب كما قال لحميه . «أُعَرِّفُهُمْ فَرَائِضَ اللهِ وَشَرَائِعَهُ» إلا أن يثرون اعترض عليه قائلا : «الأَمْرَ أَعْظَمُ مِنْكَ . لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَهُ وَحْدَكَ» «إِنَّكَ تَكِلُّ» ثم أشار على موسى أن يقيم رجالا ذوي رأي سديد ليكونوا رؤساء ألوف ، وآخرين ليكونوا رؤساء مئات ، وآخرين رؤساء عشرات وقال أنهم ينبغي أن يكونوا «ذَوِي قُدْرَةٍ خَائِفِينَ اللهَ ، أُمَنَاءَ مُبْغِضِينَ الرَّشْوَةَ» (خروج ١٨: ١٣-٢٦) هؤلاء يحكمون في القضايا الصغيرة . أما القضايا الصعبة والهامة فينبغي أن يؤتى بها إلى موسى الذي ينبغي أن يكون للشعب كما قال يثرون : «كُنْ أَنْتَ لِلشَّعْبِ أَمَامَ اللهِ ، وَقَدِّمْ أَنْتَ الدَّعَاوِيَ إِلَى اللهِ ، وَعَلِّمْهُمُ الْفَرَائِضَ وَالشَّرَائِعَ ، وَعَرِّفْهُمُ الطَّرِيقَ الَّذِي يَسْلُكُونَهُ ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يَعْمَلُونَهُ» وقد قبلت هذه المشورة ، وفضلا عن كونها خففت الحمل عن كاهل موسى فقد نتج عنها نظام أكمل بين الشعب .

لقد أكرم الرب موسى إكراما عظيما وصنع على يديه عجائب ، إلا أن حقيقة كونه قد اختير ليعلم الشعب لم تجعله يستنتج أنه في غير حاجة إلى التعلم ، فلقد أصغى قائد إسرائيل المختار بفرح إلى مقترحات كاهن مديان التقي ، وعمل بموجبها معتبرا إياها تدبيرا حكيما .

ومن رفيديم استأنفا الشعب رحلاتهم متتبعين حركة عمود السحاب ، وقد وصلوا في سيرهم

إلى سهول قاحلة بها مرتفعاته وعرة وساروا في معابر صخرية ، وفي أحيان كثيرة بعد ما يعبرون أرضا رملية غير مزروعة كانوا يرون أمامهم جبالا وعرة تشبه الحصون الهائلة تعترض طريقهم وكأنما هي تمنعهم عن التقدم في سيرهم . ولكنهم عندما كانوا يقتربون منها كانت تظهر أمامهم فجوات هنا وهناك في الجبل ، وكانت هذه الفجوات تنتهي بهم إلى سهل آخر ممتد أمامهم . وقادهم الرب في أحد تلك المعابر العميقة التي تكاثر فيها الحصى . لقد كان منظرا جليلا مثيرا للعواطف . فبين الصخور العالية التي ارتفعت مئات الأقدام على الجانبين تدفقت جموع إسرائيل في صفوف طويلة لا تبلغ العين مداها ، ومعهم غنمهم وبقرهم . والآن ظهر أمامهم جبل سيناء شامخ الهامة في عظمة وجلال ، وقد استقر عمود السحاب فوق قمته فنصب الشعب خيامهم في السهل الممتد في أسفل الجبل ، وكان عليهم أن يلبثوا في ذلك المكان قرابة سنة . فلما أقبل الليل أكد ظهور عمود النار للشعب حماية الله لهم . وفيما كانوا نياما كان خبز السماء يتساقط حوالي المحلة بهدوء .

وإذ طلع الفجر لمست أشعة النور قمم الجبال فأنارتها ثم علت الشمس فأرسلت أنوارها التي بددت ظلمات الفجوات العميقة فبدت أشعة الشمس لأولئك السائحين المتعبين كأنها أشعة الرحمة المنبعثة من عرش الله . ومن كل جانب ظهر كأن المرتفعات الوعرة تتكلم في جلالها عن احتمال الله وصبره وعظمته السرمدية . في هذا المكان امتلأت العقول والقلوب بالهيبة والخشوع ، وبدا الإنسان يحس بجهله وضعفه في حضرة ذاك الذي «وزن الجبال بالقبان، والآكام بالميزان» (إشعياء٤٠:١٢) . في هذا المكان كان إسرائيل سيحصل على أعجب إعلان أعلنه الله للناس ، وفي هذا المكان حشد الرب شعبه ليطبع على عقولهم وقلوبهم قدسية مطالبيه بكونه يعلن الشريعة بصوته . إن تغييرات عظيمة وجوهرية كانت ستحدث فيهم لأن تأثير العبودية النجس ومعاشرتهم المستمرة للوثنيين تركت طابعها على عاداتهم وأخلاقهم . وقد كان الله يعمل على رفع مستواهم الأخلاقي بكونه يعرفهم بذاته .

الفصل السابع والعشرون

إعطاء الشريعة

بعد حلول الشعب في سيناء حالا دعي موسى لمقابلة الله في الجبل ، فجعل يتسلق وحده ذلك الطريق الصاعد الوعر ، واقترب من السحابة التي دلت على مكان حضور الرب (يهوه) . كان بنو إسرائيل مزمعين أن يدخلوا في علاقة خاصة قريبة بالله العلي ، وأن يتحدوا معا ككنيسة وأمة تحت حكم الله . وهذه هي الرسالة التي أمر الرب موسى أن يبلغها الشعب :

«أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِالْمِصْرِيِّينَ . وَأَنَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى أَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَجِئْتُ بِكُمْ إِلَيَّ . فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي ، وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ . فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ . وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً» (انظر خروج ١٩) .

عاد موسى إلى المحلة وإذ استدعى شيوخ إسرائيل ردد على مسامعهم رسالة الله فكان جوابهم «كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ» وهكذا دخلوا في عهد مقدس مع الله وقطعوا على أنفسهم عهدا أن يقبلوه سيدا عليهم ، وبموجب هذا العهد صاروا ، بمعنى خاص ، رعايا تحت سلطانه .

بعد ذلك صعد قائدهم إلى الجبل مرة أخرى ، فقال له الرب : «هَا أَنَا آتٍ إِلَيْكَ فِي ظَلاَمِ السَّحَابِ لِكَيْ يَسْمَعَ الشَّعْبُ حِينَمَا أَتَكَلَّمُ مَعَكَ ، فَيُؤْمِنُوا بِكَ أَيْضًا إِلَى الأَبَدِ» حين كانت تصادفهم في الطريق صعوبات كانوا يعمدون إلى التذمر على موسى وهارون وكانوا يتهمونهما بأنهما يقودان جماهير إسرائيل إلى الهلاك . لذلك أراد الرب أن يكرم موسى أمامهم لكي يقودهم ذلك إلى الثقة بإرشاداته .

ولقد أراد الرب أن يجعل فرصة النطق بالشريعة منظر جلال رهيب ليكون ذلك متمشيا مع صفة الشريعة السامية ، وكان لابد للشعب من أن يقتنع أن كل ما يتعلق بعبادة الله وخدمته

ينبغي أن ينظر إليه بكل وقار واحترام . وقد قال الرب لموسى «اذْهَبْ إِلَى الشَّعْبِ وَقَدِّسْهُمُ الْيَوْمَ وَغَدًا ، وَلْيَغْسِلُوا ثِيَابَهُمْ ، وَيَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ . لأَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَنْزِلُ الرَّبُّ أَمَامَ عُيُونِ جَمِيعِ الشَّعْبِ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ» ففي أثناء هذه الأيام كان ينبغي للجميع أن يشغلوا وقتهم في الاستعداد المقدس للظهور أمام الله ، وأن تكون أشخاصهم وثيابهم مطهرة من كل نجاسة . وإذ يشير موسى إلى خطاياهم كان لا بد لهم من تكريس نفوسهم للتذلل والصوم والصلاة ، لكي تتطهر قلوبهم عن الإثم .

تمت كل الاستعدادات طبقا للأوامر ، وإطاعة لأمر آخر أشار موسى عليهم بإقامة حدود حول الجبل حتى لا يتعدى إنسان أو بهيمة ذلك النطاق المقدس ، فالذي يتطاول ويمس الجبل فجزاؤه الموت في الحال .

وفي صبيحة اليوم الثالث إذ اتجهت أنظار الشعب نحو الجبل رأوا قمته مغطاة بسحابة ثقيلة زادت سوادا وكثافة وانحدرت إلى أسفل حتى لفت الجبل كله بظلمة وغموض رهيب ، وحينئذ سمع صوت كصوت بوق يدعو الشعب لملاقاة الله ، ثم قادهم موسى إلى أسفل الجبل ، ومن الظلمة الداجية لمعت البروق بينما سمع صوت هزيم الرعود التي رددت صداها الجبال المجاورة . «وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ ، وَارْتَجَفَ كُلُّ الْجَبَلِ جِدًّا» وكان «مَجْدِ الرَّبِّ كَنَارٍ آكِلَةٍ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ» أمام عيون ذلك الجمهور المجتمع «فَكَانَ صَوْتُ الْبُوقِ يَزْدَادُ اشْتِدَادًا جِدًّا» وكانت علائم حضور الرب مرعبة جدا بحيث ارتجفت خوفا كل جماعة إسرائيل وسقطوا على وجوههم أمام الرب ، بل حتى موسى نفسه صرخ قائلا «أَنَا مُرْتَعِبٌ وَمُرْتَعِدٌ» (عبرانيين ١٢: ٢١) .

أما الآن فانقطعت الرعود ، ولم يعد صوت البوق يسمع وسكتت الأرض ، فكانت هنالك فترة صمت رهيب ، وحينئذ سمع صوت الرب ، وإذ تكلم الرب من وسط الضباب المحيط به حين وقف على الجبل محاطا بحاشية من الملائكة أعلن شريعته . وإن موسى حين وصف ذلك المنظر قال : «جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ . فَأَحَبَّ الشَّعْبَ . جَمِيعُ قِدِّيسِيهِ فِي يَدِكَ ، وَهُمْ جَالِسُونَ عِنْدَ قَدَمِكَ يَتَقَبَّلُونَ مِنْ أَقْوَالِكَ» (تثنية ٣٣: ٢،٣) .

إن الرب قد أعلن نفسه ليس فقط في ذلك الجلال الرهيب ، جلال القاضي والمشترع ،

303,304,305

بل كالحارس الرحيم لشعبه ، فقال : «أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ» (خروج ٢٠: ٢) . فذاك الذي قد عرفوه كمرشدهم ومنقذهم ، والذي قد أخرجهم من مصر فاتحا لهم طريقا في وسط البحر والذي أغرق فرعون بجيوشه ، والذي أعلن نفسه ، مبرهنا على أنه أعظم من كل آلهة مصر- هو الذي يكلمهم الآن معلنا شريعته .

إن الشريعة لم تعلن في هذا الوقت لأجل فائدة العبرانيين دون سواهم ، لقد أكرمهم الله بأن جعلهم حراسا وحفاظا على شريعته ، ولكن كان ينبغي أن تعتبر كأمانة مقدمة عندهم لأجل كل العالم . إن الوصايا العشر تلائم كل بني الإنسان ، وقد أعطيت لأجل تعليم الجميع وحكم الجميع . إن الوصايا العشر التي هي مختصرة وشاملة وذات سلطان تشمل واجبات الإنسان نحو الله ونحو إخوته بني الإنسان ، وهي كلها مبنية على مبدأ المحبة كأساس «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ» (لوقا ١٠: ٢٧، تثنية ٦:٤،٥؛ لاوين ١٩: ١٨) في الوصايا العشر نجد هذه المبادئ مذكورة بأسباب ومنطبقة على أحوال الإنسان وظروفه .

«لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي» (خروج ٢٠: ٣-١٧) .

إن الرب السرمدي الذاتي الوجود غير المخلوق ، الذي هو نفسه أصل الكل وعلة وجود الكل وعائل الكل ، هو وحده الذي يحق أن يقدم له أعظم إكرام وعبادة . والإنسان منهي عن أن يعطي لأي شخص أو أي شيء آخر المكان الأول من محبته أو عواطفه أو خدمته . فكل ما نحبه مما يجعلنا نقلل من محبتنا لله أو يعطل خدمتنا التي يجب أن نقدمها له نجعله بذلك إلها لنا .

«لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا ، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ . تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ» .

إن الوصية الثانية تنهانا عن عبادة الإله الحقيقي بواسطة التماثيل أو الصور . إن أمما وثنية كثيرة ادعت أن تماثيلها كانت مجرد رموز أو صورا يُعبد بها الله ، ولكنه تعالى أعلن أن مثل هذه العبادة خطية . إن محاولة تشبيه الإله السرمدي بأشياء مادية يحط من تفكير الإنسان عن الله . والعقل إذ ينحرف عن كمال الرب غير المحدود لابد من أن ينجذب إلى المخلوق دون الخالق . وحيث قد انحطت أفكاره عن الله فلابد أن ينحط هو نفسه .

305,306

«أَنَا الرَّبَّ إِلهَكَ إِلهٌ غَيُورٌ» إن العلاقة الوثيقة المقدسة بين الله وشعبه ممثلة في صورة زواج . فلكون عبادة الأوثان هي زنى روحي فإن غضب الرب عليها يليق بأن يدعى غيرة .

«أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ» لا مفر للأبناء من أن يقاسوا من جراء نتائج أخطاء آبائهم ، ولكنهم لا يعاقبون على جرائم آبائهم إلا إذا شاركوهم في خطاياهم ، ومع ذلك فمن المألوف أن الأولاد يسيرون في أثر خطوات آبائهم . فالأبناء يشاركون آباءهم في خطيتهم بالوراثة والقدوة . إن الأميال الخاطئة والشاهية المفسدة والأخلاق المنحلة ، وكذلك الأمراض الجسدية والانحطاط- كل هذه تنتقل كميراث من الأب إلى ابنه إلى الجيل الثالث والرابع . هذا الحق الخطر ينبغي أن يكون رادعا قويا يمنع الناس من السير في طريق الخطية .

«وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ» إن الوصية الثانية إذ تنهانا عن عبادة الآلهة الكاذبة تحتم علينا ، ضمنا ، أن نعبد الإله الحقيقي ، وهو يعد بأنه يصنع إحسانا لكل الأمناء ، ليس فقط إلى الجيل الثالث والرابع كما هدد بالغضب مبغضيه ، بل إلى ألوف الأجيال .

«لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً ، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً» .

إن هذه الوصية لا تنهانا فقط عن الأقسام الكاذبة والحلف العادي ، ولكنها تنهانا أيضا عن استخدام اسم الله بكيفية طائشة في عدم مبالاة ، بدون توقير لذلك الاسم المخوف . إننا نهين الله حين نذكر اسمه بدون توقير في أحاديثنا العادية ، وحين نستشهد به في الأمور التافهة ، وحين نكرر اسمه مرارا بدون تفكير . «قُدُّوسٌ وَمَهُوبٌ اسْمُهُ» (مزمور ١١١: ٩) . ينبغي لكل الناس أن يتأملوا في جلاله وطهارته وقداسته حتى ينطبع على القلب شعور بصفاته السامية ، وينبغي أن ينطقوا باسمه القدوس بكل خشوع ووقار .

«اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ . سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ . لاَ تَصْنَعْ عَمَلاً مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخِلَ أَبْوَابِكَ . لأَنْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا ، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ . لِذلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ» .

إن السبت لم يذكر هنا على أنه تشريع جديد بل على أن أساسه قد وضع عند بدء الخليقة .

فينبغي أن يذكر ويحفظ كتذكار لعمل الخالق . وإذ أشار إلى الله كصانع السماوات والأرض فهو يميز بين الله والآلهة الكاذبة . فالذين يحفظون اليوم السابع يبرهنون بهذا على أنهم عبدة الرب (يهوه) . وهكذا نرى أن السبت هو علامة ولاء الإنسان لله ما وجد على الأرض من يعبدونه . إن الوصية الرابعة هي الوصية الوحيدة بين الوصايا العشر التي ذكر فيها اسم المشترع ولقبه ، وهي الوصية الوحيدة التي ترينا بسلطة من أعطيت الشريعة . وهكذا هي تشتمل على ختم الله مضافا إلى شريعته ، برهانا على قانونيتها وقوتها الملزمة .

لقد أعطى الله للناس ستة أيام فيها يمارسون أعمالهم . وهو يطلب منهم أن يعملوا أعمالهم في ستة أيام العمل . ثم أن أعمال الضرورة والرحمة مسموح بها في يوم السبت ، إذ يجب العناية بالمتألمين والمرضى في كل الأوقات . أما الأعمال التي لا ضرورة لها فينبغي الامتناع عنها امتناعا باتا . «إِنْ رَدَدْتَ عَنِ السَّبْتِ رِجْلَكَ ، عَنْ عَمَلِ مَسَرَّتِكَ يَوْمَ قُدْسِي ، وَدَعَوْتَ السَّبْتَ لَذَّةً ، وَمُقَدَّسَ الرَّبِّ مُكَرَّمًا ، وَأَكْرَمْتَهُ عَنْ عَمَلِ طُرُقِكَ وَعَنْ إِيجَادِ مَسَرَّتِكَ» (إشعياء ٥٨: ١٣) ثم أن النهي لا ينتهي عند هذا الحد ، بل يقول النبى : «وَالتَّكَلُّمِ بِكَلاَمِكَ» فأولئك الذين يتحدثون عن العمل أو شؤون التجارة أو يرسمون خططهم في يوم السبت هم معتبرون في نظر الله كأنهم يمارسون أعمالهم أو يعقدون صفقاتهم التجارية فعلا . فلكي نقدس السبت ينبغي ألا نسمح لعقولنا أن تفكر في أي شيء عالمي . ثم أن الوصية تشمل كل من في داخل أبوابنا ، فكل سكان البيت عليهم أن يلقوا جانبا أشغالهم الدنيوية في أثناء الساعات المقدسة ، وعلى الجميع أن يتحدوا في إكرام الله بخدمة طوعية في يومه المقدس .

«أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ» .

الآباء يستحقون قدرا من المحبة والاحترام لا يستحقه أي شخص آخر . إن الله نفسه الذي وضع عليهم مسؤولية الاهتمام بالنفوس المسلمة لهم كعهدة بين أيديهم ، رسم أنه في بكور حياة الأولاد ، ينوب الوالدون عن الله أمام أولادهم ، فذاك الذي يرفض السلطة الأبوية الشرعية إنما يرفض سلطان الله . والوصية الخامسة لا توجب على الأولاد أن يقدموا لوالديهم الإكرام والخضوع والطاعة وحسب ، بل أيضا أن يقدموا لهم المحبة والرقة ، ويخففوا من همومهم ويحرصوا على سمعتهم ويعزوهم في شيخوختهم ، كما

تحتم أيضا تقديم الإكرام للخدام والحكام وكل من قد قلدهم الله السلطان .

يقول الرسول : « ...هِيَ أَوَّلُ وَصِيَّةٍ بِوَعْدٍ» (أفسس ٦: ٢) . وقد كانت هذه الوصية المصحوبة بالوعد ، بالنسبة إلى بني إسرائيل الذين كانوا ينتظرون دخول كنعان بعد قليل ، ضمانا للمطيعين بالعمر الطويل في تلك الأرض الشهية . ولكن لها معنى أوسع ، إذ هي تشمل كل إسرائيل الله وتعدهم بالحياة الأبدية على الأرض حينما تتحرر من لعنة الخطية .

«لاَ تَقْتُلْ» .

كل أعمال الظلم التي تفضي إلى تقصير العمر ، وروح العداء والانتقام ، أو الاندفاع في تيار الغضب الذي يؤدي إلى إيقاع الأذى والعدوان على الغير ، أو حتى يجعلنا نتمنى لهم الضرر لأن «كُلُّ مَنْ يُبْغِضُ أَخَاهُ فَهُوَ قَاتِلُ نَفْسٍ» (١يوحنا ٣: ١٥) والإهمال الأناني في رعاية المحتاجين أو المتألمين ، وكل انغماس وكل حرمان لا لزوم له ، والإفراط في العمل الذي يفضي إلى الإضرار بالصحة– كل هذه الأمور تعتبر ، إلى حد كبير أو صغير ، نقضا للوصية السادسة .

«لاَ تَزْنِ» .

هذه الوصية لا تنهى فقط عن الأعمال النجسة بل تنهى أيضا عن الأفكار والرغبات الشهوانية وكذلك الأعمال التي تثيرها . الطهارة مطلوبة ليس فقط في الحياة الخارجية بل أيضا في النيات الخفية وانفعالات القلب . إن المسيح الذي علمنا عن حقوق شريعة الله البعيدة المدى أعلن أن الفكر الشرير والنظرة الشهوانية كلاهما خطية كالفعل غير المشروع .

«لاَ تَسْرِقْ» .

إن الخطايا العلنية والسرية متضمنة كلها في هذا النهي . إن الوصية الثامنة تنهى عن سرقة الناس والمتاجرة بالعبيد ، وتنهى أيضا عن حروب الغزو . إنها تحرم اللصوصية والسرقة ، وتتطلب الاستقامة الكاملة في أدق تفاصيل شؤون الحياة ، وتنهى عن الاحتيال في التجارة ، وتتطلب إيفاء الديون والأجور العادلة . وهي تعلن أن كل محاولة لاستغلال جهل الآخرين أو ضعفهم أو سوء حالهم تسجل في أسفار السماء على أنها احتيال .

«لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ» .

الكلام الكاذب في أي أمر ، وكل محاولة لمخاتلة القريب هي متضمنة هنا . إن نية الخداع هي ما تقرر الكذب . يمكن أن يكذب الإنسان بنظرة العين أو بحركة اليد أو بتعبير على الوجه كما يكذب بالكلام فعلا . وكل مبالغة مقصودة وكل تلميح أو تنويه يقصد به أن يحمل تأثيرا مخطئا أو مبالغا فيه ، وحتى تقرير الحقائق بكيفية مضللة هو كذب . هذه الوصية تحرّم كل مسعى للإضرار بسمعة قريبنا بالتحريف أو سوء الظن ، بالافتراء أو النميمة ، وحتى حجز الحق وكبته عن قصد ، الأمر الذي ينتج عنه ضرر للغير ، هو نقض للوصية التاسعة .

«لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ . لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ ، وَلاَ عَبْدَهُ ، وَلاَ أَمَتَهُ ، وَلاَ ثَوْرَهُ ، وَلاَ حِمَارَهُ ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ» .

إن الوصية العاشرة تضرب على أصل كل الخطايا ، فهي تحرّم الرغبة أو الشهوة الأنانية التي تنشأ عنها الأعمال الخاطئة ، فذاك الذي ، امتثالا لشريعة الله ، يمتنع عن التمادي حتى في الاشتهاء الخاطئ لما يملكه إنسان آخر لن يكون مجرما في ارتكاب خطأ نحو بني جنسه .

هذه هى الوصايا العشر التي سمعت من وسط الرعود والنار ، في عرض عجيب لقدرة المشترع العظيم وجلاله . لقد قرن الله إعلان شريعته بإظهار قدرته ومجده حتى لا ينسى شعبه هذا المنظر أبدا ، ولتنطبع في أذهانهم آثار التوقير العظيم لواضع الشريعة ، خالق السماء والأرض . كما كان يريد أن يرى كل الناس قدسية شريعة الله وأهميتها ودوامها .

أما بنو إسرائيل فقد شملهم الرعب العظيم . إن قوة كلمات الله الرهيبة بدت أعظم مما تستطيع قلوبهم المرتجفة أن تحتمله ، لأنه إذ بسطت أمامهم شريعة الله ، شريعة الحق والاستقامة تحققوا هول الخطية وشر آثامهم في نظر الله القدوس أكثر مما فعلوا قبلا . لقد تقهقروا بعيدا عن الجبل خوفا منهم ورهبة . وصرخ الجميع إلى موسى قائلين : «تَكَلَّمْ أَنْتَ مَعَنَا فَنَسْمَعَ . وَلاَ يَتَكَلَّمْ مَعَنَا اللهُ لِئَلاَّ نَمُوتَ» فأجابهم قائدهم بقوله : «لاَ تَخَافُوا . لأَنَّ اللهَ إِنَّمَا جَاءَ لِكَيْ يَمْتَحِنَكُمْ ، وَلِكَيْ تَكُونَ مَخَافَتُهُ أَمَامَ وُجُوهِكُمْ حَتَّى لاَ تُخْطِئُوا» (خروج ٢٠: ١٩-٢١) ومع ذلك فقد وقف الشعب من بعيد شاخصين برعب إلى ذلك المنظر . «أَمَّا مُوسَى فَاقْتَرَبَ إِلَى الضَّبَابِ حَيْثُ كَانَ اللهُ» .

إن عقول الشعب إذ كانت عمياء ومنحطة بسبب العبودية والوثنية لم تكن مهيأة لأن تقدر ، التقدير الكامل ، مبادئ وصايا الله العشر البعيدة المدى . فلكي تُفهم مطاليب الوصايا العشر

وتُنفذ أعطيت وصايا إضافية لشرح مبادئ الوصايا العشر وتطبيقها . وقد سميت هذه الشرائع أحكاما ، لأنها صيغت بحكمة وعدالة غير محدودة ، ولأن القضاة كان عليهم أن يحكموا بموجبها . وهي ، على خلاف الوصايا العشر ، سلمت خاصة لموسى الذي كان عليه أن يبلغها للشعب .

وأول تلك الشرائع هي الخاصة بالعبيد . كان المجرمون في العصور القديمة يباعون أحيانا عبيدا بأمر القضاة ، وفي بعض الحالات كان الدائنون يبيعون المدينين ، وكان الفقر يدفع بعض الناس لأن يبيعوا أنفسهم أو أولادهم . ولكن العبراني لم يكن ليباع عبدا مدى الحياة . فقد كانت مدة خدمته كعبد لا تتجاوز ست سنين ، وفي السنة السابعة كان يطلق حرا . أما سرقة الرجال والقتل العمد والتمرد على سلطة الآباء فكان قصاصها الموت ، وكان يسمح لهم في الاحتفاظ بالعبيد من غير الإسرائيليين ، ولكن كان يجب المحافظة على حياتهم وأشخاصهم ، فمن قتل عبدا كان لابد من أن يتحمل القصاص ، فإذا أوقع عليه سيده أي أذى حتى لو كان كسر سن من أسنانه كان يلتزم بأن يطلقه حرا .

لقد كان الإسرائيليون أنفسهم عبيدا منذ عهد قريب . فالآن بعد ما صار لهم الحق في اقتناء العبيد كان عليهم أن يحترسوا من مراعاة روح القسوة والاغتصاب التي كانوا قد قاسوا الأمرين منها على أيدي المسخرين المصريين . إن ذكرى عبوديتهم المريرة كان يجب أن تجعلهم يضعون أنفسهم في مكان العبيد ، وتقودهم إلى الشفقة والرأفة ، وأن يعاملوا الغير كما يريدون أن يُعامَلوا هم .

وقد روعيت حقوق الأرامل والأيتام بكيفية خاصة ، وفرض على الشعب أمر الشفقة والعطف عليهم في عجزهم فيقول الرب : «إِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ فَإِنِّي إِنْ صَرَخَ إِلَيَّ أَسْمَعُ صُرَاخَهُ ، فَيَحْمَى غَضَبِي وَأَقْتُلُكُمْ بِالسَّيْفِ ، فَتَصِيرُ نِسَاؤُكُمْ أَرَامِلَ ، وَأَوْلاَدُكُمْ يَتَامَى» (خروج ٢٢: ٢٣، ٢٤) أما الغرباء الذين أرادوا أن يتحدوا مع إسرائيل فكان لا بد من حمايتهم من الظلم والعنف .«وَلاَ تُضَايِقِ الْغَرِيبَ فَإِنَّكُمْ عَارِفُونَ نَفْسَ الْغَرِيبِ ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ» (خروج ٢٣: ٩) .

وقد حُرِّم عليهم أخذ رباً من الفقراء . إن ثوب الفقير أو غطاءه إذا أُخذ كرهن ينبغي أن يعاد إليه في وقت الغروب . والمتهم في سرقة كان عليه أن يعوض

ضعف ما سرقه . وقد فرض الشعب إكرام القضاة والحكام ، وقدم للقضاة إنذار بألا يعوجـــوا القضاء بكونهم يساعدون في نجاح قضية كاذبة أو أن يقبلوا رشوة ، كما حرم علـــى النـــاس الافتراء والسعي بالوشاية ، أما أعمال الشفقة فقد فرضت على الشعب حتى مع الأعداء .

وعاد الرب يذكرهم مرة أخرى بوجوب تقديس السبت ، وقد عينت لهم الأعياد الســنوية . وفي أثناء هذه الأعياد كان على كل الرجال أن يجتمعوا أمام الرب ويقدموا له تقدمات شكرهم وباكورات ثمار إنعاماته التي قد أغدقها عليهم . وقد أبان لهم الغرض من كل تلك الأنظمـــة ، فلم يكن الدافع إليها مجرد فرض سلطة استبدادية ، ولكن الغرض منها جميعـــها كـــان غـــير إسرائيل ، ولقد قال الله : «وَتَكُونُونَ لِي أُنَاسًا مُقَدَّسِينَ» (خـــروج ٢٢: ٣١) مســتأهلين لأن يعترف بهم الله القدوس .

وكان على موسى أن يسجل هذه الشرائع ويحفظها بكل حرص لتكـــون أســـاس الشـــريعة القومية ، مع الوصايا العشر التي قد وضعت الشرائع الأخرى لشرحها ، والتي هي شرط إتمام مواعيد الله لإسرائيل . وهذه هي الرسالة التي قدمها لهم الرب . «هَا أَنَا مُرْسِلٌ مَلاَكًـــا أَمَـــامَ وَجْهِكَ لِيَحْفَظَكَ فِي الطَّرِيقِ ، وَلِيَجِيءَ بِكَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَعْدَدْتُهُ . اِحْتَرِزْ مِنْهُ وَاسْمَعْ لِصَوْتِهِ وَلاَ تَتَمَرَّدْ عَلَيْهِ ، لأَنَّهُ لاَ يَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبِكُمْ ، لأَنَّ اسْمِي فِيهِ . وَلكِنْ إِنْ سَمِعْتَ لِصَوْتِهِ وَفَعَلْتَ كُلَّ مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ ، أُعَادِي أَعْدَاءَكَ ، وَأُضَايِقُ مُضَايِقِيكَ» (خروج ٢٣: ٢٠-٢٢) وطوال ســـني تجوال إسرائيل كان المسيح ممثلا في عمود السحاب وعمود النار قائدا لهم . وعندمـــا كـــانت هنالك رموز تشير إلى مخلص آت كان هنالك أيضا مخلص حاضر وهو الذي كـــان يصـــدر أوامره لموسى ليبلغها للشعب ، والذي وضع أمامهم على أنه المجرى الوحيد للبركة .

وبعد نزوله من الجبل «جَاءَ مُوسَى وَحَدَّثَ الشَّعْبَ بِجَمِيعِ أَقْوَالِ الرَّبِّ وَجَمِيـــعِ الأَحْكَـــامِ ، فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ وَقَالُوا : كُلُّ الأَقْوَالِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا الـــرَّبُّ نَفْعَـــلُ» (انظـــر خروج ٢٤) فهذا التعهد مع كلام الرب الذي جعلهم تحت التزام الطاعة كتبـــه موســـى فـــي كتاب .

وتبع ذلك المصادقة على العهد . فقد بني مذبح عند أسفل الجبل وأقيم إلى جواره اثنا عشر عمودا «لأَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ» شهادة على قبولهم للعهد . وأصعد المحرقات فتيـــان بني إسرائيل الذين كانوا قد اختيروا للقيام بهذه الخدمة .

وبعدما رشَّ موسى دم الذبائح على المذبح «أَخَذَ كِتَابَ الْعَهْدِ وَقَرَأَ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ» وهكذا تكررت شروط العهد بكل وقار ، وكان للشعب الحرية الكاملة للاختيار بين الامتثال وعدم الامتثال لتلك الشروط . كانوا في البداءة قد وعدوا بأن يطيعوا صوت الرب ، ولكنهم كانوا منذ ذلك الحين قد سمعوا الشريعة وهي تعلن على مسامعهم ، وقد فصلت مبادئها أمامهم لكي يعرفوا فحوى مشتملات ذلك العهد الذي طلب منهم الامتثال له . ومرة أخرى أجاب الشعب بالإجماع قائلين : «كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ وَنَسْمَعُ لَهُ» (انظر خروج ٢٤) «لأَنَّ مُوسَى بَعْدَمَا كَلَّمَ جَمِيعَ الشَّعْبِ بِكُلِّ وَصِيَّةٍ بِحَسَبِ النَّامُوسِ ، أَخَذَ دَمَ ... وَرَشَّ الْكِتَابَ نَفْسَهُ وَجَمِيعَ الشَّعْبِ ، قَائِلاً : هذَا هُوَ دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي أَوْصَاكُمُ اللهُ بِهِ» (عبرانيين ٩: ١٩،٢٠) .

أجريت الترتيبات الآن لتثبيت الأمة المختارة تثبيتا كاملا تحت سلطان الرب ملكا لهم ، وسمع موسى أمر الرب قائلا له : «اصْعَدْ إِلَى الرَّبِّ أَنْتَ وَهَارُونُ وَنَادَابُ وَأَبِيهُو ، وَسَبْعُونَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ ، وَاسْجُدُوا مِنْ بَعِيدٍ . وَيَقْتَرِبُ مُوسَى وَحْدَهُ إِلَى الرَّبِّ» فبينما سجد الشعب في أسفل الجبل فهؤلاء الرجال المختارون صعدوا فوقه . لقد كان على الشيوخ السبعين أن يساعدوا موسى في حكم إسرائيل ، ووضع الرب عليهم روحه ، وأكرمهم بأن أراهم لمحة من قدرته وعظمته ، «وَرَأَوْا إِلهَ إِسْرَائِيلَ ، وَتَحْتَ رِجْلَيْهِ شِبْهُ صَنْعَةٍ مِنَ الْعَقِيقِ الأَزْرَقِ الشَّفَّافِ ، وَكَذَاتِ السَّمَاءِ فِي النَّقَاوَةِ» إنهم لم يروا اللاهوت بل رأوا مجد حضوره . ما كان يمكنهم قبل ذلك أن يحتملوا منظرا كهذا ، ولكن إظهار قدرة الله ملأهم هيبة وقادهم إلى التوبة . لقد ظلوا يتأملون في مجده وطهارته ورحمته حتى أمكنهم الاقتراب أكثر إلى ذاك الذي كان موضوع تأملاتهم .

دعي موسى «وَيَشُوعُ خَادِمُهُ» لملاقاة الله ، وحيث أنهما كانا سيقضيان بعض الوقت هناك فقد عُين ذلك القائد ، هارون وحور يساعدهما الشيوخ لينوبوا عنه في أثناء غيابه «فَصَعِدَ مُوسَى إِلَى الْجَبَلِ ، فَغَطَّى السَّحَابُ الْجَبَلَ ، وَحَلَّ مَجْدُ الرَّبِّ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ» فغطى السحاب الجبل مدة ستة أيام علامة على حضور الله الخاص ، ومع ذلك فلم يكن هنالك إعلان لذاته أو تبليغ لإرادته ، وفي خلال هذه المدة ظل موسى منتظرا دعوة إلى حضرة العلي ، وقد أمره الرب قائلا : «اصْعَدْ إِلَيَّ إِلَى الْجَبَلِ ، وَكُنْ هُنَاكَ» ومع أن صبر موسى وطاعته كانا يجتازان في امتحان فهو لم يتضجر من السهر ولا بارح مكانه . إن فترة الانتظار هذه كانت له فرصة استعداد وامتحان دقيق لنفسه . حتى خادم

الله المحبوب هذا لم يستطع الاقتراب مباشرة إلى الرب واحتمال مظاهر مجده ، فلقد كان بحاجة إلى ستة أيام ليكرس نفسه لله بفحصه لقلبه وبالتأمل والصلاة قبلما أمكنه التأهب للاتصال المباشر بخالقه .

وفي اليوم السابع الذي وافق يوم سبت دعي موسى إلى السحابة وانفتحت السحابة أمام عيون كل إسرائيل وكان منظر مجد الرب كنار آكلة ، «وَدَخَلَ مُوسَى فِي وَسَطِ السَّحَابِ وَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ . وَكَانَ مُوسَى فِي الْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً» إن الأربعين يوما التي قضاها موسى في الجبل مع الله لم تشمل ستة أيام الاستعداد . في أثناء الستة الأيام كان يشوع مع موسى وكانا كلاهما يأكلان من المن ويشربان من «الجدول الذي كان ينبع من الجبل» ولكن يشوع لم يدخل في السحابة مع موسى بل ظل في الخارج وكان يأكل ويشرب كل يوم وهو منتظر عودة موسى ، ولكن موسى ظل صائما مدة الأربعين يوما .

إن موسى في أثناء بقائه في الجبل تلقى تعليمات من الله بشأن بناء مقدس يتجلى فيه الرب بكيفية خاصة ، إذ يقول «فَيَصْنَعُونَ لِي مَقْدِسًا لأَسْكُنَ فِي وَسَطِهِمْ» (خروج ٢٥: ٨) هكذا أمر الله . وللمرة الثالثة ذكر أمر الله الخاص بتقديس يوم السبت ، فلقد أعلن الرب قائلا : «هُوَ بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلاَمَةٌ إِلَى الأَبَدِ» «لِتَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يُقَدِّسُكُمْ ، فَتَحْفَظُونَ السَّبْتَ لأَنَّهُ مُقَدَّسٌ لَكُمْ ... إِنَّ كُلَّ مَنْ صَنَعَ فِيهِ عَمَلاً تُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ بَيْنِ شَعْبِهَا» (خروج ٣١: ١٧،١٣،١٤) وكان موسى قد تلقى أوامر من الرب بأن يسرع بإقامة خيمة لأجل خدمة الله ، والآن كان يمكن أن يستنتج الشعب ، لأن غايتهم من هذا العمل هي مجد الله ، ولحاجتهم القصوى إلى مكان للعبادة ، أنه يسمح لهم بأن يقوموا بهذا العمل في يوم السبت ، فلكي يحال بينهم وبين ارتكاب ذلك الخطأ أعطي لهم الإنذار أنه حتى نفس قدسية ذلك العمل الخاص واضطرارهم للقيام به لله خاصة بأسرع ما يمكن– كل هذا ينبغي ألا يسوقهم إلى نقض يوم الراحة المقدس .

كان شعب إسرائيل سيكرمون منذئذ بحضور ملكهم ، فلقد قال تعالى : «وَأَسْكُنُ فِي وَسَطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا» «وَأَجْتَمِعُ هُنَاكَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَيُقَدَّسُ بِمَجْدِي» (خروج ٢٩: ٤٥،٤٣)– هذا هو التأكيد الذي أعطي لموسى . وكرمز لسلطان الله وكبيان شامل لإرادته أعطيت لموسى نسخة من الوصايا العشر مكتوبة بإصبع الله نفسه على لوحي حجر

(تثنية ٩: ١٠؛ خروج ٣٢: ١٥،١٦) لكي يوضعا بكل إكرام وتقدير في المقدس الذي بعدما يقام سيكون مركز عبادة الأمة .

لقد رفع الله شأن بني إسرائيل من أمة من العبيد إلى أن صاروا أرفع من كل الشعوب ، وخاصة لملك الملوك . فصلهم عن العالم ليستأمنهم على وديعة مقدسة ، إذ أودع بين أيديهم شريعته ، وقصد أنه عن طريقهم يحفظ معرفة ذاته بين الناس ، وهكذا كان نور السماء سيشرق على عالم مكتنف بالظلام ، وكان سيرتفع صوت يدعو الناس من كل الشعوب لأن يتركوا عبادة الأوثان ليعبدوا الله الحي . فإذا برهن بنو إسرائيل على أمانتهم على الوديعة المسلمة لهم فسيصيرون قوة في العالم . وسيكون الرب حصنهم ويرفعهم فوق كل الأمم الأخرى ، وعن طريقهم سيعلن نوره وحقه ، وسيثبتون إلى جانب سلطته الحكيمة المقدسة كمثال لسمو عبادته فوق كل أشكال العبادة الوثنية .

الفصل الثامن والعشرون

عبادة الأوثان في سيناء

في فترة غياب موسى كان الوقت وقت انتظار وتوقف لإسرائيل ، لقد عرف الشعب أن قائدهم صعد فوق الجبل مع يشوع ، وأنه دخل في السحابة الكثيفة الظلام التي كان يمكن رؤيتها من أسفل السهل ، والمستقرة على قمة الجبل ، والتي كانت تلتمع فيها بين حين وآخر أنوار بروق حضور الله . كانوا ينتظرون حضور موسى بشوق . ولأنهم كانوا معتادين وهم في مصر رؤية تمثيلات مادية للآلهة فقد غدا من الصعب عليهم أن يتكلوا على كائن غير منظور ، ولذلك كانوا يعتمدون على موسى ليسند إيمانهم ، والآن فها هو قد أخذ من بينهم ، وقد مضت أيام واسابيع ومع ذلك فهو لم يرجع ، ورغم أنهم كانوا ينظرون السحابة ماثلة أمامهم فقد تراءى لكثيرين ممن كانوا في المحلة أن قائدهم رحل عنهم ، أو أنه ذهب طعما للنار الآكلة ومات محترقا .

في خلال فترة الانتظار هذه كان لديهم متسع من الوقت للتأمل في شريعة الله التي سمعوها ولإعداد قلوبهم لقبول الإعلانات الجديدة التي سيعلنها لهم . لم يكن لديهم وقت كاف لمثل هذا العمل ، ولو أنهم طلبوا إدراكا أكمل لمطاليب الله وكانوا متضعي القلوب أمامه لكان ذلك درعا تقيهم من التجربة ، إلا أنهم لم يفعلوا هذا ، فسرعان ما صاروا عديمي الاكتراث عديمي الانتباه ومتمردين ، وقد بدا هذا واضحا بين اللفيف بنوع خاص ، فلقد نفد صبرهم إذ كانوا يريدون مواصلة السير إلى أرض الموعد التي تفيض لبنا وعسلا ، ولكن وعد امتلاكهم لأرض الموعد كان يشترط فيه الطاعة ، أما هم فقد نسوا هذا وأغفلوه . وكان بينهم من اقترحوا العودة إلى مصر ، ولكن سواء كان سيرهم رجوعا- إلى مصر أو تقدما إلى كنعان فإن جماهير الشعب كانوا قد عقدوا العزم على ألا ينتظروا موسى أكثر من ذلك .

فإذ أحسوا بعجزهم فى غياب قائدهم عادوا إلى خرافاتهم القديمة ، وكان «اللَّفِيفُ» هم أول من أمعنوا في التذمر وإظهار الضجر ، وكانوا هم القادة في الارتداد الذي تبع ذلك . وبين كل الخلائق التي كان المصريون يعتبرونها رمزا للآلهة كان العجل ، فاقترح أولئك الذين مارسوا عبادة الأوثان في مصر أن يصوروا عجلا فصنعوه وعبدوه ، ورغب الشعب في عمل صورة تمثل الله وتسير أمامهم بدلا من موسى . إن الله لم يعط للناس أي صورة عن نفسه ، وقد نهى عن كل تمثيل مادي لذلك الغرض . ثم أن العجائب العظيمة التي أجراها في مصر وعبر بحر سوف كان القصد منها تثبيت إيمانهم فيه كالإله الحقيقي الوحيد ومعين إسرائيل القدير غير المنظور . وقد منحت لهم رغبتهم في أن يكون لهم إعلان منظور لحضوره في عمود السحاب والنار الذي كان يرشد جموعهم وفي إعلان مجده على جبل سيناء ، ولكن مع وجود سحابة حضوره ماثلة أمام عيونهم ارتدوا بقلوبهم إلى أوثان مصر ومثلوا مجد الله غير المنظور في صورة ثور (انظر خروج ٣٢) .

وفي غياب موسى كانت السلطة القضائية في يد هارون فاجتمع جمهور غفير من الشعب حول خيمته قائلين له : «قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا ، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ» ثم قالوا إن السحابة التي قادتهم إلى ذلك المكان استقرت الآن على الجبل بصفة مستديمة ، ولن تعود تقودهم في رحلاتهم ، فينبغي أن يكون لهم تمثال في مكانها ، وإذا قرروا العودة إلى مصر كما اقترح بعضهم فسيجدون نعمة في عيون المصريين لو حملوا هذا التمثال واعترفوا به إلها لهم .

مثل هذه الأزمة كانت تتطلب وجود رجل ثابت الحزم قوي الإرادة ذي شجاعة لا تعرف الخوف أو التراجع ، رجل يعتبر كرامة الله أعظم من رضى الجماهير أو سلامة شخصه وحتى الحياة نفسها . ومن قائد إسرائيل الحالي لم يكن حائزا هذه الصفات . اعترض هارون على الشعب بكل ضعف ووجل ، ولكن تردده وتهيبه في تلك اللحظة الحرجة زادا من تصميم الشعب . وقد زاد الشغب ، وساد على الشعب نوع من الخبل أو الجنون الأعمى عديم التفكير ، كانت هنالك جماعة ممن ظلوا على ولائهم لعهد الله ولكن الأكثرية الساحقة من الشعب اشتركت في ذلك الارتداد . وقليلون ممن نبذوا الاقتراح بعمل تمثال لأنه عبادة وثنية تحرش بهم الباقون وعاملوهم بكل خشونة ، وفي وسط ذلك الشغب والاهتياج قتلوهم .

خاف هارون على سلامته ، وبدلا من أن يقف بكل نبل وشجاعة للدفاع عن كرامة الله خضع لمطاليب الجماهير ، وكان أول ما عمله هو أنه طلب أن تجمع أقراط الذهب من كل الشعب ويؤتى بها إليه ، وكان يؤمل أن كبرياءهم ستجعلهم يرفضون تلك التضحية . ولكنهم بكل رضى خلعوا عنهم زينتهم ومن هذه صنع عجلا مسبوكا على مثال آلهة مصر ، فصرخ الشعب قائلين : «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» وبكل نذالة سمح هارون بهذه الإهانة للرب ، بل لقد فعل أكثر من هذا فإذ رأى مقدار الحفاوة التي بها استقبل الشعب ذلك الصنم الذهبي بنى أمامه مذبحا وأعلن قائلا : «غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ» وانتشر هذا الخبر من جماعة إلى أخرى بواسطة أصوات المبوقين في المحلة كلها . «فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ . وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ» وبحجة عمل عيد للرب أسلموا أنفسهم للشراهة والطرب الخليع .

ما أكثر ما نرى في أيامنا هذه محبة الملذات متخفية في ثياب «صُورَةُ التَّقْوَى» ! إن تلك الديانة التي تبيح للناس الانغماس في إشباع رغباتهم النفسانية أو الشهوانية هي ديانة تسر الجماهير اليوم كما في أيام إسرائيل . كما أن هنالك كثيرين من المذعنين أمثال هارون ، الذين مع كونهم لهم السلطة في الكنيسة يخضعون لرغبات الناس غير المكرسين ، وهكذا يشجعونهم على التمادي في خطيتهم .

لم تكن قد مضت غير أيام قليلة منذ أخذ أولئك العبرانيون على أنفسهم عهدا مقدسا أمام الله بأن يطيعوا صوته . لقد وقفوا يرتجفون خوفا أمام الجبل وهم يصغون إلى كلام الله القائل : «لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي» وكان مجد الله لا يزال مستقرا فوق سيناء أمام عيون كل الجماعة ولكنهم ارتدوا وطلبوا آلهة أخرى «صَنَعُوا عِجْلاً فِي حُورِيبَ ، وَسَجَدُوا لِتِمْثَالٍ مَسْبُوكٍ ، وَأَبْدَلُوا مَجْدَهُمْ بِمِثَالِ ثَوْرٍ» (مزمور ١٠٦: ١٩، ٢٠) أي جحود أكثر من هذا كان يمكن أن يظهروه ، وأية إهانة أكثر جرأة من هذه كان يمكن أن تصدر منهم نحو ذاك الذي أعلن نفسه لهم كالآب الرحيم والملك الكلي القدرة ؟!

وإذ كان موسى في الجبل أُنذر بارتداد الشعب في المحلة وأمر بالعودة إليهم بدون إبطاء إذ قال له الله «اذْهَبِ انْزِلْ . لأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ . زَاغُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُهُمْ بِهِ . صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلاً مَسْبُوكًا ، وَسَجَدُوا لَهُ» لقد كان

الله يستطيع أن يقتل ذلك الارتداد في مهده ولكنه سمح له بأن يستفحل إلى هذا الحد لكي يمكنه أن يعلّم الجميع درسا بمعاقبته للخيانة والارتداد .

لقد ألغي عهد الله مع شعبه ، فأعلن الله لموسى قائلا : «اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ ، فَأُصَيِّرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا» لقد كان شعب إسرائيل ولاسيما اللفيف ميالين دائما للتمرد على الرب والتذمر على قائدهم . وكانوا يحزنونه بعدم إيمانهم وبعنادهم ، وكان أمر قيادتهم إلى أرض الموعد عملا شاقا ومتعبا جدا . لقد حرمتهم خطاياهم رضى الله ، وكان العدل يتطلب أملاكهم ، لذلك اقترح الله أن يهلكهم ويصير موسى أمة عظيمة .

قال الله : «اتْرُكْنِي ... أُفْنِيَهُمْ» ولو قصد الله أن يهلك إسرائيل فمن ذا الذي كان يستطيع أن يتوسل لأجلهم ؟ ما كان أقل الذين يتركون الخطاة لمصيرهم ، وما كان أقل الذين يرفضون إبدال التعب والمشقة والتضحية التي لا يكافأون عليها بغير الجحود والتذمر ليقبلوا بكل سرور مركزا يضمن لهم الراحة والكرامة ، ما دام أن الرب نفسه هو الذي يقدم لهم تلك الراحة !

إلا أن موسى فطن إلى وجود أساس للرجاء حيث لم يكن غير الفشل والغضب ، وأدرك أن كلام الله القائل له : «اتْرُكْنِي» لم يكن القصد منه منعه بل تشجيعه على التشفع دلالة على أنه لا شيء آخر غير صلوات موسى يمكن أن تخلص إسرائيل ، وأنه لو توسل إليه موسى هكذا فسيبقي على شعبه «فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِهِ ، وَقَالَ : لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ ؟» .

وقد أشار الرب إلى أنه قد تبرأ من شعبه ، وقد أخبر موسى قائلا عنهم : «شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» ولكن موسى بكل وداعة تنازل عن حقه في قيادة إسرائيل . إنهم لم يكونوا شعب موسى بل شعب الله– «شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ» وقد توسل قائلا : (لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ : أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ ؟» .

وفي خلال الأشهر القليلة منذ ترك إسرائيل مصر انتشرت أخبار نجاتهم العظيمة ووصلت إلى أسماع كل الأمم المجاورة ، ولقد جثم الخوف والتوجس على صدور الوثنيين ، وكان الجميع يراقبون ليروا ما الذي سيفعله إله إسرائيل لشعبه ، فلو أنهم أهلكوا الآن فأعداؤهم سينتصرون ويهان الله ، وسيدَّعي المصريون أن اتهاماتهم كانت صحيحة– فبدلا من أن يقود

الرب شعبه إلى البرية ليقدموا ذبائحهم وضحاياهم جعلهم يصيرون هم الضحايا . إنهم ما كانوا ليدخلوا في حسابهم خطايا إسرائيل . إن إهلاك الشعب الذي أكرمه الله على ملأ من العالم يجلب على اسمه العار . ما أعظم مسؤولية أولئك الذين أكرمهم الله إكراما عظيما في أن يجعلوا اسمه تسبيحة في الأرض ! وبأي حرص يجب عليهم أن يتحفظوا من ارتكاب الخطية ومن أن يستمطروا على أنفسهم دينونة الله ، الأمر الذي يجعل الأشرار يعيرون اسمه !

وإذ كان موسى يشفع في إسرائيل زايله جبنه في غمرة اهتمامه الشديد ومحبته لأولئك الذين من أجلهم استخدمه الله في صنع تلك العظائم ، وقد أصغى الرب إلى توسلاته واستجاب تلك الصلاة الدالة على إنكار الذات . لقد امتحن الله عبده ، امتحن أمانته ومحبته لتلك الجماعة الخاطئة الجاحدة ، وصمد موسى بكل نبل وشجاعة أمام الامتحان . إن اهتمامه بإسرائيل لم يكن ناشئا عن أي غرض نفساني . وكان نجاح شعب الله المختار أعلى ، في اعتباره ، من كل كرامة ذاتية ، وأغلى من امتياز صيرورته أبا لأمة عظيمة . وقد سر الله بأمانته وبساطة قلبه واستقامته فأسند إليه ، كراع أمين ، تلك المأمورية العظيمة ، مأمورية قيادة الشعب إلى أرض الموعد .

فلما نزل موسى ويشوع من الجبل و«لَوْحَا الشَّهَادَةِ» بيد موسى سمعا أصوات هتاف وصراخ من ذلك الجمع المهتاج إذ كانوا في حالة ضجيج وحشي . أما يشوع الرجل المحارب فأول ما خطر له هو أن عدوا يهاجم الجماعة فقال : «صَوْتُ قِتَال فِي الْمَحَلَّةِ» ولكن حكم موسى بالنسبة إلى ذلك الاضطراب كان أقرب إلى الصواب . لم يكن الصوت صوت قتال بل مرح وعربدة ، فقال : «لَيْسَ صَوْتَ صِيَاحِ النُّصْرَةِ وَلاَ صَوْتَ صِيَاحِ الْكَسْرَةِ ، بَلْ صَوْتَ غِنَاءٍ أَنَا سَامِعٌ» .

فلما اقتربا من المحلة شاهدا الشعب يهتفون ويرقصون حول صنمهم . لقد كان المنظر منظر عربدة وثنية ، على مثال ما كان يشاهد في الأعياد الوثنية في مصر ، ولكن ما كان أبعد الفرق بين هذه الجلبة والعبادة المقدسة الوقورة لله ! فاغتم موسى جدا . إنه قادم توا من محضر مجد الله ، ومع أن الرب كان قد أخبره بما يحدث في المحلة فإنه لم يكن مستعدا لذلك العرض المقيت لانحطاط إسرائيل ، فحمي غضبه . ولكي يظهر كراهيته ونفوره من جريمتهم طرح لوحي الحجر وكسرهما على مرأى من كل الشعب ، وكان يعني بذلك أنه ما داموا قد

كسروا عهدهم مع الله فالله قد كسر عهده معهم .

وإذ دخل موسى المحلة مر في وسط تلك الجموع المعربدة ، وإذ أمسك بالصنم ألقى به في النار ثم طحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه مياه الجدول الجاري من الجبل وسقى الشعب . وبهذا تبرهن لهم بطل وتفاهة الإله الذي كانوا يتعبدون له .

واستدعى ذلك القائد العظيم أخاه المذنب ، وبكل عبوسة سأله قائلا : «مَاذَا صَنَعَ بِكَ هذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً ؟» فحاول هارون أن يحمي نفسه ويدافع عن مسلكه بأن أخبره عن صخب الشعب ، وبأنه لو لم يذعن لرغباتهم لكان قد قتل ، قائلا : «لاَ يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي . أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ أَنَّهُ فِي شَرّ . فَقَالُوا لِيَ : اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا ، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ . فَقُلْتُ لَهُمْ : مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي . فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هذَا الْعِجْلُ» لقد أراد أن يقنع موسى بأن معجزة قد حدثت– أن الذهب الذي قد ألقي به في النار استحال إلى عجل بقوة خارقة للطبيعة . ولكن أعذار هارون ومراوغاته لم تكن تجدي فتيلا ، ولذلك عومل ، بالعدل على أنه المذنب الأكبر .

إن حقيقة كون هارون قد حصل على بركات وإكرامات أكثر من كل ما حصل عليه الشعب زادت من هول خطيته وشناعتها . إن هارون «قُدُّوسَ الرَّبِّ» (مزمور ١٠٦: ١٦) هو الذي صنع الصنم وأعلن عن عيده ، إنه هو الذي كان قد تعين ليكون كليما لموسى ، وشهد الله عنه قائلا : «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ يَتَكَلَّمُ» (يحسن الكلام)– (خروج ٤: ١٤) وهو الذي أخفق في إيقاف أولئك الوثنيين عند حدهم وفي منعهم عن إجراء قصدهم الذي به تحدوا السماء ، فذاك الذي عمل الله بواسطته في إيقاع أحكام الله وضرباته على المصريين والهتهم ، سمع قول الشعب ، دون أن يتأثر ، معلنين أمام التمثال المسبوك : «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» إنه هو الذي كان مع موسى على الجبل ورأى مجد الرب ، ورأى أنه في ظهور ذلك المجد لم يكن هناك ما يمكن أن تؤخذ له صورة ، وهو هو نفسه الذي حول ذلك المجد إلى تمثال ثور . ذاك الذي أسند الله إليه أمر حكم الشعب في غياب موسى هو الذي أقر عصيان الشعب «وَعَلَى هَارُونَ غَضِبَ الرَّبُّ جِدًّا لِيُبِيدَهُ» (تثنية ٩: ٢٠) ولكن إجابة لشفاعة موسى الحارة أبقي على حياة هارون . وفي

توبته وتذلله بسبب هذه الخطية العظيمة عاد الله للرضى عنه .

لو كان لهارون من الشجاعة ما يجعله يثبت إلى جانب الحق دون التفات إلى العواقب لأمكنه أن يوقف ذلك الارتداد عند حده ، ولو أنه بدون تردد ثبت على ولائه لله ، ولو أنه بصَّر الشعب بمخاطر سيناء وذكَّرهم بالعهد المقدس الذي عاهدوا به الله أن يكونوا مطيعين لشريعته لأمكن إيقاف ذلك الشر عند حده ، ولكن إذعانه لرغبات الشعب وعدم تردده في تنفيذ خططهم وهو هادئ النفس جرأهم على الإمعان في خطيتهم والتمادي فيها أكثر مما فكروا من قبل .

فلما جابه موسى أولئك العصاة بعد عودته إلى المحلة ، فإن توبيخاته الصارمة والغضب الذي أظهره في كسر لوحي الشريعة المقدسين كانت في نظر الشعب على نقيض ما فعله أخوه هارون في كلامه الحلو وتصرفاته الوقورة ، ولذلك مالوا إلى جانب هارون . ولكي يبرر هارون نفسه عاد باللائمة على الشعب إذ اعتبرهم مسؤولين عن الضعف الذي أبداه في الخضوع لمطالبهم ، ولكن بالرغم من ذلك فقد كانوا معجبين بلطفه وصبره . غير أن الله لا ينظر كما ينظر الإنسان ، فإن روح الخنوع والاستسلام التي ظهرت في هارون حين رغب في إرضاء الشعب قد أعمت عينيه عن هول الجريمة التي أقرها . إن الطريق الذي سلكه في كونه ألقى بنفوذه إلى جانب الخطية في إسرائيل كان من نتائجه أن مات آلاف من الشعب وكم كان البون شاسعا في هذا الأمر بين هارون وموسى الذي إذ كان ينفذ قضاء الله بكل أمانة برهن على أن خير إسرائيل أغلى في نظره من النجاح أو الكرامة أو الحياة نفسها .

ليس بين كل الخطايا التي يعاقب عليها الله خطية أفظع في نظره من تلك التي تشجع الآخرين على فعل الشر . إن الله يريد أن يبرهن خدامه على ولائهم له حيث أنهم يوبخون العصيان بكل أمانة مهما يكن ذلك العمل مؤلما ، فالذين عهدت إليهم السماء برسالة يؤدونها ينبغي ألا يكونوا ضعفاء أو مذعنين انتهازيين . عليهم ألا يهدفوا إلى تعظيم أنفسهم ، ولا أن يتهربوا من القيام بالواجبات غير المرغوب فيها لديهم بل أن يتمموا عمل الرب بولاء لا أثر فيه للتردد .

ومع أن الله قد أجاب صلاة موسى في الحيلولة بين بني إسرائيل والهلاك فإن ذلك الارتداد العلني كان لا بد له من قصاص علني . إن العصيان الذي سمح هارون للشعب

323,324

بالوقوع فيه ، إن لم يسحق بسرعة سيحدث شغبا وجرأة لعمل الشر ويوقع الأمة كلها في هلاك لا يجبر ، إذا فليمحق ذلك الشر بمنتهى القسوة الرهيبة ، فإذ وقف موسى في باب المحلة قال للشعب : «مَنْ لِلرَّبِّ فَإِلَيَّ» فالذين لم يشتركوا في ذلك الارتداد كان يجب أن يتخذوا موقفهم عن يمين موسى ، والذين أذنبوا وتابوا يقفون عن يساره ، فأطاعوا الأمر . ووجد أن سبط لاوي لم يشترك أحد أفراده في تلك العبادة الوثنية . ومن بين الأسباط الأخرى وجد عدد كبير جدا من الذين مع كونهم أخطأوا قد أعلنوا توبتهم ، إلا أن جمعا غفيرا آخر ومعظمهم من اللفيف الذين أوعزوا بصنع العجل بكل عناد أصروا على التمرد والعصيان . فباسم «الرَّبّ إِله إِسْرَائِيلَ» أمر موسى من كانوا عن يمينه الذين حفظوا أنفسهم من عبادة الأوثان أن يتقلدوا سيوفهم ويقتلوا كل من أصروا على التمرد «وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُل» ، فبدون اعتبار للمركز أو الجنس أو الصداقة قُطِع أولئك الزعماء الثائرون الأشرار من أرض الأحياء ، أما الذين تابوا أو تذللوا فقد أبقي على حياتهم .

كان الذين باشروا ذلك العمل المرعب يعملون بسلطان الله إذ كانوا ينفذون حكم ملك السماء . فليحترس الناس لئلا وهم في عماهم البشري يحكمون على بني جنسهم ويدينونهم ، ولكن حين يأمرهم الله بأن ينفذوا حكمه على الإثم فينبغي أن يطيعوه . إن أولئك الذين قاموا بهذا العمل المؤلم أعلنوا بهذه الكيفية كراهيتهم للعصيان وعبادة الأوثان ، وكرسوا أنفسهم تكريسا أكمل لخدمة الإله الحقيقي ، فأكرم الرب أمانتهم بأن ميز سبط لاوي على باقي الأسباط .

لقد ارتكب بنو إسرائيل خيانة ضد ذلك الملك الذي كان قد أغدق عليهم بركاته ، والذي كانوا قد تعهدوا من تلقاء أنفسهم بأن يطيعوه ، فلكي يصان حكم الله وسلطانه كان لا بد أن يعامل الخونة بالعدل ، ومع ذلك فحتى في هذا الوقت ظهرت رحمة الله ، فبينما حفظت كرامة شريعته منحت لهم حرية الاختيار وقدمت للجميع فرصة للتوبة ، ولم يقطع من أرض الأحياء غير الذين أصروا على العصيان .

كان من الضروري جدا أن تعاقب هذه الخطية لترى الأمم المجاورة سخط الله على عبادة الأوثان . وبتنفيذ العدالة في المذنبين كان ينبغي لموسى الذي كان آلة في يد الله ، أن يكتب في

السفر احتجاجا علنيا حازما ضد خطيتهم . وحين يدين الإسرائيليون فيما بعد وثنية القبائل المجاورة فإن أعداء إسرائيل سيلصقون بهم التهمة قائلين إن هذا الشعب الذي اعترف أن الرب هو إلهه قد صنعوا عجلا وعبدوه في حوريب . وحينئذ فمع أنهم سيلتزمون بأن يعترفوا بذلك الحق المخجل فإن بني إسرائيل سيشيرون إلى المصير الرهيب الذي صار إليه العصاة برهانا على أن خطيتهم لم يقرها الله ولا أغضى عنها .

وقد تطلبت المحبة كما تطلب العدل تماما تنفيذ حكم العدالة على هذه الخطية . إن الله هو حارس شعبه كما أنه ملكهم . وهو يستأصل كل من يصرون على العصيان حتى لا يسقطوا الآخرين معهم إلى الهلاك . إن الله بإبقائه على حياة قايين برهن للكون كله على النتيجة التي كان يمكن أن يصير إليها العالم لو بقيت الخطية بدون قصاص . إن التأثير الذي أحدثته حياة قايين وتعاليمه في نسله من بعده أدى إلى حالة من الفساد استوجبت هلاك العالم كله بالطوفان ، وإن تاريخ الناس الذين عاشوا قبل الطوفان يشهد على أن طول العمر ليس بركة للخاطئ وأن صبر الله الطويل لم يردعهم عن شرورهم ، فعلى قدر ما طالت حياة الناس زاد فسادهم .

وهذا هو نفس ما يصدق على الارتداد في سيناء ، فلو لم يقع قصاص سريع على المتعدين لنتجت نفس تلك النتيجة ، ولكان العالم يصير إلى حالة من الفساد شبيهة بحالته في أيام نوح ، ولو أبقي على هؤلاء العصاة لتبعت ذلك شرور كثيرة أكثر مما حدث حين أبقي على حياة قايين . إن رحمة الله قد سمحت بهلاك الألوف لكي تمنع لزوم إيقاع حكم الدينونة على الملايين . فلكي يخلص الأكثرية كان لا بد من معاقبة الأقلية . زد على ذلك أن الشعب ، إذ كانوا قد طرحوا عنهم نير الولاء لله ، أسقطوا حقهم في حمايته لهم . فإذ يحرمون من تلك الحماية فالأمة كلها ستتعرض لعدوان أعدائها ، ولو لم يقض على الشر فورا لكان الشعب قد سقطوا بأيدي أعدائهم العديدين الأشداء . كان من اللازم لأجل خير إسرائيل ولكي تتعلم كل الأجيال القادمة درسا نافعا ، أن تعاقب الجريمة على الفور ، وقد كانت رحمة عظيمة للخطاة أنفسهم أن يوقفوا عن السير في طريقهم الشرير . إذ لو أبقي على حياتهم فإن نفس الروح التي ساقتهم إلى التمرد على الله كان لا بد من أن تظهر في الكراهية والحروب بينهم ، وأخيرا يهلك بعضهم بعضا . فلأجل محبة الله للعالم ولإسرائيل وحتى للعصاة أنفسهم عوقبت تلك

الجريمة بقسوة وسرعة مخيفة .

وإذ اكتشف الشعب هول جريمتهم ساد الرعب كل المحلة ، فقد خافوا لئلا يهلك الـرب كل المذنبين . وإذ رثى موسى لهم في كربهم وعدهم بالذهاب مرة أخرى ليتضرع إلـى الله لأجلهم .

قال لهم : «أَنْتُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ خَطِيَّةً عَظِيمَةً ، فَأَصْعَدُ الآنَ إِلَى الرَّبِّ لَعَلِّي أُكَفِّرُ خَطِيَّتَكُـمْ» فذهب ، وفي اعترافه أمام الله قال : «آه، قَدْ أَخْطَأَ هذَا الشَّعْبُ خَطِيَّـةً عَظِيمَـةً وَصَنَعُـوا لأَنْفُسِهِمْ آلِهَةً مِنْ ذَهَبٍ . وَالآنَ إِنْ غَفَرْتَ خَطِيَّتَهُمْ ، وَإِلاَّ فَامْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْـتَ» فجاءه الجواب : «مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي . وَالآنَ اذْهَبِ اهْدِ الشَّعْبَ إِلَـى حَيْـثُ كَلَّمْتُكَ . هُوَذَا مَلاَكِي يَسِيرُ أَمَامَكَ . وَلكِنْ فِي يَوْمِ افْتِقَادِي أَفْتَقِدُ فِيهِمْ خَطِيَّتَهُمْ» .

في صلاة موسى تتجه أفكارنا إلى أسفار السماء المسجل فيها بكـل دقـة أسـماء النـاس وأعمالهم ، صالحة كانت أم شريرة . وسفر الحياة يشمل أسماء كل من دخلوا خدمة الله ، فـإذا ارتد بعضهم عنه وفي عنادهم أصروا على السير في طريق الخطية وتقست قلوبهم أخيرا ضد تأثير روحه القدوس ففي يوم الدينونة ستمحى أسماؤهم من سفر الحياة ويحكم عليهم بالـهلاك . وقد تحقق موسى هول مصير الخطاة ، ومع ذلك فإذا كان لا بد من أن يرفض الرب إسـرائيل فقد رغب هو أن يمحى اسمه من ضمن أسمائهم . إنه لم يكن يحتمل أن يرى قصاص الله يحل بأولئك الذين أظهر الرب رحمة عظيمة في خلاصهم . إن تشفع موسى في إسرائيل يرمز إلـى وساطة المسيح لأجل الخطاة ، ولكن الرب لم يسمح لموسى أن يحمل خطية العصاة كما حمـل المسيح ، بل قال له : «مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي» .

وفي حزن عميق دفن الشعب قتلاهم . لقد سقط ثلاثة آلاف بفم السيف . وبعد ذلك بقليـل تفشى الوبأ في المحلة والآن جاءتهم رسالة تقول إن الرب لن يعود يسير معهم في رحلاتهم إذ أعلن الرب قائلا : «إِنِّي لاَ أَصْعَدُ فِي وَسَطِكَ لأَنَّكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ ، لِئَلاَّ أُفْنِيَـكَ فِـي الطَّرِيقِ» ثم أمرهم قائلا : «وَلكِنِ الآنَ اخْلَعْ زِينَتَكَ عَنْكَ فَأَعْلَمَ مَاذَا أَصْنَـعُ بِـكَ» (انظـر خروج ٣٣) وقد شمل المحلة كلها النوح والبكاء ، ففي انسحاق وتذلل «نَزَعَ بَنُو إِسْـرَائِيلَ زِينَتَهُمْ مِنْ جَبَلِ حُورِيبَ» .

326,327

وبموجب تعليمات إلهية نقلت الخيمة التي كانت تقام فيها العبادة مؤقتا «بَعِيدًا عَنِ الْمَحَلَّــةِ» وكان هذا برهانا جديدا على أن الله قد انسحب من بينهم . إن الله سيعلن نفسه لموسى ولكـــن ليس لمثل ذلك الشعب ، وأحس الشعب بذلك التوبيخ ومرارته فأحزنهم ذلك وآلمهم جدا ، وبـدا لتلك الجماعة المعذبة الضمير أن هذا نذير بكارثة أعظم . ألم يفصل الرب موسى بعيدا عـــن المحلة لكي يهلكهم هلاكا ماحقا ؟ إلا أنهم لم يُتركوا بدون رجاء . نعم إن الخيمة نصبت بعيـدا عن المحلة إلا إن موسى دعاها «خَيْمَةَ الاجْتِمَاعِ» فكل من تابوا حقا ورغبوا في الرجوع إلـى الرب سُمِح لهم بالتوجه إلى الخيمة للاعتراف بخطاياهم وطلب رحمة الرب ، فبعــد عودتـــهم إلى خيامهم دخل موسى إلى خيمة الاجتماع ، وبكل شوق واجف جعل الشعب يرقبون ظـــهور علامة على أن تشفعات موسى فيهم قد قبلت ، فلو تنازل الله لمقابلته لكان لهم أن يؤملوا أنـــهم لن يهلكوا كلية ، فلما نزل عمود السحاب ووقف عند باب الخيمة بكـــى الشـــعب مـــن فـــرط السرور ، وقام كل الشعب وسجدوا كل واحد في باب خيمته .

عرف موسى جيدا مقدار زيغان وضلال وعمى أولئك الذين كانوا تحت رعايتـــه ، كمـــا عرف الصعاب التي كان عليه أن يحاربها ويقوى عليها ، ولكنه كان قد تعلم أنه لكي يضبـــط الشعب وجب عليه أن يطلب العون من الله ، فتوسل إليه في طلب إعلان أوضح لإرادته تعالى ويقين أكمل بحضوره ، فقال : «أَنْتَ قَائِلٌ لِي : أَصْعِدْ هذَا الشَّعْبَ ، وَأَنْتَ لَـــمْ تُعَرِّفْنِـــي مَـــنْ تُرْسِلُ مَعِي . وَأَنْتَ قَدْ قُلْتَ : عَرَفْتُكَ بِاسْمِكَ ، وَوَجَدْتَ أَيْضًا نِعْمَةً فِي عَيْنَيَّ . فَالآنَ إِنْ كُنْــتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَعَلِّمْنِي طَرِيقَكَ حَتَّى أَعْرِفَكَ لِكَيْ أَجِدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ . وَانْظُـــرْ أَنَّ هذِهِ الأُمَّةَ شَعْبُكَ» .

فجاءه الجواب يقول : «وَجْهِي يَسِيرُ فَأُرِيحُكَ» على أن موسى لم يقنع بهذا . لقـــد طغـــى على نفسه شعور بالنتائج المخيفة التي تقع لو ترك الرب إسرائيل لعنادهم وقساوة قلوبهم . لـــم يكن يحتمل أن تنفصل مصالحه عن مصالح إخوته ، فصلى إلى الرب حتى يعود للرضا عـــن شعبه ، وأن تظل علامة حضوره مرشدة لهم في رحلاتهم ، فقال : «إِنْ لَمْ يَسِرْ وَجْـــهُكَ فَـــلاَ تُصْعِدْنَا مِنْ ههُنَا ، فَإِنَّهُ بِمَاذَا يُعْلَمُ أَنِّي وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ أَنَا وَشَعْبُكَ ؟ أَلَيْـــسَ بِمَسِـــيرِكَ مَعَنَا ؟ فَنَمْتَازَ أَنَا وَشَعْبُكَ عَنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ» .

«فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : «هذَا الأَمْرُ أَيْضًا الَّذِي تَكَلَّمْتَ عَنْهُ أَفْعَلُهُ ، لأَنَّكَ وَجَدْتَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيَّ ، وَعَرَفْتُكَ بِاسْمِكَ» ومع ذلك فلم يكف النبي عن توسلاته . لقد أجيب إلى كل طلباته ولكنه كان يتعطش إلى أدلة أعظم على رضى الله ، وها هو الآن يطلب أمرا لم يسبق لبشري أن طلبه إذ قال : «أَرِنِي مَجْدَكَ» .

ولم يوبخه الله على طلبه هذا كأنه دليل على الكبرياء أو الغطرسة ، بل أجابه جوابا كريما إذ قال : «أُجِيزُ كُلَّ جُودَتِي قُدَّامَكَ» إن مجد الله المكشوف لا يمكن لإنسان في هذا الجسد القابل للفناء أن يراه ويعيش ، ولكن الله أكد لموسى أنه سيريه من مجده الإلهي على قدر احتماله . فدعي للصعود إلى قمة الجبل مرة أخرى ، وإذ بتلك اليد التي أبدعت العالم ، تلك اليد التي تزحزح الجبال ولا تعلم (أيوب ٩: ٥) أمسكت بهذا المخلوق المجبول من التراب ، هذا الرجل العظيم الإيمان ووضعته في شق في الصخرة حيث مر مجد الله وجودته أمامه .

فهذا الاختبار– وفوق كل شيء آخر وعد الله له بأن وجهه سيلازمه– كان تأكيدا لموسى بالنجاح في العمل الذي أمامه ، واعتبر هذا أثمن بكثير من كل حكمة مصر وعلومها ، ومن كل ما بلغه كرجل دولة أو كقائد حربي . لا يمكن أن أية قوة أرضية أو حنكة عالمية أو علم مادي تنفع بديلا عن حضور الله المستمر مع الإنسان .

بالنسبة إلى العصاة مخيف هو الوقوع بين يدي الله الحي ، أما موسى فقد وقف وحده في حضرة الله السرمدي ولم يخف لأن روحه كانت في حالة انسجام مع خالقه . يقول المرنم : «إِنْ رَاعَيْتُ إِثْمًا فِي قَلْبِي لاَ يَسْتَمِعُ لِيَ الرَّبُّ» (مزمور ٦٦:١٨) ولكن : «سِرُّ الرَّبِّ لِخَائِفِيهِ ، وَعَهْدُهُ لِتَعْلِيمِهِمْ» (مزمور ٢٥: ١٤) .

وقف أعلن الله نفسه قائلا : «الرَّبُّ إِلهٌ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ . حَافِظُ الإِحْسَانِ إِلَى أُلُوفٍ . غَافِرُ الإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيَّةِ . وَلكِنَّهُ لَنْ يُبْرِئَ إِبْرَاءً» (انظر خروج ٣٤) .

«فَأَسْرَعَ مُوسَى وَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَسَجَدَ» ثم عاد يتوسل إلى الرب لعله يغفر إثم شعبه ويتخذهم ميراثا ، فأجيب إلى طلبه ، ووعد الرب في رحمته أن يعود ليشمل برضاه بني إسرائيل ، ولأجلهم يفعل عجائب لم تخلق «فِي كُلِّ الأَرْضِ وَفِي جَمِيعِ الأُمَمِ» .

ظل موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة . وفي هذه المرة كما في المرة

الأولى كان الرب يعوله بطريقة عجائبية . لم يسمح لأحد آخر أن يصعد معه ، ولم يكن يسمح لأحد بالاقتراب من الجبل في أثناء غيابه ، وبأمر الرب أعد لوحي حجر وأخذهما معه في صعوده إلى أعلى الجبل ، ومرة أخرى «كَتَبَ (الرب) عَلَى اللَّوْحَيْنِ كَلِمَاتِ الْعَهْدِ ، الْكَلِمَاتِ الْعَشَرَ» وفي أثناء تلك الفترة الطويلة التي قضاها موسى في شركة مع الله انعكس على وجهه مجد وجه الرب ولم يكن هو يعلم ذلك ، ففي أثناء نزوله من الجبل كان وجهه يلمع بنور يبهر الأبصار . إن نورا كهذا النور كان يتلألأ على وجه استفانوس حين أوقف أمام قضاته ، «فَشَخَصَ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْجَالِسِينَ فِي الْمَجْمَعِ ، وَرَأَوْا وَجْهَهُ كَأَنَّهُ وَجْهُ مَلاَكٍ» (أعمال الرسل ٦: ١٥) قد ارتد هارون والشعب إلى الوراء من أمام موسى ، إذ «خَافُوا أَنْ يَقْتَرِبُوا إِلَيْهِ» فإذ رأى موسى ارتباكهم ورعبهم وهو يجهل سبب ذلك ألح عليهم في الاقتراب منه ، وأراهم عهد الرب بمصالحته لهم وأكد لهم أن الله قد عاد للرضى عنهم ، ولم يلاحظوا في صوت موسى شيئا آخر غير المحبة والتوسل ، وأخيرا تجاسر أحدهم على الدنو منه وإذ اعتراه الخوف بحيث ألجم لسانه عن الكلام أشار إلى وجه موسى ثم إلى السماء ، ففهم موسى ، القائد ، العظيم المقصود بتلك الاشارات ، ففي خطيتهم التي كانوا يحسون بها وهم شاعرون بأنهم ما زالوا واقعين تحت طائلة سخط الله ، لم يستطيعوا احتمال نور السماء ، الذي لو كانوا مطيعين لله لكان يملأهم فرحا . إن الخوف ملازم للذنوب ، فالنفس المتحررة من الخطية لا تحاول الاختباء من نور السماء .

كان لدى موسى الشيء الكثير ليخبرهم به وإذ أشفق عليهم حين رآهم خائفين وضع برقعا على وجهه ، وظل يفعل هكذا كلما عاد إلى المحلة بعد اختلائه مع الله .

قصد الله بهذا اللمعان أن يطبع على عقول شعب إسرائيل صفة القداسة والعظمة والسمو التي لشريعته ، ومجد الإنجيل الذي سيعلنه المسيح . وحين كان موسى في الجبل لم يعلن له الله الشريعة وحدها بل أيضا تدبير الخلاص . وقد رأى أن ذبيحة المسيح كانت تشير إليها كل صور العصر اليهودي ورموزه ، وأن النور السماوي الذي كان يتلألأ من جلجثة والذي لم يكن أقل بهاء أو مجدا من شريعة الله هو الذي تألق بلمعانه على وجه موسى . إن ذلك النور الإلهى كان يرمز إلى مجد النظام الذي كان موسى وسيطه المنظور وممثل الوسيط الحقيقي الوحيد .

إن النور المنعكس على وجه موسى يمثل البركات التي يمكن أن يحصل عليها الشعب الحافظ الشريعة بوساطة المسيح . وهو يشهد أنه كلما كانت شركتنا مع الله أقرب وأوثق ، وكلما كانت معرفتنا لمطاليب الله أوضح وأعمق ازددنا تشبها بصورة الله وأقبلنا بسرعة على مشاركة الرب في طبيعته الإلهية .

كان موسى رمزا إلى المسيح ، فكما وضع شفيع إسرائيل برقعا على وجهه لأن الشعب لم يقووا على الشخوص في مجد وجهه وبهائه ، كذلك المسيح الوسيط الإلهي أخفى لاهوته تحت ستار الناسوت حين أتى إلى الأرض . فلو أنه أتى متسربلا ببهاء السماء ونورها لما أمكنه الاتصال بالناس في حالة الخطية التي كانوا فيها ، وما كانوا يستطيعون احتمال مجد حضوره ، ولذلك وضع نفسه وصار «فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ» (رومية ٨: ٣) حتى يستطيع الوصول إلى جنسنا الساقط ويرفعه .

الفصل التاسع والعشرون

عداء الشيطان للشريعة

إن أول مسعى بذله الشيطان لهدم شريعة الله كان ذاك الذي قام به بين سكان السماء القديسين ، وقد ظهر إلى حين كأنه قد كلل بالنجاح ، إذ انخدع عدد كبير من الملائكة ، ولكن انتصار الشيطان الظاهري انتهى بالهزيمة والخسران والانفصال عن الله والطرد من السماء .

ولما تجددت الحرب على الأرض ظهر أن الشيطان غنم ميزة مرة أخرى ، إذ صار الإنسان ، بالتعدي ، أسيرا لإبليس ، وسلمت مملكة الإنسان ليدي ذلك العاصي الأكبر . وقد بدا الآن كأن الطريق مفتوح أمام الشيطان ليقيم مملكة مستقلة ويتحدى سلطان الله وابنه . على أن تدبير الخلاص فتح الباب أمام الإنسان لإمكانية عودة الوفاق بينه وبين الله ولإطاعة شريعته ولافتداء الإنسان والأرض نهائيا من سلطان الشرير .

ومرة أخرى انهزم الشيطان ، ومرة أخرى لجأ إلى الخداع على أمل أن يحوّل هزيمته إلى نصرة . ولكي يوقظ العصيان في قلوب الناس الساقطين صور الله على أنه إله ظالم لكونه سمح للإنسان بأن يتعدى شريعته . فقال ذلك المجرب الماكر : «لماذا سمح الله بأن يجرب الإنسان ليخطئ ويتسبب في جلب الشقاء والموت ، مع أنه تعالى يعرف النتيجة ؟» هذا وإن بني آدم إذ نسوا رحمة الله وطول أناته التي منحت الإنسان اختبارا آخر بصرف النظر عن التضحية المذهلة الرهيبة التي أوجبها عصيانهم على ملك السماء ، أصغوا إلى المجرب وتذمروا على السيد الذي يستطيع وحده أن يخلصهم من سلطان المهلك المدمر .

هناك اليوم ألوف من الناس الذين يرددون صدى هذه الشكوى وهذا التمرد على الله . إنهم لا يرون أن تجريد الإنسان من حرية الاختيار هو سلب لامتيازه ككائن عاقل وجعله آلة تتحرك تلقائيا . إن الله لا يقصد أن يجبر إرادة الإنسان على إطاعته . لقد خلق الإنسان كائنا أدبيا ذا إرادة حرة ، وكسكان العوالم الأخرى ينبغي أن تمتحن طاعته ، ولكنه لا يصير إلى

حالة تجعل خضوعه للشر أمرا لازما لا مندوحة عنه . إنه لا تجربة ولا امتحان يقدمان إليه يعجز هو عن الانتصار فيهما . لقد أعد الله العدة الكافية التي كان يمكن أن تحفظ الإنسان من شر الهزيمة في صراعه مع الشيطان .

وإذ تكاثر الناس على الأرض انضم العالم كله تقريبا إلى صفوف المتمردين . ومرة أخرى حاول الشيطان أن يحرز النصرة . ولكن قدرة الله قضت على عمل الإثم مجددا واغتسلت الأرض بالطوفان من نجاستها الأدبية يقول النبي : «حِينَمَا تَكُونُ أَحْكَامُكَ فِي الأَرْضِ (يا رب) يَتَعَلَّمُ سُكَّانُ الْمَسْكُونَةِ الْعَدْلَ ... وَلاَ يَرَى جَلاَلَ الرَّبِّ» (إشعياء ٢٦ : ٩، ١٠) وهكذا حدث بعد الطوفان ، فإذ استراح سكان الأرض من أحكام الرب ودينونته عادوا يتمردون على الرب . وقد رفض العالم عهد الله وشرائعه مرتين ، فإن الناس قبل الطوفان وكذلك سلالة نوح طرحوا عنهم سلطان الله . حينئذ دخل الله في عهد مع إبراهيم واتخذ لنفسه شعبا خاصا ليكونوا أمناء على شريعته . ففي الحال بدأ الشيطان في إعداد أشراكه لكي يغوي هذا الشعب ويهلكه . وقد جرب بنو يعقوب ليختلطوا بالوثنيين عن طريق الزواج ويعبدوا أصنامهم ، إلا أن يوسف كان أمينا لله ، وكان ولاؤه شهادة دائمة على صدق الإيمان الحقيقي . ولكي يطفئ الشيطان هذا النور جعل حسد إخوة يوسف له يسوقهم إلى بيعه كعبد في بلاد وثنية . ولكن الله سيطر على الحوادث بحيث جعل معرفته تعطى للمصريين . ففي بيت فوطيفار وفي السجن حصل يوسف على تعليم وتدريب أعدَّاه مع مخافة الله لمركزه العظيم كرئيس وزراء الدولة . ومن قصر فرعون شعر الناس بتأثيره في كل البلاد فانتشرت معرفة الله في طول البلاد وعرضها . صار الإسرائيليون ناجحين وأثرياء في مصر ، وأولئك الذين كانوا أمناء لله بينهم كان لهم تأثير واسع النطاق . وقد امتلأت قلوب كهنة الأصنام هلعا وهم يلاحظون الدين الجديد يلقى قبولا من الناس . ونفث الشيطان في قلوبهم سموم عداوته لإله السماء فحاولوا إطفاء النور . وقد أسند إلى الكهنة أمر تهذيب وارث العرش ، وكانت هذه الروح ، روح الإصرار على مقاومة الله والغيرة على عبادة الأوثان هي التي شكلت أخلاق الملك العتيد ، وأوجبت إيقاع القسوة والظلم على العبرانيين وفي خلال الأربعين سنة بعد هروب موسى من مصر بدا كأن الوثنية قد انتصرت . ومن سنة إلى سنة ضعفت آمال الإسرائيليين وتضاءلت . وقد تهلل ملك مصر وشعب مصر معتزين بقوتهم وسخروا من إله إسرائيل ، وكبرت هذه

الروح واستشرت حتى بلغت أوج قوتها في فرعون الذي واجهه موسى . وعندما أتى القائد العبراني ومثل أمام الملك وقدم له رسالة من «الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ» لم يكن جهله للإله الحقيقي بل تحديه لقدرته هو الذي لقنه الجواب حين قال : «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ ... لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ» (خروج ٥ : ٢) . فمن البداية إلى النهاية لم تكن مقاومة فرعون لأمر الرب ناشئة عن الجهل بل عن العداء والتحدي .

ومع أن المصريين ظلوا طويلا يرفضون معرفة الله فقد أعطاهم الرب فرصة للتوبة . كانت مصر في أيام يوسف مأوى إسرائيل ، وقد أكرم الله وتمجد في الرفق الذي عومل به شعبه ، والآن فها هو الرب الطويل الأناة البطيء الغضب المملوء إشفاقا ورحمة أعطى لكل ضربة من الضربات وقتا كافيا لتعمل عملها . فالمصريون الذين حلت اللعنة عليهم بواسطة الخلائق التي كانوا يتعبدون لها أدركوا قدرة الرب ، وأن في استطاعة كل من أراد منهم ، أن يخضع لله وينجو من الدينونة ، ونتج عن تعصب الملك وعناده انتشار معرفة الله حتى لقد سلم كثيرون من المصريين أنفسهم لخدمته .

وبسبب ميل الإسرائيليين إلى الاندماج بالوثنيين ومحاكاتهم في عبادة الأصنام سمح الله لهم بالنزول إلى مصر حيث كان نفوذ يوسف وتأثيره ملموسين في كل مكان ، وحيث كانت الظروف تساعد على بقائهم شعبا خاصا . وفي مصر أيضا كان ينبغي أن انغماس المصريين في عبادة الأوثان ، والقسوة والاضطهاد اللذين حلا بالعبرانيين في المدة الأخيرة من أيام اغترابهم في مصر تجعلهم يكرهون الوثنية ويمقتونها ، وكان ينبغي أن تجعلهم يهرعون للاحتماء بإله آبائهم ، ولكن الشيطان جعل نفس هذه العناية واسطة لخدمة أغراضه إذ أظلمت عقول الإسرائيليين وقادتهم إلى محاباة سادتهم الوثنيين في ممارساتهم . وبسبب الإكرام الخرافي الذي كان يبديه المصريون للحيوانات لم يكن يسمح للعبرانيين في أثناء سني عبوديتهم بتقديم ذبائح كفارية لله . وهكذا لم تتجه عقولهم بواسطة هذه الذبائح إلى الذبيحة العظمى ، فضعف إيمانهم . ولما حان وقت خلاص إسرائيل أقام الشيطان نفسه محاربا ومقاوما لمقاصد الله ، عازما على إبقاء ذلك الشعب العظيم البالغ عدده حينئذ أكثر من مليون نسمة في أسر الجهل والخرافات ، ذلك الشعب الذي وعد الله أن يباركهم ويكثرهم ويجعلهم قوة على الأرض ، وعن طريقهم يعلن معرفة مشيئته ، الشعب الذي كان سيجعلهم حفظه لشريعته- هذا الشعب نفسه- أراد الشيطان أن يبقيهم

في ظلام الجهالة والعبودية لكي يستأصل من عقولهم ذكرى الله .

وحين أجريت المعجزات أمام الملك كان الشيطان في الميدان يعكس تأثيرها ويصد فرعون عن الاعتراف بعظمة الله وإطاعة أوامره . لقد بذل الشيطان أقصى جهده لـيزيف عمـل الله ويقاوم مشيئته ، وكانت النتيجة الوحيدة هي إعداد الطريق لإظهار قدرة الله ومجـده بكيفيـة أعظم وأكمل ، ولجعل وجود الإله الحي الحقيقي وسلطانه أكثر جلاء ووضوحا فـي عيـون الإسرائيليين وكل المصريين .

خلص الرب إسرائيل بإعلانات قوية لقدرته ، وبأحكام أجراها على كـل آلهـة مصـر . «أَخْرَجَ شَعْبَهُ بِابْتِهَاجٍ ، وَمُخْتَارِيهِ بِتَرَنُّمٍ ... لِكَيْ يَحْفَظُوا فَرَائِضَـهُ وَيُطِيعُـوا شَـرَائِعَهُ» (مزمور ١٠٥ : ٤٣-٤٥) لقد أنقذهم من حالة المذلة التي كانوا فيها لكي يأتي بهم إلـى أرض جيدة ، أرض أعدها في عنايته ، لكي تكون ملجأ لهم من أعدائهم ، حيث يمكنهم أن يسـكنوا تحت ظل جناحيه . كان يريد أن يأتي بهم إلى نفسه ويحيطهم بالأذرع الأبدية . وجزاء لكـل صلاحه ورحمته نحوهم كان المطلوب منهم ألا يكون لهم آلهة أخرى أمامه ، هو الإله الحي ، وأن يعظموا اسمه ويجعلوه ممجدا في الأرض .

وفي أثناء سني العبودية في مصر أضاع كثيرون من الإسرائيليين معرفة شريعة الله إلـى حد كبير ، وخلطوا بين وصاياه والعادات والتقاليد الوثنية ، فأتى الله بهم إلى سيناء حيث أعلن لهم شريعته بصوته .

إن الشيطان والملائكة الأشرار كانوا في الميدان ، ففيما كان الله يعلن شريعته لشعبه كـان الشيطان يدبر مكايده ليجرب الشعب حتى يخطئوا . هذا الشعب الذي اختـاره الله لنفسـه أراد الشيطان أن يفسده أمام وجه السماء . فإذا أفلح في جعلهم يعتنقون الوثنية فسيلاشي كـل قـوة عبادة الله وفاعليتها ، إذ كيف يسمو الإنسان بالتعبد لإله ليس أسمى منه ولا أرفع شأنا ويمكنـه أن يصوره بيديه ؟ إذا كان الناس يصيرون عميانا عن قدرة الله غير المحدود وعـن جلالـه ومجده بحيث يصورونه على هيئة تمثال منحوت أو كأحد الوحوش أو الزواحف ، وإذا كـانوا ينسون صلتهم المقدسة إذ أنهم قد صوروا على صورة خالقهم بحيث يسـجدون أمـام أشـياء عاصية وعديمة الإحساس ، إذا فسيفتح الباب على سعته للإباحية الدنسة ، ولن يكون هنـالك رادع يكبح أميال القلب الشريرة وحينئذ ستكون للشيطان السيادة الكاملة .

وعند سفح جبل سيناء نفسه بدأ الشيطان بتنفيذ خططه لهدم شريعة الله ، وهكذا استأنف عمله الذي بدأ به في السماء ، ففي أثناء الأربعين يوما التي قضاها موسى مع الله في الجبل كان الشيطان يعمل على إثارة الشكوك والارتداد والعصيان . واذ كان الله يكتب شريعته ليسلمها لشعبه المختار ، رفض الإسرائيليون تقديم الولاء للرب وطلبوا آلهة من ذهب ! ولما نزل موسى من محضر مجد الرب الرهيب وبيده وصايا الشريعة التي كانوا قد تعهدوا بإطاعتها ، رآهم ، في تحدٍ سافر لتلك الوصايا ، بسجودهم أمام تمثال الذهب .

والشيطان إذ أراد أن يسوق إسرائيل إلى هذا التجديف والإهانة الجريئة كان قد رسم خطة لإهلاكهم معتقدا أنه بما أن أولئك الناس قد برهنوا على انحطاطهم الشنيع ، وعادوا لا يحسون بقيمة الامتيازات والبركات التي منحهم إياها الله ، ولا بالعهود المقدسة المتكررة التي قطعوها على أنفسهم بالتمسك بولائهم للرب ، فالله لا بد من أن يطرحهم بعيدا عنه ويقضي عليهم بالهلاك . وهكذا تستأصل ذرية إبراهيم ، نسل الموعد الذي كان سيحتفظ بمعرفة الله الحي ، والذي كان النسل الحقيقي (المسيح) سيأتى منه ليهزم الشيطان . لقد رسم ذلك العاصي الأكبر خطة لإهلاك إسرائيل وهكذا يعيق مقاصد الله ويعرقلها . ولكنه انهزم مرة أخرى . ومع أن بني إسرائيل كانوا خطاة فإنهم لم يهلكوا ، فبينما أهلك من وقفوا بعناد إلى جانب الشيطان فجأة ، فالشعب المتذلل التائب غفرت خطاياه برأفة ، وكان لا بد أن يظل تاريخ هذه الخطية شهادة دائمة على شر الوثنية وقصاصها وعدالة الله ورحمته وطول أناته .

كان سكان الكون جميعا شهودا للمنظر الذي حدث في سيناء . ففي تنفيذ كلتا السياستين رؤي الفرق بين حكم الله وحكم الشيطان . ومرة أخرى رأى سكان العوالم الأخرى الأبرار نتائج ارتداد الشيطان ونوع الحكومات التي كان ليقيمها في السماء لو أتيح له أن يملك .

إن الشيطان اذ جعل الناس يتعدون الوصية الثانية أراد أن يحط ويحقر تفكيرهم عن الكائن الإلهي ، وإذ جعلهم يغفلون الوصية الرابعة أراد أن ينسيهم الله بالكلية . إن حق الله في التوقير والعبادة فوق آلهة الوثنيين مبني على حقيقة كونه الخالق ، وأن كل الخلائق مدينة له بوجودها ، وهذا الحق نجده مدونا في الكتاب ، فالنبي إرميا يقول : «أَمَّا الرَّبُّ الإِلهُ فَحَقٌّ .

هُوَ إِلهٌ حَيٌّ وَمَلِكٌ أَبَدِيٌّ ... الآلِهَةُ الَّتِي لَمْ تَصْنَعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ تَبِيدُ مِنَ الأَرْضِ وَمِنْ تَحْتِ هذِهِ السَّمَاوَاتِ ... بَلُدَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ . خَزِيَ كُلُّ صَائِغٍ مِنَ التِّمْثَالِ ، لأَنَّ مَسْبُوكَهُ كَذِبٌ وَلاَ رُوحَ فِيهِ . هِيَ بَاطِلَةٌ صَنْعَةُ الأَضَالِيلِ . فِي وَقْتِ عِقَابِهَا تَبِيدُ . لَيْسَ كَهذِهِ نَصِيبُ يَعْقُوبَ ، لأَنَّهُ مُصَوِّرُ الْجَمِيعِ ، وَإِسْرَائِيلُ قَضِيبُ مِيرَاثِهِ . رَبُّ الْجُنُودِ اسْمُهُ» (إرميا ١٠ : ١٠-١٢،١٤-١٦) إن السبت كتذكار لقوة الله الخالقة يشير إليه على أنه صانع السماوات والأرض . لهذا فهو شاهد دائم على وجوده ومذكر بعظمته وحكمته ومحبته . فلو قدس النلس السبت دائما لما وجد في الأرض ملحد ولا عابد وثن .

إن شريعة السبت التي بدأت أصلا في عدن هي شريعة قديمة قدم الأرض نفسها . ولقد حفظها الآباء منذ بدء الخليقة فما بعد ذلك . وفي أثناء سني عبودية إسرائيل في مصر أجبرهم مسخروهم على انتهاك حرمة يوم السبت فضاعت معرفة قدسيته إلى حد كبر . وعندما أعلنت الشريعة في سيناء جاءت أولى كلمات الوصية الرابعة تقول : «اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ» (خروج ٢٠ : ٨) . مبينة أن شريعة السبت لم تبدأ هناك في سيناء بل هي تعود بنا إلى أصلها عند بدء الخليقة . إن الشيطان لكي يلاشي الله من عقول الناس كان يهدف إلى ملاشاة هذا التذكار . فلو أمكن أن ينسى الناس خالقهم لما بذلوا أي جهد في مقاومة قوة الشر ، وحينئذ يتمكن الشيطان من فريسته .

إن عداوة الشيطان لشريعة الله ألزمته أن يحارب كل وصية من الوصايا العشر . فهنالك صلة وثيقة بين ذلك المبدأ العظيم ، مبدأ المحبة والولاء لله أبي الجميع ، ومحبة البنين وطاعتهم لوالديهم . فاحتقار سلطة الآباء لا بد من أن يقود الإنسان سريعا إلى احتقار سلطان الله . ولهذا فقد حاول الشيطان أن يقلل من الاقتناع بوجوب حفظ الوصية الخامسة . فبين الشعوب الوثنية قلما يكترث الناس للمبدأ المفروض في هذه الوصية . وفي أمم كثيرة كان الآباء يتركون أو يقتلون حين كان كبر سنهم يحول بينهم وبين قدرتهم على إعالة أنفسهم . وفي العائلة كانت الأم تعامل بأقل احترام ، ومتى مات رجلها كان يطلب منها الخضوع لسلطة ابنها الأكبر . لقد فرض موسى على الأبناء إطاعة والديهم ، ولكن عندما ترك الإسرائيليون الرب أغفلوا الوصية الخامسة مع غيرها من الوصايا .

كان الشيطان «قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ» (يوحنا ٨ : ٤٤) . حالما صار له السلطان على الجنس البشري علاوة على كونه علّم الناس أن يبغضوا ويقتلوا بعضهم بعضا فقد جعلهم بكل جرأة يتحدون سلطان الله ، فجعل كسر الوصية السادسة جزءا من دينهم الذي إياه يعتنقون .

وبسبب سوء فهم الناس لصفات الله أدى الأمر بالوثنين إلى الاعتقاد أن تقديم الذبائح البشرية لازم لكي ترضى عنهم آلهتهم ، وهكذا تفشت أرهب ألوان القسوة في أشكال الوثنية المتعددة ، ومن بين هذه الفظائع كانت إجازتهم لأولادهم في النار أمام أوثانهم . ومتى جاز أحدهم في هذه المحنة دون أن يمسه أذى كان الناس يعتقدون أن ذبيحتهم قبلت ، والذي ينجو من الموت كان يعتبر أن الآلهة قد اختصته بحبها ورضاها ، وكانت تغدق عليه الهبات والعطايا ويعطى له مقام رفيع فيما بعد ، ومهما كانت جرائمه شنيعة لم يكن يلحقه أي قصاص . أما إذا احترق أحدهم وهو يجوز في النار فقد ختم على مصيره ، وكانوا يعتقدون أن غضب الآلهة لا يمكن أن تهدأ إلا بالقضاء على الضحية بالموت ، ولذلك كان يقدم ذبيحة . وفي أيام الارتداد العظيم كانت مثل هذه الرجاسات تتفشى بين الإسرائيليين أنفسهم إلى حد ما .

وقديما أيضا كان الناس يتعدون الوصية السابعة باسم الدين . فكانت أحط الطقوس الرجسة والخليعة جزءا عن العبادة الوثنية . وكانت الآلهة نفسها تصور وتمثل على أنها نجسة ، وكان عابدوها يطلقون العنان لأحط شهواتهم . وتفشت بين الناس رذائل غير طبيعية حتى اتصفت أعيادهم الدينية بالنجاسة العلنية الشاملة .

وفي وقت مبكر انتشرت خطية تعدد الزوجات ، وكانت ضمن الخطايا التي جلبت غضب الله على العالم قبل الطوفان ، ومع ذلك فقد انتشرت هذه الخطية بعد الطوفان مرة أخرى . إن مسعى الشيطان المدروس كان ليفسد سنّة الزواج ويضعف من التزاماته ويقلل من قدسيته ، إذ لم تكن هناك طريقة أضمن لتشويه صورة الله في قلب الإنسان وفتح الباب على سعته للرذيلة والشقاء .

ومنذ بدء الصراع العظيم كان غرض الشيطان أن يسيء تمثيل صفات الله ويثير التمرد على شريعته ، وبدا أن هذا العمل قد كلل بالنجاح ، إذ أن جماهير من الناس يصيخون بأسماعهم لمخادعات الشيطان ويقفون من الله موقف العداء ، ولكن في وسط عمل الشر نجد مقاصد الله تسير بثبات نحو الإنجاز ، وهو يعلن رحمته وعدله لكل الخلائق العاقلة . وبسبب

تجارب الشيطان تعدى كل الجنس البشري شريعة الله ، ولكن بذبيحة ابنه انفتحت الطريق التي بواسطتها يمكنهم الرجوع إلى الله . وبنعمة المسيح يستطيعون أن يطيعوا شريعة الآب . وهكذا ففي كل عصر ، ومن وسط الارتداد والعصيان يجمع الله لنفسه شعبا يكون أمينا له- الشعب «الَّذِي شَرِيعَتِي فِي قَلْبِهِ» (إشعياء٧ :٥١) .

لقد أضل الشيطان الملائكة بمخاتلاته ، وهكذا كان دائما يتقدم في عمله بين الناس وسيظل على سياسته هذه إلى النهاية ، فلو أنه أعلن على الملأ أنه يحارب الله وشريعته لكان الناس يتحذرون ، ولكنه يتنكر ويمزج الحق بالضلال . إن أخطر الأكاذيب هي تلك التي يخالطها الحق ، وبهذه الوسيلة يقبل الناس الضلالات التي تأسر النفوس وتدمرها ، وبنفس هذه الطريقة يحمل الشيطان العالم معه ، ولكن سيأتي اليوم الذي سيضع نهاية لانتصاره .

إن معاملات الله للعصيان ستكون نتيجتها كشف كل العمل الذي ظل يعمل طويلا في الخفاء تحت طي الكتمان ، وأن نتائج حكم الشيطان وثمار إغفال الوصايا الإلهية وطرحها جانبا ستكشف أمام أنظار كل الخلائق العاقلة ، وستزكى لشريعة الله تماما وسيرى بأن كل معاملات الله كان القصد منها خير شعبه الأبدي وخير كل العوالم التي خلقها . والشيطان نفسه سيعترف على مرأى ومسمع كل سكان الكون بعدالة حكم الله وعدالة شريعته .

ولن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي فيه يقوم الله ليبرر سلطانه المهان «لأَنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ لِيُعَاقِبَ إِثْمَ سُكَّانِ الأَرْضِ فِيهِمْ» (إشعياء ٢٦ : ٢١) «وَمَنْ يَحْتَمِلُ يَوْمَ مَجِيئِهِ ؟ وَمَنْ يَثْبُتُ عِنْدَ ظُهُورِهِ ؟» (ملاخي ٣ : ٢) إن بني إسرائيل بسبب إثمهم منعوا من الاقتراب إلى الجبل حين كان الله مزمعا أن ينزل عليه ليعلن شريعته لئلا يهلكوا بنار مجد حضوره ، فإذا كانت مظاهر قدرته هذه ميزت المكان المختار لإعلان شريعة الله فكم يكون كرسي قضائه رهيبا حين يجيء لينفذ أحكام تلك الشرائع المقدسة ! وكيف يستطيع أولئك الذين داسوا سلطانه أن يحتملوا مجده في ذلك اليوم العظيم يوم الجزاء الأخير ؟ إن مخاوف سيناء صورت للشعب مناظر يوم الدينونة ، وإن صوت البوق دعا إسرائيل لملاقاة الله ، وصوت رئيس الملائكة وبوق الله سيدعو الأحياء والأموات من كل الأرض للمثول أمام ديانهم . إن الآب والابن ، تحف بهما جماهير الملائكة ، كانا حاضرين على الجبل ، وفي يوم الدينونة العظيم سيأتي

المسيح «فِي مَجْدِ أَبِيهِ مَعَ مَلاَئِكَتِهِ» (متى ١٦ : ٢٧) حينئذٍ سيجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب .

وحين أعلن حضور الله على جبل سيناء كان مجد الرب كنار آكلة أمام عيون كل إسرائيل ، ولكن حين يجيء المسيح في مجده مع ملائكته القديسين فكل الأرض ستكون متقدة بنار حضوره الرهيب «يَأْتِي إِلهُنَا وَلاَ يَصْمُتُ . نَارٌ قُدَّامَهُ تَأْكُلُ ، وَحَوْلَهُ عَاصِفٌ جِدًّا . يَدْعُو السَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقُ ، وَالأَرْضَ إِلَى مُدَايَنَةِ شَعْبِهِ» (مزمور ٥٠ : ٣،٤) إن نهرا من نار سيخرج من أمامه وستذيب النار العناصر بحرارة ملتهبة ، وستحترق الأرض والمصنوعات التي فيها «عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ الرَّبِّ يَسُوعَ مِنَ السَّمَاءِ مَعَ مَلاَئِكَةِ قُوَّتِهِ ، فِي نَارِ لَهِيبٍ ، مُعْطِيًا نَقْمَةً لِلَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ اللهَ ، وَالَّذِينَ لاَ يُطِيعُونَ إِنْجِيلَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (٢تسالونيكي ١ : ٧،٨) .

منذ خلق الإنسان لم ير قط إعلان قدرة الله كما حدث حين أعلنت الشريعة من سيناء . «الأَرْضُ ارْتَعَدَتِ . السَّمَاوَاتُ أَيْضًا قَطَرَتْ أَمَامَ وَجْهِ اللهِ . سِينَا نَفْسُهُ مِنْ وَجْهِ اللهِ إِلهِ إِسْرَائِيلَ» (مزمور ٦٨ : ٨) وفي وسط أرهب انتفاضات الطبيعة سمع صوت الله من السحابة كصوت بوق ، وكان الجبل يرتجف من أسفله إلى قمته . أما جموع إسرائيل الذين كانوا شاحبي الوجوه ومرتعبين من هول الخوف فقد انطرحوا بوجوههم على الأرض . إن ذاك الذي صوته زعزع الأرض قد أعلن قائلا : «إِنِّي مَرَّةً أَيْضًا أُزَلْزِلُ لاَ الأَرْضَ فَقَطْ بَلِ السَّمَاءَ أَيْضًا» (عبرانيين ١٢ : ٢٦) والكتاب يقول : «الرَّبُّ مِنَ الْعَلاَءِ يُزَمْجِرُ ، وَمِنْ مَسْكَنِ قُدْسِهِ يُطْلِقُ صَوْتَهُ ، يَزْأَرُ زَئِيرًا عَلَى مَسْكَنِهِ» «فَتَرْجُفُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ» (إرميا ٢٥ : ٣٠؛ يوئيل ٣ : ١٦) وفي يوم ذلك المجيء العظيم تهرب السماء «كَدَرْجٍ مُلْتَفٍّ» (رؤيا ٦ : ١٤) وكل جبل وجزيرة سيتزحزحان من موضعهما «تَرَنَّحَتِ الأَرْضُ تَرَنُّحًا كَالسَّكْرَانِ ، وَتَدَلْدَلَتْ كَالْعِرْزَالِ ، وَثَقُلَ عَلَيْهَا ذَنْبُهَا ، فَسَقَطَتْ وَلاَ تَعُودُ تَقُومُ» (إشعياء ٢٤ : ٢٠) .

«لِذلِكَ تَرْتَخِي كُلُّ الأَيَادِي» ويتحول كل وجه «إِلَى صُفْرَةٍ» «وَيَذُوبُ كُلُّ قَلْبِ إِنْسَانٍ . فَيَرْتَاعُونَ . تَأْخُذُهُمْ أَوْجَاعٌ وَمَخَاضٌ» ، يقول الرب : «أُعَاقِبُ الْمَسْكُونَةَ عَلَى شَرِّهَا» «وَأُبَطِّلُ تَعَظُّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، وَأَضَعُ تَجَبُّرَ الْعُتَاةِ» (إشعياء ١٣ : ٧،٨،١١،١٣؛ إرميا ٣٠: ٦) .

وحين أتى موسى من حضرة الله في الجبل حيث أخذ لوحي الشهادة لم يستطع بنو إسرائيل

المذنبون احتمال النور المجيد الذي كان يشع من وجهه ، فكم بالحري لا يستطيع العصاة أن يشخصوا في وجه ابن الله حين يظهر في مجد أبيه يحف به كل الجند السماويين ليصنع دينونة على من قد تعدوا شريعته ورفضوا كفارته . فأولئك الذين استخفوا بشريعة الله وداسوا دم المسيح تحت أقدامهم «وَمُلُوكُ الأَرْضِ وَالْعُظَمَاءُ وَالأَغْنِيَاءُ وَالأُمَرَاءُ وَالأَقْوِيَاءُ ... أَخْفَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَغَايِرِ وَفِي صُخُورِ الْجِبَالِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ وَالصُّخُورِ : اسْقُطِي عَلَيْنَا وَأَخْفِينَا عَنْ وَجْهِ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَعَنْ غَضَبِ الْخَرُوفِ ، لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ يَوْمُ غَضَبِهِ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ ؟» (رؤيا ٦ : ١٥-١٧) «فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَطْرَحُ الإِنْسَانُ أَوْثَانَهُ الْفِضِّيَّةَ وَأَوْثَانَهُ الذَّهَبِيَّةَ ... لِلْجُرْذَانِ وَالْخَفَافِيشِ ، لِيَدْخُلَ فِي نُقَرِ الصُّخُورِ وَفِي شُقُوقِ الْمَعَاقِلِ ، مِنْ أَمَامِ هَيْبَةِ الرَّبِّ وَمِنْ بَهَاءِ عَظَمَتِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ لِيَرْعَبَ الأَرْضَ» (إشعياء ٢ : ٢٠،٢١) .

حينئذ سيرى أن تمرد الشيطان على الله قد انتهى بالهلاك له ولكل من اختاروا أن يكونوا رعايا له . لقد أبان للناس أن التعدي ينتج عنه خير جزيل ، ولكن «لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ» (رومية ٦ : ٢٣) «هُوَذَا يَأْتِي الْيَوْمُ الْمُتَّقِدُ كَالتَّنُّورِ ، وَكُلُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَكُلُّ فَاعِلِي الشَّرِّ يَكُونُونَ قَشًّا ، وَيُحْرِقُهُمُ الْيَوْمُ الآتِي ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ ، فَلاَ يُبْقِي لَهُمْ أَصْلاً وَلاَ فَرْعًا» (ملاخي ٤ : ١) إن الشيطان الذي هو أصل كل خطية ، وكل فاعلي الشر الذين هم أغصانه سيستأصلون كلية . وستتلاشى الخطية وكل ما نتج عنها من ويل ودمار . يقول المرنم : «أَهْلَكْتَ الشِّرِّيرَ . مَحَوْتَ اسْمَهُمْ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ . اَلْعَدُوُّ تَمَّ خَرَابُهُ إِلَى الأَبَدِ» (مزمور ٩ : ٥،٦) .

ولكن في وسط عاصفة غضب الله لن يكون هناك ما يدعو إلى خوف أولاد الله « ... الرَّبَّ مَلْجَأٌ لِشَعْبِهِ ، وَحِصْنٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» (يوئيل ٣ : ١٦) فاليوم الذي يجيء بالرعب والهلاك لمن قد تعدوا شريعة الله سيجيء للمطيعين «بِفَرَحٍ لاَ يُنْطَقُ بِهِ وَمَجِيدٍ» (١بطرس ١ : ٨) والرب يقول : «اجْمَعُوا إِلَيَّ أَتْقِيَائِي ، الْقَاطِعِينَ عَهْدِي عَلَى ذَبِيحَةٍ» . وَتُخْبِرُ السَّمَاوَاتُ بِعَدْلِهِ ، لأَنَّ اللهَ هُوَ الدَّيَّانُ» (مزمور ٥٠ : ٥،٦) .

«فَتَعُودُونَ وَتُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصِّدِّيقِ وَالشِّرِّيرِ ، بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَمَنْ لاَ يَعْبُدُهُ» (ملاخي ٣ : ١٨) «اسْمَعُوا لِي يَا عَارِفِي الْبِرِّ ، الشَّعْبَ الَّذِي شَرِيعَتِي فِي قَلْبِهِ» «هأَنَذَا قَدْ أَخَذْتُ مِنْ يَدِكِ كَأْسَ التَّرَنُّحِ ... لاَ تَعُودِينَ تَشْرَبِينَهَا فِي مَا بَعْدُ . أَنَا أَنَا هُوَ مُعَزِّيكُمْ» (إشعياء

٥١ : ٧،٢٢،١٢) . «فَإِنَّ الْجِبَالَ تَزُولُ ، وَالآكَامَ تَتَزَعْزَعُ ، أَمَّا إِحْسَانِي فَلاَ يَزُولُ عَنْكِ ، وَعَهْدُ سَلاَمِي لاَ يَتَزَعْزَعُ ، قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ» (إشعياء ٥٤ : ١٠) .

وسيكون من نتائج تدبير الخلاص العظيم أن العالم يستعيد رضى الله كاملا ، فيستعيد كل ما قد خسر بسبب الخطية . وليس الإنسان وحده بل الأرض أيضا ستعتق لتكون الموطن الأبدي للطائعين . لقد ظل الشيطان يحارب مدة ستة آلاف سنة ليملك على العالم . والآن قد تم غرض الله الأصلي من خلقه للعالم «أَمَّا قِدِّيسُو الْعَلِيِّ فَيَأْخُذُونَ الْمَمْلَكَةَ وَيَمْتَلِكُونَ الْمَمْلَكَةَ إِلَى الأَبَدِ وَإِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ» (دانيال ٧ : ١٨) .

«مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا اسْمُ الرَّبِّ مُسَبَّحٌ» (مزمور ١١٣ : ٣) ، «فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ الرَّبُّ وَحْدَهُ وَاسْمُهُ وَحْدَهُ» «وَيَكُونُ الرَّبُّ مَلِكًا عَلَى كُلِّ الأَرْضِ» (زكريا ١٤ : ٩) يقول الكتاب : «إِلَى الأَبَدِ يَا رَبُّ كَلِمَتُكَ مُثَبَّتَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ» «كُلُّ وَصَايَاهُ أَمِينَةٌ . ثَابِتَةٌ مَدَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ» (مزمور ١١٩ : ٨٩، ١١١ : ٧،٨) إن الوصايا المقدسة التي أبغضها الشيطان وحاول أن يلاشيها سيكرمها سكان المسكونة الأبرار . «لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الأَرْضَ تُخْرِجُ نَبَاتَهَا ، وَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ تُنْبِتُ مَزْرُوعَاتِهَا ، هكَذَا السَّيِّدُ الرَّبُّ يُنْبِتُ بِرًّا وَتَسْبِيحًا أَمَامَ كُلِّ الأُمَمِ» (إشعياء ٦١ : ١١) .

الفصل الثلاثون

الخيمة وخدماتها

أبلغ الرب أمره إلى موسى وهو معه في الجبل قائلا : «يَصْنَعُونَ لِي مَقْدِسًا لأَسْكُنَ فِي وَسَطِهِمْ» (خروج ٢٥ : ٨) وأعطيت له التعليمات الكاملة لبناء الخيمة ، ولكن بني إسرائيل بارتدادهم أضاعوا حقهم في امتلاك بركة حضور الله . وأصبح متعذرا ، لفترة من الزمن ، أن يقام بينهم مقدس الله ، ولكن لما عادت السماء للرضا عنهم تقدم ذلك القائد العظيم لينفذ أمر الله .

كان هنالك رجال مختارون حباهم الله خصيصا بالمهارة والحكمة لأجل بناء المسكن المقدس ، كما أن الله نفسه أعطى موسى مثالا للبناء ، وأعطاه التعليمات الخاصة بحجمه وشكله ، والمواد التي تستخدم في إقامته ، وكل الأثاث الذي سيحتويه . إن الأقداس المصنوعة بالأيدي كانت «أَشْبَاهِ الْحَقِيقِيَّةِ» «أَمْثِلَةَ الأَشْيَاءِ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ» (عبرانيين ٩ : ٢٣،٢٤) كانت مثالا مصغرا للمسكن السماوي ، حيث المسيح رئيس كهنتنا ، بعد ما قدم حياته ذبيحة كان يخدم لأجل الخاطئ . وقد قدم الله لموسى في الجبل منظرا للمقدس السماوي وأمره بأن يصنع كل شيء على حسب المثال الذي أعطي له . وسجل موسى جميع التعليمات بكل حرص ، وسلمها لقادة الشعب .

وقد لزم لبناء المقدس استعدادات عظيمة وكثيرة الكلفة . وكانت هنالك حاجة إلى كمية كبيرة من المواد النفيسة الغالية الثمن ، ومع ذلك فالرب لم يقبل سوى التقدمات الاختيارية ، فردد موسى على مسامع الشعب أمر الرب فقال : «مِنْ كُلِّ مَنْ يَحثُّهُ قَلْبُهُ تَأْخُذُونَ تَقْدِمَتِي» (خروج ٢٥ : ٢) فكان التكريس لله وروح التضحية من أول مستلزمات إعداد مسكن العلي .

استجاب كل الشعب لهذا النداء بنفس واحدة «ثُمَّ جَاءَ كُلُّ مَنْ أَنْهَضَهُ قَلْبُهُ ، وَكُلُّ مَنْ سَمَّحَتْهُ رُوحُهُ . جَاءُوا بِتَقْدِمَةِ الرَّبِّ لِعَمَلِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَلِكُلِّ خِدْمَتِهَا وَلِلثِّيَابِ الْمُقَدَّسَةِ .

وَجَاءَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ ، كُلُّ سَمُوحِ الْقَلْبِ ،جَاءَ بِخَزَائِمَ وَأَقْرَاطٍ وَخَوَاتِمَ وَقَلاَئِدَ ، كُلِّ مَتَاعٍ مِنَ الذَّهَبِ . وَكُلُّ مَنْ قَدَّمَ تَقْدِمَةَ ذَهَبٍ لِلرَّبِّ» (خروج ٣٥ : ٢١،٢٢) .

«وَكُلُّ مَنْ وُجِدَ عِنْدَهُ أَسْمَانْجُونِيٌّ وَأُرْجُوانٌ وَقِرْمِزٌ وَبُوصٌ وَشَعْرُ مِعْزىً وَجُلُودُ كِبَاشٍ مُحَمَّرَةٌ وَجُلُودُ تُخَسٍ ، جَاءَ بِهَا . كُلُّ مَنْ قَدَّمَ تَقْدِمَةَ فِضَّةٍ وَنُحَاسٍ جَاءَ بِتَقْدِمَةِ الرَّبِّ . وَكُلُّ مَنْ وُجِدَ عِنْدَهُ خَشَبُ سَنْطٍ لِصَنْعَةٍ مَا مِنَ الْعَمَلِ جَاءَ بِهِ .

«وَكُلُّ النِّسَاءِ الْحَكِيمَاتِ الْقَلْبِ غَزَلْنَ بِأَيْدِيهِنَّ وَجِئْنَ مِنَ الْغَزْلِ بِالأَسْمَانْجُونِيِّ وَالأُرْجُوَانِ وَالْقِرْمِزِ وَالْبُوصِ . وَكُلُّ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي أَنْهَضَتْهُنَّ قُلُوبُهُنَّ بِالْحِكْمَةِ غَزَلْنَ شَعْرَ الْمِعْزَى .

«وَالرُّؤَسَاءُ جَاءُوا بِحِجَارَةِ الْجَزْعِ وَحِجَارَةِ التَّرْصِيعِ لِلرِّدَاءِ وَالصُّدْرَةِ ، وَبِالطِّيبِ وَالزَّيْتِ لِلضَّوْءِ وَلِدُهْنِ الْمَسْحَةِ وَلِلْبَخُورِ الْعَطِرِ» (خروج ٣٥ : ٢٣-٢٨) .

وإذ كان العمل في بناء المقدس يتقدم ظل الشعب- الكبار والصغار ، الرجال والنساء والأولاد يحضرون تقدماتهم ، حتى وجد القائمون بالعمل أن عندهم ما يكفي ويزيد عن حاجة العمل ، فأمر موسى أن ينفذوا صوتا في المحلة قائلين : «لاَ يَصْنَعْ رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ عَمَلاً أَيْضاً لِتَقْدِمَةِ الْمَقْدِسِ . فَامْتَنَعَ الشَّعْبُ عَنِ الْجَلَبِ» (خروج ٣٦ : ٦) إن تذمرات الإسرائيليين وافتقاد الرب إياهم بالتأديبات بسبب خطاياهم ، كل ذلك سجل ليكون إنذارا للأجيال القادمة . ومن الناحية الأخرى فإن تكريسهم وغيرتهم وسخاءهم هي مثال يستحق أن نحتذيه . إن كل من يحبون عبادة الله ويقدرون بركة حضوره المقدس سيظهرون نفس روح التضحية في إعداد بيت فيه يلتقي بهم . وسيشتاقون إلى إحضار تقدمة للرب من أفضل ما يملكون . إن البيت الذي يبنى لله ينبغي ألا يظل مثقلا بالديون لأن ذلك يجلب على اسم الرب العار . فيجب أن يقدم المال الكافي لإتمام ذلك العمل ، ويقدم بكل سخاء حتى يمكن أن يقول الفعلة ما قاله أولئك الذين بنوا الخيمة : «لا تحضروا تقدمات أيضاً» .

لقد بنيت الخيمة بكيفية تجعل فك أجزائها وحملها مع الإسرائيليين في كل رحلاتهم أمرا ميسورا ، ولذلك كانت صغيرة بحيث لا يزيد طولها عن خمس وخمسين قدما طولا وثماني عشرة قدما عرضا وارتفاعا ، ومع ذلك فقد كانت مسكنا فخما . فالخشب المستعمل في البناء وأثاثاته كان من خشب السنط الذي كان أقل تعرضا للتلف من كل أنواع الخشب الأخرى التي كان يمكن الحصول عليها في سيناء . وكانت الجدران مكونة

من ألواح مستقيمة توضع في قواعد من فضة وتتصل بعضها ببعض بأعمدة وعوارض ، وكانت كلها مغشاة بذهب ، معطية للمسكن منظر الذهب المجسم ، وكان السقف مكونا من أربعة أنواع من الستائر ، وكانت أقصاها من الداخل مصنوعة من «بُوصٍ مَبْرُومٍ وَأَسْمَانْجُونِيٍّ وَأُرْجُوَانٍ وَقِرْمِزٍ . بِكَرُوبِيمَ صَنْعَةَ حَائِكٍ حَاذِقٍ» (خروج ٢٦ : ١) وكانت الثلاث الأخرى مصنوعة بالترتيب من شعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تخس ، وكانت كلها منظمة بحيث تعطي وقاية كاملة .

وقد جعل المسكن قسمين يفصل بينهما ستارة ثمينة وجميلة أو حجاب معلق من أعمدة مغشاة بذهب ، وكان هنالك حجاب آخر مشابه للأول على باب الحجرة الأولى ، وهذان كالغطاء الداخلي الذي تكون منه السقف كانت ألوانهما غاية في الروعة والجمال من أسمانجوني وأرجوان وقرمز مرتبة ترتيبا جميلا ، بينما نسج كروبيم من خيوط الذهب والفضة ليمثل الملائكة السماويين المتصلين بعمل المقدس السماوي والذين هم أرواح خادمة لشعب الله على الأرض .

وكانت تحيط بالخيمة المقدسة أرض فضاء تسمى الدار التي كانت محاطة بستائر أو سجف من بوص معلقة بأعمدة من نحاس ، وكان مدخل هذه الدار من الناحية الشرقية مدلاة عليه ستائر مصنوعة من مادة غالية القيمة مصنوعة صنعة جميلة ، وإن تكن أقل من ستائر المقدس . وحيث أن أستار الدار كانت نصف طول جدران الخيمة فقد كان البناء مكشوفا للشعب من الخارج . وفي الدار قريبا من مدخلها أقيم مذبح النحاس للمحرقات ، وعلى هذا المذبح كانت كل الذبائح المقدمة لله تحرق بالنار ، وكان الدم المكفر يرش على قرونه . وبين المذبح وباب الخيمة كانت المرحضة التي كانت هي أيضا من نحاس مصنوعة من المرايا التي قدمتها نساء إسرائيل طوعا واختيارا . وكان الكهنة كلما دخلوا الى القدس أو تقدموا إلى المذبح لتقديم محرقة للرب ، يغسلون أيديهم وأرجلهم في المرحضة .

وفي الحجرة الأولى أو القدس كانت مائدة خبز الوجوه والمنارة ومذبح البخور ، وكانت مائدة خبز الوجوه في الناحية الشمالية ، وكان لها إكليل للزينة وكانت مغشاة بذهب نقي . وكان الكهنة في كل سبت يضعون على هذه المائدة اثني عشر رغيفا في صفين ، ويرشون عليها اللبان . فمتى رفعت الخبزات ، وكانت تعتبر مقدسة ، كان يأكلها الكهنة . وإلى الجنوب

كانت المنارة ذات السبع الشعب والسبعة السرج . وكانت شعبها مزدانة بزهر بديع كالسوسن ، وكانت المنارة مصنوعة كلها من كتلة من الذهب الخالص ، وإذ لم تكن في الخيمة نوافذ فلم تطفأ المصابيح كلها مرة واحدة بل كانت تضيء نهارا وليلا . وأمام الحجاب الذي يفصل بين القدس وقدس الأقداس حيث محضر الله المباشر أقيم مذبح البخور الذهبي . وعلى هذا المذبح كان على الكاهن أن يحرق البخور صباحا ومساء . وكانت قرونه تلمس بدم ذبيحة الخطية ، ويرش عليه الدم في يوم الكفارة العظيم . والنار التي على هذا المذبح أوقدها الله بنفسه وعُزِّزت مقدسة ، وكان البخور العطر يرتفع ليعطّر حجرات الخيمة وخارجها لمسافة بعيدة ليلا ونهارا .

وخلف الحجاب الداخلي كان قدس الأقداس حيث كانت تتركز الخدمة الرمزية ، خدمة الكفارة والشفاعة ، والتي كانت حلقة الاتصال بين السماء والأرض . في هذه الحجرة كان التابوت ، وهو صندوق من خشب السنط مغشى من الداخل ومن الخارج بذهب ، وفي أعلاه إكليل من ذهب ، وقد صنع ليوضع فيه لوحا الحجر اللذان كتب الله عليهما بنفسه الوصايا العشر ، ولهذا فقد سمي تابوت عهد الله أو تابوت العهد ، حيث أن الوصايا العشر كانت هي أساس العهد بين الله وإسرائيل .

وكان غطاء التابوت يدعى (غطاء الرحمة) ، وهذا كان مصنوعا من قطعة واحدة من الذهب وكان عليه كروبان من الذهب وكل منهما واقف على أحد جانبي التابوت . وكان أحد جناحي الملاك منبسطا إلى أعلى ، أما الجناح الثاني فكان يغطي جسم الملاك (حزقيال ١ : ١١) علامة الوقار والوداعة . هذا وإن موقف الكروبين ووجه كل منهما تجاه الآخر وهما ينظران إلى أسفل بوقار إلى التابوت كان يرمز إلى الوقار الذي يكنه الجند السماويون لشريعة الله واهتمامهم بتدبر الفداء .

وفوق الغطاء كان «الشكينا» ، مظهر الحضور الإلهي ، ومن بين الكروبين كان الله يعلن مشيئته . وأحيانا كانت الرسائل الإلهية تبلغ إلى رئيس الكهنة بصوت يسمعه من السحابة . وفي أحيان أخرى كان ينزل نور على الملاك الواقف عن يمين التابوت للدلالة على رضى الله أو قبوله ، أو تستقر ظلمة على الملاك الواقف عن اليسار لإعلان استنكاره أو رفضه .

إن شريعة الله المحفوظة في التابوت كانت هي القانون العظيم للبر والعدل ، وقد حكمت تلك

الشريعة بالموت على كل متعد ، ولكن فوق الشريعة كان الغطاء الذي كان يعلن عليه حضور الله ، ولكنه كان يمنح الغفران للخاطئ التائب بفاعلية الكفارة . وهكذا ففي عمل المسيح لفدائنا المرموز إليه بخدمة المقدس «الرَّحْمَةُ وَالْحَقُّ الْتَقَيَا . الْبِرُّ وَالسَّلاَمُ تَلاَثَمَا» (مزمور ٨٥ : ١٠) .

ليس من لغة تقدر على وصف المجد الظاهر في المقدس– مجد الجدران المغشاة بذهب التي كانت تعكس نور المنارة الذهبية ، والألوان المتألقة ، ألوان السجف المطرزة المرسوم عليها صور الملائكة المتألقين ضياء ، والمائدة ومذبح البخور المتلألئ بالذهب ، وخلف الحجاب الثاني التابوت المقدس ، وعليه الكروبان السماويان ، ومن فوقه «الشكينا» المقدس وهو المظهر المرئي لحضور الرب ، وكل هذا انعكاس ضئيل لأمجاد هيكل الله في السماء الذي هو مركز عمل الله لفداء الإنسان .

وقد استغرق بناء الخيمة ما يقرب من نصف سنة . فلما كملت فحص موسى كل عمل البنائين مقارنا بينه وبين المثال الذي أظهر له في الجبل والتعليمات التي كان قد تلقاها من الله «وَإِذَا هُمْ قَدْ صَنَعُوهُ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. هكَذَا صَنَعُوا. فَبَارَكَهُمْ مُوسَى» (خروج ٣٩ : ٤٣) وباهتمام وشوق تجمعت جماهير إسرائيل لينظروا ذلك البناء المقدس ، وفيما كانوا يتأملون في ذلك المنظر برضى ووقار حام عمود السحاب فوق الخيمة ثم نزل وغطاها «وَمَلأَ بَهَاءُ الرَّبِّ الْمَسْكَنَ» (خروج ٤٠ : ٣٤) لقد أعلن جلال الله ، وحتى موسى نفسه لم يستطع دخول المسكن بعض الوقت . وبتأثر عميق رأى الشعب الدليل على أن الرب قد قبل عمل أيديهم . لم يهتفوا هتاف الفرح لأن هيبة مقدسة شملت الجميع ، ولكن فرح قلوبهم ظهر في عيونهم التي أغرورقت بدموع الفرح ، وجعلوا يتمتمون بصوت منخفض بعبارات الشكر الحار لكون الله قد تنازل بالسكنى في وسطهم .

وبناء على تعليمات إلهية أفرز سبط لاوي لخدمة المسكن . في العصور القديمة كان كل رجل كاهنا في بيته . وفي أيام إبراهيم كان الكهنوت كحق الإرث بالولادة معتبرا من حق الابن الأكبر ، أما الآن فبدلا من كل أبكار إسرائيل قبل الرب سبط لاوي لخدمة المسكن . بهذا الإكرام الفريد أعلن الله استحسانه لولائهم في تمسكهم بخدمته وفي تنفيذ أحكامه حين ارتد شعب إسرائيل عن الله وسجدوا لعجل الذهب . ومع ذلك فقد انحصر الكهنوت في عائلة هارون ، فلم يسمح لغير هارون وأولاده في الخدمة أمام الرب ، أما

باقي رجال السبط فقد وكل إليهم أمر حراسة الخيمة وأثاثها ، وكان عليهم أن يلازموا الكهنة في خدماتهم ، ولكن لم يكن مسموحا لهم بتقديم الذبائح ولا بإحراق البخور ولا رؤية الأقداس إلا بعد تغطيتها .

وطبقا لوظيفة الكهنة عينت لهم ملابس خاصة «وَاصْنَعْ ثِيَابًا مُقَدَّسَةً لِهَارُونَ أَخِيكَ لِلْمَجْدِ وَالْبَهَاءِ» (خروج ٢٨ : ٢) هذا ما أمر به الرب موسى . وقد كان ثوب الكاهن المادي من كتان أبيض وكان منسوجا قطعة واحدة ويصل تقريبا إلى قدميه وكان يربط عند الوسط بمنطقة من كتان أبيض مطرزة بأسمانجوني وأرجوان وأحمر . وهنالك عمامة من كتان أو إكليل كانت تكمل الزي الخارجي . لما كان موسى ماثلا أمام العليقة المشتعلة بالنار أمره الله بأن يخلع نعليه لأن الأرض التي كان واقفا عليها مقدسة ، وكذلك لم يكن يسمح للكهنة بدخول المسكن وأحذيتهم في أرجلهم . إن ذرات الغبار اللاصق بها كانت تنجس المكان المقدس . كان عليهم أن يتركوا أحذيتهم في الدار خارجا قبل دخول المسكن ، وأيضا لكي يغسلوا أيديهم وأرجلهم قبل قيامهم بالخدمة في الخيمة أو أمام مذبح المحرقة . وهكذا تعلموا دائما هذا الدرس وهو أن تطرح كل نجاسة عن كل من يقتربون من محضر الله .

أما ملابس رئيس الكهنة فكانت من الأقمشة الغالية الثمن وكانت تصنع صناعة جميلة تتناسب ومكانته السامية . فعلاوة على ثوب الكتان الذي كان يلبسه الكاهن العادي كان رئيس الكهنة يلبس رداء من أسمانجوني منسوجا قطعة واحدة أيضا . وحول جبة الرداء على أذيالها كانت توضع جلاجل من ذهب ورمان من أسمانجوني وأرجوان وقرمز . وفوق الجبة كان قميص الكاهن وهو ثوب قصير من الذهب والأسمانجوني والأرجوان والقرمز والأبيض . وكان يربط بزنار من الألوان نفسها مصنوعا صنعة جميلة . ولم يكن للقميص أكمام ، وعلى جزئي الكتفين المطرزين بالذهب وضع حجران من أحجار الجزع يحملان أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر .

وفوق القميص أو الأفود كانت توضع الصدرة وهي أقدس ما في الحلة الكهنوتية . وكانت هذه تصنع من المادة نفسها المصنوع منها الأفود . وهى مربعة الشكل طولها شبر كعرضها . وتعلق من الكتفين بخيط من أسمانجوني بحلقات من ذهب . وكانت الحاشية مكونة من مجموعة من الأحجار الكريمة وهي نفس الأحجار التي تتكون منها أساسات مدينة الله المقدسة

الاثنا عشر . وفي داخل الحاشية كان اثنا عشر حجرا مرصعة بالذهب مرتبة في أربعة صفوف ، وعلى مثال تلك التي على الكتفين كانت أسماء الأسباط منقوشة عليها . وقد أمر الرب قائلا : «فَيَحْمِلُ هَارُونُ أَسْمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي صُدْرَةِ الْقَضَاءِ عَلَى قَلْبِهِ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْقُدْسِ لِلتَّذْكَارِ أَمَامَ الرَّبِّ دَائِمًا» (خروج ٢٨ : ٢٩) وكذلك المسيح كاهننا الأعظم إذ يطلب باستحقاق دمه لدى الآب لأجل الخاطئ يحمل على قلبه اسم كل نفس تائبة مؤمنة . يقول المرنم : «أَمَّا أَنَا فَمِسْكِينٌ وَبَائِسٌ . الرَّبُّ يَهْتَمُّ بِي» (مزمور ٤٠ : ١٧) .

وعلى يمين الصدرة ويسارها كان حجران كريمان كبيران يتألقان بالنور الباهر ، وهما المعروفان باسم الأوريم والتميم . وبهما كانت تعرف إرادة الله بواسطة رئيس الكهنة . وحين كان يؤتى بقضية من القضايا أو أي مسألة من المسائل ليحكم فيها أمام الرب كانت ترى هالة من النور محيطة بالحجر الكريم الذي على اليمين وهذه كانت علامة رضى الله أو استحسانه ، بينما كانت سحابة تحجب نور الحجر الذي على اليسار علامة على رفض الله أو استنكاره .

أما إكليل رئيس الكهنة فكان يتكون من العمامة الكتانية البيضاء ، ويتصل بها بشريط من أسمانجوني صفيحة من ذهب قد نقشت عليها هذه العبارة «قُدْسٌ لِلرَّبِّ» وكل ما كان يتعلق بلبس الكهنة أو سلوكهم كان الغرض منه أن يطبع على قلب الرائي الإحساس بقداسة الله وقداسة عبادته ، والطهارة الواجبة على من كانوا يدنون من حضرته .

وعلاوة على المسكن فإن الكهنة كانوا «يَخْدِمُونَ شِبْهَ السَّمَاوِيَّاتِ» (عبرانيين ٨ : ٥) وهذا كان أمرا غاية في الأهمية . والرب قدم بواسطة موسى تعليمات واضحة وقاطعة بخصوص كل جزء من أجزاء هذه الخدمة الرمزية . وكانت خدمة المسكن تتكون من نوعين ، خدمة يومية وأخرى سنوية . فالخدمة اليومية كانت تقام أمام مذبح المحرقة في دار الخيمة وفي القدس ، أما الخدمة السنوية فكانت تقام في قدس الأقداس .

ولم يكن يسمح لعين بشرية ، ما عدا رئيس الكهنة ، أن تتطلع إلى ما في داخل الحجرة الداخلية في المسكن . وكان رئيس الكهنة يدخل إلى هناك مرة واحدة في السنة وذلك بعد الاستعداد المهيب بكل عناية وحرص . فكان يدخل أمام الله وهو مرتعد ، وكان الشعب ينتظرون عودته في صمت وقور ، ويرفعون قلوبهم في صلوات حارة إلى الله في طلب البركة . ورئيس الكهنة يكفر عن إسرائيل أمام الغطاء حيث كان الله يجتمع به في سحابة

المجد . وكان بقاؤه في ذلك المكان أكثر من المعتاد يملأ الشعب خوفا خشية أن تكون خطاياهم أو خطاياه قد جعلت مجد الرب يقتله أو يصعقه .

وكانت الخدمات اليومية تنحصر في محرقات الصباح ومحرقات المساء ، وإحراق البخور العطر على مذبح الذهب ، والذبائح الخاصة التي كان الأفراد يقدمونها عن خطاياهم . كما كانت هنالك تقدمات السبوت والأهلة والأعياد الخاصة .

وفي كل صباح ومساء كان يحرق على المذبح خروف حولي ، ومعه قربان تقدمته المفروضة ، وكان ذلك رمزا إلى تكريس الأمة اليومي للرب واعتمادهم المستمر على دم المسيح المكفر . وقد أعلن الرب بكل صراحة أن كل قربان يقدم لخدمة المسكن ينبغي أن يكون صحيحا (خروج ١٢ : ٥) . وكان على الكهنة أن يفحصوا كل الحيوانات التي يؤتى بها لتكون ذبائح ، وكان عليهم أن يرفضوا كل ذبيحة يكتشف فيها أي عيب . إنما القربان الذي يكون بلا عيب دون سواه هو الذي كان يعتبر رمزا للطهارة الكاملة لذاك الذي كان مزمعا أن يقدم نفسه مثل «حَمَل بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ» (١بطرس ١ : ١٩) إن الرسول بولس يشير إلى هذه الذبائح كصورة لما ينبغي أن يصير اليه أتباع المسيح ، فيقول : «أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ» (رومية ١٢ : ١) علينا أن نكرس أنفسنا لخدمة الله ، وعلينا بالاجتهاد في أن نجعل ذبيحتنا مقبولة على قدر الإمكان . إن الله لا يسر بأقل من أفضل ما يمكننا تقديمه ، فأولئك الذين يحبونه من كل القلب سيتوقون إلى إعطائه أفضل خدمة في الحياة ، وسيجتهدون على الدوام في جعل كل قوى كيانهم على وفاق وانسجام مع الشرائع التي تجعلهم أقدر على عمل مشيئته .

وفي تقديم البخور كان الكاهن أقرب إلى محضر الله منه في أي خدمة يومية أخرى . وحيث أن الحجاب الداخلي للمسكن لم يرتفع إلى أعلى البناء ، فإن مجد الله الذي كان يرى فوق الغطاء كان يرى جزئيا من الحجرة الأولى . فحين كان الكاهن يقدم البخور كان ينظر إلى ناحية التابوت وحين كانت سحابة البخور ترتفع كان مجد الله يستقر على الغطاء ويملأ قدس الأقداس ، وفي غالب الأحيان كان يملأ المسكن إلى حد يضطر الكاهن إلى أن يتقهقر إلى باب الخيمة . وكما في الخدمة الرمزية كان الكاهن ينظر بالإيمان إلى

غطاء الرحمة الذي لم يكن يستطيع أن يراه ، هكـذا علـى شـعب الله الآن أن يتجـهوا بصلواتهم إلى المسيح رئيس كهنتهم الأعظم الذي وإن لم ير بالعين البشرية فهو يتشـفع فيهم في المقدس السماوي .

إن البخور الصاعد مع صلوات إسرائيل يرمز إلى استحقاقات المسيح وشفاعته ، وإلى بره الكامل الذي يحسب لشعبه بالإيمان والذي يستطيع وحده أن يجعل عبـادة الخلائـق الخاطئـة مقبولة أمام الله . وأمام حجاب قدس الأقداس كان مذبح الشفاعة الدائمة أمام القـدس ، مذبـح الكفارة الدائمة ، إذ كان يمكن الاقتراب إلى الله بواسطة الدم والبخور ، وهما رمزان يشـيران إلى الوسيط العظيم الذي يستطيع الخطاة عن طريقه أن يقتربوا إلى الرب ، والذي بواسـطته دون سواه يمكن أن تمنح الرحمة والخلاص للنفس التائبة المؤمنة .

وإذ كان الكهنة يدخلون القدس صباحا ومساء في وقت البخور كانت الذبيحة اليومية معـدة لتقدم على المذبح في الدار الخارجية . وكان هذا وقت اهتمام شـديد مـن جـانب العـابدين المجتمعين في الخيمة . فقبل الدخول إلى محضر الله بواسطة خدمة الكاهن كـان عليـهم أن يشغلوا أنفسهم في فحص قلوبهم بكل دقة والاعتراف بخطاياهم ، وكانوا يشتركون في صـلاة صامتة ووجوههم متجهة صوب القدس ، فكانت صلواتهم تصعد مع سحابة البخـور ، بينمـا يتمسك إيمانهم باستحقاقات المخلص الموعود به والذي كانت الذبيحة الكفارية ترمز إليـه . إن الساعات المخصصة لذبيحة الصباح وذبيحة المساء كانت تعتبر مقدسة ، واعتبرت مخصصـة للعبادة من كل الأمة اليهودية . فلما تشتت الشعب بعد ذلك وسبوا إلى بلدان بعيدة ففي مثل تلك الساعة المحددة ظلوا يتجهون إلى أورشليم ويقدمون تضرعاتهم إلى الله ، إله إسرائيل . ويمكن أن يكون هذا مثالا صالحا للمسيحيين لممارسة الصلاة الصباحية والمسائية . ففي حيـن أن الله يدين مجرد ممارسة الطقوس الخالية من روح العبادة فإنه ينظر باغتباط عظيم إلى أولئك الذين يحبونه ويجثون أمامه صباحا ومساء في طلب غفران خطايـاهم التـي ارتكبوهـا والتمـاس البركات التي يحتاجونها .

كان خبز الوجوه يحفظ دائما أمام الرب كتقدمة دائمة ، وبذلك كان يعتبر جزءا مـن الذبيحة اليومية ، وكان يسمى «خُبْزَ الْوُجُوهِ» لأنه كان موضوعا أمام وجه الرب دائمـا ، (خروج ٢٥: ٣٠) وقد كان اعترافا من الإنسان باعتماده على الله لأجل الطعام الزمنـي

والروحي ، وأنه يمكن الحصول عليه عن طريق وساطة المسيح دون سواها . لقد كان الله يطعم إسرائيل في البرية خبزا من السماء ، وكانوا لا يزالون معتمدين على سخائه لأجل الطعام الزمني والبركات الروحية . كان المن وخبز الوجوه كلاهما يشيران إلى المسيح ، الخبز الحي الذي هو أمام وجه الله دائما لأجلنا ، وهو القائل : «أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» (يوحنا ٦ : ٤٨–٥١) وكان اللبان يوضع على أرغفة الخبز ، وحين كان يرفع الخبز في كل سبت ليوضع في مكانه خبز جديد كان اللبان يحرق على المذبح تذكارا أمام الله .

إن أهم أجزاء الخدمة اليومية كان هو الخدمة التي تقدم لأجل الأفراد . لقد كان الخاطئ التائب يقرب ذبيحته أمام باب خيمة الاجتماع ، وإذ يضع يده على رأس الذبيحة كان يعترف بخطاياه ، وهكذا تنتقل تعدياته بكيفية رمزية منه إلى الذبيحة البريئة وكان يذبح الذبيحة بيده ، والكاهن يحمل دم الذبيحة إلى القدس ويرشه أمام الحجاب الذي كان خلفه التابوت المحتوي على الشريعة التي قد تعداها الخاطئ . وبموجب هذا الطقس كانت الخطية تنتقل بكيفية رمزية إلى المقدس . وفي بعض الحالات لم يكن الدم يؤخذ إلى القدس ، بل كان على الكاهن أن يأكل لحم الذبيحة كما أمر الرب ابني هارون قائلا : «قَدْ أَعْطَاكُمَا إِيَّاهَا لِتَحْمِلاَ إِثْمَ الْجَمَاعَةِ» (لاويين ١٠ : ١٧) وكلا الطقسين كانا يرمزان إلى نقل الخطية عن الخاطئ التائب إلى المقدس .

هذا هو نوع العمل الذي كان يعمل يوما فيوما على مدار السنة . فإذ كانت خطايا إسرائيل تنتقل بهذه الكيفية إلى المقدس فقد صار المسكنان نجسين ، ولهذا كان الأمر يستلزم إجراء عمل خاص لإزالة تلك الخطايا ، ولذلك أمر الله بإجراء تكفير عن المسكنين ، كما للمذبح لكي «يُطَهِّرُهُ وَيُقَدِّسُهُ مِنْ نَجَاسَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (لاويين ١٦ : ١٩) .

وكان الكاهن (رئيس الكهنة) يدخل إلى قدس الأقداس مرة واحدة في السنة في يوم الكفارة العظيم لتطهير المسكن . والعمل الذي يجرى هناك كان يكمل خدمات السنة .

وفي يوم الكفارة كان يؤتى بتيسين من المعزى إلى باب خيمة الاجتماع وتلقى عليهما قرعتان «قُرْعَةً لِلرَّبِّ وَقُرْعَةً لِعَزَازِيلَ» فالتيس الذي تقع عليه القرعة الأولى كان يذبح ذبيحة خطية لأجل الشعب ، وكان الكاهن يأتي بدمه إلى داخل الحجاب ويرش من دمه

على الغطاء «فَيُكَفِّرُ عَنِ الْقُدْسِ مِنْ نَجَاسَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِنْ سَيِّئَاتِهِمْ مَعَ كُلِّ خَطَايَـاهُمْ . وَهكَذَا يَفْعَلُ لِخَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ الْقَائِمَةِ بَيْنَهُمْ فِي وَسَطِ نَجَاسَاتِهِمْ» (لاويين ١٦ : ١٦) .

«وَيَضَعُ هَارُونُ يَدَيْهِ عَلَى رَأْسِ التَّيْسِ الْحَيِّ وَيُقِرُّ عَلَيْهِ بِكُلِّ ذُنُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكُلِّ سَيِّئَاتِهِمْ مَعَ كُلِّ خَطَايَاهُمْ ، وَيَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِ التَّيْسِ ، وَيُرْسِلُهُ بِيَدِ مَنْ يُلاَقِيهِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ ، لِيَحْمِلَ التَّيْسُ عَلَيْهِ كُلَّ ذُنُوبِهِمْ إِلَى أَرْضٍ مُقْفِرَةٍ» (لاويين ١٦ : ٢١،٢٢) وما كان الشعب ليعتبروا أنهم قد تحرروا من أثقال الخطية حتى يطلق التيس بعيدا عنهم . وقد كان على كل إنسان أن يتذلل في أثناء إجراء عمل الكفارة . كانوا يكفون عن ممارسة أعمالهم وكان على الجماعة كلها أن تقضي ذلك اليوم في تذلل مهيب أمام الله بالصلاة والصوم وفحص القلب فحصا عميقا .

وكان الشعب يتعلمون حقائق هامة عن الكفارة بواسطة هذه الخدمة السنوية . ففي ذبائح الخطية التي كانت تقدم أثناء السنة كان يقبل بديل عن الخاطئ ، إلا أن دم الذبيحة لم يكن يكفر تكفيرا شاملا عن الخطية ، ولكنه فقط أعد وسيلة بواسطتها تنقل الخطية إلى المقدس . وبتقديم الدم يعترف الخاطئ بسلطان الشريعة ويعترف بجرمه ومعصيته ويعبر عن إيمانه بذاك الذي سيرفع خطية العالم ، إلا أنه لم يتحرر تماما من دينونة الناموس . ففي يوم الكفارة إذ يقدم رئيس الكهنة ذبيحة عن الجماعة كان يدخل إلى قدس الأقداس بالدم ويرشه على الغطاء فوق لوحي الشريعة . وهكذا كانت تستكفي مطاليب الشريعة التي تطلب موت الخاطئ . وحينئذٍ كان الكاهن ، بوصفه وسيطا ، يحمل الخطايا على نفسه ، وإذ يترك الخيمة كان يحمل معه عبء ذنب إسرائيل . وعند باب الخيمة كان يضع يديه على رأس تيس عزازيل ، وكان يقر عليه «بِكُلِّ ذُنُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكُلِّ سَيِّئَاتِهِمْ مَعَ كُلِّ خَطَايَاهُمْ ، وَيَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِ التَّيْسِ» وبعدما يرسل التيس الحامل هذه الخطايا إلى مكان بعيد ، كانت تلك الخطايا تعتبر منفصلة معه إلى الأبد عن الشعب ، هكذا كانت هذه الخدمة تقام «شِبْهَ السَّمَاوِيَّاتِ وَظِلَّهَا» (عبرانيين ٨ : ٥) .

وكما ذكرنا سابقا نقول الآن إن موسى هو الذي بنى المقدس الأول على حسب المثال الذي أظهر له في الجبل . إنه «رَمْزٌ لِلْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، الَّذِي فِيهِ تُقَدَّمُ قَرَابِينُ وَذَبَائِحُ» ، وكلا المسكنين المقدسين كانا «أَمْثِلَةَ الأَشْيَاءِ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ» . والمسيح رئيس كهنتنا العظيم هو خادم «لِلأَقْدَاسِ وَالْمَسْكَنِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي نَصَبَهُ الرَّبُّ لاَ إِنْسَانٌ» (عبرانيين ٩ : ٩،٢٣؛

٨ : ٢) وقد أعطي الرسول يوحنا أن يرى هيكل الله في السماء في رؤيا ، فرأى «أَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ مُتَّقِدَةٌ» ، كما رأى ملاكا «مَعَهُ مِبْخَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَأُعْطِيَ بَخُورًا كَثِيرًا لِكَيْ يُقَدِّمَهُ مَعَ صَلَوَاتِ الْقِدِّيسِينَ جَمِيعِهِمْ عَلَى مَذْبَحِ الذَّهَبِ الَّذِي أَمَامَ الْعَرْشِ» (رؤيا ٤ : ٥، ٨ : ٣) فقد سمح لهذا النبي أن يرى هنا المسكن الأول في السماء فرأى «سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ» و«مَذْبَحِ الذَّهَبِ» مرموزا إليهما بالمنارة ومذبح البخور في المسكن الأرضي . ثم أيضا «انْفَتَحَ هَيْكَلُ اللهِ» فأطل على ما في داخل الحجاب الداخلي في قدس الأقداس فرأى «تَابُوتُ عَهْدِهِ» (رؤيا ١١ : ١٩) مرموزا إليه بالتابوت المقدس الذي صنعه موسى لتوضع فيه شريعة الله .

وقد صنع موسى المقدس الأرضي «عَلَى الْمِثَالِ الَّذِي كَانَ قَدْ رَآهُ» . وبولس يعلن أن «الْمَسْكَنَ أَيْضًا وَجَمِيعَ آنِيَةِ الْخِدْمَةِ» عندما أكملت كانت «أَمْثِلَةَ الأَشْيَاءِ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ» (أعمال ٧ : ٤٤؛ عبرانيين ٩ : ٢١،٢٣) ويوحنا يقول إنه قد رأى المقدس في السماء . فذلك المقدس الذي يخدم فيه المسيح لأجلنا هو الأصل العظيم الذي بناه موسى صورة عنه .

إن الهيكل السماوي الذي هو مسكن ملك الملوك حيث «أُلُوفُ أُلُوفٍ تَخْدِمُهُ ، وَرَبَوَاتُ رِبَوَاتٍ وُقُوفٌ قُدَّامَهُ» (دانيال ٧ : ١٠) ذلك الهيكل المملوء بمجد العرش الأبدي ، حيث السرافيم الذين هم حراسه اللامعون يغطون وجوههم في وقار– لا يمكن أن أي بناء أرضي يشبهه في اتساعه ومجده . إلا أن الحقائق الهامة الخاصة بالمقدس السماوي والعمل العظيم الذي يعمل فيه لأجل فداء الإنسان ، كان ينبغي للناس أن يتعلموها بواسطة المقدس الأرضي وخدماته .

إن مخلصنا بعد صعوده كان عليه أن يبدأ عمله كرئيس كهنتنا . وبولس الرسول يقول : «لأَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَدْخُلْ إِلَى أَقْدَاسٍ مَصْنُوعَةٍ بِيَدٍ أَشْبَاهِ الْحَقِيقِيَّةِ ، بَلْ إِلَى السَّمَاءِ عَيْنِهَا ، لِيَظْهَرَ الآنَ أَمَامَ وَجْهِ اللهِ لأَجْلِنَا» (عبرانيين ٩ : ٢٤) وكما أن خدمة المسيح كانت تشتمل على قسمين عظيمين ، وكل منهما يستغرق إنجازه فترة من الزمن ، وله مكان خاص في المقدس السماوي ، كذلك كانت الخدمة الرمزية تنحصر في قسمين– الخدمة اليومية والخدمة السنوية ، وقد خصص لكل منهما مكان في الخيمة .

356,357

وكما أن المسيح عند صعوده قد ظهر قدام وجه الله ليشفع في التائبين المؤمنين باستحقاق دمه ، كذلك كان الكاهن في الخدمة اليومية يرش دم الذبيحة في القدس لأجل الخاطئ .

إن دم المسيح بينما كان يحرر الخاطئ التائب من دينونة الناموس لم يكن ليمحو الخطية ، بل هي تبقى مسجلة في المقدس حتى الكفارة النهائية ، وكذلك الحال في الرمز ، فدم ذبيحة الخطية رفع الخطية عن التائب ، ولكنها بقيت في المقدس إلى يوم الكفارة .

في يوم المجازاة الأخير العظيم سيدان «الأَمْوَاتُ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ» (رؤيا ٢٠ : ١٢) وحينئذ فباستحقاق دم المسيح المكفر ستمحى كل خطايا التائبين حقا من سجلات السماء ، وبذلك سيطهر المسكن من كل أثر للخطية . وفي الرمز ، كان عمل الكفارة العظيم هذا أو محو الخطايا مرموزا إليه بخدمات يوم الكفارة ، أي تطهير المقدس الأرضى الذي كان يتم بأن تزال منه ، باستحقاق دم ذبيحة الخطية ، الخطايا التي قد تنجس بها .

وكما أن خطايا التائبين حقا ستمحى في الكفارة النهائية من سجلات السماء ولن تعود تذكر أو تخطر على بال ، كذلك في الرمز كانت تحمل بعيدا في البرية وتنفصل إلى الأبد عن الجماعة .

وحيث أن الشيطان هو مبتدع الخطية والمحرض على كل الخطايا التي سببت موت ابن الله ، فالعدل يقتضي أن يكابد الشيطان العقاب النهائي . وأن عمل المسيح لأجل فداء الناس وتطهير المسكونة من الخطية سيختم بإزالة الخطية من المسكن السماوي ووضع هذه الخطايا على الشيطان الذي سيتحمل العقاب النهائي ، كذلك في الخدمة الرمزية . فالخدمات التي كانت تقام على مدار السنة اختتمت بتطهير القدس والاعتراف بالخطية على رأس تيس عزازيل .

وهكذا ففي خدمة الخيمة ، والهيكل الذي حل في مكانها بعد ذلك ، كان الشعب كل يوم يتعلم الحقائق العظيمة المتعلقة بموت المسيح وخدمته ، وكانت أفكارهم تتجه ، مرة في كل سنة ، إلى الأمام إلى حوادث خاتمة الحرب العظمى بين المسيح والشيطان ، وتطهير المسكونة نهائيا من الخطية والخطاة .

الفصل الحادي والثلاثون

خطية ناداب وأبيهو

بعد تدشين الخيمة كُرِّس الكهنة لوظيفتهم المقدسة ، واستغرقت هذه الخدمات سبعة أيـــام ، امتاز كل منها بطقوس خاصة . وفي اليوم الثامن دخلوا على خدمتهم ، فقدم هارون الذبـــائح التي طلبها الله ، وكان ابناه يساعدانه في ذلك ، ثم رفع يديه وبارك الشعب ، وقد تم كل شـيء كما أمر الله ، فقبل الله الذبيحة وأعلن مجده بكيفية عجيبة ، إذ نزلت نار مـن قبـل الـرب . وأكلت الذبيحة التي كانت على المذبح ، ونظر الشعب إلى مظهر قدرة الله المجيبة هذا بخـوف واهتمام عظيم ، ورأوا في ذلك برهانا على مجد الله ورضاه ، فرفعـوا جميعـهم أصواتـهم وهتفوا هتاف الحمد والتمجيد ، وسقطوا على وجوههم كمن هم في محضر الرب المباشر .

ولكن بعد ذلك حلت كارثة رهيبة مفاجئة لعائلة رئيس الكهنة ، ففي ساعة العبادة ، حيـن كانت صلوات الشعب وتسبيحاتهم صاعدة إلى الله أخذ اثنان من أبنـاء هـارون كـل منـهما مجمرته وأحرق عليها بخورا عطرا ليرتفع رائحة طيبة أمام الله ، إلا أنهما تعديا أمر الـرب بتقديمهما «نَارًا غَرِيبَةً» . فلأجل إحراق البخور أخذا نارا عادية بدلا من النار المقدسة التـي كان الله نفسه قد أوقدها والتي كان قد أمر باستخدامها لأجل هذه الغاية فبسبب هـذه الخطيـة خرجت نار من عند الرب وأكلتهما أمام عيون الشعب .

كان مركز ناداب وأبيهو أعلى مركز في إسرائيل بعد موسى وهارون ، ولقد أكرمهما الله بنوع خاص ، إذ سمح لهما مع الشيوخ السبعين برؤية مجد الله في الجبـل ، ولكـن معصيتهما لم يعف عنها لأجل ذلك ولا استخف بها ، فكل هذا زاد في شناعة خطيتـهما ، إذ كون الناس قد حصلوا على نور عظيم ، وكغيرهم من رؤساء إسرائيل صعـدوا إلـى الجبل ، وكان لهم امتياز في الشركة مع الله والسكنى في نور مجده لـم يكـن لـهم أن يخدعوا أنفسهم بالفكر أنه يمكنهم بعد ذلك أن يخطئوا ويعفوا مع ذلك عن العقاب ، وأنـهم

لكونهم قد حصلوا على هذه الكرامة لن يدقق الله معهم فيعاقب إثمهم . تلك خدعة قاتلة . إن النور العظيم والامتيازات العظيمة الممنوحة للإنسان ينبغي أن تقابل بتجاوب من الفضيلة والقداسة يتناسب مع النور المعطى له ، فالله لا يقبل شيئا أقل من هذا . إن البركات أو الامتيازات العظيمة ينبغي ألا تخدر الإنسان ليطمئن ويكون عديم الاحتراس أو الحذر . ينبغي ألا يبيح له ذلك ارتكاب الخطية ، ولا يظنن من ينال البركات أن الله لن يكون مدققا معه . إن كل الميزات الممنوحة من الله هي وسائله لإدخال الحماسة في النفس ، وبث الحرارة في الجهود ، والنشاط في تنفيذ إرادته المقدسة .

إن ناداب وأبيهو لم يتدربا في شبابهما على فضيلة النفس . إن ميل أبيهما إلى الاستسلام وعدم ثباته في الوقوف إلى جانب الحق ، كل ذلك جعله يهمل تربية ولديه وتدريبهما ، إذ سمح لهما باتباع أميالهما . إن عادات التسامح والانغماس في الملذات التي قد أبقاها ناداب وأبيهو ونمياها طويلا في قلبيهما تحكمت فيهما بحيث لم يستطع وقار أقدس وظيفة أن يضعف من سيطرتها . إنهما لم يتعلما احترام سلطة أبيهما ولم يتحققا من ضرورة الطاعة الكاملة لمطاليب الله . إن تدليل هارون الخاطئ لابنيه جعلهما يتعرضان لدينونة الله .

لقد قصد الله أن يعلم الشعب وجوب الاقتراب منه بوقار وخوف ، وبالكيفية التي قد عينها . إنه لا يمكنه أن يقبل طاعة ناقصة مبتورة . لم يكن يكفي أنه في موسم العبادة المقدس هذا يعمل كل شي تقريبا بموجب تعليمات الرب . لقد نطق الله باللعنة على من يحيدون عن وصاياه ولا يفرقون بين الأشياء المقدسة والأشياء المادية . إنه يعلن على لسان النبي قائلا : «وَيْلٌ لِلْقَائِلِينَ لِلشَّرِّ خَيْرًا وَلِلْخَيْرِ شَرًّا ، الْجَاعِلِينَ الظَّلاَمَ نُورًا وَالنُّورَ ظَلاَمًا ... وَيْلٌ لِلْحُكَمَاءِ فِي أَعْيُنِ أَنْفُسِهِمْ ، وَالْفُهَمَاءِ عِنْدَ ذَوَاتِهِمْ ... الَّذِينَ يُبَرِّرُونَ الشِّرِّيرَ مِنْ أَجْلِ الرُّشْوَةِ ، وَأَمَّا حَقُّ الصِّدِّيقِينَ فَيَنْزِعُونَهُ مِنْهُمْ ... أَنَّهُمْ رَذَلُوا شَرِيعَةَ رَبِّ الْجُنُودِ ، وَاسْتَهَانُوا بِكَلاَمِ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ» (إشعياء ٥ : ٢٠-٢٤) لا يخدعن أحد نفسه بكونه يظن أن بعضا من وصايا الله غير جوهرية أو أنه يقبل بديلا عما قد أمر به . يقول النبي إرميا «مَنْ ذَا الَّذِي يَقُولُ فَيَكُونَ وَالرَّبُّ لَمْ يَأْمُرْ ؟» (مراثي ٣ : ٣٧) والله لم يقدم في كلامه أمرا يمكن أن يعصاه الناس أو يطيعوه حسب مشئيتهم ، دون أن يتحملوا العواقب . فإذا اختار الناس طريقا آخر غير الطاعة الكاملة الناجزة فسيجدون أن

«عَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ» (أمثال ١٤ : ١٢) .

«وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ وَأَلِعَازَارَ وَإِيثَامَارَ ابْنَيْهِ : لاَ تَكْشِفُوا رُؤُوسَكُمْ وَلاَ تَشُقُّوا ثِيَابَكُمْ لِئَلاَّ تَمُوتُوا ... لأَنَّ دُهْنَ مَسْحَةِ الرَّبِّ عَلَيْكُمْ» (لاويين ١٠ : ٦،٧) وقد ذكر القائد العظيم أخاه بقول الرب : «فِي الْقَرِيبِينَ مِنِّي أَتَقَدَّسُ ، وَأَمَامَ جَمِيعِ الشَّعْبِ أَتَمَجَّدُ» (لاويين ١٠ : ٣) . فصمت هارون . إن موت ابنيه اللذين قُطعا بدون إنذار في مثل هذه الخطية الرهيبة- تلك الخطية التي رأى الآن أنها كانت نتيجة إهماله في القيام بواجبه- قد عصر قلب ذلك الأب بالحزن والانسحاق ، إلا أنه لم يعبر عن مشاعره إذ كان عليه ألا يحبذ الخطية أو ينعطف نحوها بإظهار حزنه ، كما كان يجب ألا يسوق ذلك الحادث المحزن الجماعة إلى التذمر على الله .

إن الله يريد أن يعلم شعبه أن يعترفوا بعدالة تأديباته حتى يكون عند الباقين خوف . لقد كان بين إسرائيل جماعة كان بالإمكان أن يصير هذا القضاء المروع رادعا لهم عن التجرؤ على صبر الله إلى أن يختم على مصيرهم بعد ذلك . إن الرب ينتهر ذلك العطف الكاذب على الخاطئ في محاولة الاعتذار عن خطيته أو التغاضي عنها ، لأن الخطية تميت الإحساس الأدبي بحيث لا يتحقق المذنب من هول معصيته ، وبدون تبكيت روح الله القدوس له يبقى في عماه محابيا لخطيته . إن واجب خدام المسيح هو أن يبصّروا هؤلاء المخطئين بالخطر المحدق بهم . وأولئك الذين يفسدون ، تأثير الإنذار بكونهم يعمون عيون الخطاة عن صفة الخطية الحقيقية ونتائجها المحتومة يخدعون أنفسهم قائلين إنهم بهذا يبرهنون على محبتهم ، ولكنهم يبذلون جهدا مباشرا لمقاومة وتعطيل عمل الروح القدس . إنهم يخدرون الخطاة ليستريحوا ويناموا وهم على حافة هاوية الهلاك . يجعلون أنفسهم شركاء الخاطئ في خطيته ويوقعون أنفسهم تحت مسؤولية هائلة اذ يعتبرون مسؤولين عن قساوته وعدم توبته . إن كثيرين جدا قد انحدروا إلى الهلاك نتيجة لهذا العطف الكاذب الخادع .

إن ناداب وأبيهو ما كان يمكن أن يقدما على ارتكاب تلك الخطية المميتة لو لم يكونا قد سكرا بتعاطيهما الخمر بلا رادع قبل ذلك . لقد كانا يعلمان أنه ينبغي لهما أن يستعدا بكل حرص وقداسة قبل الدخول إلى المقدس حيث يستعلن حضور الله ، إلا أنهما بسبب شربهما

للخمر أصبحا غير أهل لوظيفتهما المقدسة . لقد ارتبك عقلاهما وأظلم إدراكهما الأدبي بحيث لم يفطنا إلى الفرق بين ما هو مقدس وما هو دون ذلك . ثم قدم لهارون وابنيه الباقيين هذا الإنذار : «خَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ تَشْرَبْ أَنْتَ وَبَنُوكَ مَعَكَ عِنْدَ دُخُولِكُمْ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ لِكَيْ لاَ تَمُوتُوا . فَرْضًا دَهْرِيًّا فِي أَجْيَالِكُمْ وَلِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُقَدَّسِ وَالْمُحَلَّلِ وَبَيْنَ النَّجِسِ وَالطَّاهِرِ ، وَلِتَعْلِيمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَمِيعَ الْفَرَائِضِ الَّتِي كَلَّمَهُمُ الرَّبُّ بِهَا» (لاويين ١٠ : ٩-١١) إن استعمال المشروبات الروحية يضعف الجسم ويربك العقل ويحط الأخلاق ويصد الناس عن التحقق من قدسية الأشياء المقدسة أو القوة الملزمة لإتمام مطاليب الله . إن كل من قد شغلوا مناصب تتطلب مسؤوليات مقدسة كانوا ملزمين بأن يكونوا رجالا أعفاء بتدقيق ، حتى تكون عقولهم صافية للتميز بين الصواب والخطأ ليثبتوا في مبادئهم ويكونوا حكماء في إقرار العدالة وصنع الرحمة .

هذا الالتزام نفسه هو واجب على كل أتباع المسيح . يقول بطرس الرسول : «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ ، شَعْبُ اقْتِنَاءٍ» (١بطرس ٢ : ٩) إن الله يريدنا أن نحتفظ بكل قوة فينا في أفضل حالة ممكنة لنقدم خدمة مقبولة لجابلنا . ولكن تعاطي المسكرات ينتج نفس ما حدث مع كاهني إسرائيل . إن الضمير يفقد إحساسه بالخطية ، ثم أن الإنسان يتقسى في الإثم حتما ، تبعا لذلك حتى لا يعود هنالك فرق بين ما هو مقدس وما هو عادي . فكيف إذا نصل إلى مقياس مطاليب الله ؟ «أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي فِيكُمُ ، الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللهِ ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ؟ لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ . فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ للهِ» «فَإِذَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ أَوْ تَشْرَبُونَ أَوْ تَفْعَلُونَ شَيْئًا ، فَافْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ لِمَجْدِ اللهِ» وإلى كنيسة المسيح في كل العصور يوجه الله هذا الإنذار المقدس الخطير الرهيب : «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُفْسِدُ هَيْكَلَ اللهِ فَسَيُفْسِدُهُ اللهُ ، لأَنَّ هَيْكَلَ اللهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ» (١كورنثوس ٦ : ١٩، ٢٠، ١٠ : ٣١، ٣ : ١٧) .

الفصل الثاني والثلاثون

الشريعة والعمران

إن آدم وحواء عندما خلقا عرفا شريعة الله ، وكانا ملمين بمطاليبها منهما ، وقد كتبت فرائضها على قلبيهما ، فلما سقط الإنسان بتعديه لم تتغير الشريعة ، ولكن نظاما للمعالجة أقيم لإعادته إلى الطاعة ، فقد أعطي الوعد بمخلص ، وأقيمت الذبائح الكفارية التي كانت تشير إلى موت المسيح كالذبيحة العظمى للخطـية ، ولكن لو أن الإنسان لم يتعد شريعة الله قط لما كان هنالك موت ، ولا كانت هنالك حاجة إلى مخلص ، ولما كان من ثم حاجة إلى ذبائح .

لقد علّم آدم نسله شريعة الله التي سلمت من أب إلى ابن مدى الأجيـال المتعاقبـة ، ولكن بالرغم من التدبير الإلهي الرحيم لفداء الإنسان فإن قليلين هم الذين قبلوه وأطـاعوا الله . وبسبب الخطية صار العالم فاسدا بحيث صار من الـلازم تطـهيره مـن فسـاده بالطوفان . وقد حفظ نوح وعائلته الشريعة ، فعلّم نوح نسله الوصايا العشر . ولما ابتعـد الإنسان عن الله مرة أخرى اختار الرب إبراهيم الذي أعلن عنه قائلا : «إِبْرَاهِيـمَ سَـمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي : أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي» (تكوين ٢٦ : ٥) وقد أعطيت لـه فريضة الختان الذي كان علامة على أن من قبلوه قد كرسوا لخدمة الله وعبادته– وكـان عهدا أخذوه على أنفسهم بأنهم سيظلون منفصلين عن الوثنية ويحفظون شريعة الله ، لكـن إخفاق نسل إبراهيم في حفظ هذا العهد ، الأمر الذي ظهر في ميلهم لعقد محالفـات مـع الوثنيين ومحاكاتهم لهم في أعمالهم ، كان من أسباب تغرب إسـرائيل وعبوديتـهم فـي مصر . إلا أنه بمخالطتهم للوثنيين وخضوعهم للمصرييـن قسـرا أفسـدت وصايـا الله بالأكثر ، بسبب تعاليم الوثنية الفاسدة القاسية . ولذاك فحين أخرج الرب شعبه عن مصـر نزل على جبل سيناء محاطا بالمجد ومحفوفا بملائكته ، وبجلال رهيب نطق بشريعته فـي مسامع كل الشعب .

363,364

لم يكن حتى في ذلك الحين ليودع وصاياه ذاكرة الشعب الذي كان ميالا لنسيان مطاليبه ، ولذلك كتبها على لوحي حجر . لقد أراد أن ينتزع من إسرائيل كل محاولة لمزج التقاليد الوثنية بوصاياه المقدسة ، أو الخلط بين مطاليبه والفرائض أو العادات البشرية . إلا أنه لم يقف عند حد إعطائهم الوصايا العشر . فلقد برهن الشعب على سهولة جنوحهم إلى الضلال بحيث أن الله لم يترك بابا واحدا للتجربة دون حراسة . وقد أمر موسى أن يكتب ، بموجب أمر الله ، أحكاما وشرائع ، واضعا تعليم دقيقة من مطاليبه . هذه التوجيات الخاصة بواجب الشعب نحو الله ونحو بعضهم البعض ونحو الغرباء كانت هي مبادئ الوصايا العشر مقدمة في إسهاب وبكيفية واضحة حتى لا يخطئ أحد . وقد كان القصد من تلك التوجيهات صيانة قدسية الوصايا العشر المكتوبة على لوحي الحجر .

لو أن الإنسان حفظ شريعة الله المعطاة لآدم بعد السقوط والتي احتفظ بها نوح وأطاعها إبراهيم لما كان هناك داع لفريضة الختان . ولو أن نسل إبراهيم حفظ العهد الذي كان الختان علامة له لما انغووا وانحرفوا إلى الوثنية ، ولما كانت ثمة حاجة لأن يقاسوا مرارة حياة العبودية في مصر ، بل كانوا يحفظون شريعة الله في أذهانهم ، وما كان هنالك داع لإعلانها من سيناء أو كتابتها على لوحي حجر . ولو كان الشعب قد مارسوا مبادئ الوصايا العشر لما كانت حاجة إلى تلك التوجيهات الإضافية المسلمة لموسى .

إن نظام الذبائح المسلم لآدم قد أفسدته ذريته أيضا ، إذ أن الخرافات والوثنية والقسوة والدعارة قد أفسدت بساطة ومغزى تلك الخدمة التي قد رسمها الله . وبسبب اختلاط شعب الله بالوثنيين أمدا طويلا أدخل بنو إسرائيل كثيرا من العادات الوثنية إلى عبادتهم ، ولذلك أعطاهم الله في سيناء تعليمات واضحة وافية عن الخدمة الكفارية . وبعدما أكملت الخيمة وأقيمت كان الله يتحدث مع موسى من سحابة المجد التي فوق الغطاء وأعطاه تعليمات شاملة عن نظام الذبائح وطقوس العبادة لتمارس في المقدس ، وهكذا أعطيت الشريعة الطقسية لموسى الذي كتبها في سفر . ولكن شريعة الوصايا العشر التي تكلم بها من سيناء كتبها الله بإصبعه على لوحي الحجر وحفظت في التابوت بكل إكرام .

كثيرون يحاولون دمج هذين النظامين معا مستخدمين الآيات التي تتحدث عن الناموس الطقسي للبرهنة على أن الشريعة الأدبية قد أبطلت ، ولكن هذا انتهاك لكتاب الله . إن الفرق

بين النظامين واسع وجلي ، فالنظام الطقسي كان مكونا من جملة رموز تشير إلـــى المســيح وكفارته وكهنوته . هذا النظام الطقسي بذبائحه وفرائضه كان على العبرانيين أن يمارسوه إلى أن يلتقي الرمز بالرموز إليه بموت المسيح ، حمل الله الذي يرفع خطية العالم . وحينئذ كـــان لابد من إبطال كل تقدمات الذبائح . هذا هو الناموس الذي المسيح «رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَـــمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ» (كولوسي ٢ : ١٤) أما فيما يختص بشريعة الوصايا العشر فالمرنم يعلن قائلا : «إِلَى الأَبَدِ يَا رَبُّ كَلِمَتُكَ مُثَبَّتَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ» (مزمور ١١٩ : ٨٩) والمسيح نفسه يـقول : «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ ... فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ (وقد قالها بكل تشديد وتأكيد) إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُــونَ الْكُــلُّ» (متى ٥ : ١٧،١٨) وهو هنا يعلمنا ، ليس فقط ماذا كانت مطاليب الشريعة حينئذٍ وقبل ذلــك ، بل أن هذه المطاليب ستظل باقية وملزمة بالطاعة ما بقيت السماوات والأرض . إن شريعة الله ثابتة ثبات عرشه وستظل محتفظة بحقوقها على الجنس البشري في كل العصور .

يتكلم نحميا عن الشريعة المعلنة في سيناء قائلا : «وَنَزَلْتَ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ ، وَكَلَّمْتَهُمْ مِــنَ السَّمَاءِ ، وَأَعْطَيْتَهُمْ أَحْكَامًا مُسْتَقِيمَةً وَشَرَائِعَ صَادِقَةً ، فَرَائِضَ وَوَصَايَا صَالِحَةً» (نحميـــا ٩ : ١٣) ثم أن بولس رسول الأمم ، يعلن قائلا «إِذًا النَّامُوسُ مُقَدَّسٌ ، وَالْوَصِيَّةُ مُقَدَّسَـــةٌ وَعَادِلَـــةٌ وَصَالِحَةٌ» (رومية ٧ : ١٢) هذه لا يمكن أن تكون شيئا آخر غـــير الوصايـــا العشـــر ، لأن الناموس هو الذي يقول «لاَ تَشْتَهِ» .

إن موت المسيح لئن وضع نهاية لشريعة الرموز والظلال فهو لم ينتقص حـــق الشـــريعة الأدبية إطلاقا ، بل إن الأمر على العكس ، فإن نفس حقيقة لزوم موت المسيح ليكفـــر عـــن تعدي الناس هذه الشريعة تبرهن على أن الشريعة راسخة وثابتة .

والذين يدعون أن المسيح أتى لكي ينقض شريعة الله ويلغيها وينســـخ العـــهد القديـــم يتكلمون عن العصر اليهودي قائلين إنه كأن عصرا مظلما ، ويصورون ديانة العـــبرانيين على أنها تنحصر في بعض الرموز والطقوس ، ولكن هذا خطأ ففي كل صفحات التـــاريخ المقدس حيث سجلت معاملات الله لشعبه المختار هناك آثار من نار ليهوه العظيـــم . لـــم تقدم قط لبني الإنسان إعلانات أوضح عن قدرته ومجده مما قدم حين اعترف به وحــــدد كملك إسرائيل وحين أعطى لشعبه الشريعة . هنا كان قضيـــب الملـــك ممســـكا لا بيـــد

بشرية ، وقد كانت الخطوات الجليلة خطوات ملك إسرائيل الغير المنظور من الجلال والرهبة مما لا يمكن التعبير عنه .

وفي كل إعلانات الحضور الإلهي هذه أعلن مجد الله في المسيح . وليس فقط عند مجيء المخلص بل مدى الأجيال بعد السقوط والوعد بالفداء «اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ» (٢كورنثوس ٥ : ١٩) كان المسيح أساس النظام الكفاري ونقطة ارتكازه في كلا العصرين ، عصر الآباء والعصر اليهودي . ومنذ أخطأ أبوانا الأولان لم يكن هنالك اتصال مباشر بين الله والإنسان . ولقد دفع الآب العالم بين يدي المسيح حتى عن طريق عمله كوسيط يفتدي الإنسان ويزكي سلطان شريعة الله وقدسيتها . إن كل اتصال بين السماء وجنسنا الساقط كان عن طريق المسيح . وإن ابن الله هو الذي أعطى أبوينا الأولين وعد الفداء ، وهو الذي أعلن نفسه للآباء ، فلقد فهم الإنجيل كل من آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ، وكانوا ينتظرون الخلاص بواسطة بديل الإنسان وضامنه . وقد كان لأولئك القديسين الأقدمين شركة مع المخلص الذي كان مزمعا أن يجيء إلى عالمنا في جسم بشري ، وبعضهم تحدثوا مع المسيح ومع ملائكة السماء وجها لوجه .

إن المسيح لم يكن هو فقط قائد العبرانيين في البرية– الملاك [1] الذي كان فيه اسم الرب (يهوه) ، والذي إذ كان محتجبا وراء عمود السحاب سار أمام جمهور الشعب– ولكنه هو الذي أعطى الشريعة لإسرائيل ، ففي وسط مجد سيناء الرهيب أعلن المسيح في مسامع كل الشعب وصايا شريعة أبيه العشر ، وهو الذي أعطى الشريعة لموسى مكتوبة على لوحي الحجر .

والمسيح هو الذي كلم شعبه بالأنبياء . إن بطرس الرسول يكتب إلى الكنيسة المسيحية قائلا إن الأنبياء «تَنَبَّأُوا عَنِ النِّعْمَةِ الَّتِي لأَجْلِكُمْ ، بَاحِثِينَ أَيُّ وَقْتٍ أَوْ مَا الْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَدِلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الْمَسِيحِ الَّذِي فِيهِمْ ، إِذْ سَبَقَ فَشَهِدَ بِالآلاَمِ الَّتِي لِلْمَسِيحِ ، وَالأَمْجَادِ الَّتِي

---

[1]– الكلمة «ملاك» هنا من أسماء المسيح كما جاء في خروج ٢٣: ٢٠–٢٣، حيث دعي قائد الشعب «ملاكاً» وهذا القائد نفسه قد دعي في ١كورنثوس ١٠: ٤ «المسيح». غير أن هذا لا يعني أن المسيح كان ملاكاً، بدليل قوله تعالى «لأَنَّ اسْمِي فِيهِ».

بَعْدَهَا» (١بطرس ١ : ١٠،١١) إن صوت المسيح هو الذي يخاطبنا من بين صفحات العهد القديم قائلا : «إِنَّ شَهَادَةَ يَسُوعَ هِيَ رُوحُ النُّبُوَّةِ» (رؤيا ١٩ : ١٠) .

إن يسوع في تعاليمه للشعب حين كان بنفسه بين الناس وجه العقول إلى العهد القديم ، فلقد قال لليهود : «فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً . وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي» (يوحنا ٥ : ٣٩) وفي ذلك الوقت كانت كتب العهد القديم هي القسم الوحيد من الكتاب المقدس بين أيديهم ، ثم أعلن ابن الله مرة أخرى قائلا : «عِنْدَهُمْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءُ ، لِيَسْمَعُوا مِنْهُمْ» وقد أضاف قائلا : «إِنْ كَانُوا لاَ يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ ، وَلاَ إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ» (لوقا ١٦ : ٢٩،٣١) .

إن المسيح هو الذي أعطى الناموس الطقسي ، وحتى بعدما لم يعد حفظه لازما قدمه بولس لليهود في مركزه وقيمته الحقيقيين مبينا مكانته في تدبير الفداء وعلاقته بعمل المسيح . والرسول العظيم يعلن أن هذا الناموس مجيد وجدير بمبدعه الإلهي . إن خدمة المسكن المقدسة كانت ترمز إلى مبادئ الحق العظيمة التي كانت ستعلن طوال الأجيال المتعاقبة وأن سحابة البخور الصاعدة مع صلوات إسرائيل تمثل بر المسيح الذي يستطيع دون سواه أن يجعل صلاة الخاطئ تقبل أمام الله . والذبيحة التي كانت توضع على مذبح المحرقة والدم يقطر منها كانت تشهد للفادي المزمع أن يأتي ، ومن قدس الأقداس كانت تسطع العلامة المنظورة للحضور الإلهي . وهكذا طوال أجيال الظلمة المتعاقبة والارتداد حفظ الإيمان حيا في قلوب الناس إلى أن أتى وقت مجيء مسيا الموعود به .

كان يسوع نور شعبه – نورا للعالم– قبلما أتى إلى الأرض في هيئة بشرية . إن أول أشعة النور التي اخترقت كبد الظلمة التي لفَّت الخطية بها العالم ، قد انبثقت من المسيح ، ومنه أشرقت كل أشعة نور السماء التي سطعت على كل ساكني الأرض . ففي تدبير الفداء نجد أن المسيح هو الألف والياء البداية والنهاية .

منذ سفك المخلص دمه لغفران الخطايا وصعد إلى السماء «لِيَظْهَرَ الآنَ أَمَامَ وَجْهِ اللهِ لأَجْلِنَا» (عبرانيين ٩ : ٢٤) والنور لا يزال يتدفق من صليب جلجثة ومن مقادس الهيكل السماوي ، إلا أن النور الأوضح المعطى لنا ينبغي ألا يجعلنا نحتقر ذلك النور الذي قبله الأقدمون عن طريق الرموز والذي كان يشير إلى المخلص الآتي . إن إنجيل المسيح

يلقي نورا على النظام اليهودي ، ويعطي معنى للشريعة الطقسية . وإذ تنكشف حقائق جديدة ، وما قد عرف منذ البدء ينكشف أمام نور أكمل حينئذ تعلن صفات الله ومقاصده في معاملاته للشعب المختار . إن كل شعاع من النور ، يضاف إلى ما قد حصلنا عليه ، يعطينا إدراكا أوضح لتدبير الفداء الذي هو إنجاز لمشيئة الله في خلاص الإنسان . إننا نرى في الكلمة الموحى بها جمالا جديدا وقوة جديدة ونحن ندرسها بشغف واهتمام أعظم مما سبق .

كثيرون يعتقدون أن الله أقام جدارا فاصلا بين العبرانيين والعالم الخارجي ، وأن محبته ورعايته قد سحبهما إلى حد كبير من باقي بني البشر وركزهما في إسرائيل ، غير أن الله لم يقصد أن يقيم شعبه جدارا فاصلا بينهم وبين إخوانهم من بني الإنسان . إن قلب المحبة غير المحدودة يتسع لكل سكان الأرض ، فمع أنهم رفضوه فقد حاول دائما أن يعلن نفسه لهم ويشركهم في محبته ونعمته . لقد منح بركته للشعب المختار حتى يمكنهم أن يباركوا الآخرين .

دعا الله إبراهيم وأنجحه وأكرمه ، وإن ولاء ذلك الشيخ كان نورا للناس في كل البلاد التي تغرب فيها . ولم ينطو إبراهيم على نفسه محتجبا عن الناس الذين حوله ، فلقد احتفظ بعلاقات صداقة مع ملوك الأمم المجاورة له ، وقد عامله بعضهم بكل احترام ، وكانت استقامته وإيثاره وشجاعته وإحسانه انعكاسا لصفات الله . وفي ما بين النهرين وفي كنعان ومصر وحتى لسكان سدوم استعلن إله السماء عن طريق ممثله هذا (إبراهيم) .

إن الله قد أعلن نفسه بواسطة يوسف لشعب مصر وكل الأمم المتصلة بتلك المملكة القوية . لماذا اختار الرب أن يمجد يوسف ويعظمه بين المصريين ؟ لقد كان يمكنه أن يبتكر وسيلة أخرى لإتمام مقاصده نحو بني يعقوب ، إلا أنه قصد أن يجعل يوسف نورا ، فأقامه في قصر الملك لكي يصل نور السماء إلى القاصي والداني . إن يوسف بحكمته وعدالته وطهارته وحبه للخير في حياته اليومية وبتكريسه لصالح الشعب- وكان شعبا وثنيا- كان ممثلا للمسيح . ففي ذلك الشخص الذي أحسن إليهم والذي اتجهت إليه كل مصر بالشكران والحمد ، كان ذلك الشعب الوثني يرى حب خالقهم وفاديهم . وكذلك كانت الحال مع موسى ، فقد أقامه الله نورا بجوار عرش أعظم ممالك الأرض حتى كل

من أراد كان يمكنه أن يتعلم عن الإله الحي الحقيقي . وقد أعطي هذا النور للمصريين قبلما امتدت يد الله إليهم بالضربات .

عندما خلص الرب شعبه من أرض مصر انتشرت في البلاد معرفة قدرة الله إلى أبعد الأماكن . فالشعب الحربي في حصن أريحا قد ارتعب . وقالت راحاب : «سَمِعْنَا فَذَابَتْ قُلُوبُنَا وَلَمْ تَبْقَ بَعْدُ رُوحٌ فِي إِنْسَانٍ بِسَبَبِكُمْ ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ اللهُ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَعَلَى الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ» (يشوع ٢ : ١١) وبعد خروج إسرائيل من مصر بعدة قرون نبه كهنة الفلسطينيين بني شعبهم إلى ضربات مصر وحذروهم من مقاومة إله إسرائيل .

دعا الله إسرائيل وباركهم وعظمهم لا لكي يحصلوا على رضاه بطاعتهم لوصاياه ويحصلوا على بركاته دون سواهم ، بل لكي يعلن نفسه فيهم لكل ساكني الأرض . فلأجل إتمام نفس هذه الغاية أمرهم أن يحفظوا أنفسهم شعبا خاصا منفصلا عن الشعوب الوثنية التي حولهم .

كانت الوثنية وكل الخطايا التي جاءت في أذيالها مكروهة لدى الله ، لذلك أمر شعبه ألا يختلطوا بالأمم الأخرى ليعملوا كأعمالهم وينسوا الله (خروج ٢٣ : ٢٤) ولقد نهاهم عن التزاوج مع الوثنيين لئلا تزيغ قلوبهم عنه . وكان من اللازم حينئذ ، كما هي الحال الآن ، أن يكون شعب الله طاهرين «بِلاَ دَنَسٍ مِنَ الْعَالَمِ» وكان ينبغي لهم أن يحفظوا أنفسهم من روح العالم لأنه مضاد للحق والبر . إلا أن الله لم يقصد أن يكون شعبه أبرارا في أعين أنفسهم أو منطوين على ذواتهم بحيث يحسبون أنفسهم بعيدا عن العالم فلا يكون لهم تأثير فيه .

إن أتباع المسيح كانوا في كل عصر نورا للعالم كما كان سيدهم . لقد قال المخلص : «لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَل ، وَلاَ يُوقِدُونَ سِرَاجًا وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكْيَالِ ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضِيءُ لِجَمِيعِ الَّذِينَ فِي الْبَيْتِ» – أي في العالم . ثم عاد يقول : «فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى ٥ : ١٤–١٦) هذا هو نفس ما فعله كل من أخنوخ ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى ، وهو نفس ما قصد الله أن يفعله شعب إسرائيل .

إن قلبهم الشرير العديم الإيمان الذي تحكم فيه الشيطان هو الذي جعلهم يخفون نورهم بدلا من أن يجعلوه يضيء للشعوب التي حولهم . إنها نفس روح التعصب التي جعلتهم إما أن

يتبعوا ممارسات الوثنيين الأثيمة أو أن يعتزلوا بأنفسهم في كبرياء وانطواء كما لو كانت محبة الله ورعايته وقفا عليهم دون سواهم .

وكما يقدم الكتاب شريعتين إحداهما أبدية لا تتغير والأخرى وقتية واحتياطية- كذلك يقدم عهدين . إن عهد النعمة أبرم أولا مع آدم في عدن ، حين أعطي وعد إلهي بعد السقوط بأن نسل المرأة سيسحق رأس الحية ، وهذا العهد قدم لجميع الناس غفرانا ونعمة إلهية تعينهم في المستقبل على الطاعة بالإيمان بالمسيح . وقد وعدوا أيضا بالحياة الأبدية على شرط الولاء لشريعة الله . وهكذا حصل الآباء على رجاء الخلاص .

ونفس هذا العهد تجدد لإبراهيم في الوعد القائل : «فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ» (تكوين ٢٢ : ١٨) هذا الوعد كان يشير إلى المسيح ، وهكذا فهمه إبراهيم (انظر غلاطية ٣ : ٨،١٦) وقد اتكل على المسيح لأجل مغفرة الخطايا . هذا هو الإيمان الذي حسب له برا . ثم أن العهد مع إبراهيم حفظ لشريعة الله سلطانها . لقد ظهر الرب لإبراهيم وقال له : «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ . سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً» (تكوين ١٧ : ١) وهذه هي شهادة الله عن عبده الأمين «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي : أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي» وقد أعلن له الله قائلا : «وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ ، عَهْدًا أَبَدِيًّا ، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ» (تكوين ٢٦ : ٥، ١٧ : ٧) .

ومع أن هذا العهد كان قد أعطي لآدم وجدد لإبراهيم إلا أنه لم يمكن المصادقة عليه حتى موت المسيح . لقد وجد بوعد الله عندما أعطيت أول إشارة إلى الفداء ، وقبل بالإيمان ، ومع ذلك فعندما صادق عليه المسيح سمي عهدا جديدا . لقد كانت شريعة الله أساس هذا العهد الذي كان مجرد إجراء لإعادة الناس إلى حالة التوافق والانسجام مع إرادة الله إذ جعلهم في وضع يستطيعون فيه أن يطيعوا شريعة الله .

وهنالك عهد آخر ويسمى في الكتاب المقدس بالعهد «العتيق» أو «القديم» ، وقد أقيم بين الله وإسرائيل في سيناء وصودق عليه بدم الذبيحة آنئذ ، أما العهد الإبراهيمي فقد صودق عليه بدم المسيح وسمي بالعهد الثاني أو الجديد لأن الدم الذي ختم به أهرق بعد دم العهد الأول . وإن حقيقة كون العهد الجديد شرعيا في أيام إبراهيم تتضح من حقيقة كونه تثبت بوعد الله وقسمه ، «حَتَّى بِأَمْرَيْنِ عَدِيمَيِ التَّغَيُّرِ ، لاَ يُمْكِنُ أَنَّ اللهَ يَكْذِبُ فِيهِمَا»

(عبرانيين ٦ : ١٨) .

ولكن إذا كان العهد الإبراهيمى اشتمل على وعد الفداء فلماذا أبرم عهد آخر في سيناء ؟ إن الشعب وهم في العبودية كانوا إلى حد كبير قد أضاعوا معرفة الله ومبادئ العهد مع إبراهيم ، ففي تحريرهم من مصر أراد الله أن يعلن لهم قدرته ورحمته لكي يقودهم ذلك إلى أن يحبوه ويثقوا به ، ولقد أنزلهم إلى بحر سوف (البحر الأحمر) حيث بدا أن النجاة مستحيلة- إذ كان المصريون يجدون في أثرهم- ليتحققوا من عجزهم التام وحاجتهم إلى معونة الله ، وحينئذ صنع لهم الخلاص . وهكذا امتلأت قلوبهم حبا وشكرا لله وثقة بقدرته على إعانتهم . لقد جعلهم يرتبطون به كمحررهم من العبودية الزمنية .

غير أنه كان هنالك حق أعظم وجب أن ينطبع على عقولهم . فإذ كانوا عائشين في وسط الوثنية والفساد لم تكن لديهم فكرة صحيحة عن قداسة الله أو عن شر قلوبهم العظيم وعجزهم التام في أنفسهم عن تقديم الطاعة لشريعة الله وحاجتهم إلى مخلص . كان عليهم أن يتعلموا كل هذا .

لقد أتى الله بهم إلى سيناء وأظهر لهم مجده وأعطاهم شريعته ووعدهم ببركات عظيمة على شرط الطاعة ، قائلا لهم : «إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي ، وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ . فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ . وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً» (خروج ١٩ : ٥،٦) ولم يتحقق الشعب من شر قلوبهم أو أنهم بدون المسيح كان من المستحيل عليهم أن يطيعوا شريعة الله ، إذ بسرعة أدخلوا أنفسهم في عهد مع الله ، وإذ أحسوا بقدرتهم على أن يثبتوا بر أنفسهم أعلنوا قائلين : «كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ وَنَسْمَعُ لَهُ» (خروج ٢٤ : ٧) لقد شاهدوا إعلان الشريعة بجلال رهيب وارتعبوا خوفا وهم في أسفل الجبل ، ولكن ما إن مرت أسابيع قليلة حتى نقضوا عهدهم مع الله وسجدوا لتمثال مسبوك . لم يكونوا يرجون الظفر برضى الله عن طريق العهد الذي تعدوه . والآن ، وقد اكتشفوا شرهم وحاجتهم إلى الغفران ، أحسوا أخيرا بحاجتهم إلى مخلص معلن في عهد الله مع إبراهيم ومرموز إليه في تقدمات الذبائح . والآن فبالإيمان والمحبة كانوا مرتبطين بالله كمخلصهم من عبودية الخطية ، وأصبحوا مستعدين لتقدير بركات العهد الجديد .

إن شروط العهد القديم كانت : أطع فتحيا ، «إِنْ عَمِلَهَا إِنْسَانٌ يَحْيَا بِهَا» (حزقيال ٢٠ :

١١؛ لاويين ١٨ : ٥) ولكن «مَلْعُونٌ مَنْ لاَ يُقِيمُ كَلِمَاتِ هذَا النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهَا» (تثنية ٢٧ : ٢٦) أما «العهد الجديد» فبني على «مواعيد أفضل»– الوعد بغفران الخطايا ونعمة الله لتجديد القلب وجعله في وفاق مع مبادئ شريعة الله «هذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَقْطَعُهُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الأَيَّامِ ، يَقُولُ الرَّبُّ : أَجْعَلُ شَرِيعَتِي فِي دَاخِلِهِمْ وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ... لأَنِّي أَصْفَحُ عَنْ إِثْمِهِمْ ، وَلاَ أَذْكُرُ خَطِيَّتَهُمْ بَعْدُ» (إرميا ٣١ : ٣٣،٣٤) .

إن نفس الشريعة التي كتبت على لوحي الحجر يكتبها الروح القدس على لوح القلب ، وبدلا من محاولتنا أن نثبت بر أنفسنا نقبل المسيح . إن دمه يكفر عن خطايانا وطاعته تقبل لأجلنا . وحينئذ فالقلب المتجدد بالروح القدس سيثمر «ثَمَرَ الرُّوحِ» وبنعمة المسيح سنعيش مطيعين لشريعة الله المكتوبة على قلوبنا ، وإذ نحصل على روح المسيح سنسلك كما سلك . وقد أعلن هو عن نفسه بفم النبي قائلا : «أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلهِي سُرِرْتُ ، وَشَرِيعَتُكَ فِي وَسَطِ أَحْشَائِي» (مزمور ٤٠ : ٨) وإذ حل بين الناس قال : «لَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي ، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ» (يوحنا ٨ : ٢٩) .

بولس الرسول إذ يبسط العلاقة بين الإيمان والناموس بوضوح في نور العهد الجديد يقول : «فَإِذْ قَدْ تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ لَنَا سَلاَمٌ مَعَ اللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» ، «أَفَنُبْطِلُ النَّامُوسَ بِالإِيمَانِ ؟ حَاشَا ! بَلْ نُثَبِّتُ النَّامُوسَ» ، «لأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجِزًا عَنْهُ ، فِي مَا كَانَ ضَعِيفًا بِالْجَسَدِ» – إذ لا يبرر الإنسان كونه في طبيعته الخاطئة ، عاجزا عن حفظ الناموس– «فَاللهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ ، وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ ، دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ ، لِكَيْ يَتِمَّ حُكْمُ (بر) النَّامُوسِ فِينَا ، نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ» (رومية ٥ : ١،٣ : ٣١، ٨ : ٣،٤) .

إن عمل الله باق على الزمن لم يتغير ، مع وجود بعض اختلاف في درجات النمو ومظاهر مختلفة لقدرته لسد حاجات الناس في مختلف العصور . فإذ نبدأ من أول وعد من وعود الإنجيل ونسير خلال عصور الآباء والعصر اليهودي بل حتى إلى عهدنا الحاضر نجد الله يكشف مقاصده تدريجيا في تدبير الفداء . إن المخلص الذي كانت ترمز إليه فرائض الشريعة اليهودية وطقوسها هو نفسه المعلن لنا في الإنجيل . لقد انقشعت السحب التي كانت تحيط بصورته الإلهية واختفى الضباب والظلام . وهوذا يسوع فادي

العالم يستعلن لنا ، فذاك الذي أعلن الشريعة في سيناء والذي سلم لموسى فرائض الناموس الطقسي هو نفسه الذي نطق بالموعظة على الجبل . إن المبادئ العظيمة ، مبادئ المحبة لله التي جعلها أساس الناموس والأنبياء ليست سوى تكرار لما خاطب به الشعب العبراني بواسطة موسى حين قال : «اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ : الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ . فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ» (تثنية ٦ : ٤،٥) «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ . أَنَا الرَّبُّ» (لاويين ١٩ : ١٨) إن المعلم في كلا العصرين هو معلم واحد كما أن مطاليب الله واحدة ومبادئ مملكته هي نفسها ، فكل شيء يصدر من ذاك «الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ» (يعقوب ١ : ١٧) .

الفصل الثالث والثلاثون

من سيناء إلى قادش

انقضى على وصول إسرائيل إلى سيناء بعض الوقت قبل البدء ببناء خيمة الاجتماع ، وقد أقيم ذلك المسكن المقدس أولا في بدء العام الثاني بعد الخروج ، ثم تبع ذلك تقديس الكهنة والاحتفال بعيد الفصح وإحصاء الشعب وتكملة التنظيمات المختلفة الجوهرية واللازمة لنظامهم المدني أو الديني ، حتى لقد مر ما يقرب من السنة في المحلة في سيناء . وهنا اتخذت عبادتهم شكلا واضحا ، ووضعت القوانين لحكم الأمة ، ونفذ نظام أنفع ، استعدادا لدخولهم أرض كنعان .

تميز حكم إسرائيل بأفضل نظام ، كما كان نظاما عجيبا في كماله وبساطته . إن النظام المستخدم بكيفية مدهشة في كمال كل أعمال الله المخلوقة وترتيبها ظهر في النظام العبراني . لقد كان الله مركز السلطة والحكم كملك إسرائيل ، أما موسى فكان القائد المنظور من الشعوب بتعيين من الله ، لكي يصدر القوانين والشرائع باسمه ، وبعد ذلك انتخب مجلس مكون من سبعين رجلا من شيوخ الأسباط ليساعدوا موسى في تدبير الشؤون العامة للأمة ، ثم يأتي الكهنة الذين كانوا يطلبون مشورة الرب في الهيكل . وكان الرؤساء والأمراء وتحت هؤلاء كان «رُؤَسَاءَ أُلُوفٍ ، وَرُؤَسَاءَ مِئَاتٍ ، وَرُؤَسَاءَ خَمَاسِينَ ، وَرُؤَسَاءَ عَشَرَاتٍ» . وأخيرا كان الموظفون الذين يمكن استخدامهم للقيام بواجبات خاصة (تثنية ١ : ١٥) .

كانت محلة العبرانيين منظمة تنظيما دقيقا ، فقد كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام عظيمة لكل قسم مركزه الخاص في المحلة ، ففي الوسط كانت خيمة الاجتماع ، مكان سكنى الملك غير المنظور ، وحولها انتشرت مساكن الكهنة واللاويين ، وخلف هذه نصبت خيام كل باقى الأسباط .

وقد وكل إلى اللاويين أمر حراسة الخيمة وكل متعلقاتها ، سواء في أثناء نزولهم أو رحيلهم ، فحين كانت تتحرك المحلة كان عليهم أن ينقضوا الخيمة المقدسة ، فإذا وصلوا

إلى مكان للإقامة فيه بعض الوقت كان عليهم أن ينصبوها . ولم يكن يسمح لأحد من سبط آخر أن يقترب وإلا كان جزاؤه الموت . وكان اللاويون منقسمين إلى أقسام ثلاثة ، نسل أولاد لاوي الثلاثة ، وقد عين لكل قسم مركزه وعمله الخاص ، فأمام الخيمة وعلى أقرب قرب منها كانت خيام موسى وهارون ، وإلى ناحية الجنوب كان القهاتيون الذين كان عملهم حراسة التابوت وغيره من الأثاث ، وإلى الشمال كان أولاد مراري الذين كانوا مسؤولين عن الأعمدة والقواعد والألواح وما إليها ، وفي المؤخرة كانت جماعة الجرشونيين الذين كان عليهم أن يحرسوا الستائر والسجف .

وتعين أيضا مركز كل سبط ، فقد كان على كل سبط أن يسير أو يعسكر إلى جوار رايته كما أمر الرب قائلا : «يَنْزِلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلٌّ عِنْدَ رَايَتِهِ بِأَعْلاَمٍ لِبُيُوتِ آبَائِهِمْ . قُبَالَةَ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ حَوْلَهَا يَنْزِلُونَ» «كَمَا يَنْزِلُونَ كَذلِكَ يَرْتَحِلُونَ . كُلٌّ فِي مَوْضِعِهِ بِرَايَاتِهِمْ» (عدد ٢ : ٢،١٧) أما اللفيف الذين رافقوا إسرائيل من مصر فلم يكن يسمح لهم بالسكنى في نفس المحلة مع الأسباط ، بل كان عليهم أن يسكنوا في أطراف المحلة ، وكان يجب أن يمنع أولادهم من بين الجماعة إلى الجيل الثالث (تثنية ٢٣ : ٧،٨) .

وقد أمروا بالنظافة المدققة ، كما أمروا باتباع النظام الدقيق في كل المحلة وما جاورها ، ونفذت القوانين الصحية بحذافيرها ، وكل من كان نجسا من أي عارض كان محظورا عليه دخول المحلة . هذه الإجراءات كانت لازمة وضرورية لحفظ الصحة بين ذلك الجمهور العظيم ، كما كان من اللازم أيضا مراعاة النظام والطهارة التامين ، حتى يستطيع بنو إسرائيل التمتع بحضور الله القدوس في وسطهم ، إذ قد أعلن قائلا : «لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ سَائِرٌ فِي وَسَطِ مَحَلَّتِكَ ، لِكَيْ يُنْقِذَكَ وَيَدْفَعَ أَعْدَاءَكَ أَمَامَكَ . فَلْتَكُنْ مَحَلَّتُكَ مُقَدَّسَةً» (تثنية ٢٣ : ١٤) .

وفي كل رحلات إسرائيل رحل «تَابُوتُ عَهْدِ الرَّبِّ ... أَمَامَهُمْ ... لِيَلْتَمِسَ لَهُمْ مَنْزِلاً» (عدد ١٠ : ٣٣) فذلك التابوت المقدس الذي كان يحمله بنو قهات والذي كانت بداخله شريعة الله المقدسة ، كان يجب أن يسير في الطليعة ، وكان موسى وهارون يسيران أمامه ، وكان الكهنة حاملو الأبواق الفضية يسيرون قريبا ، وكان هؤلاء الكهنة يتلقون الأوامر من موسى وهم بدورهم يبلغونها للشعب بواسطة الأبواق ، وكان على قادة كل

فريق أن يعطوا أوامر واضحة لفريقهم عن كل التحركات الواجب القيام بها ، والتي كانت تعلنها الأبواق ، وأي شخص لا يذعن لهذه الأوامر كان جزاؤه الموت .

إن الله هو إله ترتيب ونظام ، وكل ما له علاقة بالسماء هو في أتم نظام ، فالخضوع والتدريب المتقن هما الطابعان اللذان يميزان تحركات الأجناد السماويين . والنجاح يواكب فقط النظام والعمل المنسجم . إن الله يطلب النظام والتنسيق في عمله الآن ليس أقل مما كان في أيام إسرائيل . وكل من يخدمون الله ينبغي أن يعملوا عملهم بفهم وذكاء لا بغير اكتراث أو كيفما اتفق . يريد الرب أن يعمل عمله بإيمان ودقة لكي يختم عليه بختم الرضا والاستحسان .

وقد أرشد الله الإسرائيليين بنفسه في كل رحلاتهم ، وكان نزول عمود السحاب يدل على مكان نزولهم . وطوال ما كان عليهم أن يظلوا في خيامهم كانت السحابة تحل فوق خيمة الشهادة . وحين كان عليهم أن يستأنفوا رحلاتهم كانت السحابة ترتفع عالية فوق الخيمة . كانوا يقدمون توسلات وابتهالات مقدسة عند نزولهم وعند رحيلهم «وَعِنْدَ ارْتِحَالِ التَّابُوتِ كَانَ مُوسَى يَقُولُ : «قُمْ يَا رَبُّ ، فَلْتَتَبَدَّدْ أَعْدَاؤُكَ وَيَهْرُبْ مُبْغِضُوكَ مِنْ أَمَامِكَ» . وَعِنْدَ حُلُولِهِ كَانَ يَقُولُ : «ارْجِعْ يَا رَبُّ إِلَى رِبَوَاتِ أُلُوفِ إِسْرَائِيلَ»» (عدد ١٠: ٣٥،٣٦) .

كانت المسافة بين سيناء وقادش الواقعة على حدود كنعان تقطع في أحد عشر يوما فقط ، وقد استأنف شعب إسرائيل السير حين أعطت السحابة إشارة التقدم إلى الأمام وكانوا يؤملون سرعة دخولهم إلى الأرض الجيدة . لقد صنع الرب معجزات وعجائب حين أخرجهم من أرض مصر ، فأي بركات لا يحق لهم أن ينتظروا الحصول عليها الآن وقد عاهدوا الله رسميا على أن يقبلوه ملكا عليهم ، واعترف بهم أنهم الشعب المختار لله العلي ؟

إلا أن كثيرين منهم رحلوا عن ذلك المكان الذي حلوا فيه طويلا ، مترددين ، فكادوا يعتبرونه وطنا لهم . لقد حشد الرب شعبه ليحتموا بين تلك الجبال الصخرية بعيدا عن كل الأمم الأخرى ليكرر على مسامعهم شريعته المقدسة . ولقد أحبوا الشخوص إلى الجبل المقدس الذي على قمته البيضاء وصخوره المسننة الجرداء ظهر لهم مرارا مجد إله السماء . وكانت لذلك المنظر صلة وثيقة بحضور الله وملائكته الأطهار حتى لقد بدا لهم

أنه يمتاز بقداسة عظيمة بحيث لا يليق الرحيل عنه بدون اكتراث ، أو حتى برضى وعن طيب خاطر .

ولما أعطى المبوقون الإشارة تقدمت الجماعة كلها إلى الأمام فحمل اللاويون الخيمة وساروا بها في الوسط وسار رجال كل سبط في المكان المعين لهم تحت رايتهم ، وكانت كل العيون تتطلع بشوق لتعرف في أي اتجاه ستقودهم السحابة ، فلما سارت في اتجاه الشرق حيث تراكمت صخور الجبال بعضها فوق بعض في لونها الأسود الموحش غمر الحزن والشك قلوب الكثيرين .

ولما تقدموا زادت وعورة الطريق ، فقد امتد طريقهم في وسط مهاو قاحلة وأودية صخرية ، وكان القفر العظيم حولهم من كل جانب «أَرْضِ قَفْرٍ وَحُفَرٍ ، ... أَرْضِ يُبُوسَةٍ وَظِلِّ الْمَوْتِ ، ... أَرْضٍ لَمْ يَعْبُرْهَا رَجُلٌ وَلَمْ يَسْكُنْهَا إِنْسَانٌ» (إرميا ٢ : ٦) ففي تلك الممرات الصخرية البعيدة والقريبة تجمع الرجال والنساء والأولاد والبهائم والعربات وصفوف طويلة من القطعان والصيران ، وكان سيرهم بالضرورة بطيئا ومتعبا ، ولم تكن تلك الجموع ، بعد نزولها في سيناء أمدا طويلا ، مستعدة لتحمل مخاطر الطريق ومتاعبها .

وبعدما ساروا مسيرة ثلاثة أيام بدأ البعض يجاهرون بتذمرهم ، وهذه التذمرات بدأت من اللفيف الذي لم يكن كثيرون من أفراده قد انضموا إلى إسرائيل تماما ، فكانوا دائما يترقبون فرصة للتذمر والانتقاد . لم يكن أولئك المتذمرون راضين عن الوجهة التي كانوا سائرين إليها ، بل كانوا دائما يعيبون الطريق الذي كان موسى يقودهم فيه ، مع أنهم كانوا يعرفون جيدا أنه كان يتبع قيادة السحابة مثلهم سواء بسواء . وحيث أن عدم الرضى مرض معد فسرعان ما شمل كل المحلة .

ومرة أخرى جعلوا يصرخون طالبين أن يأكلوا لحما ، فمع أنهم كانوا يحصلون على المن بوفرة فإنهم لم يكتفوا بذلك . إن بني إسرائيل في أثناء عبوديتهم في مصر كانوا مجبرين على أن يعيشوا على أبسط أنواع الطعام ، ولكن شهوتهم القوية التي أثارها الحرمان والعمل المضني جعلتهم يستسيغون طعمه ويعتبرونه لذيذا ، وكثيرون من المصريين الذين بينهم كانوا قد تعودوا قبلا الأطعمة اللذيذة الفاخرة فكانوا أول المتذمرين . وعندما أعطى الله للشعب المن قبيل وصولهم إلى سيناء أعطاهم لحما أيضا استجابة لصراخهم . ولكنه لم يعط لهم أكثر من يوم واحد .

377,378

كان الله يستطيع بكل سهولة أن يعطيهم لحما كما قد أعطاهم المن . ولكنه حرمهم من اللحم لأجل خيرهم . لقد كان قصده أن يقدم لهم طعاما ليسد حاجتهم أفضل من الطعام المهيج الذي كان كثيرون قد اعتادوه في مصر . إن شاهيتهم الفاسدة المعكوسة كان يجب إصلاحها لكي يستطيعوا أن يستسيغوا الطعام الذي أعطي للإنسان من البدء- وهو ثمار الأرض التي قد أعطاها الله لآدم وحواء في عدن . هذا هو السبب الذي لأجله حرم الله جماعة الإسرائيليين إلى حد كبير من أكل لحوم الحيوانات .

لقد جربهم الشيطان لأن يعتبروا هذا الحرمان ظلما وقسوة ، وجعلهم يشتهون ما حرم عليهم لأنه رأى أن النهم يفضي إلى الشهوانية ، وبهذه الوسيلة يسهل عليه أن يجعلهم تحت سيطرته . إن مسبب الأمراض والشقاء يهاجم الناس حيثما يضمن لنفسه أعظم نجاح . وعن طريق التجارب المتعلقة بالشهوة للطعام أوقع الناس إلى حد بعيد في الخطية منذ الوقت الذي فيه أغوى حواء على الأكل من الثمرة المنهي عنها . هذه هي نفس الوسيلة التي استخدمها ليسوق إسرائيل إلى التذمر على الله . إن عدم الاعتدال في الأكل والشرب الذي يقود إلى الانغماس في الشهوات الدنيا يهيئ الناس للاستخفاف بكل الالتزامات الأدبية ، وحين تهاجمهم التجربة يكون لهم القليل من القوة للمقاومة .

لقد أخرج الله إسرائيل من مصر ليؤسسهم في أرض كنعان كشعب مقدس طاهر وسعيد . ولكي يتم هذا الغرض جعلهم يجوزون في دور من التدريب لأجل خيرهم وخير ذريتهم ، فلو أنهم رغبوا عن إشباع شهواتهم إطاعة لنهي الله الحكيم لما عرفوا الوهن أو المرض ، ولكان أولادهم يتمتعون بقوة جسمانية وعقلية عظيمة ، وكانوا يحصلون على إدراك صحيح للحق والواجب ، وقوة على التمييز والحكم الصائب . ولكن رفضهم الامتناع عما نهى عنه الرب وإتمام مطاليبه منعهم إلى حد كبير من الوصول إلى المقياس الذي أرادهم أن يبلغوه ، وحرمهم البركات التي كان مستعدا أن يمنحهم أياما .

يقول صاحب المزامير : «جَرَّبُوا اللهَ فِي قُلُوبِهِمْ ، بِسُؤَالِهِمْ طَعَامًا لِشَهْوَتِهِمْ . فَوَقَعُوا فِي اللهِ . قَالُوا : «هَلْ يَقْدِرُ اللهُ أَنْ يُرَتِّبَ مَائِدَةً فِي الْبَرِّيَّةِ ؟ هُوَذَا ضَرَبَ الصَّخْرَةَ فَجَرَتِ الْمِيَاهُ وَفَاضَتِ الأَوْدِيَةُ . هَلْ يَقْدِرُ أَيْضًا أَنْ يُعْطِيَ خُبْزًا ، أَوْ يُهَيِّئَ لَحْمًا لِشَعْبِهِ ؟» . لِذلِكَ سَمِعَ الرَّبُّ فَغَضِبَ» (مزمور ٧٨ : ١٨-٢١) لقد كثرت التذمرات وزاد الشغب بينهم في

أثناء رحيلهم من البحر الأحمر إلى سيناء ، ولكن إشفاقا من الرب على جهلهم وعمى قلوبهم لم يفتقد خطيتهم بدينونته وقصاصه ، ولكنه منذ ذلك الحين أعلن لهم نفسه في حوريب ، وحصلوا على نور عظيم ، إذ كانوا شهودا لجلال الله وقدرته ورحمته ، ولذلك جلب عليهم عدم إيمانهم وتذمرهم ذنبا أعظم وفوق هذا فإنهم كانوا قد عاهدوا الله أن يتخذوه ملكا عليهم ويخضعوا لسلطانه . لهذا كان تذمرهم حينئذ عصيانا ، فكان لا بد من قصاص سريع وعلني إذا كان لا بد من حفظ إسرائيل من الفوضى والهلاك «فَاشْتَعَلَتْ فِيهِمْ نَارُ الرَّبِّ وَأَحْرَقَتْ فِي طَرَفِ الْمَحَلَّةِ» (انظر سفر العدد ١١) فأولئك الذين كانوا أكثر المتذمرين جرما ماتوا محترقين بنار البرق التي سقطت عليهم من السحابة .

ففي رعبهم توسل الشعب إلى موسى أن يصلي إلى الرب لأجلهم ، ففعل ، وأخمدت النار وتذكارا لهذه الدينونة دعا موسى ذلك المكان تبعيرة أي «حريق أو نار» .

لكن الشر تفاقم أكثر مما كان ، فبدلا من أن يلجأ الناجون إلى التذلل والتوبة فقد بدا كأن هذا الحكم المخيف قد زاد من تذمراتهم ، ففي كل مكان اجتمع الشعب في أبواب خيامهم يبكون وينوحون . «وَاللَّفِيفُ الَّذِي فِي وَسَطِهِمِ اشْتَهَى شَهْوَةً . فَعَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَيْضًا وَبَكَوْا وَقَالُوا : مَنْ يُطْعِمُنَا لَحْمًا ؟ قَدْ تَذَكَّرْنَا السَّمَكَ الَّذِي كُنَّا نَأْكُلُهُ فِي مِصْرَ مَجَّانًا ، وَالْقِثَّاءَ وَالْبَطِّيخَ وَالْكُرَّاثَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ . وَالآنَ قَدْ يَبِسَتْ أَنْفُسُنَا . لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ أَنَّ أَعْيُنَنَا إِلَى هذَا الْمَنِّ !» وهكذا أعلنوا تبرمهم بالطعام الذي أعده لهم خالقهم . ومع ذلك فقد كان هنالك برهان دائم على ملاءمته لحاجتهم . لأنه رغم المتاعب التي قاسوها لم يكن في كل أسباطهم واهن ولا هزيل .

غاص قلب موسى في داخله ، فتوسل إلى الله لكي لا يهلك إسرائيل ، حتى ولو صار أبا لأمة عظيمة ، وفي محبته لهم طلب أن يمحى اسمه من سفر الحياة بدلا من أن يتركوا ليهلكوا . لقد خاطر بكل شيء لأجلهم ، ومع ذلك فهذا كان جوابهم . لقد اتهموه بأنه كان السبب في كل متاعبهم حتى كل الآلام التي لم يكن لها وجود ، فضاعفت تذمراتهم الشريرة من ثقل الرعاية والمسؤولية التي كان ينوء تحتها . ففي ضيقة نفسه جرب أن يشك في الله نفسه ، فكادت صلاته تكون شكوى ، فقال . «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى عَبْدِكَ ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنَّكَ وَضَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هذَا الشَّعْبِ عَلَيَّ ؟ ... مِنْ أَيْنَ لِي لَحْمٌ حَتَّى أُعْطِيَ جَمِيعَ هذَا الشَّعْبِ ؟ لأَنَّهُمْ يَبْكُونَ عَلَيَّ قَائِلِينَ : أَعْطِنَا لَحْمًا لِنَأْكُلَ . لاَ

379,380

أَقْدِرُ أَنَا وَحْدِي أَنْ أَحْمِلَ جَمِيعَ هذَا الشَّعْبِ لأَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَيَّ» .

أصغى الرب إلى صلاته وأمره أن يدعو سبعين رجلا من شيوخ إسرائيل- رجالا ليسوا متقدمين في الأيام فحسب بل عظماء ذوي حكم صائب واختبار طويل ويقبل «بِهِمْ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ» ثم قال : «فَيَقِفُوا هُنَاكَ مَعَكَ . فَأَنْزِلَ أَنَا وَأَتَكَلَّمَ مَعَكَ هُنَاكَ ، وَآخُذَ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْكَ وَأَضَعَ عَلَيْهِمْ ، فَيَحْمِلُونَ مَعَكَ ثِقْلَ الشَّعْبِ ، فَلاَ تَحْمِلُ أَنْتَ وَحْدَكَ» .

وسمح الرب لموسى أن يختار لنفسه أعظم الرجال أمانة وكفاءة ليقاسموه المسؤولية ، وقد يساعد نفوذهم في كبح اهتياج الشعب وقسوتهم وتسكين ثورتهم ، ومع ذلك فإن شرورا خطيرة ستنتج عن ترقية أولئك الرجال ، فما كانوا يختارون لو أن موسى أبدى إيمانا يتناسب مع البراهين التي حصل عليها لقدرة الله وصلاحه ، ولكنه بالغ في تجسيم أثقاله وخدماته ، وكاد ينسى حقيقة كونه لم يكن أكثر من آلة استخدمها الله . إنه لم يكن ليعذر في إظهار أقل القليل من روح التذمر التي كانت لعنة إسرائيل ، فلو أنه اعتمد على الله اعتمادا كليا لكان أرشده على الدوام وأعطاه قوة لمواجهة كل الطوارئ .

أمر موسى أن يعد الشعب لما كان الله مزمعا أن يفعله لأجلهم فقال له الرب «وَلِلشَّعْبِ تَقُولُ : تَقَدَّسُوا لِلْغَدِ فَتَأْكُلُوا لَحْمًا ، لأَنَّكُمْ قَدْ بَكَيْتُمْ فِي أُذُنَيِ الرَّبِّ قَائِلِينَ : مَنْ يُطْعِمُنَا لَحْمًا ؟ إِنَّهُ كَانَ لَنَا خَيْرٌ فِي مِصْرَ . فَيُعْطِيكُمُ الرَّبُّ لَحْمًا فَتَأْكُلُونَ . تَأْكُلُونَ لاَ يَوْمًا وَاحِدًا ، وَلاَ يَوْمَيْنِ ، وَلاَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ ، وَلاَ عَشَرَةَ أَيَّامٍ ، وَلاَ عِشْرِينَ يَوْمًا ، بَلْ شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ مَنَاخِرِكُمْ ، وَيَصِيرَ لَكُمْ كَرَاهَةً ، لأَنَّكُمْ رَفَضْتُمُ الرَّبَّ الَّذِي فِي وَسَطِكُمْ وَبَكَيْتُمْ أَمَامَهُ قَائِلِينَ : لِمَاذَا خَرَجْنَا مِنْ مِصْرَ ؟» .

فصاح موسى قائلا : «سِتُّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ هُوَ الشَّعْبُ الَّذِي أَنَا فِي وَسَطِهِ ، وَأَنْتَ قَدْ قُلْتَ : أُعْطِيهِمْ لَحْمًا لِيَأْكُلُوا شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ . أَيُذْبَحُ لَهُمْ غَنَمٌ وَبَقَرٌ لِيَكْفِيَهُمْ ؟ أَمْ يُجْمَعُ لَهُمْ كُلُّ سَمَكِ الْبَحْرِ لِيَكْفِيَهُمْ ؟» .

وقد وبخه الرب على شكه فقال له : «هَلْ تَقْصُرُ يَدُ الرَّبِّ ؟ الآنَ تَرَى أَيُوافِيكَ كَلاَمِي أَمْ لاَ» .

وردد موسى كلام الرب في مسامع الشعب وأعلن لهم عن تعيين السبعين شيخا ، وأن الوصية المقدمة لهؤلاء الرجال المختارين من هذا القائد العظيم تصلح نموذجا لاستقامة القضاء للقضاة والمشترعين في هذه الأيام إذ يقول : «اسْمَعُوا بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ وَاقْضُوا بِالْحَقِّ بَيْنَ

الإِنْسَانِ وَأَخِيهِ وَنَزِيلِهِ . لاَ تَنْظُرُوا إِلَى الْوُجُوهِ فِي الْقَضَاءِ . لِلصَّغِيرِ كَالْكَبِيرِ تَسْمَعُونَ . لاَ تَهَابُوا وَجْهَ إِنْسَانٍ لأَنَّ الْقَضَاءَ لِلهِ» (تثنية ١ : ١٦،١٧) .

وهنا دعا موسى السبعين رجلا إلى الخيمة ، «فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي سَحَابَةٍ وَتَكَلَّمَ مَعَهُ ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى السَّبْعِينَ رَجُلاً الشُّيُوخَ . فَلَمَّا حَلَّتْ عَلَيْهِمِ الرُّوحُ تَنَبَّأُوا ، وَلكِنَّهُمْ لَمْ يَزِيدُوا» فكالتلاميذ في يوم الخمسين منحوا «قُوَّةً مِنَ الأَعَالِي» وقد سر الله أن يعدهم لعملهم بهذه الكيفية ، وأن يكرمهم أمام عيون الجماعة لكي يضعوا فيهم ثقتهم كمن قد اختارتهم السماء لمشاركة موسى في حكم إسرائيل .

وقد جاء برهان جديد على الروح السامية روح الإيثار التي كان يتصف بها ذلك القائد العظيم . ذلك أن رجلين من السبعين إذ كانا بكل تواضع يحسبان أنفسهما غير مستأهلين لذلك المركز العظيم الذي ينطوي على مسؤوليات خطيرة لم يذهبا إلى الخيمة مع إخوتهما . ولكن الروح حل عليهما حيث كانا ، فطفقا يتنبآن ، فلما سمع يشوع بذلك أراد أن يوقف ذلك التشويش خشية أن يؤدي ذلك إلى الانقسام . فيشوع هذا ، حرصا منه على كرامة سيده قال له : «يَا سَيِّدِي مُوسَى ، ارْدَعْهُمَا ! فَقَالَ لَهُ مُوسَى : هَلْ تَغَارُ أَنْتَ لِي ؟ يَا لَيْتَ كُلَّ شَعْبِ الرَّبِّ كَانُوا أَنْبِيَاءَ إِذَا جَعَلَ الرَّبُّ رُوحَهُ عَلَيْهِمْ» .

وقد هبت ريح شديدة من البحر وساقت أسرابا من السلوى «مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ هُنَا وَمَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ هُنَاكَ ، حَوَالَيِ الْمَحَلَّةِ ، وَنَحْوَ ذِرَاعَيْنِ فَوْقَ وَجْهِ الأَرْضِ» وطوال ذلك اليوم والليل واليوم التالي اشتغل الشعب في جمع ذلك الطعام الذي أعطي لهم بطريقة عجائبية ، وقد أعطيت لهم كميات هائلة منه «الَّذِي قَلَّلَ جَمَعَ عَشَرَةَ حَوَامِرَ» ، والذي زاد عن حاجتهم في ذلك اليوم جففوه وحفظوه بحيث كانت تلك الكمية تكفيهم شهرا كاملا كما قد وعدهم الرب .

أعطى الرب للشعب ذلك الشيء الذي لم يكن لخيرهم الأسمى لأنهم أصروا على اشتهائه ، فلم يقنعوا بالأشياء التي تبرهن أنها نافعة لهم ، وقد أشبعت شهواتهم الجامحة ولكن كان عليهم أن يتحملوا النتائج ، لقد أولموا بدون تحفُّظ غير أنهم عوقبوا على إفراطهم في الحال ، «وَضَرَبَ الرَّبُّ الشَّعْبَ ضَرْبَةً عَظِيمَةً جِدًّا» ، فسقط عدد كبير منهم وماتوا بحمى محرقة ، بينما ضرب أكثرهم إجراما حالما ذاقوا ذلك الطعام الذي اشتهوه .

381,382

وفي حضيروت ، المكان التالي الذي حلوا فيه بعد رحيلهم عن تبعيره ، كانت هنالك في انتظار موسى تجربة أقسى وأمر مما سبق ، كان هارون ومريم يشغلان مركزا ساميا ، مركز الكرامة والقيادة في إسرائيل ، وقد أعطيت لكل منهما موهبة النبوة ، وأشركهما الله مع موسى في خلاص العبرانيين فبلسان النبى ميخا قال الله : «وَأَرْسَلْتُ أَمَامَكَ مُوسَى وَهارُونَ وَمَرْيَمَ» (ميخا ٦ : ٤) ولقد ظهرت قوة أخلاق مريم منذ أمد بعيد إذ وقفت في صباها على شاطئ النيل تراقب السفط الذي كان فيه أخوها الطفل موسى ، واستخدم الله قوة ضبطها لنفسها ولباقتها في حفظ حياة محرر شعبه ، وإذ كانت مريم امرأة موهوبة في الشعر والموسيقى قادت نساء إسرائيل في الغناء والرقص عند شواطئ البحر الأحمر ، وكان الشعب يحبها وكانت السماء تكرمها حتى صارت الثانية في المقام بعد موسى وهارون ، ولكن نفس الشر الذي أحدث التشويش والنزاع في السماء منذ البدء ثار في قلب هذه المرأة الإسرائيلية ، ولم تعدم شريكا يشاطرها سخطها .

حين اختير الشيوخ السبعون لم تستشر مريم ولا هارون ، فثارت في نفسيهما الغيرة من موسى . وعندما أتى يثرون لزيارة موسى حين كان الشعب في طريقهم إلى سيناء أثار استعداد موسى لقبول مشورة حمية الخوف في نفسيهما لئلا ينال يثرون حظوة ونفوذا لدى القائد العظيم (موسى) أكثر منهما . وفي تنظيم مجلس السبعين أحس هارون ومريم أن مركزهما وسلطتهما قد أغفلا . ولم يكن هارون ومريم يعرفان شيئا عن ثقل الهم والمسؤولية التي كان موسى رازحا تحتها ، ومع ذلك فلكونهما قد اختيرا لمعاونته اعتبرا نفسيهما أنهما يشاركانه بالتساوي في حمل عبء القيادة ، واعتبرا كذلك أنه لا داعي لتعيين مساعدين آخرين .

كان موسى يحس بأهمية الحمل العظيم المسند إليه كما لم يحس به أي إنسان آخر . وكان موقنا من ضعفه فجعل الله مشيرا له ، أما هارون فكان يقدر نفسه أكثر مما يلزم ، وكان أقل من موسى ثقة بالله ، لذلك أخفق حين أسندت اليه مسؤولية هامة ، وبرهن على ضعف أخلاقه بإذعانه المهين في أمر العبادة الوثنية في سيناء . ولكن هارون ومريم اللذين أعماهما الحسد والطموح نسيا هذا ، لقد منح الله هارون كرامة عظيمة إذ عين عائلته في الوظائف الكهنوتية المقدسة ، ومع ذلك فحتى هذا زاد من رغبته في تعظيم نفسه «هَلْ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَحْدَهُ ؟ أَلَمْ يُكَلِّمْنَا نَحْنُ أَيْضًا ؟» (انظر سفر العدد ١٢) فإذ

كانا يعتبران أن لهما من الحظوة لدى الله مثل ما لموسى تماما أحسا بأنهما أهـل لنفس المركز ونفس السلطان كموسى .

وإن مريم ، إذ استسلمت لروح السخط وجدت سببا للشكوى في حوادث كان الله مسيطرا عليها بكيفية خاصة . لقد أغضبها زواج موسى ، لأن اختياره زوجة من شعب آخر بدلا مـن اختياره زوجة من العبرانيات كان إهانة لعائلتها وكبريائها القومية . لقـد عوملـت صفـورة باحتقار مقنَّع .

ومع أن زوجة موسى دعيت «الْمَرْأَةِ الْكُوشِيَّةِ» فقد كانت في حقيقة الأمر مديانية الأصـل ، ولذلك كانت نسل ابراهيم وتختلف في منظرها عن العبرانيات إذ كانت أشد سمرة منهن . ومع أن صفورة لم تكن إسرائيلية فقد كانت تعبد الإله الحقيقي . كـانت امـرأة خجـولا لا تحـب الظهور ، كما كانت لطيفة ومحبة ويزعجها ويحزنها منظر الألم ، وهذا هو السبب الذي لأجله رضي موسى برجوعها إلى مديان حين كان في طريقه إلى مصر . لقد أراد أن يوفر عليـها ألم مشاهدة الضربات التي كانت مزمعة أن تحل بالمصريين .

ولما اجتمعت صفورة برجلها في البرية رأت أن أثقاله تضعف قـواه وكاشـفت يـثرون بمخاوفها ، فاقترح عليه بعض الاجراءات للتخفيف عنه . كان هذا هو السبب الرئيسـي فـي نفور مريم من صفورة ، فإذ كانت تتألم من إهمال موسى المزعوم لها ولهارون اعتـبرت أن زوجة موسى هي السبب ، واستنتجت أن تأثيرها فيه حال بينه وبين اطلاعهما على أسـراره ومشوراته كما كانت الحال قبلا . لو ثبت هارون إلى جانب الحق لأمكنه أن يوقـف الشـر ، ولكن بدلا من أن يبصِّر مريم بشر تصرفها بادلها الشعور وأصغى إلى شكواها واشترك معـها في غيرتها من موسى .

احتمل موسى اتهاماتها بسكوت وبدون تذمر . إن الاختبار الذي حصل عليه في أثناء سـني التعب والانتظار في مديان– أي روح الوداعة والاحتمال التي نماها فيه– هو الذي أعد موسـى ليواجه ، بصبره عدم إيمان الشعب وتذمراتهم ، وحسد وكبرياء ذينك اللذين كان ينبغي أن يكونـا مساعديه الثابتين . لقد كان موسى «حَلِيمًا جِدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْـهِ الأَرْضِ» وهذا هو السبب الذي لأجله أعطيت له حكمة وإرشاد إلهيان أكثر من غـيره . يقـول الكتـاب «يُدَرِّبُ الْوُدَعَاءَ فِي الْحَقِّ ، وَيُعَلِّمُ الْوُدَعَاءَ طُرُقَهُ» (مزمور ٢٥ : ٩) إن الله يـدرب الودعـاء

ويرشدهم لأنهم قابلون للتعليم وراغبون فيه . إن لهم رغبة صادقة في معرفة إرادة الله واتمامها ، وقد وعد المخلص قائلا : «إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ» (يوحنا ٧ : ١٧) وقد أعلن على لسان يعقوب قائلا : «وَإِنَّمَا إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ تُعْوِزُهُ حِكْمَةٌ ، فَلْيَطْلُبْ مِنَ اللهِ الَّذِي يُعْطِي الْجَمِيعَ بِسَخَاءٍ وَلاَ يُعَيِّرُ ، فَسَيُعْطَى لَهُ» ولكن وعده هو فقط لأولئك الذين يرغبون في اتباع الرب تماما . إن الله لا يرغم إرادة أي كان ، ولذلك لا يقدر أن يرشد المتكبرين جدا حيث أنهم لا يرغبون في التعلم ، الذين يصرون على السير في طريقهم الخاص . أما الرجل ذو الرأيين- الذي يطلب عمل إرادته بينما هو يعترف بأنه يحمل إرادة الله فالكتاب يقول عنه : «فَلاَ يَظُنَّ ذلِكَ الإِنْسَانُ أَنَّهُ يَنَالُ شَيْئًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ» (يعقوب ١ : ٧،٥) .

لقد اختار الله موسى ووضع روحه عليه ، ولذلك فإن مريم وهارون بتذمراتهما كانا خائنين ليس فقط للقائد المعين من الله بل لله نفسه ، فذانك المتمردان اللذان كانا يتهامسان سرا استدعيا إلى الخيمة ليقفا مع موسى وجها لوجه «فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي عَمُودِ سَحَابٍ وَوَقَفَ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ ، وَدَعَا هَارُونَ وَمَرْيَمَ» لم ينكر عليهما ادعاءهما بأن لهما موهبة النبوة ، وقد يكون أنه كلمهما في الرؤى والأحلام ، أما موسى الذي أعلن الرب نفسه عنه قائلا : «هُوَ أَمِينٌ فِي كُلِّ بَيْتِي» فقد أعطى له أن يتمتع بشركة أوثق وأعمق- لقد كان الرب يكلمه فما إلى فم . ثم قال لهما الله : «لِمَاذَا لاَ تَخْشَيَانِ أَنْ تَتَكَلَّمَا عَلَى عَبْدِي مُوسَى ؟ فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْهِمَا وَمَضَى» لقد اختفت السحابة عن الخيمة علامة على سخط الله وغضبه فضربت مريم ، إذ صارت «بَرْصَاءُ كَالثَّلْجِ» لقد أبقي على هارون ، إلا أنه وقع تحت توبيخ صارم في القصاص الذي وقع على مريم . فالآن بعد ما انحطت كبرياؤهما في التراب اعترف هارون بخطيتهما ، وتوسل لأجل اخته حتى لا تترك لتموت بسوط البرص الكريه المميت ، فإجابة لصلاة موسى طهرت من برصها ، ومع ذلك فقد حجزت خارج المحلة سبعة أيام . ولم تعد علامة رضى الله (السحابة) إلى الخيمة إلاَّ بعد ما نفيت مريم بعيدا عن المحلة ، فاحتراما لمقامها السامي ولشدة الحزن عليها بسبب الضربة التي أصابتها بقيت الجماعة كلها- في حضيروت بانتظار عودتها .

وكان غرض الله من إعلان سخطه هذا أن يكون تحذيرا لكل إسرائيل ليكون رادعا لروح التبرم والتمرد المتفشية بينهم . فلو لم توبخ مريم علنا على خطية السخط التي بدرت منها لنتج عنها شر عظيم . إن الحسد هو من أعظم الصفات الشيطانية التي يمكن أن تحل في القلب

البشري ، وهي من شر الخطايا الوبيلة في نتائجها . يقول الحكيم «اَلْغَضَبُ قَسَاوَةٌ وَالسَّخَطُ جُرَافٌ ، وَمَنْ يَقِفُ قُدَّامَ الْحَسَدِ» (أمثال ٢٧ : ٤) لقد كان الحسد هو الذي أحدث التشويش في السماء من البدء ، وسبب الانغماس فيه شرورا لا تحصى لبني الإنسان «لأَنَّهُ حَيْثُ الْغَيْرَةُ وَالتَّحَزُّبُ ، هُنَاكَ التَّشْوِيشُ وَكُلُّ أَمْرٍ رَدِيءٍ» (يعقوب ٣ : ١٦) .

ينبغي ألا نستخف بذم الآخرين أو إقامة أنفسنا قضاة ندين بواعثهم وأفعالهم «لاَ يَذُمَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ . الَّذِي يَذُمُّ أَخَاهُ وَيَدِينُ أَخَاهُ يَذُمُّ النَّامُوسَ وَيَدِينُ النَّامُوسَ . وَإِنْ كُنْتَ تَدِينُ النَّامُوسَ ، فَلَسْتَ عَامِلاً بِالنَّامُوسِ ، بَلْ دَيَّانًا لَهُ» (يعقوب ٤ : ١١) يوجد ديان واحد وهو الذي «الَّذِي سَيُنِيرُ خَفَايَا الظَّلاَمِ وَيُظْهِرُ آرَاءَ الْقُلُوبِ» (١كورنثوس ٤ : ٥) فأي إنسان يجعل نفسه ديانا أو قاضيا لبني جنسه إنما يغتصب حق الخالق .

والكتاب يحذرنا بنوع خاص من إلقاء التهم جزافا ضد الذين دعاهم الله ليكونوا سفراء له . والرسول بطرس إذ يصف جماعة من الخطاة الخلعاء يقول : «جَسُورُونَ ، مُعْجَبُونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، لاَ يَرْتَعِبُونَ أَنْ يَفْتَرُوا عَلَى ذَوِي الأَمْجَادِ ، حَيْثُ مَلاَئِكَةٌ- وَهُمْ أَعْظَمُ قُوَّةً وَقُدْرَةً - لاَ يُقَدِّمُونَ عَلَيْهِمْ لَدَى الرَّبِّ حُكْمَ افْتِرَاء» (٢بطرس ٢ : ١٠،١١) وبولس الرسول وهو يعلم قادة الكنيسة يقول : «لاَ تَقْبَلْ شِكَايَةً عَلَى شَيْخٍ إِلاَّ عَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ» (١تيموثاوس ٥ : ١٩) فذاك الذي وضع على أولئك الناس تلك المسؤولية الثقيلة مسؤولية تعليم شعبه وتبشيرهم لا بد من أن يدين الناس على الكيفية التي بها يعاملون خدامه . فعلينا أن نكرم الذين قد أكرمهم الله . إن القصاص الذي حل بمريم ينبغي أن يكون توبيخا لكل من ينغلبون من الحسد ويتذمرون على الذين يضع الله عليهم مسؤولية عمله .

الفصل الرابع والثلاثون

الجواسيس الاثنا عشر

بعد أحد عشر يوما من رحيل الشعب عن جبل حوريب حلوا في قادش في برية فاران التي لم تكن تبعد كثيرا عن حدود أرض الموعد ، وهنا اقترح الشعب وجوب إرسال جواسيس لمعاينة البلاد ، وقد عرض موسى الأمر أمام الرب فأجيبوا إلى طلبهم على أن يرسل من كل سبط رئيس للقيام بهذه المأمورية . فاختير أولئك الرجال حسب الإرشاد وأمرهم موسى بالذهاب لرؤية الأرض ، ما هي وما هو موقعها وما هي ميزاتها الطبيعية والشعب الساكن فيها ، أقوي هو أم ضعيف ، قليل أم كثير ، وأن يلاحظوا طبيعة تربة الأرض أجيدة أم ردية وما درجة خصوبتها ، كما أمروا أن يحضروا معهم من ثمر الأرض .

فذهبوا وعاينوا الأرض كلها إذ دخلوها من الحدود الجنوبية وتقدموا إلى أقصى الشمال ، ثم عادوا بعد غيبة بلغت أربعين يوما . ولقد كانت لبني إسرائيل آمال كبار ، فانتظروا عودة أولئك الرجال بصبر نافد ، وقد انتقلت أخبار عودة الجواسيس من سبط إلى سبط فاستقبلوهم بالفرح والهتاف ، واندفع الشعب لملاقاة أولئك الرسل الذين نجوا من مأزق تلك المأمورية المحفوفة بالمخاطر ، وقد أحضر الجواسيس عينة من ثمار الأرض دلت على خصوبتها . وكان الوقت وقت نضوج العنب ، فأحضروا عنقودا من العنب كان كبيرا بحيث حمل بين رجلين ، كما أحضروا بعضا من التين والرمان الذي كان ينمو بوفرة هناك .

وقد سر الشعب لكونهم مزمعين أن يمتلكوا أرضا جيدة كهذه وأصغوا بكل انتباه إلى التقرير المقدم إلى موسى حتى لا تفوتهم كلمة ، فقال أولئك الجواسيس : «قَدْ ذَهَبْنَا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرْسَلْتَنَا إِلَيْهَا ، وَحَقًّا إِنَّهَا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً ، وَهذَا ثَمَرُهَا» (عدد ١٣ : ١٧ ٣٣؛ ١٤) فتحمس الشعب ، إذ كانوا مشتاقين إلى إطاعة أمر الرب في الذهاب حالا لامتلاك الأرض . ولكن بعد ما أتوا على وصف الأرض وخصوبتها فإن جميع الجواسيس ،

ما عدا اثنين منهم ، أسهبوا في وصف المتاعب والمخاطر التي تعترض بني إسرائيل لو شرعوا في غزو كنعان ، وجعلوا يعددون أسماء الشعوب القوية الساكنة في جهات متعددة من البلاد كما قالوا إن المدن محاطة بأسوار منيعة وعظيمة جدا ، والشعب الذي فيها معتز وقوي ، وأنه من المستحيل عليهم أن يغلبوهم . كما قالوا إنهم رأوا هناك الجبابرة بني عناق ، وأنهم عبثا يفكرون في الاستيلاء على الأرض .

وهنا تغيير الموقف ، فلقد حل في مكان الرجاء والشجاعة ، الجبن واليأس القاتل حين عبر الجواسيس بالكلام عن أفكار قلوبهم العديمة الإيمان والممتلئة بالمثبطات التي أوصى بها الشيطان . وقد ألقى عدم إيمانهم ظلالا كثيفة ومحزنة على كل الجماعة ، فنسي الشعب قدرة الله العظيمة التي أبداها في إجراء ما يؤول إلى خير تلك الأمة المختارة ، ولم يعط الشعب نفسه وقتا للتفكير والتأمل ، ولم يفكروا في أن الله الذي قد أوصلهم إلى ذلك المكان لا بد من أن يعطيهم الأرض ، ولم يذكروا كيف أنقذهم الله بكيفية عجيبة من أيدي ظالميهم ، وكيف شق لهم في البحر طريقا ، وكيف أهلك جيوش فرعون التي طاردتهم . لقد أسقطوا الله من حسابهم وتصرفوا كما لو كان يجب عليهم أن يتكلوا فقط على قوة السلاح .

وفي عدم إيمانهم حدوا من قدرة الله ، وشكوا في قوة اليد التي قادتهم إلى هنا بسلام ، وعادوا يرتكبون نفس الخطأ الماضي في التذمر على موسى وهارون ، وقالوا : «إذا فهذه هي نهاية كل آمالنا العظيمة ، وهذه هي الأرض التي سرنا طول هذه الطريق من مصر إلى هنا لكي نمتلكها !» وقد اتهموا قادتهم بأنهم غرروا بالشعب وجلبوا المتاعب على إسرائيل .

وتهور الشعب في خيبتهم ويأسهم ، فصعد صراخهم وعويلهم إلى عنان السماء وامتزج بأصوات التذمر والتشويش . ولكن كالب كان يدرك الموقف على حقيقته ، وكان من الشجاعة بحيث ثبت في الدفاع عن كلمة الله ، وبذل كل ما في طوقه لكي يبطل الأثر الشرير الذي أحدثه في الشعب رفقاؤه غير الأمناء . وللحظة أصغى الشعب إلى كلمات الرجاء والشجاعة بخصوص الأرض الجديدة . إنه لم يناقض ما قاله زملاؤه بل قال نعم إن الأسوار عالية والكنعانيين أشداء ولكن الله كان قد وعد بالأرض لإسرائيل . وقد ألح على الشعب قائلا : «إِنَّنَا نَصْعَدُ وَنَمْتَلِكُهَا لأَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَيْهَا» .

ولكن العشرة قاطعوا كلامه وجعلوا يصورون الصعوبات والعقبات في صورة أشد قتاما

من الأولى فأعلنوا قائلين : «لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَصْعَدَ إِلَى الشَّعْبِ ، لأَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنَّا ... الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا هِيَ أَرْضٌ تَأْكُلُ سُكَّانَهَا ، وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِي رَأَيْنَا فِيهَا أُنَاسٌ طِوَالُ الْقَامَةِ . وَقَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الْجَبَابِرَةَ ، بَنِي عَنَاق مِنَ الْجَبَابِرَةِ . فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَالْجَرَادِ ، وَهكَذَا كُنَّا فِي أَعْيُنِهِمْ» .

إن هؤلاء الرجال إذ بدأوا السير في ذلك الطريق الخاطئ وقفوا بكل إصرار ضد يشوع وكالب يتحدونهما ويتحدون الله ، وبمرور الوقت زادوا في إصرارهم ، لقد عزموا على تثبيط كل مسعى لامتلاك كنعان ، وعوجوا الحق تأييدا لتأثيرهم الوبيل ، إذ قالوا إنها «أَرْضٌ تَأْكُلُ سُكَّانَهَا» إن هذا القول فضلا عن كونه بلاغا شريرا فقد كان مجانبا للصواب ، وكاذبا ، ومتناقضا . لقد سبق للجواسيس أن قالوا إن الأرض خصبة وجيدة وغنية وأن الشعب الذي فيها قوم طوال القامة ، ، فكل هذا يكون مستحيلا لو أن المناخ كان غير موافق للصحة إلى درجة يمكن القول معها أن الأرض «تَأْكُلُ سُكَّانَهَا» . ولكن الناس متى أسلموا نفوسهم لعدم الإيمان فإنهم يجعلون ذواتهم تحت سلطة الشيطان ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن إلى أين سيصل بهم الشيطان .

«فَرَفَعَتْ كُلُّ الْجَمَاعَةِ صَوْتَهَا وَصَرَخَتْ ، وَبَكَى الشَّعْبُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ» وسرعان ما تبع ذلك تمرد وثورة علنية ، لأن الشيطان تسلط تسلطا كاملا على الشعب ، وبدا كأن تلك الجماعة فقدت القدرة على التمييز ، إذ صاروا يلعنون موسى وهارون وتناسوا أن الله سمع كل كلامهم الشرير ، وأن ملاك حضرته وإن كان محتجبا في عمود السحاب فقد كان يشهد انفجار غضبهم . فقد صرخوا في مرارة قائلين : «لَيْتَنَا مُتْنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ ، أَوْ لَيْتَنَا مُتْنَا فِي هذَا الْقَفْرِ !» ثم ثارت عواطفهم ضد الله فقالوا : «لِمَاذَا أَتَى بِنَا الرَّبُّ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ لِنَسْقُطَ بِالسَّيْفِ ؟ تَصِيرُ نِسَاؤُنَا وَأَطْفَالُنَا غَنِيمَةً . أَلَيْسَ خَيْرًا لَنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى مِصْرَ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : «نُقِيمُ رَئِيسًا وَنَرْجعُ إِلَى مِصْرَ»» وهكذا لم يتهموا موسى وحده بمراوغتهم في كونه وعدهم بامتلاك أرض لا قبل لهم بامتلاكها بل اتهموا الله نفسه بذلك . ثم أمعنوا في شرهم حتى لقد أقاموا رئيسا يعود بهم إلى مصر التي ذاقوا فيها مرارة الآلام والعبودية والتي قد نجوا منها بقوة ذراع الله القدير .

ففي تذلل وحزن «سَقَطَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَى وَجْهَيْهِمَا أَمَامَ كُلِّ مَعْشَرِ جَمَاعَةِ بَنِي

إِسْرَائِيلَ» وهما حائران لا يعلمان ماذا يفعلان ليحولا الشعب عن قصدهم الثائر المتسرع . وقد حاول كالب ويشوع تهدئة ذلك الشعب ، ففي ثيابهما الممزقة دليلا على الحزن والغضب اندفعا بين الشعب وسمع صوتهما يعلو فوق أصوات العويل والحزن المتمرد قائلا : «الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا جَيِّدَةٌ جِدًّا جِدًّا . إِنْ سُرَّ بِنَا الرَّبُّ يُدْخِلْنَا إِلَى هذِهِ الأَرْضِ وَيُعْطِينَا إِيَّاهَا ، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً . إِنَّمَا لاَ تَتَمَرَّدُوا عَلَى الرَّبِّ ، وَلاَ تَخَافُوا مِنْ شَعْبِ الأَرْضِ لأَنَّهُمْ خُبْزُنَا . قَدْ زَالَ عَنْهُمْ ظِلُّهُمْ ، وَالرَّبُّ مَعَنَا . لاَ تَخَافُوهُمْ» .

كان الكنعانيون قد أكملوا مكيال إثمهم ، ولم يرد الرب أن يصبر عليهم أكثر من ذلك ، فإذا تخلى الرب عن حمايتهم فلابد من أن يصيروا فرائس سهلة المنال . وكانت الأرض مضمونة لإسرائيل بموجب عهد الله . ولكن التقرير الكاذب الذي قدمه الجواسيس الخونة حاز قبولا لدى الشعب ، وبسببه انخدعت كل الجماعة . لقد أتم أولئك الخونة عملهم ، ولو أن اثنين فقط هما اللذان أتيا بذلك التقرير المنكود وكان كل الجواسيس العشرة مشجعين للشعب على امتلاك الأرض باسم الرب لكان الشعب يفضلون تقرير الاثنين على تقرير العشرة سبب شكهم الأثيم . ولكن اثنين فقط هما اللذان انبريا للدفاع عن الحق بينما العشرة وقفوا إلى جانب المتردين .

وقد صاح الجواسيس غير الأمناء يشهرون بكالب ويشوع ، وصاح بعضهم يطلبون رجمهما بالحجارة . فتناول أولئك الرعاع المعتوهون حجارة لقتل ذينك الرجلين الأمينين ، واندفعوا إلى الأمام يصرخون صرخات مجنونة ، وفجأة سقطت الأحجار من أيديهم وساد السكوت على الجميع وارتعبوا من شدة خوفهم ، فلقد تدخل الله ليحول بينهم وبين غرضهم الإجرامي ، فأضاء الخيمة مجد حضوره كنور مشتعل . فرأى الجميع علامة حضور الرب . إن سيدا أعظم منهم قد أعلن نفسه ، ولم يجرؤ أحد على التمادي في المقاومة . أما الجواسيس الذين جاءوا بذلك الخبر السوء فجثموا في أماكنهم إذ قد صعقوا ، ثم أسرعوا يلهثون إلى خيامهم .

وهنا نهض موسى ودخل الخيمة ، فقال له الرب : «إِنِّي أَضْرِبُهُمْ بِالْوَبَإِ وَأُبِيدُهُمْ ، وَأُصَيِّرُكَ شَعْبًا أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِنْهُمْ» ولكن موسى عاد يتوسل لأجل شعبه إذ لم يكن يرضيه هلاكهم وصيرورته هو شعبا أعظم منهم . فتوسل إلى الله بحق رحمته قائلا : «فَالآنَ

389,390

لِتَعْظُمْ قُدْرَةُ سَيِّدِي كَمَا تَكَلَّمْتَ قَائِلاً : الرَّبُّ طَوِيلُ الرُّوحِ كَثِيرُ الإِحْسَانِ ... اِصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ هذَا الشَّعْبِ كَعَظَمَةِ نِعْمَتِكَ ، وَكَمَا غَفَرْتَ لِهذَا الشَّعْبِ مِنْ مِصْرَ إِلَى ههُنَا» .

فوعد الرب موسى أن يبقي على إسرائيل فلا يهلكهم في الحال . ولكن بسبب عدم إيمانهم وجبنهم لم يكن للرب أن يعلن قدرته في إخضاع أعدائهم ، ولذلك ففي رحمته أمرهم بالعودة إلى البحر الاحمر إذ أن ذلك كان أسلم طريق .

إن الشعب في تمردهم على الله صرخوا قائلين : «لَيْتَنَا مُتْنَا فِي هذَا الْقَفْرِ !» وقد أجيبوا إلى طلبهم هذا إذ أعلن الرب قائلا : «حَيٌّ أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ ، لأَفْعَلَنَّ بِكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ فِي أُذُنَيَّ . فِي هذَا الْقَفْرِ تَسْقُطُ جُثَثُكُمْ ، جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنْكُمْ حَسَبَ عَدَدِكُمْ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا ... وَأَمَّا أَطْفَالُكُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ يَكُونُونَ غَنِيمَةً فَإِنِّي سَأُدْخِلُهُمْ ، فَيَعْرِفُونَ الأَرْضَ الَّتِي احْتَقَرْتُمُوهَا» أما كالب فقد قال الرب عنه : «وَأَمَّا عَبْدِي كَالِبُ فَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَتْ مَعَهُ رُوحٌ أُخْرَى ، وَقَدِ اتَّبَعَنِي تَمَامًا ، أُدْخِلُهُ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا ، وَزَرْعُهُ يَرِثُهَا» وكما قضى الجواسيس أربعين يوما في رحلتهم كان على شعب إسرائيل أن يهيموا على وجوههم في القفر أربعين سنة .

وحين أخبر موسى الشعب بحكم الله عليهم استحال غضبهم إلى نوح وبكاء . عرفوا أن ذلك الحكم هو حكم عادل . أما الجواسيس العشرة غير الأمناء فضربهم الله بالوبأ فهلكوا أمام عيون كل إسرائيل ، فعلم الشعب أن في هلاك أولئك الجواسيس هلاكهم هم أيضا .

بدا الآن أن توبتهم عن تصرفهم الخاطئ كانت خالصة إلا أن حزنهم كان بسبب نتائج مسلكهم الشرير لا لأنهم شعروا بجحودهم وعصيانهم . ولما رأوا أن الله لم يتراجع في حكمه ثار عنادهم مرة أخرى وأعلنوا أنهم لن يعودوا إلى البرية . إن الله حين أمرهم بالرجوع عن أرض العدو أراد أن يختبر خضوعهم فتحقق من أنه ليس خضوعا حقيقيا . لقد عرفوا أنهم أخطأوا خطية عظيمة في استسلامهم لعواطفهم الطائشة ، وفي محاولتهم قتل الجاسوسين اللذين ألحا عليهم في إطاعة الله ، ولكنهم ارتعبوا حين اكتشفوا أنهم فد ارتكبوا خطأ رهيبا لا بد أن تنتج عنه نتائج وخيمة تلحق بهم . فقلوبهم لم تتغير ، إنما هم فقط كانوا يبحثون عن عذر يدعو إلى انفجار مماثل . وقد وجدوا ضالتهم حين أمرهم موسى ، بناء على أمر الله ، أن يعودوا إلى البرية .

إن حكم الله على إسرائيل بعدم دخول كنعان والبقاء في القفر أربعين سنة كان خيبة أمل

مريرة لموسى وهارون وكالب ويشوع . ومع ذلك فقد قبلوا حكم الله دون تذمر . ولكن أولئك الذين كانوا يشكون من معاملات الله لهم والذين أعلنوا أنهم يريدون العودة إلى مصر جعلوا ينوحون ويبكون بمرارة لأن البركات التي ازدروها أخذت منهم . ولم يكن هناك سبب للتذمر أو الشكوى فأعطاهم الله الآن سببا للبكاء . فلو أنهم ناحوا على خطيتهم حين كشفت لهم بكل أمانة لما حكم الله عليهم بهذا الحكم ، ولكنهم ناحوا بسبب القضاء الذي حل بهم . فلم يكن حزنهم دليلا على التوبة ولذلك فلم يكن ممكنا نقض ذلك الحكم .

لقد أحيوا تلك الليلة في البكاء ، ولكن مع الصباح أتاهم رجاء ، فعزموا على أن يكفروا عن جبنهم . إنهم حين أمرهم الله باحتلال البلاد رفضوا ، أما الآن فبعدما أمرهم الرب بالتراجع أظهروا العصيان نفسه ، وعزموا على غزو البلاد وامتلاكها ، إذ كانوا يؤملون أن الله سيقبل عملهم ويغير قصده نحوهم .

لقد جعله الله امتيازا لهم وواجبا عليهم أن يدخلوا الأرض في الوقت الذي عينه ، ولكن بسبب إهمالهم وعنادهم عاد الله فسحب منهم ذلك الامتياز . لقد حقق الشيطان غرضه في حرمانهم من دخول كنعان ، ولكن ها هو الآن يحرضهم على عمل الشيء نفسه الذي منعهم الله من عمله ، والذي رفضوا عمله حين أمرهم الرب أن يعملوه ، وهكذا أفلح ذلك المخادع العظيم وأحرز الانتصار بكونه ساقهم إلى التمرد مرة ثانية . لقد شكوا في قدرة الله على أن يعمل مع مجهودهم في امتلاك كنعان ، أما الآن فها هم يتشبثون بقوتهم على إنجاز ذلك العمل مستقلين عن معونة الله ، فصرحوا : «قَدْ أَخْطَأْنَا إِلَى الرَّبِّ . نَحْنُ نَصْعَدُ وَنُحَارِبُ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَنَا الرَّبُّ إِلهُنَا» (تثنية ١ : ٤١) لقد أعماهم العصيان إلى درجة فظيعة . إن الرب لم يأمرهم قط أن يصعدوا ويحاربوا ، ولم يرسم لهم أن يفتحوا البلاد بالحرب ، بل بالطاعة المدققة لمطالبيه .

وعلى الرغم من أن قلوب الشعب لم تتغير فقد عمدوا إلى الاعتراف بإثمية وحماقة ثورتهم على تقرير الجواسيس . عرفوا الآن قيمة البركة التي رفضوها بتسرع كلي ، واعترفوا أن عدم إيمانهم هو الذي صدَّهم عن كنعان . لقد صرحوا معترفين بأن الخطأ كان فيهم وليس في الله الذي اتهموه ، في شرهم ، بالعجز عن إتمام وعده لهم ، وقالوا «قَدْ أَخْطَأْنَا» ومع أن اعترافهم لم يكن صادرا عن توبة حقيقية ، فقد برر عدالة الله في

معاملاته لهم .

إن الرب لا يزال يعمل بنفس هذه الطريقة ليمجد اسمه في جعل الناس يعترفون بعدلـــه . فحين يتذمر أولئك الذين يعترفون بمحبتهم له من تصرفات العناية الإلهية ويحتقرون مواعيـده ويخضعون للتجربة فهم ينضمون إلى الملائكة الأشرار في محاولة إحباط مقاصد الله . والرب في غالب الأحيان يسيطر على الظروف بحيث يجعل أولئك الناس ، مـع أن توبتـهم ليسـت صادقة يقتنعون بخطيتهم ويلتزمون أن يعترفوا بشر مسلكهم وبعدالة الله وصلاحه في معاملاته لهم . هكذا الله يجعل العوامل المعاكسة تعمل على كشف أعمال الظلمة . ومع أن الروح التـي دفعت الإنسان إلى ذلك المسلك الشرير لم تتغير تغيرا جوهريا ، فالإنسان يقدم اعترافات تزكي كرامة الله ومجده وتبرر الموبخين الأمناء الذين يقيمهم ممن كانوا قد واجهوا المقاومات وأسيء تمثيلهم . وهكذا سيحدث حين ينصب غضب الله أخيرا ، فحين يجيء «الرَّبُّ فِـي رَبَـوَاتِ قِدِّيسِيهِ ، لِيَصْنَعَ دَيْنُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ» فإنه أيضا سوف «يُعَاقِبَ جَمِيعَ فُجَّـارِهِمْ عَلَـى جَمِيـعِ أَعْمَالِ فُجُورِهِمْ» (يهوذا ١٤،١٥) إن كل خاطئ سيعلم ويعترف بعدالة حكم الدينونة الصـادر عليه .

وبغض النظر عن حكم الله فقد تأهب أولئك الإسرائيليون ليشرعوا في غزو كنعـان . وإذ كانوا مزودين بأسلحة الحرب ، كانوا ، كما كانوا قدّروا ، متأهبين للقتـال . إلا أنـهم كـانوا ناقصين نقصا كبيرا في نظر الله وخدامه الحزانى . وبعد ذلك بحوالي أربعين سنة حين أمرهم الرب بالصعود إلى أريحا للاستيلاء عليها وعدهم بأنه سيذهب معهم . والتابوت الـذي كـان يحتوي على شريعة الله حمل أمام الجيوش . وكان على قادتهم المختارين أن يوجهوهم في كل حركاتهم تحت إشراف الله ، وبفضل تلك القيادة لم يصبهم أي أذى . أما الآن فعلى عكس أمـر الله والنهي الخطير الذي أصدره لهم قادتهم ، وبدون أن يكون معهم موسى أو التابوت خرجوا ليلتحموا مع جيوش العدو .

وقد ضرب البوق بصوت الإنذار وأسرع موسى إلـى أولئـك القـوم محـذرا : «لِمَـاذَا تَتَجَاوَزُونَ قَوْلَ الرَّبِّ ؟ فَهذَا لاَ يَنْجَحُ . لاَ تَصْعَدُوا ، لأَنَّ الرَّبَّ لَيْسَ فِي وَسَطِكُمْ لِئَلاَّ تَنْـهَزِمُوا أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ . لأَنَّ الْعَمَالِقَةَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ هُنَاكَ قُدَّامَكُمْ تَسْقُطُونَ بِالسَّيْفِ» (عدد ١٤ : ٤١-٤٣) .

كان الكنعانيون قد سمعوا بخبر تلك القوة الخفية التي بدا أنـها تحـرس هـذا الشـعب ،

والعجائب التي أجريت لأجلهم ، فجمعوا قوة عظيمة من رجالهم لصد هؤلاء الغزاة ، ولم يكن للجيش الإسرائيلي المهاجم قائد ولا قدموا صلاة لكي يهبهم الله النصرة ، بل ذهبوا مدفوعين بذلك القصد اليائس المتهور ليغيروا المصير المحكوم به عليهم أو يموتوا في ساحة القتال . ومع أنهم لم يكونوا متمرنين على الحرب فقد كانوا جمعا غفيرا من الرجال المسلحين ، وكانوا يؤملون أنهم بهجمة واحدة مباغتة وعنيفة سينتصرون على كل مقاومة ، فبكل كبرياء هاجموا العدو الذي لم يتجرأ من قبل على مهاجمتهم .

كان الكنعانيون قد ثبتوا أقدامهم في مكان صخري لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة معابر وعرة ، في مصاعد خطرة ، ثم أن كثرة عدد العبرانيين زادت من فظاعة هزيمتهم ، وبكل بطء ساروا في معابر الجبال وكانوا عرضة للقذائف المميتة التي كان أعداؤهم يرمونهم بها من عل ، وأن كتلا هائلة من الصخور قد اندفعت ترعد وهبطت عليهم محدثة دويا هائلا فأصابت المهاجمين فتخضبت الأرض بدمائهم . والذين وصلوا إلى قمة الجبل يلهثون تعبا وهم صاعدون ردوا على أعقابهم بعنف شديد . فتراجعوا بعد أن منوا بخسارة فادحة ، وقد تناثرت في ساحة المعركة أشلاء القتلى ، وانهزم جيش إسرائيل شر هزيمة ، فكان الهلاك والموت هما النتيجة المحتومة لتمردهم الذي اختبروا مرارته .

وإذ أجبروا على التسليم أخيرا ، فالأحياء منهم رجعوا وبكوا أمام الرب ولم يسمع لصوتهم ولا أصغى إليهم (تثنية ١ : ٤٥) وبتلك النصرة الفريدة التي أحرزها أعداء إسرائيل الذين كانوا ينتظرون مجيء ذلك الجيش العظيم بخوف ورعب ، تولدت في نفوسهم الثقة لمقاومتهم . وكل الأخبار التي كانوا قد سمعوها عن العجائب التي صنعها الله مع شعبه اعتبرها الكنعانيون الآن أخبارا كاذبة ، وأحسوا أنه لا داعي للخوف . إن تلك الهزيمة الأولى التي أصابت إسرائيل والتي بسببها امتلأت قلوب الكنعانيين شجاعة وتصميما زادت من صعوبة غزو البلاد ، ولم يبق لإسرائيل غير السقوط أمام أعدائهم المنتصرين والارتداد إلى القفر عالمين أنه فيه ستسقط جثث جيل بأكمله .

الفصل الخامس والثلاثون

عصيان قورح

إن الأحكام والعقوبات التي قد أنزلها الله بالإسرائيليين كانت لمدة رادعا لهم ، فلم يلجأوا إلى التذمر أو التمرد ، إلا أن روح العصيان كان لا يزال رابضا في قلوبهم حتى أنه أثمر أخيرا ثماره المريرة . إن الثورات الماضية لم تكن أكثر من مجرد مشاغبات عامة ، ناشئة عن التحريضات الفجائية التي كانت تصدر من الشعب الهائج ، أما الآن فقد نسجت خيوط مؤامرة متأصلة في النفوس ، جاءت نتيجة الإصرار على هدم سلطة القادة الذين أقامهم الله نفسه .

إن قورح الذي كان على رأس تلك الحركة كان لاويا من بيت قهات ومن أبناء عمومة موسى ، وكان رجلا موهوبا وقويا في تأثيره . ولئن كان معينا للخدمة في الخيمة إلا أنه لم يقنع بهذا المركز ، إذ كان يصبو للوصول إلى عظمة الكهنوت . إن منح هارون وبيته وظيفة الكهنوت التي كانت قبلا من نصيب بكر كل عائلة صارت مثار المحاسدات والتذمرات ، إذ ظل قورح ردحا من الزمن يقاوم سلطة موسى وهارون في الخفاء ، إذ لم يكن يجرؤ على المجاهرة بالعصيان . وأخيرا اعتملت في نفسه نية هدم السلطة المدنية والدينية معا ، ولم يكن يعدم مناصرين ومؤيدين . فبالقرب من خيام قورح وعشيرة القهاتيين وفي جنوبي خيمة الاجتماع كانت محلة سبط رأوبين وخيام داثان وأبيرام ، وهما من رؤساء عشائر ذلك السبط ، وكانت خيامهما قريبة من خيمة قورح . وسرعان ما رحب ذانك الرئيسان بالاشتراك مع قورح في خطته وطموحه . فلكونهما من سبط رأوبين أكبر بني يعقوب ادعيا أن لهما الحق في السلطة المدنية كما عزما على مقاسمة قورح أمجاد الكهنوت .

كان الشعور السائد بين الشعب محبذا لخطه قورح ، ففي مرارة خيبتهم عادت إليهم شكوكهم الماضية وحسدهم وبغضتهم فعادوا يشتكون من قائدهم الصبور . وكان الإسرائيليون ينسون دائما حقيقة كونهم تحت قيادة الله ، كما نسوا أن ملاك العهد هو قائدهم غير المنظور ،

وأن وجه المسيح الذي كان محتجبا خلف عمود السحاب كان يسير أمامهم ، وإن موسى كـــان يتلقى منه كل الإرشادات والتعليمات .

رفضوا الإذعان لذلك الحكم الرهيب الذي كان يقضي بموتهم جميعا في البرية . ولذلك فقد كانوا على أتم استعداد للتعلل بأية حجة يثبتون بها أن موسى هو الذي كان يقودهم وليـس الله ، وأن موسى هو الذي نطق عليهم بحكم الهلاك ، فلم تفلح أفضل المساعي التي قد بذلها أعظـــم الناس وداعة وعلما على وجه الأرض (موسى) في إخماد ثورة الشعب ومع أن آثار غضـــب الله عليهم بسبب تمردهم السابق كانت لم تزل ترى في تناقص عددهم بهلاك جماعـــة كبـــيرة منهم فإنهم لم يتَّعظوا من ذلك كله ، ومرة أخرى انهزموا أمام التجربة .

إن سني رعاية الغنم المتواضعة التي سبق أن قضاها موسى كانت سني ســـلام وســـعادة بالقياس إلى مركزه الحالي كقائد لذلك الشعب الغفير الثائر المشاكس ، ومع ذلك فإن موسى لـم يكن يجرؤ على أن يختار لنفسه ، فبدلا من عصا الراعى أعطيت له عصا قوة وسلطان ، وما كان يستطيع أن يلقي بها جانبا حتى يعفيه الله من خدمته .

إن ذاك الذي كل أفكار القلوب مكشوفة أمامه كان يلاحظ نوايا قورح وجماعته ، وكان قـد قدم لشعبه إنذارات وتوجيهات تكفل لهم النجاة من مخادعات أولئك القوم المتـآمرين . فـرأوا قضاء الله الذي حكم به على مريم بسبب حسدها لموسى وشكواها عليه . لقد أعلن الـــرب أن موسى أعظم من نبي «فَمًا إِلَى فَمٍ وَعَيَانًا أَتَكَلَّمُ مَعَهُ» ثم قال مخاطبا هارون ومريم «فَلِمَاذَا لاَ تَخْشَيَانِ أَنْ تَتَكَلَّمَا عَلَى عَبْدِي مُوسَى ؟» (عدد ١٢ : ٨) فهذه التعليمات لم يكن المقصود بـها هارون ومريم وحدهما بل كل إسرائيل .

إن قورح وشركاءه في المؤامرة كانوا رجالا أكرمهم الله بمشاهدة إعلانات خاصة لقدرتـــه وعظمته . لقد كانوا بين تلك الجماعة التي صعدت مع موسى إلى الجبـــل ورأت مجـد الله . ولكن منذ ذلك الحين حدث تغيير ، فقد هاجمتهم تجربة طفيفة في بدئها فأذعنوا لها ، ثم قويـت واشتدت إذ وجدت تشجيعا ومعاضدة إلى أن تسلط الشيطان على تفكيرهم ثم جاهروا بنفورهـم وسخطهم . وإذ ادعوا أنهم مهتمون بنجاح الشعب أعظم اهتمام جعلوا يعبرون عـن ســخطهم فيما بينهم أولا ثم لرجال من ذوي المكانة في إسرائيل ، فوجدت دسائسهم ترحيبا عظيما إلـــى حد جرَّأهم على التمادي في شرهم . أخيرا اقتنعوا أن غيرتهم لله هي التي دفعتهم إلى ذلك .

395,396

وقد أفلحوا في اجتذاب مئتين وخمسين رجلا من مشاهير الرجال في إسرائيل إلى جانبهم . وبانضمام أولئك الرجال المناصرين الأقوياء ذوي النفوذ العظيم إلى صفهم صاروا واثقين من إحداث تغيير جوهري في الحكم ، وتحسين ملحوظ في سياسة موسى وهارون .

لقد ولدت الغيرة حسدا والحسد ولد تمردا وعصيانا . فجعلوا يتناقشون في مسألة حق موسى في السلطان والكرامة اللذين كان يتمتع بهما ، إلى أن حكموا أنه يحتل مركزا مرموقا يحسد عليه ، وأنه كان يمكن أي واحد أن يشغل ذلك المركز عن جدارة مثله ، فخدعوا أنفسهم وخدعوا بعضهم البعض بفكرة كون موسى وهارون قد احتلا هذا المركز بنفسهما ولم يتسلماه من الله . قال أولئك القوم الساخطون أن هذين القائدين استعليا على جماعة الرب إذ استقلا بالكهنوت والحكم ، مع أن عائلتهما لم يعط لها أي امتياز على غيرها من العائلات في إسرائيل ، ولم يكونا أقدس من باقي أفراد الشعب ، وأنه ينبغي لهما أن يقنعا بأن يكونا في مستوى باقي أخوتهما الذين كانوا يتمتعون مثلهما بحضور الله وحراسته الخاصة .

أما العمل الآخر الذي قام به أولئك المتآمرون فكان مع الشعب ، لأن الذين هم في خطأ ويستحقون التوبيخ لا شيء يسرهم أكثر من مدحهم والشعور معهم ، وهكذا ظفر قورح وجماعته باهتمام الشعب ومعاضدتهم ، فأعلن المتآمرون أن البلاغ القائل بأن تذمرات الشعب هي التي جلبت عليهم غضب الله هو بلاغ خاطئ ، كما قالوا إن الشعب لم يكن مخطئا إذ أنهم لم يطلبوا شيئا من حقوقهم ، ولكن موسى حاكم متصلف وهو الذي وبخ الشعب قائلا إنهم قوم خطاة في حين أنهم شعب مقدس والرب في وسطهم .

استعاد قورح تاريخ رحلاتهم في البرية حيث جيء بهم إلى مسالك وعرة عسرة ، وهلك كثيرون من الشعب بسبب تذمرهم وعصيانهم ، فتراءى لسامعيه أنه كان يمكنهم تجنب متاعبهم لو كان موسى قد سار بهم في طريق آخر ، وحكموا بأنه كان السبب في كل مصائبهم ، وأن حرمانهم من دخول كنعان كان بسبب سوء إدارة موسى وهارون ، وأنه لو كان قورح هو القائد وشجعهم ، بأن وجه الأنظار إلى أعمالهم الصالحة بدلا من توبيخهم على خطاياهم لكانت رحلتهم أضحت رحلة سلام ونجاح ، وعوض الجولان هنا وهناك في القفر كانوا ساروا مباشرة إلى أرض الموعد .

396,397,398

وفي هذا العمل ، عمل الإثارة والتنفير كان بين العناصر الناقمة وسط الجماعة اتحاد أوثق وانسجام أكمل أكثر مما حدث من قبل . وقد كان من نتائج نجاح قورح في استمالته الشعب إلى جانبه أن زادت ثقته وثبتت اقتناعه بأن اغتصاب موسى للسلطة إن لم يوقف عند حده سيقضي على حريات إسرائيل ، وادعى أيضا أن الله كشف له الأمر وفوّض إليه أمر أحداث تغيير في نظام الحكم قبلما يتفاقم الشر ويكون قد مضى وقت الإصلاح . ولكن كثيرين لم يكونوا مستعدين لقبول الاتهامات التي وجهها قورح إلى موسى . لأن ذكرى جهوده التي تجلى فيها الصبر والتضحية قد ظهرت بجلاء أمامهم فثارت ضمائرهم . ولذلك كان من الضروري البحث عن باعث أناني كان الدافع لاهتمامه العميق بإسرائيل ، فعادوا يكررون التهمة القديمة من أنه أخرجهم ليهلكهم في البرية لكي يستولي على أملاكهم .

كان هذا العمل يجري في الخفاء لمدة من الزمن ، ولكن لما اشتد ساعد هذه الحركة وكسبت أنصارا أقوياء لضمان انفجار علني ظهر قورح على رأس الفتنة واتهم موسى وهارون جهارا بأنهما قد اغتصبا السلطة التي كان قورح ورفاقه يستحقونها مثلهما ، كما اتهمهما أيضا بأنهما قد جردا الشعب من حريتهم واستقلالهم . فلقد قال لهما أولئك المتآمرون : «كَفَاكُمَا ! إِنَّ كُلَّ الْجَمَاعَةِ بِأَسْرِهَا مُقَدَّسَةٌ وَفِي وَسَطِهَا الرَّبُّ . فَمَا بَالُكُمَا تَرْتَفِعَانِ عَلَى جَمَاعَةِ الرَّبِّ ؟» (انظر سفر العدد ١٦) .

لم يكن موسى مشتبها في هذه المؤامرة المحكمة ، فلما برق في ذهنه مغزاها الرهيب سقط على وجهه في ضراعة صامتة إلى الله ، ثم نهض في حزن عميق ، ومع ذلك فقد كان هادئا وقويا ، وإذ حصل على إرشاد إلهي قال : «غَدًا يُعْلِنُ الرَّبُّ مَنْ هُوَ لَهُ ، وَمَنِ الْمُقَدَّسُ حَتَّى يُقَرِّبَهُ إِلَيْهِ . فَالَّذِي يَخْتَارُهُ يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ» فأرجئ الامتحان إلى الغد حتى يكون لدى الجميع متسع من الوقت للتفكير والتأمل . وحينئذ يأتي أولئك الذين يرغبون في الكهنوت ومع كل منهم مجمرته ويقربون بخورا لدى خيمة الاجتماع أمام كل الجماعة . لقد كانت الشريعة واضحة جدا ، وهي تقول إن أولئك الذين قد كرسوا لتلك الوظيفة المقدسة هم وحدهم الذين يجب أن يخدموا في المقدس ، بل إن نفس الكاهنين ناداب وأبيهو هلكا لأنهما تجاسرا فقربا «نَارًا غَرِيبَةً» مزدريين بأمر الله هذا ، وها هو موسى يتحدى المشتكين عليه بأنهم إذا كانوا يتجرأون على الدخول في هذه الدعوى الخطرة عليهم أن يتقدموا بها إلى الله .

وقد وجه موسى كلامه إلى قورح ورفاقه من اللاويين بنوع خاص فقال لهم : «أَقَلِيلٌ عَلَيْكُمْ أَنَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ أَفْرَزَكُمْ مِنْ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ لِيُقَرِّبَكُمْ إِلَيْهِ لِكَيْ تَعْمَلُوا خِدْمَةَ مَسْكَنِ الرَّبِّ ، وَتَقِفُوا قُدَّامَ الْجَمَاعَةِ لِخِدْمَتِهَا ؟ فَقَرَّبَكَ وَجَمِيعَ إِخْوَتِكَ بَنِي لاَوِي مَعَكَ ، وَتَطْلُبُونَ أَيْضًا كَهَنُوتًا ! إِذَنْ أَنْتَ وَكُلُّ جَمَاعَتِكَ مُتَّفِقُونَ عَلَى الرَّبِّ . وَأَمَّا هَارُونُ فَمَا هُوَ حَتَّى تَتَذَمَّرُوا عَلَيْهِ ؟» .

أما داثان وأبيرام فلم يكونا قد اتخذا موقفا جسورا مثل قورح ، وإذ كان موسى يظن ويرجو أنهما قد اندمجا بين المتآمرين دون أن يكونا قد فسدا تماما استدعاهما للمثول أمامه ليسمع شكواهما عليه ، ولكنهما أبيا الذهاب وبكل وقاحة رفضا الاعتراف بسلطته ، بل أجاباه على مسمع من كل الجماعة قائلين «أَقَلِيلٌ أَنَّكَ أَصْعَدْتَنَا مِنْ أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً لِتُمِيتَنَا فِي الْبَرِّيَّةِ حَتَّى تَتَرَأَّسَ عَلَيْنَا تَرَؤُّسًا ؟ كَذلِكَ لَمْ تَأْتِ بِنَا إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً ، وَلاَ أَعْطَيْتَنَا نَصِيبَ حُقُولٍ وَكُرُومٍ . هَلْ تَقْلَعُ أَعْيُنَ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ ؟ لاَ نَصْعَدُ !» .

وهكذا وصفا مشهد عبوديتهم بنفس الوصف الذي وصف الرب به الميراث الموعود به ، واتهما موسى بإيهام الشعب أنه يعمل بموجب إرشاد الله متخذا من ذلك ذريعة لتثبيت سلطانه هو ، وأعلنا أنهما لن يعودا للخضوع والانقياد وراءه كالعميان ، فمرة يسير بهم إلى كنعان ومرة أخرى يعود بهم إلى البرية حسبما يتفق وأغراضه وطموحه . وإلى هذا الحد نرى أن ذاك الذي كان كالأب الرفيق والراعي الصبور يوصف باقي الأوصاف كما لو كان مغتصبا أو طاغية مستبدا . ثم أن حرمانهم من كنعان قصاصا لهم على خطاياهم قد اتهموا به موسى .

وكان واضحا أن الشعب مال إلى جانب حزب الساخطين على موسى ، إلا أنه لم يبذل أي جهد لتزكية نفسه ، بل بكل وقار رفع الأمر إلى الله في محضر الجماعة كلها ليشهده على طهارة بواعثه واستقامة تصرفاته ، وتوسل إليه أن يكون قاضيا له .

وفي غداة اليوم التالي تقدم المئتان والخمسون رجلا وعلى رأسهم قورح ومثلوا أمام الرب ومجامرهم في أيديهم ، فجيء بهم إلى دار خيمة الاجتماع ، أما الشعب فتجمهروا خارجا في انتظار النتيجة . لم يكن موسى هو الذي حشد الجماعة ليجعلهم شهودا على هزيمة قورح وجماعته ، ولكن أولئك المتمردين في وقاحتهم وغطرستهم العمياء هم الذين جمعوا الشعب ليكونوا شهودا على انتصارهم . وقد جاهر كثيرون من الشعب بمناصرتهم لقورح وكانت آمالهم قوية أنه سينتصر على هارون .

فإذ اجتمعت الجماعة هكذا أمام الرب «تَرَاءَى مَجْدُ الرَّبِّ لِكُلِّ الْجَمَاعَةِ» وأنذر الله موسى وهارون قائلا : «افْتَرِزَا مِنْ بَيْنِ هذهِ الْجَمَاعَةِ فَإِنِّي أُفْنِيهِمْ فِي لَحْظَةٍ» ولكنهما خرا على وجهيهما وصليا قائلين : «اللّهُمَّ ، إِلهَ أَرْوَاحِ جَمِيعِ الْبَشَرِ ، هَلْ يُخْطِئُ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَتَسْخَطَ عَلَى كُلِّ الْجَمَاعَةِ ؟» .

أما قورح فكان قد انسحب من بين الجماعة لينضم إلى داثان وأبيرام ، بينما ذهب موسى ومعه الشيوخ السبعون ليقدم آخر إنذار لذينك الرجلين اللذين أبيا المجيء إليه ، وقد تبعته الجماعة . وقبلما قدم رسالته أمر موسى الشعب بموجب إرشاد الله قائلا : «اعْتَزِلُوا عَنْ خِيَامِ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ الْبُغَاةِ ، وَلاَ تَمَسُّوا شَيْئًا مِمَّا لَهُمْ لِئَلاَّ تَهْلِكُوا بِجَمِيعِ خَطَايَاهُمْ» فانصاع الشعب للأمر إذ قد شمل الجميع الخوف من أن تحل بهم الدينونة ، ووجد زعماء العصاة أن أولئك الذين انخدعوا بأقوالهم قد هجروهم الآن ، ومع ذلك فلم يتزحزحوا عن موقف العداء الذي تشبثوا به ، فوقفوا مع عائلاتهم في أبواب خيامهم كما لو كانوا يتحدون إنذار الله .

وأعلن موسى باسم الرب إله إسرائيل في مسامع الجماعة قائلا : «بِهذَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي لأَعْمَلَ كُلَّ هذه الأَعْمَالِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ نَفْسِي . إِنْ مَاتَ هؤُلاَءِ كَمَوْتِ كُلِّ إِنْسَانٍ ، وَأَصَابَتْهُمْ مَصِيبَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ ، فَلَيْسَ الرَّبُّ قَدْ أَرْسَلَنِي . وَلكِنْ إِنِ ابْتَدَعَ الرَّبُّ بِدْعَةً وَفَتَحَتِ الأَرْضُ فَاهَا وَابْتَلَعَتْهُمْ وَكُلَّ مَا لَهُمْ ، فَهَبَطُوا أَحْيَاءً إِلَى الْهَاوِيَةِ ، تَعْلَمُونَ أَنَّ هؤُلاَءِ الْقَوْمَ قَدِ ازْدَرَوْا بِالرَّبِّ» .

وكانت كل أنظار شعب إسرائيل متجهة إلى موسى في رعب وهم يتوقعون حدوث تلك الكارثة . فلما فرغ من الكلام انشقت الأرض الصلبة وهبط أولئك المتمردون أحياء إلى الهاوية وكل ما لهم «فَبَادُوا مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ» وقد هرب الشعب إذ حكموا على أنفسهم أنهم قد شاركوهم في خطيتهم .

ولكن أحكام الرب لم تنته بعد فقد سقطت نار من السحابة وأهلكت المئتين والخمسين رئيسا الذين قدموا البخور . إن هؤلاء الرجال إذ لم يكونوا في طليعة المتمردين لم يهلكوا مع رؤساء المتآمرين ، وقد سمح لهم أن يروا نهاية المتمردين لتكون لهم فرصة للتوبة ، إلا أنهم شاركوا العصاة في شعورهم فشاركوهم في مصيرهم .

إن موسى حين كان يتوسل إلى الشعب لكي يهربوا من الهلاك الآتي كان يمكن أن يمنع الرب وقوع الدينونة حتى وقتئذ لو أن قورح وجماعته تابوا والتمسوا الغفران غير أن إصرارهم وعنادهم ختم على هلاكهم . إن الجماعة كلها كانت شريكة لهم في ذنبهم لأن الجميع حنوا عليهم ، إن كثيرا أو قليلا ، إلا أن الله في رحمته العظيمة ميز بين من قادوا الجماعة إلى التمرد وبين باقي الشعب ، فأولئك الذين قد غُرِّر بهم أعطيت لهم فرصة للتوبة ، وقدم برهان عظيم على أنهم كانوا على خطأ وأن موسى كان مصيبا . إن ذلك المظهر العظيم مظهر قدرة الله قضى على كل شك .

إن يسوع ، الملاك[1] الذي سار أمام العبرانيين أراد أن يخلصهم من الهلاك . لقد كان الغفران ينتظرهم ، فاقترب قضاء الله منهم جدا وطلب منهم أن يتوبوا ، وتدخلت السماء بكيفية خاصة وفعالة وأوقفتهم عن التردد ، فلو أنهم استجابوا لتدخل عناية الله لأمكنهم أن يخلصوا ، ولكن مع أنهم هربوا من تلك الأحكام خوفا من الهلاك إلا أنهم لم يتخلصوا من عصيانهم . لقد عادوا إلى خيامهم في تلك الليلة مرتعبين ولكن غير تائبين .

لقد تملقهم قورح وجماعته إلى أن اعتقدوا اعتقادا راسخا أنهم قوم صالحون جدا وأن موسى قد ظلمهم وأساء اليهم . فلو أنهم اعترفوا بأن قورح وجماعته كانوا مخطئين وأن موسى كان على حق فلا بد لهم من الاعتراف بأن الحكم عليهم بالموت في البرية هو كلام الله ، لكنهم لم يريدوا الخضوع لهذا الحكم وحاولوا إقناع أنفسهم بأن موسى قد خدعهم . وقد داعب أنفسهم بعض الأمل في أنه سيقام قريبا نظام جديد فيه يسمعون كلام المديح بدل التوبيخ والتعنيف ، وتأخذ الراحة مكان القلق والنزاع . إن أولئك الذين هلكوا كانوا يتملقون الشعب وأعلنوا أنهم يحبون تلك الجماعة وأنهم مهتمون بخيرها ، فاستنتج الشعب أن قورح وجماعته هم ولا شك قوم صالحون ، وأن موسى بوسيلة من الوسائل تسبب في هلاكهم .

إنه من الصعب أن يوجه الناس إلى الله إهانة أعظم من كونهم يزدرون الوسائل التي يستخدمها لخلاصهم ويرفضونها . ولم يكتف الإسرائيليون بفعل هذا ، بل اقترحوا قتل موسى

[1]- الكلمة «ملاك» هنا من أسماء المسيح كما جاء في خروج ٢٣: ٢٠-٢٣، حيث دعي قائد الشعب «ملاكاً» وهذا القائد نفسه قد دعي في ١كورنثوس ١٠: ٤ «المسيح». غير أن هذا لا يعني أن المسيح كان ملاكاً، بدليل قوله تعالى «لأَنَّ اسْمِي فِيهِ».

وهارون . ومع ذلك فإنهم لم يتحققوا من لزوم طلب الغفران من الله عن خطيتهم الشنيعة . وفي ليلة المهلة تلك لم ينصرفوا إلى التوبة والاعتراف بل إلى اختراع وسيلة لمقاومة البراهين التي دلت على أنهم شر الخطاة . كانوا لا يزالون يضمرون الكراهية لذينك الرجلين اللذين قد أقامهما الله وتشددوا لمقاومة سلطتهما . وكان الشيطان قريبا منهم مستعدا لإفساد تفكيرهم وجرهم وهم معصوبو العيون إلى الهلاك .

لقد هرب كل إسرائيل مذعورين حين سمعوا صرخات الهالكين وهم يهبطون إلى الهاوية ، نهم قالوا «لَعَلَّ الأَرْضَ تَبْتَلِعُنَا» «فَتَذَمَّرَ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْغَدِ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلِينَ : أَنْتُمَا قَدْ قَتَلْتُمَا شَعْبَ الرَّبِّ» وكانوا موشكين على أن يعتدوا على ذينك القائدين الأمينين المضحيين .

وظهر مجد الله في السحابة فوق خيمة الاجتماع وسُمع من السحابة صوت يقول لموسى وهارون «اِطْلَعَا مِنْ وَسَطِ هذِهِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي أُفْنِيهِمْ بِلَحْظَةٍ» .

إن جرم الخطية لم يستقر على موسى ولذلك لم يكن خائفا ، ولا سارع إلى ترك الجماعة لكي تهلك ، ولكنه تريث في أثناء تلك الأزمة المخيفة ، مظهرا اهتمام الراعي الأمين بالقطيع الذي تحت رعايته ، وقد توسل إلى الله ألا يهلك بغضبه ذلك الشعب الذي اختاره . وبفضل تلك التوسلات كف يد الله عن الانتقام حتى لا يقضي الرب قضاء كاملا على شعب إسرائيل العصاة المتردين .

إلا أن رسول النقمة كان قد خرج فابتدأ الوبأ والموت في اثره ، وحسب تعليمات موسى أخذ هارون مجمرة وأسرع إلى وسط الجماعة «ليكفر عنهم» «وَوَقَفَ بَيْنَ الْمَوْتَى وَالأَحْيَاءِ» وفيما كان البخور يصعد ارتفعت معه صلوات موسى من خيمة الاجتماع إلى الله فامتنع الوبأ . ولكن أربعة عشر ألفا من بني إسرائيل كانوا قد ماتوا برهانا على شر التذمر والعصيان .

غير أن برهانا آخر قد أعطي للدلالة على أن الكهنوت قد تثبت في عائلة هارون . ووفقا لأمر الرب أعد كل سبط عصا وكتب عليها اسم السبط . وقد كتب اسم هارون على عصا سبط لاوي . ثم وضعت العصى في خيمة الاجتماع «أَمَامَ الشَّهَادَةِ» فإذا أزهرت أي عصا كان ذلك دليلا على أن الرب قد اختار ذلك السبط للكهنوت . وفي الصباح التالي «وَإِذَا عَصَا هَارُونَ لِبَيْتِ لاَوِي قَدْ أَفْرَخَتْ . أَخْرَجَتْ فُرُوخًا وَأَزْهَرَتْ زَهْرًا وَأَنْضَجَتْ لَوْزًا» (انظر

سفر العدد ١٧) فأخرجت العصا ليراها الشعب . وبعد ذلك وضعت في الخيمة كعلامة أمام الأجيال اللاحقة ، وقد حسمت هذه الأعجوبة ، بكيفية فعالة ، النزاع حول الكهنوت .

لقد ثبت الآن بكل وضوح أن موسى وهارون كانا يتكلمان بسلطان إلهي . واضطر الشعب إلى تصديق الحق الذي لم يكونوا يحبونه وهو أنه لا بد أن تسقط جثثهم ويموتوا في البرية . فصرخوا قائلين : «إِنَّنَا فَنِينَا وَهَلَكْنَا . قَدْ هَلَكْنَا جَمِيعًا» واعترفوا بأنهم قد أخطأوا بتمردهم على قادتهم ، وأن قورح وجماعته قد هلكوا بموجب حكم الله العادل .

وفي عصيان قورح نجد نتائج عمل نفس الروح التي دفعت الشيطان إلى التمرد على الله في السماء ، وإن يكن في مجال أضيق . إن الكبرياء والطموح هما اللذان ساقا لوسيفر إلى التذمر على حكم الله والسعي إلى تقويض النظام الذي شمل السماء . ومنذ سقط جعل هدفه أن يبث نفس روح الحسد والتذمر ، نفس الطموح إلى التعالي وحب الكرامة (الجاه) في أذهان بني الإنسان . وهكذا ملأ عقول قورح وداثان وأبيرام وأثار في نفوسهم الشوق إلى تعظيم أنفسهم كما أثار فيهم الحسد والشكوك والعصيان . فالشيطان هو الذي جعلهم يرفضون قيادة الله لهم لكونهم رفضوا الرجلين المعينين منه تعالى . ومع ذلك فإذ كانوا في تذمرهم على موسى وهارون يجدفون على الله فقد كانوا مخدوعين حيث كانوا يظنون أنفسهم أبرارا ، ويعتبرون أولئك الذين كانوا يوبخونهم بكل أمانة وإخلاص على خطاياهم ، إنهم إنما يفعلون ذلك مدفوعين بتحريض الشيطان .

ولكن ألا توجد في هذه الأيام تلك الشرور نفسها التي كانت سبب هلاك قورح ؟ الكبرياء والطموح متفشيان في كل مكان . وحينما يبقي الإنسان على هاتين الخطيتين فإنهما تفسحان المجال أمام الحسد والسعي إلى التعالي والتفوق ، فتبتعد النفس عن الله وبدون أن تشعر تنضم إلى صف الشيطان . وكما كان قورح ورفقاؤه ، كذلك سيكون كثيرون ممن يعترفون بأنهم أتباع المسيح . هؤلاء الناس يفكرون ويرسمون الخطط ويعملون بكل غيرة وشوق لأجل تعظيم أنفسهم حتى في سبيل الظفر بعطف الناس ومعاضدتهم يكونون مستعدين لإفساد الحق وتكذيب خدام الرب وتشويه سمعتهم والتشهير بهم ، بل ويتهمونهم بأنهم مدفوعون في أعمالهم ببواعث أنانية منحطة تستتر قلوبهم . وبإصرارهم على ترويج الأكاذيب في مواجهة كل البراهين والأدلة التي تدينهم ، ينتهي

بهم الأمر إلى اعتبار الكذب حقا وصدقا . وفيما هم يحاولون هدم ثقة الشعب في الرجـال الذين أقامهم الله يعتقدون أنهم إنما يقومون بعمل صالح يخدمون به الله .

إن العبرانيين لم يكونوا راغبين في الاعتراف بمطاليب الرب ونواهيه ، بل كانوا يتـبرمون بكل رادع ويرفضون كل توبيخ . وقد كان هذا سر تذمرهم على موسى . فلـو كـانت لـهم الحرية ليحملوا ما يشتهون لقل تذمرهم على قائدهم . إن خدام الله ، طـوال أجيـال تـاريخ الكنيسة ، كانوا يواجهون هذه الروح نفسها .

إن الانهماك الخاطئ في شهوات النفس هو الذي يجعل الناس يفتحون الطريـق للشـيطان ليغزو عقولهم ، فينحدرون من شر إلى شر أعظم . وإن رفض النور يظلـم العقـل ويقسـي القلب ، ولذلك لا يرون ضيرا في الإيغال في طريق الشر وبالتالي في رفض النـور الأكمـل حتى تمسي عادة عمل الشر متأصلة فيهم ، فلا يرون الخطية خاطئة جدا ، فالذي يكرز بكلمـة الله بأمانة ويدين خطاياهم بكرازته كثيرا ما يصبح هدفا لبغضتهم . ولكونهم غير راغبين فـي احتمال الآلام والتضحيات التي لا بد منها للإصلاح ، يقاومون خادم الرب ويرفضون توبيخاته إذ يعتبرونها قاسية ولا داعي لها . وكقورح يعلنون أن الشعب لم يخطئوا وأن الموبخ هو سبب كل المتاعب . وإذ يهونون الأمر على ضمائرهم بهذه المخادعات والأكـاذيب ، فالحاسـدون والساخطون يشتركون معا في بذر بذار المنازعات في الكنيسة ويضعفون أيدي من يرممـون أسوارها .

إن كل خطوة خطاها أولئك الذين دعاهم الله ليقودوا الشعب في عمله قد أثارت الشـكوك ، وقد أساء الحاسدون والباحثون عن الأخطاء في تمثيل كل عمل عملوه . هكذا كانت الحال فـي أيام لوثر ووسلي وغيرهما من رجال الإصلاح . وهكذا هي الحال اليوم .

إن قورح لم يكن ليسلك في هذا المسلك الوعر لو أنه عرف أن كل الإرشادات والتوبيخات الموجهة إلى إسرائيل كانت أصلا من الله . ولكن كان يمكنه معرفة ذلك ، فلقد قدم الله براهين عظيمة لا تقبل الشك على أنه كان يقود إسرائيل ، غير أن قورح ورفاقه رفضوا النور حتـى صاروا عميانا جدا حتى أن أعظم الإعلانات المدهشة عن قدرة الله لم تكن كافية لإقناعـهم ، وقد نسبوا ذلك كله إلى وسيلة بشرية أو شيطانية . وهذا هو نفس ما فعله الشعب الذين أتـوا إلى موسى وهارون في اليوم التالي بعد هلاك قورح وجماعته قائلين : «أَنْتُمَا قَدْ قَتَلْتُمَا شَـعْبَ

الرَّبِّ» فبالرغم من كل البراهين القوية المقدمة لهم عن سخط أو على مسلكهم ، ففـــي هـــلاك الرجال الذين قد خدعوهم تجاسروا على أن ينسبوا أحكام الله إلى الشيطان ، معلنين أنه بفعـــل قوة الشيطان تسبب موسى وهارون في موت الرجال الصالحين القديسين . هذا هو العمل الذي ختم على هلاكهم . لقد ارتكبوا خطية التجديف على الروح القدس ، وهي الخطية التي بســـببها يتقسى القلب ضد تأثير النعمة الإلهية ، لقد قال المسيح : «وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَـــانِ يُغْفَرُ لَهُ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ» (متى ١٢ : ٣٢) لقد نطق مخلصنا بهذا الكلام حين نسب اليهود أعمال الرحمة التي عملها بقوة الله إلى بعلزبول . إن الله يتصـــل بالناس بواسطة روحه القدوس . فأولئك الذين يتعمدون رفض هذه الواسطة معتـــبرين إياهـــا شيطانية يقطعون الربط التي تربط النفس بالسماء .

إن الله يعمل بواسطة إظهار روحه في توبيخ الخاطئ وتبكيته على ذنوبه ، فـــإذا رفـــض عمل الله نهائيا فليس هناك ما يستطيع الله أن يفعله للنفس . لقد اســـتخدمت رحمـــة الله آخـــر وسيلة ، أما الخاطئ فقد فصل نفسه عن الله وليس لدى الخطية ما تعالج به نفسها . ولم تبـــق بعد قوة احتياطية يستطيع بها الله أن يبكت الخاطئ ويجدده . ولقد أمر الله قائلا : «اتْرُكُـــوهُ» (هوشع ٤ : ١٧) وحينئذ «لاَ تَبْقَى بَعْدُ ذَبِيحَةٌ عَنِ الْخَطَايَا ، بَلْ قُبُـــولُ دَيْنُونَـــةٍ مُخِيـــفٌ ، وَغَيْرَةُ نَارٍ عَتِيدَةٍ أَنْ تَأْكُلَ الْمُضَادِّينَ» (عبرانيين ١٠ : ٢٦،٢٧) .

الفصل السادس والثلاثون

في البرية

ظل بنو إسرائيل يضربون في مجاهل الصحراء غير منظورين لمدة أربعين سنة تقريبا . يقول موسى : «وَالأَيَّامُ الَّتِي سِرْنَا فِيهَا مِنْ قَادَشَ بَرْنِيعَ حَتَّى عَبَرْنَا وَادِيَ زَارَدَ ، كَانَتْ ثَمَانِيَ وَثَلاَثِينَ سَنَةً ، حَتَّى فَنِيَ كُلُّ الْجِيلِ ، رِجَالُ الْحَرْبِ مِنْ وَسَطِ الْمَحَلَّةِ ، كَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لَهُمْ . وَيَدُ الرَّبِّ أَيْضًا كَانَتْ عَلَيْهِمْ لإِبَادَتِهِمْ مِنْ وَسَطِ الْمَحَلَّةِ حَتَّى فَنُوا» (تثنية ٢ : ١٤،١٥) .

وطوال هذه السنين كان الشعب يذكرون باستمرار أنهم واقعون تحت طائلة توبيخ الرب وانتهاره . وفي العصيان الذي حدث في قادش رفضوا الرب كما قد رفضهم الرب إلى حين . وحيث أنهم قد برهنوا على عدم أمانتهم لعهده فما كان لهم أن يأخذوا منه علامة العهد ، أي فريضة الختان . إن اشتياقهم للعودة إلى أرض العبودية برهن على عدم استحقاقهم للحرية ، ولذلك ففريضة الفصح التي كانت قد رسمت تذكارا لتحريرهم من العبودية لم تعد تمارس .

ومع ذلك فإن استمرار الخدمة في خيمة الاجتماع كان شاهدا على أن الله لم يترك شعبه نهائيا . وهو في عنايته سد أعوازهم . وإذ كان موسى يراجع تاريخ تيهانهم في رحلاتهم قال : «لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ قَدْ بَارَكَكَ فِي كُلِّ عَمَلِ يَدِكَ ، عَارِفًا مَسِيرَكَ فِي هذَا الْقَفْرِ الْعَظِيمِ . اَلآنَ أَرْبَعُونَ سَنَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ مَعَكَ ، لَمْ يَنْقُصْ عَنْكَ شَيْءٌ» (تثنية ٢ : ٧) هذا وإن تسبيحة اللاويين التي قد سجلها نحميا تصور بكل جلاء رعاية الرب لإسرائيل حتى في تلك السنين سني الرفض والنفي . يقول نحميا : «أَنْتَ بِرَحْمَتِكَ الْكَثِيرَةِ لَمْ تَتْرُكْهُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ ، وَلَمْ يَزُلْ عَنْهُمْ عَمُودُ السَّحَابِ نَهَارًا لِهِدَايَتِهِمْ فِي الطَّرِيقِ ، وَلاَ عَمُودُ النَّارِ لَيْلاً لِيُضِيءَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي يَسِيرُونَ فِيهَا . وَأَعْطَيْتَهُمْ رُوحَكَ الصَّالِحَ لِتَعْلِيمِهِمْ ، وَلَمْ

تَمْنَعْ مَنَّكَ عَنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَأَعْطَيْتَهُمْ مَاءً لِعَطَشِهِمْ . وَعُلْتَهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْبَرِّيَّةِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا . لَمْ تَبْلَ ثِيَابُهُمْ ، وَلَمْ تَتَوَرَّمْ أَرْجُلُهُمْ» (نحميا ٩ : ١٩-٢١) .

إن التيهان في البرية لم يقصد به أن يكون دينونة وقضاء على العصاة والمتذمرين فحسب ، بل كان المقصود به أن يكون تدريبا للجيل الجديد لإعدادهم للدخول إلى أرض الموعد ، وقد أعلن لهم موسى قائلا : «انَّهُ كَمَا يُؤَدِّبُ الإِنْسَانُ ابْنَهُ قَدْ أَدَّبَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ . وَتَتَذَكَّرُ كُلَّ الطَّرِيقِ الَّتِي فِيهَا سَارَ بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ هذِهِ الأَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْقَفْرِ ، لِكَيْ يُذِلَّكَ وَيُجَرِّبَكَ لِيَعْرِفَ مَا فِي قَلْبِكَ : أَتَحْفَظُ وَصَايَاهُ أَمْ لاَ ؟ فَأَذَلَّكَ وَأَجَاعَكَ وَأَطْعَمَكَ الْمَنَّ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ وَلاَ عَرَفَهُ آبَاؤُكَ ، لِكَيْ يُعَلِّمَكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ ، بَلْ بِكُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِ الرَّبِّ يَحْيَا الإِنْسَانُ» (تثنية ٨ : ٥،٢،٣) .

«وَجَدَهُ فِي أَرْضِ قَفْرٍ ، وَفِي خَلاَءٍ مُسْتَوْحِشٍ خَرِبٍ . أَحَاطَ بِهِ وَلاَحَظَهُ وَصَانَهُ كَحَدَقَةِ عَيْنِهِ» ، «فِي كُلِّ ضِيقِهِمْ تَضَايَقَ ، وَمَلاَكُ حَضْرَتِهِ خَلَّصَهُمْ . بِمَحَبَّتِهِ وَرَأْفَتِهِ هُوَ فَكَّهُمْ وَرَفَعَهُمْ وَحَمَلَهُمْ كُلَّ الأَيَّامِ الْقَدِيمَةِ» (تثنية ٣٢ : ١٠؛ إشعياء ٦٣ : ٩) .

ومع ذلك فإن البيانات الوحيدة عن حياتهم في البرية تكشف عن تمردهم على الله ، وقد نجم عن الفتنة التي تسبب فيها قورح هلاك أربعة عشر ألفا من إسرائيل ، وكانت هناك حالات منفصلة برهنت على نفس روح الاحتقار لسلطان الله .

ومن أمثلة تلك الحالات أنه كان هنالك ابن امرأة إسرائيلية وأب مصري من اللفيف الذي صعد مع إسرائيل من مصر ، هذا الابن ترك المكان المحدد لإقامته في المحلة ، وإذ دخل محلة الإسرائيليين ادعي أن له الحق في أن ينصب خيمته هناك . ولكن الشريعة الإلهية كانت تنهاه عن ذلك ، إذ أن أولاد المصريين كانوا لا يحسبون من بين الجماعة إلى الجيل الثالث ، فنشب نزاع بين ذلك الشاب وأحد الإسرائيليين . فلما رفعت هذه القضية إلى القاضي ليحكم فيها حكم حكما في غير صالح ذلك الشاب المذنب .

وإذ احتدم غضبه على هذا الحكم لعن القاضي ، وفي ثورة غضبه جدف على اسم الله ، فأخذ في الحال إلى موسى ، وكان الله قد أمر من قبل قائلا : «نْ شَتَمَ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ يُقْتَلُ قَتْلاً» (خروج ٢١ : ١٧) ولكن لم يكن هنالك نص خاص بهذه القضية ، وكانت الجريمة هائلة جدا

بحيث أحس الجميع بضرورة عرضها أمام الله في طلب إرشاد خاص منه . فوضع ذلك الشاب في الحبس حتى تعلن إرادة الله . وقد حكم الله نفسه على ذلك الرجل ، وبموجب تعليماته أخرج ذلك المجدف إلى خارج المحلة ورجم حتى مات ، فأولئك الذين رأوا ذلك الرجل يرتكب تلك الخطية وضعوا أيديهم على رأسه وبهذه الطريقة شهدوا بصدق التهمة الموجهة إليه ، وحينئذ كانوا هم أول من رجموه بالحجارة ، وبعد ذلك اشترك الواقفون في تنفيذ الحكم .

وقد تبع هذا إعلان شريعة تختص ببعض الذنوب المماثلة لهذا الذنب ، وهى : «كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً : كُلُّ مَنْ سَبَّ إِلهَهُ يَحْمِلُ خَطِيَّتَهُ ، وَمَنْ جَدَّفَ عَلَى اسْمِ الرَّبِّ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ . يَرْجُمُهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ رَجْمًا . الْغَرِيبُ كَالْوَطَنِيِّ عِنْدَمَا يُجَدِّفُ عَلَى الاسْمِ (اسم الرب) يُقْتَلُ» (لاويين ٢٤ : ١٥،١٦) هنالك من يشكون في محبة الله وعدالته حين يفتقد بتلك العقوبات الصارمة أولئك الذين نطقوا بهذه الأقوال في حدة غضبهم ؟ إن محبة الله وعدالته تستوجبان هذه الصرامة . ليعلم الجميع أن الألفاظ النابية التي ينطق بها الإنسان ضد الله مدفوعا بالحقد والضغينة هي خطية عظيمة . والقصاص الذي يحل بأول مذنب يمكن أن يكون رادعا للآخرين ليتعلم الناس أن يوقروا اسم الله . ولكن لو تركت خطية هذا الرجل فإن هذا سيكون مفسدة لغيره وتكون النتيجة هلاك نفوس كثيرة .

إن اللفيف الذي صعد مع الإسرائيليين من مصر كانوا مبعث التجارب والمتاعب باستمرار . لقد اعترفوا بأنهم هجروا عبادة الأوثان وأنهم يعبدون الإله الحقيقي إلا أن تربيتهم وتهذيبهم السابقين قد شكلا عاداتهم وأخلاقهم وقد أفسدتهم ، كثيرا أو قليلا ، وثنيتهم وعدم توقيرهم لله . كانوا في غالب الأحيان يثيرون الخصومات والمنازعات ، وكانوا أول المشتكين ، وقد بثوا تأثيرهم المفسد مع ممارساتهم الوثنية ضد الله .

وعقب عودة الشعب إلى البرية حالا حدثت حادثة فيها انتهكت كرامة يوم السبت في ظروف جعلت تلك الخطية تبدو شاذة . إن إعلان الرب لإسرائيل بأنه سيحرمهم من دخول أرض الموعد أثارت فيهم روح التمرد ، وان أحد أفراد الشعب كان غاضبا لأنه قد حرم من كنعان ، فعزم على أن يعلن تحديه لشريعة الله ، فتعدى الوصية الرابعة إذ خرج في يوم السبت واحتطب حطبا . إن بني إسرائيل في أثناء تغربهم في البرية كانوا ممنوعين منعا باتا

من إشعال نار في يوم السبت ، إلا أن هذا النهي لم يمتد إلى أرض كنعان حيث تلـــزم قســـوة المناخ الشعب بإضرام النار ، أما في البرية فلم تكن ثمة حاجة إلى النار لأجـــل التدفئـــة . إن عمل ذلك الرجل كان انتهاكا عنيدا متعمدا للوصية الرابعة ، وهي خطية لم يكن الدافع إليـــها عدم التفكير أو الجهل بل التصلف .

وقد أمسك الرجل في ذات الفعل وأتي به إلى موسى . كان الله قد أعلن من قبل أن تعـــدي وصية السبت جزاؤه الموت ، ولكن لم يكن قد أعلن بعد عن نوع العقوبة ، فقدم موسى هـــذه القضية أمام الله فجاءه أمر الرب قائلا : «قَتْلاً يُقْتَلُ الرَّجُلُ . يَرْجُمُهُ بِحِجَارَةٍ كُلُّ الْجَمَاعَـــةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ» (عدد ١٥ : ٣٥) إن كلا من خطيتي التجديف وكسر يوم الرب بإصرار كـــان الجزاء فيهما متشابها ، لأن الدوافع لارتكابهما كانت متشابهة ، وهي احتقار سلطان الله .

في أيامنا هذه كثيرون يرفضون حفظ وصية السبت المعطاة لإنسان عند الخلق على اعتبار أنها وصية يهودية . ويصرون على القول بأنه إذا كان لابد من حفظها فلابد من إيقاع حكـــم الموت على من يتعدونها . ولكننا نرى أن التجديف قد نال نفس الجزاء الذي ناله من قد كســر السبت . فهل نستنتج من هذا أن الوصية الثالثة يجب طرحها لكونها لا تنطبـــق علـــى غـــير اليهود ؟ ومع ذلك فالحجة التي نستنتجها من عقوبة الموت تنطبـــق علـــى الوصيـــة الثالثـــة والخامسة وباقي الوصايا العشر تقريبا سواء بسواء . ومع أن الله لا يعاقب من يتعدون شريعته بعقوبات زمنية فإن كلمته تعلن أن أجرة الخطية هي موت ، وعندما ينفذ حكم الدينونـــة فـــي النهاية سيري الناس أن الموت هو نصيب من يتعدون وصاياه المقدسة .

وفي أثناء الأربعين سنة كلها التي قضاها الشعب في البرية كـــان كـــل أســـبوع يذكرهـــم بالتزامهم المقدس بحفظ السبت بواسطة أعجوبة المن ، ومع ذلك فحتى هذا لم يكـــن وازعـــا يدفعهم إلى الطاعة . ومع أنهم لم يكونوا يتجرأون على ارتكاب تحد سافر كالذي نال قصاصـــا علنيا فقد كانوا متراخين جدا في حفظ الوصية الرابعة . وقد أعلن الله على لسان نبيه قـــائلا : «نَجَّسُوا سُبُوتِي» (حزقيال ٢٠ : ١٣-٢٤) وحسب هذا ضمن الأسباب التي لأجلها حرم الجيل الأول من أرض الموعد ، ومع ذلك فإن أولادهم لم يتعلموا الدرس ، فلقد كان إهمالـــهم فـــي حفظ السبت عظيما في أثناء سني التيهان الأربعين في البرية بحيث أن الله مع كونه لم يحرمهم دخول كنعان ، قد أعلن أنه سيبددهم بين الأمم الوثنيين بعد استقرارهم في أرض الموعد .

ومن قادش ارتد بنو إسرائيل إلى البرية ، فلما انتهت مدة اغترابهم في البرية «أَتَى بَنُو إِسْرَائِيلَ ، الْجَمَاعَةُ كُلُّهَا ، إِلَى بَرِّيَّةِ صِينَ فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ . وَأَقَامَ الشَّعْبُ فِي قَادَشَ» (عدد ٢٠ : ١) وفي ذلك المكان ماتت مريم ودفنت . فمن منظر الفرح والتهليل على شواطئ بحر سوف ، حين خرج بنو إسرائيل ينشدون أغاني الحمد ويرقصون ليحتفلوا بانتصار الرب ، إلى قبر يحفر في البرية تنتهى عنده حياة الاغتراب والمشقة هذا كان المصير الذي صار إليه ملايين ممن كانوا قد خرجوا من مصر تحدوهم آمال كبار . لقد انتزعت الخطية كأس البركة عن أفواههم وحطمتها ، فهل سيتعلم الجيل الجديد هذا الدرس ؟

«فِي هذَا كُلِّهِ أَخْطَأُوا بَعْدُ ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِعَجَائِبِهِ ... إِذْ قَتَلَهُمْ طَلَبُوهُ ، وَرَجَعُوا وَبَكَّرُوا إِلَى اللهِ ، وَذَكَرُوا أَنَّ اللهَ صَخْرَتُهُمْ ، وَاللهَ الْعَلِيَّ وَلِيُّهُمْ» ومع ذلك فإنهم لم يرجعوا إلى الله بنية خالصة . فمع أنهم حين أذلهم أعداؤهم طلبوا العون منه هو الذي يستطيع وحده أن يخلص ، فإن قلوبهم «لَمْ تُثَبَّتْ مَعَهُ ، وَلَمْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ فِي عَهْدِهِ . أَمَّا هُوَ فَرَؤُوفٌ ، يَغْفِرُ الإِثْمَ وَلاَ يُهْلِكُ . وَكَثِيرًا مَا رَدَّ غَضَبَهُ ، وَلَمْ يُشْعِلْ كُلَّ سَخَطِهِ . ذَكَرَ أَنَّهُمْ بَشَرٌ . رِيحٌ تَذْهَبُ وَلاَ تَعُودُ» (مزمور ٧٨ : ٣٢-٣٥، ٣٧-٣٩) .

الفصل السابع والثلاثون

الصخرة المضروبة

عندما ضربت الصخرة في حوريب جرى منها ، أولا ، المـــاء الحـــي الـــذي أروى إسرائيل وأنعشهم في البرية ، وطوال سني تيهانهم ، كانوا ، كلما دعت الحاجة ، يزودون بالماء بأعجوبة من أعاجيب رحمته ، ومع ذلك فإن الماء لم يظل جاريا من حوريبـــب . وأينما احتاجوا إلى الماء في رحلاتهم كان يتدفق من شق الصخرة إلى جوار محلتهم .

إن المسيح هو الذي بقوة كلمته جعل الماء المنعش يجري لأجل إسرائيل «لأَنَّــــهُمْ كَـــانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ تَابِعَتِهِمْ ، وَالصَّخْرَةُ كَانَتِ الْمَسِيحَ» (١كورنثوس ١٠ : ٤) لقــد كان هو نبع كل البركات الزمنية والروحية لهم . إن المسيح الصخرة الحقيقية كان معهم فـــي كل رحلاتهم ، «وَلَمْ يَعْطَشُوا فِي الْقِفَارِ الَّتِي سَيَّرَهُمْ فِيهَا . أَجْرَى لَهُمْ مِنَ الصَّخْرِ مَـــاءً ، وَشَقَّ الصَّخْرَ فَفَاضَتِ الْمِيَاهُ» (إشعياء ٤٨ : ٢١) « ... جَرَتْ فِي الْيَابِسَةِ نَهْرًا» (مزمـــور ١٠٥ : ٤١) .

كانت الصخرة المضروبة رمزا إلى المسيح ، ومن هذا الرمز نتعلم حقـــائق روحيـــة ثمينة ، فكما فاضت المياه من الصخرة المضروبة ، كذلك من المسيح الذي هو«مَجْـــرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا ، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا» (إشعياء ٥٣ : ٤،٥) يفيض نبع الخلاص لجنســـنا الهالك . وكما ضربت الصخرة مرة واحدة ، هكذا المسيح أيضا «قُدِّمَ مَـــرَّةً لِكَـــيْ يَحْمِـلَ خَطَايَا كَثِيرِينَ» (عبرانيين ٩ : ٢٨) . وما كان مخلصنا ليقدم ذبيحة مرة ثانية . إنما على أولئك الذين يطلبون بركات نعمته أن يسألوا باسم المسيح ، ساكبين أشواق قلوبـــهم فـــي صلاة تائبة باكية . مثل هذه الصلاة تضع أمام رب الجنود جروح يسوع ، وحينئذٍ يفيـض من جديد الدم المانح الحياة الذي كان يرمز إليه فيضان الماء الحي لإرواء إسرائيل .

كان بنو إسرائيل بعد استقرارهم في كنعان يحتفلون بمظاهرات فرح عظيم بذكرى جريـــان

الماء من الصخرة في البرية ، وفي أيام المسيح صار إحياء تلك الحادثة احتفالا مؤثرا . كان ذلك الاحتفال يقام في أيام عيد المظال حين يكون الشعب من أنحاء البلاد كافة مجتمعين معا في أورشليم ، وفي كل يوم من سبعة أيام العيد كان الكهنة يخرجون بآلاتهم الموسيقية ومعهم فرقة التسبيح من اللاويين ليستقوا ماء في إناء ذهبي من عين سلوام ، وكان يتبعهم من جماهير العابدين أكبر عدد يمكنه أن يقترب من ذلك النبع ليشرب في الوقت نفسه الذي كان يترنم المرنمون فيه بصوت الفرح قائلين : «تَسْتَقُونَ مِيَاهًا بِفَرَحٍ مِنْ يَنَابِيعِ الْخَلاَصِ» (إشعياء ١٢ : ٣) ثم يحمل الماء بعد ما ينتشله الكهنة ، إلى الهيكل بين أصوات الأبواق وترنيمات الفرح قائلة : «تَقِفُ أَرْجُلُنَا فِي أَبْوَابِكِ يَا أُورُشَلِيمُ» وكانوا يصبون الماء على مذبح المحرقة حين كان ترتفع أصوات الغناء والتسبيح ، وكانت جماهير الشعب تشترك في ترانيم الانتصار بآلات الغناء وأصوات الأبواق الرخيمة .

وقد استخدم المخلص هذه الخدمة الرمزية لتوجيه أفكار الشعب إلى البركات التي جاء هو لكي يمنحهم إياها ، «وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ» سمع صوت يسوع يدوي في كل أروقة الهيكل قائلا : «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ . مَنْ آمَنَ بِي ، كَمَا قَالَ الْكِتَابُ ، تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ» ويوحنا يقول : «قَالَ هذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ» (يوحنا ٧ : ٣٧-٣٩) . إن الماء المنعش الذي يفيض في أرض يابسة قفراء ويجعل البرية تزهر ، ويجري معطيا حياة للهالكين هو رمز للنعمة الإلهية التي يستطيع المسيح وحده أن يعطيها ، وهي كالماء الحي تطهر النفس وتنعشها وتنشطها . إن من يسكن المسيح في قلبه يكون في أعماقه نبع نعمة وقوة لا ينضب . إن يسوع يبهج الحياة وينير الطريق أمام كل من يطلبونه بكل قلوبهم . وإذ تقبل محبته في القلب تثمر أعمالا صالحة للحياة الأبدية . وهذه المحبة لا تبارك النفس التي تحل فيها وحدها ، بل الينبوع الحي سيفيض في كلام وأعمال البر لإنعاش الظامئين حوله .

استعمل المسيح هذا الرمز نفسه في حديثه مع المرأة السامرية عند بئر يعقوب فقال لها : «مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يوحنا ٤ : ١٤) إن المسيح يجمع بين الرمزين ، فهو الصخرة وهو الماء الحي .

إن نفس هذين الرمزين الجميلين بما لهما من مدلول رمزي يذكران كثيرا في الكتاب كله . فقبل مجيء المسيح في الجسد بعدة قرون أشار إليه موسى على أنه صخرة خلاص إسرائيل (تثنية ٣٢ : ١٥) وقد تغنى صاحب المزامير فيه قائلا : «وَلِيِّي» «فَادِيَّ» ،«صَخْرَةُ قُوَّتِي» ، «صَخْرَةٍ أَرْفَعَ مِنِّي» ، «صَخْرَةَ مَلْجَأٍ» ، «صَخْرَةُ قَلْبِي» ، «صَخْرَةَ مَلْجَإِي» . ثم أن داود في مزاميره يصور نعمة الفادي بمياه باردة «مِيَاهِ الرَّاحَةِ» بين المراعي الخضر حيث يقود الراعي السماوي قطيعه . ثم يقول أيضا : «وَمِنْ نَهْرِ نِعَمِكَ تَسْقِيهِمْ . لأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبُوعَ الْحَيَاةِ» (مزمور ١٩ : ١٤، ٦٢ : ٧، ٦١ : ٢، ٧١ : ٣، ٧٣ : ٢٦، ٩٤ : ٢٢، ٢٣ : ٢، ٣٦ : ٨،٩) والحكيم يعلن قائلا : «نَبْعُ الْحِكْمَةِ نَهْرٌ مُنْدَفِقٌ» (أمثال ١٨ : ٤) وإرميا يصف المسيح أنه «يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ» وزكريا يقول عنه إنه «يَكُونُ يَنْبُوعٌ مَفْتُوحًا ... لِلْخَطِيَّةِ وَلِلنَّجَاسَةِ» (إرميا ٢ : ١٣؛ زكريا ١٣ : ١) .

أما إشعياء فيصفه بأنه «صَخْرَ الدُّهُورِ» ، «كَظِلِّ صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ فِي أَرْضٍ مُعْيِيَةٍ» (إشعياء ٢٦ : ٤؛ ٣٢ : ٢) وهو يسجل الوعد الثمين مقدما للأذهان صورة واضحة للينبوع الحي الذي فاض لأجل إسرائيل إذ يقول : «اَلْبَائِسُونَ وَالْمَسَاكِينُ طَالِبُونَ مَاءً وَلاَ يُوجَدُ . لِسَانُهُمْ مِنَ الْعَطَشِ قَدْ يَبِسَ . أَنَا الرَّبُّ أَسْتَجِيبُ لَهُمْ . أَنَا إِلهَ إِسْرَائِيلَ لاَ أَتْرُكُهُمْ» ، «أَسْكُبُ مَاءً عَلَى الْعَطْشَانِ ، وَسُيُولاً عَلَى الْيَابِسَةِ» ، «لأَنَّهُ قَدِ انْفَجَرَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ مِيَاهٌ ، وَأَنْهَارٌ فِي الْقَفْرِ» . وهو يدعو قائلا : «أَيُّهَا الْعِطَاشُ جَمِيعًا هَلُمُّوا إِلَى الْمِيَاهِ» (إشعياء ٤١ : ١٧؛ ٤٤ : ٣؛ ٣٥ : ٦؛ ٥٥ : ١) وفي ختام السفر المقدس يتردد صدى هذه الدعوة . إن نهر ماء الحياة «لاَمِعًا كَبَلُّورٍ» يخرج من عرش الله والخروف ، وهوذا دعوة الرحمة يرن صوتها عبر الأجيال قائلة . «مَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا» (رؤيا ٢٢ : ١٧) .

قبيل وصول العبرانيين إلى قادش انقطعت مياه النبع الحي التي كانت تفيض متدفقة إلى جوار المحلة مدى السنين الطويلة الماضية . لقد قصد الرب أن يمتحن الشعب مرة أخرى ، أراد أن يعرف هل كانوا سيثقون بعنايته أم أنهم سيتمثلون بعدم إيمان آبائهم .

ها هم الآن يرون أمامهم جبال كنعان ، وأن مسير أيام قليلة يوصلهم إلى حدود أرض الموعد . وكانوا على مسافة قصيرة من أدوم التي كان يملكها بنو عيسو والتي كانت تخترقها الطريق المرسومة إلى كنعان . وقد أمر الرب موسى قائلا : «تَحَوَّلُوا نَحْوَ

الشِّمَالِ . وَأَوْصِ الشَّعْبَ قَائِلاً : أَنْتُمْ مَارُّونَ بِتُخْمِ إِخْوَتِكُمْ بَنِي عِيسُو السَّاكِنِينَ فِي سِعِيرَ ، فَيَخَافُونَ مِنْكُمْ ... طَعَامًا تَشْتَرُونَ مِنْهُمْ بِالْفِضَّةِ لِتَأْكُلُوا ، وَمَاءً أَيْضًا تَبْتَاعُونَ مِنْهُمْ بِالْفِضَّةِ لِتَشْرَبُوا» (تثنية ٢ : ٣-٦) كان يجب أن تكون هذه التعليمات كافية لتوضيح سبب انقطاع الماء عنهم . فقد كانوا مزمعين أن يمروا في أرض خصبة وافرة المياه إذ يسيرون في طريق مستقيم إلى أرض كنعان . وكان الله قد وعد بأنهم سيمرون في أرض أدوم دون أي انزعاج ، وستكون لهم فرص لشراء طعام وماء يكفي لكل الجماعة . ثم أن انقطاع الماء الذي تدفق بطريقة عجائبية كان ينبغي أن يكون سببا للفرح ، وعلامة على أن مدة تيهانهم في البرية قد انتهت . فلولا أن عدم إيمانهم قد أعماهم لكانوا قد فهموا هذا ، ولكن ما كان ينبغي أن يكون برهانا على إنجاز الله لوعده صار مجالا للشك والتذمر ، وقد بدا كأن الشعب قد فقدوا كل رجاء في أن الله سيورثهم كنعان فجعلوا يصرخون متمنين بركات البرية .

وقبل السماح لهم بدخول كنعان كان لابد من أن يبرهنوا على إيمانهم بوعد الله . لقد انقطع عنهم الماء قبل وصولهم إلى أدوم . وكان هذا فرصة لهم حتى يسلكوا بالإيمان لا بالعيان وقتا قصيرا . ولكن أول تجربة أهاجت فيهم تلك الروح الثائرة روح الجحود والتذمر التي أظهرها آباؤهم من قبل . وما أن ارتفعت في جوانب المحلة الصرخات في طلب الماء حتى نسوا يد الله التي عالتهم وسدت أعوازهم لسنين طويلة ، وبدلا من أن يتجهوا إلى الله في طلب المعونة تذمروا عليه وصرخوا في يأس قائلين : «لَيْتَنَا فَنِينَا فَنَاءَ إِخْوَتِنَا أَمَامَ الرَّبِّ» (عدد ٢٠ : ١ ١٣) أي أنهم تمنوا لو كانوا ضمن من قد هلكوا في عصيان قورح .

وقد صرخوا ضد موسى وهارون قائلين : «لِمَاذَا أَتَيْتُمَا بِجَمَاعَةِ الرَّبِّ إِلَى هذِهِ الْبَرِّيَّةِ لِكَيْ نَمُوتَ فِيهَا نَحْنُ وَمَوَاشِينَا ؟ وَلِمَاذَا أَصْعَدْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِتَأْتِيَا بِنَا إِلَى هذَا الْمَكَانِ الرَّدِيءِ ؟ لَيْسَ هُوَ مَكَانَ زَرْعٍ وَتِينٍ وَكَرْمٍ وَرُمَّانٍ ، وَلاَ فِيهِ مَاءٌ لِلشُّرْبِ !» .

ذهب ذانك القائدان إلى باب خيمة الاجتماع وسقطا على وجهيهما . ومرة أخرى «تَرَاءَى لَهُمَا مَجْدُ الرَّبِّ» ثم أمر الرب موسى قائلا : «خُذِ الْعَصَا وَاجْمَعِ الْجَمَاعَةَ أَنْتَ وَهَارُونُ أَخُوكَ ، وَكَلِّمَا الصَّخْرَةَ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ أَنْ تُعْطِيَ مَاءَهَا ، فَتُخْرِجُ لَهُمْ مَاءً مِنَ الصَّخْرَةِ» .

سار الأخوان أمام الجماعة وكانت عصا الله بيد موسى . لقد صارا الآن شيخين طـــاعنين في السن . وصبرا طويلا فيما مضى محتملين عصيان بني إسرائيل وعنادهم . أما الآن فحتى صبر موسى لم يعد يحتمل ، فصرخ قائلا : «اسْمَعُوا أَيُّهَا الْمَرَدَةُ ، أَمِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ نُخْرِجُ لَكُمْ مَاءً ؟» وبدلا من أن يكلم الصخرة كما قد أمره الله ضربها بالعصا مرتين .

تدفق الماء غزيرا لإرواء الجماعة . ولكن خطية عظيمة ارتكبت . لقد تكلم موسى مدفوعا بدافع شعور السخط والغضب ، وكانت كلماته تعبيرا عن الانفعال البشـــري لا تعبـــيرا عـــن الغضب المقدس لسبب أن الله قد أهين . قال لهم : «اسْمَعُوا أَيُّهَا الْمَرَدَةُ» كان هـــذا اتـــهاما حقيقيا ، ومع ذلك ينبغي ألا ينطق به الإنسان ، حتى في الحمق ، بانفعال أو ضجر . لما أمـــر الله موسى أن يواجه إسرائيل على أنهم عصاة ومتمردون كان الكلام مؤلما لنفس موسى وكان يصعب على الشعب احتماله ، ومع ذلك فقد سنده الله وهو يقدم رسالته لهم . ولكن لمـــا أخـــذ على نفسه أمر اتهامهم أحزن روح الله وأضر بالشعب . لقد اتضح بأنه كان يعـــوزه الصـــبر وضبط النفس . وهكذا كانت للشعب فرصة ليتساءلوا عما إذا كان عذرا لهم فـــي خطيتـــهم ، فأغضب موسى الله كما فعلوا هم أيضا . فقالوا أن تصرفه من البداءة كان عرضـــة للانتقـــاد واللوم . وها هم الآن قد وجدوا العذر الذي طالما طلبوه لرفض كل التوبيخات التي قد أرسـلها الرب إليهم عن طريق خادمه .

لقد أظهر موسى عدم ثقته بالله إذ سألهم قائلا : «أَمِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ نُخْرِجُ لَكُمْ مَـــاءً ؟» كأن الرب لا يريد أن يتم ما وعد به . فقال الرب لذينك الأخوين : «لَمْ تُؤْمِنَا بِـــي حَتَّـــى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وحينما لم يكن ماء قبلا ، تزعزع إيمانهما في إتمـــام الله لوعده بسبب تذمر الشعب وتمردهم . فحكم على الجيل الأول بأن يموتوا في القفر لعــــدم إيمانهم ، ومع ذلك فها نفس الروح تتفشى في أولادهم . فهل سيخفق هؤلاء أيضـــا فـــي الحصول على الوعد ؟ إن موسى وهارون إذ كانا متعبين وخائرين لم يبذلا أي مجــــهود لصد تيار ثورة الشعب الجارفة . فلو أنهما هما نفسيهما أظهرا إيمانا بالله ثابتا لا يتزعزع لكانا قد أوضحا المسألة أمام الشعب في نور يقدرهم على احتمال التجربة . ولـــو أنـــهما استخدما السلطان الممنوح لهما من الله كقضاة بكيفية سريعة وحاسمة لأمكنهما إسكات تلك التذمرات . كان يجب عليهما أن يبذلا كل جهد يستطيعانه لإصلاح الحال قبلما يطلبان من

الله أن يعمل لأجلهما العمل . ولو أن التذمر في قادش قمع بسرعة حازمة ، لامتنع حدوث سلسلة من الشرور .

إن موسى بعمله الطائش أبطل قوة الدرس الذي قصد الله أن يعلمه للجميع . إن الصخرة التي كانت ترمز إلى المسيح قد ضربت مرة واحدة كما كان على المسيح أن يقدم مرة واحـــدة . وفـــي المرة الثانية كانت الحاجة فقط إلى أن يكلم موسى الصخرة ، كما يجب فقط أن نطلب البركـــات باسم المسيح . وإذ ضربت الصخرة مرة ثانية تحطم مغزى هذا الرمز الجميل الذي يشـــير إلـــى المسيح .

وأكثر من هذا فإن موسى وهارون قد ادعيا لنفسيهما قوة هي مـــن حـــق الله وحـــده . إن الضرورة لتداخل الله جعلت تلك الفرصة في غاية الخطورة ، وكان ينبغي لقـــائدي إســـرائيل ذينك أن يحسنا استخدامها بالتأثير على الشعب ليوقروا الله ، وليقووا إيمانهم بقدرته وصلاحه . وحين صرخا في غضب قائلين : «أَمِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ نُخْرِجُ لَكُمْ مَاءً ؟» وضعا نفســـهما فـــي مكان الله ، كأنما القوة كامنه فيهما ، مع أنهما رجلان لهما ما لسائر البشر من ضعفات وآلام . فإذ ضجر موسى من تذمرات الشعب وعصيانهم المتواصل غاب عن نظرة معينه القدير . فإذ لم تسنده قوة الله ترك ليشوه تاريخه بإظهار الضعف البشري . فذلك الرجل الذي كان يمكن أن يظل طاهرا وثابتا ومنكرا لنفسه إلى نهاية خدمته انهزم أخيرا . لقد أهيـــن الله أمـــام جماعـــة إسرائيل وكان ينبغي أن يتمجد ويتعظم .

إن الله لم ينطق في ذلك الوقت بأحكامه على أولئك الذين بمسلكهم الشرير أثاروا غضـــب موسى وهارون . ولكن كل اللوم وقع على ذينك القائدين . فذانك الرجلان اللذان وقفا كممثلين عن الله أمام الشعب لم يكرماه ، وقد أحس موسى وهارون بالكدر إذ غابت عن بالهما حقيقـــة كون تذمر الشعب لم يكن ضدهما بل ضد الله نفسه . إن نظرهما إلى نفســـيهما ، مستشـــهدين بعطفهما جعلهما يسقطان في الخطية دون أن يشعرا ، ويفشلان في وضـــع خطيـــة الشـــعب العظيمة أمام عيونهم .

كان حكم الله الذي نطق به عليهما في الحال مريرا ومذلا لهما جدا . «فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَـى وَهَارُونَ : مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْـــرَائِيلَ ، لِذلِـكَ لاَ تُدْخِلاَنِ هذِهِ الْجَمَاعَةَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» فقبل عبور الأردن كان لابد لهما من

أن يموتا مع بني إسرائيل العصاة . ولو كان موسى وهارون يقدران نفسهما بأعظم مما همـــا في الحقيقة أو يضمران السخط أو الغضب وهما يسمعان هذا الإنذار والتوبيخ الإلـــهي لكــان ذنبهما أعظم مما يحتمل . ولكنهما كانا بريئين من خطية الإصرار والعناد . لقد انهزما أمــــام تلك التجربة المباغتة وسرعان ما أحسا الانسحاق فتذللا أمام الله ، فقبل الرب توبتهما ، ومع ذلـــك فبسبب الضرر الذي ألحقته خطيتهما بالشعب لم يمكن الله أن يلغي حكمــــه أو يرفـــع عنـــهما القصاص .

ولم يخف موسى الحكم الذي حكم به عليه ولكنه أخبر به الشعب قائلا إنه لكونه أخفق فـــي أن ينسب المجد لله فلن يكون قادرا أن يدخلهم أرض الموعـــد . وقـــد أمرهـــم أن يلاحظـــوا القصاص الصارم الذي افتقده الرب به ، ويتأملوا في كم سيعتبر الرب تذمراتهم عظيمة فـــي اتهامهم إنسانا عاديا بإنزال أحكام الرب عليهم ، تلك الأحكام التـــي جلبوهـــا علـــى أنفســـهم بخطاياهم . وقد أخبرهم كيف أنه قد توسل إلى الله لكي ينقض ذلك الحكم ، ولكن الرب رفض إجابة توسلاته . فقال : «لكِنَّ الرَّبَّ غَضِبَ عَلَيَّ بِسَبَبِكُمْ وَلَمْ يَسْمَعْ لِي» (تثنية ٣ : ٢٦) .

إن بني إسرائيل كلما كانت تعترضهم أية صعوبة أو تجربة فسرعان ما كانوا يتهمونه بأنـــه قد أخرجهم من أرض مصر ، كأن الله لم تكن له يد في ذلك . وفي كل رحلاتـــــهم إذ كـــانوا يشتكون من الصعوبات التي واجهتهم في الطريق ويتذمرون على ذينك القائدين كان موســـى يقول لهم : «إن تذمركم هو على الرب ، فلست أنا الذي أنقذتكم بل الرب» ولكن كلماته التـــي نطق بها في تسرع وهو أمام الصخرة حين قال : «أَمِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ نُخْرِجُ لَكُـــمْ مَـــاءً ؟» كانت اعترافا فعليا بصدق تهمة الشعب الموجهة إليه ، وجعلت الشعب يصرون علــــى عـــدم إيمانهم ويبررون تذمراتهم . وقد أراد الرب أن يزيل هذا الأثر الخاطئ إلى الأبد من أذهـــان الشعب بحرمانه لموسى من دخول أرض الموعد وهذا برهان لا يدحض على أن قـــائدهم لـــم يكن هو موسى ، بل الملاك القدير الذي قال الرب عنه : «هَا أَنَا مُرْسِلٌ مَلاَكًا أَمَامَ وَجْــــهِكَ لِيَحْفَظَكَ فِي الطَّرِيقِ ، وَلِيَجِيءَ بِكَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَعْدَدْتُهُ . اِحْتَرِزْ مِنْهُ وَاسْمَعْ لِصَوْتِـــهِ ... لأَنَّ اسْمِي فِيهِ» (خروج ٢٣ : ٢٠،٢١) .

قال موسى : «غَضِبَ عَلَيَّ (الرب) بِسَبَبِكُمْ» . كان عيون كل بني إسرائيل نحو موسى . وقد ألقت خطيته ظلا على الله الذي قد اختاره قائدا لشعبه . وقد علمت كل الجماعة بذلك العصيـــان ،

فلو كان الله قد أغض عن هذا العصيان لرسخ في عقول الشعب الاعتقاد أن عدم الإيمان والضجر تحت ضغط الإسخاط العظيم يمكن التغاضي عنهما في حياة من هم في مراكز تتطلب مسؤولية ، ولكن عندما أعلن أن موسى وهارون لن يدخلا أرض كنعان بسبب تلك الخطية الواحدة عرف الشعب أنه ليست عند الله محاباة ، وأنه يعاقب المذنبين عقابا أكيدا .

إن تاريخ بني إسرائيل كان لابد من أن يكتب في سفر لأجل تعليم الأجيال القادمة وإنذارها . والناس في كل العصور الآتية ينبغي لهم أن يروا إله السماء كالسيد الذي لا يحابي ، والذي لا يبرر الخطية في أي حال . ولكن قليلون هم الذين يتحققون شر الخطية العظيم . إن الناس يخدعون أنفسهم بقولهم إن الله صالح جدا بحيث لا يعاقب الخطية . ولكن في نور تاريخ الكتاب المقدس يتضح لنا أن صلاح الله ومحبته يلزمانه بأن يعامل الخطية على أنها شر قتال لسلامة الكون وسعادته .

حتى استقامة موسى وأمانته لم تستطيعا منع عقابه على زلته . لقد غفر الله للشعب خطايا أعظم من خطية موسى ، ولكنه لا يمكنه أن يعامل خطية القادة كما يعامل خطايا عامة الشعب . لقد أكرم الرب موسى أكثر مما أكرم أي إنسان على الأرض . أعلن له مجده وعن طريقه أعطى شرائعه لإسرائيل . وإن حقيقة كون موسى قد تمتع بمثل ذلك النور الباهر وتلك المعرفة الكاملة جعلت خطيته أكثر شناعة . إن الأمانة الماضية لا يمكنها أن تكفر عن عمل خاطئ واحد . فكلما زاد النور والامتيازات الممنوحة للإنسان زادت مسؤوليته ، وصار فشله عظيما وقصاصه صارما .

لم تكن خطية موسى جرما هائلا كما قد يراها الناس بل كانت خطيته من تلك الخطايا الشائعة الكثيرة الحدوث . يقول صاحب المزامير عن موسى أنه قد «فَرَطَ بِشَفَتَيْهِ» (مزمور ١٠٦ : ٣٣) وقد يحكم الناس على هذه الخطية أنها شيء زهيد . ولكن إذا كان الله قد عامل هذه الخطية بمثل هذه الصرامة العظيمة في حياة خادمه هذا الذي كان أعظمهم أمانة وأكرمهم في عينيه ، إذا فهو لن يتسامح فيها قطعا في حياة الآخرين . إن خطية تعظيمنا لذواتنا وميلنا إلى لوم إخوتنا هي خطية مغيظة لله . ومن ينغمسون في هذه الشرور يلقون ظلالا من الشك على عمل الله ويعطون لجماعة المتشككين عذرا للتمادي في عدم إيمانهم . وبقدر ما يكون مركز الإنسان خطيرا عظيما بقدر ما يجب عليه أن يكون صبورا ووديعا .

إذا كان أولاد الله ولاسيما أولئك الذين ينطوي مركزهم على مسؤولية ، يأخذون لأنفسهم المجد الذي لا يليق بغير الله فإن الشيطان يفرح ويبتهج ، إذا أحرز انتصارا ، لأن هذا كان علة سقوطه . وهكذا هو يحرز أعظم نجاح إذ يجرب الآخرين ليهلكوا . إن الله لكي يجعلنا يقظين وحذرين من مكايد الشيطان يعطينا من كلمته دروسا كثيرة ليعلمنا خطر تعظيم الذات . لا باعث من بواعث طبيعتنا ولا قوة من قوى عقولنا ولا ميل من أميال قلوبنا إلا ويحتاج إلى قوة ضبط روح الله لحظة فلحظة . لا بركة من البركات التي يمنحها الله للإنسان ، وتجربة مما يسمح الله بوقوعه عليه إلا ويستخدمها الشيطان ليجرب بها النفس ويزعجانها ويهلكها لو أعطيناه أقل مجال . ولهذا فمهما كانت عظمة النور الروحي المعطى للإنسان ومهما كان رضى الله وبركاته التي يمنحه إياها عظيمة ينبغي له أن يسلك متواضعا أمام الرب متوسلا إليه تعالى أن يرشد كل أفكاره ويتسلط على كل بواعثه .

جميع المعترفين بالتقوى هم تحت أقدس الالتزامات للسهر على أرواحهم والتدرب على حفظ أنفسهم أمام أقسى الاستفزازات . لقد كانت أثقال مسؤوليات موسى عظيمة جدا ، وقليلون هم الذين يجربون بقسوة كما قد جرب هو ولكن هذا لم يكن كافيا للإغضاء عن خطيته . لقد أعد الرب لشعبه مؤونة كافية ، فلوا اتكلوا على قدرته لا يكونون تحت رحمة الظروف . إن أقسى التجارب لا يمكن أن يكون عذرا للخطية . ومهما تكن عظمة الضغط الواقع على النفس فإن التعدي هو من فعلنا ، لأنه لا توجد قوة في الأرض أو في الجحيم ترغم أي إنسان على عمل الشر . إن الشيطان يهاجم مواطن الضعف فينا ولكن لا حاجة بنا إلى التسليم أو الهزيمة . ومهما كانت الهجمات قاسية وغير متوقعة فقد أعد لنا الله معونة وبقوته يمكننا أن ننتصر .

الفصل الثامن والثلاثون

الدوران حول أدوم

كانت محلة إسرائيل في قادش قريبة من تخوم أدوم . وكان موسى والشعب يرغبون أشد الرغبة في أن يسيروا في الطريق التي تخترق بلاد أدوم وتنتهي إلى أرض الموعد . ولذلك امتثالا لأمر الله بعثوا برسالة إلى ملك أدوم يقولون فيها .

«هكَذَا يَقُولُ أَخُوكَ إِسْرَائِيلُ : قَدْ عَرَفْتَ كُلَّ الْمَشَقَّةِ الَّتِي أَصَابَتْنَا . إِنَّ آبَاءَنَا انْحَدَرُوا إِلَى مِصْرَ ، وَأَقَمْنَا فِي مِصْرَ أَيَّامًا كَثِيرَةً وَأَسَاءَ الْمِصْرِيُّونَ إِلَيْنَا وَإِلَى آبَائِنَا ، فَصَرَخْنَا إِلَى الرَّبِّ فَسَمِعَ صَوْتَنَا ، وَأَرْسَلَ مَلاَكًا وَأَخْرَجَنَا مِنْ مِصْرَ . وَهَا نَحْنُ فِي قَادَشَ ، مَدِينَةٍ فِي طَرَفِ تُخُومِكَ . دَعْنَا نَمُرَّ فِي أَرْضِكَ . لاَ نَمُرُّ فِي حَقْل وَلاَ فِي كَرْمٍ ، وَلاَ نَشْرَبُ مَاءَ بِئْرٍ . فِي طَرِيقِ الْمَلِكِ نَمْشِي ، لاَ نَمِيلُ يَمِينًا وَلاَ يَسَارًا حَتَّى نَتَجَاوَزَ تُخُومَكَ» (عدد ٢٠ : ١٤-٢٠) .

وقد أجيب على هذا الطلب الرقيق بالرفض والوعيد إذ قال أدوم : «لاَ تَمُرُّ بِي لِئَلاَّ أَخْرُجَ لِلِقَائِكَ بِالسَّيْفِ» .

وإذ كان قادة إسرائيل مندهشين من هذا النفور أرسلوا التماسا آخر إلى الملك وعدوه فيه قائلين : «فِي السِّكَّةِ نَصْعَدُ ، وَإِذَا شَرِبْنَا أَنَا وَمَوَاشِيَّ مِنْ مَائِكَ أَدْفَعُ ثَمَنَهُ . لاَ شَيْءَ . أَمُرُّ بِرِجْلَيَّ فَقَطْ» .

فكان الجواب : «لاَ تَمُرُّ» . وقد أقيمت فرق مسلحة من أدوم في المعابر الحرجة وبذلك بدا العبور السلمي في تلك المعابر أمرا مستحيلا .

وكان العبرانيون قد نهوا عن الالتجاء إلى القوة فكان عليهم أن يدوروا حول أدوم في طريق طويل .

لو كان الشعب حين تعرضوا للتجربة قد وثقوا بالله لكان رئيس جند الرب قد قادهم في وسط أرض أدوم وكان خوفهم وقع على سكان الأرض ، وبدلا من إظهار العداوة كانوا عاملوهم

بالرفق والإحسان . ولكن الإسرائيليين لم يسلكوا بحسب قول الله تماما . وفيما كانوا يشتكون ويتذمرون أفلتت منهم الفرصة الذهبية . وما كادوا أخيرا يتقدمون بطلبهم إلى الملك حتى رفض . فمنذ خروجهم من مصر والشيطان دائب في وضع العراقيل والتجارب في طريقهم حتى لا يرثوا كنعان . ولعدم إيمانهم فتحوا الطريق أمام الشيطان مرارا عديدة لكي يقاوم مقاصد الله .

إنه لأمر مهم أن نؤمن بكلمة الله ونعمل بموجبها دون ما تردد بينما ملائكته على تمام الأهبة لخدمتنا ، كما أن الملائكة الأشرار مستعدون أبدا لعرقلة كل خطوة من التقدم . وحين يأمر الله أولاده ، في عنايته ، بالتقدم إلى الأمام ، وحين يكون مستعدا لأن يصنع معهم عظائم ، فالشيطان يجربهم ليغيظوا الرب بترددهم وتلكئهم . إنه يحاول أن يشعل روح الخصام أو يثير التذمر أو عدم الإيمان ، وهكذا يحرمهم البركات التي أراد الله أن يمنحهم إياها . على عبيد الرب أن يكونوا رجال الساعة ، ومستعدين أبدا للتقدم إلى الأمام حالما تفتح عنايته الطريق أمامهم . فكل تأخير من جانبهم يعطي الشيطان المجال للعمل على هزيمتهم .

في التعليمات المعطاة لموسى أولا ، عن عبورهم في أرض أدوم ، حين أعلن الله أن الأدوميين سيخافون من إسرائيل ، نهى الرب شعبه عن استخدام هذه الميزة ضد شعب أدوم . وبما أن قوة الله كانت مستخدمة لأجل خير إسرائيل ، ومخاوف أدوم كان يمكن أن تجعلهم فريسة سهلة المنال لإسرائيل ، فكان محرما على العبرانيين أن يهجموا عليهم ، إذ أمرهم الرب قائلا : «احْتَرِزُوا جِدًّا . لاَ تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ ، لأَنِّي لاَ أُعْطِيكُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَلاَ وَطْأَةَ قَدَمٍ ، لأَنِّي لِعِيسُو قَدْ أَعْطَيْتُ جَبَلَ سِعِيرَ مِيرَاثًا» (تثنية ٢ : ٤،٥) . لقد كان الأدوميين من نسل إبراهيم وإسحاق ، فإكراما لخادمي الله أظهر الله إحسانه ولطفه نحو بني عيسو ، فأعطاهم جبل سعير ملكا ، وما كان لهم أن يقلقوا لأي سبب إلا إذا كانت خطاياهم تسوقهم بعيدا عن متناول رحمة اله . كان العبرانيون مزمعين أن يجردوا سكان كنعان من أملاكهم ويلاشوهم نهائيا لأنهم كانوا قد ملأوا مكيال إثمهم . أما الأدوميون فقد كانوا لا يزالون تحت الاختبار ، وفي هذه الحالة كان لابد من معاملتهم بالرحمة . إن الله يسير بالرحمة وهو يقدم شفقته ورأفته قبل إيقاع دينونته . وها هو يعلم إسرائيل أن يبقوا على شعب أدوم قبلما يطلب منهم إهلاك سكان كنعان .

لقد كان أسلاف أدوم وإسرائيل إخوة ، فوجب أن تكون المحبة الأخوية والشفقة

واللطف متوافرة بينهم . وكما نهى الإسرائيليون عن أن يثأروا لأنفسهم بسبب الإهانة التي لحقتهم حين رفض الأدوميون السماح لهم بالعبور في أرضهم ، كذلك حرم عليهم أن ينتقموا لأنفسهم لا في ذلك الوقت ولا في المستقبل ، ووجب ألا يتوقعوا امتلاك أي جزء من أرض أدوم . إن الإسرائيليين إذ كانوا شعب الله المختار المميز كان عليهم أن يراعوا القيود التي قد فرضها عليهم . لقد وعدهم الله بميراث عظيم ، ولكن ما كان لهم أن يشعروا أن لهم وحدهم أية حقوق في الأرض فيطردوا منها باقي الشعوب . وفي كل معاملاتهم مع الأدوميين أمروا بألا يظلموهم . كان لهم أن يتَّجروا معهم ويبتاعوا منهم لوازمهم ويدفعوا فورا أثمان ما يبتاعون . وتشجيعا لإسرائيل حتى يثقوا بالله ويطيعوا كلامه ذكرهم بما حدث في الماضي بقوله : «الرَّبَّ إِلهَكَ قَدْ بَارَكَكَ ... لَمْ يَنْقُصْ عَنْكَ شَيْءٌ» (تثنية ٢ : ٧) لم يكونوا يعتمدون على الأدوميين إذ كان لهم إله ذو موارد غنية . ووجب ألا يعمدوا إلى العنف أو الخداع ليحصلوا على شيء مما يملكه الأدوميون ، ولكن في كل معاملاتهم معهم كان عليهم أن يطبقوا القانون الإلهي : «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» (لاويين ١٩ : ١٨) .

فلو أنهم مروا في أرض أدوم بهذه الكيفية كما قصد الله لأصبح مررهم بركة ليس لأنفسهم فقط بل لسكان البلاد أيضا لأنه كان يمكن أن تتاح لهم فرصة للتعرف بشعب الله وعبادته ، فيروا كيف أن إله يعقوب قد أنجح محبيه ومتقيه . ولكن هذا كله قد أبطله ومنعه عدم إيمان إسرائيل . لقد أعطى الله ماء للشعب إجابة لصرخاتهم ولكنه سمح لعدم إيمانهم أن يوقعهم تحت طائلة القصاص . فوجب عليهم أن يقطعوا الصحراء مرة أخرى ويطفئوا ظمأهم من ذلك النبع العجائبي الذي لو كانوا وثقوا بالله لما كانت بهم حاجة إليه بعد .

وتبعا لذلك اتجهت جموع إسرائيل جنوبا مرة أخرى وساروا في تلك القفار المجدبة التي بدت الآن موحشة أكثر مما كانت قبلا بعد ما ألقوا نظرة على البقاع الخضراء بين التلال في أودية أدوم . ومن سلسلة الجبال التي تطل على تلك الصحراء الكئيبة يرتفع جبل هور الذي على قمته كان لابد لهارون أن يموت ويدفن . فلما وصل الإسرائيليون إلى هذا الجبل أمر الرب موسى قائلا :

«خُذْ هَارُونَ وَأَلِعَازَارَ ابْنَهُ وَاصْعَدْ بِهِمَا إِلَى جَبَلِ هُورٍ ، وَاخْلَعْ عَنْ هَارُونَ ثِيَابَهُ ،

424,425

وَأَلْبِسْ أَلِعَازَارَ ابْنَهُ إِيَّاهَا . فَيُضَمُّ هَارُونُ وَيَمُوتُ هُنَاكَ» (عدد ٢٠ : ٢٥،٢٦) .

فكافح ذانك الرجلان الشيخان وابن هارون الشاب في صعود ذلك الجبل . إن الاثنى عشر عقدا التي قد عاشها كل من موسى وهارون كللت رأسيهما بالشيب ، وحياتهما الطويلة الكثيرة الوقائع تميزت بأقسى التجارب وأعظم الكرامات التي أصابها أي إنسان . لقد امتازا بمواهب طبيعية عظيمة . ونمت كل قواهما وسمت وأكرمت بفضل شركتهما مع الله الغير المحدود ، وقضيا حياتهما في عمل متواصل خال من الأنانية لأجل الله وبني جنسهما . وقد ارتسم على وجهيهما ما ينم على قوة ذهنية عظيمة وعلى الثبات ونبل المقصد والمحبة القوية .

وقف موسى وهارون لسنين عديدة جنبا إلى جنب في همومهما وكفاحهما . وقفا معا يقاومان مخاطر لا حصر لها . واشتركا معا في نوال بركة فريدة من الله ، ولكن ها قد أتى يوم افتراقهما . كانا يصعدان الجبل في تباطؤ لأن كل لحظة يقضيانها معا كان ثمينة . وكان الصعود صعب المرتقى ومتعبا . وإذ كانا يتوقفان مرارا لكي يستريحا كانا يتحدثان معا عن الماضي والمستقبل ، وامتدت أمامهما على مدى البصر البرية التي كانا يهيمان فيها . وفي السهل في أسفل الجبل حلت جموع إسرائيل الذي في سبيلهم أنفق هذان الرجلان المختاران من الله أفضل سني حياتهما ، فكانا يهتمان بخيرهم وسلامتهم أعظم اهتمام وبذلا في سبيل ذلك تضحيات جسيمة . وفي مكان ما خلف جبال أدوم كان الطريق المؤدي إلى أرض الموعد تلك الأرض التي حرم موسى وهارون من التمتع ببركاتها وخيراتها . لم يكونا يضمران في قلبيهما أقل ميل إلى التمرد ولا نطقا بكلمة تذمر واحدة ، ومع ذلك فقد كان في قلبيهما شعور بالحزن المقدس الذي ترك آثاره على وجهيهما إذ تذكرا السبب الذي لأجله حرم عليهما الدخول إلى ميراث آبائهما .

لقد أنجز هارون عمله لأجل إسرائيل . وقبل ذلك بأربعين سنة حين كان يبلغ الثالثة والثمانين من العمر دعاه الله ليشترك مع موسى في رسالته العظيمة الهامة ، وتعاون مع أخيه في إخراج إسرائيل من مصر ، ودعم يدي ذلك القائد العظيم حين حارب جيش إسرائيل العمالقة . لقد سمح له في الصعود إلى جبل سيناء ليقترب من محضر الله وليرى المجد الإلهي ، ووهب الله لعائلة هارون وظيفة الكهنوت وأكرمه إذ قدسه ليكون رئيسا للكهنة ، وأعانه في وظيفته المقدسة في الإعلانات الرهيبة والدينونة الإلهية التي حلت على قورح وجماعته ، وبواسطة شفاعة هارون امتنع الوبأ . وحين قتل ابناه لاستخفافهما بأمر الرب

الصريح لم يتمرد ولا تذمر . ولكن تاريخ حياته النبيل قد تشوه ، إذ ارتكب هارون خطية رهيبة حين استسلم لصيحات الشعب وصنع لهم عجل الذهب في سيناء ، وكذلك حين اشترك مع أخته مريم في حسدهما لموسى وتذمرهما عليه . وقد أسخط الله هو وأخوه موسى في قادش إذ عصيا أمر الرب في التكلم للصخرة لكي تعطي ماءها .

لقد قصد الله أن يكون ذانك القائدان الإسرائيليان العظيمان ممثلين المسيح ، فكان هارون يحمل على صدره أسماء إسرائيل ، ويخبر إسرائيل بمشورة الله ، وكان يدخل إلى قدس الأقداس في يوم الكفارة «لَيْسَ بِلاَ دَمٍ» (عبرانيين ٩ : ٧) كوسيط لأجل كل إسرائيل . وكان يخرج بعد مباشرة ذلك العمل ليبارك الجماعة– كالمسيح الذي سيأتي ليبارك شعبه الذين ينتظرونه حين ينجز عمله الكفاري لأجلهم . إن سمو تلك الوظيفة المقدسة الممثل في رئيس كهنتنا الأعظم هو الذي جعل خطية هارون التي ارتكبها في قادش عظيمة وهائلة جدا .

وبحزن عميق جرد موسى أخاه هارون من ثيابه المقدسة وألبس ابنه ألعازار إياها ، الذي صار خليفته بتعيين إلهي . فبسبب خطية هارون في قادش حرم امتياز القيام بخدمته كرئيس كهنة الله في كنعان– ومن تقديم أول ذبيحة في الأرض الجيدة ليقدس ميراث إسرائيل . وقد كان على موسى أن يستمر مضطلعا بمسؤوليته في قيادة الشعب إلى تخوم كنعان نفسها ، ويأتي على مرأى من أرض الموعد ، ولكن لا يدخلها . فلو أن خادمي الرب هذين حين وقفا أمام الصخرة في قادش صمدا أمام الامتحان الذي نزل بهما بدون تذمر فكم كان مستقبلهما يبدو مختلفا عما هو الآن ! متى ارتكب الخطأ فلن يمكن إلغاؤه أو إبطاله . قد يحدث أن عمل الحياة بجملته لا يمكن أن يعوض عن الخسارة التي تلحق الإنسان في لحظة واحدة للتجربة أو حتى للطياشة وعدم التفكير .

إن غياب ذينك القائدين العظيمين عن المحلة وحقيقة كونهما اصطحبا معهما ألعازار الذي كان معروفا جيدا أنه هو الذي سيخلف أباه هارون في الوظيفة المقدسة ، كل ذلك أيقظ في نفوس الجماعة إحساسا بالتوجس والخوف ، وكان الجميع يتوقعون عودتهم بجزع . وإذ نظر الشعب حولهم إلى تلك الجماعة العظيمة لاحظوا أن كل البالغين تقريبا ممن رحلوا عن مصر هلكوا في القفر . وقد كان الجميع متطيرين يوجسون خيفة وقوع شر بهم حين ذكروا الحكم المقضي به

على موسى وهارون ، فكان البعض على علم بسر تلك الرحلة الغامضة حين صعد الثلاثة إلى قمة جبل هور ، وقد زاد جزعهم على قائدهم بالذكريات المرة واتهامهم لأنفسهم .

وكان يشاهد شبح كل من موسى وألعازار أخيرا وهما يهبطان من الجبل على مهل ، ولكن هارون لم يكن معهما ، وقد كان لبس ألعازار الثياب الكهنوتية المقدسة دليلا على أنه قد أخذ مكان أبيه في تلك الوظيفة المقدسة . وإذ اجتمع الشعب حول قائدهم بقلوب مثقلة بالحزن أخبرهم موسى بأن هارون قد مات بين ذراعيه على جبل هور وأنه هو وألعازار قد دفناه هناك . فانفجرت كل الجماعة باكية ترثي هارون الذي قد أحبوه مع أنهم أحزنوه مرارا . «بَكَى جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ عَلَى هَارُونَ ثَلاَثِينَ يَوْمًا» (عدد ٢٠ : ٢٩) .

ولا يذكر السفر المقدس عن موت رئيس كهنة إسرائيل شيئا أكثر من قوله : «هُنَاكَ مَاتَ هَارُونُ ، وَهُنَاكَ دُفِنَ» (تثنية ١٠ : ٦) ما أعظم الفرق الهائل بين حفلات الدفن اليوم وبين حفلة الدفن هذه التي تمت بتدبير الله وحسب أمره الصريح ! ففي العصور الحديثة يتخلل حفلات دفن ذوي المراكز الرفيعة كثير من مظاهر المباهاة والتفاخر والإسراف والمغالاة . ولكن لما مات هارون الذي كان من أشهر من عاشوا على الأرض لم يشهد موته ليتولى أمر دفنه غير اثنين من أقرب الأقربين إليه . وذلك القبر المنفرد على جبل هور أخفي إلى الأبد عن عيون بني إسرائيل . إن الله لا يتمجد في المظاهر العظيمة التي كثيرا ما نحيط بها حفلات دفن الموتى ، والنفقات الباهظة في إعادة أجسامهم إلى التراب .

قد بكت كل الجماعة على موت هارون . ولكن لم يكن منهم من أحس بهول الخسارة كما أحس موسى . كان موت هارون مذكرا قويا لموسى بأن نهايته هي أيضا قريبة ، ولكن مع قصر المدة الباقية له على الأرض كان يحس في أعماقه بعظم الخسارة لفقد رفيقه الدائم– ذاك الذي شاطره أفراحه وأحزانه وآلامه ومخاوفه سنين هذا عددها . وقد كان على موسى الآن أن يستمر في مواصلة عمله وحده . ولكنه كان يعلم أن الله صديقه فاستند عليه أكثر بكل قوته .

وما أن ترك الشعب جبل هور حتى انهزموا حين اشتبكوا في حرب مع عراد الذي كان أحد ملوك كنعان . ولكنهم عندما صلوا بحرارة في طلب المعونة الإلهية جاءتهم معونة السماء فأمكنهم أن يستأصلوا أعداءهم . ولكن هذا الانتصار بدلا من أن يقود الشعب إلى الشكران

والشعور باعتمادهم على الله جعلهم يفتخرون ويضعون ثقتهم في أنفسهم ، وسرعان ما عادوا إلى عادتهم القديمة المذمومة عادة التذمر ، فكانوا ناقمين في هذه المرة لأن جيوش إسرائيل لم يسمح لها بالتقدم إلى كنعان حالا بعد العصيان الذي حدث على أثر تقرير الجواسيس منذ حوالي أربعين سنة خلت ، إذ قالوا إن تغربهم الطويل في القفر لم يكن من داع إليه ، وكانت حجتهم في ذلك أنه كان يمكنهم أن يهزموا أعداءهم حينئذٍ بكل سهولة كما قد فعلوا الآن .

وإذ استمروا سائرين صوب الجنوب جاءوا إلى واد شديد الحرارة وكثير الرمال ، ليس فيه نبات ولا مكان ظليل . وقد بدا الطريق طويلا وشاقا ، كما تألم الشعب من الإعياء والعطش . ومرة أخرى أخفقوا في امتحان إيمانهم وصبرهم . ولكونهم كانوا دائما ينظرون إلى الناحية المظلمة من اختباراتهم . بدأوا يبتعدون عن الله وينفصلون عنه شيئا فشيئا ، وقد غابت عنهم هذه الحقيقة وهي أنه لولا تذمرهم حين انقطع الماء في قادش لكانوا وفروا على أنفسهم ذلك الدوران الطويل حول أرض أدوم . كان الله يريد أن يقدم لهم أشياء أفضل وكان ينبغي أن تفيض قلوبهم بالشكر بسبب القصاص الطفيف الذي افتقد به خطيتهم . ولكن بدلا من هذا فإنهم خدعوا أنفسهم قائلين إنه لولا تداخل الله وموسى لكانوا الآن قد امتلكوا أرض الموعد . فبعدما جلبوا على أنفسهم المتاعب إذ جعلوا نصيبهم أقسى مما قصد الله نسبوا إليه كل المشقات التي حلت بهم . وهكذا فكروا أفكارا مرة عن معاملات الله لهم . وأخيرا لم يعودوا قانعين بأي شيء . وقد بدت مصر أمام أنظارهم أجمل وأكثر قبولا من الحرية والدخول إلى الأرض التي كان الله يقودهم إليها .

وإذ كان بنو إسرائيل يحتضنون روح التذمر هذه كانوا يميلون إلى أن يعثروا على خطأ حتى في البركات الممنوحة لهم . «وَتَكَلَّمَ الشَّعْبُ عَلَى اللهِ وَعَلَى مُوسَى قَائِلِينَ : لِمَاذَا أَصْعَدْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ ؟ لأَنَّهُ لاَ خُبْزَ وَلاَ مَاءَ ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْفُسُنَا الطَّعَامَ السَّخِيفَ» (عدد ٢١ : ٥) .

وقد وضع موسى خطية الشعب العظيمة أمام عيونهم بكل أمانة . إن قوة الله هي وحدها التي حفظتهم في ذلك «الْقَفْرِ الْعَظِيمِ الْمَخُوفِ ، مَكَانِ حَيَّاتٍ مُحْرِقَةٍ وَعَقَارِبَ وَعَطَشٍ حَيْثُ لَيْسَ مَاءٌ» (تثنية ٨ : ١٥) وفي كل يوم من أيام رحلاتهم حفظتهم رحمة الله بأعجوبة . وفي كل الطريق التي كان الله يقودهم فيها كانوا يجدون ماء لإرواء العطاش وإنعاشهم ، وخبزا من

السماء لإشباعهم ، وسلاما وأمنا تحت ظل السحابة التي كانت المظلة في النهار ، وعمود النار في الليل ، وكان الملائكة يخدمونهم وهم يتسلقون المرتفعات الصخرية ، أو وهم يسيرون في صف طويل في المسالك الوعرة عبر الصحراء . وبالرغم من كل المتاعب التي تحملوها لم يكن في كل أسباطهم رازح ولا عاثر . وفي كل رحلاتهم الطويلة لم تتورم أرجلهم ولا بليت ثيابهم . وقد أخضع الرب أمامهم الوحوش الكاسرة والزواحف السامة في الغابات والقفار . فإذا كان بعد كل هذه الدلائل الكثيرة على محبة الله لهم قد ظل الشعب سادرين في شكواهم وتذمراتهم فالرب سيحرمهم من حراسته حتى يقودهم ذلك إلى تقدير رعايته الرحيمة ويرجعوا إلى الله تائبين متذللين .

فحيث أن قدرة الله كانت تحميهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن المخاطر التي لا حصر لها التي كانت تكتنفهم طول الوقت . إنهم في جحودهم وعدم إيمانهم كانوا يتوقعون الموت ، وها هو الرب الآن قد سمح للموت أن يهجم عليهم . إن الحيات السامة التي أغارت على القفر كانت تسمى حيات محرقة بسبب النتائج المخيفة التي كان تصيب الملدوغين بها إذ كان يصيب أجسامهم التهاب قاس يعقبه الموت السريع . فلما ارتفعت يد الله الواقية عن إسرائيل هاجمت تلك الحيات السامة جمعا غفيرا من الشعب .

فساد الرعب والارتباك المحلة كلها . وفي معظم الخيام كان قوم يحتضرون أو قد ماتوا . ولم يكن أمان لأحد . وفي سكون الليل كانت تسمع صرخات مدوية تنبئ عن ضحايا جديدة . وقد كان الكل مشغولين في خدمة الملدوغين المتألمين ، أو كانوا يحرسون من لم يصبهم أذى من هجمات تلك الأفاعي في اهتمام وحزن ، ولم تعد أصوات التذمر تسمع الآن في المحلة لأن متاعبهم وتجاربهم الماضية لم تكن تستحق التفكير فيها بالمقارنة مع آلامهم الحاضرة .

وها هو الشعب يتذلل الآن أمام الرب . لقد أتوا إلى موسى معترفين ومتوسلين قائلين : «أَخْطَأْنَا إِذْ تَكَلَّمْنَا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَيْكَ» (عدد ٢١ : ٧-٩) . لقد اتهموه قبل ذلك بقليل بأنه أعدى أعدائهم وعلة كل الضيقات والبلايا التي أصابتهم . ولكن فيما كانت هذه الكلمات تخرج من أفواههم كانوا يعلمون يقينا أن التهمة كاذبة . وحالما حل بهم الكدر والضيق الحقيقي هرعوا إليه كالشخص الوحيد الذي يستطيع أن يشفع فيهم لدى الله . فصرخوا قائلين : «صَلِّ

إِلَى الرَّبِّ لِيَرْفَعَ عَنَّا الْحَيَّاتِ» .

فأمر الرب موسى أن يصنع حية من نحاس شبيهة بالحيات الحية ويرفعها بين الشعب . فكل من لدغته الحيات كان عليه أن يلتفت إلى تلك الحية ليحصل على المعونة والنجدة . وقد فعل موسى كما أمر ، وانتشر ذلك الخبر المفرح في كل المحلة ، أن كل من لدغته الحيات يمكنه أن يلتفت إلى الحية النحاسية فيحيا . كان كثيرون قد ماتوا ، وحين رفع موسى الحية النحاسية على العمود لم يكن بعض الناس يصدقون أن مجرد النظر إليها ينيلهم الشفاء ، فهلك أولئك في عدم إيمانهم . ولكن كان كثيرون ممن عندهم إيمان بالوسيلة التي قد أعدها الله ، فالآباء والأمهات والإخوة والأخوات كانوا مشغولين باهتمام شديد في مساعدة أصدقائهم المتألمين الموشكين على الموت على تثبيت عيونهم الكليلة في تلك الحية . فلو أن هؤلاء المرهقين المائتين يلتفتون مرة واحدة إلى الحية فستعود إليهم الحياة قوية ونشيطة .

كان الشعب يعرفون جيدا أن الحية النحاسية لا قوة فيها على إحداث هذا التغيير العجيب في من يلتفتون إليها . إن قوة الشفاء صادرة من الله وحده . فهو في حكمته اختار هذه الوسيلة لإظهار قدرته . وبهذه الوسيلة البسيطة بدأ الشعب يتحققون أن تلك البلبلة قد حلت بهم بسبب خطاياهم . وقد تحقق لهم أيضا أنهم إذ يطيعون الله فلن يكون هنالك موجب للخوف لأنه سيحفظهم .

كانت الغاية من رفع الحية النحاسية أن يتعلم إسرائيل درسا هاما . إنهم لم يكونوا يستطيعون تخليص أنفسهم من تأثير السم المميت في جروحهم ، بل كان الله وحده هو القادر على شفائهم . ومع ذلك فقد كان مطلوبا منهم أن يظهروا إيمانهم بالوسيلة المعدة من الله . فيجب عليهم أن يلتفتوا لكي يحيوا . إن إيمانهم هو الذي يمكن أن يقبله الله ، وكان يمكنهم أن يبرهنوا على إيمانهم بنظرهم إلى الحية . لقد علموا أن الحية النحاسية نفسها لم تكن بها أية قوة ، ولكنها كان رمزا إلى المسيح ، فتجلت أمام أذهانهم ضرورة الإيمان باستحقاقه . قبل ذلك الوقت كان كثيرون منهم يأتون بتقدماتهم إلى الله ، وكانوا يحسون أنهم بعلمهم هذا قد قدموا تكفيرا كافيا عن خطاياهم . لم يكونوا يثقون بمجيء الفادي ، ذلك الفادي الذي كانت تقدماتهم ترمز إليه ، فأراد الرب الآن أن يعلمهم أن ذبائحهم في ذاتها لا قوة فيها ولا فضل لها أكثر مما للحية النحاسية . ولكن تلك الذبائح ، كالحية أرشدت عقولهم إلى المسيح الذبيح العظيم عن الخطية .

«وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣ : ١٤،١٥) إن كل من قد عاشوا على الأرض أحسوا باللدغة المميتة لتلك «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ» (رؤيا ١٢ : ٩) إن آثار الخطية المميتة يمكن إزالتها بالوسيلة التي قد أعدها الله دون سواها . لقد نجا الإسرائيليون من الموت حين نظروا إلى الحية المرفوعة . فتلك النظرة دلت على الإيمان . عاشوا لأنهم آمنوا بكلمة الله ووثقوا بالوسيلة المعدة لشفائهم . وكذلك يمكن للخاطئ أن ينظر إلى يسوع ويحيا . إنه ينال الغفران بالإيمان بالذبيحة الكفارية . فعلى عكس ذلك الرمز الجامد العديم الحياة ، للمسيح قوة فعالة في نفسه لشفاء الخاطئ التائب .

وبما أن الخاطئ لا يستطيع أن يخلص نفسه فعليه أن يعمل شيئا ليحصل على خلاصه . يقول المسيح : «مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا» (يوحنا ٦ : ٣٧) فعلينا أن نقبل إليه ، وحين نتوب عن خطايانا علينا أن نؤمن بأنه يقبلنا ويغفر خطايانا ، إن الإيمان هو عطية الله ، ولكن القوة على استخدامه هي قوتنا . فالإيمان هو اليد التي تتناول بها النفس هبات النعمة والرحمة الإلهية .

لا شيء سوى بر المسيح يستطيع أن يعطينا الحق في امتلاك بركة من بركات عهد النعمة . إن كثيرين قد اشتاقوا طويلا وحاولوا الحصول على هذه البركات ولكنهم لم ينالوها وذلك لأنهم كانوا يفكرون أنهم يستطيعون عمل شيء به يستحقون الحصول عليها . إنهم لم ينظروا بعيدا عن الذات ليؤمنوا بكفاية المسيح كمخلص . ينبغي ألا نظن أن استحقاقاتنا ستخلصنا فالمسيح هو رجاؤنا الوحيد في الخلاص ، «لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ» (أعمال الرسل ٤ : ١٢) .

إننا حين نثق بالله ثقة كاملة ونعتمد على استحقاقات يسوع المخلص الذي يغفر الخطايا نحصل على كل المعونة التي نحتاجها . فلا ينظرنَّ أحد إلى ذاته كأن له القدرة على تخليص نفسه . لقد مات يسوع لأجلنا لأننا كنا عاجزين عن عمل هذا . ففيه رجاؤنا وتبريرنا وبرنا . فحين نرى إثمنا وشر قلوبنا ينبغي ألا نيأس أو نخشى أن لا مخلص لنا أو أن أفكاره من نحونا ليست أفكار رحمة وسلام . إنه في هذه اللحظة يدعونا لنأتي إليه في عجزنا فنخلص .

إن كثيرين من الإسرائيليين لم يروا أية معونة تأتيهم من العلاج الذي عينه الله . لقد كان

حولهم الموتى والمحتضرون في كل مكان . وعلموا أنهم بدون معونة الله سـيكون هلاكـهم محتوما . ولكنهم ظلوا يندبون جروحهم وآلامهم وموتهم المحقق ، حتى فارقتهم قوتهم وغشيت الظلمة عيونهم ، مع أنه كان يمكنهم أن ينالوا الشفاء العاجل . إذا كنا نشعر بحاجتنا ينبغـي ألا نصرف كل قوانا ووقتنا في النوح على سوء حالنا . فحين ندرك سوء حالنا بدون المسيح فـلا نستسلم لليأس أو الفشل بل علينا أن نعتمد على استحقاقات مخلصنا المصلوب والمقام . التفتـوا واحيوا . إن يسوع يفي بوعده ، فهو يخلص كل الذين يأتون إليه . ومع أن ملايين ممن هم في حاجة إلى الشفاء سيرفضون رحمته المقدمة لهم ، فإن أي إنسان يتكل على اسـتحقاقاته لـن يتركه المخلص ليهلك .

إن كثيرين يرفضون قبول المسيح حتى يتضح لهم تدبير الخلاص بكامله . إنهم يرفضـون الالتفات إليه بإيمان مع أنهم يرون آلافا ممن قد التفتوا إليه فشعروا بقوة الالتفات إلى صليـب المسيح وفاعليته . إن كثيرين يهيمون في مجاهل الفلسفة بحثا عـن أسـباب وبراهيـن لـن يجدوها ، وهم في نفس الوقت يرفضون البرهان الذي سر الله أن يقدمـه . إنـهم يرفضـون السلوك في نور شمس البر حتى يوضح لهم سبب إشراقه . فكل من يصرون على انتهاج هـذا الطريق لن يفلحوا في الإقبال إلى معرفة الحق . إن الله لن يزيل كل أسباب الشك ولكنه يقـدم دليلا كافيا لنركز عليه إيماننا . فإذا لم نقبل هذا فسيترك العقل ليتعثر في الظـلام . فلـو أن أولئك الذين لدغتهم الحيات توقفوا ليشكوا أو ليتساءلوا قبلما التفتوا لهلكوا . فواجبنـا هـو أن نلتفت أولا ، والتفاتنا بالإيمان سيهبنا الحياة .

الفصل التاسع والثلاثون

غزو باشان

بعدما وصل الإسرائيليون إلى جنوبي أدوم اتجهوا إلى الشمال ، وحولوا وجوههم صوب أرض الموعد مرة أخرى ، وكان طريقهم ممتدا فوق سهل مرتفع فسيح تهب عليه نسائم باردة من أعالي التلال . وكان ذلك التغيير أمرا مقبولا رحب به الشعب وفرحوا بعدما عبروا ذلك الوادي اليابس الملفوح بالحرارة الذي سبق الكلام عنه . فجدوا في سيرهم بقلوب ملؤها الفرح والرجاء . وبعدما عبروا جدول زارد أتوا إلى شرقي بلاد موآب لأن الرب أمرهم قائلا : «لاَ تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ ، لأَنِّي لاَ أُعْطِيكُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَلاَ وَطْأَةَ قَدَمٍ ، لأَنِّي لِعِيسُو قَدْ أَعْطَيْتُ جَبَلَ سِعِيرَ مِيرَاثًا» (انظر تثنية ٢) وقد أعطى نفس الأمر بالنسبة إلى بني عمون الذين كانوا هم أيضا من بني لوط .

وإذ استمر الشعب في سيرهم شمالا وصلوا سريعا إلى بلاد الأموريين الذين كانوا شعبا ميالا للحرب ، وكانوا في بادئ الأمر يملكون القسم الجنوبي من أرض كنعان . ولكن إذ تكاثر عددهم عبروا الأردن وأثاروا حربا على الموآبيين واحتلوا جانبا من أراضيهم . فسكنوا هناك وملكوا كل الأرض من وادي أرنون إلى اليبوق شمالا بلا منازع . وكان الطريق الذي أراد الإسرائيليون أن يسلكوه إلى الأردن يخترق هذا الإقليم . وقد أرسل موسى إلى سيحون ملك الأموريين رسالة صداقة ومودة قائلا له : «أَمُرُّ فِي أَرْضِكَ . أَسْلُكُ الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ ، لاَ أَمِيلُ يَمِينًا وَلاَ شِمَالاً . طَعَامًا بِالْفِضَّةِ تَبِيعُنِي لآكُلَ ، وَمَاءً بِالْفِضَّةِ تُعْطِينِي لأَشْرَبَ . أَمُرُّ بِرِجْلَيَّ فَقَطْ» فكان الجواب رفضا باتا ثم احتشدت كل جيوش الأموريين لتوقف أولئك الغزاة عن التقدم .

لقد أرعب هذا الجيش الهائل المخيف قلوب الإسرائيليين الذين لم يكونوا متأهبين كما يجب لمصادمة ذلك الجيش المسلح تسليحا كاملا والمنظم تنظيما شاملا ، ولهذا فقد كان الأموريون

متفوقين على إسرائيل حربيا ، كما أنه كان يبدون ، من وجهة نظر البشر ، أن شعب إسرائيل سيقضي عليه سريعا .

ولكن موسى ظل مثبتا نظره في عمود السحاب ، وظل يشجع الشعب قائلا إن علامة حضور الله لا تزال بينهم . وفي نفس الوقت أمرهم أن يفعلوا كل ما تستطيع القوة البشرية أن تفعله في التأهب للحرب ، بينما كان أعداؤهم يتحرقون شوقا إلى منازلتهم ، موقنين أنهم سيكتسحون الإسرائيليين غير المتأهبين عن وجه الأرض ، غير أن مالك الأرض كلها أمر قائد بني إسرائيل قائلا : «قُومُوا ارْتَحِلُوا وَاعْبُرُوا وَادِيَ أَرْنُونَ . اُنْظُرْ . قَدْ دَفَعْتُ إِلَى يَدِكَ سِيحُونَ مَلِكَ حَشْبُونَ الأَمُورِيَّ وَأَرْضَهُ . ابْتَدِئْ تَمَلَّكْ وَأَثِرْ عَلَيْهِ حَرْبًا . فِي هذَا الْيَوْمِ أَبْتَدِئُ أَجْعَلُ خَشْيَتَكَ وَخَوْفَكَ أَمَامَ وُجُوهِ الشُّعُوبِ تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ . الَّذِينَ يَسْمَعُونَ خَبَرَكَ يَرْتَعِدُونَ وَيَجْزَعُونَ أَمَامَكَ» .

لقد كان الإبقاء على هذه الشعوب الساكنة على حدود كنعان ممكنا لو لم يقفوا من كلمة الله موقف التحدي ، مقاومين تقدم إسرائيل . إن الرب قد برهن على أنه طويل الأناة ورؤوف ورحيم حتى نحو هذه الأمم الوثنية . فحين رأى إبراهيم في رؤيا أن نسله إسرائيل سيتغربون في أرض غريبة أربع مئة سنة وعده الرب قائلا : «وَفِي الْجِيلِ الرَّابعِ يَرْجِعُونَ إِلَى ههُنَا ، لأَنَّ ذَنْبَ الأَمُورِيِّينَ لَيْسَ إِلَى الآنَ كَامِلاً» (تكوين ١٥ : ١٦) . ومع أن الأموريين كانوا قوما وثنيين وقد أضاعوا حقهم في الحياة لتفاقم شرورهم فقد أمهلهم الله أربع مئة سنة ليعطيهم برهانا ساطعا على أنه هو الإله الحقيقي الوحيد مبدع السماوات والأرض . إن كل عجائب الله التي قد أجراها في إخراج إسرائيل من مصر معروفة لدى الأموريين ، وصار لديهم البرهان الكافي ، فكان بإمكانهم أن يعرفوا الحق لو رغبوا في ترك عبادة الأوثان والخلاعة ، ولكنهم رفضوا النور وتعلقوا بأوثانهم .

وحين أتى الرب بشعبه إلى حدود كنعان مرة ثانية ظهر برهان جديد لتلك الأمم الوثنية على قدرة الله . فلقد رأوا أن الله مع إسرائيل لأنه أعطاهم النصرة على الملك عراد والكنعانيين ، وكذلك في العجيبة التي أجريت لإنقاذ حياة كل من كانوا على وشك الهلاك من لدغ الحيات . وبما أن الإسرائيليين لم يسمح لهم بالعبور في أرض أدوم فقد اضطروا للسير في الطريق الطويل الشاق إلى جوار بحر سوف ، ومع ذلك فكلما حلوا أو رحلوا عبر بلاد

أدوم وموآب وبني عمون لم يظهروا أي عداء ولم يوقعوا أي أذى على الناس أو أملاكهم . فلما وصل إسرائيل إلى تخوم الأموريين طلبوا منهم السماح لهم بالمرور مباشرة في أرضهم وقد وعدوهم بمراعاة نفس القوانين التي عملوا بها في البلاد الأخرى . فلما رفض ملك الأموريين قبول هذا الالتماس الرقيق وحشد قومه للحرب متحديا إسرائيل امتلأ كأس إثمهم وفاض ، وحينئذٍ قصد الرب استخدام قدرته في إهلاكهم .

عبر إسرائيل نهر أرنون وتقدموا لمحاربة العدو فاشتبك الجيشان في معركة انتصرت فيها جيوش إسرائيل ، وإذ أرادوا أن يستفيدوا من ميزة الانتصار هذه امتلكوا بلاد الأموريين . إن رئيس جند الرب هو الذي أوقع الهزيمة بأعداء شعبه ، وكان يمكنه أن يفعل ذلك لهم منذ ثمان وثلاثين سنة خلت لو أنهم وثقوا به .

وإذ امتلأت قلوب الشعب أملا وشجاعة ، تقدمت جيوشهم إلى الأمام بشوق وعزيمة . وبينما ظلوا سائرين شمالا سرعان ما وصلوا إلى مملكة كان يمكن أن تكون امتحانا لشجاعتهم وإيمانهم بالله . فقد كانت أمامهم مملكة باشان القوية والكثيرة السكان ، وكان بها كثير من المدن العظيمة المبنية بالحجارة التي لا تزال إلى اليوم مثار دهشة العالم . «سِتُّونَ مَدِينَةً ... بِأَسْوَارٍ شَامِخَةٍ، وَأَبْوَابٍ وَمَزَالِيجَ. سِوَى قُرَى الصَّحْرَاءِ الْكَثِيرَةِ جِدًّا» (تثنية ٣ : ١-١١) . لقد كانت البيوت مبنية من أحجار ضخمة سوداء هائلة الحجم تكسب المباني مناعة ضد كل قوة كان يمكن أن تهاجمها في تلك العصور ، وانتشرت في البلاد الكهوف المقفرة والوهاد العالية والمهاوي الفاغرة أفواهها بين الجبال والمعاقل الصخرية . وكان سكان هذه البلاد الذين كانوا من سلالة أمة كلها جبابرة ، قوما ضخام الأجسام ذوي قوة هائلة ، وقد اشتهروا بالعنف والظلم والقسوة . فكانوا مبعث رعب لكل الأمم المجاورة ، بينما كان عوج ملك تلك المملكة مشهورا بضخامة جسمه وبسالته حتى في تلك الأمة التي كل رجالها جبابرة .

ولكن عمود السحاب سار متقدما إلى الأمام . فإذ سار العبرانيون في أثره تقدمت جموعهم إلى أذرعي حيث كان الملك الجبار وكل جيوشه على تمام الأهبة لمنازلتهم . كان الملك عوج ماهرا في اختيار أرض الموقعة ، لقد كانت مدينة أذرعي واقعة على رابية ترتفع فجأة ارتفاعا هائلا وكانت محاطة بصخور بركانية مسننة ، فلا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق معابر ضيقة منحدرة وعسرة المصاعد . وفي حالة انهزام الجيش كان يمكنهم الالتجاء إلى مغاور

الصخور في الصحراء حيث يستحيل على الغرباء أن يتعقبوهم .

وإذ كان ذلك الملك واثقا من النصر جاء بجيشه العظيم إلى السهل الفسيح في حين سمعت صيحات التحدي من السهل المرتفع فوقهم حيث كان ترى آلاف الرماح متعطشة للطعن والنزال . فعندما نظر العبرانيون إلى ذلك الملك الفارع الطول الذي كان جبارا بين الجبابرة والذي كان يعلو في طوله على كل رجال الجيش ، وحينما أبصروا الجيوش المحيطة بهم ، ورأوا ذلك الحصن الذي بدأ منيعا لا يمكن اقتحامه ، والذي كمن خلفه آلاف من الجنود في الخنادق . ارتجفت خوفا قلوب كثيرين من رجال إسرائيل . أما موسى فقد كان هادئا وثابتا لأن الرب سبق فقال له عن ملك باشان : «لاَ تَخَفْ مِنْهُ ، لأَنِّي قَدْ دَفَعْتُهُ إِلَى يَدِكَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ وَأَرْضِهِ ، فَتَفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلْتَ بِسِيحُونَ مَلِكِ الأَمُورِيِّينَ الَّذِي كَانَ سَاكِنًا فِي حَشْبُونَ» (تثنية ٣ : ٢) .

إن ذلك الإيمان الهادئ الذي كان يملأ قلب ذلك القائد قد ألهم قلوب رجاله بالثقة فسلموا كل شيء في يد الله القوية ولم يخذلهم . فلا الجبابرة الأقوياء ولا المدن ذات الأسوار العالية ، ولا الجيوش المسلحة ولا المعاقل الصخرية أمكنها أن تصمد أمام رئيس جند الرب . لقد سار الرب في طليعة الجيوش وقهر العدو وانتصر لإسرائيل ، فهلك الملك الجبار وجيشه ، وسرعان ما استولى الإسرائيليون على كل تلك البلاد . وهكذا محي عن وجه الأرض ذلك الشعب الذين كانوا قد أسلموا أنفسهم للإثم والوثنية الرجسة .

وبعد الانتصار على جلعاد وباشان عاد كثيرون من الشعب إلى ذكرى تلك الحوادث التي بسببها حكم على إسرائيل أن يتوهوا في البرية أمدا طويلا منذ أربعين سنة خلت في قادش . فرأوا أن تقرير الجواسيس عن أرض الموعد كان صحيحا في كثير من النواحي . فلقد كانت المدن حصينة وعظيمة جدا وكان يسكنها الجبابرة الذين كان الإسرائيليون يحسبون أقزاما أمامهم . ولكنهم رأوا الآن أن الخطأ المميت الذي قد ارتكبه آباؤهم كان عدم ثقتهم بقدرة الله . فهذا وحده حرمهم الدخول حالا إلى الأرض الجيدة .

حين كانوا يتأهبون لدخول كنعان أول مرة كان ذلك العمل أقل صعوبة مما هو الآن . فلقد وعد الله شعبه حينئذٍ أنهم إن أطاعوا صوته فسيسير في طليعتهم ويحارب عنهم ، كما سيرسل الزنابير لطرد سكان الأرض . كما أنه لم تكن مخاوف تلك الشعوب قد أثيرت ، فكانوا لذلك

غير مستعدين استعدادا كافيا لوقف تقدم إسرائيل . أما الآن فلما أمر الرب شعبه بالتقدم في سيرهم كان لابد لهم أن يواجهوا أعداء يقظين وأن ينازلوا جيوشا عظيمة مدربة على القتال أعظم تدريب ، جيوشا على تمام الأهبة لصد تقدمهم .

وفي مصادمتهم مع عوج وسيحون جاز الشعب في نفس الاختبار الذي قد فشل فيه آباؤهم فشلا ذريعا فاضحا . ولكن الامتحان غدا أقسى بكثير الآن مما كان حين أمر الله إسرائيل بالتقدم منذ سنين طويلة . لقد زادت الصعوبات التي اعترضت تقدمهم زيادة عظيمة منذ رفضوا التقدم حين أمروا أن يتقدموا باسم الرب . إن الله لا يزال يختبر شعبه بهذه الكيفية ، فإن أخفقوا في الثبات أمام الامتحان فسيعود بهم إلى نفس المكان ، وفي المرة الثانية ستكون التجربة أقوى وأقسى من سابقتها . وستظل الحال هكذا حتى يصمدوا أمام التجربة . أما إذا ظلوا سادرين في عصيانهم فسيرفع الرب نوره من بينهم ويتركهم يتعثرون في الظلام .

تذكر العبرانيون الآن كيف أنهم حين تقدمت جيوشهم للحرب فيما مضى انهزموا ومات منهم ألوف ، لأنهم في ذلك الحين ذهبوا للحرب في تحد مباشر لأمر الرب . لقد خرجوا دون أن يكون معهم موسى القائد المعين من الله ، وبدون أن يتقدمهم عمود السحاب رمز حضور الله ، وبدون التابوت . أما الآن فقد كان موسى معهم مشددا قلوبهم بكلام الرجاء والإيمان ، وابن الله الساكن في عمود السحاب كان يقودهم ، وكان التابوت المقدس سائرا مع ذلك الجيش . إن في هذا الاختبار درسا لنا ، لأن إله إسرائيل القدير هو إلهنا ويمكننا أن نتكل عليه ، فإذا أطعنا وصاياه سيعمل لأجلنا بكيفية جلية وظاهرة كما فعل مع شعبه قديما . إن كل من يجد في السير في طريق الواجب فلابد أن تهاجمه الشكوك وعدم الإيمان في بعض الأحيان . وسيبدو الطريق أحيانا مليئا بالعوائق التي تبدو وكأنه لا يمكن التغلب عليها حتى أنها تثبط الذين يستسلمون للفشل ، غير أن الله يقول لمثل هؤلاء : تقدموا واعملوا واجبكم أيا تكن الكلفة . إن الصعوبات التي تبدو أمامكم هائلة ومخيفة والتي تملأ قلوبكم رعبا ستختفي عندما تتقدمون في طريق الطاعة وأنتم بكل تواضع واثقون بالله .

الفصل الأربعون

بلعام

بعدما عاد الإسرائيليون إلى الأردن بعد افتتاح باشان ، عسكروا بجوار النهر استعدادا لغزو كنعان في الحال . وقد حلوا بجانب النهر ، فوق مصبه في البحر الميت ، مقابل سهل أريحا . عند تخم موآب ، فامتلأت قلوب الموآبيين رعبا لأن أولئك الغزاة كانوا قريبين منهم جدا .

إن إسرائيل لم يسبق له أن ضايق شعب موآب . إلا أن أبناء ذلك الشعب كانوا يراقبون كل الحوادث الجارية في البلاد المجاورة وهم منزعجون ومتطيرون . فالأموريون الذين اضطر جيش موآب أن يتقهقر أمامهم انهزموا أمام العبرانيين ، والأراضي التي كان الأموريون قد أخذوها عنوة من موآب امتلكها إسرائيل الآن ، وانهزمت جيوش باشان أمام القوة العجيبة المحتجبة في عمود السحاب فاحتل العبرانيون معاقل الجبابرة . ولهذا لم يكن الموآبين يجسرون على الهجوم عليهم . ولم يكن الالتجاء إلى القوة يجدي لمواجهة العوامل الفائقة الطبيعة التي كانت تعمل لأجلهم . لهذا عولوا على استخدام قوة السحر والعرافة لإبطال عمل الله ، كما فعل فرعون من قبل . لقد أرادوا أن يستمطروا اللعنات على إسرائيل .

وكان موآب على صلة وثيقة بالمديانيين إذ كانت تربط الشعبين معا أواصر القومية والدين ، فأثار بالاق ملك موآب مخاوف ذلك الشعب المجاور وظفر بتعاونهم معه في مؤامراته ضد إسرائيل بهذه الرسالة : «الآنَ يَلْحَسُ الْجُمْهُورُ كُلَّ مَا حَوْلَنَا كَمَا يَلْحَسُ الثَّوْرُ خُضْرَةَ الْحَقْلِ» (انظر سفر العدد ٢٢-٢٤) وكان بلعام الساكن في ما بين النهرين قد اشتهر بأن تحت إمرته قوي فائقة الطبيعة ، ووصلت شهرته إلى بلاد موآب . فاستقر الرأي على أن يستدعوه إلى بلادهم ليقدم لهم معونته ، ولذلك أرسل رسل من «شُيُوخُ مُوآبَ وَشُيُوخُ مِدْيَانَ» ليستنجدوا بعرافته وسحره ضد إسرائيل .

فانطق أولئك السفراء حالا في تلك الرحلة الطويلة فوق الجبال وعبر القفار إلى أرض ما بين النهرين ، ولما وجدوا بلعام أبلغوه رسالة الملك قائلين : «هُوَذَا قَدْ غَشَّى وَجْهَ الأَرْضِ ، وَهُوَ مُقِيمٌ مُقَابِلِي . فَالآنَ تَعَالَ وَالْعَنْ لِي هذَا الشَّعْبَ ، لأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنِّي ، لَعَلَّهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَكْسِرَهُ فَأَطْرُدَهُ مِنَ الأَرْضِ ، لأَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الَّذِي تُبَارِكُهُ مُبَارَكٌ وَالَّذِي تَلْعَنُهُ مَلْعُونٌ» .

كان بلعام قبلا رجلا صالحا ونبيا لله ولكنه ارتد وأسلم نفسه للطمع ومع ذلك فقد ظل معترفا بأنه عبد الله العلي ، ولم يكن يجهل عمل الله لأجل إسرائيل . فعندما أخبره الرسل بالغاية من مجيئهم عرف جيدا أن واجبه يقتضيه أن يرفض حلوان بالاق وعطاياه ويصرف أولئك السفراء . ولكنه أقدم على مداعبة التجربة وألح على أولئك الرسل أن يبيتوا تلك الليلة ، معلنا لهم أنه لا يمكنه أن يعطيهم جوابا حاسما إلى أن يطلب مشورة الله . لقد عرف بلعام أن لعناته لن تضر إسرائيل في شيء ، لأن الله كان في صفهم ، وما داموا أمناء له فلن تستطيع قوة معادية على الأرض أو في الجحيم أن تقوى عليهم ، غير أن غروره قد انتشى فانخدع بكلام أولئك السفراء حين قالوا له : «أَنَّ الَّذِي تُبَارِكُهُ مُبَارَكٌ وَالَّذِي تَلْعَنُهُ مَلْعُونٌ» وثم أثارت أطماعه الرشوة السخية والعطايا القيمة والإطراء والمديح الذي كان ينتظره ، وبكل جشع قبل الكنوز والثروة المقدمة له . حينئذٍ وفيما كان يعترف بطاعته الكاملة لإرادة الله حاول أن يستجيب لرغبات بالاق .

وفي الليل أتى ملاك الله إلى بلعام بهذه الرسالة : «لاَ تَذْهَبْ مَعَهُمْ وَلاَ تَلْعَنِ الشَّعْبَ ، لأَنَّهُ مُبَارَكٌ» .

وفي الصباح صرف بلعام الرسل وهو كاره ، ولكنه لم يخبرهم بما قاله له الله . وإذ كان غاضبا لأن أحلامه عن الربح والكرامة قد تلاشت صاح فيهم قائلا بغضب : «انْطَلِقُوا إِلَى أَرْضِكُمْ لأَنَّ الرَّبَّ أَبَى أَنْ يَسْمَحَ لِي بِالذَّهَابِ مَعَكُمْ» .

إن بلعام «أَحَبَّ أُجْرَةَ الإِثْمِ» (٢بطرس ٢ : ١٥) وإن خطية الطمع التي يعلن الرب عنها أنها عبادة أوثان جعلته يدور مع الزمان ، وعن طريق هذه الغلطة الواحدة تمكن الشيطان منه وسيطر عليه تماما . وهذا كان سبب هلاكه . إن المجرب يقدم للناس دائما الأرباح العالمية والكرامة الدنيوية ليغوي الناس حتى لا يعبدوا الله أو يخدموه . وهو يقول لهم إن تمسكهم بالاستقامة الزائدة عن الحد هو الحائل بينهم وبين النجاح . وهكذا ينخدع كثيرون فيجازفون

بالانحراف عن طريق الاستقامة الكاملة . إن خطوة واحدة يخطوها الإنسان في طريق الخطأ تجعل الخطوة الثانية أكثر سهولة وبذلك يصير أكثر جرأة ، فمتى أسلموا أنفسهم لسلطان الطمع وشهوة القوة والرفعة فسيرتكبون أرهب الخطايا في جرأة عظيمة . كثيرون يخدعون نفوسهم بالقول إنه يمكنهم أن ينحرفوا قليلا عن الاستقامة الكاملة إلى وقت قصير في طلب بعض المنافع العالمية ، ومتى حققوا غرضهم يمكنهم أن يغيروا مسلكهم متى أرادوا . مثل هؤلاء يوقعون أنفسهم في فخ الشيطان ، وقلما ينجون .

عندما أبلغ الرسل بالاق بأن النبي رفض الذهاب معهم لم يبلغوه أن الله نهاه عن ذلك . وإذ ظن بالاق بأن تمنُّع بلعام عن المجيء هو كونه يطمع في أجر أعظم أرسل إليه رؤساء أكثر عددا وأسمى مقاما من الأولين زودهم بوعود بمكافأة أعظم شرفا ، وخولهم أن يرضوا بأي شرط يعرضه بلعام . وقد أرسل إليه رسالة مستعجلة يقول له : «لاَ تَمْتَنِعْ مِنَ الإِتْيَانِ إِلَيَّ ، لأَنِّي أُكْرِمُكَ إِكْرَامًا عَظِيمًا ، وَكُلَّ مَا تَقُولُ لِي أَفْعَلُهُ . فَتَعَالَ الآنَ الْعَنْ لِي هذَا الشَّعْبَ» .

امتحن بلعام مرة ثانية . واستجابةً منه لتوسلات أولئك السفراء نوّه باستقامته العظيمة ونزاهته مؤكدا لهم أنه مهما كثرت الفضة والذهب المفروض عليه لا يمكن أن تغويه ليتجاوز إرادة الرب . ولكنه في أعماقه كان يتوق إلى الإذعان لطلب الملك . ومع أن إرادة الله قد أعلنت له واضحة ، ألح على الرسل أن يبيتوا تلك الليلة حتى يسأل الله مرة أخرى كما لو كان الله غير المحدود إنسانا يمكن التأثير عليه أو إقناعه .

ففي الليل ظهر الرب لبلعام وقال له : «إِنْ أَتَى الرِّجَالُ لِيَدْعُوكَ فَقُمِ اذْهَبْ مَعَهُمْ ، إِنَّمَا تَعْمَلُ الأَمْرَ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ فَقَطْ» إلى هذا الحد سمح الرب لبلعام أن يتبع إرادته الخاصة لأنه كان مصرا على ذلك . إنه لم يطلب عمل إرادة الله بل اختار طريقه الخاص وحينئذٍ حاول أن يظفر بمصادقة الله .

إن آلافا من الناس في هذه الأيام يسيرون في طريق مماثل لهذا الطريق ، ولا يجدون صعوبة في فهم واجبهم إذا كان موافقاً لأميالهم ، كما أنه موضح لهم في الكتاب المقدس أو مرسوم أمامهم في الظروف المحيطة بهم أو عن طريق العقل والإدراك . ولكن حيث أن هذه البراهين تتعارض مع رغائبهم الخاصة وأميالهم الذاتية ففي غالب الأحيان يطرحونها جانبا ، ويغفلونها ويدعون أنها سيذهبون إلى الله ليعرفوا منه واجبهم .

فباستقامة ظاهرية عظيمة يصلون صلوات طويلة حارة في طلب الإرشاد . ولكـــن الله لا يستهان به . إنه في غالب الأحيان يسمح لأولئك الناس باتباع رغائبهم وتحمل النتـــائج ، «فَلَمْ يَسْمَعْ شَعْبِي لِصَوْتِي ... فَسَلَّمْتُهُمْ إِلَى قَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ ، لِيَسْلُكُوا فِي مُؤَامَرَاتِ أَنْفُسِـــهِمْ» (مزمور ٨١ : ١١،١٢) . متى عرف الإنسان واجبه واضحا فلا يدع أنه يذهب إلـــى الله مصليا لعله يعفيه من إتمامه ، بل عليه بالحري أن يطلـــب مـــن الـــرب بكـــل تواضـــع وخضوع ، قوة وحكمة إلهية للقيام بكل التزاماته .

كان الموآبيين شعبا وثنيا منحطا . ولكن بسبب النور المعطى لهم لم تكن خطيتـــهم هكـــذا عظيمة في نظر السماء كما كانت خطية بلعام ، فإذ اعترف بأنه نبي الله فكل ما كـــان يجـــب عليه أن يقوله كان المفروض أن يكون مصحوبا بسلطان الله . ولهذا لم يكن مسموحا لـــه أن يتكلم الكلام الذي يختاره بل كان عليه أن ينطق بالرسالة التي يتسلمها من الله . فقد أمـــره الله قائلا : «إِنَّمَا تَعْمَلُ الأَمْرَ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ فَقَطْ» .

ولقد سمح لبلعام بالذهاب مع الرسل القادمين من موآب إذا جاءوا إليه في الصباح يطلبـون منه الذهاب معهم . ولكنهم إذ كانوا متضايقين من تلكئه ومتوقعين أنه سيرفض طلبـــهم مـــرة ثانية عادوا إلى بلادهم دون أن يتشاوروا معه . فلم يبق أمامه الآن عذر ينتحله للإذعان لطلب بالاق . ولكن بلعام كان مصرا على الظفر بالحلوان . فإذ أخذ أتانه التي كان معتادا ركوبـــها بدأ رحلته . وقد كان يخشى أنه حتى الآن يعدل الرب عن السماح له بالذهاب ، فأسرع متقدما في سيره ، وكان يتعجل في السير لئلا يحدث ما يحرمه الحصول على المكافـــأة التـــي كـــان يشتهي الحصول عليها .

ولكن «وَقَفَ مَلاَكُ الرَّبِّ فِي الطَّرِيقِ لِيُقَاوِمَهُ» وقد أبصرت أتانه الرسول السماوي ، أمّا هو فلم يبصره . فمالت الأتان عن الطريق ومشت في الحقل . فأعاد بلعام أتانه إلـــى الطريـــق بضرباته القاسية . ومرة أخرى ظهر له الملاك واقفا في خندق للكروم وكـــان الطريـــق ضيقا ، فحاولت الأتان أن تحيد عن طريق ذلك الشبح المتوعد فضغطت رجل صاحبـــها بالحائط . لقد عمي بلعام عن تدخل الله ولم يكن يعرف أن الله كان يعترض طريقه ، فاهتـــاج الرجل واتقد سخطه ، وإذ ضرب الأتان بدون رحمة أجبرها على التقدم في سيرها .

ومرة أخرى «اجْتَازَ مَلاَكُ الرَّبِّ أَيْضًا وَوَقَفَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ حَيْثُ لَيْسَ سَبِيلٌ لِلنُّكُـوبِ

يَمِينًا أَوْ شِمَالاً» . وظهر مرة أخرى بمظهر المتوعد . فإذ كانت الأتان ترتجف من هول الرعب توقفت عن سيرها وربضت تحت راكبها . فأطلق بلعام العنان لغضبه وضرب أتانه بقضيبه بقساوة أشد من قبل ، ففتح الرب إذ ذاك فم الأتان «إِذْ مَنَعَ حَمَاقَةَ النَّبِيِّ حِمَارٌ أَعْجَمُ نَاطِقًا بِصَوْتِ إِنْسَانٍ» (٢بطرس ٢ : ١٦) قالت الأتان : «مَاذَا صَنَعْتُ بِكَ حَتَّى ضَرَبْتَنِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ ؟» .

وإذ بلغ سخط بلعام حد الاهتياج بسبب التأخر الذي عرض له في رحلته أجاب الأتان كما لو كان يكلم كائنا عاقلا : «لأَنَّكِ ازْدَرَيْتِ بِي . لَوْ كَانَ فِي يَدِي سَيْفٌ لَكُنْتُ الآنَ قَدْ قَتَلْتُكِ» هنا عراف مدعٍ سائر في طريقه ليلعن شعبا بجملته لكي يشل قوتهم ، ومع ذلك لا قدرة له على أن يقتل الدابة التي كان يركبها .

والآن ها قد فتحت عينا بلعام ، وها هو يرى ملاك الرب واقفا وسيفه مسلول في يده وهو مستعد لقتله ، وإذ كان مرتعبا «خَرَّ سَاجِدًا عَلَى وَجْهِهِ» فقال له الملاك : «لِمَاذَا ضَرَبْتَ أَتَانَكَ الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ ؟ هأَنَذَا قَدْ خَرَجْتُ لِلْمُقَاوَمَةِ لأَنَّ الطَّرِيقَ وَرْطَةٌ أَمَامِي ، فَأَبْصَرَتْنِي الأَتَانُ وَمَالَتْ مِنْ قُدَّامِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ . وَلَوْ لَمْ تَمِلْ مِنْ قُدَّامِي لَكُنْتُ الآنَ قَدْ قَتَلْتُكَ وَاسْتَبْقَيْتُهَا» .

كان بلعام مدينا بحفظ حياته لتلك الأتان المسكينة التي عاملها بمنتهى القسوة . فذلك الرجل الذي ادعى أنه نبي الرب ، والذي أعلن أنه «مَكْشُوفُ الْعَيْنَيْنِ» والذي يرى «رُؤْيَا الْقَدِيرِ» أعماه الطموح بحيث لم ير ملاك الله الذي أبصرته الأتان ، «إِلهُ هذَا الدَّهْرِ قَدْ أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ» (٢كورنثوس ٤ : ٤) ما أكثر العميان هكذا ! إنهم يندفعون سائرين في طرق منهي عن السير فيها ، متعدين شريعة الله ، ولا يمكنهم أن يلاحظوا أن الله وملائكته واقفون لمقاومتهم ، وكبلعام يغضبون على من يحولون بينهم وبين الهلاك .

إن بلعام بمعاملاته القاسية لأتانه قدم الدليل على الروح التي سيطرت عليه . «الصِّدِّيقُ يُرَاعِي نَفْسَ بَهِيمَتِهِ ، أَمَّا مَرَاحِمُ الأَشْرَارِ فَقَاسِيَةٌ» (أمثال ١٢ : ١٠) قليلون هم الذين يتحققون ، كما يجب ، شر معاملتهم السيئة للحيوانات أو تركهم إياها لتقاسي من شر إهمالهم لها . إن ذاك الذي خلق الإنسان خلق أيضا الحيوانات الدنيا ، «وَمَرَاحِمُهُ عَلَى كُلِّ أَعْمَالِهِ» (مزمور ١٤٥ : ٩) لقد خلقت الحيوانات لخدمة الإنسان ، ولكن لا حق له في أن

يوقع بها أي ألم بمعاملته الفظة لها أو إلزامها بعمل ما لا تستطيعه .

إننا بسبب خطية الإنسان نرى «فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعًا إِلَى الآنَ» (رومية ٨ : ٢٢) وقد فرضت الآلام والموت ليس على الجنس البشري وحده بل أيضا على الحيوانات . إذا فيليق بالإنسان ، بدلا من أن يزيد على الخلائق من ثقل الآلام التي كان سببها معصيته ، أن يعمل على تخفيفها . إن الذي يقسو على الحيوانات لكونه قد أعطي السلطان عليها هو إنسان جبان كما أنه طاغية مستبد . والميل إلى إيقاع الآلام على بني جنسنا أو على البهائم العجماوات هو ميل شيطاني . .إن كثيرين يتقسون على البهائم لكونهم واثقين من أن قسوتهم لن تكتشف ، لأن الحيوان الأصم المسكين لن يفشي السر ، ولكن لو فتحت عيون هؤلاء القوم كما فتحت عينا بلعام لكانوا يرون ملاك الله واقفا كشاهد للشهادة عليهم أمام المحكمة السماوية . هنالك سجل يصعد إلى السماء ، وسيأتي اليوم الذي فيه يحكم بالدينونة على من يتقسون في معاملتهم لخلائق الله .

ما إن أبصر بلعام الملاك حتى صرخ في رعب : «أَخْطَأْتُ . إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ تِلْقَائِي فِي الطَّرِيقِ . وَالآنَ إِنْ قَبُحَ فِي عَيْنَيْكَ فَإِنِّي أَرْجعُ» . ولكن الرب سمح له بالتقدم في رحلته ، إلا أنه أفهمه أن كلامه ينبغي أن يكوت تحت سيطرة قوة الله . لقد أراد الله أن يبرهن لشعب موآب أن العبرانيين هم تحت حراسة السماء . وهذا ما فعله حين برهن لهم عن مقدار عجز بلعام حتى عن أن ينطق عليهم بلعنة دون سماح من الله .

وإذ علم ملك موآب بأن بلعام قادم إليه خرج إلى تخوم مملكته تتبعه حاشية عظيمة لاستقباله ، فلما عبر له عن دهشته لتأخره عن المجيء مع كثرة المكافآت العظيمة التي تنتظره أجابه النبي بقوله : «هأَنَذَا قَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ . أَلَعَلِّي الآنَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ ؟ اَلْكَلاَمُ الَّذِي يَضَعُهُ اللهُ فِي فَمِي بِهِ أَتَكَلَّمُ» وقد تأسف بلعام أشد الأسف بسبب هذا الحصار المفروض عليه ، وخشى أن يفشل في تنفيذ غرضه لأن قوة الله الضابطة كانت مستقرة عليه .

وفي أبهة عظيمة رافق الملك وعظماء مملكته بلعام إلى «مُرْتَفَعَاتِ بَعْل» التي كان يستطيع منها أن يشرف على جموع العبرانيين . انظروا إلى النبي وهو يقف على ذلك المكان المرتفع لينظر من علٍ إلى محلة الشعب المختار . وما أقل ما كان يعرفه الإسرائيليون عما كان يجري بالقرب منهم ! وما أقل ما كانوا يعرفون عن رعاية الله لهم التي قد بسطها عليهم نهارا وليلا !

ما أغبى أفهام شعب الله وما أبلد إحساسهم ! وكم هم متباطئون في كـل عصـر عـن إدراك محبته العظيمة ورحمته ! فلو أمكنهم إدراك القوة الإلهية العجيبة التي يستخدمها الله لصالحـهم باستمرار أما كانت قلوبهم تفيض شكرا له على محبته ، والرهبة لدى التأمل في جلاله وقدرته ؟

كانت لدى بلعام بعض المعرفة عن ذبائح العبرانيين الكفارية وكان يرجو أنه يتفوق عليـهم بالهبات الغالية ، يمكنه أن يحصل على بركة الله ، ويضمن إنجاز مشاريعه الآثمـة . وهكـذا كانت الأفكار والعواطف الموآبية الوثنية تزحف إليه لتتسلط على عقلـه . فصـارت حكمتـه جهالة ، ورؤاه الروحية مظلمة وغير واضحة . وقد جلب هو على نفسه العمى بخضوعه لقوة الشيطان .

وحسب تعليمات بلعام بنيت سبعة مذابح وقدم ذبيحة على كل منها . ثم انطلق صاعدا إلـى «رَابِيَةٍ» ليلاقي الله وقد وعد بالاق أن يخبره بما سيعلنه له الله .

وقف الملك إلى جوار المحرقة ، وإلى جانبه وقف نبلاء موآب ورؤساؤها ، كمـا تجمَّـع حولهم جمع غفير من الناس وكلهم شوق ، يترقبون عودة النبي . أتى أخيرا وكـان الشـعب ينتظر ، في لهفة ، سماع الكلمات التي ستشل إلى الأبد تلك القوة الغريبة المسخرة في خدمـة الإسرائيليين المكروهين ، فقال بلعام : «مِنْ أَرَامَ أَتَى بِي بَالاَقُ مَلِكُ مُـوآبَ ، مِـنْ جِبَـالِ الْمَشْرِقِ : تَعَالَ الْعَنْ لِي يَعْقُوبَ ، وَهَلُمَّ اشْتِمْ إِسْرَائِيلَ . كَيْفَ أَلْعَنُ مَنْ لَـمْ يَلْعَنْـهُ اللهُ ؟ وَكَيْفَ أَشْتِمُ مَنْ لَمْ يَشْتِمْهُ الرَّبُّ ؟ إِنِّي مِنْ رَأْسِ الصُّخُورِ أَرَاهُ ، وَمِنَ الآكَـامِ أُبْصِـرُهُ . هُوَذَا شَعْبٌ يَسْكُنُ وَحْدَهُ ، وَبَيْنَ الشُّعُوبِ لاَ يُحْسَبُ . مَنْ أَحْصَى تُـرَابَ يَعْقُـوبَ وَرُبْـعَ إِسْرَائِيلَ بِعَدَدٍ ؟ لِتَمُتْ نَفْسِي مَوْتَ الأَبْرَارِ ، وَلْتَكُنْ آخِرَتِي كَآخِرَتِهِمْ» .

لقد اعترف بلعام أنه قد جاء وقصده أن يلعن إسرائيل ، ولكن الكلام الذي نطق بـه جـاء على عكس أفكار قلبه ، فأكره على أن ينطق بالبركات بينما كانت نفسه تفيض باللعنات .

إن بلعام حين نظر إلى محلة إسرائيل رأى بمنتهى الدهشة الدليل على نجاحهم . لقـد صوروا له على أنهم جماعة شرسة غير منتظمة تعكر صفو أمن البلاد بعصاباتهم التـي تجول في كل مكان للنهب ، وأنهم مبعث الوبال والرعب للأمم المجاورة . ولكن مظهرهم كان على عكس هذا كله ، إذ رأى خيامهم على مدى البصر منسقة ومنظمة على أكمل ما

444,447

يكون النظام في كل المحلة ، وكل شيء يحمل طابع الترتيب والنظام الدقيــق . ثــم رأى دلائل الرضى الذي كان الله يشمل به إسرائيل ، والصفــات التــي تمــيزهم كشــعب الله المختار . إنهم لم يكونوا ليقفوا على مستوى واحد مع الأمم الأخرى ، بل كان لابد لهم أن يسموا عليهم جميعا ، «هُوَذَا شَعْبٌ يَسْكُنُ وَحْدَهُ ، وَبَيْنَ الشُّعُوبِ لاَ يُحْسَبُ» فــي الوقــت الذي قيل فيه هذا الكلام لم يكن للإسرائيليين موطن استقرار . ولم تكن صفاتهم الفريــدة ولا عاداتهم أو أخلاقهم معروفة لدى بلعام . ولكن بأي كيفية مدهشة تمت هذه النبوة فــي تاريخ إسرائيل بعد ذلك ، ومدة سني سبيهم ، وطوال أجيال تشتتهم بين الشعوب بقوا شعبا ممتازا ! وهكذا نجد أن شعب الله الذين هم إسرائيل الحقيقي مع كونهم مشتتين فــي كــل الأمم ما هم إلا غرباء على الأرض ، لأن وطنهم هو في السماء .

وفضلا عما قد رآه بلعام من تاريخ إسرائيل كأمة فقد رأى نمو إسرائيل الله الحقيقــي ونجاحهم إلى انقضاء الدهر . لقد رأى رضى الله العلي الخاص يشمل كل مــن يحبونــه ويتقونه . رأى ذراع الله تسندهم حين يدخلون في وادي ظلال الموت ، ورآهم يخرجــون من قبورهم مكللين بالمجد والكرامة والخلود . رأى المفديين فرحين ومتهللين في أمجــاد الأرض الجديدة الدائمة . وإذ تطلع إلى ذلك المنظر هتف قائلا : «مَــنْ أَحْصَــى تُــرَابَ يَعْقُوبَ وَرُبْعَ إِسْرَائِيلَ بِعَدَدٍ ؟» وإذ أبصر إكليل المجد يكلل كل هامة ، والمجد يشع مــن كل الوجوه ونظر إلى الأمام إلى حياة الخلود والسعادة التي لا تشوبها شائبة نطق بطلبتــه المهيبة قائلاً : «لِتَمُتْ نَفْسِي مَوْتَ الأَبْرَارِ ، وَلْتَكُنْ آخِرَتِي كَآخِرَتِهِمْ» .

لو كان لدى بلعام ميل لقبول النور المعطى من الله لتحققت هذه الطلبة له ، ولقطع في الحال كل علاقة له بموآب ، ولم يعد إلى تعدي رحمة الله ، بل كان يرجع إليه في توبــة عميقة صادقة . ولكن بلعام أحب أجرة الإثم وهذا ما كان يحرص على أخذه أشد الحرص .

أما بالاق فقد كان ينظر ، واثقا من أن لعنة ستحل على إســرائيل كضربــة ســاحقة مهلكة . فلما سمع كلام النبي صاح قائلا له في غضب ، «مَاذَا فَعَلْتَ بِي ؟ لِتَشْتِمَ أَعْدَائِــي أَخَذْتُكَ ، وَهُوَذَا أَنْتَ قَدْ بَارَكْتَهُمْ» . فبلعام الذي كان يحاول أن يجعل من الضرورة فضيلة ادعى أنه ، بتوقير لإرادة الله قائم على سلامة النية ، نطق بالكلام الذي أجــبرت شــفتاه على التلفظ به بواسطة قوة إلهية ، فأجاب قائلاً : «أَمَا الَّذِي يَضَعُــهُ الــرَّبُّ فِــي فَمِــي

أَحْتَرِصُ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ ؟» .

إن بالاق لم يستطع حتى في هذا الوقت أن يتنحى عن غرضه . إذ علم أن تأثير ذلك المنظر المهيب الجليل الذي أحدثته رؤية محلة العبرانيين الواسعة في نفس بلعام قد أفزعه إلى حد أنه لم يستطع استخدام عرافته ضدهم . فعزم الملك على أن يأخذ النبي إلى مكان آخر حيث لا يرى غير جزء صغير منهم . وإذ أمكن التأثير على بلعام حتى يلعن تلك الجماعات الملحقة ببني إسرائيل سيكون مصير المحلة كلها الهلاك . فبذلت محاولة أخرى على رأس مرتفعة تسمى الفسجة ، ومرة أخرى بنيت سبعة مذابح وقدمت عليها نفس الذبائح التي قدمت أول مرة . ثم لبث الملك ومشيروه إلى جوار الذبائح . أما بلعام فذهب ليقابل الله ومرة أخرى وضعت في فمه رسالة إلهية لم يستطع أن يغيرها أو يحجزها .

فلما عاد إلى تلك الجماعة المنتظرة الملتهبة سئل النبي هذا السؤال ، «مَاذَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ ؟» فإذا بالجواب كالسابق يوقع الرعب في قلب الملك وقلوب الرؤساء ، إذ قال : «لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا فَيَكْذِبَ ، وَلاَ ابْنَ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمَ . هَلْ يَقُولُ وَلاَ يَفْعَلُ ؟ أَوْ يَتَكَلَّمُ وَلاَ يَفِي ؟ إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أُبَارِكَ . فَإِنَّهُ قَدْ بَارَكَ فَلاَ أَرُدُّهُ . لَمْ يُبْصِرْ إِثْمًا فِي يَعْقُوبَ ، وَلاَ رَأَى تَعَبًا فِي إِسْرَائِيلَ . الرَّبُّ إِلهُهُ مَعَهُ ، وَهُتَافُ مَلِكٍ فِيهِ» .

وإذ أحس بلعام بالرهبة من هذه الإعلانات صاح قائلا : «إِنَّهُ لَيْسَ عِيَافَةٌ عَلَى يَعْقُوبَ ، وَلاَ عِرَافَةٌ عَلَى إِسْرَائِيلَ» . إن ذلك الساحر العظيم حاول أن يستخدم قوة سحره كما كان يشتهي الموآبيون . ولكن في هذه المناسبة عينا ينبغي أن يقال عن إسرائيل : «ماذا فعل الله» ما دام شعب الله تحت حراسته لم يكن في قدرة أي شعب أو أية أمة أخرى ولو كانت مؤيدة بكل قوة الشيطان أن تقهرهم . ينبغي للعالم كله أن يندهش من عمل الله العجيب لأجل شعبه– هوذا رجل كان عازما على أن يسير في طريق شريرة ، وإذا بقوة الله تضبطه لينطق ، بدلا من اللعنات ، بأجمل وأثمن المواعيد ، في لغة رفيعة وشعر تتمشى فيه الحماسة . هذا ، وإن رضى الله الذي أظهره لإسرائيل في ذلك الحين كان القصد منه أن يصير تأكيدا لرعايته الحافظة لأولاده المطيعين الأمناء في كل العصور . وحين يثير الشيطان الناس الأشرار ليشوهوا سمعة شعب الله أو يضايقوهم أو يهلكوهم فإنهم يذكرون هذه الحادثة ، هذا ما يزيد من شجاعتهم وإيمانهم بالله .

إذا أحس ملك موآب بالضيق وخار عزمه صاح يقول : «لاَ تَلْعَنْهُ لَعْنَةً وَلاَ تُبَارِكْهُ بَرَكَةً» ومع ذلك فقد كان لا يزال يحتضن في قلبه بعض الأمل الواهن ، فعول على القيام بمحاولة أخرى . فأخذ بلعام إلى رأس فغور حيث كان هيكل العبادة الخليعة للبعل الذي كانوا يعبدونه . وفي هذا المكان بنى العدد نفسه من المذابح وقدم عليها العدد نفسه من الذبائح ، لكن بلعام لم ينفرد مع الله في هذه المرة كما في المرات الأخرى ليعلم مشيئته ، ولم يتظاهر بممارسة السحر بل إذ وقف إلى جوار المذابح تطلع ورأى خيام إسرائيل فحل عليه روح الله ونطقت شفتاه بهذه الرسالة الإلهية : «مَا أَحْسَنَ خِيَامَكَ يَا يَعْقُوبُ ، مَسَاكِنَكَ يَا إِسْرَائِيلُ ! كَأَوْدِيَةٍ مُمْتَدَّةٍ . كَجَنَّاتٍ عَلَى نَهْرٍ ، كَشَجَرَاتِ عُودٍ غَرَسَهَا الرَّبُّ . كَأَرْزَاتٍ عَلَى مِيَاهٍ . يَجْرِي مَاءٌ مِنْ دِلاَئِهِ ، وَيَكُونُ زَرْعُهُ عَلَى مِيَاهٍ غَزِيرَةٍ ، وَيَتَسَامَى مَلِكُهُ عَلَى أَجَاجَ وَتَرْتَفِعُ مَمْلَكَتُهُ . اَللهُ أَخْرَجَهُ مِنْ مِصْرَ . لَهُ مِثْلُ سُرْعَةِ الرِّئْمِ . يَأْكُلُ أُمَمًا ، مُضَايِقِيهِ ، وَيَقْضِمُ عِظَامَهُمْ وَيُحَطِّمُ سِهَامَهُ . جَثَمَ كَأَسَدٍ . رَبَضَ كَلَبْوَةٍ . مَنْ يُقِيمُهُ ؟ مُبَارِكُكَ مُبَارَكٌ ، وَلاَعِنُكَ مَلْعُونٌ» .

إن نجاح شعب الله موصوف هنا بأجمل الأوصاف الموجودة في الطبيعة . فالنبي يشبه إسرائيل بأودية خصبة غنية بالحصاد الوفير ، وجنات زاهرة ترويها ينابيع دائمة الجريان ، وبشجرة العود أو الصندل العطرة الرائحة وشجرة الأرز العظيمة . والصورة المذكورة أخيرا من أعظم الصور الأخاذة المذكورة في كلمة الوحي . إن كل الشعوب في بلاد الشرق تكوم أرز لبنان . كما أن فصيلة الأشجار التي منها شجر الأرز توجد في أي مكان يذهب إليه الناس في كل الأرض . فهو يوجد ويزدهر في كل الأماكن ، من الأقاليم الجليدية إلى المنطقة الاستوائية ، ويزدهر بالحرارة كما يتحمل البرودة ، وينمو بنضارة وبهاء بجانب الأنهار ، وكذلك يعلو متشامخا فوق الصحراء اليابسة القفراء . إن هذه الأشجار تغرز جذورها إلى عمق عظيم بين صخور الجبال ، وبكل شجاعة تتحدى العواصف الهوجاء وتظل أوراقها خضراء يانعة في فصل الشتاء حين تسقط أوراق أغلب الأشجار الأخرى . إن أرز لبنان يمتاز عن كل الأشجار الأخرى بقوته ومتانته وعدم تعرضه للعطب . فهو يصلح رمزا لأولئك الذين حياتهم «مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ» (كولوسي ٣ : ٣) يقول الكتاب المقدس : «اَلصِّدِّيقُ ... كَالأَرْزِ فِي لُبْنَانَ يَنْمُو» (مزمور ٩٢ : ١٢) لقد رفعت يد الله الأرز فصار كملك في الغابة ، «السَّرْوُ لَمْ يُشْبِهْ أَغْصَانَهُ ، وَالدُّلْبُ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ فُرُوعِهِ . كُلُّ الأَشْجَارِ فِي جَنَّةِ اللهِ لَمْ تُشْبِهْهُ فِي حُسْنِهِ» (حزقيال ٣١ : ٨) . إن الأرز يذكر مرارا على أنه شعار للجلال الملوكي . واستعماله في الكتاب المقدس رمزا

للأبرار يرينا كم تقدر السماء أولئك الذين يفعلون مشيئة الله .

تنبأ بلعام بأن ملك إسرائيل سيكون أعظم وأقوى من أجاج . وكان هذا الاسم (أجـــاج) يطلق على ملوك عماليق الذين كانوا في ذلك الوقت أمة قوية ، غير أن أمة إســـرائيل إذا ظلت أمينة لإلهها فستقهر كل أعدائها ، لأن ملك إسرائيل هو ابن الله وعرشه سيثبت يوما ما في كل الأرض وسلطانه سيرتفع فوق كل ممالك الأرض .

وإذ كان بالاق يصغي إلى كلمات النبي خابت كل آماله وانهارت ، فامتلأ قلبه خوفا وغـــلا صدره غضبا . كان بالاق غاضبا لأن بلعام لم يقدم له أقل تشجيع ولا أي استجابة لتوسلاته أو آماله إذ كان كل شيء ضده . وبكل احتقار اعتبر أن المسلك الذي سلكه النبي مسلك خـــادع . فصاح قائلا له في وحشية : «فَالآنَ اهْرُبْ إِلَى مَكَانِكَ . قُلْتُ أُكْرِمُكَ إِكْرَامًا ، وَهُوَذَا الرَّبُّ قَدْ مَنَعَكَ عَنِ الْكَرَامَةِ» فأجاب بلعام أنه سبق فأنذر الملك قائلا إنه سيتكلم بالرسالة التي يتلقاها من الرب ليس إلا .

وقبلما عاد بلعام إلى شعبه نطق بأجمل وأسمى نبوة عن فادي العالم ، وعن الهلاك النهائي الذي سيصيب كل أعداء الله فقال : «أَرَاهُ وَلكِنْ لَيْسَ الآنَ . أُبْصِرُهُ وَلكِنْ لَيْـــسَ قَرِيبًـــا . يَبْرُزُ كَوْكَبٌ مِنْ يَعْقُوبَ ، وَيَقُومُ قَضِيبٌ مِنْ إِسْرَائِيلَ ، فَيُحَطِّمُ طَرَفَيْ مُوآبَ ، وَيُهْلِكُ كُـــلَّ بَنِي الْوَغَى» وفي ختام كلامه تنبأ عن الهلاك الشامل لموآب وأدوم وعماليق والقينيين ، وبذلك قضى على كل آمال ملك موآب .

وإذ خابت آمال بلعام في الثراء والرفعة ، ولكونه جلب على نفســـه ســـخط الملـــك ، ولشعوره بأنه قد جلب على نفسه غضب الله ، عاد من رحلته التي قد اختارها لنفســـــه . وبعدما عاد إلى بيته زايلته قوة روح الله التي كانت تضبطه ، وانتصر عليه جشعه الـــذي كان قد أوقف عند حده إلى حين ، فصار الآن يلجأ إلى أية وسيلة لكسب الحلوان الـــــذي كان بالاق قد وعده به . كذلك عرف بلعام أن نجاح إسرائيل يتوقف على طاعتـــــهم لله ، وأنه لا طريقة لهزيمتهم والقضاء عليهم إلا بإغوائهم على ارتكاب الخطية ، فعزم علـــــى اكتساب رضى بالاق إذ قدم للموآبيين المشورة عن الطريق الذي يسلكونه ليجلبوا اللعنـــة على إسرائيل .

وسرعان ما عاد بلعام إلى بلاد موآب وبسط خططه أمام الملك ، فأيقن الموآبيين أنفسهم أنه ما دام بنو إسرائيل أمناء لإلههم سيكون لهم ترسا وحصنا . والخطة التي اقترحها بلعام كانت فصلهم عن الله بإغرائهم بالسجود للأوثان . فإذا أمكنهم إقناع بني إسرائيل بالاشتراك معهم في عبادتهم الخليعة للبعل وعشتاروت فإلههم وحارسهم القدير سينقلب عدوا لهم ، وسرعان ما يسقطون في أيدي الأمم الوحشية القوية المحيطة بهم . فاستحسن الملك هذه المشورة وبقي بلعام نفسه ليساعد في تنفيذها .

وقد شهد بلعام نجاح مؤامراته الشيطانية ، حيث رأى لعنة الله تنصب على شعبه ، وشاهد آلافا من الشعب يسقطون تحت ضربات الله وأحكامه . ولكن عدالة الله التي أوقعت القصاص على إسرائيل بسبب خطيتهم لم تسمح للمجربين أن يفلتوا . ففي الحرب التي شنها إسرائيل على الموآبيين قتل بلعام . لقد سبق أن أحس في هواجسه أن نهايته قريبة حين صاح قائلا : «لِتَمُتْ نَفْسِي مَوْتَ الأَبْرَارِ ، وَلْتَكُنْ آخِرَتِي كَآخِرَتِهِمْ» ولكنه لم يختر أن يحيا حياة الأبرار فصار مصيره مع أعداء الله .

كأن مصير بلعام شبيها بمصير يهوذا ، إذ في أخلاقهما تشابه ملحوظ . فكل منهما حاول أن يجمع بين خدمة الله وخدمة المال ، وكلاهما انتهيا إلى فشل ذريع . لقد اعترف بلعام بالإله الحقيقي واعترف بأنه يخدمه ، وكذلك يهوذا آمن بالمسيح أنه مسيا وانضم إلى زمرة تابعيه ، ولكن بلعام كان يأمل أن يجعل خدمة الرب وسيلة لإحراز الغنى والكرامة العالمية . وإذ أخفق في هذا فقد عثر وسقط وتحطم . وكذلك توقع يهوذا أنه بانضمامه إلى جماعة المسيح سيحصل على الغنى والمركز الرفيع في المملكة العالمية التي كان يعتقد أن مسيا سيقيمها . فلما أخفق في آماله وتحطمت كل آماله ساقه ذلك إلى الارتداد والهلاك . إن كلا من بلعام ويهوذا قد حصل على نور عظيم وتمتع بامتيازات خاصة . ولكن خطية واحدة أبقياها وعززاها في قلبيهما سممت أخلاقهما وانتهت بهلاكهما .

من المخطر أن يسمح أي إنسان لأية خلة من الخلال غير المسيحية أن تعيش وتعشش في قلبه . إن خطية واحدة معززة يمكنها شيئا فشيئا أن تفسد الأخلاق وتخضع كل القوى النبيلة للشهوات الدنسة . إن إبعاد حارس واحد من حراس الضمير ، أو الانغماس في عادة واحدة

شريرة أو إهمال مطلب واحد من مطاليب الواجب كاف لأن يحطم استحكامات النفس ويسقط حصونها ويفتح الطريق للشيطان ليدخل إلى قلوبنا ويضلنا . وأسلم مسلك نسلكه هو أن نرفع إلى الله صلاة حارة من قلوب مخلصة كل يوم قائلين مع داود : «تَمَسَّكَتْ خُطُوَاتِي بِآثَارِكَ فَمَا زَلَّتْ قَدَمَايَ» (مزمور ١٧ : ٥) .

الفصل الحادي والأربعون

الارتداد عند الأردن

عادت جيوش إسرائيل المنتصرة من باشان بقلوب تفيض فرحا وإيمانا مجددا بالله ، وها هم قد امتلكوا أرضا لها قيمتها ، فكانوا واثقين من أنهم سيفتتحون كنعان سريعا . لم يكن بينهم وبين أرض الموعد غير نهر الأردن ، وقد امتد عبر النهر سهل خصيب تكسوه الخضرة وتسقيه جداول تجري من ينابيع غزيرة المياه ، وتكاثرت فيه أشجار النخيل الظليلة . وعند التخم الغربي لذلك السهل ارتفعت أبراج مدينة أريحا وقصورها التي كانت تحتضنها أحراش النخيل حتى لقد سميت تلك المدينة «مدينة النخل» .

وعلى الجانب الشرقي للأردن بين النهر والسهل المرتفع الذي عبروه كان سهل آخر فسيح مسافته أميال عدة ، ويمتد لمسافة بمحاذاة النهر . هذا الوادي المستور كان مناخه كالمناطق الاستوائية وكانت تنمو فيه أشجار الشطيم أو السنط حتى لقد دعى ذلك السهل «وادي شطيم» . في هذا المكان عسكر الإسرائيليون ، وفي وسط أحراش السنط التي على جانب النهر وجد الشعب ملاذا مناسبا .

ولكن في وسط تلك البيئة الجميلة الجذابة كان يكمن لهم شر مخيف قتال أرهب من الجيوش الجرارة المسلحة وأفتك من وحوش البرية . فتلك البلاد التي كانت غنية بالمميزات الطبيعية كان سكانها قد نجسوها . ففي العبادة الجهارية للبعل الذي كان أعظم آلهتهم كانت تمارس باستمرار أحط الممارسات والمناظر الآثمة . وفي كل مكان كانت أماكن لعبادة الأوثان والخلاعة ، حتى أن مجرد أسمائها توحي بخسة الشعب وفسادهم .

هذه البيئة كان لها تأثير مفسد في الإسرائيليين . لقد أصبحت عقولهم معتادة الأفكار الشريرة التي هاجمتهم باستمرار . ثم أن حياتهم التي كانت حياة الراحة والبطالة كانت

لها آثارها المفسدة للأخلاق . وبدون أن يشعروا بدأوا يرتدون عن الله ، ووصلوا إلى حالة جعلتهم فريسة سهلة للتجربة .

وإذ كانوا حالين إلى جوار الأردن كان موسى يعد العدة لاحتلال كنعان ، وكان ذلك القائد العظيم مشغولا في عمله إلى أقصى حد . أما الشعب فقد كان هذا الوقت لهم وقت ترقب وانتظار ، وكان ذلك صعبا عليهم جدا . وقبل مرور أسابيع كثيرة تلطخ تاريخ ذلك الشعب بأفظع ارتداد عن مناهج الفضيلة والاستقامة .

في بادئ الأمر لم يكن ثم اختلاط كثير بين الإسرائيليين وجيرانهم الوثنيين ، ولكن بعد قليل بدأت نساء مديان يتسللن بهدوء داخل محلة العبرانيين ولم يثر ظهورهن أي فزع في قلوب الإسرائيليين ، وهكذا أعددن خططهن بكل هدوء بحيث لم يلحظهن موسى . وكانت غاية أولئك النسوة من اختلاطهن بالعبرانيين أن يغررن بهن حتى يتعدوا شريعة الله ، ويجتذبن انتباههم إلى الطقوس والعادات الوثنية ويحدرنهم إلى عبادة الأوثان . وقد أخفين هذه الأغراض بكل حرص ومهارة تحت قناع الصداقة ، فلم يكتشف تلك النوايا أحد حتى ولا حراس الشعب أنفسهم .

وبناء على اقتراح أدلى به بلعام أمر ملك موآب بإقامة عيد عظيم تكريما لآلهتهم . وقد اتفق بينهم سرا أن يستميل بلعام الإسرائيليين لحضور ذلك العيد . وكان بنو إسرائيل يعتبرونه نبيا لله ، ولذلك فلم يجد صعوبة كبرى في استمالتهم . وقد انضمت إليه جماهير غفيرة من الشعب لمشاهدة تلك الاحتفالات . لقد تجرأوا فدخلوا الأرض الحرام فأمسكوا في شرك الشيطان . فإذ استهوتهم الموسيقى والرقص وبهرهم جمال العذارى الوثنيات طرحوا عنهم ولاءهم للرب . فلما اشتركوا مع الوثنيين في الطرب والمرح والولائم فإن انغماسهم في شرب الخمر أظلم حواسهم وأسقط حصون ضبط النفس فسيطرت الشهوات عليهم . وبعد ما تنجست ضمائرهم بالدعارة أقنعهم الوثنيون بالسجود للأوثان ، فقدموا ذبائحهم على المذابح الوثنية واشتركوا في أحط الطقوس .

وسرعان ما انتشر السم كوبأ قتال فتاك في كل محلة إسرائيل . فأولئك الذين كانوا يريدون أن يقهروا أعداءهم غلبتهم مكايد النساء الوثنيات . وقد بدا كأن الشعب قد سُلِبت منهم عقولهم ، فالرؤساء والمتقدمون بين الشعب كانوا في طليعة من تعدوا ، وكثيرون جدا من الشعب أخطأوا حتى لقد شمل الارتداد الأمة كلها ، «وَتَعَلَّقَ إِسْرَائِيلُ بِبَعْلِ فَغُورَ» (انظر سفر العدد

٢٥) وحين تحرك موسى ليرى ذلك الشر كانت مؤامرات أعدائهم قد نجحت جدا بحيث أن الإسرائيليين لم يكتفوا بالتردي في العبادة الخليعة في جبل فغور ، بل جعلوا الطقوس الوثنية تتسلل إلى محلة إسرائيل وتمارس هناك . فامتلأ ذلك القائد الشيخ غضبا كما اشتعل غضب الله عليهم .

إن الممارسات الآثمة أوقعت على إسرائيل الشرور التي لم يستطع بلعام بكل سحره وعرافته أن يوقعها عليهم . فلقد فصلت الشعب عن الله وبسبب الضربات السريعة المفاجئة استيقظ الشعب من سكرتهم ليروا هول خطيتهم ، إذ تفشى وبأ فتاك رهيب في المحلة حصد أرواح ربوات من الشعب . كما أمر الرب القضاة أن يقتلوا أولئك الذين كانوا في طليعة المرتدين . فنفذ الأمر بسرعة . لقد قتل المجرمون وعلقت جثثهم عالية أمام عيون كل إسرائيل ، حتى حين ترى تلك الجماعة أولئك القادة يعاملون بمنتهى القسوة ينشأ فيهم إحساس عميق بكراهة الله لخطيتهم وغضبه المريع عليهم .

وقد أحس الجميع بعدالة القصاص فأسرع الشعب إلى خيمة الاجتماع باكين ومتذللين واعترفوا بخطيتهم . وفيما كانوا نائحين وباكين أمام الله عند باب الخيمة ، وإذ كان الوبأ لا يزال يعمل عمله المهلك ، وفيما كان القضاة ينفذون تلك المهمة الرهيبة جاء زمري ابن أحد أشراف إسرائيل ، وبكل جرأة واستهانة دخل إلى المحلة تصحبه امرأة مديانية عاهرة كانت بنت «رَئِيسُ قَبَائِلِ بَيْتِ أَبٍ فِي مِدْيَانَ» وأدخلها إلى خيمته . فهذه الرذيلة تدل على منتهى الوقاحة والعناد ، لأن زمري إذ ألهبت الخمر قلبه بالشهوة «أعلن إثمه كسدوم» وكان مجده في خزيه . لقد خر الكهنة والرؤساء في حزن وتذلل باكين «بَيْنَ الرِّوَاقِ وَالْمَذْبَحِ» وهم يتوسلون إلى الرب أن يبقي على شعبه ولا يسلم ميراثه للعار ، في نفس الوقت الذي كان فيه ذلك الرئيس الإسرائيلي يتفاخر متباهيا بخطيته على مرأى من كل الجماعة كأنما يتحدى نقمة الله ويسخر من قضاة الأمة . ولكن فينحاس بن ألعازار رئيس الكهنة قام من بين الجماعة وأمسك برمحه ، «وَدَخَلَ وَرَاءَ الرَّجُلِ الإِسْرَائِيلِيِّ إِلَى الْقُبَّةِ وَطَعَنَ كِلَيْهِمَا» فامتنع الوبأ . أما ذلك الكاهن الذي نفذ حكم الله فقد أكرم أمام كل إسرائيل وتثبت الكهنوت له ولبيته إلى الأبد .

وهذه هي الرسالة الإلهية : «فِينْحَاسُ بْنُ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الْكَاهِنُ قَدْ رَدَّ سَخَطِي عَنْ

بَنِي إِسْرَائِيلَ ... لِذلِكَ قُلْ : هأَنَذَا أُعْطِيهِ مِيثَاقِي مِيثَاقَ السَّلاَمِ ، فَيَكُونُ لَهُ وَلِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِيثَاقَ كَهَنُوتٍ أَبَدِيٍّ ، لأَجْلِ أَنَّهُ غَارَ ِللهِ وَكَفَّرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» .

إن الأحكام التي افتقدت بها خطية إسرائيل في شطيم أهلكت كل من كانوا لا يزالون أحياء من تلك الجماعة العظيمة الذين منذ حوالي أربعين سنة خلت جلبوا على أنفسهم حكم الله القائل : «إِنَّهُمْ يَمُوتُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ» هذا ، وإن إحصاء الشعب بناء على أمر الله في أثناء حلولهم في سهول الأردن برهن على أنه «لَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ مِنَ الَّذِينَ عَدَّهُمْ مُوسَى وَهَارُونُ الْكَاهِنُ حِينَ عَدَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءَ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ إِلاَّ كَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ وَيَشُوعُ بْنُ نُونَ» (عدد٢٦ : ٦٤،٦٥) .

لقد أوقع الله قصاصه على إسرائيل لأنهم انغلبوا أمام غوايات المديانيين . أما من جربوهم ليرتكبوا الشر فما كان لهم أن يفلتوا من غضب الله العادل . إن العمالقة الذين كانوا قد هجموا على إسرائيل في رفيديم إذ سقطوا على من كانوا معيين ومستضعفين خلف الشعب لم ينتقم منهم إلا بعد مرور وقت طويل . ولكن المديانيين الذين غرروا بهم وأوقعوهم في الخطية كان لابد لهم من أن يحسوا بهول ضربات الله لأنهم كانوا أخطر الأعداء . فلقد قال الله لموسى ، «انْتَقِمْ نَقْمَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ ، ثُمَّ تُضَمُّ إِلَى قَوْمِكَ» (انظر سفر العدد ٣١) وقد نفذ هذا الأمر في الحال . فاختير من بين ألوف إسرائيل ألف من كل سبط تحت قيادة فينحاس . «فَتَجَنَّدُوا عَلَى مِدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ ... وَمُلُوكُ مِدْيَانَ قَتَلُوهُمْ فَوْقَ قَتْلاَهُمْ : أَوِيَ وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُورَ وَرَابِعَ . خَمْسَةَ مُلُوكِ مِدْيَانَ . وَبَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ قَتَلُوهُ بِالسَّيْفِ» . والنساء اللواتي أسرهن الجيش المهاجم قتلن بأمر موسى لأنهم كن أشد أعداء إسرائيل إثما وخطرا .

هذا هو المصير الذي صار إليه أولئك الذين فكروا في معاكسة شعب الله . يقول المرنم : «تَوَرَّطَتِ الأُمَمُ فِي الْحُفْرَةِ الَّتِي عَمِلُوهَا . فِي الشَّبَكَةِ الَّتِي أَخْفَوْهَا انْتَشَبَتْ أَرْجُلُهُمْ» (مزمور ٩ : ١٥) «لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يَرْفُضُ شَعْبَهُ ، وَلاَ يَتْرُكُ مِيرَاثَهُ . لأَنَّهُ إِلَى الْعَدْلِ يَرْجِعُ الْقَضَاءُ» وحينما الأشرار «يَزْدَحِمُونَ عَلَى نَفْسِ الصِّدِّيقِ» فالرب «يَرُدُّ عَلَيْهِمْ إِثْمَهُمْ ، وَبِشَرِّهِمْ يُفْنِيهِمْ»(مزمور ٩٤ : ١٤،١٥،٢١،٢٣) .

إن بلعام حين استدعي ليلعن العبرانيين لم يستطع بكل رقاه وتعاويذه أن يوقع بهم شروا لأن

الرب «لَمْ يُبْصِرْ إِثْمًا فِي يَعْقُوبَ ، وَلاَ رَأَى تَعَبًا فِي إِسْرَائِيلَ» (عدد ٢٣ : ٢١،٢٣) . ولكن إذ تعدوا شريعة اله بانهزامهم أمام التجربة تركتهم قوة الله الحافظة الواقية . إن شعب الله مـــا داموا أمناء في حفظ وصاياه فإنه ، «لَيْسَ عِيَافَةٌ عَلَى يَعْقُوبَ ، وَلاَ عِرَافَةٌ عَلَى إِسْـــرَائِيلَ» ولهذا فالشيطان يبذل كل ما في طوقه من قوة ودهاء لإيقاعهم في الخطية . فإذا كـــان أولئـــك الذين يدعون أنهم استؤمنوا على شريعة الله يتعدون وصاياه فإنهم ينفصلـــوا عـــن الله ولـــن يستطيعوا الصمود أمام أعدائهم .

والإسرائيليون الذين لا يمكن التغلب عليهم بقوة السلاح أو بعرافـــة مديـــان ســـقطوا فرائس أمام نسائها العاهرات . هذه هي قوة المرأة التي إذ تتطوع لخدمة الشيطان فـــهي تستخدم تلك القوة لأخذ النفوس في أشراكها وإهلاكها . «لأَنَّهَا طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَـــى ، وَكُلُّ قَتْلاَهَا أَقْوِيَاءُ» (أمثال ٧ : ٢٦) بهذه الكيفية أيضا أغوى بنو شـــيث فـــانحرفوا عـــن طريق الاستقامة وفسد النسل المقدس ، وهكذا جرب يوسف أيضا ، وكذلك أفشى شمشون سر قوته التي كانت حصنا للدفاع عن إسرائيل فوقع بين أيدي الفلسطينيين . وهنا عـــثر داود وسليمان الذي كان أحكم الملوك والذي قيل عنه ثلاث مرات إنه محبوب من إلهـــه . هذا الملك صار عبدا للشهوة وضحى باستقامته من أجل نفس تلك القوة الساحرة .

«فَهذِهِ الأُمُورُ جَمِيعُهَا أَصَابَتْهُمْ مِثَالاً ، وَكُتِبَتْ لإِنْذَارِنَا نَحْنُ الَّذِينَ انْتَهَتْ إِلَيْنَا أَوَاخِـــرُ الدُّهُورِ . إِذًا مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ ، فَلْيَنْظُرْ أَنْ لاَ يَسْقُطَ» (١كورنثـــوس ١٠ : ١١،١٢) . إن الشيطان يعرف جيدا المادة التي يستعملها في القلب البشري . إنه يعرف لأنه قـــد درس بكل مهارته وخبرته الجهنمية طوال آلاف السنين نقط الضعف التي يمكنـــه بســـهولة أن يهاجم منها أخلاق كل إنسان . وعمل طيلة الأجيال المتعاقبة على إسقاط أقوى الرجـــال الذين كانوا رؤساء في إسرائيل بنفس التجارب التي نجحت في بعل فغور . وعلى مـــدى الأجيال تناثرت وتراكمت حطام الأخلاق التي قد تحطمت على صخور الشـــهوات . وإذ ندنو من نهاية الزمن ، وإذ يقف شعب الله على تخوم كنعان السماوية فالشيطان ســـيبذل جهودا مضاعفة كما فعل قديما ليحول بينهم وبين الدخول إلى الأرض الجيدة . إنه ينصب أشراكه لكل نفس . فليس الجهلاء أو العديمو العلم هم وحدهم الذين يحتـــاجون إلـــى أن يتحرزوا لأنفسهم ويسهروا عليها . إنه يعد تجاربه لأولئك الذين هم في أسمى المنـــاصب وأقدس المراكز لعله يطغيهم حتى ينجسوا أرواحهم ، وعن طريقهم يهلك كثيرين . وهـــو

457,458

الآن يستخدم نفس الوسائل التي قد استخدمها منذ ثلاثة آلاف سنة خلت . فبواسطة الصداقات العالمية وسحر الجمال والبحث عن السرور والمرح والولائم وكؤوس الخمر يجرب الشيطان الناس ليكسروا الوصية السابعة .

لقد أغوى الشيطان إسرائيل لارتكاب الدعارة قبلما قادهم إلى عبادة الأوثان . فأولئك الذين يهينون صورة الله ويدنسون هيكله في أشخاصهم لن يروا ضيرا في إهانة الله ليشبعوا شهوات قلوبهم الفاسدة ، إن الممارسات الشهوانية تضعف العقل وتحط النفس ، وإن القوى الأدبية والذهنية يخدرها ويشل حركتها إشباع الأميال الحيوانية . وإنه لمن المستحيل على من كان عبدا للشهوات أن يتحقق التزاماته المقدسة لشريعة الله أو يقدر الكفارة ، أو يقدر النفس حق قدرها . إن الصلاح والطهارة والحق وتوقير الله ومحبة كل ما هو مقدس– كل تلك العواطف المقدسة والرغائب النبيلة التي تربط النفس بالعالم السماوي تحترق وتتلاشى في نار الشهوات . وحينئذٍ تمسي النفس خرابا مسودا موحشا ومسكنا للأرواح الشريرة «وَمَحْرَسًا لِكُلِّ طَائِرٍ نَجِسٍ وَمَمْقُوتٍ» ، فالخلائق المجبولة على صورة الله انحدرت وانحطت إلى مستوى الوحوش .

إن اختلاط العبرانيين بعبدة الأوثان واشتراكهم معهم في ولائمهم ساقهم إلى تعدي شريعة الله ، وأوقع قضاء الله ودينونته على الأمة . كذلك الآن حين يختلط أتباع المسيح بالأشرار ويشاركونهم في ملاهيهم يصيب الشيطان أعظم نجاح في إغوائهم لارتكاب الخطية «اخْرُجُوا مِنْ وَسْطِهِمْ وَاعْتَزِلُوا ، يَقُولُ الرَّبُّ . وَلاَ تَمَسُّوا نَجِسًا فَأَقْبَلَكُمْ» (٢كورنثوس ٦ : ١٧) . إن الله يطلب من شعبه أن يكون بينهم وبين العالم فارق كبير في المعاملات والعادات والمبادئ كما طلب من إسرائيل قديما ، فإذا كان شعب الرب يتبعون تعاليم كتابه بكل أمانة فسيظل هذا الفارق قائما ولن يكون الواقع عكس ذلك . إن تحذيرات الله التي أرسلها للعبرانيين بأن عدم مشاكلة الوثنيين لم تكن مباشرة ولا أكثر صراحة ووضوحا من التحذيرات التي تنهى المسيحيين عن مشاكلة روح الأشرار وعاداتهم . فالمسيح يخاطبنا قائلا : «لاَ تُحِبُّوا الْعَالَمَ وَلاَ الأَشْيَاءَ الَّتِي فِي الْعَالَمِ . إِنْ أَحَبَّ أَحَدٌ الْعَالَمَ فَلَيْسَتْ فِيهِ مَحَبَّةُ الآبِ» (١يوحنا ٢ : ١٥) ، «أَنَّ مَحَبَّةَ الْعَالَمِ عَدَاوَةٌ ِللهِ ؟ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِلْعَالَمِ ، فَقَدْ صَارَ عَدُوًّا ِللهِ» (يعقوب ٤ : ٤) . لذا يجب على أتباع المسيح أن ينفصلوا عن الخطاة ، وأن يختاروا صحبتهم فقط حين تكون لديهم فرصة ليعملوا معهم خيرا . إننا لن نكون مغالين في عزمنا على تجنب معاشرة أولئك الذين

يبذلون ما في طوقهم لإبعادنا عن الله . وحين نصلي قائلين : «لاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ» علنا أن نتحاشى التجربة بقدر المستطاع .

إن الإسرائيليين إذ كانوا في حالة راحة وطمأنينة خارجية سقطوا في الخطية . لقد فشلوا في أن يجعلوا الله نصب عيونهم على الدوام فأهملوا الصلاة واحتضنوا في قلوبهم روح الثقة بالنفس . إن الراحة والانغماس في التمتعات جعلتهم يتركون قلعة النفس دون حراسة فتسللت إليهم الأفكار الحقيرة المنحطة . إن الأعداء الذين كانوا داخل الأسوار هم الذين أسقطوا معاقل المبادئ القويمة وحصونها المنيعة وأوقعوا إسرائيل في يد الشيطان . وبهذه الكيفية يتآمر إبليس على إهلاك النفس . إن عملية تمهيدية طويلة وغير معروفة لدى العالم تعمل عملها في قلب المسيحي قبلما يرتكب الخطية علنا . إن العقل لا ينحط في الحال من الطهارة والقداسة إلى الفساد والنجاسة والجريمة . بل يحتاج الأمر إلى وقت طويل لتجريد أولئك المخلوقين على صورة الله من كرامتهم ، وإنزالهم من مقامهم ليكونوا في صورة الوحوش أو الشياطين . إننا نتغير بالمشاهدة . والإنسان بانغماسه في أفكاره النجسة يحاول تدريب عقله بحيث أن الخطية التي كان يشمئز منها قبلا ستصير شيئا مسرا له .

إن الشيطان دائب في استخدام كل وسيلة لجعل الجرائم والرذائل التي تحط من قدر الإنسان أمرا متفشيا بين الناس . فأينما سرنا في شوارع مدننا تصدمنا إعلانات ضخمة تعلن عن جرائم تقدم في رواية من الرويات أو تمثل في دور الملاهي ، ولهذا يتدرب العقل على أن تكون الخطية مألوفة لديه . إن المسلك الشائن الذي يتابع السير فيه الناس الفاسدون المنحطون يراه الناس ويقرأون عنه في الصحف والمجلات الدورية ، وكل ما يثير الشهوات يعرض عليهم في القصص المثيرة . إنهم يسمعون ويقرأون كثيرا عن الجرائم الفاضحة حتى أن الضمير الذي كان قبلا رقيقا وكان يتراجع ذعرا مما يرى ويسمع ، يتقسى ، فيقبل الناس على تلك الأمور القبيحة بشغف عظيم .

إن كثيرا من أسباب الترفيه والتسلية الشائعة في العالم اليوم ، حتى لدى من يدعون أنفسهم مسيحيين تنتهي إلى نفس النهاية التي انتهت إليها تسليات الوثنيين . نعم إن قليلا من تلك الملاهي لا يعتبرها الشيطان ذات شأن في إهلاك النفوس إلا أنه ولمدة أجيال طويلة بذل قصاراه في تمثيلية إثارة الشهوات وتمجيد الرذيلة . فدور التمثيل بمناظرها الخلابة وموسيقاها

المدهشة ، والحفلات التنكرية والمراقص وموائد القمار – كل هذه يستخدمها الشيطان لينقض حواجز المبادئ القويمة ويفتح الباب على سعته للانغماس في الشهوات . وفي كل اجتماع يعقد للسمر حيث تسود الكبرياء وينغمس الناس في الشهوات وينساق الإنسان إلى نسيان الله وإغفال صالحه الأبدي ، هناك يحكم الشيطان وثاقه حول النفس ويستعبدها .

والحكيم ينصحنا قائلا : «فَوْقَ كُلِّ تَحَفُّظٍ احْفَظْ قَلْبَكَ ، لأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ» (أمثال ٤ : ٢٣) لأن الإنسان «كَمَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ هكَذَا هُوَ» (أمثال٢٣ : ٧) . ينبغي أن يتجدد القلب بنعمة الله ، وألا فعبثا يحاول الإنسان الحصول على طهارة الحياة . إن من يحاول أن يبني لنفسه خلقا نبيلا وفاضلا مستقلا عن نعمة المسيح إنما يبني بيته على الرمل ، وأمام عنف عواصف التجارب لابد من أن يسقط . إن صلاة داود التي قدمها لله ينبغي لكل نفس أن تقدمها : «قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللهُ ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي» (مزمور ٥١ : ١٠) وإذ نصير شركاء في هذه الهبة السماوية نتقدم إلى الكمال حيث أننا «بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ ، بِإِيمَانٍ» (١بطرس ١ : ٥) .

ومع ذلك فإن علينا عملا نعمله لمقاومة التجربة . إن من لا يريدون أن يسقطوا فرائس لمكايد الشيطان عليهم أن يحرسوا مداخل النفس حراسة مشددة وعليهم أن يتجنبوا قراءة أو مشاهدة أو سماع أي شيء يقود النفس إلى الأفكار النجسة . ينبغي ألا يطلق العنان للعقل ليهيم من غير تدبر في مجاهل الأفكار التي يقترحها عليه عدو النفوس . إن بطرس الرسول يقول : «لِذلِكَ مَنْطِقُوا أَحْقَاءَ ذِهْنِكُمْ صَاحِينَ ... لاَ تُشَاكِلُوا شَهَوَاتِكُمُ السَّابِقَةَ فِي جَهَالَتِكُمْ ، بَلْ نَظِيرَ الْقُدُّوسِ الَّذِي دَعَاكُمْ ، كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا قِدِّيسِينَ فِي كُلِّ سِيرَةٍ» (١بطرس ١ : ١٣-١٥) . وبولس الرسول يقول : «كُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ ، كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ ، كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ ، كُلُّ مَا هُوَ طَاهِرٌ ، كُلُّ مَا هُوَ مُسِرٌّ ، كُلُّ مَا صِيتُهُ حَسَنٌ ، إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ ، فَفِي هذِهِ افْتَكِرُوا» (فيلبي ٤ : ٨) . لا شك في أن هذا يتطلب صلاة حارة وسهرا دائما . كما أنه ينبغي لنا أن نستعين بقوة الروح القدس الساكن فينا ، تلك القوة التي تسمو بالعقل إلى الأعالي وتعوّده التفكير في الأشياء الطاهرة المقدسة . كذلك علينا أن ندرس كلمة الله بكل اجتهاد «بِمَ يُزَكِّي الشَّابُّ طَرِيقَهُ ؟ بِحِفْظِهِ إِيَّاهُ حَسَبَ كَلاَمِكَ» وكما يقول المرنم : «خَبَأْتُ كَلاَمَكَ فِي قَلْبِي لِكَيْلاَ أُخْطِئَ إِلَيْكَ» (مزمور ١١٩ : ٩،١١) .

إن خطية إسرائيل عند بعل فغور جلبت على الأمه ضربات الله . ومـــع أن نفـس هـذه الخطايا التي ترتكب في هذه الأيام لا تنال جزاءها السريع كتلك ، غير أنه لابد من قصـــاص في النهاية «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُفْسِدُ هَيْكَلَ اللهِ فَسَيُفْسِدُهُ اللهُ» (١ كورنثوس ٣ : ١٧) . إن الطبيعـة قد ربطت بين هذه عاجلا أو آجلا . إن هذه الخطايا أكثر من باقي الخطايا الأخرى هي التـــي سببت الانحطاط المريع لجنسنا ، وأثقال المرضى والتعاسة التي صارت لعنة على العالم . قـد يفلح الناس في إخفاء خطاياهم من عيون بني جنسهم ، ومع ذلك فلابد لهم مـــن أن يحصـــدوا النتيجة بما يصيبهم من الآلام أو الأمراض أو البلاهة أو الموت . وبعد هذه الحياة ســـينصب عرش الدينونة ويحكم الديان بالقصاص الأبدي . «الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُـــوتَ اللهِ» ، بل مع الشيطان والملائكة الأشرار سيكون نصيبهم في البحيرة المتقدة بالنار والكــبريت الذي هو الموت الثاني (غلاطية ٥ : ٢١؛ رؤيا ٢٠ : ١٤) .

«لأَنَّ شَفَتَيِ الْمَرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ تَقْطُرَانِ عَسَلاً ، وَحَنَكُهَا أَنْعَمُ مِنَ الزَّيْتِ ، لكِنَّ عَاقِبَتَهَا مُرَّةٌ كَالأَفْسَنْتِينِ ، حَادَّةٌ كَسَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ» (أمثال ٥ : ٣،٤) . «أَبْعِدْ طَرِيقَكَ عَنْهَا ، وَلاَ تَقْـــرَبْ إِلَى بَابِ بَيْتِهَا ، لِئَلاَّ تُعْطِيَ زَهْرَكَ لآخَرِينَ ، وَسِنِينَكَ لِلْقَاسِي . لئَلاَّ تَشْبَعَ الأَجَـــانِبُ مِــنْ قُوَّتِكَ ، وَتَكُونَ أَتْعَابُكَ فِي بَيْتِ غَرِيبٍ . فَتَنُوحَ فِي أَوَاخِرِكَ ، عِنْدَ فَنَاءِ لَحْمِكَ وَجِسْـــمِكَ» (أمثال ٥ : ٨-١٨) . «لأَنَّ بَيْتَهَا يَسُوخُ إِلَى الْمَوْتِ ... كُلُّ مَنْ دَخَلَ إِلَيْهَا لاَ يَؤُوبُ» (أمثال ٢ : ١٨،١٩) . « ... وَأَنَّ فِي أَعْمَاقِ الْهَاوِيَةِ ضُيُوفَهَا» (أمثال ٩ : ١٨) .

الفصل الثاني والأربعون

تكرار الشريعة

أعلن الرب لموسى أن الوقت المعين لامتلاك كنعان أضحى قريبا . وإذ وقف ذلك النبـــي الشيخ على المرتفعات المشرفة على الأردن وأرض الموعد تفرس باهتمام شديد إلى مـــيراث شعبه . فهل يمكن أن يلغي ذلك الحكم الذي حكم به عليه بسبب خطيته في قادش ؟ لقد تضرع بغيرة شديدة قائلا : «يَا سَيِّدُ الرَّبُّ ، أَنْتَ قَدِ ابْتَدَأْتَ تُرِي عَبْدَكَ عَظَمَتَكَ وَيَدَكَ الشَّدِيدَةَ . فَإِنَّـــهُ أَيُّ إِلهٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ يَعْمَلُ كَأَعْمَالِكَ وَكَجَبَرُوتِكَ ؟ دَعْنِـــي أَعْــبُرْ وَأَرَى الأَرْضَ الْجَيِّدَةَ الَّتِي فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ ، هذَا الْجَبَلَ الْجَيِّدَ وَلُبْنَانَ» (تثنية ٣ : ٢٤-٢٧) .

فكانت الإجابة : «كَفَاكَ ! لاَ تَعُدْ تُكَلِّمُنِي أَيْضًا فِي هذَا الأَمْرِ . اصْعَدْ إِلَى رَأْسِ الْفِسْـجَةِ وَارْفَعْ عَيْنَيْكَ إِلَى الْغَرْبِ وَالشِّمَالِ وَالْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ ، وَانْظُرْ بِعَيْنَيْكَ ، لكِنْ لاَ تَعْبُرُ هــذَا الأُرْدُنَّ» .

خضع موسى لحكم الله دون تذمر . أما الآن فهو جزع جزعا شديدا على إسرائيل ، وأيــن هو الإنسان الذي يهتم اهتماما شديدا بخيرهم وإسعادهم كما يهتم هو ؟ فمن قلبه الفائض المفعم سكب أمام الرب هذه الصلاة «لِيُوكِّلِ الرَّبُّ إِلهُ أَرْوَاحِ جَمِيعِ الْبَشَرِ رَجُلاً عَلَى الْجَمَاعَـــةِ ، يَخْرُجُ أَمَامَهُمْ وَيَدْخُلُ أَمَامَهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيُدْخِلُهُمْ ، لِكَيْلاَ تَكُونَ جَمَاعَةُ الرَّبِّ كَالْغَنَمِ الَّتِي لاَ رَاعِيَ لَهَا» (عدد ٢٧ : ١٦-٢٣) .

أصغى الرب إلى صلاة عبده وأجاب : «خُذْ يَشُوعَ بْنَ نُونَ ، رَجُلاً فِيهِ رُوحٌ ، وَضَـــعْ يَدَكَ عَلَيْهِ ، وَأَوْقِفْهُ قُدَّامَ أَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ وَقُدَّامَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ ، وَأَوْصِـــهِ أَمَـــامَ أَعْيُنِـــهِمْ . وَاجْعَلْ مِنْ هَيْبَتِكَ عَلَيْهِ لِيَسْمَعَ لَهُ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ» . لقد ظل يشوع ملازما لموســى أمدا طويلا . ولكونه رجلا حكيما مقتدرا وموهوبا وعظيم الإيمان اختير خلفا له .

وإذ وضع موسى يديه عليه وقرن ذلك بوصية مؤثرة إلى أبعد حد أفرز يشوع بوقار كقـائد

لإسرائيل . وقد سمح له أيضا أن يشترك وقتئذ مع موسى في حكم إسرائيل . وأخبر موسى الشعب بكلام الرب عما يختص بيشوع قائلا : «يَقِفَ أَمَامَ أَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ فَيَسْأَلُ لَهُ بِقَضَاءِ الأُورِيمِ أَمَامَ الرَّبِّ . حَسَبَ قَوْلِهِ يَخْرُجُونَ ، وَحَسَبَ قَوْلِهِ يَدْخُلُونَ ، هُوَ وَكُلُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ ، كُلُّ الْجَمَاعَةِ» .

ولكن قبلما اعتزل موسى منصبه كقائد إسرائيل المنظور ، أمره الرب أن يكرر على مسامع الشعب تاريخ نجاتهم من مصر ورحلاتهم في البرية ، وأن يلخص لهم كذلك الشريعة التي سمعت في سيناء ، لأن الشريعة حين أعطيت في سيناء لم يكن غير القليلين من الحاضرين وقتئذ متقدمين في الأيام بحيث يمكنهم إدراك الجلال الرهيب لتلك المناسبة (مناسبة إعطاء الشريعة) . وبما أنهم كانوا موشكين أن يعبروا نهر الأردن ويمتلكوا أرض الموعد ، أراد الرب أن يضع أمام عيونهم مطاليب شريعته فارضا عليهم الطاعة كشرط للنجاح .

وقف موسى أمام الشعب مكررا على مسامعهم إنذاراته وتحذيراته الأخيرة . لقد استنار وجهه بنور مقدس وابيض شعره من طول السنين ولكنه كان منتصب القامة ، يعبر وجهه عن كمال نشاطه ، كما أن عينيه كانتا صافيتين ولم تضعفا . لقد كانت مناسبة هامة ، وبتأثير عميق صور للشعب محبة حافظهم القدير ورحمته .

«فَاسْأَلْ عَنِ الأَيَّامِ الأُولَى الَّتِي كَانَتْ قَبْلَكَ ، مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي خَلَقَ اللهُ فِيهِ الإِنْسَانَ عَلَى الأَرْضِ ، وَمِنْ أَقْصَاءِ السَّمَاءِ إِلَى أَقْصَائِهَا . هَلْ جَرَى مِثْلُ هذَا الأَمْرِ الْعَظِيمِ ، أَوْ هَلْ سُمِعَ نَظِيرُهُ ؟ هَلْ سَمِعَ شَعْبٌ صَوْتَ اللهِ يَتَكَلَّمُ مِنْ وَسَطِ النَّارِ كَمَا سَمِعْتَ أَنْتَ ، وَعَاشَ ؟ أَوْ هَلْ شَرَعَ اللهُ أَنْ يَأْتِيَ وَيَأْخُذَ لِنَفْسِهِ شَعْبًا مِنْ وَسَطِ شَعْبٍ ، بِتَجَارِبَ وَآيَاتٍ وَعَجَائِبَ وَحَرْبٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ رَفِيعَةٍ وَمَخَاوِفَ عَظِيمَةٍ ، مِثْلَ كُلِّ مَا فَعَلَ لَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ فِي مِصْرَ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ ؟ إِنَّكَ قَدْ أُرِيتَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الإِلهُ . لَيْسَ آخَرَ سِوَاهُ» (تثنية ٤ : ٣٢-٣٥) .

«لَيْسَ مِنْ كَوْنِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ ، الْتَصَقَ الرَّبُّ بِكُمْ وَاخْتَارَكُمْ ، لأَنَّكُمْ أَقَلُّ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ . بَلْ مِنْ مَحَبَّةِ الرَّبِّ إِيَّاكُمْ ، وَحِفْظِهِ الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمَ لآبَائِكُمْ ، أَخْرَجَكُمُ الرَّبُّ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَفَدَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ . فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ

هُوَ اللهُ ، الإِلهُ الأَمِينُ ، الْحَافِظُ الْعَهْدَ وَالإِحْسَانَ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ وَيَحْفَظُونَ وَصَايَاهُ إِلَى أَلْفِ جِيل» (تثنية ٧ : ٧-٩) .

كان شعب إسرائيل قبلا مستعدين أن ينسبوا كل ضيقاتهم ومتاعبهم إلى موسى ، أما الآن فإن كل ارتيابهم في أنه كان منقادا بروح الكبرياء والطموح والأنانية لم يعد له وجود ، فأصغوا إلى كلامه بثقة . وبكل أمانة بسط موسى أمامهم أخطاءهم وتعديات آبائهم . إنهم مرارا كثيرة ضجروا وسخطوا وتمردوا بسبب طول أمد تيهانهم في البرية ، ولكن الرب لم يكن مسؤولا عن تأخرهم في امتلاك كنعان ، بل كان حزنه أعظم من حزنهم لأنه لم يستطع أن يدخلهم مباشرة لامتلاك أرض الموعد ، وهكذا كان يظهر أمام الشعوب قدرته العظيمة في تخليص شعبه . فبسبب عدم ثقتهم بالله وكبريائهم وعدم إيمانهم ، لم يكونوا مستعدين لدخول كنعان . لم يكونوا صورة حقيقية لذلك الشعب الذي الرب إلهه ، لأن صفاته المقدسة كالطهارة والصلاح والمحبة والإحسان لم تكن مطبوعة على قلوبهم . فلو أن آباءهم خضعوا بإيمان لأوامر الله وساروا بموجب أحكامه وفرائضه لكانوا استوطنوا كنعان منذ أمد بعيد ، وصاروا شعبا ناجحا مقدسا سعيدا . فتأخرهم في امتلاك تلك الأرض الشهية كان مهينا لله ومنتقصا من مجده في نظر الشعوب المجاورة .

إن موسى الذي كان يعرف صفة شريعة الله وقيمتها أكد للشعب أنه لا شعب آخر له شرائع حكيمة وعادلة ورحيمة كهذه الشرائع المعطاة لهم ، فقال : «اُنْظُرْ . قَدْ عَلَّمْتُكُمْ فَرَائِضَ وَأَحْكَامًا كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ إِلهِي ، لِكَيْ تَعْمَلُوا هكَذَا فِي الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ دَاخِلُونَ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكُوهَا . فَاحْفَظُوا وَاعْمَلُوا . لأَنَّ ذلِكَ حِكْمَتُكُمْ وَفِطْنَتُكُمْ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كُلَّ هذِهِ الْفَرَائِضِ ، فَيَقُولُونَ : هذَا الشَّعْبُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا هُوَ شَعْبٌ حَكِيمٌ وَفَطِنٌ» (تثنية ٤ : ٥،٦) .

وقد استرعى موسى انتباههم إلى «الْيَوْمِ الَّذِي وَقَفْتَ فِيهِ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي حُورِيبَ» ثم تحدى جموع العبرانيين بقوله : «لأَنَّهُ أَيُّ شَعْبٍ هُوَ عَظِيمٌ لَهُ آلِهَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْهُ كَالرَّبِّ إِلهِنَا فِي كُلِّ أَدْعِيَتِنَا إِلَيْهِ ؟ وَأَيُّ شَعْبٍ هُوَ عَظِيمٌ لَهُ فَرَائِضُ وَأَحْكَامٌ عَادِلَةٌ مِثْلُ كُلِّ هذِهِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي أَنَا وَاضِعٌ أَمَامَكُمُ الْيَوْمَ ؟» واليوم يمكن أن يتكرر هذا التحدي الذي كان لإسرائيل ، لأن الشرائع التي أعطاها الرب لشعبه قديما هي شرائع أحكم وأفضل ،

وخيرة أكثر من شرائع أرقى ممالك الأرض ، كما أن شرائع الأمم الأخـــرى موســومة بضعفات القلب الغير المتجدد وشهوانيته ، أما شريعة الله فتحمل طابع الألوهية .

«وَأَنْتُمْ قَدْ أَخَذَكُمُ الرَّبُّ وَأَخْرَجَكُمْ مِنْ كُورِ الْحَدِيدِ ... لِكَيْ تَكُونُوا لَهُ شَعْبَ مِيرَاثٍ» (تثنيــة ٤ : ٢٠،٨،٧،١٠) إن الأرض التي كانوا موشكين أن يدخلوها ، والتي ستكون ملكا لهم علــى شرط طاعتهم لشريعة الله وصفت لهم وصفا جميلا– وما كان أشد تأثير هذا الكلام في قلــوب بني إسرائيل وهم يذكرون أن ذاك الذي كان يصور لهم تلك الأرض الجيدة بحماسة عظيمــة ، كان قد حرم عليه مشاركتهم في ميراث شعب الله بسبب خطيتهم .

«لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ آتٍ بِكَ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ» «لَيْسَتْ مِثْلَ أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْــهَا ، حَيْثُ كُنْتَ تَزْرَعُ زَرْعَكَ وَتَسْقِيهِ بِرِجْلِكَ كَبُسْتَانِ بُقُول . بَلْ الأَرْضُ الَّتِي أَنْتُمْ عَــابِرُونَ إِلَيْــهَا لِكَيْ تَمْتَلِكُوهَا ، هِيَ أَرْضُ جِبَال وَبِقَاعٍ . مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ تَشْرَبُ مَــاءً» «أَرْضِ أَنْــهَارٍ مِــنْ عُيُونٍ ، وَغِمَارٍ تَنْبَعُ فِي الْبِقَاعِ وَالْجِبَالِ . أَرْضِ حِنْطَةٍ وَشَعِيرٍ وَكَرْمٍ وَتِيــنٍ وَرُمَّــانٍ . أَرْضِ زَيْتُونِ زَيْتٍ ، وَعَسَل . أَرْضٌ لَيْسَ بِالْمَسْكَنَةِ تَأْكُلُ فِيهَا خُبْزًا ، وَلاَ يُعْوِزُكَ فِيهَا شَــيْءٌ . أَرْضٌ حِجَارَتُهَا حَدِيدٌ ، وَمِنْ جِبَالِهَا تَحْفُرُ نُحَاسًا» «أَرْضٌ يَعْتَنِي بِهَا الرَّبُّ إِلهُكَ . عَيْنَا الــرَّبِّ إِلــهِكَ عَلَيْهَا دَائِمًا مِنْ أَوَّلِ السَّنَةِ إِلَى آخِرِهَا» (تثنية ٨ : ٧–٩، ١١ : ١٠–١٢) .

«وَمَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْــحَاقَ وَيَعْقُــوبَ أَنْ يُعْطِيَكَ ، إِلَى مُدُنٍ عَظِيمَةٍ جَيِّدَةٍ لَمْ تَبْنِهَا ، وَبُيُوتٍ مَمْلُوءَةٍ كُلَّ خَيْرٍ لَمْ تَمْلأْهَا ، وَأَبَآرٍ مَحْفُورَةٍ لَمْ تَحْفِرْهَا ، وَكُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسْهَا ، وَأَكَلْتَ وَشَبِعْتَ ، فَاحْتَرِزْ لِئَلاَّ تَنْسَى الرَّبَّ» . «احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَنْسَوْا عَهْدَ الرَّبِّ إِلهِكُمُ ... لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ هُوَ نَارٌ آكِلَةٌ ، إِلهٌ غَيُورٌ» وإذا عملوا الشــر في عيني الرب قال لهم موسى : «تَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ الأُرْدُنَّ إِلَيْــهَا لِتَمْتَلِكُوهَا» (تثنية ٦ : ١٠–١٢، ٤ : ٢٣–٢٦) .

فبعدما تلا موسى الشريعة علنا على الشعب أكمل كتابة كل الشرائع والوصايا والأحكام التي قــد أعطاه الرب إياها وكل النظم الخاصة بالذبائح . والسفر المحتوي على هذه الأمور سلم إلى أيــــدي القادة المسؤولين ، ولكي يحفظ جيدا وضع في جانب التابوت . ولكن ذلك القائد العظيم كان لا يـزال يخشى لئلا يترك الشعب الرب ويبتعدوا عنه . ففي أروع خطاب مؤثر عدد لــــهم البركــات التــي يمكنهم امتلاكها لو أطاعوا ، واللعنات التي ستجيء في أذيال العصيان فقال :

«إِنْ سَمِعْتَ سَمْعًا لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ ... مُبَارَكًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَمُبَارَكًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ» فِي «ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ وَثَمَرَةُ بَهَائِمِكَ ... مُبَارَكَةً تَكُونُ سَلَّتُكَ وَمِعْجَنُكَ . مُبَارَكًا تَكُونُ فِي دُخُولِكَ ، وَمُبَارَكًا تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ . يَجْعَلُ الرَّبُّ أَعْدَاءَكَ الْقَائِمِينَ عَلَيْكَ مُنْهَزِمِينَ أَمَامَكَ . فِي طَرِيق وَاحِدَةٍ يَخْرُجُونَ عَلَيْكَ ، وَفِي سَبْعِ طُرُق يَهْرُبُونَ أَمَامَكَ ... يَأْمُرُ لَكَ الرَّبُّ بِالْبَرَكَةِ فِي خَزَائِنِكَ وَفِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ» (انظر تثنية ٢٨) .

«وَلكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ ، تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتُدْرِكُكَ ... وَتَكُونُ دَهَشًا وَمَثَلاً وَهُزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسُوقُكَ الرَّبُّ إِلَيْهِمْ ... وَيُبَدِّدُكَ الرَّبُّ فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلَى أَقْصَائِهَا ، وَتَعْبُدُ هُنَاكَ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ ، مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ . وَفِي تِلْكَ الأُمَمِ لاَ تَطْمَئِنُّ وَلاَ يَكُونُ قَرَارٌ لِقَدَمِكَ ، بَلْ يُعْطِيكَ الرَّبُّ هُنَاكَ قَلْبًا مُرْتَجِفًا وَكَلاَلَ الْعَيْنَيْنِ وَذُبُولَ النَّفْسِ . وَتَكُونُ حَيَاتُكَ مُعَلَّقَةً قُدَّامَكَ ، وَتَرْتَعِبُ لَيْلاً وَنَهَارًا وَلاَ تَأْمَنُ عَلَى حَيَاتِكَ . فِي الصَّبَاحِ تَقُولُ : يَا لَيْتَهُ الْمَسَاءُ ، وَفِي الْمَسَاءِ تَقُولُ : يَا لَيْتَهُ الصَّبَاحُ ، مِنِ ارْتِعَابِ قَلْبِكَ الَّذِي تَرْتَعِبُ ، وَمِنْ مَنْظَرِ عَيْنَيْكَ الَّذِي تَنْظُرُ» .

إن موسى إذ حل عليه روح الوحي ونظر ما سيحدث عبر الأجيال قدم صورة رهيبة لسقوط إسرائيل كأمة نهائيا ، كما تكلم عن خراب أورشليم بأيدي جيوش الرومان– فقال : «يَجْلِبُ الرَّبُّ عَلَيْكَ أُمَّةً مِنْ بَعِيدٍ ، مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ كَمَا يَطِيرُ النَّسْرُ ، أُمَّةً لاَ تَفْهَمُ لِسَانَهَا ، أُمَّةً جَافِيَةَ الْوَجْهِ لاَ تَهَابُ الشَّيْخَ وَلاَ تَحِنُّ إِلَى الْوَلَدِ» .

هذا ، وإن الخراب الشامل الذي كان سيعم البلاد والآلام الرهيبة التي كانت لتحل بالشعب في أثناء حصار أورشليم تحت قيادة تيطس القائد الروماني بعد ذلك بقرون . كل ذلك صور ووصف بكل جلاء حيث يقول «فَتَأْكُلُ ثَمَرَةَ بَهَائِمِكَ وَثَمَرَةَ أَرْضِكَ حَتَّى تَهْلِكَ ... وَتُحَاصِرُكَ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِكَ حَتَّى تَهْبِطَ أَسْوَارُكَ الشَّامِخَةُ الْحَصِينَةُ الَّتِي أَنْتَ تَثِقُ بِهَا فِي كُلِّ أَرْضِكَ ... فَتَأْكُلُ ثَمَرَةَ بَطْنِكَ ، لَحْمَ بَنِيكَ وَبَنَاتِكَ الَّذِينَ أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ فِي الْحِصَارِ وَالضِّيقَةِ الَّتِي يُضَايِقُكَ بِهَا عَدُوُّكَ» ثم يقول «وَالْمَرْأَةُ الْمُتَنَعِّمَةُ فِيكَ وَالْمُتَرَفِّهَةُ الَّتِي لَمْ تُجَرِّبْ أَنْ تَضَعَ أَسْفَلَ قَدَمِهَا عَلَى الأَرْضِ لِلتَّنَعُّمِ وَالتَّرَفُّهِ ، تَبْخَلُ عَيْنُهَا عَلَى رَجُلِ

حِضْنِهَا ... وَبِأَوْلاَدِهَا الَّذِينَ تَلِدُهُمْ ، لأَنَّهَا تَأْكُلُهُمْ سِرًّا فِي عَوَزِ كُلِّ شَيْءٍ ، فِي الْحِصَارِ وَالضِّيقَةِ الَّتِي يُضَايِقُكَ بِهَا عَدُوُّكَ فِي أَبْوَابِكَ» .

وقد اختتم موسى حديثه بهذه الكلمات المؤثرة : «أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ . قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ . الْبَرَكَةَ وَاللَّعْنَةَ . فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ ، إِذْ تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ وَتَسْمَعُ لِصَوْتِهِ وَتَلْتَصِقُ بِهِ ، لأَنَّهُ هُوَ حَيَاتُكَ وَالَّذِي يُطِيلُ أَيَّامَكَ لِكَيْ تَسْكُنَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ الرَّبُّ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا» (تثنية ٣٠ : ١٩،٢٠) .

ولكي يطبع القائد العظيم هذه الحقائق أعمق في أذهانهم وضعها في نشيد مقدس ، ولم يكن هذا النشيد تاريخيا فقط بل نبويا أيضا . ففي حين سرد معاملات الله المجيبة لشعبه في الماضي فقد سبق أيضا فأنبأهم بالحوادث العظيمة التي ستحدث في المستقبل ، والنصرة الأخيرة للأمناء حين يجيء المسيح في مجيئه الثاني بقوة ومجد كثير . وقد أوصى الشعب أن يحفظوا عن ظهر قلب هذا التاريخ المنظوم وأن يعلموه لأولادهم وأولاد أولادهم . وكان على الشعب أن يتغنوا به حين يجتمعون معا للعبادة ، وأن يرددوه وهم ذاهبون إلى عملهم اليومي . وكان واجبا على الآباء أن يطبعوا هذه الكلمات على أذهان أولادهم السريعة التأثر لكي لا تنسى أبدا .

وحيث أن الإسرائيليين كانوا بمعنى خاص حراسا ومهيمنين على شريعة الله ، فإن معنى الوصايا وأهمية الطاعة لها كان لا بد أن يطبعا على عقولهم بكيفية خاصة ، وعلى عقول أولادهم وأولاد أولادهم بواسطتهم . وقد علمهم الرب بخصوص شرائعه قائلا : «وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلاَدِكَ ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ ، وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ ، وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ ... وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ» (تثنية ٦ : ٧-٩) .

وحين يسألهم أولادهم في السنين القادمة قائلين : «مَا هِيَ الشَّهَادَاتُ وَالْفَرَائِضُ وَالأَحْكَامُ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا الرَّبُّ إِلهُنَا ؟» فعلى الآباء في هذه الحالة أن يرددوا على مسامع أولادهم تاريخ معاملات الله الصالحة والرحيمة لهم ، وكيف صنع لهم الرب خلاصا حتى يطيعوا شريعته ، وأن يعلنوا لهم قائلين : «فَأَمَرَنَا الرَّبُّ أَنْ نَعْمَلَ جَمِيعَ هذِهِ الْفَرَائِضِ وَنَتَّقِيَ الرَّبَّ إِلهَنَا ، لِيَكُونَ لَنَا خَيْرٌ كُلَّ الأَيَّامِ ، وَيَسْتَبْقِيَنَا كَمَا فِي هذَا الْيَوْمِ . وَإِنَّهُ يَكُونُ لَنَا بِرٌّ إِذَا حَفِظْنَا جَمِيعَ هذِهِ الْوَصَايَا لِنَعْمَلَهَا أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِنَا كَمَا أَوْصَانَا» (تثنية ٦ : ٢٠-٢٥) .

الفصل الثالث والأربعون

موت موسى

في كل معاملات الله لشعبه يمتزج مع محبته ورحمته ، أعجب برهان على عدالته الدقيقة التي لا محاباة فيها . وهذا ما نراه مثلا في تاريخ الشعب العبراني . لقد منح الله إسرائيل بركات غنية ، كما أن رأفته نحوهم مصورة في صورة جد مؤثرة بهذه الكلمات «كَمَا يُحَرِّكُ النَّسْرُ عُشَّهُ وَعَلَى فِرَاخِهِ يَرِفُّ ، وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ وَيَأْخُذُهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنَاكِبِهِ ، هكَذَا الرَّبُّ وَحْدَهُ اقْتَادَهُ» (تثنية ٣٢ : ١١،١٢) ومع ذلك فما كان أسرع وأقسى العقاب الذي افتقد به الرب معصيتهم فيهم !

لقد أظهرت محبة الله غير المحدودة في بذله ابنه الوحيد ليفتدي جنسنا الساقط ، فأتى المسيح إلى العالم ليعلن للناس صفات أبيه ، وكانت حياته مفعمة بالكثير من أعمال الرحمة والمحبة الإلهية . وقد أعلن هو بنفسه قائلا : «إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ» (متى ٥ : ١٨) . ولكن نفس الصوت الذي بكل صبر ومحبة يتوسل إلى الخطاة داعيا إياهم أن يأتوا إليه ليجدوا الغفران والسلام ، هذا الصوت نفسه سيرعد على من قد رفضوا رحمته قائلا لهم : «اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ» (متى ٢٥ : ٤١) . وفي الكتاب كله لا يصور الله على أنه الآب الرقيق المحب وحسب ، بل أيضا على أنه الديان العادل . ومع أنه يسر بالرحمة ، وكونه «غَافِرُ الإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيَّةِ . وَلكِنَّهُ لَنْ يُبْرِئَ إِبْرَاءً» (خروج ٣٤ : ٧) .

إن سيد الأمم الأعظم كان قد أعلن لموسى أنه (موسى) لن يقود شعب إسرائيل إلى الأرض الجيدة ، ولم تفلح التوسلات الحارة التي قدمها خادم الرب ذاك في إبدال حكم الرب ، بل عرف أنه لابد من موته . ومع ذلك فهو لم يتردد لحظة واحدة في رعاية إسرائيل . وبكل أمانة اجتهد في إعداد الشعب لدخول الميراث الموعود به . فامتثالا لأمر الله توجه موسى

ويشوع إلى خيمة الاجتماع حيث نزل عمود السحاب ووقف فوق الباب . وهنا أسند أمر قيادة الشعب ورعايته بكل وقار إلى يشوع ، وانتهى عمل موسى كقائد لبني إسرائيل ، ومع هذا فقد نسي نفسه في غمرة اهتمامه بشعبه . ففي محضر جموع الشعب المجتمعين خاطب موسى خليفته باسم الرب بهذه الأقوال المقدسة المشجعة قائلا : «تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ ، لأَنَّكَ أَنْتَ تَدْخُلُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمْتُ لَهُمْ عَنْهَا ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَكَ» (تثنية ٣١ : ٢٣) ثم التفت بعد ذلك إلى شيوخ الشعب ورؤسائه وأوصاهم بكل وقار أن يطيعوا بأمانة تامة كل التعاليم التي كان قد أعطاهم إياها من الله .

وإذ شخص الشعب إلى ذلك الشيخ الذي كان موشكا أن يرحل عنهم ، بدأوا يذكرون بتقدير جديد ، عميق شفقته الأبوية عليهم ونصائحه الحكيمة وجهوده التي لم تكل . فكم من مرة عندما كانت خطاياهم تستوجب قصاص الله العادل انتصرت صلوات موسى وجهاده لأجلهم أمام الرب فأبقى عليهم ! ولقد زاد حزنهم بسبب تبكيت ضمائرهم . وبكل مرارة ذكروا أن عنادهم وزيغانهم قد أسخطا موسى فارتكب الخطية التي كان لا بد أن يموت بسببها .

إن أخذ قائدهم المحبوب من بينهم سيكون توبيخا أقسى جدا لإسرائيل من أي توبيخ آخر يوجه إليهم فيما لو طالت أيامه وخدمته . لقد أراد الله أن يشعرهم ويقنعهم بأنهم لن يجعلوا حياة قائدهم العتيد شاقة ومتعبة كما جعلوا حياة موسى . إن الله يكلم شعبه بواسطة البركات التي يمنحها لهم ، فإذا لم يقدروها فهو يحدثهم بواسطة أخذ تلك البركات منهم حتى يروا خطاياهم ويرجعوا إليه بكل قلوبهم .

وفي نفس ذلك اليوم أمر الرب موسى قائلا : «اِصْعَدْ إِلَى ... جَبَلِ نَبُو الَّذِي فِي أَرْضِ مُوآبَ الَّذِي قُبَالَةَ أَرِيحَا ، وَانْظُرْ أَرْضَ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا أُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مُلْكًا ، وَمُتْ فِي الْجَبَلِ الَّذِي تَصْعَدُ إِلَيْهِ ، وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِكَ» (تثنية ٣٢ : ٤٩،٥٠) . كان موسى يترك المحلة قبلا مرارا كثيرة إطاعة لدعوات الله حتى يتحدث معه . أما في هذه المرة فكان عليه أن يرحل في مأمورية جديدة غامضة . كان عليه أن يذهب ليسلم حياته بين يدي جابله . عرف موسى بأنه سيموت وحيدا ، فلم يكن يسمح لأي صديق بشري أن يخدمه في ساعاته الأخيرة . إن المنظر الذي كان أمامه ، كان منظرا يحوطه الغموض والمهابة ، فارتجف قلبه من ذلك المنظر . إن أقسى تجربة كان عليه أن يواجهها هي

تجربة انفصاله عن الشعب الذي كان يحبه ويرعاه- الشعب الذي اتحد به . في حياته ومصالحه لأمد طويل . ولكنه كان قد تعلم أن يثق بالله . فبإيمان لا يتطرق إليه الشك سلم نفسه وشعبه بين يدي الله المحب الرحيم .

فمرة أخيرة وقف موسى في محفل شعبه ، ومرة أخرى حل عليه روح الله ، وفي أسمى وأروع لغة مؤثرة نطق ببركة على كل سبط وبعد ذلك ختم بهذه البركة على الشعب كله ، «لَيْسَ مِثْلَ اللهِ يَا يَشُورُونُ . يَرْكَبُ السَّمَاءَ فِي مَعُونَتِكَ ، وَالْغَمَامَ فِي عَظَمَتِهِ . الإِلهُ الْقَدِيمُ مَلْجَأٌ ، وَالأَذْرُعُ الأَبَدِيَّةُ مِنْ تَحْتُ . فَطَرَدَ مِنْ قُدَّامِكَ الْعَدُوَّ وَقَالَ : أَهْلِكْ . فَيَسْكُنَ إِسْرَائِيلُ آمِنًا وَحْدَهُ . تَكُونُ عَيْنُ يَعْقُوبَ إِلَى أَرْضِ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ ، وَسَمَاؤُهُ تَقْطُرُ نَدًى . طُوبَاكَ يَا إِسْرَائِيلُ ! مَنْ مِثْلُكَ يَا شَعْبًا مَنْصُورًا بِالرَّبِّ ؟ تُرْسِ عَوْنِكَ» (تثنية ٣٣ : ٢٦-٢٩) .

حول موسى وجهه عن الشعب ثم بدأ يصعد الجبل وحده في سكون . صعد «إِلَى جَبَلِ نَبُو ، إِلَى رَأْسِ الْفِسْجَةِ» (تثنية ٣٤ : ١) .

وقف على تلك المرتفعة الموحشة ثم جعل يشخص بعينيه الصافيين إلى ذلك المنظر الممتد أمامه . فعلى مسافة بعيدة نحو الغرب كان البحر الكبير الأزرق ، وفي الشمال كان جبل حرمون يعلو متشامخا ، وفي الشرق سهل موآب المرتفع ، وخلفه باشان حيث كان مشهد انتصار إسرائيل ، وفي أقصى الجنوب كان يمتد القفر بسني الجوَلان الطويلة فيه .

وإذ انفرد موسى بنفسه جعل يراجع تاريخ حياته الذي كان تاريخ تقلبات ومتاعب متعددة ، منذ طرح عن نفسه الأمجاد الملكية وعرش مصر الذي كان سيجلس عليه ، ليلقي قرعته مع شعب الله المختار ، وعاد بالذاكرة إلى تلك السنين الطويلة التي كان في خلالها يرعى قطعان يثرون في البرية ، وإلى ظهور الملاك له في العليقة المشتعلة بالنار ، ودعوة الرب الموجهة إليه ليخلص إسرائيل . ثم نظر أيضا الآيات والعجائب العظيمة التي أجريت بقدرة الله لأجل الشعب المختار ، ورحمته المتأنية التي احتملتهم طوال سني اغترابهم وتمردهم في البرية . وبالرغم من كل ما عمله الله لأجلهم ، وبالرغم من كل صلوات موسى وأعماله لم يبق أمينا من بين كل ذلك الجيش الذي خرج من مصر غير اثنين من بالغي السن استحقا أن يدخلا أرض الموعد . فإذ رأى موسى نتيجة جهوده تراءى له أن حياة التجارب والتضحيات التي عاشها قد ذهبت هباء .

ومع ذلك فهو لم يندم لكونه قد تحمل كل تلك الأحمال . لقد عرف أن رسالته وعمله كانا بتعيين من الله . فحين دعي أولا ليكون قائدا للشعب وليخرجهم من تحت أثقال العبودية تراجع وتمنع عن قبول تلك المسؤولية . ولكنه منذ أخذ ذلك العمل على عاتقه لم يلقه عن كاهله ، وحتى حين اقترح عليه الرب أن يعتقه ويهلك بني إسرائيل العصاة لم يرض موسى بذلك . ومع أن تجاربه كانت عظيمة فقد كان يتمتع بدلائل خاصة على رضى الله عنه ، وقد حصل على اختبار عظيم في سني الغربة في البرية بمشاهدة مظاهر قدرة الله ومجده ، وفي شركة محبته . لقد اقتنع بأنه أحسن الاختيار . مفضلا بالأحرى أن يذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية .

وإذ ألقى نظرة إلى الخلف ، إلى اختباره كقائد لشعب الله ، رأى أن عملا واحدا خاطئا أفسد ذلك التاريخ وشوهه . فلو محيت تلك المعصية الواحدة لأحس أنه لا يرهب الموت . ثم تحقق أن التوبة والإيمان بالذبيحة الموعود بها كانا كل ما يطلبه منه الله . ومرة أخرى اعترف موسى بخطيته وطلب الغفران باسم يسوع .

والآن سمح له أن يلقي نظرة شاملة على أرض الموعد . فانبسط أمام ناظريه كل قسم من تلك البلاد ، ليس في صورة غير واضحة المعالم على مسافة بعيدة بل كان كل شيء واضحا وجليا وجميلا أمامه . وقد ظهرت أمامه تلك الأرض لا كما كانت حينئذ بل حسب الصورة التي ستصير إليها ببركة الله في ملك إسرائيل ، فبدا وكأنه ينظر إلى جنة عدن الثانية . كانت هنالك جبال يكللها أرز لبنان ، وتلال نمت عند سفوحها أشجار الزيتون ، وعطرتها رائحة أشجار الكرم ، كما رأى سهولا فسيحة ازدانت بالأزهار وكثرت فيها الثمار الغنية المشبعة . وهنا كانت أشجار النخل التي تنمو في الأقاليم الحارة ، وهناك حقول الحنطة والشعير المثقلة بالثمار ، ووديان تلمع تحت أشعة الشمس حيث تختلط موسيقى خرير الجداول بأغاريد أطيار السماء . رأى المدن العظيمة والحدائق الغناء . رأى «فَيْضِ الْبِحَارِ» والماشية ترعى على جوانب التلال ، وحتى عسل النحل البري كان يفيض من جوانب الصخور . لقد كانت أرضا جميلة جدا وغنية بثمارها ، الأمر الذي جعل موسى يصفها بوحي من روح الله فيقول : «مُبَارَكَةٌ مِنَ الرَّبِّ أَرْضُهُ ... بِنَفَائِسِ السَّمَاءِ بِالنَّدَى ، وَبِاللُّجَّةِ الرَّابِضَةِ تَحْتُ ، وَنَفَائِسِ مُغَلاَّتِ الشَّمْسِ ... وَمِنْ مَفَاخِرِ الْجِبَالِ الْقَدِيمَةِ ... وَمِنْ نَفَائِسِ الإِكَامِ الأَبَدِيَّةِ ، وَمِنْ نَفَائِسِ الأَرْضِ

وَمِلْئِهَا» (تثنية ٣٣ : ١٣-١٦) .

وقد رأى موسى الشعب المختار مستوطنا كنعان كل سبط في ملكـــه . رأى لمحـــة مـــن تاريخهم بعدما استقروا في أرض الموعد ، تلك القصة الطويلة المحزنة عن ارتدادهم المتكـور و قصاص الله الأكيد . كل ذلك انكشف أمامه . ثم رآهم مشتتين بين الأمم بســـبب خطايـــاهم ورأى المجد يزول عن إسرائيل ، ورأى المدينة العظيمة وقد أمست خرابا يبابا ، ورأى شعبها مسببين في أرض غريبة ، ورآهم يعودون بعد ذلك إلى أرض آبائهم ، وأخـــيرا يخضعــون لسلطان الرومان .

وقد سمح له أن يسير مع تيار الزمن يرى المخلص في مجيئه الأول ، فرأى يسوع طفـــلا في بيت لحم وسمع صوت ترنيم أجناد الملائكة السماويين وهم يترنمون بأناشيد الفرح والشـكر لله والسلام على الأرض . ورأى النجم الذي ظهر في السماء ليهدي المجوس القـــادمين مـــن المشرق إلى يسوع . كذلك أشرق على ذهنه نور عظيم حين تذكر تلك الكلمات النبوية القائلة : «يَبْرُزُ كَوْكَبٌ مِنْ يَعْقُوبَ ، وَيَقُومُ قَضِيبٌ مِنْ إِسْـــرَائِيلَ» (عـــدد ٢٤ : ١٧) . رأى حيـــاة الاتضاع التي عاشها المسيح في الناصرة ، وخدمة المحبة والعطف والشفاء التي قـــام بـــها . ورأى تلك الأمة المتكبرة العديمة الإيمان ترفضه . وقد أذهله أن سمعهم يتفاخرون بشريعة الله ويعظمونها في حين يحتقرون واضعها ويرفضونه . رأى يسوع على جبل الزيتون وهو يـودع المدينة التي أحبها باكيا . وإذ رأى موسى الرفض النهائي الذي كان من نصيب ذلك الشـــعب الذي قد باركته السماء ببركاتها الغنية ، ذلك الشعب الذي لأجله قد تعب وصلى وضحى ، ذلك الشعب الذي في سبيله كان موسى راضيا بأن يمحى اسمه من سفر الحياة ، وإذ سمع المســيح ينطق بتلك الكلمات المخيفة قائلا : «هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا» (متى ٢٣ : ٣٨) اعتصـــر قلبه وسكبت عيناه دموع العطف على ابن الله في أحزانه .

وقد تبع المخلص إلى جثسيماني ورأى آلامه في البستان ، والتسليم والسخرية والجلـد والصلب . ورأى موسى أنه كما رفعت الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان «لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣ : ١٥) . فامتلأ قلـب موسى حزنا وغضبا ورعبا وهو يرى الأمة اليهودية تظهر الرياء والعـــداوة الشـيطانية لفاديها السرمدي المدعو الملاك القدير الذي سار أمام آبائهم . وقد سمع صرخة المســـيح

وهو يقول : «إِلهِي ، إِلهِي ، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي ؟» كما رآه مضجعا في قبر يوسف الجديد ، وقد بدا وكأن ظلمة اليأس الداجية القاتلة قد لفّت العالم في أكفانها ، ولكنه تطلع ثانية فرأى السيد يخرج من القبر ظافرا ويصعد إلى السماء يحف به ملائكته ويسبحونه ويتعبدون له . ثم رأى الأبواب المتألقة بالنور تفتح لاستقباله ورأى أجناد السماء يرحبون برئيسهم وينشدون أناشيد الانتصار . وهناك أعلن له أنه هو نفسه سيكون واحدا ممن سيخفون لاستقبال المخلص ويفتحون له الأبواب الدهرية . وإذ تأمل في هذا المنظر أضاء وجهه بنور مقدس . وكم بدت تجاربه وتضحياته تافهة وزهيدة عند مقارنتها بما احتمله ابن الله ! وكم تبدو خفيفة بالمقارنة مع ثقل المجد الأبدي ! (٢كورنثوس ٤ : ١٧) . وسره أنه قد سمح له بأن يكون شريك آلام المسيح ولو بقدر ضئيل .

رأى موسى تلاميذ يسوع حين خرجوا حاملين إنجيله إلى العالم . ورأى أنه مع كون شعب إسرائيل «حَسَبَ الْجَسَدِ» قد أخفقوا في الحصول على النصيب الذي دعاهم الله إليه ، وفي عدم إيمانهم أخفقوا في أن يكونوا نور العالم ومع كونهم قد ازدروا رحمة الله فضاع حقهم في امتلاك بركاتهم كشعب الله المختار ، فالله لم يرفض نسل إبراهيم ، ومقاصده المجيدة التي شرع في إتمامها بواسطة إسرائيل لا بد من أن تتم . إن كل من سيصيرون أبناء الإيمان في المسيح سيحسبون نسل إبراهيم وورثة مواعيد العهد ، وكإبراهيم قد دعوا ليكونوا حراسا على شريعة الله وإنجيل ابنه ، ويعلموهما للعالم . وقد رأى موسى نور الإنجيل يشرق بواسطة تلاميذ يسوع على «الشَّعْبُ الْجَالِسُ فِي ظُلْمَةٍ» (متى ٤: ١٦) ، ورأى آلافا من الناس مِمَّن يعيشون في أراضي الأمم يتزاحمون حول لمعان إشراقه . فإذ رأى موسى ذلك تهلل وفرح بنمو إسرائيل ونجاحه .

ثم إن منظرا آخر مر أمام عينى موسى . فلقد أظهر له عمل الشيطان في تحريض اليهود على رفض المسيح ، بينما كانوا يعترفون بأنهم يكرمون شريعة أبيه . وقد رأى الآن العالم المسيحي واقعا تحت سلطان خدعة مشابهة ، إذ يعترفون بقبولهم المسيح بينما هم يرفضون شريعة الله . لقد سمع من أفواه الكهنة والشيوخ تلك الصرخة الحانقة المجنونة وهم يقولون : «خُذْهُ ! خُذْهُ ! اصْلِبْهُ !» والآن ها هو يسمع من أفواه المدعوين معلمي المسيحية هذه الصرخة «خذوا الشريعة» رأى السبت مدوسا تحت الأقدام ورأى في

مكانه دستورا زائفا . ومرة أخرى امتلأ موسى دهشة وحيرة ورعبا ، إذ كيف يمكن أولئك الذين آمنوا بالمسيح أن يرفضوا الشريعة التي نطق بها بفمه على الجبل المقدس ؟ وكيف يمكن لأي إنسان يخاف الله أن يطرح جانبا تلك الشريعة التي هي أساس حكمه في السماء وعلى الأرض ؟ وقد رأى موسى بفرح أن شريعة الله لا تزال مكرمة وممجدة بواسطة أقلية أمينة ، ورأى الصراع الأخير العظيم الذي تثيره قوات الأرض لإهلاك من يحفظون شريعة الله ، وتطلع إلى الأمام إلى الوقت الذي فيه سيقوم الله ليعاقب سكان الأرض على إثمهم ، وأولئك الذين اتقوا اسم الرب سيخبأون ويسترون في يوم غضبه . كذلك سمع عهد سلام الله مع أولئك الذين حفظوا شريعته حين ينطق بصوته من مقدسه وتتزعزع السموات والأرض . وقد رأى مجيء المسيح الثاني في مجده والأموات الأبرار يقامون إلى حياة الخلود ، ورأى الأبرار الأحياء يتغيرون دون أن يذوقوا الموت ، وكلا الفريقين يصعدان معا بأغاني الفرح إلى مدينة الله .

انكشف لعيني موسى منظر آخر – فرأى الأرض وقد تحررت من اللعنة وإذ بها تبدو أجمل من أرض الموعد التي رآها ممتدة أمامه قبيل ذلك ، حيث لا خطية والموت لا يمكن أن يدخل إلى هناك . وهناك سيكون موطن شعوب المخلصين . شاهد موسى هذا المنظر بفرح لا ينطق به ، كما شاهد إتمام خلاص أمجد مما كان يمكن أن تصوره أسمى انتظاراته . فبعدما انتهت إلى الأبد فترة اغترابهم على الأرض سيدخل إسرائيل الله أخيرا إلى الأرض الجيدة .

ثم تلاشت الرؤيا واستقرت عيناه على أرض كنعان ممتدة أمامه على مسافة بعيدة . وكمحارب متعب اضطجع ليستريح «فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ . وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ . وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ» (تثنية ٣٤ : ٥،٦) . إن كثيرين ممن لم يكونوا يرغبون في الإصغاء إلى إرشادات موسى أو الالتفات إليها حين كان معهم ، هؤلاء كان يمكن أن يتعرضوا لخطر عبادة الأوثان ويقدموا عبادتهم وسجودهم لجسده العديم الحياة لو عرفوا مكان قبره . فلهذا السبب أخفي قبره عن عيون الناس . ولكن ملائكة الله دفنوا جثمان خادمه الأمين ووقفوا يحرسون قبره في ذلك المكان الموحش .

«وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ ، فِي جَمِيعِ الآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ الَّتِي أَرْسَلَهُ الرَّبُّ لِيَعْمَلَهَا ... وَفِي كُلِّ الْيَدِ الشَّدِيدَةِ وَكُلِّ الْمَخَاوِفِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي صَنَعَهَا مُوسَى أَمَامَ أَعْيُنِ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ» (تثنية ٣٤ : ١٠-١٢) .

ولولا تلك الخطية الواحدة التي شوهت حياة موسى ، حين لم يعد المجد لله عند إخراج الماء من الصخرة في قادش لدخل أرض الموعد وأُصعد إلى إله السماء بدون أن يرى الموت . ولكنه لم يكن ليلبث في قبره طويلا ، فإن المسيح نفسه مع الملائكة الذين قد دفنوه نزل من السماء ليدعو ذلك القديس الراقد ليقوم . لقد سر الشيطان سرورا عظيما لأنه قد أفلح في جعل موسى يخطئ إلى الله فصار تحت سلطان الموت . ثم أعلن ذلك الخصم العظيم أن حكم الله القائل : «أَنَّكَ تُرَابٌ ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تكوين ٣ : ١٩) قد أعطاه السلطان على كل الأموات . إن سلطان الهاوية لم يكن قد نقض بعد ، فادعى الشيطان أن كل الراقدين في قبورهم هم أسراه ولن يطلق سراحهم من سجنه المظلم .

ولأول مرة كان المسيح مزمعا أن يهب الحياة للموتى ، وإذ اقترب رئيس الحياة وملائكته المتلألئون بالضياء من القبر ارتعب الشيطان من عظمة جلال وبهاء تلك الشخصية الفريدة . فحشر ملائكته الأشرار ووقف يتحدى السيد الذي أغار على ذلك الإقليم الذي ادعى هو ملكيته ، وجعل يفتخر قائلا إن خادم الله (موسى) قد صار أسيره . وأعلن قائلا إنه حتى موسى نفسه لم يستطيع أن يحفظ شريعة الله إذ أخذ لنفسه المجد الذي هو من حق الرب- وهذه هي نفس الخطية التي طردت الشيطان من السماء . ولكون موسى قد تعدى الشريعة فقد صار تحت سلطان الشيطان . ثم ردد ذلك الخائن الأعظم التهم الأصلية التي كان قد قدمها ضد حكم الله وكرر شكواه من ظلم الله له .

ولم يتنازل المسيح لمجادلة الشيطان . كان يمكنه أن يجابهه بالأعمال القاسية التي قد أحدثتها مخاتلاته وأكاذيبه في السماء والتي قد تسببت في هلاك عدد غفير من سكانها ، وكان يستطيع أن يشير إلى أكاذيبه التي فاه بها في جنة عدن والتي نتجت عنها خطية آدم وجلبت الموت على الجنس البشري . وكان بإمكانه أن يذكر الشيطان أنه بسبب تجربته لإسرائيل ليتذمروا ويتمردوا ضاقت نفس قائدهم ونفد صبره المجهد فباغته ذلك العدو على غير استعداد فسقط في الخطية التي أوقعته تحت سلطان الموت . ولكن المسيح أثار

في كل ذلك إلى أبيه قائلا : «لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ !» (يهوذا ٩) . إن المخلص لم يشـتبك فـي جدال مع خصمه ولكنه في تلك الساعة وفي ذلك المكان بدأ عمله في سحق سلطان عـدوه الساقط وفي إخراج الميت إلى الحياة . وهكذا ظهر برهان لم يستطع الشيطان أن يجـادل فيه ، وهو برهان تفوق ابن الله ، فتحققت القيامة إلى الأبد ، حيث سلبت مـن الشـيطان غنيمته ، وسيحيا الأموات الأبرار ثانية .

كان من نتائج الخطية أن وقع موسى تحت سلطان الشيطان . وحسب استحقاقه الشـخصي كان أسير الموت شرعا ولكنه أقيم لحياة الخلود محتفظا بلقبه ومركزه باسم الفادي . لقد خـرج موسى من القبر ممجدا وصعد في صحبة محرره إلى مدينة الله .

إن عدالة الله ومحبته لم تظهرا بكيفية هكذا مدهشة كما ظهرت في معاملاته لموسـى ، إذا استثنينا ذبيحة المسيح . لقد حرم الله موسى من دخول كنعان ليعلم النـاس درسـا لا ينسى– وهو أنه يطلب طاعة كاملة ، وليحذر الناس من أن ينسبوا لأنفسهم المجد الـذي لا يليق بغير الله خالقهم . إنه لم يجب موسى إلى طلبه حين توسل اليه حتى يسـمح لـه أن يأخذ نصيبا في ميراث إسرائيل ولكنه لم ينس عبده ولا هجره . لقد عرف إلـه السـماء الآلام التي تحملها موسى ، كما لاحظ كل الخدمات الأمينة التي قام بـها مـدى السـنين الطوال ، سني المصارعات والتجارب ، وعلى رأس الفسجة دعا الله موسى إلى مـيراث أمجد بما لا يقاس من كنعان الأرضية .

كان موسى حاضرا على جبل التجلي مع إيليا الذي كان قد أصعد إلى السماء حيـا . وكانا قد أرسلا حاملين للنور والمجد من الآب لابنه . وهكذا أجيبت صلاة موسى التـي كان قد قدمها منذ مئات السنين ، فوقف على «الجبل المقدس» في داخل مـيراث شـعب الله ، شاهدا لذاك الذي تركزت فيه كل المواعيد المعطاة لإسرائيل . هذا كان آخر منظـر انكشف للعين البشرية من تاريخ ذلك الرجل الذي أكرمته السماء ذلك الإكرام العظيم .

كان موسى رمزا للمسيح ، وهو نفسه أعلن لإسرائيل قائلا : «يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيًّـا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي . لَهُ تَسْمَعُونَ» (تثنية ١٨ : ١٥) . فرأى الله أنه من المناسـب أن يتهذب موسى في مدرسة التجارب والآلام والفقر قبلما يصير أهلا لأن يقـود جمـوع إسرائيل إلى كنعان الأرضية ، كما أن إسرائيل الله السائحين في طريقـهم إلـى كنعـان

السماوية لهم قائد لم تكن به حاجة إلى أي تعليم بشري لإعداده لرسالته كقائد إلهي ، ومع ذلك فقد كمل بالآلام ، «لأَنَّهُ فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجَرَّبًا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجَرَّبِينَ» (عبرانيين ٢ : ١٠، ١٨) . لم يظهر في حياة فادينا أي ضعف أو نقص بشري ومع ذلك فقد مات ليضمن دخولنا إلى أرض الموعد .

«وَمُوسَى كَانَ أَمِينًا فِي كُلِّ بَيْتِهِ كَخَادِمٍ ، شَهَادَةً لِلْعَتِيدِ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِهِ . وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَكَابْنٍ عَلَى بَيْتِهِ . وَبَيْتُهُ نَحْنُ إِنْ تَمَسَّكْنَا بِثِقَةِ الرَّجَاءِ وَافْتِخَارِهِ ثَابِتَةً إِلَى النِّهَايَةِ» (عبرانيين ٣ : ٥، ٦) .

الفصل الرابع والأربعون

عبور الأردن

لقد ناح الإسرائيليون نوحا عظيما على قائدهم الراحل ، وخصصت ثلاثون يوما لإجـــراء خدمات خاصة إحياء لذكراه . إنهم لم يدركوا قيمة نصائحه وإرشاداته السديدة وحنانه الأبـــوي وإيمانه الوطيد حتى أخذ من بينهم ، وها هم الآن يذكرون بوعي جديد وتقدير أعمق الـــدروس الغالية التي لقنهم إياها حين كان لم يزل معهم .

ولئن كان موسى قد مات فإن تأثيره لم يمت معه ، بل كان لا بد له أن يدوم ويزدهر وينمو في قلوب شعبه . إن ذكرى تلك الحياة المقدسة غير المحبة لذاتها كان لا بد من أن تبقى حيـــة بقوة الإقناع الصامتة ، ومشكِّلة حياة الناس حتى أولئك الذين رفضوا تعاليمه وهو حي بينـــهم . فكما أن نور الشمس يضيء قمم الجبال إبان غروبها حتى بعد اختفائها خلف التـــلال بوقـــت طويل ، كذلك أعمال الناس القديسين الأطهار الصالحين تضيء بنورها على العـــالم ، لمـــدة سنين طويلة بعد موتهم . إن أعمالهم وأقوالهم وأمثالهم ستظل باقية أبد الدهـــر . «الصِّدِّيـــقُ يَكُونُ لِذِكْرٍ أَبَدِيٍّ» (مزمور ١١٢ : ٦) .

ومع أن قلوب الشعب كانت مفعمة حزنا على فداحة خسارتهم ، فقد كانوا يعلمون أنهم لـــم يتركوا وحدهم ، لأن عمود السحاب ظل مستقرا على خيمة الشهادة نهارا وعمود النار ليـــلا ، فكان ذلك تأكيدا بأن الله سيظل مرشدا لهم ومعينا إذا كانوا يسيرون في طريق وصاياه .

كان يشوع آنئذٍ هو قائد إسرائيل المعترف به ، ومشهورا كرجل حرب . وكانت مواهبـــه وفضائله ذات قيمة عظيمة ، وعلى الخصوص في هذا الدور من تاريخ شعب الله . كان رجلا شجاعا صادق العزيمة مثابرا ، متأهبا لكل طارئ ونزيها ، وغير عابئ بمصالحه الشـــخصية حين يكون مهتما بمصالح من هم تحت رعايته ، وفوق الكل كان ملهما بالإيمان الحي بـــالله– هذه صفات الرجل الذي اختار الله ليقود جيوش إسرائيل في دخول أرض الموعد . وفي أثنـــاء

تغربهم في البرية كان يشوع بمثابة رئيس الوزراء لموسى . وبولائه الهادئ غير المتصنع ، وبثباته حين كان غيره مترددين ، وبعزمه على حفظ الحق في وجه الخطر ، بكل هذه برهن على أهليته لأن يكون خلفا لموسى حتى قبلما دعاه الله ليشغل هذا المركز .

لقد نظر يشوع إلى الأمام ، إلى الحمل الموكول اليه بجزع وهو غير واثق بنفسه . إلا أن مخاوفه تلاشت حين أكد له الرب قائلا : «كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ . لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ ... لأَنَّكَ أَنْتَ تَقْسِمُ لِهذَا الشَّعْبِ الأَرْضَ الَّتِي حَلَفْتُ لآبَائِهِمْ أَنْ أُعْطِيَهُمْ» «كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أَعْطَيْتُهُ ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى» (انظر يشوع ١-٤) إن أملاكهم امتدت إلى مرتفعات لبنان بعيدا وإلى شواطئ البحر الكبير وإلى شطوط الفرات شرقا .

وقدم الرب ليشوع تشجيعا آخر حين قال له : «إِنَّمَا كُنْ مُتَشَدِّدًا ، وَتَشَجَّعْ جِدًّا لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ الشَّرِيعَةِ الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا مُوسَى عَبْدِي» ثم أمره الرب قائلا : «لاَ يَبْرَحْ سِفْرُ هذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ فَمِكَ ، بَلْ تَلْهَجُ فِيهِ نَهَارًا وَلَيْلاً» «لاَ تَمِلْ عَنْهَا يَمِينًا وَلاَ شِمَالاً ... لأَنَّكَ حِينَئِذٍ تُصْلِحُ طَرِيقَكَ وَحِينَئِذٍ تُفْلِحُ» .

كان الإسرائيليون لا يزالون حالين في الجانب الشرقي من الأردن ، وكانت هذه أول عقبة تحول بينهم وبين احتلال كنعان ، فكانت أول رسالة من الله إلى يشوع هي هذه : «قُمِ اعْبُرْ هذَا الأُرْدُنَّ أَنْتَ وَكُلُّ هذَا الشَّعْبِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ» . لم تعط لهم أية تعليمات خاصة بالكيفية التي بها يعبرون الأردن . ومع ذلك فقد عرف يشوع أنه مهما يكن أمر الله فلابد أن يفتح لشعبه طريقا للعبور . وبهذا الإيمان بدأ ذلك القائد الشجاع يعد العدة للتقدم إلى الأمام .

وعلى مسافة أميال قليلة من النهر ، مقابل المكان الذي كان الإسرائيليون حالين فيه كانت مدينة أريحا العظيمة والمنيعة . لقد كانت هذه المدينة في الواقع مفتاح البلاد كلها . وكان يمكن أن تكون عقبة كأداء في سبيل تقدم إسرائيل . لهذا أرسل يشوع شابَّين إلى هذه المدينة كجاسوسين ليعايناها ويعرفا شيئا عن سكانها ومنافذها وقوة استحكاماتها . وإذ كان سكان المدينة مرتعبين وخائفين كانوا يقظين وحذرين على الدوام ، فكان هذان الرسولان معرضين لخطر عظيم . ومع ذلك فقد خبأتهما راحاب التي كانت من مستوطني المدينة وتعرضت

للموت بسببهما . وفي مقابل هذه الشفقة وهذا الإحسان من جانب راحاب فقد وعدهـــا ذانــك الشابان بالحماية عند أخذ المدينة .

عاد الجاسوسان إلى المحلة بسلام يحملان هذا الخبر : «إِنَّ الرَّبَّ قَدْ دَفَعَ بِيَدِنَـــا الأَرْضَ كُلَّهَا ، وَقَدْ ذَابَ كُلُّ سُكَّانِ الأَرْضِ بِسَبَبِنَا» . لقد قيل لهما في أريحا : «لأَنَّنَا قَدْ سَمِعْنَا كَيْـفَ يَبَّسَ الرَّبُّ مِيَاهَ بَحْرِ سُوفَ قُدَّامَكُمْ عِنْدَ خُرُوجِكُمْ مِنْ مِصْـــرَ ، وَمَـــا عَمِلْتُمُــوهُ بِمَلِكَـــيِ الأَمُورِيِّينَ اللَّذَيْنِ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ : سِيحُونَ وَعُوجَ ، اللَّذَيْنِ حَرَّمْتُمُوهُمَا . سَمِعْنَا فَذَابَـــتْ قُلُوبُنَا وَلَمْ تَبْقَ بَعْدُ رُوحٌ فِي إِنْسَانٍ بِسَبَبِكُمْ ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ اللهُ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَـــوْقُ وَعَلَى الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ» .

فصدرت الأوامر إلى الشعب بالتأهب للتقدم ، فكان على الشعب أن يعدوا زادا يكفيهم ثلاثة أيام ، وكان على الجيش أن يتأهب للقتال . وبكل فرح أذعن الشعب لكل أوامر قائدهم وأكــدوا له ثقتهم ومعاضدتهم ، وقالوا له : «كُلَّ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ نَعْمَلُهُ ، وَحَيْثُمَا تُرْسِلْنَا نَذْهَبْ . حَسَــبَ كُلِّ مَا سَمِعْنَا لِمُوسَى نَسْمَعُ لَكَ . إِنَّمَا الرَّبُّ إِلهُكَ يَكُونُ مَعَكَ كَمَا كَانَ مَعَ مُوسَى» .

بعدما تركوا مكانهم في أحراش شطيم نزل الشعب إلى حافة الأردن . ومع ذلك فقد عـرف الجميع أنه إذا لم يتقدم الرب لمعونتهم فلن يستطيعوا العبور ، وفي هذا الوقت من السنة ، فـــي فصل الربيع ، كانت الثلوج التي على الجبال قد ذابت ففاضت مياه الأردن على شطوطه وغدا من المستحيل على الشعب العبور من المخاوض المعروفة . غير أن الله قصد أن يكون العبور أمرا عجائبيا . فيشوع إذ كان قد تلقى تعليمات من الرب أمر الشعب أن يتقدمـــوا ويطرحـــوا عنهم كل خطاياهم ويتخلصوا من كل قذارة خارجية . «لأَنَّ الرَّبَّ يَعْمَلُ غَـــدًا فِـــي وَسَــطِكُمْ عَجَائِبَ» .

وكان على «تَابُوت الْعَهْدِ» أن يتقدم أمام كل الجماعة . وحين يرون علامة حضور الـــرب (التابوت) محمولا على أكتاف الكهنة ويتحرك من مكانه في وسط المحلة ويتقدم إلـــى النـــهر فعليهم هم أيضا أن يتحركوا من أماكنهم «ويسيروا وراءه» ، وقد سبق يشوع فأنبأ بكل دقة عما سيحدث بشأن عبورهم فقال : «بِهذَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ الْحَيَّ فِي وَسَطِكُمْ ، وَطَرْدًا يَطْرُدُ مِـــنْ أَمَامِكُمُ الْكَنْعَانِيِّينَ ... هُوَذَا تَابُوتُ عَهْدِ سَيِّدِ كُلِّ الأَرْضِ عَابِرٌ أَمَامَكُمْ فِي الأُرْدُنِّ» .

وفي الوقت المحدد بدأوا في التقدم إلى الأمام ، ففي المقدمة كان التابوت محمولا على أكتاف الكهنة ، وكان على الشعب أن يتمهلوا في سيرهم بحيث تكون بينهم وبين التابوت مسافة تزيد عن نصف الميل . وقد راقب الجميع باهتمام وسكون الكهنة حاملي التابوت وهم يتقدمون نازلين إلى ضفة الأردن . رأوهم وهم يتقدمون بخطوات ثابتة نحو النهر الغاضب الصاخب وعلى أكتافهم التابوت حتى انغمست أرجل الكهنة في المياه ، وفجأة تراجعت مياه النهر المنحدرة من أعلى ، بينما استمر جريان الماء في ناحيته السفلى ، وظهر قاعه .

وامتثالا لأمر الرب تقدم الكهنة إلى وسط النهر ووقفوا هناك بينما عبر الشعب النهر إلى الضفة لأخرى . وهكذا انطبعت على أذهان الشعب هذه الحقيقة وهي أن القوة التي أوقفت مياه نهر الأردن هي أن التي فتحت لآبائهم طريقا في وسط مياه بحر سوف منذ أربعين عاما مضت . فلما عبر كل الشعب عبر التابوت أيضا محمولا إلى الضفة الغربية . وما إن وصل التابوت إلى مكان أمين «وَاجْتُذِبَتْ بُطُونُ أَقْدَامِ الْكَهَنَةِ إِلَى الْيَابِسَةِ» حتى أطلق سراح المياه المحتبسة ، وجرت كما من قبل نهرا عظيما لا يقاوم في مجراه الطبيعي .

ولم تكن الأجيال اللاحقة لتترك بلا شاهد يشهد لصدق هذه الأعجوبة العظيمة . وإذ كان الكهنة حاملو التابوت واقفين في وسط الأردن ، فإن اثني عشر رجلا سبق اختيارهم ، رجلا من كل سبط ، أخذ كل منهم حجرا من قاع النهر حيث كان الكهنة واقفين وحملوها إلى الضفة الغربية . هذه الأحجار كان يجب أن تنصب تذكارا عند أول مكان يحلون فيه عبر النهر . وقد أمر الشعب بأن يرددوا على مسامع أولادهم وأولاد أولادهم قصة النجاة التي صنعها الرب لأجلهم كما قال يشوع : «لِكَيْ تَعْلَمَ جَمِيعُ شُعُوبِ الأَرْضِ يَدَ الرَّبِّ أَنَّهَا قَوِيَّةٌ ، لِكَيْ تَخَافُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ» .

كان تأثير هذه العجيبة عظيم الأهمية جدا على العبرانيين وعلى أعدائهم . فلقد كان تأكيدا لإسرائيل بدوام وجود الرب معهم وحراسته لهم ، وبرهانا على أنه سيعمل لأجلهم بواسطة يشوع كما قد عمل بواسطة موسى . وقد كانوا بحاجة إلى هذا التأكيد اليقين لتتشدد قلوبهم وهم يتقدمون لغزو البلاد– تلك المأمورية الهائلة التي قد ضعف وترنح

إيمان أسلافهم أمامها قبل ذلك بأربعين عاما . وقبل عبور النهر أعلن الرب ليشوع قائلا : «الْيَوْمَ أَبْتَدِئُ أُعَظِّمُكَ فِي أَعْيُنِ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ لِكَيْ يَعْلَمُوا أَنِّي كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ» وقد تممت النتيجة الوعد . «فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَظَّمَ الرَّبُّ يَشُوعَ فِي أَعْيُنِ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ ، فَهَابُوهُ كَمَا هَابُوا مُوسَى كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ» .

إن إظهار قدرة الله هذه في جانب إسرائيل كان القصد منه أيضا أن يزيد الخوف الذي كانت الأمم المحيطة بهم تنظر به إليهم ، وبذلك يعد الطريق لانتصارهم الأسهل الكامل فعندما وصلت إلى مسامع ملوك الأموريين والكنعانيين أخبار شق مياه الأردن أمام بنى إسرائيل ذابت قلوبهم خوفا وهلعا . لقد قتل العبرانيون خمسة ملوك مديان وسيحون ملك الأموريين القوي وعوج ملك باشان ، والآن فإن عبورهم في وسط نهر الأردن بمياهه الفائضة وتياره العنيف ملأ قلوب كل الأمم المحيطة بهم رعبا . فمن وجهة نظر الكنعانيين والإسرائيليين ويشوع نفسه قدم برهان لا يمكن تكذيبه ، على أن الله الحي ملك السماء والأرض كان في وسط شعبه فلن يهملهم ولن يتركهم .

وبعدما تجاوز الشعب الأردن بمسافة قصيرة أقاموا محلتهم في كنعان لأول مرة . وفي هذا المكان «خَتَنَ (يشوع) بَنِي إِسْرَائِيلَ» «فَحَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْجِلْجَالِ ، وَعَمِلُوا الْفِصْحَ» (يشوع ٥ : ٣، ١٠، ٩) إن إرجاء ممارسة طقس الختان منذ عصى الشعب الله في قادش كان شهادة دائمة لإسرائيل على أن عهدهم مع الله الذي كان الختان رمزا له قد نقض ، وانقطاعهم عن ممارسة الفصح الذي كان تذكارا لنجاتهم من مصر كان برهانا على سخط الرب عليهم لاشتياقهم للعودة إلى أرض العبودية . أما الآن فها قد انقضت سنو الرفض ، ومرة أخرى اعترف الرب بأن إسرائيل هم شعبه فأعيدت علامة العهد ، وأجريت فريضة الختان لكل الشعب الذين ولدوا في البرية . وأعلن الله ليشوع قائلا : «الْيَوْمَ قَدْ دَحْرَجْتُ عَنْكُمْ عَارَ مِصْرَ» وإشارة إلى هذا سمي المكان الذي حلوا فيه «الْجِلْجَالَ» أي دحرجة .

لقد عيرت الأمم الوثنية الرب وشعبه لأن أولئك العبرانيين قد أخفقوا في امتلاك كنعان كما كانوا ينتظرون حال خروجهم من مصر . وقد انتصر أعداؤهم وشمتوا بهم لأن بني إسرائيل تاهوا في البرية تلك السنين الطوال وسخروا منهم قائلين إن إله العبرانيين عاجز عن الإتيان

485,486

بهم إلى أرض الموعد . أما الآن فقد أعلن الرب قدرته ورضاه إذ شق مياه الأردن أمام شعبه ولذلك لم يعد الأعداء يعيرونهم .

«فِي الْيَوْمِ الرَّابعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ مَسَاءً» عملوا الفصح في عربات أريحا ، «وَأَكَلُوا مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ فِي الْغَدِ بَعْدَ الْفِصْحِ فَطِيرًا وَفَرِيكًا فِي نَفْسِ ذلِكَ الْيَوْمِ . وَانْقَطَعَ الْمَنُّ فِي الْغَدِ عِنْدَ أَكْلِهِمْ مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مَنٌّ . فَأَكَلُوا مِنْ مَحْصُولِ أَرْضِ كَنْعَانَ» (يشوع ٥ : ٩-١٢) لقد انقضت سنو اغترابهم الطويلة في الصحراء ، ووطئت أقدامهم أرض الموعد أخيراً .

الفصل الخامس والأربعون

سقوط أريحا

لقد دخل العبرانيون كنعان ولكنهم لم يخضعوها ، وكان يبدو للعين البشرية أن الصراع في سبيل امتلاك الأرض سيكون طويلا وشاقا ومريرا ، إذ كان يقطن البلاد أقوام أشداء ، وقد وقفوا على تمام الأهبة لصد أي عدوان يقوم به الغزاة على أراضيهم . وقفت تلك القبائل صفا واحدا إذ وحد بينها الخوف من وقوع خطر شامل ، وكانوا متفوقين على الغزاة بخيلهم ومركباتهم الحربية الحديدية ومعرفتهم للبلاد وتدريبهم الحربي . زد على ذلك أن في البلاد معاقل وحصونا «وَمُدُنًا عَظِيمَةً وَمُحَصَّنَةً إِلَى السَّمَاءِ» (تثنية ٩ : ١) . ولكن الإسرائيليين لم يكونوا يؤملون في النصرة والنجاح في ذلك الصراع الموشك أن ينشب إلا لكونهم واثقين بقوة خارجة عنهم ستهب لنجدتهم .

ومن أمنع المدن الحصينة في البلاد التي وقفت أمامهم تماما كانت مدينة أريحا العظيمة والغنية ، على مسافة قصيرة من محلتهم في الجلجال . فعلى أطراف سهل خصيب غني بمختلف ثمار المناطق الحارة ، حيث كانت القصور والهياكل التي كانت مباءة للترف والرذيلة وقفت تلك المدينة المتشامخة خلف استحكاماتها الهائلة تتحدى إله إسرائيل . كانت أريحا من المراكز الرئيسية لعبادة الأوثان وكانت مكرسة لعبادة عشتاروث إلهة القمر . وفي الهيكل تركزت كل القبائح ، وأشنع وأفسد وأحط ما كانت عليه عبادة الكنعانيين . إن بني إسرائيل الذين ما زالوا يذكرون النتائج المخيفة الناجمة عن خطيتهم التي ارتكبوها عند بعل فغور كانوا ينظرون إلى هذه المدينة الوثنية باشمئزاز ورعب .

وقد رأى يشوع أن الانتصار على أريحا سيكون الخطوة الأولى في غزو كنعان . ولكنه طلب قبل كل شيء التأكد من إرشاد الله . فمنح له ما طلب ، فإذ خرج من المحلة لأجل التأمل والصلاة طالبا من إله إسرائيل أن يسير في طليعة شعبه رأى أمامه رجل حرب مسلحا طويل القامة وله هيئة مهيبة «وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ بِيَدِهِ» وجوابا على سؤال يشوع

القائل : «هَلْ لَنَا أَنْتَ أَوْ لأَعدَائِنَا ؟» جاوبه بقوله : «كَلاَّ ، بَلْ أَنَا رَئِيسُ جُنْدِ الـوَّبِّ . الآنَ أَتَيْتُ» (يشوع ٥: ١٣-١٥ والأصحاحان ٧،٦) وقد صدر إليه الأمر الـذي صـدر إلـى موسى في حوريب . «اخْلَعْ نَعْلَكَ مِنْ رِجْلِكَ ، لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِـفٌ عَلَيْـهِ هُـوَ مُقَدَّسٌ» . وهكذا انكشفت ليشوع حقيقة ذلك الغريب المجهول . لقد كان المسيح الممجد هو الذي كان واقفا قبالة قائد إسرائيل ، فسقط يشوع على وجهه وهو مرتعب وسـجد لـه . فسمعه يقول له مؤكدا : «انْظُرْ . قَدْ دَفَعْتُ بِيَدِكَ أَرِيحَا وَمَلِكَهَا ، جَبَـابِرَةَ الْبَـأْسِ» . ثـم أعطاه التعليمات اللازمة للاستيلاء على المدينة .

وامتثالا للأمر الإلهي صف يشوع جيوش إسرائيل الذين لم يكن عليـهم أن يقومـوا بـأي هجوم ، بل كل ما طلب منهم هو أن يدوروا دائرة في المدينة حاملين تابوت الله ونافخين فـي الأبواق . سار المحاربون في المقدمة وكانوا جماعة منتخبة ، لا ليغزوا المدينة الآن بمهارتـهم أو شجاعتهم بل ليطيعوا الأوامر الصادرة إليهم من الله ، ويتبع هؤلاء سبعة كهنـة يحملـون أبواق الهتاف ، وبعد ذلك أتى تابوت الله تحيط به هالة من المجد الإلهي وهو محمـول علـى أكتاف الكهنة اللابسين اللباس الرسمي الذي يدل على وظيفتهم المقدسة . وتبع هـؤلاء جيـش إسرائيل ، وكل سبط يسير تحت رايته . هذا هو الموكب الذي دار حول المدينة المحكوم عليها بالهلاك . لم يكن يسمع سوى وقع أقدام الجبابرة وأصوات الأبواق التي كان يرن صداها فـي جوانب التلال وفي شوارع أريحا . فلما أتموا الدورة عاد رجال الجيش إلى خيامهم صـامتين ووضع التابوت في مكانه في خيمة الاجتماع .

كان حراس المدينة يراقبون كل حركة بدهشة وهلع وأخبروا السلطات الحاكمة بكـل شيء . لم يكونوا يدرون شيئا عن معنى كل هذا العرض ، ولكنهم عندما شاهدوا الجيـش العظيم يدور حول المدينة مرة كل يوم ومعهم التابوت والكهنة الملازمون له مـلأ سـر المشهد قلوب كهنة المدينة وشعبها رعبا . ومرة أخرى فحصوا مراكز دفاعـهم واثقيـن بأنها ستصمد أمام أعنف الهجمات . وقد سخر كثيرون منهم من الظن بـأن أي ضـرر يمكن أن يلحق بهم من هذه المظاهرات الشاذة ، بينما خاف آخرون وهم يرون الموكـب يدور دائرة المدينة مرة كل يوم . لقد ذكروا أن البحر الأحمر قد انشق يوما أمـام هـذا الشعب ، وأن مياه نهر الأردن قد انفلقت فانفتح لهم فيه طريق وعبروا على اليابسة . ولم يكونوا يعلمون أية عجائب أخرى يمكن أن يصنعها الله لهم .

وطوال ستة أيام ظل الشعب يدورون حول المدينة مرة كل يوم . فلما بزغ فجر اليوم السابع صف يشوع جيوش الرب . وفي هذا اليوم قيل لهم أن يدوروا دائرة أريحا سبع مرات ، وعندما يسمعون أصوات الأبواق العظيمة ، عليهم أن يهتفوا بصوت عظيم لأن الرب قد أعطاهم المدينة .

دار ذلك الجيش العظيم بوقار حول الأسوار المرصدة ، وكان الجميع صامتين ، فلم يكن يسمع غير وقع أقدامهم المنتظم وصوت البوق ، في أحيان ، مزعجا سكون ساعات الصباح الباكر . وقد بدا كأن أسوار المدينة المبنية من الأحجار المتينة تتحدى أولئك المحاصرين . وكان حراس الأسوار يراقبون ، وقد وقفوا على أطراف أصابعهم ليروا الشعب بعد ما داروا حول المدينة الجولة الأولى وإذ بهم يدورون حولها مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة . ترى ما الغرض من هذه الحركات الغامضة ؟ وأية حادثة عظيمة تتهددهم ؟ لم يكن لهم أن ينتظروا وقتا أطول ففي نهاية الجولة السابعة توقف الموكب . وإذا بالأبواق التي صمتت أصواتها بعض الوقت تنطلق أصواتها عالية مدوية فتزلزل الأرض ، وإذا بالأسوار المبنية بالأحجار المتينة وما فيها من حصون هائلة واستحكامات تهتز وتسقط من أساسها وبصوت تحطيم هائل تصير حطاما ، فَشلَّ الرعب تفكير سكان أريحا وقواهم ، وتقدمت جيوش إسرائيل وامتلكت المدينة .

إن الإسرائيليين لم يحرزوا الانتصار بقوتهم ولكن النصرة كانت بجملتها من الرب . وكباكورة الأرض كان ينبغي أن تكرس المدينة بكل ما فيها ذبيحة لله ، كما كان ينبغي أن ينطبع هذا الفكر على عقول بني إسرائيل وهو أنهم في غزوهم لكنعان لم يكونوا يحاربون لأجل أنفسهم ، ولكن على اعتبار أنهم مجرد آلات لتنفيذ إرادة الله ، لا سعيا وراء الغنى وتمجيد الذات ، بل ليطلبوا مجد الرب ملكهم . وقبل احتلال المدينة صدر أمر إلى الشعب يقول : «فَتَكُونُ الْمَدِينَةُ وَكُلُّ مَا فِيهَا مُحَرَّمًا لِلرَّبِّ ... فَاحْتَرِزُوا مِنَ الْحَرَامِ لِئَلاَّ تُحَرَّمُوا ... وَتَجْعَلُوا مَحَلَّةَ إِسْرَائِيلَ مُحَرَّمَةً وَتُكَدِّرُوهَا» .

وقد حرّم كل سكان المدينة مع كل الكائنات الحية فيها «مِنْ رَجُل وَامْرَأَةٍ ، مِنْ طِفْل وَشَيْخٍ ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ» ، ولم يبق غير راحاب الأمينة وبيتها إنجازاً لوعد الجاسوسين لها . أما المدينة نفسها فقد أضرمت فيها النار فاحترقت قصورها وهياكلها ومساكنها الفخمة بكل ما تحويه من نفائس وغنائم وبكل ما فيها من أنسجة غالية وحلل جميلة-

هذه كلها ذهبت طعاما للنار وكل ما لا يمكن أن تحرقه النار . «الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَآنِيَةِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ تَكُونُ قُدْسًا لِلرَّبِّ وَتَدْخُلُ فِي خِزَانَةِ الرَّبِّ» . حتى نفس موقع المدينة حلت عليه اللعنة . فلم يكن ليعاد بناء أريحا مرة أخرى كمعقل حصين ، وقد نطق بويلات وتهديدات رهيبة على أي إنسان يجرؤ على إعادة بناء أسوارها التي قد هدمت بقوة الله . ثم نطق يشوع بهذا الإعلان على مسامع كل إسرائيل : «مَلْعُونٌ قُدَّامَ الرَّبِّ الرَّجُلُ الَّذِي يَقُومُ وَيَبْنِي هذِهِ الْمَدِينَةَ أَرِيحَا . بِبِكْرِهِ يُؤَسِّسُهَا وَبِصَغِيرِهِ يَنْصِبُ أَبْوَابَهَا» .

كان الهلاك الشامل الذي حل بشعب أريحا إنجازا لأوامر الرب التي كان قد أصدرها إلى الشعب عن يد موسى من قبل والخاصة بسكان كنعان حيث يقول «وَضَرَبْتَهُمْ ، فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ» «وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ ... فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا» (تثنية ٧ : ٢، ٢٠ : ١٦) . إن كثيرين يعتبرون هذه الأوامر مناقضة لروح المحبة والرحمة التي يأمرنا الرب بها في مواضع أخرى في الكتاب . ولكنها كانت بالحق أوامر تنطوي على الحكمة والصلاح الغير المحدودين . لقد كان الله مزمعا أن يثبت قدم إسرائيل في كنعان ، وأن ينشئ بينهم أمة وحكومة لتكون مظهرا لملكوته على الأرض . لم يكن مطلوبا منهم أن يكونوا ورثة الدين الحقيقي وحسب ، بل كان عليهم أن ينشروا مبادئ ذلك الدين في كل العالم . كان الكنعانيون قد انغمسوا في أحط العبادات الوثنية وأنجسها فكان من اللازم أن تنقى البلاد من كل ما يعطل إتمام مقاصد الله الرحيمة .

إن سكان كنعان قد أعطيت لهم فرصة كافية للتوبة ، إذ قبل ذلك بأربعين سنة شهد انشقاق البحر الأحمر والضربات التي حلت بمصر على قدرة إله إسرائيل الفائقة . والآن فقد برهنت هزيمة ملوك مديان وجلعاد وباشان على أن الرب عليٌّ فوق كل الآلهة . ثم أن قداسة صفاته وكراهيته للنجاسة برهنت عليها العقوبات التي حلت بشعب إسرائيل جزاء اشتراكهم في الطقوس الرجسة الخاصة ببعل فغور . كل هذه الحوادث كانت معروفة لدى أهل أريحا . وقد كان هنالك كثيرون ممن شاركوا راحاب في اقتناعها مع أنهم رفضوا إطاعته وهو أن إله إسرائيل «هُوَ اللهُ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَعَلَى الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ» فكان أولئك الكنعانيون قريبي الشبه بالعالم الذي عاش قبل الطوفان في كونهم عاشوا فقط ليجدفوا على السماء وينجسوا الأرض . فالمحبة والعدل كلاهما كانا يتطلبان الهلاك السريع لأولئك القوم الذين كانوا متمردين على الله وأعداء لبني الإنسان .

ما أعظم السهولة التي بها أسقطت أجناد السماء أسوار أريحا ، تلك المدينة المتكبرة التي منذ أربعين سنة مضت ألقت متاريسها وحصونها الرعب في قلوب الجواسيس العديمي الإيمان ! قال قدوس إسرائيل القدير . «قَدْ دَفَعْتُ بِيَدِكَ أَرِيحَا» وأمام كلمة الله هذه وقفت القوة البشرية عاجزة .

«بِالإِيمَانِ سَقَطَتْ أَسْوَارُ أَرِيحَا» (عبرانيين ١١ : ٣٠) . إن رئيس جند الرب لم يكن يتصل بغير يشوع . لم يعلن نفسه للجماعة كلها ، وقد كان عليهم إما أن يصدقوا أقوال يشوع أو يشكوا فيها ، أن يطيعوا أوامره التي يصدرها إليهم باسم الرب أو أن ينكروا عليه سلطانه . إنهم لم يستطيعوا رؤية أجناد الملائكة الذين كانوا يلازمونهم تحت قيادة ابن الله ، فكان يمكنهم أن يتحاجّوا قائلين : «ما هذه التحركات التي لا معنى لها ، وكم هو أمر موجب للهزء أن ندور حول أسوار هذه المدينة كل يوم ضاربين بأبواق من قرون الكباش ؟ إن هذا لا يؤثر أبداً في هذه الاستحكامات الهائلة» . ولكن هذا التدبير عينا القائم على مواصلة هذا الأجراء حول المدينة وقتاً طويلاً قبيل سقوط الأسوار نهائياً أعطى الإسرائيليين فرصة كافية فيها نما إيمانهم وتقوى . وكان الرب يريد أن يطبع في عقولهم أن قوتهم ليست في الحكمة أو القوة البشرية بل في إله خلاصهم ، فكان عليهم بهذه الكيفية أن يعتادوا الاعتماد الكلي على قائدهم الإلهي .

إن الله لا بد من أن يصنع عظائم لمن يثقوا به . إن السبب الذي لأجله نجد المدعوين شعبه لا يملكون قوة أعظم هو أنهم يركنون كثيرا إلى حكمتهم ولا يعطون للرب فرصة ليعلن قدرته لخيرهم . إذ لا بد من أن يساعد أولاده المؤمنين به في كل طارئ إذا كانوا يضعون ثقتهم الكاملة فيه ويطيعونه بأمانة .

على إثر سقوط أريحا عوَّل يشوع على مهاجمة عاي ، وهي مدينة صغيرة تقع في واد ضيِّق بين الجبال على مسافة بضعة أميال غربي وادي الأردن . وقد عاد الجواسيس الذين أرسلوا إليها يقولون إن سكان المدينة قليلون وإن الأمر لا يحتاج إلا إلى قوة صغيرة لتخريب المدينة .

إن الانتصار العظيم الذي أحرزه الله لهم جعل الإسرائيليين يثقون بأنفسهم ، ولكونه قد وعد أن يعطيهم أرض كنعان أحسوا بالطمأنينة ، غير أنهم أخفقوا في التأكد من أن معونة الله هي وحدها التي تعطيهم النجاح . وحتى يشوع نفسه رسم الخطة لغزو عاي دون استشارة الله .

بدا الإسرائيليون يمجدون قوتهم الذاتية ، ناظرين إلى أعدائهم بكل ازدراء . فكانوا ينتصرون انتصارا هينا ، ظانين أن قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل كافية لأخذ المدينة . وهؤلاء اندفعوا في هجومهم قبل التأكد من أن الله سيكون معهم ، وتقدموا إلى أن كادوا يصلون إلى باب المدينة ، وإذا بهم يواجَهون بأعنف مقاومة عنيدة ، وإذ أصابهم الرعب لدى رؤيتهم كثرة عدد أعدائهم واستعدادهم العظيم فروا بغير انتظام في ذلك المنحدر السحيق الانحدار ، وقد جد الكنعانيون في تعقبهم . «وَلَحِقُوهُمْ مِنْ أَمَامِ الْبَابِ ... وَضَرَبُوهُمْ فِي الْمُنْحَدَرِ» . ومع أن خسارتهم في الأرواح كانت طفيفة– اذ لم يقتل غير ستة وثلاثين رجلا– فإن الهزيمة أضعفت قلوب كل الجماعة «ذَابَ قَلْبُ الشَّعْبِ وَصَارَ مِثْلَ الْمَاءِ» . لقد كانت هذه أول مرة يواجهون فيها الكنعانيين في معركة حامية ، فإذا كانوا يهربون أمام حُماة هذه المدينة الصغيرة فماذا تكون نتيجة المعارك العظمى التي تنتظرهم ؟ رأى يشوع في هزيمة أولئك الرجال دليلاً على سخط الله ، ففي ضيقته وخوفه «مَزَّقَ ... ثِيَابَهُ وَسَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ أَمَامَ تَابُوتِ الرَّبِّ إِلَى الْمَسَاءِ ، هُوَ وَشُيُوخُ إِسْرَائِيلَ ، وَوَضَعُوا تُرَابًا عَلَى رُؤُوسِهِمْ» .

وصرخ يشوع قائلا : «آهِ يَا سَيِّدُ الرَّبُّ ! لِمَاذَا عَبَّرْتَ هذَا الشَّعْبَ الأُرْدُنَّ تَعْبِيرًا لِكَيْ تَدْفَعَنَا إِلَى يَدِ الأَمُورِيِّينَ لِيُبِيدُونَا ؟ ... أَسْأَلُكَ يَا سَيِّدُ : مَاذَا أَقُولُ بَعْدَمَا حَوَّلَ إِسْرَائِيلُ قَفَاهُ أَمَامَ أَعْدَائِهِ ؟ فَيَسْمَعُ الْكَنْعَانِيُّونَ وَجَمِيعُ سُكَّانِ الأَرْضِ وَيُحِيطُونَ بِنَا وَيَقْرِضُونَ اسْمَنَا مِنَ الأَرْضِ . وَمَاذَا تَصْنَعُ لاسْمِكَ الْعَظِيمِ ؟» .

فجاءه جواب الرب يقول : «قُمْ ! لِمَاذَا أَنْتَ سَاقِطٌ عَلَى وَجْهِكَ ؟ قَدْ أَخْطَأَ إِسْرَائِيلُ ، بَلْ تَعَدَّوْا عَهْدِي الَّذِي أَمَرْتُهُمْ بِهِ» . لقد كان ذلك الوقت وقت عمل سريع حاسم ، لا وقت يأس أو رثاء . كانت خطية خفية في المحلة ، وكان لابد من اكتشافها والتخلص منها قبلما يضمنون حضور الرب بينهم وحلول بركته عليهم «وَلاَ أَعُودُ أَكُونُ مَعَكُمْ إِنْ لَمْ تُبِيدُوا الْحَرَامَ مِنْ وَسَطِكُمْ» .

إن واحدا ممن أسند إليهم أمر تنفيذ أحكام الله استخف بأمر الرب فوقعت الأمة كلها تحت مسؤولية جريمة ذلك المذنب . «أَخَذُوا مِنَ الْحَرَامِ ، بَلْ سَرَقُوا ، بَلْ أَنْكَرُوا» أعطى الرب تعليماته ليشوع بشأن اكتشاف ذلك المجرم وإدانته . وكان لابد من أن تلقى القرعة

لمعرفة المجرم . إن ذلك الخاطئ لم يكتشف في الحال ، إذ ترك الأمر موضع شك بعض الوقت لكي يحس الشعب بمسئوليتهم حيال الخطايا التي في وسطهم . وهذا يقودهم بالطبع إلى فحص قلوبهم والتذلل أمام الله .

فبكر يشوع في صبيحة اليوم التالي وقدم إسرائيل بأسباطه ، وبدأ ذلك الاجتماع المقدس المؤثر . سارت عملية الفحص خطوة فخطوة ، وظلت دائرة الفحص المخيف تضيق شيئا فشيئا ، فبدأت أولا بالسبط ثم بالعشيرة ثم بالبيت ، وأخيرا أخذ الرجل ، إذ أشار إصبع الله إلى عخان بن كرمي من سبط يهوذا على أنه هو مكدر إسرائيل .

ولكي تثبت إدانته فوق كل شك أو تساؤل ، وحتى لا يبقى هنالك مجال للطعن في الحكم بأنه حكم جائر استحلف يشوع عخان أن يعترف بالحق ، فذلك الرجل التعس اعترف كاملا بجريمته إذ قال : «حَقًّا إِنِّي قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ ... رَأَيْتُ فِي الْغَنِيمَةِ رِدَاءً شِنْعَارِيًّا نَفِيسًا ، وَمِئَتَيْ شَاقِلِ فِضَّةٍ ، وَلِسَانَ ذَهَبٍ وَزْنُهُ خَمْسُونَ شَاقِلاً ، فَاشْتَهَيْتُهَا وَأَخَذْتُهَا . وَهَا هِيَ مَطْمُورَةٌ فِي الأَرْضِ فِي وَسَطِ خَيْمَتِي ، وَالْفِضَّةُ تَحْتَهَا» فأرسل رسل في الحال إلى الخيمة وازاحوا التراب عن المكان المعين «وَإِذَا هِيَ مَطْمُورَةٌ فِي خَيْمَتِهِ وَالْفِضَّةُ تَحْتَهَا . فَأَخَذُوهَا مِنْ وَسَطِ الْخَيْمَةِ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى يَشُوعَ . . . وَبَسَطُوهَا أَمَامَ الرَّبِّ» .

فحكم عليه ونفذ الحكم في الحال . قال له يشوع : «كَيْفَ كَدَّرْتَنَا ؟ يُكَدِّرُكَ الرَّبُّ فِي هذَا الْيَوْمِ !» وحيث أن جميع الشعب اعتبررا مسؤولين عن خطية عخان وتألموا من نتائجها فقد اشتركوا في إيقاع القصاص عليه عن طريق ممثليهم ، «فَرَجَمَهُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ بِالْحِجَارَةِ» .

وبعد ذلك أقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة شهادة على الخطية وعقابها «لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُ ذلِكَ الْمَكَانِ «وَادِيَ عَخُورَ»» (وادي التكدير) . وفي سفر الأخبار الأول (٢ : ٧) يذكره الكاتب قائلا : «عَخَارُ مُكَدِّرُ إِسْرَائِيلَ» .

إن خطيه عخان ارتكبت في تحد سافر لأخطر الإنذارات المباشرة البالغة الخطورة ولأعظم مظاهر قدرة الله . فالإنذار الذي وصل إلى مسامع كل إسرائيل هو هذا . «احْتَرِزُوا

مِنَ الْحَرَامِ لِئَلاَّ تُحَرَّمُوا») وقد أعطي لهم هذا الإنذار حالا عقب عبورهم الأردن بكيفية عجائبية ، وعقب الاعتراف بعهد الله في إجراء فريضة الختان لشعب كله ، وبعد ممارسة الفصح ، وبعد ظهور ملاك العهد أي رئيس جند الرب ، ثم تبع ذلك سقوط أريحا كبرهان على السقوط الذي سيحل بكل من يتعدون شريعة الله . وإن حقيقة كون قدرة الله هي وحدها التي أعطت النصرة لإسرائيل ، وأنهم لم يستولوا على أريحا بقوتهم أعطت قوة ووزنا للنهي الذي به نهاهم الرب عن أخذ شيء من الغنائم . وحيث أن الله بقوة كلمته هو الذي أسقط ذلك الحصن المنيع إذا فالغلبة له ، وله وحده تخصص المدينة وكل ما فيها .

ومن بين ملايين شعب إسرائيل لم يكن غير رجل واحد قد تعدى أمر الله في تلك الساعة المقدسة ، ساعة النصرة والدينونة ، إذ أثار جشع عخان منظر ذلك الرداء الشنعاري النفيس . وحتى حين واجه بسببه الموت ، دعاه «رِدَاءً شِنْعَارِيًّا نَفِيسًا» إن خطية واحدة ساقته إلى أخرى فوضع يده على الذهب والفضة المكرسين لخزانة الرب ، فسلب حق الله في باكورات كنعان .

إن الخطية القاتلة التي أدت إلى هلاك عخان كان أصلها الطمع ، الذي هو من أكثر الخطايا تفشيا ، ومع ذلك فالناس يستخفون أكثر ما يستخفون به . وبينما الخطايا الأخرى تكتشف ويعاقب فاعلها ، فما أندر أن يوبخ من يتعدون الوصية العاشرة ! وهول هذه الخطية ونتائجها الفظيعة هي الدروس التي نتعلمها من تاريخ عخان .

إن الطمع هو شر ينمو تدريجا . لقد ربى عخان في قلبه خطية الطمع في الكسب حتى غدت عادة قيدته بقيودها فصار من الصعب عليه تحطيمها . وإذ ظل مراعيا هذا الشر في قلبه ، كان ينبغي أن فكرة كونه يتسبب في جلب أية كارثة على إسرائيل تملأه رعبا . ولكن الخطية أماتت إحساسه ، فلما هاجمته التجربة سقط فريسة سهلة أمامها .

ألا ترتكب خطايا أخرى مشابهة لهذه مع وجود الإنذارات الخطيرة والقاطعة ؟ إن الرب ينهانا نهيا مباشرا عن الطمع كما قد نهى عخان عن أخذ أي شيء من غنائم أريحا . لقد أعلن الرب أن الطمع هو عبادة أوثان ، وهو يحذرنا بقوله : «لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ» (كولوسي ٣ : ٥؛ متى ٦ : ٢٤) . ثم نجد في (لوقا ١٢ : ١٥) قول السيد : «تَحَفَّظُوا مِنَ الطَّمَعِ» . والرسول يقول عنه : «لاَ يُسَمَّ بَيْنَكُمْ» (أفسس ٥ : ٣) إن أمامنا الدينونة الرهيبة

التي حلت بعخان ويهوذا وحنانيا وسفيرة . وقبل هذا كله نجد ما أصاب لوسيفر «زُهَرَة ، بِنْت الصُّبْحِ» الذي لما اشتهى مركزا أسمى أضاع إلى الأبد حقه في بهاء السماء وسعادتها . ومع كل هذه الإنذارات فإن الطمع لا يزال متفشيا .

في كل مكان ترى آثار الطمع الموحلة ، وهو الذي يخلق السخط والشقاق في العائلات ويثير الحسد والبغضة في قلوب الفقراء ضد الأغنياء ويدفع الأغنياء إلى أن يظلموا الفقراء ويسحقوهم . إن هذا الشر لم يقتصر على العالم الخارجي وحده ولكنه تغلغل في داخل الكنيسة . وكم هو أمر شائع حتى في الكنيسة أن نجد الأنانية والطمع والخداع وإهمال عمل الإحسان وسلب حقوق الله «فِي الْعُشُورِ وَالتَّقْدِمَةِ» ! إننا نقول والحسرة تملأ قلوبنا بأن هناك بين أعضاء الكنائس بعض مَن يشغلون مراكز مرموقة وهم أمثال عخان . يحدث كثيرا أن يأتي رجل إلى الكنيسة بانتظام ويشترك في مائدة الرب بينما لديه أموال مخبوءة وهي غير محللة أو مشروعة ، أرباح لعنها الله . إن كثيرين في سبيل إحراز الرداء الشنعاري النفيس يضحون بسلام الضمير والرجاء في السماء . وكثيرون يبادلون عن استقامتهم ونزاهتهم ونفعهم بكيس به حفنة من شواقل الفضة . إن صرخات المساكين المتألمين قلَّما يلتفت إليها ، ونور الإنجيل يُحجَز ، وسخرية أهل العالم تشتعل في ممارسات تظهر كذب المجاهرة بالمسيحية . ومع ذلك فإن مدعي المسيحية الجشع يظل يكوم الأموال . يقول الرب : «أَيَسْلُبُ الإِنْسَانُ اللهَ ؟ فَإِنَّكُمْ سَلَبْتُمُونِي» (ملاخي ٣ : ٨) .

إن خطية عخان أوقعت كارثة على الأمة كلها . فبسبب خطية إنسان واحد يحل سخط الله على الكنيسة حتى تكشف الخطية وتنتزع . فالتأثير الذي يخشى على الكنيسة منه أكثر من غيره ليس هو تأثير من يجاهرون بعدوانهم لها ولا تأثير الملحدين أو المجدفين ، بل هو تأثير المتقلبين وغير الثابتين ممن يعترفون بالمسيح . هؤلاء هم الذين يعطلون انسكاب بركة الله على شعبه ويضعفون من قوتهم .

وحين تعترض الكنيسة مشكلة ، وحين يستولي على أعضائها الفتور والانحطاط الروحي ، الأمر الذي يعطي المجال لأعداء الله أن ينتصروا ، حينئذٍ بدلا من أن يقف الأعضاء مكتوفي الأيدي ويندبوا سوء حالهم فليسألوا عما إذا كان هنالك عخان بين جماعة الرب . ففي تذلل واختبار للنفس ليحاول كل عضو أن يكتشف خطاياه المحبَّبة التي تمنع حضور الله .

لقد اعترف عخان بجرمه ولكنه اعتراف جاء متأخرا جدا بحيث لم يُجدِه نفعا . رأى جيوش إسرائيل ترتد عن عاي منهزمة وخائفة وخائرة ومع ذلك لم يتقدم ليعترف بخطيته . رأى يشوع وشيوخ إسرائيل منحنين ومنسحقين من فرط الحزن الذي لا يعبر عنه ، فلو اعترف حينئذ لكان قد قدم برهانا على صدق توبته ، ولكنه ظل صامتا ، ثم أصغى إلى الإعلان القائل بأن جريمة هائلة قد ارتكبت وسمع الأوصاف التي تحدد تلك الجريمة ، ولكنه ظل سادرا في صمته وإنكاره . حينئذ جاء الفحص الرهيب ، ويا لهول الرعب الذي استولى على نفسه حين رأى سبطه يؤخذ ثم عشيرته ثم بيته ! ومع ذلك فلم يعترف حتى أشارت إليه إصبع الله وحينئذ لما لم يسعه إنكار خطيته أو سترها اعترف بالحق . فكم من مرة يقدم الناس اعترافات شبيهة بهذا الاعتراف ! هنالك فرق عظيم بين أن يعترف الإنسان بالحقائق بعدما قدم عنها البرهان الساطع ، وبين الاعتراف بها حين لا يعرفها أحد غيرنا نحن وغير الله . ولولا أن عخان كان يرجو أنه باعترافه سيتفادى عواقب جريمته لما كان اعترف إطلاقا . ولكن اعترافه دل فقط على أن قضاء الله كان عادلا . فلم تكن هنالك توبة صادقة عن الخطية ولا انسحاق ولا تغيير لمقاصده ولا كراهية للشر .

هكذا سيقدم الأشرار اعترافاتهم حين يقفون أمام عرش دينونة الله بعدما يتقرر مصير كل إنسان إن للحياة أو للموت . ومن نتائج ذلك للخاطئ أنه سيلتزم بأن يعترف بخطيته . وسيقسر النفس على ذلك الاعتراف إحساسها بهول الدينونة المخيفة وانتظارها . إلا أن مثل تلك الاعترافات لن تخلص الخاطئ .

إن كثيرين كعخان يظنون أنهم في أمان ما داموا قادرين على كتمان خطاياهم عن الناس ، وخداع نفوسهم بالقول إن الله لن يدقق في مراقبة الإثم . وبعد فوات الأوان ستكتشفهم خطاياهم في ذلك اليوم الذي فيه لا يكفر عنها بذبيحة أو تقدمة إلى الأبد . وحين تفتح الأسفار فالديّان لن يعلن للإنسان جريمته بالكلام ولكنه سيصوب إليه فقط نظرة فاحصة تثبت جريمته . وحينئذ سينطبع على ذاكرة المجرم كل عمل وكل صفقة عقدها في الحياة . ولن يحتاج الآمر كما في أيام يشوع إلى تعقب الخاطئ من سبط إلى، عشيرة ، ولكن شفتيه ستعلنان عاره . والخطايا المستورة عن عيون الناس ستعلن على ملإٍ من كل العالم .

الفصل السادس والأربعون

البركات و اللعنات

بعدما نُفِّذ الحكم في عخان بموته أمر الرب يشوع أن يصفَّ كل رجال الحرب ويتقدموا للهجوم على عاي ثانية . وقد كانت قوة الله مع شعبه ، ولذلك فسرعان ما احتلوا المدينة .

أما الآن فقد توقفت العمليات الحربية حتى يشترك كل إسرائيل في خدمة دينية مقدسة . كان الشعب مشتاقين إلى الحصول على مكان استقرار في كنعان ، إذ أنهم إلى ذلك الحين لم تكن لهم بيوت ولا أراض ، فلكي يحصلوا على هذه وجب عليهم أن يطردوا الكنعانيين ، ولكن هذا العمل الهام ينبغي إرجاؤه ، لأن واجبا آخر أسمى كان يتطلب اهتمامهم الأول .

كان عليهم قبل حصولهم على ميراثهم أن يجددوا عهد ولائهم لله . ففي آخر تعليمات موسى لهم أرشدهم مرتين إلى أنه ينبغي أن تجتمع كل الأسباط على جبلي عيبال وجرزيم في شكيم لكي يعترفوا اعترافا مقدسا بشريعة الله . فامتثالا لهذه الأوامر ترك كل الشعب ، ليس فقط الرجال بل حتى «النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ وَالْغَرِيبِ السَّائِرِ فِي وَسَطِهِمْ» (يشوع ٨ : ٣٠ ٣٥)– الجميع تركوا محلتهم في الجلجال وساروا مخترقين أرض أعدائهم إلى وادي شكيم قرب البقعة التي تقع في وسط الأرض . ومع أنهم كانوا محاطين بأعداء لم يخضعوهم بعد فقد كانوا آمنين تحت حراسة الله طوال ما ظلوا أمناء له . واليوم كما في أيام يعقوب «كَانَ خَوْفُ اللهِ عَلَى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَهُمْ» (تكوين ٣٥ : ٥) فلم يتضايق العبرانيون .

وكان المكان المعين لهذه الخدمة المقدسة قد تقدس من قبل لصلته بتاريخ آبائهم ، ففي هذا المكان أقام إبراهيم أول مذبح للرب في أرض كنعان ، وفي هذا المكان نصب كل من إبراهيم ويعقوب خيامهما ، وفي هذا المكان اشترى يعقوب قطعة الحقل الذي كان رجال الأسباط سيدفنون فيه عظام يوسف ، وفي هذا المكان كانت البئر التي حفرها يعقوب ، والبلوطة التي طمر تحتها تماثيل أوثان بيته .

والبقعة المختارة كانت من أجمل بقاع فلسطين كلها ، وكانت تستحق أن تكون مسرحا يمثل عليه ذلك المنظر المؤثر الجليل . فذلك الوادي الجميل بما فيه من حقول خضراء تنتشر فيها أغراس الزيتون ، وترويها جداول آتية من ينابيع مياه حية ، وتزينها الأزهار البرية قد بدت أمامهم في شكل جذاب في وسط التلال القفراء . وكان جبل عيبال وجبل جرزيم على طرفي الوادي المتقابلين ، وكانا متقاربين ، كما كانت سفوحهما تصلح لأن تكون منصة طبيعية . وكان الواقفون على أحد ذينك الجبلين يسمعون كل كلمة يقولها الواقفون على الجبل الآخر ، بينما كانت جوانب الجبلين المنبطحة تصلح لاجتماع جماهير غفيرة من الناس .

وبناء على التعليمات التي أخذت عن موسى أقيم نصب من حجارة عظيمة على جبل عيبال . وعلى هذه الأحجار ، التي كانت قد طليت من قبل بطبقة من الجص ، نقشت الشريعة ، ليس فقط الوصايا العشر التي نطق الله بها من فوق جبل سيناء وكتبت على لوحي حجر ، بل أيضا الشرائع التي أعطيت لموسى وكتبها في سفر . وإلى جانب هذا النصب بني مذبح من حجارة غير منحوتة قدمت عليه ذبائح الله . إن حقيقة كون المذبح أقيم على جبل عيبال الذي وضعت عليه اللعنة كان لها مغزاها ، وهي تدل على أنه لكون إسرائيل قد تعدوا شريعة الله فقد جلبوا على أنفسهم غضبه العادل وكان يمكن أن يفتقدهم بغضبه حالا لولا كفارة المسيح التي يرمز إليها مذبح المحرقة .

وقد أوقف ستة من الأسباط كلهم من نسل ليئة وراحيل على جبل جرزيم ، بينما أولئك الذين من نسل الجاريتين ومعهم سبط رأوبين وزبولون وقفوا على جبل عيبال ، وكان الكهنة ومعهم التابوت في الوادي بين الجبلين . فلما ضرب بالبوق أعطى الجميع سكوتا أحرى . ففي وسط ذلك السكون الشامل وعلى مشهد من ذلك الجمهور العظيم وقف يشوع إلى جوار التابوت المقدس وتلا البركات التي ستكون من نصيب من يطيعون شريعة الله . فكل الأسباط الواقفين على جبل جرزيم أجابوا بقولهم : أمين . وبعد ذلك نطق باللعنات فأجاب الواقفون على جبل عيبال بقولهم آمين . وكانت ألوف ألوف الأصوات متحدة كما لو كانت صوت رجل واحد في التجاوب المهيب . وبعد ذلك قرئت شريعة الله مع كل الوصايا والأحكام التي قد سلمهم إياها موسى .

لقد أخذ إسرائيل الشريعة من فم الله رأسا في سيناء ، وهو الذي كتب تلك الوصايا المقدسة بيده ، وهي لا تزال محفوظة في التابوت . والآن ها هي تكتب للمرة الثانية في مكان حيث يمكن أن يطلع عليها الجميع ، كما كان لجميعهم امتياز أن يشاهدوا لأنفسهم شروط العهد الذي بموجبه يمكنهم امتلاك كنعان ، ووجب عليهم جميعا أن يعلنوا قبولهم لشروط العهد ومصادقتهم على البركات أو اللعنات في حال حفظها أو إهمالها . إن الشريعة لم تكتب على تلك الأحجار التذكارية فقط ، ولكن يشوع قرأها بنفسه في مسامع كل إسرائيل . وقبل ذلك بأسابيع قليلة نطق موسى في مسامع الشعب بكل ما ورد في سفر التثنية بشكل أحاديث . ومع ذلك فقد أعاد يشوع قراءة الشريعة في مسامعهم .

ولم يكن رجال إسرائيل هم وحدهم الذين أصغوا إلى قراءة الشريعة ، بل أيضا «النِّسَاء وَالأَطْفَال» ، لأنه كان من المهم جدا لهؤلاء أيضا أن يعرفوا واجبهم ويقوموا به . وقد أوصى الله إسرائيل بخصوص هذه الوصايا قائلا : «ضَعُوا كَلِمَاتِي هذِهِ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَنُفُوسِكُمْ ، وَارْبُطُوهَا عَلاَمَةً عَلَى أَيْدِيكُمْ ، وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عُيُونِكُمْ ، وَعَلِّمُوهَا أَوْلاَدَكُمْ ... لِكَيْ تَكْثُرَ أَيَّامُكَ وَأَيَّامُ أَوْلاَدِكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لآبَائِكَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا ، كَأَيَّامِ السَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ» (تثنية ١١ : ١٨-٢١) .

وفي آخر كل سبع سنين كان ينبغي أن تقرا كل الشريعة أمام كل إسرائيل . فقد أمر موسى قائلا : «فِي نِهَايَةِ السَّبْعِ السِّنِينَ ، فِي مِيعَادِ سَنَةِ الإِبْرَاءِ ، فِي عِيدِ الْمَظَالِّ ، حِينَمَا يَجِيءُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ لِكَيْ يَظْهَرُوا أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ ، تَقْرَأُ هذِهِ التَّوْرَاةَ أَمَامَ كُلِّ إِسْرَائِيلَ فِي مَسَامِعِهِمْ . اِجْمَعِ الشَّعْبَ ، الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ وَالْغَرِيبَ الَّذِي فِي أَبْوَابِكَ ، لِكَيْ يَسْمَعُوا وَيَتَعَلَّمُوا أَنْ يَتَّقُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ وَيَحْرِصُوا أَنْ يَعْمَلُوا بِجَمِيعِ كَلِمَاتِ هذِهِ التَّوْرَاةِ . وَأَوْلاَدُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا ، يَسْمَعُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ أَنْ يَتَّقُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ الَّتِي تَحْيَوْنَ فِيهَا عَلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ الأُرْدُنَّ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكُوهَا» (تثنية ٣١ : ١٠-١٣) .

إن الشيطان يدأب في العمل دائما محاولا أن يفسد كلام الله ويعمي العقول ويظلم الأذهان ، وهكذا يسوق الناس إلى الخطية . ولهذا نجد الله يتكلم كلاما واضحا جدا وهو يجعل كل مطالبيه واضحة هكذا جدا بحيث لا يخطئ فهمها أحد . والله يسعى باستمرار ليجعل الناس

يقتربون منه ليكونوا تحت ظل حمايته حتى لا يستخدم الشيطان قوته القاسية الخادعة ضدهم . لقد تنازل الله فكلمهم بصوته ، وكتب بيده تلك الوصايا الحية . وهذه الأقوال المباركة النابضة بالحياة والتي يشع منها نور الحق سلمت للناس كمرشد ودليل كامل . ولكون الشيطان مستعدا أبدا أن يصرف العقول ويميل العواطف عن مواعيد الله ومطاليبه ، لهذا علينا أن نبذل كل الجهد في تثبيت هذه الأقوال الإلهية المقدسة في عقولنا وطبعها على قلوبنا .

وعلى المعلمين الدينيين أن يبذلوا جهدا أعظم في تعليم الشعب الحقائق والدروس التي يستقونها من تاريخ الكتاب ، فضلا عن إنذارات الرب ومطاليبه . وينبغي أن تقدم هذه في لغة بسيطة تناسب أفهام الاطفال . كما أنه من واجب الخدام والآباء أن يهتموا بتعليم الصغار الحقائق الكتابية .

إن الآباء قادرون ولذلك عليهم أن يشوّقوا الأطفال لمعرفة التعاليم الواردة في الكتاب المقدس . ولكن إذا كانوا يريدون حقا أن يشوّقوا أبناءهم وبناتهم لمعرفة ما جاء في كتاب الله فينبغي أن يكونوا هم أنفسهم محبين للكتاب وشاعرين بلذة قراءته . عليهم أن يحيطوا بتعاليمه ، وكما أمر الله إسرائيل عليهم هم أيضا أن يتكلموا بها «حِينَ تَجْلِسُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، وَحِينَ تَمْشُونَ فِي الطَّرِيقِ ، وَحِينَ تَنَامُونَ ، وَحِينَ تَقُومُونَ» (تثنية ١١ : ١٩) . فالذين يرغبون في أن يحب أولادهم الله ويوقّروه عليهم أن يحدثوهم عن صلاحه وجلاله وقدرته كما هو معلن في الكتاب وفي أعمال الخلق .

كل أصحاح وكل آية في الكتاب هي رسالة من الله للناس . وعلينا أن نربط كلمته كعلامة على أيدينا وكعصائب بين عيوننا . ولو درس شعب الله كلمته وأطاعوها لهدتهم الآن كما قد هدى بني إسرائيل عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً .

الفصل السابع والأربعون

التحالف مع الجبعونيين

عاد الإسرائيليون من شكيم إلى محلتهم في الجلجال ، وبعد قليل أتاهم وفد من أناس غرباء ، قد رغبوا في أن يعقد معهم بنو إسرائيل معاهدة ، ثم أبان لهم أولئك السفراء أنهم قد جاءوا من بلاد بعيدة ، وقد بدا مظهرهم كدليل على صدق كلامهم ، فكانت ثيابهم رثة وبالية ، ونعالهم قديمة ومرقعة ، وخبزهم يابس ومتعفن ، وزقاق الخمر التي بأيديهم مشققة ومربوطة كما لو كانوا قد أصلحوها بعجلة في أثناء سفرهم .

قالوا إن مواطنيهم الساكنين في بلاد بعيدة جدا عبر حدود فلسطين ، حسب ادعائهم ، سمعوا عن العجائب التي أجراها الرب مع شعبه ، فأرسلوهم لكي يعقدوا معاهدة مع إسرائيل ، وكان العبرانيون قد نهوا نهيا صريحا عن الدخول في أي عهد مع سكان كنعان الوثنيين ، فساورت الشكوك عقول قواد إسرائيل في صدق كلام أولئك الغرباء . فقالوا لهم : «لَعَلَّكَ سَاكِنٌ فِي وَسَطِي ... فَقَالُوا لِيَشُوعَ : عَبِيدُكَ نَحْنُ» (انظر يشوع ٩،١٠) ولما جابههم يشوع بسؤاله القائل : «مَنْ أَنْتُمْ ؟ وَمِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ ؟» أعادوا على سمعه حديثهم الأول ، ولكي يبرهنوا على إخلاصهم قالوا : «هذَا خُبْزُنَا سُخْنًا تَزَوَّدْنَاهُ مِنْ بُيُوتِنَا يَوْمَ خُرُوجِنَا لِكَيْ نَسِيرَ إِلَيْكُمْ ، وَهَا هُوَ الآنَ يَابِسٌ قَدْ صَارَ فُتَاتًا . وَهذِهِ زِقَاقُ الْخَمْرِ الَّتِي مَلأْنَاهَا جَدِيدَةً ، هُوَذَا قَدْ تَشَقَّقَتْ . وَهذِهِ ثِيَابُنَا وَنِعَالُنَا قَدْ بَلِيَتْ مِنْ طُولِ الطَّرِيقِ جِدًّا» .

هذه التمويهات جازت عليهم لأن العبرانيين «مِنْ فَمِ الرَّبِّ لَمْ يَسْأَلُوا . فَعَمِلَ يَشُوعُ لَهُمْ صُلْحًا وَقَطَعَ لَهُمْ عَهْدًا لاسْتِحْيَائِهِمْ ، وَحَلَفَ لَهُمْ رُؤَسَاءُ الْجَمَاعَةِ» وهكذا أبرمت المعاهدة . ولكن بعد ذلك بثلاثة أيام انكشفت لهم الحقيقة إذ «سَمِعُوا أَنَّهُمْ قَرِيبُونَ إِلَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ سَاكِنُونَ فِي وَسَطِهِمْ» . إن الجبعونيين إذ عرفوا استحالة مقاومتهم للعبرانيين لجأوا إلى هذه الحيلة إبقاء على حياتهم .

وقد اشتعل غضب الإسرائيليين حين علموا بتلك الخدعة التي وقعوا فيها ، وزاد غضبهم اشتعالا حين وصلوا إلى مدن الجبعونيين بعد ثلاثة أيام وإذا هي بالقرب من أواسط البلاد ، «فَتَذَمَّرَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ عَلَى الرُّؤَسَاءِ» ولكن أولئك الرؤساء لم يرضوا أن ينقضوا تلك المعاهدة وإن تكن مبنية على الخداع لأنهم حلفوا «لَهُمْ بِالرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ» وبنو إسرائيل لم يقتلوهم . كان الجبعونيون قد تعهدوا بأن ينبذوا الوثنية ويعبدوا الرب ، إذا فالإبقاء على حياتهم لم يكن نقضا لأمر الرب لإسرائيل بأن يهلكوا شعوب كنعان الوثنيين . لهذا فالعبرانيون لم يتعهدوا بأن يرتكبوا خطية بذلك الحلف الذي أقسموا به . ومع أن الجبعونيين قد استطاعوا بخداعهم أن يقنعوا بني إسرائيل أن يحلفوا لهم باسم الرب فهو حلف لم يمكن إغفاله ، لأن العهد الذي يأخذه أي إنسان على نفسه– إذا كان لا يلزمه بارتكاب أي عمل خاطئ– فهو ملتزم بتقديسه . إن اعتبار الربح أو الانتقام أو المصلحة الشخصية لا يمكن أن يؤثر في حرمة القسم او العهد بأي حال ، «كَرَاهَةُ الرَّبِّ شَفَتَا كَذِبٍ» (أمثال ١٢ : ٢٢) . إن «مَنْ يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ ؟ وَمَنْ يَقُومُ فِي مَوْضِعِ قُدْسِهِ» هو من «يَحْلِفُ لِلضَّرَرِ وَلاَ يُغَيِّرُ» (مزمور ٢٤ : ٣، ١٥ : ٤) .

لقد أبقى على حياة الجبعونيين ، ولكنهم ألحقوا بخدمة المقدس كعبيد يقومون بكل الخدمات الحقيرة ، «وَجَعَلَهُمْ يَشُوعُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مُحْتَطِبِي حَطَبٍ وَمُسْتَقِي مَاءٍ لِلْجَمَاعَةِ وَلِمَذْبَحِ الرَّبِّ» ، فبكل شكر قبلوا هذه الشروط إذ كانوا يعرفون خطأهم ، وقد سرهم أن يشتروا الحياة بأية شروط ، فقالوا ليشوع : «وَالآنَ فَهُوَذَا نَحْنُ بِيَدِكَ ، فَافْعَلْ بِنَا مَا هُوَ صَالِحٌ وَحَقٌّ فِي عَيْنَيْكَ أَنْ تَعْمَلَ» . ولمدة قرون طويلة لازم أبناؤهم خدمة مسكن الرب .

كان الإقليم الذي يسكنه الجبعونيون يتكون من أربع مدن ، حيث لم يملك عليهم ملك بل كان يحكم عليهم شيوخ أو أعيان . وكانت جبعون أعظم تلك المدن «مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ كَإِحْدَى الْمُدُنِ الْمَلَكِيَّةِ ... وَكُلُّ رِجَالِهَا جَبَابِرَةٌ» ، ومن البراهين المدهشة على الرعب الذي أوقعه الإسرائيليون على سكان كنعان كون شعب مدينة عظيمة كتلك المدينة يلجأون إلى تلك الحيلة المذلة لتحفظ حياتهم .

ولكن لو أن الجبعونيين تصرفوا بالأمانة والصدق مع إسرائيل لنالوا حظا أفضل من هذا ، ففي حين أن خضوعهم للرب أبقى على حياتهم فإن خداعهم لم يجلب عليهم سوى العار والعبودية . لقد دبر الله أن كل من ينبذون الوثنية ويتحدون مع إسرائيل يقاسمونهم بركات

العهد ، وكان الجبعونيون من ضمن الذين ينطبق عليهم الشرط القائل : «الْغَرِيبِ السَّائِرِ فِي وَسَطِهِمْ» . وبقليل من الاستثناءات كان لأمثال هؤلاء الناس أن يتمتعوا بمثل ما يتمتع به إسرائيل من إنعامات وامتيازات . ولقد أمر الرب قائلا :

«وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكُمْ فَلاَ تَظْلِمُوهُ . كَالْوَطَنِيِّ مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمُ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ ، وَتُحِبُّهُ كَنَفْسِكَ» (لاويين ١٩ : ٣٣،٣٤) أما عن الفصح وتقديم الذبائح فقد أمر الرب قائلا : «أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ ، لَكُمْ وَلِلْغَرِيبِ النَّازِلِ عِنْدَكُمْ فَرِيضَةٌ وَاحِدَةٌ دَهْرِيَّةٌ فِي أَجْيَالِكُمْ . مَثَلُكُمْ يَكُونُ مَثَلَ الْغَرِيبِ أَمَامَ الرَّبِّ» (عدد ١٥ : ١٥) .

هذا هو المقام الذي على أساسه كان يمكن أن يقبل الجبعونيون لولا أنهم لجأوا إلى الخداع . إنه لم يكن إذلالا طفيفا لمواطني تلك المدينة التي تعتبر من «الْمُدُنِ الْمَلَكِيَّةِ» «وَكُلُّ رِجَالِهَا جَبَابِرَةٌ» ، أن يكونوا محتطبي حطب ومستقي ماء مدى أجيالهم . ولكن لأنهم لبسوا لباس الفقر بقصد الخداع فقد ثبت عليهم ذلك كشعار للعبودية الدائمة . وهكذا ففي أجيالهم كلها شهدت حالة العبودية الذليلة التي حكم بها عليهم على كراهة الله للكذب .

وقد ملأ خضوع جبعون للإسرائيليين قلوب ملوك كنعان فزعا ورعبا ، فاتخذوا الخطوات اللازمة حالا للانتقام ممن عقدوا صلحا مع الغزاة ، فتحالف خمسة من ملوك الكنعانيين تحت قيادة أدونى صادق ملك أورشليم ضد جبعون . كانت تحركاتهم سويعة ، ولذلك لم يكن الجبعونيون متأهبين للدفاع عن أنفسهم فبعثوا برسالة إلى يشوع في الجلجال يقولون : «لاَ تُرْخِ يَدَيْكَ عَنْ عَبِيدِكَ . اصْعَدْ إِلَيْنَا عَاجِلاً وَخَلِّصْنَا وَأَعِنَّا ، لأَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْنَا جَمِيعُ مُلُوكِ الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي الْجَبَلِ» (يشوع ١٠ : ٦) إن الخطر لم يكن محدقا بالجبعونيين وحدهم بل بإسرائيل أيضا ، فلقد كانت هذه المدينة (جبعون) تشرف على كل الممرات والمعابر المؤدية إلى أواسط فلسطين وجنوبها ، فينبغي الاستيلاء عليها إذا كان لا بد من الانتصار على البلاد .

فتأهب يشوع للذهاب حالا لنجدة جبعون ، وكان سكان تلك المدينة المحاصرة يخشون أن يرفض يشوع توسلاتهم بسبب خداعهم الذي لجأوا إليه ، ولكن حيث أنهم قد خضعوا لحكم إسرائيل وقبلوا عبادة الله فقد وجد يشوع نفسه ملتزما بأن يدافع عنهم ويحميهم . وفي هذه المرة لم يتحرك بدون استشارة الله ، فشجعه الرب على القيام بهذا العمل ، إذ جاءته رسالة من

الله تقول : «لاَ تَخَفْهُمْ ، لأَنِّي بِيَدِكَ قَدْ أَسْلَمْتُهُمْ . لاَ يَقِفُ رَجُلٌ مِنْهُمْ بِوَجْهِكَ» ، «فَصَعِدَ يَشُوعُ مِنَ الْجِلْجَالِ هُوَ وَجَمِيعُ رِجَالِ الْحَرْبِ مَعَهُ وَكُلُّ جَبَابِرَةِ الْبَأْسِ» .

وإذ ساروا طول الليل أتى يشوع بقواته أمام جبعون في الصباح . فما كاد أولئك الملوك يحشدون جيوشهم حول جبعون حتى باغتهم يشوع بالهجوم . وقد كان من نتائج هجومه الاندحار التام للجيوش المغيرة . فهربت تلك الجيوش العظيمة أمام يشوع فوق الجبل في الطريق المؤدية إلى بيت حورون . فلما وصلوا إلى قمة الجبل اندفعوا من الجانب الآخر في طريق شديد الانحدار وهنا نزلت عليهم زخة برد شديدة ، «رَمَاهُمُ الرَّبُّ بِحِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى عَزِيقَةَ فَمَاتُوا . وَالَّذِينَ مَاتُوا بِحِجَارَةِ الْبَرَدِ هُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالسَّيْفِ» .

وإذ كان الأموريون مسرعين في هروبهم بحثا عن ملجأ يعتصمون به في معاقل الجبال ، وإذ نظر يشوع من أعلى الجبل إلى أسفل رأى أن النهار سيكون أقصر من أن يتمم فيه عمله ، لأن أولئك الأعداء إن لم يستأصلوا تماما فسيلمون شعثهم ويستأنفون القتال «حِينَئِذٍ كَلَّمَ يَشُوعُ الرَّبَّ ... وَقَالَ أَمَامَ عُيُونِ إِسْرَائِيلَ : «يَا شَمْسُ دُومِي عَلَى جِبْعُونَ ، وَيَا قَمَرُ عَلَى وَادِي أَيَّلُونَ». فَدَامَتِ الشَّمْسُ وَوَقَفَ الْقَمَرُ حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ ... فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ تَعْجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِلٍ» .

وقبل إقبال المساء كان الله قد تمم وعده ليشوع إذ قد أسلم بين يديه كل جيوش العدو . وظلت حوادث ذلك اليوم عالقة بأذهان شعب إسرائيل أمدا طويلا «وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُ ذلِكَ الْيَوْمِ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ سَمِعَ فِيهِ الرَّبُّ صَوْتَ إِنْسَانٍ ، لأَنَّ الرَّبَّ حَارَبَ عَنْ إِسْرَائِيلَ» «اَلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَقَفَا فِي بُرُوجِهِمَا لِنُورِ سِهَامِكَ الطَّائِرَةِ ، لِلَمَعَانِ بَرْقِ مَجْدِكَ . بِغَضَبٍ خَطَرْتَ فِي الأَرْضِ ، بِسَخَطٍ دُسْتَ الأُمَمَ . خَرَجْتَ لِخَلاَصِ شَعْبِكَ» (حبقوق ٣ : ١١-١٣) .

إن روح الله هو الذي ألهم يشوع لينطق بهذه الصلاة حتى يعطي برهاناً جديداً على قوة إله إسرائيل . ولهذا فإن ذلك الطلب لم يكن يدل على تصلف في نفس ذلك القائد العظيم . لقد أعطى الله ليشوع وعدا بأنه لا بد من أن يقهر أعداء إسرائيل هؤلاء ، ومع ذلك فقد بذل جهدا جبارا كأن النجاح متوقف على جيوش إسرائيل وحدها . لقد بذل من الجهد أقصى ما يمكن أن يبذل من الطاقة البشرية ، وبعد ذلك صرخ بإيمان في طلب معونة الله . إن سر النجاح هو في

اتحاد قوة الله بالمجهود البشري . إن من يحصلون على أعظم النتائج هم أولئك الذين يتكلـــون على ذراع الرب القدير اتكالا راسخا كل الرسوخ . إن ذلك الرجل الذي أمر قائلا : «يَا شَمْسُ دُومِي عَلَى جِبْعُونَ ، وَيَا قَمَرُ عَلَى وَادِي أَيَّلُونَ» هو نفس الرجل الذي ظل ساعات طويلـــة منطرحا على الأرض يصلي في المحلة في الجلجال . فرجال الصلاة هـــم الرجـــال المقتـــدرون حقا .

إن هذه العجيبة العظيمة تشهد بأن الخليقة هي تحت سلطان خالقها ، بينما الشيطان يحـــاول أن يخفي عن الناس عمل الله وقدرته في العالم الطبيعي– ليبعد عن الأنظار العمل الذي لا يكل الذي يقوم به ذاك الذي هو المسبب الأول العظيم . وفي هذه العجيبة نرى أن كل من يمجـدون الطبيعة فوق إله الطبيعة يستحقون التوبيخ والانتهار .

إن الله بإرادته يدعو قوات الطبيعة لتهلك قوة أعدائه . «النَّارُ وَالْبَرَدُ ، الثَّلْجُ وَالضَّبَـــابُ ، الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الصَّانِعَةُ كَلِمَتَهُ» (مزمور ١٤٨ : ٨) . فحين تصدى الأموريـــون الوثنيـــون لمقاومة مقاصد الله تدخل وأمطر «حِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ السَّمَاءِ» على أعداء إســـرائيل . وقـــد أخبرنا عن معركة أعظم ستنشب في أواخر تاريخ الأرض حين «فَتَحَ الرَّبُّ خِزَانَتَهُ ، وَأَخْـــرَجَ آلاَتِ رِجْزِهِ» (إرميا ٥٠ : ٢٥) وها هو يسأل قائلا : «أَدَخَلْتَ إِلَى خَزَائِنِ الثَّلْجِ ، أَمْ أَبْصَرْتَ مَخَازِنَ الْبَرَدِ ، الَّتِي أَبْقَيْتَهَا لِوَقْتِ الضَّرِّ ، لِيَوْمِ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ» (أيوب ٣٨ : ٢٢،٢٣) .

إن الرائي يصف الخراب والهلاك الذي سيحدث حين يعلن «صَوْتٌ عَظِيمٌ مِـــنْ هَيْكَـــلِ السَّمَاءِ مِنَ الْعَرْشِ قَائِلاً :«قَدْ تَمَّ !»» ثم يقول : «وَبَرَدٌ عَظِيمٌ ، نَحْوُ ثِقَلِ وَزْنَةٍ ، نَزَلَ مِـــنَ السَّمَاءِ عَلَى النَّاسِ» (رؤيا ١٦ : ١٧،٢١) .

الفصل الثامن والأربعون

تقسيم كنعان

إن النصرة التي أحرزها إسرائيل في بيت حورون تلاها الغزو السريع لجنوبي كنعان . «فَضَرَبَ يَشُوعُ كُلَّ أَرْضِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ ... وَأَخَذَ يَشُوعُ جَمِيعَ أُولئِكَ الْمُلُوكِ وَأَرْضِهِمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ حَارَبَ عَنْ إِسْرَائِيلَ . ثُمَّ رَجَعَ يَشُوعُ وَجَمِيعُ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى الْجِلْجَالِ» (انظر يشوع ١٠ : ٤ ٤٣؛ وأصحاح ١١) .

وإذ كانت قبائل شمالي فلسطين مرتعبة من النجاح الذي لازم جيوش إسرائيل تحالفت ضدهم . وعلى رأس ذلك الحلف كان يابين ملك حاصور ، وهو إقليم يقع غربي بحيرة ميروم . «فَخَرَجُوا هُمْ وَكُلُّ جُيُوشِهِمْ مَعَهُمْ» كان هذا الجيش أكبر بكثير من أي جيش حارب إسرائيل في كنعان . «شَعْبًا غَفِيرًا كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِي الْكَثْرَةِ ، بِخَيْلٍ وَمَرْكَبَاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا . فَاجْتَمَعَ جَمِيعُ هؤُلاَءِ الْمُلُوكِ بِمِيعَادٍ وَجَاءُوا وَنَزَلُوا مَعًا عَلَى مِيَاهِ مَيْرُومَ لِكَيْ يُحَارِبُوا إِسْرَائِيلَ» فقدم الرب ليشوع رسالة تشجيع أخرى تقول : «لاَ تَخَفْهُمْ ، لأَنِّي غَدًا فِي مِثْلِ هذَا الْوَقْتِ أَدْفَعُهُمْ جَمِيعًا قَتْلَى أَمَامَ إِسْرَائِيلَ» .

وعند مياه ميروم سقط يشوع على محلة أولئك الحلفاء وأهلك جيوشهم هلاكا شاملا . «فَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ بِيَدِ إِسْرَائِيلَ ، فَضَرَبُوهُمْ وَطَرَدُوهُمْ ... حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَارِدٌ» أما المركبات والخيل التي كان الكنعانيون يعتزون بها ويفتخرون فلم يأخذها بنو إسرائيل لأنفسهم ، فبأمر من الرب أحرقت المركبات وعرقبت الخيل بحيث لم تعد صالحة لاستخدامها في الحروب . إن الإسرائيليين لم يكونوا ليضعوا ثقتهم في المركبات أو الخيل بل «في اسم الرب إلههم» .

وقد أخذت المدن الواحدة في إثر الأخرى . أما حاصور التي كانت معقل ذلك الحلف فقد

أحرقت بالنار ، ثم ظلت الحرب ناشبة لا يخمد أوارها عدة سنين . ولكن في نهايتها كان يشوع سيد كنعان «وَاسْتَرَاحَتِ الأَرْضُ مِنَ الْحَرْبِ» .

ومع أن قوة الكنعانيين كانت قد تحطمت إلا أنهم لم يجردوا من أملاكهم تماما . ففي الغرب كان الفلسطينيون يملكون سهلا خصيبا بقرب شاطئ البحر ، كما أن في شماليهم كانت بلاد الصيدونيين الذين كانوا يمتلكون لبنان أيضا ، وفي الجنوب بالقرب من مصر كان أعداء إسرائيل يحتلون تلك البلاد .

ومع ذلك فإن يشوع لم يكن ليواصل الحرب فقد بقي لذلك القائد العظيم عمل آخر يعمله قبل اعتزال عمله كقائد لإسرائيل . فكل الأرض سواء منها ما أخضع وما لم يخضع بعد كان ينبغي تقسيمها بين الأسباط . وكان ينبغي لكل سبط أن يخضع ميراثه ويسيطر عليه سيطرة كاملة . فإذا برهن الشعب على أمانتهم لله فسيطرد أعداءهم من أمامهم ، كما أنه وعد بأن يعطيهم أملاكا إذا ظلوا أمناء لعهده .

وقد وكل أمر توزيع الأرض إلى يشوع وألعازار رئيس الكهنة ورؤساء الأسباط . أما تحديد مكان كل سبط فكان يحكم فيه بموجب القرعة . إن موسى كان قد عين حدود البلاد كما كانت ستقسم بين الأسباط حين يمتلكون كنعان . وكان قد عين رؤساء من كل سبط ليكون حاضرا في وقت التوزيع . وحيث أن سبط لاوي كان مكرسا لخدمة المقدس فلم يكن لهم نصيب في هذا التقسيم ، إنما خصصت لهم ثمان وأربعون مدينة في كافة أنحاء البلاد ميراثا لهم .

ولكن قبل البدء في توزيع الأرض التي دخلوها جاء كالب يصحبه رؤساء سبطه وقدموا مطلبا خاصا . كان كالب ، ما عدا يشوع ، أكبر رجل في إسرائيل سنا . إن كالب ويشوع هما وحدهما دون جميع الجواسيس اللذان قدما تقريرا حسنا عن أرض الموعد ، وشجعا الشعب على أن يصمدوا ويمتلكوها باسم الرب . والآن فها كالب يذكّر يشوع بوعد الرب الذي قدمه له جزاء أمانته ، «إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي وَطِئَتْهَا رِجْلُكَ لَكَ تَكُونُ نَصِيبًا وَلأَوْلاَدِكَ إِلَى الأَبَدِ ، لأَنَّكَ اتَّبَعْتَ الرَّبَّ إِلهِي تَمَامًا» (يشوع ١٤ : ٦-١٥) ولذلك طلب أن تعطى له حبرون ملكا ، وفي هذه المدينة عاش إبراهيم وإسحاق ويعقوب سنين طويلة ، ولما ماتوا دفنوا جميعا في

مغارة المكفيلة . لقد كانت حبرون موطن بني عناق الذين كان يخشى بأسهم والذين كان منظرهم مرعبا ومخيفا جدا حتى لقد ارتعب منهم الجواسيس الآخرون أشد الرعب ، وكان ذلك الرعب كافيا لأن يلاشي من قلوب كل إسرائيل الشجاعة ، فهذا المكان دون باقي الأملكن هو الذي اختاره كالب ميراثا له إذ اتكل على قدرة الله .

قال كالب : «وَالآنَ فَهَا قَدِ اسْتَحْيَانِيَ الرَّبُّ كَمَا تَكَلَّمَ هذِهِ الْخَمْسَ وَالأَرْبَعِينَ سَنَةً ، مِنْ حِينَ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى بِهذَا الْكَلاَمِ ... وَالآنَ فَهَا أَنَا الْيَوْمَ ابْنُ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً . فَلَمْ أَزَلِ الْيَوْمَ مُتَشَدِّدًا كَمَا فِي يَوْمَ أَرْسَلَنِي مُوسَى . كَمَا كَانَتْ قُوَّتِي حِينَئِذٍ ، هكَذَا قُوَّتِي الآنَ لِلْحَرْبِ وَلِلْخُرُوجِ وَلِلدُّخُولِ . فَالآنَ أَعْطِنِي هذَا الْجَبَلَ الَّذِي تَكَلَّمَ عَنْهُ الرَّبُّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ . لأَنَّكَ أَنْتَ سَمِعْتَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ الْعَنَاقِيِّينَ هُنَاكَ ، وَالْمُدُنُ عَظِيمَةٌ مُحَصَّنَةٌ . لَعَلَّ الرَّبَّ مَعِي فَأَطْرُدَهُمْ كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ» . وقد وقف إلى جانب كالب في هذا الطلب رؤساء سبط يهوذا . فإذ كان كالب هو نفسه الشخص المعين من هذا السبط لتوزيع الأرض فقد اختار أن يشرك هؤلاء الرجال معه في تقديم هذا الطلب حتى لا يبدو وأنه قد استخدم سلطته ليحصل على امتياز أناني .

فأجيب إلى طلبه في الحال ، لأنه لم يكن هنالك شخص آخر يمكن أن يركن إليه في غزو معقل الجبابرة هذا غير كالب ، «فَبَارَكَهُ يَشُوعُ ، وَأَعْطَى حَبْرُونَ لِكَالَبَ بْنِ يَفُنَّةَ مُلْكًا ... لأَنَّهُ اتَّبَعَ تَمَامًا الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ» لقد كان إيمان كالب الآن كما كان حين قدم لموسى تقريرا يناقض ذلك التقرير المشؤوم الذي قدمه الجواسيس الآخرون . لقد آمن بوعد الله في أنه سيورث شعبه أرض كنعان . وفي هذا اتبع الرب تماما . لقد احتمل مع باقي الشعب متاعب الاغتراب الطويل في البرية ، كما أنه شاطر المذنبين في حمل أثقالهم وخيبة آمالهم ، ومع ذلك فهو لم يشك من هذا بل مجد رحمة الرب التي حفظته في البرية في حين سقطت جثث إخوته وقطعوا من أرض الأحياء . ففي وسط المشقات والمخاطر والضربات والكوارث التي حلت بالشعب وهم هائمون في البرية ، وفي أثناء سني الحرب منذ دخولهم كنعان حفظه الرب واستحياه . والآن بعدما جاوز الثمانين من العمر لم تفتر همته ولا وهن عزمه . إنه لم يطلب لنفسه بلادا مفتتحة مغلوبة على أمرها ، بل طلب أمان الذي ظن الجواسيس أنه من المستحيل إخضاعه دون باقي الأماكن أجمع . ولكنه بمعونة الله سيغتصب هذا الحصن من أيدي الجبابرة

الذين صعقت قوتهم إيمان إسرائيل . إن الدافع الذي حدا كالب على أن يتقدم بهذا الطلب لم يكن رغبته في الكرامة الشخصية أو تعظيم الذات ، ولكن ذلك المحارب الشيخ الباسل كان يتوق إلى أن يعطي للشعب مثالا به يكرم الله ويشجع باقي الأسباط على أن يخضعوا إخضاعا كاملا تلك الأرض التي ظن آباؤهم أنه يستحيل التغلب عليها .

لقد حصل كالب على الميراث الذي قد وضع عليه قلبه مدة أربعين سنة . وإذ وثق بأن الله سيكون معه «طَرَدَ ... مِنْ هُنَاكَ بَنِي عَنَاقَ الثَّلاَثَةَ» (يشوع ١٥ : ١٤) . وبعدما حصل على ميراث لنفسه ولبيته لم تضعف غيرته ولم يستقر في مكانه ليتمتع بميراثه بل ظل يواصل الحرب وقام بغزوات جديدة لأجل خير الأمة ومجد الله .

لقد هلك الجبناء والعصاة في البرية أما الجاسوسان الباران فقد أكلا من عنب أشكول ، فلقد أعطي لكل حسب إيمانه . إن غير المؤمنين رأوا أن مخاوفهم قد تحققت فبالرغم من وعد الرب أعلنوا أنه يستحيل عليهم أن يرثوا كنعان فلم يرثوها . أما أولئك الذين وثقوا بالله غير ناظرين إلى الصعوبات التي عليهم أن يواجهوها بل إلى قدرة معينهم القدير فقد دخلوا الأرض الشهية . إن العظماء قديما «بِالإِيمَانِ : قَهَرُوا مَمَالِكَ ... نَجَوْا مِنْ حَدِّ السَّيْفِ ، تَقَوَّوْا مِنْ ضُعْفٍ ، صَارُوا أَشِدَّاءَ فِي الْحَرْبِ ، هَزَمُوا جُيُوشَ غُرَبَاءَ» (عبرانيين ١١ : ٣٣،٣٤) ، «هذِهِ هِيَ الْغَلَبَةُ الَّتِي تَغْلِبُ الْعَالَمَ : إِيمَانُنَا» (ايوحنا ٥ : ٤) .

وهنالك طلب آخر يختص بتقسيم الأرض ، وقد كشف عن روح تختلف اختلافا بينا عن روح كالب . هذا الطلب تقدم به بنو يوسف أي سبط أفرايم مع نصف سبط منسى . إن هذين السبطين نظرا لكثرة عدد أفرادهما طلبا نصيبا مضاعفا من الأرض . إن النصيب المعين لهما كان أغنى الأرض بما في ذلك سهل شارون الخصيب ، إلا أن معظم المدن الرئيسية في ذلك الوادي كانت لا تزال في أيدي الكنعانيين . ولذلك انكمش رجال ذينك السبطين وتراجعا أمام عناء وخطر إخضاع تلك الأملاك فرغبوا في أن يضاف إلى أملاكهم قسم آخر مما سبق للجيوش إخضاعه . لقد كان سبط أفرايم من أكبر أسباط إسرائيل وكان يشوع ينتمي إلى ذلك السبط ، ولذلك اعتبر رجال ذلك السبط أنهم يستحقون أن يعاملوا معاملة خاصة . وكلم بنو يوسف يشوع قائلين : «لِمَاذَا أَعْطَيْتَنِي قُرْعَةً وَاحِدَةً وَحِصَّةً وَاحِدَةً نَصِيبًا وَأَنَا شَعْبٌ عَظِيمٌ ؟»

(يشوع ١٧ : ١٤-١٨) ولكنهم لم يستطيعوا زحزحة ذلك القائد الذي لا يلين عن مبدأ العدالة المشدد .

أجابهم يشوع قائلا : (إِنْ كُنْتَ شَعْبًا عَظِيمًا ، فَاصْعَدْ إِلَى الْوَعْرِ وَاقْطَعْ لِنَفْسِكَ هُنَاكَ فِي أَرْضِ الْفِرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ ، إِذَا ضَاقَ عَلَيْكَ جَبَلُ أَفْرَايِمَ» .

لقد كشف جوابهم عن السبب الحقيقي للشكوى ، فلقد كان يعوزهم الإيمان والشجاعة لطرد الكنعانيين فلقد قالوا : «لاَ يَكْفِينَا الْجَبَلُ . وَلِجَمِيعِ الْكَنْعَانِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي أَرْضِ الْوَادِي مَرْكَبَاتُ حَدِيدٍ» .

كانت قوة إله إسرائيل كفيلة لشعبه ، فلو كان في قلوب بني سبط أفرايم إيمان كالب وشجاعته لما وقف أمامهم أي عدو . وبكل شجاعة وثبات واجه يشوع محاولتهم في الهروب من المشقات والمخاطر حين قال لهم : «أَنْتَ شَعْبٌ عَظِيمٌ وَلَكَ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ ... فَتَطْرُدُ الْكَنْعَانِيِّينَ لأَنَّ لَهُمْ مَرْكَبَاتِ حَدِيدٍ لأَنَّهُمْ أَشِدَّاءُ» ، وهكذا نجد أن نفس حججهم انقلبت عليهم فحيث أنهم شعب عظيم كما قالوا فإنهم قادرون على أن يشقوا لأنفسهم الطريق كما فعل إخوتهم . فبمعونة الله لا حاجة إلى أن يخافوا من مركبات الحديد .

لقد كان مركز قيادة الجيش فيما مضى في الجلجال ، كما كان مركز خيمة الاجتماع هناك . أما الآن فستنقل الخيمة إلى المكان الذي ستظل فيه دائما . هذا المكان هو شيلوه ، وهى بلدة صغيرة في نصيب أفرايم في بقعة تقرب من وسط البلاد بحيث يسهل وصول كل الأسباط إليها . وكان هذا القسم من البلاد قد أخضع خضوعا كاملا ولذلك فلن يجرؤ أحد على إزعاج العابدين ، «وَاجْتَمَعَ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي شِيلُوهَ وَنَصَبُوا هُنَاكَ خَيْمَةَ الاجْتِمَاعِ» (يشوع ١٨ : ١-١٠) والأسباط الذين كانوا معسكرين ، حين انتقلت خيمة الاجتماع من الجلجال ، تبعوها ونصبوا خيامهم بالقرب من شيلوه . وقد ظلت تلك الأسباط هناك إلى أن تفرقوا لامتلاك الأرض .

ظل التابوت في شيلوه مدة ثلاث مئة سنة إلى أن وقع بين أيدي الفلسطينيين ودمرت شيلوه بسبب خطايا بيت عالي . ولم يعد التابوت إلى خيمة الاجتماع في شيلوه قط ، بل نقلت خدمة المقدس إلى الهيكل في أورشليم ، وعادت شيلوه مدينة عديمة الأهمية ، وليس هناك الآن غير

الأطلال التي تشير إلى المكان الذي كانت فيه تلك المدينة قبلا . وبعد ذلك بسنين طويلة صار مصير تلك المدينة إنذارا وعبرة لأورشليم ، فلقد أعلن الرب على لسان إرميا النبي قائلا : «اذْهَبُوا إِلَى مَوْضِعِي الَّذِي فِي شِيلُوهَ الَّذِي أَسْكَنْتُ فِيهِ اسْمِي أَوَّلاً ، وَانْظُرُوا مَا صَنَعْتُ بِهِ مِنْ أَجْلِ شَرِّ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ ... أَصْنَعُ بِالْبَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ الَّذِي أَنْتُمْ مُتَّكِلُونَ عَلَيْهِ ، وَبِالْمَوْضِعِ الَّذِي أَعْطَيْتُكُمْ وَآبَاءَكُمْ إِيَّاهُ ، كَمَا صَنَعْتُ بِشِيلُوهَ» (إرميا ٧ : ١٢،١٤) .

«وَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ قِسْمَةِ الأَرْضِ» ووزع على كل الأسباط ميراثهم ، قدم يشوع طلبه ، حيث كان قد أعطي له كما قد أعطي لكالب وعد خاص بالميراث . إلا أنه لم يطلب إقليما متسعا بل مدينة واحدة ، «حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ أَعْطَوْهُ الْمَدِينَةَ الَّتِي طَلَبَ ... فَبَنَى الْمَدِينَةَ وَسَكَنَ بِهَا» (يشوع ١٩ : ٤٩،٥٠) . والاسم الذي أطلق على المدينة هو تمنة سارح (ومعناه ، النصيب الباقي) . وهذه شهادة ثابتة على نبل أخلاق ذلك الفاتح وروح الإيثار الذي امتاز به الذي بدلا من أن يكون هو أول من يأخذ لنفسه غنائم المدن التي افتتحها ، أخر مطلبه حتى انتهى أفقر الفقراء من أخذ نصيبه .

وقد أفرزت ست مدن للاويين ، ثلاث منها على كل جانب من جانبي الأردن- أفرزت هذه المدن لتكون مدن ملجأ ليهرب إليها القاتل ليحتمي فيها . إن موسى هو الذي كان قد أمر بتخصيص تلك المدن لتلك الغاية «لِيَهْرُبَ إِلَيْهَا الْقَاتِلُ الَّذِي قَتَلَ نَفْسًا سَهْوًا . فَتَكُونُ لَكُمُ الْمُدُنُ مَلْجَأً ... لِكَيْلاَ يَمُوتَ الْقَاتِلُ حَتَّى يَقِفَ أَمَامَ الْجَمَاعَةِ لِلْقَضَاءِ» (عدد ٣٥ : ١١،١٢) . هذا الإجراء الرحيم صار لازما بسبب وجود عادة الثأر الشخصي القديمة التي بموجبها تؤول معاقبة القاتل إلى أقرب الأقرباء أو الوريث الأقرب إلى القتيل . أما في الحالات التي فيها تثبت الجريمة بجلاء فلم يكن هناك ما يدعو للانتظار حتى يجري القضاة المحاكمة . فيمكن لولي الدم أن يتعقب المجرم في أي مكان ويقتله أينما يجده . ولم ير الرب مناسبة إبطال تلك العادة في ذلك الحين ، إلا أنه أعد العدة ليكفل سلامة من يقتلون سهوا بغير تعمد .

ثم وزعت مدن الملجأ بحيث تكون كل منها على مسافة سفر نصف يوم في أي قسم من أقسام البلاد . والطرق المؤدية إليها كان يجب أن تظل دائما ممهدة وفي حالة جيدة .

وعلى طول الطريق كانت لوحات للإعلان أو لافتات يكتب عليها بخط كبير واضح كلمة «ملجأ» حتى لا يتعطل الهارب لحظة واحدة . وكان يمكن لأي عبراني أو نزيل أو غريب أن يستفيد من هذا التدبير . ولئن كان محرما على أحد أن يقتل إنسانا بريئا بتهور وفي غير روية ، فلم يكن المجرمون ليفلتوا من القصاص . كانت السلطات الحاكمة هي التي تحكم في قضية اللاجئ بمنتهى العدالة . فقط حين كان يوجد سليم النية في تهمة القتل العمد كان يسمح له بالاحتماء في مدينة الملجأ . أما المجرمون فكانوا يسلمون إلى أيدي ولي الدم . وأما أولئك الذين كان لهم حق الاحتماء بمدينة الملجأ فقد كانوا يتمتعون بذلك الامتياز على شرط أن يبقوا داخل أسوار تلك المدينة . فلو أن أحدهم تجول هنا أو هناك خارج الحدود المفروضة ووجده ولي الدم فلابد أن يدفع حياته ثمنا للاستهانة بتدبير الرب . وعند موت الكاهن العظيم كانت تعطى الحرية لأولئك اللاجئين في العودة إلى بلادهم .

وعند النظر في قضية قتل ما ، لم يكن يحكم على المتهم بالموت بناء على شهادة شاهد واحد ، حتى ولو كان هنالك برهان عرضي قوي بإدانته . فلقد أمر الرب قائلا : «كُلُّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا فَعَلَى فَمِ شُهُودٍ يُقْتَلُ الْقَاتِلُ . وَشَاهِدٌ وَاحِدٌ لاَ يَشْهَدْ عَلَى نَفْسٍ لِلْمَوْتِ» (عدد ٣٥ : ٣٠) . إن المسيح هو الذي أعطى التعليمات لموسى لأجل إسرائيل . وحين كان هو بنفسه مع تلاميذه على الأرض ، عندما كان يعلمهم عن كيفية معاملة المخطئين ردد ذلك المعلم العظيم هذا الدرس على مسامعهم ، وهو أن شهادة رجل واحد لا تبرئ ولا تدين . إن أفكار وآراء إنسان واحد لا تقضي في الأمور المختلف عليها . وفي كل هذه المسائل ينبغي أن تتفق آراء رجلين أو أكثر حيث يتحمل جميعهم المسؤولية ، «لِكَيْ تَقُومَ كُلُّ كَلِمَةٍ عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ» (متى ١٨ : ١٦) .

فإذا تبرهن أن المتهم بالقتل مذنب فلا يمكن لأية كفارة أو فدية أن تنقذه من الموت . «سَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ بِالإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ» (تكوين ٩ : ٦) «وَلاَ تَأْخُذُوا فِدْيَةً عَنْ نَفْسِ الْقَاتِلِ الْمُذْنِبِ لِلْمَوْتِ ، بَلْ إِنَّهُ يُقْتَلُ» (عدد ٣٥ : ٣١،٣٣) «فَمِنْ عِنْدِ مَذْبَحِي تَأْخُذُهُ لِلْمَوْتِ» (خروج ٢١ : ١٤) . «وَعَنِ الأَرْضِ لاَ يُكَفَّرُ لأَجْلِ الدَّمِ الَّذِي سُفِكَ فِيهَا ، إِلاَّ بِدَمِ سَافِكِهِ» (عدد ٣٥ : ٣٣) إن سلامة وطهارة الأمة كانتا تتطلبان معاقبة خطية القتل بقساوة إذ أن الحياة البشرية التي لا يمنحها غير الله وحده ينبغي المحافظة عليها

وتقديسها بكل حرص .

إن مدن الملجأ التي قد عينها الله لشعبه قديما كانت رمزا إلى الملجأ الذي قد أعد لنا في المسيح . إن نفس المخلص الرحيم الذي عين مدن الملجأ الوقتية تلك ، أعد ، بسفك دمه ، مكانا مأمونا يهرب إليه من يتعدون شريعة الله ليحتموا فيه من الموت الثاني ، ولا يمكن لأية قوة مهما عظمت أن تختطف من يده تلك النفوس التي تذهب إليه في طلب الغفران . «إِذًا لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» ، «مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ ؟ اَلْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ ، بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضًا ، الَّذِي هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ ، الَّذِي أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا» ، «حَتَّى ... تَكُونُ لَنَا تَعْزِيَةٌ قَوِيَّةٌ ، نَحْنُ الَّذِينَ الْتَجَأْنَا لِنُمْسِكَ بِالرَّجَاءِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَنَا» (رومية ٨ : ١، ٣٤؛ عبرانيين ٦ : ١٨) .

إن من كان يهرب إلى مدينة الملجأ لم يكن ليتباطأ بل كان يترك خلفه عائلته وعمله . ولم يكن لديه وقت ليودع أحباءه . إن حياته كانت معرضة للخطر ، وكان يجب عليه أن يضحي بالمصالح الأخرى في سبيل هذا الغرض الواحد– وهو وصوله إلى موطن الأمان . كان ينسى التعب والإعياء ، وما كان يكترث للصعوبات . وما كان الهارب ليجرؤ على التمهل لحظة واحدة في ركضه حتى يجد نفسه داخل أسوار المدينة .

إن الخاطئ معرض للموت الأبدي حتى يجد ملجأ في المسيح . وكما أن التلكؤ وعدم المبالاة كان بإمكانهما أن يسلبا من الهارب فرصته الوحيدة للظفر بالحياة فكذلك الإهمال وعدم الاكتراث يمكنهما أن يسوقا النفس إلى الهلاك ، فالشيطان الذي هو الخصم الأعظم ، يجدّ في أثر كل من يتعدون شريعة الله المقدسة . فالذي لا يحس بخطره ولا يسرع بكل غيرة ليحتمي في الملجأ الأبدي ، لا بد أن يقع فريسة بين يدي المهلك .

واللاجئ الذي كان يخرج في أي وقت خارج مدينة الملجأ يصبح تحت رحمة ولي الدم . وهكذا تعلم الشعب أن يتمسكوا بالوسائل التي قد عينتها حكمة الله غير المحدودة لضمان سلامتهم ، كما أنه يجب ألا يكتفي الخاطئ بالإيمان بالمسيح لأجل الغفران بل عليه بالإيمان والطاعة أن يثبت فيه ، «فَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأْنَا بِاخْتِيَارِنَا بَعْدَمَا أَخَذْنَا مَعْرِفَةَ الْحَقِّ ، لاَ تَبْقَى بَعْدُ ذَبِيحَةٌ عَنِ الْخَطَايَا ، بَلْ قُبُولُ دَيْنُونَةٍ مُخِيفٌ ، وَغَيْرَةُ نَارٍ عَتِيدَةٍ أَنْ

تَأْكُلَ الْمُضَادِّينَ» (عبرانيين ١٠ : ٢٦،٢٧) .

إن سبطين من أسباط إسرائيل وهما رأوبين وجاد ونصف سبط منسى كانوا قد أخذوا ميراثهم قبل عبور الاردن . إن رعاة الغنم والمواشي إذ رأوا السهول المرتفعة الفسيحة وغابات جلعاد وباشان الخصبة التي وفرت مراعى واسعة لغنمهم ومواشيهم اجتذبتهم تلك الأرض أكثر مما اجتذبتهم كنعان نفسها . وإذ كان رجال السبطين ونصف السبط يرغبون في الاستيطان في هذا المكان فقد ارتبطوا بعهد ، وهو أن يحشدوا نصيبهم من الرجال المحاربين ليعبروا الأردن متجهزين أمام إخوتهم ويشتركوا معهم في كل المعارك حتى يمتلكوا الأرض . وقد تمموا مطاليب ذلك العهد بكل أمانة . فإذ دخل الأسباط العشرة إلى أرض كنعان ، عبر أربعون ألفا من بني رأوبين وبني جلعاد ونصف سبط منسى «مُتَجَرِّدِينَ لِلْجُنْدِ عَبَرُوا أَمَامَ الرَّبِّ لِلْحَرْبِ إِلَى عَرَبَاتِ أَرِيحَا» (يشوع ٤ : ١٢،١٣) . وقد ظلوا سنين كثيرة يحاربون بكل شجاعة إلى جانب إخوتهم . والآن حان الوقت الذي فيه يعودون إلى أرض ملكهم . وكما شاركوا إخوتهم في الحرب ، كذلك أخذوا نصيبهم من الغنائم . فرجعوا ، «بِمَالٍ كَثِيرٍ ... وَبِمَوَاشٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا ، بِفِضَّةٍ وَذَهَبٍ وَنُحَاسٍ وَحَدِيدٍ وَمَلاَبِسَ كَثِيرَةٍ جِدًّا» (انظر يشوع ٢٢) فكان عليهم أن يقسموا هذا كله مع أولئك الذين بقوا مع عائلاتهم ومواشيهم .

كان عليهم الآن أن يسكنوا بعيدا عن مقدس الرب ، لذلك تطلع إليهم يشوع وهم ينصرفون ، وقلبه واجف ، إذ كان يعرف عنف التجارب التي سيتعرضون لها في حياتهم حياة العزلة والتجوال ، حيث كان يخشى أن يشاركوا القبائل الوثنية الساكنة على حدودهم في عاداتهم النجسة .

وإذ كان عقل يشوع وعقول القادة الآخرين رازحة تحت أثقال تطيراتهم ومخاوفهم وصلتهم أخبار غريبة . فإلى جانب الأردن بقرب المكان الذي عبر فيه الشعب النهر بطريقة عجائبية أقام رجال السبطين ونصف السبط مذبحا عظيما شبيها بمذبح المحرقة الذي في شيلوه . لقد نهت شريعة الله تحت حكم الموت ، عن إقامة عبادة أخرى غير تلك التي في المقدس . فإذا كان هذا هو الغرض من إقامة هذا المذبح وسمح ببقائه فسيبعد الشعب عن الإيمان الحقيقي .

فاجتمع ممثلو الشعب في شيلوه ، وفي شدة اهتياجهم وغضبهم أرادوا أن يثيروا حربا على

أولئك المذنبين . ولكن بفضل مشورة بعض المعتدلين والمتعقلين بين الجماعة تقرر أن يرسلوا وفدا إلى السبطين ونصف السبط مستفسرين منهم عن علة هذا التصرف . فاختاروا عشرة رؤساء ، واحدا من كل سبط ، وعلى رأسهم فينحاس الذي اشتهر بغيرته للرب في أمر فغور .

ومما لا ريب فيه أن رجال السبطين ونصف السبط كانوا مخطئين في كونهم شرعوا في ذلك العمل المعرض للشك الخطير دون أن يقدموا تفسيرا له ، كما أن السفراء إذ كانوا يعتقدون أن إخوتهم مذنبون فقد وبخوهم توبيخا صارما ، ثم اتهموهم بالتمرد على الرب وذكروهم بالويلات التي حلت على إسرائيل جزاء تعلقهم ببعل فغور ، فقال فينحاس لبني جاد ورأوبين ، نائبا عن إسرائيل ، إنهم إذا كانوا لا يرغبون في السكنى في تلك الأرض بدون مذبح للمحرقات فإنهم يرحبون بهم ليقاسموهم ميراثهم وامتيازاتهم في عبر الأردن .

غير أن أولئك المتهمين أوضحوا لهم أنهم لم يقيموا ذلك المذبح ليقدموا الذبائح ، بل ليكون فقط شاهدا على أنهم مع كونهم منفصلين عن إخوتهم بالنهر إلا أنهم يعتنقون نفس إيمان إخوتهم الساكنين في كنعان . وقالوا إنهم يخشون أنه في مستقبل الأيام سيبعد أولادهم عن خيمة الاجتماع كأن لا نصيب لهم في إسرائيل . وحينئذ فهذا المذبح المبني على هيئة مذبح الرب في شيلوه ، سيكون كأي شاهد على أن من قد بنوه هم أيضا عبيد الله الحي .

بكل سرور قبل السفراء هذا التفسير ، وبسرعة حملوا تلك الأخبار إلى من قد أرسلوهم . وهكذا استبعدت فكرة الحرب واشترك الشعب في الفرح وفي تسبيح الله .

وقد نقش بنو رأوبين وجاد كتابة على هذا المذبح تشير إلى الغاية من إقامته قائلين : «أَنَّهُ شَاهِدٌ بَيْنَنَا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللهُ» وبذلك حاولوا تلافي أي خطأ مستقبل وإزالة كل ما يمكن أن يسبب التجربة .

كم من المرات تنشأ مشاكل خطيرة عن سوء فهم بسيط ، حتى بين من هم مدفوعون بأنبل البواعث ، ولكن فبدون المجاملة والاحتمال ، ما أخطر ، لا بل ما أشأم النتائج التي يمكن أن تحدث . إن رجال الأسباط العشرة ذكروا كيف أن الله قد وبخهم في أمر عخان على عدم تيقظهم لاكتشاف الخطايا المتفشية بينهم . أما الآن فقد عزموا على أن يعملوا عملهم بكل حزم

518,519

وغيرة . ولكنهم وهم يحاولون التخلص من غلطتهم الأولى تطرفوا إلى أقصى حد . فبدلا من أن يسألوا إخوتهم برقة ولطف عن حقيقة المسألة واجهوهم باللوم والإدانة . ولو أن بني رأوبين وجاد جاوبوهم بنفس الروح وبنفس الحدة لثارت بينهم الحرب . فبينما نعلم أنه أمر هام جدا من الناحية الواحدة أن لا نتساهل في معاملة الخطية ، نرى من الناحية الأخرى أنه أمر مساو في الأهمية أن لا ندين الناس ونشك فيهم على غير أساس .

إن كثيرين من الناس ، بينما هم شديدو الحساسية حين يوجه إليهم أقل لوم بسبب سوء تصرفاتهم ، فإنهم يتجاوزون الحد في قساوتهم في معاملة من يظنون أنهم مخطئون . لم يرجع إنسان قط عن خطئه باللوم والتعنيف بل كثيرون يبعدون بذلك عن طريق الصواب ويدفعوا إلى تقسية قلوبهم ضد كل توبيخ . إن روح العطف والاشفاق والرقة يمكن أن تخلص المخطئين وتستر كثرة من الخطايا .

إن الحكمة التي أظهرها بنو رأوبين وشركاؤهم تستحق أن تكون مثالا يحتذى . وحيث كانوا بكل أمانة يحاولون أن يوطدوا دعائم الدين الحقيقي ، فقد حوكموا محاكمة خاطئة ظالمة ووجهت إليهم أقسى عبارات اللوم والتعنيف ومع ذلك فلم يغضبوا أو يثوروا . إنهم بكل لطف ورقة وصبر أصغوا إلى الاتهامات التي وجهها إليهم إخوتهم قبلما حاولوا الدفاع عن أنفسهم . وبعد ذلك أوضحوا لهم إيضاحا شاملا بواعثهم وبرهنوا على براءتهم . وهكذا حكم في تلك المشكلة التي كانت تهدد الشعب بنتائج خطيرة ، وحلت بطريقة سلمية .

إن من يقفون إلى جانب الصواب ، يمكنهم أن يكونوا هادئين وفي غاية الرصانة حتى ولو اتهموا ظلما وكذبا ، فالله خبير وعليم بكل ما يسيء الناس فهمه ويحرفون معناه ، ونحن يمكننا أن نضع قضيتنا بين يديه بلا خوف أو وجل . وهو بكل تأكيد سيزكي دعوى كل من يتكلون عليه كما قد اكتشف جريمة عخان . إن من يحركهم روح المسيح يملكون تلك المحبة التي تتأنى وترفق .

يريد الله أن تملك الوحدة والمحبة الأخوية بين شعبه ، فالصلاة التي قدمها المسيح قبيل صلبه كانت لكي يكون تلاميذه واحدا كما أنه هو والآب واحد ليؤمن العالم أن الله قد أرسله . وهذه الصلاة المؤثرة جدا والعجيبة جدا تصل عبر الأجيال إلى أيامنا هذه ، لأنه صلى قائلا :

«ولَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ ، بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ» (يوحنا ١٧ : ٢٠) فبينما لا نضحي بمبدأ واحد من مبادئ الحق ينبغي لنا أن نستهدف دائما الوصول إلى هذه الوحدة فهذا هو برهان تلمذتنا ، كما قال المسيح «بِهذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلاَمِيذِي : إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضًا لِبَعْضٍ» والرسول بطرس يعظ الكنيسة قائلا : «كُونُوا جَمِيعًا مُتَّحِدِي الرَّأْيِ بِحِسٍّ وَاحِدٍ ، ذَوِي مَحَبَّةٍ أَخَوِيَّةٍ ، مُشْفِقِينَ ، لُطَفَاءَ ، غَيْرَ مُجَازِينَ عَنْ شَرّ بِشَرّ أَوْ عَنْ شَتِيمَةٍ بِشَتِيمَةٍ ، بَلْ بِالْعَكْسِ مُبَارِكِينَ ، عَالِمِينَ أَنَّكُمْ لِهذَا دُعِيتُمْ لِكَيْ تَرِثُوا بَرَكَةً» (١بطرس ٣ : ٨،٩) .

الفصل التاسع والأربعون

كلمات يشوع الأخيرة

ما إن انتهت حروب الغزو حتى أوى يشوع إلى بيته في تمنة سارح براحة الاطمئنان ، «وَكَانَ غِبَّ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ ، بَعْدَمَا أَرَاحَ الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ حَوَالَيْهِمْ ، أَنَّ يَشُوعَ ... دَعَا ... جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ وَشُيُوخَهُ وَرُؤَسَاءَهُ وَقُضَاتَهُ وَعُرَفَاءَهُ» (انظر يشوع ٢٣، ٢٤) .

مضت بضع سنين منذ استراح الشعب كل في ملكه ، وكانت تلك الشرور التي سبق أن جلبت على إسرائيل الويلات الكثيرة ، قد بدأت تستشري وتؤتي ثمارها . فإذ أحس يشوع بضعفات الشيخوخة تدب في أوصاله ، وتحقق من أن عمله موشك على الانتهاء امتلأ قلبه جزعا على مستقبل شعبه ، ولما اجتمعوا مرة أخرى حول قائدهم الشيخ جعل يخاطبهم باهتمام يفوق اهتمام الأب بأولاده ، فقال : «وَأَنْتُمْ قَدْ رَأَيْتُمْ كُلَّ مَا عَمِلَ الرَّبُّ إِلهُكُمْ بِجَمِيعِ أُولئِكَ الشُّعُوبِ مِنْ أَجْلِكُمْ ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ الْمُحَارِبُ عَنْكُمْ» ومع أن الكنعانيين كانوا قد أخضعوا ، فقد كانوا يملكون قسما كبيرا من الأرض الموعود بها لإسرائيل ، فناشد يشوع شعبه ألا يركنوا إلى الراحة وينسوا أمر الرب لهم بتجريد تلك الأمم الوثنية نهائيا من البلاد .

وكان الشعب بوجه عام متباطئين في إتمام عملية طرد الوثنيين . فالأسباط تفرقت كل إلى أرضه ، والجيش سُرِّح ، ومسألة استئناف الحرب في نظرهم كانت عملا شاقا ومشكوكاً فيه . ولكن يشوع أعلن قائلاً لهم : «الرَّبُّ إِلهُكُمْ هُوَ يَنْفِيهِمْ مِنْ أَمَامِكُمْ وَيَطْرُدُهُمْ مِنْ قُدَّامِكُمْ ، فَتَمْلِكُونَ أَرْضَهُمْ كَمَا كَلَّمَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ . فَتَشَدَّدُوا جِدًّا لِتَحْفَظُوا وَتَعْمَلُوا كُلَّ الْمَكْتُوبِ فِي سِفْرِ شَرِيعَةِ مُوسَى حَتَّى لاَ تَحِيدُوا عَنْهَا يَمِينًا أَوْ شِمَالاً» .

واستشهد يشوع بالشعب أنفسهم كشهود على أنهم ما داموا يتممون الشروط فالله من جانبه أنجز وعوده لهم فقال : «وَتَعْلَمُونَ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ وَكُلِّ أَنْفُسِكُمْ أَنَّهُ لَمْ تَسْقُطْ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ

مِنْ جَمِيعِ الْكَلاَمِ الصَّالِحِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ عَنْكُمُ . الْكُلُّ صَارَ لَكُمْ . لَمْ تَسْقُطْ مِنْهُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ» ثم أعلن لهم أنه كما أنجز الرب مواعيده فسينفذ تهديداته ووعيده ، قال «وَيَكُونُ كَمَا أَنَّهُ أَتَى عَلَيْكُمْ كُلُّ الْكَلاَمِ الصَّالِحِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ إِلهُكُمْ عَنْكُمْ ، كَذلِكَ يَجْلِبُ عَلَيْكُمُ الرَّبُّ كُلَّ الْكَلاَمِ الرَّدِيءِ ... حِينَمَا تَتَعَدَّوْنَ عَهْدَ الرَّبِّ إِلهِكُمُ ... يَحْمَى غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْكُمْ فَتَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الأَرْضِ الصَّالِحَةِ الَّتِي أَعْطَاكُمْ» .

والشيطان يخدع الناس بتلك الأكذوبة القائلة إن محبة الله لشعبه عظيمة جدا بحيث أنه سيغضي عن الخطية في حياتهم ، وهو يقول إنه في حين أن تهديدات الله تخدم غرضا خاصا في حكمه الأدبي فلن تنفذ حرفيا . ولكن الله في كل معاملاته مع خلائقه قد أيّد مبادئ البر بإظهار الخطية على حقيقتها- وبإعلان حقيقة كون عاقبتها المحتومة هي الشقاء والموت . إن غفران الخطايا غير المشروط لم يكن له وجود ولن يكون ، فمثل هذا الغفران يعلن التخلي عن مبادئ البر وطرحها جانبا مع أنها هي أساس حكم الله ، ومثل هذا الغفران يملأ قلوب كل سكان المسكونة الأبرار ذعرا ورعبا . إن الله قد كف عن عواقب الخطية بكل أمانة . فإذا لم تكن الإنذارات حقيقية فكيف نتأكد من إتمام المواعيد . إن ذلك الإحسان الذي يدعى محبة والذي يلقي بالعدل جانبا ليس هو إحسانا ، بل ضعفا .

إن الله هو مانح الحياة . ومن البدء وضعت شرائعه للحياة ، ولكن الخطية أقحمت نفسها على النظام الذي قد أقره الله ، وتبع ذلك التشويش . وما دامت الخطية باقية فلا بد من وجود الآلام والموت . والإنسان لا يمكنه أن يرجو النجاة من نتائج الخطية الوبيلة بنفسه إلا لأن الفادي قد حمل لعنة الخطية عن البشرية .

وقبل موت يشوع استدعي رؤساء الأسباط وممثلوه ، فاجتمعوا به مرة أخرى في شكيم إطاعة لدعوته . لم تكن هنالك بقعة أخرى في كل البلاد مرتبطة بذكريات مقدسة كثيرة ، وعادت بأفكارهم إلى عهد الله مع إبراهيم ويعقوب ، وذكرتهم بعهودهم المقدسة عند دخولهم كنعان . هنا كان جبلا عيبال وجرزيم ، وكانا كلاهما شاهدين صامتين على عهودهم هذه التي كانوا قد اجتمعوا بقائدهم المزمع أن يموت لكي يجددوها أمامه . وفي كل مكان كانت أدلة على ما قد فعله الله معهم ، وكيف أنه أعطاهم أرضا لم يتعبوا عليها

ومدنا لم يبنوها وكروما وزيتونا لم يغرسوها . وقد ردد يشوع على مسامعهم ، مرة أخرى ، تاريخ إسرائيل ذاكرا عجائب الله لكي يشعر الجميع بمحبته ورحمته ويخدموه «بِكَمَال وَأَمَانَةٍ» .

وبناء على أمر يشوع أتي بالتابوت من شيلوه . وقد كانت تلك الفرصة فرصة وقار مقدسة عظيمة . وهذا الرمز إلى حضور الله سيعمق في نفوسهم التأثير الذي قصد يشوع أن يتأثر به الشعب . فبعدما استعرض أمامهم صلاح الله نحو إسرائيل طلب منهم باسم الرب أن يختاروا لأنفسهم من يعبدون . كانت عبادة الأوثان لا تزال تمارس بينهم إلى حد ما سرا . فأراد يشوع أن يجعلهم الآن يقررون قرارا ينفي هذه الخطية بعيدا عن إسرائيل ، فقال لهم : «وَإِنْ سَاءَ فِي أَعْيُنِكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا الرَّبَّ ، فَاخْتَارُوا لأَنْفُسِكُمُ الْيَوْمَ مَنْ تَعْبُدُونَ» . لقد قصد يشوع أن يقودهم إلى عبادة الرب ليس بالاضطرار بل بالاختيار . إن محبة الله هى أساس الديانة عينا وعبادتنا لله طمعا في الجزاء الحسن أو خوفا من العقاب هى عبادة باطلة لا نفع فيها . والارتداد العلني لن يكون مكروها من الله أكثر من النفاق والعبادة الرسمية الطقسية .

جعل ذلك القائد الشيخ يستنهض همم الشعب ليفكروا في ما قد وضعه أمامهم في علاقته بهم من جميع نواحيه ، وليقرروا هل كانوا حقا يرغبون في أن يعيشوا كما عاشت الأمم الوثنية المنحطة المحيطة بهم . فإن ساء في أعينهم أن يعبدوا الرب مصدر القوة ونبع البركة فليختاروا لأنفسهم من يعبدون– «الآلِهَةَ الَّذِينَ عَبَدَهُمْ آبَاؤُكُمُ» الذين دعا الله إبراهيم ليخرج من بينهم أو (آلِهَةَ الأَمُورِيِّينَ الَّذِينَ أَنْتُمْ سَاكِنُونَ فِي أَرْضِهِمْ» هذه الكلمات الأخيرة كانت توبيخا جارحا لإسرائيل . إن آلهة الأموريين لم تستطع حماية عابديها . فبسبب خطاياهم ورجاستهم وانحطاطهم هلكت تلك الأمة الشريرة . والأرض الجيدة التي كانت قبلا في حوزتهم أعطيت لشعب الله . فأية غباوة هذه أن يختار إسرائيل تلك الآلهة التي سببت عبادتها هلاك الأموريين ؟ ! ثم قال يشوع : «أَمَّا أَنَا وَبَيْتِي فَنَعْبُدُ الرَّبَّ» إن نفس تلك الغيرة المقدسة التي اضطرمت في قلب ذلك القائد ألهبت قلوب الشعب . وكلماته القوية جعلتهم يستجيبون لندائه في غير تردد إذ قالوا : «حَاشَا لَنَا أَنْ نَتْرُكَ الرَّبَّ لِنَعْبُدَ آلِهَةً أُخْرَى» .

523,524

فقال لهم يشوع : «لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْبُدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ إِلهٌ قُدُّوسٌ وَإِلهٌ غَيُورٌ ... لاَ يَغْفِرُ ذُنُوبَكُمْ وَخَطَايَاكُمْ» فقبلما يكون هنالك إصلاح دائم ثابت ينبغي لهم أن يشعروا بعجزهم في ذواتهم عن تقديم الطاعة لله . لقد نقضوا شريعته ، فحكمت عليهم تلك الشريعة بأنهم متعدون وخطاة ولم تقدم لهم طريقا للنجاة . فحين اتكلوا على قوتهم وبرهم كان من المستحيل عليهم أن يحصلوا على غفران خطاياهم ولم يستطيعوا القيام بمطاليب شريعة الله الكاملة ولذلك فعبثا يتعهدون بأن يعبدوا الرب . إنما فقط بالإيمان بالمسيح كان يمكنهم أن ينالوا غفرانا لخطاياهم ويحصلوا على قوة لإطاعة شريعة الله . يجب أن يكفوا عن الاعتماد على مجهودهم الخاص للخلاص ويتكلوا اتكالا كاملا على استحقاقات المخلص الموعود به إذا أرادوا أن يقبلهم الله .

لقد حاول يشوع أن يقود سامعيه إلى أن يزنوا كلامه جيدا ويكفوا عن تقديم النذور والعهود التي هم غير مستعدين لإتمامها . فبغيرة عظيمة كرروا إعلانهم السابق قائلين : «لاَ . بَلِ الرَّبَّ نَعْبُدُ» ، وبكل وقار قبلوا أن يكونوا شهودا على أنفسهم بأنهم قد اختاروا الرب . فرددوا عهد ولائهم مرد أخرى قائلين : «الرَّبَّ إِلهَنَا نَعْبُدُ وَلِصَوْتِهِ نَسْمَعُ» .

«وَقَطَعَ يَشُوعُ عَهْدًا لِلشَّعْبِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ فَرِيضَةً وَحُكْمًا فِي شَكِيمَ» فبعد ما كتب تقريرا عن هذا العهد وضمه مع سفر الشريعة في جانب التابوت . وأقام تذكارا ثم قال «إِنَّ هذَا الْحَجَرَ يَكُونُ شَاهِدًا عَلَيْنَا ، لأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ كُلَّ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِي كَلَّمَنَا بِهِ ، فَيَكُونُ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ لِئَلاَّ تَجْحَدُوا إِلهَكُمْ . ثُمَّ صَرَفَ يَشُوعُ الشَّعْبَ كُلَّ وَاحِدٍ إِلَى مُلْكِهِ» .

أتم يشوع عمله لأجل إسرائيل ، إذ «اتبع الرب تماماً» والكتاب المقدس يصفه بأنه «عَبْدُ الرَّبِّ» . إن أنبل شهادة لأخلاقه كقائد عام هي في تاريخ الجيل الذي تمتع بثمار جهوده إذ يقول الكتاب : «وَعَبَدَ إِسْرَائِيلُ الرَّبَّ كُلَّ أَيَّامِ يَشُوعَ ، وَكُلَّ أَيَّامِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ طَالَتْ أَيَّامُهُمْ بَعْدَ يَشُوعَ» .

الفصل الخمسون

العشور والتقدمات

في النظام العبري كان يفرز عشر دخل الشعب للإنفاق على ما تحتاجه عبادة الله الجهرية . فلقد أعلن موسى لإسرائيل قائلا : «وَكُلُّ عُشْرِ الأَرْضِ مِنْ حُبُوبِ الأَرْضِ وَأَثْمَارِ الشَّجَرِ فَهُوَ لِلرَّبِّ . قُدْسٌ لِلرَّبِّ» ، «وَأَمَّا كُلُّ عُشْرِ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ... يَكُونُ الْعَاشِرُ قُدْسًا لِلرَّبِّ» (لاويين ٢٧ : ٣٠،٣٢) .

إلا أن نظام العشور لم يبدأ أصلا بالعبرانيين ، فمنذ أقدم العصور طلب الرب أن يكون العشر له . وكان هذا الطلب في موضع الاعتبار والإكرام . فلقد أعطى إبراهيم عشرا من كل شيء لملكي صادق كاهن الله العلي (تكوين ١٤ : ٢٠) . ولما كان يعقوب في بيت إيل متغربا وهاربا نذر لله قائلا : «كُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ» (تكوين ٢٨ : ٢٢) . وإذ أوشك الإسرائيليون أن يتثبتوا كأمة أعيد تثبيت شريعة العشور كإحدى الشرائع المعينة من الله والتي يتوقف على إطاعتها النجاح .

كان المقصود من نظام العشور والتقدمات أن ينطبع على عقول الناس حق عظيم– وهو أن الله هو نبع كل البركات لخلائقه وأنه واجب على الإنسان أن يشكره على كل هبات العناية .

«هُوَ يُعْطِي الْجَمِيعَ حَيَاةً وَنَفْسًا وَكُلَّ شَيْءٍ» (أعمال ١٧ : ٢٥) . والرب يعلن قائلا : «لأَنَّ لِي حَيَوَانَ الْوَعْرِ وَالْبَهَائِمَ عَلَى الْجِبَالِ الأُلُوفِ» (مزمور ٥٠ : ١٠) كما يقول أيضا : «لِي الْفِضَّةُ وَلِي الذَّهَبُ» (حجى ٢ : ٨) والله هو الذي يعطى الناس قوة لاصطناع الثروة (تثنية ٨ : ١٨) فاعترافا منا بأن كل شيء هو من الله لذلك أمر الرب بأن جزءا من خيراته ينبغي أن يرجع إليه في العطايا والتقدمات لينفق على عبادته .

«عُشْرِ الأَرْضِ ... لِلرَّبِّ» هنا يستخدم نفس التعبير كما في شريعة السبت . «وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ» (خروج ٢٠ : ١٠) . لقد احتفظ الله لنفسه بجزء معين من

وقت الإنسان ومن ماله . وكل من يستخدم ما يخص الله من أي منهما لمصالحه الخاصة يرتكب ذنبا .

كان العشر كله مخصصا لاستخدام اللاويين ، وهم السبط الذي أفرز لخدمة المقدس . ولكن هذه لم تكن بأي حال كل العطايا للأغراض الدينية . فالخيمة ، كما الهيكل فيما بعد ، أقيمت كليا بفضل العطايا الاختيارية . ولكي يحصلوا على مال لأجل الإنفاق على الإصلاحات والترميمات اللازمة وغير ذلك من النفقات أشار موسى على الشعب أنه كلما عمل إحصاء لبني إسرائيل أن يقدم كل واحد نصف شاقل تبرعا «لِخِدْمَةِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ» . وفي أيام نحميا كانت تقدم التبرعات لهذا الغرض مرة كل سنة (انظر خروج ٣٠ : ١٢-١٦؛ ٢ملوك ١٢ : ٤،٥؛ ٢ أخبار الأيام ٢٤ : ٤-١٣؛ نحميا ١٠ : ٣٢،٣٣) . وبين حين وآخر كان يؤتى بذبائح الخطية وذبائح الشكر إلى الله ، وهذه كانت تقدم بكثرة عظيمة في الأعياد السنوية ، كما نال الفقراء أسخى الهبات .

وحتى قبل تخصيص العشور كان هنالك اعتراف بمطاليب الله . فباكورات حصاد الأرض كانت تكرس لله . وأول جزاز الغنم حين تجز ، وأوائل الحنطة بعدما تدرس ، وأوائل الزيت والخمر كانت تفرز لله ، وكذلك أبكار كل البهائم . أما الابن البكر فكانت تدفع عنه فدية . وباكورات الأثمار كانت تقدم للرب في المقدس وتكرس ليستخدمها الكهنة .

وهكذا كان الشعب يتذكرون دائما أن الله هو المالك الحقيقي لحقولهم وقطعانهم ومواشيهم ، وأنه هو الذي يرسل إليهم المطر والشمس لأجل زرعهم وحصادهم وأن كل ما يملكونه هو من صنع يده ، وما هم إلا وكلاء على أمواله .

وإذ كان رجال إسرائيل يجتمعون في خيمة الاجتماع حاملين باكورات حقولهم وبساتينهم وكرومهم كان يقدم اعتراف من جميعهم بصلاح الله . وحين كان الكاهن يقبل التقدمة ، فمقدمها كان يتكلم كما في حضرة الرب قائلا : «أَرَامِيًّا تَائِهًا كَانَ أَبِي» ثم يصف غربته في مصر والضيقات التي أنقذ الرب إسرائيل منها فيقول : «فَأَخْرَجَنَا الرَّبُّ مِنْ مِصْرَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ رَفِيعَةٍ وَمَخَاوِفَ عَظِيمَةٍ وَآيَاتٍ وَعَجَائِبَ» ، ثم يقول : «وَأَدْخَلَنَا هذَا الْمَكَانَ ، وَأَعْطَانَا هذِهِ الأَرْضَ ، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً . فَالآنَ هأَنَذَا قَدْ أَتَيْتُ بِأَوَّلِ

ثَمَرِ الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتَنِي يَا رَبُّ» (تثنية ٢٦ : ٥،٨-١١) .

إن التبرعات والتقدمات التي كانت مطلوبة من العبرانيين لأغراض دينية وخيرية بلغت ربع دخلهم تماما . فمثل هذه الضريبة الفادحة على دخل الشعب كان ينتظر أن تسوقهم إلى الفقر ، ولكن الواقع كان عكس ذلك فإن مراعاتهم لكل هذه المطاليب بأمانة كانت من بين شروط نجاحهم . فعلى شرط طاعتهم قدم لهم الرب هذا الوعد : «وَأَنْتَهِرُ مِنْ أَجْلِكُمْ الآكِلَ فَلاَ يُفْسِدُ لَكُمْ ثَمَرَ الأَرْضِ ، وَلاَ يُعْقَرُ لَكُمُ الْكَرْمُ فِي الْحَقْلِ ... وَيُطَوِّبُكُمْ كُلُّ الأُمَمِ ، لأَنَّكُمْ تَكُونُونَ أَرْضَ مَسَرَّةٍ ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (ملاخي ٣ : ١١،١٢) .

وهنالك مثال مدهش لنتائج احتفاظ الإنسان لنفسه ، في أنانية ، حتى بالعطايا الاختيارية وعدم تقديمها لعمل الله ، وقد حدث ذلك في أيام حجي النبي . فبعد عودة اليهود من السبي البابلي شرعوا في بناء هيكل الرب ، ولكن لكونهم لاقوا مقاومة عنيفة من أعدائهم كفوا عن العمل ، ولأنه قد حل بالأرض جدب شديد جعلهم في أشد حالات الفاقة- كل ذلك جعلهم يعتقدون أنه من المستحيل عليهم أن يكملوا بناء الهيكل- فقالوا : «إِنَّ الْوَقْتَ لَمْ يَبْلُغْ وَقْتَ بِنَاءِ بَيْتِ الرَّبِّ» ولكن نبي الرب أبلغهم رسالة تقول : «هَلِ الْوَقْتُ لَكُمْ أَنْتُمْ أَنْ تَسْكُنُوا فِي بُيُوتِكُمُ الْمُغَشَّاةِ ، وَهذَا الْبَيْتُ خَرَابٌ ؟ وَالآنَ فَهكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ : اجْعَلُوا قَلْبَكُمْ عَلَى طُرُقِكُمْ . زَرَعْتُمْ كَثِيرًا وَدَخَّلْتُمْ قَلِيلاً . تَأْكُلُونَ وَلَيْسَ إِلَى الشَّبَعِ . تَشْرَبُونَ وَلاَ تَرْوُونَ . تَكْتَسُونَ وَلاَ تَدْفَأُونَ . وَالآخِذُ أُجْرَةً يَأْخُذُ أُجْرَةً لِكِيسٍ مَنْقُوبٍ» (انظر حجي ١) وبعد ذلك يكشف لهم عن السبب قائلا : «انْتَظَرْتُمْ كَثِيرًا وَإِذَا هُوَ قَلِيلٌ . وَلَمَّا أَدْخَلْتُمُوهُ الْبَيْتَ نَفَخْتُ عَلَيْهِ . لِمَاذَا ؟ يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ . لأَجْلِ بَيْتِي الَّذِي هُوَ خَرَابٌ ، وَأَنْتُمْ رَاكِضُونَ كُلُّ إِنْسَانٍ إِلَى بَيْتِهِ . لِذلِكَ مَنَعَتِ السَّمَاوَاتُ مِنْ فَوْقِكُمُ النَّدَى ، وَمَنَعَتِ الأَرْضُ غَلَّتَهَا . وَدَعَوْتُ بِالْحَرِّ عَلَى الأَرْضِ وَعَلَى الْجِبَالِ وَعَلَى الْحِنْطَةِ وَعَلَى الْمِسْطَارِ وَعَلَى الزَّيْتِ وَعَلَى مَا تُنْبِتُهُ الأَرْضُ ، وَعَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ ، وَعَلَى كُلِّ أَتْعَابِ الْيَدَيْنِ» ، «كَانَ أَحَدُكُمْ يَأْتِي إِلَى عَرَمَةِ عِشْرِينَ فَكَانَتْ عَشَرَةً . أَتَى إِلَى حَوْضِ الْمِعْصَرَةِ لِيَغْرُفَ خَمْسِينَ فُورَةً فَكَانَتْ عِشْرِينَ . قَدْ ضَرَبْتُكُمْ بِاللَّفْحِ وَبِالْيَرَقَانِ وَبِالْبَرَدِ فِي كُلِّ عَمَلِ أَيْدِيكُمْ» (حجي ٢ : ١٦،١٧) .

فإذ أفاقوا على صوت هذه الإنذارات بدأوا في بناء بيت الرب . حينئذ أتاهم كلام الرب قائلا «اجْعَلُوا قَلْبَكُمْ مِنْ هذَا الْيَوْمِ فَصَاعِدًا ، مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ

التَّاسِعِ ، مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ تَأَسَّسَ هَيْكَلُ الرَّبِّ ... فَمِنْ هذَا الْيَوْمِ أُبَـــارِكُ» (حجـــي ٢ : ١٩،١٨) .

يقول الحكيم : «يُوجَدُ مَنْ يُفَرِّقُ فَيَزْدَادُ أَيْضًا ، وَمَنْ يُمْسِكُ أَكْثَرَ مِنَ اللاَّئِقِ وَإِنَّمَا إِلَـــى الْفَقْرِ» (أمثال ١١ : ٢٤) وهذا هو نفس الدرس الذي نتعلمه من العهد الجديد إذ يقول بولـــس الرسول «إِنَّ مَنْ يَزْرَعُ بِالشُّحِّ فَبِالشُّحِّ أَيْضًا يَحْصُدُ ، وَمَنْ يَزْرَعُ بِالْبَرَكَـــاتِ فَبِالْبَرَكَـــاتِ أَيْضًا يَحْصُدُ» ، «وَاللهُ قَادِرٌ أَنْ يَزِيدَكُمْ كُلَّ نِعْمَةٍ ، لِكَيْ تَكُونُوا وَلَكُمْ كُلُّ اكْتِفَاءٍ كُلَّ حِينٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، تَزْدَادُونَ فِي كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ» (٢كورنثوس ٩ : ٨،٦) .

لقد أراد الله أن يكون شعبه إسرائيل حاملا مشـــعل النـــور لكـــل ســـكان الأرض . وباحتفاظهم بعبادته الجهارية كانوا يشهدون لوجود الله الحي وســـلطانه . وقـــد كـــان امتيازا لهم أن يقدموا من أموالهم لسد نفقات هذه العبادة تعبـــيرا منـــهم عـــن ولائـــهم ومحبتهم له . وقد رسم الرب أن نشر النور والحق في الأرض يتوقف علـــى مســـاعي وتقدمات شركاء الهبة السماوية . كان يمكنه أن يجعل الملائكة سفراء لحقـــه ، وكـــان يمكنه أن يعرف الناس إرادته كما قد أعلن شريعته من جبل سيناء بصوته ، ولكنه فـــي محبته وحكمته اللامتناهيتين دعا الناس ليكونوا شركاءه في العمل باختياره إياهم للقيـــام به .

وفي أيام إسرائيل كانت العشور والتقدمات الاختيارية مطلوبة لحفظ فرائض خدمـــة الله . أفيعطي شعب الله في هذه الأيام أقل مما كان يقدمه أولئك القوم ؟ إن المبدأ الـــذي وضعه المسيح هو أن تقدماتنا لله ينبغي أن تكون بنسبة النور والامتيازات التي نتمتـــع بها ، يقول : «كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ كَثِيرًا يُطْلَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ» (لوقـــا ١٢ : ٤٨) . إن المخلـــص حين أرسل تلاميذه قال لهم : «مَجَّانًا أَخَذْتُمْ ، مَجَّانًا أَعْطُوا» (متى ١٠ : ٨) . وإذ تـــزداد بركاتنا وامتيازاتنا ، وفوق الكل حيث أن أمامنا ذبيحة ابن الله المجيد وتضحيته التي لا تبارى ، أفلا نعبر عن شكرنا بتقديم عطايا أكثر لكي نوصل رســـالة الخـــلاص إلـــى الآخرين ؟ إن عمل الإنجيل إذ يتسع يحتاج إلى مال أكثر لمعاضدته مما كـــان يحتـــاج قديما . وهذا يجعل شريعة العشور والتقدمات أكثر إلزاما وتتطلب إسراعا لتنفيذها أكثر مما كانت الضرورة تدعو إليه في النظام العبراني . فلو كان شعب الله يقدمـــون مـــن

أموالهم بسخاء وسرور للإنفاق على عمله بعطاياهم الاختيارية بدلا من الالتجـاء إلـى الطرق غير المسيحية والأساليب غير المقدسة لتمتلئ الخزانة ، لكان الله يتمجد وكـانت تربح نفوس أكثر للمسيح .

لقد نجح التدبير الذي اتخذه موسى ليجمع مالا أو مواد لبناء الخيمة ، نجاحا عظيما . لـم يكن هنالك ما يدعو إلى الحث أو الإلحاح أو الإرغام ، كلا ولا استخدم وسيلة مـن الوسـائل التي تلجأ إليها الكنائس كثيرا في هذه الأيام . فلم يولم وليمة عظيمة ولا دعا الناس إلى حفلات الطرب واللهو والرقص أو ما شاكلها من التسليات العامـة ، كـلا ولا بـاع للنـاس أوراق اليانصيب ، ولا عمل شيئا من هذه الأشياء الدنيوية النجسة لكي يحصّل مالا يبني بـه مقـدس الله . ولكن الرب أرشده إلى أن يطلب من بني إسرائيل أن يأتوا بتقدماتهم . وكان يقبـل كـل العطايا التي يقدمها إليه كل من قلبه سموح مقدما عطيته بمحض اختياره . فتدفقت العطايا مـن كل جانب حتى لقد التزم موسى بأن يصدر أمرا إلى الشعب بعدم الجلب أيضا لأنهم كانوا قـد أحضروا ما يزيد عن الحاجة .

لقد جعل الله الناس وكلاء له . والأموال والممتلكات التي جعلها الله فـي حوزتـهم هـي الوسيلة التي قد أعدها لنشر الإنجيل . فأولئك الذين يبرهنون على أمانتهم كوكلاء سيوكل إليهم أمانات أكثر وأعظم . وقد قال الله : «إِنِّي أُكْرِمُ الَّذِيـنَ يُكْرِمُونَنِـي» (١صموئيـل ٢ : ٣٠) والرسول يقول : «الْمُعْطِيَ الْمَسْرُورَ يُحِبُّهُ اللهُ» (٢كورنثوس ٩ : ٧) . وحين يجيء شعب الله إليه بعطاياهم وتقدماتهم بقلوب شاكرة ، «لَيْسَ عَنْ حُزْنٍ أَوِ اضْطِرَارٍ» فستلازمهم بركته كمـا قد وعد قائلا : «هَاتُوا جَمِيعَ الْعُشُورِ إِلَى الْخَزْنَةِ لِيَكُونَ فِي بَيْتِي طَعَامٌ ، وَجَرِّبُونِي بِـهذَا ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ ، إِنْ كُنْتُ لاَ أَفْتَحُ لَكُمْ كُوَى السَّمَاوَاتِ ، وَأُفِيضُ عَلَيْكُمْ بَرَكَـةً حَتَّـى لاَ تُوسَعَ» (ملاخي ٣ : ١٠) .

الفصل الحادي والخمسون

رعاية الله للفقراء

إنه من أجل تشجيع اجتماع الشعب للخدمة الدينية ، وكذلك لأجل تدبير احتياجات الفقراء طلب من الشعب أن يقدموا عشرا ثانيا من كل دخلهم . أما عن العشر الأول فقد قال الله : «وَأَمَّا بَنُو لاَوِي ، فَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كُلَّ عُشْرٍ فِي إِسْرَائِيلَ» (عدد ١٨ : ٢١) . وعن العشر الثاني قال : «وَتَأْكُلُ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ لِيُحِلَّ اسْمَهُ فِيهِ ، عُشْرَ حِنْطَتِكَ وَخَمْرِكَ وَزَيْتِكَ ، وَأَبْكَارَ بَقَرِكَ وَغَنَمِكَ ، لِكَيْ تَتَعَلَّمَ أَنْ تَتَّقِيَ الرَّبَّ إِلهَكَ كُلَّ الأَيَّامِ» (تثنية ١٤ : ٢٣،٢٩؛ ١٦ : ١١-١٤) وكان عليهم أن يأتوا لمدة عامين إلى المكان الذي بني فيه المقدس بهذا العشر أو ما يساويه نقدا فبعد تقديم تقدمة شكر للرب والنصيب المخصص للكاهن كان على مقدميها أن يولموا بما تبقى وليمة دينية يدعون إليها اللاوي والغريب واليتيم والأرملة للاشتراك فيها . وهكذا وضع تدبير لعطايا الشكر والولائم في الأعياد السنوية . وكان الشعب يجتمعون حول الكهنة واللاويين لأجل التعليم والتشجيع على خدمة الرب .

أما في السنة الثالثة فقد كان بنو إسرائيل ينفقون هذا العشر في أماكن سكناهم بإقامة ولائم للاوي والفقير كما أوصاهم موسى قائلا : «فَأَكَلُوا فِي أَبْوَابِكَ وَشَبِعُوا» (تثنية ٢٦ : ١٢) وهذا العشر كان ينفق في عمل الخير وحسن الضيافة .

وقد وضع تدبير آخر لأجل الفقراء . إنه لا شيء بعد اعتراف الشعب بمطاليب الله ، امتازت به الشرائع المعطاة لموسى أكثر من الروح الخيرة الرقيقة السخية التي طلب من الشعب إظهارها نحو الفقراء . ومن أن الله كان قد وعد بأن يبارك شعبه ببركات عظيمة ، لم يكن قصده أن ينسى الفقر ويتلاشى كليا من بينهم ، إذ وعد أن الفقراء لا يفقدون من الأرض (تثنية ١٥ : ١١) وسيكون بين شعبه من سيستدرون عطفهم ورقتهم وإحسانهم . وكما هي

الحال اليوم كذلك في تلك العصور الخالية ، كان أناس معرضين للأذى والمرض وفقدان المال . ولكن لم يكن ليوجد بين الشعب من يستجدون أو يتضورون جوعا ما بقوا متبعين التعاليم المعطاة لهم من الله .

إن شريعة الله أعطت للفقراء الحق في الحصول على نصيب من ثمار الأرض . فمتى كان أحدهم جائعا كانت له حرية النزول في حقل قريبه أو بستانه أو كرمه ليأكل من الحنطة أو الثمار ليشبع جوعه . وطبقا لهذا السماح كان تلاميذ يسوع يقطفون من سنابل القمح ويأكلون حين كانوا يمرون بين الزروع في يوم سبت .

وكل اللقاط أو فضالات الحصاد في الحقل أو البستان أو الكرم كانت من نصيب الفقراء . وفي ذلك يقول موسى : «إِذَا حَصَدْتَ حَصِيدَكَ فِي حَقْلِكَ وَنَسِيتَ حُزْمَةً فِي الْحَقْلِ ، فَلاَ تَرْجعْ لِتَأْخُذَهَا ... وَإِذَا خَبَطْتَ زَيْتُونَكَ فَلاَ تُرَاجعِ الأَغْصَانَ ... إِذَا قَطَفْتَ كَرْمَكَ فَلاَ تُعَلِّلْهُ وَرَاءَكَ . لِلْغَرِيبِ وَالْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ يَكُونُ . وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْدًا فِي أَرْضِ مِصْرَ» (تثنية ٢٤ : ١٩-٢٢، لاويين ١٩ : ٩،١٠) .

وفي كل سابع سنة كان يعمل تدبير خاص للفقراء . إن سنة العطلة (السنة السابعة) كما يسمونها كانت تبدأ في نهاية الحصاد . ففي أوان البذار الذي كان يجيء بعد الجمع ما كان للناس أن يزرعوا أرضهم وما كان لهم أن يقضبوا كرومهم في الربيع ، وما كان لهم أن ينتظروا حصادا ولا قطاف كرم . ومن كل ما كانت تنتجه الأرض من تلقاء ذاتها كان لهم أن يأكلوا منه وهو رخص ، ولكن لم يكن لهم أن يأخذوا أي شيء منه إلى مخازنهم . إن ثمار هذه السنة كانت مباحة للغريب واليتيم والأرملة وحتى لحيوانات الحقل (خروج ٢٣ : ١٠،١١؛ لاويين ٢٥ : ٥) .

ولكن إذا كان محصول الأرض العادي يكفي فقط لسد حاجات الناس فبم يقتاتون خلال السنة التي لا يجمعون فيها محصولا ؟ لقد وعدهم الله بزاد وفير إذ قال : «إِنِّي آمُرُ بِبَرَكَتِي لَكُمْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ ، فَتَعْمَلُ غَلَّةً لِثَلاَثِ سِنِينَ . فَتَزْرَعُونَ السَّنَةَ الثَّامِنَةَ وَتَأْكُلُونَ مِنَ الْغَلَّةِ الْعَتِيقَةِ إِلَى السَّنَةِ التَّاسِعَةِ . إِلَى أَنْ تَأْتِيَ غَلَّتُهَا تَأْكُلُونَ عَتِيقًا» (لاويين ٢٥ : ٢١،٢٢) .

هذا وإن حفظ سنة العطلة كان يأتي بفائدة مزدوجة للأرض وللناس فالأرض إذ تستريح لمدة عام تأتي بغلة وفيرة فيما بعد . وكان الناس يستريحون من عملهم المضني في الحقول .

وحين كانت في أماكن مختلفة أعمال كثيرة كان يمكن ممارستها في ذلك الوقت ، فكان الجميع يتمتعون براحة أعظم ، وكان ذلك الوقت فرصة يجددون فيها قواهم البدنية لكي يستطيعوا الاضطلاع بأعباء العمل في السنوات التالية . كما كان لديهم متسع من الوقت للتأمل والصلاة والتعرف بتعاليم الرب ومطاليبه وتعليم عائلاتهم وأولادهم .

وفي سنة العطلة هذه كان العبيد العبرانيون يعتقون أحرارا . ولم يكونوا ليطلقوا فارغين ، فلقد أمر الرب في صدد ذلك قائلا : «وَحِينَ تُطْلِقُهُ حُرًّا مِنْ عِنْدِكَ لاَ تُطْلِقُهُ فَارِغًا . تُزَوِّدُهُ مِنْ غَنَمِكَ وَمِنْ بَيْدَرِكَ وَمِنْ مَعْصَرَتِكَ . كَمَا بَارَكَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ تُعْطِيهِ» (تثنية ١٥ : ١٣، ١٤) .

وكذلك كان يجب أن تعطى للأجير أجرته حالا ، يقول الله : «لاَ تَظْلِمْ أَجِيرًا مِسْكِينًا وَفَقِيرًا مِنْ إِخْوَتِكَ أَوْ مِنَ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ فِي أَرْضِكَ ... فِي يَوْمِهِ تُعْطِيهِ أُجْرَتَهُ ، وَلاَ تَغْرُبْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ ، لأَنَّهُ فَقِيرٌ وَإِلَيْهَا حَامِلٌ نَفْسَهُ» (تثنية ٢٤: ١٤، ١٥) .

لقد أعطيت أيضا تعليمات خاصة عن كيفية معاملة الهاربين ، إذ يقول الله : «عَبْدًا أَبَقَ إِلَيْكَ مِنْ مَوْلاَهُ لاَ تُسَلِّمْ إِلَى مَوْلاَهُ . عِنْدَكَ يُقِيمُ فِي وَسَطِكَ ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ حَيْثُ يَطِيبُ لَهُ . لاَ تَظْلِمْهُ» (تثنية ٢٣ : ١٥، ١٦) .

كانت السنة السابعة سنة إبراء للفقراء من ديونهم ، كما أمر العبرانيون أن يساعدوا إخوتهم الفقراء دائما حيث يقرضونهم مالا بدون ربح . فلقد نهو نهيا قاطعا عن أخذ ربا من أي إنسان فقير . قال الرب : «إِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ وَقَصُرَتْ يَدُهُ عِنْدَكَ ، فَاعْضُدْهُ غَرِيبًا أَوْ مُسْتَوْطِنًا فَيَعِيشَ مَعَكَ . لاَ تَأْخُذْ مِنْهُ رِبًا وَلاَ مُرَابَحَةً ، بَلِ اخْشَ إِلهَكَ ، فَيَعِيشَ أَخُوكَ مَعَكَ . فِضَّتَكَ لاَ تُعْطِهِ بِالرِّبَا ، وَطَعَامَكَ لاَ تُعْطِ بِالْمُرَابَحَةِ» (لاويين ٢٥ : ٣٥-٣٧) وإذا لم يدفع الدين إلى سنة الإبراء فالدين الأصلي لا يمكن استرجاعه . وقد نهي الشعب نهيا قاطعا عن أن يمسكوا أيديهم عن تقديم المعونة اللازمة لإخوتهم الفقراء بسبب هذا . فيقول الرب : «إِنْ كَانَ فِيكَ فَقِيرٌ ، أَحَدٌ مِنْ إِخْوَتِكَ ... فَلاَ تُقَسِّ قَلْبَكَ ، وَلاَ تَقْبِضْ يَدَكَ عَنْ أَخِيكَ الْفَقِيرِ ... احْتَرِزْ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ قَلْبِكَ كَلاَمٌ لَئِيمٌ قَائِلاً : قَدْ قَرُبَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ، سَنَةُ الإِبْرَاءِ ، وَتَسُوءُ عَيْنُكَ بِأَخِيكَ الْفَقِيرِ وَلاَ تُعْطِيهِ ، فَيَصْرُخَ عَلَيْكَ إِلَى الرَّبِّ فَتَكُونُ عَلَيْكَ خَطِيَّةٌ» «لأَنَّهُ لاَ تُفْقَدُ الْفُقَرَاءُ مِنَ الأَرْضِ . لِذلِكَ أَنَا أُوصِيكَ قَائِلاً : افْتَحْ يَدَكَ

لأَخِيكَ الْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ فِي أَرْضِكَ» «وَأَقْرِضْهُ مِقْدَارَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ» (تثنية ١٥ : ٧ ،٩ ،١١ ،٨) .

ولا حاجة بأحد أن يخشى من أن سخاءه قد يؤدي به إلى العوز . إن الطاعة لوصايا الله لا بد أن ينتج عنها النجاح . يقول الله : «تُقْرِضُ أُمَمًا كَثِيرَةً وَأَنْتَ لاَ تَقْتَرِضُ ، وَتَتَسَلَّطُ عَلَى أُمَمٍ كَثِيرَةٍ وَهُمْ عَلَيْكَ لاَ يَتَسَلَّطُونَ» (تثنية ١٥ : ٦) .

وبعد «سَبْعَةَ سُبُوتِ سِنِينَ» «سَبْعَ سِنِينَ سَبْعَ مَرَّاتٍ» (لاويين ٢٥ : ٨) كانت تأتي سنة الإبراء العظيمة أي سنة اليوبيل . فقد قال الرب : «ثُمَّ تُعَبِّرُ بُوقَ الْهُتَافِ ... فِي جَمِيعِ أَرْضِكُمْ . وَتُقَدِّسُونَ السَّنَةَ الْخَمْسِينَ ، وَتُنَادُونَ بِالْعِتْقِ فِي الأَرْضِ لِجَمِيعِ سُكَّانِهَا . تَكُونُ لَكُمْ يُوبِيلاً ، وَتَرْجِعُونَ كُلٌّ إِلَى مُلْكِهِ ، وَتَعُودُونَ كُلٌّ إِلَى عَشِيرَتِهِ» (لاويين ٢٥ : ٩ ،١٠) .

كان بوق اليوبيل يضرب ، «فِي الشَّهْرِ السَّابعِ فِي عَاشِرِ الشَّهْرِ . فِي يَوْمِ الْكَفَّارَةِ» (لاويين ٢٥ : ٩) وفي كل الأرض أينما كان يسكن شعب اليهود كان يسمع صوت بوق اليوبيل داعيا كل بني يعقوب لأن يرحبوا بسنة الإبراء . وفي يوم الكفارة العظيم كان يكفر عن خطايا إسرائيل ، والشعب يرحب باليوبيل بقلوب فرحة .

في سنة العطلة لم تكن الأرض لتزرع أو يجمع حصادها ، وكل ما كانت تنتجه كان يعتبر حقا شرعيا للفقراء . وكان هنالك بعض طوائف العبيد العبرانيين- أي كل من لم ينالوا حريتهم في سنة الراحة- كانوا الآن يطلقون أحرارا . ولكن الشيء الذي به امتازت سنة اليوبيل كان هو إرجاع كل الأراضي إلى أسرة المالك الأصلي . لقد قسمت الأرض بالقرعة بموجب أمر الله الخاص ، فبعد التقسيم لم يكن يسمح لأي واحد أن يتجر في ملكه أو يبيعه ما لم يلجئه إلى ذلك العوز والفاقة . وإذ ذاك حينما يرغب هو أو أحد أقربائه في افتداء الأرض أو فكها فالذي اشتراها ينبغي ألا يرفض بيعها . وإذا لم تفك تعود إلى مالكها الأول أو ورثته في سنة اليوبيل .

لقد أعلن الرب لإسرائيل قائلا : «وَالأَرْضُ لاَ تُبَاعُ بَتَّةً ، لأَنَّ لِيَ الأَرْضَ ، وَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ وَنُزَلاَءُ عِنْدِي» (لاويين ٢٥ : ٢٣) . كان لا بد للشعب أن يقتنعوا بحقيقة كون الأرض التي سمح لهم بأن يمتلكوها إلى حين هي أرض الله ، وأنه هو المالك الشرعي

وصاحب الملك الأصلي ، وأنه يهتم اهتماما خاصا بالفقراء والعاثري الحظ . وكان الرب يريد أن يرسِّخ هذه الحقيقة في أذهان الشعب كله وهي أن للمساكين نصيبا في عـــالم الله قدر ما للأغنياء .

هذا هو الإجراء الذي دبره خالقنا الرحيم ليخفف من وطأة الآلام ويبعث بأنوار الرجاء ويشرق بشمس السعادة في حياة المحرومين والمتضايقين لقد أراد الرب أن يوقف النـــاس عن الانغماس في محبة المال واكتنازه والاعتزاز بالسلطان . إن شرورا عظيمة تنجم عن كون بعض طبقات الشعب تدأب في تكويم الثروة ، بينما الطبقات الفقيرة تقاسي المرائـــر من العوز والانحطاط . فإذا لم يكن هنالك رادع فسيحتكر الأثريـــاء السـلطان ، بينمـا المساكين الذين هم في نظر الله لهم نفس الاستحقاق من كل وجه ، يعـــاملون بالامتــهان وعدم التقدير من إخوتهم الناجحين . وإن إحساس المساكين بهذا الظلم وهذا الاضطهاد قد يثير حفيظتهم . وقد ينشأ عن ذلك أيضا إحساس باليأس والقنوط الذي قد يفســد أخــلاق المجتمع ويفسح المجال لارتكاب جرائم متنوعة . ولكن القوانين التـــي ســنها الله كــانت تهدف إلى تنمية المساواة الاجتماعية . وإن الإجراء الذي اتخذ بشأن سنة العطلة وســـنة اليوبيل أمكنه إلى حد كبير أن يصحح الأخطاء التي تفشــت أثنــاء الفــترة فــي النظــم الاجتماعية والسياسية للأمة .

كانت الغاية من هذه القوانين جلب البركة للأغنياء كما للفقراء ، وكان القصــد منــها أيضا أن توقف الطمع والميل إلى تعظيم الذات عند حدهمـــا ، وتنمــي روح الإحســان النبيلة ، وروح الرضى والثقة بين كل الطبقات وتوطد دعائم النظام الاجتمــاعي وتثبــت مركز الحكومة ، إذ أننا كلنا مندمجون في نسيج البشرية العظيم . فــأي عمــل يمكننــا مزاولته مما يجلب النفع للآخرين ويرفع من شأنهم لابد من أن يعود علينا بالبركـــة . إن قانون الارتباط المتبادل يسري بين كل طبقات المجتمع . وإن الفقراء ليسوا أكثر اعتمــادا على الأغنياء من اعتماد الأغنياء عليهم ، ففي حين يطلب الفقراء نصيبا من النعم التي قد أغدقها الله على جيرانهم الأثرياء ، فالأغنياء بحاجة إلى الخدمة الأمينة والقوة الجســمانية والذهنية التي هي رأس مال الفقراء .

لقد وعد الله إسرائيل ببركات عظيمة على شرط الطاعة لأوامره إذ قـــال : «أُعْطِــي

مَطَرَكُمْ فِي حِينِهِ ، وَتُعْطِي الأَرْضُ غَلَّتَهَا ، وَتُعْطِي أَشْجَارُ الْحَقْلِ أَثْمَارَهَا ، وَيَلْحَقُ دِرَاسُكُمْ بِالْقِطَافِ ، وَيَلْحَقُ الْقِطَافُ بِالزَّرْعِ ، فَتَأْكُلُونَ خُبْزَكُمْ لِلشِّبَعِ وَتَسْكُنُونَ فِي أَرْضِكُمْ آمِنِينَ . وَأَجْعَلُ سَلاَمًا فِي الأَرْضِ ، فَتَنَامُونَ وَلَيْسَ مَنْ يُزْعِجُكُمْ . وَأُبِيدُ الْوُحُوشَ الرَّدِيئَةَ مِنَ الأَرْضِ ، وَلاَ يَعْبُرُ سَيْفٌ فِي أَرْضِكُمْ ... وَأَسِيرُ بَيْنَكُمْ وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي شَعْبًا ... لكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لِي وَلَمْ تَعْمَلُوا كُلَّ هذِهِ الْوَصَايَا ... نَكَثْتُمْ مِيثَاقِي ... تَزْرَعُونَ بَاطِلاً زَرْعَكُمْ فَيَأْكُلُهُ أَعْدَاؤُكُمْ . وَأَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّكُمْ فَتَنْهَزِمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ مُبْغِضُوكُمْ ، وَتَهْرُبُونَ وَلَيْسَ مَنْ يَطْرُدُكُمْ» (لاويين ٢٦ : ٤-١٧) .

إن كثيرين يدافعون بكل حماسة عن وجوب المساواة بين الناس في اقتسام بركات الله الزمنية . ولكن هذا لم يكن ما قصده الخالق . إن التنوع في حياة الناس هو من بين الوسائل التي يقصد بها الله أن يمتحن الخلق وينميه . ولكنه يقصد أن من يملكون أملاكا في هذا العالم ينبغي أن يعتبروا أنفسهم مجرد وكلاء عنه على أمواله ، إذ قد ائتمنهم على أشياء يمكن أن تستخدم لمنفعة المتألمين والفقراء .

قال المسيح إن الفقراء معنا في كل حين ، وهو يقرن مصالحه بمصالح المتألمين من شعبه . إن قلب فادينا يعطف على من هم في أدنى حالات الفقر والمذلة من أولاده الأرضيين ، وهو يقول لنا إنهم ممثلوه على الأرض ، وقد أوجدهم بيننا ليوقظ في قلوبنا المحبة التي يحس بها نحو المتألمين والمتضايقين ، فالشفقة والإحسان اللذان نعاملهم بهما يقبلهما المسيح كما لو كانا مقدمين إليه هو . وأي عمل من أعمال القسوة والإهمال لهم يعتبر موجها إلى المسيح نفسه .

ما كان أعظم الفرق في حالة العالم اليوم ، أدبيا وروحيا وزمنيا لو أن الشريعة التي أعطاها الله لخير المساكين قد نفذت ! كما أن الأنانية واعتداد الإنسان بنفسه ما كانا ليبدوا كما هما الآن ، بل كان كل واحد يهتم بإسعاد الآخرين وخيرهم ، وما كان من وجود اليوم للفاقة المتفشية في بلدان كثيرة .

إن المبادئ التي قد فرضها الله كان يمكن أن تصد الشرور الرهيبة التي نجمت في كل عصر عن ظلم الأغنياء للفقراء والريبة والكراهية التي يضمرها الفقراء للاغنياء . فبينما كان يمكن هذه المبادئ أن تكف الأغنياء عن تكويم الثروات الطائلة وعما يحيونه من

حياة الترف الذي لا يعرف حدودا ، كان يمكنها أيضا أن تقضي علـــى مســـاوئ الجـــهل والانحطاط المتفشيين بين عشرات ألوف المساكين الذين يطلب منهم مع ضآلة أجورهـــم في عبوديتهم للأغنياء أن يبنوا ويقيموا دعائم تلك الثروات الطائلـــة . إن تلـــك المبـــادئ الإلهية كان يمكن أن توجد حلا سليما لتلك المشاكل التي تهدد العالم اليوم بالفوضى وسفك الدماء .

الفصل الثانى والخمسون

الأعياد السنوية

كان على بني إسرائيل أن يجتمعوا معا ثلاث مرات في السنة في مقدس الرب لأجل العبادة (خروج ٢٣ : ١٤-١٦) وقد ظلت شيلوه بعض الوقت الموضع الذي كانوا يجتمعون فيه ، ولكن بعد ذلك صارت أورشليم مركز العبادة للأمة ، وفيها كانت تجتمع الأسباط لإحياء الأعياد المقدسة .

كان شعب الرب محاطين بقبائل شرسة قوية محبة للحروب متلهفة على اغتصاب أراضيهم ، ومع ذلك فقد أمر كل الرجال الأصحاء الأجسام وكل الشعب الذين يستطيعون أن يتحملوا مشاق السفر أن يتركوا بيوتهم إلى مكان اجتماع الشعب الواقع في وسط البلاد تقريبا . فما الذي كان يمنع أعداءهم من الإغارة على تلك البيوت العزلاء من السلاح ، وتخريبها بالنار والسيف ؟ وما الذي كان يمنعهم من غزو البلاد وأخذ بني إسرائيل سبايا في أيدي أعدائهم الغرباء ؟ لقد وعد الله أن يحمي شعبه ، «مَلاَكُ الرَّبِّ حَالٌّ حَوْلَ خَائِفِيهِ ، وَيُنَجِّيهِمْ» (مزمور ٣٤ : ٧) . ففيما كان الإسرائيليون يصعدون للعبادة كانت قوة الله تصد عنهم الأعداء وتردعهم . وقد وعدهم الله قائلا : «فَإِنِّي أَطْرُدُ الأُمَمَ مِنْ قُدَّامِكَ وَأُوَسِّعُ تُخُومَكَ ، وَلاَ يَشْتَهِي أَحَدٌ أَرْضَكَ حِينَ تَصْعَدُ لِتَظْهَرَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ» (خروج ٣٤ : ٢٤) .

وأول هذه الأعياد كان عيد الفصح عيد الفطير الذي يقع في شهر أبيب أول شهور السنة اليهودية ويوافق الفترة الواقعة ما بين أواخر مارس (آذار) وأوائل إبريل (نيسان) حين يكون برد الشتاء قد انتهى والمطر المتأخر قد انقطع ، وتكون الطبيعة كلها متهللة بنضارة فصل الربيع وجماله ، ويكون العشب أخضر يانعا على التلال وفي الأودية ، والزهور البرية تزين الحقول في كل مكان- والقمر الذي يكاد يكون بدرا يبهج الأمسيات بنوره . هذا هو الفصل

الذي وصفه كاتب النشيد الملهم وصفا بديعا أخاذا حين قال : «لأَنَّ الشِّتَاءَ قَدْ مَضَى ، وَالْمَطَرَ مَرَّ وَزَالَ . الزُّهُورُ ظَهَرَتْ فِي الأَرْضِ . بَلَغَ أَوَانُ الْقَضْبِ ، وَصَوْتُ الْيَمَامَةِ سُمِعَ فِي أَرْضِنَا . التِّينَةُ أَخْرَجَتْ فِجَّهَا ، وَقُعَالُ الْكُرُومِ تُفِيحُ رَائِحَتَهَا» (نشيد الأنشاد ٢ : ١١-١٣) .

ومن كل البلاد كان الحجاج يتقاطرون صاعدين إلى أورشليم . فالرعاة يتركون قطعانهم ورعاة المواشي ينزلون من الجبال ، والصيادون يخرجون من بحر الجليل ، والفلاحون يتركون حقولهم وبنو الأنبياء يتركون مدارسهم المقدسة- ويتجه الجميع إلى المكان الذي كان الله يظهر فيه للشعب . وكانوا يسيرون في مراحل قصيرة لأن كثيرين منهم كانوا يسافرون سيرا على الأقدام . وكان كثيرون ينضمون إلى القوافل بدون انقطاع فغالبا ما كانت عدد المسافرين في القافلة يصير كبيرا جدا قبل وصولهم إلى المدينة المقدسة .

وكانت بهجة الطبيعة توقظ في قلوب شعب إسرائيل مشاعر الفرح والشكر لمانح كل الخيرات . وقد أنشدت الجموع تلك المزامير العبرية الجليلة وكانوا يعظمون مجد الله وجلاله . وحين كان ضارب البوق يعطي إشارة البدء في الترنيم تصحبه أصوات الصنوج ، كانت مئات الأصوات تنشد أنشودة الشكر فترتفع تلك النغمات متهللة وقائلة «فَرِحْتُ بِالْقَائِلِينَ لِي : «إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ نَذْهَبُ» . تَقِفُ أَرْجُلُنَا فِي أَبْوَابِكِ يَا أُورُشَلِيمُ ... حَيْثُ صَعِدَتِ الأَسْبَاطُ ، أَسْبَاطُ الرَّبِّ ... لِيَحْمَدُوا اسْمَ الرَّبِّ ... اسْأَلُوا سَلاَمَةَ أُورُشَلِيمَ : «لِيَسْتَرِحْ مُحِبُّوكِ» (مزمور ١٢٢ : ١-٦) .

وإذ كان بنو إسرائيل يرفعون أنظارهم إلى التلال التي حولهم حيث اعتاد الوثنيون أن يوقدوا النار على مذابحهم كانوا يترنمون قائلين : «أَرْفَعُ عَيْنَيَّ إِلَى الْجِبَالِ ، مِنْ حَيْثُ يَأْتِي عَوْنِي ! مَعُونَتِي مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ ، صَانِعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» (مزمور ١٢١ : ١، ٢) «اَلْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى الرَّبِّ مِثْلُ جَبَلِ صِهْيَوْنَ ، الَّذِي لاَ يَتَزَعْزَعُ ، بَلْ يَسْكُنُ إِلَى الدَّهْرِ . أُورُشَلِيمُ الْجِبَالُ حَوْلَهَا ، وَالرَّبُّ حَوْلَ شَعْبِهِ مِنَ الآنَ وَإِلَى الدَّهْرِ» (مزمور ١٢٥ : ١، ٢) .

وبعدما يصعدون فوق التلال ويشرفون على المدينة المقدسة كانوا يتطلعون بوقار وخشوع إلى جموع العابدين وهم سائرون في طريقهم إلى الهيكل وإذ كانوا يرون دخان البخور صاعدا ويسمعون أبواق اللاويين معلنة بدء الخدمة المقدسة كانوا يندمجون في

وحي الساعة وينشدون قائلين : «عَظِيمٌ هُوَ الرَّبُّ وَحَمِيدٌ جِدًّا فِي مَدِينَةِ إِلـــهِنَا ، جَبَــلِ قُدْسِهِ . جَمِيلُ الارْتِفَاعِ ، فَرَحُ كُلِّ الأَرْضِ ، جَبَلُ صِهْيَوْنَ . فَرَحُ أَقَــاصِي الشِّــمَالِ ، مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ» (مزمور ٤٨ : ١، ٢) «لِيَكُنْ سَــلاَمٌ فِــي أَبْرَاجِــكِ ، رَاحَــةٌ فِــي قُصُورِكِ» «افْتَحُوا لِي أَبْوَابَ الْبِرِّ . أَدْخُلْ فِيهَا وَأَحْمَدِ الرَّبَّ» «أُوفِي نُذُورِي لِلرَّبِّ مُقَابِلَ شَعْبِهِ ، فِي دِيَارِ بَيْتِ الرَّبِّ ، فِي وَسَطِكِ يَا أُورُشَلِيمُ . هَلِّلُويَــا» (مزمــور ١٢٢ : ٧، ١١٨ : ١٩، ١١٦ : ١٨، ١٩) .

وكانت كل بيوت أورشليم تفتح أبوابها على سعتها لاستقبال أولئك الحجاج ، وكانت تعد لهم الحجرات وتفرش مجانا . ومن ذلك لم يكن كافيا لتلك الجماعات العظيمــة ، ولذلــك كــانوا ينصبون الخيام في ما يمكن الحصول إليه من أرض فضاء في المدينة وفوق التلال المتاخمة .

وفي عشية اليوم الرابع عشر من الشهر كانوا يحتفلون بعيد الفصح . وكانت طقوســه المقدسة المؤثرة تذكرهم بنجاتهم من عبوديتهم في مصر ، وترمز إلى الذبيحة التي تخلــص من عبودية الخطية . ولكن حين أسلم المخلص حياته على جلجثة بطلت فريضــة الفصــح كرمز ، ومن ثم فقد سنت فريضة عشاء الرب تذكارا لنفس الحادثة التي كــان الفصــح رمزا لها .

وبعد الفصح كان يجيء عيد الفطر الذي يستمر سبعة أيام وكان لهم في كل من اليــوم الأول والسابع من هذا العيد محفل مقدس . ولم يكن يعمل فيهما عمل إضافي . وفي ثاني أيام العيد كانوا يقدمون لله باكورات غلات السنة . وكان الشعير هو أول الحبــوب التــي تنضج عند بدء العيد في فلسطين . وكان الكاهن يردد حزمة من الشعير أمام مذبــح الله ، اعترافا منه بأن كل شيء للرب . ولم يكن الحصاد يجمع إلا بعد ممارسة هذه الشعائر .

وبعد خمسين يوما من تقديم الباكورات كان يحين موعد عيد الخمسين ، وكان يسمى أيضــا عيد الحصاد أو عيد الأسابيع . وللتعبير عن شكرهم على الحنطة التي صارت خــبزا يؤكــل كانوا يقدمون للرب رغيفين مخبوزين مختمرين . وكان عيد الخمسين يستغرق يومــا واحــدا ويقضى في خدمة دينية .

وفي الشهر السابع كان يجيء موعد عيد المظال أو عيد الجمع . وكــان هــذا العيــد اعترافا من الشعب بسخاء الله وجوده الظاهرين في ثمار البســاتين وأشــجار الزيتــون

والكروم . وكان هذا العيد ختام أعياد السنة . لقد أثمرت الأرض ثمارها الوفيرة ، وجمعت الغلال في الأهراء ، كما قد خزنت الثمار والزيت والخمر ، وحفظت الباكورات ، والآن فها الشعب يقدمون عطايا شكرهم لله الذي قد باركهم بتلك البركات الغنية .

وكان هذا العيد فرصة عظيمة لإظهار الفرح أكثر من أي عيد آخر . وكان ميعاده بعد يوم الكفارة العظيم مباشرة حين يقدم للشعب التأكيد بأن إثمهم لن يذكر بعد . فحيث قد حل السلام بينهم وبين الله فها هم الآن يتقدمون أمامه ليعترفوا بصلاحه ويسبحوه على رحمته . فبعد انتهاء أشغال الحصاد وقبل مجيء موعد أعمال العام الجديد كان الشعب أحرارا من الهموم وكان يمكنهم التمتع بتلك الأفراح المقدسة . ومع أن الأبناء وآباءهم هم الذين أمروا بحضور العيد فإن كل أفراد العائلات كانوا يحضرونه على قدر استطاعتهم ، وكانوا يرحبون بالخدم واللاوي والغريب والفقير لمشاركتهم في ولائمهم .

وكعيد الفصح كان عيد المظال عيدا تذكاريا . فلكي يذكر الشعب حياة اغترابهم في البرية كان عليهم أن يخرجوا من بيوتهم ويسكنوا في مظال مصنوعة من أغصان خضراء ، «أَشْجَارٍ بَهِجَةٍ وَسَعَفَ النَّخْلِ وَأَغْصَانَ أَشْجَارٍ غَبْيَاءَ وَصَفْصَافَ الْوَادِي» (لاويين ٢٣ : ٤٠،٤٢،٤٣) .

وفي اليوم الأول كان لهم محفل مقدس وقد أضيف إلى أيام العيد السبعة يوم ثامن كان يحفظ بنفس الكيفية .

وفي هذه الاحتفالات السنوية كانت قلوب الكبار والصغار تتشدد في خدمة الله ، بينما اجتماع الشعب من نواحي البلاد المختلفة قوّى الأواصر التي ربطت بينهم وبين الله وبين بعضهم بعضا . وحبذا لو كان لشعب الله في الوقت الحاضر عيد مظال- ذكرى مبهجة لبركات الله التي منحها لهم . فكما كان بنو إسرائيل يحتفلون بالنجاة التي صنعها الله لآبائهم وحفظه إياهم بكيفية عجائبية في أثناء رحيلهم عن مصر كذلك ينبغي لنا أن نذكر طرق الله المختلفة التي بها أخرجنا من العالم ومن ظلمة الخطية إلى نوره العجيب نور النعمة والحق .

أما أولئك الذين كانوا يعيشون بعيدا عن خيمة الاجتماع فكان لزاما عليهم أن يقضوا أكثر من شهر من كل سنة في ممارسة الأعياد السنوية . إن هذا المثال مثال التكريس لله

ينبغي أن يثبت في أذهاننا أهمية العبادة لله ، وضرورة وضع مصالحنا العالمية في المرتبة الثانية بعد مصالحنا الروحية والأبدية . إننا نخسر خسارة جسيمة متى أهملنا امتياز الاجتماع معا لكي يشدد أحدنا الآخر ويشجعه في خدمة الله وعبادته . إن حقائق كلمة الله تفقد أهميتها وقوتها المنعشة المحيية لعقولنا ، وقلوبنا لا تعود تستنير أو تستيقظ بالتأثيرات المقدسة وتضعف في الروحيات بسبب إهمال هذا الواجب . وفي معاشراتنا كمسيحيين نخسر كثيرا لانعدام روح العطف نحو بعضنا بعضا . إن ذاك الذي يحبس نفسه وينطوي على نفسه لا يملأ المركز الذي جعله الله فيه . كلنا أولاد لآب واحد وكل منا يعتمد على الآخر لأجل السعادة . علينا مطاليب لله وللبشرية . إن إنماء العناصر الاجتماعية في طبيعتنا إنماء مناسبا هو الذي يجعلنا عطوفين على إخوتنا ويمنحنا السعادة حين نسعى لنباركهم .

ولم يكن عيد المظال تذكاريا فحسب ولكنه كان رمزيا أيضا . إنه لم يكن فقط يشير إلى حياة الاغتراب السابقة في البرية ، ولكنه كعيد الحصاد كان احتفالا بجمع ثمار الأرض ، وهو يشير إلى الأمام إلى يوم الجمع العظيم حين يرسل رب الحصاد جماعة الحصادين ليجمعوا الزوان ويحزموه حزما ليحرق ويجمعوا الحنطة إلى المخزن . في ذلك الحين سيهلك جميع الأشرار ويكونون «كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا» (عوبديا ١٦) وكل صوت في كل المسكونة سيشترك في الفرح والتسبيح لله . يقول الرائي : «وَكُلُّ خَلِيقَةٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ وَتَحْتَ الأَرْضِ ، وَمَا عَلَى الْبَحْرِ ، كُلُّ مَا فِيهَا ، سَمِعْتُهَا قَائِلَةً :«لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخَرُوفِ الْبَرَكَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ»» (رؤيا ٥ : ١٣) .

لقد سبَّح بنو إسرائيل الله في عيد المظال حين عادوا بالذكرى إلى رحمته التي ظهرت في نجاتهم من عبودية مصر ، ورعايته الرقيقة لهم في أثناء سني اغترابهم في البرية . كما فرحوا أيضا لشعورهم بغفرانه لهم وقبوله إياهم بواسطة خدمة يوم الكفارة التي سبق انتهاؤها . ولكن متى جمع مفديو الرب في كنعان السماوية آمنين ، ونجوا إلى الأبد من عبودية اللعنة إذ أن «كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعًا إِلَى الآنَ» (رومية ٨ : ٢٢) فسيفرحون بفرح مليء بالمجد لا ينطق به . وحينئذ سيكمل العمل العظيم ، عمل كفارة المسيح لأجل الناس وستمحى خطاياهم إلى الأبد .

«تَفْرَحُ الْبَرِّيَّةُ وَالأَرْضُ الْيَابِسَةُ ، وَيَبْتَهِجُ الْقَفْرُ وَيُزْهِرُ كَالنَّرْجِسِ . يُزْهِرُ إِزْهَارًا وَيَبْتَهِجُ ابْتِهَاجًا وَيُرَنِّمُ . يُدْفَعُ إِلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ . بَهَاءُ كَرْمَلَ وَشَارُونَ . هُمْ يَرَوْنَ مَجْدَ الرَّبِّ ، بَهَاءَ إِلهِنَا . حِينَئِذٍ تَتَفَقَّعُ عُيُونُ الْعُمْيِ ، وَآذَانُ الصُّمِّ تَتَفَتَّحُ . حِينَئِذٍ يَقْفِزُ الأَعْرَجُ كَالإِيَّلِ وَيَتَرَنَّمُ لِسَانُ الأَخْرَسِ ، لأَنَّهُ قَدِ انْفَجَرَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ مِيَاهٌ ، وَأَنْهَارٌ فِي الْقَفْرِ . وَيَصِيرُ السَّرَابُ أَجَمًا ، وَالْمَعْطَشَةُ يَنَابِيعَ مَاءٍ ... وَتَكُونُ هُنَاكَ سِكَّةٌ وَطَرِيقٌ يُقَالُ لَهَا : «الطَّرِيقُ الْمُقَدَّسَةُ» . لاَ يَعْبُرُ فِيهَا نَجِسٌ ، بَلْ هِيَ لَهُمْ . مَنْ سَلَكَ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى الْجُهَّالُ ، لاَ يَضِلُّ . لاَ يَكُونُ هُنَاكَ أَسَدٌ . وَحْشٌ مُفْتَرِسٌ لاَ يَصْعَدُ إِلَيْهَا . لاَ يُوجَدُ هُنَاكَ . بَلْ يَسْلُكُ الْمَفْدِيُّونَ فِيهَا . وَمَفْدِيُّو الرَّبِّ يَرْجِعُونَ وَيَأْتُونَ إِلَى صِهْيَوْنَ بِتَرَنُّمٍ ، وَفَرَحٌ أَبَدِيٌّ عَلَى رُؤُوسِهِمِ . ابْتِهَاجٌ وَفَرَحٌ يُدْرِكَانِهِمْ . وَيَهْرُبُ الْحُزْنُ وَالتَّنَهُّدُ» (إشعياء ٣٥ : ١،٢،٥ ١٠) .

الفصل الثالث والخمسون

القضاة الأولون

بعدما سكن بنو إسرائيل في كنعان لم تبذل الأسباط مجهودا شديدا لتكملة غزو البلاد ، فإذ قنعوا بالجزء الذي حصلوا عليه خمدت غيرتهم في الحال فلم يواصلوا الحرب «وَكَانَ لَمَّا تَشَدَّدَ إِسْرَائِيلُ أَنَّهُ وَضَعَ الْكَنْعَانِيِّينَ تَحْتَ الْجِزْيَةِ وَلَمْ يَطْرُدْهُمْ طَرْدًا» (قضاة ١ : ٢٨) .

إن الله قد أنجز من قبله ، بكل أمانة ، وعده الذي قدمه لإسرائيل . لقد كسر يشوع شوكة الكنعانيين ووزع الأرض على الأسباط ، إلا أنه بقي عليهم أن يطردوا سكان البلاد إذ تحققوا من معونة الله لهم . ولكنهم أخفقوا في هذا . فإذ تحالفوا مع الكنعانيين تعدوا أمر الله تعديا مباشرا ، وهكذا أخفقوا إتمام الشرط الذي بموجبه وعد الرب أن يعطيهم أرض كنعان ملكا .

إنه منذ أن تكلم الله معهم أول مرة في سيناء حذرهم من عبادة الأوثان وحالما أعلن الشريعة أرسل إليهم هذه الرسالة بيد موسى فيما يختص بشعوب كنعان ، وهي تقول «لاَ تَسْجُدْ لآلِهَتِهِمْ ، وَلاَ تَعْبُدْهَا ، وَلاَ تَعْمَلْ كَأَعْمَالِهِمْ ، بَلْ تُبِيدُهُمْ وَتَكْسِرُ أَنْصَابَهُمْ . وَتَعْبُدُونَ الرَّبَّ إِلهَكُمْ ، فَيُبَارِكُ خُبْزَكَ وَمَاءَكَ ، وَأُزِيلُ الْمَرَضَ مِنْ بَيْنِكُمْ» (خروج ٢٣ : ٢٤،٢٥) وقد أكد لهم الرب أنه سيخضع أعداءهم أمامهم ما بقوا هم طائعين إياه ، «أُرْسِلُ هَيْبَتِي أَمَامَكَ ، وَأُزْعِجُ جَمِيعَ الشُّعُوبِ الَّذِينَ تَأْتِي عَلَيْهِمْ ، وَأُعْطِيكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ مُدْبِرِينَ . وَأُرْسِلُ أَمَامَكَ الزَّنَابِيرَ . فَتَطْرُدُ الْحِوِّيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ مِنْ أَمَامِكَ . لاَ أَطْرُدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ ، لِئَلاَّ تَصِيرَ الأَرْضُ خَرِبَةً ، فَتَكْثُرَ عَلَيْكَ وُحُوشُ الْبَرِّيَّةِ . قَلِيلاً قَلِيلاً أَطْرُدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ إِلَى أَنْ تُثْمِرَ وَتَمْلِكَ الأَرْضَ ... فَإِنِّي أَدْفَعُ إِلَى أَيْدِيكُمْ سُكَّانَ الأَرْضِ ، فَتَطْرُدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ . لاَ تَقْطَعْ مَعَهُمْ وَلاَ مَعَ آلِهَتِهِمْ عَهْدًا . لاَ يَسْكُنُوا فِي أَرْضِكَ لِئَلاَّ يَجْعَلُوكَ تُخْطِئُ إِلَيَّ . إِذَا عَبَدْتَ آلِهَتَهُمْ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ فَخًّا» (خروج ٢٣ : ٢٧-٣٣) وقد أعيدت نفس هذه التوجيهات ، أعادها موسى على مسامع الشعب بكل هيبة

ووقار ، كما قد رددها يشوع فيما بعد .

لقد وضع الله شعبه في كنعان كمتراس قوي لإيقاف تيار الشر الأدبي عند حده حتى لا يكتسح العالم . كما قصد الله أن يخرج إسرائيل غالبا ولكي يغلب إن بقوا أمناء لإلههم ، وكان يريد أن يسلم إلى أيديهم أمما أعظم من الكنعانيين وأقوى ، فوعدهم الرب قائلا : «لأَنَّهُ إِذَا حَفِظْتُمْ جَمِيعَ هذِهِ الْوَصَايَا الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا ... يَطْرُدُ الرَّبُّ جَمِيعَ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ مِنْ أَمَامِكُمْ ، فَتَرِثُونَ شُعُوبًا أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكُمْ . كُلُّ مَكَانٍ تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ يَكُونُ لَكُمْ . مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَلُبْنَانَ . مِنَ النَّهْرِ ، نَهْرِ الْفُرَاتِ ، إِلَى الْبَحْرِ الْغَرْبِيِّ يَكُونُ تُخْمُكُمْ . لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكُمْ . اَلرَّبُّ إِلهُكُمْ يَجْعَلُ خَشْيَتَكُمْ وَرُعْبَكُمْ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ الَّتِي تَدُوسُونَهَا كَمَا كَلَّمَكُمْ» (تثنية ١١ : ٢٢-٢٥) .

ولكنهم بغض النظر عن المستقبل الباهر الذي كان ينتظرهم اختاروا طريق الراحة والتمتعات الجسدية ، وتركوا الفرص الذهبية تفلت من أيديهم فلم يكملوا غزو البلاد . ولأجيال طويلة كان الباقون من الشعوب الوثنية يضايقونهم ، فكان أولئك القوم كما قد تنبأ عنهم النبي «أَشْوَاكًا فِي أَعْيُنِكُمْ ، وَمَنَاخِسَ فِي جَوَانِبِكُمْ» (عدد ٣٣ : ٥٥) .

إن الإسرائيليين «اخْتَلَطُوا بِالأُمَمِ وَتَعَلَّمُوا أَعْمَالَهُمْ» لقد تزاوجوا مع الكنعانيين فتفشت الوثنية في كل البلاد كوبأ فتاك ، «عَبَدُوا أَصْنَامَهُمْ ، فَصَارَتْ لَهُمْ شَرَكًا . وَذَبَحُوا بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ لِلأَوْثَانِ ... وَتَدَنَّسَتِ الأَرْضُ بِالدِّمَاءِ ... فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى شَعْبِهِ ، وَكَرِهَ مِيرَاثَهُ» (مزمور ١٠٦ : ٣٤-٣٨،٤٠) .

إن الوثنية لم تنتشر ولم يشتد ساعدها حتى انقرض ذلك الجيل الذي كان قد تلقى التعاليم من يشوع ، إلا أن الآباء كانوا قد مهدوا طريق الارتداد لبنيهم . إن إغضاء أولئك الذين امتلكوا كنعان عن نواهي الرب بذر بذور الشر التي ظلت تؤتي ثمارها المرة مدة أجيال طويلة ، فالعادات البسيطة التي تمسك بها العبرانيون حفظت لهم صحتهم البدنية ، ولكن اختلاطهم بالوثنية جعلهم يفرطون في النهم والشهوات التي أضعفت قواهم الجسمانية تدريجا وأوهنت قواهم العقلية والأدبية . إن خطايا الإسرائيليين فصلت بينهم وبين إلههم ، فتركتهم قوته وما عادوا ينتصرون على أعدائهم . وهكذا حدث أنهم خضعوا لنفس الأمم التي كان يمكنهم إخضاعها بقوة الله .

«وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلهَ آبَائِهِمِ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» «وَسَاقَ مِثْلَ الْغَنَمِ شَعْبَهُ ... أَغَاظُوهُ بِمُرْتَفَعَاتِهِمْ ، وَأَغَارُوهُ بِتَمَاثِيلِهِمْ» ولذلك فالرب «رَفَضَ مَسْكَنَ شِيلُوَ ، الْخَيْمَةَ الَّتِي نَصَبَهَا بَيْنَ النَّاسِ . وَسَلَّمَ لِلسَّبْيِ عِزَّهُ ، وَجَلاَلَهُ لِيَدِ الْعَدُوِّ» (قضاة ٢ : ١٢؛ مزمور ٧٨ : ٥٢،٥٨،٦٠،٦١) ومع ذلك فهو لم يترك شعبه كلية ، فقد كانت هنالك بقية ظلت أمينة للرب ، ومن وقت إلى آخر أقام الرب رجالا أمناء جبابرة بأس ليقمعوا الوثنية ويخلصوا الإسرائيليين من أعدائهم . ولكن عندما كان المنقذ يموت ويتحررون من سلطانه كانوا يعودون بالتدريج إلى أوثانهم . وهكذا ظلت قصة الارتداد والتأديب والاعتراف والنجاة تتكرر مرارا كثيرة .

إن ملك ما بين النهرين وملك موآب ، ومن بعدهما الفلسطينيون والكنعانيون في حاصور تحت قيادة سيسرا هم بدورهم ضايقوا إسرائيل وقد أقام الرب عثنيئيل وشمجر وأهود ودبورة وباراق لإنقاذ شعبه . ولكن بعد ذلك . «عَمِلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ ، فَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ لِيَدِ مِدْيَانَ» (انظر قضاة ٦–٨) لم تكن يد المضايقين شديدة قبل ذلك على الأسباط الساكنين شرقي الأردن ، ولكن في الكوارث التي حلت بالشعب في هذا الوقت كانوا هم أول من قاسوا الأمرين .

إن العمالقة الذين كانوا يسكنون في جنوبي كنعان والمديانيين الذين كانوا حالين عند حدودها الشرقية وفي الصحراء الممتدة وراء تلك الحدود كانوا لا يزالون أعداء إسرائيل القساة العديمي الرحمة . إن الإسرائيليين في أيام موسى كانوا قد أهلكوا أمة المديانيين تقريبا ، ولكنهم منذئذٍ نموا وتكاثروا واشتدت سواعدهم . وكانوا يتلهفون على الانتقام . والآن بعد ما ارتفعت يد الله الحافظة عن إسرائيل وتركهم الرب فقد واتت المديانيين الفرصة السانحة . ولم تكن الأسباط التي سكنت شرقي الأردن هي وحدها التي قاست الويلات من جراء إغارات الأعداء وتخريبهم بل كل البلاد كذلك . إن سكان الصحراء الشرسين المتوحشين الذين كانوا «كَالْجَرَادِ فِي الْكَثْرَةِ» تجمعوا في داخل البلاد بغنمهم ومواشيهم . وكوبإ مهلك شامل انتشروا في كل البلاد من نهر الأردن إلى سهول الفلسطينيين وقد جاءوا عندما بدأ الحصاد ولبثوا هناك حتى جمعت آخر ثمار الأرض . لقد نهبوا من الحقول خيراتها الوفيرة وسلبوا وأساءوا معاملة السكان ثم عادوا إلى قفارهم . ولذلك اضطر الإسرائيليون الساكنون في العراء إلى ترك بيوتهم والتجمع في

المدن ذات الأسوار ليحتموا في حصونها ، أو حتى ليحتموا في الكهوف والمعاقل الصخرية بين الجبال . وقد دام ذلك الضيق سبع سنين كاملة . وحينئذ لما أصاخ الشعب وهم في ضيقتهم إلى توبيخات الرب واعترفوا بخطاياهم أقام لهم الله مخلصا آخر .

كان جدعون بن يوآش من سبط منسى . إن قسم السبط الذي كانت هذه العائلة تنتمي إليه لم يتول مركز قيادة ، إلا أن عائلة يوآش اشتهرت بالشجاعة والاستقامة . وقد قيل عن أولاد يوآش الشجعان : «كُلُّ وَاحِدٍ كَصُورَةِ أَوْلاَدِ مَلِكٍ» (قضاة ٨ : ١٨) كل أولئك الأولاد سقطوا في حربهم مع المديانيين ولم يبق منهم غير واحد ، وقد كان الغزاة يرهبون اسمه . ثم جاءت الدعوة من الله إلى جدعون ليخلص شعبه . وكان في ذلك الحين يخبط بعض الحنطة ، التي أخفيت كمية قليلة منها عن عيون الأعداء ، وإذ لم يكن جدعون يجرؤ على أن يخبطها في البيدر ذهب إلى مكان قريب من المعصرة ، ولأن ميعاد نضج العنب لم يكن قد جاء لم يكن هناك اهتمام كبير بالكروم . وإذ كان جدعون يقوم بعمله في تكتم وسكون جعل يتأمل بحزن في حالة إسرائيل ، وكيف يمكن كسر نير أولئك الظالمين عن أعناق شعبه .

وفجأة ظهر له «مَلاَكُ الرَّبِّ» وخاطبه بقوله «الرَّبُّ مَعَكَ يَا جَبَّارَ الْبَأْسِ» .

فكان جواب جدعون : «أَسْأَلُكَ يَا سَيِّدِي ، إِذَا كَانَ الرَّبُّ مَعَنَا فَلِمَاذَا أَصَابَتْنَا كُلُّ هذِهِ ؟ وَأَيْنَ كُلُّ عَجَائِبِهِ الَّتِي أَخْبَرَنَا بِهَا آبَاؤُنَا قَائِلِينَ : أَلَمْ يُصْعِدْنَا الرَّبُّ مِنْ مِصْرَ ؟ وَالآنَ قَدْ رَفَضَنَا الرَّبُّ وَجَعَلَنَا فِي كَفِّ مِدْيَانَ» .

فأجابه رسول السماء قائلا : «اذْهَبْ بِقُوَّتِكَ هذِهِ وَخَلِّصْ إِسْرَائِيلَ مِنْ كَفِّ مِدْيَانَ . أَمَا أَرْسَلْتُكَ ؟» .

إلا أن جدعون كان يطلب علامة يتحقق بها من أن ذاك الذي يخاطبه هو ملاك العهد الذي صنع العظائم لإسرائيل في القديم . إن ملائكة الله الذين تحادثوا مع إبراهيم مكثوا عنده ذات مرة وتناولوا طعاما من وليمته التي أولمها لهم . ولذلك فقد توسل جدعون إلى هذا الرسول الإلهي أن يبقى ضيفا عنده . فأسرع إلى خيمته وأعد من القليل الذي عنده جديا وبعض الفطير فأحضر هذه ووضعها أمامه . ولكن ملاك الرب أمره قائلا : «خُذِ اللَّحْمَ وَالْفَطِيرَ وَضَعْهُمَا عَلَى تِلْكَ الصَّخْرَةِ وَاسْكُبِ الْمَرَقَ» . وفعل جدعون كذلك ، وحينئذ أعطيت له

العلامة التي كان يطلبها فإن ملاك الرب مد طرف العكاز الذي بيده ومس اللحم والفطير فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير وحينئذ اختفى ملاك الرب عن عينيه .

إن يوآش أبا جدعون الذي شارك مواطنيه في الارتداد كان قد أقام مذبحا عظيما للبعل في عفرة حيث كان ساكنا ، وأمام المذبح كان شعب المدينة يسجدون ، فأمر جدعون أن يهدم هذا المذبح ويبنى مذبحا للرب على الصخرة التي أحرقت الذبيحة التي قدمها ، وأن يقدم على المذبح ذبيحة للرب . إن تقديم الذبائح لله كان عملا منوطا بالكهنة وكان ذلك مقصورا على المذبح الذي في شيلوه . ولكن ذاك الذي أقام الخدمة الطقسية والذي كانت كل الذبائح والتقدمات تشير إليه كان له سلطان أن يغير مطاليبها . إن خلاص إسرائيل كان ينبغي أن يسبقه احتجاج مقدس على عبادة البعل . فعلى جدعون أن يشن الحرب على الوثنية قبلما يخرج لمحاربة أعداء شعبه .

وقد نفذ جدعون الأمر الإلهي بكل أمانة . فإذ كان يعلم أنه سيلاقي مقاومة لو فعل ذلك على ملأ من الناس قام بذلك العمل خفية ، وبمساعدة عبيده أمكنه إتمام العمل كله في ليلة واحدة . فلما جاء أهل عفرة في صبيحة اليوم التالي ليقدموا عبادتهم للبعل كان غضبهم عظيما . وكانوا يريدون قتل جدعون لولا أن يوآش– الذي كان قد أخبر بزيارة الملاك لابنه– تصدى للدفاع عن ذلك الابن– قال يوآش : «أَنْتُمْ تُقَاتِلُونَ لِلْبَعْلِ ، أَمْ أَنْتُمْ تُخَلِّصُونَهُ ؟ مَنْ يُقَاتِلْ لَهُ يُقْتَلْ فِي هذَا الصَّبَاحِ . إِنْ كَانَ إِلهًا فَلْيُقَاتِلْ لِنَفْسِهِ لأَنَّ مَذْبَحَهُ قَدْ هُدِمَ» . فإذا كان البعل عاجزا عن الدفاع عن مذبحه فكيف يؤتمن على حياة عابديه ليحميهم ؟

لقد استبعدت كل فكرة للالتجاء إلى العنف حيال جدعون ، وحين ضرب بالبوق معلنا الحرب كان رجال عفرة أول من اجتمعوا تحت رايته . وقد أرسل جدعون رسلا إلى سبط منسى الذي ينتمي إليه ، كما إلى أشير وزبلون ونفتالي فلبى الجميع النداء .

ولم يجرؤ جدعون على أن يجعل نفسه على رأس الجيش قبل الحصول على برهان جديد على أن الله قد دعاه إلى ذلك العمل وأنه سيكون معه . فصلى إلى الله قائلا : «إِنْ كُنْتَ تُخَلِّصُ بِيَدِي إِسْرَائِيلَ كَمَا تَكَلَّمْتَ ، فَهَا إِنِّي وَاضِعٌ جَزَّةَ الصُّوفِ فِي الْبَيْدَرِ ، فَإِنْ كَانَ طَلٌّ عَلَى الْجَزَّةِ وَحْدَهَا ، وَجَفَافٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا ، عَلِمْتُ أَنَّكَ تُخَلِّصُ بِيَدِي إِسْرَائِيلَ كَمَا تَكَلَّمْتَ» وفي الغد كان في الجزة طل أما الأرض فكان فيها جفاف . ومع ذلك فقد تطرق الشك

إلى نفسه حيث أن الصوف يمتص الرطوبة عادة متى كان شيء منها في الجو ، ولذلك فلم يكن الامتحان باتا . ولهذا سأل جدعون أن تعكس العلامة وقد توسل إلى الرب ألا يسخط عليه بسبب هذا الحذر الشديد . وقد أجيب إلى طلبه .

تشجع جدعون فقاد جيشه لمحاربة الغزاة ، وقد «اجْتَمَعَ جَمِيعُ الْمِدْيَانِيِّينَ وَالْعَمَالِقَةِ وَبَنِي الْمَشْرِقِ مَعًا وَعَبَرُوا وَنَزَلُوا فِي وَادِي يِزْرَعِيلَ» لم يكن عدد الجيش الذي كان تحت قيادة جدعون يزيد على اثنين وثلاثين ألفا ، ولكن مع كثرة عدد جيوش الأعداء الذين انتشروا أمامه قال له الرب : «إِنَّ الشَّعْبَ الَّذِي مَعَكَ كَثِيرٌ عَلَيَّ لأَدْفَعَ الْمِدْيَانِيِّينَ بِيَدِهِمْ ، لِئَلاَّ يَفْتَخِرَ عَلَيَّ إِسْرَائِيلُ قَائِلاً : يَدِي خَلَّصَتْنِي . وَالآنَ نَادِ فِي آذَانِ الشَّعْبِ قَائِلاً : مَنْ كَانَ خَائِفًا وَمُرْتَعِدًا فَلْيَرْجِعْ وَيَنْصَرِفْ مِنْ جَبَلِ جِلْعَادَ» فأولئك الذين لم يكونوا راغبين في مواجهة المخاطر والمشقات أو كانت مصالحهم الدنيوية تجتذب قلوبهم بعيدا عن عمل الله لم يكونوا ليزيدوا من قوة جيوش إسرائيل ، بل إن وجودهم سيضعف من قوة رجال الحرب .

وقد صار قانونا في إسرائيل أنه قبل الذهاب إلى الحرب يطلق هذا النداء في كل الجيش : «مَنْ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي بَنَى بَيْتًا جَدِيدًا وَلَمْ يُدَشِّنْهُ ؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِه لِئَلاَّ يَمُوتَ فِي الْحَرْبِ فَيُدَشِّنَهُ رَجُلٌ آخَرُ . وَمَنْ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي غَرَسَ كَرْمًا وَلَمْ يَبْتَكِرْهُ ؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِه لِئَلاَّ يَمُوتَ فِي الْحَرْبِ فَيَبْتَكِرَهُ رَجُلٌ آخَرُ . وَمَنْ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي خَطَبَ امْرَأَةً وَلَمْ يَأْخُذْهَا ؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِه لِئَلاَّ يَمُوتَ فِي الْحَرْبِ فَيَأْخُذَهَا رَجُلٌ آخَرُ . ثُمَّ يَعُودُ الْعُرَفَاءُ يُخَاطِبُونَ الشَّعْبَ وَيَقُولُونَ : مَنْ هُوَ الرَّجُلُ الْخَائِفُ وَالضَّعِيفُ الْقَلْبِ ؟ لِيَذْهَبْ وَيَرْجعْ إِلَى بَيْتِهِ لِئَلاَّ تَذُوبَ قُلُوبُ إِخْوَتِهِ مِثْلَ قَلْبِهِ» (تثنية ٢٠ : ٥-٨) .

ولأن عدد رجال جدعون كان قليلا جدا بالنسبة إلى جيوش الأعداء كف عن إطلاق النداء المعتاد ، ثم امتلأ دهشة حين أعلن له الرب أن جيشه أكبر مما يلزم . ولكن الرب رأى الكبرياء وعدم الإيمان رابضين في قلوب شعبه . فإذ أيقظهم نداء جدعون انضموا إلى الجيش بسرعة . ولكن كثيرين منهم امتلأت قلوبهم خوفا حين رأوا جموع المديانيين . ومع ذلك فلو انتصر إسرائيل لكان نفس أولئك الرجال ينسبون المجد لأنفسهم بدلا من أن ينسبوا النصرة إلى الرب .

أطاع جدعون أمر الرب . وبقلب أثقله الحزن رأى اثنين وعشرين ألفا أو أكثر من

ثلثي الجيش كله يعودون إلى بيوتهم . ومرة أخرى قال له الرب : «لَمْ يَزَلِ الشَّعْبُ كَثِيرًا . انْزِلْ بِهِمْ إِلَى الْمَاءِ فَأُنَقِّيَهُمْ لَكَ هُنَاكَ . وَيَكُونُ أَنَّ الَّذِي أَقُولُ لَكَ عَنْهُ : هذَا يَذْهَبُ مَعَكَ ، فَهُوَ يَذْهَبُ مَعَكَ . وَكُلُّ مَنْ أَقُولُ لَكَ عَنْهُ : هذَا لاَ يَذْهَبُ مَعَكَ فَهُوَ لاَ يَذْهَبُ» فنزل بالشعب إلى الماء إذ كانوا مزمعين أن يزحفوا فورا لمنازلة العدو . وعدد يسير منهم ولغوا بأيديهم قليلا من الماء في سيرهم . أما الغالبية العظمى منهم فجثوا على ركبهم لشرب الماء ، وبكل تأنٍّ وتمهل جعلوا يشربون من وجه مياه الجدول وكان عدد الذين ولغوا بأيديهم ثلاث مئة من جيش قوامه عشرة آلاف . ومع ذلك فهؤلاء هم الذين اختيروا أما باقي رجال الجيش فسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم .

إن الخلق غالبا ما يختبر بأبسط الوسائل . فأولئك الذين كانوا في وقت الخطر منصبين على تزويد أنفسهم بما تحتاجه أجسادهم لم يكونوا رجالا يركن إليهم في إبان الطوارئ والأزمات . والرب لا مكان عنده في عمله للمتراخين المتكاسلين ولا للمنغمسين في مسراتهم وملاذهم ، فالذين اختارهم الله هم تلك الشرذمة التي لم تسمح لحاجاتها أن تعطلها عن أداء واجبها . إن أولئك الثلاث مئة رجل المختارين لم يكونوا رجالا شجعانا وضابطين أنفسهم فحسب ، بل كانوا أيضا رجال إيمان . لم ينجسوا أنفسهم بالوثنية . كان الله يستطيع أن يوجههم وعن طريقهم يصنع خلاصا لإسرائيل . إن النجاح ليس موقوفا على كثرة العدد ، فالله يستطيع أن يخلص بالقليل كما بالكثير . إنه لا يتمجد بكثرة عدد من يخدمونه كما بأخلاقهم .

أوقف الإسرائيليون فوق جبهة جبل يطل على الوادي حيث حلت جيوش الغزاة ، «وَكَانَ الْمِدْيَانِيُّونَ وَالْعَمَالِقَةُ وَكُلُّ بَنِي الْمَشْرِقِ حَالِّينَ فِي الْوَادِي كَالْجَرَادِ فِي الْكَثْرَةِ ، وَجِمَالُهُمْ لاَ عَدَدَ لَهَا كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِي الْكَثْرَةِ» ولما تفكر جدعون في الحرب المزمعة أن تنشب في الغد ارتجف قلبه ، ولكن الرب خاطبه في هدأة الليل وأمره أن ينزل في صحبة فورة غلامه إلى محلة المديانيين وقال له إنه قد يسمع هناك أخبار تزيده شجاعة . فذهب ، وإذ كان واقفا خلف إحدى خيام الأعداء في دجى الليل وسكونه سمع جنديا يقص على زميل له خبر حلمه قائلا : «هُوَذَا قَدْ حَلُمْتُ حُلْمًا ، وَإِذَا رَغِيفُ خُبْزِ شَعِيرٍ يَتَدَحْرَجُ فِي مَحَلَّةِ الْمِدْيَانِيِّينَ ، وَجَاءَ إِلَى الْخَيْمَةِ وَضَرَبَهَا فَسَقَطَتْ ، وَقَلَبَهَا إِلَى فَوْق فَسَقَطَتِ الْخَيْمَةُ» . فأجابه الآخر جوابا أبهج قلب ذلك السامع غير المنظور

(جدعون) إذ قال : «لَيْسَ ذلِكَ إِلاَّ سَيْفَ جِدْعُونَ بْنِ يُوآشَ رَجُلِ إِسْرَائِيلَ . قَدْ دَفَعَ اللهُ إِلَى يَدِهِ الْمِدْيَانِيِّينَ وَكُلَّ الْجَيْشِ» فأيقن جدعون أن الله هو الذي كان يكلمه عن طريق ذينك الرجلين الغريبين . وإذ عاد إلى الرجال القليلين الذين كانوا تحت قيادته قال لهم : «قُومُوا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ دَفَعَ إِلَى يَدِكُمْ جَيْشَ الْمِدْيَانِيِّينَ» .

وبناء على توجيه إلهي اقترحت عليه خطة للهجوم نفذها في الحال ، فقسم الثلاث مئة الرجل إلى ثلاث فرق وأعطي لكل رجل بوق وجرة فارغة أخفي في داخلها مصباح ، وأوقف أولئك الرجال بحيث يتقدمون إلى المديانيين من عدة جهات . ففي سكون الليل عندما نفخ جدعون في بوق الحرب نفخت الفرق الثلاث في أبواقها ، ثم إذ كسروا جرارهم وظهرت المصابيح تتوهج انقضوا على الأعداء صائحين صيحة الحرب المخيفة قائلين : «سَيْفٌ لِلرَّبِّ وَلِجِدْعُونَ» .

أوقظ الجيش النائم فجأة ، ورأوا من كل جانب أضواء لهب المصابيح . ومن كل جهة كانت تسمع أصوات الأبواق مصحوبة بصيحات المهاجمين . فإذ ظن المديانيون أنهم قد صاروا تحت رحمة جيش جرار فزعوا وارتاعوا ، وبصرخات رعب وحشية هربوا لخيامهم ، وإذ ظنوا زملاءهم أعداء لهم جعل الرب سيف كل واحد بصاحبه ، وبكل الجيش فأفنى بعضهم بعضا . ولما ذاعت أنباء انتصار إسرائيل رجع ألوف ممن كان جدعون قد أرجعهم إلى بيوتهم وجعلوا يطاردون أعدائهم الهاربين ، وكان المديانيون متجهين نحو الأردن على أمل أن يبلغوا موطنهم عبر النهر . فأرسل جدعون رسلا إلى سبط أفرايم يستنهضهم ليصدوا الهاربين عند مخاوض الجنوب أما جدعون ففي أثناء ذلك سار هو والثلاث مئة الرجل . «مُعْيِينَ وَمُطَارِدِينَ» فعبروا النهر يتعقبون أعداءهم الذين وصلوا إلى الضفة الأخرى . وقد لحق جدعون بملكي مديان زبح وصلمناع اللذين كانا على كل الجيش ، واللذين كانا قد هربا على رأس جيش عدده خمسة عشرة ألف رجل فتشتت شمل ذلك الجيش بالتمام ، وقبض جدعون على ذينك القائدين وقتلهما .

في هذه الغلبة الفريدة قتل من أولئك الغزاة ما لا يقل عن مئة وعشرين ألف رجل . فكسرت شوكة مديان بحيث لم يعودوا قادرين على أن يشنوا حربا على إسرائيل بعد ذلك . وذاعت الأخبار بسرعة من أقصى البلاد إلى أقصاها أن إله إسرائيل قد حارب عن شعبه مرة أخرى . وإن الكلمات لتعجز عن وصف الرعب الذي استولى على الأمم

المجاورة حين علموا بالوسائل البسيطة التي بواسطتها انتصر شعب الله وسحقوا قوة ذلك الشعب الباسل .

إن ذلك القائد الذي اختاره الله ليقهر به المديانيين لم يكن ذا مركز مرموق في إسرائيل إذ لم يكن حاكما ولا كاهنا ولا لاويا . وقد قال عن نفسه إنه الأصغر في بيت أبيه . ولكن الله رأى فيه رجل البسالة والاستقامة . إنه لم يركن إلى نفسه بل رغب في اتباع إرشادات الله . إن الرب لا يستخدم في عمله دائما أولئك الرجال ذوي المواهب العظيمة . بل هو يستخدم أولئك الذين يمكنه أن يستخدمهم أفضل استخدام . يقول الحكيم : «قَبْلَ الْكَرَامَةِ التَّوَاضُعُ» (أمثال ١٥ : ٣٣) إن الله يستطيع أن يعمل بكيفية أفعل بواسطة أولئك الذين يحسون إحساسا عميقا بعدم كفايتهم والذين يعتمدون عليه كقائدهم ، نبع قوتهم . إنه يجعلهم أقوياء بكونه يقرن ضعفهم بقوته وحكماء بكونه يقرن جهالتهم بحكمته .

لو أن شعب الله يتسربلون بالوداعة الصادقة لكان الرب يصنع لأجلهم أعمالا أعظم . ولكن ، قليلون هم الذين يمكن أن يسند إليهم جانب كبير من المسؤولية أو النجاح دون أن يكونوا واثقين بأنفسهم وناسين اعتمادهم على الله . هذا هو السبب الذي لأجله حين يختار الله من يقومون بعمله يغفل أولئك الذين يكرمهم العالم معتبرا إياهم عظماء وموهوبين وأذكياء أنهم في غالب الأحيان يكونون متكبرين ومتكلين على ذواتهم . فهم يحسون بأنهم أكفاء لأن يعملوا دون انتظار مشورة الله .

إن العمل البسيط الذي عمله يشوع حين ضرب رجاله بالبوق في طوافهم حول أريحا ، والذي عملته جماعة جدعون الصغيرة حول جيوش مديان صار فعالا بقوة الله في هدم قوة الأعداء . إن أكمل نظام يمكن أن يبتكره الناس ، منفصلا عن قوة الله وحكمته ، مصيره إلى الفشل ، بينما الوسائل التي لا يرجى منها خير تنجح إذا كانت معينة من الله ، وإذا شرع المسؤولون في تنفيذها بوداعة وإيمان . إن الثقة بالله والطاعة لإرادته أمران جوهريان ولازمان للمسيحي في حربه الروحية كما كانا لازمين لجدعون ويشوع في حربهما مع الكنعانيين . إن الله بمظاهر قدرته المتكررة لأجل إسرائيل أراد أن يقودهم إلى الإيمان به . وأنه يمكنهم بكل ثقة أن يطلبوا معونته في كل الطوارئ . وهو الآن على أتم استعداد لأن يعمل مع مجهود شعبه ويصنع عظائم بالوسائط الضعيفة .

إن السماء كلها تنتظر منا أن نطلب منها الحكمة والقوة . والله قادر «أَنْ يَفْعَلَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ ، بِحَسَبِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِينَا» (أفسس ٣ : ٢٠) .

عاد جدعون من مطاردة أعداء الأمة ليواجه انتقاد مواطنيه واتهاماتهم . فحين اجتمع شعب إسرائيل تلبية لندائه ظل رجال سبط أفرايم متخلفين إذ رأوا أن هذا العمل عمل مخطر ، وحيث أن جدعون لم يوجه إليهم دعوة خاصة اعتبروا هذا عذرا لهم حتى لا ينضموا إلى إخوتهم . ولكن عندما وصلتهم أنباء انتصار إسرائيل أكل الحسد قلوبهم لأنه لم يكن لهم نصيب في ذلك الانتصار . فبعد هزيمة المديانيين تقدم رجال أفرايم امتثالا لأوامر جدعون وأخذوا مخاوض الأردن وبذلك منعوا الهاربين من الإفلات ، وبهذه الوسيلة قتل كثيرون من جيوش العدو ومن بينهم أميران هما غراب وذئب . وهكذا تابع رجال أفرايم المعركة وأعانوا على تكملة الانتصار . ومع ذلك فقد كانوا حسودين وغاضبين كما لو كان جدعون يتبع إرادته وحكمه الخاص . إنهم لم يروا يد الله عاملة في انتصار إسرائيل ولم يقدروا قدرته ورحمته في خلاصهم . فبرهنت هذه الحقيقة على عدم استحقاقهم لأن يختارهم الله كوسائط في يده للعمل معه .

وإذ عادوا بتذكارات انتصارهم وبخوا جدعون بغضب قائلين : «مَا هذَا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلْتَ بِنَا ، إِذْ لَمْ تَدْعُنَا عِنْدَ ذِهَابِكَ لِمُحَارَبَةِ الْمِدْيَانِيِّينَ ؟» . فأجابهم بقوله : «مَاذَا فَعَلْتُ الآنَ نَظِيرَكُمْ ؟ أَلَيْسَ خُصَاصَةُ أَفْرَايِمَ خَيْرًا مِنْ قِطَافِ أَبِيعَزَرَ ؟ لِيَدِكُمْ دَفَعَ اللهُ أَمِيرَيِ الْمِدْيَانِيِّينَ غُرَابًا وَذِئْبًا . وَمَاذَا قَدِرْتُ أَنْ أَعْمَلَ نَظِيرَكُمْ ؟» .

إن روح الحسد كان يمكن أن تتفاقم حتى تصير شجارا عنيفا يفضي إلى سفك الدماء . ولكن جواب جدعون اللين صرف غضب رجال أفرايم فعادوا بسلام إلى بيوتهم . إن جدعون الذي كان ثابتا في المبدأ لا يلين وكان في الحرب «جَبَّارَ الْبَأْسِ» قد أظهر روح اللطف والرقة النادرة الوجود .

إن شعب إسرائيل اعترافا منهم بالشكر على الخلاص من المديانيين اقترحوا على جدعون أن يملك عليهم وأن يدوم السلطان لنسله من بعده . ولكن هذا الاقتراح كان انتهاكا لمبادئ حكم الله (الثيوقراطي) . لقد كان الله ملك إسرائيل ، فكونهم يجلسون على العرش إنسانا لمما يعتبر رفضا لملكهم السماوي . اعترف جدعون بهذه الحقيقة ، وبرهن جوابه على صدق بواعثه ونبلها إذ قال لهم : «لاَ أَتَسَلَّطُ أَنَا عَلَيْكُمْ وَلاَ يَتَسَلَّطُ ابْنِي عَلَيْكُمُ . اَلرَّبُّ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ» .

ولكن جدعون ارتكب خطأ آخر جلب النكبات على بيته وعلى كل إسـرائيل . إن وقـت البطالة الذي يجيء عقب حرب عظيمة هو وقت غالبا ما يكون مشحونا بمخاطر أعظـم مـن مخاطر الحرب ذاتها . وها هو جدعون يتعرض الآن لـهذه المخـاطر . لقـد انتابـه روح الاضطراب . كان قبلا قانعا بتنفيذ الأوامر التي يتلقاها من الله ، أما الآن فبدلا من أن ينتظـر إرشاد الله ابتدأ يدبر الخطط لنفسه . إن جيوش الله حين تحرز انتصـارا عظيمـا يضـاعف الشيطان جهوده ليدمر عمل الله ويلاشيه . وهكذا خطرت ببال جدعون أفكار وخطط كان مـن نتائجها ضلال شعب إسرائيل .

إن الرب لكونه قد أمره بتقديم ذبيحة على الصخرة التي ظهر له ملاك الـرب عندهـا ، استنتج أنه قد اختير ليكون كاهنا . وبدون أن ينتظر مصادقة الله ، عزم على إيجـاد موضـع مناسب ، وأراد أن يسن نظاما للعبادة مشابها لما كان يجرى في خيمة الاجتمـاع . وإذ ظفـر بتأييد شعبي قوي له لم يجد صعوبة في تنفيذ خطته . وإجابة لطلبه أعطيت لـه كـل أقـراط الذهب التي غنموها من المديانيين على أنها نصيبه من الغنيمة ، كما جمع الشعب كذلك أشـياء أخرى ثمينة ومعها ثياب الأرجوان الغالية التي كان يملكها أمراء مديان . ومن هذه الأشـياء صنع جدعون أفودا وصدرة كالتي كان يلبسها رئيس الكهنة . فكان تصرفه هذا شركا لنفسـه ولعائلته ولإسرائيل أيضا . وهذه العبادة غير المشروعة أدت بكثيرين من بني إسرائيل أخـيرا أن يتركوا الرب تماما ويتعبدوا للأوثان . وبعد موت جدعون اشتركت جماعات كبـيرة مـن الشعب ومن بينهم عائلته في هذا الارتداد . لقد ابتعد الشعب عن الله بواسطة نفس الرجل الذي كان قد قوض وثنيتهم من قبل .

قليلون هم الذين يتحققون من مدى انتشار تأثير كلامهم وأعمالهم . كم مـن مـرة تجلـب أخطاء الآباء أقسى النكبات على أولادهم وأحفادهم بعد موت الآباء بزمن طويل ! كل إنسـان يؤثر في الآخرين تأثيرا خاصا ، وسيعطي حسابا عن نتائج ذلك التأثير . إن الأقوال والأفعال لها تأثير فعال ، والأبدية التي لا نهاية لها ستبرهن على قوة تأثير حياتنـا هنـا . وإن تـأثير أقوالنـا وأعمالنا لا بد أن يكون له رد فعل على أنفسنا بالبركة أو باللعنة . هذا الفكر يعطـي لحياتنـا قدسية وجلالا عظيمين كما أنه يحتم علينا أن نقترب إلى الله في صلاة متواضعة خاشعة حتـى يقودنا بحكمته .

إن أولئك الذين يحتلون أسمى المراكز يمكن أن يضلوا الآخرين ، فأحكم الناس يخطئون ، وأقوى الناس قد يترددون ويعثرون ، لذلك نحن بحاجة إلى أن يشرق علينا دائما نور من السماء لينير طريقنا . إن سلامتنا هي في أن نسلم طرقنا تسليما كاملا لذاك الذي قال : «اتْبَعْنِي» (لوقا ٩ : ٥٩) .

«وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ جِدْعُونَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... لَمْ يَذْكُرُوا ... الرَّبَّ إِلهَهُمُ الَّذِي أَنْقَذَهُمْ مِنْ يَدِ جَمِيعِ أَعْدَائِهِمْ مِنْ حَوْلِهِمْ . وَلَمْ يَعْمَلُوا مَعْرُوفًا مَعَ بَيْتِ يَرُبَّعْلَ ، جِدْعُونَ ، نَظِيرَ كُلِّ الْخَيْرِ الَّذِي عَمِلَ مَعَ إِسْرَائِيلَ» فإذ نسوا كل الدين الذي كان في أعناقهم لجدعون قاضيهم ومنقذهم قبل شعب إسرائيل أبيمالك ابن امته ملكا عليهم ، قبلوا ذاك الذي لكي يوطد سلطانه قتل كل بني جدعون الشرعيين ما عدا واحدا . إن الناس حين يطرحون خوف الله بعيدا عنهم فسرعان ما يبتعدون عن الكرامة والاستقامة ، فتقدير الناس لرحمة الرب سيقودهم إلى تقدير أولئك الذين كجدعون قد استخدمهم الله في يده آلات بارك بها شعبه . إن القسوة التي أبداها بنو إسرائيل نحو بيت جدعون كانت أمرا منتظرا من شعب أبدى مثل هذا الجحود العظيم نحو الله .

وبعد موت أبيمالك ساعد حكم القضاة ، بعض الوقت ، الذين كانوا يتقون الله على صد تيار الوثنية ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عاد الشعب إلى الأعمال الوثنية التي كانت تمارسها القبائل المحيطة بهم . فبين الأسباط الساكنة في الشمال كان كثيرون يتعبدون لآلهة آرام وصيدون ، وفي الجنوب عبدوا آلهة الفلسطينيين ، وفي الشرق عبدوا آلهة موآب وبني عمون ، فارتدت قلوبهم عن إله آبائهم . ولكن الارتداد سرعان ما جاء في أذياله القصاص . فلقد أخضع بنو عمون الأسباط الساكنة شرقا ، وإذ عبروا الأردن غزوا إقليم يهوذا وأفرايم . وقد صعد الفلسطينيون من السهل الواقع على البحر في الغرب وأحرقوا ونهبوا مدنا كثيرة . ومرة أخرى بدا كأن إسرائيل قد تركوا في قبضة أعداء لا يعرفون الرحمة .

ومرة أخرى طلب الشعب العون من ذاك الذي كانوا قد تركوه وأهانوه . «فَصَرَخَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ قَائِلِينَ : «أَخْطَأْنَا إِلَيْكَ لأَنَّنَا تَرَكْنَا إِلهَنَا وَعَبَدْنَا الْبَعْلِيمَ»» (انظر قضاة ١٠ : ١٠-١٦) ولكن حزنهم لم ينشئ فيهم توبة حقيقية . لقد ناح الشعب لأن خطاياهم جلبت عليهم المتاعب والآلام ولكنهم لم ينوحوا لأنهم قد أهانوا الله بتعديهم شريعته المقدسة . إن التوبة الحقيقية هي شيء أعظم وأعمق من الحزن على الخطية . إنها

الرجوع بعزم صادق عن الشر .

ثم أجابهم الرب بواسطة أحد أنبيائه قائلا : «أَلَيْسَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَبَنِي عَمُّونَ وَالْفِلِسْطِينِيِّينَ خَلَّصْتُكُمْ ؟ وَالصِّيدُونِيُّونَ وَالْعَمَالِقَةُ وَالْمَعُونِيُّونَ قَدْ ضَايَقُوكُمْ فَصَرَخْتُمْ إِلَيَّ فَخَلَّصْتُكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ ؟ وَأَنْتُمْ قَدْ تَرَكْتُمُونِي وَعَبَدْتُمْ آلِهَةً أُخْرَى . لِذلِكَ لاَ أَعُودُ أُخَلِّصُكُمْ . امْضُوا وَاصْرُخُوا إِلَى الآلِهَةِ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا ، لِتُخَلِّصَكُمْ هِيَ فِي زَمَانِ ضِيقِكُمْ» .

إن هذه الأقوال المقدسة والمخيفة تنتقل بالذهن إلى الأمام إلى مشهد آخر– مشهد يوم الدينونة الأخير العظيم– حين يقف أولئك الذين قد رفضوا رحمة الله واحتقروا نعمته وجها لوجه أمام عدالته . فأمام عرش الدينونة ذاك لا بد من أن أولئك الذين استخدموا الوزنات المعطاة لهم من الله ، الوقت والمال والحقل لخدمة آلهة هذا العالم سيعطون عنها حسابا أمام الديان . لقد تركوا صديقهم الأمين المحب ليسيروا في طريق الراحة والمسرات العالمية . إنهم في وقت ما قصدوا أن يرجعوا إلى الله ، ولكن العالم بما فيه من جهالات وأباطيل ومخاتلات استولى على كل اهتمامهم . ثم أن التسليات التافهة والكبرياء والتأنق في اللبس والانغماس في شهوة الطعام قست قلوبهم وخدرت ضمائرهم حتى لم يسمعوا صوت الحق . كما أنهم استخفوا بواجبهم وازدروا الأمور العظيمة القيمة حتى لم تعد في قلوبهم أية رغبة في التضحية بأي شيء لأجل ذاك الذي قدم كثيرا وضحى كثيرا لأجل الإنسان . إلا أنهم في وقت الحصاد لا بد من أن يحصدوا ما قد زرعوه .

يقول الرب : «لأَنِّي دَعَوْتُ فَأَبَيْتُمْ ، وَمَدَدْتُ يَدِي وَلَيْسَ مَنْ يُبَالِي ، بَلْ رَفَضْتُمْ كُلَّ مَشُورَتِي ، وَلَمْ تَرْضَوْا تَوْبِيخِي ... إِذَا جَاءَ خَوْفُكُمْ كَعَاصِفَةٍ ، وَأَتَتْ بَلِيَّتُكُمْ كَالزَّوْبَعَةِ ، إِذَا جَاءَتْ عَلَيْكُمْ شِدَّةٌ وَضِيقٌ . حِينَئِذٍ يَدْعُونَنِي فَلاَ أَسْتَجِيبُ . يُبَكِّرُونَ إِلَيَّ فَلاَ يَجِدُونَنِي . لأَنَّهُمْ أَبْغَضُوا الْعِلْمَ وَلَمْ يَخْتَارُوا مَخَافَةَ الرَّبِّ . لَمْ يَرْضَوْا مَشُورَتِي . رَذَلُوا كُلَّ تَوْبِيخِي . فَلِذلِكَ يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِ طَرِيقِهِمْ ، وَيَشْبَعُونَ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ» «أَمَّا الْمُسْتَمِعُ لِي فَيَسْكُنُ آمِنًا ، وَيَسْتَرِيحُ مِنْ خَوْفِ الشَّرِّ» (أمثال ١ : ٢٤–٣١، ٣٣) .

أما الآن فقد تذلل الإسرائيليون أمام الرب «وَأَزَالُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ مِنْ وَسَطِهِمْ وَعَبَدُوا الرَّبَّ» . فحزن قلب الله المحب و«ضَاقَتْ نَفْسُهُ بِسَبَبِ مَشَقَّةِ إِسْرَائِيلَ» آه ما أعظم رحمة الله الصابرة ! فحين أزال شعبه الآلهة الغريبة التي حجبت وجهه عنهم سمع صلاتهم وللحال بدأ

يعمل لأجلهم .

ثم أقام لهم الرب يفتاح الجلعادي مخلصا ، فحارب بني عمون وسحق قوتهم . وفي هذه المرة ذل بنو إسرائيل تحت أيدى أعدائهم ثماني عشرة سنة ، ومع ذلك فسرعان ما نسوا الدرس الذي علمتهم إياه المتاعب والضيقات .

ولما عاد شعب الله إلى طريقهم الشريرة سمح الرب للفلسطينيين أعدائهم الأشداء بأن يسحقوهم ويضطهدوهم . وقد ضايقهم أعداؤهم لسنين طويلة ، وفي بعض الأحيان كان أولئك الأعداء القساة الميالون للحرب يخضعونهم تماما . لقد اندمجوا مع هؤلاء الوثنيين وارتبطوا بهم في مسراتهم وعبادتهم حتى بدا كأنهم صاروا واحدا معهم في روحهم ومصالحهم . وحينئذ انقلب أصدقاء إسرائيل هؤلاء فصاروا ألد أعدائهم وحاولوا بكل وسيلة أن يهلكوهم .

إن المسيحيين في غالب الأحيان يتشبهون ببني إسرائيل في الخضوع لتأثير العالم والتشبه به في المبادئ والعادات ليظفروا بصداقة الأشرار ، ولكن في النهاية سيظهر أولئك الذين يتظاهرون بصداقتهم لشعب الله على حقيقتهم وإذا بهم أخطر الأعداء . إن الكتاب يعلمنا صريحا أنه لا يمكن أن تكون هنالك شركة أو انسجام بين شعب الله والعالم . يقول يوحنا الرسول : «لاَ تَتَعَجَّبُوا يَا إِخْوَتِي إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ» (١يوحنا ٣ : ١٣) . ومخلصنا يقول : «اعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ» (يوحنا ١٥ : ١٨) . إن الشيطان يستخدم الأشرار تحت ستار من الصداقة المصطنعة في إغواء شعب الله حتى يرتكبوا الخطية ليفصلهم عنه ، فمتى قوض حصن دفاعهم يقود أتباعه لينقلبوا عليهم ويسعى لتكميل هلاكهم .

الفصل الرابع والخمسون

شمشون

في وسط الارتداد المتفشي في البلاد ظل عبيد الرب الأمناء مواظبين على التوسل إليه تعالى حتى يخلص إسرائيل . ومع أنه لم تكن هنالك استجابة حسب الظاهر ، ومع أن شر الطغاة اشتد على إسرائيل وتفاقم عاما بعد عام فإن عناية الله كانت تعد لهم المعونة . حتى إنه في بدء سني طغيان الفلسطينيين وظلمهم لشعب الله ولد ابن قصد الله أن يذل بواسطته قوة أعدائهم الأشداء .

فعلى حدود البلاد المشرفة على سهول الفلسطينيين كانت بلدة صغيرة تدعى صرعة . وكانت عائلة منوح التي تنتمي إلى سبط دان تسكن في تلك البلدة ، وهى إحدى العائلات القليلة التي ظلت أمينة للرب في وسط الارتداد العام . فظهر «مَلاَكُ الرَّبِّ» لامرأة منوح العاقر وبشرها بأنها ستنجب ابنا به يبتدئ الرب يخلص إسرائيل . ونظرا لذلك قدم لها الملاك التوجيهات الخاصة بعاداتها الخاصة ، وكيفية معاملتها لابنها أيضا ، قائلا : «وَالآنَ فَاحْذَرِي وَلاَ تَشْرَبِي خَمْرًا وَلاَ مُسْكِرًا ، وَلاَ تَأْكُلِي شَيْئًا نَجِسًا» (انظر قضاة ١٣) ونفس هذا النهي لزم فرضه على الصبي منذ البداية ، يضاف إلى ذلك أن شعره يجب ألا يحلق لأنه سيكرس لله كنذير منذ ولادته .

بحثت المرأة عن رجلها ، وإذ وجدته جعلت تصف له هيئة الملاك الذي ظهر لها وأخبرته برسالته . فإذ خشى الزوج أن يخطئا في أي شيء يختص بهذا العمل العظيم المنوط بهما صلى قائلا : «أَسْأَلُكَ يَا سَيِّدِي أَنْ يَأْتِيَ أَيْضًا إِلَيْنَا رَجُلُ اللهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ ، وَيُعَلِّمَنَا : مَاذَا نَعْمَلُ لِلصَّبِيِّ الَّذِي يُولَدُ ؟» .

لما ظهر الملاك ثانية كان سؤال منوح هو هذا : «مَاذَا يَكُونُ حُكْمُ الصَّبِيِّ وَمُعَامَلَتُهُ ؟» ، فكرر الملاك تعليماته السابقة قائلا «مِنْ كُلِّ مَا قُلْتُ لِلْمَرْأَةِ فَلْتَحْتَفِظْ . مِنْ كُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ جَفْنَةِ الْخَمْرِ لاَ تَأْكُلْ ، وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ تَشْرَبْ ، وَكُلَّ نَجِسٍ لاَ تَأْكُلْ .

لِتَحْذَرْ مِنْ كُلِّ مَا أَوْصَيْتُهَا» .

كان الله قد أعد للابن الموعود به لمنوح عملا هاما ليقوم به . ولكي تكون له المؤهلات اللازمة لهذا العمل كان ينبغي تنظيم عادات الأم وطفلها وضبطها بكل حرص ، فكان أمر الملاك لامرأة منوح يقول : «خَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ تَشْرَبْ ، وَكُلَّ نَجِسٍ لاَ تَأْكُلْ . لِتَحْذَرْ مِنْ كُلِّ مَا أَوْصَيْتُهَا» . إن الطفل لابد أن يتأثر بعادات أمه إن للخير أو للشر . فينبغي لها أن تخضع للمبادئ السامية وتمارس الاعتدال وإنكار الذات إن كانت تطلب لوليدها الخير . إن المشيرين غير الحكماء يلحون على المرأة بضرورة إشباع كل رغبة وكل ميل ، ولكن مثل هذا التعليم كاذب ومضر وخبيث . إن المرأة بموجب أمر الله نفسه قد صارت تحت أقدس الالتزامات لتمارس فضيلة ضبط النفس والتعفف .

والآباء والأمهات أيضا هم تحت هذا الالتزام . وكلا الأبوين ينقلان صفاتهما الذهنية والجسمانية وطباعهما وشهواتهما لأولادهما . إنه بسبب إفراط الآباء يفتقر الأولاد في الغالب إلى القوة الجسمانية والمقدرة العقلية والأدبية . فمدمنو شرب الخمر والتدخين يمكن أن ينقلوا إلى أبنائهم الشهوة التي لا يمكن إشباعها والدم الثائر والأعصاب المتوترة المهتاجة . إن الناس الخلعاء غالبا ما يورثون أولادهم أميالهم النجسة وحتى أمراضهم الخبيثة كتركة . وحيث أن الأولاد يكونون أقل مناعة في مقاومة التجربة من والديهم فإن كل جيل جديد ينحط أكثر من سابقه . إن الوالدين مسؤولون إلى حد كبير ليس فقط عن شهوات أولادهم الجامحة وشهوتهم الفاسدة للطعام ، بل أيضا عن علل الألوف الذين يولدون صما أو عميا أو أعلاء أو معتوهين .

إن السؤال الذي ينبغي أن يقدمه كل الآباء والأمهات هو هذا : «ماذا نفعل للطفل الذي يولد لنا ؟» إن كثيرين لا يعتبرون تأثير الآباء في أولادهم أمرا ذا شأن . ولكن التعليمات المرسلة من السماء لذينك الأبوين العبرانيين وتكرارها مرتين بصفة قاطعة وكيفية مهيبة جليلة ، كل ذلك يرينا كيف ينظر خالقنا إلى هذا الأمر .

ولم يكن يكفي أن يرث الابن الموعود به ميراثا صالحا من أبويه ، بل لا بد أن يتبع ذلك تدريب الصبى المدقق وتكوين عادات حسنة فيه ، فأمر الله أن قاضي إسرائيل ومخلصه العتيد ، ينبغي أن يتربى على العفة التامة وضبط النفس منذ الطفولة . كان يجب أن يكون

نذيرا لله من البطن فينهى نهيا دائما عن تعاطي الخمر أو المسكر . ينبغي أن يتعلم الأولاد دروس العفة وإنكار الذات وضبط النفس منذ صباهم .

كان نهي الملاك يشمل «كُلَّ نَجِسٍ» . إن التمييز بين الطاهر والنجس من أصناف الطعام لم يكن قانونا طقسيا تعسفيا بل كان مبنيا على مبادئ صحية . وعلى مراعاة هذا التميز يمكن ، إلى حد كبير ، تتبع الحيوية المدهشة التي امتاز بها الشعب اليهودي طوال آلاف السنين . إن مبادئ العفة ينبغي أن تتعدى المشروبات الروحية ، فاستعمال الأطعمة المنبهة والعسرة الهضم هو في الغالب مضر بالصحة كتلك المشروبات سواء بسواء ، وفي حالات كثيرة يبذر بذار السكر . إن العفة الحقيقية تلزمنا بأن نستغني كلية عن كل ما يضر ، وأن نستعمل الأشياء الصحية بدراية . قليلون هم الذين يدركون هذا الأمر كما يجب وهو إلى أي حد يكون لعاداتهم في التغذية دخل في صحتهم وخلقهم ونفعهم في هذا العالم ومصيرهم الأبدي . إن قابلية المرء للطعام ينبغي أن تكون خاضعة دائما للقوى العقلية والأدبية ، كما ينبغي أن يكون الجسم خادما للعقل ، لا أن يكون العقل خادما للجسم .

وقد تم وعد الله لمنوح في وقته بولادة ابن له سمي شمشون . وإذ نما الصبي اتضح أن له قوة جسمانية خارقة . ومع ذلك فهذا لم يكن متوقفا على عضلاته المفتولة بل على حالته كنذير ، تلك الحالة التي كان شعره المسترسل رمزا لها ، كما كان شمشون وأبواه يعلمون ذلك جيدا . فلو أن شمشون أطاع أوامر الرب بكل أمانة كما فعل أبواه لكان انتهى إلى مصير أنبل وأسعد مما انتهى إليه . ولكن اختلاطه بالوثنيين أفسده . وإذ كانت صرعة قريبة من بلاد الفلسطينيين صارت له معهم علاقات حبية . وهكذا نشأت بينه وبينهم في شبابه صداقات جعل تأثيرها حياته مظلمة بجملتها . وامتلكت فتاة فلسطينية من مدينة تمنة عواطف شمشون فعول على أن يتخذها زوجة . كان جوابه على كلام أبويه الذين كانا يخافان الله ولهذا حاولا إقناعه بالعدول عما قد عزم عليه ، قوله : «أَنَّهَا حَسُنَتْ فِي عَيْنَيَّ» (انظر قضاة ١٤-١٦) واخيرا خضع أبواه لرغائبه فتزوجها .

إن شمشون عند بلوغه سن الرجولة ، حين كان يجب عليه أن يتمم رسالة الرب- الوقت الذي كان ينبغي له فيه أن يكون أمينا لله أكثر من أي وقت آخر ، في ذلك الوقت اندمج بين أعداء إسرائيل . إنه لم يسأل هل كان يمكنه أن يمجد الله بصورة أفضل متى اقترن بتلك التي

قد اختارها ، أو إذا كان بذلك يضع نفسه في وضع لا يستطيع فيه أن يتمم غــرض الله فــي حياته . لقد وعد الله أن يمنح الحكمة لمن يطلبون إكرامه قبل كل شــيء أمــا أولئــك الذيــن يريدون أن يرضوا أنفسهم فلا وعد لأجلهم .

ما أكثر أولئك الذين يسيرون في نفس طريق شمشون ! وما أكثر الزيجات التي يرتبط فيها الأبرار بالأشرار لأن الأميال الشخصية هي التي تتحكم في اختيار الزوج أو الزوجة ! إن كلا الطرفين لا يطلبان مشورة الله ولا يجعلان مجده هدفا لهما . على المسيحية أن تستخدم قوتــها الضابطة في العلاقات الزوجية . ولكن في غالب الأحيان لا تكون البواعث المؤدية إلى هــذا الاقتران متمشية مع المبادئ المسيحية . إن الشيطان يحاول دائما أن يزيد من سيطرته علــى شعب الله بكونه يغريهم بمصاهرة رعاياه . ولكي يتم له هذا يحاول إثارة الأهواء غير المقدسة في قلوبهم ، غير أن الله علم شعبه في كتابه بكل جلاء ألا يتحدوا من أولئك الذين ليست محبته ثابتة فيهم إذ يقول : «أَيُّ اتِّفَاق لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ ؟ وَأَيُّ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ ؟ وَأَيَّةُ مُوَافَقَةٍ لِهَيْكَلِ اللهِ مَعَ الأَوْثَانِ ؟» (٢كورنثوس ٦ : ١٥،١٦) .

وفي وليمة العرس ، صارت لشمشون شركة وألفة مــع مــن كــانوا يبغضــون الله إلــه إسرائيل . إن من يدخل في مثل هذه العلاقات بمحض اختياره سيرى أنه من الضروري له أن يتبع ، إلى حد ما ، عادات رفاقه المرعية . إن الوقت الذي يصرف هكذا إنما هو أسوأ مما لو بُدِّد ، فإنه سيسمح لبعض الأفكار بالدخول إلى العقل ، وسيقال بعض الكلام ، والغرض مــن هذا هو هدم حصون المبادئ القويمة وإضعاف قوة ضبط النفس .

ولكن الزوجة التي في سبيل الظفر بها تعدى شمشون أمر الله ، برهنــت علــى خيانتــها لرجلها قبلما انتهت وليمة العرس . فإذ أسخطت شمشون خيانة زوجته هجرها إلى حين وعــاد وحده إلى بيته في صرعة . ولما عاد بعد ذلك إلى عروسه إذ رق قلبه لها وجــد أنــها قــد أعطيت لرجل آخر . ثم إن انتقامه من الفلسطينيين ، إذ أتلف وأحرق كل حقولهم وكرومهم قد أثار غضبهم فقتلوا زوجته مع أن تهديداتهم لها هى التي ساقتها إلى تلك الخديعة التي بســببها بدا ذلك الاضطراب . لقد برهن شمشون على قوته الخارقة من قبل إذ قتل وحده شبل أسد كما قتل ثلاثين رجلا من أهل أشقلون . فلما ثار غضبه حين قتل الفلســطينيون امرأتــه بطريقــة وحشية هاجمهم وضربهم «ضَرْبًا عَظِيمًا» . وعندما طلب ملجأ يعتصم به من وجــه أعدائــه

ذهب إلى «صَخْرَةِ عِيطَمَ» في أرض يهوذا .

وقد تبعه إلى هذا المكان جيش عظيم من أعدائه ، وإذ بشعب يهوذا وهم في أشد حـــالات الرعب يوافقون بكل نذالة على تسليم شمشون إلى أولئك الأعداء . ولذلك ذهب إليـــه ثلاثـــة آلاف رجل من يهوذا . ولكن حتى مع عظم قوتهم وكثرة عددهم بالنسبة إلى قوته مـــا كـــانوا يجرؤون على الاقتراب منه لولا أنهم كانوا موقنين بأنه لن يلحق بمواطنيـــه أي أذى . قبـــل شمشون بأن يوثق ويسلم للفلسطينيين ، ولكنه حتم على رجال يهوذا أولا ألا يقعوا هم عليه لئلا يلزموه بأن يهلكهم . فسمح لهم بأن يوثقوه بحبلين جديدين ثم أتوا به إلى معسكر أعدائه الذيـــن إذ رأوه موثقا جعلوا يصيحون صيحات الفرح العظيم . ولكن إذ كان صدى صيحاتهم يرن في جوانب التلال «حَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ» فقطع الحبلين الجديدين ، فكانا ككتان أحرق بالنـــار . وإذ أمسك بأول آلة وجدتها يده ، مع أنها لم تكن أكثر من لحي حمار ، فقد كانت في يده أقوى من السيف والرمح وضرب بهذا اللحي جيش الفلسطينيين فهربوا من أمامه مرتعبين تـــاركين ألف قتيل في ساحة المعركة .

لو كان الإسرائيليون مستعدين للانضمام إلى شمشون ومتابعة الانتصار لأمكنهم في ذلـــك الوقت أن يتحرروا من سلطان مستعبديهم . ولكنهم كانوا قد أمسوا أذلاء جبناء . لقـد أهملـوا العمل الذي أمرهم الله أن يعملوه ألا وهو طرد الأمم من كنعان ، بل لقد اشتركوا معـــهم فـــي عاداتهم المنحطة محتملين قسوتهم ، وفي تشجيع ظلمهم ما دام أنه غير موجه إليهم . وعندمـــا صاروا هم أنفسهم تحت سلطان الظالمين خضعوا بكل تذلل للانحطاط الذي كان يمكنهم النجـاة منه لو أنهم أطاعوا الله . وحين كان الرب يقيم لهم مخلصا كانوا في أحيان كثـيرة يهجرونـــه وينضمون إلى أعدائهم .

وبعد أن انتصر شمشون أقامه الإسرائيليون قاضيا عليهم فقضى لإسرائيل عشرين ســـنة . ولكن خطوة واحدة خاطئة تمهد الطريق لخطوة أخرى . لقد تعدى شمشون أمـــر الله باتخـــاذه لنفسه زوجة من بنات الفلسطينيين . ومرة أخرى سار بينـــهم بكل جـــرأة – وهـــم أعـــداؤه المميتون– لينغمس في الشهوات غير المشروعة . وإذ اتكل على قوته العظيمة التـــي ألقـــت الرعب في قلوب الفلسطينيين ذهب بكل جرأة إلى غزة ليزور امرأة زانية هناك ، فعلم ســـكان المدينة بمجيئه وكانوا متعطشين للانتقام منه . لقد حبس عدوهم داخل أســـوار أمنـــع مدنـــهم

وأقواها . كانوا موقنين من أنه قد صار فريسة لهم ، وإنما انتظروا إلى الصباح حتى يكمل انتصارهم . غير أن شمشون أوقظ في نصف الليل . إن صوت ضميره الذي كان يستذنبه ملأ نفسه بالندامة حين ذكر أنه قد نقض عهد نذره ولكن مع خطيته لم تتخل رحمة الله عنه . ومرة أخرى أعانته قوته الهائلة على النجاة ، إذ عندما وصل إلى باب المدينة قلعه عن مكانه مع العارضة والقائمتين وصعد به إلى رأس الجبل الذي مقابل حبرون .

ولكن حتى هذا الإفلات الحرج لم يوقفه عن السير في طريقه الشرير . لم يحاول في هذه المرة أن يدخل بين أعدائه الفلسطينيين ولكنه ظل يطلب المسرات الشهوانية التي كانت تستهويه لتحدره إلى الهلاك . فالكتاب يقول عنه : «أَحَبَّ امْرَأَةً فِي وَادِي سُورَقَ» ولم تكن تلك المدينة تبعد كثيرا عن مسقط رأسه . وكان اسمها دليلة (أي المهلكة) . وكان وادي سورق مشهورا بكرومه . وكان هذا أيضا تجربة لذلك النذير المتردد الذي قد انغمس في شرب الخمر وبذلك فصم رباطا آخر من الربط التي كانت تربطه بالطهارة بالله . كان الفلسطينيون يراقبون بكل يقظة وحذر حركات عدوهم اللدود ذاك . ولما حط من قدر نفسه بهذه الصلة الدنسة الجديدة عولوا على إهلاكه بواسطة دليلة .

أرسل إلى وادي سورق وفداً مؤلف من رجل قائد عن كل مقاطعة من المقاطعات الفلسطينية ، الذين لم يتجرأوا على محاولة القبض على شمشون ما بقي ممتلكا تلك القوة العجائبية ، ولكن غرضهم كان معرفة سر قوته إن كان ذلك في الإمكان . ولذلك أعطوا رشوة لدليلة حتى تكتشف ذلك السر وتخبرهم به .

وإذ كانت تلك المرأة الخائنة تلح على شمشون بأسئلتها خدعها إذ أخبرها أنه يضعف ويصير كأحد الناس إذا عملت له بعض الأمور ، فلما بدأت تجرب تلك الأمور اكتشفت خداعه . وحينئذ اتهمته بالكذب قائلة : «كَيْفَ تَقُولُ أُحِبُّكِ ، وَقَلْبُكَ لَيْسَ مَعِي ؟ هُوَذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَدْ خَتَلْتَنِي وَلَمْ تُخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُ» ثلاث مرات تبرهن لشمشون بأنصع البراهين أن الفلسطينيين قد تحالفوا مع تلك المرأة لإهلاكه ، ولما أخفقت في قصدها . اعتبرت المسالة كما لو كانت مزاحا ، فعمي عن الحقيقة المرة وطرد عن نفسه الخوف .

ومن يوم إلى يوم كانت دليلة تلح عليه بسؤالها إلى أن «ضَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمَوْتِ» ومع ذلك فقد بقي إلى جانبها بفعل قوة ماكرة ، فلما انتصرت عليه في النهاية باح لها شمشون بسره

إذ قال : «لَمْ يَعْلُ مُوسَى رَأْسِي لأَنِّي نَذِيرُ اللهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّي ، فَإِنْ حُلِقْتُ تُفَارِقُنِي قُوَّتِي وَأَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَأَحَدِ النَّاسِ» . وفي الحال بعثت برسول إلى أقطاب الفلسطينيين تلح عليهم في المجيء إليها بدون إبطاء . وبينما كان ذلك البطل نائما حلقت خصل شعره الثقيل . وحينئذ فكما فعلت في المرات الثلاث السابقة قالت له : «الْفِلسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ» وحينما استيقظ فجأة حاول أن يستخدم قوته في إهلاك أعدائه كما فعل من قبل ولكن ذراعيه الضعيفتين لم تستطيعا إسعافه وعرف «أَنَّ الرَّبَّ قَدْ فَارَقَهُ» إذ بعدما حلق شعره ابتدأت دليلة بإذلاله وإيلامه وبذلك اختبرت قوته لأن الفلسطينيين لم يجسروا على الدنو منه حتى تأكد لهم أن قوته قد فارقته . وحينئذ أمسكوا به وبعدما قلعوا عينيه أخذوه إلى غزة ثم أوثقوه بسلاسل نحاس في دار سجنهم وأرغموه على الشغل الشاق .

ما أعظمه من انقلاب ذاك الذي حدث لمن كان قاضيا لإسرائيل وبطلا مغوارا – فها هو الآن ضعيف عاجز وأعمى وسجين وقد انحط مقامه حتى صار مرغما على القيام بأحقر الخدمات ! إنه نقض شروط دعوته المقدسة تدريجيا ، لقد احتمله الله طويلا ولكن عندما أسلم نفسه لسلطان الخطية حتى أنه أفشى سره فارقه الرب . لم تكن هنالك قوة في شعره الطويل المسترسل إنما كان رمز ولائه لله ، فحين ضحى بذلك الرمز في سبيل الانغماس في الشهوات خسر البركات التي كان شعره رمزا لها أيضا .

وإذ كان شمشون يقاسي الآلام والإذلال والهوان وصار أضحوكة للفلسطينيين عرف الشيء الكثير عن ضعفه أكثر مما عرف من قبل فقادته آلامه وضيقاته إلى التوبة . وحينما ابتدأ شعر رأسه ينبت عادت إليه قوته تدريجا . ولكن أعداءه إذ كانوا يظنون أنه أسير عاجز مصفد في أغلاله لم يتوقعوا شرا .

كان الفلسطينيون ينسبون قوتهم إلى آلهتهم ، ففي فرحهم وافتخارهم تحدوا إله إسرائيل ، فعينوا أياما لعيد يقيمونه تكريما لداجون الإله السمكة «حارس البحر» فتجمع الناس من المدن والأرياف ومن كل سهل الفلسطينيين كما جاء أقطابهم . جاءت جماهير كثيرة من العابدين ودخلت الهيكل الواسع حتى امتلأت كل الأروقة إلى السقف ، فكان مشهد ابتهاج وفرح . وبعد تقديم الذبائح التي تجلت فيها الأبهة والعظمة جاء دور الموسيقى والفرح . وحينئذ لكي يقدموا البرهان على انتصار قوة داجون أُتِيَ بشمشون . فلما مثل أمامهم استقبلوه بعاصفة من

الافتخار ، ثم سخر الشعب والأقطاب من شقائه وبؤسه ومجدوا الإله الذي أسقط من خرب أرضهم ، وبعد وقت تظاهر شمشون بالإعياء وطلب أن يسمح له بالاستناد على العمودين المتوسطين اللذين كان الهيكل قائما عليهما . ومن ثم نطق بهذه الصلاة الصامتة ، «يَا سَيِّدِي الرَّبَّ ، اذْكُرْنِي وَشَدِّدْنِي يَا اَللهُ هذهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ ، فَأَنْتَقِمَ نَقْمَةً وَاحِدَةً عَنْ عَيْنَيَّ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ» وبعدما نطق بهذه الكلمات أحاط العمودين بذراعيه القويتين ، وإذ صرخ قائلا : «لِتَمُتْ نَفْسِي مَعَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ» انحنى فسقط البيت ، وفي سقوطه الهائل أهلك كل تلك الجموع الغفيرة في سحقة واحدة ، «فَكَانَ الْمَوْتَى الَّذِينَ أَمَاتَهُمْ فِي مَوْتِهِ ، أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ أَمَاتَهُمْ فِي حَيَاتِهِ» .

تحت أنقاض هيكل داجون دفن الصنم وعابدوه الكهنة والفلاحون والأبطال والأشراف ، ووجدت بينهم جثة ذلك الجبار الذي قد اختاره الله مخلصا لشعبه . وقد وصلت أخبار ذلك الانهيار المخيف الذي حل بهيكل داجون الى بلاد اسرائيل . فنزل إخوة شمشون وكل بيت أبيه من فوق الجبال وأخرجوا جثمان ذلك الجبار الساقط دون أن يعترضهم أحد ، «وَصَعِدُوا بِهِ وَدَفَنُوهُ بَيْنَ صُرْعَةَ وَأَشْتَأُولَ ، فِي قَبْرِ مَنُوحَ أَبِيهِ» .

ان وعد الله القائل إن شمشون «يَبْدَأُ يُخَلِّصُ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ» قد تم . ولكن ما أشد الظلام والرعب الذي يتخلل تاريخ تلك الحياة التي كان يمكن أن تكون تسبيحة شكر لله وعنوان فخر ومجد لأمته ! فلو كان شمشون أمينا لدعوته الإلهية لكان غرض الله قد تم بإكرام ذلك النذير وتمجيده . ولكنه استسلم للتجربة وبرهن على عدم أمانته لهذه ، فكانت خاتمة رسالته الهزيمة والعبودية والموت .

كان شمشون أقوى الناس جسما في كل الأرض ، أما فيما يختص بضبط النفس والتعفف والاستقامة فقد كان من أضعف الناس . كثيرون يخطئون فيخلطون بين الشهوة القوية والخلق القوي ، ولكن الحقيقة الثابتة هي أن من تتحكم فيه شهوته هو إنسان ضعيف . إن عظمة الإنسان الحقيقية تقاس بقوة المشاعر التي يضبطها لا بقوة المشاعر التي تتحكم فيه .

لقد كانت عناية الله ترعى شمشون لكي يتأهب لإنجاز العمل الذي دعى ليحمله . فمن بدء حياته كان محاطا بظروف مواتية لتنمية قواه الجسمانية وتنشيط قواه العقلية وطهارته

الأدبية . ولكنه تحت تأثير عشرائه الأشرار أفلت من يده تمسكه بالله الذي هو الحارس الوحيد للإنسان . وقد جرفه تيار الشر . إن لأولئك الذين يجربون وهم سائرون في طريق الواجب أن يتأكدوا أن الله سيحفظهم ، ولكن إذا أصر الناس طوعا على وضع أنفسهم تحت سلطان التجربة فسيسقطون إن عاجلا أو آجلا .

إن الشيطان يستخدم كل قوته في تضليل نفس الأشخاص الذين يريد الله أن يستخدمهم للقيام بعمل خاص . إنه يهاجم مواطن الضعف فينا فيعمل عن طريق الضعفات الكائنة في الخلق ليسيطر على الإنسان بجملته . وهو يعرف أنه إذا أبقى الإنسان على تلك النقائص ولم يسع في إصلاحها فإنه (أي الشيطان) سينتصر . ولكن لا حاجة لأن ينهزم أحد ، فالإنسان لا يترك وشأنه ليقهر قوة الشر بمجهوده الواهن الضئيل . إن المعونة قريبة وهي تعطى لكل نفس تطلبها بكل القلب ، كما أن ملائكة الله الذين كانوا يصعدون وينزلون على السلم التي رآها يعقوب في حلمه سيتقدمون بالمعونة لكل نفس ترغب في الصعود حتى إلى سماء السماوات .

الفصل الخامس والخمسون

الصبي صموئيل

إن ألقانة الذي كان لاويا يسكن في جبل أفرايم كان رجلا واسع الثراء وقوي النفوذ ، يحب الله ويتقيه . أما امرأته واسمها حنة فكانت حارة وغيورة في تقواها . وإذ كانت سيدة دمثة الأخلاق ، وديعة ومحتشمة ، فقد امتازت أخلاقها بالاجتهاد العظيم والإيمان الوطيد .

ولكن البركة التي يطلبها كل عبراني وعبرانية بكل حرارة وغيرة حرم منها ذانك الزوجان التقيان ، فلم تبتهج جوانب ذلك البيت بأصوات الأطفال وضحكاتهم . ثم أن رغبة الزوج في تخليد اسمه قادته– كما قادت آخرين كثيرين ، إلى أن يعقد زواجه على امرأة أخرى . ولكن هذه الخطوة التي دفعه إليها عدم الإيمان بالله لم تأت بالسعادة . نعم إن بنين وبنات قد أضيفوا إلى تلك العائلة ولكن فرح وجمال سنَّة الله المقدسة (الزواج) قد تشوه ، وسلام العائلة قد تحطم . فلقد كانت فننة الزوجة الجديدة امرأة حسودا وضيقة العقل ممتلئة بالكبرياء والوقاحة ، فبدا لحنة كأن رجاءها قد تحطم ، وصارت الحياة عبئا ثقيلا عليها ، ومع ذلك فقد واجهت التجربة بكل وداعة وبدون تذمر .

كان ألقانة يحفظ فرائض الله بكل أمانة ، وكانت عبادة الله لم تزل تجرى في شيلوه ، ولكن بسبب اختلال نظام الخدمات استغني عن خدمة ألقانة في مقدس الرب ، تلك الخدمة التي كان ينبغي أن يلازمها لكونه لاويا . ومع ذلك فقد كان يصعد مع عائلته ليسجد للرب ويقدم الذبائح في المواسم المفروضة .

ولكن حتى في غمرة فرحة الأعياد المقدسة المتصلة بخدمة الله كان الروح الشرير الذي أوقع اللعنة على بيت ألقانة يتطفل على ذلك المكان المقدس . فبعد تقديم ذبيحة الشكر اشتركت كل العائلة بموجب العادات المرعية في وليمة مقدسة مفرحة . وفي تلك المناسبات أعطى ألقانة أنصبة لفننة ولكل بنيها وبناتها ، ولكنه لكي يبرهن على اهتمامه بحنة أعطاها نصيب

اثنين ليدل على أن محبته لها لم تنقص بل هي باقية كما لو كانت قد أنجبت ابنا . وحينئذ اشتعلت نار الغيرة والحسد في قلب الزوجة الثانية التي ادعت أن لها الأفضيلة كمن لها الحظوة العظيمة لدى الله ، وجعلت تعير حنة بعقمها كدليل على سخط الرب عليها . وكان هذا يتكرر سنة بعد سنة حتى لم تعد حنة تطيق الاحتمال أكثر . وإذ لم تعد قادرة على إخفاء حزنها أطلقت لنفسها العنان في البكاء وانسحبت تاركة الوليمة . وقد حاول رجلها عبثا أن يطيب قلبها فقال لها «يَا حَنَّةُ ، لِمَاذَا تَبْكِينَ ؟ وَلِمَاذَا لاَ تَأْكُلِينَ ؟ وَلِمَاذَا يَكْتَئِبُ قَلْبُكِ ؟ أَمَا أَنَا خَيْرٌ لَكِ مِنْ عَشَرَةِ بَنِينَ ؟» (انظر ١صموئيل ١؛ ٢ : ١-١١) .

لم تنطق حنة بكلمة تعيير أو تعنيف ، لأن ذلك الحمل الذي لم يستطع أي صديق بشري أن يشاطرها في حمله ألقته على الله . فبكل حرارة وغيرة توسلت إلى الله أن ينزع عارها ويمنحها تلك العطية الثمينة- ابنا ترضعه وتربيه له . وقد نذرت نذرا مقدسا أنه إن منحها طلبها فستكرس ابنها للرب منذ ولادته . كانت حنة قد اقتربت من مدخل الخيمة ، وفي مرارة نفسها «صَلَّتْ ... وَبَكَتْ بُكَاءً» ولكنها كانت تصلي إلى الله وهي صامتة فلم تنطق بكلمة . في تلك الأوقات الشريرة قلما كانت ترى مثل مناظر العبادة تلك . ولم يكن الأكل في غير وقار والشراهة وحتى السكر من الأمور النادرة الوجود حتى في أثناء الأعياد الدينية . فإذ رأى عالي رئيس الكهنة حنة ظنها سكرى . وإذ ظنها تستحق التوبيخ قال لها بعبوسة : «حَتَّى مَتَى تَسْكَرِينَ ؟ انْزِعِي خَمْرَكِ عَنْكِ» .

ولكن مع أن هذا الكلام أفزع حنة وزاد من آلامها فقد أجابت بكل لطف قائلة : «لاَ يَا سَيِّدِي . إِنِّي امْرَأَةٌ حَزِينَةُ الرُّوحِ وَلَمْ أَشْرَبْ خَمْرًا وَلاَ مُسْكِرًا ، بَلْ أَسْكُبُ نَفْسِي أَمَامَ الرَّبِّ . لاَ تَحْسِبْ أَمَتَكَ ابْنَةَ بَلِيَّعَالَ ، لأَنِّي مِنْ كَثْرَةِ كُرْبَتِي وَغَيْظِي قَدْ تَكَلَّمْتُ إِلَى الآنَ» .

وقد تأثر رئيس الكهنة تأثيرا عميقا لأنه كان رجل الله وبدلا من التوبيخ باركها وقال لها : «اذْهَبِي بِسَلاَمٍ ، وَإِلهُ إِسْرَائِيلَ يُعْطِيكِ سُؤْلَكِ الَّذِي سَأَلْتِهِ مِنْ لَدُنْهُ» .

أجيبت صلاة حنة فنالت العطية التي طلبتها بكل لجاجة ، ودعت اسم ابنها صموئيل «مسؤول من الله» . ولما كبر ذلك الطفل وأمكنه الانفصال عن أمه تممت نذرها . لقد أحبت ابنها على قدر ما في قلب الأم من حب ، وإذ كانت قواه تنمو يوما فيوما وكانت تستمع لكلامه الصبيانى أحاطته بمحبة قلبها بشوق أزيد . لقد كان هو ابنها الوحيد وهبة السماء الخاصة لها ،

ولكنها تقبلته على أنه الكنز المكرس لله ، ولم تكن تريد أن تحنث في عهدها فتمنع العطية عمن قد أعطاها .

ومرة أخرى سافرت حنة مع رجلها إلى شيلوه وقدمت إلى عالي الكاهن باسم الرب هبتها الثمينة قائلة : «لأَجْلِ هذَا الصَّبِيِّ صَلَّيْتُ فَأَعْطَانِيَ الرَّبُّ سُؤْلِيَ الَّذِي سَأَلْتُهُ مِنْ لَدُنْهُ . وَأَنَا أَيْضًا قَدْ أَعَرْتُهُ لِلرَّبِّ . جَمِيعَ أَيَّامِ حَيَاتِهِ هُوَ عَارِيَّةٌ لِلرَّبِّ» فتأثر عالي تأثرا عميقا بإيمان هذه المرأة الإسرائيلية وتكريسها . وحيث أنه كان يحب أولاده حبا مفرطا ، أحس بالرهبة والتذلل وهو يرى تلك التضحية العظيمة التي قد أقدمت عليها هذه الأم في الانفصال عن ابنها الوحيد لتكرسه لخدمة الله . أحس أنه قد توبخ على محبته الأنانية لأولاده . وفي تذلل ووقار سجد للرب مصليا .

امتلأ قلب هذه الأم فرحا وشكرا ، وتاقت إلى أن تسكب شكرها لله ، فحل عليها روح الوحي ، فصلت حنة قائلة : «فَرِحَ قَلْبِي بِالرَّبِّ . ارْتَفَعَ قَرْنِي بِالرَّبِّ . اتَّسَعَ فَمِي عَلَى أَعْدَائِي ، لأَنِّي قَدِ ابْتَهَجْتُ بِخَلاَصِكَ . لَيْسَ قُدُّوسٌ مِثْلَ الرَّبِّ ، لأَنَّهُ لَيْسَ غَيْرَكَ ، وَلَيْسَ صَخْرَةٌ مِثْلَ إِلهِنَا . لاَ تُكَثِّرُوا الْكَلاَمَ الْعَالِيَ الْمُسْتَعْلِيَ ، وَلْتَبْرَحْ وَقَاحَةٌ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ . لأَنَّ الرَّبَّ إِلهٌ عَلِيمٌ ، وَبِهِ تُوزَنُ الأَعْمَالُ ... الرَّبُّ يُمِيتُ وَيُحْيِي . يُهْبِطُ إِلَى الْهَاوِيَةِ وَيُصْعِدُ . الرَّبُّ يُفْقِرُ وَيُغْنِي . يَضَعُ وَيَرْفَعُ . يُقِيمُ الْمِسْكِينَ مِنَ التُّرَابِ . يَرْفَعُ الْفَقِيرَ مِنَ الْمَزْبَلَةِ لِلْجُلُوسِ مَعَ الشُّرَفَاءِ وَيُمَلِّكُهُمْ كُرْسِيَّ الْمَجْدِ . لأَنَّ لِلرَّبِّ أَعْمِدَةَ الأَرْضِ ، وَقَدْ وَضَعَ عَلَيْهَا الْمَسْكُونَةَ . أَرْجُلَ أَتْقِيَائِهِ يَحْرُسُ ، وَالأَشْرَارُ فِي الظَّلاَمِ يَصْمُتُونَ . لأَنَّهُ لَيْسَ بِالْقُوَّةِ يَغْلِبُ إِنْسَانٌ . مُخَاصِمُو الرَّبِّ يَنْكَسِرُونَ . مِنَ السَّمَاءِ يُرْعِدُ عَلَيْهِمْ . الرَّبُّ يَدِينُ أَقَاصِيَ الأَرْضِ ، وَيُعْطِي عِزًّا لِمَلِكِهِ ، وَيَرْفَعُ قَرْنَ مَسِيحِهِ» .

كان كلام حنة هذا نبوة عن داود الذي سيملك على إسرائيل ، وعن مسيا ، مسيح الرب . وإذ أشارت في صلاتها إلى افتخار امرأة وقحة محبة للخصام ، أشارت أيضا إلى هلاك أعداء الله والنصرة النهائية لشعبه المفدي .

وقد عادت حنة بهدوء من شيلوه إلى بيتها في الرامة تاركة الصبي صموئيل يتدرب على الخدمة في بيت الله بإشراف رئيس الكهنة . لقد علّمت ابنها منذ الطفولة الباكرة أن يحب الله ويوقره معتبرا نفسه خاصة الرب . وعن طريق كل شيء مألوف لديه مما يحيط به حاولت

تلك الأم أن ترشد أفكاره إلى الخالق . وحين انفصلت تلك الأم الأمينة عن ابنها لــــم يزايلـــها جزعها عليه ، فكانت تصلي لأجله كل يوم . وفي كل سنة كانت تصنع له بيديها جبـــة يخـــدم بها . وحين كانت تصعد إلى شيلوه مع رجلها لأجل الصـــلاة كانت تقدم له هذه الجبة كتذكــار لمحبتها له . وكان كل خيط في هذه الجبة الصغيرة تنسجه بصلاة لأجل ابنــــها لكـــي يكـــون طاهرا ونبيلا وصادقا . لم تطلب لابنها عظمة عالمية ولكنها توسلت إلى الله بحرارة أن يبلـــغ ابنها إلى تلك العظمة التي تقدرها السماء – لكي يكرم الله ويبارك بني جنسه .

ما كان أعظم جزاء حنة ! وما أعظم مثالها مشجعا على الأمانة ! لدى كل أم فرص غاليـة لا تقدر بثمن ومصالح ثمينة جدا . إن حلقة الواجبات المتواضعة التي باتت النســاء يعتبرنـــها أعمالا مضنية ينبغي أن ينظرن إليها على أنها عمل جليل ونبيل . إنه امتياز للأم أن تبـــارك العالم بقوة تأثيرها ، وإذ تقوم بهذا العمل يمتلئ قلبها فرحا . يمكنها أن تصنع مسالك مســتقيمة يسير فيها صغارها في نور الشمس وفي الظلام إلى المرتفعات المجيدة في الأعالي . ولكـــن على الأم أن تتبع تعاليم المسيح في حياتها إذا أرادت أن تشكل أخلاق أولادها حســب المثـــال الإلهي . إن العالم مشحون بالمؤثرات المفسدة . فالأزياء والعـــادات لـــها تـــأثير قـــوي فـــي الصغار . فإذا أخفقت الأم في واجب التعليم والإرشاد والردع فأولادها بـــالطبع ســـيرفضون الخير ويتحولون إلى الشر . فلتتعود كل أم التوجه إلى مخلصها بهذه الصلاة : أخبرنا «مَـــاذَا يَكُونُ حُكْمُ الصَّبِيِّ وَمُعَامَلَتُهُ ؟» (قضاة ١٣ : ١٢) . وعليها أن تلتفت التفاتـــا خاصـــا إلـــى التعليمات التي قد أوردها الله في كلمته ، وستعطى لها الحكمة على قدر ما تحتاج .

«وَأَمَّا الصَّبِيُّ صَمُوئِيلُ فَتَزَايَدَ نُمُوًّا وَصَلاَحًا لَدَى الرَّبِّ وَالنَّاسِ أَيْضًا» ومع أن صموئيل قضى أيام شبابه في خيمة الاجتماع مكرسا وقته لعبادة الله فإنه لم يكن بعيـــدا عـــن متنـــاول العادات الشريرة والقدوة السيئة . فإن أبناء عالي لم يكونوا يخشون الله ولا أكرموا أبـــاهم . إلا أن صموئيل لم يختلط بهم ولا سار في طريقهم الشريرة ، فقد كان يسعى دائما إلى أن يكـــون كما أراده الله أن يكون . وهذا هو امتياز كل شاب . إن الله يسر حتى حين يكـــرس الصغـــار أنفسهم لخدمته .

أصبح صموئيل تحت رعاية عالي . وقد اجتذب جمال أخلاقه إليه قلب ذلك الكاهن الشـــيخ فأحبه جدا . كان مشفقا وكريما ومطيعا ووقورا . وإن عالي الذي آلمه عصيـــان بنيـــه وجـــد

الراحة والعزاء والبركة في محضر ذلك الفتى الذي وكل إليه أمر رعايته ، فكان صموئيل معينا ومحبا ، ولذلك أحب عالي هذا الشاب حبا حانيا لم يحببه أب ابنه ، وقد كان أمراً غريباً أن ينشأ بين رئيس قضاة الأمة وهذا الصبي البسيط مثل تلك المحبة القوية . فلما هاجمت عالي متاعب الشيخوخة وآلامها ومضايقاتها وامتلأ قلبه جزعا وحزنا بسبب طريق الخلاعة الذي سار فيه بنوه ذهب إلى صموئيل في طلب العزاء .

لم يكن أمرا مألوفا أن يبدأ اللاويون في ممارسة خدماتهم الخاصة حتى يبلغوا الخامسة والعشرين من العمر . ولكن صموئيل استثني من هذا القانون . وفي كل سنة كانت تسند إليه أمانات وودائع أهم ، وإذ كان بعد فتى صغيرا أُلبس أفودا من كتان علامة على تكريسه لعمل المقدس . ومع أن صموئيل كان فتى صغيرا جدا أُتِي به يخدم فى خيمة الاجتماع فقد وضعت عليه واجبات ليقوم بها فى خدمة الله على قدر طاقته . كانت هذه الخدمات وضيعة في بادئ الأمر ولم تكن مسرة ولكنه قام بها بأفضل ما استطاع وبنفس راغبة . لقد حمل ديانته معه وهو يقوم بكل واجبات حياته فاعتبر نفسه خادما لله واعتبر عمله عمل الله . وقد قبلت كل مساعيه وجهوده لأن الحافز الذي دفعه للقيام بها كان محبته لله ورغبته المخلصة فى عمل إرادته . وبهذه الكيفية صار صموئيل عاملا مع رب السماء والأرض ، فأهَّله الله ليقوم بعمل عظيم لإسرائيل .

لو تعلم الأولاد أن يعتبروا الأعمال اليومية المتواضعة على أنها الطريق الذي رسمه لهم الرب ، والمدرسة التى يتدربون فيها على القيام بخدمة أمينة وفعالة فكم كان عملهم يبدو ملذا أكثر ومشرفا أكثر ! إن كوننا نقوم بواجبنا اليومي كما للرب يكسب أصغر الأعمال جمالا عظيما ويربط بين من يشتغلون على الأرض والخلائق المقدسة التي تفعل إرادة الله في السماء .

إن النجاح في هذه الحياة وفي نيل الحياة الأبدية يتوقف على التفاتنا واهتمامنا بكل أمانة اهتماما يرضاه الله بصغائر الأشياء ، فالكمال يرى فى أصغر أعمال الله كما فى أعظمها . إن اليد التى قد علقت العوالم فى الفضاء اللانهائي هي التي قد زينت الحقول بالزهور والزنابق في أجمل تكوين . وكما أن الله كامل فى محيطه كذلك علينا نحن أيضا أن نكون كاملين في محيطنا . إن البناء القوي المتناسق لخلق قوي جميل إنما يبنى عن طريق قيام الأفراد

بواجباتهم ، فينبغي أن تمتاز حياتنا بالأمانة فى صغار الأمور كما فى كبارها بكل دقـــة . إن الأمانة فى الأمور الصغيرة والقيام بأعمال الولاء الصغيرة وأعمال الشفقة الزهيدة كـل ذلـك يجعل طريق الحياة منيرا بنور الفرح . ومتى انتهى عملنا على الأرض سيرى أن كل عمـل من الأعمال الزهيدة التي عملناها بأمانة كان له تأثير للخير لن يمحى .

إن شباب عصرنا الحاضر يمكنهم أن يصيروا أعزاء فى نظر الله كما كان صموئيـل . إذ باحتفاظهم باستقامتهم المسيحية بكل أمانة يمكنهم أن يحدثوا أثرا قويا فى عمل الإصلاح . مثل هؤلاء الرجال يحتاجهم العالم اليوم . ولكل منهم عمل يمكن أن يسنده إليه الله . إن الناس لـم يحصلوا قط على نتائج صالحة لأجل الله والبشرية أعظم مما يمكن أن يحققه اليوم أولئك الذين يكونون أمناء للودائع التي سلمهم إياها الرب .

الفصل السادس والخمسون

عالي وبنوه

كان عالي كاهنا وقاضيا لإسرائيل ، وكان يشغل أرفع المناصب التي تنطوي على أخطـــر المسؤوليات بين شعب الله . وكإنسان اختاره الله للقيام بواجبات الكهنوت المقدسة ، وتحت يـده أسمى السلطات القضائية كان الناس ينظرون إليه على إنه مثال يحتذى ، وقد كان لــــه نفــوذ عظيم على أسباط إسرائيل . ولكن مع أنه قد أقيم ليحكم على الشعب لم يكن يحكم على بيتـــه وعائلته . لقد كان عالي أبا مفرطا في حبة لأولاده . وحيث أنه كان محبا لحياة السلام والراحة لم يستخدم سلطانه في تقويم عادات أولاده وأهوائهم الشريرة ، بل بـــدلا مـــن أن يصدهـــم أو يعاقبهم رغب في الاستسلام لهم . وتركهم يسيرون في الطريق الذي اختاروه لأنفسهم . وبــدلا من أن يعتبر تهذيب أولاده من أهم وأخطر مسؤولياته اعتبر أن تلك المسألة قليلة الخطـــورة . إن قاضي شعب إسرائيل وكاهنهم لم يترك في الظلمة بخصوص واجـــب ردع الأولاد الذيـــن جعلهم الله تحت رعايته ورقابته وفرض سلطانه عليهم ، ولكن عالي تراجع أمام هذا الواجـــب لأنه كان يتطلب معارضته لرغبات بنيه وضرورة ردعهم ومعاقبتهم . وبدون أن يزن العواقب المخيفة التي ستنتجم عن مسلكه هذا أفرط في إجابة أولاده إلى كل رغباتهم ، وأهمل إعدادهـــم لخدمة الله وواجبات الحياة .

لقد قال الله عن إبراهيم : «لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيــقَ الرَّبِّ ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً» (تكوين ١٨ : ١٩) ولكن عالي سمح لأولاده بأن يتحكمــــوا فيـــه بحيث صار ذلك الأب خاضعا لبنيه . إن لعنة العصيان كانت ظاهرة في الفساد والشر الـــــذي كان يرى في مسلك بنيه . لم يقدروا صفات الله ولا قداسة شريعته التقدير الصائب ، بل كــانت خدمته في نظرهم أمرا عاديا . إذ منذ طفولتهم ألفوا المقدس وخدمته ، ولكـــن بـــدلا مـــن أن يزيدوا احتراما وتوقيرا للمقدس أضاعوا كل إحساس بقداسته ومغزاه . لم يكن أبوهم قد عـــالج نقص تقديرهم لسلطته ولا ردعهم لعدم احترامهم لخدمات بيت الله المقدسة . فلما بلغـــوا دور

575,576

الرجولة كانت قلوبهم قد امتلأت بثمار التشكك والعصيان القاتلة .

ومع عدم لياقتهم لوظيفتهم إطلاقا فقد أقيموا كهنة في المقدس ليخدموا أمام الله الذي كان قد أعطى أدق التعليمات الصريحة فيما يختص بتقديم الذبائح ، ولكن هؤلاء الكهنة الأشرار جعلوا استخفافهم بالسيادة يتناول خدمة الله نفسها ، ولم يقيموا أي وزن لشريعة الذبائح التي كان يجب تقديمها بكل وقار . فالذبائح التي كانت ترمز إلى موت المسيح كان القصد منها أن تحفظ في قلوب الشعب الإيمان بالفادي الآتي ، ولهذا فقد كان من أعظم الأمور أهمية مراعاة أوامر الرب بشأنها بكل دقة ، كما كانت ذبائح السلامة بوجه خاص تعبيرا عن شكر مقدميها لله ، فكان ينبغي ، عند تقديم هذه الذبائح ، أن يحرق الشحم وحده على المذبح ، ويحفظ جزء معين منها للكهنة ، ويعطى أكبر قسم من الذبيحة لمقدمها ليأكله هو وزملاؤه في وليمة تكريسية ، وهكذا كانت كل القلوب تتجه ، في شكر وإيمان ، إلى الذبيحة العظيمة التي كانت عتيدة أن ترفع خطية العالم .

أما أولاد عالي فإنهم بدلا من أن يراعوا قداسة هذه الخدمة الرمزية كان تفكيرهم منصرفا بالكلية إلى كيف يجعلونها وسيلة للانغماس في النهم والشهوات . وإذ لم يقنعوا بالنصيب المعين لهم من ذبيحة السلامة طلبوا جزءا آخر . هذا وإن كثرة عدد هذه الذبائح التي كانت تقدم في الأعياد السنوية أعطت للكهنة فرصة فيها أغنوا أنفسهم على حساب الشعب . ولم يكتفوا بالمطالبة بأكثر من حقهم ولكنهم كانوا يرفضون الانتظار ريثما يحرق الشحم كتقدمة للرب ، بل أصروا على أخذ الجزء الذي يريدونه ، فإذا لم يعط لهم هددوا بأخذه عنوة .

هذه الوقاحة التي أبداها الكهنة سرعان من جردت هذه الخدمة من قدسيتها وجلال مغزاها «لأَنَّ النَّاسَ اسْتَهَانُوا بِتَقْدِمَةِ الرَّبِّ» وما عادوا يعترفون بالذبيحة المرموز إليها التي كان عليهم أن ينتظروها ، «فَكَانَتْ خَطِيَّةُ الْغِلْمَانِ عَظِيمَةً جِدًّا أَمَامَ الرَّبِّ» (١صموئيل ٢ : ١٢ ٣٦) .

هؤلاء الكهنة غير الأمناء تعدو شريعة الله أيضا وجلبوا العار والهوان على وظيفتهم المقدسة بأعمالهم المنحطة الفاسدة ، وأوغلوا في طريقهم ، وظلوا ينجسون خيمة الاجتماع بوجودهم ، فامتلأ كثيرون من أفراد الشعب غضبا بسبب المسلك النجس الشائن الذي سلكه حفني وفينحاس ، ولذلك كفوا عن الصعود إلى المكان المخصص للعبادة . وهكذا أهملت واحتقرت الخدمة التي رسمها الله إذ كانت مقترنة بخطايا الأشرار ، كما أن أولئك الذين كانت

قلوبهم تميل إلى الشر زادوا جرأة على ارتكاب الخطية ، فتفشى الإلحاد والخلاعة وحتى عبادة الأوثان إلى درجة مخيفة .

لقد أخطأ عالي خطأ جسيما إذ سمح لأولاده بأن يخدموا في وظيفة مقدسة ، وإذ تغاضى عن مسلكهم الشرير لعذر أولآخر عمي عن رؤية خطاياهم . ولكنهم أخيرا وصلوا إلى حد لم يعد بعده يستطيع أن يغمض عينيه عن جرائم بنيه . لقد اشتكى الشعب من أعمال العنف التي كان أولاده يلجأون إليها ، فحزن وتضايق ، ولم يكن يستطيع أن يبقى صامتا . إلا أن أبناءه كانوا قد تربوا على ألا يفكروا في غير أنفسهم ، وها هم الآن لا يكترثون لأي إنسان . رأوا الحزن مرتسما على وجه أبيهم ولكن قلوبهم القاسية لم تتأثر . لقد سمعوا نصائح أبيهم الرقيقة ، ولكن لم يؤثر فيهم شيء ولا أرادوا تغيير مسلكهم الشرير مع أنهم أنذروا بسوء المصير . لو أن عالي عامل أولاده الأشرار بالعدل لكان رفضهم من الوظيفة الكهنوتية وحكم عليهم بالموت . ولكنه إذ كان يرتعب من فكرة التشهير بهم وإدانتهم احتمل بقاءهم في أقدس وظيفة ذات مسؤولية خطيرة ، فسمح لهم بأن يمزجوا فسادهم بخدمة الله المقدسة ويلحقوا بمبادئ الحق أضرارا لم يستطع مرور السنين أن يمحوها ، ولذلك حين أهمل قاضي إسرائيل واجبه تولى الله الأمر بنفسه .

«وَجَاءَ رَجُلُ اللهِ إِلَى عَالِي وَقَالَ لَهُ : هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ : هَلْ تَجَلَّيْتُ لِبَيْتِ أَبِيكَ وَهُمْ فِي مِصْرَ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ ، وَانْتَخَبْتُهُ مِنْ جَمِيعِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ لِي كَاهِنًا لِيَصْعَدَ عَلَى مَذْبَحِي وَيُوقِدَ بَخُورًا وَيَلْبَسَ أَفُودًا أَمَامِي ، وَدَفَعْتُ لِبَيْتِ أَبِيكَ جَمِيعَ وَقَائِدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ فَلِمَاذَا تَدُوسُونَ ذَبِيحَتِي وَتَقْدِمَتِي الَّتِي أَمَرْتُ بِهَا فِي الْمَسْكَنِ ، وَتُكْرِمُ بَنِيكَ عَلَيَّ لِكَيْ تُسَمِّنُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَوَائِلِ كُلِّ تَقْدِمَاتِ إِسْرَائِيلَ شَعْبِي ؟ لِذلِكَ يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ : إِنِّي قُلْتُ إِنَّ بَيْتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ يَسِيرُونَ أَمَامِي إِلَى الأَبَدِ . وَالآنَ يَقُولُ الرَّبُّ : حَاشَا لِي ! فَإِنِّي أُكْرِمُ الَّذِينَ يُكْرِمُونَنِي ، وَالَّذِينَ يَحْتَقِرُونَنِي يَصْغُرُونَ ... وَأُقِيمُ لِنَفْسِي كَاهِنًا أَمِينًا يَعْمَلُ حَسَبَ مَا بِقَلْبِي وَنَفْسِي، وَأَبْنِي لَهُ بَيْتًا أَمِينًا فَيَسِيرُ أَمَامَ مَسِيحِي كُلَّ الأَيَّامِ» .

لقد اتهم الله عالي بأنه يكرم بنيه على الرب . فلقد سمح عالي أن تصير التقدمة المعينة من الله على أنها بركة لإسرائيل كراهة وشيئا ممقوتا ، فضل هذا على أن يخجل بنيه بسبب أعمال الشر والرجس التي كانوا يأتونها . إن أولئك الذين يتبعون أميالهم الخاصة ، وفي محبتهم

العمياء لأولادهم يجعلونهم يفرطون في إشباع رغائبهم النفسانية ولا يستخدمون سلطان الله في توبيخ الخطية وتقويم الأخلاق يظهرون أنهم يكرمون أولادهم أكثر مما يكرمون الله . إنهم يفضلون الحرص على سمعتهم أكثر من تمجيد الله ، ويفضلون إرضاء أولادهم على إرضاء الرب وحفظ خدمته من كل شبه شر .

اعتبر الله عالي الذي كان كاهنا وقاضيا لإسرائيل مسؤولا عن التدهور الأدبي والديني الذي وصل إليه شعبه ، وبمعنى خاص اعتبره مسؤولا عن سوء أخلاق بنيه . كان عليه أولا أن يحاول ردع الشر بطرق رقيقة فإذا لم تفلح هذه وجب عليه أن يخضع الشر ويقضي عليه بأقسى الوسائل . لقد جلب عالي على نفسه سخط الله إذ لم يوبخ الخطية ولا نفذ فى الخطاة العدل ، فلم يمكن الاعتماد عليه فى حفظ بني إسرائيل أطهارا . إن أولئك الذين ليست لديهم شجاعة كافية بها يوبخون الخطية ، أو أولئك الذين بسبب كسلهم أو عدم اهتمامهم لا يبذلون مسعى جديا لتطهير العائلة أو كنيسة الله ، هؤلاء مسؤولون عن الشر الناتج عن إهمالهم للواجب . إننا مسؤولون عن الشرور التي كان بإمكاننا أن نوقفها عند حدها فى حياة الآخرين باستخدام سلطاننا الأبوي أو الرعوي ولم نفعل ذلك ، فكأننا نحن أنفسنا قد ارتكبناها .

إن عالي لم يدبر بيته بموجب قوانين الله لحكم العائلة ، بل اتبع حكمه ورأيه الخاص . فذلك الأب المحب أغضى عن أخطاء وخطايا أولاده في طفولتهم وخدع نفسه بقوله إنهم بعد قليل سيكبرون ويتخلصون من تأثير أميالهم الشريرة . وكثيرون هم الذين في هذه الأيام يرتكبون نفس هذا الخطإ . فهم يظنون أنهم يعرفون طريقة لتربية أولادهم أفضل مما قد رسمه الله في كتابه . إنهم يربون فيهم أميالا خاطئة ويعتذرون قائلين أنهم أصغر من أن يعاقبوا فانتظروهم حتى يكبروا ثم نتفاهم معهم . وهكذا تترك العادات الخاطئة لتنمو وتتقوى حتى تصير طبيعة ثانية فيهم فيكبر الأولاد دون رادع فتصير صفاتهم الخلقية لعنة عليهم مدى الحياة ، وقد تنتقل عدواهم إلى حياة الآخرين .

ليس من لعنة تحل بالبيوت والعائلات أعظم من أن نترك الشباب يسيرون على هواهم . فحين يهتم الآباء بتحقيق كل رغبة من رغبات أولادهم ويعطونهم بسخاء ما يعلمون أنه ليس لخيرهم فالأولاد لا يعودون يكرمون والديهم ولا يحسبون حسابا لسلطان الله أو الإنسان فيصبحون أسرى للشيطان . إن تأثير العائلة غير المنظمة التي لا تخضع لقانون ، منتشر في كل

مكان وهو علة النكبات على المجتمع كله ، وهو يتجمع في تيار الشر الذي يؤثر في العائلات والمجتمع والحكومات .

وبسبب مركز عالي الرفيع امتد تأثيره أكثر مما لو كان رجلا عاديا ، كما تمثلت به وبعائلته عائلات كثيرة في إسرائيل ، فكانت النتائج الوبيلة لطرقه الخاطئة ، طرق الإهمال وحب الراحة ، تشاهد في آلاف العائلات التي تشبهت به ، لأنه إذا سمح للأولاد بارتكاب الشرور بينما أن آباءهم هم من المدَّعين التدين فإن حق الله يلحقه العار . إن أفضل محك للمسيحية في أي بيت هو نوع الخلق الناتج عن تأثير تلك العائلة . والأفعال تتكلم بصوت أعلى من كل اعتراف بالتقوى . إذا كان المدَّعون التدين بدلا من بذل مجهود غيور بمثابرة ودقة في تربية أولادهم وتنظيم عائلاتهم كشهادة على نفع الإيمان بالله ، يتراخون في حكمهم واستعمال سلطانهم ويتساهلون مع رغبات أولادهم الشريرة ، فإنهم يفعلون نفس ما كان يفعله عالي ، ويجلبون العارعلى عمل المسيح ويوقعون الدمار على أنفسهم وعلى عائلاتهم . ولكن مع أن الشرور الناجمة عن عدم أمانة الآباء في أي الظروف عظيمة فإنها تكون أعظم عشرة أضعاف متى وجدت في عائلات أولئك الذين قد أقيموا ليكونوا معلمي الشعب . فإذا أخفق هؤلاء في ضبط عائلاتهم فإنهم بمثالهم الخاطئ يضلون كثيرين . إن ذنبهم يكون أعظم من ذنب الآخرين بنسبة ما يتطلبه مركزهم من مسؤولية أعظم .

لقد وعد الله أن بيت هارون يسير أمامه إلى الأبد ، ولكن هذا الوعد أعطي على شرط تكريسهم أنفسهم لعمل المقدس ببساطة قلب وعلى شرط أنهم يكرمون الله في كل طرقهم فلا يخدمون أنفسهم ولا يتبعون أميالهم الخاطئة . وقد امتحن عالي وبنوه فوجدهم الله غير مستحقين في خدمته لذلك المركز العظيم ، مركز الكهنة ، فأعلن الله قائلا : «حَاشَا لِي» فلم يستطع أن يعمل معهم الخير الذي قصد أن يصنعه لهم ، لأنهم أخفقوا في القيام بنصيبهم .

إن مثال أولئك الذين يخدمون في الأمور المقدسة ينبغي أن يكون ساميا وعظيما بحيث يطبع في قلوب الشعب التوقير لله والخوف من إغضابه . فإذا كان الناس الذين يقفون «عَنِ الْمَسِيحِ» (٢كورنثوس ٥: ٢٠) ليكلموا الشعب برسالة الله رسالة الرحمة والمصالحة ، يتخذون من دعوتهم المقدسة ستارا لإشباع أنانيتهم أو شهواتهم فهم يجعلون أنفسهم أقوى معاول للهدم وآلات للإهلاك في يد الشيطان . وكحفني وفينحاس يجعلون الناس «يستهينون تقدمة الرب» .

قد يسيرون في طريقهم الشرير سرا بعض الوقت ، ولكن متى ظهروا على حقيقتهم في النهاية فإن إيمان كثيرين يصاب بصدمة هائلة يكون من نتائجها ضياع ثقة الناس بالدين ، فيعلق في الذهن عدم ثقة بكل الذين يدعون تعليم كلمة الله . بل يستقبل الناس الرسالة التي يقدمها خادم الرب الأمين بكل شك وتحفظ . وسيسمع هذا السؤال على الدوام من أفواه الكثيرين ، وهو «ألا يمكن أن يكون هذا الإنسان كذاك الذي كنا نظنه عظيم القداسة وإذا به هكذا مفسدا ؟ !» وهكذا تفقد كلمة الله تأثيرها في عقول الناس .

إن في التوبيخ الذي وجهه عالي إلى أولاده كلمات لها أهمية جليلة ومخيفة ، وهي كلمات يحسن بكل من يخدمون في الأشياء المقدسة أن يتأملوا فيها . قال عالي مخاطبا أولاده : «إِذَا أَخْطَأَ إِنْسَانٌ إِلَى إِنْسَانٍ يَدِينُهُ اللهُ . فَإِنْ أَخْطَأَ إِنْسَانٌ إِلَى الرَّبِّ فَمَنْ يُصَلِّي مِنْ أَجْلِهِ ؟» فلو كانت جرائم أولاد عالي قد آذت بني جنسهم فقط لكان يمكن للقاضي أن يعقد بين الطرفين المتخاصمين صلحا بكونه يوقع على المذنبين عقوبة ويطلب منهم تعويضا ، وهكذا كان المذنبون ينالون الغفران . أو لو أنهم لم يكونوا قد أخطأوا خطية جريئة وقحة لأمكن أن تقدم عنهم ذبيحة خطية . ولكن خطاياهم كانت متداخلة في خدمتهم ككهنة لله العلي في تقديم ذبيحة عن الخطية . لقد تنجس عمل الله وأهين في نظر الشعب بحيث لم يكن ممكنا أن تقبل كفارة عنهم . إن أباهم مع كونه رئيس الكهنة لم يجرؤ على أن يشفع فيهم . ولم يكن مستطاعا له أن يقيهم هول غضب الله القدوس . ومن بين كل الخطاة نجد أن أولئك الذين يجلبون الاحتقار على الوسائط التي أعدتها السماء لفداء الإنسان ، هم أعظم جرما – الذين ، «يَصْلِبُونَ لأَنْفُسِهِمِ ابْنَ اللهِ ثَانِيَةً وَيُشَهِّرُونَهُ» (عبرانيين ٦ : ٦) .

الفصل السابع والخمسون

الفلسطينيون يستولون على التابوت

لقد قدم لبيت عالي إنذار آخر . والرب لم يستطع أن يتحدث مع رئيس الكهنة أو بنيه ، حيث كانت خطاياهم كسحابة كثيفة حجبت عنهم حضور الروح القدس . ولكن ظل الصبي صموئيل في وسط الشر أمينا للسماء ، وكانت رسالة الدينونة لبيت عالي هي مأمورية صموئيل كنبي لله العلي .

«وَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ عَزِيزَةً فِي تِلْكَ الأَيَّامِ . لَمْ تَكُنْ رُؤْيَا كَثِيرًا . وَكَانَ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ إِذْ كَانَ عَالِي مُضْطَجِعًا فِي مَكَانِهِ وَعَيْنَاهُ ابْتَدَأَتَا تَضْعُفَانِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُبْصِرَ . وَقَبْلَ أَنْ يَنْطَفِئَ سِرَاجُ اللهِ ، وَصَمُوئِيلُ مُضْطَجعٌ فِي هَيْكَلِ الرَّبِّ الَّذِي فِيهِ تَابُوتُ اللهِ ، أَنَّ الرَّبَّ دَعَا صَمُوئِيلَ» (انظر ١صموئيل ٣- ٧) فإذ ظن أن الصوت هو صوت عالي ركض الصبي الى جوار سرير الكاهن قائلا له : «هأَنَذَا لأَنَّكَ دَعَوْتَنِي» فكان الجواب «لَمْ أَدْعُ يَاابْنِي . ارْجِعِ اضْطَجعْ» وقد دعي صموئيل ثلاث مرات فأجاب على الدعوة بنفس الكيفية . وحينئذ اقتنع عالي بأن تلك الدعوة الغامضة هي صوت الله . لقد غض الرب الطرف عن عبده المختار الرجل الذي كلل الشيب رأسه ليتحدث مع صبي . كان هذا في ذاته توبيخا صارما ومرا لعالي وبيته ، ولكنهم كانوا يستحقونه .

لم يوقظ هذا روح الغيرة أو الحسد في نفس عالي . ولكنه أوصى صموئيل إذا دعاه الصوت مرة أخرى أن يقول : «تَكَلَّمْ يَا رَبُّ لأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ» . إن تفكيره في كون الله العظيم يكلمه ملأه بالرهبة حتى لقد نسى نفس الكلمات التي أمره عالي أن يقولها .

«فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ : هُوَذَا أَنَا فَاعِلٌ أَمْرًا فِي إِسْرَائِيلَ كُلُّ مَنْ سَمِعَ بِهِ تَطِنُّ أُذُنَاهُ . فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أُقِيمُ عَلَى عَالِي كُلَّ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ عَلَى بَيْتِهِ . أَبْتَدِئُ وَأُكَمِّلُ . وَقَدْ أَخْبَرْتُهُ

بِأَنِّي أَقْضِي عَلَى بَيْتِهِ إِلَى الأَبَدِ مِنْ أَجْلِ الشَّرِّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ بَنِيهِ قَدْ أَوْجَبُوا بِهِ اللَّعْنَةَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَمْ يَرْدَعْهُمْ . وَلِذلِكَ أَقْسَمْتُ لِبَيْتِ عَالِي أَنَّهُ لاَ يُكَفَّرُ عَنْ شَرِّ بَيْتِ عَالِي بِذَبِيحَةٍ أَوْ بِتَقْدِمَةٍ إِلَى الأَبَدِ» .

قبل تسلم هذه الرسالة من الله : «لَمْ يَعْرِفْ صَمُوئِيلُ الرَّبَّ بَعْدُ ، وَلاَ أُعْلِنَ لَهُ كَلاَمُ الرَّبِّ بَعْدُ» ومعنى ذلك أنه لم يكن قد اختبر إعلانا كهذا عن ظهور الله المباشر له كما قد أعطي للأنبياء . لقد قصد الله أن يعلن نفسه بكيفية غير منتظرة حتى يسمع عالي بذلك عن طريق دهشة ذلك الشاب وسؤاله .

امتلأ صموئيل خوفا وذهولا عندما فكر في الرسالة المخيفة المسلمة إليه . وفي الصباح ذهب ليقوم بواجباته كالمعتاد ولكن ثقلا هائلا كان يجثم على قلبه الصغير . إن الرب لم يأمره أن يكشف عن ذلك الإنذار المخيف ، ولهذا فقد ظل صامتا ، محاولا على قدر الإمكان ألا يلتقي بعالي . وقد ارتجف خشية أن يحرجه عالي بأسئلته فيضطر أن يعلن أحكام الله على ذلك الكاهن الشيخ الذي كان يحبه ويوقره . كان عالي موقنا بأن الرسالة تنبئ عن كارثة عظيمة ستحل به وببيته ، فدعا صموئيل وطلب منه أن يخبره بكل أمانة عما قد أعلنه له الرب ، فأجابه الشاب إلى طلبه . وهنا انحنى ذلك الشيخ في خضوع ذليل أمام ذلك الحكم المخيف وقال : «هُوَ الرَّبُّ . مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْهِ يَعْمَلُ» .

ومع ذلك فإن عالي لم يظهر ثمار التوبة الحقيقية . لقد اعترف بذنبه ولكنه لم يقو على الإقلاع عن الخطية . وكان الرب من سنة إلى سنة يؤجل إيقاع أحكامه التي قد هدد بها عالي وبيته . وفي خلال تلك السنين كان يستطيع عالي القيام بأعمال كثيرة ليجبر إخفاقه الماضي ، ولكن ذلك الكاهن الشيخ لم يقم بأي عمل حاسم للقضاء على تلك الشرور التي كانت تدنس مقدس الرب والتي كانت تسوق آلافا من بني إسرائيل إلى الهلاك . هذا وإن صبر الله وطول أناته جعلا حفني وفينحاس يقسيان قلبيهما ويرتكبان خطية العصيان على الله بأعظم جرأة . لقد أخبر عالي الأمة كلها برسائل الإنذار والتوبيخ الموجهة إلى أهل بيته ، وبهذه الوسيلة حاول أن يصد ، إلى حد ما ، الآثار الشريرة لإهماله السالف . ولكن الشعب استخف بالإنذارات كما قد فعل الكهنة . ثم إن الشعوب المجاورة لإسرائيل أيضا لم تكن تجهل الآثام التي كان بنو إسرائيل يرتكبونها جهارا ، ولذلك زادت تلك الشعوب جرأة في عبادة الأوثان وارتكاب

الجرائم دون أن يشعروا بالحزن على جرائمهم ، كما كانوا سيحزنون على آثامهم ويرتدعــون عن الشر لو حرص بنو إسرائيل على استقامتهم . ولكن يوما للقصاص كان قادما . لقد طــوح الناس سلطان الله جانبا ، كما أهملوا عبادته واستهانوا بها ، ولذلك صار من الضـــروري أن يتدخل الله لكي تحفظ كرامة اسمه .

«وَخَرَجَ إِسْرَائِيلُ لِلِقَاءِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ لِلْحَرْبِ ، وَنَزَلُوا عِنْــدَ حَجَــرِ الْمَعُونَــةِ ، وَأَمَّــا الْفِلِسْطِينِيُّونَ فَنَزَلُوا فِي أَفِيقَ» وقد شرع الإسرائيليون في القيام بهذه الحملة بدون استشارة الله وبدون رضى كاهن أو نبي ، «وَاصْطَفَّ الْفِلِسْطِينِيُّونَ لِلِقَــاءِ إِسْــرَائِيلَ ، وَاشْــتَبَكَتِ الْحَرْبُ فَانْكَسَرَ إِسْرَائِيلُ أَمَامَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ ، وَضَرَبُوا مِنَ الصَّفِّ فِي الْحَقْلِ نَحْــوَ أَرْبَعَــةِ آلاَفِ رَجُل» فلما ارتد الجيش المحطم الخائر إلى محلتهم «قَالَ شُيُوخُ إِسْــرَائِيلَ : لِمَــاذَا كَسَّرَنَا الْيَوْمَ الرَّبُّ أَمَامَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ ؟» لقد كانت الأمة قد استحصدت ، وحان وقت دينونة الله ، ولكنهم مع ذلك لم يروا أن خطاياهم هي التي بســببها حلــت بــهم تلــك الكارثــة المخيفة ، فقالوا : «لِنَأْخُذْ لأَنْفُسِنَا مِنْ شِيلُوهَ تَابُوتَ عَهْدِ الرَّبِّ فَيَدْخُلَ فِي وَسَطِنَا وَيُخَلِّصَنَــا مِنْ يَدِ أَعْدَائِنَا» ولكن الرب لم يكن قد أمرهم أو أذن لهم أن يأتوا بالتابوت إلى حيث كــان الجيش ، ومع ذلك فقد كانوا واثقين من أن النصر سيكون حليفهم ، وقــد هتفــوا هتافــا عظيما حين حمله بنو عالي إلى المحلة .

نظر الفلسطينيون إلى التابوت على أنه إله إسرائيل . فكل العظائم التي قد صنعــها الله مع شعبه نسبت إلى قوة التابوت . وإذ سمعوا هتافات الفرح من محلة إسرائيل عند قدومه قالوا : «مَا هُوَ صَوْتُ هذَا الْهُتَافِ الْعَظِيمِ فِي مَحَلَّةِ الْعِبْرَانِيِّينَ ؟ وَعَلِمُوا أَنَّ تَابُوتَ الــرَّبِّ جَاءَ إِلَى الْمَحَلَّةِ . فَخَافَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ لأَنَّهُمْ قَالُوا : «قَدْ جَاءَ اللهُ إِلَى الْمَحَلَّةِ» . وَقَــالُوا : وَيْلٌ لَنَا لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هذَا مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ مَا قَبْلَهُ ! وَيْلٌ لَنَا ! مَنْ يُنْقِذُنَا مِنْ يَــدِ هــؤُلاَءِ الآلِهَةِ الْقَادِرِينَ ؟ هؤُلاَءِ هُمُ الآلِهَةُ الَّذِينَ ضَرَبُوا مِصْرَ بِجَمِيعِ الضَّرَبَــاتِ فِــي الْبَرِّيَّــةِ . تَشَدَّدُوا وَكُونُوا رِجَالاً أَيُّهَا الْفِلِسْطِينِيُّونَ لِئَلاَّ تُسْتَعْبَدُوا لِلْعِبْرَانِيِّينَ كَمَا اسْتُعْبِدُوا هُمْ لَكُــمْ . فَكُونُوا رِجَالاً وَحَارِبُوا» .

هجم الفلسطينيون هجوما عنيفا فانهزم إسرائيل وهلك منهم جمع غفير ، وسقط منهم ثلاثون ألفا في ساحة القتال ، وأخذ تابوت الله إذ سقط أبناء عالي وماتا وهما يذودان عنــه . وهكــذا

سطرت على صفحات التاريخ مرة أخرى شهادة لكل الأجيال اللاحقة – بأن آثـام المدعوين شعب الله لن تترك بدون قصاص . فكما زادت معرفة الناس لإرادة الله عظمت خطية من يستخفون بها .

لقد حلت بإسرائيل أعظم كارثة مخيفة كان يمكن وقوعها . إذ أن تابوت الله قد أخذه العدو واستولى عليه ، فزال المجد حقا من إسرائيل حين أخذ من وسطهم رمز حضور الله الدائم وقوته ، لأن هذا التابوت المقدس كان مقترنا بأعجب إعلانات حق الله وقدرته . في الأيام الغابرة كانوا يحرزون انتصارات عجائبية كلما ظهر التابوت بينهم ، كان مظللا بأجنحة الكروبيم الذهبية ولقد حل عليه في قدس الأقداس مجد الله (الشكينا) الذي لا يعبر عنه والذي كان هو الرمز الظاهر لله العلي . أما الآن فلم يحرز لهم نصرة ولم يبرهن على أنه قوة للدفاع في هذه المرة . فكان حزن وصراخ في كل إسرائيل .

إنهم لم يدركوا أن إيمانهم كان مجرد إيمان إسمي فلم تكن فيه قوة للغلبة مع الله ، كما أن شريعة الله الموضوعة في التابوت كانت رمزا أيضا لحضوره ، ولكنهم جلبوا الازدراء والاحتقار على تلك الوصايا واحتقروا مطاليبها وأحزنوا روح الرب فتركهم . إن الشعب حين أطاعوا الوصايا المقدسة كان الرب معهم وعمل لأجلهم بقوته غير المحدودة ، ولكنهم حين نظروا إلى التابوت ولم يروا علاقته بالله ولم يكرموا إرادة الله المعلنة لهم بالطاعة لشريعته ، لم يكن التابوت ليجديهم نفعا أكثر من صندوق عادي . لقد نظروا إلى التابوت نظرة الوثنيين إلى أصنامهم كما لو كان مزودا في ذاته بعناصر القوة والخلاص . فتعدوا الشريعة التي كان التابوت يحتويها لأن عبادتهم للتابوت قادتهم إلى المحافظة على الرسوم الخارجية الشكلية وإلى الرياء وعبادة الأوثان . إن خطيتهم فصلتهم عن الله ، فلم يمكنه أن يعطيهم انتصارا إلا إذا تابوا وتركوا آثامهم .

لم يكن وجود التابوت والمقدس في وسط إسرائيل كافيا ، ولم يكن يكفي أن يقدم الكهنة الذبائح وأن يدعى الشعب أولادا لله . لأن الله لا يقبل صلاة أولئك الذين يراعون الإثم في قلوبهم ، كما هو مكتوب : «مَنْ يُحَوِّلُ أُذْنَهُ عَنْ سَمَاعِ الشَّرِيعَةِ ، فَصَلاَتُهُ أَيْضًا مَكْرَهَةٌ» (أمثال ٢٨ : ٩) .

وحين خرج الشعب للحرب بقي عالي في شيلوه لأنه كان رجلا شيخا وأعمى . وهناك

بقلب مضطرب وبتطير عظيم كان ينتظر نتيجة المعركة ، «لأَنَّ قَلْبَهُ كَانَ مُضْطَرِبًا لأَجْلِ تَابُوتِ اللهِ» وإذ اتخذ لنفسه مكانا خارج باب الخيمة كان يجلس بجانب الطريق العام يوما بعد يوم منتظرا بجزع رسولا ما من ساحة القتال .

أخيرا أتى رجل من بني بنيامين وكان يصعد إلى المدينة مسرعا «وَثِيَابُهُ مُمَزَّقَةٌ وَتُرَابٌ عَلَى رَأْسِهِ» وإذ مر بغير اكتراث بذلك الشيخ الجالس بجانب الطريق ، أسرع راكضا إلى المدينة وأخبر جموع الناس المتلهفين بأنباء الهزيمة والخسارة .

وصلت أصوات النوح والعويل إلى مسمع ذلك الشيخ الذي كان يراقب بجانب الخيمة . ولما أُتي بالرسول إليه قال الرجل لعالي : «هَرَبَ إِسْرَائِيلُ أَمَامَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَكَانَتْ أَيْضًا كَسْرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الشَّعْبِ ، وَمَاتَ أَيْضًا ابْنَاكَ حُفْنِي وَفِينَحَاسُ» وقد استطاع عالي أن يحتمل كل هذا لأنه كان يتوقعه مع أنه كان مرعبا جدا . ولكن حين أضاف الرسول قائلا : «وَأُخِذَ تَابُوتُ اللهِ» بدت على وجه عالي علائم حزن لا يعبر عنه . إن فكرة كون خطيته جلبت العار والهوان على الله إلى هذا الحد وجعلته يترك شعب إسرائيل كانت أعظم مما يستطيع احتماله ، ففارقته قوته فسقط «فَانْكَسَرَتْ رَقَبَتُهُ وَمَاتَ» .

إن امرأة فينحاس مع كون رجلها شريرا كانت امرأة تخاف الرب . إلا أن موت حميها ورجلها ، وفوق الكل ذلك الخبر المرعب ، خبر أخذ تابوت الله ، كان سببا في موتها ، إذ أحست أن آخر رجاء لإسرائيل قد فارقه . وفي ساعة شدتها دعت ابنها المولود لها إيخابود «غير مجيد» ، وفي وقت احتضارها كانت تردد هذه الكلمات بحزن عميق : «زَالَ الْمَجْدُ مِنْ إِسْرَائِيلَ . لأَنَّ تَابُوتَ اللهِ قَدْ أُخِذَ» .

ولكن الله لم يرفض شعبه رفضا باتا ، ولم يسمح أن يعتز الوثنيون ويطربوا ويفرحوا طويلا ، بل استخدم الفلسطينيين كسوط لتأديب إسرائيل كما استخدم التابوت لمعاقبة الفلسطينيين . كان حضور الله في الأيام الغابرة ملازما للتابوت ليكون عزا ومجدا لشعبه المطيع . ولا بد من أن يلازمه ذلك الحضور الخفي ليجلب الرعب والهلاك على من يتعدون شريعته المقدسة . أحيانا كثيرة يستخدم الله ألد أعدائه لمعاقبة عدم الأمانة في المدعوين شعبه ، فقد ينتصر الأشرار ويفتخرون إلى حين عندما يرون إسرائيل يقاسون أهوال التأديبات ، ولكن سيأتي الوقت الذي فيه سيواجهون الحكم عليهم من الله القدوس الذي يكره الخطية ، إذ أينما

يبقي الناس على الإثم فلا بد من أن تدركهم دينونة الله السريعة التي لا تخطئ .

نقل الفلسطينيون التابوت إلى أشدود إحدى مقاطعاتهم الخمس العظمى ، وهم معتزون ومنتصرون ، ووضعوه في بيت إلههم داجون ، وتصوروا أن القوة التي لازمت التابوت قبلا ستكون من نصيبهم ، وأن هذه القوة مضافا إليها قوة داجون ستجعلهم من القوة بحيث لا يمكن أن ينغلبوا . ولكن عندما دخلوا هيكل إلههم في غداة اليوم التالي رأوا منظرا ملأهم دهشة ورعبا . رأوا داجون ساقطا بوجهه على الأرض أمام تابوت الرب . فرفع الكهنة الصنم بكل وقار وأعادوه إلى مكانه . وإذ بهم في صبيحة اليوم التالي يرونه مبتورا ومشوها تشويها غريبا وساقطا أمام التابوت . كان النصف الأعلى لذلك الصنم على صورة إنسان أما النصف الأسفل فكان على هيئة سمكة ، فلقد بتر من ذلك الصنم كل ما يشبه الإنسان ولم يبق غير بدن السمكة ، وحينئذ شمل الكهنة والشعب رعب عظيم ، ونظروا إلى ذلك الحادث المبهم على أنه نذير شؤم ينبئ بهلاكهم وهلاك أصنامهم أمام إله العبرانيين . فنقلوا التابوت من هيكلهم ووضعوه في مبنى منعزل .

وقد ضرب سكان أشدود بمرض خطر ومميت . وإذ ذكروا الضربات التي أوقعها إله إسرائيل على المصريين نسب الشعب بلاياهم إلى وجود التابوت بينهم فقرروا نقله إلى جت . ولكن الوبأ لازمه ، فأرسله سكان جت إلى عقرون . وهناك استقبله العقرونيون بالصراخ قائلين في رعب : «قَدْ نَقَلُوا إِلَيْنَا تَابُوتَ إِلهِ إِسْرَائِيلَ لِكَيْ يُمِيتُونَا نَحْنُ وَشَعْبَنَا» ثم اتجهوا إلى آلهتهم في طلب الحماية كما قد فعل سكان جت وأشدود ولكن الوبأ المهلك كان يعمل عمله حتى أنهم في كربهم «صَعِدَ صُرَاخُ الْمَدِينَةِ إِلَى السَّمَاءِ» وإذ كانوا يخشون من إبقاء التابوت بين مساكن الناس وقتا أطول وضعوه في الخلاء ، فتبعت ذلك ضربة الفيران التي عاثت في البلاد وأتلفت محاصيل الأرض في المخازن وفي الحقول . والآن صارت الأمة كلها مهددة بالهلاك الشامل إما بالمرض أو بالجوع .

بقي التابوت في أرض الفلسطينيين سبعة أشهر . ولم يحاول بنو إسرائيل في خلال هذه المدة الطويلة أن يستردوه . ولكن الفلسطينين صاروا راغبين الآن ومشتاقين إلى التخلص من وجود التابوت بقدر ما كانوا راغبين في الاستيلاء عليه في بادئ الأمر . فبدلا من أن يكون مصدر قوة لهم صار عبئا ثقيلا ولعنة ساحقة . ولكنهم لم يكونوا يعلمون ماذا يفعلون ، ولا أي طريق يسلكون ، لأنه أينما أخذ التابوت كانت الضربات تلاحق الناس . فاستدعى الشعب

أقطاب الأمة وكهنتها وعرافيها وسألوهم بلهفة قائلين : «مَاذَا نَعْمَلُ بِتَابُوتِ الرَّبِّ ؟ أَخْبِرُونَا بِمَاذَا نُرْسِلُهُ إِلَى مَكَانِهِ» فنصحوهم بأن يعيدوه بقربان إثم غالٍ . ثم قال الكهنة : «حِينَئِذٍ تَشْفَوْنَ وَيُعْلَمُ عِنْدَكُمْ لِمَاذَا لاَ تَرْتَفِعُ يَدُهُ عَنْكُمْ» .

كانت العادة عند الوثنيين لإبعاد ضربة أو رفعها ، أن يصنعوا تمثالا من ذهب أو فضة أو مادة أخرى لذلك الشيء الذي تسبب في الخراب ، أو الشيء أو الجزء المصاب من الجسم ، وكان هذا التمثال يوضع على عمود أو في مكان ظاهر ، وكان يعتبر واقيا فعالا من الشرور والأوبئة . ولا تزال بين الشعوب الوثنية عادات مشابهة لهذه . وحين يذهب إنسان متألم من مرض إلى هيكل صنمه للاستشفاء فإنه يحمل معه صورة للجزء المصاب ويقدمها تقدمة لإلهه .

وتبعا للخرافات السائدة حينئذ أرشد أقطاب الفلسطينين الشعب ليصنعوا تماثيل للضربات التي قد أصابتهم . «حَسَبَ عَدَدِ أَقْطَابِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ : خَمْسَةَ بَوَاسِيرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَخَمْسَةَ فِيرَانٍ مِنْ ذَهَبٍ . لأَنَّ الضَّرْبَةَ وَاحِدَةٌ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا وَعَلَى أَقْطَابِكُمْ» .

إن هؤلاء الرجال الحكماء اعترفوا بوجود قوة خفية تصاحب التابوت – قوة لم تستطع حكمتهم أن تقاومها . ومع ذلك فإنهم لم ينصحوا شعبهم بالرجوع عن وثنيتهم ليعبدوا الرب . كانوا لا يزالون سادرين في كراهيتهم لإله إسرائيل مع أنهم أجبروا بسبب الضربات الهائلة التي حلت بهم أن يخضعوا لسلطانه . وهكذا يقتنع الخطاة بسبب دينونة الله ، أنهم عبثا يحاربونه . وقد يرغمون على الخضوع لقوته بينما هم في قلوبهم يتمردون على سلطانه . مثل هذا الخضوع لا يستطيع أن يخلص الخاطئ ، بل ينبغي أن يسلم القلب لله – ينبغي أن تخضعه النعمة الإلهية– قبلما تقبل توبة الإنسان .

ما أطول أناة الله على الأشرار ! إن الفلسطينيين الوثنيين والإسرائيليين المرتدين تمتعوا بعطايا عنايته سواء بسواء . فكانت مراحم لا حصر لها وغير ملحوظة تنزل بسكون في طريق الناس الجاحدين المتمردين . وكل بركة من هذه البركات كانت تحدثهم عن المعطي الكريم ، ولكنهم لم يكترثوا لمحبته . لقد كان احتمال الله لبني الإنسان عظيما ، ولما أصروا بكل عناد على عدم توبتهم رفع عنهم يده الحافظة . لقد رفضوا الإصغاء إلى صوت الله في أعماله التي خلقها وفي إنذارات كلمته ومشوراتها

وتوبيخاتها ، ولذلك اضطر إلى أن يخاطبهم بواسطة أحكامه ودينونته .

وجد بين الفلسطينين قوم وقفوا مستعدين لمقاومة فكرة إعادة التابوت إلى أرضه . كانوا يعتقدون أن اعترافا كهذا بقدرة إله إسرائيل ينطوي على الإذلال لكبرياء فلسطين . ولكن «الكهنة والعرافين» أنذروا الشعب ألا يتشبهوا بفرعون والمصريين في عنادهم وإلا جلبوا على أنفسهم ويلات أعظم ، فاقترح تدبير حازم رضي به الجميع ، فنفذوه في الحال . فوضع التابوت ومعه قربان الإثم الذهبي على عجلة جديدة وبذلك استبعدوا كل خطر للنجاسة . وربطوا إلى هذه العجلة أو العربة بقرتين مرضعتن لم يعلهما نير وحبسوا ولديهما في البيت . تركت البقرتين تسيران إلى حيث راقهما . فإذا عاد التابوت إلى الإسرائيليين عن طريق بيتشمس التي هي أقرب مدن اللاويين فيعتبر الفلسطينيون هذا برهانا على أن إله إسرائيل هو الذي أوقع بهم هذا الشر العظيم . ثم قالوا : «وَإِلاَّ فَنَعْلَمُ أَنْ يَدَهُ لَمْ تَضْرِبْنَا . كَانَ ذلِكَ عَلَيْنَا عَرَضًا» .

فلما أطلقت البقرتان تركتا ولديهما واستقامتا في الطريق إلى بيتشمس وهما تجأران . وبدون أن تقودهما يد بشرية ، سارت تانك البهيمتان الصبوران في طريقهما . لقد كان حضور الله يلازم التابوت فوصل إلى المكان المعين سالما .

كان ذلك الو قت موسم حصاد الحنطة وكان رجال بيتشمس يجمعون حصادهم في الوادي «فَرَفَعُوا أَعْيُنَهُمْ وَرَأَوْا التَّابُوتَ وَفَرِحُوا بِرُؤْيَتِهِ . فَأَتَتِ الْعَجَلَةُ إِلَى حَقْلِ يَهُوشَعَ الْبَيْتَشَمْسِيِّ وَوَقَفَتْ هُنَاكَ . وَهُنَاكَ حَجَرٌ كَبِيرٌ . فَشَقَّقُوا خَشَبَ الْعَجَلَةِ وَأَصْعَدُوا الْبَقَرَتَيْنِ مُحْرَقَةً لِلرَّبِّ» ثم أن أقطاب الفلسطينيين الذين ساروا وراء التابوت «إِلَى تُخُمِ بَيْتَشَمْسَ» وشاهدوا استقبال الشعب له عادوا إلى عقرون ، فانقطعت الضربه واقتنع الفلسطينيون بأن الكوارث التي ألمت بهم كانت قصاصا أوقعه عليهم إله إسرائيل .

وسرعان ما نشر أهل بيتشمس ذلك النبأ وهو أن التابوت في حوزتهم فتقاطر الناس من المدن المجاورة للترحيب بعودته . وضع التابوت على الحجر الذي قد استعمل أولا مذبحا ، كما قدمت أمامه ذبائح أخرى للرب . ولو أن أولئك الناس تابوا عن خطاياهم توبة حقيقية لكانت بركة الرب قد حلت عليهم . ولكنهم لم يطيعوا شريعته بأمانة ، وحين فرحوا بعودة التابوت على أنه بشير خير لم يكن فيهم إحساس حقيقي بقداسته . وبدلا من إعداد مكان مناسب

ليضعوه فيه أبقوه في الحقل . وإذ ظلوا يشخصون في ذلك التابوت المقدس ويتحدثـــون عـــن الكيفية العجيبة التي بها أعيد إليهم جعلوا يحدسون في أي شيء تكمن قوتــــه . فلمـــا غلبـــهم الفضول أخيرا رفعوا الغطاء وتجاسروا على فتحه .

لقد تعلم بنو إسرائيل جميعا أن ينظروا إلى التابوت بكل تهيب ووقار . وحين كان ينقل من مكان إلى آخر لم يسمح للاويين أن يشخصوا بأبصارهم إليه ، ولم يكن يسمح لرئيس الكهنـــة برؤية تابوت الله إلا مرة واحدة في السنة . وحتى الفلسطينيون الوثنيون أنفسهم . لم يجـــرؤوا على رفع الغطاء عنه . وإن ملائك السماء غير المنظورين كانوا يلازمون التابوت فـــي كـل رحلاته . وسرعان ما عوقب شعب بيتشمس على جرأتهم الوقحة إذ ضرب كثـــيرون منـــهم وماتوا .

أما الباقون منهم فلم يجعلهم هذا الحكم يتوبون عن خطيتهم ، ولكنهم كانوا ينظـــرون إلـــى التابوت بخوف خرافي فقط . وإذ كان أهل بيتشمس يتوقون إلى أن يؤخذ التابوت من بينـــهم ، وفي نفس الوقت لم يكونوا يجسرون على نقله ، بعثوا برسالة إلى سكان قرية يعاريم يدعونـــهم لكي يأخذوه . فرحب أهل تلك القرية بالتابوت المقدس بفرح عظيم . لقد عرفوا أنـــه ضـــامن لرضى الله على المطيعين والأمناء . وبفرح مقدس أتوا به إلى مدينتهم ووضعوه فـــي بيـت أبيناداب أحد اللاويين . وقد أقام هذا الرجل ابنه ألعازار لحراسته فبقي التابوت هنـــاك ســـنين طويلة .

وفي خلال السنين التي مرت منذ أعلن الرب نفسه لابن حنة أول مرة اعترفت الأمة كلـــها بأن صموئيل قد دعي ليكون نبيا للرب . وإذ قدم صموئيل الإنذار الإلهي لبيت عالي بأمانة مع ما كان ينطوي عليه أداء ذلك الواجب من مشقة وألم ، برهن على ولائه كرسول للرب «وَكَانَ الرَّبُّ مَعَهُ ، وَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا مِنْ جَمِيعِ كَلاَمِهِ يَسْقُطُ إِلَى الأَرْضِ . وَعَرَفَ جَمِيعُ إِسْـــــرَائِيلَ مِنْ دَانَ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ أَنَّهُ قَدِ اؤْتُمِنَ صَمُوئِيلُ نَبِيًّا لِلرَّبِّ» .

وقد استمر شعب إسرائيل كأمة في حالة الزندقة والوثنية فعاقبهم الله بأن جعلهم مســـتعبدين للفلسطينيين . وفي أثناء ذلك جال صموئيل في طول البلاد وعرضها ، يزور المدن والقــــرى طالبا إرجاع قلوب الشعب إلى إله آبائهم ، ولم تكن مساعيه بدون نتائج حسنة . وبعدما احتمل الإسرائيليون ظلم أعدائهم ومضايقاتهم عشرين سنة «نَاحَ كُلُّ بَيْتِ إِسْـــــرَائِيلَ وَرَاءَ الـــرَّبِّ»

فنصحهم صموئيل بقوله : «إِنْ كُنْتُمْ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ رَاجِعِينَ إِلَى الرَّبِّ ، فَانْزِعُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ وَالْعَشْتَارُوثَ مِنْ وَسْطِكُمْ ، وَأَعِدُّوا قُلُوبَكُمْ لِلرَّبِّ وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ» وهنا نرى أن التقوى العملية والديانة القلبية كان الشعب قد تعلموها في أيام صموئيل كما علم بها المسيح حين كان على الأرض . وبدون نعمة المسيح كانت طقوس الديانة الخارجية عديمة الجدوى لإسرائيل قديما ، كما هي لإسرائيل اليوم .

إن الحاجة اليوم هي إلى انتعاش الديانة القلبية الصادقة كذلك الانتعاش الذي قد اختبره إسرائيل قديما . فالتوبة هي أول خطوة ينبغي أن يخطوها كل من يرغبون في الرجوع إلى الله . ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا نيابة عن أي إنسان آخر . فعلى كل فرد منا أن يتذلل أمام الله ويطرح أصنامه بعيدا . ومتى فعلنا كل ما نستطيعه يعلن لنا الرب خلاصه .

وإذ تعاون رؤساء الأسباط معا اجتمع شعب غفير إلى المصفاة ، وصام الشعب صوما مقدسا واعترفوا بخطاياهم في تذلل عميق . وكدليل على تصميمهم على إطاعة الإرشادات التي قد سمعوها قلدوا صموئيل سلطة القاضي .

فسر الفلسطينيون هذا التجمع على أنه مجلس حرب فأتوا بجيش عظيم ليشتتوا شمل الإسرائيليين قبل اكتمال خططهم الحربية . فأثار نبأ قدومهم ذعرا شديدا في قلوب بنى إسرائيل حتى توسلوا إلى صموئيل قائلين : «لاَ تَكُفَّ عَنِ الصُّرَاخِ مِنْ أَجْلِنَا إِلَى الرَّبِّ إِلهِنَا فَيُخَلِّصَنَا مِنْ يَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ» .

وفيما كان صموئيل يقدم حملا محرقة للرب اقترب الفلسطينيون إليهم ليحاربوهم . وإذا بالإله القدير الذي قد نزل على جبل سيناء في وسط النار والدخان والرعود ، والذي شق مياه بحر سوف ، والذي فتح في نهر الأردن طريقا لبني إسرائيل ، يظهر قوته مرة أخرى . ذلك أن عاصفة راعدة شديدة هبت على الجيش المهاجم فهلك كثيرون منهم وتبعثرت جثث أولئك المحاربين الأشداء على وجه الغبراء .

وقف الإسرائيليون في صمت مهيب وهم يرتجفون بين الرجاء والخوف . ولما شاهدوا تلك المقتلة التي هلك فيها أعداؤهم بسيف الرب علموا أن الرب قد قبل توبتهم . ومع أنهم لم يكونوا متأهبين للقتال فقد أمسكوا بأسلحة الفلسطينيين القتلى وطاردوا فلول الجيش الهارب إلى بيت كار . هذا النصر الفريد أحرزه شعب الرب في نفس الميدان الذي كانوا قد انهزموا فيه

وقتل منهم خلق كثيرون ومات الكهنة وأخذ تابوت الله منذ عشرين سنة خلت . إن سبيل الطاعة لله هو سبيل الأمان والسعادة للأمم كما للأفراد ، أما سبيل العصيان فنهايته الهزائم والكوارث . وقد أخضع الفلسطينيون الآن وغلبوا تماما حتى لقد سلموا الحصون والمعاقل التي كانوا قد اغتصبوها من إسرائيل وكفوا عن العدوان سنين طويلة . وقد تمثلت بهم أمم كثيرة فتمتع الإسرائيليون بالسلام إلى نهاية حكم صموئيل .

ولكيلا تنسى تلك الحادثة أبدا من أذهان الشعب أقام صموئيل حجرا عظيما تذكارا بين المصفاة والسن وسماه حجر المعونة قائلا للشعب «إِلَى هُنَا أَعَانَنَا الرَّبُّ» .

الفصل الثامن والخمسون

مدارس الأنبياء

إن الرب نفسه هو الذي وجَّه تعليم إسرائيل وتهذيبهم ، وهو لـــم يحصـــر اهتمامـــه فـــي مصالحهم الدينية دون سواها ، بل إن كل ما كان يمس خيرهم العقلي والجسدي كان هو أيضـا موضوع عناية الله ، وجاء ضمن محيط الشريعة الإلهية .

كان الله قد أمر العبرانيين أن يعلموا أولادهم مطاليبه ويطلعوهم على كـــل معـــاملات الله لآبائهم ، فكان هذا واجبا خاصا التزم أن يقوم به كل أب وكل أم ولم يكن يســـمح لـــهم بـــأن يوكلوه إلى أشخاص آخرين . فبدلا من أن ينطق الغرباء في آذان الأبناء بـــهذا الكـــلام كـــان ينبغي أن الآباء والأمهات المفعمة قلوبهم حبا لأولادهم يقدمون لهم هذه التعاليم . وكانت أفكـار الله لتتصل بكل أعمال الحياة اليومية . فالعظائم التي أجراها الله في تخليص شعبه ، والمواعيد الخاصة بالفادي المزمع أن يأتي كان ينبغي أن تسرد مرارا كثيرة في بيوت إسرائيل ، وكـــان استعمال الاستعارات والرموز من بين العوامل التي جعلت تلك الأقوال ترسخ في الأذهـــان . إن الحقائق العظيمة ، حقائق عناية الله والحياة العتيدة انطبعت على عقول الصغار . وقد تربت تلك العقول على أن ترى الله في مناظر الطبيعة كما في الكلمة الإلهية الموحى بـــها . فنجـــوم السماء والأشجار وزنابق الحقل والجبال الشاهقة وجداول المياه الجارية تحدثـــت كلـــها عـــن الخالق . ثم إن خدمة الذبائح المقدسة والعبادة في المقدس وأقوال الأنبياء كانت كلها إعلانـــات من الله .

كذلك كان التدريب الذي تلقاه موسى في الكوخ المتواضع في أرض جاســـان ، ومـــا تلقاه صموئيل عن أمه الأمينة حنة ، وما تلقاه داود في بيته بين تلال بيت لحم ، وما تلقاه دانيال قبلما فصلت مشاهد السبي بينه وبين وطن آبائه . وكذلك أيضا كانت حياة المســـيح الباكرة في الناصرة ، وكذلك كان التعليم الذي تلقاه الطفل تيموثاوس من جدتـــه لوئيـــس

وأمه أفنيكي (٢تيموثاوس ١ : ٥، ٣ : ١٥) وهي تعاليم الكتاب المقدس .

وقد عمل تدبير آخر لأجل تعليم الشعب بإقامة مدارس الأنبياء . فإذا كان هنالك شاب يرغب في التعمق في مبادئ كلمة الله وفي طلب الحكمة النازلة من فوق لكي يصير معلما في إسرائيل كانت هذه المدارس تفتح له أبوابها . وقد أنشأ صموئيل مدارس الأنبياء لكي تكون سياجا واقيا يحفظ النفس من الفساد المستشري ، ولكي تسد حاجة الشباب الأدبية والروحية وتعمل على ما فيه خيرهم وازدياد نجاح الأمة في مستقبلها ، إذ تزودها برجال مؤهلين لأن يعملوا كقادة ومشيرين في خوف الله . ولتحقيق هذه الغاية جمع صموئيل جماعات من الشباب الأتقياء الأذكياء والمفكرين محبي الدرس والاطلاع . وقد دعي هؤلاء بني الأنبياء . فإذ كانت لهم شركة مع الله ، ودرسوا كلمته وأعماله ، أضيفت إلى مواهبهم الطبيعية الحكمة النازلة من فوق . ولم يكن معلموهم ملمين فقط بالحق ، ولكنهم كانوا قوما يتمتعون هم أنفسهم بشركة مع إلههم ، وقد قبلوا مواهب الروح القدس الخاصة ، وكانوا حائزين احترام الناس وثقتهم من ناحية العلم والتقوى .

وكانت في أيام صموئيل اثنتان من هذه المدارس –إحداهما في الرامة موطن النبي ، والأخرى في قرية يعاريم حيث كان التابوت موجودا حينئذ . وبعد ذلك أنشئت مدارس من هذا النوع .

كان تلاميذ هذه المدارس يمولون أنفسهم بعملهم في حراثة الأرض أو في أي عمل آلي . وفي إسرائيل لم يكن أحد يفكر بأن هذا عمل غريب أو مهين . بل إن ترك الأولاد ليشبوا وهم يجهلون مزاولة الأعمال النافعة المجدية كان يعتبر جريمة ، فأمر الله أن يتعلم كل صبي حرفة حتى ولو كان يتعلم ليدخل الخدمة المقدسة . إن كثيرين من معلمي الدين كانوا يعولون أنفسهم بالعمل اليدوي . وحتى في أيام الرسل لم يكن مما يقلل من كرامة بولس وأكيلا كونهما كانا يحصلان على رزقهما بعملهما في صنع الخيام .

كانت مواد الدراسة الرئيسية في هذه المدارس شريعة الله ، والتعليمات المعطاة لموسى ، والتاريخ المقدس والموسيقى المقدسة والشعر . وكانت طريقة التعليم تختلف كثيرا عما هو متبع في المدارس اللاهوتية في هذه الأيام ، حيث يتخرج في مدارس اليوم كثيرون من التلاميذ وقد نقصت معرفتهم الحقيقية لله وللحقائق الدينية عما كانت عليه حينما دخلوها . ففي المدارس القديمة كانوا يجعلون غايتهم السامية العظمى من كل ما يدرسونه أن يعرفوا مشيئة

الله وواجب الإنسان نحوه تعالى . وفي كتب التاريخ المقدس كانوا يتتبعون آثار قدمي الـرب . والحقائق العظمى التي أوضحتها الرموز كانت توضع نصـب عيونـهم ، وبالإيمـان كـانوا يدركون الغاية الرئيسية من كل ذلك النظام – حمل الله الذي كان سيرفع خطية العالم .

وقد نشأ في قلوبهم روح التعبد والتكريس . فلم يكن أولئك التلاميذ يتعلمون وجوب الصلاة ولزومها فقط بل كانوا يتعلمون كيف يصلون وكيف يقتربون من خالقهم وكيف يتدربون علـى الإيمان به وكيف يدركون ويطيعون تعاليم روحه ، فاستخرجت الأذهان المقدسة من كـنز الله جددا وعتقاء ، وتجلى روح الله في النبوة والتسابيح المقدسة .

كانت الموسيقى تتمم غرضا مقدسا لتسمو بالأفكار إلى ما هو طاهر وسام ونبيل ولتوقـظ في النفس روح التعبد والشكران لله . ما أعظم الفرق بين العادة القديمـة والأغـراض التـي تكرس لها الموسيقى اليوم ! وما أكثر من يستخدمون هذه الموهبة في تعظيم أنفسهم بدلا مـن استخدامها في تمجيد الله ! إن حب الموسيقى يقود جماعة المستهزئين إلى مشاركة أهل العـالم في حفلات الطرب والسرور التي قد نهى الله أولاده عن ارتيادها . وهكذا يحدث ، أن الشـيء الذي يمكن أن يكون بركة عظيمة متى أحسن استخدامه ، يصير من أنجح الوسائل التي يحاول الشيطان بواسطتها أن ينسي العقل واجبه والتأمل فى الأمور الأبدية .

الموسيقى جزء من أجزاء عبادة الله في المواطن البهية العليا . وعلينا نحن فـى أغانينـا وتسبيحاتنا أن نجتهد على قدر إمكاننا أن نكون فى انسجام ووفاق مع أجواق السـماويين . إن التدريب الصائب للصوت هو صورة هامة من صور التهذيب وينبغـي ألا نهملـه ، كمـا أن التسبيح ، كجزء من الخدمة الدينية ، هو عمل من أعمال العبادة كالصلاة . فيجب أن يشـعر القلب بروح التسبيحة لكي يعطيها التعبير الصائب .

ما أبعد الفرق بين تلك المدارس التى كان يعلم فيها أنبياء الله وبيـن معاهدنـا التعليميـة الحديثة ! وما أقل المدارس التي لا تتحكم فيها مبادئ العالم وعاداته ! هنالك نقص محزن فـي الضوابط السديدة والتدريب الحكيم . إن الجهل الملحوظ لكلمة الله بين المدعوين مسيحيين أمـر مفزع حقا ، فالأحاديث السطحية والعاطفية المجردة صارت تعتبر تعليما في الأخلاق والدين . كما إن عدالة الله ورحمته وجمال القداسة والجزاء الأكيد للعمل الصالح ، وشـناعة الخطيـة وعواقبها المخيفة الأكيدة لا تطبع على أذهان الشباب . إن العشراء الأشرار يعلمون الشـباب

593,594,595

الأغرار طرق الجرائم والإسراف والخلاعة .

ألا توجد بعض الدروس التي يمكن أن يتعلمها معلمو هذه الأيام وينتفعوا بها من المدارس العبرية القديمة ؟ إن الله الذي خلق الإنسان قد أعد كل ما يلزمه لتقوية جسمه وتنمية عقله وروحه . ولهذا فالنجاح في التهذيب يتوقف على الولاء الذي به ينفذ الناس تدبير الله .

إن الغاية الحقيقية من التعليم هي إرجاع صورة الله إلى النفس . في البدء خلق الله الإنسان على صورته ومنحه صفات نبيلة . كان عقله متزنا ، وكانت كل قوى شخصيته في انسجام تام . ومن السقوط وعواقبه أفسدت هذه الهبات . لقد شوهت الخطية وكادت تطمس صورة الله في قلب الإنسان ، ولذا أعد تدبير الخلاص لإعادة هذه الصورة ، وأعطيت للإنسان حياة اختبار . إن الغاية العظمى من الحياة ، الغاية التي تشتمل على كل غاية أخرى ، هي العودة بالإنسان إلى حالة الكمال التي خلق عليها أولا . فعمل الآباء والمعلمين في تهذيب الشباب هو التعاون مع الله في غايته ، وإذ يفعلون ذلك يكونون عاملين مع الله (١كورنثوس ٣ : ٩) .

إن الإمكانيات المختلفة التي يملكها الناس –العقل والجسد والروح– معطاة لهم من الله لاستخدامها بحيث يصلون بواسطتها إلى أسمى درجات العظمة والسمو . ولكن هذا لا يمكن أن يكون تهذيبا أنانيا مقصورا على فئة خاصة إذ من صفات الله الذي يريد أن نقبل صورته في قلوبنا ، الإحسان والمحبة . إن كل ما قد وهبنا إياه الخالق من مقدرات وصفات ينبغي لنا أن نستخدمه فيما يؤول إلى مجده ورفع شأن بني جنسنا . وفي هذا العمل نجد تلك القوى أطهر وأنبل وأمجد تدريب لها .

ولو أعطي هذا المبدأ الالتفات الذي تتطلبه أهميته لحدث تغيير جوهري في بعض طرق التهذيب المعمول بها . فعلى المعلمين ، بدلا من الالتجاء إلى الكبرياء والطموح الأناني وإشعال روح التنافس ، أن يحاولوا إيقاظ محبة الصلاح والحق والجمال في نفوس الطلبة لاستنهاض شوقهم إلى التفوق والسمو . فالطالب يجتهد في تنمية مواهب الله في نفسه ، لا ليتفوق على أقرانه بل ليتمم قصد الله ويقبل صورته . وبدلا من توجيههم إلى مجرد مثل أرضية ، وبدلا من أن تدفعهم رغبتهم في تمجيد أنفسهم التي هي في ذاتها تحط من شأن الإنسان ، يوجَّه الفكر إلى الخالق ليعرفه ويتشبه به .

595,596

«بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ ، وَمَعْرِفَةُ الْقُدُّوسِ فَهْمٌ» (أمثال ٩ : ١٠) إن عمل الحياة العظيم هو بناء الخلق . ومعرفة الله هي أساس كل تهذيب صحيح ، فنشر هذه المعرفة وتكوين الخلق ليكون منسجما معها ، هذا ما ينبغي أن يستهدفه المعلم في عمله . إن شريعة الله هي انعكاس لصفاته ، ولهذا يقول المرنم : «كُلُّ وَصَايَاكَ عَدْلٌ» كما يقول أيضاً : «مِنْ وَصَايَاكَ أَتَفَطَّنُ ، لِذلِكَ أَبْغَضْتُ كُلَّ طَرِيقِ كَذِبٍ» (مزمور ١١٩ : ١٠٤،١٧٢) لقد أعلن الله نفسه لنا في كلمته وفي أعمال الخلق . فمن الكتاب الموحى به ومن سفر الطبيعة يمكننا أن نستقي معرفتنا عن الله .

من بين نواميس العقل انسجامه مع الأشياء التي يربي نفسه على التأمل فيها . فإذا انشغل بالأشياء العادية وحدها صار ضعيفا وعاجزا ، وإذا لم يطلب منه أن يتصارع مع المشاكل الصعبة فبعد قليل يكاد يفقد قدرته على النمو . إن الكتاب المقدس هو قوة مثقِّفة بلا منازع . وفي كلمة الله يجد العقل مجالا لأعمق الأفكار وأسمى المطامح . والكتاب المقدس هو أعظم تاريخ مهذِّب يمكن أن يملكه الإنسان . لقد أتى حديثا مع نبع الحق الأزلي الذي حفظته يد الله في طهارته مدى الأجيال . إنه يشرق بنوره على الماضي البعيد الذي تحاول البحوث البشرية عبثا اكتناه أسراره . وفي كلمة الله نلمس القوة التي قد وضعت أسس الأرض ونشرت السموات . وفيه دون سواه نجد تاريخا لجنسنا غير ملطخ بالتعصب والكبرياء البشريين ، وفيه سجلت أنباء الحروب والهزائم والانتصارات التي أحرزها أعظم الرجال الذين عرفهم العالم . وهنا أيضا تتكشف أمامنا مشاكل الواجب والمصير . والستار الذي يفصل بين العالم المنظور وغير المنظور يُرفع فنرى صراع القوتين المتضادتين –الخير والشر– منذ بدء دخول الخطية إلى العالم إلى وقت انتصار البر والحق في النهاية ، وكل ذلك إن هو إلا إعلان لصفات الله . وإذ يتأمل عقل التلميذ طالب الحق بوقار في الحقائق المقدمة في كلمة الله يصير في شركة مع فكر الله غير المحدود . مثل هذا الدرس فضلا عن كونه ينقي الخلق ويشرفه ، فهو لا يخفق في توسيع قوى الذهن وتنشيطها .

إن لتعليم الكتاب علاقة حيوية بنجاح الإنسان في كل صلاته في هذه الحياة أنه يكشف عن المبادئ التي هي حجر الزاوية في صرح نجاح الأمة ، المبادئ المرتبطة بخير المجتمع ، والتي هي حارس الأسرة ، والتي بدونها لن يستطيع أي إنسان أن يبلغ إلى حال النفع والسعادة

والكرامة في هذه الحياة ولا يضمن التمتع بالحياة الأبدية العتيدة . ليس من مركز في الحياة ولا طور من أطوار الاختبار البشري إلا ونجد له في تعاليم الكتاب المقدس إعدادا جوهريا . وإذ ندرس كلمة الله ونطيعها نراها تقدم للعالم رجالا ذوي ذكاء أقوى وأنشط مما يعطيه أدق تطبيق لكل المواضيع المبنية على فلسفة البشر . إن كتاب الله يقدم للعالم رجالا أقوياء ذوي خلق ثابت متين وإدراك قوي وحكم صائب – رجالا يكرمون الله ويباركون العالم .

في دراسة العلوم نحصل أيضا على معرفة الخالق . إذ كل علم حقيقي ما هو إلا تفسير للكتابة التي يكتبها الله في العالم المادي . والعلم يقدم من بحوثه براهين جديدة على حكمة الله وقدرته . إن كتاب الطبيعة وكلمة الله المكتوبة متى أدركناهما إدراكا صحيحا يعرّفاننا بالله ، لكونهما يعلماننا أشياء عن النواميس الحكيمة والنافعة التي بها يعمل الله .

يجب إرشاد الطالب إلى رؤية الله في كل أعمال الخلق . وعلى المعلمين أن ينسجوا على منوال المعلم الأعظم الذي استخرج من المناظر المألوفة أمثالا بسط فيها تعاليمه ورسخها عميقة في عقول سامعيه وقلوبهم . فالطيور المغردة بين الأغصان وزنابق الحقل المورقة والأشجار العالية والأرض المثمرة والبذار النامي والأرض القفراء ، والشمس في غروبها وهي تزين السموات بأشعتها الذهبية – كل هذه كانت وسائل نافعة للتعليم . وقد قرن هذا المعلم العظيم أعمال الخلق العظيمة المرئية بكلام الحياة الذي نطق به . حتى كلما وقعت عيون سامعيه على هذه المناظر تتجه أفكارهم إلى الدروس والحقائق التي قرنها بها .

إن طابع اللاهوت الذي يرى من خلال سطوره كتاب الوحي يرى فوق الجبال الشاهقة والسهول الخصبة المثمرة والأوقيانوس العظيم العميق ، كما أن مناظر الطبيعة تحدث الإنسان عن محبة خالقه . لقد ربطنا الله إلى نفسه بعلاقات لا عدد لها في السماء وفي الأرض ، فهذا العالم ليس كله حزنا وشقاء . «اللهَ مَحَبَّةٌ» هذا ما هو مكتوب على كل برعمة متفتحة ، وعلى أوراق كل زهرة ، وعلى ساق كل عشبة . ومع أن لعنة الخطية قد جعلت الأرض تنبت شوكا وحسكا ، فحتى الحسك لا يزال تعلوه الأزهار ، والشوك تخفيه الورود . إن كل ما في الطبيعة يشهد لرعاية الله الأبوية الرقيقة ورغبته في إسعاد أولاده ، الذي لا يقصد بنواهيه ووصاياه مجرد إظهار سلطانه ، ولكنه في كل ما يفعل يضع نصب عينيه خير أولاده وإسعادهم ، كما أنه لا يطلب منهم أن يبعدوا عنهم شيئا

يكون في بقائه خيرهم وراحتهم .

إن الفكرة السائدة بين كل طبقات المجتمع ، بأن الدين لا يجلب الصحة أو السعادة في هذه الحياة ، هي من أخبث الأخطاء المضللة . فالكتاب يقول : «مَخَافَةُ الرَّبِّ لِلْحَيَاةِ (ومن يمتلكها) يَبِيتُ شَبْعَانَ لاَ يَتَعَهَّدُهُ شَرٌّ» (أمثال ١٩ : ٢٣) كما يقول أيضا : «مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي يَهْوَى الْحَيَاةَ ، وَيُحِبُّ كَثْرَةَ الأَيَّامِ لِيَرَى خَيْرًا ؟ صُنْ لِسَانَكَ عَنِ الشَّرِّ ، وَشَفَتَيْكَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِالْغِشِّ . حِدْ عَنِ الشَّرِّ ، وَاصْنَعِ الْخَيْرَ . اطْلُبِ السَّلاَمَةَ ، وَاسْعَ وَرَاءَهَا» (مزمور ٣٤ : ١٢-١٤) وكلمات الحكمة «هِيَ حَيَاةٌ لِلَّذِينَ يَجِدُونَهَا ، وَدَوَاءٌ لِكُلِّ الْجَسَدِ» (أمثال ٤ : ٢٢) .

إن الديانة الحقيقية تجعل الإنسان في حالة انسجام تام مع شرائع الله سواء أكانت جسدية أم عقلية أم أدبية . إنها تعلمنا ضبط النفس والرصانة والهدوء والاعتدال (التعفف) . الديانة تزكي العقل وتنقي الذوق وتقدس ملكة الحكم ، وتجعل النفس شريكة السماء في طهارتها . إن الإيمان بمحبة الله وعنايته السائدة يخفف من أعباء القلق والهموم ويملأ القلب فرحا واكتفاء ، سواء أكان الإنسان من أغنى الأغنياء أو أفقر الفقراء . إن الديانة تحسن الصحة تحسينا مباشرا ، وتطيل العمر ، وتسمو بتمتعنا بكل بركات الحياة ، وتفتح للنفس نبعا للسعادة لا ينضب . يا ليت كل من لم يختاروا المسيح نصيبا لهم بعد يدركون أن عنده شيئا يريد أن يقدمه لهم أفضل مما يطلبونه لأنفسهم . إن الإنسان يلحق بنفسه أعظم ضرر ويوقع بها أفدح ظلم حين يفكر ويعمل ضدا لمشيئة الله . ، يمكن أن يكون هنالك فرح حقيقي لمن يسير في الطريق الذي نهاه عنه ذاك الذي يعرف الأفضل والذي يعمل لخير خلائقه . إن طريق العصيان نهايته الشقاء والهلاك ، أما الحكمة فإن «طُرُقُهَا طُرُقُ نِعَمٍ ، وَكُلُّ مَسَالِكِهَا سَلاَمٌ» (أمثال ٣ : ١٧) .

بإمكاننا الاستفادة من دراسة التربية البدنية والدينية التي كانت تمارس في مدارس العبرانيين . إن قيمة مثل هذه التربية لا تقدر . هنالك علاقة وثيقة بين العقل والجسم ، وحتى نصل إلى مقياس رفيع من البلوغ الأدبي والذهني ينبغي مراعاة القوانين التي تسيطر على كياننا البدني . فلكي نحصل على خلق قوي متزن ينبغي تدريب القوى العقلية والبدنية وترقيتها . فأية دراسة يمكن أن تكون أهم لدى الشباب من تلك التي تتناول هذا التركيب

العضوي العجيب المسلم لنا من الله ، والنواميس التي بها يحفظ صحيحا سليما .

وكما كانت الحال في أيام إسرائيل بأن على كل شاب أن يتعلم واجبات الحياة العملية كذلك على كل واحد الآن أن يحصل على بعض المعرفة لفرع من فروع العمل اليدوي يمكنه بواسطتها أن يحصل على رزقه إذا اضطر لذلك . وهذا لازم جدا ليس ليكون واقيا يقيه تقلبات الحياة فقط ، بل لأنه يرقي وينمي قواه البدنية والعقلية والأدبية . وحتى لو كان المرء واثقا تماما من أنه لن يحتاج إلى العمل بيديه لإعالة نفسه ، فإنه يجب عليه أن يتعلم أن يشتغل ، فما لم يتدرب الجسم على العمل فلن تكون له بنية قوية ولا صحة معتدلة نشيطة . كما أن التدرب على العمل المنظم جيدا ليس أقل لزوما للحصول على عقل قوي نشيط وخلق نبيل .

على كل طالب أن يكرس جزءا من كل يوم للعمل الجدي النشيط . وهكذا تتكون في الإنسان عادة الاجتهاد وينشأ في داخله روح الاعتماد على النفس ، وهذا يقي الشاب أيضا الكثير من الأعمال الشريرة المنحطة التي تنشأ عن الكسل أحيانا كثيرة . كل هذا يتفق مع أغراض التعليم الأساسية ، لأننا بتشجيعنا للنشاط والاجتهاد والطهارة نكون في توافق وانسجام مع الخالق .

على الشباب أن يفهموا الغاية من خلقهم – وهي تمجيد الله ومباركة بني جنسهم . عليهم أن يروا المحبة الرقيقة التي قد أظهرها لهم الآب السماوي . والنصيب العظيم السامي الذي سيعدهم له التدريب الذي يتلقونه في هذه الحياة – العظمة والكرامة اللتين يدعون إليهما ، أي أن يصيروا أبناء الله – وإن آلافا من الناس سيتحولون بكل احتقار ونفور عن الأغراض الأنانية المنحطة والمسرات الطائشة التافهة التي كانوا قد انغمسوا فيها . وسيتعلمون أن يكرهوا الخطية وينبذوها ليس لمجرد الخوف من العقاب أو الطمع في الثواب ، بل بسبب خستها ودناءتها الملازمة لها ، لأنها تحط من قدر قواهم المعطاة لهم من الله ، وتلطخ رجولتهم وكرامتهم .

إن الله لا يأمر الشباب أن يخفضوا من آمالهم وانتظاراتهم ، كما أن عناصر الخلق التي تجعل الإنسان ناجحا ومكرما بين الناس – والرغبة التي لا تقهر في طلب خير أعظم ، والإرادة التي لا تغلب والاجهاد العنيف والمواظبة التي لا تعرف الكلال – كل

هذه يجب ألا تسحق وتكبت . فبنعمة الله يجب أن يوجهوا إلـــى أغــراض أســمى مــن المصالح الأنانية والوقتية كعلو السماء عن الأرض . وإن التهذيب الذي يبــدأ فــي هــذه الحياة سيمتد إلى الحياة العتيدة . ويوما فيوما ستنكشف أمام العقل ، في جمـــال جديــد ، أعمال الله العجيبة والبراهين على حكمته وقدرته في خلق المسكونة وإعالـــة ســاكنيها ، وسر المحبة والحكمة غير المدركتين في تدبير الفداء ، «مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ : مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ» (١كورنثوس ٢ : ٩) وحتــى فــي هذه الحياة يمكننا أن نرى لمحات من حضور الله ونذوق أفراح الشــركة مــع الســماء . ولكننا سنصل إلى فرحها وبركتها في الأبدية . إن الأبدية وحدها تستطيع أن تكشف لنـــا عن النصيب المجيد الذي سيحصل عليه الإنسان الذي أعيد إلى صورة الله .

الفصل التاسع والخمسون

أول ملوك إسرائيل

إن حكومة إسرائيل كانت مدبرة باسم الله وسلطانه ، ولم يكن عمل موسى أو الشيوخ السبعين أو الحكام أو القضاة إلا تنفيذ القوانين التي قد أعطاها الله ، فلم يكن لهم السلطان أن يسنوا شريعة للأمة وظل هو الشرط لبقاء إسرائيل كأمة . ومن جيل إلى جيل أرسل الله رجالا موحى إليهم لتعليم الشعب وتوجيههم إلى تنفيذ شرائعه والعمل بها .

لقد سبق الرب فرأى أن بني إسرائيل سيطلبون ملكا ، ولكنه لم يرض بإجراء أي تغيير في المبادئ التي كانت ستبنى عليها الحكومة . فالملك ينبغي أن يكون نائبا عن الله العلي ، كما كان يجب اعتبار الله رأسا للأمة ، ويجب أن تنفذ شريعته على أنها أسمى شرائع البلاد .

إن الإسرائيليين حين سكنوا أولا في كنعان اعترفوا بمبادئ الحكومة الإلهية ، فنجحت الأمة تحت حكم يشوع . ولكن تكاثر عدد السكان واختلاطهم بالأمم الأخرى أحدث تغييرا ، إذ اختار الشعب لأنفسهم كثيرا من عادات جيرانهم الوثنيين ، وهكذا ضحوا ، إلى درجة كبيرة ، بميزتهم المقدسة الخاصة . وبالتدريج انتزع من قلوبهم توقير الله وما عادوا يقيمون وزنا لشرف كونهم شعبه المختار . وإذ اجتذبت اهتمامهم مظاهر أبهة الملوك الوثنيين وتفاخرهم ضجر أولئك الإسرائيليون من بساطتهم ، فنشأت بين الأسباط والغيرة والحسد ، كما قد أضعفتهم المنازعات الداخلية . وكانوا على الدوام معرضين لخطر الغزو من أعدائهم الوثنيين ، وبدأ الشعب يعتقدون أنهم لكي يثبتوا أقدامهم ويوطدوا مركزهم بين الأمم يجب أن تتحد كل الأسباط تحت لواء حكومة مركزية قوية . وإذ طرحوا عنهم الطاعة لشريعة الله ، رغبوا في التحرر من حكم ملكهم الإلهي . وهكذا انتشرت في كل أنحاء بلاد إسرائيل الرغبة في قيام حكومة ملكية .

منذ أيام يشوع لم تكن الحكومة تسوس الأمة بحكمة عظيمة وسداد ونجاح كما كانت

تحت إدارة صموئيل . وعندما قلده الله ذلك المنصب الثلاثي منصب القاضي والنبي والكاهن كان يعمل جاهدا بلا كلال وبغيرة نزيهة لا تهدأ لأجل خير شعبه ، فنجحت الأمة تحت إدارته الحكيمة واستتب النظام وراجت التقوى وقضي على روح التذمر إلى حين . ولكن بمضي السنين اضطر النبي إلى أن يشرك معه آخرين في حمل أعباء الحكم ، فعين ابنيه ليكونا مساعدين له . وحين كان صموئيل يقوم بأعباء وظيفته في الرامة كان ابناه الشابان يعملان في بئر سبع في توطيد أركان العدالة بين الشعب بالقرب من الحدود الجنوبية للبلاد .

إن صموئيل كان قد أقام ابنيه في تلك الوظيفة بناء على رضى رجال الأمة أو موافقتهم التامة ، ولكنهما برهنا على عدم استحقاقهما لاختيار أبيهما . كان الله قد أعطى لشعبه بواسطة موسى تعليمات خاصة بمقتضاها كان يجب على قضاة إسرائيل أن يحكموا بالعدل ، وأن ينصفوا الأرملة واليتيم وألا يأخذوا رشوة من أحد ، ولكن ابني صموئيل «مَالاَ وَرَاءَ الْمَكْسَبِ ، وَأَخَذَا رَشْوَةً وَعَوَّجَا الْقَضَاءَ» . إن ابني النبي لم يلتفتا إلى تلك الوصايا التي قصد أن ينقشها على عقليهما . إنهما لم يقتبسا شيئا من حياة أبيهما الطاهرة المنكرة لذاتها . إن الإنذار الذي كان قد قدم لعالي لم يؤثر في عقل صموئيل التأثير الكافي ، بل كان إلى حد ما محبا لابنيه محبة زادت عن الحد ، فظهرت نتيجة ذلك في أخلاقهما وحياتهما .

وقد أثار ما ارتكبه ذانك القاضيان من ظلم ، كثيرا من التذمر ، كما وجد الشعب في ذلك ذريعة لتغيير نوع الحكم ، الأمر الذي كان كثيرون لمدة طويلة يتوقون إليه في قلوبهم ، «فَاجْتَمَعَ كُلُّ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ وَجَاءُوا إِلَى صَمُوئِيلَ إِلَى الرَّامَةِ وَقَالُوا لَهُ : هُوَذَا أَنْتَ قَدْ شِخْتَ ، وَابْنَاكَ لَمْ يَسِيرَا فِي طَرِيقِكَ . فَالآنَ اجْعَلْ لَنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا كَسَائِرِ الشُّعُوبِ» (انظر ١صموئيل ٨-١٢) إن الشعب لم يخبروا صموئيل بشيء عن الحالات التي فيها أساء ابناه في حكمهما بين الشعب . فلو كان قد سمع أو علم بالمسلك الشرير الذي سلكه ابناه لكان قد عزلهما بلا إبطاء . ولكن مقدمي العريضة لم يكونوا يرمون إلى هذا . رأى صموئيل أن الدافع الحقيقي لهم هو البطر والكبرياء ، وأن طلبهم جاء نتيجة لغاية متعمدة كانوا قد صمموا على تنفيذها . إن أحدا لم يقدم شكوى في حق صموئيل ،

فلقد اعترف الجميع باستقامته وحسن إدارته . ولكن ذلك النبي الشيخ نظر إلى ذلك الطلب على أنه انتقاد لشخصه ومسعى مباشر لعزله . ومع ذلك لم يظهر شعوره ولم ينطق بكلمة توبيخ . ولكنه عرض المسألة أمام الله في الصلاة وطلب المشورة منه وحده .

فقال الرب لصموئيل : «اسْمَعْ لِصَوْتِ الشَّعْبِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَ لَكَ ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ بَلْ إِيَّايَ رَفَضُوا حَتَّى لاَ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ . حَسَبَ كُلِّ أَعْمَالِهِمِ الَّتِي عَمِلُوا مِنْ يَوْمِ أَصْعَدْتُهُمْ مِنْ مِصْرَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ وَتَرَكُونِي وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى ، هكَذَا هُمْ عَامِلُونَ بِكَ» وقد توبخ النبي لكونه حزن بسبب تصرف الشعب حياله كفرد . إنهم لم يبدوا استخفافا به بل بسلطان الله الذي قد أقام الحكام لشعبه . فأولئك الذين يحتقرون خادم الله الأمين ويرفضونه لا يوجهون احتقارهم إلى ذلك الخادم وحده بل إلى السيد الذي قد أرسله . إن كلام الله وتوبيخاته ومشورته هي التي احتقرت ، وسلطانه هو الذي قد رفض .

إن الأيام التي أصاب فيها شعب إسرائيل أعظم نجاح هي الأيام التي فيها أعترفوا بالرب ملكا عليهم – حين اعتبرت القوانين التي وضعها والحكم الذي أجراه أسمى وأعظم من كل قوانين الأخرى وأحكامها . لقد أعلن موسى عن وصايا الرب قائلا : «لأَنَّ ذلِكَ حِكْمَتُكُمْ وَفِطْنَتُكُمْ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كُلَّ هذِهِ الْفَرَائِضِ، فَيَقُولُونَ: هذَا الشَّعْبُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا هُوَ شَعْبٌ حَكِيمٌ وَفَطِنٌ» (تثنية ٤ : ٦) ولكن العبرانيين إذ ارتدوا عن شريعة الله أخفقوا في أن يكونوا هم الشعب الذي قصد الله أن يكون ، وقالوا حينئذ إن سبب كل الشرور التي نجمت عن خطيتهم وجهالتهم هو حكم الله – إلى هذا الحد أعمتهم الخطية .

كان الله قد تنبأ على أفواه أنبيائه أن إسرائيل سيحكمه ملك ، ولكن لا يستنتج من هذا أن نظام الملكية كان أفضل نظام لهم أو أنه متفق مع إرادة الله . لقد سمح للشعب أن يختاروا ما يشاؤون لأنهم رفضوا الانقياد لمشورته . وأعلن النبي هوشع أن الله أعطى شعبه ملكا في غضبه (هوشع ١٣ : ١١) . وحين يختار الناس طريقهم بأنفسهم دون أن يطلبوا مشورة الله ، أو يسيرون ضد إرادته المعلنة فهو في الغالب يجيبهم إلى رغائبهم حتى ، عن طريق اختبارهم المحزن المرير الذي يتبع ذلك ، يدركوا جهالتهم ويتوبوا عن خطيتهم . إن كبرياء الإنسان وحكمته الذاتية هما مرشد خطر . إن ما يشتهيه الإنسان ضدا لإرادة الله سيكون في النهاية لعنة لا بركة .

أراد الله أن ينظر شعبه إليه وحده على أنه المشترع لهم ونبع قوتهم . فإذ يحسون باعتمادهم على الله يكون ذلك جاذبا يقربهم إليه أكثر دائما . ثم يسمو شأنهم ويحصلون على الشرف والنبل ، ويكونون أهلا لذلك المقام العظيم الذي دعاهم إليه كشعبه المختار . ولكن متى أجلس الإنسان على العرش فإن ذلك يحوّل أفكار الناس بعيدا عن الله إذ أنهم يثقون بالقوة البشرية كثيرا ولا يثقون بقوة الله إلا في القليل النادر ، كما أن أخطاء ملكهم ستقودهم لارتكاب الخطية فتفصل الأمة عن الله .

أمر الله صموئيل أن يجيب الشعب إلى طلبهم ، وألا ينسى أن ينذرهم باستنكار الله لذلك الطلب ، وأن يبصرهم بنتيجة تصرفهم . «فَكَلَّمَ صَمُوئِيلُ الشَّعْبَ الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْهُ مَلِكًا بِجَمِيعِ كَلاَمِ الرَّبِّ» وبكل أمانة صور لهم الأعباء التي ستوضع عليهم ، وأبان لهم الفرق بين حالة الظلم تلك والحالة الحاضرة ، حالة الحرية والنجاح النسبيين . إن ملكهم سيتشبه بالملوك الآخرين في مظاهر الأبهة والترف والتنعم . ولكي يسد هذه الحاجة فهو سيبتز أموالهم ويسخرهم في قضاء أعماله ، وسيطلب منهم أن يعطوه بنيهم الحسان ليخدموه فيجعلهم سائقي مركباته وفرسانه وبعضهم يجرون أمامه ، وعليهم أن ينخرطوا في سلك جيشه . وسيطلب منهم أن يحرثوا حراثته ويحصدوا حصاده ويعملوا لخدمته عدة حربه وأدوات مراكبه . وسيأخذ بنات إسرائيل ليعملن عطارات وطباخات وخبازات لبيت الملك . ولكي يدعم حكومته الملكية سيأخذ أجود أراضيهم التي قد أنعم بها عليهم الرب نفسه . وسيأخذ أنفع عبيدهم ومواشيهم «يَسْتَعْمِلُهُمْ لِشُغْلِهِ» . زد على ذلك أنه سيطلب منهم عشر دخلهم كله وأرباح تعبهم أو محاصيل أرضهم . ثم ختم النبي كلامه بالقول : «وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لَهُ عَبِيدًا . فَتَصْرُخُونَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مِنْ وَجْهِ مَلِكِكُمُ الَّذِي اخْتَرْتُمُوهُ لأَنْفُسِكُمْ ، فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمُ الرَّبُّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ» ، ومع فداحة المطاليب المفروضة عليهم فمتى تثبت نظام الملكية فلن يستطيعوا التخلص منه متى أرادوا .

ولكن الشعب ردوا عليه جوابا قائلين : «لاَ بَلْ يَكُونُ عَلَيْنَا مَلِكٌ ، فَنَكُونُ نَحْنُ أَيْضًا مِثْلَ سَائِرِ الشُّعُوبِ ، وَيَقْضِي لَنَا مَلِكُنَا وَيَخْرُجُ أَمَامَنَا وَيُحَارِبُ حُرُوبَنَا» .

«مِثْلَ سَائِرِ الشُّعُوبِ» . إن الإسرائيليين لم يكونوا مدركين أن اختلافهم عن سائر الشعوب في هذا الأمر كان امتيازا خاصا وبركة عظيمة . لقد أفرزهم الله من بين الشعوب ليجعلهم

606.607

خاصة لنفسه (كنزا خاصا) . ولكنهم إذ استخفوا بهذا الشرف العظيم اشتاقوا وتلهفوا إلى التشبه بالوثنيين ! ولا يزال هذا التشوق للتمثل بأهل العالم في ممارساتهم وعاداتهم متفشيا بين المدعوين شعب الله . وعندما يبتعدون عن الرب يطمعون في أرباح العالم وكراماته . إن كثيرين ممن يدعون مسيحيين يحاولون دائما أن يعملوا الأعمال التي يمارسها الذين يتعبدون لإله هذا العالم . وكثيرون يقولون إنهم بارتباطهم بأهل العالم وتشبههم بهم في عاداتهم قد يؤثرون في الأشرار تأثيرا صالحا . ولكن كل من يسيرون في هذا الطريق هم بذلك يفصلون أنفسهم عن نبع قوتهم . فإذ يصادقون العالم يصيرون أعداء الله . ففي سبيل الرفعة والوجاهة العالميتين يضحون بالمجد الذي لا يعبر عنه الذي قد دعاهم الله إليه ، مجد التحدث بفضل الرب الذي دعاهم من الظلمة الى نوره العجيب (١بطرس ٢ : ٩) .

وبحزن عميق استمع صموئيل لكلام الشعب ، ولكن الرب قال له : «اسْمَعْ لِصَوْتِهِمْ وَمَلِّكْ عَلَيْهِمْ مَلِكًا» لقد قام النبي بواجبه إذ قدم إليهم الإنذار بكل أمانة ولكنهم رفضوا الإنذار ، وبقلب مثقل بالأحزان صرف الشعب ، وانصرف هو ليعد العدد لذلك التغير العظيم فى نظام الحكم .

إن حياة الطهارة والتكريس غير الأناني التي عاشها صموئيل كانت توبيخا مستمرا للكهنة الذين كانوا يخدمون أنفسهم ، وللشيوخ ، ولجماعة إسرائيل المتكبرين الشهوانيين . ومع أنه لم يدَّعِ لنفسه العظمة ولم يكن محبا للمظاهر فإن أعماله كانت تحمل طابع السماء . لقد أكرمه فادي العالم الذي تحت إرشاده حكم على أمة العبرانيين . ولكن الشعب باتوا ضجرين من تقواه وتعبده ، فازدروا سلطته المتواضعة ورفضوه وأرادوا استبداله برجل يحكم عليهم كملك .

إننا نرى في أخلاق صموئيل صورة المسيح منعكسة عليه . إن طهارة حياة مخلصنا هي التي أثارت غضب الشيطان . وكانت تلك الحياة هي نور العالم إذ كشفت عن الفساد الرابض في قلوب الناس . إن قداسة المسيح هي التي أثارت ضده أشد العداوة والغضب في قلوب المخادعين ممن يدعون التقوى . فالمسيح لم يأت بثروة الأرض وأمجادها ، ومع ذلك فالأعمال التي عملها برهنت على أنه يملك قوة تفوق قوة أعظم ملوك الأرض . كان اليهود ينتظرون مجيء مسيا ليكسر نير الغاصبين الظالمين ، ومع ذلك فقد كانوا يحتضنون الخطايا التي وضعت ذلك النير فوق أعناقهم . فلو كان المسيح قد ستر

خطاياهم وامتدح تقواهم لكانوا قبلوه ملكا عليهم ، ولكنهم لم يستطيعوا احتمال توبيخه الجريء لرذائلهم ، فازدروا جمال الخُلُق الذي فيه ملك الإحسان والطهارة والقداسة ، والذي لم يبغض غير الخطية . وهكذا كانت الحال في كل جيل من أجيال العالم أن النور المنبثق من السماء يجلب الدينونة على كل من يرفضون السير فيه فالمراؤون متى توبخوا بمثال من يبغضون الخطية يصيرون آلات في يد الشيطان لإزعاج الأمناء واضطهادهم «وَجَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهَدُونَ» (٢تيموثاوس ٣ : ١٢) .

ومع أن الأنبياء كانوا قد تنبأوا بقيام حكم ملكي لإسرائيل فإن الله احتفظ لنفسه بحق اختيار ملكهم . وإلى الآن كان العبرانيون لا يزالون يحترمون سلطان الله فتركوا له أمر اختيار الملك بجملته . وقد وقع الاختيار على شاول بن قيس من سبط بنيامين .

إن الصفات الشخصية للملك العتيد كانت كافية لإشباع كبرياء القلب التي أوعزت إلى الشعب بالرغبة في طلب ملك . «وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحْسَنَ مِنْهُ» (صموئيل الأول ٩ : ٢) كان ذا هيئة نبيلة وجليلة وفي ربيع الحياة ، كما كان جميلا طويل القامة ، وقد بدا كمن قد ولد ليأمر ويحكم . ولكن مع هذه الصفات الخارجية الجذابة كان شاول خاليا تماما ومجردا من الصفات السامية التي تشتمل على الحكمة الحقيقية . إنه لم يتعلم في شبابه التحكم في ضبط أهوائه الطائشة المتهورة ، ولم يحس قط بقوة النعمة الإلهية المجددة .

لقد كان شاول ابن رئيس قوي واسع الثراء ، ولكن تبعا لبساطة تلك العصور القديمة كان يعمل مع أبيه في القيام بأعباء الفلاحة الوضيعة . فإذ ضلت بعض أتن أبيه فوق الجبال ذهب شاول مع أحد الغلمان للبحث عنها . وقد ظلا ثلاثة أيام يواصلان البحث بلا جدوى ، ولما صارا قريبين من الرامة موطن صموئيل اقترح الغلام أن يذهبا ليسألا النبي عن الأتن الضالة . قال الغلام : « هُوَذَا يُوجَدُ بِيَدِي رُبْعُ شَاقِلِ فِضَّةٍ فَأُعْطِيهِ لِرَجُلِ اللهِ فَيُخْبِرُنَا عَنْ طَرِيقِنَا » هكذا كانت العادة في تلك الأيام . فالذي كان يقترب ممن هو أسمى منه في المقام أو الوظيفة كان يقدم له هدية صغيرة تعبيرا عن احترامه له .

وفيما هما يقتربان من المدينة التقيا بعض فتيات خارجات لاستقاء الماء فسألاهن عن

الرائي فأجبنهما بأن خدمة دينية ستقام وشيكا ، وأن النبي قد وصل ، فستقدم ذبيحة على «الْمُرْتَفَعَةِ» ويعقب ذلك وليمة مقترنة بتقديم ذبيحة . لقد حدث تغيير عظيم في العبادة تحت إدارة صموئيل . فحين ناداه الله أولا كانت خدمات المقدس محتقرة ، «لأَنَّ النَّاسَ اسْتَهَانُوا بِتَقْدِمَةِ الرَّبِّ» (١صموئيل ٢ : ١٧) ولكن عبادة الله الآن صارت مرعية في كل البلاد ، والناس أظهروا اهتمامهم بالخدمات الدينية . وحيث أنه لم تكن خدمات في خيمة الاجتماع ، لم تكن الذبائح تقدم فيها ، وقد اختيرت مدن الكهنة واللاويين التي كان الناس يجيئون إليها ليتعلموا ، لهذا الغرض . وكانت أرفع الأماكن في هذه المدن تختار عادة لتقديم الذبائح ، ولذلك سميت مرتفعات .

وعند باب المدينة التقى شاول بالنبي نفسه . وقد كشف الله لصموئيل أنه في ذلك الوقت سيمثل أمامه ملك إسرائيل المختار . وإذ وقفا الآن وجها لوجه قال الرب لصموئيل «هُوَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَلَّمْتُكَ عَنْهُ . هذَا يَضْبِطُ شَعْبِي» .

فلما سأل شاول صموئيل قائلا : «أَطْلُبُ إِلَيْكَ : أَخْبِرْنِي أَيْنَ بَيْتُ الرَّائِي ؟» أجابه صموئيل بقوله : «أَنَا الرَّائِي» وإذ أكد له أن الأتن الضالة قد وجدت ألح عليه بالبقاء وحضور الوليمة ، وفي نفس الوقت لمّح له عن المستقبل العظيم الذي ينتظره قائلا له : «وَلِمَنْ كُلُّ شَهِيِّ إِسْرَائِيلَ ؟ أَلَيْسَ لَكَ وَلِكُلِّ بَيْتِ أَبِيكَ ؟» فاهتزت مشاعر شاول حين سمع كلام النبي ، وأدرك بعض معاني هذا الكلام ، لأن أمر طلب ملك كان موضوع اهتمام الأمة كلها . فأجاب شاول في تواضع محقرا من شأن نفسه : «أَمَا أَنَا بَنْيَامِينِيٌّ مِنْ أَصْغَرِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ ، وَعَشِيرَتِي أَصْغَرُ كُلِّ عَشَائِرِ أَسْبَاطِ بَنْيَامِينَ ؟ فَلِمَاذَا تُكَلِّمُنِي بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَمِ ؟» .

اقتاد صموئيل ذلك الغريب إلى مكان الاجتماع حيث كان عظماء المدينة مجتمعين . فأعطي شاول مكانا على رأس المدعوين بناء على تعليمات صموئيل . وعلى مائدة الوليمة وضع أمامه أفضل نصيب . ولما انتهت الخدمة أخذ صموئيل شاول إلى بيته حيث تحدث معه على السطح ، مبينا له المبادئ العظيمة التي بني عليها حكم إسرائيل ، وهكذا حاول ، إلى حد ما ، أن يعده لمركزه السامي .

فلما قام شاول لينصرف في صبيحة اليوم التالي خرج معه النبي ليشيعه وفيما كانا سائرين في شوارع المدينة أمر الغلام أن يتقدمهما . ثم أمر شاول أن يقف ساكنا ليستمع للرسالة

609,610

المرسلة إليه من الله : «فَأَخَذَ صَمُوئِيلُ قِنِّينَةَ الدُّهْنِ وَصَبَّ عَلَى رَأْسِهِ وَقَبَّلَهُ وَقَالَ : «أَلَيْسَ لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ مَسَحَكَ عَلَى مِيرَاثِهِ رَئِيسًا ؟» ولكي يبرهن له على أن هذا قد تم بسلطان الله أنبأه بالحوادث التي ستعرض له في طريق عودته إلى بيته . ثم أكد شاول أن روح الله سيؤهله للمركز الذي ينتظره . قال له النبي : «فَيَحِلُّ عَلَيْكَ رُوحُ الرَّبِّ ... وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ . وَإِذَا أَتَتْ هذِهِ الآيَاتُ عَلَيْكَ ، فَافْعَلْ مَا وَجَدَتْهُ يَدُكَ ، لأَنَّ اللهَ مَعَكَ» .

ولما سار شاول في طريقه تم كل ما قاله له النبي . فعند تخم بنيامن قيل له أن الأتن قد وجدت . وعند بلوطة تابور صادف ثلاثة رجال صاعدين ليسجدوا لله في بيت ايل . وقد حمل أحدهم ثلاثة جداء لتقدم ذبيحة ، وكان آخر يحمل ثلاثة أرغفة خبز والثالث كان يحمل زق خمر لأجل الوليمة المقترنة بتقديم ذبيحة ، فسلموا عليه وقدموا له رغيفي خبز من الثلاثة . فلما وصل إلى جبعة التي هي مدينته كانت زمرة عن الأنبياء نازلين من المرتفعة وهم يسبحون الله بموسيقى ناي وقيثارة وسنطير وعود ، فلما اقترب شاول منهم حل عليه روح الرب فاشترك في تسابيح الحمد وتنبأ معهم . وقد تكلم بكل طلاقة وحكمة واشترك في الخدمة بكل حماسة وغيرة ، حتى إن أولئك الذين كانوا يعرفونه من قبل صاحوا قائلين باندهاش : «مَاذَا صَارَ لابْنِ قَيْسٍ ؟ أَشَاوُلُ أَيْضًا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ ؟» .

وإذ اشترك شاول مع الأنبياء في عبادتهم حدث له تغيير عظيم بفعل الروح القدس . فأشرق نور الطهارة والقداسة على ظلمة القلب الطبيعي ، ورأى نفسه كما هو أمام الله ، كما رأى جمال القداسة . لقد دعي الآن ليثير حربا على الخطية والشيطان ، فبدأ يشعر أن في هذه الحرب ينبغي له أن يستمد العون من الله وحده . ثم أن تدبير الخلاص الذي كان قبلا غير واضح المعالم وغير مؤكد انكشف أمام ذهنه . وقد منحه الله شجاعة وحكمة تليقان بمركزه السامي ، كما قد أعلن له عن نبع القوة والنعمة وأنار بصيرته لمعرفة مطاليب الله وواجبه المطلوب منه .

لم تكن الأمة قد علمت بأن شاول قد مسح ملكا . إذ كان يجب إعلان اختيار الله لجمهور الشعب عن طريق القرعة . ولهذه الغاية دعا صموئيل الشعب للاجتماع في المصفاة . وقد رفعت إلى الله صلاة في طلب الإرشاد ، وحينئذ بُدئ بالحفلة المقدسة لأجل الاقتراع ، وانتظر ذلك الجمهور النتيجة بسكون . فعين السبط والعشيرة والبيت على

التوالي ، وحينئذ أشير إلى شاول بن قيس أنه الشخص المختار . ولكنه لم يكن موجودا بين تلك الجماعة . فإذ كان شاول يحس بثقل المسؤولية التي يوشك أن يضطلع بها انسحب من بينهم سرا . ولكنه أعيد إلى تلك الجماعة ، وقد شخص إليه أولئك القوم بكل فخر ورضى ورأوا أن هيئته هيئة الملك ومنظرة منظر النبل ، إذ كان «أَطْوَلَ مِنْ كُلِّ الشَّعْبِ مِنْ كَتِفِهِ فَمَا فَوْقُ» وحتى صموئيل نفسه حين قدمه إلى الشعب قال «أَرَأَيْتُمُ الَّذِي اخْتَارَهُ الرَّبُّ ، أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي جَمِيعِ الشَّعْبِ ؟» فجاء الجواب من أفواه ذلك الجمع الغفير قائلين بصوت عال : «لِيَحْيَ الْمَلِكُ !» .

حينئذ بسط صموئيل أمام الشعب «قَضَاء الْمَمْلَكَةِ» ، مبينا لهم المبادئ التي ترتكز عليها الملكية والتي ينبغي السير بموجبها . إذ ينبغي ألا يكون حكم الملك حكما مطلقا بل عليه أن يخضع قوته لإرادة الله العلي . وقد كتب هذا الخطاب في سفر دونت فيه أيضا حقوق الملك وحقوق الشعب وامتيازاتهم . ومع أن الشعب كانوا قد استخفوا بإنذارات صموئيل فإن ذلك النبي الأمين إذ كان مجبرا على الخضوع لرغباتهم حاول على قدر الإمكان أن يحرص على حرياتهم .

وفي الوقت الذي كان فيه الشعب كله على وجه عام مستعدين للاعتراف بشاول ملكا عليهم ، فقد كان يوجد حزب كبير يعارض في ذلك . إن اختيار ملك من بنيامين أصغر أسباط إسرائيل – وإغفال سبطي يهوذا وأفرايم الذين هما أكبر الأسباط وأقواها – كان إهانة وتحقيرا لم يستطيعوا احتمالهما أو الصبر عليهما . فرفضوا الاعتراف بولائهم لشاول أو تقديم الهدايا المعتادة له . فأولئك الذين كانوا يلحون أكثر من غيرهم في طلب ملك كانوا هم أنفسهم الذين رفضوا أن يقبلوا ، بشكر ، الرجل المعين من الله . كان لكل حزب محبوبه الذي أرادوا أن يجعلوه ملكا ، وكثيرون من القادة كانوا يرغبون في المجد لأنفسهم أي أن يجلسوا على العرش ، فغلت الغيرة والحسد في صدور كثيرين من الشعب ، ولذلك نجم عن محاولات الكبرياء والطموح الخيبة والتبرم .

في هذه الحالة لم يرَ شاول أنه من المناسب أن يدعي لنفسه الحق في عظمة الملك . وإذ ترك لصموئيل ليقوم بأعباء الحكم كالسابق عاد هو إلى جبعة . وقد رافقته ، إلى بيته بكل أكرام لحمايته ، جماعة من الشعب الذين ، إذ رأوا يد الله ظاهرة في اختياره ، صمموا على

مناصرته . ولكنه لم يبذل أية محاولة ليحصل بالقوة على حقه في اعتلاء العرش . وفي مدينته في أرض بنيامين جعل يزاول بكل هدوء عمله كفلاح تاركا تثبيت سلطانه لله كلية .

ولكن حالا بعد ما أقيم شاول ملكا غزا العمونيون تحت قيادة ملكهم ناحاش إقليم الأسباط الواقع شرقي الأردن وجعلوا يهددون مدينة يابيش جلعاد ، فحاول السكان أن يعقدوا صلحا مع أولئك القوم وعرضوا عليهم أن يدفعوا الجزية لبني عمون . ولكن ذلك الملك القاسي لم يرض بذلك إلا على شرط تقوير كل عين يمنى لكل فرد من سكان تلك المدينة ليكونوا شهودا دائمين لقوته وبطشه .

وقد طلب سكان تلك المدينة المحاصرة إمهالا لمدة سبعة أيام فأجابهم العمونيون إلى طلبهم إذ كانوا يظنون أنهم بذلك يزيدون من مجد انتصارهم المنتظر . فأرسل في الحال رسل من يابش يطلبون العون من الأسباط الساكنين غربي الأردن ، وقد نقلوا إلى جبعة الأنباء التي نشرت الذعر بين الشعب . وإذ كان شاول عائدا من رعاية المواشي في وقت المساء سمع أصوات العويل التي دلت على وقوع كارثة عظيمة . فسأل قائلا : «مَا بَالُ الشَّعْبِ يَبْكُونَ ؟» ولما خبروه بتلك القصة المشينة استيقظت كل قواه الهاجعة . «فَحَلَّ رُوحُ اللهِ عَلَى شَاوُلَ ... فَأَخَذَ فَدَّانَ بَقَرٍ وَقَطَّعَهُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ بِيَدِ الرُّسُلِ قَائِلاً : مَنْ لاَ يَخْرُجُ وَرَاءَ شَاوُلَ وَوَرَاءَ صَمُوئِيلَ ، فَهكَذَا يُفْعَلُ بِبَقَرِهِ» .

فاجتمع من بني إسرائيل في سهل بازق ثلاث مئة وثلاثون ألف رجل تحت قيادة شاول . وفي الحال أرسل رسل إلى المدينة المحاصرة يؤكدون لهم أن النجدة ستأتيهم في الغد وفي نفس اليوم الذي سيسلمون أنفسهم فيه للعمونيين . وعندما سار شاول وجيشه سيرا حثيثا متواصلا طول الليل عبروا الأردن ووقفوا أمام يابيش «عِنْدَ سَحَرِ الصُّبْحِ» . وإذ قسم جيشه إلى ثلاث فرق كما فعل جدعون من قبل ضربوا محلة العمونيين في ذلك الصباح الباكر ، لأن العمونيين إذ لم يكونوا يتوقعون خطرا ، لم يكونوا في حذر من الهلاك . فهزموا شر هزيمة وقتل منهم كثيرون إذ استولى عليهم الرعب «وَالَّذِينَ بَقُوا تَشَتَّتُوا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ اثْنَانِ مَعًا» .

إن نشاط شاول وقوة عزمه وشجاعته وحسن قيادته للجيش التي ظهرت في قيادته الناجحة لذلك الجيش العظيم – كل هذه الصفات كانت هي التي رغب شعب إسرائيل أن تتوافر في

ملكهم حتى يمكنهم الصمود في كفاحهم مع الأمم الأخرى . وقد هتفوا له الآن على أنه ملكهم ونسبوا مجد الانتصار لعوامل بشرية ، ناسين أنه لولا بركة الله الخاصة لأمست كل جهودهم باطلة . وقد تحمس بعض منهم ، فاقترحوا أن يقتل أولئك الذين رفضوا أولا الاعتراف بسلطان شاول ملكا . ولكن الملك اعترض قائلا : «لاَ يُقْتَلْ أَحَدٌ فِي هذَا الْيَوْمِ ، لأَنَّهُ فِي هذَا الْيَوْمِ صَنَعَ الرَّبُّ خَلاَصًا فِي إِسْرَائِيلَ» لقد برهن شاول بهذا على حقيقة التغير الذي حدث في أخلاقه . فعوضا عن أن ينسب المجد لنفسه أعطى المجد لله ، وبدلا من أن يفكر بالانتقام أظهر روح الشفقة والغفران . وهذا برهان لا يخطئ على أن نعمة الله تسكن في القلب .

حينئذ اقترح صموئيل أن يُستدعى رجال الأمة لحضور اجتماع وطني في الجلجال لكي يتثبت الملك لشاول علنا ، وقد تم ذلك «وَذَبَحُوا هُنَاكَ ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ أَمَامَ الرَّبِّ . وَفَرِحَ هُنَاكَ شَاوُلُ وَجَمِيعُ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ جِدًّا» .

لقد كانت الجلجال هي أول مكان حل فيه بنو إسرائيل في أرض الموعد ، وفي هذا المكان أقام يشوع امتثالا لأمر الرب عمودا من اثني عشر حجرا تذكارا لعبور الشعب في نهر الأردن بطريقة عجائبية ، وفي هذا المكان أيضا جدد الختان ، كما عملوا الفصح لأول مرة بعد الخطية التي ارتكبها الشعب في قادش والجولان في القفر ، وفي هذا المكان انقطع المن ، وفي هذه البقعة أيضا أعلن رئيس جند الرب نفسه كرئيس وقائد جيوش إسرائيل ، ومن هذا المكان ساروا إلى أريحا التي سقطت أسوارها وغزوا عاي وامتلكوها ، وفي هذا المكان نال عخان جزاء خيانته ، وفيه أيضا عقدت مع الجبعونيين تلك المحالفة التي كانت قصاصا لإسرائيل على إهمالهم في طلب مشورة الرب . ففي هذا السهل الذي يرتبط بذكريات كثيرة تهز المشاعر وقف صموئيل وشاول . ولما انتهى الشعب من ترديد هتافات الترحيب بالملك جعل ذلك النبي الشيخ يخاطب الشعب بكلماته الوداعية كحاكم للأمة قائلا :

«هأَنَذَا قَدْ سَمِعْتُ لِصَوْتِكُمْ فِي كُلِّ مَا قُلْتُمْ لِي وَمَلَّكْتُ عَلَيْكُمْ مَلِكًا . وَالآنَ هُوَذَا الْمَلِكُ يَمْشِي أَمَامَكُمْ . وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ شِخْتُ وَشِبْتُ ... وَأَنَا قَدْ سِرْتُ أَمَامَكُمْ مُنْذُ صِبَايَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ . هأَنَذَا فَاشْهَدُوا عَلَيَّ قُدَّامَ الرَّبِّ وَقُدَّامَ مَسِيحِهِ : ثَوْرَ مَنْ أَخَذْتُ ؟ وَحِمَارَ مَنْ أَخَذْتُ ؟ وَمَنْ ظَلَمْتُ ؟ وَمَنْ سَحَقْتُ ؟ وَمِنْ يَدِ مَنْ أَخَذْتُ فِدْيَةً لأُغْضِيَ عَيْنَيَّ عَنْهُ ، فَأَرُدَّ لَكُمْ ؟» .

فأجابوه بصوت واحد قائلين : «لَمْ تَظْلِمْنَا وَلاَ سَحَقْتَنَا وَلاَ أَخَذْتَ مِنْ يَدِ أَحَدٍ شَيْئًا» .

إن صموئيل لم يكن يقصد من هذا أن يبرر مسلكه وعمله فحسب . لقد سبق له أن أعلن المبادئ التي يجب أن يسلك بموجبها الشعب والملك ، وكان يريد أن يضيف إلى كلامه قوة مثاله الصالح وحياته النزيهة . لقد كان على اتصال بعمل الله منذ طفولته . وفي مدة حياته الطويلة كان أمامه هدف واحد – مجد الله وخير إسرائيل .

ولكن قبلما يكون هناك أمل في نجاح إسرائيل ينبغي لهم أن يتوبوا أمام الله ، إذ كان من نتائج خشيتهم أنهم أضاعوا إيمانهم بالله وإدراكهم لقدرته وحكمته في حكم الأمة – أضاعوا ثقتهم في قدرته على تزكية عمله وتثبيته . فقبلما يجدون السلام الحقيقي ينبغي لهم أن يروا خطيتهم التي قد ارتكبوها ويعترفوا بها . لقد سبق لهم أن قالوا إن الغرض من طلبهم لأنفسهم ملكا هو لكي «يَقْضِي لَنَا مَلِكُنَا وَيَخْرُجُ أَمَامَنَا وَيُحَارِبُ حُرُوبَنَا» وقد سرد صموئيل تاريخ إسرائيل منذ اليوم الذي فيه أخرجهم الرب من مصر . إن الرب ملك الملوك قد خرج أمامهم وحارب حروبهم . وكثيرا ما باعتهم خطاياهم إلى سلطان أعدائهم . ولكن ما إن رجعوا عن طرقهم الشريرة حتى أقامت لهم رحمة الله مخلصا ينقذهم . لقد أرسل الرب جدعون وباراق «وَيَفْتَاحَ وَصَمُوئِيلَ ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنْ يَدِ أَعْدَائِكُمُ الَّذِينَ حَوْلَكُمْ فَسَكَنْتُمْ آمِنِينَ» ثم قال ومع ذلك فإنهم إذ تهددهم الخطر قالوا : «الرَّبُّ إِلهُكُمْ مَلِكُكُمْ» .

ثم استأنف صموئيل كلامه قائلا : «انْظُرُوا هذَا الأَمْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَفْعَلُهُ الرَّبُّ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ . أَمَا هُوَ حَصَادُ الْحِنْطَةِ الْيَوْمَ ؟ فَإِنِّي أَدْعُو الرَّبَّ فَيُعْطِي رُعُودًا وَمَطَرًا فَتَعْلَمُونَ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ عَظِيمٌ شَرُّكُمُ الَّذِي عَمِلْتُمُوهُ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ بِطَلَبِكُمْ لأَنْفُسِكُمْ مَلِكًا . فَدَعَا صَمُوئِيلُ الرَّبَّ فَأَعْطَى رُعُودًا وَمَطَرًا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ» إن المطر لا يسقط مطلقا في الشرق في وقت حصاد الحنطة الذي يقع في شهري مايو ويونيو (أيار وحزيران) كانت السماء صافية والهواء هادئا ومعتدلا . ولذلك فالعاصفة الشديدة التي هبت في هذا الفصل ملأت كل القلوب هلعا ورعبا . ففي تذلل وانسحاق اعترف الشعب حينئذ بخطيتهم – نفس الخطية التي ارتكبوها ، قائلين : «صَلِّ عَنْ عَبِيدِكَ إِلَى الرَّبِّ إِلهِكَ حَتَّى لاَ نَمُوتَ ، لأَنَّنَا قَدْ أَضَفْنَا إِلَى جَمِيعِ خَطَايَانَا شَرًّا بِطَلَبِنَا لأَنْفُسِنَا مَلِكًا» .

ولم يتركهم صموئيل في حالة الخوف وخور العزيمة وإلا كان ذلك يحول بينهم وبين

جهدهم ليعيشوا حياة أفضل . كان الشيطان يصور لهم الله على أنه إله قاس لا يغفر الخطيــة ، وأنهم بذلك يتعرضون لتجارب لا حصر لها . إن الله غفور رحيم وهو مستعد دائما لأن يظهر رضاه لشعبه حين يطيعون صوته . فكانت الرسالة التي أرسلها الله لشعبه على فم عبده هـــي هذه «لاَ تَخَافُوا . إِنَّكُمْ قَدْ فَعَلْتُمْ كُلَّ هذَا الشَّرِّ ، وَلكِنْ لاَ تَحِيدُوا عَنِ الرَّبِّ ، بَـــلِ اعْبُـــدُوا الرَّبَّ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ ، وَلاَ تَحِيدُوا . لأَنَّ ذلِكَ وَرَاءَ الأَبَاطِيلِ الَّتِي لاَ تُفِيدُ وَلاَ تُنْقِـــذُ ، لأَنَّـــهَا بَاطِلَةٌ . لأَنَّهُ لاَ يَتْرُكُ الرَّبُّ شَعْبَهُ» .

إلا أن صموئيل لم يذكر شيئا عن الازدراء الذي ألحقوه به ، ولم ينطق بأي كلمة توبيخ لهم على الجحود الذي جازوه به بعد حياته الطويلة التي كرسها لخدمتهم . ولكنه أكد لهم أنه لـــن يكف عن الاهتمام بما فيه صالحهم فقال لهم : «فَحَاشَا لِي أَنْ أُخْطِئَ إِلَى الرَّبِّ فَأَكُفَّ عَـــنِ الصَّلاَةِ مِنْ أَجْلِكُمْ ، بَلْ أُعَلِّمُكُمُ الطَّرِيقَ الصَّالِحَ الْمُسْتَقِيمَ . إِنَّمَا اتَّقُـــوا الـــرَّبَّ وَاعْبُـــدُوهُ بِالأَمَانَةِ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ ، بَلِ انْظُرُوا فِعْلَهُ الَّذِي عَظَّمَهُ مَعَكُمْ . وَإِنْ فَعَلْتُـــمْ شَـــرًّا فَـــإِنَّكُمْ تَهْلِكُونَ أَنْتُمْ وَمَلِكُكُمْ جَمِيعًا» .

الفصل الستون

تصلف شاول

بعدما انفض الاجتماع الذي عقد في الجلجال سرح شاول الجيش الذي كان قد احتشد تلبية لدعوته لأجل تحطيم جيش العمونيين ، ولم يبق غير ألفي رجل ليكونوا تحت قيادة الملك في مخماس ، وألف ليكونوا مع ابنه يوناثان في جبعة . إلا أن هذا كان خطأ كبيرا ، حيث كانت قلوب رجال الجيش ممتلئة أملا وشجاعة بعد النصر الذي قد أحرزوه منذ عهد قريب . ولو كان قد سار في طليعة الجيش لمنازلة أعداء إسرائيل الآخرين لكانوا قد ضربوا ضربة ساحقة قوية لتحرير الأمة .

وفي أثناء ذلك كان جيرانهم الفلسطينيون النازعون للحرب نشيطين . فبعد الهزيمة التي لحقتهم عند حجر المعونة كانوا لا يزالون مسيطرين على بعض معاقل الجبال في أرض إسرائيل ، وها هم الآن قد ثبتوا أقدامهم في قلب الأرض ، كما كانوا متفوقين على إسرائيل في التسهيلات والأسلحة والمعدات الحربية . ففي فترة حكمهم العاتي الطويلة الأمد حاولوا توطيد سلطانهم بكونهم نهوا بني إسرائيل عن مزاولة أعمال الصناع لئلا يصنعوا أسلحة حربية . وبعدما تم الصلح كان بنو إسرائيل يلجأون إلى معسكرات الفلسطينيين لكي يحدد كل واحد منجله وفأسه ومعوله . وإذ كان بنو إسرائيل يركنون إلى الراحة وروح الخنوع التي نتجت عن الاضطهاد الطويل الأمد ، أهملوا إهمالا فاضحا ، تزويد أنفسهم بالأسلحة الحربية . كانت القسي والمقاليع تستخدم في الحروب ، وكان في مقدور الإسرائيليين الحصول عليها ، ولكن لا أحد منهم ، باستثناء شاول وابنه يوناثان ، كان يملك سيفا أو رمحا (١صموئيل ١٣ : ٢٢) .

ولم تبذل أية محاولة من جانب إسرائيل لإخضاع الفلسطينيين إلا في السنة الثانية من ملك شاول . والذي ضرب أول ضربة هو يوناثان ابن الملك الذي ضرب معسكرهم في جبعة وانتصر . فثار غضب الفلسطينيين بسب هذه الهزيمة التي لحقتهم فتأهبوا للقيام بهجوم خاطف

على إسرائيل . حينئذ أمر شاول أن يضرب بالبوق في كل البلاد إعلانا للحرب ، داعيا الرجال المحاربين بما فيهم الأسباط المستوطنة في عبر الأردن ليحتشدوا في الجلجال . وقد استجيب هذا النداء .

كان الفلسطينيون قد حشدوا جيشا عظيما في مخماس «ثَلاَثُونَ أَلْفَ مَرْكَبَةٍ ، وَسِتَّةُ آلاَفِ فَارِسٍ ، وَشَعْبٌ كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِي الْكَثْرَةِ» (١صموئيل ١٣ : ٥) فلما وصلت الأخبار إلى شاول وجيشه في الجلجال ارتعب الشعب حين فكروا في الجيوش الهائلة التي كان عليهم أن ينازلوها في ساحة القتال ، إذ لم يكونوا مستعدين لمواجهة العدو ، فخاف كثيرون حتى أنهم لم يتجرأوا على محاولة ملاقاة الأعداء ، فعبر بعضهم الأردن ، بينما اختبأ آخرون في المغاير والآبار والصخور التي كانت كثيرة في ذلك الإقليم . ولما دنا وقت اشتباك الجيوش في الحرب كثر عدد الهاربين من جنود إسرائيل . والباقون الذين لم يهربوا من الجيش امتلأوا تطيرا ورعبا .

عندما مسح شاول ملكا على إسرائيل في بادئ الأمر قدم له صموئيل التوجيهات الواضحة عن الطريق الذي كان عليه أن يسير فيه حينئذ ، إذ قال له : «تَنْزِلُ قُدَّامِي إِلَى الْجِلْجَالِ ، وَهُوَذَا أَنَا أَنْزِلُ إِلَيْكَ لأُصْعِدَ مُحْرَقَاتٍ وَأَذْبَحَ ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ . سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَلْبَثُ حَتَّى آتِيَ إِلَيْكَ وَأُعَلِّمَكَ مَاذَا تَفْعَلُ» (١صموئيل ١٠ : ٨) .

ظل شاول منتظرا عدة أيام ، ولكنه في خلال تلك المدة لم يبذل أي مسعى حازم لتشجيع الشعب ، كلا ولا نفث فيهم روح الثقة بالله . وقبل أن ينتهي تماما الميعاد الذي حدده النبي نفد صبر شاول بسبب التأخير ، وسمح لنفسه بأن تفشل في مواجهة الظروف القاسية المحيطة به . وبدلا من أن يعد الشعب بكل أمانة للخدمة التي كان صموئيل آتيا ليقوم بها أوغل في عدم الإيمان والتشاؤم . إن مسألة طلب الله بواسطة الذبيحة كانت عملا غاية في القداسة والأهمية ، وكان الله يريد أن شعبه يفحصون قلوبهم ويتوبون عن خطيتهم حتى تنال الذبيحة قبولا لديه ، وحتى تصحب بركة الله جهودهم لهزيمة العدو . ولكن شاول صار متضجرا ، وعوضا عن أن يتطلع الشعب إلى الله في طلب العون كانوا ينظرون إلى الملك الذي قد اختاروه ليرشدهم ويوجههم .

ومع ذلك لم يكف الرب عن أن يرعاهم ، ولم يسمح بأن يوقعهم في الكوارث التي كان

يمكن أن تلحق بهم لو أن الذراع البشرية الضعيفة كانت هى مسندهم الوحيد . لقد أتى بهم إلى مأزق ليقنعهم بجهالة الاعتماد على الإنسان ، وليلتفتوا إليه كمعينهم الوحيد . ثم أتـــى الوقــت الذي فيه يمتحن شاول ، فكان لا بد أن يبرهن حينئذ ما إذا كان سيعتمد على الله أم لا ، ويظل منتظرا بصبر بناء على أمره ، مبرهنا على أنه الشخص الذي يمكن أن يثق به الله في المواقع الشاقة كحاكم لشعبه ، أم أنه سيكون متذبذبا وغير أهل للمسؤولية المقدسة التي آلت إليه . فهل ذلك الملك الذي قد اختاره إسرائيل سيصغي إلى صوت ملك الملوك قاطبة ؟ وهـــل ســيحول انتباه جنوده الخائري القلوب إلى ذاك الذي فيه وحده القوة والخلاص الأبديان ؟

وبصبر نافد انتظر شاول قدوم صموئيل ، وكان ينسب الضيق والارتباك وتفرق الجيـــش إلى غياب النبي ، فقد جاء ميعاد مجيئه ولكن رجل الله لم يأت في الحال . لقد أعاقت عناية الله عبده إلا أن روح شاول الضجرة المندفعة لم تعد تضبط ، وإذ شعر بأنه لا بد من عمل شـــيء لتهدئة مخاوف الشعب عزم على أن يعقد اجتماعا للقيام بخدمة دينية ، وعن طريـــق الذبيحـــة يطلب المعونة من الله . كان الله قد أمر بألا يقدم الذبيحة أمامه أحد غـــير المكرســين لـــهذه الخدمة . ولكن شاول أمر قائلا : «قَدِّمُوا إِلَيَّ الْمُحْرَقَةَ» (انظر ١صموئيل ١٣) وإذ كان كمـــا هو متسلحا بعدة الحرب اقترب من المذبح وقدم الذبيحة لله .

«وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى مِنْ إِصْعَادِ الْمُحْرَقَةِ إِذَا صَمُوئِيلُ مُقْبِلٌ ، فَخَرَجَ شَاوُلُ لِلِقَائِهِ لِيُبَارِكَـهُ» رأى صموئيل في الحال أن شاول قد خالف الأوامرالصريحة الصادرة إليه . فتكلم الله بواسطة نبيه أنه في ذلك الوقت سيعلن الله ما يجب أن يفعله إسرائيل في تلك الضائقة . فلو تمم شـــاول الشروط التي بموجبها قد وعد بالمساعدة الإلهية لكان الله قد صنع خلاصا عجيبـــا لإســـرائيل بالقليلين الذين ظلوا على ولائهم للملك . ولكن شاول كان راضيا عن نفسه وعن عملـــه كـل الرضى حتى لقد خرج يستقبل النبي كمن يستحق المديح لا التوبيخ .

بدا على وجه صموئيل جزع وضيق شديدان . وإذ سأل الملك قائلا : «مَاذَا فَعَلْتَ ؟» قـــال شاول ، مقدما أعذارا عن تصلفه : «رَأَيْتُ أَنَّ الشَّعْبَ قَدْ تَفَرَّقَ عَنِّي ، وَأَنْتَ لَمْ تَأْتِ فِي أَيَّامِ الْمِيعَادِ ، وَالْفِلِسْطِينِيُّونَ مُتَجَمِّعُونَ فِي مِخْمَاسَ ، فَقُلْتُ : الآنَ يَنْزِلُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ إِلَيَّ إِلَـــى الْجِلْجَالِ وَلَمْ أَتَضَرَّعْ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ ، فَتَجَلَّدْتُ وَأَصْعَدْتُ الْمُحْرَقَةَ» .

«فَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ : قَدِ انْحَمَقْتَ ! لَمْ تَحْفَظْ وَصِيَّةَ الرَّبِّ إِلهِكَ الَّتِي أَمَــرَكَ بِــهَا ،

لأَنَّهُ الآنَ كَانَ الرَّبُّ قَدْ ثَبَّتَ مَمْلَكَتَكَ عَلَى إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ . وَأَمَّا الآنَ فَمَمْلَكَتُكَ لاَ تَقُومُ . قَدِ انْتَخَبَ الرَّبُّ لِنَفْسِهِ رَجُلاً حَسَبَ قَلْبِهِ ، وَأَمَرَهُ الرَّبُّ أَنْ يَتَرَأَّسَ عَلَى شَعْبِهِ ... وَقَامَ صَمُوئِيلُ وَصَعِدَ مِنَ الْجِلْجَالِ إِلَى جِبْعَةِ بَنْيَامِينَ» .

إما أن يكف إسرائيل عن أن يكون شعبا لله وإما أن المبادئ التي قامت عليها الملكية ينبغي أن تحفظ ، وينبغي أن تسوس الأمة قوة إلهية . فإذا أراد إسرائيل أن يكون بجملته للرب ، وإذا خضعت الإرادة البشرية الأرضية لإرادة الله فسيظل شاول ملكا على إسرائيل . وما دام الشعب والملك يخضعون نفوسهم لله فسيظل حاميا إياهم مدافعا عنهم . ولكن لا يمكن أن تنجح الملكية في إسرائيل إلا إذا اعترفت بسلطان الله المطلق في كل شيء .

فلو أن شاول أبدى احتراما لمطاليب الله في وقت التجربة هذا لكان الله قد تمم إرادته فيه . إن إخفاقه في هذه المرة برهن على عدم لياقته لأن يكون نائبا عن الله أمام الشعب ، لأنه سيضلل الشعب . والقوة الحاكمة لن تكون إرادة الله بل إرادته هو . ولو كان شاول أمينا لثبتت مملكته إلى الأبد . ولكن حيث أنه قد أخفق ، فقصد الله لا بد أن يتم عن طريق شخص آخر . وينبغي أن يسند حكم إسرائيل إلى شخص يحكم الشعب بموجب إرادة السماء .

إننا لا نعرف أية مصالح عظيمة تتعرض للخطر عند امتحان الله إيانا ، إذ لا أمان إلا في الطاعة الكاملة لكلمة الله . إن كل مواعيده مقدمة على شرط الإيمان والطاعة . وإخفاقنا في الإذعان لأوامر الرب يمنع إتمام مواعيد الكتاب الثمينة عنا ، فينبغي ألا نتبع بواعثنا أو نعتمد على حكم الناس بل ينبغي أن نضع نصب عيوننا إرادة الله المعلنة ونسلك بموجب أمره الثابت ، مهما تكن الظروف المحيطة بنا ، لأن الله سيتولى النتائج ، حيث بأمانتنا لكلمته يمكننا في وقت التجربة أن نبرهن أمام الناس والملائكة أن الرب يمكنه أن يثق بنا لننفذ إرادته في الضيقات ونكرم اسمه ونبارك شعبه .

لقد كان شاول في حالة جفاء مع الله ومع ذلك فهو لم يرغب في إخضاع قلبه بالتوبة . فما كان يعوزه من التقوى الصادقة أراد أن يعوض عنه بغيرته في الطقوس الدينية . لم يكن شاول يجهل هزيمة إسرائيل حين حمل حفني وفينحاس التابوت إلى المحلة ، ومع علمه بكل هذا فقد عزم على أن يستحضر التابوت المقدس . ومعه الكاهن الذي يلازمه . ولو أمكنه بهذه الوسيلة أن يلهم شعبه بالثقة لكان يمكنه أن يجمع شمل جيشه المشتت ، من جديد ، ويحارب

الفلسطينيين ، وفي هذه الحالة يمكنه أن يستغني عن حضور صموئيل ومعاضدته ، وهكذا يتخلص من انتقادات ذلك النبي وتوبيخاته التي كان يكرهها .

لقد أعطي الروح القدس لشاول ليغير عقله ويلين قلبه ، كما أنه حصل على تعاليم وسمع توبيخات من نبي الله ، ومع ذلك فكم كان عناده عظيما ؟ ! إن تاريخ أول ملوك إسرائيل يبسط أمامنا مثالا محزنا لقوة العادات المبكرة الخاطئة . إن شاول في شبابه لم يحب الله ولا اتقاه ، وتلك الروح المتهورة التي لم تتدرب في وقت مبكر على الخضوع كانت أبدا مستعدة للتمرد على سلطان الله . إن أولئك الذين يحتضنون في شبابهم روح احترام الله وبكل أمانة يتممون واجبات وظيفتهم سيكونون مهيئين لخدمات أسمى في حياتهم المستقبلة . ولكن الناس لا يستطيعون لمدة سنين كثيرة أن يفسدوا القوى التي أعطاها الله لهم ، وحينئذ متى رغبوا في التغيير سيرون أن هذه القوى غضة وحرة لإتخاذ طريق معاكس كليا .

إن محاولات شاول في استنهاض همم الشعب لم تجدِ فتيلا . وإذ وجد أنه لم يبق من رجاله غير ست مئة رجل ، ترك الجلجال وانسحب إلى الحصن الذي في جبعة الذي كان قد استرده من الفلسطينين منذ عهد قريب . كان هذا الحصن يقع في جنوبي واد عميق أو ممر بين جبلين يبعد عن أورشليم أميالا قليلة إلى شماليها . وفي شمالي هذا الوادي في مخماس كان يعسكر جيش الفلسطينيين ، بينما خرجت بعض فصائله في جهات متفرقة لنهب البلاد .

وقد سمح الله بأن تنتهي الأمور إلى أزمة لكي يوبخ شاول على فساده ويعلم شعبه درس الوداعة والإيمان . وبسبب خطية الملك وتصلفه حين قدم الذبيحة ، حرمه الله من شرف الانتصار على الفلسطينيين . إن يوناثان ابن الملك الذي كان رجلا يخشى الرب هو الذي اختاره الله واسطة لتخليص إسرائيل . وإذ كان مدفوعا بدافع إلهي اقترح على حامل سلاحه أن يذهبا للقيام بهجوم سري على معسكر العدو قائلا : «لَعَلَّ اللهَ يَعْمَلُ مَعَنَا ، لأَنَّهُ لَيْسَ لِلرَّبِّ مَانِعٌ عَنْ أَنْ يُخَلِّصَ بِالْكَثِيرِ أَوْ بِالْقَلِيلِ» (انظر ١صموئيل ١٤) .

هذا وإن حامل سلاح يوناثان ، الذي كان هو أيضا رجل إيمان وصلاة ، شجعه على القيام بما اعتزم أن يفعله ، فانسحبا كلاهما من المعسكر سرا لئلا يعارضهما في خطتهما أحد . وبعد صلاة حارة قدماها للرب الذي كان مرشدا لأبويهما اتفقا على علامة يحكمان بموجبها كيف يتقدمان . فلما وصلا إلى الممر الذي يفصل بين الجيش تسللا بسكون تحت ظل الصخرة ،

كما كانت تحجبهما القمم والروابي في ذلك المكان . وإذ اقتربا من معقل الفلسطينيين انكشفا لعيون الأعداء الذين عيروهما قائلين «هُوَذَا الْعِبْرَانِيُّونَ خَارِجُونَ مِنَ الثُّقُوبِ الَّتِي اخْتَبَأُوا فِيهَا» ثم تهددوهما قائلين : «اصْعَدَا إِلَيْنَا فَنُعَلِّمَكُمَا شَيْئًا» وكانوا يقصدون بذلك أنهم سيؤدبون ذينك الإسرائيليين على جرأتهما . كان هذا التحدي هو العلامة التي كان يوناثان ورفيقه قد اتفقا عليها كدليل على أن الرب سينجحهما في مشروعهما . وإذ غابا عن أنظار الفلسطينيين واختارا طريقا سريا وعرا سار ذانك المحاربان صاعدين إلى قمة صخرة كان الأعداء يعتبرون أنه لا يمكن لأحد الوصول إليها ، فلم تكن محروسة حراسة قوية . وهكذا اخترقا معسكر العدو وقتلا الحراس الذين إذ غلبتهم المفاجأة والخوف لم يبدوا أية مقاومة .

كان ملائكة السماء يحمون يوناثان وتابعه وقد حاربوا معهما ، فسقط الفلسطينيون أمامهما . وقد ارتجت الأرض كما لو أن جمهورا غفيرا معهم فرسان ومركبات يقترب منهم ، فرأى يوناثان دلائل مساعدة الله له ، وحتى الفلسطينيون عرفوا أن الله يعمل لخلاص إسرائيل ، فاستولى الخوف العظيم على الجيش في الحقل وفي المعسكر ، ووسط الشغب والتشويش ، إذ ظن الفلسطينيون أن جنودهم هم جنود العدو ، بدأوا يقتلون بعضهم بعضا .

وسرعان ما وصلت ضجة الحرب إلى آذان الإسرائيليين ، فأعلن مراقبو الملك شاول عن وجود ارتباك عظيم في محلة الفلسطينيين وأن أعدادهم كانت تتناقص ، غير أنه لم يكن أحد يعرف أن بعض أفراد الجيش العبراني قد تركوا المعسكر . وبعد البحث والاستقصاء وجد أن جميع أفراد الجيش في أماكنهم ما عدا يوناثان وحامل سلاحه . وإذ رأى شاول جنود الفلسطيين منهزمين قاد جيشه للاشتباك معهم . ثم أن العبرانين الذين كانوا قد هربوا إلى الأعداء ارتدوا الآن يهاجمونهم ، كما خرج عدد غفير من مخابئهم . وبينما هرب الفلسطينيون مندحرين ، جعل جيش إسرائيل يعمل في أولئك الهاربين ضربا وتقتيلا .

ولكي يستفيد شاول من هذه الميزة أعظم استفادة نهى جنوده ، بكل طياشة ، عن تناول أي طعام طول ذلك اليوم ، ثم دعم أمره هذا بلعنة خطيرة إذ قال : «مَلْعُونٌ الرَّجُلُ الَّذِي يَأْكُلُ خُبْزًا إِلَى الْمَسَاءِ حَتَّى أَنْتَقِمَ مِنْ أَعْدَائِي» كانت النصرة قد تمت بدون علم شاول أو تعاونه ، ولكنه أراد لنفسه الشهرة بإهلاك الجيش المنهزم إهلاكا تاما . كان الدافع له

على تحريم تناول الطعام هو طموحه النفسي إلى العظمة ، وقد برهن على عدم اكتراثه لحاجات شعبه ما دام أن تلك الحاجات تتعارض مع رغبت في تعظيم ذاته . وكون شاول قد ثبت نهيه بذلك القسم المقدس الخطير برهن على تهوره وفساده . بل إن نفس كلمات اللعنة تبرهن على أن غيرة شاول كانت لأجل نفسه لا لأجل كرامة الله . فهو لم يقل : «حتى ينتقم الرب من أعدائه» بل : «حَتَّى أَنْتَقِمَ مِنْ أَعْدَائِي» .

ذلك النهي ساق الشعب إلى تحدي أمر الله ، حيث كانوا مشغولين في الحرب طول اليوم ، وكانوا متعبين وخائرين بسبب الجوع . إذ حالما انتهت ساعات الصوم ، وقعوا على الغنيمة ، وجعلوا يأكلون الدم مع اللحم . وبذلك نقضوا الشريعة التي تحرم أكل الدم .

وفي أثناء معركة ذلك اليوم حدث أن يوناثان الذي لم يسمع أمر الملك أخطأ بغير علم ، إذ أكل قليلا من العسل بينما كان مارا في إحدى الغابات . فلما علم شاول بهذا في المساء أعلن أن مخالفة أمره سيكون قصاصها الموت . ومع أن يوناثان لم يكن قد أخطأ عن عمد ، ومع أن الله قد حفظ حياته بكيفية عجائبية وصنع بيده ذلك الخلاص ، فقد أعلن الملك أنه لا بد من تنفيذ الحكم ، إذ لو أبقى شاول على حياة ابنه لاعتبر ذلك اعترافا منه بأنه قد أخطأ في النطق بذلك القسم الطائش ، وفي هذا إذلال لكبريائه . ثم نطق الملك بذلك الحكم المخيف قائلا : «هكَذَا يَفْعَلُ اللهُ وَهكَذَا يَزِيدُ إِنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ يَا يُونَاثَانُ» .

إن شاول لم يكن يستطيع أن يدعي لنفسه شرف الانتصار ، ولكنه كان يرجو أن يحصل على الكرامة لكونه قد احتفظ بقدسية قسمه . فأراد أن يثبت في أذهان رعاياه حقيقة كون سلطة الملك ينبغي أن تظل مصونة حتى ولو ضحى بابنه . وفي الجلجال ، ومنذ عهد قريب ، انتحل شاول لنفسه وظيفة الكاهن مخالفا بذلك أمر الرب . وعندما وبخه صموئيل على ذلك برر نفسه في عناد . أما الآن فحين خولف أمره –مع أنه كان أمرا غير معقول ، وكانت المخالفة بغير علم– حكم ذلك الملك الأب على ابنه بالموت .

ولكن جموع الشعب رفضوا السماح للملك بتنفيذ ذلك الحكم ، وإذ تحدوا غضب الملك قالوا : «أَيَمُوتُ يُونَاثَانُ الَّذِي صَنَعَ هذَا الْخَلاَصَ الْعَظِيمَ فِي إِسْرَائِيلَ ؟ حَاشَا ! حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، لاَ تَسْقُطُ شَعْرَةٌ مِنْ رَأْسِهِ إِلَى الأَرْضِ لأَنَّهُ مَعَ اللهِ عَمِلَ هذَا الْيَوْمَ» ولم يستطع

الملك المتكبر أن يستخف بذلك القرار الإجماعي فحفظت حياة يوناثان .

أحس شاول أن ابنه قد فضل عليه بواسطة الشعب وبواسطة الرب ، وأن نجاة يوناثان كانت توبيخا قاسيا لتهور الملك ، فخالجه إحساس داخلي بأن لعناته سترتد على رأسه . ولم يعد يواصل الحرب ضد الفلسطينيين بعد ذلك ، بل رجع إلى بيته عابسا ساخطا .

إن أولئك الذين هم أكثر الناس استعدادا للاعتذار عن خطاياهم أو تبرير أنفسهم ، هم في غالب الأحيان أقسى الناس في الحكم على الآخرين وإدانتهم . إن كثيرين كشاول يجلبون على أنفسهم سخط الله ، ولكنهم يرفضون النصح ويحتقرون التوبيخ . ومع اقتناعهم بأن الرب ليس معهم فهم لا يريدون أن يروا في أنفسهم سببا لضيقاتهم ومتاعبهم . إنهم ينمُّون في داخلهم روح الكبرياء والافتخار ، وهم في نفس الوقت يمعنون في حكمهم الجائر وتوبيخهم الصارم للآخرين الذين هم أفضل منهم ، فيحسن بأولئك الذين قد أقاموا أنفسهم قضاة أن يتأملوا في هذه الكلمات التي قد نطق بها المسيح حين قال : «بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ ، وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ» (متى ٧ : ٢) .

وما يحدث غالبا هو أن أولئك الذين يحاولون تعظيم أنفسهم يوضعون في مراكز تكشف عن خلقهم الحقيقي . كذلك كانت الحال مع شاول ، فإن مسلكه أقنع الشعب بأن كرامة الملك وسلطانه أغلى في نظره من العدل أو الرحمة أو الإحسان . وهكذا اقتنع الشعب بخطئهم في رفض حكم الله . لقد استبدلوا بالنبي التقي (صموئيل) الذي استمطرت صلواته البركات ، ملكا استمطر عليهم اللعنات في غيرته العمياء .

ولولا أن رجال إسرائيل توسطوا لإنقاذ حياة يوناثان لكان منقذهم قد هلك بناء على قرار الملك . ما أشد الهواجس والشكوك التي بها اتبع الشعب قيادة شاول بعد ذلك ! وما كان أمرّ الفكر بأنه قد أجلس على العرش بناء على طلبهم هم ! إن الرب يحتمل عصيان الناس طويلا ويقدم للجميع فرصة فيها يرون خطاياهم ويتركونها . ولكن في حين يبدو أنه ينجح أولئك الذين يستخفون بإرادته ويحتقرون إنذاراته ، فإنه في وقته المعين لا بد من أن يظهر جهالتهم .

الفصل الحادي والستون

رفض شاول

لقد أخفق شاول في احتمال امتحان الإيمان في الموقف الحرج في الجلجال ، فجلب العار على خدمة الرب . إلا أن أخطاءه لم تكن مما لا يمكن معالجته . ولذلك أعطاه الرب فرصة أخرى ليتعلم درس الإيمان غير المرتاب في كلمته والطاعة لأوامره .

فحين وبخه النبي في الجلجال لم يكن شاول يرى خطية عظيمة في المسلك الذي سار فيه بل أحس بأنه قد ظُلم فحاول أن يزكي أعماله وقدم أعذارا لتبرير خطيئته . ومنذ ذلك الحين لم يكن يلتقي بالنبي إلا في القليل النادر . لقد أحب صموئيل شاول كما لو كان ابنه ، ومن ذلك الوقت كان يتحاشى مقابلته على قدر الإمكان .

غير أن الرب أرسل عبده برسالة أخرى إلى شاول ، إذ بطاعته لله يمكن أن يبرهن على ولائه له وأهليته لقيادة إسرائيل ، فجاء صموئيل إلى الملك وأبلغه كلمة الرب . ولكي يدرك الملك أهمية مراعاة ذلك الأمر وإطاعته أعلن صموئيل بكل صراحة أنه يتكلم بناء على أمر الله وبنفس السلطان الذي أتي بشاول إلى العرش . قال النبي «هكَذَا يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ : إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُ مَا عَمِلَ عَمَالِيقُ بِإِسْرَائِيلَ حِينَ وَقَفَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ صُعُودِهِ مِنْ مِصْرَ . فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً ، طِفْلاً وَرَضِيعًا ، بَقَرًا وَغَنَمًا ، جَمَلاً وَحِمَارًا» (انظر ١صموئيل ١٥) إن العمالقة هم الذين كانوا قد بدأوا بالعدوان بإثارتهم الحرب على إسرائيل في البرية . فلأجل هذا العدوان وبسبب تحديهم لله ، ووثنيتهم المحطة نطق الرب بحكمه عليهم على لسان موسى . وبناء على أمر الله سجل تاريخ قسوتهم هذه على إسرائيل إذ أمر الرب قائلا : «تَمْحُو ذِكْرَ عَمَالِيقَ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ . لاَ تَنْسَ» (تثنية ٢٥ : ١٩) وقد أُجل أمر تنفيذ هذا الحكم أربع مئة سنة ، ولكن العمالقة لم يتركوا خطاياهم . عرف الرب أن هذا الشعب الشرير يريد أن يمحو شعبه وعبادته من

الأرض إن كان ذلك ممكنا ، والآن فها قد حان الوقت لتنفيذ هذا الحكم الذي ظل مؤجلا مـــدة تلك السنين الطوال .

إن احتمال الله وصبره الذي به يعامل الأشرار يجرئهم على الإمعان في العصيان ، ولكــن قصاصهم سيكون مؤكدا وهائلا ولو أنه تأجل طويلا «لأَنَّهُ كَمَا فِي جَبَلِ فَرَاصِيمَ يَقُومُ الـرَّبُّ ، وَكَمَا فِي الْوَطَاءِ عِنْدَ جِبْعُونَ يَسْخَطُ لِيَفْعَلَ فَعْلَهُ ، فَعْلَهُ الْغَرِيــبَ ، وَلِيَعْمَــلَ عَمَلَــهُ ، عَمَلَــهُ الْغَرِيبَ» (إشعياء ٢٨ : ٢١) . إن إلهنا الرحيم يعتبر فعل القصاص فعلا غريبا . «حَيٌّ أَنَـا ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ ، إِنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ ، بَلْ بِأَنْ يَرْجعَ الشِّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِـــهِ وَيَحْيَـا» (حزقيال ٣٣ : ١١) . الرب «رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَـانِ وَالْوَفَـاءِ ... غَافِرُ الإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيَّةِ» (خروج ٣٤ : ٦ ،٧) . إنه لئن كان لا يسر بالانتقام فلا بـــد من أن ينفذ حكم الدينونة في من يتعدون شريعته ، وهو مضطر لأن يفعل ذلك ليحفظ ســاكني الأرض من الفساد والهلاك التام . ولكي يخلص البعض لا بد من أن يقطع أولئك الذيـــن قـد تقسوا في الخطية ، «الرَّبُّ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَعَظِيمُ الْقُدْرَةِ ، وَلكِنَّهُ لاَ يُبَرِّئُ الْبَتَّةَ» (نـاحوم ١ : ٣) . «بِمَخَاوِفَ فِي الْعَدْلِ» (مزمور ٦٥ : ٥) سيزكي الرب سلطان شريعته المدوسة تحـــت الأقدام . وأما حقيقة كونه يحجم عن تنفيذ عدالته فمما يشهد لهول الخطايا التي تستوجب وقوع أحكامه الرهيبة ، كما يشهد لقسوة القصاص الذي ينتظر العصاة .

ولكن الرب إذ يوقع الدينونة يذكر الرحمة ، فكان لا بد من إهلاك العمالقة ، أما القينيـــون الذين كانوا يسكنون بينهم فقد أبقى عليهم . هذا الشعب مع أنه لم يكن حرا تماما مـــن عبـادة الأوثان إلا أنهم كانوا عبيدا لله ، وكانوا أصدقاء لإسرائيل . كان حوباب صهر موسى الــــذي كان قد رافق شعب إسرائيل في رحلاتهم في البرية ، الذي نظرا لخبرته بتلك الأماكن قدم لــهم خدمات جليلة ، كان هذا الرجل من القينيين .

بعد هزيمة الفلسطينيين في مخماس أثار شاول الحرب على موآب وبنـــي عمــون وأدوم والعمالقة والفلسطينيين . وأينما اتجه برجاله كان يكسب انتصارات جديدة . وإذ أعطي تفويضا بمحاربة العمالقة أعلن الحرب في الحال ، وأضيف إلى سلطانه سلطان النبي . فلما اســتدعي رجال إسرائيل للحرب لبوا النداء وانضووا تحت لوائه . لم يكن القصد من تلك الحملة تعظيـم الذات ، إذ لم يكن لإسرائيل أن يحصلوا على فخر الانتصار أو على غنائم أعدائهم . إنما كـان

628,629

عليهم أن يشتركوا في هذه الحرب إطاعة لأمر الله فقط لتنفيذ دينونته في العمالقة ، فقصد الله أن ترى كل الشعوب هلاك ذلك الشعب الذي تحدى سلطانه ، وأن ترى تلك الشعوب أنه هلك بواسطة نفس الشعب الذين احتقرهم .

«وَضَرَبَ شَاوُلُ عَمَالِيقَ مِنْ حَوِيلَةَ حَتَّى مَجِيئِكَ إِلَى شُورَ الَّتِي مُقَابِلَ مِصْرَ . وَأَمْسَكَ أَجَاجَ مَلِكَ عَمَالِيقَ حَيًّا ، وَحَرَّمَ جَمِيعَ الشَّعْبِ بِحَدِّ السَّيْفِ . وَعَفَا شَاوُلُ وَالشَّعْبُ عَنْ أَجَاجَ وَعَنْ خِيَارِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالثُّنْيَانِ وَالْخِرَافِ ، وَعَنْ كُلِّ الْجَيِّدِ ، وَلَمْ يَرْضَوْا أَنْ يُحَرِّمُوهَا . وَكُلُّ الأَمْلاَكِ الْمُحْتَقَرَةِ وَالْمَهْزُولَةِ حَرَّمُوهَا» .

إن هذه النصرة على العمالقة كانت ألمع الانتصارات التي أحرزها شاول ، وهذه أضرمت في قلبه نار الكبرياء التي كان يكمن له فيها أعظم الخطر ، أما أمر الرب الذي قضى بهلاك أعداء الله هلاكا شاملا فقد نفذه جزئيا ، إذ كان الملك يطمع في أن يزيد من شرف رجوعه الظافر بوجود ملك أسير في ركابه . كما أراد أن يتشبه بعادات الأمم المجاورة له ، فعفا عن أجاج ملك عماليق الشرس الجريء . واحتفظ الشعب لأنفسهم بخيار الغنم والبقر والحيوانات حاملات الأثقال . وقد اعتذروا عن هذا العصيان بقولهم إنهم قد أبقوا على البقر والغنم لتقديمها ذبائح الله . مع أن غرضهم من ذلك كان استخدام هذه المواشي بديلا عن مواشيهم التي أرادوا الاحتفاظ بها لأنفسهم .

وها هو شاول يواجه آخر امتحان . إن استخفافه المتصلف بإرادة الله الذي أوضح تصميمه على أن يحكم كملك مستقل قد برهن على أنه لا يمكن أن يؤتمن على السلطان الملكي كنائب عن الرب . فإذ كان الملك وجيشه عائدين إلى الوطن في فورة الانتصار ، وفي فرح عظيم ، كان يخيم على بيت صموئيل النبي حزن عميق . فلقد تلقى من الرب رسالة فضح فيها تصرف الملك إذ قال له : «نَدِمْتُ عَلَى أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا ، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمْ كَلاَمِي» حزن النبي أعمق الحزن على تصرف الملك المتمرد وبكى وصلى طول الليل لعل الرب يلغي حكمه الرهيب .

إن ندامة الله لا تشبه ندامة الإنسان . «نَصِيحُ إِسْرَائِيلَ لاَ يَكْذِبُ وَلاَ يَنْدَمُ ، لأَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانًا لِيَنْدَمَ» (١صموئيل ١٥ : ١١ ،٢٩) إن ندامة الإنسان تتضمن تغيير الفكرة أما ندامة الله فتتضمن تغيير الظروف والعلاقات . فالإنسان يمكنه أن يغير علاقته بالله بإذعانه للشروط التي

بموجبها يحصل على رضى الرب ، كما يمكنه بعمله الشرير أن يبعد نفسه عن حالة الرضى الإلهي . ولكن الرب «هُوَ هُوَ أَمْسًا وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ» (عبرانيين ١٣ : ٨) إن عصيان شاول غير علاقته بالله ، ولكن شروط القبول لدى الله لم تتبدل . إن مطاليب الله كانت كما هي لأنه «لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ» (يعقوب ١ : ١٧) .

في صبيحة اليوم التالي انطلق النبي بقلب منسحق لملاقاة الملك المخطئ . وقد كان صموئيل يأمل أن شاول إذ يفكر ويتأمل ، سيشعر بخطيته ، وأنه بتوبته وتذلله قد يعود الرب للرضى عنه . غير أن الإنسان متى ابتدأ أولى خطواته في طريق العميان فذلك الطريق يمسي سهلا ممهدا . إن شاول الذي قد أفسده عصيانه أقدم على ملاقاة صموئيل بكذبة على لسانه ، إذ صاح قائلا : «مُبَارَكٌ أَنْتَ لِلرَّبِّ . قَدْ أَقَمْتُ كَلاَمَ الرَّبِّ» .

غير أن الأصوات التي وقعت على أذني النبي كذبت كلام الملك العاصي . فعندما سأله النبي ذلك السؤال السديد قائلا : «وَمَا هُوَ صَوْتُ الْغَنَمِ هذَا فِي أُذُنَيَّ ، وَصَوْتُ الْبَقَرِ الَّذِي أَنَا سَامِعٌ ؟» أجابه شاول بقوله : «مِنَ الْعَمَالِقَةِ ، قَدْ أَتَوْا بِهَا ، لأَنَّ الشَّعْبَ قَدْ عَفَا عَنْ خِيَارِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ لأَجْلِ الذَّبْحِ لِلرَّبِّ إِلهِكَ . وَأَمَّا الْبَاقِي فَقَدْ حَرَّمْنَاهُ» لقد أطاع الشعب أوامر شاول . ولكنه كان على استعداد لأن يلقي تبعة خطيته وعصيانه على الشعب لكي يحمي نفسه .

إن رسالة رفض الله لشاول جلبت على قلب صموئيل حزنا لا يعبر عنه . ومع ذلك كان لابد للنبي أن يبلغها له على مسامع كل جيش إسرائيل ، في حين كانوا ممتلئين من الفخر وبهجة الانتصار ، ذلك الانتصار الذي عزوه إلى شجاعة ملكهم وحسن قيادته ، لأن شاول لم يشرك الله في نصرة إسرائيل في هذه الحرب ، ولكن عندما رأى النبي البرهان على عصيان شاول اهتاج وثار غضبه لأن ذاك الذي قد أنعم الله عليه بتلك الإنعامات السامية عصى أوامر السماء وجعل إسرائيل يخطئ ، فلم ينخدع صموئيل بحيل الملك ومراوغاته ، بل بحزن ممتزج بالغضب أعلن له قائلا : «كُفَّ فَأُخْبِرَكَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ إِلَيَّ هذِهِ اللَّيْلَةَ ... أَلَيْسَ إِذْ كُنْتَ صَغِيرًا فِي عَيْنَيْكَ صِرْتَ رَأْسَ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ» ثم أعاد على مسامعه أمر الرب الذي قد أصدره إليه خاصا بعماليق وطلب منه أن يخبره لماذا عصى ذلك الأمر الإلهي .

أصر شاول على تبرئة نفسه قائلا : «إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ لِصَوْتِ الرَّبِّ وَذَهَبْتُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي أَرْسَلَنِي فِيهَا الرَّبُّ وَأَتَيْتُ بِأَجَاجَ مَلِكِ عَمَالِيقَ وَحَرَّمْتُ عَمَالِيقَ . فَأَخَذَ الشَّعْبُ مِنَ

الْغَنِيمَةِ غَنَمًا وَبَقَرًا ، أَوَائِلَ الْحَرَامِ لأَجْلِ الذَّبْحِ لِلرَّبِّ إِلهِكَ فِي الْجِلْجَالِ» .

وبكلمات قوية وخطيرة اكتسح النبى حصن الأكاذيب ذاك ونطق بالحكم الذي لا يرد قائلا : «هَلْ مَسَرَّةُ الرَّبِّ بِالْمُحْرَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ كَمَا بِاسْتِمَاعِ صَوْتِ الرَّبِّ ؟ هُوَذَا الاسْتِمَاعُ أَفْضَلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ ، وَالإِصْغَاءُ أَفْضَلُ مِنْ شَحْمِ الْكِبَاشِ . لأَنَّ التَّمَرُّدَ كَخَطِيَّةِ الْعِرَافَةِ ، وَالْعِنَادُ كَالْوَثَنِ وَالتَّرَافِيمِ . لأَنَّكَ رَفَضْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ رَفَضَكَ مِنَ الْمُلْكِ» .

فلما سمع الملك هذا الحكم المخيف صرخ قائلا : «أَخْطَأْتُ لأَنِّي تَعَدَّيْتُ قَوْلَ الرَّبِّ وَكَلاَمَكَ ، لأَنِّي خِفْتُ مِنَ الشَّعْبِ وَسَمِعْتُ لِصَوْتِهِمْ» إن شاول إذ ارتعب من تشهير النبي به اعترف بخطيته التي كان قد أصر على إنكارها ، ومع ذلك فقد أصر على إلقاء اللوم على الشعب معلنا أنه قد أخطأ خوفا منهم .

إن ما دفع ملك إسرائيل إلى أن يتوسل إلى صموئيل قائلا «فَاغْفِرْ خَطِيَّتِي وَارْجعْ مَعِي فَأَسْجُدَ لِلرَّبِّ» لم يكن حزنه على الخطية بل خوفه من القصاص . ولو كان شاول قد تاب توبة صادقة لاعترف بخطيته علنا . ولكن همه الأول كان منصرفا إلى الإبقاء على سلطانه والاحتفاظ بولاء الشعب ، كما كان يرغب في أن يحظى بشرف وجود صموئيل معه ليقوي نفوذه على الأمة .

فأجابه النبى بقوله : «لاَ أَرْجعُ مَعَكَ لأَنَّكَ رَفَضْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ ، فَرَفَضَكَ الرَّبُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ» ودار صموئيل ليمضي ، فإذ كان الملك في شدة الكرب والخوف أمسك بذيل جبة صموئيل ليمنعه من الذهاب فانمزق في يده ، ولهذا قال له النبي : «يُمَزِّقُ الرَّبُّ مَمْلَكَةَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ الْيَوْمَ وَيُعْطِيهَا لِصَاحِبِكَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ» .

والآن صار شاول أكثر انزعاجا لنفور صموئيل منه أكثر من انزعاجه لسخط الله عليه . لقد عرف أن الشعب يثقون بالنبي أكثر مما يثقون به هو . ولو أن شخصا آخر يمسح ملكا بأمر الله فإنه يمسى ، كما شعر شاول ، من المستحيل عليه (شاول) أن يحتفظ بسلطانه ، كما كان يخشى من نشوب ثورة ضده في الحال لو تركه صموئيل نهائيا ، فتوسل شاول إلى النبي أن يكرمه أمام الشيوخ والشعب بالاشتراك العلني معه في خدمة دينية . وبناء على تعليمات إلهية أجاب صموئيل الملك إلى طلبه حتى لا يكون هنالك مجال لقيام ثورة . إلا أنه بقي هنالك كشاهد صامت في الخدمة ليس إلا .

631,632

وكان لا بد حينئذ من إجراء عمل رهيب من أعمال العدل ، إذ كان علـــى صموئيـل أن يزكي مجد الله وكرامته ويوبخ شاول على تصرفه علانية فأمر بإحضار أجاج ملـك عمـاليق إليه . وكان أجاج أكثر الناس إجراما وأبعدهم عن الرحمة دون كل من قـد سـقطوا بسـيف إسرائيل . فكره شعب الله وطلب إهلاكهم ، وكان له أكبر نفوذ في نشر عبادة الأوثان ، فـأتى هذا الرجل امتثالا لأمر النبى متملقا نفسه بأن خطر الموت قد زال . ولكن صموئيل قال لــه : «كَمَا أَثْكَلَ سَيْفُكَ النِّسَاءَ ، كَذلِكَ تُثْكَلُ أُمُّكَ بَيْنَ النِّسَاءِ . فَقَطَعَ صَمُوئِيلُ أَجَاجَ أَمَامَ الـرَّبِّ» ثم عاد صموئيل بعد ذلك إلى بيته في الرامة كما عاد شاول إلى بيته في جبعة . ولـم يقـابل النبي الملك بعدئذ غير مرة واحدة .

حين دعي شاول إلى العرش كان تقديره لإمكانياته متواضعا ، وكان راغبا في التعلم ، كما كانت تنقصه المعرفة والاختبار ، وفي خلقه نقائص خطيرة . غير أن الله منحه الروح القـدس كمرشد ومعين ، ووضعه في مركز يمكن فيه أن يقوي وينمي الصفات التي ينبغي توافرها في ملك إسرائيل . فلو بقي متواضعا طالبا باستمرار إرشاد الحكمة الإلهية لأمكنه أن يتمم واجبات مركزه العظيم بنجاح وكرامة . وكان يمكن ، تحت تأثير نعمة الله ، أن كل صفة من الصفـات الصالحة تزداد قوة ، وكانت الأميال الشريرة تتلاشى قوتها . هذا هو العمل الذي يقصد الـرب أن يفعله لكل من يكرسون أنفسهم له . كثيرون هم الذين قد دعاهم الرب ليشغلوا وظائف فـي عمله ، لأن فيهم روحا متواضعة قابلة للتعلم . وهو في عنايته يضعهم في أماكن يمكنهم فيـها أن يتعلموا منه ، حيث سيكشف لهم عن مواطن النقص في أخلاقهم ، وكل من يطلبون معونته يمنحهم قوة لإصلاح أخطائهم .

إلا أن شاول أصر على التشبث بعظمته ، وأهان الله بعدم إيمانه وبعصيانه . ومع أنه عنـد دعوته إلى الملك كان متواضعا وغير واثق بنفسه فقد جعله النجاح واثقا بذاته . وأول انتصـار أحرزه في حكمه أشعل في نفسه كبرياء القلب التى كانت أعظم المخاطر التي تعرض لـها ، كما أن شدة البأس والمهارة الحربية التي ظهرت في تخليص يابيش جلعاد أثارا حماسة الأمـة كلها . لقد أكرم الشعب ملكهم ، ناسين أنه لم يكن أكثر من وسيلة عمِل الله بواسطتها . ومع أن شاول نسب المجد لله أولا فإنه بعد ذلك احتفظ بالمجد لنفسه . لقد غابت عن خـاطره حقيقـة اعتماده على الله فارتد بقلبه عن الرب . وهكذا كان الطريق معبدا لخطيته ، خطية التصلـف وانتهاك حرمة الأقداس في الجلجال . وإن نفس ثقته العمياء بنفسـه جعلتـه يرفـض توبيـخ

صموئيل . وإذ اعترف شاول بأن صموئيل نبي مرسل من الله ، وجب عليه حينئذ أن يذعن للتوبيخ وإن كان هو نفسه لم ير في عمله أي خطإ . فلو أنه كان راغبا في رؤية خطئه والاعتراف به لصار هذا الاختبار المر واقيا يحفظه في المستقبل .

لو كان الرب قد انفصل نهائيا عن شاول وقتئذ لما تحدث إليه مرة أخرى بواسطة نبيه حين وكل إليه القيام بعمل خاص لكي يصلح أخطاءه الماضية . فحين يصير واحد ممن يعترفون بأنهم أولاد الله مهملا في عمل إرادته ، وبمثاله يجعل الآخرين عديمي الوقار وغافلين عن وصايا الله ، فمن المستطاع أن تستحيل هزائمه إلى انتصارات إذا قبل التوبيخ بانسحاق قلبي صادق ورجع إلى الله بتواضع وإيمان . إن مذلة الهزيمة تصير غالبا بركة متى أبانت لنا عجزنا عن عمل إرادة الرب بدون معونته .

إن شاول حين صم أذنيه عن سماع التوبيخ المرسل إليه بالروح القدس وأصر على تبرير نفسه في عناد شديد رفض الوسيلة الوحيدة التي كان الله يستطيع بها أن ينقذه من نفسه . إنه بكل إصرار أبعد نفسه عن الله . وما كان يستطيع أن يحصل على معونة الله أو إرشاده ما لم يرجع إليه معترفا بخطيته .

وفي الجلجال تظاهر شاول بأنه رجل ذو ضمير حي إلى درجة عظيمة ، حين وقف أمام جيش إسرائيل يقدم الذبيحة لله . ولكن تقواه لم تكن حقيقية . إن تلك الخدمة الدينية المقدمة في مخالفة صريحة مباشرة لأمر الله كان من نتائجها أنها أضعفت يدي شاول إذ أبعدته عن متناول المعونة التي كان الله يرغب كل الرغبة في تقديمها له .

وفي الحملة التي جردها شاول على عماليق ظن أنه قد تمم كل ما هو جوهري في ما أمره الله بعمله . ولكن الله لم يرض بطاعة جزئية ولا أغضى عما قد أهمل لباعث مقبول حسب الظاهر . إن الله لم يعط الناس الحرية للابتعاد عن مطاليبه . فلقد أعلن إسرائيل قائلا : «لاَ تَعْمَلُوا ... كُلُّ إِنْسَانٍ مَهْمَا صَلَحَ فِي عَيْنَيْهِ» بل «اِحْفَظْ وَاسْمَعْ جَمِيعَ هذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا» (تثنية ١٢ : ٨ ،٢٨) ففي الحكم على أي عمل ينبغي ألا نسأل إن كان هنالك ضرر يأتي من إتيانه ، بل يجب أن نسأل هل هو يتمشى مع إرادة الله أم لا . «تُوجَدُ طَرِيقٌ تَظْهَرُ لِلإِنْسَانِ مُسْتَقِيمَةً ، وَعَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ» (أمثال ١٤ : ١٢) .

«هُوَذَا الاسْتِمَاعُ أَفْضَلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ» إن الذبائح الكفارية لم تكن في حد ذاتها ذات قيمة في نظر الله ، بل كان القصد منها أن يعبر مقدمها عن توبته إلى الله ، وإيمانه بالمسيح ، وأن يتعهد بإطاعة شريعة الله في المستقبل ، إذ بدون التوبة والإيمان والطاعة القلبية كانت الذبائح عديمة الفائدة ولا قيمة لها . فحين اقترح شاول أن يقدم ذبيحة مما قد حرمه الله ، متعديا بذلك أمر الرب تعديا مباشرا ، أهين سلطان الله إهانة علنية ، وصار بالإمكان أن تكون تلك الخدمة إهانة للسماء . وحتى الآن ، مع كون خطية شاول ونتائجها ماثلة أمامنا ، فما أكثر من يتشبهون به ويسيرون في نفس طريقه ، طريق العصيان ، حيث في أثناء رفضهم الإيمان والطاعة لبعض مطاليب الله ، يواظبون على تقديم خدمات ديانتهم الطقسية لله . إن خدمة مثل هذه لا يمكن أن يستجيب لها روح الله . ومهما يكن أولئك الناس غيورين في ممارسة طقوس الديانة ، فالرب لا يمكن أن يقبلها ما داموا مصرّين على مخالفة أمر من أوامره .

«التَّمَرُّدَ كَخَطِيَّةِ الْعِرَافَةِ ، وَالْعِنَادُ كَالْوَثَنِ وَالتَّرَافِيمِ» . إن أول من تمرد هو الشيطان . وكل تمرد على الله ينسب إلى الشيطان وتأثيره مباشرة ، فمن يقاومون حكم الله يكونون قد حالفوا رئيس العصاة . وهو سيستخدم قوته ودهاءه ليأسر حواسهم ويضل عقولهم ، ويظهر كل شيء في نور كاذب . وكما كانت الحال مع أبوينا الأولين فإن كل من يقعون تحت رقى سحره ، لن يروا سوى المنافع العظيمة التي يتوهمون الحصول عليها عن طريق العصيان .

لا برهان يمكن إيراده على قوة الشيطان الخادعة أقوى من حقيقة كون الكثيرين ممن ينقادون إليه يخدعون أنفسهم باعتقادهم أنهم يخدمون الله . إن قورح وداثان وأبيرام حين تمردوا على سلطان موسى كانوا يظنون أنهم إنما يقاومون مجرد قائد بشري ، إنسانا نظيرهم ، كما كانوا يعتقدون أنهم بالفعل يقدمون خدمة الله . ولكنهم برفضهم خادم الرب المختار إنما رفضوا المسيح وأهانوا روح الله . كذلك في أيام المسيح فإن كتبة اليهود وشيوخهم ، الذين ادعوا أنهم يغارون على كرامة الله غيرة عظيمة ، صلبوا ابنه . ونفس هذه الروح تربض في قلوب أولئك الذين يصرون على اتباع إرادتهم ضداً لإرادة الله .

كان لدى شاول أكبر برهان على أن صموئيل هو رجل الله الملهم . فاجتراؤه على الاستخفاف بأوامر الرب التي أصدرها إليه بواسطة نبيه ، كان أمرا مضادا لما يمليه العقل

والحكم السليم . إن تصلفه المميت لا بد من أن مصدره كان السحر الشيطاني . كان شاول قد أبدى غيرة عظيمة في القضاء على الوثنية والسحر ، ومع ذلك فبعصيانه أمر الله كان مدفوعا بنفس روح المقاومة لله ، ومسوقا بروح الشيطان كمن يستخدمون السحر . وبعدما وُبِّخ أضاف العناد إلى التمرد ، وما كان يمكنه أن يوقع على روح الله إهانة أعظم من هذه حتى لو اشترك علنا في عبادة الأوثان .

إن الاستخفاف بتوبيخات وإنذارات كلمة الله أو روحه هي خطوة خطرة جدا . كثيرون هم الذين كشاول يستسلمون للتجربة إلى أن تعمى عيونهم عن رؤية الصفة الحقيقية للخطية . إنهم يخدعون أنفسهم بالقول إن أمامهم غرضا صالحا ليحققوه ، وإنهم لم يخطئوا في الابتعاد عن مطاليب الرب . هكذا يزدرون روح النعمة حتى لا يعودون قادرين على الإصغاء لصوته ، فيتركون الضلالات التي قد اختاروها .

إن الله حين أعطى شاول لإسرائيل ملكا أعطاهم الملك الذي حسب قلوبهم ، كما قال لهم صموئيل حين تثبت الملك الأول في الجلجال ، إذ قال : «هُوَذَا الْمَلِكُ الَّذِي اخْتَرْتُمُوهُ ، الَّذِي طَلَبْتُمُوهُ» (١صموئيل ١٢ : ١٣) كان جميلا وطويل القامة فارع الطول ، له هيئة ملكية وكان منظره متفقا مع العظمة الملوكية . وكانت شجاعته ومهارته في قيادة الجيوش معتبرة في نظر الشعب أفضل سجايا تضمن للملك الاحترام والكرامة من الأمم الأخرى . ولم يكونوا جزعين لأن ملكهم كان مفتقرا إلى تلك الصفات الأسمى التي هي دون سواها تؤهله لأن يحكم بالعدل والإنصاف . لم يطلبوا ملكا متحليا بنبل الأخلاق الصحيح ، وله في قلبه محبة الله ومخافته . لم يطلبوا مشورة الله لمعرفة الصفات التي ينبغي توافرها في الملك الذي يستطيع أن يجعل الشعب يظل شعبا مقدسا منفصلا عن الأشرار كشعبه المختار . لم يطلبوا طريق الله بل طريقهم . ولذلك أعطاهم الله الملك الذي طلبوه – ذاك الذي كانت صفاته إنعكاسا لصفاتهم وشبيهة بها . لم تكن قلوبهم خاضعة لله ، وكذلك لم يكن ملكهم مخضعا بنعمة الله . وتحت حكم هذا الملك سيحصلون على الاختبار اللازم لكي يروا خطأهم ويعودوا إلى ولائهم لله .

ومع ذلك فإن الرب إذ وضع مسؤولية المملكة على عاتق شاول لم يتركه لنفسه بل جعل الروح القدس يستقر على شاول ليعلن له ضعفه وحاجته إلى النعمة الإلهية ولو أن شاول اعتمد على الله لكان قد لازمه . وطالما كانت إرادته خاضعة لإرادة الله وطالما خضع لتدريبات

روحه أمكن الله أن يكلل مساعيه بالنجاح . ولكن لما اختار شاول العمل مستقلا عن الله ، لـــم يعد الله يرشده بل اضطر أن يعزله . وبعد ذلك دعا إلـــى العــرش «رَجُـــلاً حَسَـــبَ قَلْبِـــهِ» (١صموئيل ١٣ : ١٤) – وليس معنى ذلك أنه كان بلا عيب ، بل رجلا بدلا مـــن أن يعتمـــد على نفسه يعتمد على الله ، وينقاد لروحه ، الذي حين كان يخطـــئ كـــان يخضـــع للتوبيـــخ والتأديب .

الفصل الثانى والستون

مسح داود

على مسافة أميال قليلة جنوبي أورشليم «مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ» توجد بيت لحم ، حيث ولـد داود بن يسى ، قبلما ولد فيها الطفل يسوع ، واضجع في المذود وسجد له المجوس القـادمون من المشرق ، بأكثر من ألف سنة . فقبل تجسد المخلص بقرون كان داود ، وهو في ريعـان الصبا ، يحرس قطعانه وهي ترعى على التلال المحيطة ببيت لحم ، وهناك تغنى ذلك الراعي البسيط بمزاميره التي كانت من تأليفه ، كما زادت أنغام العود من حلاوة صوته الصافي الفتـي حين كان يضرب عليه ، فاختار الله داود ، وأعده ، وهو في حياة العزلة مع قطعانه ، للعمـل الذي قصد أن يضعه أمانة بين يديه في السنين التالية .

وفيما كان داود عائشا في خلوته في حياته المتواضعة ، حياة رعاية الغنم ، خـاطب الرب النبي صموئيل عنه إذ يقول الكتاب : «حَتَّى مَتَى تَنُوحُ عَلَى شَاوُلَ ، وَأَنَا قَدْ رَفَضْتُهُ عَنْ أَنْ يَمْلِكَ عَلَى إِسْرَائِيلَ ؟ امْلأْ قَرْنَكَ دُهْنًا وَتَعَالَ أُرْسِلْكَ إِلَى يَسَّى الْبَيْتَلَحْمِيِّ ، لأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ لِي فِي بَنِيهِ مَلِكًا ... خُذْ بِيَدِكَ عِجْلَةً مِنَ الْبَقَرِ وَقُلْ : قَدْ جِئْتُ لأَذْبَحَ لِلـرَّبِّ . وَادْعُ يَسَّى إِلَى الذَّبِيحَةِ ، وَأَنَا أُعَلِّمُكَ مَاذَا تَصْنَعُ . وَامْسَحْ لِيَ الَّذِي أَقُولُ لَـكَ عَنْـهُ» . فَفَعَـلَ صَمُوئِيلُ كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ وَجَاءَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ . فَارْتَعَدَ شُيُوخُ الْمَدِينَةِ عِنْدَ اسْتِقْبَالِهِ وَقَـالُوا : «أَسَلاَمٌ مَجِيئُكَ ؟» فَقَالَ : «سَلاَمٌ»» (انظر ١صموئيل ١٦) قبل شيوخ المدينة الدعوة إلـى الذبيحة ، ودعا صموئيل يسى وبنيه أيضا فبني المذبح وأعدت الذبيحة . وكان كل أبنـاء يسى حاضرين ما خلا داود أصغر البنين الذي ترك لحراسة الغنم إذ لم يكونوا يأمنون أن تترك الغنم دون حراسة .

وبعد الانتهاء من تقديم الذبيحة وقبل التقدم للتناول من وليمة التقدمة ابتدأ صموئيل عملـه النبوي بفحص أبناء يسى ذوي المظهر النبيل . كان ألياب هو الابن الأكبر وكان أقرب إخوتـه

شبها بشاول في طول قامته وجمال منظره فاسترعى انتباه النبى بجمال صورته وحسن شكله ، وإذ نظر صموئيل إلى نبل هيئته فكر قائلا : «هذا حقا هو الرجل الذي قد اختاره الرب ليخلف شاول» وكان ينتظر مصادقة الرب لكي يمسحه . ولكن الرب لم ينظر إلى العينين (المظهر الخارجي) . ذلك أن ألياب لم يكن يتقي الرب ، فلو دعي لاعتلاء العرش لأصبح ملكا عاتيا متجبرا ، فقال الرب لصموئيل : «لاَ تَنْظُرْ إِلَى مَنْظَرِهِ وَطُولِ قَامَتِهِ لأَنِّي قَدْ رَفَضْتُهُ . لأَنَّهُ لَيْسَ كَمَا يَنْظُرُ الإِنْسَانُ . لأَنَّ الإِنْسَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْقَلْبِ» . إن الجمال الخارجي لا يمكن أن يعطي النفس حظوة لدى الله . إنما الحكمة والتفوق الظاهران في الأخلاق والتصرف يعبران عن جمال الإنسان الحقيقي ، وإن الاستحقاق الداخلي وتفوق القلب هما اللذان يقرران قبولنا أمام رب الجنود . فكم ينبغي أن نشعر بعمق هذا الحق في حكمنا على ذواتنا وعلى الآخرين . يمكننا أن نتعلم من خطأ صموئيل بطل التقدير الذي يستند إلى جمال الوجه أو عظمة القوام . ويمكننا أن نرى عجز الحكمة الإنسانية عن إدراك أسرار القلب أو فهم مشورات الله ما لم يحصل الإنسان على نور خاص من السماء . إن أفكار الله وطرقه في علاقته بخلائقه هى فوق إدراك عقولنا المحدودة . ولكن لنا أن ندرك أن أولاده سيملأون الفراغ المؤهلون لملئه ، وسيكونون قادرين على إتمام نفس العمل المودع بين أيديهم إذا أخضعوا إرادتهم لله حتى لا يفسد تدابيره الصالحة فساد الإنسان .

عبر ألياب بعد أن فحصه صموئيل ، وتبعه على التوالي إخوته الست الباقون الذين كانوا حاضرين أثناء الخدمة ، ولكن بعدما فحصهم النبي لم يعلن الرب عن قبوله لأي واحد منهم . وفي قلق مؤلم نظر النبي إلى آخر واحد من أولئك الشبان وقد بدت عليه الحيرة والارتباك . فسأل يسى قائلا : «هَلْ كَمُلُوا الْغِلْمَانُ ؟» فأجابه الأب قائلا : «بَقِيَ بَعْدُ الصَّغِيرُ وَهُوَذَا يَرْعَى الْغَنَمَ» فأمره النبى قائلا : «أَرْسِلْ وَأْتِ بِهِ ، لأَنَّنَا لاَ نَجْلِسُ حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى ههُنَا» .

ذعر ذلك الراعي المنفرد من تلك الدعوة غير المنتظرة حين أعلن له الرسول أن النبي قد أتى إلى بيت لحم وأنه أرسل يستدعيه . فسأله باندهاش لماذا يرغب قاضي إسرائيل ونبيه أن يراه ، ولكنه أطاع الدعوة بدون إبطاء . «وَكَانَ أَشْقَرَ مَعَ حَلاَوَةِ الْعَيْنَيْنِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ» وعندما رأى صموئيل بفرح ذلك الغلام الراعي الجميل الشهم الوديع جاءه صوت الله يقول : «قُمِ امْسَحْهُ ، لأَنَّ هذَا هُوَ» لقد برهن داود على شجاعته

وأمانته وهو يقوم بعمله المتواضع في رعاية الغنم ، أما الآن فقد اختاره الرب رئيسا على شعبه ، «فَأَخَذَ صَمُوئِيلُ قَرْنَ الدُّهْنِ وَمَسَحَهُ فِي وَسَطِ إِخْوَتِهِ . وَحَلَّ رُوحُ الرَّبِّ عَلَى دَاوُدَ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ فَصَاعِدًا» لقد أنجز النبي العمل المنوط به ثم عاد إلى الرامة مرتاح القلب .

إن صموئيل لم يُعلِم أحدا بمهمته حتى ولا عآئلة يسى ، فتمت حفلة مسح داود في سرية تامة . كان ذلك تلميحا لهذا الشاب عن المستقبل السامي الذي ينتظره ، حتى في غمرة الاختبارات المختلفة والمخاطر التي ستصادفه في حياته المستقبلة ، تلهمه هذه المعرفة أن يكون أمينا لقصد الله الذي سيتممه في حياته .

ولكن تلك الكرامة العظيمة التي قد منحت لداود لم تجعله يتيه عجبا ، بل بالرغم من المركز السامي الذي كان سيشغله ظل يمارس عمله في هدوء منتظرا إتمام مقصد الرب في وقته المناسب وبكيفيته الخاصة . وكما كان ذلك الصبي الراعي وديعا ومتواضعا قبل مسحه ، عاد بعدئذ إلى التلال ليحرس غنمه ويرعاها بكل رقة ورفق كما كان قبلا . إلا أنه بإلهام جديد جعل يؤلف ألحانه ويضرب على عوده ، فانبسط أمامه ذلك المنظر ذو الجمال الغني المتنوع ، حيث تلألأت الكروم بعناقيد أثمارها في نور الشمس ، كما تمايلت أشجار الغابة أمام هبات النسيم ، ثم رأى الشمس تغمر السموات بنورها وهي مثل العروس الخارج من حجلته يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق . وكانت هنالك أيضا قمم الجبال الشامخة نحو السماء ، وعلى مسافة بعيدة ارتفعت قمم جبال موآب الجرداء ، وفوق هذه كلها ارتفعت القبة الزرقاء على علو عظيم . ووراء ذلك كان الله . لم يكن ذلك الفتى يستطيع أن يرى الله ، ولكن أعماله كانت تتحدث عن مجده . فنور النهار المنسكب على الغابات والجبال والمراعي وجداول المياه كان يسمو بالعقل إلى فوق ، حيث يرى أبا الأنوار الذي منه تنحدر كل عطية صالحة وكل موهبة تامة ، فالإعلانات اليومية لصفات الخالق وجلاله قد ملأت قلب ذلك الشاعر الشاب تعبدا وفرحا . وبالتأمل في الله وفي أعماله ، نمت قوى عقل داود وقلبه وتقوت فيه ليقوم بعمل حياته المستقبلة . كان في كل يوم يزيد شركته مع الله قوة وتوثقا . وكان عقله يتغلغل باستمرار في أعماق جديدة لمواضيع جديدة حتى يستلهم أغانيه ويوقظ موسيقى عوده ليترنم . إن الألحان العذبة التي كان يترنم بها

بصوته الرخيم وتحمل على أجنحة الهواء كانت التلال تردد صداهـــا ، حتـــى كأنـــها تجاوب مع بهجة أغاني الملائكة في السماء .

من ذا الذي يستطيع أن يقيس نتائج وتأثيرات تلك السنين سني التعب والتيهان بين التـــلال الموحشة ؟ إن شركة داود وعشرته مع الطبيعة ومع الله ، ورعايته لقطعانه ، والمخـــاطر التي حاقت به ، ونجاته منها ، وأحزان حياته المتواضعة وأفراحها ، لـــم تكـــن لتكـوّن أخلاقـــه وتؤثر على حياته المستقبلة فحسب ، ولكنها بواسطة مزامير مرنم إسرائيل الحلو كانت مـــدى الأجيال اللاحقة كلها ستضرم نار المحبة والإيمان في قلوب شعب الله لتقربهم إلى قلب إلهـــهم الذي لا تنقطع محبته والذي به تحيا كل خلائقه .

كان داود في نشاط شبابه وجماله يتأهب ليتبوأ مكانة مرموقة بين أشراف الأرض ، فذكاؤه وملكاته التي كانت هبات ثمينة من الله له قد استخدمت لتعظيم مجد مانحها الإلهي ، كمـــا أن الفرص المعطاة له للتفكير والتأمل زودته بتلك الحكمة والتقوى التي جعلته محبوبـــا مـــن الله وملائكته . فإذ كان يفكر في كمالات خالقه كانت تتكشف أمامه آراء أوضح عن الله ، فـــأريق نور على المواضيع الغامضة ، وحلت المشكلات ، والأمور المربكـــة صـــارت فـــي حالـــة انسجام ، وكل شعاعة من نور جديد كانت تشيع في نفسه أحاسيس فرح جديد غامر ، وتطلـــق منه أعذب تسابيح الحمد والولاء لمجد الله والفادي . إن المحبة التي حركته ، والأحزان التـــي أحدقت به ، والانتصارات التي لازمته ، كانت مواضيع يتأمل فيها عقله النشـــيط . وإذ كـــان يرى محبة الله في كل حوادث العناية في حياته كان قلبه يختلـــج بتكريـــس وشـــكر أعمـــق . وصوته العذب يرتفع منشدا بأنغام أشجى ، وألحانه التي يوقعها على عوده كانت تنطق بفـــرح أعظم . وهكذا كان ذلك الفتى الراعي يتقدم من قوة إلى قوة ومن معرفة إلى معرفـــة لأن روح الله كان حالا عليه .

الفصل الثالث والستون

داود وجليات

إن الملك شاول عندما أدرك أن الله قد رفضه ، وعندما أحس بقوة كلمات التشهير التي قد خاطبه النبي بها امتلأ قلبه تمردا ويأسا مريرين ، فلم تكن توبة حقيقية تلك التي جعلت رأس ذلك الملك المتكبر ينحني ، ولم يكن يدرك إدراكا واضحا مقدار خبث خطيته ، ولم يتنبه لإصلاح حياته بل جعل يطيل التأمل في ما ظن أنه ظلم من الله إذ جرده من عرش إسرائيل ، وحرم نسله من حق وراثة الملك . كان دائم التفكر في الخراب المتوقع الذي حل ببيته ، وشاعرا أن الشجاعة التي قد أبداها في منازلة أعدائه ، كان ينبغي أن تعوض عن خطية العصيان التي قد ارتكبها . إنه لم يقبل بوداعة تأديب الله ، بل إن روحه المتكبرة أمست يائسة قانطة حتى أوشك أن يفقد عقله ، فنصحه مشيروه أن يبحث عن موسيقار ماهر لينتفع بعزفه على أمل أن نغمات الموسيقى المهدئة الملطفة تسكن اضطراب روحه . وقد شاءت عناية الله أن يمثل داود الذي كان يحسن الضرب على العود ، أمام الملك . وكان لألحانه السامية الجميلة التي كانت بإلهام من الله ، التأثير المطلوب ، إذ أن أفكار الملك المحزنة وكآبته الخرساء التي جثمت على عقله كسحابة مظلمة انقشعت أمام تلك الموسيقى الساحرة .

وعندما كان يستغني عن خدمات داود في بلاط الملك كان يعود لرعاية قطعانه بين التلال ، وظل محتفظا ببساطة روحه في كل تصرفاته . إلا أنهم كانوا ، كلما دعت الحاجة ، يستدعونه ليعزف للملك ليهدئ اضطراب عقله ، ويرتاح حتى يذهب عنه الروح الرديء . ولكن مع أن شاول كان يعبر عن سروره بداود وموسيقاه فإن ذلك الراعي الشاب كان يعود من بيت الملك إلى حقوله ومراعيه في الجبال ، شاعرا بالراحة والفرح ومتنفسا الصعداء .

كان داود ينمو ويزيد كل يوم في النعمة عند الله والناس . لقد تعلم في طريق الرب ،

فوضع في قلبه ووطد عزمه كليا على أن يفعل إرادة الله الآن أكثر مما في أي وقت مضـــى ، كما كانت أمامه آنئذ مواضيع جديدة ليتأمل فيها . كان في بـــلاط الملـــك ورأى مســـؤوليات الملك ، واكتشف بعض التجارب التي كانت تكتنف نفس شاول ، كما تغلغل بفكره لاكتشـــاف بعض الأسرار التي في أخلاق أول ملوك إسرائيل ومعاملاته . لقد رأى مجد الملك وقد غشيته سحابة حزن سوداء ، كما عرف أن عائلة شاول في حياتها الخاصة لم تكن من السعادة علـــى شيء . كل تلك الحقائق جلبت الاضطراب على نفس ذاك الذي مســـح ليكـــون ملكـــا علـــى إسرائيل . ولكنه فيما كان غارقا في تأملاته العميقة وقد ضايقه جزعه كان يحتضـــن عـــوده ويداعب أوتاره فكانت تخرج ألحان تسمو بأفكاره إلى الله نبع كل خير وصلاح ، وإذا بالسحب السوداء التي بدا كأنها تظلم سماء المستقبل تنقشع في الحال .

كان الله يعلم داود دروس الاتكال والثقة . فكما تدرب موسى لكي يقوم بعمله . كذلك كـــان الرب يؤهل ابن يسى ليصير قائدا لشعبه المختار . وفي حراسته لقطعانه ورعايته إياها كـــان يزداد يوما فيوما تقديرا للرعاية التي يبديها راعي الخراف العظيم لغنم مرعاه .

إن التلال الموحشة والمهاوي الوعرة التي كان داود يتجول فيها بقطعانه كـــانت مخـــابئ تكمن فيها الوحوش . ومرارا كثيرة كان يخرج الأسد من الغابة عند نهر الأردن ، أو الـــدب من مكمنه بين التلال وقد زادت شراستهما فيهاجمان القطعان . وكما كان مألوفـــا فـــي تلـــك الأيام ، لم يكن بيد داود غير المقلاع وعصا الرعاية ، ومع ذلك فقد برهن منذ صبـــاه علـــى قوته وشجاعته في حراسة أغنامه . وبعد ذلك حين كان يصف إحدى تلك المعارك قال . «جَاءَ أَسَدٌ مَعَ دُبٍّ وَأَخَذَ شَاةً مِنَ الْقَطِيعِ ، فَخَرَجْتُ وَرَاءَهُ وَقَتَلْتُهُ وَأَنْقَذْتُهَا مِنْ فِيهِ ، وَلَمَّـــا قَـــامَ عَلَيَّ أَمْسَكْتُهُ مِنْ ذَقْنِهِ وَضَرَبْتُهُ فَقَتَلْتُهُ» (١صموئيل ١٧ : ٣٤ ، ٣٥) إن اختباره فـــي هـــذه الأمور كان فاحصا لقلبه ونمى في نفسه روح الشجاعة والثبات والإيمان .

واشتهر داود بالشجاعة وأعمال البطولة حتى قبلما استدعي إلى بلاط شاول ، كمـــا أعلـــن عنه الضابط الذي ذكره للملك قائلا عنه : «هُوَ جَبَّارُ بَأْسٍ وَرَجُـــلُ حَـــرْبٍ ، وَفَصِيـــحٌ ... وَالرَّبُّ مَعَهُ» (١صموئيل ١٦ : ١٨) .

لما أعلن إسرائيل الحرب على الفلسطينيين ذهب ثلاثة من أبناء يسى لينضموا إلى الجيـــش تحت قيادة شاول ، أما داود فبقي في البيت ، إلا أنه بعد قليل ذهب لزيارة معســـكر شـــاول .

وامتثالا لأمر أبيه كان عليه أن يحمل إلى إخوته الكبار رسالة وهدية ويستعلم عـن سـلامتهم وصحتهم . ولكن على غير علم يسى كان ذلك الراعي الشاب مكلفا برسالة أسمى وأعظم ، إذ قد أرشد ملاك داود أن يخلص شعبه حيث كانت جيوش إسرائيل في خطر وحينما اقترب داود من الجيش سمع أصوات هرج ومرج كما لو كان الجيشان مزمعين أن يشتبكا فـي معركـة ، «وَالْجَيْشُ خَارِجٌ إِلَى الاصْطِفَافِ وَهَتَفُوا لِلْحَرْبِ» (انظر ١صموئيل ١٧) واصطف إسـرائيل والفلسطينيون صفا مقابل صف . فركض داود إلى الجيش وأتى وسأل عن سـلامة إخوتـه . وفيما هو يكلمهم إذا برجل مبارز فلسطيني اسمه جليات قد خرج وجعل يتحدى إسرائيل بكـلام مهين ويدعوهم لمنازلته ، قائلا أن يعطوه رجلا من بين صفوفهم ينازله في صراع . ثـم كـرر هذه الدعوة للنزال . فلما رأى داود بني إسرائيل وإذا هم جميعا خائفون ومرتعبون ، وعلـم أن ذلك الفلسطيني ظل يلاحقهم بتحديه يوما بعد يوم دون أن يتقدم مبارز من إسرائيل ليسكت ذلـك الرجل الفخور احتدت روحه فيه ، والتهب قلبه غيرة على حفظ كرامـة الله الحـي وسـمعة شعبه .

اكتأبت جيوش إسرائيل وخانتهم شجاعتهم وقال أحدهم للآخر : «أَرَأَيْتُـمْ هـذَا الرَّجُـلَ الصَّاعِدَ ؟ لِيُعَيِّرَ إِسْرَائِيلَ هُوَ صَاعِدٌ !» فصاح داود في خزي وغضب قائلا : «مَنْ هُوَ هـذَا الْفِلِسْطِينِيُّ الأَغْلَفُ حَتَّى يُعَيِّرَ صُفُوفَ اللهِ الْحَيِّ ؟» .

ولما سمع ألياب أخو داود الأكبر هذه الكلمات عرف جيدا الأحاسيس التي كانت تعتمل فـي نفس ذلك الشاب . ومع أن داود كان راعيا فقد أبدى جرأة وشجاعة وقوة تندر مشاهدة مثلها ، ثم إن زيارة صموئيل الغامضة لبيت أبيهم وذهابه دون أن يتكلم ، كل ذلك أيقظ فـي عقـول إخوته الشكوك فيما عسى أن تكون الغاية الحقيقية من زيارته ، فثارت غيرتهم حين رأوا داود يحصل على كرامة أعظم منهم ، ولذلك لم يعاملوه بالإكرام والمحبة اللائقين باستقامته ورقتـه الأخوية ، ونظروا إليه على أنه راع مراهق . ثم إن ألياب اعتبر أن السؤال الذي سـأله داود هو توبيخ له على جبنه ، إذ لم يحاول إسكات جبار الفلسطينيين ، فصاح فـي أخيـه قـائلا : «لِمَاذَا نَزَلْتَ ؟ وَعَلَى مَنْ تَرَكْتَ تِلْكَ الْغُنَيْمَاتِ الْقَلِيلَةَ فِي الْبَرِّيَّةِ ؟ أَنَا عَلِمْتُ كِبْرِيَاءَكَ وَشَرَّ قَلْبِكَ ، لأَنَّكَ إِنَّمَا نَزَلْتَ لِكَيْ تَرَى الْحَرْبَ» ، كان جواب داود الذي بدا فيه الاحترام والجـزم هو قوله : «مَاذَا عَمِلْتُ الآنَ ؟ أَمَا هُوَ كَلاَمٌ ؟» .

وصل كلام داود إلى مسامع الملك الذي استدعى إليه ذلك الشاب وقد أصغى شاول بدهشة إلى كلام ذلك الراعي حين قال : «لاَ يَسْقُطْ قَلْبُ أَحَدٍ بِسَبَبِهِ . عَبْدُكَ يَذْهَبُ وَيُحَارِبُ هذَا الْفِلِسْطِينِيَّ» حاول شاول أن يثني داود عن عزمه ، ولكن ذلك الشاب لم يكن ليتزحزح عما انتواه . فأجابه داود جوابا بسيطا متواضعا مخبرا إياه باختباره حين كان يرعى غنم أبيه إذ قال له : «الرَّبُّ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ يَدِ الأَسَدِ وَمِنْ يَدِ الدُّبِّ هُوَ يُنْقِذُنِي مِنْ يَدِ هذَا الْفِلِسْطِينِيِّ . فَقَالَ شَاوُلُ لِدَاوُدَ : «اذْهَبْ وَلْيَكُنِ الرَّبُّ مَعَكَ»» .

لقد ظل رجال إسرائيل خائفين ومرتعبين أربعين يوما وهم يسمعون التعبيرات المتعجرفة التي كان ينطق بها ذلك الفلسطيني ، فذابت قلوبهم وهم ينظرون إلى جسمه الضخم الهائل إذ كان طوله ست أذرع وشبر ، وكان يلبس على رأسه خوذة من نحاس ودرعا حرشفيا وزنه خمسة آلاف شاقل نحاس ، وكان على رجليه جرموقا نحاس ودرعه من نحاس متداخل في بعضه كحراشف السمك ، كما كانت كل أجزائه متماسكة بحيث لا يمكن بأي حال أن تخترقه طعنات الرماح . وكذلك كان بين كتفيه مزراق نحاس «وَقَنَاةُ رُمْحِهِ كَنَوْلِ النَّسَّاجِينَ ، وَسِنَانُ رُمْحِهِ سِتُّ مِئَةِ شَاقِلِ حَدِيدٍ ، وَحَامِلُ التُّرْسِ كَانَ يَمْشِي قُدَّامَهُ» .

كان جليات يقترب من معسكر إسرائيل صباحا ومساء ويقول لهم بصوت عال : «لِمَاذَا تَخْرُجُونَ لِتَصْطَفُّوا لِلْحَرْبِ ؟ أَمَا أَنَا الْفِلِسْطِينِيُّ ، وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ لِشَاوُلَ ؟ اخْتَارُوا لأَنْفُسِكُمْ رَجُلاً وَلْيَنْزِلْ إِلَيَّ . فَإِنْ قَدَرَ أَنْ يُحَارِبَنِي وَيَقْتُلَنِي نَصِيرُ لَكُمْ عَبِيدًا ، وَإِنْ قَدَرْتُ أَنَا عَلَيْهِ وَقَتَلْتُهُ تَصِيرُونَ أَنْتُمْ لَنَا عَبِيدًا وَتَخْدِمُونَنَا . وَقَالَ الْفِلِسْطِينِيُّ : أَنَا عَيَّرْتُ صُفُوفَ إِسْرَائِيلَ هذَا الْيَوْمَ . أَعْطُونِي رَجُلاً فَنَتَحَارَبَ مَعًا» .

ومع أن شاول أعطى داود إذنا بقبول تحدي جليات إلا أن أمله بانتصار داود في ذلك العمل الباسل كان ضئيلا ، غير أنه أمر بأن يلبسوا داود عدة الملك نفسه ، فألبس خوذة النحاس الثقيلة على رأسه ، ووضع الدرع الحرشفي على جسمه وتقلد سيف الملك . وإذ لبس عدة الحرب تقدم لمنازلة الجبار . ولكن سرعان ما بدأ يتراجع . وأول ما خطر للمشاهدين الجزعين حين رأوه يفعل هكذا هو أن داود قد عدل عن المخاطرة بحياته في منازلة خصم ليس هو ندا له . إلا أن هذا لم يكن ليخطر على بال ذلك الشاب الشجاع ، إذ حين عاد إلى شاول التمس منه أن يسمح له بنزع تلك الأسلحة الثقيلة قائلا : «لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَمْشِيَ بِهذِهِ ،

لأَنِّي لَمْ أُجَرِّبْهَا» وعندما نزع عنه سلاح الملك استبدله بعصاه وكنف الرعاة ومقـــلاع . ثـم انتخب خمسة حجارة ملس من الوادي ووضعها في الكنف وأخذ عصاه بيـــده واقــترب مــن الفلسطيني . سار الجبار بشجاعة إلى الأمام وهو يتوقع أن خصمه سـيكون أقــوى محــاربي إسرائيل ، كما كان حامل سلاحه يسير أمامه وقد تراءى له أنه لا يمكن أن أيــة قــوة تثبــت أمامه . وحينما اقترب من داود لم ير غير شاب مراهق يمكن أن يدعى غلاما لصغر ســـنه ، إلا أن محياه كان موفور الصحة ، كما كان ذا قوام مفتول ، وكونه أعزل يجعل الأمـــر فــي صالح ذلك الجبار ، كما كان الفرق عظيما جدا بين ضآلـــة جســـمه وضخامـــة جسـم ذلــك الفلسطيني .

امتلأ جليات دهشة وغيظا فصاح «أَلَعَلِّي أَنَا كَلْبٌ حَتَّى أَنَّكَ تَأْتِي إِلَيَّ بِعِصِيٍّ ؟» ثم جعـل يصب أفظع لعناته على داود باسم كل الآلهة التي عرفها ، وفي سخرية واحتقار . قال لـــه : «تَعَالَ إِلَيَّ فَأُعْطِيَ لَحْمَكَ لِطُيُورِ السَّمَاءِ وَوُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ» .

لكن داود لم يضعف أمام ذلك المبارز الفلسطيني ، بل إذ تقدم إلى الأمام قـال لخصمـه : «أَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ بِسَيْفٍ وَبِرُمْحٍ وَبِتُرْسٍ ، وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ بِاسْمِ رَبِّ الْجُنُـــودِ إِلـهِ صُفُـوفِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ عَيَّرْتَهُمْ . هذَا الْيَوْمَ يَحْبِسُكَ الرَّبُّ فِي يَدِي ، فَأَقْتُلُكَ وَأَقْطَعُ رَأْسَكَ . وَأُعْطِي جُثَثَ جَيْشِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ هذَا الْيَوْمَ لِطُيُورِ السَّمَاءِ وَحَيَوَانَاتِ الأَرْضِ ، فَتَعْلَمُ كُـــلُّ الأَرْضِ أَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ لإِسْرَائِيلَ . وَتَعْلَمُ هذِهِ الْجَمَاعَةُ كُلُّهَا أَنَّهُ لَيْسَ بِسَـــيْفٍ وَلاَ بِرُمْـحٍ يُخَلِّـصُ الرَّبُّ ، لأَنَّ الْحَرْبَ لِلرَّبِّ وَهُوَ يَدْفَعُكُمْ لِيَدِنَا» .

كان داود يتكلم بكل شجاعة وكانت ترى على وجهه لوائح النصرة والفرح ، فنطق بـــهذا الكلام بصوته الموسيقى الجلي الذي حمل على أجنحة الهواء ، وسمعته بكل وضـــوح ألــوف الرجال المصطفين للحرب إذ كانوا يصيخون السمع إلى ما قال . لقد بلغ غضب جليات أقصى حدوده . وفي غضبه أزاح الخوذة التي كانت تقي جبهته واندفع إلى الأمام ليثأر من خصمـه ، حيث كان ابن يسى متأهبا لمنازلة عدوه ، «وَكَانَ لَمَّا قَامَ الْفِلِسْطِينِيُّ وَذَهَبَ وَتَقَدَّمَ لِلِقَـاءِ دَاوُدَ أَنَّ دَاوُدَ أَسْرَعَ وَرَكَضَ نَحْوَ الصَّفِّ لِلِقَاءِ الْفِلِسْطِينِيِّ . وَمَدَّ دَاوُدُ يَدَهُ إِلَى الْكِنْفِ وَأَخَذَ مِنْـهُ حَجَرًا وَرَمَاهُ بِالْمِقْلاَعِ ، وَضَرَبَ الْفِلِسْطِينِيَّ فِي جِبْهَتِهِ ، فَارْتَزَّ الْحَجَرُ فِي جِبْهَتِهِ ، وَسَـقَطَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ» .

عقدت الدهشة ألسنة كل رجال الجيشين الذين كانوا موقنين أن داود سيقتل ، ولكن عندما انطلق الحجر يصفر في الهواء إلى هدفه مباشرة ، تطلع رجال الجيش وإذا بالجبار يرتجف ويمد يده إلى الأمام كما لو كان قد أصيب بالعمى المفاجئ ، ثم صار الجبار يتمايل ويترنح حتى سقط على الأرض كما لو كان شجرة بلوط . لم يتوان داود برهة واحدة ، بل وثب على جسم ذلك الفلسطيني المجندل ، وبكلتا يديه أمسك بسيف جليات الثقيل . لقد كان ذلك الجبار يفتخر قبل ذلك بلحظة أنه بذلك السيف سيفصل رأس داود عن جسده ويعطي لحمه لطيور السماء . ولكن ها هو السيف يرتفع في الهواء وإذا برأس ذلك الفلسطيني المتعجرف ينفصل عن جسده ، فيرتفع صوت الهتاف والابتهاج من معسكر إسرائيل .

حينئذ شمل جيوش الفلسطينيين رعب عظيم وأصابهم الارتباك فولوا الأدبار ، واندفعوا هاربين . وقد رددت قمم الجبال صدى صيحات انتصار العبرانيين وهم يندفعون لمطاردة أعدائهم الهاربين ، «لَحِقُوا الْفِلِسْطِينِيِّينَ حَتَّى مَجِيئِكَ إِلَى الْوَادِي ، وَحَتَّى أَبْوَابِ عَقْرُونَ . فَسَقَطَتْ قَتْلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ فِي طَرِيقِ شَعَرَايِمَ إِلَى جَتَّ وَإِلَى عَقْرُونَ . ثُمَّ رَجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ الاحْتِمَاءِ وَرَاءَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَنَهَبُوا مَحَلَّتَهُمْ . وَأَخَذَ دَاوُدُ رَأْسَ الْفِلِسْطِينِيِّ وَأَتَى بِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ ، وَوَضَعَ أَدَوَاتِهِ فِي خَيْمَتِهِ» .

الفصل الرابع والستون

داود المُطارَد

بعد قتل جليات أبقى شاول داود عنده ولم يسمح له بالعودة إلى بيت أبيه . وحدث «أَنَّ نَفْسَ يُونَاثَانَ تَعَلَّقَتْ بِنَفْسِ دَاوُدَ ، وَأَحَبَّهُ يُونَاثَانُ كَنَفْسِهِ» (انظر ١صموئيل ١٨– ٢٢) فقطع داود ويوناثان عهدا بأن يرتبطا معا كأخوين . ثم حدث أن ابن الملك «خَلَعَ ... الْجُبَّةَ الَّتِي عَلَيْهِ وَأَعْطَاهَا لِدَاوُدَ مَعَ ثِيَابِهِ وَسَيْفِهِ وَقَوْسِهِ وَمِنْطَقَتِهِ» كما وكلت إلى داود مسؤوليات جسام ، ومع ذلك ظل محتفظا بوداعته ، فظفر بحب الشعب وبيت الملك أيضاً .

«وَكَانَ دَاوُدُ يَخْرُجُ إِلَى حَيْثُمَا أَرْسَلَهُ شَاوُلُ . كَانَ يُفْلِحُ . فَجَعَلَهُ شَاوُلُ عَلَى رِجَالِ الْحَرْبِ» كان داود فطنا وأمينا ، كما تبين أن بركة الله كانت عليه ، ومرافقة له . وبدا لشاول في بعض الأحيان أنه لا يصلح لحكم إسرائيل ، بل أحس بأن المملكة يمكن أن تكون مصونة أكثر إن اشترك معه شخص له علاقة بالرب ، فرجا شاول أن يكون ارتباطه بداود حارسا يحميه . وبما أن الرب كان راضيا عن داود ، ودرأ عنه المخاطر ، فإن وجوده مع شاول يمكن أن يكون واقيا له حين يخرج معه للحرب .

إن عناية الله هي التي ربطت بين داود وشاول ، لأن مركز داود في البلاط الملكي أعطاه معرفة وخبرة بالشؤون كافة استعدادا لمستقبله العظيم ، وهذا ما يساعده على أن يظفر بثقة الأمة . غير أن التقلبات والمظالم التي حاقت به بسبب عداوة شاول له قادته إلى الاعتماد على الله ووضع كل ثقته به تعالى ، كما أن صداقة يوناثان ومحبته لداود كانت هي الأخرى من ترتيبات عناية الله لأجل حفظ حياة ملك إسرائيل العتيد . وفي كل هذه الأمور كان الله يتمم مقاصده الصالحة لداود ولشعب إسرائيل .

ومع ذلك فإن شاول لم يثبت على صداقته لداود طويلا ، إذ حينما كان شاول وداود عائدين من الحرب مع الفلسطينيين حدث «أَنَّ النِّسَاءَ خَرَجَتْ مِنْ جَمِيعِ مُدُنِ إِسْرَائِيلَ

بِالْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ لِلِقَاءِ شَاوُلَ الْمَلِكِ بِدُفُوفٍ وَبِفَرَحٍ وَبِمُثَلَّثَاتٍ» فغنت جماعة من النسوة قائلات : «ضَرَبَ شَاوُلُ أُلُوفَهُ» وإذا بجماعة أخرى تجيبهن قائلات : «وَدَاوُدُ رِبْوَاتِهِ» فدخل شيطان الغيرة إلى قلب الملك شاول ، الذي غضب لأن نساء إسرائيل رفعن مقام داود في تلك الأغنية وجعلنه أسمى من مقامه . فبدلا من أن يكبت مشاعر الحسد هذه إظهر ضعفا في أخلاقه فصاح قائلا : «أَعْطَيْنَ دَاوُدَ رِبْوَاتٍ وَأَمَّا أَنَا فَأَعْطَيْنَنِي الأُلُوفَ ! وَبَعْدُ فَقَطْ تَبْقَى لَهُ الْمَمْلَكَةُ» .

كان في أخلاق شاول نقص عظيم ، وهو أنه أحب مدح الناس له ، وكان لهذه الخلة تأثير تحكَّم في أعماله وأفكاره ، كما طبع كل شيء بطابع الرغبة في المديح وتعظيم الذات . ومقياس الصواب والخطأ في نظره كان هو ذلك المقياس المنخفض مقياس الشهرة واستحسان الجماهر . إن ذلك الإنسان الذي يعيش ليرضي الناس لا أمان له ، ذاك الذي لا يطلب أولا رضى الله واستحسانه . لقد كان مطمح شاول أن يكون هو الأول في اعتبار الناس ، وعندما سمع أغنية المدح تلك رسخ في عقله اقتناع ثابت بأن داود سيستميل قلوب الشعب ويملك بدلا منه .

فتح شاول قلبه لروح الحسد الذي سمم حياته . وبالرغم من الدروس التي تلقاها من صموئيل النبي بأن الله سيتمم ما يختاره ، وأن أحدا من الناس لا يستطيع أن يعرقل عمل الله ، فقد برهن الملك على أنه ليست لديه أية معرفة عن تدبيرات الله وقوته . جعل ملك إسرائيل إرادته تقاوم إرادة الله السرمدي . إن شاول حين كان يملك على إسرائيل لم يتعلم أن يكون له سلطان على روحه ، فسمح لبواعثه ودوافعه أن تتسلط على أفكاره إلى أن تردى في هاوية السخط والغضب الثائر . وكانت تهاجمه نوبات الغضب حين كان يحاول قتل أي من يقاوم إرادته . وكان ينحدر من هذا الخبال إلى حالة أخرى هي حالة اليأس واحتقار النفس ، فتمتلك نفسه روح تبكيت الضمير .

كان يحب أن يستمع إلى داود وهو يضرب على عوده ، وكان يبدو أن الروح الشرير يزايله ويذهب عنه إلى حين ، ولكن في أحد الأيام حين كان ذلك الشاب يخدم أمامه ويلمس بأنامله أوتار العود فتخرج أنغام ساحرة ، وصوته يصاحب أنغام العود وهو يسبح الله ، إذا بالملك يصوب رمحه إلى ذلك الموسيقار فجأة محاولا أن يقضي على حياته .

650,651

فحفظت حياة داود بتدخل الله ، فهرب من غضب ذلك الملك المختبل العقل دون أن يمسه أذى .

وإذ زادت بغضة شاول لداود جعل يترقب الفرص بأكثر اهتمام لعله يقضي عليه ، ولكن لم تنجح أية خطة من خططه التي دبرها ضد مسيح الرب ، فأسلم شاول نفسه لسلطان ذلك الروح الرديء الذي تحكم فيه . أما داود فقد اتكل على ذاك الذي له المشورة القوية والقادر على أن يخلص . «بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ» (أمثال ٩ : ١٠) وكان داود على الدوام يوجه صلاته إلى الله حتى يستطيع أن يسلك أمامه في طريق كامل .

ولكي يتخلص الملك من وجود منافسه «فَأَبْعَدَهُ شَاوُلُ عَنْهُ وَجَعَلَهُ لَهُ رَئِيسَ أَلْفٍ ... وَكَانَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا يُحِبُّونَ دَاوُدَ» وسرعان ما لمس الشعب كفاءة داود ، ورأوا أن كل عمل أسند إليه كان يعمله بحكمة ودراية ، كما كانت مشورات ذلك الشاب متصفة بالحكمة والفطنة وبرهنت على أن اتباعها يكفل السلامة ، بينما كان حكم شاول مما لا يعتمد عليه كما أن قراراته لم تكن حكيمة .

ومع أن شاول كان دائما يقظا يتحين الفرص لإهلاك داود ، غير أنه بات خائفا منه لأنه رأى أن الرب معه . إن صفات داود التي كانت بلا لوم أثارت غضب الملك ، فأحس أن نفس حياة داود ووجوده كانا توبيخا صارما له إذ بالمقارنة تبرهن أن أخلاق داود أفضل من أخلاقه . إن حسد شاول هو الذي جلب عليه التعاسة ، وعرض للخطر حياة أحد رعاياه المتواضعين (داود) . ما أعظم ما أحدثت هذه الصفة من مساوئ في العالم ! إن نفس العداوة التي أثارت قلب قايين ضد أخيه هابيل ، هي التي ملكت على قلب شاول ، لأن أعمال هابيل كانت بارة فأكرمه الله ، أما أعماله هو فكانت شريرة فلم يمكن أن يباركه الرب . إن الحسد هو وليد الكبرياء ، وإذا أبقي عليه في القلب فسيقود إلى البغضاء وأخيرا سيفضي إلى الانتقام والقتل . وقد أظهر الشيطان خلقه الشرير إذ أثار سخط شاول ضد ذاك الذي لم يسئ إليه في شيء .

وقد راقب الملك داود مراقبة دقيقة ، مؤملا أن يأخذ عليه عملا من أعمال النزق أو الطيش حيث يمكن أن يصلح عذرا للملك به يجلب على داود الفضيحة والعار . وقد أحس أنه لن يستريح حتى يقضي على ذلك الشاب بالموت وفي نفس الوقت تزكي الأمة ذلك الاعتداء الأليم ، فنصب فخا لرجلي داود إذ ألح عليه أن يواصل الحرب ضد الفلسطينيين بأعظم همة

وعزيمة ، ووعده ، في مقابل شجاعته ، بأن يزوجه من كبرى بنات البيت المالك . فأجاب داود عن هذا الاقتراح بوداعة قائلا : «مَنْ أَنَا ، وَمَا هِيَ حَيَاتِي وَعَشِيرَةُ أَبِي فِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَكُونَ صِهْرَ الْمَلِكِ ؟» ولكن الملك كان منافقا ، إذ زوَّج الأميرة من رجل آخر .

ثم أتاحت محبة ميكال ، صغرى البنات ، لداود ، فرصة أخرى للملك ليتآمر على حياة خصمه . وقد عرض على داود أن يتزوج ميكال بشرط أن يقدم البرهان على أنه قد هزم أعداء الأمة الإسرائيلية وقتل عددا محددا منهم ، «وَكَانَ شَاوُلُ يَتَفَكَّرُ أَنْ يُوقِعَ دَاوُدَ بِيَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ» ولكن الله صان حياة عبده فعاد داود من الحرب ظافرا ليصيرصهرا للملك «وَمِيكَالُ ابْنَةُ شَاوُلَ أَحَبَّتْ دَاوُدَ» وقد رأى الملك الثائر الغضوب أن كل مؤامراته قد رفعت من شأن ذاك الذي كان يريد هو أن يهلكه ، ثم زاد يقينه بأن هذا هو الرجل الذي قال الرب عنه إنه خير منه ، والذي يجب أن يملك على عرش إسرائيل من بعده . ظهر شاول على حقيقته حين أصدر أمره إلى يوناثان وإلى كل عبيده أن يقتلوا ذاك الذي كان هو يبغضه .

إلا أن يوناثان أعلن لداود ما قصد الملك أن يفعله به ، وطلب منه أن يختبئ ريثما يتوسل هو إلى أبيه حتى يبقي على حياة منقذ إسرائيل ، ثم بسط أمام الملك ما قد فعله داود لصيانة كرامة الأمة بل حياتها ، كما أبان له هول الجريمة التي ستستقر على رأس من يقتل ذاك الذي استخدمه الله في سحق قوة أعداء إسرائيل . فتأثر ضمير شاول ولان قلبه «وَحَلَفَ شَاوُلُ : حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ لاَ يُقْتَلُ» فأحضر داود إلى شاول وصار يخدم أمامه كما كان يفعل فيما مضى .

ومرة أخرى أعلنت الحرب بين الإسرائيليين والفلسطينيين ، فقاد داود الجيش ضد أعدائهم . وقد أعطى الله العبرانيين نصرا عزيزا . فامتدح رجال الدولة حكمة داود وبطولته ، فأثار هذا كوامن بغضة شاول لداود . وبينما كان ذلك الشاب يضرب على العود أمام الملك ، وقد امتلأت جوانب القصر بالأنغام الشجية غلب شاولَ غضبُه فصوَّب رمحه إلى داود محاولا أن يطعن ذلك الموسيقار حتى إلى الحائط . ولكن ملاك الرب أبعد تلك الطعنة المميتة فهرب داود إلى بيته ونجا ، فأرسل شاول جواسيس ليراقبوه حتى إذا خرج في الصباح فتكوا به .

أخبرت ميكال داود بنوايا أبيها من نحوه ، وألحت عليه أن يهرب لحياته ، فأنزلتـــه مـــن الكوة ، وهكذا أعانته على أن ينجو بحياته . هرب داود إلى صموئيل في الرامة فرحب النبـــي بذلك الهارب غير خائف من غضب الملك . وكان بيت صموئيل مكانا أمينـــا بالمقارنـــة مـــع قصر الملك ، إذ في هذا المكان الكائن وسط التلال كان خادم الله المكرم يواصل عمله ، ومعه جماعة من الرائين الذين كانوا يدرسون إرادة الله بكل تدقيق . وبكل وقار كـــانوا يســـتمعون للتعاليم التي ينطق بها صموئيل . ما كان أثمن وأغلى الدروس التي تعلمها داود مـــن معلـــم إسرائيل ! كان داود يعتقد أن الملك لن يأمر جيوشه بغزو هذا المكان المقدس ، ولكن ظـــلام عقل ذلك الملك المتهور لم يعد يرعى حرمة أي مكان مهما كان مقدسا . إن الصلة التي كانت بين داود وصموئيل أثارت حسد الملك ، خشية أن يعمل نفوذ ذاك الذي كان مكرما مـــن كـــل إسرائيل كنبي الله على مساعدة خصم شاول على ارتقاء العرش . فلما عرف شـــاول بمكـــان داود ، أرسل رجاله ليأتوا به إلى جبعة لكي ينفذ فيه مقاصده الإجرامية .

سار رسل الملك في طريقهم وقد صمموا على قتل داود ، ولكن من هو أعظم من شـــاول منعهم من ذلك . لقد التقاهم ملائكة غير منظورين كما حدث لبلعام حين كـــان ذاهبـــا ليلعـــن إسرائيل ، فبدأوا ينطقون بأقوال نبوية عما سيحدث في المستقبل وأعلنوا مجد الرب وجلالـــه . وهكذا سيطر الله على غضب الإنسان فأظهر قدرته على إيقاف الشر عند حده ، بينما أحـــاط عبده بجمهور من الملائكة لحراسته .

وصلت الأخبار إلى مسامع الملك الذي كان يتحرق شوقا إلى أن يقع داود فـــي قبضتـــه ، ولكن بدلا من أن يحس بتوبيخ الله زاد اشتعالا وأرسل رسلا آخرين ، ولكن حتى هؤلاء سيطر عليهم روح الله واشتركوا مع الرسل الأولين فجعلوا يتنبأون . وثم أرسل رسلا مـــرة ثالثـــة ، ومن حين انضموا إلى الأنبياء ، حلت عليهم قوة الله أيضا وصاروا يتنبأون ، حينئـــذ صمـــم شاول على الذهاب بنفسه لأن عداوته العنيفة لم يمكن ضبطها . فعزم على ألا ينتظر فرصـــة أخرى لإهلاك داود . وحالما يقع في متناول يده لا بد أن يذبحه بيده مهما تكن النتائج .

ولكن ملاكا من ملائكة الله التقى الملك في طريقه وســـيطر عليـــه ، وضبطـــه روح الله بقوته ، فتقدم إلى الأمام وكان يصلي إلى الله ، وقد تخللت تلك الصلـــوات تنبـــؤات وتســـابيح مقدسة ، كما تنبأ عن مسيا الآتي كفادي العالم . وحين وصل إلى بيت النبي في الرامة خلـــع

ثيابه الخارجية التي تكشف عن مقامه ، وبقي منطرحا أمام صموئيل وتلاميذه طـــول النـــهار والليل وهو تحت تأثير روح الله . وقد أتى الشعب من أماكن بعيدة لمشـــاهدة هــذا المنظــر الغريب ، حتى ذاع خبر اختبار الملك هذا في كل مكان . وهكذا مرة أخرى قبل نهاية حكـــم شاول ذهب هذا القول مثلا : «أَشَاوُلُ أَيْضًا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ ؟» .

ومرة أخرى أحبطت نوايا ذلك الملك المضطهد . ومع أنه أكد لداود أنه لم يعد يضمر لـــه شرا ، إلا أن ذلك الشاب كان ضعيف الثقة بصدق توبة الملك ، فاغتنم هذه الفرصة وهـــرب لئلا يتعكر مزاج الملك كما قد حدث من قبل . لقد كان قلبه جريحا في داخله فاشتاق إلى رؤية صديقه يوناثان مرة أخرى . وإذ كان واثقا من سلامة نواياه ذهب إلى ابن الملك يطلبه وقال له بكل تأثر : «مَاذَا عَمِلْتُ ؟ وَمَا هُوَ إِثْمِي ؟ وَمَا هِيَ خَطِيَّتِي أَمَامَ أَبِيكَ حَتَّى يَطْلُبَ نَفْسِـي ؟» كان يوناثان يعتقد أن أباه عدل عما كان ينوي أن يفعله بداود وأنه لم يعد يطلب قتلـــه ، فقـــال يوناثان : «حَاشَا . لاَ تَمُوتُ ! هُوَذَا أَبِي لاَ يَعْمَلُ أَمْرًا كَبِيرًا وَلاَ أَمْرًا صَغِيرًا إِلاَّ وَيُخْبِرُنِي بِهِ . وَلِمَاذَا يُخْفِي عَنِّي أَبِي هذَا الأَمْرَ ؟ لَيْسَ كَذَا» فبعدما أظهر الرب قدرته بكيفية عظيمـــة لم يكن يوناثان يعتقد أن أباه سيلحق أي أذى بداود لأن ذلك يكون تمردا صريحـــا علـــى الله . ولكن داود لم يقتنع بذلك ، وبكل حرارة وغيرة أعلن ليوناثان قائلاً : «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، وَحَيَّـةٌ هِيَ نَفْسُكَ ، إِنَّهُ كَخَطْوَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَوْتِ» .

وعند الهلال احتفل شعب أسرائيل بعيد مقدس . وهذا العيد وقع في اليوم التـــالي لمقابلـــة يوناثان لداود ، وكان ينتظر حضور ذينك الشابين إلى وليمة الملك ، ولكن داود كان يخشـــى الوجود مع الملك ، كما كان هنالك ترتيب أن يذهب لزيارة إخوته في بيت لحم . وبعد عودتـــه كان عليه أن يختبئ في حقل قريب من بيت الوليمة فغاب عن الملك ثلاثة أيام وكـــان علـــى يوناثان أن يلاحظ تأثير ذلك في شاول . فلو سأله أبوه عن مكان وجود ابن يسى كـــان علـــى يوناثان أن يقول إنه ذهب إلى بيت لحم لحضور الذبيحة التي ستقدمها عائلة أبيه . فإذا لم يبـــد على الملك الغضب وإنما قال : «حَسَنًا» فيمكن أن يطمئن داود– إلى الذهاب إلى بلاط الملك . أما إذا ثار واهتاج لغياب داود فلا بد من أن يهرب داود لحياته .

وفي أول أيام الوليمة لم يتكلم الملك شيئا عن غياب داود . ولكن لما خلا موضعه في الغـد الثاني سأل الملك قائلا : «لِمَاذَا لَمْ يَأْتِ ابْنُ يَسَّى إِلَى الطَّعَامِ لاَ أَمْسِ وَلاَ الْيَوْمَ ؟ فَأَجَـــابَ

يُونَاثَانُ شَاوُلَ : إِنَّ دَاوُدَ طَلَبَ مِنِّي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ ، وَقَالَ : أَطْلِقْنِي لأَنَّ عِنْدَنَا ذَبِيحَةَ عَشِيرَةٍ فِي الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ أَوْصَانِي أَخِي بِذلِكَ . وَالآنَ إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَدَعْنِي أُفْلِتُ وَأَرَى إِخْوَتِي . لِذلِكَ لَمْ يَأْتِ إِلَى مَائِدَةِ الْمَلِكِ» وعندما سمع شاول هذا الكلام أفلت زمام غضبه ، وأعلن أنه ما دام داود على قيد الحياة فإن يوناثان لن يستطيع أن يكون ملكا على إسرائيل وأمر بأن يؤتى بداود حالا ليقتل . ومرة أخرى توسل يوناثان لأجل صديقه : «لِمَاذَا يُقْتَلُ ؟ مَاذَا عَمِلَ ؟» ولكن هذا التوسل زاد من شيطانية الملك في غضبه ، وصابى شاول الرمح الذي كان قد أعده ليقتل به داود ، نحو ابنه .

لقد ثار حزن ذلك الأمير وغضبه . وإذ خرج من الحضرة الملكية لم يعد ضيفا في الوليمة . لقد انحنت نفسه حزنا حين ذهب في الوقت المعين إلى البقعة التي كان سيعرف داود فيها نية الملك نحوه . وقد وقع كل من ذينك الشابين على عنق الآخر وبكيا أمر البكاء . إن غضب الملك الشديد ألقى ظلاله السوداء على حياتهما ، فكان حزنهما شديدا جدا بحيث يصعب التعبير عنه . وقد وقعت كلمات يوناثان الأخيرة في مسمع داود وهما يفترقان ليذهب كل في طريقه : «اذْهَبْ بِسَلاَمٍ لأَنَّنا كِلَيْنَا قَدْ حَلَفْنَا بِاسْمِ الرَّبِّ قَائِلَيْنِ : الرَّبُّ يَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ نَسْلِي وَنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ» .

ثم عاد ابن الملك إلى جبعة . أما داود فأسرع ليذهب إلى نوب ، وهي مدينة تبعد عن ذلك المكان أميالا قليلة ، وهى أيضا إحدى مدن سبط بنيامين . كما أن خيمة الاجتماع قد نقلت من شيلوه إلى هذا المكان ، حيث كان أخيمالك رئيس الكهنة يخدم فيها . لم يكن داود يعلم إلى أين يذهب ليختبئ إلا إلى خادم الله . وقد نظر الكاهن إلى داود باندهاش لأنه أتى وحده على ما بدا ، وبسرعة ، وكان يبدو على وجهه الحزن والانزعاج . فسأله عما أتى به إلى هناك ، بينما كان الخوف المستمر يساور هذا الشاب لئلا يعرف أحد مكانه . وفي أشد حالات كربه لجأ إلى الخداع ، فأخبر الكاهن بأن الملك أرسله في مهمة سرية تتطلب أعظم سرعة . وهنا أظهر ضعف إيمانه بالله وكان من نتائج خطيته موت رئيس الكهنة . فلو أن داود أخبره بالحقيقة لكان الكاهن أخيمالك قد عرف أسلم طريق يسلكه ليحفظ حياته . إن الله يطلب أن يمتاز شعبه على من سواهم بالصدق في القول ، حتى ولو كانوا مهددين بأعظم المخاطر . ثم سأله داود أن يعطيه خمس خبزات ، إلا أنه لم يكن لدى رجل الله غير الخبز المقدس . ولكن داود أفلح في إزالة شكوك الكاهن

فحصل على خبز يسد به جوعه .

إن خطرا جديدا كان يتهدد داود ، وذلك أن دواغ رئيس رعاة شاول الذي قد اعتنق الدين اليهودي ، كان يتمم نذوره في موضع العبادة . فإذ رأى داود هذا الرجل عقد العزم على الإسراع في البحث عن مكان آخر يلجأ إليه . ولكي يحصل على سلاح يدافع به عن نفسه عند الضرورة ، طلب من أخيمالك أن يعطيه سيفا ، فقال له لا سيف عنده إلا سيف جليات الذي حفظ كأثر في المقدس فقال داود : «لاَ يُوجَدُ مِثْلُهُ ، أَعْطِنِي إِيَّاهُ» وقد عادت إليه شجاعته حالما قبض على السيف الذي استعمله قبلا في قتل البطل الفلسطيني .

هرب داود إلى أخيش ملك جت لأنه أحس بأنه يجد أمنا وسط أعداء شعبه أكثر مما في مملكة شاول . ولكن عبيد أخيش قالوا له ، إن داود هو الذي قتل البطل الفلسطيني منذ سنين ، وإذا بذاك الذي طلب الاحتماء في أرض أعدائه يجد نفسه في خطر عظيم ، غير أنه بتظاهره بالجنون خدع أعداءه ، وهكذا دبر أمر نجاته .

إن أول غلطة ارتكبها داود كانت عدم ثقته بالله وهو في نوب ، أما الغلطة الثانية فكانت خداعه لأخيش . لقد ظهرت في داود صفات نبيلة ، وهذه الصفات جعلته ينال نعمة في عيون شعبه . ولكن لما هجمت عليه التجربة تزعزع إيمانه فظهر ضعف بشريته ، وكان يرى أن كل إنسان هو جاسوس وخائن . إن داود إذ كان في حالة اضطرار شديد رفع نظره إلى الله بإيمان راسخ ، فانتصر على جبار الفلسطينيين . لقد آمن بالله وصار متكلا على قدرته ، ولكن عندما كان مطاردا ومضطهدا كاد الارتباك والضيق يحجبان عن عينيه أباه السماوي .

ومع ذلك فإن هذا الاختبار علم داود الحكمة إذ جعله يدرك ضعفه وضرورة الاعتماد المستمر على الله . ما أثمن وأغلى تأثير تعزيات روح الله حين يأتي إلى النفوس الحزينة اليائسة مشجعا لخائري القلوب ومقويا للضعفاء المعيين ومانحا شجاعة وعونا لعبيد الرب المجربين ! ما أعظم إلهنا الذي يتعامل بكل دقة مع المخطئين ويظهر صبره ورقته ولطفه في الشدة والضيق وحين يكتنفنا الحزن الشديد !

إن كل فشل يلحق بشعب الله هو ناجم عن افتقارهم للإيمان ، فحين تكتنف الظلمة النفس ، وحين نكون بحاجة إلى النور والإرشاد علينا أن نرفع أنظارنا إلى فوق إذ هنالك نور خلف الظلمات . وما كان يليق بداود أن يشك في الله لحظة واحدة حيث كانت هنالك أسباب كان

656,657

ينبغي له ، من أجلها ، أن يضع اتكاله على الله . كان هو مسيح الرب . وفي وسط المخـــاطر كان ملائكة الله يحرسونه ، وكان مزودا بشجاعة عظيمة أعانته على القيـــام بأعمـــال بـــاهرة ومدهشة ، ولو أنه سما بأفكاره فوق مستوى مركزه الحرج ، وضيقه الشديد الذي حـــل بـــه ، وفكر في قدرة الله وجلاله ، لأحس بالسلام ، حتى ولو كان في وادي ظلال الموت ، ولأمكنـــه بكل ثقة أن يكرر الوعد الإلهي القائل : «فَإِنَّ الْجِبَالَ تَزُولُ ، وَالآكَامَ تَتَزَعْزَعُ ، أَمَّا إِحْسَانِي فَلاَ يَزُولُ عَنْكِ ، وَعَهْدُ سَلاَمِي لاَ يَتَزَعْزَعُ ، قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ» (إشعياء ٥٤ : ١٠) .

بحث داود بين جبال يهوذا عن ملجأ يلجأ إليه ليأمن من مطاردة شاول ، فهرب إلى مغـارة عدلام ، وهي مكان يمكن لرجال قليليين أن يحتفظوا به ضد جيش عظيم . «فَلَمَّا سَمِعَ إِخْوَتُـــهُ وَجَمِيعُ بَيْتِ أَبِيهِ نَزَلُوا إِلَيْهِ إِلَى هُنَاكَ» إن عائلة داود لم تكن تحـــس بالطمأنينـــة إذ كـــانوا يعلمون أن شكوك شاول غير المعقولة يمكن أن توجه ضدهم في أي وقـــت بســـبب صلتـــهم بداود ، وقد علموا الآن –ما بدأ كل إسرائيل يعلمونه– أن الله قد اختار داود ليكون الملك العتيد لشعبه . ثم اقتنعوا بأنهم سيكونون في أمان أعظم وهم معه ، حتى مع كونه هاربا وفي مغـــارة موحشة ، مما يكونون وهم معرضون لجنون ذلك الملك الحسود .

وفي مغارة عدلام اجتمع شـــمل العائلة يظللها العطف والحب ، فاستطاع ابـــن يســـى أن يغني أعذب الأغاني بصوته على أنغام العود حين قال : «هُوَذَا مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَسْكُنَ الإِخْوَةُ مَعًا !» (مزمور ١٣٣ : ١) لقد ذاق مرارة الشك من جانب إخوته ، ولكـــن الوفـــاق والانسجام الذي حل محل النزاع ملأ قلب ذلك الطريد فرحا . وفي هذه المناسبة كتب المزمور السابع والخمسين .

وقبل مرور وقت طويل انضم إلى جماعة داود قوم آخرون –ممن أرادوا النجاة مـــن قسوة الملك وتعسفه ، كما كان هناك كثيرون ممن أضاعوا ثقتهم بملك إسرائيل لأنهم رأوا أنه لم يعد ينقاد بروح الله «وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ كُلُّ رَجُل مُتَضَايِق ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَلَيْـــهِ دَيْـــنٌ ، وَكُلُّ رَجُل مُرِّ النَّفْسِ ، فَكَانَ عَلَيْهِمْ رَئِيسًا . وَكَانَ مَعَهُ نَحْوُ أَرْبَعِ مِئَةِ رَجُل» هنا نجد داود يملك على مملكة صغيرة خاصة به يسودها الترتيب والنظام . ولكن مع أنه كان في ذلـــك الملجأ في الجبال لم يكن يحس بالطمأنينة ، إذ كانت تأتيه براهين مستمرة على أن الملـــك لم يعدل عن مقاصده الإجرامية .

وجد داود ملجأ لأبويه عند ملك موآب ، وحينئذ أنذره أحد أنبياء الرب بوجود خطـر يتهدده ، فهرب من ذلك المخبأ إلى وعر حارث . إن ذلك الاختبار الذي كان داود يمـر فيه لم يكن عقيما أو غير لازم ، فلقد جعله الله يمر في طور تدريب . ليؤهله لأن يكـون قائدا حكيما وملكا عادلا رحيما . ومع جماعة الهاربين الذين رافقوه كان يتلقـى إعـدادا ليضطلع بعمل شاول الذي بسبب غضبه الإجرامي ونزقه الأعمى كان كل يوم يمـر بـه يزيد من عدم لياقته للقيام به . إن من يبتعدون عن مشورة الله لا يمكنهم الاحتفاظ بالهدوء والحكمة اللذين بواسطتهما يمكنهم أن يتصرفوا بالعدل والفطنة . لا جنون مخيف جدا ولا يرجى منه خير كاتباع الحكمة البشرية التي لا تسترشد بحكمة الله .

كان شاول يعد العدة لاصطياد داود والقبض عليه وهو في مغارة عدلام ، فلما علم أن داود ترك ذلك المخبأ استشاط غضبا ، إذ كان هروب داود سرا غامضا في نظر شاول ، لم يمكنه تعليله إلا باعتقاده أن هناك خونة في المعسكر وأنهم أخبروا ابن يسى بمقـاصد الملك .

أكد شاول لمشيريه بأن مؤامرة قد حيكت ضده ، وبواسطة الرشوة والهبات السـخية والوظائف الفخرية طلب منهم أن يكشفوا له عمن صار صديقا لداود بين شـعبه ، ولـذا صار دواغ الأدومي واشيا . فهذا الرجل إذ كان مسـوقا بـروح الطمـوح والجشـع ، وبكراهيته للكاهن الذي كان قد وبخه على خطاياه ، أخبر الملك بزيارة داود لأخيمـالك ، فكان تمثيله للأمر مثيرا لغضب الملك ضد رجل الله . إن كلمات ذلك اللسـان المختـرع المفاسد والمضطرم بنار جهنم أثار غضبا هائلا في نفس شاول . وإذ أثاره الغضب إلـى حد الجنون أعلن الملك أن كل أسرة الكاهن يجب أن تـهلك . وقـد نفـذ ذلـك القـرار المرعب ، فلم يقتل أخيمالك وحده بل كل أفراد بيت أبيه – خمسة وثمانون رجلا لابسـي أفود كتان كل هؤلاء قتلهم دواغ بيده الآثمة وبأمر الملك .

«وَضَرَبَ نُوبَ مَدِينَةَ الْكَهَنَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ . الرِّجَالَ وَالنِّسَـاءَ وَالأَطْفَـالَ وَالرِّضْعَـانَ وَالثِّيرَانَ وَالْحَمِيرَ وَالْغَنَمَ» لقد استطاع شاول أن يفعل ذلك وهو تحت تأثير الشـيطان . إن الله حين قال إن إثم العمالقة قد كمل وأمر شاول بإهلاكهم هلاكا شاملا ظن أنه أرحم مـن أن ينفذ حكم الله ، وعفا عمن كان محكوما عليه بالهلاك . أما الآن فبدون أن يتلقى أمـرا

من الله وهو تحت سيطرة الشيطان أمكنه أن يذبح كهنة الرب ويجلب الخراب على نـــوب وسكانها . إلى هذا الحد يبلغ فساد القلب البشرى الذي يرفض إرشادات الله .

إن ذلك العمل القاسي ملأ قلوب كل رجال إسرائيل رعبا ، وذلك الملك الذي قد اختـــاروه لأنفسهم هو الذي ارتكب ذلك الجرم الشنيع ، وقد عمل ما يعمله ملوك الأمم الأخرى التـــي لا تخاف الله . لقد كان في حوزتهم التابوت ولكن الكهنة الذين كانوا يسألون بكلام الله قتلوا بحـــد السيف . فما الذي سيحدث بعد هذا .

الفصل الخامس والستون

شهامة داود وصفحه

بعدما ارتكب شاول جريمته الشنيعة إذ قتل كهنة الرب «نَجَا وَلَدٌ وَاحِدٌ لأَخِيمَالِكَ بْنِ أَخِيطُوبَ اسْمُهُ أَبِيَاثَارُ وَهَرَبَ إِلَى دَاوُدَ . وَأَخْبَرَ أَبِيَاثَارُ دَاوُدَ بِأَنَّ شَاوُلَ قَدْ قَتَلَ كَهَنَةَ الرَّبِّ . فَقَالَ دَاوُدُ لأَبِيَاثَارَ : عَلِمْتُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ كَانَ دُوَاغُ الأَدُومِيُّ هُنَاكَ ، أَنَّهُ يُخْبِرُ شَاوُلَ . أَنَا سَبَّبْتُ لِجَمِيعِ أَنْفُسِ بَيْتِ أَبِيكَ . أَقِمْ مَعِي . لاَ تَخَفْ ، لأَنَّ الَّذِي يَطْلُبُ نَفْسِي يَطْلُبُ نَفْسَكَ ، وَلكِنَّكَ عِنْدِي مَحْفُوظٌ» (انظر ١صموئيل ٢٢ : ٢٠- ٢٣ والأصحاحات ٢٣-٢٧) .

وإذ كان الملك لم يزل جادا في مطاردة داود فإن هذا الأخير لم يكن يجد موضع راحة أو أمان . وفي قعيلة تمكنت فرقته الباسلة أن تمنع الفلسطينيين من احتلالها ، ومع ذلك فلم يكن هو ولا رجاله في أمان حتى بين الشعب الذي قد أنقذوه . فارتحلوا من قعيلة وأتوا إلى برية زيف .

وفي هذا الوقت حين لم يكن داود يرى كثيرا من أسباب البهجة والفرح ، فرح فرحا عظيما حين أتى إليه يوناثان في زيارة غير منتظرة إذ كان قد عرف مكان مخبأه . وقد كانت اللحظات التي قضاها ذانك الصديقان معا لحظات ثمينة حقا ، حيث أخبر كل منهما صديقه باختباراته المختلفة ، ثم شدد يوناثان قلب داود قائلا له : «لاَ تَخَفْ لأَنَّ يَدَ شَاوُلَ أَبِي لاَ تَجِدُكَ ، وَأَنْتَ تَمْلِكُ عَلَى إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا أَكُونُ لَكَ ثَانِيًا . وَشَاوُلُ أَبِي أَيْضًا يَعْلَمُ ذلِكَ . فَقَطَعَا كِلاَهُمَا عَهْدًا أَمَامَ الرَّبِّ . وَأَقَامَ دَاوُدُ فِي الْغَابِ ، وَأَمَّا يُونَاثَانُ فَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ» .

بعد زيارة يوناثان جعل داود يعزي نفسه ويشجعها بتسابيح الحمد . فكان يضرب على العود وهو يترنم قائلا : «عَلَى الرَّبِّ تَوَكَّلْتُ . كَيْفَ تَقُولُونَ لِنَفْسِي : «اهْرُبُوا إِلَى جِبَالِكُمْ كَعُصْفُورٍ ؟ لأَنَّهُ هُوَذَا الأَشْرَارُ يَمُدُّونَ الْقَوْسَ . فَوَّقُوا السَّهْمَ فِي الْوَتَرِ لِيَرْمُوا فِي الدُّجَى مُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ . إِذَا انْقَلَبَتِ الأَعْمِدَةُ ، فَالصِّدِّيقُ مَاذَا يَفْعَلُ ؟» اَلرَّبُّ فِي هَيْكَلِ قُدْسِهِ .

الرَّبُّ فِي السَّمَاءِ كُرْسِيُّهُ . عَيْنَاهُ تَنْظُرَانِ . أَجْفَانُهُ تَمْتَحِنُ بَنِي آدَمَ . الرَّبُّ يَمْتَحِنُ الْصِّدِّيقَ ، أَمَّا الشِّرِّيرُ وَمُحِبُّ الظُّلْمِ فَتُبْغِضُهُ نَفْسُهُ » (مزمور ١١ : ١-٥) .

أما سكان زيف الذين انتقل داود من قعيلة إلى أقاليمهم الوعرة ، فقد أرسلوا إلى شاول في جبعة يقولون له إنهم يعرفون مخبأ داود ، وأنهم مستعدون لإرشاد الملك إلى حيث هو مختبئ . وإذ أنذر داود بنوايا أولئك الناس انتقل من هناك ليلجأ إلى الجبال الواقعة بين معون والبحر الميت .

ومرة أخرى جاء إلى شاول من يقولون له : « هُوَذَا دَاوُدُ فِي بَرِّيَّةِ عَيْنِ جَدْيٍ . فَأَخَذَ شَاوُلُ ثَلاَثَةَ آلاَفِ رَجُل مُنْتَخَبِينَ مِنْ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَذَهَبَ يَطْلُبُ دَاوُدَ وَرِجَالَهُ عَلَى صُخُورِ الْوُعُولِ » (١صموئيل ٢٤ : ٢،١) لم يكن مع داود غير ست مئة رجل ، بينما تقدم شاول ضده بجيش مؤلف من ثلاثة آلاف رجل . واذ كان ابن يسى ورجاله مختبئين فى مغارة بعيدة كانوا ينتظرون إرشادا من الله ليعرفوا ماذا يفعلون . وإذ كان شاول يتقدم صاعدا فوق الجبال مال وحده ودخل إلى نفس الكهف الذي كان داود ورجاله مختبئين فيه . وحين رأى رجال داود ذلك ألحّوا على قائدهم أن يقتل شاول . لقد فسّر أولئك الرجال حقيقة كون شاول قد دُفع ليدهم على أنها برهان أكيد على أن الله قد أسلم إلى أيديهم ذلك العدو ليهلكوه . وقد جُرِّب داود لأن يعتقد الفكرة نفسها ، إلا أن ضميره همس فى أذنه قائلا له : «لا تمد يدك الى مسيح الرب » .

لم يكن رجال داود يشاءون أن يتركوا شاول في سلام . فذكروا قائدهم بكلام الله القائل : « هأَنَذَا أَدْفَعُ عَدُوَّكَ لِيَدِكَ فَتَفْعَلُ بِهِ مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكَ . فَقَامَ دَاوُدُ وَقَطَعَ طَرَفَ جُبَّةِ شَاوُلَ سِرًّا » ولكن بعد ذلك ضربه قلبه ، لأنه شوه جبة الملك .

قام شاول وخرج من الكهف ليواصل بحثه عن داود ، وإذا بصوت يقع على مسمعه المرتعب قائلا : «يَا سَيِّدِي الْمَلِكُ » فلما التفت ليرى من المتكلم رأى ابن يسى ، الرجل الذي ظل تلك الحقبة الطويلة مشتاقا إلى أن يسقط في يده ليقتله . وقد خر داود وسجد للملك معترفا بأنه سيده . ثم خاطب شاول قائلا «لِمَاذَا تَسْمَعُ كَلاَمَ النَّاسِ الْقَائِلِينَ : هُوَذَا دَاوُدُ يَطْلُبُ أَذِيَّتَكَ ؟ هُوَذَا قَدْ رَأَتْ عَيْنَاكَ الْيَوْمَ هذَا كَيْفَ دَفَعَكَ الرَّبُّ الْيَوْمَ لِيَدِي فِي الْكَهْفِ ، وَقِيلَ لِي أَنْ أَقْتُلَكَ ، وَلكِنَّنِي أَشْفَقْتُ عَلَيْكَ وَقُلْتُ : لاَ أَمُدُّ يَدِي إِلَى سَيِّدِي ، لأَنَّهُ

مَسِيحُ الرَّبِّ هُوَ . فَانْظُرْ يَا أَبِي ، انْظُرْ أَيْضًا طَرَفَ جُبَّتِكَ بِيَدِي . فَمِنْ قَطْعِي طَرَفَ جُبَّتِكَ وَعَدَمِ قَتْلِي إِيَّاكَ اعْلَمْ وَانْظُرْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي يَدِي شَرٌّ وَلاَ جُرْمٌ ، وَلَمْ أُخْطِئْ إِلَيْكَ ، وَأَنْتَ تَصِيدُ نَفْسِي لِتَأْخُذَهَا » .

وعندما سمع شاول كلام داود أحس بحقارته ولم يسعه إلا الاعتراف بصدق ذلك الكلام ، فثارت مشاعره بشدة عندما تأكد كيف أنه كان في قبضة يد ذاك الذي خرج هو يطلب نفسه . لقد وقف داود أمامه شاعرا ببراءته وطهارة مسلكه ، فصاح شاول يقول بتأثر «أَهذَا صَوْتُكَ يَا ابْنِي دَاوُدُ ؟ وَرَفَعَ شَاوُلُ صَوْتَهُ وَبَكَى . ثُمَّ قَالَ لِدَاوُدَ : أَنْتَ أَبَرُّ مِنِّي ، لأَنَّكَ جَازَيْتَنِي خَيْرًا وَأَنَا جَازَيْتُكَ شَرًّا ... فَإِذَا وَجَدَ رَجُلٌ عَدُوَّهُ ، فَهَلْ يُطْلِقُهُ فِي طَرِيق خَيْرٍ ؟ فَالرَّبُّ يُجَازِيكَ خَيْرًا عَمَّا فَعَلْتَهُ لِي الْيَوْمَ هذَا . وَالآنَ فَإِنِّي عَلِمْتُ أَنَّكَ تَكُونُ مَلِكًا وَتَثْبُتُ بِيَدِكَ مَمْلَكَةُ إِسْرَائِيلَ » وقد قطع داود عهدا مع شاول أنه حين يصير داود ملكا سيحسن إلى بيت شاول ولا يقطع اسمه من بعده .

وإذ كان داود يعرف ما قد اختبر من تصرفات شاول الماضية لم يستطيع أن يثق بوعود الملك وتأكيداته ، ولم يرج أن حالة توبة الملك وندامته ستدوم طويلا . ولذلك عندما عاد شاول إلى بيته بقي داود متحصنا في الجبال .

إن العداوة التي يضمرها لعبيد الله أولئك الذين أسلموا أنفسهم لسلطان الشيطان ، قد تتبدل أحيانا إلى مصالحة ورضى ، إلا أن التبدل لا يكون مستمرا دائما ، إذ بعدما يشغل الأشرار أنفسهم في الإساءة إلى عبيد الرب بالفعل واللسان ، فإن الاعتقاد أنهم كانوا مخطئين يتعمق ويتأصل في نفوسهم أحيانا . إن روح الله يعمل فيهم فتنسحق قلوبهم أمام الرب وأمام أولئك الذين حاولوا إهلاكهم ، وقد يغيرون مسلكهم حيالهم . ولكنهم إذ يعودون ويفتحون الباب لمقترحات الشرير فإن شكوكهم الماضية تنتعش وعداوتهم القديمة تستيقظ فيعودون إلى اعتداءاتهم السابقة التي كانوا قد تابوا وتخلوا عنها إلى حين . ثم يعودون إلى ذم أولئك الذين كانوا قد اعترفوا وتذللوا أمامهم ، وإلى اتهامهم وإدانتهم بأقسى الألفاظ . والشيطان يستطيع أن يستخدم أولئك الناس بعدما ساروا في تلك الطريق بقوة أعظم مما فعل قبلا لأنهم قد أخطأوا ضد نور أعظم .

«وَمَاتَ صَمُوئِيلُ ، فَاجْتَمَعَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَنَدَبُوهُ وَدَفَنُوهُ فِي بَيْتِهِ فِي الرَّامَةِ» لقد اعتبرت الأمة

الإسرائيلية موت صموئيل خسارة لا تعوض . إن نبيا صالحا وعظيما وقاضيا شهيرا قد مات فكان حزن الشعب عليه عميقا وشديدا . لقد سار صموئيل أمام إسرائيل باستقامة قلب منذ فجر شبابه . ومع أن شاول كان معترفا به كملك ، إلا أن تأثير صموئيل كان أقوى من تأثيره لأن حياته كانت حياة الأمانة والطاعة والتكريس . والكتاب يقول أنه قضى لإسرائيل كل أيام حياته .

وعندما بدأ الشعب يقارنون بين حياة شاول وحياة صموئيل رأوا هول غلطتهم التي ارتكبوها حين طالبوا أن يكون لهم ملك حتى يكونوا مثل الشعوب المجاورة لهم . وكثيرون منهم نظروا بخوف وجزع إلى حالة المجتمع الذي قد تفشت فيه خميرة الإلحاد والشر بسرعة . إن مثال ملكهم الشرير قد انتشر في كل مكان فحق لبني إسرائيل أن ينوحوا لأن صموئيل نبي الرب قد مات .

لقد خسرت الأمة مؤسس مدارسهم المقدسة (مدارس الأنبياء) ورئيسها ، ولكن هذه لم تكن كل الخسارة ، بل خسروا ذاك الذي اعتاد جميع الشعب أن يلجأوا إليه بمتاعبهم ومشاكلهم– خسروا ذاك الذي كان دائم الاتصال بالله يشفع فيهم لتقضى مصالحهم . إن شفاعة صموئيل فيهم جعلتهم يحسون بالطمأنينة لأن «طَلِبَةُ الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا» (يعقوب ٥ : ١٦) لقد أحس الشعب الآن أن الله بدأ يتخلى عنهم . فالملك لم يكن أكثر من رجل مجنون . كما أن العدالة انتهكت ، واستحال النظام إلى فوضى وارتباك .

فحين خربت المنازعات الداخلية الأمة ، وحين كان الشعب في أشد الحاجة إلى النصائح الهادئة التي كان يسديها إليهم صموئيل الرجل الخائف الله ، أعطى الله خادمه الشيخ راحته . وما كان أمرّ الخواطر التي خطرت للشعب وهم ينظرون إلى مكان راحته الهادئ ويذكرون جهالتهم إذ رفضوا أن يكون قاضيهم ، لأنه كانت له صلة وثيقة بالسماء حتى لكأنه يربط إسرائيل كلهم بعرش الله . إن صموئيل هو الذي علمهم أن يحبوا الله ويطيعوه ، أما وقد مات فقد أحس الشعب أنهم قد تركوا تحت رحمة ملك متحد بالشيطان يحاول أن يفصل بين الشعب وبين الله والسماء .

لم يستطع داود أن يحضر دفن صموئيل ، ومع ذلك فقد ناح عليه بحزن وحنان كما ينوح الابن الأمين على أبيه المحب العطوف . عرف أن موت صموئيل قد أزال حاجزا آخر من الحواجز التي كانت تمنع شاول من إتيان حماقته ، فأحس بأنه صار أكثر تعرضا للخطر مما كان وصموئيل على قيد الحياة . وإذ كان بنو إسرائيل مشغولين في النوح على موت صموئيل

اغتنم داود هذه الفرصة في البحث عن مكان أكثر أمنا فهرب إلى برية فاران . وفي ذلك المكان كتب داود المزمورين المئة والعشرين والمئة والحادي والعشرين . وفي تلك القفار الموحشة بعدما تحقق من أن النبي قد مات وأن الملك باق على عداوته له تغنى بهذه الأغنية قائلا : «مَعُونَتِي مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ ، صَانِعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . لاَ يَدَعُ رِجْلَكَ تَزِلُّ . لاَ يَنْعَسُ حَافِظُكَ . إِنَّهُ لاَ يَنْعَسُ وَلاَ يَنَامُ حَافِظُ إِسْرَائِيلَ ... الرَّبُّ يَحْفَظُكَ مِنْ كُلِّ شَرّ . يَحْفَظُ نَفْسَكَ . الرَّبُّ يَحْفَظُ خُرُوجَكَ وَدُخُولَكَ مِنَ الآنَ وَإِلَى الدَّهْرِ» (مزمور ١٢١ : ٢-٨) .

كان داود ورجاله ، في أثناء وجودهم في برية فاران ، يحافظون على أغنام ومواشي أحد الأثرياء المسمى نابال من غارات قطاع الطرق ، الذي كانت له أملاك واسعة في ذلك الإقليم ، كان نابال من نسل كالب ولكنه كان فظا أحمق وبخيلا .

كان الوقت وقت جز الغنم ، وهو موسم الكرم وحسن الضيافة ، وقد كان داود ورجاله في أشد الحاجة إلى المؤونة والطعام . وطبقا لعادات تلك الأيام أرسل ابن يسى عشرة غلمان إلى نابال وأوصاهم أن يحيُّوه باسم سيدهم قائلا : «قُولُوا هكَذَا : حَيِيتَ وَأَنْتَ سَالِمٌ ، وَبَيْتُكَ سَالِمٌ ، وَكُلُّ مَالَكَ سَالِمٌ . وَالآنَ قَدْ سَمِعْتُ أَنَّ عِنْدَكَ جَزَّازِينَ . حِينَ كَانَ رُعَاتُكَ مَعَنَا ، لَمْ نُؤْذِهِمْ وَلَمْ يُفْقَدْ لَهُمْ شَيْءٌ كُلَّ الأَيَّامِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا فِي الْكَرْمَلِ .[١] اِسْأَلْ غِلْمَانَكَ فَيُخْبِرُوكَ . فَلْيَجِدِ الْغِلْمَانُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ لأَنَّنَا قَدْ جِئْنَا فِي يَوْمٍ طَيِّبٍ ، فَأَعْطِ مَا وَجَدَتْهُ يَدُكَ لِعَبِيدِكَ وَلابْنِكَ دَاوُدَ» .

كان داود ورجاله سورا منيعا لحراسة رعاة نابال وقطعانه ، والآن فقد طلب من هذا الرجل الواسع الثراء أن يقدم من فيض بركات الله عليه بعض الإسعاف لسد حاجات أولئك الذين قدموا إليه تلك الخدمات الثمينة . لقد كان بامكان داود ورجاله أن يأخذوا بعضا من غنم ذلك الرجل وبقره ، ولكنهم لم يفعلوا بل تصرفوا بأمانة ، ومع ذلك فقد ضاعت شفقتهم ومحبتهم التي أظهرها لنابال ، ودل جواب نابال الذي أجاب به عن طلب داود ، على أخلاقه إذ قال : «مَنْ هُوَ دَاوُدُ ؟ وَمَنْ هُوَ ابْنُ يَسَّى ؟ قَدْ كَثُرَ الْيَوْمَ الْعَبِيدُ الَّذِينَ يَقْحَصُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَمَامِ سَيِّدِهِ . أَآخُذُ خُبْزِي وَمَائِي وَذَبِيحِيَ الَّذِي ذَبَحْتُ لِجَازِّيَّ

[١]– لم يكن ذلك المكان جبل الكرمل بل مكانا في أرض يهوذا بالقرب من مدينة معون الجبلية.

وَأُعْطِيهِ لِقَوْمٍ لاَ أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُمْ ؟ ›› .

فلما عاد الغلمان فارغي الوفاض وأخبروا داود بكل شيء اشتعل غضبه وأمر رجالـــه أن يتسلحوا ويخرجوا للحرب لأنه عزم على تأديب ذلك الرجل الذي أنكر عليه حقوقه وأضـــاف إلى الأذى الأهانة . ولكن هذه الحركة الاندفاعية وهذا الغضب كانا خليقين بشاول لا بـــداود . وإنما كان على ابن يسى أن يتعلم أيضا دروس الصبر في مدرسة التجربة والألم .

فأسرع واحد من عبيد نابال إلى أبيجايل امرأة نابال بعد صرف غلمان داود وقص عليـــها كل ما جرى فقال : ‹‹ هُوَذَا دَاوُدُ أَرْسَلَ رُسُلاً مِنَ الْبَرِّيَّةِ لِيُبَارِكُوا سَـــيِّدَنَا فَثَـــارَ عَلَيْـــهِمْ . وَالرِّجَالُ مُحْسِنُونَ إِلَيْنَا جِدًّا ، فَلَمْ نُؤْذَ وَلاَ فُقِدَ مِنَّا شَيْءٌ كُلَّ أَيَّامِ تَرَدُّدِنَا مَعَهُمْ وَنَحْـــنُ فِـــي الْحَقْلِ . كَانُوا سُورًا لَنَا لَيْلاً وَنَهَارًا كُلَّ الأَيَّامِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا مَعَهُمْ نَرْعَـــى الْغَنَـــمَ . وَالآنَ اعْلَمِي وَانْظُرِي مَاذَا تَعْمَلِينَ ، لأَنَّ الشَّرَّ قَدْ أُعِدَّ عَلَى سَيِّدِنَا وَعَلَى بَيْتِهِ ›› .

وبدون أن تستشير أبيجايل رجلها أو تخبره بما انتوت أن تفعله أعدت أطعمة كثيرة ووضعتها على الحمير وأرسلتها بيد عبيدها ، وخرجت بنفسها لملاقاة داود ورجاله فالتقتهم فـــي ســـترة الجبل ، ‹‹ وَلَمَّا رَأَتْ أَبِيجَايِلُ دَاوُدَ أَسْرَعَتْ وَنَزَلَتْ عَنِ الْحِمَارِ ، وَسَقَطَتْ أَمَامَ دَاوُدَ عَلَـــى وَجْهِهَا وَسَجَدَتْ إِلَى الأَرْضِ ، وَسَقَطَتْ عَلَى رِجْلَيْهِ وَقَالَتْ : عَلَيَّ أَنَـــا يَـــا سَـــيِّدِي هـــذَا الذَّنْبُ ، وَدَعْ أَمَتَكَ تَتَكَلَّمُ فِي أُذُنَيْكَ ›› وقد خاطبت أبيجايل داود بكل احترام كما لـــو كـــانت تخاطب ملكا متوجا . إن نابال صاح يقول في ازدراء : ‹‹ مَنْ هُـــوَ دَاوُدُ ؟ ›› أمـــا أبيجـــايل فخاطبته بقولها : ‹‹ سَيِّدِي ›› . وبكلامها الرقيق حاولت أن تهدئ من اهتياج عواطفه وتوســـلت إليه لأجل زوجها ولم تكن تتكلم بمباهاة أو كبرياء ، ولكن إذ كانت ممتلئـــة مـــن حكمـــة الله ومحبته أعلنت عن شدة محبتها لأهل بيتها وأوضحت لداود أن قسوة رجلها على غلمانه وعليه لم يكن المقصود منها أن تكون إهانة متعمدة ضده شخصيا بل كانت مجرد انفجار طبيعة رجل أناني تعس .

‹‹ وَالآنَ يَا سَيِّدِي ، حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ ، إِنَّ الرَّبَّ قَدْ مَنَعَكَ عَـــنْ إِتْيَـــانِ الدِّمَاءِ وَانْتِقَامِ يَدِكَ لِنَفْسِكَ . وَالآنَ فَلْيَكُنْ كَنَابَالَ أَعْدَاؤُكَ وَالَّذِينَ يَطْلُبُونَ الشَّرَّ لِسَـــيِّدِي ›› إن أبيجايل لم تنسب الفخر لنفسها في محاجتها مع داود لمنعه من إتمام غرضه المتســـرع ، بـــل أعطت المجد والشكر لله . وبعد ذلك قدمت أطعمتها الشهية كذبيحة سلامة لرجال داود ، ومـــع

ذلك فقد ظلت تتوسل كما لو كانت هي نفسها التي أثارت سخط رئيسهم .

فقالت : ((وَاصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ أَمَتِكَ لأَنَّ الرَّبَّ يَصْنَعُ لِسَيِّدِي بَيْتًا أَمِينًا ، لأَنَّ سَيِّدِي يُحَارِبُ حُرُوبَ الرَّبِّ ، وَلَمْ يُوجَدْ فِيكَ شَرٌّ كُلَّ أَيَّامِكَ)) لقد عرضت أبيجايل ضمناً المسلك الذي يجب على داود أن يسلكه . عليه أن يحارب حروب الرب ، وألا ينتقم لنفسه عن ظلم وقع عليه ولو اضطهد كخائن . ثم استأنفت كلامها قائلة : ((وَقَدْ قَامَ رَجُلٌ لِيُطَارِدَكَ وَيَطْلُبَ نَفْسَكَ ، وَلكِنْ نَفْسُ سَيِّدِي لِتَكُنْ مَحْزُومَةً فِي حُزْمَةِ الْحَيَاةِ مَعَ الرَّبِّ إِلهِكَ . وَأَمَّا نَفْسُ أَعْدَائِكَ فَلْيَرْمِ بِهَا كَمَا مِنْ وَسَطِ كَفَّةِ الْمِقْلاَعِ . وَيَكُونُ عِنْدَمَا يَصْنَعُ الرَّبُّ لِسَيِّدِي حَسَبَ كُلِّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ مِنْ أَجْلِكَ ، وَيُقِيمُكَ رَئِيسًا عَلَى إِسْرَائِيلَ ، أَنَّهُ لاَ تَكُونُ لَكَ هذِهِ مَصْدَمَةً وَمَعْثَرَةَ قَلْبٍ لِسَيِّدِي ، أَنَّكَ قَدْ سَفَكْتَ دَمًا عَفْوًا ، أَوْ أَنَّ سَيِّدِي قَدِ انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ . وَإِذَا أَحْسَنَ الرَّبُّ إِلَى سَيِّدِي فَاذْكُرْ أَمَتَكَ)) .

إن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر إلا من إنسان أعطيت له الحكمة التي من فوق . فاح شذا تقوى أبيجايل كما من زهرة عطرة ، فاح ذلك العبير منها عفوا ودون أن تشعر ، من وجهها وكلامها وتصرفاتها . لقد كان روح ابن الله ساكنا في داخلها ، فكان كلامها مملحا بالنعمة ومفعما رفقا وسلاما ، فأحدث تأثيرا سماويا ، أعطى لداود بواعث أفضل . وقد اعتراه الرعب وهو يفكر في النتائج التي كان يمكن أن تحدث لو تم قصده الطائش ، ((طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ)) (متى ٥ : ٩) ليُكثِّرنَّ الله من أمثال هذه المرأة الإسرائيلية اللواتي يهدئن العواطف الثائرة ويخمدن البواعث الطائشة ويقمعن شرورا عظيمة بكلامهن الصادر عن الحكمة المتزنة الهادئة .

إن الحياة المسيحية المكرسة تشرق دائما بنور العزاء والسلام . ومن صفاتها الطهارة واللباقة والبساطة والنفع . إنها مضبوطة بقوة تلك المحبة غير الأنانية التي تقدس النفوذ ، وهي ممتلئة بالمسيح وتحمل آثار النور أينما يكون الشخص الذي أحرزها . لقد كانت أبيجايل موبخة رقيقة ومشيرة حكيمة ، إذ خمد غضب داود بفضل قوة تأثيرها وحججها ، كما اقتنع بأنه كان سائرا في طريق خاطئ غير حكيم وأنه فقد السلطان على روحه .

قبل داود التوبيخ بقلب متواضع ، وكان هذا مصداقا لما قاله : ((لِيَضْرِبْنِي الصِّدِّيقُ فَرَحْمَةٌ ، وَلْيُوَبِّخْنِي فَزَيْتٌ لِلرَّأْسِ)) (مزمور ١٤١ : ٥) وقد قدم التشكرات والبركات لأنها

قدمت إليه تلك النصائح الصالحة السديدة . إن كثيرين من الناس حين يوبخون يظنون أنه مما يستوجب الثناء كونهم يقبلون التوبيخ دون أن يتضجروا أو يثوروا . ولكن ما أقل أولئك الذين حين يوبخون يقبلون التوبيخ بالشكر القلبي ويباركون أولئك الذين حاولوا إبعادهم عن طريق شرير .

عندما عادت أبيجايل إلى بيتها وجدت نابال وضيوفه يتمتعون بوليمة عظيمة ولكنهم حولوها إلى وليمة سكر وعربدة . ولم تخبر رجلها بما دار بينها وبين داود إلا في اليوم التالي . كان نابال نذلا وجبانا وعندما أدرك أن حماقته أدنته من الموت المفاجئ بدا كأنه قد أصيب بالفالج ، فلخوفه من أن داواد لا يزال مصرا على الانتقام منه امتلأ قلبه رعبا وانحدر إلى حالة من عدم الشعور التي لا يرجى البرء منها . ثم مات بعد عشرة أيام . إن الحياة التي قد منحه الله إياها لم تكن سوى لعنة على العالم . ففي غمرة فرحه ومرحه قال له الله ما قاله للغني الغبي المذكور في المثل : «هذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ» (لوقا ١٢ : ٢٠) .

وبعد ذلك تزوج داود أبيجايل . مع أنه كان زوجا لامرأة واحدة ، ولكن عادات الأمم المجاورة له أفسدت حكمه على الأمور ، وأثرت في أعماله . حتى الناس الصالحون العظام أخطأوا بتشبههم بالعالم في أعمالهم . إن النتيجة المرة للتزوج بزوجات كثيرات تألم منها داود أشد الألم مدى حياته .

بعد موت صموئيل ترك داود عائشا في سلام أشهر قليلة . ومرة أخرى اعتكف في مخبئه في برية زيف . ولكن أولئك الناس كانوا أعداء لداود . فإذ كانوا يؤملون أن يظفروا برضى الملك أخبروه عن المخبأ الذي لجأ إليه داود . فأثار هذا الخبر شيطان الغضب الذي كان هاجعا في قلب شاول . ومرة ثانية استدعى رجال حربه وخرج في طليعتهم لمطاردة داود . ولكن بعض الجواسيس من أصدقاء داود أخبروه بأن شاول قد عاد لمطاردته فسار داود مع جماعة قليلة من رجاله لاستكشاف موقع العدو ، وكان الوقت ليلا فساروا في هدوء حتى أتوا إلى محلة شاول فرأوا أمامهم خيام الملك وأتباعه . لم يشعر بهم أحد لأن المحلة كلها كانت غارقة في نوم عميق . فطلب داود من أصدقائه أن يرافقوه إلى وسط المكان الذي عسكر فيه أعداؤه . وإجابة عن سؤاله القائل : «مَنْ يَنْزِلُ مَعِي إِلَى شَاوُلَ إِلَى الْمَحَلَّةِ ؟» أجابه أبيشاي على الفور قائلا : «أَنَا أَنْزِلُ مَعَكَ» .

إذ كان داود ورفيقه يسيران مستترين في ظل الجبال دخلا معسكر الأعداء . وبينما كانا يريدان التحقق من العدد المضبوط لجنود الأعداء أقبلا على شاول نائما ورمحه مركوز في الأرض وعند رأسه كوز ماء ، وكان أبنير رئيس جيشه مضطجعا إلى جانبه وكل الجنود كانوا نياما حولهما . فأشرع أبيشاي رمحه وقال لداود : «قَدْ حَبَسَ اللهُ الْيَوْمَ عَدُوَّكَ فِي يَدِكَ . فَدَعْنِيَ الآنَ أَضْرِبْهُ بِالرُّمْحِ إِلَى الأَرْضِ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَلاَ أُثَنِّي عَلَيْهِ» وكان ينتظر الإذن من داود ، ولكن داود همس في أذنه يقول : «لاَ تُهْلِكْهُ ، فَمَنِ الَّذِي يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى مَسِيحِ الرَّبِّ وَيَتَبَرَّأُ ؟» ... «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، إِنَّ الرَّبَّ سَوْفَ يَضْرِبُهُ ، أَوْ يَأْتِي يَوْمُهُ فَيَمُوتُ ، أَوْ يَنْزِلُ إِلَى الْحَرْبِ وَيَهْلِكُ . حَاشَا لِي مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ أَنْ أَمُدَّ يَدِي إِلَى مَسِيحِ الرَّبِّ ! وَالآنَ فَخُذِ الرُّمْحَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِهِ وَكُوزَ الْمَاءِ وَهَلُمَّ» . فَأَخَذَ دَاوُدُ الرُّمْحَ وَكُوزَ الْمَاءِ مِنْ عِنْدِ رَأْسِ شَاوُلَ وَذَهَبَا ، وَلَمْ يَرَ وَلاَ عَلِمَ وَلاَ انْتَبَهَ أَحَدٌ لأَنَّهُمْ جَمِيعًا كَانُوا نِيَامًا ، لأَنَّ سُبَاتَ الرَّبِّ وَقَعَ عَلَيْهِمْ» . ما أعظم السهولة التي يستطيع الرب بها أن يضعف أقوى الأقوياء ويبطل حكمة أحكم الحكماء ويحبط مهارة وذكاء أشد الناس حذرا وأعظمهم تيقظا !

ولما وصل داود إلى مكان أمين بعيدا عن محلة شاول وقف على قمة جبل وصاح بصوت عال مناديا الشعب وأبنير قائلا : «أَمَا أَنْتَ رَجُلٌ ؟ وَمَنْ مِثْلُكَ فِي إِسْرَائِيلَ ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَحْرُسْ سَيِّدَكَ الْمَلِكَ ؟ لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الشَّعْبِ لِكَيْ يُهْلِكَ الْمَلِكَ سَيِّدَكَ . لَيْسَ حَسَنًا هذَا الأَمْرُ الَّذِي عَمِلْتَ . حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، إِنَّكُمْ أَبْنَاءُ الْمَوْتِ أَنْتُمْ ، لأَنَّكُمْ لَمْ تُحَافِظُوا عَلَى سَيِّدِكُمْ ، عَلَى مَسِيحِ الرَّبِّ . فَانْظُرِ الآنَ أَيْنَ هُوَ رُمْحُ الْمَلِكِ وَكُوزُ الْمَاءِ الَّذِي كَانَ عِنْدَ رَأْسِهِ . وَعَرَفَ شَاوُلُ صَوْتَ دَاوُدَ فَقَالَ : «أَهذَا هُوَ صَوْتُكَ يَا ابْنِي دَاوُدُ ؟» فَقَالَ دَاوُدُ : «إِنَّهُ صَوْتِي يَا سَيِّدِي الْمَلِكَ» . ثُمَّ قَالَ : «لِمَاذَا سَيِّدِي يَسْعَى وَرَاءَ عَبْدِهِ ؟ لأَنِّي مَاذَا عَمِلْتُ وَأَيُّ شَرّ بِيَدِي ؟ وَالآنَ فَلْيَسْمَعْ سَيِّدِي الْمَلِكُ كَلاَمَ عَبْدِهِ» » ومرة أخرى اعترف الملك قائلا : «قَدْ أَخْطَأْتُ . ارْجِعْ يَا ابْنِي دَاوُدُ لأَنِّي لاَ أُسِيءُ إِلَيْكَ بَعْدُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ نَفْسِي كَانَتْ كَرِيمَةً فِي عَيْنَيْكَ الْيَوْمَ . هُوَذَا قَدْ حَمِقْتُ وَضَلَلْتُ كَثِيرًا جِدًّا . فَأَجَابَ دَاوُدُ وَقَالَ : هُوَذَا رُمْحُ الْمَلِكِ ، فَلْيَعْبُرْ وَاحِدٌ مِنَ الْغِلْمَانِ وَيَأْخُذْهُ» . ومع أن شاول قد وعد داود قائلا : «لاَ أُسِيءُ إِلَيْكَ بَعْدُ» إلا أن داود لم يأمن على حياته ولم يضع نفسه تحت سلطان الملك .

إن هذه المرة الثانية التي فيها أكرم داود حياة مليكه قد أثرت في عقل شاول تأثيرا عميقا

واستخرجت من فمه اعترافا ذليلا بخطئه . لقد أذهله وأخضعه مظهر ذلك الرفق وتلك الشفقة . وفيما كان شاول يفارق داود صاح قائلا : «مُبَارَكٌ أَنْتَ يَا ابْنِي دَاوُدُ ، فَإِنَّكَ تَفْعَلُ وَتَقْدِرُ » ولكن ابن يسى لم يكن يأمل أن حالة الملك النفسية هذه ستدوم .

كان داود يائسا من المصالحة مع شاول ، وقد تراءى له أن لا بد من أن يسقط أخيرا فريسة لحقد الملك فعزم على أن يلجأ مرة أخرى إلى بلاد الفلسطينيين . فعبر هو والست مئة رجل الذين تحت قيادته إلى أخيش ملك جت .

ولكن هذه النتيجة التي قد وصل إليها داود من أن شاول لا بد من أن يقتله قد توصل إليها دون تلقي الإرشاد من الله ، حتى عندما كان شاول يتآمر عليه طالبا إهلاكه كان الرب يعمل على ضمان الملك له . إن الله ينفذ تدابيره بينما العين البشرية لا ترى فيها إلا غموضا وظلاما . إن الناس لا يستطيعون أن يفهموا طرق الله ، وحينما ينظرون إلى ظواهر الأمور ، فإنهم يفسرون التجارب والاختبارات والامتحانات التي يسمح الرب بوقوعها عليهم على أنها ضدهم وأنها ستفضي إلى هلاكهم . هكذا نظر داود إلى الظواهر ولم يذكر مواعيد الله ، كما شك في أنه سيعتلي العرش يوما ما . فالتجارب الطويلة أضعفت إيمانه وأنهكت صبره .

لم يرسل الرب داود ليحتمي عند الفلسطينيين الذين هم ألد أعداء إسرائيل ، لأن نفس هذه الأمة كانت من ضمن شر أعدائه ما دامت في الوجود ، ومع ذلك هرب إليهم ليساعدوه في وقت الحاجة . وإذ لم يعد يثق بشاول وعبيده ألقى بنفسه في أحضان أعداء شعبه . كان داود قائدا شجاعا وبرهن على أنه محارب حكيم وناجح ، ولكنه كان يعمل ضد مصلحته حين ذهب إلى أرض الفلسطينيين . حيث قصد الله أن يرفع داود رايته في أرض يهوذا . ولكن عدم إيمانه ساقه إلى ترك مركزه وواجبه دون أن يتلقى أمرا بذلك من الله .

لقد أهان داود الله بعدم إيمانه ، إذ كان الفلسطينيون يرهبون جانب داود أكثر مما كانوا يخافون من شاول وجيوشه ، وحينما وضع داود نفسه تحت حماية الفلسطينيين جعلهم يكتشفون ضعف شعبه . وهكذا شجع أولئك الأعداء القساة على إذلال إسرائيل .. لقد مسح داود ليقف مدافعا عن شعب الله ، والله لا يرضى أن عبيده يشجعون الناس الأشرار ، وذلك بكشفهم عن ضعفات شعبه أو بالتظاهر بعدم الاكتراث لخيرهم وسعادتهم . وفوق هذا اعتقد إخوته أنه ذهب إلى أولئك الوثنيين ليعبد أوثانهم . وبهذا العمل أعطى للناس فرصة لتحريف بواعثه ، وهذا

جعل كثيرين يتعصبون ضده .. لقد عمل داود نفس ما كان الشيطان يريده أن يعمل ، إذ بطلبه ملجأ لنفسه بين الفلسطينيين أدخل التباهي العظيم إلى أعداء الله وشعبه . نعم إن داود لم يتخل عن عبادة الله ، ولا كف عن تكريس نفسه لعمله ، إلا أنه ضحى بثقته بالله على مذبح سلامته الذاتية . وهكذا لطخ داود الخلق المستقيم الأمين الذي يريد الله أن يتحلى به خدامه ويظل ناصعا ونقيا .

استقبل ملك الفلسطينيين داود بكل ترحيب . وإن حرارة هذا الاستقبال تعزى إلى أمرين ، أولهما حقيقة كونه معجبا بداود ، وثانيهما حقيقة كونه أمرا مشبعا لغرور الملك في أن عبرانيا يأتيه طالبا حمايته . أحس داود بأنه يستطيع أن يأمن على نفسه من الخيانة وهو في مملكة أخيش . فأتى بأسرته وعياله ومقتنياته كما قد فعل رجاله كذلك . كان يبدو أنه قد أتى ليمكث في بلاد الفلسطينيين بصفة دائمة ، وهذا كان من دواعي سرور أخيش الذي وعد أن يحمي أولئك الإسرائيليين اللاجئين إلى أرضه .

وإذ طلب داود أن يعطى له ولرجاله مكان للسكنى في الأرياف بعيدا عن المدينة الملكية أعطاه الملك بكل تلطف مدينة صقلع ملكا . كان داود متيقنا من أن هناك خطرا عليه وعلى رجاله في أن يكونوا تحت تأثير الوثنيين ، ولكن وجودهم في مدينة منعزلة خاصة بهم يمكنهم من أن يعبدوا الله بحرية أكثر مما لو بقوا في جت حيث تكون الطقوس الوثنية مبعث الشر والمضايقة لهم .

وإذ كان داود ساكنا في تلك المدينة المنعزلة شن حروبا على الجشوريين والجرزيين والعمالقة ، ولم يستبق أحدا حيا لئلا يأتي بأخباره إلى جت . ولما عاد من الحرب جعل أخيش يعتقد أنه كان يحارب إخوته وأمته أي شعب يهوذا . بهذا التصنع كان داود واسطة في تشديد أيدي الفلسطينيين لأن الملك قال «قَدْ صَارَ مَكْرُوهًا لَدَى شَعْبِهِ إِسْرَائِيلَ ، فَيَكُونُ لِي عَبْدًا إِلَى الأَبَدِ » . عرف داود أن إرادة الله هي إبادة وإهلاك تلك القبائل الوثنية ، كما عرف أن الله قد أقامه لإتمام ذلك الغرض ، إلا أنه لم يكن سائرا بموجب مشورة الله عندما عمد إلى المخاتلة والخداع .

«وَكَانَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَنَّ الْفِلِسْطِينِيِّينَ جَمَعُوا جُيُوشَهُمْ لِكَيْ يُحَارِبُوا إِسْرَائِيلَ . فَقَالَ أَخِيشُ لِدَاوُدَ : اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّكَ سَتَخْرُجُ مَعِي فِي الْجَيْشِ أَنْتَ وَرِجَالُكَ » إن داود لم يكن

ينوي أن يحارب ضد شعبه إلا أنه لم يكن يعرف في أي طريق يسير حتى تحدد له الظروف واجبه ، فأجاب الملك جوابا كله مراوغة إذ قال : «لِذلِكَ أَنْتَ سَتَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ عَبْدُكَ» فهم أخيش هذا الكلام على أنه وعد من داود بالمساعدة في الحرب القادمة فتمهد لداود بأن يكرمه إكراما عظيما ويعطيه مركزا مرموقا في بلاط الفلسطينيين .

ولكن مع أن إيمان داود بمواعيد الله قد تزعزع قليلا فقد ظل يذكر أن صموئيل قد مسحه ليكون ملكا على إسرائيل ، كما ذكر الانتصارات الباهرة التي قد أعطاه الله إياها على أعدائه فيما مضى ، كذلك استعاد إلى الذاكرة رحمة الله العظيمة التي ظهرت في حفظه من شاول لذلك صمم على ألا يخون الأمانة المقدسة المسلمة له . ومع أن ملك إسرائيل حاول قتله إلا أنه لن يضم قواته إلى أعداء شعبه .

الفصل السادس والستون

موت شاول

لقد أعلنت الحرب ثانية بين إسرائيل والفلسطينيين ، ((فَاجْتَمَعَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَجَاءُوا وَنَزَلُوا فِي شُونَمَ)) عند الحدود الشمالية لسهل يزرعيل ، أما شاول وجيشه فقد عسكروا على مسافة أميال قليلة من هناك عند سفح جبل جلبوع عند الحدود الجنوبية لذلك السهل . في هذا السهل استطاع جدعون هو والثلاث مئة رجل الذين كانوا معه أن يطردوا جيوش مديان . ولكن الروح الذي ألهم قاضي إسرائيل ومخلصه كان يختلف اختلافا بينا عن الروح الذي أثار قلب الملك . لقد خرج جدعون قويا بإيمانه بعزيز يعقوب ، أما شاول فقد أحس بأنه وحيد وبلا حماية لأن الله قد تركه . ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين من بعد ، ((خَافَ وَاضْطَرَبَ قَلْبُهُ جِدًّا)) (انظر ١صموئيل ٢٨،٣١) .

كان شاول قد علم أن داود وجيشه كانوا مع الفلسطينيين وكان يتوقع أن ابن يسى سينتهز هذه الفرصة لينتقم لنفسه عن المظالم التي قد قاساها ، فكان الملك في كرب وضيق عظيم . إن غضبه غير المعقول الذي أثاره على مختار الرب لإهلاكه هو الذي أوقع الأمة في ذلك الخطر الهائل . فإذ كان منهمكا في مطاردة داود أغفل أمر تحصين مملكته والدفاع عنها . وإذ استفاد الفلسطينيون من نقص استحكامات مملكة إسرائيل توغلوا في قلب تلك البلاد . وهكذا بينما كان الشيطان يثير شاول لبذل كل قواه ونشاطه في مطاردة داود لإهلاكه فنفس تلك الروح الوبيلة أوعزت إلى الفلسطينيين أن يغنموا تلك الفرصة لإهلاك شاول والقضاء على شعب الله . ما أكثر ما يتبع الخصم الأعظم هذه السياسة نفسها ! إنه يحوم حول أي قلب غير مكرس ليلهبه بإثارة الحسد والخصومة والنزاع في الكنيسة ، وكذلك لكي يستفيد من الانقسام المتفشي بين أبناء الله يثير قواته لإهلاك شعب الرب .

كان على شاول أن ينازل الفلسطينيين في المعركة غداة اليوم التالي ، ولكن انعقـدت فـي سماء حياته غيوم قاتمة تنبئ بهلاكه المحتوم . لقد كان يتوق إلى العون والإرشاد إلا أنه عبثا كان يطلب مشورة الله ، «لَمْ يُجِبْهُ الرَّبُّ لاَ بِالأَحْلاَمِ وَلاَ بِالأُورِيمِ وَلاَ بِالأَنْبِيَاءِ» إن الرب لم يطرح قط خارجا أي نفس أتت إليه في إخلاص ووداعة . إذا فلمـاذا تـرك شـاول دون أن يعطيه جوابا ؟ إن الملك بنفسه وبعمله كان قد أضاع حقه في الانتفاع بكل الوسائل التي كـان يمكنه أن يسأل الله بها ، إذ رفض مشورة صموئيل النبي ، ونفي داود مختار الله ، وقتل كهنـة العلي . فهل كان ينتظر بعد كل هذا أن يجيبه الله في حين أنه قد طم كل قنوات الاتصال التـي قد رسمتها السماء ؟ لقد طرد روح النعمة بخطيته فهل يجاب بواسطة الأحلام أو الإعلانـات الإلهية ؟ إن شاول لم يرجع إلى الله متذللا تائبا ، ولم يطلب غفرانا لخطيته ولا مصالحة مـع الله بل طلب الخلاص من أعدائه . حيث بعناده وتمرده فصل نفسه عن الله لا يمكن أن يكـون هنالك رجوع حقيقي إلى الله إلا بالتوبة والانسحاق . ولكن ذلك الملك المتكبر في حزنه ويأسه عوَّل على أن يطلب المعونة من مصدر آخر .

«فَقَالَ شَاوُلُ لِعَبِيدِهِ : فَتِّشُوا لِي عَلَى امْرَأَةٍ صَاحِبَةِ جَانٍّ ، فَأَذْهَبَ إِلَيْهَا وَأَسْأَلَهَا» . لقـد كان شاول على علم تام بصفة العرافة ، إذ حرم الله استخدام الجان والسحر والعرافة تحريمـا قاطعا باتا وكان يحكم بالموت على من يمارسون تلك الأعمال النجسة . وفي أيام صموئيل أمر شاول بقتل كل التوابع وأصحاب الجان . أما الآن ففي اندفاع اليائس لجأ شاول إلـى العرافـة التي كان قد حكم عليها بأنها رجس من عمل الشيطان .

وقد قيل للملك إن في عين دور امرأة صاحبة جان متخفية ، وكانت تلك المرأة قد دخلـت في عهد مع الشيطان على أن تسلم نفسها لسلطانه وتتمم مقاصده ، وفي مقـابل ذلـك صنـع سلطان الشر عجائب لأجلها ، وأعلن لها الأسرار .

خرج شاول ليلا متنكرا يتبعه خادمان للبحث عن موطن تلك الساحرة . آه ياله من منظـر يرثى له ! أن يقود الشيطان ملك إسرائيل أسيرا له متمما إرادته ! فأي طريق مظلم يمكـن أن يسر فيه أي إنسان كهذا الطريق الذي قد اختاره ذاك الذي أصر على السير في طريقه الخاص مقاوما تأثير روح الله القدوس ! وأية عبودية أقسى من عبودية ذاك الذي أسلم نفسه لسـلطان أقسى الطغاة أي ذاته ! لقد كان الاتكال على الله والطاعة لمشيئته الشرطين الوحيدين اللذيـن

بموجبهما يكون شاول ملكا على إسرائيل . فلو كان أذعن لهذين الشرطين في إبان سني ملكه لثبت له الملك وكان الله يصير له مرشدا ومشيرا . وكان القدير يصير له ترسا . لقد احتمل الله شاول طويلا ، ومع أن تمرده وعناده كادا يسكتان صوت الله في نفسه فقد كان لم يزل لديه مجال للتوبة . ولكنه حين ارتد عن الله في وقت الخطر ليحصل على نور وإرشاد من إحدى حليفات الشيطان قطع آخر صلة تربطه بجابله ، فأسلم نفسه كليا لسلطان تلك القوة الشيطانية التي كانت تنتابه لسنين ، والتي أوقفته على حافة هاوية الهلاك .

سار شاول وغلاماه في ذلك السهل تحت جنح الظلام وبعدما مروا بجيش الفلسطينيين بسلام اجتازوا حافة الجبل ، إلى المسكن المنعزل الذي كانت تعيش فيه ساحرة عين دور . في هذا المكان كانت تختبئ تلك المرأة صاحبة الجان لتدأب في ممارسة تعاويذها الرجسة سرا . ومع أن شاول كان متنكرا إلا أن طول قامته وهيئته الملكية دلا على أنه ليس جنديا عاديا . وقد ارتابت المرأة في أن زائرها ربما يكون هو شاول ، وقوّت عطاياه السخية في نفسها تلك الشكوك . فلما طلب منها قائلا «اعْرِفِي لِي بِالْجَانِّ وَأَصْعِدِي لِي مَنْ أَقُولُ لَكِ» أجابته قائلة : «هُوَذَا أَنْتَ تَعْلَمُ مَا فَعَلَ شَاوُلُ ، كَيْفَ قَطَعَ أَصْحَابَ الْجَانِّ وَالتَّوَابِعِ مِنَ الأَرْضِ . فَلِمَاذَا تَضَعُ شَرَكًا لِنَفْسِي لِتُمِيتَهَا ؟» ، فحلف لها شاول بالرب قائلا : «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، إِنَّهُ لاَ يَلْحَقُكِ إِثْمٌ فِي هذَا الأَمْرِ» فلما سألته قائلة : «مَنْ أُصْعِدُ لَكَ ؟» أجابها قائلا : «صَمُوئِيلَ» .

فلما بدأت تنطق بتعاويذها قالت : «رَأَيْتُ آلِهَةً يَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ ... رَجُلٌ شَيْخٌ صَاعِدٌ وَهُوَ مُغَطًّى بِجُبَّةٍ . فَعَلِمَ شَاوُلُ أَنَّهُ صَمُوئِيلُ ، فَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ وَسَجَدَ» .

إن الذي صعد على أثر نطق تلك الساحرة بتعاويذها لم يكن نبي الله القديس ، إذ أن صموئيل لم يكن حاضرا في ذلك البيت الذي كانت تسكنه الأرواح الشريرة . إن تلك الهيئة الفائقة الطبيعة أخرجت بقوة الشيطان دون سواه . لقد أمكنه أن يتخذ هيئة صموئيل بنفس السهولة التي بها غير شكله إلى ملاك نور عندما جرب المسيح في البرية .

إن أول ما قالته المرأة وهي تنطق بتعاويذها كان موجها إلى الملك إذ قالت له : «لِمَاذَا خَدَعْتَنِي وَأَنْتَ شَاوُلُ ؟» . وهكذا كان أول ما عمله ذلك الروح النجس الذي اتخذ هيئة النبي أن تحدث مع تلك المرأة الشريرة سرا محذرا إياها من الخداع الذي انطلى عليها . وقد كانت الرسالة التي نطق بها ذاك الذي اتخذ هيئة النبي غير الحقيقي إلى شاول هي هذه «لِمَاذَا أَقْلَقْتَنِي

بإصْعَادِكَ إِيَّايَ ؟)) فقال شاول : ((قَدْ ضَاقَ بِي الأَمْرُ جِدًّا . اَلْفِلِسْطِينِيُّونَ يُحَارِبُونَنِي ، وَالرَّبُّ فَارَقَنِي وَلَمْ يَعُدْ يُجِيبُنِي لاَ بِالأَنْبِيَاءِ وَلاَ بِالأَحْلاَمِ . فَدَعَوْتُكَ لِكَيْ تُعْلِمَنِي مَاذَا أَصْنَعُ)) .

لما كان صموئيل حيا كان شاول يحتقر مشورته ويحقد عليه بسبب توبيخاته . أما الآن في ساعة الضيق والبلية فقد أحس بأن مشورة النبي وإرشاداته هي رجاؤه الوحيد ، ولكي يتحدث مع رسول السماء لجأ عبثا إلى رسول الجحيم ! لقد أسلم شاول نفسه بكليتها إلى يد الشيطان . والآن فهوذا ذاك الذي يفرح ويسر ، بالأكثر ، بجلب التعاسة والهلاك على الناس يبذل قصاراه لإهلاك ذلك الملك التعس . وقد جاءت هذه الرسالة المرعبة جوابا على توسل ذلك الملك الحزين المر النفس ، ادعاء أنها من صموئيل تقول :

((وَلِمَاذَا تَسْأَلُنِي وَالرَّبُّ قَدْ فَارَقَكَ وَصَارَ عَدُوَّكَ ؟ وَقَدْ فَعَلَ الرَّبُّ لِنَفْسِهِ كَمَا تَكَلَّمَ عَنْ يَدِي ، وَقَدْ شَقَّ الرَّبُّ الْمَمْلَكَةَ مِنْ يَدِكَ وَأَعْطَاهَا لِقَرِيبِكَ دَاوُدَ . لأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ وَلَمْ تَفْعَلْ حُمُوَّ غَضَبِهِ فِي عَمَالِيقَ ، لِذلِكَ قَدْ فَعَلَ الرَّبُّ بِكَ هذَا الأَمْرَ الْيَوْمَ . وَيَدْفَعُ الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ أَيْضًا مَعَكَ لِيَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ . وَغَدًا أَنْتَ وَبَنُوكَ تَكُونُونَ مَعِي ، وَيَدْفَعُ الرَّبُّ جَيْشَ إِسْرَائِيلَ أَيْضًا لِيَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ)) .

إن شاول مدة سني عصيانه كلها كان الشيطان يتملقه ويخدعه . وعمل المجرب هو أن يقلل ويهون من شأن الخطية وخطرها ليجعل طريق العصيان سهلا ومغريا ، كما أنه يعمي العقل عن الانتباه إلى إنذارات الرب وتهديداته ، فالشيطان بقوته الساحرة قاد شاول إلى تبرير نفسه متحديا إنذارات صموئيل وتوبيخاته . أما الآن فإنه في كربه العظيم وحاجته القصوى انقلب عليه ، مبينا له هول خطيته ، وقضى على كل أمل في الغفران ليسوقه إلى اليأس . ولم يكن هنالك شيء أفضل من هذا للقضاء على شجاعة الملك ، وإرباك عقله ، وسوقه إلى اليأس وإهلاك نفسه بنفسه .

لقد خارت قوة شاول من إثر الإعياء والصوم ، وكان مرتعبا إذ ضربه قلبه وضميره . وإذ وقع على مسمعه نبأ هلاكه المخيف تمايل جسمه كشجرة في مهب الريح وسقط على طوله إلى الأرض .

عند ذلك امتلأ قلب تلك الساحرة رعبا . ها هو ملك إسرائيل منطرح أمامها كميت . فلو هلك في بيتها ماذا يحدث لها ؟ لذلك توسلت إليه أن يقوم ويتناول طعاما ، وقد ألحت عليه في

ذلك قائلة حيث أنها قد خاطرت بحياتها ، إذ أجابته إلى طلبه ، فعليه أن يجيبها إلى طلبها للإبقاء على حياته . وإذ اشترك عبداه مع المرأة في توسلاتها أجابهم شاول أخيرا إلى طلبهم فأسرعت المرأة ووضعت أمام الملك عجلها المسمن وفطيرا كانت قد صنعته بعجلة . يا له من منظر ! ففي تلك المغارة الموحشة مغارة الساحرة التي منذ قليل رن فيها صوت الحكم عليه بالهلاك –وفي محضر رسول الشيطان– نرى ذاك الممسوح ملكا على إسرائيل جالسا يأكل استعدادا للمعركة الدامية التي كانت ستنشب في النهار التالي .

وقبل بزوغ الفجر عاد الملك وعبداه معه إلى معسكر إسرائيل ليتأهب للقتال . إن شاول باستشارته روح الظلام ذاك أهلك نفسه . فإذ كان منسحقا من هول اليأس أمسى من المستحيل عليه أن يلهم رجال جيشه بالشجاعة . وبما أنه كان منفصلا عن نبع القوة لم يستطع أن يوجه عقول رجال إسرائيل لينظروا إلى الله كمعينهم . وهكذا فإن تنبؤ الشر يعمل على تدمير نفسه .

التحم جيشا إسرائيل والفلسطينيين في قتال مميت في سهل شونم وعلى سفح جبل جلبوع . ومع أن المنظر المخيف الذي كان الملك قد رآه في ذلك الغار في عين دور قد انتزع من قلبه كل رجاء فقد حارب بشجاعة يائسة لأجل عرشه ومملكته . إلا أن ذلك كله كان عبثا ، إذ « هَرَبَ رِجَالُ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَمَامِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَسَقَطُوا قَتْلَى فِي جَبَلِ جِلْبُوعَ » وسقط ثلاثة من بني شاول الشجعان قتلى إلى جانبه ، ثم حمل الرماة حملة شعواء على شاول الذي رأى رجال حربه يسقطون أمامه كما رأى بنيه الأمراء يقعون بفم السيف . ولما جرح شاول لم يستطع مواصلة الحرب ولا أمكنه الهرب ، لأن الهرب كان مستحيلا . وإذ عزم على ألا يقع حيا بين أيدي الأعداء أمر حامل سلاحه قائلا : « اسْتَلَّ سَيْفَكَ وَاطْعَنِّي بِهِ » فلما أبى ذلك الرجل أن يمد يده إلى مسيح الرب قضى شاول على حياته بنفسه إذ أخذ سيفه وسقط عليه .

وهكذا هلك أول ملوك إسرائيل ويداه ملطختان بجريمة الانتحار . لقد كانت حياته فاشلة ، فانحدر إلى الهاوية مجللا بالعار واليأس ، لأنه بإرادته الفاسدة تحدى الله ورفض إتمام إرادته .

وقد انتشرت أنباء الهزيمة في كل مكان حاملة الرعب لشعب إسرائيل . فهرب الشعب من مدنهم فجاء الفلسطينيون وامتلكوها بدون منازع . إن استقلال شاول بالحكم عن الله كاد يفضي

إلى هلاك شعبه .

وفي اليوم التالي للمعركة إذ كان الفلسطينيون يفحصون ساحة القتال ليعروا القتلى (لينهبوهم) وجدوا جثث شاول وبنيه الثلاثة . ولكي يكمل انتصارهم قطعوا رأس شاول وجردوه من سلاحه . ثم أخذ رأسه وسلاحه ، الملطخان بالدماء ، إلى بلاد الفلسطينيين تذكارا لانتصارهم . ((لأَجْلِ التَّبْشِيرِ فِي بَيْتِ أَصْنَامِهِمْ وَفِي الشَّعْبِ)) وقد وضع سلاح شاول أخيرا في ((بَيْتِ عَشْتَارُوثَ)) ، أما رأسه فقد سمروه على هيكل داجون . وهكذا نسب مجد انتصارهم لقوة تلك الآلهة الكاذبة . أما اسم الرب فقد أهين .

وقد سحبت جثة شاول وجثث بنيه إلى بيت شان وهي مدينة غير بعيدة عن جلبوع بالقرب من نهر الأردن . وكانت تلك الجثث مقيدة بسلاسل حتى تأتي الطيور الجارحة وتلتهمها . ولكن رجال يابيش جلعاد الشجعان إذ ذكروا كيف أن شاول قد خلصهم وخلص مدينتهم في بدء سني حكمه السعيدة أظهروا شكرهم له إذ أنقذوا جسد الملك وأجساد الأمراء ودفنوها بكل إكرام . وإذ عبروا الأردن ليلا ((أَخَذُوا جَسَدَ شَاوُلَ وَأَجْسَادَ بَنِيهِ عَنْ سُورِ بَيْتِ شَانَ ، وَجَاءُوا بِهَا إِلَى يَابِيشَ وَأَحْرَقُوهَا هُنَاكَ . وَأَخَذُوا عِظَامَهُمْ وَدَفَنُوهَا تَحْتَ الأَثْلَةِ فِي يَابِيشَ ، وَصَامُوا سَبْعَةَ أَيَّامٍ)) وهكذا فإن ذلك المعروف وذلك العمل النبيل الذي قام به شاول نحوهم منذ أربعين عاما مضت جعل أولئك الناس يدفنون جسد شاول وأجساد بنيه بكل رقة وإشفاق ، في تلك الساعة المظلمة ساعة الهزيمة والعار .

الفصل السابع والستون

العِرافة قديما وحديثا

صارت القصة المذكورة في الكتاب المقدس عن زيارة شاول للساحرة التي كانت في عين دور سبب ارتباك وتشويش لعدد كبير من دارسي الكتاب . فالبعض يعتقدون أن صموئيل كان حاضرا بالفعل في المقابلة مع شاول . ولكن الكتاب نفسه يقدم الدليل الكافي على أن الأمر عكس ما يعتقدون . فإذا كان صموئيل في السماء كما يدَّعي البعض فلا بد أنه قد تلقى دعوة من هناك بالنزول ، وفي هذه الحالة إما أن تكون تلك الدعوة آتية بسلطان الله أو بسلطان الشيطان . وليس من يعتقد ولو للحظة واحدة أن للشيطان سلطانا لأن يدعو نبي الله المقدس ذاك من السماء تلبية لتعاويذ امرأة مهجورة . وكذلك لا يمكننا أن نستنتج أن الله قد دعاه إلى كهف تلك الساحرة لأن الرب قد رفض من قبل التحدث مع شاول عن طريق الأحلام والأوريم والأنبياء (١صموئيل ٢٨ : ٦) . وهذه كانت وسائل الله المعينة منه للاتصال بالناس ، وهو لم يغفل كل هذه الوسائل ليبلغ الرسالة إلى شاول عن طريق عميلة الشيطان .

ثم أن الرسالة نفسها هي خير دليل على مصدرها . إذ لم يكن القصد منها إرشاد شاول إلى التوبة بل كان غرضها أن تقوده إلى الهلاك ، وهذا ليس عمل الله بل عمل الشيطان . وفوق هذا كله ، فإن عمل شاول في استشارته لتلك الساحرة قد ذكر في الكتاب المقدس على أنه من بين الأسباب التي لأجلها رفضه الله وأسلمه إلى الهلاك . حيث يقول الكتاب : «فَمَاتَ شَاوُلُ بِخِيَانَتِهِ الَّتِي بِهَا خَانَ الرَّبَّ مِنْ أَجْلِ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِي لَمْ يَحْفَظْهُ . وَأَيْضًا لأَجْلِ طَلَبِهِ إِلَى الْجَانِّ لِلسُّؤَالِ ، وَلَمْ يَسْأَلْ مِنَ الرَّبِّ ، فَأَمَاتَهُ وَحَوَّلَ الْمَمْلَكَةَ إِلَى دَاوُدَ بْنِ يَسَّى » (١أخبار ١٠ : ١٣،١٤) . من هذا يتضح جليا أن شاول طلب من الجان لا من الرب . فهو لم يتصل بصموئيل نبي الله ، ولكنه عن طريق تلك العرافة تحدث مع الشيطان . فالشيطان لم يكن بمقدوره أن يستحضر صموئيل الحقيقي بل

شخصا آخر زائفا خدم أغراضه للإيهام والخداع .

إن أشكال العرافة والسحر قديما كانت كلها تقريبا مبنية على الاعتقاد بالاتصال بالموتى . وأولئك الذين مارسوا فنون استحضار الأرواح ، ادعوا أن لهم اتصالا بأرواح الراحلين . وأنهم عن طريق تلك الأرواح لهم معرفة بالغيب والحوادث المستقبلة . وإشعياء النبي يشير إلى هذه العادة عادة استشارة الموتى حين يقول : ‹‹وَإِذَا قَالُوا لَكُمُ : «اطْلُبُوا إِلَى أَصْحَابِ التَّوَابعِ وَالْعَرَّافِينَ الْمُشَقْشِقِينَ وَالْهَامِسِينَ» . «أَلاَ يَسْأَلُ شَعْبٌ إِلهَهُ ؟ أَيُسْأَلُ الْمَوْتَى لأَجْلِ الأَحْيَاءِ ؟» ›› (إشعياء ٨ : ١٩) .

إن نفس العقيدة ، عقيدة الاتصال بالموتى ، قد شكلت حجر زاوية العبادة الوثنية ، حيث كان الوثنيون يعتقدون أن آلهتهم هي أرواح الأبطال الراحلين الذين صاروا آلهة ، وهكذا كانت عبادة الوثنيين هي عبادة الموتى ، وهذا ما يوضحه ويبرهنه لنا الكتاب المقدس ، إذ عندما ذكر خطية إسرائيل التي ارتكبوها في بيت فغور يقول الكتاب : ‹‹وَأَقَامَ إِسْرَائِيلُ فِي شِطِّيمَ ، وَابْتَدَأَ الشَّعْبُ يَزْنُونَ مَعَ بَنَاتِ مُوآبَ . فَدَعَوْنَ الشَّعْبَ إِلَى ذَبَائِحِ آلِهَتِهِنَّ ، فَأَكَلَ الشَّعْبُ وَسَجَدُوا لآلِهَتِهِنَّ . وَتَعَلَّقَ إِسْرَائِيلُ بِبَعْلِ فَغُورَ ›› (عدد ٢٥ : ١-٣) . والمرنم يخبرنا عن نوع الآلهة التي قدمت لها تلك الذبائح . فحين يتكلم عن نفس هذا الارتداد الذي انحدر إليه الإسرائيليون يقول : ‹‹وَتَعَلَّقُوا بِبَعْلِ فَغُورَ ، وَأَكَلُوا ذَبَائِحَ الْمَوْتَى ›› (مزمور ١٠٦ : ٢٨) أي الذبائح المقدمة للموتى .

إن تأليه الموتى قد اتخذ لنفسه مكانة مرموقة في كل نظام وثني تقريبا ، وكذلك عقيدة الاتصال بالموتى المزعومة . لقد اعتقد الناس أن الآلهة توصل إرادتها للناس ، كما اعتقدوا أنها إذا استشيرت قدمت لهم مشورتها . ومن هذا النوع كانت إعلانات الآلهة المشهورة في اليونان وروما .

إن عقيدة الاتصال بالموتى لا تزال باقية حتى في البلاد المدعوة مسيحية . فتحت اسم مناجاة الأرواح نجد أن ممارسة الاتصال بكائنات تدعي أنها أرواح الراحلين قد أصبحت متفشية . وقد استنتج أنها تمتلك عواطف أولئك الذين قد دفنوا أحباءهم في القبور . فأحيانا تظهر خلائق روحية لبعض الأشخاص في هيئة أصدقائهم الموتى ، ويسردون حوادث لها صلة بحياتهم ، ويمارسون أعمالا كانوا يمارسونها وهم أحياء . وبهذه الكيفية يجعلون الناس

683,684,685

يعتقدون أن أصدقاءهم الموتى ملائكة يرفرفون فوقهم ويتصلون بهم . فأولئك الذين يدعون أنهم أرواح الراحلين . يعتبرون بنوع من عبادة الأوثان ، وكثيرون يعتبرون كلامهم أعظم قيمة من كلمة الرب .

ومع ذلك فكثيرون يعتقدون أن مناجاة الأرواح هي تدجيل ، كما أن تظاهرها الذي تدعم به ادعاء كونها فوق الطبيعة إنما ينسب إلى الخداع الذي يقوم به الوسيط . ولكن مع حقيقة كون نتائج الخداع قد افتخر بها أصحابها على أنها مظاهر حقيقية ، فقد ظهرت بعض البراهين أيضا على وجود قوة فوق الطبيعة . وكثيرون ممن يرفضون مناجاة الأرواح على أنها من نتائج المهارة البشرية أو المكر ، فإنهم متى ووجهوا بالمظاهر التي لا يستطيعون التعليل عنها على هذا الأساس لا بد أن ينتهي بهم الأمر إلى الاعتراف بصدق تلك الادعاءات .

إن مناجاة الأرواح الحديثة وأشكال السحر القديمة وعبادة الأوثان –كل ما له اتصال بالموتى على أنه مبدأهم الحيوي– كل ذلك مبني على الكذبة الأولى التي بها خدع الشيطان حواء في عدن حين قال لها : «لَنْ تَمُوتَا ! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ ... تَكُونَانِ كَاللهِ» (تكوين ٣ : ٤،٥) كذلك هذه الحقائق المبنية على الكذب والتي تؤيد الخداع ، فإن مصدرها ذاك الذي هو أبو الأكاذيب (الشيطان) .

نهي العبرانيون نهيا قاطعا عن الاشتراك ، بأي صورة ، في الاتصال المزعوم بالموتى ، وأغلق الله هذا الباب بكيفية قاطعة حين قال : «أَمَّا الْمَوْتَى فَلاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا ... وَلاَ نَصِيبَ لَهُمْ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ ، فِي كُلِّ مَا عُمِلَ تَحْتَ الشَّمْسِ» (جامعة ٩ : ٥،٦) . «تَخْرُجُ رُوحُهُ فَيَعُودُ إِلَى تُرَابِهِ . فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَفْسِهِ تَهْلِكُ أَفْكَارُهُ» (مزمور ١٤٦ : ٤) كما أعلن الرب لإسرائيل قائلا : «النَّفْسُ الَّتِي تَلْتَفِتُ إِلَى الْجَانِّ ، وَإِلَى التَّوَابعِ لِتَزْنِيَ وَرَاءَهُمْ ، أَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّ تِلْكَ النَّفْسِ وَأَقْطَعُهَا مِنْ شَعْبِهَا» (لاويين ٢٠ : ٦) .

إن أرواح الجان لم تكن هي أرواح الموتى بل أرواح الملائكة الأشرار ، رسل الشيطان ، حيث أن الوثنية القديمة التي تشمل عبادة الموتى والاتصال المزعوم بها كما قد رأينا ، هذه الوثنية يعلن الكتاب المقدس عنها أنها عبادة الشياطين . والرسول بولس ، إذ يحذر إخوته من الاشتراك بأي كيفية في العبادة الوثنية التي كان يمارسها جيرانهم الوثنيون ، يقول «بَلْ إِنَّ مَا يَذْبَحُهُ الأُمَمُ فَإِنَّمَا يَذْبَحُونَهُ لِلشَّيَاطِينِ ، لاَ لِلهِ . فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ شُرَكَاءَ

الشَّيَاطِينِ ›› (١كورنثوس ١٠ : ٢٠) والمرنم في كلامه عن إسرائيل يقول : ‹‹وَذَبَحُوا بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ لِلأَوْثَانِ ›› ويقول أيضاً في العدد التالي أنهم ذبحوهم ‹‹ لأَصْنَامِ كَنْعَانَ ›› ‹‹مزمور ١٠٦ : ٣٨،٣٧) ففي عبادتهم المزعومة للموتى كانوا في الحقيقة يعبدون الشياطين .

إن عقيدة مناجاة الأرواح الحديثة التي ترتكز على نفس الأساس ، إنْ هي إلا إنعاش ، في هيئة جديدة ، للعرافة ، وعبادة الشياطين التي قد دانها الله وحرمها منذ القدم . والكتاب المقدس سبق فتكلم عن ذلك إذ يعلن قائلا : ‹‹فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ يَرْتَدُّ قَوْمٌ عَنِ الإِيمَانِ ، تَابِعِينَ أَرْوَاحًا مُضِلَّةً وَتَعَالِيمَ شَيَاطِينَ ›› (١تيموثاوس ٤ : ١) وبولس الرسول في رسالته الثانية إلى تسالونيكي يشير إلى عمل الشيطان الخاص في مناجاة الأرواح كحادث يحدث قبل مجيء المسيح الثاني مباشرة . وإذ يتكلم عن مجيء المسيح ثانية يعلن قائلا : ‹‹ الَّذِي مَجِيئُهُ بِعَمَلِ الشَّيْطَانِ ، بِكُلِّ قُوَّةٍ ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ ›› (٢تسالونيكي ٢ : ٩) وبطرس الرسول إذ يصف المخاطر التي ستتعرض لها الكنيسة في الأيام الأخيرة يقول إنه كما كان هنالك أنبياء كذبة ساقوا شعب إسرائيل لارتكاب الخطية كذلك سيكون معلمون كذبة ، ‹‹يَدُسُّونَ بِدَعَ هَلاَكٍ . وَإِذْ هُمْ يُنْكِرُونَ الرَّبَّ الَّذِي اشْتَرَاهُمْ ... وَسَيَتْبَعُ كَثِيرُونَ تَهْلُكَاتِهِمْ . الَّذِينَ بِسَبَبِهِمْ يُجَدَّفُ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ›› (٢بطرس ٢ : ٢،١) هنا أشار الرسول إلى إحدى العلامات المميزة للمعلمين الذين ينشرون عقيدة مناجاة الأرواح ، إذ هم يرفضون الاعتراف بالمسيح كابن الله . والرسول يوحنا الحبيب يعلن عن أمثال هؤلاء المعلمين قائلا : ‹‹مَنْ هُوَ الْكَذَّابُ ، إِلاَّ الَّذِي يُنْكِرُ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ؟ هذَا هُوَ ضِدُّ الْمَسِيحِ ، الَّذِي يُنْكِرُ الآبَ وَالابْنَ . كُلُّ مَنْ يُنْكِرُ الابْنَ لَيْسَ لَهُ الآبُ أَيْضًا ›› (١يوحنا ٢ : ٢٣،٢٢) إن عقيدة مناجاة الأرواح أو تحضير الأرواح بإنكارها المسيح إنما تنكر الآب والابن معا والكتاب يعلن عنها أنها المسحاء الكذبة .

إن الشيطان حين أنبأ بهلاك شاول عن طريق ساحرة عين دور قصد أن يضع شركا لبني إسرائيل ، إذ كان يرجو أنهم سيضعون ثقتهم في تلك العرافة ويذهبون إليها في طلب المشورة ، وهكذا يرتدون عن الرب الذي هو مشيرهم ، ويضعون أنفسهم تحت قيادة الشيطان . إن الإغواء الذي به تجتذب عقيدة تحضير الأرواح الجماهير هو القوة التي تدعيها الروحانية لإزاحة الستار عن المستقبل وإعلان ما قد أخفاه الله عن الناس . لقد كشف الله لنا في كتابه عن الحوادث العظيمة التي ستحدث في المستقبل –أي كل

الأشياء الجوهرية التي يجب أن نعملها- كما أنه أعطانا مرشدا أمينا يهدي أقدامنا في وسط كل المخاطر . ولكن غاية الشيطان هي أن يلاشي من القلوب ثقة الناس بالله ، ليجعلهم غير قانعين بنصيبهم في الحياة ، ويدعهم يسعون في طلب معرفة ما أخفاه الله عنهم لحكمة عنده ، ويحتقروا ما قد أعلنه لهم في كلمته المقدسة .

كثيرون من الناس يشعرون بالتبرم حين لا يستطيعون معرفة النتائج النهائية للأشياء . لا يحتملون البقاء على غير يقين ، وفي ضجرهم يرفضون الانتظار ليروا خلاص الله . فالشرور التي يخشونها تكاد تؤدي بهم إلى الاختبال ، حيث يطلقون العنان لمشاعرهم المتمردة ، ويركضون هنا وهناك في حزن غاضب مهتاج طالبين اكتشاف ما لم يعلن . ولكن لو أنهم وثقوا بالله وسهروا مصلين ، لوجدوا عزاء من الله ، وهدأت أرواحهم بشركتهم معه . فالمتعبون والثقيلو الأحمال يجدون راحة لنفوسهم إذا ذهبوا إلى يسوع . أما إذا أهملوا الوسائط التي قد رسمها الله لأجل تعزيتهم ولجأوا إلى مصادر أخرى آملين أن يعرفوا ما قد حجبه الله عنهم فإنهم يرتكبون نفس الخطأ الذي وقع فيه شاول ، وبذلك لا يحصلون إلا على معرفة الشر .

إن الله لا يرضى عن هذا المسلك ، وقد عبر عن ذلك بكلام واضح ، إذ أن هذا التسرع الضجر ، لتمزيق الحجاب الذي يخفي المستقبل عن أعيننا يظهر عدم إيماننا بالله ، ويترك النفس معرضة لقبول مقترحات المخادع الأعظم . فالشيطان يقود الناس إلى استشارة أصحاب الجان ، وإذ يكشف لهم عن الأمور التي خفيت عليهم في الماضي يجعلهم يثقون بقدرته على أن يكشف لهم عما سيحدث في المستقبل . وبالخبرة التي قد اكتسبها الشيطان مدة أجيال التاريخ يمكنه أن يعلل النتائج من الأسباب ، وغالبا ما يتنبأ ببعض الدقة عن بعض الحوادث المستقبلة في حياة الإنسان . وبهذه الكيفية يستطيع أن يهلك النفوس المسكينة المضلة ، ويجعلها تحت سلطانه ، تخضع لإرادته وتأتمر بأمره .

لقد أنذرنا الله بواسطة نبيه حين قال : «وَإِذَا قَالُوا لَكُمُ : «اطْلُبُوا إِلَى أَصْحَابِ التَّوَابِعِ وَالْعَرَّافِينَ الْمُشَقْشِقِينَ وَالْهَامِسِينَ» . «أَلاَ يَسْأَلُ شَعْبٌ إِلهَهُ ؟ أَيُسْأَلُ الْمَوْتَى لأَجْلِ الأَحْيَاءِ ؟» إِلَى الشَّرِيعَةِ وَإِلَى الشَّهَادَةِ . إِنْ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ هذَا الْقَوْلِ فَلَيْسَ لَهُمْ فَجْرٌ » (إشعياء ٨ : ١٩،٢٠) .

فهل أولئك الذين يعبدون الإله القدوس غير المحدود في حكمته وقدرته يذهبون إلى السحرة

والعرافين الذين يستقون المعرفة من صداقتهم لعدو الرب إلهنا ؟ إن الله نفسه هو نور شعبه ، وهو يأمرهم أن يثبتوا أنظارهم بالإيمان في الأمجاد المخفاة عن العيون البشرية ، كما أن شمس البر يرسل أشعة نوره الساطعة إلى داخل قلوبهم ، إذ يحصلون على النور من عرش السماء ، وحينئذ لا يريدون أن يتركوا الرب نبع النور ليذهبوا إلى رسل الشيطان .

إن رسالة الشيطان لشاول ، مع أنها كانت تشهيرا بالخطية ونبوة عن الجزاء الآتي ، لم يكن المقصود بها إصلاح شاول ولكن غايتها كانت أن تسوقه إلى اليأس والدمار . ومع ذلك ففي أحيان كثيرة يكون مما يخدم أغراض الشيطان أكثر من غيره أنه يغوي الناس ليرديهم في هاوية الهلاك بتملقاته . كما أن تعليم آلهة الشياطين قديما قد غذَّى أفسد إباحية . أما وصايا الله التي تدين الخطية والتي توجب على الناس العيشة بالبر فقد ألقي بها جانبا ، فاستخف الناس بالحق . والنجاسة لم يسمح بها فقط ، بل فرضت على الناس قهرا . وعقيدة مناجاة الأرواح تعلن أنه ليس هنالك موت ولا خطية ولا دينونة ولا جزاء ، وأن الناس هم «أنصاف آلهة غير ساقطين» وأن الشهوة هي أعلى قانون ، وأن الإنسان لن يحاسب إلا أمام نفسه . فنقضت السياجات التي وضعها الله لصيانة الحق والطهارة والوقار ، وهذا ما شجع كثيرين على ارتكاب الخطية . أفلا يرجع أصل اعتقاد كهذا إلى عقيدة مشابهة لعقيدة عبادة الشياطين ؟

لقد بسط الرب أمام إسرائيل نتائج الاتصال بالأرواح الشريرة في أرجاس الكنعانيين ، الذين كانوا بلا حنو ، بل كانوا عبدة أوثان وزناة وقتلة ورجسين في كل فكر شرير وكل أعمال العصيان . إن الناس لا يعرفون قلوبهم لأن «اَلْقَلْبُ أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ» (إرميا ١٧ : ٩) ولكن الله يعرف أميال طبيعة الإنسان الفاسدة . وكما هي الحال الآن كذلك كانت قديما . كان الشيطان يراقب ليجعل الظروف مواتية للعصيان ، حتى يدع شعب إسرائيل أنفسهم ممقوتين من الله كالكنعانيين سواء بسواء . إن عدو النفوس ساهر أبدا كي يفتح الطريق لتيار الشر الجارف فينا ، لأنه يريد الدينونة والهلاك أمام الله .

كان الشيطان عازما على أن يظل مالكا على أرض كنعان ، فلما صارت ملكا لشعب إسرائيل ، وصارت شريعة الله هي شريعة البلاد ، صار الشيطان يضمر لإسرائيل أعظم كراهية وأقساها فتآمر على إهلاكهم . وعن طريق الأرواح الشريرة دخلت بعض الآلهة

الغريبة ، وبسبب العصيان تشتت الشعب المختار من أرض الموعد أخيرا . والشيطان يحاول اليوم أن يجعل التاريخ يعيد نفسه . في حين أن الله يخرج شعبه من أرجاس العالم ليحفظوا شريعته ، وبسبب هذا فإن غضب «الْمُشْتَكِي عَلَى إِخْوَتِنَا» لا يعرف حدودا «لأَنَّ إِبْلِيسَ نَزَلَ إِلَيْكُمْ وَبِهِ غَضَبٌ عَظِيمٌ ! عَالِمًا أَنَّ لَهُ زَمَانًا قَلِيلاً» (رؤيا ١٢ : ١٠،١٢) . نحن الآن على أعتاب أرض الموعد المرموز إليها ، والشيطان قد عقد العزم على إهلاك شعب الله واستئصالهم من ميراثهم . ونحن اليوم أحوج مما كنا في أي وقت مضى إلى الإنذار القائل «اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ» (مرقس ١٤ : ٣٨) .

إن كلمة الرب التي وجهت إلى إسرائيل قديما توجَّه أيضا إلى شعبه في هذا العصر : «لاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى الْجَانِّ وَلاَ تَطْلُبُوا التَّوَابِعَ ، فَتَتَنَجَّسُوا» «لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ الرَّبِّ» (لاويين ١٩ : ٣١؛ تثنية ١٨ : ١٢) .

الفصل الثامن والستون

داود في صقلغ

لم يكن داود ورجاله قد اشتركوا في المعركة التي اشتبك فيها شاول مع الفلسطينيين مع أنهم كانوا قد ساروا مع الفلسطينيين إلى ساحة القتال . وإذ كان الجيشان يتأهبان للاشتباك في الحرب وجد ابن يسى نفسه في ارتباك عظيم . كان المنتظر أنه يحارب لأجل الفلسطينيين ، فلو أنه وهو في المعركة ترك المكان المعين له وانسحب من ساحة القتال لكان ، علاوة على كونه يوصم بوصمة الجبن ، يوصم أيضا بوصمة الجحود والخيانة لأخيش الذي حماه وأتمنه . إن مثل هذا التصرف كان يلطخ اسمه بالعار ، ويعرضه لغضب الأعداء الذين هم أشد بأسا وخطرا من شاول . ولكنه لم يكن ليرضى أبدا أن يحارب إسرائيل ، إذ لو فعل هذا لكان خائنا لوطنه ، وعدوا لله ولشعبه ، وكان هذا يحرمه إلى الأبد من اعتلاء عرش إسرائيل . ولو قتل شاول في هذه المعركة لكان دمه يطلب من داود .

لقد جعل داود يحس بأنه قد ضل طريقه ، فكان خيرا له جدا أن يجد له ملجأ في معاقل جبال الله المنيعة من أن يجده بين أولئك الذين يجاهرون بعدائهم للرب ولشعبه . ولكن الرب ، برحمته العظيمة ، لم يعاقب عبده على هذا الخطأ بتركه إياه لنفسه في ضيقه وارتباكه ، لأنه مع كون داود قد أفلت من يده القوة الإلهية وتردد ومال عن طريق الاستقامة الدقيقة فقد كان شوق قلبه الملتهب أن يكون أمينا لله . وفي الوقت الذي كان فيه الشيطان وجنوده جادين في معاضدة أعداء الله وأعداء إسرائيل للتآمر على حياة ملك قد ترك الله ، فإن ملائكة الرب كانوا يعملون على إنقاذ داود من الخطر الذي حاق به ، فأوعزت رسل السماء إلى أقطاب الفلسطينيين أن يحتجوا على وجود داود ورجاله مع الجيش في المعركة القادمة .

صاح أقطاب الفلسطينيين مضيقين الخناق على أخيش قائلين : «مَا هؤُلاَءِ الْعِبْرَانِيُّونَ ؟» (انظر ١صموئيل ٢٩، ٣٠) فأجابهم أخيش الذي لم يكن يريد أن يفترق عنه ذلك الحليف النافع

قائلا : «أَلَيْسَ هذَا دَاوُدَ عَبْدَ شَاوُلَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَانَ مَعِي هذِهِ الأَيَّامَ أَوْ هذِهِ السِّنِينَ ، وَلَمْ أَجِدْ فِيهِ شَيْئًا مِنْ يَوْمِ نُزُولِهِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ ؟» .

ولكن أولئك الأقطاب أصروا على إجابة طلبهم إذ قالوا «أَرْجِعِ الرَّجُلَ فَيَرْجعَ إِلَى مَوْضِعِهِ الَّذِي عَيَّنْتَ لَهُ ، وَلاَ يَنْزِلَ مَعَنَا إِلَى الْحَرْبِ ، وَلاَ يَكُونَ لَنَا عَدُوًّا فِي الْحَرْبِ . فَبِمَاذَا يُرْضِي هذَا سَيِّدَهُ ؟ أَلَيْسَ بِرُؤُوسِ أُولئِكَ الرِّجَالِ ؟ أَلَيْسَ هذَا هُوَ دَاوُدُ الَّذِي غَنَّيْنَ لَهُ بِالرَّقْصِ قَائِلاَتٍ : ضَرَبَ شَاوُلُ أُلُوفَهُ وَدَاوُدُ رِبْوَاتِهِ ؟» لقد كان مقتل جبارهم العظيم وانتصار إسرائيل عليهم في ذلك الوقت لا يزالان ماثلين في أذهان أقطاب الفلسطينيين ، كما أنهم لم يكونوا يصدقون أن داود سيحارب شعبه . ولو أنه انضم إلى جانب شعبه عندما يحمي وطيس القتال لأمكنه أن يلحق بالفلسطينيين ضررا أبلغ من كل جيوش إسرائيل مجتمعين .

وهكذا اضطر أخيش أن يذعن لمطالب أولئك الرؤساء فدعا داود وقال له : «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، إِنَّكَ أَنْتَ مُسْتَقِيمٌ، وَخُرُوجُكَ وَدُخُولُكَ مَعِي فِي الْجَيْشِ صَالِحٌ فِي عَيْنَيَّ لأَنِّي لَمْ أَجِدْ فِيكَ شَرًّا مِنْ يَوْمِ جِئْتَ إِلَيَّ إِلَى الْيَوْمِ. وَأَمَّا فِي أَعْيُنِ الأَقْطَابِ فَلَسْتَ بِصَالِحٍ. فَالآنَ ارْجعْ وَاذْهَبْ بِسَلاَمٍ، وَلاَ تَفْعَلْ سُوءًا فِي أَعْيُنِ أَقْطَابِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ» .

وإذ كان داود يخشى من افتضاح مشاعره الحقيقية أجاب قائلا : «فَمَاذَا عَمِلْتُ ؟ وَمَاذَا وَجَدْتَ فِي عَبْدِكَ مِنْ يَوْمِ صِرْتُ أَمَامَكَ إِلَى الْيَوْمِ حَتَّى لاَ آتِيَ وَأُحَارِبَ أَعْدَاءَ سَيِّدِي الْمَلِكِ ؟» .

لا بد من أن جواب أخيش قد أحدث هزة خزي وتبكيت في قلب داود حين فكر في كم هو أمر غير خليق بمن هو عبد للرب أن ينحدر إلى مثل ذلك الخداع وتلك المخاتلات . إذ قال أخيش لداود «عَلِمْتُ أَنَّكَ صَالِحٌ فِي عَيْنَيَّ كَمَلاَكِ الله . إِلاَّ إِنَّ رُؤَسَاءَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ قَالُوا : لاَ يَصْعَدْ مَعَنَا إِلَى الْحَرْبِ . وَالآنَ فَبَكِّرْ صَبَاحًا مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِكَ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَكَ . وَإِذَا بَكَّرْتُمْ صَبَاحًا وَأَضَاءَ لَكُمْ فَاذْهَبُوا» وهكذا انكسر الفخ الذي أمسكت فيه رجلا داود فانطلق حرا .

وبعد سفرة ثلاثة أيام وصل داود ورجاله الست مئة إلى صقلع المدينة التي استوطنوا بها في أرض الفلسطينيين . ولكنهم رأوا أول ما رأوا مشهد تخريب فظيع . ذلك أن العمالقة اغتنموا فرصة غياب داود ورجاله فانتقموا لأنفسهم من أجل غزوه لبلادهم . لقد باغتوا المدينة

حين كانت متروكة بدون حراسة ، وبعدما نهبوا المدينة وأحرقوها انطلقوا في طريقهم وأخـذوا معهم النساء والأطفال سبايا كما أخذوا غنائم وافرة .

وقد عقد الذهول لسان داود وألسنة رجاله فجعلوا يشخصون في صمت إلى تلك الخرائـب والحرائق . وإذ أحسوا بهول الوحشة والخراب اللذين حلاَّ بهم رفعوا «أَصْوَاتَهُمْ وَبَكَوْا حَتَّى لَمْ تَبْقَ لَهُمْ قُوَّةٌ لِلْبُكَاءِ» مع أنهم كانوا أبطال حرب صناديد .

وهنا نجد داود يقع تحت التأديب مرة أخرى بسبب ضعف إيمانه الذي ساقه إلى الاندمـاج بين الفلسطينيين ، حيث قدمت له الآن فرصة ليرى كم من الأمن يمكن أن يحصل عليه بيـن أعداء الله وشعبه . وقد انقلب اتباع داود عليه إذ اعتبروه السبب في الكوارث التي حلت بـهم ، إذ أثار حب الانتقام في قلوب العمالقة حينما أغار عليهم ، ومع ذلك ، فإنه إذ كان مفرطا فـي ثقته بالاطمئنان في وسط أعدائه ترك المدينة بدون حراسة . وبينما كـاد جنـوده يصـابون بالجنون من فرط الحزن كانوا متأهبين للقيام بأي إجراء يائس فهددوا قائدهم حتـى بـالرجم بالحجارة .

وقد بدا وكأن داود قد حرم من كل معونة بشرية . فكل من كان يحبهم علـى الأرض أخذوا منه- فلقد طرده شاول من بلاده ، والفلسطينيون طردوه من الجيـش ، والعمالقـة نهبوا مدينته وأحرقوها ، كما أخذت امرأتاه وأولاده أسرى ، وها هم أصدقاؤه وأنصـاره يتألبون عليه ويهددونه حتى بالقتل . وفي هذه الساعة ساعة الكرب العظيم ، بدلا مـن أن يترك داود لعقله المجال للتفكير في هذه الظروف المؤلمة ، التفت إلـى الله فـي طلـب المعونة بكل غيرة ، «أَمَّا دَاوُدُ فَتَشَدَّدَ بِالرَّبِّ إِلهِهِ» لقد راجع حياتـه الماضيـة الكثـيرة الوقائع . في أي شيء وفي أي ظرف تركه الله ؟ وقد انتعشت نفسه حيـن عـادت بـه الذاكرة إلى دلائل كثيرة لرضى الله عنه ومحبته له . إن أتباع داود بتبرمهم وضجرهـم زادوا بليتهم أضعاف ما كانت ، ولكن رجل الله كان صبورا ومتجلدا ، مع أنه كان له من دواعي الحزن اشد مما لهم . وقد كانت لغة قلبه هي هذه : «فِي يَوْمِ خَوْفِي، أَنَـا عَلَيْـكَ أَتَّكِلُ» (مزمور ٥٦ : ٣) ومع أنه هو نفسه لم يكن يجد له مخرجا عن مشكلته إلا أن الله عرف كيف يخلصه ، وأعلمه ماذا يصنع .

وإذ أرسل واستدعى أبياثار الكاهن ابن أخيمالك «سَأَلَ دَاوُدُ مِنَ الرَّبِّ قَائِلاً : «إِذَا لَحِقْتُ

هؤُلاَءِ الْغُزَاةَ فَهَلْ أُدْرِكُهُمْ ؟» فَقَالَ لَهُ : «الْحَقْهُمْ فَإِنَّكَ تُدْرِكُ وَتُنْقِذُ»)) .

عندما سمع رجال داود هذا الكلام هدأت ثورة حزنهم وغضبهم . فبدأ داود ورجاله في السير توا ليلحقوا أعداءهم الهاربين . وقد كانوا يسيرون بسرعة عظيمة حتى أنهم عندما وصلوا إلى جدول البسور الذي يصب ماؤه في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من غزة اضطر مئتان من أولئك الرجال أن يتخلفوا لأنهم كانوا معيين ، أما داود والأربع مئة الباقون فأسرعوا متقدمين إلى الأمام بلا خوف أو وجل .

وفيما كانوا يسيرون قدما رأوا عبدا مصريا كان يبدو عليه أنه يكاد يموت من فرط الإعياء والجوع . فلما ناولوه طعاما وشرابا انتعشت روحه وأخبرهم أن سيده القاسي تركه يموت ، وهو رجل عماليقي وأحد رجال الجيش الغازي . ثم أخبرهم بقصة الإغارة والنهب . وإذ أخذ منهم وعدا بأنهم لن يقتلوه أو يسلموه إلى سيده رضي أن يرشد داود ورجاله إلى معسكر أعدائهم .

فلما دنوا من معسكر الأعداء أبصروا منظرا من مناظر الطرب والعربدة ، إذ أقام أولئك الغزاة وليمة عظيمة ، ((وَإِذَا بِهِمْ مُنْتَشِرُونَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ ، يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَرْقُصُونَ بِسَبَبِ جَمِيعِ الْغَنِيمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَخَذُوا مِنْ أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَمِنْ أَرْضِ يَهُوذَا)) . فأمر داود رجاله بأن يهجموا عليهم هجوما سريعا خاطفا ، فاندفع أولئك الرجال هاجمين بضراوة على فريستهم ، وإذ أخذ العمالقة على غرة ، استولى عليهم الارتباك ، فاستمرت المعركة دائرة طوال تلك الليلة والنهار التالي حتى هلك كل جيش العدو تقريبا . ولم يبق حيا غير أربع مئة رجل ركبوا جمالا وأفلحوا في الهرب . وبذلك تم قول الرب ووعده لداود ((وَاسْتَخْلَصَ دَاوُدُ كُلَّ مَا أَخَذَهُ عَمَالِيقُ ، وَأَنْقَذَ دَاوُدُ امْرَأَتَيْهِ . وَلَمْ يُفْقَدْ لَهُمْ شَيْءٌ لاَ صَغِيرٌ وَلاَ كَبِيرٌ ، وَلاَ بَنُونَ وَلاَ بَنَاتٌ وَلاَ غَنِيمَةٌ ، وَلاَ شَيْءٌ مِنْ جَمِيعِ مَا أَخَذُوا لَهُمْ ، بَلْ رَدَّ دَاوُدُ الْجَمِيعَ)) .

إن داود حين غزا العمالقة قتل بحد السيف كل السكان الذين وقعوا تحت يده . ولولا قوة الله الضابطة لكان العمالقة قد انتقموا لأنفسهم بإهلاك شعب صقلع ، لكنهم قرروا استحياء الأسرى ليزيدوا من شرف انتصارهم حين يقتادون إلى بلادهم عددا غفيرا من الأسرى ، وبعد ذلك يبيعونهم بيع العبيد . وهكذا تمموا قصد الله وهم لا يدرون ، إذ لم يمسوا الأسرى بسوء

693,694

لكي يستردهم الأزواج والآباء .

إن كل القوات الأرضية هي تحت سلطان الله غير المحدود . فهو يقول لأقـــوى الملـــوك ولأعتى الطغاة : « إِلَى هُنَا تَأْتِي وَلاَ تَتَعَدَّى » (أيوب ٣٨ : ١١) إن الله يستخدم قوته دائما في إحباط أعمال قوى الشر . كما أنه يعمل دائما بين الناس لا لإهلاكهم بل لتأديبهم وحفظهم .

وقد عاد المنتصرون إلى وطنهم بفرح عظيم ، ولما وصلوا إلى رفاقهم الذين كـــانوا قـــد تخلفوا فإن أولئك الذين كانوا أشد قسوة وأنانية بين الأربع مئة طلبوا بإلحاح أن من لم يشتركوا معهم في الحرب لا نصيب لهم في الغنائم وأنه يكفيهم أن يأخذ كـــل منـــهم زوجتـــه وأولاده وينصرفوا . ولكن داود لم يسمح بذلك بل قال : « لاَ تَفْعَلُوا هكَذَا يَا إِخْوَتِي ، لأَنَّ الرَّبَّ قَـــدْ أَعْطَانَا ... لأَنَّهُ كَنَصِيبِ النَّازِلِ إِلَى الْحَرْبِ نَصِيبُ الَّذِي يُقِيـــمُ عِنْـــدَ الأَمْتِعَـــةِ ، فَإِنَّـــهُمْ يَقْتَسِمُونَ بِالسَّوِيَّةِ » وهكذا بت في هذه المسألة ، فصارت هذه ، بعد ذلـــك ، فريضـــة فـــي إسرائيل أن كل من يشتركون عن جدارة في أي حملة يقتسمون الغنائم بالسوية مع مـــن قـــد اشتركوا في المعركة .

وفضلا عن استرجاع كل الغنيمة التي كانت قد نهبت من صقلع ، اســتولى داود ورجالـــه على عدد كبير من قطعان الغنم والبقر التي كان يملكها العمالقة . وقد سميت هـــذه « غَنِيمَـــةُ دَاوُدَ » وبعد عودة داود إلى صقلع أرسل من هذه الغنيمة هدايا إلى شيوخ سبط يـــهوذا الـــذي ينتمي إليه . وفي هذا التوزيع لم ينس داود أحدا ممن صاحبوه وتبعوه في معاقل الجبال حيـــن كان مرغما على الفرار من مكان إلى آخر حرصا على حياته . فاعترف بالشكر لـــهم علـــى شفقتهم وعطفهم عليه اللذين كان يعتز بهما ذلك الرجل المطارد الهارب .

كان ذلك اليوم هو اليوم الثالث منذ عاد داود ورجاله إلى صقلع . وبينما كـــانوا يشـــتغلون بكل جد في إعادة بناء بيوتهم المتهدمة كانوا يترقبون بقلوب واجفة أنباء المعركة التي كـــانوا يعلمون باشتباك إسرائيل مع الفلسطينيين فيها . وفجأة أتى إلى المدينة رسول « ثِيَابُهُ مُمَزَّقَـــةٌ وَعَلَى رَأْسِهِ تُرَابٌ » (انظر ٢صموئيل ١ : ٢-١٦) فأتي به إلى داود حالا ، ولما مثل أمامـــه خر إلى الأرض وسجد معبرا بذلك عن احترامه له كرئيس عظيم قوي وكان يطلب رضـــاه . فسأله داود بكل اهتمام عن سير المعركة فأخبره ذلك الرجل الهارب عن هزيمة شاول وموتـــه وموت يوناثان . ولكنه لم يقف عند حد الإدلاء بالحقائق البسيطة ، بل إذ كان يظـــن أن داود لا

يزال حاقدا على مضطهده الذي لم يكن يعرف الرحمة ، فقد كان ذلك الغريب يرغب في الحصول على كرامة كمن قد قتل الملك . وبنغمة الافتخار جعل الرجل يخبر داود كيف أنه في أثناء المعركة وجد ملك إسرائيل جريحا ، وأعداؤه يجدون في مطاردته ، وأن ذلك الغريب قتله إجابة لطلبه ، وأنه قد أتى بالتاج الذي كان على رأسه والسوار الذي كان على ذراعه إلى داود . لقد كان ينتظر واثقا أن داود سيفرح بهذه الأخبار وسيغدق عليه مكافأة سخية لأجل ذلك العمل الذي قام به .

ولكن داود «أَمْسَكَ دَاوُدُ ثِيَابَهُ وَمَزَّقَهَا ، وَكَذَا جَمِيعُ الرِّجَالِ الَّذِينَ مَعَهُ . وَنَدَبُوا وَبَكَوْا وَصَامُوا إِلَى الْمَسَاءِ عَلَى شَاوُلَ وَعَلَى يُونَاثَانَ ابْنِهِ ، وَعَلَى شَعْبِ الرَّبِّ وَعَلَى بَيْتِ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُمْ سَقَطُوا بِالسَّيْفِ» .

ولما خف أثر الصدمة الأولى لتلك الأخبار المخيفة عاد داود إلى التفكر في ذلك الرسول الغريب ، والجريمة التي قد ارتكبها حسبما اعترف بلسانه . فسأل الرئيس الشاب قائلا : «مِنْ أَيْنَ أَنْتَ ؟» . فأجاب بقوله : «أَنَا ابْنُ رَجُل غَرِيبٍ ، عَمَالِيقِيٌّ . فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : كَيْفَ لَمْ تَخَفْ أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ لِتُهْلِكَ مَسِيحَ الرَّبِّ ؟» لقد أوقع الرب شاول في يد داود مرتين ، ولما ألح عليه رجاله أن يقتله رفض أن يرفع يده ضد ذاك الذي قد قُدِّس بأمر الله ليحكم على إسرائيل . ولكن ذلك العماليقي لم يخف بل افتخر قائلا إنه قد قتل ملك إسرائيل ، فاتهم نفسه بجريمة جزاؤها الموت ، وقد نفذ فيه حكم الموت في الحال ، إذ قال داود : «دَمُكَ عَلَى رَأْسِكَ لأَنَّ فَمَكَ شَهِدَ عَلَيْكَ قَائِلاً : أَنَا قَتَلْتُ مَسِيحَ الرَّبِّ» .

كان داود مخلصا في حزنه العميق على موت شاول فبرهن بذلك على كرم أخلاقه ونبل طبيعته ، إذ لم يفرح بسقوط عدوه . لقد زالت العقبة التي عاقته عن اعتلاء عرش إسرائيل ولكنه لم يفرح بذلك ، بل محا الموت ذكرى شكوك شاول وقسوته ، وها هو الآن لا يذكر من تاريخه إلا كل ما هو نبيل وخليق بالملوك ، كما كان اسم شاول مرتبطا بيوناثان الذي كانت صداقته حقيقية ولا أثر فيها للأنانية .

إن ذلك النشيد الذي فيه عبر داود عن مشاعر قلبه صار ذخرا للأمة ولشعب الله في الأجيال المتعاقبة وهو يقول : «اَلظَّبْيُ يَا إِسْرَائِيلُ مَقْتُولٌ عَلَى شَوَامِخِكَ . كَيْفَ سَقَطَ الْجَبَابِرَةُ ! لاَ تُخْبِرُوا فِي جَتَّ . لاَ تُبَشِّرُوا فِي أَسْوَاقِ أَشْقَلُونَ ، لِئَلاَّ تَفْرَحَ بَنَاتُ

الْفلسْطِينيِّينَ ، لِئَلاَّ تَشْمَتَ بَنَاتُ الْغُلْفِ . يَا جِبَالَ جِلْبُوعَ لاَ يَكُنْ طَلٌّ وَلاَ مَطَرٌ عَلَيْكُنَّ ، وَلاَ حُقُولُ تَقْدِمَاتٍ ، لأَنَّهُ هُنَاكَ طُرِحَ مِجَنُّ الْجَبَابِرَةِ ، مِجَنُّ شَاوُلَ بِلاَ مَسْحٍ بِالدُّهْنِ ... شَاوُلُ وَيُونَاثَانُ الْمَحْبُوبَانِ وَالْحُلْوَانِ فِي حَيَاتِهِمَا لَمْ يَفْتَرِقَا فِي مَوْتِهِمَا . أَخَفُّ مِنَ النُّسُورِ وَأَشَدُّ مِنَ الأُسُودِ . يَا بَنَاتِ إِسْرَائِيلَ ، ابْكِينَ شَاوُلَ الَّذِي أَلْبَسَكُنَّ قِرْمِزًا بِالتَّنَعُّمِ ، وَجَعَلَ حُلِيَّ الذَّهَبِ عَلَى مَلاَبِسِكُنَّ . كَيْفَ سَقَطَ الْجَبَابِرَةُ فِي وَسَطِ الْحَرْبِ ! يُونَاثَانُ عَلَى شَوَامِخِكَ مَقْتُولٌ . قَدْ تَضَايَقْتُ عَلَيْكَ يَا أَخِي يُونَاثَانُ . كُنْتَ حُلْوًا لِي جِدًّا . مَحَبَّتُكَ لِي أَعْجَبُ مِنْ مَحَبَّةِ النِّسَاءِ . كَيْفَ سَقَطَ الْجَبَابِرَةُ وَبَادَتْ آلاَتُ الْحَرْبِ ! » (٢صموئيل ١ : ١٩-٢٧) .

الفصل التاسع والستون

داود يُدعى لاعتلاء العرش

إن موت شاول أزال المخاطر التي بسببها كان داود منفيا ، وأصبح الطريق مفتوحا الآن ليعود إلى بلاده ، ولما انقضت أيام المناحة على شاول ويوناثان فإن «دَاوُدَ سَأَلَ الرَّبَّ قَائِلاً : «أَأَصْعَدُ إِلَى إِحْدَى مَدَائِنِ يَهُوذَا ؟» فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ : «اصْعَدْ» . فَقَالَ دَاوُدُ : «إِلَى أَيْنَ أَصْعَدُ ؟» فَقَالَ : «إِلَى حَبْرُونَ»» (انظر ٢صموئيل ٢-٤؛ ٥ : ١-٥) .

كانت حبرون تقع على بعد عشرين ميلا شمالي بئر سبع ، كما كانت تقع تقريبا في منتصف المسافة بين تلك المدينة وموقع أورشليم العتيد ، وقد دعيت أصلا قرية أربع أو مدينة أربع أبي عناق ، ثم سميت ، بعد ذلك ، ممرا . في هذه المدينة كانت مقبرة الآباء المسماة «مغارة المكفيلة» . وكانت حبرون ملكا لكالب ، كما كانت آنئذٍ أكبر مدائن يهوذا ، وتقع في واد تحيط به أرض مرتفعة خصبة وحقول مثمرة ، وعند تخومها كانت أجمل كروم فلسطين ، هذا فضلا عن كثير من الأغراس كأشجار الزيتون وغيرها من الأشجار ذات الأثمار .

وقد استعد داود ورجاله بسرعة لإطاعة أوامر الرب الصادرة إليهم . فسار الرجال الست مئة المسلحون تصحبهم زوجاتهم وأولادهم وغنمهم وبقرهم في طريقهم إلى حبرون . ولدى دخول تلك القافلة المدينة كان رجال يهوذا منتظرين للترحيب بداود كملك إسرائيل العتيد . وفي الحال أجريت ترتيبات لتتويجه «وَمَسَحُوا هُنَاكَ دَاوُدَ مَلِكًا عَلَى بَيْتِ يَهُوذَا» ولكنه لم يبذل أي مجهود ليفرض سلطانه بالقوة على الأسباط الأخرى .

ومن أول الأعمال التي قام بها الملك المتوج حديثا كان التعبير عن تقديره الرقيق لذكرى شاول ويوناثان . إذ عندما علم بنبأ ذلك العمل الباسل الذي قام به رجال يابيش جلعاد حيث أنقذوا جسدي ذينك القائدين الساقطين ودفنوهما بكل إكرام ، أرسل داود رسلا إلى يابيش بهذه الرسالة : «مُبَارَكُونَ أَنْتُمْ مِنَ الرَّبِّ ، إِذْ قَدْ فَعَلْتُمْ هذَا الْمَعْرُوفَ بِسَيِّدِكُمْ شَاوُلَ فَدَفَنْتُمُوهُ . وَالآنَ لِيَصْنَعِ الرَّبُّ مَعَكُمْ إِحْسَانًا وَحَقًّا ، وَأَنَا أَيْضًا أَفْعَلُ مَعَكُمْ هذَا

الْخَيْرَ» ثم أعلن لهم أنه قد اعتلى عرش يهوذا ودعا أولئك الذين برهنوا على استقامة قلوبهم أن يعلنوا ولاءهم له .

إن الفلسطينيين لم يعارضوا شعب يهوذا حين مسحوا داود ملكا ، لأنهم صادقوه حين كان هاربا ومنفيا ، وذلك حتى يضايقوا مملكة شاول ويضعفوها . وها هم الآن يرجون ، لكونهم أظهروا إشفاقا وعطفا نحو داود ، أن يؤول سلطانه إلى نفعهم في النهاية ، إلا أن ملك داود لم يكن يخلو من المتاعب . فمنذ توج ملكا بدأ تاريخ مظلم هو تاريخ التآمر والعصيان . إن داود لم يصل إلى العرش عن طريق الخيانة ، إذ اختاره الله ليكون ملكا على إسرائيل ، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى الشك أو المقاومة . ولكن ما إن اعترف رجال يهوذا به ملكا حتى قام إيشبوشث بن شاول بمساعدة ابنير ونودي به ملكا وجلس على عرش إسرائيل كمنافس لداود .

لم يكن إيشبوشث إلا ممثلا ضعيفا وعاجزا لبيت شاول ، بينما كان داود ، بتفوق ، جديرا بتحمل مسؤوليات المملكة . أما أبنير الذي كان العامل الأكبر في تمليك إيشبوشث فقد كان قائد جيش شاول ، وأشهر رجل في إسرائيل . لقد عرف أبنير أن داود قد تعين من قبل الرب ليجلس على عرش إسرائيل ، ولكن بما أنه كان قد تعقبه وطارده سنين طويلة لم يكن يرغب الآن في أن يتبوأ ابن يسى العرش الذي جلس عليه شاول .

إن الظروف التي مرت بأبنير كشفت عن حقيقة أخلاقه ، فإذا هو رجل طموح وعديم المبادئ . كان عشيرا حميما لشاول ، فتأثر بروح الملك في احتقار الرجل الذي قد اختاره الله ليملك على إسرائيل ، ثم زادت بغضته لداود بسبب ذلك التوبيخ الجارح الذي وبخه به داود عندما أخذ كوز الماء ورمح الملك من جانبه حين كان نائما في المحلة . كما ذكر كيف أن داود صرخ في مسامع الملك وشعب إسرائيل قائلا لأبنير «أَمَا أَنْتَ رَجُلٌ ؟ وَمَنْ مِثْلُكَ فِي إِسْرَائِيلَ ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَحْرُسْ سَيِّدَكَ الْمَلِكَ ؟ ... لَيْسَ حَسَنًا هذَا الأَمْرُ الَّذِي عَمِلْتَ . حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، إِنَّكُمْ أَبْنَاءُ الْمَوْتِ أَنْتُمْ ، لأَنَّكُمْ لَمْ تُحَافِظُوا عَلَى سَيِّدِكُمْ ، عَلَى مَسِيحِ الرَّبِّ» (١صموئيل ٢٦ : ١٥،١٦) إن هذا التوبيخ قد ألهب قلبه حقدا على داود ، فعزم على إنجاز مأربه الانتقامي ، وخلق الانشقاق في صفوف إسرائيل ، إذ بذلك هو نفسه يتمجد ، فاستخدم ممثل الأسرة الراحلة لينجح مطامحه ، ومآربه الأنانية الخاصة . لقد عرف أن الشعب كانوا يحبون يوناثان وكانوا يعتزون بذكراه ، كما أن الجيش لم ينسوا حملات شاول الأولى

الناجحة . فبعزيمة ، يليق بها غرض أفضل تقدم هذا القائد المتمرد لتنفيذ خططه .

وقد اختيرت محنايم ، الواقعة على شاطئ الأردن الأقصى ، مكانا لسكنى الملك لأنها كانت توفر أعظم الأمن من أي هجوم ، سواء أكان من داود أو من الفلسطينيين . وفي هذه المدينة توج إيشبوشث ملكا . وبايعه الأسباط الذين في شرقي الأردن أولا ، وامتد أخيرا ملكه إلى كل أسباط إسرائيل ما عدا يهوذا . ولمدة عامين تمتع ابن شاول بكرامته وعظمته في عاصمته المنعزلة . ولكن أبنير إذ كان عاقدا العزم على بسط سلطانه على كل إسرائيل تأهب لإثارة حرب يتخذ فيها زمام المبادرة ، «وَكَانَتِ الْحَرْبُ طَوِيلَةً بَيْنَ بَيْتِ شَاوُلَ وَبَيْتِ دَاوُدَ ، وَكَانَ دَاوُدُ يَذْهَبُ يَتَقَوَّى ، وَبَيْتُ شَاوُلَ يَذْهَبُ يَضْعُفُ» .

أخيرا قلبت الخيانة العرش الذي أقامه المكر والطموح . وإذ اهتاج أبنير على إيشبوشث الضعيف العاجز ، هرب إلى داود ، عارضا عليه أن يجتذب إليه كل أسباط إسرائيل ، فقبل الملك مقترحاته وصرفه مكرما لإنجاز أغراضه . ولكن ترحيب الملك بمثل هذا المحارب الشهير الشجاع أثار حسد يوآب قائد جيش داود ، حيث كان هنالك عداء دموي بين يوآب وأبنير الذي كان قد قتل عسائيل أخا يوآب في أثناء الحرب التي كانت ناشبة بين إسرائيل ويهوذا . وإذ وجد يوآب الفرصة سانحة له ليثأر لدم أخيه ، ويتخلص من ذلك المزاحم المنتظر ، فإنه بكل خسة اغتنم الفرصة ، وترصد لأبنير وقتله .

وحينما سمع داود بخبر هذا الهجوم الغادر صاح قائلا : «إِنِّي بَرِيءٌ أَنَا وَمَمْلَكَتِي لَدَى الرَّبِّ إِلَى الأَبَدِ مِنْ دَمِ أَبْنَيْرَ بْنِ نَيْرٍ . فَلْيَحُلَّ عَلَى رَأْسِ يُوآبَ وَعَلَى كُلِّ بَيْتِ أَبِيهِ» ولكن نظرا لحالة عدم الاستقرار في المملكة وبسبب قوة القاتلين ومركزهما –لأن أبيشاي أخا يوآب كان شريكه في القتل– لم يستطع الملك أن ينتقم عن تلك الجريمة الانتقام الواجب الرادع ، ومع ذلك فإنه أعلن للجميع عن مقته لتلك الجريمة الدامية . وكانت حفلة دفن أبنير مصحوبة بإكرامات عامة . فقد طلب من رجال الجيش وعلى رأسهم يوآب أن يشتركوا في خدمات المناحة حيث يشقون ثيابهم ويلبسون مسوحا . وقد برهن الملك على حزنه إذ صام في يوم الدفن وتبع النعش كأعظم النائحين . وعند القبر نطق بمرثاة كانت توبيخا جارحا للقاتلين . فلقد رثى الملك أبنير قائلا : «هَلْ كَمَوْتِ أَحْمَقَ يَمُوتُ أَبْنَيْرُ ؟ يَدَاكَ لَمْ تَكُونَا مَرْبُوطَتَيْنِ ، وَرِجْلاَكَ لَمْ تُوضَعَا فِي سَلاَسِلِ نُحَاسٍ . كَالسُّقُوطِ أَمَامَ بَنِي الإِثْمِ سَقَطْتَ» .

إن ذلك التقدير العظيم الدال على كرم الأخلاق الذي أبداه داود نحو من كان عدوه اللدود أكسبه ثقة جميع شعب إسرائيل وإعجابهم ، «فَعَرَفَ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَحَسُنَ فِي أَعْيُنِهِمْ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ كَانَ حَسَنًا فِي أَعْيُنِ جَمِيعِ الشَّعْبِ . وَعَلِمَ كُلُّ الشَّعْبِ وَجَمِيعُ إِسْرَائِيلَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلِكِ قَتْلُ أَبْنَيْرَ بْنِ نَيْرٍ» وفي محيط أتباعه وخاصة مشيريه الموثوق بهم تحدث الملك عن الجريمة . وإذ اعترف بعجزه الشخصي عن معاقبة القاتلين كما كان يريد ، أسلمهما إلى عدالة السماء قائلا : «أَلاَ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَئِيسًا وَعَظِيمًا سَقَطَ الْيَوْمَ فِي إِسْرَائِيلَ ؟ وَأَنَا الْيَوْمَ ضَعِيفٌ وَمَمْسُوحٌ مَلِكًا ، وَهؤُلاَءِ الرِّجَالُ بَنُو صَرُويَةَ أَقْوَى مِنِّي . يُجَازِي الرَّبُّ فَاعِلَ الشَّرِّ كَشَرِّهِ» .

كان أبنير مخلصا في عروضه وبياناته لداود ، إلا أن بواعثه كانت دنيئة وأنانية ، حيث ، بكل إصرار ، قاوم الملك الذي اختاره الله ، إذ كان ينتظر كرامة لنفسه . لقد هجر القضية التي كان قد خدمها طوال ذلك الوقت ، مدفوعا بدافع الغضب والكبرياء الجريحة والانفعال ، إذ في هربه إلى داود كان يطمع في الحصول على أعظم مراكز الكرامة في خدمته . ولو أنه نجح وتم له ما أراد فإن مواهبه وأطماعه ونفوذه العظيم ، مع عدم تقواه ، كان يمكن أن تعرض للخطر عرش داود وسلامة الأمة وازدهارها .

«وَلَمَّا سَمِعَ ابْنُ شَاوُلَ أَنَّ أَبْنَيْرَ قَدْ مَاتَ فِي حَبْرُونَ ، ارْتَخَتْ يَدَاهُ ، وَارْتَاعَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ» واتضح أن الملك لن يدوم له طويلا . وحدث بعد ذلك بقليل حادث غدر آخر أتم انحدار تلك القوة الآخذة في الزوال ، ذلك أن اثنين من قواد ابن شاول اغتالاه . فبعدما قطعا رأسه أسرعا به إلى ملك يهوذا على أمل أن يظفرا بعطفه ورضاه .

مثل ذانك الرجلان أمام داود وبيدهما الدليل الدامي على جريمتهما وقالا له : «هُوَذَا رَأْسُ إِيشْبُوشَثَ بْنِ شَاوُلَ عَدُوِّكَ الَّذِي كَانَ يَطْلُبُ نَفْسَكَ . وَقَدْ أَعْطَى الرَّبُّ لِسَيِّدِي الْمَلِكِ انْتِقَامًا فِي هذَا الْيَوْمِ مِنْ شَاوُلَ وَمِنْ نَسْلِهِ» ولكن داود الذي كان الله نفسه هو الذي ثبت عرشه والذي خلصه من كل ضيقاته لم يكن يريد أن يثبت سلطانه بالغدر . وقد أخبر ذينك القاتلين بالهلاك الذي أوقعه على ذلك العماليقي الذي افتخر بأنه قتل شاول ، ثم قال : «فَكَمْ بِالْحَرِيِّ إِذَا كَانَ رَجُلاَنِ بَاغِيَانِ يَقْتُلاَنِ رَجُلاً صِدِّيقًا فِي بَيْتِهِ ، عَلَى سَرِيرِهِ ؟ فَالآنَ أَمَا أَطْلُبُ دَمَهُ مِنْ أَيْدِيكُمَا ، وَأَنْزِعُكُمَا مِنَ الأَرْضِ ؟ وَأَمَرَ دَاوُدُ الْغِلْمَانَ فَقَتَلُوهُمَا ... وَأَمَّا رَأْسُ

إِيشْبُوشَثَ فَأَخَذُوهُ وَدَفَنُوهُ فِي قَبْرِ أَبْنَيْرَ فِي حَبْرُونَ» .

بعد موت أيشبوشث كانت هنالك رغبة عامة تجيش في صدور رؤساء إسرائيل ، بأن داود ينبغي أن يملك على جميع الأسباط ، «وَجَاءَ جَمِيعُ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ إِلَى دَاوُدَ ، إِلَى حَبْرُونَ ، وَتَكَلَّمُوا قَائِلِينَ : هُوَذَا عَظْمُكَ وَلَحْمُكَ نَحْنُ» ثم أعلنوا قائلين : «قَدْ كُنْتَ أَنْتَ تُخْرِجُ وَتُدْخِلُ إِسْرَائِيلَ . وَقَدْ قَالَ لَكَ الرَّبُّ : أَنْتَ تَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنْتَ تَكُونُ رَئِيسًا عَلَى إِسْرَائِيلَ . وَجَاءَ جَمِيعُ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ إِلَى الْمَلِكِ ، إِلَى حَبْرُونَ ، فَقَطَعَ الْمَلِكُ دَاوُدُ مَعَهُمْ عَهْدًا فِي حَبْرُونَ أَمَامَ الرَّبِّ» وهكذا بعناية الله فتح الطريق أمامه ليصل إلى العرش ، كما أنه لم تكن في قلبه مطامع شخصية يريد إشباعها ، لأنه لم يكن يطلب الكرامة التي جاءت إليه تسعى .

كان هنالك أكثر من ثمانية آلاف رجل من نسل هارون واللاوين يقومون على خدمة داود . كما كان التغيير الذي حدث في أميال الشعب واضحا وحاسما . فكانت الثورة هادئة وجليلة وملائمة للعمل العظيم الذي كانوا يقومون به . ثم تجمهر في حبرون وفي ضواحيها ما يقرب من نصف مليون نسمة كانوا قبلا من رعايا شاول . فكانت الجبال والسهول حية بالجموع الغفيرة وقد حددت ساعة تتويج الرجل الذي كان قد طرد من بلاط شاول ، وذاك الرجل الذي هرب إلى الجبال والتلال وشقوق الأرض لينجو بحياته ، أصبح مزمعا الآن أن يحصل على أعظم كرامة يمكن أن ينالها إنسان من بني جنسه . فوقف الكهنة والشيوخ متسربلين بثياب وظيفتهم المقدسة ، والضباط والجنود برماحهم وخوذهم اللامعة ، والغرباء الآتون من بلاد بعيدة– كلهم وقفوا يشهدون حفل تتوج الملك المختار . وقد كان داود متسوبلا بالرداء الملكي وسكب رئيس الكهنة دهن المسحة المقدس على رأسه لأن مسح صموئيل له كان نبوة عما سيحدث عند مبايعته الملك . وها قد حان الوقت الذي فيه كرس داود بواسطة ذلك الطقس المقدس ليكون نائبا عن الله . وقد وضع قضيب الملك بين يديه ، وكتب عهد ملكه العادل ، وحلف الشعب أمامه يمين الولاء ، ووضع على رأسه التاج ، ثم انتهت حفلة التتويج . وقد صار لإسرائيل ملك مختار من الله فذاك الذي صبر وانتظر الرب رأى الرب ينجز له وعده . «وَكَانَ دَاوُدُ يَتَزَايَدُ مُتَعَظِّمًا، وَالرَّبُّ إِلهُ الْجُنُودِ مَعَهُ» (٢صموئيل ٥ : ١٠) .

الفصل السبعون

مُلك داود

حالما تثبت داود ملكا على عرش إسرائيل بدأ يبحث عن موقع أكثر مناسبة ليكون عاصمة مملكته . وعلى بعد ٢٠ ميلا من حبرون اختير مكان لعاصمة المملكة العتيدة . وقبلما قاد يشوع جيوش إسرائيل عبر الأردن ، كان ذلك المكان المختار يدعى ساليم ، وبالقرب من هذا المكان برهن إبراهيم على ولائه لله ، وكان موطن ملكي صادق كاهن الله العلي قبل تتويج داود بثمان مئة سنة ، وكذلك كان موقعا متوسطا ومرتفعا في البلاد ومحصنا بالجبال المحيطة به . وبما أنه على الحدود بين بنيامين ويهوذا ، كان قريبا من أفرايم ، وكان من السهل الوصول منه إلى الأسباط الأخرى .

ولكي يمتلك العبرانيون هذا الموقع كان عليهم أن يطردوا منه من بقوا من الكنعانيين الذين كانوا يحتلون مركزا حصينا على جبال صهيون والمريا . وكان هذا الحصن يسمى يبوس ، وسكانه يدعون اليبوسيين . ولمدة قرون كانت يبوس تعتبر حصنا منيعا لا يمكن اقتحامه . ولكن العبرانيين حاصروه وامتلكوه تحت قيادة يوآب الذي كوفئ على شجاعته بأن صار قائدا لجيوش إسرائيل . والآن صارت يبوس العاصمة القومية وتغير اسمها الوثني إلى أورشليم .

إن حيرام ملك صور المدينة الغنية والواقعة على البحر الأبيض المتوسط طلب الآن أن يدخل في معاهدة مع ملك إسرائيل . وقد أعان داود في تشييد قصر في أورشليم . ثم أرسل سفراء من صور ومعهم مهندسون وعمال وقوافل كثيرة محملة من الخشب الثمين وشجر الأرز ومواد أخرى نفيسة .

إن قوة إسرائيل المتزايدة باتحادهم في ظل ملك داود ، واستيلائهم على حصن يبوس ، والمحالفة التي أبرمت مع حيرام ملك صور– كل هذه أثارت عداء الفلسطينيين ، ومرة أخرى غزوا البلاد بجيش قوي واتخذوا مركزهم في وادي الرفائيين ، على مسافة قصيرة من أورشليم فلجأ داود ورجاله إلى حصن صهيون ، منتظرين توجيهات الله «وَسَأَلَ دَاوُدُ مِنَ

الرَّبِّ قَائِلاً : «أَأَصْعَدُ إِلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ ؟ أَتَدْفَعُهُمْ لِيَدِي ؟» فَقَالَ الرَّبُّ لِدَاوُدَ : «اصْعَدْ ، لأَنِّي دَفْعًا أَدْفَعُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ لِيَدِكَ»» (٢صموئيل ٥ : ١٧-٢٥) .

وفي الحال زحف على الأعداء وهزمهم وأهلكهم وأخذ منهم الآلهة التي كانوا قد أحضروها معهم لضمان انتصارهم . وإذ اغتاظ الفلسطينيون بسبب مذلة انكسارهم جمعوا جيشا أعظم ورجعوا للحرب ، ومرة ثانية «انْتَشَرُوا فِي وَادِي الرَّفَائِيِّينَ» ثم طلب داود الرب أيضا فاقتاد «أَهْيَه» العظيم إسرائيل .

وقد أعلم الله داود قائلا : «لاَ تَصْعَدْ ، بَلْ دُرْ مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَهَلُمَّ عَلَيْهِمْ مُقَابِلَ أَشْجَارِ الْبُكَا ، وَعِنْدَمَا تَسْمَعُ صَوْتَ خَطَوَاتٍ فِي رُؤُوسِ أَشْجَارِ الْبُكَا ، حِينَئِذٍ احْتَرِصْ ، لأَنَّهُ إِذْ ذَاكَ يَخْرُجُ الرَّبُّ أَمَامَكَ لِضَرْبِ مَحَلَّةِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ» لو كان داود قد اختار طريقه الخاص كشاول لما كان الفوز قد حالفه ، ولكنه فعل كما أمره الرب ، «وَضَرَبُوا مَحَلَّةَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ مِنْ جِبْعُونَ إِلَى جَازِرَ . وَخَرَجَ اسْمُ دَاوُدَ إِلَى جَمِيعِ الأَرَاضِي ، وَجَعَلَ الرَّبُّ هَيْبَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الأُمَمِ» (أخبار الأيام الأول ١٤ : ١٦،١٧) .

أما الآن وقد تثبت داود على عرشه ونجا من غارات الأعداء الغرباء فقد قصد أن يعمل عملا طالما تاقت نفسه إلى إنجازه – وهو أن يأتي بتابوت الله إلى أورشليم . ظل التابوت سنين طويلة في قرية يعاريم التي تبعد عن أورشليم مسافة تسعة أميال . ولكن كان من اللازم أن تمتاز عاصمة الدولة بوجود رمز حضور الله فيها .

دعا داود ثلاثين ألفا من منتخبي إسرائيل ، لأن غرضه كان أن يجعل تلك المناسبة فرصة يتجلى فيها الفرح العظيم والاستعراض المهيب الجليل . وقد استجاب الشعب للنداء بفرح ، فاجتمع رئيس الكهنة مع زملائه في الخدمة المقدسة والرؤساء وشيوخ الأسباط في قرية يعاريم . وكان داود متوقد القلب بالغيرة المقدسة ، وقد أخرج التابوت عن بيت أبيناداب ووضع على عجلة جديدة تجرها الثيران ، وكان اثنان من أبناء أبيناداب مسؤولين عنها .

فتبع رجال إسرائيل التابوت وهم يهتفون هتافات الطرب وينشدون أناشيد الفرح وقد اشترك في التسبيح كثيرون وكانت تصحبهم أصوات الموسيقى «وَدَاوُدُ وَكُلُّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ يَلْعَبُونَ أَمَامَ الرَّبِّ ... بِالْعِيدَانِ وَبِالرَّبَابِ وَبِالدُّفُوفِ وَبِالْجُنُوكِ وَبِالصُّنُوجِ» (انظر ٢صموئيل ٦) منذ عهد بعيد لم يشهد إسرائيل منظر انتصار كهذا المنظر . وبفرح مهيب سار ذلك الموكب

العظيم متعرجا بين التلال وعبر الوديان نحو المدينة المقدسة .

ولكن «وَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى بَيْدَرِ نَاخُونَ مَدَّ عُزَّةُ يَدَهُ إِلَى تَابُوتِ اللهِ وَأَمْسَكَهُ ، لأَنَّ الثِّيرَانَ انْشَمَصَتْ . فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى عُزَّةَ ، وَضَرَبَهُ اللهُ هُنَاكَ لأَجْلِ غَفَلِهِ ، فَمَاتَ هُنَاكَ لَدَى تَابُوتِ اللهِ» فأصاب تلك الجموع المتهللة رعب مباغت ، واندهش داود وارتعب جدا ، ودخل إلى قلبه الشك في عدالة الله . كان عزة يريد أن يكرم التابوت كرمز للحضور الإلهي ، فلماذا إذا أرسل ذلك القضاء المخيف الذي أحال موسم الفرح إلى حالة حزن ونوح ؟ وإذ أحس داود أنه لا يأمن أن يكون التابوت قريبا منه عول على إبقائه حيث كان . فأعد له مكان في بيت عوبيد أدوم الجتي .

كان موت عزة قضاء إلهيا على الانتهاك لوصية واضحة كل الوضوح ، لأن الرب أعطى بواسطة موسى تعليما خاصا عن كيفية نقل التابوت . فلم يكن يسمح لأحد غير الكهنة نسل هارون أن يمسه أو يكشف عنه الغطاء وينظر إليه . وهذا ما أمر به الله «يَأْتِي ... بَنُو قَهَاتَ لِلْحَمْلِ وَلكِنْ لاَ يَمَسُّوا الْقُدْسَ لِئَلاَّ يَمُوتُوا» (عدد ٤ : ١٥) كان على الكهنة أن يغطوا التابوت وبعد ذلك يرفعه القهاتيون بالعصوين اللتين كانتا موضوعتين في حلقات على كل من جانبي التابوت ولم تنزعا منها قط . لقد أعطي موسى لبني جرشون وبني قهات وبني مراري الذين كانوا مسؤولين عن سجف الخيمة وألواحها وأعمدتها ، عجلات وثيرانا لنقل ما كان في عهدتهم «أَمَّا بَنُو قَهَاتَ فَلَمْ يُعْطِهِمْ ، لأَنَّ خِدْمَةَ الْقُدْسِ كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، عَلَى الأَكْتَافِ كَانُوا يَحْمِلُونَ» (عدد ٧ : ٩) وهكذا عند نقل التابوت من قرية يعاريم كان ثمة استخفاف مباشر بإرشاد الرب لا يُعذر .

كان داود وشعبه قد اجتمعوا للقيام بعمل مقدس ، واشتركوا فيه بفرح وقلوب راغبة ، ولكن الرب لم يمكنه قبول خدمتهم لأنهم لم يقوموا بها طبقا لتوجيهاته . إن الفلسطينيين الذين لم يكونوا يعرفون شيئا عن شريعة الله ، وضعوا التابوت على عجلة عندما أعادوه إلى إسرائيل وقد قبل الرب مسعاهم الذي بذلوه . أما الإسرائيليون فقد كان بين أيديهم بيان صريح عن إرادة الله في كل هذه الأمور ، فإهمالهم لهذه التعليمات كان مهينا لله . وقد وقع على عزة الوزر الأكبر وزر التصلف . إن تعديه شريعة الله قلل من شعوره بقداستها ، وإذ كان مثقلا بخطايا لم يعترف بها ، وفي مواجهة النهي الإلهي ، تجاسر فلمس رمز حضور الله . إن الله

لا يمكنه أن يقبل طاعة ناقصة ، ولا تصرفا متراخيا في وصاياه . فهذا الحكم الذي وقع على عزة قصد به الرب أن يطبع على عقول كل شعب إسرائيل وقلوبهم ، وجوب التدقيق الشديد في مراعاة مطاليبه . وهكذا فموت عزة ذلك الرجل الواحد بقيادته الشعب إلى التوبة أمكن أن يمنع وجوب وقوع أحكام كثيرة على الألوف .

وإذ أحس داود بأن قلبه لم يكن مستقيما كليا مع الله ورأى تلك الضربة تصيب عزة ، خاف من التابوت لئلا تجلب عليه إحدى خطاياه أحكاما . ولكن عوبيد أدوم مع كونه فرح برعدة فقد رحب بذلك الرمز المقدس الذي هو ضمان رضى الله عن المطيعين . وقد اتجه انتباه كل شعب إسرائيل الآن إلى هذا الجتي وبيته ، وكان الجميع يرقبون كيف تسر أمور هذا البيت . «وَبَارَكَ الرَّبُّ عُوبِيدَ أَدُومَ وَكُلَّ بَيْتِهِ» .

وقد أتم توبيخ الله لداود عمله . فساقه ما حدث إلى أن يدرك ما لم يدركه من قبل– قدسية شريعة الله وضرورة إطاعتها طاعة كاملة . هذا وإن رضى الله الذي قد أغدقه على بيت عوبيد أدوم جعل داود يرجو مرة أخرى أن يجلب التابوت بركة عليه وعلى كل شعبه .

وبعد ثلاثة أشهر عزم داود على أن يبذل محاولة أخرى لنقل التابوت ، ولكنه في هذه المرة حرص بكل غيرة على أن ينفذ كل توجيهات الله الخاصة بكل دقائقها . ومرة أخرى دعا كل رؤساء الأمة فاجتمع جمع غفير حول بيت الجتي . وبكل حرص ووقار وضع التابوت على أكتاف الرجال المعينين من الله ، ووقف الجمهور مصطفين ، وبقلوب واجفة سار ذلك الموكب العظيم إلى الأمام . وبعدما ساروا ست خطوات ضرب بالبوق ليقف الموكب ، وبموجب تعليمات داود كان عليهم أن يقدموا ثيرانا ومسمنات . والآن حل الفرح في مكان الخوف والرعب ، فطرح الملك عنه حلته الملوكية ولبس ثوبا بسيطا وهو أفود من كتان كالذي يلبسه الكهنة ، ولكنه لم يكن يعني بهذا أنه يدعي لنفسه الحق في ممارسة الوظيفة الكهنوتية لأن الأفود كان يسمح بلبسه لبعض الأفراد الآخرين غير الكهنة ، ولكنه في هذه الخدمة المقدسة أراد أن يتخذ مكانه أمام الله مساويا لرعاياه . وفي ذلك اليوم كان ينبغي أن يكرم الله وأن يكون هو وحده موضوع التوقير .

ومرة أخرى تقدم الموكب العظيم في سيره ، وكانت أصوات الموسيقى كالعيدان والجنوك والأبواق والصنوج ترتفع إلى السماء متحدة مع أصوات ذلك الجمهور الغفير «وَكَانَ دَاوُدُ

يَرْقُصُ ... أَمَامَ الرَّبِّ» في فرحه ، منسجما مع إيقاع نغم التسبيحة .

إن رقص داود في فرح وقور أمام الرب قد اقتبسه محبو الملذات لتبرير الرقص العصري الحديث ، ولكن هذه الحجة مبنية على غير أساس . في أيامنا هذه نجد أن الرقص يكون مصحوبا بالجهالات والسكر وعربدة منتصف الليل . فالصحة والأخلاق يضحى بها على مذبح المسرات والملذات . وأولئك الذين يترددون على صالات الرقص لا يجعلون الله موضوع تفكيرهم أو توقيرهم . وفي مثل تلك المجتمعات لا مجال ولا اعتبار للصلاة أو تسابيح الحمد . هذا الامتحان ينبغي أن يكون باتا وحاسما . فالتسليات التي تعمل على إضعاف المحبة للأشياء المقدسة وتقلل من فرحنا بخدمة الله ينبغي للمسيحيين أن يعرضوا عنها . إن الضرب على الآلات الموسيقية والرقص والتسبيح لله بفرح عند نقل التابوت لم يكن فيه أقل مشابهة للدعارة التي تشاهد في الرقص الحديث . فالنوع الأول من الرقص كان يرمي إلى ذكر الله وتعظيم اسمه القدوس ، أما النوع الثاني فخدعة شيطانية لجعل الناس ينسون الله ويحتقرونه .

اقترب الموكب المنتصر من العاصمة وهم يتبعون الرمز المقدس لمليكهم غير المنظور . حينئذ ارتفعت أصوات التسبيح طالبة من الحراس الواقفين على الأسوار أن يفتحوا أبواب المدينة المقدسة فقال قائلهم : «ارْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ ، وَارْتَفِعْنَ أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ» وقد أجابت فرقة من المغنين واللاعبين على الآلات الموسيقية تقول : «مَنْ هُوَ هذَا مَلِكُ الْمَجْدِ ؟» .

فجاء الجواب من فرقة أخرى يقول : «الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْجَبَّارُ ، الرَّبُّ الْجَبَّارُ فِي الْقِتَالِ» وحينئذ ارتفعت أصوات مئات المرنمين وهم ينشدون أنشودة النصر ، قائلين : «ارْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ ، وَارْفَعْنَهَا أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ» .

ومرة أخرى ارتفع صوت ذلك السؤال الفرح يقول : «مَنْ هُوَ هذَا مَلِكُ الْمَجْدِ ؟» . وحينئذ سمع الجواب الفرح من أفواه جماهير الشعب «كصوت مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ» وهو يقول : «رَبُّ الْجُنُودِ هُوَ مَلِكُ الْمَجْدِ» (مزمور ٢٤ : ٧-١٠) .

حينئذ فتحت الأبواب على سعتها ودخل الموكب ، وبرهبة ووقار وضع التابوت في الخيمة التي كانت قد أعدت لاستقباله . وأمام ذلك المسكن المقدس بنيت المذابح لتقدم الذبائح عليها . فارتفع دخان ذبائح السلامة والمحرقات ، كما صعدت سحب البخور مصحوبة بتسبيحات بني

إسرائيل وابتهالاتهم إلى السماء . ولما انتهت الخدمة بارك الملك نفسه الشعب . وحينئذ ظهر كرم الملك وسخاؤه في توزيع طعام وخمر على كل الشعب لإنعاشهم .

كانت كل الأسباط ممثلة في هذه الخدمة وفي الاحتفال بأقدس حادث امتاز به ملك داود حتى ذلك الحين ، فحل روح الإلهام الإلهي على الملك . والآن إذ كانت أشعة الشمس الغاربة تسطع على الخيمة بنور مقدس ارتفع قلبه بالشكر لله لأن رمز حضوره المبارك كان قريبا جدا من عرش إسرائيل .

وإذ كان داود غارقا في هذه التأملات اتجه إلى قصره . «لِيُبَارِكَ بَيْتَهُ» ولكن كان هنالك شخص آخر شاهد منظر الفرح بروح تختلف اختلافا عظيما عن الروح التي حركت قلب داود ، «وَلَمَّا دَخَلَ تَابُوتُ الرَّبِّ مَدِينَةَ دَاوُدَ ، أَشْرَفَتْ مِيكَالُ بِنْتُ شَاوُلَ مِنَ الْكُوَّةِ وَرَأَتِ الْمَلِكَ دَاوُدَ يَطْفُرُ وَيَرْقُصُ أَمَامَ الرَّبِّ ، فَاحْتَقَرَتْهُ فِي قَلْبِهَا» ، ففي مرارة غضبها لم تنتظر عودة داود إلى القصر ولكنها خرجت لاستقباله ، وأجابته على تحيته الرقيقة بسيل من كلامها المر القارس . كان تهكمها حادا وجارحا إذ قالت له :

«مَا كَانَ أَكْرَمَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ الْيَوْمَ ، حَيْثُ تَكَشَّفَ الْيَوْمَ فِي أَعْيُنِ إِمَاءِ عَبِيدِهِ كَمَا يَتَكَشَّفُ أَحَدُ السُّفَهَاءِ» !

أحس داود أن خدمة الله هي التي احتقرتها ميكال وأهانتها ، فأجابها قائلا في صرامة : «إِنَّمَا أَمَامَ الرَّبِّ الَّذِي اخْتَارَنِي دُونَ أَبِيكِ وَدُونَ كُلِّ بَيْتِهِ لِيُقِيمَنِي رَئِيسًا عَلَى شَعْبِ الرَّبِّ إِسْرَائِيلَ ، فَلَعِبْتُ أَمَامَ الرَّبِّ . وَإِنِّي أَتَصَاغَرُ دُونَ ذلِكَ وَأَكُونُ وَضِيعًا فِي عَيْنَيْ نَفْسِي ، وَأَمَّا عِنْدَ الإِمَاءِ الَّتِي ذَكَرْتِ فَأَتَمَجَّدُ» وقد أضيف إلى توبيخ داود لها توبيخ الرب على كبريائها وعجرفتها إذ «لَمْ يَكُنْ لِمِيكَالَ بِنْتِ شَاوُلَ وَلَدٌ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهَا» .

إن الاحتفالات المقدسة التي صاحبت نقل التابوت أثرت في نفوس بني إسرائيل تأثيرا باقيا ، إذ أحدثت فيهم اهتماما أعمق بخدمة المقدس وأضرمت في قلوبهم الغيرة للرب مجددا . حاول داود بكل ما في أمكانه من وسائل أن يعمق هذه الانطباعات ، فصارت خدمه التسبيح جزءا منظما من العبادة الدينية . وقد نظم داود مزامير ليس فقط ليسبح بها الكهنة في خدمة المقدس بل أيضا ليتغنى بها الشعب في سفراتهم إلى مذبح الرب في أعيادهم السنوية . وبذلك انتشر ذلك التأثير وصار بعيد المدى ، وكان من نتائجه أن تحررت الأمة الوثنية ، وأن كثيرا

من الشعوب المجاورة إذ شاهدوا نجاح إسرائيل ساقهم ذلك إلى أن يفكروا تفكيرا حسنا وعادلا عن إله إسرائيل الذي صنع كل هذه العظائم لشعبه .

إن خيمة الاجتماع التي كان موسى قد بناها ، مع كل ما كان يتعلق بخدمة المقدس ما عدا التابوت كانت لا تزال في جبعة ، فقصد داود أن يجعل أورشليم المركز الديني للأمة . وكان قد أقام لنفسه قصرا فأحس أنه من غير المناسب أن يظل تابوت الرب في خيمة ، فعزم على أن يبني له هيكلا عظيما جدا بحيث يكون تعبيرا صادقا عن تقدير إسرائيل للشرف والكرامة الممنوحين للأمة بحضور الرب ملكهم بينهم . وإذ أخبر الملك ناثان النبي بما قد انتواه قال له مشجعا : «افْعَلْ كُلَّ مَا بِقَلْبِكَ ، لأَنَّ الرَّبَّ مَعَكَ» (انظر ٢ صموئيل ٧) .

ولكن في تلك الليلة نفسها جاءت كلمة الرب إلى ناثان وأعطاه رسالة ليبلغها للملك . كان لابد أن يحرم داود من امتياز بناء بيت للرب ، ولكن منح تأكيد رضى الله عنه وعن نسله وعن إسرائيل : «هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ : أَنَا أَخَذْتُكَ مِنَ الْمَرْبَضِ مِنْ وَرَاءِ الْغَنَمِ لِتَكُونَ رَئِيسًا عَلَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ . وَكُنْتُ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ ، وَقَرَضْتُ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ مِنْ أَمَامِكَ ، وَعَمِلْتُ لَكَ اسْمًا عَظِيمًا كَاسْمِ الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ فِي الأَرْضِ . وَعَيَّنْتُ مَكَانًا لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ وَغَرَسْتُهُ ، فَسَكَنَ فِي مَكَانِهِ ، وَلاَ يَضْطَرِبُ بَعْدُ ، وَلاَ يَعُودُ بَنُو الإِثْمِ يُذَلِّلُونَهُ كَمَا فِي الأَوَّلِ» .

وكما رغب داود في أن يبني بيتا لله فقد جاءه هذا الوعد : «وَالرَّبُّ يُخْبِرُكَ أَنَّ الرَّبَّ يَصْنَعُ لَكَ بَيْتًا ... أُقِيمُ بَعْدَكَ نَسْلَكَ ... هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي ، وَأَنَا أُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مَمْلَكَتِهِ إِلَى الأَبَدِ» .

وأعلن السبب الذي لأجله منع من بناء الهيكل : «قَدْ سَفَكْتَ دَمًا كَثِيرًا وَعَمِلْتَ حُرُوبًا عَظِيمَةً ، فَلاَ تَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي ... هُوَذَا يُولَدُ لَكَ ابْنٌ يَكُونُ صَاحِبَ رَاحَةٍ ، وَأُرِيحُهُ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِهِ حَوَالَيْهِ ، لأَنَّ اسْمَهُ يَكُونُ سُلَيْمَانَ (مسالم) . فَأَجْعَلُ سَلاَمًا وَسَكِينَةً فِي إِسْرَائِيلَ فِي أَيَّامِهِ . هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي» (أخبار الأيام الأول ٢٢ : ٨-١٠) .

ومع أنه كان قد حرم من إتمام مقاصد قلبه التي كان يعتز بها فقد تقبل داود الرسالة بالشكر : «مَنْ أَنَا يَا سَيِّدِي الرَّبَّ ؟ وَمَا هُوَ بَيْتِي حَتَّى أَوْصَلْتَنِي إِلَى ههُنَا ؟ وَقَلَّ هذَا أَيْضًا فِي عَيْنَيْكَ يَا سَيِّدِي الرَّبَّ ، فَتَكَلَّمْتَ أَيْضًا مِنْ جِهَةِ بَيْتِ عَبْدِكَ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ» حينئذ جدد عهده مع الله .

عرف داود أن ما يجلب لاسمه الكرامة ولمملكته المجد هو كونه يتمم العمل الذي عزم في قلبه أن يعمله ، كما أنه كان على تمام الاستعداد لأن يخضع إرادته لإرادة الله . إن هذا التسليم

الشكور الذي أظهره داود يندر وجوده حتى بين المسيحيين . ما أكثر ما يتمسك بالرجاء أولئك الذين قد زايلتهم قوة الرجولة ، في إتمام عمل عظيم وضعوا عليه قلوبهم ولكنهم غير أهل لإتمامه ! وقد يكلمهم الله في عنايته كما كلم ناثان النبي داود ، معلنا لهم أن العمل الذي يرغبون في القيام به أشد الرغبة لم يسند إليهم ، فعليهم أن يعدوا الطريق لشخص آخر ليتممه . ولكنهم بدلا من الخضوع بشكر لتوجيهات الله ، يرتدون كما لو كانوا قد أهينوا أو رفضوا ، شاعرين أنهم إذا كانوا لا يستطيعون القيام بذلك العمل الواحد الذي يتوقون إلى عمله فلن يفعلوا شيئا . إن كثيرين يتشبثون ، بجهد مستيئس ، بالمسؤوليات التي ليسوا قادرين على حملها ، وعبثا يحاولون إتمام عمل ليسوا أكفاء له ، بينما العمل الذي كانوا يستطيعون القيام به يظل مهملا ومعطلا . وبسبب عدم تعاونهم يتعطل العمل الأعظم أو يبطل .

إن داود حين دخل في عهد مع يوناثان كان قد وعده أنه حينما يريحه الله من أعدائه سيقدم معروفا ويصنع رحمة مع بيت شاول . ولما ظفر بالنجاح ذكر هذا الوعد وسأل قائلا : «هَلْ يُوجَدُ بَعْدُ أَحَدٌ قَدْ بَقِيَ مِنْ بَيْتِ شَاوُلَ ، فَأَصْنَعَ مَعَهُ مَعْرُوفًا مِنْ أَجْلِ يُونَاثَانَ ؟» (انظر ٢صموئيل ٩) . فأخبروه عن وجود ابن ليوناثان يسمى مفيبوشث أعرج الرجلين منذ طفولته . ذلك أنه عندما انهزم شاول أمام الفلسطينيين في يزرعيل ، حاولت مربية ذلك الطفل أن تهرب به ، فسقط منها على الأرض ولذلك صار أعرج طول حياته . ثم استدعى داود ذلك الشاب إلى بلاطه واستقبله بكل رقة وإشفاق . وأعيدت إليه أملاك شاول الخاصة لإعالة بيته . أما ابن يوناثان فكان يجب أن يكون ضيف الملك الدائم فيجلس على المائدة الملكية . كان مفيبوشث قبلا متحاملا تحاملا قويا على داود بسبب الوشايات التي كانت تصله عنه من أعداء داود وتصوره كمن قد اغتصب الملك . ولكن سخاء الملك وترحيبه به ورأفته وإشفاقه الدائم نحوه ، كل ذلك كسب قلب هذا الشاب ، فتعلق بداود أشد التعلق ، وأحس ، كما قد أحس أبوه يوناثان من قبل ، أن مصلحته متداخلة في مصلحة الملك الذي قد اختاره الله .

وبعدما تثبت داود على عرش إسرائيل تمتعت الأمة بفترة سلام طويلة . وإذ رأت الأمم المجاورة قوة المملكة ووحدتها رأوا من الحكمة أن يكفوا عن كل عداء علني عليها . وبما أن داود كان مضغوطا في تنظيم المملكة وبنائها كف عن شن الحروب التي تتخذ فيها زمام المبادرة ، إلا أنه أخيرا حارب الفلسطينيين الذين هم أعداؤه من قديم كما حارب الموآبيين ،

فانتصر على كليهما ، وفرض عليهما الجزية .

حينئذ عقدت الدول المجاورة لمملكة داود تحالفا كبيرا ضد هذه المملكة ، فتسببت عن ذلـك أعظم الحروب والانتصارات التي حدثت في أثناء ملكه ، وأعظـم الارتفاعـات فـي قوتـه وسلطانه . إن هذا التحالف العدائي الذي نبت في الحقيقة من حسدهم لداود الذي عظمت قوتـه واشتد ساعده لم يوجه إليه داود أي استفزاز البتة ، أما الظروف التي دعت إلى ظهور ذلـك التحالف فهي هذه .

وصلت إلى أورشليم أخبار تعلن عن موت ناحاش ملك العمونين– وهو ملك صنع مـع داود إحسانا ومعروفا حين كان هاربا من غضب شاول ، فإذ أراد داود أن يعـبر عـن تقديره وشكره للمعروف الذي أسداه ذلك الملك إليه في إبان ضيقه أرسل إلى حانون ابـن ملك بني عمون وخليفته في الملك برسالة عطف وعزاء على أيدي بعض السفراء «فَقَـالَ دَاوُدُ : أَصْنَعُ مَعْرُوفًا مَعَ حَانُونَ بْنِ نَاحَاشَ كَمَا صَنَـعَ أَبُـوهُ مَعِـي مَعْرُوفًـا» (انظـر ٢صموئيل ١٠) .

ولكن هذه المجاملة أسيء تأويلها ، إذ كان العمونيون يبغضون الإله الحقيقي وكـانوا أعداء ألداء لإسرائيل . إن الشفقة التي أظهرها ناحاش لداود كان الدافع إليها ، كليا ، هو عداوته لشاول ملك إسرائيل ، كما أساء مشيرو حانون فهم رسالة داود ، «فَقَالَ رُؤَسَـاءُ بَنِي عَمُّونَ لِحَانُونَ سَيِّدِهِمْ : «هَلْ يُكْرِمُ دَاوُدُ أَبَاكَ فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْكَ مُعَزِّيـنَ ؟ أَلَيْسَ لأَجْلِ فَحْصِ الْمَدِينَةِ وَتَجَسُّسِهَا وَقَلْبِهَا ، أَرْسَلَ دَاوُدُ عَبِيدَهُ إِلَيْكَ ؟» لقد حدث قبل ذلك بنصف قرن أن مشيري الملك ناحاش أشاروا عليه بأن يشترط في صلحه مع سكان يابيش جلعاد ذلك الشرط القاسي ، حين حاصر العمونيون مدينتهم وطلبوا هم من الملك أن يعقـد معهم صلحا ، فاشترط ناحاش أن يقور كل عين يمنى لكل أهل يابيش . كان العمونيون لا يزالون يذكرون كيف أحبط ملك إسرائيل مقاصدهم القاسية ، إذ أنقذ الشعب الذي كـانوا يريدون إذلاله والتمثيل به ، فكانت نفس عداوتهم لإسرائيل هي التي حفزتهم للقيام بـهذا العمل . لم يكونوا يدركون شيئا عن الروح الخيرة التي ألهمت داود بتلـك الرسـالة ، إذ حين يتسلط الشيطان على عقول الناس يثير فيهم الحسد والشك – الذين يجعلانهم يسـيئون فهم أنبل المقاصد . وعندما أصاخ حانون بسمعه إلى كلام مشيريه ، اعتـبر رسـل داود

جواسيس ، وصب عليهم جامات احتقاره وإهاناته .

سمح للعمونيين أن ينفذوا مقاصد قلوبهم الشريرة دون رادع لكي تتكشف لـــداود صفاتـــهم على حقيقتها . فلقد أراد الله ألا يتحالف إسرائيل مع هذا الشعب الوثني الغادر .

وفي العصور القديمة ، كما هي الحال اليـــوم ، كـــانت لوظيفـــة السـفير كرامتـــها وحرمتها ، وبموجب القانون المسكوني العام كـــانت تضمـــن لصاحبـــها الحمايـــة مـــن الاعتداءات والإهانات الشخصية . وحيث أن السفير يمثل مليكه فكل إهانة تقع عليه لا بد أن ينتقم لها في الحال . وإذ علم العمونيون أن الإهانة التي أوقعوها على إسرائيل لا بـــد من أن يثأر لها تأهبوا للحرب ، «وَلَمَّا رَأَى بَنُو عَمُّونَ أَنَّهُمْ قَدْ أَنْتَنُوا عِنْدَ دَاوُدَ ، أَرْسَـــلَ حَانُونُ وَبَنُو عَمُّونَ أَلْفَ وَزْنَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ لِيَسْتَأْجِرُوا لأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَرَامِ النَّهْرَيْنِ وَمِـــنْ أَرَامِ مَعْكَةَ وَمِنْ صُوبَةَ مَرْكَبَاتٍ وَفُرْسَانًا . فَاسْتَأْجَرُوا لأَنْفُسِهِمِ اثْنَيْنِ وَثَلاَثِينَ أَلْفَ مَرْكَبَـــةٍ ... وَاجْتَمَعَ بَنُو عَمُّونَ مِنْ مُدُنِهِمْ وَأَتَوْا لِلْحَرْبِ» (أخبار الأيام الأول ١٩ : ٦،٧،١٣) .

كان هذا التحالف هائلا حقا . لقد تحالف مع العمونيين كل سكان ذلك الإقليم الواقع بين نهر الفرات والبحر الأبيض المتوسط ، فكان هنالك أعداء مســـلحون يحدقـــون بشـــمالي كنعـــان وشرقيها ، واتحدوا جميعا على سحق مملكة إسرائيل .

لم ينتظر العبرانيون حتى يغزو العدو بلادهم ، بل عبرت جيوشـــهم الأردن تحـــت قيـــادة يوآب ، وتقدموا نحو عاصمة مملكة بني عمون . وإذ كان قائد الجيش العبراني يقود رجالـــه إلى ساحة القتال طفق يحثهم ويشجعهم على الثبات في النضال قائلا لهم : «تَجَلَّدْ وَلْنَتَشَدَّدْ مِـــنْ أَجْلِ شَعْبِنَا وَمِنْ أَجْلِ مُدُنِ إِلهِنَا ، وَالرَّبُّ يَفْعَلُ مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْهِ» . فانـــهزمت جيـــوش الأعداء المتحالفين في أول اشتباك ، ولكنهم أبوا إلا مواصلة الحرب . ففي العام التالي تجددت الحرب . وقد حشد ملك آرام جيوشه مهددا إسرائيل بقتال مرير . وإذ علـــم داود أهميـــة مـــا يتوقف على نتائج تلك المعركة ذهب إلى ساحة القتال بنفسه ، وبمعونة الله التي لازمته أوقـــع بالأعداء هزيمة منكرة حتى أن الآراميين من لبنان إلى الفرات لم ينفضوا أيديهم من الحـــرب فقط ، بل صاروا عبيدا لإسرائيل تحت الجزية . ثم حارب داود العمونيين بقوة حتى ســـقطت كل حصونهم وصار كل ذلك الإقليم تحت سيطرة إسرائيل .

إن المخاطر التي بها تعرضت الأمة الإسرائيلية للدمار الشامل ، صارت بفضل عناية الله هي

714,715

الوسيلة الأكيدة التي أوصلت الأمة إلى عظمة فائقة لم يسبق لها مثيل . ولكي يخلد داود ذكرى نجاته العظيمة وانتصاراته تغنى قائلا : «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، وَمُبَارَكٌ صَخْرَتِي ، وَمُرْتَفَعٌ إِلهُ خَلاَصِي ، الإِلهُ الْمُنْتَقِمُ لِي ، وَالَّذِي يُخْضِعُ الشُّعُوبَ تَحْتِي . مُنَجِّيَّ مِنْ أَعْدَائِي . رَافِعِي أَيْضًا فَوْقَ الْقَائِمِينَ عَلَيَّ . مِنَ الرَّجُلِ الظَّالِمِ تُنْقِذُنِي . لِذلِكَ أَحْمَدُكَ يَا رَبُّ فِي الأُمَمِ ، وَأُرَنِّمُ لاسْمِكَ . بُرْجُ خَلاَصٍ لِمَلِكِهِ ، وَالصَّانِعُ رَحْمَةً لِمَسِيحِهِ ، لِدَاوُدَ وَنَسْلِهِ إِلَى الأَبَدِ» (مزمور ١٨ : ٤٦-٥٠) .

وفي كل أغاني داود انطبع هذا الفكر على عقول شعبه وهو أن الرب كان قوتهم وخلاصهم : «لَنْ يَخْلُصَ الْمَلِكُ بِكَثْرَةِ الْجَيْشِ . الْجَبَّارُ لاَ يُنْقَذُ بِعِظَمِ الْقُوَّةِ . بَاطِلٌ هُوَ الْفَرَسُ لأَجْلِ الْخَلاَصِ ، وَبِشِدَّةِ قُوَّتِهِ لاَ يُنَجِّي» «أَنْتَ هُوَ مَلِكِي يَا اَللهُ ، فَأْمُرْ بِخَلاَصِ يَعْقُوبَ . بِكَ نَنْطَحُ مُضَايِقِينَا . بِاسْمِكَ نَدُوسُ الْقَائِمِينَ عَلَيْنَا . لأَنِّي عَلَى قَوْسِي لاَ أَتَّكِلُ ، وَسَيْفِي لاَ يُخَلِّصُنِي . لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَّصْتَنَا مِنْ مُضَايِقِينَا ، وَأَخْزَيْتَ مُبْغِضِينَا» «هؤُلاَءِ بِالْمَرْكَبَاتِ وَهؤُلاَءِ بِالْخَيْلِ ، أَمَّا نَحْنُ فَاسْمَ الرَّبِّ إِلهِنَا نَذْكُرُ» (مزمور ٣٣ : ١٦،١٧، ٤٤ : ٤-٧، ٢٠ : ٧) .

كانت مملكة إسرائيل في ذلك الحين قد وصلت في حدودها إلى حد إتمام وعد الله لإبراهيم الذي كرره بعد ذلك لموسى حين قال «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ ، نَهْرِ الْفُرَاتِ» (تكوين ١٥ : ١٨) لقد صار إسرائيل أمة قوية تحترمها وتخشى بطشها الأمم المجاورة لها . كما كانت قوة داود عظيمة جدا في مملكته ، إذ سيطر على عواطف شعبه وظفر بولائهم ، الأمر الذي لم يستطع أن يحققه غير القليلين من الملوك في أي عصر . لقد أكرم داود الله ، وها هو الله يكرمه الآن .

ولكن في وسط النجاح كان يكمن الخطر . إذ في الوقت الذي أحرز فيه داود أعظم انتصار خارجي ، كانت تحدق به أشد المخاطر هولا ، فأصابته أعظم هزيمة مذلة ومهينة .

الفصل الحادي والسبعون

خطية داود وتوبته

إن الكتاب المقدس لا يكثر القول في مدح الناس . وما أقل المجال الذي فيه يعدد فضائل الناس حتى ولو كانوا أفضل من أظلتهم السماء . لم يكن هذا الصمت بدون قصد ، ولا بدون درس نتعلمه ، إذ أن كل الصفات النبيلة التي يتحلى بها الناس هي هبة من الله ، فأعمالهم الصالحة تتم بنعمة الله بالمسيح ، وبما أنهم مدينون لله بالكل ، فمهما يكن لهم من مجد أو يفعلونه من مآثر إنما هو وقف على الله وحده . وما هم سوى آلات في يديه ، وأكثر من هذا –فكما تعلم كل دروس تاريخ الكتاب المقدس– إنه أمر خطر أن نمتدح أو نمجد البشر ، لأنه إذا وصل الإنسان إلى حالة يغيب فيها عن ناظريه اعتماده الكامل على الله ثم يثق بقوته الذاتية فلابد من سقوطه . إن الإنسان يحارب أعداء أقوى منه ، «مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ ، مَعَ السَّلاَطِينِ ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هذَا الدَّهْرِ ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ» (أفسس ٦ : ١٢) ومن المستحيل علينا ، بقوتنا الذاتية ، أن نتجلد في هذا النضال وننتصر . إن كل ما يحول العقل بعيدا عن الله ، وكل ما يسوق الإنسان إلى تمجيد نفسه أو الاعتماد على قوته إنما يمهد الطريق لسقوطنا الأكيد . وإن فحوى ما جاء في كتاب الله هو أن يثبت في أذهاننا عدم الثقة بالقوة البشرية ، ويشجعنا على الاستناد على قدرة الله .

إن روح الثقة بالذات وتعظيم الذات هي التي مهدت الطريق لسقوط داود ، فالإطراء والغوايات الماكرة الخاصة بالقوة والترف لم تكن عديمة التأثير فيه . كما أن اختلاطه بالأمم المجاورة كان له تأثيره الشرير . وطبقا للعادات التي كانت منتشرة بين ملوك الشرق آنذاك ، كان هنالك اعتقاد أن الجرائم التي لا يمكن التغاضي عنها متى ارتكبها أحد الرعايا ، تلك الجرائم نفسها لو ارتكبها الملك لا يحاكم عليها . ولم يكن الملك تحت التزام أن يخضع للنواهي التي كان يخضع لها أحد أفراد الشعب . كل هذا قلل من شعور داود بشر الخطية وشناعتها . وبدلا من أن يتكل بوداعة على قدرة الرب ، بدأ يركن إلى حكمته وقوته . إن الشيطان حالما

يفصل النفس عن الله نبع القوة الوحيد فهو سيعمل على إثارة الشهوات النجسة في طبيعة الإنسان الجسدانية . إن عمل العدو ليس ارتجاليا ولا فجائيا ، فهو في بدئه ليس مفاجئا ، ولا مفزعا . إنه تقويض وتخريب سري خفي لحصون المبادئ . يبدأ بالأمور التي تبدو صغيرة ، كإهمال الأمانة لله ، وإهمال الاعتماد عليه اعتمادا كليا ، والميل إلى اتباع عادات العالم وأعماله .

قبلما انتهت الحرب مع بني عمون ترك داود قيادة الجيش ليوآب وجاء إلى أورشليم . كان الآراميون قد أخضعوا لإسرائيل ، وبدأ هلاك العمونيين الكامل مؤكدا . كما كان داود محاطا بثمار انتصاراته وأمجاد حكمه القوي الحكيم . والآن وهو مستريح وغير محصن اغتنم المجرب هذه الفرصة ليحتل عقله . إن حقيقة كون الله جعل داود في صلة وثيقة معه وأبدى نحوه رعاية خاصة وأحسن إليه ، كان ينبغي أن تكون من أقوى البواعث لحفظ أخلاقه طاهرة غير ملوثة . ولكنه وهو يتمتع بالراحة والطمأنينة النفسية ترك الله وخضع للشيطان وجلب على نفسه لوثات الإثم . فذاك الذي أقامته السماء قائدا للأمة وكان مختارا من الله لتنفيذ شريعته داس هو نفسه بقدميه كرامة تلك الشريعة . ذاك الذي كان ينبغي أن يكون رعبا لفاعلي الشر شدد بعمله الشائن هذا أيدي الأشرار .

إن داود في وسط المخاطر التي واجهته في حياته الأولى إذ كان شاعرا باستقامة قلبه أمكنه أن يستودع قضيته ليد الله ، وقد قادته يد الرب فعبر بسلام في وسط الأشراك التي لا حصر لها التي نصبت لرجليه . أما الآن وهو مذنب وغير تائب فلم يطلب من السماء عونا ولا إرشادا ، بل حاول انتشال نفسه من المخاطر التي قد أوقعته فيها خطيته . إن بتشبع التي كان جمالها الفتان شركا للملك كانت زوجة لأوريا الحثي الذي كان من أشجع ضباط داود وأشدهم أمانة . وما كان لأحد أن يتنبأ بالنتائج فيما لو اكتشفت الجريمة . إن شريعة الله تحكم على الزاني بالقتل ، وذلك الضابط المنتفخ الروح والذي وقع عليه ذلك الظلم المشين وتلطخ عرضه بالعار ، بإمكانه أن يثأر لشرفه المثلوم ، بقتل الملك ، أو إهاجة الأمة لتثورعليه .

إن كل محاولة بذلها داود لستر خطيته باءت بالفشل . لقد أسلم نفسه لسلطان الشيطان وأحدقت به المخاطر ، وكان أمامه العار الذي هو أمرّ من الموت . ولم يعد أمامه غير طريق واحد للنجاة ، وفي يأسه زج به في طريق الشر فأضاف إلى خطية الزنا خطية

القتل . فذاك الذي أتم هلاك شاول كان يحاول أن يقـود داود إلـى الدمـار . ومـع أن التجارب كانت مختلفة إلا أنها كانت متشابهة ، في كونها أدت إلى تحـدي شـريعة الله . كان داود يحاج نفسه قائلا إنه إذا قتل أوريا في الحرب بسيف العدو فإن جريمة قتلـه لا يمكن أن تنسب الي الملك . وستكون بتشبع حرة لأن تكـون زوجـة لـداود وسـتتحول الشكوك بعيدا عنه ، وحينئذ تحفظ كرامة الملك .

جُعل أوريا حامل الأمر بموته هو ، فلقد أرسل بيده خطاب من الملك إلى يوآب يأمره فيـه قائلا : «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْـرَبَ وَيَمُـوتَ» (انظر ٢صموئيل ١١، ١٢) إن يوآب الذي سبق أن لطخ يديه بجريمة قتل طائشة لم يتردد فـي إطاعة أمر الملك ، وهكذا سقط أوريا بسيف بني عمون .

إن تاريخ حياة داود كملك كان فيما مضى تاريخا عظيما بحيث لم يماثله فيه سوى ملـوك قلائل ، فلقد قال الكتاب عنه إنه «كَانَ ... يُجْرِي قَضَاءً وَعَدْلاً لِكُلِّ شَعْبِهِ» (٢صموئيـل ٨ : ١٥) إنه لاستقامته ظفر بثقة الأمة وولائها . ولكنه عندما ترك الله وأسلم نفسه للشرير صـار عميلا للشيطان إلى حين . ومع ذلك فقد ظل محتفظا بمركزه وسلطانه اللذين منحه الله إياهما ، وبسبب هذا تطلَّب طاعة تعرِّض للخطر نفس من يقدمها . وإذا بيوآب الذي قدم ولاءه للملك لا لله يتعدى شريعة الله لأن الملك أمره بذلك .

إن الله هو الذي كان قد أعطى السلطان لداود ، ولكن ليستخدم فقـط وفـق شـريعة الله . فعندما أمر بعمل ما هو مضاد لشريعة الله ، صارت إطاعة ذلك الأمر خطيـة ، «السَّـلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ» (رومية ١٣ : ١) ولكنا يجب ألا نطيع السلاطين في مـا يخـالف شريعة الله . إن بولس الرسول إذ يكتب لأهل كورنثوس يقدم لنا المبدأ الذي ينبغي لنا السـير بموجبه إذ يقول «كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ» (١ كورنثوس ١١ : ١) .

أُرسل إلى الملك تقرير عن تنفيذ أمره ولكنه كتب بكل حرص حتى لا يؤاخـذ يـوآب أو الملك ، وإن يوآب «أَوْصَى الرَّسُولَ قَائِلاً : «عِنْدَمَا تَفْرَغُ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ الْمَلِكِ عَنْ جَمِيـعِ أُمُورِ الْحَرْبِ ، فَإِنِ اشْتَعَلَ غَضَبُ الْمَلِكِ ... فَقُلْ : قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًـا» . فَذَهَبَ الرَّسُولُ وَدَخَلَ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِكُلِّ مَا أَرْسَلَهُ فِيهِ يُوآبُ» .

فكان جواب الملك هكذا : «هكَذَا تَقُولُ لِيُوآبَ : لاَ يَسُؤْ فِي عَيْنَيْـكَ هـذَا الأَمْـرُ ، لأَنَّ

السَّيْفَ يَأْكُلُ هذَا وَذَاكَ . شَدِّدْ قِتَالَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْرِبْهَا . وَشَدِّدْهُ» .

ناحت بتشبع على رجلها بعدد أيام المناحة المعتادة . وفي نهاية تلك الأيام «أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ ، وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً» إن ذاك الذي لم يسمح له ضميره الحساس وشعوره السامي بالشرف والكرامة ، حتى مع وجود الخطر على حياته ، أن يمد يده إلى مسيح الرب ، هذا الإنسان سقط تلك السقطة الهائلة المشينة ، حتى أنه ظلم واحدا من أخلص جنوده وأشجعهم ، وقتله على أمل أن يتمتع بثمار خطيته دون أن يزعجه أحد . واأسفاه ! كيف اكدر الذهب وتغير الإبريز الجيد ! (مراثي ٤ : ١) .

لقد صور الشيطان للناس من البدء المكاسب والمغانم التي يمكن أن تجنى عن طريق العصيان . هكذا خدع الملائكة وهكذا جرب آدم وحواء ليخطئا ، وهكذا هو يبعد جماهير غفيرة من الناس عن طريق الطاعة لله . إن طريق العصيان تبدو مقبولة ومرغوبا فيها ، ولكن «عَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ» (أمثال ١٤ : ١٢) طوبى لأولئك الذين بعدما خاطروا بأنفسهم وساروا في هذه الطريق يعرفون هول مرارة ثمار الخطية ويرجعون عنها في الوقت المناسب . إن الله في رحمته لم يترك داود ليغوى ويهلك هلاكا تاما بفعل أجرة الخطية الخادعة .

ثم إن الأمر كان يستدعى تداخل الله أيضا لأجل إسرائيل . وبمرور الوقت تسربت أخبار خطية داود ضد بتشبع وعلم الناس بها . وقد ثارت شكوك الشعب في أنه ربما يكون الملك هو الذي تسبب في قتل أوريا . لقد أهين الله وهو الذي أحسن إلى داود ورفعه ، ولكن خطية داود أساءت تمثيل صفات الله وألحقت باسمه العار ، بل لقد خفضت من مقياس التعدي في إسرائيل ، وقللت في كثير من العقول كراهية الخطية ، كما أن أولئك الذين لم يكونوا يحبون الله ولا يتقونه ازدادت بها جرأتهم في ارتكاب المعاصي .

وقد أمر الرب ناثان النبي أن يحمل رسالة توبيخ إلى داود . وكانت رسالة مرعبة في قسوتها . قليلون هم الملوك الذين كان يمكن مخاطبتهم بمثل رسالة التوبيخ تلك ، دون أن تكلف مقدمها حياته . ولقد نطق ناثان برسالة الله بدون خوف أو وجل ، ولكن بحكمة سماوية لكي يسترعي عطف الملك ويوقظ ضميره ويستخرج من بين شفتيه حكم الموت على نفسه . وقد رفع قضيته أمام داود كالشخص الذي أقامه الله حفيظا على حقوق شعبه . ردد النبي على مسامع الملك قصة وقع فيها على أحد الناس ظلم وعسف اقتضى الإنصاف .

قال النبي : «كَانَ رَجُلاَنِ فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا غَنِيٌّ وَالآخَرُ فَقِيرٌ . وَكَانَ لِلْغَنِيِّ غَنَمٌ وَبَقَرٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا . وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ إِلاَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ قَدِ اقْتَنَاهَا وَرَبَّاهَا وَكَبِرَتْ مَعَهُ وَمَعَ بَنِيهِ جَمِيعًا . تَأْكُلُ مِنْ لُقْمَتِهِ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ ، وَكَانَتْ لَهُ كَابْنَةٍ . فَجَاءَ ضَيْفٌ إِلَى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ ، فَعَفَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُهَيِّئَ لِلضَّيْفِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ نَعْجَةَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ وَهَيَّأَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ» .

ثار غضب داود وصاح قائلا : «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ ، إِنَّهُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ الْفَاعِلُ ذلِكَ ، وَيَرُدُّ النَّعْجَةَ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ لأَنَّهُ فَعَلَ هذَا الأَمْرَ وَلأَنَّهُ لَمْ يُشْفِقْ» .

فثبت ناثان عينيه محدقا بهما في الملك وإذ رفع يمناه إلى السماء قال له برصانة : «أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ !» ثم عاد يقول له : «لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ ؟» أ قد يحاول المذنب إخفاء جريمته عن عيون الناس كما قد فعل داود ، وقد يحاولون دفن شرهم بعيدا عن عيون الناس وعلمهم إلى الأبد ، ولكن «كُلُّ شَيْءٍ عُرْيَانٌ وَمَكْشُوفٌ لِعَيْنَيْ ذلِكَ الَّذِي مَعَهُ أَمْرُنَا» (عبرانيين ٤ : ١٣) «لأَنْ لَيْسَ مَكْتُومٌ لَنْ يُسْتَعْلَنَ ، وَلاَ خَفِيٌّ لَنْ يُعْرَفَ» (متى ١٠ : ٢٦) .

قال ناثان للملك : «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ : أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ ... لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً ، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ . وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ ... هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ ... لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ» .

وقد مس توبيخ النبي قلب داود فاستيقظ ضميره ، وظهرت جريمته أمامه كما هي في شناعتها فانحنت نفسه في توبة وانسحاق أمام الرب ، وبشفتين مرتعشتين من فرط التأثر قال : «قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ» إن كل ظلم يرتكبه أي إنسان ضد الآخرين يصل من المظلومين إلى الله . لقد ارتكب داود خطية هائلة في حق أوريا وفي حق بتشبع فأحس بكل هذا وتألم أشد الألم . ولكن خطيته ضد الله كانت أعظم من ذلك بما لا يقاس .

ومع أنه لم يكن رجل واحد في إسرائيل ينفذ حكم الموت في مسيح الرب فقد ارتعب داود لئلا يقطع بالموت بقضاء الله السريع وهو مجرم وغير مغفور الإثم . ولكن الرب أرسل إليه

رسالة على لسان النبي تقول : «الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيَّتَكَ . لاَ تَمُوتُ» ومع ذلك فالعدل لا بد من أن يستوفي حقه إذ انتقل حكم الموت من داود إلى ابنه الذي كان ثمرة إثمه . وهكذا أعطيت للملك فرصة للتوبة ، بينما كانت آلام ذلك الطفل وموته كجزء من قصاصه أقسى عليه من موته هو . فلقد قال له النبي : «غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهذَا الأَمْرِ أَعْدَاءَ الرَّبِّ يَشْمَتُونَ ، فَالابْنُ الْمَوْلُودُ لَكَ يَمُوتُ» .

عندما ضرب ابن داود توسل إلى الله طالبا شفاءه بالصوم والتذلل العميق . لقد خلع عنه ثيابه الملكية وألقى عنه تاجه وكان يضطجع على الأرض ليلة بعد أخرى في حزن وانسحاق قلب متشفعا في ذلك الطفل البريء المتألم لأجل ذنب أبيه ، «فَقَامَ شُيُوخُ بَيْتِهِ عَلَيْهِ لِيُقِيمُوهُ عَنِ الأَرْضِ فَلَمْ يَشَأْ» . مرارا كثيرة حين كان يقضى على أشخاص أو مدن بأحكام إلهية كان التذلل والتوبة يرفعان عنهم الضربات ، وكان الإله الدائم الرحمة السريع في الغفران يرسل رسل السلام ، وإذ تشجع داود بهذا الفكر واظب على تقديم توسلاته وابتهالاته ما بقي الطفل على قيد الحياة . وعندما علم بموته خضع لحكم الله بكل هدوء . لقد وقعت أول ضربة من ضربات الدينونة التي اعترف هو نفسه بأنها عادلة . ولكنه إذ كان واثقا برحمة الله لم يكن بلا عزاء .

إن كثيرين جدا ممن قرأوا قصة سقوط داود سألوا هذا السؤال : لماذا أشهرت هذه القصة على الناس ، ولماذا رأى الله أنه من المناسب أن يكشف للعالم عن تلك النقطة السوداء في حياة ذاك الذي أكرمته السماء هذا الإكرام العظيم ؟ إن النبي في توبيخه لداود أعلن عن خطيته قائلا : «أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهذَا الأَمْرِ أَعْدَاءَ الرَّبِّ يَشْمَتُونَ » . فعلى مدى الأجيال المتعاقبة كان الملحدون يشيرون إلى أخلاق داود وعليها تلك اللطخات السوداء ويقولون في سخرية وانتصار : «هذا هو الرجل الذي حسب قلب الله» وهكذا وقع التعيير على الذين ، وشمت الناس بالله وبكلامه ، وتقست النفوس في عدم إيمانها ، وكثيرون وهم ملتحفون برداء التقوى صاروا أكثر جرأة في ارتكاب الخطية .

ولكن تاريخ داود لا يشجع أحدا على ارتكاب الخطية . إنه حين كان سائرا حسب مشورة الله إنما قال الله عنه أنه رجل حسب قلبه . فلما أخطأ لم يعد هذا الوصف يصدق عليه ، حتى رجع إلى الرب تائبا . ثم أعلنت كلمة الله بكل وضوح قائلة : «وَأَمَّا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ

فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ» كما قال الرب لداود على لسان النبي : «لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ ؟ ... وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي» . إن داود مع كونه قد تاب عن خطيته وغفر له الله ، وقبله ، فقد حصد حصادا وبيلا لذلك البذار الذي قد زرعه . إن احكام الله عليه وعلى بيته تبين كراهية الله للخطية .

لقد كانت عناية الله قبل ذلك تحفظ داود من كل مؤامرات أعدائه ، واستخدمها الله في ردع شاول عن إيذاء داود . ولكن عصيان داود غير علاقة الله به . فالله لا يمكنه بأي حال أن يبيح الإثم ، فلم يعد يمكنه استخدام قوته في وقاية داود من نتائج خطيته ، كما قد حفظه من عداوة شاول .

لقد حصل تبدل عظيم في داود نفسه . إن شعوره بخطيته وبنتائجها البعيدة المدى جعله منسحق الروح ، وقد أحس بأنه قد أذل في نظر رعاياه وضعف تأثيره . كان قبل ذلك يعزو نجاحه إلى سلامة طويته ، وطاعته لأوامر الله . أما الآن فبعدما عرف رعاياه ما عرفوا عن خطيته ، فقد صار يمكنهم أن يرتكبوا الخطية بأكثر حرية . ثم أن سلطته في بيته ، وحقه في الاحترام والطاعة من أبنائه قد ضعف شأنهما . إن شعوره بذنبه جعله يصمت في الوقت الذي كان يجب فيه عليه أن يدين الخطية ، إن هذا الشعور جعل ذراعه أعجز من أن تنفذ وتقر العدالة في بيته ، فأثر مثاله الشرير في بنيه ، ولم يتدخل الله ليمنع وقوع العواقب الرهيبة . لقد سمح للأمور أن تجري في مجراها الطبيعي وهكذا وقعت على داود تأديبات قاسية .

ظل داود سنة كاملة بعد سقطته عائشا في طمأنينة ظاهرية إذ لم توجد علامة خارجية على سخط الله عليه . ولكن قضاء الله كان معلقا فوق رأسه ، وكانت الدينونة قادمة سريعا وبكل تأكيد ، التي لم تقدر أن تمنعها توبة ، تلك الدينونة هي الحزن والعار اللذان سيكتنفان حياته الأرضية بالظلمة الداجية . إن أولئك الذين حين يشيرون إلى مثال داود محاولين التقليل من هول جرائمهم ، عليهم أن يعرفوا من تارخ الكتاب أن طريق العصيان وعر ومخيف . ومع أنهم كداود يرجعون عن طريقهم الشرير فإن نتائج الخطية ستكون مريرة بحيث يصعب احتمالها حتى في هذه الحياة .

لقد قصد الله أن يكون تاريخ سقوط داود إنذارا ، لكي لا يحس حتى أولئك الذين قد أحسن إليهم وباركهم ، بالطمأنينة فيهملون السهر والصلاة . وهكذا برهن ذلك التاريخ على أن أولئك

الذين بكل وداعة طلبوا أن يتعلموا هذا الدرس الذي قصد الله أن يتعلموه أنه كان درسا نافعــا لهم . ومن جيل إلى جيل أدرك ألوف الناس هول خطرهم نظرا لقوة المجــرب . إن ســقوط داود الرجل الذي قد أكرمه الله أيقظ في داخلهم شعور عدم الثقة بالنفس أو الإركان إليها . لقـد أيقنوا أن الله وحده يستطيع أن يحفظهم بقوته بالإيمان . وإذ عرفوا أن في الله وحـــده توجـد قوتهم وسلامتهم صاروا يخشون أن يخطوا الخطوة الأولى في طريق الشيطان .

وحتى قبلما نطق الله بحكمه على داود بدا يحصد ثمار العصيــان . فضمــيره لــم يكــن مستريحا . وفي المزمور الثاني والثلاثين يصور حزن روحه الذي كان يتــألم منــه قــائلا : «طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ وَسُتِرَتْ خَطِيَّتُهُ . طُوبَى لِرَجُل لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً ، وَلاَ فِي رُوحِهِ غِشٌّ . لَمَّا سَكَتُّ بَلِيَتْ عِظَامِي مِنْ زَفِيرِي الْيَوْمَ كُلَّهُ ، لأَنَّ يَدَكَ ثَقُلَتْ عَلَيَّ نَــهَارًا وَلَيْلاً . تَحَوَّلَتْ رُطُوبَتِي إِلَى يُبُوسَةِ الْقَيْظِ» (مزمور ٣٢ : ١-٤) .

أما المزمور الحادي والخمسون فهو تعبير عن توبة داود لما جاءته رسالة التوبيخ من قبـل الله : «ارْحَمْنِي يَا اَللهُ حَسَبَ رَحْمَتِكَ . حَسَبَ كَثْرَةِ رَأْفَتِكَ امْحُ مَعَاصِيَّ . اغْسِلْنِي كَثِــيرًا مِــنْ إِثْمِي ، وَمِنْ خَطِيَّتِي طَهِّرْنِي . لأَنِّي عَارِفٌ بِمَعَاصِيَّ ، وَخَطِيَّتِي أَمَامِي دَائِمًــا ... طَــهِّرْنِي بِالزُّوفَا فَأَطْهُرَ . اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ . أَسْمِعْنِي سُرُورًا وَفَرَحًــا ، فَتَبْتَــهِجَ عِظَــامٌ سَحَقْتَهَا . اسْتُرْ وَجْهَكَ عَنْ خَطَايَايَ ، وَامْحُ كُلَّ آثامِي . قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَــا اَللهُ ، وَرُوحًــا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي . لاَ تَطْرَحْنِي مِنْ قُدَّامِ وَجْهِكَ ، وَرُوحَكَ الْقُدُّوسَ لاَ تَنْزِعْهُ مِنِّــي . رُدَّ لِي بَهْجَةَ خَلاَصِكَ ، وَبِرُوحٍ مُنْتَدِبَةٍ اعْضُدْنِي . فَأُعَلِّمَ الأَثَمَةَ طُرُقَكَ ، وَالْخُطَاةُ إِلَيْكَ يَرْجِعُـونَ . نَجِّنِي مِنَ الدِّمَاءِ يَا اَللهُ ، إِلهَ خَلاَصِي ، فَيُسَبِّحَ لِسَانِي بِرَّكَ» (مزمور ٥١ : ١-١٤) .

وهكذا في أغنية مقدسة ، القصد منها التسبيح في محافل شعبه العامة- في محضر رجــال البلاط والكهنة والقضاة والأمراء ورجال الحرب - والتي تحفظ ، إلى آخر الأجيال ، معرفــة سقطته ، جعل ملك إسرائيل يذكر خطيته وتوبته ورجاءه في الغفران بواســطة رحمــة الله . وبدلا من محاولة إخفاء إثمه أراد أن يتعلم الآخرون ويعتبروا من سقوطه .

كانت توبة داود قوية خالصة وعميقة . فهو لم يحاول التماس عذر عن جريمته ، وليــس الذي أوحى إليه تلك الصلاة أي رغبة في اجتناب أحكام الرب التي كانت تتهدده ، ولكنــه رأى هول معصيته ضد الله ، ورأى النجاسة التي تلوثت بها نفسه ، فاشمأز من خطيته . إنــه لــم

يطلب في صلاته الغفران فقط بل طلب أيضا طهارة القلب . وداود لم يرض بالهزيمة ولا كف عن النضال يأسا من النصرة ، إذ رأى في مواعيد الله للخطاة التأديب برهانا على غفرانه لخطاياه وقبوله إياه «لأَنَّكَ لاَ تُسَرُّ بِذَبِيحَةٍ وَإِلاَّ فَكُنْتُ أُقَدِّمُهَا . بِمُحْرَقَةٍ لاَ تَرْضَى . ذَبَائِحُ اللهِ هِيَ رُوحٌ مُنْكَسِرَةٌ . الْقَلْبُ الْمُنْكَسِرُ وَالْمُنْسَحِقُ يَا اَللهُ لاَ تَحْتَقِرُهُ» (مزمور ٥١ : ١٦، ١٧) .

ومع أن داود سقط فقد رفعه الله ، وصار الآن في حالة أكثر وفاقا وانسجاما مع الله ، كما صار أكثر عطفا على بني جنسه مما كان قبل سقوطه . وفي غمرة فرحته بالتحرر تغنى قائلا : «أَعْتَرِفُ لَكَ بِخَطِيَّتِي وَلاَ أَكْتُمُ إِثْمِي . قُلْتُ : «أَعْتَرِفُ لِلرَّبِّ بِذَنْبِي» وَأَنْتَ رَفَعْتَ أَثَامَ خَطِيَّتِي ... أَنْتَ سِتْرٌ لِي . مِنَ الضِّيقِ تَحْفَظُنِي . بِتَرَنُّمِ النَّجَاةِ تَكْتَنِفُنِي» (مزمور ٣٢ : ٥-٧) .

كثيرون تذمروا على ما يدعونه ظلم الله في إبقائه على داود الذي كان ذنبه عظيما جدا بعد ما رفض شاول بسبب خطايا كانت كما بدا أقل فظاعة من خطايا داود بما لا يقاس كما يقولون . غير أن داود تذلل معترفا بخطيته وتائبا عنها ، بينما شاول احتقر التوبيخ وقسى قلبه ولم يتب .

إن هذه الفترة من تاريخ سقوط داود مليئة بالمعاني للخاطئ التائب . إنها من أقوى الأمثلة الفعالة المؤثرة المعطاة لنا عن محاربات البشرية وتجاربها وعن التوبة الصادقة إلى الله والإيمان بالرب يسوع المسيح . وطيلة الأجيال برهن هذا التاريخ على أنه نبع لتشجيع النفوس التي بعدما سقطت في الخطية باتت تكافح تحت أثقال ذنوبها . إن ألوفا من أولاد الله الذين سقطوا في الخطية إذ كانوا على حافة اليأس ، ذكروا كيف قبل الله توبة داود واعترافه بإخلاص ، ومع ذلك فقد تألم بسبب عصيانه ، فشجعوا هم أيضا على أن يتوبوا ويحاولوا من جديد أن يسيروا في طريق وصايا الله .

إن أي إنسان ، وهو واقع تحت توبيخات الله ، متى تذلل بالاعتراف والتوبة كما قد فعل داود ، يمكنه أن يتحقق من أن له رجاء . فكل من يقبل مواعيد الله بإيمان سيجد الغفران . إن الرب لن يطرح خارجا أي نفس تائبة توبة صادقة . لقد وعد قائلا : «يَتَمَسَّكُ بِحِصْنِي فَيَصْنَعُ صُلْحًا مَعِي . صُلْحًا يَصْنَعُ مَعِي» (إشعياء ٢٧ : ٥) «لِيَتْرُكِ الشِّرِّيرُ طَرِيقَهُ ، وَرَجُلُ الإِثْمِ أَفْكَارَهُ ، وَلْيَتُبْ إِلَى الرَّبِّ فَيَرْحَمَهُ ، وَإِلَى إِلهِنَا لأَنَّهُ يُكْثِرُ الْغُفْرَانَ» (إشعياء ٥٥ : ٧) .

الفصل الثاني والسبعون

تمرد أبشالوم

«وَيَرُدُّ ... أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ» – هذا هو الحكم الذي حكم به داود على نفسه دون حذر ، وهو يصغي إلى المثل الذي ضربه ناثان النبي ، وبموجب حكمه هذا كان لا بد أن يحاكم . كان لا بد أن يسقط أربعة من بنيه وستكون خطيته السبب في خسارة كل أولئك الأبناء .

لقد سمح داود أن تمر تلك الجريمة المخزية التي ارتكبها أمنون ابنه البكر بدون قصاص أو توبيخ . لقد حكمت الشريعة بقتل الزاني ، وإن جريمة أمنون غير الطبيعية جعلت ذنبه مضاعفا . غير أن داود الذي كان مستذنبا من نفسه لأجل خطيته لم يستطع أن يسلم المذنب للعدالة . أما أبشالوم الذي كان الحارس الطبيعي لأخته التي وقع عليها ذلك الظلم الفاحش ، فقد ظل يضمر نية الانتقام عامين كاملين ، وذلك ليضرب أمنون الضربة القاضية في النهاية . وفي وليمة أقيمت لبني الملك قتل أمنون الثمل الفاسق بأمر أبشالوم أخيه .

لقد حكم على داود بقصاص مضاعف ، إذ وصلت إليه رسالة مرعبة تقول : «قَدْ قَتَلَ أَبْشَالُومُ جَمِيعَ بَنِي الْمَلِكِ ، وَلَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ» (انظر ٢صموئيل ١٣– ١٩) «فَقَامَ الْمَلِكُ وَمَزَّقَ ثِيَابَهُ وَاضْطَجَعَ عَلَى الأَرْضِ وَجَمِيعُ عَبِيدِهِ وَاقِفُونَ وَثِيَابُهُمْ مُمَزَّقَةٌ» . ولما رجع بنو الملك إلى أورشليم مرتعبين أعلنوا الحقيقة لأبيهم . إن أمنون وحده قتل «رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ وَبَكَوْا ، وَكَذلِكَ بَكَى الْمَلِكُ وَعَبِيدُهُ بُكَاءً عَظِيمًا جِدًّا» . ولكن أبشالوم هرب إلى تلماي ملك جشور أبي أمه .

إن أمنون كان قد ترك لينغمس في الملذات والشهوات كباقي بني الملك . وقد سعى لأن يشبع كل أفكار قلبه دون اعتبار لمطاليب الله ، وبالرغم من هول خطيته فقد صبر الله عليه طويلا فلقد أعطي مهلة مدة سنتين لعله يتوب ولكنه ظل سادرا في خطيته ، وإذ

كانت جريمته تثقل كاهله حصده الموت في انتظار الدينونة أمام كرسي القضاء الرهيب .

لقد أهمل داود واجب معاقبة أمنون على جريمته . فبسبب عدم أمانة الملك الأب ، ولعدم توبة الابن ، سمح الرب للحوادث أن تجري في مجراها الطبيعي ولم يردع أبشالوم . حين يهمل الآباء أو الملوك معاقبة الإثم فالله يتولى بنفسه القضية . وقوته الرادعة تتخلى قليلا عن ردع قوات الشر ، وبذلك تحدث سلسلة من الظروف بحيث تعاقب الخطية بالخطية .

إن النتائج الشريرة لتساهل داود نحو أمنون لم تنته ، لأنه من هنا ابتدأ ابتعاد أبشالوم وانصرف قلبه عن أبيه . فبعد هربه إلى جشور ، وإذ أحس داود أن جريمة ابنه تستحق القصاص حرم عليه الرجوع . إن هذا لم يقلل من تعقيد الشرور التي زُج فيها الملك ، بل زادها تفاقنا وتعقيدا . ثم إن أبشالوم الشاب النشيط الطموح العادم المبادئ ، الذي ، إذ أوصد الباب في وجهه دون الاشتراك في شؤون المملكة لكونه منفيا ، سرعان ما أسلم نفسه للتآمر الخطر .

وبعد نهاية سنتين عزم يوآب على أن يصلح ذات البين بين الأب وابنه . وإذ وضع هذا الغرض نصب عينيه استعان بامرأة من تقوع اشتهرت بالحكمة . فإذ لقنها يوآب كلاما ، تقدمت إلى الملك قائلة إنها امرأة أرملة كان لها ابنان هما كل عزائها ومصدر إعالتها . فتخاصما في الحقل وقتل أحدهما أخاه . وهوذا كل الأقرباء والعشيرة يطلبون مني تسليم قاتل أخيه إلى ولي الدم «فَيُطْفِئُونَ جَمْرَتِي الَّتِي بَقِيَتْ ، وَلاَ يَتْرُكُونَ لِرَجُلِي اسْمًا وَلاَ بَقِيَّةً عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ» . فتأثر الملك من هذا الكلام وأكد للمرأة أنه سيحفظ سلامة ابنها .

بعدما حصلت منه على وعود متكررة بأنه سينقذ حياة ذلك الشاب ، توسلت إلى الملك أن يطيل أناته عليها معلنة أنه قد تكلم كمذنب لكونه لم يرد منفيه ، ثم قالت : «لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ نَمُوتَ وَنَكُونَ كَالْمَاءِ الْمُهْرَاقِ عَلَى الأَرْضِ الَّذِي لاَ يُجْمَعُ أَيْضًا . وَلاَ يَنْزِعُ اللهُ نَفْسًا بَلْ يُفَكِّرُ أَفْكَارًا حَتَّى لاَ يُطْرَدَ عَنْهُ مَنْفِيُّهُ» إن هذا التحوير الرقيق المؤثر لمحبة الله للخاطئ ، الذي نطق به يوآب الجندي الخشن الطباع ، هو برهان مدهش على معرفة الإسرائيليين لحقائق الفداء العظيمة . فالملك إذ كان يشعر بحاجته إلى رحمة الله لم يستطع مقاومة هذا الطلب أو رفضه ، فأصدر أمره إلى يوآب قائلا : «اذْهَبْ رُدَّ الْفَتَى أَبْشَالُومَ» .

لقد سمح لأبشالوم بالعودة إلى أورشليم على ألا يظهر في قصر الله ولا يقابل أباه . لقد بدأ داود الآن يرى مساوئ محبته المفرطة لأولاده وعدم حزمه نحوهم ، ومع أنه أحب ذلك الابن الجميل الموهوب حبا حانيا فقد أحس أنه من الضروري كدرس لأبشالوم وللشعب أنه لا بد من إعلان كراهيته لمثل هذه الجريمة . فسكن أبشالوم في بيته سنين ولكنه كان ممنوعا من الظهور في بلاط الملك . ثم سكنت أخته معه ، وكان وجودها أمامه مذكرا دائما له بالظلم الذي لا يجبر الذي وقع عليها . كان الشعب يقدرون هذا الأمير على أنه بالحري بطل لا مذنب ، وإذ ظفر بهذا التقدير جعل همه الوحيد كسب قلوب الشعب . وإذ كان جميلا في مظهره الشخصي نال إعجاب كل من رآه ، «وَلَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ جَمِيلٌ وَمَمْدُوحٌ جِدًّا كَأَبْشَالُومَ ، مِنْ بَاطِنِ قَدَمِهِ حَتَّى هَامَتِهِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عَيْبٌ» إن الملك لم يتصرف تصرفا حكيما حين ترك شابا له أخلاق أبشالوم –في طموحه واندفاعه وسرعة اهتياجه– ليطيل التفكير في المظالم المزعومة . ثم إن سماح داود له بالعودة إلى أورشليم دون السماح له بالمثول في حضرته آمال قلوب الشعب إليه (أي أبشالوم) وزاد من عطفهم عليه .

إن داود إذ كان دائم التفكير في تعديه شريعة الله ، بدا وكأن قواه الأدبية قد أصيبت بالشلل ، فأمسى ضعيفا وحائرا ، بينما قبل ارتكابه لخطيته كان شجاعا وقوي الإرادة . لقد ضعف تأثيره على شعبه ، وكل هذا كان في صالح خطط ابنه غير الطبيعي .

وبفضل تأثير يوآب ، سمح لأبشالوم بالمثول مرة ثانية في حضرة أبيه . ولكن بالرغم من وجود صلح خارجي فقد ظل أبشالوم يحيك مؤامرته لنيل مآربه ، وبدا الآن كما لو كان ملكا ، إذ اتخذ لنفسه مركبة وفرسانا وخمسين رجلا يجرون قدامه . وفيما كان الملك يميل أكثر فأكثر إلى الانفراد والعزلة كان أبشالوم يعمل جاهدا ليظفر برضى الشعب .

إن تأثير إهمال داود ، وعدم حزمه ، وتردده ، انتقلت عدواه إلى مرؤوسيه ، فقد طبع إجراء العدل بطابع الإهمال والتأخير ، فحول أبشالوم بكل مكر كل أسباب التبرم لصالحه الشخصي ويوما بعد يوم كان هذا الشاب الجميل الطلعة يرى عند باب المدينة حيث كان جمهور من المتظلمين ينتظرون تقديم ظلاماتهم ، طالبين الإنصاف . وكان أبشالوم يندمج بهم ويصغي إلى قصص الضيم الواقع عليهم ثم يعبر لهم عن عطفه عليهم ، ويرثي لآلامهم ، ويعلن أسفه على عدم كفاءة رجال الحكومة . فبعدما كان يستمع لقصة واحد من بني إسرائيل

كان ذلك الأمير يقول له : «أُمُورُكَ صَالِحَةٌ وَمُسْتَقِيمَةٌ ، وَلكِنْ لَيْسَ مَنْ يَسْمَعُ لَكَ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ» ثم يضيف قائلا : «مَنْ يَجْعَلُنِي قَاضِيًا فِي الأَرْضِ فَيَأْتِيَ إِلَيَّ كُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ خُصُومَةٌ وَدَعْوَى فَأُنْصِفَهُ ؟ وَكَانَ إِذَا تَقَدَّمَ أَحَدٌ لِيَسْجُدَ لَهُ، يَمُدُّ يَدَهُ وَيُمْسِكُهُ وَيُقَبِّلُهُ» .

أثارت الشعب دسائس الأمير الماكرة فانتشر السخط على الحكومة بسرعة عظيمة . وكان مديح أبشالوم على كل لسان . واعتبر بصورة عامة وارثا للعرش كما كان الشعب ينظرون إليه بفخر وإعجاب كمن هو أهل لهذا المركز السامي ، حتى اضطرمت في قلوبهم رغبة في اعتلائه العرش . «فَاسْتَرَقَّ أَبْشَالُومُ قُلُوبَ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ» ومع ذلك إذ أعمت عيني الملك محبته لابنه هذا لم يكن يشك في شيء ، لأن حالة العظمة والسؤدد التي ظهر بها أبشالوم ، اعتبر داود أن القصد منها هو إكرام الملك والعرش حيث كان فرحا بالمصالحة مع ابنه .

وإذ كانت عقول الشعب مهيأة لما كان سيتبع ذلك أرسل أبشالوم سرا رجالا منتخبين إلى كل أسباط إسرائيل حتى يتفقوا على الإجراءات اللازمة للقيام بثورة . والآن فها أبشالوم يتسربل بطيلسان الدين ليخفي نواياه الغادرة . فقال إنه قبل نفيه كان قد نذر نذرا على أن يفيه في حبرون ثم التمس من الملك قائلا : «دَعْنِي فَأَذْهَبَ وَأُوفِيَ نَذْرِي الَّذِي نَذَرْتُهُ لِلرَّبِّ فِي حَبْرُونَ ، لأَنَّ عَبْدَكَ نَذَرَ نَذْرًا عِنْدَ سُكْنَايَ فِي جَشُورَ فِي أَرَامَ قَائِلاً : إِنْ أَرْجَعَنِي الرَّبُّ إِلَى أُورُشَلِيمَ فَإِنِّي أَعْبُدُ الرَّبَّ» . إن ذلك الأب المحب إذ تعزى لوجود هذا البرهان على التقوى في قلب ابنه باركه وأطلقه . وفي هذا الوقت كانت المؤامرة قد اكتملت ، إن عمل أبشالوم الريائي هذا كان القصد منه ليس فقط التمويه على الملك ، بل ليحصل على ثقة الشعب ، وهكذا يسير في طليعتهم ليثوروا ضد الملك المختار من الله .

انطلق أبشالوم إلى حبرون وانطلق معه «مِئَتَا رَجُل مِنْ أُورُشَلِيمَ قَدْ دُعُوا وَذَهَبُوا بِبَسَاطَةٍ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» ذهب هؤلاء من أورشليم مع أبشالوم غير عالمين أن محبتهم للابن تسوقهم إلى العصيان على أبيه . وحالما وصل أبشالوم إلى حبرون استدعى في الحال أخيتوفل الذي كان من أعظم مشيري داود والذي اشتهر بحكمته وسداد رأيه ، إذ كانت آراؤه سليمة وحكيمة كمن يسأل بكلام الله . وإذ صار أخيتوفل من بين المتآمرين على داود فقد جعلت مشورته ومساعدته دعوى أبشالوم تبدو مؤكدة النجاح . كما أن انضمام أخيتوفل إلى

730,731

أبشالوم جعل كثيرين من ذوي النفوذ في كل أنحاء البلاد ينضوون تحت راية أبشالوم . ولما ضرب البوق مؤذنا بالعصيان ، جعل جواسيس الأمير ينشرون في كل مكان بأن أبشالوم قد صار ملكا ، فاحتشد حوله كثيرون .

وفي أثناء ذلك وصل الإنذار إلى الملك في أورشليم ، وهذا الإنذار أثار داود فجأة إذ رأى العصيان ينتشر بالقرب من عرشه . إن ابنه –ذلك الابن الذي قد أحبه أبوه ووثق به– يتآمر عليه ليغتصب منه تاجه ، وبلا شك يقتله ، ففي ساعة الخطر العظيم نفض داود عن نفسه تلك الكآبة التي كانت جاثمة على صدره أمدا طويلا ، وبروح الشباب تأهب لمواجهة تلك الظروف الطارئة الرهيبة . بينما كان أبشالوم يحشد قواته في حبرون التي لم تكن تبعد عن العاصمة أكثر من عشرين ميلا . ولذلك فقد يصل الثوار إلى أبواب أورشليم في أقرب وقت .

أطل داود من قصره على عاصمته ، جميلة الارتفاع «فَرَحُ كُلِّ الأَرْضِ ... مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ» (مزمور ٤٨ : ٢) وقد اقشعر بدنه عندما خطر له أمر تعريض تلك المدينة للمذابح وسفك الدماء والتخريب . فهل يطلب النجدة من رعاياه الأمناء الذين ظلوا على ولائهم لعرشه ويهب للدفاع عن عاصمة ملكه ؟ وهل تسمح له نفسه أن يجعل الدماء تسيل في شوارع أورشليم أنهارا ؟ لقد قرر أمرا . ينبغي ألا تكتوي المدينة المختارة بنيران الحروب وأهوالها . إنه سيترك أورشليم وهكذا يختبر ولاء شعبه ، معطيا إياهم فرصة فيها يلمون شعثهم ويخفون إلى نجدته . وفي هذه الضائقة العظيمة كان واجبه نحو الله ونحو شعبه يقتضيه أن يظل محتفظا بالسلطة التي منحته إياها السماء ، وأن يسلم نتيجة المعركة في يد الله .

وفي اتضاع وحزن خرج داود من باب أورشليم – مطرودا من عرشه ومن قصره ، مطرودا بعيدا عن تابوت الله بسبب ثورة ابنه الذي أحبه . وقد تبع الشعب الملك في موكب طويل حزين كما لو كان موكب مأتم . وكان حرس الملك المكون من الجلادين والسعاة الست مئة رجل القادمين من جت بقيادة إتاي ، في معية الملك . ولكن داود ، الذي امتاز بعدم الأنانية ، لم يرض بأن يشاركه في محنته أولئك الغرباء الذي أتوا ليحتموا تحت ظله . وقد عبر لهم عن دهشته لكونهم مستعدين للقيام بهذه التضحية في سبيله . حينئذ قال الملك لإيتاي الجتي : «لِمَاذَا تَذْهَبُ أَنْتَ أَيْضًا مَعَنَا ؟ اِرْجِعْ وَأَقِمْ مَعَ

الْمَلِكِ لأَنَّكَ غَرِيبٌ وَمَنْفِيٌّ أَيْضًا مِنْ وَطَنِكَ . أَمْسًا جِئْتَ وَالْيَوْمَ أُتِيهُكَ بِالذَّهَابِ مَعَنَا وَأَنَا أَنْطَلِقُ إِلَى حَيْثُ أَنْطَلِقُ ؟ ارْجِعْ وَرَجِّعْ إِخْوَتَكَ . الرَّحْمَةُ وَالْحَقُّ مَعَكَ» .

فأجابه إتاي قائلا : «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ وَحَيٌّ سَيِّدِي الْمَلِكُ ، إِنَّهُ حَيْثُمَا كَانَ سَيِّدِي الْمَلِكُ ، إِنْ كَانَ لِلْمَوْتِ أَوْ لِلْحَيَاةِ ، فَهُنَاكَ يَكُونُ عَبْدُكَ أَيْضًا» . كان أولئك القوم قد اهتدوا من الوثنية إلى عبادة الرب ، وها هم الآن يبرهنون بكل نبل عن ولائهم لإلههم ومليكهم ، فقبل داود بقلب شاكر تكريسهم أنفسهم لدعواه التي كان يبدو أنها خاسرة ، فعبروا جميعا وادي قدرون في طريقهم إلى البرية .

ومرة أخرى توقف الموكب حيث كان جماعة يلبسون الثياب المقدسة ، ويقتربون من الموكب ، «وَإِذَا بِصَادُوقَ أَيْضًا وَجَمِيعُ اللاَّوِيِّينَ مَعَهُ يَحْمِلُونَ تَابُوتَ عَهْدِ اللهِ» نظر أتباع داود إلى التابوت على أنه فأل خير ، لأن وجود ذلك الرمز المقدس كان ضمانا لنجاتهم ونصرتهم النهائية ، فهو لا بد من أن يلهم الشعب شجاعة حتى يقفوا إلى جانب الملك . كما أن غيابه عن أورشليم سيملأ بالرعب قلوب أتباع أبشالوم .

وإذ أبصر داود التابوت امتلأ قلبه فرحا ورجاء إلى لحظة . ولكن سرعان ما خطرت له خواطر أخرى . إنه كلملك معين من الله على ميراثه كان تحت التزام مقدس . أما الذي كان يحتل أعظم وأسمى مكانة في تفكير ملك إسرائيل ، فلم يكن مصالحه الشخصية ، بل مجد الله وخير شعبه . إن الله الجالس بين الكروبيم قال عن أورشليم : «هذِهِ هِيَ رَاحَتِي» (مزمور ١٣٢ : ١٤) وبدون سلطان الله لم يكن لكاهن أو ملك الحق في نقل رمز حضور الله من هناك . وعرف داود أن قلبه وحياته ينبغي أن يكونا في توافق وانسجام مع وصايا الله ، وإلا فالتابوت سيكون سبب كارثة له بدلا من أن يكون سبب نجاح وانتصار . لقد كانت خطية داود العظيمة أمامه دائما ، فرأى في هذه المؤامرة دينونة الله العادلة ، حيث استل السيف الذي لن يفارق بيته إلى الأبد . لم يكن يعرف شيئا عن نتيجة ذلك الصراع . ولم يكن له أن ينقل من عاصمة الأمة الشريعة المقدسة ، التي تضمنت إرادة مليكهم الإلهي ، والتي كانت دستور المملكة وأساس نجاحها وازدهارها .

ولذلك أمر صادوق قائلا : « أَرْجِعْ تَابُوتَ اللهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَإِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ فَإِنَّهُ يُرْجِعُنِي وَيُرِينِي إِيَّاهُ وَمَسْكَنَهُ . وَإِنْ قَالَ هكَذَا : إِنِّي لَمْ أُسَرَّ بِكَ . فَهأَنَذَا ، فَلْيَفْعَلْ بِي حَسَبَمَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْهِ» .

ثم عاد داود يقول له : «أَأَنْتَ رَاءٍ ؟» (رجل معين من الله لتعليم الشعب) «فَارْجِعْ إِلَى الْمَدِينَةِ بِسَلاَمٍ أَنْتَ وَأَخِيمَعَصُ ابْنُكَ وَيُونَاثَانُ بْنُ أَبِيَاثَارَ . ابْنَاكُمَا كِلاَهُمَا مَعَكُمَا . انْظُرُوا . أَنِّي أَتَوَانَى فِي سُهُولِ الْبَرِّيَّةِ حَتَّى تَأْتِيَ كَلِمَةٌ مِنْكُمْ لِتَخْبِيرِي» إذ في المدينة يستطيع ذانك الكاهنان أن يقدما له خدمة نافعة ، فإذ يعرفان تحركات الثوار ونواياهم يوصلانها إلى الملك سرا بواسطة ابنيهما أخيمعص ويوناثان .

وإذ عاد الكاهنان بالتابوت إلى أورشليم خيمت سحابة حزن أشد سوادا على قلوب أفراد تلك الجماعة ، لقد كان ملكهم هاربا وكانوا هم مطرودين ومتروكين حتى من تابوت الرب – وكان المستقبل مظلما أمامهم بالرعب والتشاؤم ، «وَأَمَّا دَاوُدُ فَصَعِدَ فِي مَصْعَدِ جَبَلِ الزَّيْتُونِ . كَانَ يَصْعَدُ بَاكِيًا وَرَأْسُهُ مُغَطًّى وَيَمْشِي حَافِيًا ، وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِينَ مَعَهُ غَطَّوْا كُلُّ وَاحِدٍ رَأْسَهُ ، وَكَانُوا يَصْعَدُونَ وَهُمْ يَبْكُونَ . وَأُخْبِرَ دَاوُدُ وَقِيلَ لَهُ : «إِنَّ أَخِيتُوفَلَ بَيْنَ الْفَاتِنِينَ مَعَ أَبْشَالُومَ»» ومرة أخرى اضطر داود أن يدرك أن الكوارث التي حلت به إن هي إلا نتائج خطيته . إن ارتداد اخيتوفل الذي كان أقدر المشيرين السياسين وأعظمهم دهاء ، كان الدافع إليه هو الانتقام للعار الذي لحق عائلته بسبب ظلمه لبثشبع التي كانت حفيدته .

«حَمِّقْ يَا رَبُّ مَشُورَةَ أَخِيتُوفَلَ» وإذ وصل الملك إلى قمة الجبل سجد لله مصليا وطارحا عليه أثقال نفسه ، وبكل تواضع توسل إلى الله في طلب الرحمة . فبدا وكأن صلاته قد أجيبت في الحال ، لأن حوشاي الأركي الذي كان مشيرا مقتدرا وحكيما ، والذي برهن على أنه الصديق الأمين لداود ، جاءه الآن ممزق الثوب والتراب على رأسه ، ليجعل نصيبه مع الملك الهارب المخلوع عن عرشه . وقد رأى داود الآن كما بإرشاد إلهي أن هذا الرجل الأمين الصادق المستقيم القلب ، هو الرجل المطلوب لخدمة مصالح الملك في مجالس الشورى في العاصمة . وحسب طلب داود عاد حوشاي إلى أورشليم ليقدم خدمته لأبشالوم وليحبط مشورة أخيتوفل الماكرة .

وعلى وميض هذا النور الذي لمع فجأة في ذلك الظلام ، تقدم الملك ورجاله في طريقهم ، ونزلوا من منحدر جبل الزيتون الشرقي ، مخترقين صحراء صخرية موحشة وأودية وعرة وطرقات سحيقة محجرة نحو الأردن . «وَلَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ دَاوُدُ إِلَى بَحُورِيمَ إِذَا بِرَجُل خَارِجٍ مِنْ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَةِ بَيْتِ شَاوُلَ ، اسْمُهُ شِمْعِي بْنُ جِيرَا ، يَسُبُّ وَهُوَ يَخْرُجُ ، وَيَرْشُقُ بِالْحِجَارَةِ دَاوُدَ وَجَمِيعَ عَبِيدِ الْمَلِكِ دَاوُدَ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ وَجَمِيعُ الْجَبَابِرَةِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ

يَسَارِهِ . وَهكَذَا كَانَ شِمْعِي يَقُولُ فِي سَبِّهِ : «اخْرُجِ ! اخْرُجْ يَا رَجُلَ الدِّمَاءِ وَرَجُلَ بَلِيَّعَالَ ! قَدْ رَدَّ الرَّبُّ عَلَيْكَ كُلَّ دِمَاءِ بَيْتِ شَاوُلَ الَّذِي مَلَكْتَ عِوَضًا عَنْهُ ، وَقَدْ دَفَعَ الرَّبُّ الْمَمْلَكَةَ لِيَدِ أَبْشَالُومَ ابْنِكَ ، وَهَا أَنْتَ وَاقِعٌ بِشَرِّكَ لأَنَّكَ رَجُلُ دِمَاءٍ»» .

حين كان داود في النجاح والقوة ، لم يبد من أقوال شمعي أو أعماله ما يدل على عدم ولائه للملك ، ولكن حين أصابت الملك هذه المحنة ، ظهر هذا الرجل البنياميني على حقيقته . لقد أكرم داود وهو متربع على عرشه ولكنه لعنه وهو في حال الاتضاع . فإذ كان ذلك الرجل سافلا وأنانيا رأى جميع الناس وكأنهم متصفون بنفس صفاته . وإذ ألهمه شيطانه جعل يصب جامات حقده على ذاك الذي أدَّبه الله . إن تلك الروح التي تقود الإنسان لأن يفرح وينتصر على من هو في ضيقة ، أو يسبه ، أو يزعجه ويضايقه إنما هي روح الشيطان .

إن تلك الاتهامات التي وجهها شمعي إلى داود كانت كلها مكذوبة – وكانت افتراء خسيسا على غير أساس . إن داود لم يكن مجرما في حق شاول أو بيته . حين وقع شاول تحت سلطانه ، وكان في قدرة يده أن يقتله ، فكل ما عمله أنه قطع طرف جبته ، بل لقد لام نفسه حتى لكونه أظهر عدم الاحترام هذا نحو مسيح الرب .

لقد قدم داود أدلة مدهشة على تقديره المقدس للحياة الإنسانية حتى حين كان هو نفسه مطاردا كما تطارد الوحوش . وفي أحد الأيام وهو مختبئ في مغارة عدلام ، إذ عاد بأفكاره إلى حريته في أيام صباه ، تلك الحرية التي لم يكن يعكر صفوها أي اضطراب أو انزعاج ، تأوه ذلك الهارب قائلا : «مَنْ يَسْقِينِي مَاءً مِنْ بِئْرِ بَيْتِ لَحْمٍ الَّتِي عِنْدَ الْبَابِ ؟» وكانت بيت لحم في أيدي الفلسطينيين في ذلك الحين ، ولكن ثلاثة من أبطال داود شقوا لأنفسهم طريقا في وسط الحراس وأحضروا لسيدهم الماء من بيت لحم . إلا أن داود لم يرد أن يشربه بل قال : «حَاشَا لِي يَا رَبُّ أَنْ أَفْعَلَ ذلِكَ ! هذَا دَمُ الرِّجَالِ الَّذِينَ خَاطَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ» بل بكل وقار سكبه تقدمة للرب . لقد كان داود رجل حرب ، وقضى جانبا كبيرا من حياته بين مشاهد القسوة والعنف ولكن بين كل من قد مروا بمحنة كهذه ، قليلون هم الذين تأثروا هكذا قليلا ، مثلما تأثر داود ، بتأثيراتها التي تقسي القلب وتثبط العزيمة .

إن أبيشاي ابن أخت داود الذي كان من أشجع ضباطه ، لم يطق صبرا على أقوال شمعي المهينة فصاح قائلا : «لِمَاذَا يَسُبُّ هذَا الْكَلْبُ الْمَيْتُ سَيِّدِي الْمَلِكَ ؟ دَعْنِي أَعْبُرْ فَأَقْطَعَ

رَأْسَهُ» ولكن الملك منعه قائلا : «هُوَذَا ابْنِي ... يَطْلُبُ نَفْسِي ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الآنَ بَنْيَامِينِيٌّ ؟ دَعُوهُ يَسُبَّ لأَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُ . لَعَلَّ الرَّبَّ يَنْظُرُ إِلَى مَذَلَّتِي وَيُكَافِئُنِي الرَّبُّ خَيْرًا عِوَضَ مَسَبَّتِهِ بِهذَا الْيَوْمِ» .

لقد كان ضمير داود ينطق في داخله بحقائق مرة ومذلة . وحين كان رعاياه الأمناء مستغربين تلك الظروف المعاكسة التي كان يمر فيها ، فإن الحقيقة لم تكن خافية على الملك ، الذي كثيرا ما كان يتشاءم من مفاجأة مثل تلك الساعة له . بل لقد كان مندهشا من طول احتمال الله إياه وصبره عليه مع كثرة خطاياه ، وتأجيله إيقاع القصاص الذي كان يستحقه داود إلى ذلك اليوم . والآن وهو يهرب ذلك الهرب السريع المحزن ، وهو حافي القدمين ، وقد طرح عنه ثيابه الملكية ولبس المسوح ، وصدى مراثي أتباعه يتردد في جوانب التلال ، كان يفكر في عاصمته المحبوبة –المكان الذي كان مسرحا لخطيته– وعندما تذكر صلاح الله وطول أناته لم يكن بلا رجاء كليا ، بل قد أحس أن الرب سيظل يعامله بالرحمة .

إن كثيرين من فاعلي الشر يعتذرون عن خطيتهم إذ يشيرون إلى سقطة داود . ولكن ما أقل أولئك الذين يتوبون كما تاب داود ويتذللون كما تذلل ، وما أقل ما يحتملون التوبيخ والقصاص بصبر كصبره وجلد كجلده ! لقد اعترف بخطيته ، ولسنين اجتهد في القيام بواجبه كعبد أمين لله . لقد تعب لكي يقيم مملكته ويثبتها ، وفي زمن حكمه حصلت على قوة ونجاح عظيمين لم تحصل عليهما من قبل . كما أنه اختزن مواد كثيرة لبناء بيت الله . والآن فهل سينهار ويتلاشى عمله مدى الحياة ؟ وهل توجب على نتائج تلك السنين ، سني الكد المكرس ، وعمل العبقرية والتكريس والإرادة ، أن يوضع بين يدي ابنه الطائش الغادر ، الذي لم يقم وزنا لكرامة الله أو نجاح إسرائيل ؟ كم كان من الطبيعي أن يتذمر داود على الله وهو رازح تحت هذه البلوى العظيمة الساحقة !

إلا أنه رأى أن خطيته هي علة كل متاعبه . إن كلمات ميخا النبي تنطق بالروح التي ألهمت روح داود أن يقول : «إِذَا جَلَسْتُ فِي الظُّلْمَةِ فَالرَّبُّ نُورٌ لِي . أَحْتَمِلُ غَضَبَ الرَّبِّ لأَنِّي أَخْطَأْتُ إِلَيْهِ ، حَتَّى يُقِيمَ دَعْوَايَ وَيُجْرِيَ حَقِّي» (ميخا ٧ : ٩،٨) ولم يترك الرب داود . إذ هذا الفصل في اختباره حين برهن على وداعته وعدم أنانيته ، وكرم نفسه ، وخضوعه تحت أقسى المظالم والإهانات ، هو من أنبل الاختبارات مدى حياته . إن ملك

إسرائيل لم يكن قط عظيما في نظر السماء كما كان في هذه الساعة التي كان فيها في أعمق حالات الهوان كما كان ظاهرا للعيان .

لو سمح الله لداود أن يعيش في خطيته بدون توبيخ ، وأن يظل جالسا على عرشه متمتعا بالسلام والنجاح وهو يتعدى وصايا الله لكان للمشككين والملحدين بعض العذر في اعتبار تاريخ داود عارا على ديانة الكتاب المقدس . ولكن في ذلك الاختبار الذي سمح الرب أن يمر فيه داود يرينا الرب أنه لا يستطيع أن يتساهل مع الخطية ، أو يعذر مرتكبيها . كما أن تاريخ داود يجعلنا نرى الغايات العظيمة التي جعلها الله في معاملاته للخطية ، وهو يقدرنا كذلك على أن نتتبع مقاصد رحمته وإحسانه حتى في أقسى الأحكام وأشدها حلوكة . لقد سمح الرب بأن يمر داود تحت العصا ولكنه لم يهلكه . كما أن آتون النار يطهر ولكنه لا يهلك . يقول الله : «إِنْ نَقَضُوا فَرَائِضِي وَلَمْ يَحْفَظُوا وَصَايَايَ ، أَفْتَقِدُ بِعَصًا مَعْصِيَتَهُمْ ، وَبِضَرَبَاتٍ إِثْمَهُمْ . أَمَّا رَحْمَتِي فَلاَ أَنْزِعُهَا عَنْهُ ، وَلاَ أَكْذِبُ مِنْ جِهَةِ أَمَانَتِي» (مزمور ٨٩ : ٣١-٣٣) .

حالما ترك داود أورشليم دخلها أبشالوم بجيشه ، وبدون حرب امتلك حصن إسرائيل . وقد كان حوشاي بين الأوائل الذين رحبوا بالملك المتوج حديثا ، فاندهش الأمير وابتهج بمجيء صديق أبيه ومشيره . وكان أبشالوم واثقا من النجاح ، حيت أفلح في كل خططه حتى ذلك الحين . وإذ كان يتوق إلى توطيد دعائم عرشه والظفر بثقة الأمة رحب بمجيء حوشاي إلى بلاطه .

كان أبشالوم الآن محاطا بجيش عظيم ، ولكن غالبية رجاله لم يكونوا مدربين على القتال ، كما عرف أخيتوفل جيدا أن موقف داود لم يكن ميؤوسا منه على الإطلاق ، ذلك أن جزءا كبيرا من الأمة كانوا لا يزالون على ولائهم له . كما أنه كان محاطا بمحاربين مدربين أمناء لمليكهم ، وكذلك كان على رأس جيشه قواد مقتدرون ومحنكون ، وعرف أخيتوفل أنه بعدما تنتهي ثورة الحماسة في صالح الملك الجديد لا بد أن يكون هنالك رد فعل . فلو فشلت الثورة فقد يستطيع أبشالوم أن يصطلح مع أبيه ، وحينئذ فإن أخيتوفل مشيره الأعظم سيعتبر أعظم الناس جرما في تلك الثورة وستحل به أقصى عقوبة . ولكي يحول بين أبشالوم وبين التراجع ، أشار عليه أخيتوفل أن يقدم على عمل يجعل الصلح بينه وبين أبيه أمرا مستحيلا في نظر الأمة كلها . فبمكر جهنمي ألح ذلك السياسي المحتال الفاسد المبادئ على أبشالوم أن يضيف إلى جريمة العصيان جريمة الزنا بالأقارب . وأمام عيون كل شعب إسرائيل ، كان

سيستولى على سراري أبيه طبقا لعادات أمم الشرق معلنا بذلك أنه قد جلس على عرش أبيه ، فنفذ أبشالوم ذلك الاقتراح الخسيس . وهكذا تم كلام الله الذي حكم به ، وكلم به داود على لسان النبي حين قال : «هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ ... لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ» (٢صموئيل ١٢ : ١١،١٢) ولكن ليس معنى هذا أن الله هو المحرض على أعمال الشر هذه ، ولكن بسبب خطية داود لم يستخدم الرب قوته للحيلولة بين أبشالوم وارتكاب الفحشاء .

لقد احتل أخيتوفل مركزا مرموقا نظرا لحكمته ، ولكنه كان خاليا من الاستنارة التي مصدرها الله «بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ» (أمثال ٩ : ١٠) وأخيتوفل هذا لم يكن حاصلا على هذه الحكمة ، وإلا لما كان يستطيع أن يبني نجاح المؤامرة على جريمة الزنا هذه . إن الناس ذوي القلوب الفاسدة يتآمرون بالشر كما لو لم تكن هنالك عناية الله المسيطرة لتحبط مقاصدهم . ولكن «اَلسَّاكِنُ فِي السَّمَاوَاتِ يَضْحَكُ . الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» (مزمور ٢ : ٤) والرب يعلن قائلا : «لَمْ يَرْضَوْا مَشُورَتِي . رَذَلُوا كُلَّ تَوْبِيخِي . فَلِذلِكَ يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِ طَرِيقِهِمْ ، وَيَشْبَعُونَ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ . لأَنَّ ارْتِدَادَ الْحَمْقَى يَقْتُلُهُمْ ، وَرَاحَةَ الْجُهَّالِ تُبِيدُهُمْ» (أمثال ١ : ٣٠-٣٢) .

وإذ أفلح اخيتوفل في المؤامرة التي ضمنت سلامته ، ألح على أبشالوم بضرورة العمل السريع للقضاء على داود فقال : «دَعْنِي أَنْتَخِبُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ رَجُل وَأَقُومُ وَأَسْعَى وَرَاءَ دَاوُدَ هذِهِ اللَّيْلَةَ ، فَآتِيَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُتْعَبٌ وَمُرْتَخِي الْيَدَيْنِ فَأُزْعِجُهُ ، فَيَهْرُبَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي مَعَهُ ، وَأَضْرِبُ الْمَلِكَ وَحْدَهُ . وَأَرُدَّ جَمِيعَ الشَّعْبِ إِلَيْكَ» . وقد أقر مشيرو الملك هذه الخطة ، فلو عملوا بها لقتل داود بكل تأكيد إذا لم يتوسط الرب مباشرة لإنقاذه . غير أن حكمة أخرى أسمى وأعظم من حكمة أخيتوفل الذائع الصيت كانت توجه الأحداث «فَإِنَّ الرَّبَّ أَمَرَ بِإِبْطَالِ مَشُورَةِ أَخِيتُوفَلَ الصَّالِحَةِ ، لِكَيْ يُنْزِلَ الرَّبُّ الشَّرَّ بِأَبْشَالُومَ» .

لم يكن حوشاي قد دعي إلى ذلك المجلس ولم يرد هو أن يتطفل عليهم بدون دعوة لئلا تحوم حوله الشكوك ويعتبر جاسوسا . ولكن بعد انفضاض الجلسة ، إذا بأبشالوم الذي كان يقدر حكم مشير أبيه تقديرا عظيما ، يفضي إلى حوشاي بتفاصيل خطة أخيتوفل ، فعرف حوشاي أنه لو نفذ ذلك الاقتراح فلا بد من هلاك داود ، فقال :

«لَيْسَتْ حَسَنَةً الْمَشُورَةُ الَّتِي أَشَارَ بِهَا أَخِيتُوفَلُ هذِهِ الْمَرَّةَ» ثم قال : «أَنْتَ تَعْلَمُ أَبَاكَ وَرِجَالَهُ أَنَّهُمْ جَبَابِرَةٌ ، وَأَنَّ أَنْفُسَهُمْ مُرَّةٌ كَدُبَّةٍ مُثْكِل فِي الْحَقْلِ . وَأَبُوكَ رَجُلُ قِتَال وَلاَ يَبِيتُ مَعَ الشَّعْبِ . هَا هُوَ الآنَ مُخْتَبِئٌ فِي إِحْدَى الْحُفَرِ أَوْ أَحَدِ الأَمَاكِنِ» ثم قال إنه إذا طاردت قوات أبشالوم داود فلن يمسكوا الملك . ولو خاب مسعاهم فإن ذلك يثبط عزائمهم ويلحق بدعوى أبشالوم ضررا بالغا . ثم قال : «لأَنَّ جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَبَاكَ جَبَّارٌ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ ذَوُو بَأْسٍ» ثم اقترح عليه خطة ترحب بها الطبيعة المختالة المحبة لنفسها التي تحب مظاهر القوة والسلطان وترضي غرورها فقال : «لِذلِكَ أُشِيرُ بِأَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْكَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ مِنْ دَانَ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ ، كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى الْبَحْرِ فِي الْكَثْرَةِ ، وَحَضْرَتُكَ سَائِرٌ فِي الْوَسَطِ . وَنَأْتِيَ إِلَيْهِ إِلَى أَحَدِ الأَمَاكِنِ حَيْثُ هُوَ ، وَنَنْزِلَ عَلَيْهِ نُزُولَ الطَّلِّ عَلَى الأَرْضِ ، وَلاَ يَبْقَى مِنْهُ وَلاَ مِنْ جَمِيعِ الرِّجَالِ الَّذِينَ مَعَهُ وَاحِدٌ . وَإِذَا انْحَازَ إِلَى مَدِينَةٍ ، يَحْمِلُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ إِلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ حِبَالاً ، فَنَجُرُّهَا إِلَى الْوَادِي حَتَّى لاَ تَبْقَى هُنَاكَ وَلاَ حَصَاةٌ» .

«فَقَالَ أَبْشَالُومُ وَكُلُّ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ : إِنَّ مَشُورَةَ حُوشَايَ الأَرْكِيِّ أَحْسَنُ مِنْ مَشُورَةِ أَخِيتُوفَلَ» ومن كان هنالك رجل لا يمكن التغرير به – رجل سبق فرأى جليا نتيجة خطأ أبشالوم المميت . لقد عرف أخيتوفل أن العصاة قد خسروا دعواهم ، كما عرف أنه مهما يكن المصير الذي ينتظر الأمير فإنه لا رجاء للمشير الذي حرضه على ارتكاب أفظع الجرائم . لقد شجع أخيتوفل أبشالوم في ثورته ، وأشار عليه بارتكاب شر الرجاسات ، الأمر الذي جلب العار على أبيه ، كما أشار عليه بقتل داود ودبر الخطة لذلك ، ولقد قضى على آخر أمل في إمكان مصالحته مع الملك . والآن فها أبشالوم نفسه يفضل عليه رجلا آخر . وإذ استولى عليه الحسد والغضب واليأس «انْطَلَقَ إِلَى بَيْتِهِ إِلَى مَدِينَتِهِ ، وَأَوْصَى لِبَيْتِهِ ، وَخَنَقَ نَفْسَهُ وَمَاتَ» هذه كانت نتيجة حكمة ذلك الإنسان الذي مع كل مواهبه السامية لم يجعل الله مشيرا له . إن الشيطان يخدع الناس بوعود خلابة ، ولكن كل نفس ستجد في النهاية أن أجرة الخطية هي موت (رومية ٦ : ٢٣) .

أما حوشاي فإذ لم يكن موقنا بأن الملك المتقلب الرأي (أبشالوم) سيعمل بمشوراته ، لم يضع الوقت ، بل أرسل ينذر داود أن يعبر الأردن ويهرب لحياته بدون إبطاء . كما أنه أرسل رسالة إلى الكاهنين لكي يرسلاها إلى داود بواسطة ابنيهما ، وكانت الرسالة تقول : «كَذَا

وَكَذَا أَشَارَ أَخِيتُوفَلُ عَلَى أَبْشَالُومَ وَعَلَى شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ ، وَكَذَا وَكَذَا أَشَرْتُ أَنَا . فَالآنَ ... لاَ تَبِتْ هذِهِ اللَّيْلَةَ فِي سُهُولِ الْبَرِّيَّةِ ، بَلِ اعْبُرْ لِئَلاَّ يُبْتَلَعَ الْمَلِكُ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِي مَعَهُ» .

وقد اشتبه في الشابين حاملي الرسالة وطوردا ، إلا أنهما أفلحا في إنجاز مأموريتهما الخطرة . وإذ كان داود مجهدا وحزينا بعدما قضى اليوم الأول في الهرب ، قبل الرسالة التي تستعجله في عبور الأردن تلك الليلة لأن ابنه يطلب نفسه .

يا ترى ، ماذا كانت المشاعر التي جاشت في قلب ذلك الملك الأب الذي عومل بمنتهى القسوة والظلم هو مهدد بالخطر الرهيب ؟ «جبار بأس» ، رجل حرب ، وملك كانت كلمته قانونا ، يسلمه ابنه الذي أحبه وتغاضى عنه ووثق به بدون حكمة ، وقد ظلمته وهجرته أمته التي كانت مرتبطة به بأوثق ربط الإكرام والولاء– فبأي كلمات سكب داود مشاعر نفسه ؟ ! وفي ساعة أقسى تجربة حلت بداود كان قلبه مستندا على الله فرنم قائلا : «يَا رَبُّ ، مَا أَكْثَرَ مُضَايِقِيَّ ! كَثِيرُونَ قَائِمُونَ عَلَيَّ . كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِي : «لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلهِهِ» . أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَتُرْسٌ لِي . مَجْدِي وَرَافِعُ رَأْسِي . بِصَوْتِي إِلَى الرَّبِّ أَصْرُخُ ، فَيُجِيبُنِي مِنْ جَبَلِ قُدْسِهِ . أَنَا اضْطَجَعْتُ وَنِمْتُ . اسْتَيْقَظْتُ لأَنَّ الرَّبَّ يَعْضُدُنِي . لاَ أَخَافُ مِنْ رِبْوَاتِ الشُّعُوبِ الْمُصْطَفِّينَ عَلَيَّ مِنْ حَوْلِي . لِلرَّبِّ الْخَلاَصُ عَلَى شَعْبِكَ بَرَكَتُكَ» (مزمور ٣ : ١–٨) .

عبر داود النهر العميق السريع الجريان ومعه رجال الحرب والسياسة ، والشيب والشباب والنساء والأطفال في دجى الليل ، «وَعِنْدَ ضَوْءِ الصَّبَاحِ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ لَمْ يَعْبُرِ الأُرْدُنَّ» .

ارتد داود وجيشه إلى محنايم التي كانت عاصمة مملكة إيشبوشث من قبل . وكانت تلك المدينة محصنة تحصينا قويا إذ كانت محاطة بإقليم جبلي يصلح لأن يكون ملجأ وملاذا في حالة الحرب . وكانت تلك البقعة غنية بالمؤونة والمأكل ، وكان شعبها مواليا لداود . وفي هذا المكان انضم إلى داود كثيرون من أتباعه ، كما أحضر كثيرون من رجال الأسباط الأثرياء أطعمة فاخرة وكثيرة ، وكثيرا من اللوازم الأخرى .

وقد أتمت مشورة حوشاي غرضها إذا أعطت لداود فرصة للهرب ، ولكن الأمير الطائش المندفع لم يمكن إيقافه طويلا ، بل سرعان ما خرج ليطارد أباه «وعبر وَعَبَرَ أَبْشَالُومُ الأُرْدُنَّ هُوَ وَجَمِيعُ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ» . وقد جعل أبشالوم عماسا بن أبيجايل أخت داود رئيسا على جيشه ، وكان جيشه عظيما إلا أنه لم يكن مدربا التدريب الكافي وكان مستعدا استعدادا ضعيفا

لمنازلة جنود أبيه المدربين .

قسم داود جيشه إلى ثلاث كتائب تحت قيادة يوآب وأبيشداي وإتاي الجتي ، وكان يريد أن يقود الجيش بنفسه في ساحة القتال ، ولكن قواد الجيش والمشيرين والشعب اعترضوا على ذلك قائلين بكل حماسة : «لاَ تَخْرُجْ ، لأَنَّنَا إِذَا هَرَبْنَا لاَ يُبَالُونَ بِنَا ، وَإِذَا مَاتَ نِصْفُنَا لاَ يُبَالُونَ بِنَا . وَالآنَ أَنْتَ كَعَشَرَةِ آلاَفٍ مِنَّا . وَالآنَ الأَصْلَحُ أَنْ تَكُونَ لَنَا نَجْدَةً مِنَ الْمَدِينَةِ . فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ : «مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ أَفْعَلُهُ»» .

ومن فوق أسوار المدينة كانت ترى صفوف جيوش الثوار الطويلة بكل وضوح . إن ذلك المغتصب كان معه جيش عظيم بينما جيش داود بالنسبة إليهم لم يكن أكثر من حفنة من الرجال . ولكن حين نظر الملك إلى الجيش المعادي فإن الفكر الذي ملأ عقله لم يكن التاج أو المملكة ولا حتى حياته هو التي تتوقف على نتيجة الحرب ، ولكن قلب ذلك الأب كان مفعما بالحب والإشفاق على ابنه المتمرد العاصي . وإذ كان الجيش يخرج صفوفا من أبواب المدينة ، جعل داود يشجع جنوده الأمناء موصيا إياهم بأن يخرجوا واثقين بأن إله إسرائيل سينصرهم . ولكن حتى في ذلك الحين لم يستطع إخفاء محبته لأبشالوم . حيث عندما كان يوآب خارجا على رأس الكتيبة الأولى مارا بمليكه ، ذلك الرجل الذي انتصر في أكثر من مائة معركة أحنى رأسه المتكبر ليسمع آخر رسالة من الملك الذي قال بصوت مرتعش من فرط التأثر : «تَرَفَّقُوا لِي بِالْفَتَى أَبْشَالُومَ» وهذه هي نفس الوصية التي سمعها كل من أبيشاي وإتاي «تَرَفَّقُوا لِي بِالْفَتَى أَبْشَالُومَ» ولكن جزع الملك الذي جعل الجيش وقواده يعتقدون أن داود يعلن بهذا الكلام أن أبشالوم أغلى ، في نظره ، من المملكة ، وأغلى حتى من رعاياه الأمناء لعرشه ، هذا زاد من غضب الجنود على ذلك الابن غير الطبيعي .

جرت المعركة في غابة قرب الأردن حيث لم تكن كثرة جيش أبشالوم لصالحه ، ففي وسط أدغال الغابة ومستنقعاتها أصاب تلك الفرق غير المدربة الارتباك ولم يمكن السيطرة عليهم «فانكسر هناك شعب إسرائيل أمام عبيد داود ، وكانت هناك مقتلة عظيمة في ذلك اليوم . قتل عشرون ألفا» فإذ رأى أبشالوم أنه خسر المعركة استدار ليهرب ، ولكن رأسه أمسك في أغصان شجرة امتدت هنا وهناك ، والبغل الذي كان يمتطيه أبشالوم مر من تحته ، وترك معلقا بلا نصير ، فريسة لأعدائه ، فوجده أحد الجنود على هذه الحالة ، ولكنه أبقى عليه خشية أن يسخط عليه الملك إن أوقع به أي أذى ، ولكنه أخبر يوآب بما قد رآه . أما

أن يسخط عليه الملك إن أوقع به أي أذى ، ولكنه أخبر يوآب بما قد رآه . أما يوآب فلم يكن يردعه أي مبدأ أو ضمير . لقد سبق له أن كان صديقا لأبشالوم إذ أصلح بينه وبين أبيه مرتين ، ولكنه خان الأمانة بقحة ، ولولا المزايا التي حصل عليها أبشالوم بواسطة تشفع يوآب لما حدثت تلك الثورة بكل أهوالها . والآن فها قد صار في قدرة يوآب أن يقضي على المحوض على كل هذا الشر بضربة واحدة «فَأَخَذَ ثَلاَثَةَ سِهَامٍ بِيَدِهِ وَنَشَّبَهَا فِي قَلْبِ أَبْشَالُومَ ... وَأَخَذُوا أَبْشَالُومَ وَطَرَحُوهُ فِي الْوَعْرِ فِي الْجُبِّ الْعَظِيمِ ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ رُجْمَةً عَظِيمَةً جِدًّا مِنَ الْحِجَارَةِ» .

وهكذا هلك المحرضان على الثورة في إسرائيل ، أخيتوفل الذي مات إذ خنق نفسه ، والأمير أبشالوم الذي كان جماله موضع فخر إسرائيل ، قد قطع في عنفوان شبابه ، وطرحت جثته في جب ، وغطتها رجمة عظيمة من الحجارة ، دليلا على العار الأبدي . إن أبشالوم وهو بعد حي كان قد أقام لنفسه نصبا عظيما في وادي الملك ، ولكن التذكار الوحيد الذي دل على قبره ، كان رجمة الحجارة في البرية .

لما مات قائد العصيان ضرب يوآب بالبوق ليوقف الجيش عن ملاحقة الجنود الهاربين . ثم أُرسل في الحال رسل ليحملوا الأخبار إلى الملك .

وإذ نظر الرقيب الواقف على سور المدينة إلى ناحية ساحة القتال رأى رجلا يجري وحده ، وسرعان ما رأى رجلا آخر . وإذ اقترب أول الرجلين قال الرقيب للملك الذي كان منتظرا بجوار الباب : «إِنِّي أَرَى جَرْيَ الأَوَّلِ كَجَرْيِ أَخِيمَعَصَ بْنِ صَادُوقَ» . فَقَالَ الْمَلِكُ : «هذَا رَجُلٌ صَالِحٌ وَيَأْتِي بِبِشَارَةٍ صَالِحَةٍ» . فَنَادَى أَخِيمَعَصُ وَقَالَ لِلْمَلِكِ : «السَّلاَمُ» . وَسَجَدَ لِلْمَلِكِ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ . وَقَالَ : «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي دَفَعَ الْقَوْمَ الَّذِينَ رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى سَيِّدِي الْمَلِكِ» فلما سأله الملك قائلا : «أَسَلاَمٌ لِلْفَتَى أَبْشَالُومَ ؟» أجابه أخيمعص جوابا دل على المراوغة .

ثم أقبل الرسول الثاني يصيح قائلا : «لِيُبَشَّرْ سَيِّدِي الْمَلِكُ ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدِ انْتَقَمَ لَكَ الْيَوْمَ مِنْ جَمِيعِ الْقَائِمِينَ عَلَيْكَ» ومرة أخرى نطقت شفتا الأب بذلك السؤال الذي ملك عليه كل حواسه قائلا «أَسَلاَمٌ لِلْفَتَى أَبْشَالُومَ ؟» فإذ لم يكن ذلك الرسول يستطيع إخفاء تلك الأخبار المحزنة قال للملك : «لِيَكُنْ كَالْفَتَى أَعْدَاءُ سَيِّدِي الْمَلِكِ وَجَمِيعُ الَّذِينَ قَامُوا عَلَيْكَ لِلشَّرِّ» . وقد كان هذا الكلام كافيا ، فلم يسأل داود سؤالا آخر ، ولكنه وهو خافض الرأس «وَصَعِدَ إِلَى

عِلِّيَّةِ الْبَابِ وكَانَ يَبْكِي ويَقُولُ وَهُوَ يَتَمَشَّى : «يَا ابْنِي أَبْشَالُومُ ، يَا ابْنِي ، يَا ابْنِي أَبْشَالُومُ ! يَا لَيْتَنِي مُتُّ عِوَضًا عَنْكَ ! يَا أَبْشَالُومُ ابْنِي ، يَا ابْنِي»» !

وإذ عاد الجيش المنتصر من ساحة القتال ، اقترب من المدينة وكانت التلال تردد صدى هتافات انتصارهم . ولكن حالما دخلوا من باب المدينة انقطع هتافهم ، ونكسوا أعلامهم في أيديهم ، وتقدموا إلى الأمام بنظرات ذليلة ، وكانوا أشبه بالقوم المنهزمين منهم بالمنتصرين . لأن الملك لم ينتظر ليرحب بهم ، ولكن من العلية التي فوق الباب كان يسمع صوت صراخه وعويله وهو يقول «يَا ابْنِي أَبْشَالُومُ ، يَا ابْنِي ، يَا ابْنِي أَبْشَالُومُ ! يَا لَيْتَنِي مُتُّ عِوَضًا عَنْكَ ! يَا أَبْشَالُومُ ابْنِي ، يَا ابْنِي» !

«فَصَارَتِ الْغَلَبَةُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَنَاحَةً عِنْدَ جَمِيعِ الشَّعْبِ ، لأَنَّ الشَّعْبَ سَمِعُوا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ تَأَسَّفَ عَلَى ابْنِهِ . وَتَسَلَّلَ الشَّعْبُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ لِلدُّخُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا يَتَسَلَّلُ الْقَوْمُ الْخَجِلُونَ عِنْدَمَا يَهْرُبُونَ فِي الْقِتَالِ» .

فامتلأ يوآب غضبا . لقد أعطاهم الرب سببا للنصرة والفرح ، وها هو أكبر عصيان عرف في تاريخ إسرائيل قد سحق وقضي عليه ، ومع ذلك فقد استحالت تلك النصرة إلى نوح على ذاك الذي كلفتهم جريمته دماء آلاف من أشجع الرجال . فاندفع يوآب الفظ الشرس إلى حضرة الملك وبكل جرأة قال له : «قَدْ أَخْزَيْتَ الْيَوْمَ وُجُوهَ جَمِيعِ عَبِيدِكَ ، مُنْقِذِي نَفْسِكَ الْيَوْمَ وَأَنْفُسِ بَنِيكَ وَبَنَاتِكَ ... بِمَحَبَّتِكَ لِمُبْغِضِيكَ وَبُغْضِكَ لِمُحِبِّيكَ ، لأَنَّكَ أَظْهَرْتَ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ رُؤَسَاءُ وَلاَ عَبِيدٌ ، لأَنِّي عَلِمْتُ الْيَوْمَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ أَبْشَالُومُ حَيًّا وَكُلُّنَا الْيَوْمَ مَوْتَى ، لَحَسُنَ حِينَئِذٍ الأَمْرُ فِي عَيْنَيْكَ . فَالآنَ قُمْ وَاخْرُجْ وَطَيِّبْ قُلُوبَ عَبِيدِكَ ، لأَنِّي قَدْ أَقْسَمْتُ بِالرَّبِّ إِنَّهُ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ لاَ يَبِيتُ أَحَدٌ مَعَكَ هذِهِ اللَّيْلَةَ ، وَيَكُونُ ذلِكَ أَشَرَّ عَلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَرّ أَصَابَكَ مُنْذُ صِبَاكَ إِلَى الآنَ» .

ومع أن هذا التوبيخ كان جافا وقاسيا على الملك المنكسر القلب فإنه لم يحمل داود على الحقد ، وإذ رأى أن قائده كان على صواب خرج إلى الباب ، وحيًّا جنوده البواسل بكلمات التشجيع والمدح وهم يمرون أمامه .

الفصل الثالث والسبعون

سنو حياة داود الأخيرة

إن سقوط أبشالوم لم يأت بالسلام إلى إسرائيل في الحال . ذلك أن قسما كبيرا من الأمة اتحدوا في فتنة على أن داود ينبغي ألا يعود إلى عاصمته أو يسترد سلطانه بدون دعوة من الأسباط . وفي الارتباك الذي حدث عقب هزيمة أبشالوم لم يكن هنالك عمل سريع حاسم لإعادة الملك . ولما شرع رجال يهوذا أخيرا في إرجاع داود ثار حسد الأسباط الأخرى وتبعت ذلك ثورة مضادة . ولكن هذه الثورة سرعان ما قمعت فعاد السلام إلى إسرائيل .

إن تاريخ داود يقدم لنا شهادة من أعظم الشهادات المؤثرة وأقواها على المخاطر التى تهدد النفس عن طريق القوة والغنى والكرامة العالمية – الأشياء التي يشتهيها الناس من كل قلوبهم . وقليلون هم الذين جازوا في اختبارات أكثر ملاءمة مما حدث لداود ، لإعدادهم لمثل هذا الاختبار . إن حياة داود الأولى كراعي غنم بما فيها من دروس الوداعة والجد في العمل والصبر عليه ، ورعايته الرقيقة لقطعانه ، واشتراكه مع الطبيعة في عزلته بين التلال ، حيث نمت عبقريته في الموسيقى والشعر ، وتوجيه أفكاره إلى الخالق ، والتدريب الطويل لحياته في البرية وتدريب شجاعته وجلده وصبره وإيمانه بالله– كل هذا كان الرب قد عينها لإعداده للتربع على عرش إسرائيل . كان داود قد تمتع باختبارات ثمينة لمحبة الله ، كما وهبه الله روحه بغزارة . وفي تاريخ شاول رأى تفاهة الحكمة البشرية المجردة وعدم جدواها ، ومع ذلك فإن النجاح والكرامة العالميين أضعفا أخلاق داود حتى غلبه المجرب مرارا .

ثم أن اختلاط داود بالشعوب الوثنية جعله يصبو إلى التشبه بهم في عاداتهم القومية ، وأضرم في قلبه طموحا إلى العظمة الدنيوية . إن إسرائيل ، كشعب الرب ، كان مؤهلا للكرامة ، ولكن عندما تفشت فيهم الكبرياء والثقة بالنفس لم يقنع إسرائيل بهذه الكرامة والرفعة . بل كان اهتمامهم منصرفا بالأحرى إلى مركزهم بين الشعوب الأخرى . هذه الروح

دفعت التجربة إليهم . وداود إذ جعل نصب عينيه توسيع مدى فتوحاته بين الأمم الغريبة ، عول على زيادة جيشه بأن فرض الخدمة العسكرية على كل من قد وصلوا إلى السن القانونية . ولكي يحقق هذه الغاية صار من الضروري إحصاء السكان . إن الكبرياء والطموح هما اللذان دفعا الملك إلى هذا العمل . وإحصاء الشعب هذا سيبين الفرق بين ضعف المملكة عندما اعتلى داود العرش وقوتها ونجاحها تحت سلطانه . وهذا كان لا بد من أن يعمل على زيادة نمو ما قد سبق فظهر في الملك والشعب من ثقة عظيمة بالنفس . والكتاب يقول : «وَوَقَفَ الشَّيْطَانُ ضِدَّ إِسْرَائِيلَ ، وَأَغْوَى دَاوُدَ لِيُحْصِيَ إِسْرَائِيلَ» (انظر أخبار الأيام الأول ٢١) إن نجاح إسرائيل تحت حكم داود ، كان يعزى إلى بركة الله لا إلى مقدرة الملك ولا إلى قوة جيوشه . ومن زيادة الموارد الحربية في المملكة جعل الأمم المجاورة تعتقد أن إسرائيل يثق بجيوشه أكثر ما يثق بقدرة إلهه .

ومع أن شعب إسرائيل كانوا يفخرون بعظمتهم القومية فإنهم لم ينظروا بعين الرضى إلى خطة داود في تعميم الخدمة العسكرية إلى هذا الحد الكبير . إن ذلك الإحصاء المقترح أحدث كثيرا من التذمر ، ونتج عن ذلك أنه رؤي من الضروري استخدام الضباط العسكريين بدلا من الكهنة والقضاة الذين سبق لهم إحصاء الشعب . إن الغاية من هذا الإجراء كانت مناقضة مباشرة لمبادئ الحكومة التي يرأسها الله (الثيوقراطية) وحتى يوآب نفسه الذي كان قبلا رجلا مستهترا احتج قائلا : «لِيَزِدِ الرَّبُّ عَلَى شَعْبِهِ أَمْثَالَهُمْ مِئَةَ ضِعْفٍ . أَلَيْسُوا جَمِيعًا يَا سَيِّدِي الْمَلِكَ عَبِيدًا لِسَيِّدِي ؟ لِمَاذَا يَطْلُبُ هذَا سَيِّدِي ؟ لِمَاذَا يَكُونُ سَبَبَ إِثْمٍ لإِسْرَائِيلَ ؟» فَاشْتَدَّ كَلاَمُ الْمَلِكِ عَلَى يُوآبَ . فَخَرَجَ يُوآبُ وَطَافَ فِي كُلِّ إِسْرَائِيلَ ثُمَّ جَاءَ إِلَى أُورُشَلِيمَ» وقبل أن يتم الإحصاء تبكت داود على خطيته ، وإذ شعر بذنبه «قَالَ دَاوُدُ لِلهِ : لَقَدْ أَخْطَأْتُ جِدًّا حَيْثُ عَمِلْتُ هذَا الأَمْرَ . وَالآنَ أَزِلْ إِثْمَ عَبْدِكَ لأَنِّي سَفِهْتُ جِدًّا» وفي الصباح التالي جيء إلى داود برسالة على يد جاد النبي تقول : «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ : ثَلاَثَةً أَنَا عَارِضٌ عَلَيْكَ فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ وَاحِدًا مِنْهَا فَأَفْعَلَهُ بِكَ» . فَجَاءَ جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَقَالَ لَهُ : «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ : اقْبَلْ لِنَفْسِكَ : إِمَّا ثَلاَثَ سِنِينَ جُوعٌ ، أَوْ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ هَلاَكٌ أَمَامَ مُضَايِقِيكَ وَسَيْفُ أَعْدَائِكَ يُدْرِكُكَ ، أَوْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ يَكُونُ فِيهَا سَيْفُ الرَّبِّ وَوَبَأٌ فِي الأَرْضِ ، وَمَلاَكُ الرَّبِّ يَعْثُو فِي كُلِّ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ . فَانْظُرِ الآنَ مَاذَا أَرُدُّ جَوَابًا لِمُرْسِلِي» .

فكان جواب الملك هكذا : «قَدْ ضَاقَ بِيَ الأَمْرُ جِدًّا . دَعْنِي أَسْقُطْ فِي يَدِ الرَّبِّ لأَنَّ

مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ ، وَلاَ أَسْقُطْ فِي يَدِ إِنْسَانٍ» .

فضربت الأرض بالوبأ الذي أهلك من إسرائيل سبعين ألفا . ولم يكن الوبأ قد وصل إلى أورشليم بعد : «وَرَفَعَ دَاوُدُ عَيْنَيْهِ فَرَأَى مَلاَكَ الرَّبِّ وَاقِفًا بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ بِيَدِهِ وَمَمْدُودٌ عَلَى أُورُشَلِيمَ . فَسَقَطَ دَاوُدُ وَالشُّيُوخُ عَلَى وُجُوهِهِمْ مُكْتَسِينَ بِالْمُسُوحِ» فتوسل الملك لأجل إسرائيل قائلا : «أَلَسْتُ أَنَا هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِإِحْصَاءِ الشَّعْبِ ؟ وَأَنَا هُوَ الَّذِي أَخْطَأَ وَأَسَاءَ ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ الْخِرَافُ فَمَاذَا عَمِلُوا ؟ فَأَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي لِتَكُنْ يَدُكَ عَلَيَّ وَعَلَى بَيْتِ أَبِي لاَ عَلَى شَعْبِكَ لِضَرْبِهِمْ» .

إن عمل ذلك الإحصاء أحدث سخطا بين الشعب ، ومع ذلك فقد كانوا يحبون نفس الخطايا التي دفعت داود إلى ذلك العمل . وكما أن الرب بسبب خطية أبشالوم افتقد داود بالقصاص ، فكذلك بسبب خطايا داود عاقب إسرائيل على خطاياهم .

إن الملاك المهلك وقف خارج أورشليم إذ نزل على جبل المريا «فِي بَيْدَرِ أُرْنَانَ الْيَبُوسِيِّ» فذهب داود بناء على إرشادات النبي إلى الجبل حيث بنى مذبحا للرب «وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ ، وَدَعَا الرَّبَّ فَأَجَابَهُ بِنَارٍ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ» (أخبار الأيام الأول ٢١ : ٢٦) «وَاسْتَجَابَ الرَّبُّ مِنْ أَجْلِ الأَرْضِ، فَكَفَّتِ الضَّرْبَةُ عَنْ إِسْرَائِيلَ» (٢صموئيل ٢٤ : ٢٥) .

إن البقعة التى بني عليها المذبح ، والتي منذ ذلك الوقت فصاعدا اعتبرت أرضا مقدسة ، هذه البقعة عرضها أرنان على الملك كهبة ، ولكن الملك أبى قبولها على أنها هبة قائلا : «لاَ ! بَلْ شِرَاءً أَشْتَرِيهِ بِفِضَّةٍ كَامِلَةٍ ، لأَنِّي لاَ آخُذُ مَا لَكَ لِلرَّبِّ فَأُصْعِدَ مُحْرَقَةً مَجَّانِيَّةً» . وَدَفَعَ دَاوُدُ لأُرْنَانَ عَنِ الْمَكَانِ ذَهَبًا وَزْنُهُ سِتُّ مِئَةِ شَاقِلٍ» إن هذا المكان الذي فيه بنى إبراهيم المذبح ، ليقدم عليه ابنه ذبيحة ، والذي تقدس الآن بهذا الخلاص العظيم كان هو البقعة التي اختيرت فيما بعد مكانا للهيكل الذي بناه سليمان .

ولكن كان لا بد من أن تتجمع سحابة قاتمة أخرى في سماء حياة داود في سنيه الأخيرة ، حيث بلغ السبعين من العمر آنئذ . فالصعوبات التي لاقاها ، وتعرضه الدائم للخطر في بكور حياته ، وحروبه الكثيرة ، والهموم والضيقات التي اكتنفته فيما بعد – كل هذه امتصت عصارة حياته . ومع أن عقله ظل محتفظا بصفاته وقوته فإن ضعفه وشيخوخته إذ هما يميلان

بالشخص إلى الاعتكاف ، قد حالا بينه وبين الإشراف على ما كان يجري في المملكة ، ومرة أخرى نشبت الثورة تحت ظل العرش ، كما ظهرت أيضا ثمار إفراط داود في حبه لأولاده . والذي كان يطمع في العرش في هذه المرة هو أدونيا الذي كان «جَمِيلُ الصُّورَةِ جِدًّا» في شخصه وفي هيئته ، ولكنه كان طائشا وعادم المبادئ . ففي شبابه لم يكن يخضع إلا لقليل من الردع ، إذ «لَمْ يُغْضِبْهُ أَبُوهُ قَطُّ ، قَائِلاً : «لِمَاذَا فَعَلْتَ هكَذَا ؟»» (انظر ١ملوك ١) وها هو الآن يتمرد على سلطان الله الذي كان قد انتخب سليمان ليجلس على العرش . إن سليمان بفضل مواهبه الطبيعية وتدينه كان أكثر لياقة من أخيه الأكبر لأن يكون ملكا على إسرائيل . ومع كون اختيار الله قد أشير إليه بكل وضوح فإن أدونيا لم يعدم أنصارا يؤيدونه . ويوآب ، مع أنه كان قد ارتكب جرائم كثيرة ، فقد كان قبل ذلك ثابتا على ولائه للجالس على العرش ، ولكنه الآن انضم إلى المتآمرين على سليمان مثلما فعل أيضا أبياثار الكاهن .

لقد نضج العصيان واكتمل ، حيث اجتمع المتآمرون حول وليمة عظيمة في مكان خارج المدينة لينادوا بأدونيا ملكا ، ولكنهم في ذلك الحين أوقفوا عند حدهم ، بواسطة عمل سريع حاسم ، قامت به جماعة قليلة على رأسهم صادوق الكاهن وناثان النبي وبثشبع أم سليمان ، الذين بسطوا المسألة على حقيقتها لدى الملك داود وذكروه باختيار الرب لسليمان ليجلس على العرش ، وفي الحال تنازل الملك عن العرش لسليمان الذي مسح في الحال ونودي به ملكا . فسحقت المؤامرة في مهدها ، وجلب متزعموها على أنفسهم الموت ، وقد أبقي على حياة أبياثار إكراما لوظيفته وولائه السابق لداود ، ولكنه عزل عن وظيفته كرئيس للكهنة وأعطيت وظيفته لصادوق ونسله ، كما أبقي على حياة يوآب وأدونيا إلى حين ، ولكن بعد موت داود نفذ فيهما حكم الموت جزاء لهما على جريمتهما . هذا ، وإن تنفيذ حكم الموت في ابن داود أكمل الحكم بالأربعة أضعاف الذي برهن على كراهية الله لخطية الأب .

كان من أحب الخطط إلى قلب داود منذ بدء سني حكمه أن يقيم هيكلا للرب . ولكن مع أنه لم يسمح له بتنفيذ غرضه هذا فإن غيرته واهتمامه لم يفترا من هذه الناحية . فلقد جمع كثيرا من المواد الثمينة – كالذهب والفضة وحجارة الجزع وغيرها من الأحجار المختلفة الألوان ، والرخام وأغلى أنواع الأخشاب . والآن فكل هذه الكنوز الغالية التي قد جمعها ينبغي له أن يسلمها لقوم آخرين ، لأن أيادي أخرى ينبغي أن تبني بيتا يوضع فيه

التابوت رمز حضور الله .

وإذ رأى الملك أن نهايته قد دنت استدعى رؤساء إسرائيل مع ممثلين من كل أنحاء المملكة ليتسلموا الميراث الموجود في عهدته . فرغب في أن يسلم إليهم وصية احتضـــاره ويحصـــل منهم على الموافقة وعلى المعونة في ذلك العمل العظيم الذي ينبغي إنجازه . ونظرا لضعـــف الملك الجسماني لم يكن من المتوقع أن يحضر عملية نقل المسؤولية تلك بنفسه . ولكن الوحـي الإلهي نزل عليه ، وبقوة وحماسة فوق ما كان منتظرا منه ، استطاع أن يخاطب شعبه لآخـر مرة . فأخبرهم بأنه كان يشتاق إلى بناء الهيكل ، إلا أن الرب قد أمر أن يضطلع ابنه سـليمان بهذا العمل ، كما أكد الله قائلا : «إِنَّ سُلَيْمَانَ ابْنَكَ هُوَ يَبْنِي بَيْتِي وَدِيَارِي ، لأَنِّي اخْتَرْتُـــهُ لِي ابْنًا ، وَأَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا ، وَأُثَبِّتُ مَمْلَكَتَهُ إِلَى الأَبَدِ إِذَا تَشَدَّدَ لِلْعَمَلِ حَسَـــبَ وَصَايَـــايَ وَأَحْكَامِي كَهذَا الْيَوْمِ» ثم قال داود : «وَالآنَ فِي أَعْيُنِ كُلِّ إِسْرَائِيلَ مَحْفَلِ الرَّبِّ ، وَفِـــي سَمَاعِ إِلهِنَا ، احْفَظُوا وَاطْلُبُوا جَمِيعَ وَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكُمْ لِكَـــيْ تَرِثُـــوا الأَرْضَ الْجَيِّـــدَةَ وَتُورِّثُوهَا لأَوْلاَدِكُمْ بَعْدَكُمْ إِلَى الأَبَدِ» (انظر أخبار الأيام الأول ٢٨ ،٢٩) .

لقد تعلم داود بالاختبار وعورة طريق من يبتعدون عن الله . وأحـــس بدينونـــة الشـــريعة الإلهية التي قد نقضها وتعداها ، فحصد ثمار المعصية ، وقد كانت نفسه متأثرة وكان يتـــوق لأن يرى قادة إسرائيل أمناء لله ، وأن يطيع ابنه سليمان شريعة الله ، معرضا عن كل الخطايا التي قد أضعفت سلطان أبيه ومررت حياته وجلبت العار على اسم الله . وقد عـــرف داود أن الأمر يتطلب اتضاع القلب والثقة الدائمة بالله والسهر المتواصل للثبات أمام التجـــارب التـــي تكتنف ابنه سليمان في مركزه السامي ، لأن أمثاله من الرجـــال المشـــهورين ذوي المكانـــة الرفيعة هم الهدف الخاص الذي يصوب إليه الشيطان سهامه . ثم إذ اتجه إلى ابنه الذي ســـبق أن اعترف هو بأنه سيكون خليفته على العرش قال له : «وَأَنْتَ يَا سُلَيْمَانُ ابْنِي ، اعْرِفْ إِلـــهَ أَبِيكَ وَاعْبُدْهُ بِقَلْبٍ كَامِلٍ وَنَفْسٍ رَاغِبَةٍ ، لأَنَّ الرَّبَّ يَفْحَصُ جَمِيعَ الْقُلُـــوبِ ، وَيَفْـــهَمُ كُـــلَّ تَصَوُّرَاتِ الأَفْكَارِ . فَإِذَا طَلَبْتَهُ يُوجَدُ مِنْكَ ، وَإِذَا تَرَكْتَهُ يَرْفُضُكَ إِلَى الأَبَدِ . اُنْظُرِ الآنَ لأَنَّ الرَّبَّ قَدِ اخْتَارَكَ لِتَبْنِيَ بَيْتًا لِلْمَقْدِسِ ، فَتَشَدَّدْ وَاعْمَلْ» .

ثم أعطى داود لسليمان تعليمات دقيقة لبناء الهيكل مع نماذج وأمثلة لكـــل جـــزء ، وكـــل التعليمات الخاصة بالخدمة ، كما قد أعلن له بوحي إلهي . كان سليمان لا يزال غضا ، وقـــد

تهيب مع تلك المسؤوليات الهائلة التي ستثقل عليه في بناء الهيكل وفي حكم شعب الله ، فقال داود لابنه : «تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ وَاعْمَلْ . لاَ تَخَفْ وَلاَ تَرْتَعِبْ ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ إِلهِي مَعَكَ . لاَ يَخْذُلُكَ وَلاَ يَتْرُكُكَ» .

وكذلك أوصى داود الشعب قائلا : «إِنَّ سُلَيْمَانَ ابْنِي الَّذِي وَحْدَهُ اخْتَارَهُ اللهُ ، إِنَّمَا هُوَ صَغِيرٌ وَغَضٌّ ، وَالْعَمَلُ عَظِيمٌ لأَنَّ الْهَيْكَلَ لَيْسَ لإِنْسَانٍ بَلْ لِلرَّبِّ الإِلهِ» ثم قال : «وَأَنَا بِكُلِّ قُوَّتِي هَيَّأْتُ لِبَيْتِ إِلهِيَ» . وجعل داود يعدد الأشياء التي جمعها ، وقال بعد ذلك : «لأَنِّي قَدْ سُرِرْتُ بِبَيْتِ إِلهِي ، لِي خَاصَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ قَدْ دَفَعْتُهَا لِبَيْتِ إِلهِي فَوْقَ جَمِيعِ مَا هَيَّأْتُهُ لِبَيْتِ الْقُدْسِ : ثَلاَثَةَ آلاَفِ وَزْنَةِ ذَهَبٍ مِنْ ذَهَبِ أُوفِيرَ ، وَسَبْعَةَ آلاَفِ وَزْنَةِ فِضَّةٍ مُصَفَّاةٍ ، لأَجْلِ تَغْشِيَةِ حِيطَانِ الْبُيُوتِ» . ثم سأل جمهور المجتمعين الذين قد أحضروا عطاياهم السخية ، قائلا : «فَمَنْ يَنْتَدِبُ الْيَوْمَ لِمِلْءِ يَدِهِ لِلرَّبِّ ؟»

وسرعان ما استجاب أولئك المجتمعون للنداء «فَانْتَدَبَ رُؤَسَاءُ الآبَاءِ وَرُؤَسَاءُ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ وَرُؤَسَاءُ الأُلُوفِ وَالْمِئَاتِ وَرُؤَسَاءُ أَشْغَالِ الْمَلِكِ ، وَأَعْطَوْا لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ خَمْسَةَ آلاَفِ وَزْنَةٍ وَعَشَرَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ مِنَ الذَّهَبِ ، وَعَشَرَةَ آلاَفِ وَزْنَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ وَزْنَةٍ مِنَ النُّحَاسِ ، وَمِئَةَ أَلْفِ وَزْنَةٍ مِنَ الْحَدِيدِ . وَمَنْ وُجِدَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ أَعْطَاهَا لِخَزِينَةِ بَيْتِ الرَّبِّ ... وَفَرِحَ الشَّعْبُ بِانْتِدَابِهِمْ ، لأَنَّهُمْ بِقَلْبٍ كَامِل انْتَدَبُوا لِلرَّبِّ . وَدَاوُدُ الْمَلِكُ أَيْضًا فَرِحَ فَرَحًا عَظِيمًا .

«وَبَارَكَ دَاوُدُ الرَّبَّ أَمَامَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ ، وَقَالَ دَاوُدُ : «مُبَارَكٌ أَنْتَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ أَبِينَا مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ . لَكَ يَا رَبُّ الْعَظَمَةُ وَالْجَبَرُوتُ وَالْجَلاَلُ وَالْبَهَاءُ وَالْمَجْدُ ، لأَنَّ لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . لَكَ يَا رَبُّ الْمُلْكُ ، وَقَدِ ارْتَفَعْتَ رَأْسًا عَلَى الْجَمِيعِ . وَالْغِنَى وَالْكَرَامَةُ مِنْ لَدُنْكَ ، وَأَنْتَ تَتَسَلَّطُ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَبِيَدِكَ الْقُوَّةُ وَالْجَبَرُوتُ ، وَبِيَدِكَ تَعْظِيمُ وَتَشْدِيدُ الْجَمِيعِ . وَالآنَ ، يَا إِلهَنَا نَحْمَدُكَ وَنُسَبِّحُ اسْمَكَ الْجَلِيلَ . وَلكِنْ مَنْ أَنَا ، وَمَنْ هُوَ شَعْبِي حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نَنْتَدِبَ هكَذَا ؟ لأَنَّ مِنْكَ الْجَمِيعَ وَمِنْ يَدِكَ أَعْطَيْنَاكَ . لأَنَّنَا نَحْنُ غُرَبَاءُ أَمَامَكَ ، وَنُزَلاَءُ مِثْلُ كُلِّ آبَائِنَا . أَيَّامُنَا كَالظِّلِّ عَلَى الأَرْضِ وَلَيْسَ رَجَاءٌ . أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهُنَا ، كُلُّ هذِهِ الثَّرْوَةِ الَّتِي هَيَّأْنَاهَا لِنَبْنِيَ لَكَ بَيْتًا لاسْمِ قُدْسِكَ ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ يَدِكَ ، وَلَكَ الْكُلُّ . وَقَدْ عَلِمْتُ يَا إِلهِي أَنَّكَ أَنْتَ تَمْتَحِنُ الْقُلُوبَ وَتُسَرُّ بِالاسْتِقَامَةِ .

751,752

«أَنَا بِاسْتِقَامَةِ قَلْبِي انْتَدَبْتُ بِكُلِّ هذِهِ ، وَالآنَ شَعْبُكَ الْمَوْجُودُ هُنَا رَأَيْتُهُ بِفَرَحٍ يَنْتَدِبُ لَكَ . يَا رَبُّ إِلهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ آبَائِنَا ، احْفَظْ هذِهِ إِلَى الأَبَدِ فِي تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قُلُوبِ شَعْبِكَ ، وَأَعِدَّ قُلُوبَهُمْ نَحْوَكَ . وَأَمَّا سُلَيْمَانُ ابْنِي فَأَعْطِهِ قَلْبًا كَامِلاً لِيَحْفَظَ وَصَايَاكَ ، شَهَادَاتِكَ وَفَرَائِضَكَ ، وَلِيَعْمَلَ الْجَمِيعَ ، وَلِيَبْنِيَ الْهَيْكَلَ الَّذِي هَيَّأْتُ لَهُ» . ثُمَّ قَالَ دَاوُدُ لِكُلِّ الْجَمَاعَةِ : «بَارِكُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ» . فَبَارَكَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ الرَّبَّ إِلهَ آبَائِهِمْ ، وَخَرُّوا وَسَجَدُوا» .

إن الملك بكل اهتمام قد جمع المواد الغنية لبناء الهيكل وتزيينه ، ثم كتب التسابيح المجيدة التي سيرن صداها في جوانب الهيكل في السنين التالية . وها قلبه الآن يمتلئ فرحا بالله عندما استجاب رؤساء الآباء ورؤساء إسرائيل بكل نبل لدعوته وقدموا أنفسهم للعمل المهم الذي أمامهم . وإذ قدموا خدماتهم كانوا يتوقون إلى عمل ما هو أكثر ، فزادوا من تقدماتهم وقدموا أموالهم الخاصة لتوضع في الخزانة . ثم أحس داود إحساسا عميقا بعدم استحقاقه وهو جمع المواد لبيت الله . وإن تعبير رؤساء المملكة واستجابتهم السريعة ، حيث أنهم بقلوب منتدبة كرسوا أموالهم للرب وكرسوا أنفسهم لخدمته هذا ملأ قلب داود فرحا . ولكن الله وحده هو الذي منح هذا الميل لشعبه ، فينبغي أن يتمجد هو لا الإنسان . إنه هو الذي منح الشعب غنى الأرض ، وروحه هو الذي جعلهم ينتدبون ليجلبوا ذخائرهم إلى الهيكل . لقد كان كل شيء من الرب ، فلولا أن محبته كانت ترف على قلوب الشعب لذهبت كل جهود الملك هباء وما كان الهيكل يبنى إطلاقا .

إن كل ما يتناوله الإنسان من غنى سخاء الله لم يزل ملكا لله . إن كل الأشياء الغالية والجميلة في الأرض الممنوحة من الله توضع بين أيدي الناس لاختبارهم- لامتحان عمق محبتهم له وتقديرهم لإحساناته . وسواء أكانت هذه الذخائر هى ذخائر الثروة أو الذكاء ، ينبغي أن توضع بكل رضى تقدمة عند قدمي يسوع . وعلى المعطي أن يقول حينئذ مع داود : «مِنْكَ الْجَمِيعَ وَمِنْ يَدِكَ أَعْطَيْنَاكَ»

وعندما أحس داود بالموت يدنو منه ، فإن العبء الذي أثقل قلبه كان لأجل سليمان ، ولأجل مملكة إسرائيل التي يتوقف نجاحها ومناعتها وازدهارها بالأكثر على ولاء الملك لله ، فقد «أَوْصَى سُلَيْمَانَ ابْنَهُ قَائِلاً : أَنَا ذَاهِبٌ فِي طَرِيقِ الأَرْضِ كُلِّهَا ، فَتَشَدَّدْ وَكُنْ

رَجُلاً . احْفَظْ شَعَائِرَ الرَّبِّ إِلهِكَ ، إِذْ تَسِيرُ فِي طُرُقِهِ ، وَتَحْفَظُ فَرَائِضَهُ ، وَصَايَاهُ وَأَحْكَامَهُ وَشَهَادَاتِهِ ... لِكَيْ تُفْلِحَ فِي كُلِّ مَا تَفْعَلُ وَحَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ . لِكَيْ يُقِيمَ الرَّبُّ كَلاَمَهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ عَنِّي قَائِلاً : إِذَا حَفِظَ بَنُوكَ طَرِيقَهُمْ وَسَلَكُوا أَمَامِي بِالأَمَانَةِ مِنْ كُلِّ قُلُوبِهِمْ وَكُلِّ أَنْفُسِهِمْ ، قَالَ لاَ يُعْدَمُ لَكَ رَجُلٌ عَنْ كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ» (١ملوك ٢ : ١-٤) .

إن آخر أقوال داود كان أغنية – أغنية ثقة ذات مبدأ سام جدا وإيمان خالد : «وَحْيُ دَاوُدَ بْنِ يَسَّى ، وَوَحْيُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ فِي الْعُلاَ ، مَسِيحِ إِلهِ يَعْقُوبَ ، وَمُرَنِّمِ إِسْرَائِيلَ الْحُلْوِ : رُوحُ الرَّبِّ تَكَلَّمَ ... إِذَا تَسَلَّطَ عَلَى النَّاسِ بَارٌّ يَتَسَلَّطُ بِخَوْفِ اللهِ ، وَكَنُورِ الصَّبَاحِ إِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ . كَعُشْبٍ مِنَ الأَرْضِ فِي صَبَاحٍ صَحْوٍ مُضِيءٍ غِبَّ الْمَطَرِ . أَلَيْسَ هكَذَا بَيْتِي عِنْدَ اللهِ ؟ لأَنَّهُ وَضَعَ لِي عَهْدًا أَبَدِيًّا مُتْقَنًا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَمَحْفُوظًا ، أَفَلاَ يُثْبِتُ كُلَّ خَلاَصِي وَكُلَّ مَسَرَّتِي ؟» (٢صموئيل ٢٣ : ١-٥) .

لئن كان سقوط داود عظيما فإن توبته كانت عميقة ومحبته ملتهبة وإيمانه قويا . لقد غفر له كثير ولذلك فقد أحب كثيرا (لوقا ٧ : ٤٨) .

إن مزامير داود تتناول سلسلة الاختبارات كلها ، فمن أعماق الشعور بالخطية وحكم الإنسان على نفسه ، إلى ذروة الإيمان والشركة السامية مع الله . إن تاريخ حياته يعلن أن الخطية لا تجلب غير العار والويل . ولكنه يعلن أيضا أن محبة الله يمكنها الوصول إلى أبعد الأعماق ، وأن الإيمان يرفع النفس التائبة إلى حيث تشارك أبناء الله في بنوّتهم . ومن بين كل التأكيدات التي تشتمل عليها كلمة الله ، نجد أن تاريخ حياة داود هو من أقوى الشهادات على أمانة الله وعدالته ورحمته القائمة على عهده .

الإنسان «يَبْرَحُ كَالظِّلِّ وَلاَ يَقِفُ» ، «وَأَمَّا كَلِمَةُ إِلهِنَا فَتَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ» ، «أَمَّا رَحْمَةُ الرَّبِّ فَإِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ عَلَى خَائِفِيهِ ، وَعَدْلُهُ عَلَى بَنِي الْبَنِينَ ، لِحَافِظِي عَهْدِهِ وَذَاكِرِي وَصَايَاهُ لِيَعْمَلُوهَا» (أيوب ١٤ : ٢؛ إشعياء ٤٠ : ٨؛ مزمور ١٠٣ : ١٧ ،١٨) .

«كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ اللهُ أَنَّهُ يَكُونُ إِلَى الأَبَدِ» (جامعة ٣ : ١٤) .

ما أمجد المواعيد المقدمة لداود وبيته ، تلك المواعيد التي تتجه إلى الأمام إلى الأجيال الدهرية والتي تتم بكمالها في المسيح . فلقد أعلن الرب «حَلَفْتُ لِدَاوُدَ عَبْدِي : ... الَّذِي تَثْبُتُ يَدِي مَعَهُ . أَيْضًا ذِرَاعِي تُشَدِّدُهُ ... أَمَّا أَمَانَتِي وَرَحْمَتِي فَمَعَهُ ، وَبِاسْمِي يَنْتَصِبُ قَرْنُهُ .

وَأَجْعَلُ عَلَى الْبَحْرِ يَدَهُ ، وَعَلَى الأَنْهَارِ يَمِينَهُ . هُوَ يَدْعُونِي : أَبِي أَنْتَ ، إِلهِي وَصَخْـــرَةُ خَلاَصِي . أَنَا أَيْضًا أَجْعَلُهُ بِكْرًا ، أَعْلَى مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ . إِلَى الدَّهْرِ أَحْفَظُ لَهُ رَحْمَتِي . وَعَهْدِي يُثَبَّتُ لَهُ» (مزمور٨٩: ٣-٢٨) «وَأَجْعَلُ إِلَى الأَبَدِ نَسْـــلَهُ ، وَكُرْسِـــيَّهُ مِثْـــلَ أَيَّـــامِ السَّمَاوَاتِ» (مزمور ٨٩ : ٢٩) «يَقْضِي لِمَسَاكِينِ الشَّعْبِ . يُخَلِّصُ بَنِي الْبَائِسِينَ ، وَيَسْـــحَقُ الظَّالِمَ . يَخْشَوْنَكَ مَا دَامَتِ الشَّمْسُ ، وَقُدَّامَ الْقَمَرِ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ ... يُشْـــرِقُ فِـــي أَيَّامِـــهِ الصِّدِّيقُ ، وَكَثْرَةُ السَّلاَمِ إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ الْقَمَرُ . وَيَمْلِكُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ ، وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ» . «يَكُونُ اسْمُهُ إِلَى الدَّهْرِ . قُدَّامَ الشَّمْسِ يَمْتَدُّ اسْـــمُهُ ، وَيَتَبَـــارَكُونَ بِهِ . كُلُّ أُمَمِ الأَرْضِ يُطَوِّبُونَهُ» (مزمور ٧٢ : ٤-٨، ١٧) .

«لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا ، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ ، وَيُدْعَى اسْـــمُهُ عَجِيبًـــا ، مُشِيرًا ، إِلهًا قَدِيرًا ، أَبًا أَبَدِيًّا ، رَئِيسَ السَّلاَمِ» ، «هذَا يَكُونُ عَظِيمًا ، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَـــى ، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَـــدِ ، وَلاَ يَكُـــونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ» (إشعياء ٩ : ٦؛ لوقا ١ : ٣٢، ٣٣) .

فهرس الآيات

تكوين

١: ٢٦،٢٧ .... ٢٤
١: ٣١ .... ٢٨
٢: ١–٣ .... ٢٨
٢: ٤ .... ٩١
٢: ٨ .... ٢٦
٢: ١٧ .... ٤١
٢: ١٨،٢٠ .... ٢٦
٢: ٢٤ .... ٢٦
٣ .... ٣٥
٣: ٤ .... ٧٤
٣: ٤،٥ .... ٦١٦
٣: ١٥ .... ٤٧
٣: ١٩ .... ٤٢٤
٤: ١–١٥ .... ٥٢
٤: ٦،٧ .... ٥٦
٤: ٩–١٢ .... ٥٧
٤: ١٦ .... ٤٣
٤: ٢٥،٢٦ .... ٦٠
٥: ٣ .... ٦٠
٦: ٢ .... ٦١
٦: ٥ .... ٥٨
٦: ٥،٧،١١ .... ٧١،٧٢
٦: ٧ .... ٧٢
٧: ١ .... ٩٦
٧: ١،٩ .... ٧٧
٧: ١١ .... ٨٣
٨: ١٣ .... ٨٤
٨: ٢١،٢٢ .... ٨٥
٩: ٢،٣ .... ٨٦
٩: ٦ .... ٤٥٨
٩: ١١–١٤ .... ٨٥
١١: ٥ .... ١٠٠
١١: ٨ .... ؟؟
١١: ٣١ .... ١٠٤
١٢: ١ .... ١٠٣
١٢: ٣ .... ١٠٢
١٢: ٥ .... ١٠٤
١٢: ٧ .... ١٠٥
١٢: ١٨،١٩ .... ١٠٧
١٣: ١–٩ .... ١٠٩
١٣: ١٠ .... ١٣١
١٣: ١٠–١٣ .... ١١٠
١٤: ١٧–٢٤ .... ١١٣
١٤: ١٩،٢٠ .... ١٣٢
١٤: ٢٠ .... ٤٦٩
١٥: ١–٥ .... ١١٣
١٥: ٧–١٨ .... ١١٤
١٥: ١٣،١٤ .... ٢٣٤
١٥: ١٦ .... ٣٨٥
١٥: ١٨ .... ٦٤٣
١٦: ٦–١٣ .... ١٢٢
١٦: ١٢ .... ١٤٨
١٧: ١ .... ٣٢٤
١٧: ١–١٦ .... ١١٤
١٧: ٧ .... ٣٢٤
١٧: ١٨–٢٠ .... ١٢٣
١٨: ١٧–٣٣ .... ١١٦
١٨: ١٩ .... ٥١٦
١٩ .... ١٣٣
١٩: ١٧ .... ١٤٠
٢١: ١٢ .... ١٢٧
٢٢: ٢ .... ١٢٥
٢٢: ٥–٨ .... ١٢٧
٢٢: ١١–١٨ .... ١٢٨
٢٢: ١٨ .... ٣٢٤
٢٤ .... ١٤٦
٢٥: ٣٢،٣٤ .... ١٥٣
٢٦: ٥ .... ١١٨،١٢٨،٣١٧،٣٢٤
٢٧: ٣،٤ .... ١٥٤
٢٧: ٣٣ .... ١٥٥
٢٨: ١٣–١٥ .... ١٥٨
٢٨: ١٦–٢٢ .... ١٥٩
٢٨: ٢٢ .... ١٥٩،٤٦٩
٢٩: ١ .... ١٦٠
٢٩: ٢٠ .... ١٦١
٣٠: ٢٥–٢٧،٣٠،٤٣ .... ١٦٤
٣١ .... ١٦٤
٣١: ١٥ .... ١٦١
٣١: ٣٨–٤٠ .... ١٦٢
٣٢ .... ١٦٨

تكوين

٣٢: ٢٨ .... ١٧٠
٣٣: ٤ .... ١٧٠

٣٣: ١٨-٢٠ .... ١٧٤
٣٤: ١٧٤
٣٥ .... ١٧٥
٣٥: ٥ .... ٤٤٣
٣٥: ٢٧ .... ١٧٦
٣٦: ٧ .... ١٧٧
٣٧: ١٧٩
٣٩: ١٨٤
٤٠ .... ١٨٧
٤١ .... ١٨٨
٤١: ٥٤-٥٦ .... ١٩٢
٤٢ إلى ٥٠ .... ١٩٢
٤٦: ٣٤ .... ٢٠٨
٤٨: ٧ .... ١٧٦
٤٩: ٥-٧ .... ١٧٥

خروج

١ .... ٢٠٧
٢: ١-١٠ .... ٢٠٧
٢: ١٤ .... ٢١٤
٢: ٢٣-٢٥ .... ٢١٧
٣ .... ٢١٧
٤: ١-٢٦ .... ٢١٧
٤: ١٤ .... ٢٧٩
٤: ٢١ .... ٢٣٠
٤: ٢٢،٢٣ .... ٢٣٦
٤: ٢٧-٣١ .... ٢٢٢
٥ إلى ١٠ .... ٢٢٢
١١: ٣-٨ .... ٢٣٦
٢١: ١-٢٨ .... ٢٣٧
١٢: ٥ .... ٣٠٧
١٢: ٢٧ .... ٢٤٠
١٢: ٢٩-٣٣ .... ٢٤٠
١٢: ٣٤-٣٩ .... ٢٤٢
١٢: ٤٠،٤١،٥١ .... ٢٤٣
١٢: ٤٦ .... ٢٣٨
١٣: ١٧-٢٢ .... ٢٤٣
١٤: ٥-٩ .... ٢٤٤
١٤: ١٠-٢٢ .... ٢٤٥
١٥: ١-١٦ .... ٢٤٧
١٥: ٢٥ .... ٢٥٠
١٥: ٢٦ .... ٢٥٠
١٦: ٣ .... ٢٥١
١٦: ٨-١٠،١٤،١٥،١٨،٣١
.... ٢٥٣،٢٥٤
١٦: ٢٣،٢٥،٢٦ .... ٢٥٤
١٦: ٣٥ .... ٢٥٥
١٧: ١٠-١٧ .... ٢٥٦
١٧: ١٤ .... ٢٥٨
١٧: ١٦ .... ٢٥٨
١٨: ١٣-٢٦ .... ٢٥٩
١٩ .... ٢٦١
١٩: ٥،٦ .... ٣٢٥
٢٠: ٢-١٧ .... ٢٦٣
٢٠: ٨-١١ .... ٩٠
٢٠: ١٠ .... ٤٦٩
٢٠: ١٩-٢١ .... ٢٦٨
٢١: ١٤ .... ٤٥٨
٢١: ١٧ .... ٣٦٠
٢٢: ٢٣،٢٤،٣١ .... ٢٦٩،٢٧٠
٢٣: ٩،٢٠-٢٢ .... ٢٦٩،٢٧٠
٢٣: ١٠،١١ .... ٤٧٥
٢٣: ١٤-١٦ .... ٤٨١
٢٣: ٢٠،٢١ .... ٣٧٠
٢٣: ٢٧-٣٣ .... ٤٨٧
٢٤ .... ٢٧٠
٢٤: ٧ .... ٣٢٥
٢٥: ٢ .... ٢٧٢،٢٩٩
٢٥: ٨ .... ٢٩٩
٢٥: ٣٠ .... ٣٠٨
٢٦: ١ .... ٣٠١
٢٨: ٢ .... ٣٠٥
٢٨: ٢٩ .... ٣٠٦
٢٩: ٤٣،٤٥ .... ٢٧٢
٣٠: ١٢-١٦ .... ٤٧٠
٣١: ١٣،١٤،١٧ .... ٢٧٢
٣٢ .... ٢٧٥
٣٢: ١٥،١٦ .... ٢٧٣
٣٢ .... ٢٨٣
٣٤ .... ٢٨٥
٣٤: ٦،٧ .... ٥٦٤
٣٤: ٧ .... ٤١٧
٣٤: ٢٤ .... ٤٨١
٣٥: ٢١،٢٢ .... ٣٠٠
٣٥: ٢٣-٢٨ .... ٣٠٠
٣٦: ٢٣-٢٨ .... ٣٠٠
٣٦: ٦ .... ٣٠٠
٣٩: ٤٣ .... ٣٠٣
٤٠: ٣٤ .... ٣٠٣

لاويين

١٠: ٣،٦،٧ .... ٣١٥

لاويين

١٠: ٩-١١ .... ٣١٦
١٠: ١٧ .... ٣٠٩

١٦: ١٦،١٩،٢١،٢٢ .. ٣٠٩،٣١٠
١٨: ٥ .... ٣٢٥
١٩: ٩،١٠ .... ٤٧٥
١٩: ١٨ .... ١١٣،٢٦٣،٣٢٧
١٩: ٣١ .... ٦٢٠
١٩: ٣٣،٣٤ .... ٤٤٩
٢٠: ٦ .... ٦١٦
٢٣: ٤٠،٤٢،٤٣ .... ٤٨٤
٢٤: ١٥،١٦ .... ٢٦١
٢٥: ٥،٢١،٢٢ .... ٤٧٥
٢٥: ٢٣ .... ٤٧٧
٢٥: ٣٥-٣٧ .... ٤٧٦
٢٦: ٤،١٧ .... ٤٧٩
٢٧: ٣٠،٣٢ .... ٤٦٩

عدد

٢: ٢،١٧ .... ٣٢٩
٣: ١٣ .... ٢٣٧
٤: ١٥ .... ٦٣٥
٧: ٩ .... ٦٣٥
٨: ١٦ .... ٢٣٨
١٠: ٣٣،٣٥،٣٦ .... ٣٢٩،٣٣٠
١١ .... ٣٣٣
١١: ٨ .... ٢٥٤
١١: ٣١ .... ٣٣٥
١٢ .... ٣٣٧
١٢: ١ .... ٣٣٧
١٢: ٣ .... ٢١٦
١٢: ٨ .... ٣٤٩
١٣: ١٧،٣٣ .... ٣٤٠
١٤ .... ٣٤٠
١٤: ٤١-٤٣ .... ٣٤٦
١٥: ١٥ .... ٤٤٩
١٥: ٣٥ .... ٣٦٢
١٦ .... ٣٥١
١٧ .... ٣٥٥
١٨: ١٥،١٦ .... ٢٣٨
١٨: ٢١ .... ٤٧٤
٢٠: ١ .... ٣٦٣
٢٠: ١-١٣ .... ٣٧٦
٢٠: ١٤-٢٠ .... ٤٧٣
٢٠: ٢٢-٢٩ .... ٣٧٥
٢٠: ٢٩ .... ٣٧٨
٢١: ٥ .... ٣٧٩
٢١: ٧-٩ .... ٣٨٠
٢٢ إلى ٢٤ .... ٣٨٩
٢٣: ٢١،٢٣ .... ٤٠٦
٢٤: ١٧ .... ٤٢١
٢٥ .... ٤٠٤
٢٥: ١-٣ .... ٦١٥
٢٦: ٦٤،٦٥ .... ٤٠٥
٢٧: ١٦-٢٣ .... ٤١١
٣١ .... ٤٠٥
٣٢: ٥٥ .... ٤٨٨
٣٥: ١١،١٢ .... ٤٥٧
٣٥: ٣٠،٣١،٣٣ .... ٤٥٨

تثنية

١: ١٥ .... ٣٢٨
١: ١٦،١٧ .... ٣٣٥
١: ٤١ .... ٣٤٥
١: ٤٥ .... ٣٤٧
٢ .... ٣٨٤
٢: ٣-٦ .... ٣٦٧
٢: ٤،٥ .... ٣٧٤
٢: ٧،١٤،١٥ .... ٣٥٩
٣: ١-١١ .... ٣٨٦
٣: ٢ .... ٣٨٧
٣: ٢٤-٢٧ .... ٤١١
٣: ٢٦ .... ٣٧٠
٤: ٥،٦ .... ٤١٣
٤: ٦ .... ٥٤٤
٤: ٧،٨،١٠،٢٠ .... ٤١٤
٤: ٢٣-٢٦ .... ٤١٤
٤: ٢٣-٢٦ .... ٤١٤
٤: ٣٢،٣٥ .... ٤١٢
٤: ٣٢-٣٥ .... ٤١٢
٦: ٤،٥ .... ٢٦٣،٣٢٧
٦: ٧-٩،٢٠-٢٥ .... ٤١٦
٦: ١٠-١٢ .... ٤١٤
٧: ٢ .... ٤٣٦
٧: ٧-٩ .... ٤١٣
٧: ٩ .... ٩٧
٨: ٢،٣،٥ .... ٣٦٠
٨: ٧،٨ .... ١٠٥
٨: ٧،٩ .... ٤١٤
٨: ١٥ .... ٣٧٩
٨: ١٨ .... ٤٦٩
٩: ١ .... ٤٣٣

تثنية

٩: ١٠ .... ٢٧٣
٩: ٢٠ .... ٢٨٠
١١: ١٠-١٢ .... ٤١٤
١١: ١٨-٢١ .... ٤٤٥
١١: ١٩ .... ٤٤٦

١١: ٢٢-٢٥ .... ٤٨٨
١٢: ٨-٢٨ .... ٥٧٠
١٤: ٢٣،٢٩ .... ٤٧٤
١٥: ٦،٩،١١ .... ٤٧٧
١٥: ١٣،١٤ .... ٤٧٦
١٦: ١١-١٤ .... ٤٧٤
١٨: ١٢ .... ٦٢٠
١٨: ١٥ .... ٤٢٥
٢٠: ٥،٨ .... ٤٩٢
٢٠: ١٦ .... ٤٣٦
٢٣: ٧،٨ .... ٣٢٩
٢٣: ١٥،١٦ .... ٤٧٦
٢٤: ١٤،١٥ .... ٤٧٦
٢٤: ١٩-٢٢ .... ٤٧٥
٢٥: ١٧-١٩ .... ٢٥٨
٢٥: ١٩ .... ٥٦٣
٢٦: ٥،٨-١١ .... ٤٧٠
٢٦: ١٢ .... ٤٧٤
٢٧: ٢٦ .... ٣٢٦
٢٨ .... ٤١٥
٢٩: ٢٩ .... ٩٢
٣٠: ١٩،٢٠ .... ٤١٦
٣١: ١٠-١٣ .... ٤٤٥
٣١: ٢٣ .... ٤١٨
٣٢: ٤ .... ٢٣
٣٢: ١٠ .... ٣٦٠
٣٢: ١١،١٢ .... ٤١٧
٣٢: ١٥ .... ٣٦٦
٣٢: ٤٩،٥٠ .... ٤١٨
٣٣: ٢،٣ .... ٢٦٢
٣٣: ١٣-١٦ .... ٤٢٠
٣٣: ٢٦-٢٩ .... ٤١٩
٣٤: ١ .... ٤١٩
٣٤: ٥،٦ .... ٤٢٣
٣٤: ١٠-١٢ .... ٤٢٣

يشوع

١ إلى ٤ .... ٤٢٨
٢: ١١ .... ٣٢٣
٤: ١٢،١٣ .... ٤٦٠
٥ : ٣،٩،١٠ .... ٤٣١
٥: ٩-١٢ .... ٤٣٢
٥: ١٣-١٥ .... ٤٣٤
٦،٧ .... ٤٣٤
٨: ٣٠-٣٥ .... ٤٤٣
٩،١٠ .... ٤٤٧
١٠: ٦ .... ٤٤٩
١٠: ٤٠-٤٣ .... ٤٥٢
١١ .... ٤٥٢
١٤: ٦-١٥ .... ٤٥٣
١٥: ١٤ .... ٤٥٥
١٧: ١٤-١٨ .... ٤٥٦
١٨: ١-١٠ .... ٤٥٦
١٩: ٤٩،٥٠ .... ٥٥٧
٢٢ .... ٤٦٠
٢٣،٢٤ .... ٤٦٤
٢٤: ٢ .... ١٠٢

قضاة

١: ٢٨ .... ٤٨٧
٢: ١٢ .... ٤٨٩
٦ إلى ٨ .... ٤٨٩
٦: ٥ .... ٤٨٩
٧: ١٢ .... ٤٩٣
٨: ١٨ .... ٤٩٠
١٠: ١٠-١٦ .... ٤٩٨
١٣ .... ٥٠١
١٤ إلى ١٦ .... ٥٠٣

صموئيل الأول

١ .... ٥١١
٢: ١-١١ .... ٥١١
٢: ١٢-٣٦ .... ٥١٧
٢: ١٧ .... ٥٤٨
٢: ٣٠ .... ٤٧٣
٣ إلى ٧ .... ٥٢٢
٨ إلى ١٢ .... ٥٤٣
٩: ٢ .... ٥٤٧
١٠: ٨ .... ٥٥٦
١٢: ١٣ .... ٥٧٢
١٣ .... ٥٥٧
١٣: ٥ .... ٥٥٦
١٣: ١٤ .... ٥٧٣
١٣: ٢٢ .... ٥٥٥
١٤ .... ٥٥٩
١٥ .... ٥٦٣
١٥: ١١،٢٩ .... ٥٦٥
١٦ .... ٥٧٤
١٦: ١٨ .... ٥٧٩
١٧ .... ٥٨٠

صموئيل الأول

١٧: ٣٤،٣٥ .... ٥٧٩
١٨ إلى ٢٢ .... ٥٨٤
٢٢: ٢٠-٢٣ .... ٥٩٥
٢٣ إلى ٢٧ .... ٥٩٥
٢٥: ٢٩-٣١ .... ٦٠١

٢٦: ١٥،١٦ .... ٦٢٩
٢٨،٣١ .... ٦٠٧
٢٨: ٦ .... ٦١٤
٢٩،٣٠ .... ٦٢٢
٣٠: ٨ .... ٦٢٤

صموئيل الثاني

١: ٢-١٦ .... ٦٢٥
١: ١٩-٢٧ .... ٦٢٧
٢ إلى ٤ .... ٦٢٨
٥: ١-٥ .... ٦٢٨
٥: ١٠ .... ٦٣٢
٥: ١٧-٢٥ .... ٦٣٤
٦ .... ٦٣٥
٧ .... ٦٣٩
٨: ١٥ .... ٦٤٦
٩ .... ٦٤٠
١٠ .... ٦٤١
١١،١٢ .... ٦٤٦
١١: ٢٧ .... ٦٥٠
١٢: ٥،٦ .... ٦٤٨
١٢: ١١،١٢ .... ٦٦٣
١٣ إلى ١٩ .... ٦٥٣

صموئيل الثاني

١٨: ٣،٤ .... ٦٦٦
٢٣: ١-٥ .... ٦٧٦
٢٣: ١٣-١٧ .... ٦٦٠
٢٤: ١٤،٢٥ .... ٦٧١

الملوك الأول

١ .... ٦٧٢
٢: ١-٤ .... ٦٧٦

الملوك الثاني

١٢: ٤،٥ .... ٤٧٠

أخبار الأيام الأول

٢: ٧ .... ٤٣٩
١٠: ١٣،١٤ .... ٦١٤
١٤: ١٦،١٧ .... ٦٣٤
١٩: ٦،٧،١٣ .... ٤٦٢
٢١ .... ٦٧٠
٢١: ٢٦ .... ٦٧١
٢٢: ٨-١٠ .... ٦٣٩
٢٨،٢٩ .... ٦٧٣

أخبار الأيام الثاني

٢٤: ٤-١٣ .... ٤٧٠

نحميا

٩: ٦ .... ٩٤
٩: ١٣ .... ٣١٩
٩: ١٩-٢١ .... ٣٦٠
١٠: ٣٢،٣٣ .... ٤٧٠

أيوب

٩: ٥ .... ٢٨٥
١١: ٧-٩ .... ٩٥
١٤: ٢ .... ٦٧٦
٢٨: ٢٨ .... ١٩٠
٣٧: ١٦ .... ٣٢
٣٨: ٧ .... ٢٨،٤٦
٣٨: ١١ .... ٧٤،٦٢٥
٣٨: ٢٢،٢٣ .... ٤٥١

مزامير

٢: ٤ .... ٦٦٣
٣: ١-٨ .... ٦٦٥
٨: ٦،٨ .... ٢٥
٩: ٥،٦ .... ٢٩٧
٩: ١٥ .... ٤٠٥
١١: ١-٥ .... ٥٩٦
١٥: ٤ .... ٤٤٨
١٧: ٥ .... ٤٠١
١٨: ٤٦-٥٠ .... ٦٤٣
١٩: ١ .... ٩٥
١٩: ١،٢ .... ٢٩
١٩: ١٤ .... ٣٦٦
٢٠: ٧ .... ٦٤٣
٢٣: ٢ .... ٣٦٦
٢٤: ٣ .... ٤٤٨
٢٤: ٧-١٠ .... ٦٣٧
٢٥: ٩ .... ٣٣٧
٢٥: ١٤ .... ٢٨٥،١١٦
٢٧: ٥ .... ٨٩
٣٢: ١-٤ .... ٦٥١
٣٢: ٥-٧ .... ٦٥٢
٣٢: ٦،٩ .... ٢٤
٣٣: ١٠،١١،١٣،١٤ .... ١٠١
٣٣: ١٦،١٧ .... ٦٤٣
٢٤: ٧ .... ٤٨١
٢٤: ١٢-١٤ .... ٥٣٩

مزامير

٣٦: ٨،٩ .... ٣٦٦
٣٧: ١١ .... ١٤٤
٣٧: ١٨،٢٦ .... ٩٧
٣٧: ٣٧ .... ٢٠٥
٤٠: ٨ .... ٣٢٦
٤٠: ١٧ .... ٣٠٦
٤٤: ٤،٧ .... ٦٤٣

٤٨: ١، ٢ ..... ٤٨٣
٤٨: ٢ ..... ٦٥٧
٥٠: ٣، ٤ ..... ٢٩٦
٥٠: ١٠ ..... ٤٦٩
٥٠: ٢٣ ..... ٢٤٨
٥٠: ١-١٤، ١٦، ١٧ ..... ٦٥١، ٦٥٢
٥١: ٧ ..... ٢٣٨
٥١: ١٠ ..... ٤٠٩
٥٦: ٣ ..... ٦٢٣
٦١: ٢ ..... ٣٦٦
٦٢: ٧ ..... ٣٦٦
٦٧: ٥ ..... ٢٤٨
٦٨: ٨ ..... ٢٩٦
٧١: ٣ ..... ٣٦٦
٧٢: ٤، ٨ ..... ٦٧٧
٧٣: ١٧ ..... ٦٧٧
٧٣: ٨ ..... ١٠١
٧٣: ٢٦ ..... ٣٦٦
٧٧: ١٧-٢٠ ..... ٢٤٦
٧٨: ١٥، ١٦ ..... ٢٥٧
٧٨: ١٨-٢١ ..... ٣٣٢
٧٨: ٢٤، ٢٥ ..... ٢٥٥
٧٨: ٣٢-٣٥، ٣٧-٣٩ ..... ٣٦٣
٧٨: ٥٢، ٥٨، ٦٠، ٦١ ..... ٤٨٩
٨١: ١١، ١٢ ..... ٣٩٢
٨٥: ١٠ ..... ٣٠٣
٨٩: ٣، ٢٩ ..... ٦٦٢
٨٩: ١٣-١٨ ..... ١٣
٨٩: ١٤ ..... ١٤
٨٩: ٣١-٣٣ ..... ٦٦٢
٩١: ١، ٤، ١٦ ..... ١٤١
٩١: ٩، ١٠، ١٤ ..... ٨٩
٩٢: ١٢ ..... ٣٩٨
٩٤: ١٤، ١٥، ٢١، ٢٣ ..... ٤٠٥
٩٤: ٢٢ ..... ٣٦٦
٩٦: ٦ ..... ١٤
٩٧: ٢ ..... ٢٣
١٠٣: ١٧، ١٨ ..... ٦٧٦
١٠٤: ٥ ..... ٢٤
١٠٤: ٢٠، ٢١، ٢٧، ٢٨ ..... ٩٤
١٠٥: ١٤، ١٥ ..... ١٠٨
١٠٥: ١٨ ..... ١٨٦
١٠٥: ٢١، ٢٢ ..... ١٨٩
١٠٥: ٣٩ ..... ٢٤٣
١٠٥: ٤١ ..... ٣٦٤
١٠٥: ٤٣-٤٥ ..... ٢٩١
١٠٦: ١٦ ..... ٢٧٩
١٠٦: ١٩، ٢٠ ..... ٢٧٦
١٠٦: ٢٨ ..... ٦١٥
١٠٦: ٣٣ ..... ٣٧١
١٠٦: ٣٤-٣٨، ٤٠ ..... ٤٨٨
١٠٦: ٣٧، ٣٨ ..... ٦١٧
١١١: ٧، ٨ ..... ٢٩٨
١١١: ٩ ..... ٢٦٤
١١٢: ٦ ..... ٤٢٧
١١٣: ٣ ..... ٢٩٨
١١٥: ١ ..... ٢٤٧
١١٥: ٨ ..... ٧١
١١٦: ١٢ ..... ١٥٩
١١٦: ١٨، ١٩ ..... ٤٨٣
١١٩: ٩، ١١ ..... ٤١٠
١١٩: ٨٩ ..... ٢٩٨
١١٩: ١٠٤، ١٧٢ ..... ٥٣٧
١٢١: ١، ٢ ..... ٤٨٢
٧: ٨، ٩ ..... ٦٦١
١٢١: ٢-٨ ..... ٥٩٩
١٢٢: ١-٦ ..... ٤٨٢
١٢٢: ٧ ..... ٤٨٣
١٢٥: ١، ٢ ..... ٤٨٢
١٣٢: ١٤ ..... ٦٥٨
١٣٣: ١ ..... ٥٩٢
١٤١: ٥ ..... ٦٠١
١٤٤: ٥، ٦ ..... ٨٨
١٤٤: ١٥ ..... ٩٨
١٤٥: ٩ ..... ٣٩٣
١٤٥: ١٧ ..... ١٩
١٤٥: ١٨ ..... ١٠٢
١٤٦: ٢ ..... ٢٤٨
١٤٦: ٤ ..... ٦١٦
١٤٧: ٨ ..... ٩٤
١٤٧: ١٦ ..... ٩٤
١٤٨: ٨ ..... ٤٥١

أمثال

١: ٢٤-٣١، ٣٣ ..... ٤٩٩
١: ٣٠-٣٢ ..... ٦٦٣

أمثال

٢: ١٨، ١٩ ..... ٤١٠
٣: ١٧ ..... ٥٣٩
٤: ٢٢ ..... ٥٣٩
٤: ٢٣ ..... ٤٠٩
٥: ٣، ٤، ٨، ١١ ..... ٤١٠
٧: ٢٦ ..... ٤٠٦
٨: ٢٢-٣٠ ..... ١٤

٩: ١٠ .... ٦٦٣،٥٨٦،٥٣٦
٩: ١٨ .... ٤١٠
١١: ٢٤ .... ٧٤٢
١٢: ١٠ .... ٣٩٣
١٢: ٢٢ .... ٤٤٨
١٤: ١٢ .... ٦٤٧،٥٧٠،٣١٥
١٥: ٢٧ .... ١٤٢
١٥: ٣٣ .... ٤٩٥
١٨: ٤ .... ٣٦٦
١٩: ٢٣ .... ٥٣٩
٢٣: ٤ .... ١٤٢
٢٣: ٧ .... ٤٠٩
٢٧: ٤ .... ٣٣٩
٢٨: ٩ .... ٥٢٥

جامعة

٣: ١٤ .... ٦٧٦
٨: ١١ .... ١٠١
٩: ٥،٦ .... ٦١٦
٩: ١٨ .... ٩٧

نشيد الأنشاد

٢: ١١-١٣ .... ٤٨٢

اشعياء

٢: ٢٠،٢١ .... ٢٩٧
٤: ٥،٦ .... ٢٤٤
٤: ٦ .... ١٦٣
٥: ٢٠-٢٤ .... ٣١٤
٨: ١٩ .... ٦١٥
٨: ١٩،٢٠ .... ٦١٨
٩: ٦ .... ٦٧٧
١٢: ١٣ .... ٣٦٤
١٣: ٧،٨،١١،١٣ .... ٢٩٦
١٣: ٩ .... ١٤١
١٤: ١٣،١٤ .... ١٦
٢٤: ٢٠ .... ٢٩٦
٢٦: ٤ .... ٣٦٦
٢٦: ٩،١٠ .... ٢٨٩
٢٦: ٢١ .... ٢٩٥
٢٧: ٥ .... ٦٥٢
٢٨: ٢١ .... ٥٦٤
٣٢: ٢ .... ٣٦٦
٣٥: ١،٢،٥-١٠ .... ٤٨٦
٣٥: ٦ .... ٣٦٦
٤٠: ٨ .... ٦٧٦
٤٠: ١٢ .... ٢٦٠
٤٠: ٢٦ .... ٩٤
٤١: ١٧ .... ٣٦٦
٤٤: ٣ .... ٣٦٦
٤٥: ١٨ .... ٤٨
٤٨: ٢١ .... ٣٦٤
٥١: ٧ .... ٢٩٥
٥١: ٧،١٢،٢٢ .... ٢٩٧
٥٣: ٤،٥ .... ٣٦٤
٥٤: ٩،١٠ .... ٨٦
٥٤: ١٠ .... ٢٩٨
٥٥: ١ .... ٣٦٦
٥٥: ٧ .... ٦٥٢
٥٨: ١٣ .... ٢٦٦
٦١: ١١ .... ٢٩٨
٦٣: ٩ .... ٣٦٠
٦٤: ١-٣ .... ٨٨

ارميا

٢: ٦ .... ٣٣١
٢: ١٣ .... ٣٦٦
٧: ١٢،١٤ .... ٤٥٧
١٠: ١٠-١٢،١٤-١٦ .... ٢٩٣
١٠: ١٣ .... ٩٥
١٣: ٢٠ .... ١٦٤
١٧: ٩ .... ٦١٩
١٧: ١٢ .... ١٤
٢٥: ٣٠ .... ٢٩٦
٢٩: ١١ .... ١٠٦
٣٠: ٥-٧ .... ١٧١
٣٠: ٦ .... ٢٩٦
٣١: ٣٣،٣٤ .... ٣٢٦
٥٠: ٢٥ .... ٤٥١

مراثي

٣: ٣٧ .... ٣١٤

حزقيال

١: ١١ .... ٣٠٢
١: ٢٨ .... ٨٦
١٦: ٤٩،٥٠ .... ١٣١

حزقيال

٢٠: ١١ .... ٣٢٥
٢٠: ١٣-٢٤ .... ٣٦٢
٢٨: ١٢-١٥ .... ١٤
٢٨: ١٧ .... ١٥
٣١: ٨ .... ٣٩٩
٣٣: ١١ .... ٥٦٤
٣٤: ١٦،٢٢،٢٨ .... ١٦٣

دانيال

٧: ١٠ .... ٣١١

٧: ١٨ .... ٢٩٨
٧: ٢٧ .... ١٤٤

هوشع

٤: ١٧ .... ٣٥٨
١٢: ٤ .... ١٦٩
١٣: ١١ .... ٥٤٤

يوئيل

٣: ١٦ .... ٢٩٧

عاموس

٣: ٣ .... ٦٥،١٤٨

عوبديا

١٦ .... ٤٨٥

ميخا

٤: ٨ .... ٤٨
٥: ٢ .... ١٢
٦: ٤ .... ٣٣٦

ناحوم

١: ٣ .... ٥٦٤
١: ٣-٦ .... ٨٨

حبقوق

٢: ٣ .... ١٤٤
٣: ١١-١٣ .... ٤٥٠

حجي

١ .... ٤٧١
٢: ٨ .... ٤٦٨
٢: ١٦-١٩ .... ٤٧١،٤٧٢

زكريا

٣: ٢ .... ١٤٢
٦: ١٣ .... ٤٤
١٣: ١ .... ٣٦٦
١٤: ٧ .... ٢٠٥

١٤: ٩ .... ٢٩٨

ملاخي

٣: ٢ .... ٢٩٥
٣: ٧ .... ١٣٩
٣: ٨ .... ٤٤١
٣: ١٠ .... ٤٧٣
٣: ١١ .... ٤٧١
٣: ١٨ .... ٢٩٧
٤: ١ .... ٢٩٧

متى

٤: ١٦ .... ٤٢٢
٥: ٨ .... ٦٧
٥: ٩ .... ٦٠١
٥: ١٤،١٦ .... ٣٢٣
٥: ١٧،١٨ .... ٣١٩
٥: ١٨ .... ٤١٧
٦: ٢٤ .... ١٤١،٤٤١
٧: ٢ .... ٥٦٢
٧: ٢١ .... ١٧٧
١٠: ٨ .... ٤٧٢
٧: ٢١ .... ١٧٧
١٠: ٨ .... ٤٧٢
١٠: ٢٦ .... ٦٤٨
١١: ٢٨،٢٩ .... ٢٥٣
١٢: ٣٢ .... ٢٥٨
١٥: ٩ .... ١٤٠
١٦: ٢٧ .... ٢٩٦
١٨: ١٦ .... ٤٥٨
٢٣: ٣٨ .... ٤٢١
٢٤: ٣٨،٣٩ .... ٨٠
٢٥: ٤١ .... ٤١٧

مرقس

١٤: ٣٨ .... ٦٢٠

لوقا

١: ٣٢،٣٣ .... ٦٧٧
٢: ١٤ .... ٤٦
٣: ٣٨ .... ٢٦
٧: ٤٨ .... ٦٧٦
١٠: ٢٧ .... ٢٦٣
١٢: ١٥ .... ٤٤١
١٢: ٢٠ .... ٦٠٢
١٢: ٤٨ .... ٤٧٢
١٦: ٢٩،٣١ .... ٣٢١
١٧: ٢٦،٣٠ .... ٨٣
١٧: ٢٨،٣٠ .... ١٤٠
١٨: ٧،٨ .... ١٧٣
١٨: ٨ .... ٨٢
٢١: ٢٠،٢١،٣٤-٣٦ .... ١٤٠
٢٣: ٣٤ .... ١١٧

يوحنا

١: ١،٢ .... ١٣
١: ١٤ .... ٢٣٨

يوحنا

١: ٥١ .... ١٥٨
٣: ١٤،١٥ .... ٣٨٢
٣: ١٥ .... ٤٢١
٣: ١٦ .... ٤٥
٣: ٢٠ .... ٥٦
٣: ٣٦ .... ١٧٧
٤: ١٤ .... ١٧٦،٣٦٥
٥: ١٧ .... ٩٤
٥: ٣٩ .... ٣٢١

٦: ٣٧ .... ٣٨٢
٧: ٤٨–٥١ .... ٢٥٦
٦: ٥٣،٥٤،٦٣ .... ٢٣٨
٧: ١٧ .... ٣٣٨
٧: ٣٧–٣٩ .... ٣٦٥
٨: ٢٩ .... ٣٢٦
٨: ٣٩ .... ٣٢٦
٨: ٤٤ .... ٢٩٤
٨: ٥٦ .... ١٢٩
١٠: ٥،١١–١٤ .... ١٦٣
١٢: ٣١،٣٢ .... ٥٠
١٥: ١٨ .... ٥٠٠
١٧: ٢٠ .... ٤٦٣
١٩: ٣٦ .... ٢٣٨

أعمال الرسل

٢: ١٩ .... ٨٨
٤: ١٢ .... ٥٥،٢٨٢
٦: ١٥ .... ٢٨٦
٧: ٥ .... ٢٨٦
٧: ٢٢ .... ٢١٢
٧: ٢٥ .... ٢١٤
٧: ٤٤ .... ٣١١
١٧: ٢٥ .... ٤٦٩
١٧: ٢٨ .... ٩٤
٢٠: ٢٨،٢٩ .... ١٦٤

رومية

١: ٢٠ .... ٩٥
١: ٢١،٢٨ .... ٦٢
٣: ٣١ .... ٣٢٦
٤: ٣ .... ١١٤
٤: ١١ .... ١١٥،١١٧
٥: ١ .... ٣٢٦
٦: ٢٣ .... ٢٩٧،٦٦٤
٧: ١٢ .... ٣١٩
٨: ١،٣٤ .... ٤٥٩
٨: ٣ .... ٢٨٧
٨: ٣،٤ .... ٣٢٦
٨: ١٨ .... ١٠٤
٨: ٣٢ .... ١٢٩
١٢: ١ .... ٣٠٧
١٢: ١٠ .... ١١٠
١٣: ١ .... ٦٤٦

كورنثوس الأولى

٢: ٩ .... ٥٤١
٣: ٩ .... ٥٣٦
٣: ١٧ .... ٣١٦،٤١٠
٤: ٥ .... ٣٣٩
٥: ٧ .... ٢٣٨
٥: ٧،٨ .... ٢٣٩
٦: ١٩،٢٠ .... ٣١٦
١٠: ١،٢ .... ٢٤٣
١٠: ٤ .... ٣٦٤
١٠: ١١،١٢ .... ٤٠٦
١٠: ٢٠ .... ٦١٦

كورنثوس الأولى

١٠: ٣١ .... ٣١٦
١١: ١ .... ٦٤٦
١٥: ٣٢ .... ١٥٦
١٥: ٥١،٥٢ .... ٦٩

كورنثوس الثانية

٤: ٤ .... ٤٨
٤: ١٧ .... ١٠٤،٤٢٢
٥: ١٩ .... ٤٥،٣٢٠
٥: ٢ .... ٥٢٠
٦: ١٤،١٧،١٨ .... ١٤٩
٦: ١٥،١٦ .... ٥٠٤
٦: ١٧ .... ٤٠٧
٨: ١٣–١٥ .... ٢٥٤
٩: ٦،٨ .... ٤٧٢
٩: ٧ .... ٤٧٣

غلاطية

٣: ٧ .... ١٢٨
٣: ٨ .... ١٢٩
٣: ٨،١٦ .... ٣٢٤
٣: ١٦ .... ١٤٣
٣: ٢٩ .... ١٤٤
٥: ٢١ .... ٤١٠
٦: ٧ .... ٢٣١
١: ١٤ .... ٤٨

أفسس

٣: ٢٠ .... ٤٩٦
٥: ٣ .... ٤٤١
٥: ٢٩ .... ٢٦
٦: ٢ .... ٢٦٧
٦: ١٢ .... ٦٤٤

فيلبي

٢: ٤ .... ١١٠
٤: ٨ .... ٤٠٩

كولوسي

١: ١٦ .... ١٤
٢: ١٤ .... ٣١٩

٣: ٣ ..... ٣٩٨
٣: ٥ ..... ٤٤٠

تسالونيكي الأولى

٤: ١٦–١٨ ..... ٦٩
٥: ٣ ..... ٨٣

تسالونيكي الثانية

١: ٧،٨ ..... ٢٩٦
٢: ٩ ..... ٦١٧

تيموثاوس الأولى

٤: ١ ..... ٦١٧
٥: ١٩ ..... ٣٣٩
٦: ٩ ..... ١٤٢

تيموثاوس الثانية

١: ٥ ..... ٥٣٤
٣: ١ ..... ٨٢
٣: ١٢ ..... ٥٤٧
٣: ١٥ ..... ٥٣٤

عبرانيين

١: ٣ ..... ٢٥
١: ٣،٨ ..... ١٤
١: ١٤ ..... ٤٦
٢: ٩ ..... ٤٦
٢: ١٠،١٨ ..... ٤٢٥
٢: ١٨ ..... ٤٥
٣: ٥،٦ ..... ٤٢٦
٣: ١٢ ..... ٢٥٣
٤: ٣ ..... ٩٤
٤: ١٣ ..... ٦٤٨
٦: ٦ ..... ٥٢١
٦: ١٨ ..... ٣٢٥،٤٥٩
٨: ٢ ..... ٣١١
٨: ٥ ..... ٣٠٦،٣١٠
٩: ١٩،٢٠ ..... ٢٧١
٩: ٢١،٢٣ ..... ٣١١
٩: ٢٣،٢٤ ..... ٣٢١،٣١١
٩: ٢٤ ..... ٣٢١
٩: ٢٨ ..... ٣٦٤
١٠: ٢٦،٢٧ ..... ٤٦٠
١١: ١،٨ ..... ١٠٣
١١: ٤ ..... ٥٤
١١: ٥،٦ ..... ٦٨
١١: ٧ ..... ٧٣
١١: ٩ ..... ١٠٣
١١: ٩،١٠،١٣،١٦ ..... ١٤٤
١١: ١٣،١٦ ..... ١٤٤
١١: ١٩ ..... ١٢٧
١١: ٢٣ ..... ٢١٠
١١: ٢٤–٢٦ ..... ٢١٣
١١: ٢٩ ..... ٢٤٨
١١: ٣٠ ..... ٤٣٧
١١: ٣٣،٣٤ ..... ٤٥٥
١٢: ١١ ..... ٢٠٦
١٢: ١٦،١٧ ..... ١٥٥
١٢: ٢١ ..... ٢٦٢
١٢: ٢٦ ..... ٢٩٦
١٣: ٢ ..... ١١٦
١٣: ٤ ..... ٢٦
١٣: ٨ ..... ٥٦٧

يعقوب

١: ٥ ..... ٢١٦
١: ٥،٧ ..... ٣٣٨
١: ١٧ ..... ٥٦٧،٣٢٧
٢: ١٧ ..... ١٢٩
٢: ١٧،٢٢ ..... ٥٥،١٢٨
٢: ٢١–٢٣ ..... ١٢٩
٢: ٢٣ ..... ١١٧
٣: ١٦ ..... ٣٣٩
٤: ٤ ..... ٤٠٧
٤: ١١ ..... ٣٣٩
٥: ١٦ ..... ٥٩٨

بطرس الأولى

١: ٤ ..... ١٤٤
١: ٥ ..... ٤٠٩
١: ٨ ..... ٢٩٧
١: ١٠،١١ ..... ٣٢١
١: ١٢ ..... ١٣٠
١: ١٣–١٥ ..... ٤٠٩
١: ١٩ ..... ٣٠٧
٢: ٩ ..... ٣١٦،٥٤٦
٣: ٨،٩ ..... ٤٦٣

بطرس الأولى

٥: ٢،٣ ..... ١٦٣
٥: ٤ ..... ١٦٤
٥: ٧ ..... ٢٥٣

بطرس الثانية

٢: ١،٢ ..... ٦١٧
٢: ١٠،١١ ..... ٣٣٩
٢: ١٥ ..... ٣٩٠
٢: ١٦ ..... ٣٩٣
٢: ١٩ ..... ٤٨
٣: ٣،٤ ..... ٨٢
٣: ٥–٧ ..... ٨٠

٣: ٨ .... ١٤٤
٣: ١٠ .... ٨٣

يوحنا الأولى

٢: ٤ .... ٥٥
٢: ١٥ .... ٤٠٧
٢: ٢٢،٢٣ .... ٦١٧
٣: ٢ .... ٤٥
٣: ١٢ .... ٥٦
٣: ١٣ .... ٥٠٠
٣: ١٥ .... ٢٦٧،٤٠٧
٥: ٣ .... ١٢٩
٥: ٤ .... ٤٥٥

يهوذا

٩ .... ٤٢٤
١١ .... ٦١
١٤،١٥ .... ٣٤٦

رؤيا

٢: ٤،٥ .... ١٣٩
٢: ٧ .... ٤٣
٢: ١٧ .... ٢٥٦
٤: ٢،٣ ....
٤: ٥ .... ٣١١
٥: ١١ .... ١٧
٥: ١٣ .... ٤٨٥
٦: ١٤ .... ٢٩٦
٦: ١٥–١٧ .... ٢٩٧
٨: ٣ .... ٣١١
١١: ١٩ .... ٣١١
١٢: ٩ .... ٣٨٢
١٢: ٩،١١ .... ٥٧
١٢: ١٠،١٢ .... ٦٢٠
١٣: ٨ .... ٤٤
١٤: ٣ .... ٦٨
١٤: ٨ .... ١٠١
١٥: ٢،٣ .... ٢٤٧
١٥: ٣ .... ٥٩
١٦: ١٧،٢١ .... ٤٥١
١٦: ١٨،٢٠،٢١ .... ٨٨
١٧: ١٨ .... ١٤١
١٨: ٢ .... ١٠١
١٨: ٤ .... ١٤١

الفهرس العام

أبرام– تغير اسمه فصار إبراهيم: ١١٥

إبراهيم–

دعوى إبراهيم:

١٠٢،١٠٣،٣١٧،٣٢٢،٤٦٥

الوعد لإبراهيم:

١٠٢،١١٠،١١٤،١١٨،١٢٣،١٢٨،١٤٣

،١٤٤،٢٠٠،٣٢٤،٤٦٥

اتمام الوعد بأنه سيرث الأرض: ٦٣٤

عهد الله معه تسمعه العوالم الأخرى:

١٣٠

صفاته: ١٠٢-١١،١١٥-١١٨،١٣٢

تأثيره: ١٠٥،١١٩،١٢٤،١٣٣،٣٢٢

إكرام الله له: ١١٥،١١٨

إكرام الأمم له: ١١٠،١١١،١٢٤،٣٢٢

الإنجيل يعطى له: ١٠٢،١٢٩،٣٢٠

بيت إبراهيم: ١١٨،١١٩

حيرته من جهة الوعد له بأنه سيعطي

ابنا: ١١٣

تفكيره من اتخاذ اليعازر ابنا له: ١١٤

تزوجه من هاجر: ١٢٢

عدم إيمانه : ١٠٧و١٢٢و١٢٤و١٤٨

الشيطان يتهمه أمام السماء: ١٣٠

الرب يأمره بأن يقدم ابنه محرقة:

١٢٤،١٢٥

تجربته أقسى من تجربة آدم: ١٣٠

إبراهيم خليل الله: ١٠٥،١١٧،١٢٨

البون بين حياة إبراهيم وحياة لوط: ١٤٢

إنقاذه لوط من العيلاميين: ١١٢

الإعلان له عن مصير سدوم: ١١٦

رؤيته الاضطهاد الذي كان سيحل بنسله

في مصر والمستقبل: ١١٤،٢٤٢،٢٤٣

دفعه للعشور: ١١٣،٤٩٦

رحلاته:

من أور إلى حاران إلى شكيم: ١٠٤

إلى بيت ايل: ١٠٥،١٠٩

إلى مصر: ١٠٦

إلى حبرون: ١١٠

إلى بئر سبع: ١٢٤،١٤٧

أبشالوم–

صفاته : ٦٥٥

قتله لأمنون وهربه: ٦٥٣

عودته إلى أورشليم: ٦٥٥

تمرده: ٦٥٣-٦٦٨

وقد قتله يوآب: ٦٦٨

حزن داود عليه: ٦٦٨

قبره عار أبدي له: ٦٦٨

أبناء الله- كيف يصير الناس أبناء الله: ٤٥،٤٧

أبنير-

أخلاقه: ٦٢٩،٦٣١

داود يوبخه: ٦٠٣،٦٢٩

أبنير يتوج ايشبوشث ملكا على إسرائيل: ٦٣٠

اهتاج على ايشبوشث وهرب إلى داود: ٦٣٠

وقد قتله يوآب: ٦٣٠

رثاء داود له ونواحه عليه: ٦٣٠

أبياثار-

هروبه إلى داود: ٥٩٥

يشير على داود: ٦٢٣،٦٢٤

انضمامه إلى المتآمرين على سليمان: ٦٧٢

طرده من الكهنوت: ٦٧٢

أبيب- أول شهور السنة اليهودية: ٤٨١

أبيجايل-

تقواها : ٦٠٢

توسطها لأجل نابال: ٦٠٠

داود يتزوجها: ٦٠٢

أبيرام-

(انظر ما ورد عن قورح)

أبيشاي-

يلتمس السماح له بقتل شمعي: ٦٦٠

كان قائدا في جيش داود: ٦٦٦

أبيمالك-

مبايعته ملكا على إسرائيل: ٤٩٨

قتله لأبناء جدعون الشرعيين: ٤٩٨

أبيناداب-

وضع التابوت في بيته: ٥٣٠

إخراج التابوت من بيته: ٦٣٤

أبيهو: (انظر ما جاء عن ناداب)

إتاي-

ولاؤه لله ولداود: ٦٥٧

كان رئيسا على حرس الملك داود: ٦٥٧

كان رئيس ألف في الجيش: ٦٦٦

وقد اهتدى من الوثنية إلى الدين اليهودي: ٦٥٧،٦٥٨

أجاج-

جريمته: ٥٦٨

شاول يمسكه حيا: ٥٦٥

وقد قطعه صموئيل: ٥٦٩

أجرة الخطية- ٤٢،٢٩٧

لابد من دفع الأجور فورا: ٤٧٦

الأحكام-

لماذا ترسل: ٨٨،٢٨٩،٤١١،٥٢٨

لماذا يتمهل الله في إيقاعها: ١٠٠

متى تنفذ: ١٣٩

وفي كل مرة ينذر الله الناس بالأحكام قبل وقوعها: ١٤٠

وكيف ترفع : ٦٤٩،٧٥
(انظر ما ورد عن التوبة)
الأحكام التي وقعت على الإسرائيليين–
ناداب وأبيهو: ٣١٣
الارتداد في سيناء حيث قتل ٣٠٠٠ نفس : ٢٨١
هزيمتهم في الحرب: ٢٤٦
اشتعال نار الرب فيهم: ٣٣٣
موت قورح وداثان وأبيرام: ٣٥٣
إصابة مريم بالبرص: ٣٤٩،٣٣٨
الدروس التي نتعلمها من كل هذا: ٤١٠
الوبأ أو الطاعون: ٦٧٠،٤٠٤
الوبأ الذي تفشى فيهم على أثر أكل اللحم: ٣٣٥
الوبأ الذي هلك بسببه ١٤ ألفا: ٣٥٥
الوبأ الذي مات بسببه الجواسيس العشرة: ٣٤٤
مهاجمة الحيات المحرقة لهم: ٣٨٠
احتراق الرؤساء: ٣٥٣
أخنوخ–
سلف النسل الموعود: ٦٤
سعة أفقه في المعرفة: ٦٥
الاعلانات الخاصة المعطاة له: ٧،٦٦،٦٥
تدبير الفداء يعلن له: ٦٥
كرازته لنسل قايين: ٦٦
أول إنسان دخل السماء: ٦٧
البحث عنه بعد انتقاله: ٦٨،٦٧
هو نموذج للأبرار في الأيام الأخيرة: ٦٩،٦٨
أخيتوفل–
جد بثشع: ٦٥٩
انضمامه إلى أبشالوم في تمرده: ٦٥٩–٦٥٦
مشورته النجسة: ٦٥٣
موته منتحرا: ٦٦٤
أخيش–
داود يحتمي عنده: ٦٠٤،٥٩١
دعوته داود لمحاربة إسرائيل: ٦٠٥
الفلسطينيون يضيقون الخناق عليه ضد داود: ٦٢١
إخراجه داود من الجيش: ٦٢٢
أخيمالك– كاهن من نوب: ٥٩٣،٥٩٠
آدم–
مظهره الجسماني: ٢٥
خلق على صورة الله: ٤٢،٢٤
وقد كان أبناؤه على صورته: ٦٠
كان في شركة مباحة مع الله: ١٥٨،٣١،٣٠
قواه العقلية: ٣٢،٣١
تاريخ البشرية معلن له: ٤٨
يعرف شريعة الله: ٣١٧

يفهم الإنجيل: ٣٢٠
أعطى له التسلط: ٤١،٣١،٢٥
أضاع سلطته بعصيانه: ٢٨٨،٤٩،٤١
سيسترجعها: ٤٦: ٥٠،٤٧
لم ينخدع بأكاذيب الحية: ٣٨
ألقى التبعة على امرأته: ٣٩
طلب ألا يقع القصاص على المسيح: ٤٧
كان امتحانا خفيفا: ٤٢،٤١
كان يواجه باللوم والتقريع على خطيته: ٦٢
امتلأ قلبه ندامة: ٦٢
علم نسله إلى الجيل التاسع: ٣١٧،٦٢
آدم وحواء–
صفاتهما: ٣٠
عملهما: ٢٨
كانا تلميذين يتلقيان التعليم من الخالق: ٦٣،٣١
إنذارا بمؤامرات الشيطان: ٣٤،٣٣
ألقيا اللوم على الله في سقوطهما: ٣٩
الحكم عليهما: ٤٠،٣٩
أعطيت لهما فترة امتحان: ٤٧
أدوم– بنو إسرائيل يدورون حول أرضه: ٣٧٣–٣٨٣
الأدوميون–
من نسل عيسو: ٣٧٤
كان محرما على بني إسرائيل أخذ جبل سعير: ٣٧٤
كان على بني إسرائيل أن يعاملوهم بالرحمة: ٣٧٤
شاول يحاربهم: ٥٦٣
أدونيا– تمرده: ٦٧٢
أدوني صادق–٤٤٩
أذرعي– اشتباك بني إسرائيل مع عوج في معركة فيها: ٣٨٧،٣٨٦
الإرادة–
حرية الإرادة: (انظر ما ورد عن حرية الإنسان الأدبية)
الخطر من اتباع إرادتنا الخاصة: ٦١٢،٥٥٨
إعلان إرادة الله: ٣٠٦،٣٠٢
الآراميون– يصيرون تحت الجزية لإسرائيل: ٦٤٢
الأردن–
ارتداد الإسرائيليين عند الأردن: ٤٠٣،٤٠٢
عبور نهر الأردن بأعجوبة: ٤٣٠،٤٢٩
جمال وادي الأردن: ١٣١،١١٠
الأرض–
جمال الأرض بعد خروجها من بين يدي صانعها: ٧٠،٢٤
الأرض قبل الطوفان: ٧٠
لقد غير الطوفان معالم وجه الأرض كلها:

٨٧،٨٦
وحلت عليهما اللعنات: ٨٧،٨٦،٧٠ لقد ظن أن هلاكها بالنار أمر مستحيل ٨٣،٨٢
سيتم قصد الله كاملا في الأرض الجديدة: ٢٩٨
أرض الموعد– امتداد أرض الموعد: ٤٢٨
أرنون– عبور إسرائيل نهر أرنون: ٣٨٦
أريحا–
وصفها: ٤٠٢
الشعب الجربي في حصن أريحا ارتعب عندما خلص الرب شعبه: ٣٢٣
أرسل يشوع شابين إلى هذه المدينة كجاسوسين: ٤٢٨
سقوط أريحا: ٤٣٣و٤٤٢
اللعنة التي حلت عليها: ٤٣٦،٤٣٥
الأسبوع–
بداية الأسبوع: ٩٠
الأسبوع الحرفي: ٩٠–٩٥
استفانونس– المجد يرى على وجهه: ٤٨٦
إسحاق–
ولادته: ١٢٣
عواطفه وطباعه: ١٤٥
إسحاق كذبيحة محرقة: ١٢٤–١٢٨
الفارق بينه وبين شبابنا اليوم: ١٤٩
زواجه: ١٤٥–١٥٠
فهمه للإنجيل: ٣٢٠
يعقوب يخدعه: ١٥٥،١٥٤
السنوات الأخيرة من حياته: ١٧٧،١٧٦
إسرائيل–
تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل: ١٧٠
شعب الله الذين هم إسرائيل الحقيقي: ٣٩٦
الإسرائيليون–
لماذا سمح لهم بالنزول إلى مصر: ٢٩٠
نجاحهم في مصر: ٢٨٩،٢١٠،٢٠٩
لماذا سمح الله بأن يصيروا عبيدا: ٣١٧،٢٢٥
إرغامهم على كسر السبت: ٢٩٣،٢٢٣،٢٢٢
حالتهم عندما كان موسى منفيا: ٢٨٩
فرعون يخشى ثورتهم: ٢٢٣،٢١٤،٢١٠
موسى يعرض عليهم آيات الله: ٢٢٢
لماذا لم يحررهم الله في الحال: ٢٢٥
كثيرون منهم رغبوا في الرحيل عن مصر: ٢٢٥،٢٢٤
خروجهم: ٢٤٢–٢٤٩
كانوا يسيرون على هدى عمود السحاب: ٤٢٧،٢٤٣
وقد عملت الأمم بنجاتهم: ٢٧٧
قصد الله من جهتهم: ٤٩٦،٣٩٦،٢٧٣،٢٥١،٢٥٠

نسيانهم: ٢٥٢،٢٥١
وككنيسة وأمة كانوا متحدين : ٢٦١
تنظيمهم: ٣٢٨
كانوا تحت التدريب في البرية: ٣٣٢
تذمراتهم:
٢٧٥،٢٧٤،٢٥٦،٢٥١،٢٥٠،٢٤٥،٢٤٤
٣٧٩،٣٦٥،٣٥٥،٣٤٥،٣٤١،٣٣١،
اعتمادهم على موسى لأجل الإيمان: ٢٧٤
كانوا شعبا خاصا:
٥٤٢،٣٩٦،٣٩٥،٣٢٢،٢٠٠
حفظهم في البرية:
٤٨٧،٣٨٠،٣٧٩،٣٦٠،٣٥٩،٢٥٠
عبادتهم للأوثان في سيناء: ٢٧٤-٢٨٧
موسى يتوسل لأجلهم: ٢٧٧-
٣٤٤،٣٤٣،٣٢٣،٢٨٣
الحكم عليهم بالتيهان في البرية أربعين
سنة: ٣٤٤
و من أساب ذلك: ٣٦٢
كيف جعل الإسرائيليون افتتاح كنعان أمرا
عسيرا: ٣٨٨،٣٨٧
اتهامهم الله بأنه علة مصائبهم:
٣٧٩،٣٤٢
الله يهددهم بحرمانهم من الميراث:
٣٤٤،٣٤٣،٧٧
لم يكونوا مخلصين في توبتهم :
٤٩٨،٣٦٣،٣٥٤،٣٤٤،٢٤٢
ارتدادهم عند نهر الأردن: ٤١٠،٤٠٢
كانوا مؤدبين ولكن غير متروكين: ٣٥٩،
لماذا لم يعد الكنعانيون يخشون بأسهم:
٣٤٧
يصخبون ويضجون في طلب بركات
البرية: ٣٣١
كيف أمكن إقناعهم بحاجتهم إلى مخلص:
٣٢٥
موسى يتلو عليهم تاريخهم مجددا: ٤١٢
امتحان إيمانهم قبل دخولهم إلى كنعان:
٣٦٧
تأثير خطية موسى عليهم: ٣٦٨
لم يكن بينهم ضعيف ولا عاثر: ٣٨٠
يقرضون أمما كثيرة: ٤٧٧
نشر الإنجيل بواسطتهم: ٤٢٢
مصاهرتهم للكنعانيين: ٤٨٨
ظالمو الإسرائيليين:
٥٠٠،٤٩٩،٤٨٩،٢٤٢
الله يرفض أن يخلصهم: ٤٩٩
رفضهم: ٤٣٠،٢٨٣
تشتيتهم من كنعان: ٦١٩
تحريرهم من عبادة الأوثان: ٦٣٩
عظمتهم في إبان حكم داود: ٦٣٤
حروبهم مع عماليق :
٥٦٣،٤٩٣،٤٠٥،٢٥٧
ومع بني عمون:

٥٠٠،٥٥٠،٥٥١،٥٦٤،٦٤٢
ومع الأموريين: ٣٨٤،٤٥٠
ومع بني عناق: ٤٥٥
ومع عراد: ٣٨٧
وفي عاي: ٤٣٧
ومع بني أدوم: ٥٦٤
وفي أريحا: ٤٣٣
ومع عوج: ٣٨٦،٣٨٧
ومع المؤابيين: ٥٦٤،٦٤١
ومع ملوك فلسطين: ٤٥٢
ومع الفلسطينيين:
٥٠٥،٥٠٨،٥٢٤،٥٥٥،٥٥٦،٥٦٥،٥٩٥
،٥٨٣،٦٠٧،٦١٢،٦٣٣،٦٤١
ومع الآراميين: ٦٤٢،٦٤٥
وبين داود وأبشالوم: ٦٦٦
رحلاتهم:
خرجوا من مصر: ٢٤٢
و أتوا إلى سكوت وايتام: ٢٤٣
و أتوا إلى بحر سوف(الأحمر): ٢٤٣
ثم جاءوا إلى مارة: ٢٥٠
ثم إلى ايليم في برية الخطية: ٢٥١
ومن هناك جاءوا إلى رفيديم: ٢٥٦
حتى وصلوا إلى جبل سيناء أو حوريب: ٢٦٠،٣٣٠
ثم أتوا إلى تبعيرة: ٣٣٣
ومنها إلى حضيروت: ٣٣٦
ثم جاءوا إلى قادش: ٣٤٠،٣٦٦
ثم كانوا في البرية: ٣٥٩-٣٦٣
ثم أقبلوا على أدوم: ٣٧٤
ثم وصلوا إلى جبل هورد: ٣٧٥
حتى أتوا إلى أرض المؤابيين والأموريين: ٣٨٤
وبعد هذا أتوا إلى باشان وأذرعي: ٣٨٦
حتى جاءوا إلى وادي شطيم: ٤٠٢
ثم عبروا نهر الأردن: ٤٢٨،٤٢٩
فكانوا في الجلجال: ٤٣١،٤٤٧
الأحكام عليهم:
الارتداد في سيناء ومقتل ٣٠٠٠: ٢٨١،٢٨٣
هزيمتهم في المعركة: ٣٤٧
نار الرب: ٣٣٣
قورح وداثان وأبيرام: ٣٥٢،٣٥٣
مريم تصاب بالبرص: ٣٣٨،٣٤٩
عاقبة عصيانهم المحترمة : ٤١٠،٤١٧
ناداب وأبيهو: ٣١٤
الوبأ أو الطاعون: ٤٠٤،٦٧٠
أكل اللحم والوبأ الناتج عنه: ٣٣٥
أربعة عشر ألفا يهلكون: ٣٥٥
إصابة الجواسيس العشرة بالوبأ: ٣٤٤
ضربة الحيات: ٣٧٩
هلاك المئتين وخمسين رئيسا بالنار: ٣٥٣

أسفار التذكرة–
في السماء: ١٧٣
سيدان الأموات مما هو مكتوب في الأسفار: ٣١٢
ملء الحساب فيها: ١٣٩
محو الخطايا منها: ٣١٢
اسماعيل–
وعد الله من نحوه: ١٢٣
نسله: ١٤٨
الإسماعيليون– يوسف يباع عبدا لهم: ١٨١
الأشجار– في عدن: ٢٨
أشقلون– شمشون يقتل ثلاثين من رجالها: ٥٠٥
الأعياد–
ثلاثة أعياد سنوية: ٢٧٠، ٤٨١–٤٨٦
منع الأعداء من الإغارة على بيوت المعيدين العزل من السلاح: ٤٨١
أفرايم–
بركته: ٢٠٣
الأرض التي قسمت لأفرايم ومنسى: ٤٥٥، ٤٥٦
بنو أفرايم ،يعوزهم الإيمان: ٤٥٦
لم يدعهم جدعون للحرب: ٤٩٦، ٤٩٧
الإلحاد–
من أسبابه: ٩٣
الإلحاد في الكنائيس: ١٤٠
أشد أشكاله خداعا: ٩٠
كيف نعد الصغار لمواجهته: ١٢٠
القانة– أبو صموئيل: ٥١٠
الآلهة الكاذبة–
قوتها المزعومة: ٢٢٤، ٢٢٦
أصابتها الضربات: ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٩٠
أطلق عليها صفات بشرية: ٧١
الله–
القوات الأرضية تحت سلطانه: ٦٢٥
سلطانه: ١٨، ٢٢، ٢٨٨، ٢٩١، ٣٦٠، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٥٨
العناصر تطيع صوته: ٢٣٢، ٢٤٦
رعايته تشمل الجميع: ٩٤، ٥٧٩
هو يصنع كل خير وصلاح: ٥٧٩
رحمته الصابرة: ٤٩٩
ندامة الله: ٦٢١
لا يحابي الوجوه: ٣٧٠
قداسته: ٣٢٥
عدله: ٤١٧
كيف تخاطب الله: ٢١٧–٢١٨
مجاهدة الله ليبذل ابنه: ٤٤–٤٥
كيف اتصل بالناس: ٣٥٨
أساء الشيطان تصوير: ١٨، ١٩، ٢٢، ٣٦، ٥٨، ٣٤١
قصد الله هو أن يتزكى أو يزكو: ٢٢، ٢٣
أنكر الناس الذين عاشوا قبل الطوفان

وجوده: ٧١
علم يوسف المصريين أن يوقروه: ١٩٠
هو ملك إسرائيل: ٥٤٤،٣٣٣،٢٦٣،٢٦٢،٢٦١

الياب–
لماذا لم يختر ملكا: ٥٧٥
حسده لداود: ٥٨٠
العازار– خليفة هارون: ٣٧٧

اليعازر–
إبراهيم يفكر في اتخاذه ابنا لنفسه: ١١٤
يختار زوجة لإسحاق: ١٤٦

امرأة لوط–
تأثيرها : ١٤٨
الحكم عليها: ١٣٦

الأملاك– كيف تباع وتفك: ٤٧٧

أمنون–
جريمته: ٦٥٣
لماذا سمح الله لأبشالوم بقتله: ٦٥٤

الأموريون–
أملاكهم : ٢٨٤
لماذا هلكوا: ٣٨٦،٣٧٦

الأنبياء:
أخنوخ: ٦٤
السبعون شيخا: ٣٣٤
مريم وهارون: ٣٣٦
موسى أعظم من الأنبياء: ٣٤٩
بلعام: ٣٩٠
صموئيل: ٥٢٩،٥٢٣،٥٢٢
شاول: ٥٧٩،٥٤٨
تكلم المسيح في الأنبياء: ٣٢٠
مدارس الأنبياء: ٥٤١،٥٣٣

الإنجيل–
أعطى للآباء: ٣٢٤،٣٢٠،١٢٩،٦٥
كيف يحكم عليه أهل العالم: ١١١
كيف تدبر نفقاته: ٤٧٢

إنذارات بالدينونة– ١٤٠،٧٢،٦٦

أنوش– ابن شيث: ٦٠

أهيه– إثارة المحرقة: ٣١٩،٢٢٦،٢١٨

أورشليم–
خربها: ٤٥٧،١٤٠
آلام الشعب فيها أثناء الحصار: ٤١٥
كانت شيلوه عبرة لأورشليم: ٤٥٧
انتقال العاصمة من حبرون إلى أورشليم: ٦٣٣
التابوت ينتقل إليها: ٦٣٦،٦٣٥،٦٣٤
احتلال أبشالوم لأورشليم: ٦٤٢
الملاك المهلك يرى مطارا فوقها: ٦٧٠
السائحون ينظرون إليها بخوف ورهبة: ٤٨٢

أيام الخلق– حرفية: ٩٠

إيخابود– ابن فينحاس: ٥٢٦

إيشبوشث–

صفاته: ٦٢٩

تتويجه ملكا على إسرائيل: ٦٣٠

قهرته الخيانة: ٦٣٠

اغتياله: ٦٣١

إيليا: البحث عنه عند صعوده إلى السماء: ٦٨

إيليم– حلول بني إسرائيل فيها: ٢٥١

الإيمان–

حسبانه برا: ٣٢٤،١٢٨

البرهان الكافي على صدقه: ٣٨٢،٣٨٠–٣٨٣

هو عطية الله: ٣٨١

كيف يظهر الإيمان الحقيقي: ٥٤

التلاميذ يتعلمون كيف يمارسونه: ٥٣٥

الفشل يعزى إلى عدم الإيمان: ٥٩١،٤٥٦

لزوم الإيمان في الأيام الأخيرة: ١٧٢

الإيمان الأسمى لا قوة فيه: ٥٢٥

علاقة الإيمان بالناموس: ٣٢٦

علاقة الإيمان بالأعمال: ٢٣٩،١٢٨

اختباره في وقت الضيق: ١٧٣،١٧٢

(انظر ما جاء عن هابيل وإبراهيم وجدعون)

أيوب– الدروس التي نتعلمها من بلايا أيوب: ١٠٦

بابل–

برج بابل: ١١٧–١٢٤

بابل– مكان للسكنى: ٩٨

أوثانها وأثاثتها: ٩٨

تشتت الناس بعد الشروع في بناء برجها: ٩٩

لماذا أحبطت مساعي بناة برجها: ٩٩–١٠٢

دعوة للخروج منها: ١٤١

وصف ينطبق على كنائس الأيام الأخيرة: ١٠١

باشان: الدرس الذي نتعلمه من افتتاح باشان: ٣٨٤–٣٨٨

الباكورات– ٤٨٣،٤٧٠

بالاق– ملك موآب: ٣٨٩

بالع– هي نفسها صوغر: ١٣٦

بتوئيل– أبو رفقة: ١٤٧

بثشبع– امرأة داود: ٦٤٧،٦٤٥

بحر سوف– بنو إسرائيل يعبرون فيه: ٢٤٥،٢٤٨–٢٤٩،٤٣٦

البخور–

يرمز إلى المسيح: ٣٠٨

الصلوات تصعد مع البخور: ٣٠٨

البرقع: موسى يضعه على وجهه،وكان رمزا: ٢٨٦

بعلزبول– ٣٥٨

بلعام–

نبي مرتد: ٣٩٠،٣٩٧،٤٠٠
استدعاؤه ليلعن إسرائيل: ٣٨٩
ولكنه كان تحت سيطرة الله: ٣٩٣،٣٩٦،٣٩٧
وقد انكشف له المستقبل: ٣٩٥،٣٩٩
نبوته: ٣٩٩
تدبيره الشيطاني: ٤٠٠،٤٠٣
كيف قتل: ٤٠٠،٤٠٥
مقارنة بينه وبين يهوذا: ٤٠٠
بنو رأوبين-
ميراثهم في عبر الأردن شرقا: ٤٦٠
إجابتهم الحكيمة عن الاتهامات الموجهة إليهم: ٤٦١،٤٦٢
بنو شيث-
أخنوخ يكرز لهم: ٦٦
مدى فسادهم: ٤٠٦
بنو عالي- ٥١٢،٥٢٥
بنو عمون-
من نسل لوط: ١٤١،١٤٢،٢٨٤
عدم السماح بطردهم من أملاكهم: ٢٨٤
وقد استعبد بنو إسرائيل لهم: ٤٩٨
ولكنهم بعد ذلك تحرروا من بني عمون: ٤٩٩
وقد حرر شاول الجبعونيين منهم: ٥٥٢
أساءوا تصوير كرم أخلاق داود: ٦٤١
صاروا عبيدا تحت الجزية لإسرائيل: ٦٤٢
(انظر ما جاء عن حروب بني إسرائيل)
بنو عناق-
الجواسيس يرونهم: ٣٤١
وقد طردهم كالب: ٤٥٥،٦٢٨
بنو مراري: كان قسم منهم يضطلعون بخدمات الخيمة: ٦٣٥
بنو يعقوب: **صفاتهم**: ١٧٨-١٧٩،١٨١،١٩٣،١٩٩،٢٠١
بنيامين-
ولادته: ١٧٦
بنيامين في مصر: ١٩٥-٢٠٠
بنياميني: شاول البنياميني: ٥٤٧،٥٤٨،٥٥٠، ٥٥١
بيت شان- ٦١٣
بيت إيل- ١٠٥،١٠٩،١٥٩،١٧٥
بيتشمس-
إعادة التابوت إليها: ٥٢٩
موت رجال بيتشمس إذ تطلعوا إلى ما في داخل التابوت: ٥٣٠
بيت لحم-
ولادة داود فيها: ٥٧٤
يسوع يولد فيها: ٥٧٤
الأبطال يستقون الماء منها ويحضرونه إلى داود: ٦٦٠
بئر سبع- سكن إبراهيم فيها: ١٢٤،١٤٧
بيت فغور- بنو إسرائيل يرتكبون الخطية

فيها: ٤٠٣، ٤٠٦، ٦١٥
البيوت المسيحية–
تأثيرها: ١١٨
الديانة حجة قوية في صالحها: ١١٨
تابوت الشهادة (العهد)–
وصفه: ٣٠٢
مركزه عند الارتحال: ٣٢٩
الملائكة يصحبونه دائما: ٥٢٩
ولم يكن يسمح لأحد غير الكهنة أن يمسه: ٦٣٥
وقد استولى عليه الفلسطينيون: ٥٢٢–٥٢٩
عدم توقيره في بيتشمس: ٥٣٠
كان نقله بركة روحية: ٦٣٨
وقد عبده بنو إسرائيل: ٤٩٥
متى لم يكن حاميا أو واقيا للشعب: ٥٢٤
وكان فيه لوحا الشريعة: ٣٠٢، ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٤٥
تاريخه ،في سيناء: ٣٠٣
عند نهر الأردن: ٤٢٩–٤٣٠
أمام أريحا: ٤٣٤
عيبال وجرزيم: ٤٤٤
في الجلجال: ٤٥٢، ٤٥٦
وفي شيلوه: ٤٥٦
وفي شكيم: ٤٦٦
وفي أشدود وجت وعقرون: ٥٢٧
وفي الخلاء: ٥٢٧، ٥٣٠
وفي بيتشمس: ٥٢٩
وفي قرية يعاريم: ٥٢٩، ٥٣١
شاول يأتي به إلى المحلة: ٥٥٩
وفي نوب: ٥٩٠، ٥٩٣
وفي أورشليم: ٦٣٤
وفي بيت عوبيد أدوم: ٦٣٥
يحمل إلى داود ولكنه يعاد ثانية: ٦٥٧
وفي السماء: ٣١١
تارح– أبو إبراهيم: ١٠٤
التبرير بالإيمان– فإذ قد تبررنا بالإيمان: ٣٢٦
التثنية– ٤٤٥، ٤٤٦
التجلي– موسى كان حاضرا هناك: ٤٢٥
تدبير الفداء–
لماذا ابتكر: ٤٩، ٢٩٨، ٥٣٦
وقد أعلنه الملائكة للناس: ٤٧
وأعلن للآباء: ١١٤، ١٥٨، ٢٨٦، ٣٢٠
وهو موضع دهشة الكون: ٥٠
بلوغه حد الكمال: ٢٩٨
التطور– عقيدة لا أساس لها في كتاب الله: ٢٤، ٢٥
التقدمات الطوعية– ٨٥
لأجل الخيمة: ٤٧٠
النكبات التي تحل بمن يضنون بها: ٤٧١
التقدمات–

لأجل خدمة الله: ٤٦٨-٤٧٣
تزييفها: ٩٩
كيف صارت باطلة: ٥٧١
التقدمات لأجل الخيمة تعطى اختيارا: ٢٩٩
سلب الله في التقدمات: ٤٤١
التقدمات تقدم بنسبة ما عندنا من نور: ٤٧١
تقدمة الترديد - ٤٨٣
تمنة سارح- خصصت ليشوع: ٤٥٧
تيس عزازيل-
الطقوس المرتبطة به: ٣٠٩
الشيطان هو تيس عزازيل: ٣١٢
تيطس- ٤١٥
تيموثاوس- تربيته وتهذيبه: ٥٣٤
تين كنعان- ٣٤٠،٣٦٧
الثمرة المنهى عنها- أثر الأكل منها: ٣٦،٣٧،٣٨
جاد- سبط جاد كان ميراثهم في عبر الأردن شرقا: ٤٦٠
جاسان-
يعقوب وأولاده يقيمون في جاسان: ٢٠١،٢٠٢
موسى وهارون يزوران جاسان: ٢٢٢
لم تصبها الضربات: ٢٢٩،٢٣٢
الجبعونيون-
التالف معهم: ٤٤٧-٤٥٠
صيرورتهم عبيدا لخدمة المقدس: ٤٤٨
أملاكهم: ٤٤٨
جبل الزيتون- داود يصعد عليه باكيا: ٦٥٩
جت- التابوب ينقل إليها: ٥٢٧
الجدب-
في كنعان: ١٠٥،١٩١٩
في أيام حجي النبي: ٤٧١
في مصر: ١٩١
جدعون-
صفاته: ٤٩٥،٤٩٧
معرفة إرادة الله عن طريق الجزة: ٤٩٢
تخليصه إسرائيل من كف مديان: ٤٩٠-٤٩٥
صيحة الحرب التي أطلقها جدعون: ٤٩٤
الثقة في جيش جدعون: ٤٩٣،٤٩٤
جدعون يرفض أن يكون ملكا: ٤٩٦
جرزيم- جبل جرزيم،البركات تتلى من فوقه: ٤٤٤
الجرشونيون أو بنو جرشون- قسم منهم كانوا يقومون بالخدمات الخاصة بالخيمة: ٦٣٥
الجزة- امتحان جدعون بها: ٤٩١
جلبوع- المعركة هناك: ٦١٢
الجلجال:
معنى الجلجال: ٤٣١

ذهاب يشوع إلى الجلجال: ٤٥١
فيه تثبت الملك لشاول: ٥٥٢
مكان شهير: ٥٥٢
شاول يستدعي الجيش إلى الجلجال: ٥٥٦
تصلف شاول الذي أظهر في الجلجال: ٥٥٥-٥٦٢
انتقال مقر الحكومة من هناك: ٤٥٦
جلعاد- الدروس المستفاد من افتتاح جلعاد: ٣٨٧
جليات-
٥٨٠-٥٨٣
سيف جليات يعطى لداود: ٥٩١
الجمعة- يوم استعداد : ٢٥٥
الجوع في مصر-
١٨٨-١٩٢
طول أمد الجوع: ١٩٢
يوسف يقوم باستعدادات هائلة لمواجهته: ١٩٢
حاران-
انتقال إبراهيم إليها: ١٠٤
الاهتداءات التي حدثت فيها: ١٠٤
وطن رفقة: ١٤٦
حاصور- حرقها: ٤٥٢
حام: جريمته غير الطبيعية: ٩٦
حانون- إهانته لرسل داود: ٦٤١
حبرون-
وصفها: ٦٢٨
انتقال إبراهيم إليها: ٤٥٣،١١٠
يعقوب يلتقي بأبيه فيها: ٤٥٣،١٧٦
راحيل تموت فيها: ١٧٦
وقد أعطيت نصيبا لكالب: ٤٥٣
وهي موطن بني عناق: ٤٥٥
وقد ذهب داود إليها: ٦٢٨
وفي حبرون بويع أبشالوم ملكا: ٦٥٦
حث- عيسو يتزوج من بنات حث: ١٥٣
حفني- ابن عالي: ٥١٨
الحكم-
حكم الآباء : ١١٨
حكم الآباء والرعاة: ٥١٩
الاستقلال بالحكم عن الله: ١٠٠
الفرق بين حكم الله وحكم الشيطان: ٢٩٢
كيف نضمن حكما ثابتا: ٤٧٧
حكم الله-
مداه : ٢١
سموه: ٥٤٤
أساسه: ٤٧،٣٠،١٤
جوهري لحماية كل الخلائق: ٢٣
محاولة لوسيفر أن يهدمه: ٣٥٦،٢٩٢،٥٨،٥٠،١٨،١٧،١٦
نسبة الشر إلى حكم الله: ٥٤٤
حكومة إسرائيل: حكومة إلهية: ٢٧١،٢٦١، ٥٤٢

نظامها: ٣٢٨
أساسها: ٢٧٠
سبعون شيخا يساعدون فيها: ٢٧١
كيف أصلحت المظالم فيها: ٤٧٨
حنة-
هي أم صموئيل: ٥١٠
صلاتها في طلب ولد: ٥١١
تكريسها صموئيل للخدمة في الهيكل: ٥١٢
مكافأتها: ٥١٣
حوباب- ٥٦٤
حوريب-
العليقة المحترقة بالنار فوق جبل حوريب: ٤٣٤،٢١٧
فيه ضربت الصخرة: ٢٥٧،٢٥٦
(انظر ما ورد عن سيناء)
حوشاي-
رجل أمين لداود: ٦٥٩،٦٦٤
أبشالوم يقبل مشورته: ٦٦٣
الحيات- مهاجمتها لإسرائيل في البرية: ٤٢٩
الحية-
جمالها قبل سقوط الإنسان: ٣٤
الشيطان يتخذها مطية ووسيلة: ٣٤
أكلها من شجرة المعرفة: ٣٧
وقوع اللعنة عليها: ٣٩
الحية النحاسية ترمز إلى المسيح: ٤٣٠
حيرام-
طلب أن يدخل في معاهدة مع داود: ٦٣٣
إرساله المواد اللازمة لبناء قصر لداود: ٦٣٣
الخاطئ-
محبة الله له: ٦٥٤،٢٨٢،١٥٧،١١٧،٥٦،٤٤،١٣
كيف يبكت الله الخاطئ على خطيته: ٣٥٨
يوجد رجاء للخاطئ التائب: ٦٤٦
بديل الخاطئ: ٣١٠،١٢٩،٤٥،٤٤
طول العمر ليس بركة للخاطئ : ٢٨٢
العطف الكاذب على الخاطئ: ٣١٥
الخبز-
خبز الفطير: ٢٣٩
يسوع خبز الحياة: ٢٥٦
الختان-
فريضة الختان: ٣١٧،١١٥
لزومه: ٣١٨
إهماله كان من أسباب عبودية بني إسرائيل في مصر: ٣١٧
لم يسمح به في البرية: ٣٥٩
إعادته: ٥٥٢،٤٣١
الخروج- خروج بني إسرائيل من مصر: ٢٤٢-٢٤٩
الخصم- الشيطان هو الخصم: ٢٠

الخطايا–
أفظع الخطايا: ٢٨٠
الإنسان مسئول عن الخطايا: ٥١٩،٣١٥
الجرم المرتبط بالخطايا: ٥٢٥
الخطايا في آخر الأيام: ١٣٩،٨٠
متى تمحى الخطايا: ٣١٢،١٧٢
الخطايا غير المعترف بها في وقت الضيق: ١٧٢
المفديون لا يستطيعون أن يذكروها: ١٧٢
الخطية–
ذبيحة الخطية: ٥٢١،٣٥٥،٣٥٤
أصلها: ١٦،الشيطان مبتدعها: ٣١٢
لماذا سمح ببقائها: ١٣–٢٣،٢٣،٢٩٢
عواقبها الوبيلة: ٤٢،٣٨،أجرتها: ٦٧٢،٤٦٥،٢٨٢،٢٨١
التعود عليها: ٤٥٩،٤٠٨
الخلاص منها– صنع لنا خلاصا: ٢٤٨
الدم لم يسترها(لم يمحها): ٣١٢
الخطية التي لا غفران لها: ٣٥٨،٢٨٢
الإصرار على الخطية: ٣٦١
قصاصها: ٢٣٠،ضربات الله: ٦٦١،٦٤٩،٤١٠
الخطية المرتكبة في الخفاء تظهر في النور: ٤٤٢
لاعذر لأحد عن خطيته: ٤٦٥،٦٦١،٣١٧،٣١٥
وعندما يهمل الملوك في معاقبتها فالله يتولى ذلك بنفسه: ٦٥٤
الخلود–
بالمسيح وحده: ٤٨
لن يخلد خاطئ واحد: ٤١
الخليقة–
بيان عنها: ٢٤–٣٢
انسجامها متوقف على الطاعة: ٣٤
فيها تعبير عن المحبة: ١٣
وفيها الكمال: ٥١٤
الغاية منها: ٤٧،غرض الله الأصلي من خلقه العالم: ٢٩٨
كيف تدعم وتقوم: ٩٤
النظريات العامية عنها: ٩٠و٩٢
لماذا تئن كل الخليقة: ٣٩٤
الخيام–
كمساكن: ١٨٣،١٤٩،١٠٥،٦١
كانت الخيام تستعمل في الأعياد في أورشليم: ٤٨٣
وكان البعض يحترفون صنع الخيام: ٥٣٤
الخيمة–
إرشادات لأجل إقامتها: ٣١٠ ،٣٠٣،٢٩٩،٢٧٢
حجمها: ٣٠١،٣٠٠
التقدمات لأجلها: ٤٧٢،٢٩٩

يجب أن تتوفر فيها الطهارة: ٣٢٩،٣٠٥
تدشينها: ٣٢٨،٣١٣
الخدمات فيها: ٣١٢،٣٠٦
كيف كانت نفقاتها تدبر: ٤٧٠
متى لم تقدم فيها ذبائح: ٥٤٨،٥١٨
النظام الذي كان متبعا عند الارتحال: ٣٣٠،٣٢٩
وقد أقيمت في شيلوه في كنعان: ٤٥٦
ثم نقلت إلى أورشليم: ٤٥٦
(انظر ما جاء عن القدس)

داثان– (انظر ما جاء عن قورح)

داجون–
إله الفلسطينيين: ٥٢٧،٥٠٧
سقوطه أمام تابوت الله: ٥٢٧
وقد علق رأس شاول في هيكل داجون: ٦١٣

دان– سبط دان: ٢٠٤

دانيال–٥٦٢،٩٢

داود–
نبوة حنة عنه: ٥١٢
ولادته في بيت لحم: ٥٧٤
تدريبه أو تربيته: ٥٧٩،٥٣٣
صفاته: ٥٨٥،٥٨٢،٥٧٦
كان يعرف الله: ٥٧٧
شركته مع الطبيعة: ٥٧٧،٥٧٦
تعلم دروس الاتكال على الله: ٥٧٩
مواهبه: ٦٤٩،٥٧٦
غناؤه: ٥٩٩،٥٩٥،٥٩٣،٥٧٦
داود وجليات: ٥٧٨–٥٨٣
اختياره خلفا لشاول: ٥٧٦،٥٧٤
قصد الله من نحوه: ٥٨٤
داود في بلاط شاول: ٥٨٧،٥٨٥،٥٨٤،٥٧٨
شاول يحاول قتله: ٥٨٧،٥٨٥
سبب بغض شاول له: ٥٨٦،٥٨٥
كان محبوبا من الشعب: ٥٨٦
داود يتزوج بميكال: ٥٨٧
و أبيجايل: ٦٠٢
داود ويوناثان: ٦٢٦،٥٩٥،٥٨٩،٥٨٤–٦٤٠،٦٢٧
داود المطارد : ٥٨٤–٦٢٧
حراسة الملائكة له: ٥٨٧
أفراد عائلته يطلبون الاحتماء عنده: ٥٩٢
كل الساخطين لجأوا إليه: ٥٩٢
شال يقع تحت رحمته: ٦٠٣،٦٠٢،٥٩٦
داود ينضم إلى جيش الفلسطينيين: ٦٢٢،٦٢١،٦٠٥
مخاتلاته وخداعه:٦٠٧،٦٠٤،٥٩١
إيمانه يخذله: ٦٠٤،٥٩١
داود يمسح ملكا على يهوذا: ٦٢٨
ثم ملكا على إسرائيل: ٦٣٢
يطلب مشورة الله لا مشورة إنسان: ٦٣٤

يأتي بالتابوت إلى أورشليم: ٦٣٧
يتوق لبناء الهيكل: ٦٧٢،٦٣٩
الملك يثبت له: ٦٤٠
ينتصر على الأمم المتحالفة ضده، ٦٤٢،٦٤١
تأثير الحروب فيه: ٦٦١
ولكنه في غمرة انتصاراته أصيب بالهزيمة: ٦٤٣
داود وتوبته: ٦٤٤-٦٥٢
تأثير خطيته في الأمة: ٦٤٧
ناثان يوبخه: ٦٤٧
وكان عليه أن يرد أربعة أضعاف: ٦٧٢،٦٥٣،٦٤٨
التغيير الذي حدث في قلب داود بعد ارتكابه للخطية: ٦٥٥،٦٤٩
تاريخ للخطية: ٦٥٥،٦٤٩
تاريخ خطيته عبرة وإنذار للجميع: ٦٥١،٦٤٩
فرح داود بعد حصوله على الغفران: ٦٥٢
كان رجلا حسب قلب الله: ٦٤٩
لماذا عوقب على خطيته: ٦٦٢
مقارنة بينه وبين شاول: ٦٥٢
نفور أبشالوم منه: ٦٥٤
تمرد أبشالوم عليه: ٦٥٥
هروبه من أورشليم: ٦٥٧
ثم إعادته إليها: ٦٦٩
أدونيا يتمرد عليه: ٦٧٢
يخطئ إذ يأمر بإحصاء الشعب: ٦٧٠
فيعطى له الحق في اختيار إحدى عقوبات ثلاث: ٦٧٠
تنازله عن العرش لسليمان: ٦٧٢
دروس نتعلمها من حياته: ٥٧٦،٦٦٩
نجاح إسرائيل في إبان حكمه: ٦٧٠
آخر خطاب ألقاه على الشعب: ٦٧٣
كان آخر ما قاله تسبيحة: ٦٧٦
دبورة وباراق: مخلصا إسرائيل: ٤٨٩
دبورة- مرضعة رفقة: ١٧٦
دليلة-
انخدع شمشون بتملقاتها: ٥٠٦
اكتشفت سر قوة شمشون: ٥٠٦
الدم-
على قوائم الأبواب: ٢٣٧
تحريم أكل الدم على بني إسرائيل: ٥٦١
الدم في خدمات الخيمة: ٣٠٩-٣١١
دلالة تقديم الدم: ٣١٠
بدون دم لا تحصل مغفرة: ٥٢
دم المسيح: ٣١٢
استحقاقات دمه: ٢٣٨
دمشق- ١٤٦
دواغ- ٥٩٣،٥٩٠
دوثان- ذهاب أخوة يوسف إليها: ١٨٠

الدينونة–
وصفها: ٢٩٦،٢٩٥
الاعتراف عند الدينونة: ٤٤٢
ما الذي سيدين الناس في يوم الدينونة: ٣٦
فيه يتخلى الله عن الأشرار: ٤٩٩
أما شعب الله فسيحفظون في ذلك اليوم: ٢٩٧

الذبائح–
غايتها: ٥١٧،٤٧
كانت تقدم عند باب عدن: ٦٣
ذبائح الصباح ومحرقات المساء: ٣٠٧
مقدموها يطلبون وجه الله قبل تقديمها: ٥٥٧،٣٠٨
لم يقدم بنو إسرائيل ذبائح في أرض مصر: ٢٩٠
الشيطان يلقي على الذبائح الهوان والاحتقار: ٩٩
لم يكن يسمح لأحد غير الكهنة بأن يقدموا الذبائح: ٤٩١
كيف أفسدت الذبائح وتنجست: ٥١٧
شاول يقدم ذبيحة: ٥٥٦
الذبائح أبطلت عند الصليب: ٣١٩
الذبائح البشرية: ٢٩٤،١٠٠،٩٩
نظام الذبائح سلم لآدم: ٤٧: ٣٢٤،٤٨
وهي تتركز في المسيح:٣١٩
ولكنها أفسدت وتنجست: ٣١٨

ذبائح السلامة– القصد منها: ٤٨٢

الذبائح–
لخدمة الله: ٤٦٩–٤٧٣
تزييفها: ٩٩
كيف صارت تافهة بلا قيمة: ٥٧١

راحاب–
تخبئتها للجاسوسين: ٤٢٨
نجاتها مع أهل بيتها في أريحا: ٤٣٦

راحيل–
يعقوب يلتقي بها عند البئر: ١٦٠
وقد أحبها أعمق حب: ١٦١
موت راحيل: ١٧٦

الرامة–
موطن صموئيل: ٥٨٨،٥٤٧،٥١٢
مدرسة الأنبياء في الرامة: ٥٣٥

رأوبين–
يخسر حقه في البكورية: ٢٠٣،١٧٦
بركة يعقوب على رأوبين: ٢٠٣

رفقة–
صارت زوجة لإسحاق: ١٤٧
صفاتها: ١٤٦
حيلتها وخدعتها: ١٥٤
ولم يرها يعقوب بعد ذلك: ٢٠٥

الروح القدس–
قوته: ٥٩١،٤٠٩

هو نائب الله أمام الناس: ٣٥٨
خطر مقاومته: ٢٣١
يضبط الناس: ٣٧٢
الخطية التي ترتكب ضده: ٣٥٨،٥٢١،٥٢٥،٥٧٢،٦٠٨
الطلبة يتعلمون كيفية فهمه: ٥٣٥
يسحب من الأرض: ١٧١
الزوفا- رمز التطهير: ٢٣٨
ساراي-
صار اسمها سارة: ١١٥
المثل الأعلى للزوجات: ١٢٤
احتقار هاجر لها: ١٢٣
حقوقها كزوجة: ١٢٤
المخاطر التي أحدقت بها في مصر: ١٠٧
ساليم- (انظر ما جاء عن أورشليم)
سام- بركته: ٩٦،٩٧
السبت-
متى وضع تشريعه: ٢٨،٢٩،٩٠،٢٥٤،٢٥٥،٢٦٤،٢٩٣
ذكرى الخلق: ٢٨،٢٦٤،٢٩٣
رمز الولاء: ٢٦٦
ختم الله: ٢٦٦
التزام السبت المقدس: ٢٧٠،٢٧٢
عداوة الشيطان له: ٩٢،٢٩٢
جوهري للإنسان: ٢٨
كيف نحفظه: ٢٥٤،٢٥٥،٢٦٤،٢٧٢،٣٦٢
أبوانا الأولان حفظاه: ٢٩،٦٠،٦١
حفظه أولاد آدم المخلصون: ٦٠،٢٩٣
لم يحفظه الإسرائيليون في مصر: ١٢١،١٢٢
الذين حاولوا حفظه اضطهدوا: ٢٢٢
هناك عقاب أكيد لمن يدنسه: ٣٦١،٣٦٢
مقارنة بينه وبين العشور: ٤٦٩
يرفضه الناس في الأيام الأخيرة: ٩٢،٢٩٢
سدوم-
خرابها: ١٣٨
لا أمان فيها للغرباء: ١٣٣
وصولها إلى أقصى حدود صبر الله ١٣٤،١٣٥
الدروس التي نتعلمها مما حدث لسدوم
السديم- (انظر ما ورد عن سدوم)
سفر الحياة-
موسى يطلب أن يمحى اسمه من سفر الحياة: ٢٨٣
الذين أسماؤهم مكتوبة فيه: ٢٨٣
سفط من البردي: موسى يوضع فيه: ٣١٠
سقوط الإنسان-
٣٤-٤٣
الحزن في السماء بسبب هذا السقوط: ٤٤
سكوت: حلول بني إسرائيل فيها: ٢٤٣

السلم السرية: السلم التي رآها يعقوب في حلمه: ١٥٨،١٥٧
سليمان– المناداة به ملكا: ٦٧٢
مؤامرة ضده: ٦٧٢
وقد اختير ليبني الهيكل: ٦٧٣،٦٣٩
وصية داود الوداعية له: ٦٧٩
السماء–
استتباب النظام فيها: ٢٢٠
التسبيح في السماء: ٢٤٨
الحزن فيها لدى سقوط الإنسان: ٤٤
فرح جند السماء عندما علموا بتدبير الفداء: ٤٦
وهي تنتظر لتتلقى أوامرنا: ٥٩٥
سنة اليوبيل– الغاية منها: ٤٧٧
السنة الخمسون– سنة العتق: ٤٧٧
السيادة–
أعطيت للإنسان: ٤١،٣١،٢٥،٢٤
أفسدها الشيطان: ٤٧
أعادها المسيح: ٤٨،٤٧
سيحون– ملك الأموريين: ٣٨٨،٣٨٥،٣٨٤
سيسرا– مضطهد إسرائيل: ٤٩٨
سيناء–
العليقة المشتعلة بالنار على جبل سيناء: ٢١٧
الرب ينطق بكلام الشريعة من جبل سيناء: ٣١٨،٢٩٦،٢٦٢
شاول–
حياته: ٥٤٢-٦٠١
مسحه: ٥٤٨
الأدلة على اهتدائه : ٥٥٢،٥٤٩
شاول بين الأنبياء: ٥٤٩ ، ٥٩٠
تحكم عادات الشباب في شاول: ٥٥٩
تصلفه: ٥٥٥-٥٧٢،٥٦٢
رفضه من أن يكون ملكا: ٥٦٣،٥٥٨-٣٧٨،٥٧٣
مطاردته لداود: ٦٠٦-٦٠٣،٦٠٢،٥٩٧،٥٨٩،٥٨٥
انقضاء فرصة امتحانه: ٦٠٩،٦٠٨،٦٠٧،٥٦٥
يأسه: ٦١٩،٥٨٥
زيارته لساحرة عين دورد: ٦٠٨
موته انتحارا: ٦١٠
داود يكتب مرثاة عن شاول: ٦٢٦
شجرة السنط– ٤٢٩،٤٠٢،٣٠١
الشريعة–
الإنسان خاضع لها: ٣٠
وهي جوهرية لأجل الحكم: ٣٠
شريعة الاعتماد المتبادل: ٤٧٨
شريعتان–
الفترة بينهما: ٣٢٤،٣١٨
المقصود بقوانين الطبيعة: ٩٣
نواميس موسى الطقسية: (انظر ما ورد

عن الأحكام)
شريعة الله-
قدسيتها: ٢٣،٤٤،٤٧،٦٠،٦٣٦
الجدال بشأنها: ٤٩،٥٠
ثباتها: ٦٠
المقارنة بينها وبين الشرائع البشرية: ٤١٣
دوامها: ٥٠
إكرامها في السماء: ٣٠٣
وقد نطق المسيح بها: ٢٦٢،٣٢٠
وهي معطاة لكل العالم: ٢٩٥،٢٦٢،٢٦٣
كيف سلمت إلينا: ٣١٧
وقد كتبت على القلوب: ٣٢٦
عداوة الشيطان لها: ٢٨٨-٢٩٨
التعاليم الكاذبة الخاصة بها: ١٧-١٨
لم يحدث فيها أي دليل بعد سقوط الإنسان: ٣١٧
لم تبطل ولا نسخت عند الصليب: ٥١،٣١٩
كيف توفي مطاليبها: ٤٥،٤٧،٤٨،٥١
عواقب رفضها: ٥٧
قصاص من يتعداها هو الموت: ٣٠٣
يجب أن تتأيد وتثبت: ٢٩٥
لماذا كررها موسى: ٤١٢
وقد اعترف موسى بقيمتها: ٤١٣
الله مقيد بشريعته: ٩٣
الشريعة والرحمة- العلاقة بينهما: ٣٠٣
الشريعة والعهدان- ٣١٧-٣٢٧
شطيم- وادي شطيم: ٤٠٢،٤٠٥،٤٢٩
شكيم- إبراهيم يقيم فيها: ١٠٤
خيانة شمعون ولاوي في شكيم: ١٧٤،١٨٠،٢٠٤
ذهاب أخوة يوسف إلى شكيم: ١٨٠
اجتماع الشعب في شكيم: ٤٤٣،٤٦٥
شكينا- ٣٠٢،٥٢٥
الشمس-
وقوفها ثابتة في مدارها امتثالا لأمر يشوع: ٤٥٠
تعبد المصريين لها: ٢٣٤
شمشون-
التعليمات المعطاة لأمه: ٥٠١
حياته: ٥٠١-٥٠٩
وقد أخفق بنو إسرائيل في معاضدته : ٥٠٥
شمعون-
المحرض والعامل الأكبر في إيذاء أخيه: ١٩٤
سجنه في مصر: ١٩٤
النبوة الواردة عنه: ٢٠٤
أملاكه في كنعان: ٢٠٤
قسوة شمعون ولاوي: ٢٠٤،١٨٠،١٧٤
شمعي- يلعن داود: ٦٥٩

شنعار– انتقال الأشرار إلى هناك: ٩٧
شيث– حياته: ٦٠–٦٢
الشيطان–
في السماء: (انظر ما جاء عن لوسيفر)
يدبر الخطط لهدم شريعة الله: ١٨،٢٢،٢٩٢
عصيانه: ٢٠،٢٢،٢٩٧،٤٢٤،٥٧١
اختبار الشيطان: ١٩–٢١
الخائن الأعظم: ٤٢٤
المشتكي: ٢٢،١٣٠،١٧١،٦١٩
أعماله الخادعة: ١٨،٢٢،٢٩٥،٥٧١،٦٤٥
أشراك الشيطان: ١٨،٢١،٣٤،٢٩٥، ٥٧١،٦٤٧
فرح الشيطان: ٣٨،٤٧
يزيف عمل المسيح: ٢٢٧
إرغامه على البقاء في الطوفان: ٧٧
مقدرته على أن يتدبر أموره بدقة: ٦١٨
محاجته عن جسد موسى: ٤٢٤
هو تيس عزازيل: ٣١٢
هلاكه: ٤٦،٤٢٤
شيلوه– وجود الخيمة في شيلوه: ٤٥٧،٥١٢
صادوق– أمانته لداود: ٦٧٢
الصخرة– الصخرة المضروبة: ٣٦٤–٣٧٢
الصدرة– وصفها: ٣٠٥
الصراع:
بين المسيح والشيطان: ١٧،٥٠،٥١،٥٦،٥٨،١١٣٠
(انظر ما ورد عن العداوة ولوسيفر)
صرعة– مسقط رأس شمشون : ٥٠١، ٥٠٣،٥٠٤
صفورة–
صفاتها: ٣٣٧
طبعها ومزاجها: ٣٣٧
زوجها: ٢١٥،٣٣٧
لماذا لم تذهب مع موسى إلى مصر: ٣٣٨
صفورة وأولادها يجتمعون بموسى في سيناء: ٢٥٩
صقلغ–
أعطيت لداود: ٦٠٥
إحراقها: ٦٢٣
رد سبيها: ٦٢٤
الصلاة–
يمكن تعلمها في مدارس مقدسة: ٥٣٥
وهي نسمة النفس: ٦٥
متى نكون في أشد الحاجة إليها: ٦٦،٤٠٩
قوة الصلاة اللجوجة: ١٧٣
إهمالها: ١٢٠،٤٠٨
لماذا تتأخر الإجابة: ١٧٢
متى تكون الصلاة رجسا: ٥٢٥

الصلوات- ينبغي أن تقـــدم إلـــى المســـيح: ٣٦٤،٣٠٨
صموئيل-
ولادته: ٥١١
تأثيره: ٥٩٨
مأموريته كنبي: ٥٢٢
اعتراف الأمة كلها به: ٥٣٠
لماذا سلمت له الرسالة عن عالي: ٥٢٢
صيرورته قاضيا لإسرائيل: ٥٣١
نجاح إسرائيل في إبان حكمه: ٥٤٣
الشعب يزكي سياسته وتصرفه: ٥٩٨،٥٥٢
كان رئيس لمدارس الأنبياء المقدسة: ٥٩٨،٥٣٤
أبناؤه-٥٤٣
خطابه عند تتويج شاول: ٥٥٢-٥٥٣
حدوث عجيبة عند كلامه: ٥٥٣
حزنه بسبب رفض الرب لشاول: ٥٦٥
يمسح داود في سرية تامة: ٥٧٦
موته: ٥٩٧
الشيطان يتقمص شخصيته: ٦١٤،٦٠٩
صوغر-
الإبقاء عليها إكراما للوط: ١٣٦
إحراقها: ١٤١
ضربات مصر- ٢٢١-٢٤١
وقد أحس الكهنة بشدة وطأتها: ٢٣٠
تعليلها بأسباب طبيعية: ٢٤٤،٢٢٧
رحمة الله للمصريين التي أظهرت تحت الضربات: ٢٩٠
شهرة ضربات مصر: ٣٢٣
ضربة البعوض- ٢٢٩
ضربة الضفادع- ٢٢٨
لماذا سمح الله بموتها: ٢٢٨
ضربة موت المواشي- ٢٢٩
الضمير-
خطر إسكات الضمير المذنب: ٢٣١
كيف يتقسى: ٦٤٧،٤٠٨،٣١٦
الطوفان-
بيان عنه: ٧٠-٨٣
أسبابه: ٣١٧،٧٧،٧٢
عد من المستحيلات ٨٣
وقد تبررت حكمة الله في الطوفان: ٥٨
تاريخ الطوفان يوضح الظواهر الجيولوجية: ٩١
ارتداد الناس بعد الطوفان: ٢٨٩،٩٨،٩٧
عار- أعطيت لبني لوط: ٣٨٤
عالي-
توبيخه لحنة: ٥١١
تقديم صموئيل إليه: ٥١٢
صداقة عالي لصموئيل: ٥١٤،٥١٣
كان كاهنا وقاضيا: ٥١٦
تأثير عالي في إسرائيل :

٥٢٣،٥٢٠،٥١٦

وقد وبخه أحد الأنبياء: ٥١٨

وكان صموئيل توبيخا لعالي: ٥٢٢

أعطيت له فرصة التوبة: ٥٢٣

مسئوليته: ٥٢٣،٥١٩

علمت الأمة كلها بالتوبيخات الموجهة إليه: ٥٢٣

موته: ٥٢٦

عاي–

إرسال الجواسيس إليها: ٤٣٨

مهاجمتها دون استشارة الله: ٤٣٨

أخذها بمعونة الله: ٥٥٢،٤٤٣

عبادة الشياطين– ٦١٩،٦١٧،٦١٥

عبادة الأوثان–

أثارها التي تحط من قدر الإنسان: ٢٣٠،١٨٤،٧١

القسوة التي تجلت فيها: ٢٩٤

التحذير منها: ٤٨٧،٣٢٣

قصاصها: ٢٨٢

نتيجة لكسر وصية السبت: ٢٩٣

عبادة الأوثان في عائلة اسماعيل: ١٤٨

وثنية زوجات عيسو: ١٥٣

الوثنية في عائلة يعقوب: ٤٤٣،١٧٥

وقد تعلم موسى خطية عبادة الأوثان: ٢١٣

وثنية بني إسرائيل: ٥١٨،٢٢٥،٢٢٤

شفاء بني إسرائيل من عبادة الأوثان: ٦٣٩،٦٣٨،٤٣٣

الوثنية بين اللفيف: ٣٦١

وثنية الأموريين علة هلاكهم: ٣٨٥

تعهد الجبعونيون بأن ينبذوها: ٤٤٨

التعاليم الحديثة هي نظير التعاليم الوثنية: ١٢٠

العبرانيون–

حراس وحفاظ على شريعة الله: ٢٦٣

شعب خاص ممتاز: ٤٠٧،٣٩٦

جدار فاصل بين العبرانيين والعالم الخاري: ٣٢٢

تغيرت صفاتهم الشاذة: ٥٤٢

(انظر ما ورد عن الإسرائيليين)

عثنيئيل– مخلص: ٤٨٩

عخان–

خطيته: ٤٣٩–٥٥٢،٤٤٢

الاعتراف يغتصب منه: ٤٤٢

الدروس التي نتعلمها من تاريخه: ٤٤١

عخور– وادي عخور: ٤٣٩

عدلام– مسارة عدلام: ٦٦٠،٥٩٢

عدن–

وصفها: ٣٠،٢٨،٢٧

آدم وحواء يطردان منها: ٣١

لم تمسها اللعنة: ٤٣

كان الناس يعبدون الله عند بابها: ٦٣،٤٣

أخذت من الأرض ولكنها تعاد إليها ثانية: ٤٣

عراد– الحرب مع عراد: ٣٧٨

عزة–

طياشته ورعونته: ٦٣٥

الدرس الذي نتعلمه من موت عزة: ٦٣٦،٦٣٥

عسائيل– قتله أبنير: ٦٣٠

عشتاروث–

كان مركز عبادتها في أريحا: ٤٣٣

وضع سلاح شاول في بيت عشتاروث: عبدها بنو إسرائيل: ٥٢٨

العشر–

العشر الثاني– فائدته: ٤٧٤

مقارنة بينه وبين السبت: ٤٦٩

العشور–

العشور والتقدمات: ٤٧٣،٤٦٩

سلب الله في العشور: ٤٤١

العلوم– إلمام آدم بها: ٣١

عماسا– رئيس جيش أبشالوم: ٦٦٥

العمالقة–

صفاتهم وخطاياهم: ٢٥٨،٢٥٧

تحديهم لقوة الله: ٥٦٤،٢٥٨

يحرقون صقلغ: ٦٢٣

(انظر ما ورد عن حروب الإسرائيليين)

عماليق– الإنباء بمصيره: ٥٦٣،٢٥٨

الرجل العماليقي– يفتخر بأنه قتل شاول: ٦٢٦

عمورة– (انظر ما جاء عن سدوم)

العهد–

بين الله وإبراهيم: ٤٢٢،٣٢٤،١٢٨،١١٥،١١٤

شروط العهد: ١١٥

مقارنة بين العهد القديم والعهد الجديد: ٣٢٦

كان يجب أن يبرم مع إسحاق: ١٢٣

العهد القديم بين اله وإسرائيل: ٣٢٤

صودق عليه بدم الذبيحة: ٣٢٤

شرط الطاعة: ٣٢٦،٣٢٥،٢٧١

لا ذكر للمخلص فيه: ٣٢٥

لماذا أبرم: ٣٢٥

عهد النعمة (العهد الثاني، الجديد)– ٣٢٤

أبرم في عدن على وعد مجيء النسل: ٣٢٤

شروطه– الغفران بدم المسيح: ٣٢٤

تجديده لإبراهيم: ٣٢٥،٣٢٤

المصادقة عليه بدم المسيح: ٣٢٥،٣٢٤

أساس شريعة الله: ٣٢٥

لماذا وأين سمي جديدا : ٣٢٦

المخلص في العهد: ٣٢٥

الإيمان والناموس تحت العهد: ٣٢٥

كيفية الحصول على بركته: ٣٨٢

تجديده في شكيم: ٤٦٨،٤٤٣

عهدان– ٣٢٤

عيبال–

جبل– اللعنات ينادى بها من فوقه: ٤٤٤

وقد بني عليه نصب ومذبح: ٤٤٤

عيد–

عيد الحصاد وعيد الأسابيع (انظر ما جاء عن عيد الخمسين)

عيد المظال: ٤٨٥،٤٨٤،٤٤٥،٣٦٥

عيد الفطر: ٤٨٣،٤٨١

عيد الخمسين– متى يحتفل به: ٤٨٣

عيسو–

صفاته: ١٥١

احتقاره للبكورية: ١٥٣،١٥٢

غضبه لخسارته البركة: ١٥٥

زواجه: ١٥٣

اشتهاؤه للثروة والمركز: ١٧٧،١٥٤

يعقوب يرسل تحياته لعيسو: ١٦٨،١٦٧

الله يمس قلب عيسو: ١٧٠

وقد أعطى له جبل سعير: ٣٧٤،١٧٧

كان على بني إسرائيل أن يبتاعوا مؤونتهم من بني عيسو: ٣٦٧

العيلاميون– أنقذ لوط منهم: ١٣٢،١١٢

عين دور–

ساحرة في عين دور: ٦٠٩،٦٠٨

زيارة شاول لها: ٦١٤،٦٠٩

الغذاء–

أفضل غذاء للإنسان: ٣٣٢

تأثير الغذاء: ٥٠٢

غذاء إسرائيل في مصر: ٣٣١

الفادي–

الحياة العتيدة بواسطة الفادي: ٦٨

الوعد بمجيء الفادي يعطى لإبراهيم: ١٣٩،١٠٢

(انظر ما جاء عن النسل)

الفداء–

تدبير الفداء: ٤٤–٥١

اكتماله: ٢٩٨

أول نبأ عنه قدم للإنسان: ٤٦

النور الخاص بالغذاء: ٣٢١،١٣٠

شروطه: ١٧٧

فدان آرام– يعقوب يرحل عنها: ١٦٧

فرعون–

رأفته نحو إبراهيم: ١٠٧

يوسف يفسر أحلام فرعون: ١٨٧

يعقوب يباركه: ٢٠٢

تفويض موسى في الذهاب إليه: ٢٢١،٢١٩،٢١٨

فرعون يتحدى الله: ٢٩٠،٢٢٤،٢٢١

كيف تقسى قلبه: ٢٩٠

مطاردته لبني إسرائيل: ٢٤٤

انهزامه: ٢٤٥

لم تكن مقاومته ناشئة عن جهل: ٢٩٠
الفسجة– موسى يموت فوق رأس الفسجة: ٤٢٣،٤١٩
الفصح–
الاستعداد له: ٢٣٦
وقته: ٤٨١
طقوسه: ٤٨٣
رمزي وتذكاري: ٢٣٨
ولم يمارس طوال سني التيهان في البرية: ٥٥٢،٤٣١،٢٥٩
متى بطلت دلالته : ٤٨٣
حلول العشاء الرباني مكانه: ٤٨٣
الفلسطينيون–
لم يطردوا من أرضهم: ٤٥٣
يذكرون ضربات مصر: ٣٢٨
شمشون ابتدأ يخلص إسرائيل من أيديهم: ٥٠٨،٥٠١
شمشون يختلط بهم: ٥٠٣–٥٠٩
الفلسطينيون يستولون على التابوت: ٥٢٤
يعاقبون على ذلك: ٥٢٧،٥٢٦
يهاجمون بني إسرائيل وهم يقدمون المحرقة: ٥٣١
يدركهم هلاك مباغت: ٥٣١
كانوا في قلب كنعان: ٥٥٥
وقد انكشفت ضعفات إسرائيل لهم: ٦٠٤
فلك نوح– ٧٢
فوطيفار–
يوسف يباع عبدا له: ١٨٤
كان يعتبر يوسف ابنا له: ١٨٥
امرأة فوطيفار تفتري على يوسف: ١٨٦
فينحاس–
ابن اليعازار الكاهن يقتل زمري: ٤٠٤
وقد تثبت له الكهنوت: ٤٠٥
فينحاس–
ابن عالي: ٥٢١،٥١٨
موت امرأته: ٥٢٦
قادش برنيع–
المسافة بينها وبين سيناء أحد عشر يوما: ٣٣١،٣٣٠
التمرد والعصيان فيها: ٣٥٩،٣٤١
نظرة إلى الماضي في قادش برنيع: ٣٨٧
الأحياء الباقون يقتلون في قادش برنيع: ٤٠٥
نفاذ الماء الذي كان معه قبل وصولهم إلى قادش برنيع: ٣٦٥
قايين–
صفاته: ٥٤،٥٢
لماذا رفض قربانه: ٥٤،٥٢
اللعنة التي وقعت عليه: ٥٧
الله يتحاج معه: ٥٧
قصد الله من الإبقاء على حياته: ٢٨٢،٥٧

يترك البيت ليؤسس مدينة : ٦١
نسله يختارون يوم راحتهم الخاص: ٦١
تأثيره بعد مرور ١٥٠٠ سنة: ٢٨٢،٥٨
قايين وهابيل–
امتحانهما : ٥٢-٥٩
يمثلان فريقين من الناس: ٥٤
القتل: جريمة القتل كيف ترتكب: ٢٦٧
القدس–
خدماته إعلان عن الله: ٥٣٣
والخطايا تنتقل إليه بواسطة الدم: ٣٠٩
تطهيره: ٣٠٩
رأى يوحنا القدس الذي في السماء في رؤيا: ٣١٢،٣١١
المسيح هو خادم القدس: ٣١١
متى ابتدأ المسيح بالعمل فيه: ٣١٢
(انظر ما جاء عن الخيمة)
قرية أربع– (انظر ما جاء عن حبرون)
قرية يعاريم–
الترحيب بالتابوت في قرية يعاريم: ٥٣٠
وقد نقل من هناك : ٦٣٤
مدرسة الأنبياء في قرية يعاريم: ٥٣٤
القميص–
الذي صنع ليوسف: ١٧٩
وقد أراه أولاد يعقوب لأبيهم: ١٨٢
القهاتيون– كان عليهم أن يحملوا أمتعة الخيمة: ٦٣٥
قورح–
عصيانه: ٣٤٨-٣٥٨،٣٦٠،٥٧١
طموحه: ٣٤٨
قورح يخدع نفسه: ٣٥٠
مقارنة بين قورح ولوسيفر: ٣٥٦
القيامة– كيف تتأكد منها: ٤٢٥،٤٢٤
القينيون– لماذا أبقى عليهم ولم يقتلوا: ٥٦٤
كالب–
الوعد له بالميراث: ٤٥٤،٣٤٤
إيمانه: ٤٥٥
نابال من نسله: ٥٩٥
كالب ويشوع–
تقريرهما الصالح: ٣٤٢
الجمع يحاول رجمهما: ٣٤٣
مكافأتهما: ٤٠٥،٣٤٤
الكبش– المقدم عوضا عن إسحاق: ١٢٨
الكتاب المقدس–
هو رسالة من الله للناس: ٤٤٦
البرهان على صدقه: ٢٠٦
لا تناقض فيه: ٩٤
لا تفريق في المعاملة: ٢٠٦
إنكار الكتاب المقدس: ١٤٠
على الناس أن يثبتوا اعتقادهم به: ٩٣
هو قوة مثقفة: ٥٣٧
واجبنا أن ندرسه: ٥٣٧،٤٠٩
كيف نوقظ اهتمام الناس به: ٤٤٦

التاريخ في الكتاب المقدس: ٥٣٧
يجب على الناس أن يتعلموه: ٤٤٦
العلم ليس اختبارا للكتاب المقدس: ٩٣
تقويض إيمان الناس به: ١٤٠
(انظر ما جاء عن كلمة الله)
كدرلعومر: ملك عيلام–١١١
كرسي الرحمة (غطاء التابوت) وصفه: ٣٠٢
الكفارة–
طقوسها: ٣٠٦،٣٠٧،٣٠٩–٣١٢
لا خلاص بدونها: ٥٥
لم يكن أحد غير المسيح يستطيع أن يقوم بها: ٤٤،٤٧
الكفارة النهائية : ٣١٢
كلمة الله–
حفظها من القلب: ٤٠٩،٤١٠
(انظر ما ورد عن الكتاب المقدس والمسيح)
كنعان–
إرثه: ٩٦
يكون عبدأ لسام: ٩٦
نسله: ٩٧
كنعان–
أرض كنعان: ١٠٤،١٠٥،١١٠، ٣٤٠،٤١٤،٤٢٠
إبراهيم يأتي إلى أرض كنعان: ١٠٤
عودة يعقوب إليها: ١٦٤،١٧٤–١٨٢
المجاعات تحل بها: ١٠٥،١٩٢
دخول الإسرائيليين إليها: ٤٣١،٤٣٢
المسافة بين سيناء وكنعان أحد عشر يوما: ٣٣٠
أريحا باكورة الأرض: ٤٣٥
أريحا بين الأسباط: ٤٥٢–٤٦٣
الكنعانيون في الشمال يتحالفون ضد إسرائيل: ٤٥٢
القسم الجنوبي منها يفتتحه يشوع: ٤٦٣
وعد الله يتمم في أورشليم السماوية: ١٤٣
الكنعانيون–
صفاتهم: ٤٣٧
عندما جردوا من أملاكهم: ٩٧،٢٠١،٤٨٧
سبب هلاكهم: ٣٤٣،٤٣٦،٤٨٧
لم يطردوا طردا كاملا: ٤٥٣،٤٦٤،٤٨٧
تحالف إسرائيل معهم: ٤٨٨،٤٨٧
امتيازاتهم على إسرائيل: ٤٣٣
حالتهم التي صاروا إليها بسبب الأرواح الشريرة: ٦١٩
الكهنة–
تعليم ديانة مصر كان موكولا لهم: ٢١٣،٢٨٩
استشارتهم اله في خيمة الاجتماع: ٣٢٨
لباس كهنة إسرائيل: ٣٠٥
خدمة تكريس الكهنة: ٣١٣

اجتذاب الشعب إلى معاشرة الكهنة: ٤٧٤
أبناء عالي ككهنة: ٥١٧
الكهنوت-
انتقاله من الابكار إلى سبط لاوي: ٣٠٣
محصور في عائلة هارون: ٣٠٣
درس موسى الكهنوت في مصر: ٢١٣
لابان- أخو رفقة: ١٤٧
لابان يرحب بيعقوب: ١٦٠
لابان يخدعه: ١٦٢
صفاته: ١٦٥،١٦١
الرب يبارك لابان بسبب يعقوب: ١٦٤
مطاردته ليعقوب: ١٦٥
مصالحتهما: ١٦٦،١٦٥
لامك- أول من تبنى نظام تعدد الزوجات: ٦١
لاوي-
قسوته التي عامل بها أهل شكيم: ٢٠٤
جريمته في بيعه ليوسف: ٢٠٤
اللاويون-
وكل إليهم أمر حراسة الخيمة: ٣٢٩،٣٢٨
أعطى لهم ثمان وأربعون مدينة: ٤٥٣،٢٠٤
تسبيحتهم: ٣٥٩،٩٤
أعطي لهم الكهنوت: ٣٠٣،٢٠٤،٢٠٣
كانوا يعالون من العشور: ٤٧٤،٤٧٠
أمناء لله عند الارتداد: ٢٨١
لبنان- أرز لبنان: ٤٢٠،٣٩٨
لوحا حجر-
أعطيا لموسى: ٢٧٣،٢٧٢
كسرهما: ٢٧٩
جاء موسى بلوحين آخرين: ٣١٨،٢٨٦
نقش المسيح عليهما الكتابة: ٣٢٠
وضعا في التابوت: ٣١٨،٣٠٢
لوسيفر-
ادعى أنه معادل لله: ٢٠،١٧،١٦
اقتنع بأنه كان مخطئا: ١٩
قوة خداعه: ٢٨٨،٣٦،٢٣-٢١،١٨،١٧
رحمة الله له: ١٩
الدرس الذي نتعلمه من تمرده: ٢٣
مركزه: ٢١،١٧،١٤
انقضاء مدة قبوله: ٣١
هو مصدر الخطية: ١٤
لماذا لم يهلك فور عصيانه: ٢٢
(انظر أيضا ما جاء عن الشيطان)
لوط-
مرافقته إبراهيم في ذهابه إلى كنعان: ١٠٤
اختباره وادي سدوم لاقامته: ١١٠
هربه من سدوم: ١٣١-١٤٤
سكن في مغارة : ١٤١
نسله وصفاته: ١٤٢،١٤١

لم يجردوا من أرضهم: ٣٨٤
أنقذه إبراهيم من العيلاميين: ١١٢
ما بين النهرين-
إبراهيم يرحل عنها: ١٠٤
إسحاق يجد لنفسه زوجة من هناك: ١٤٦
يعقوب يذهب إليها: ١٦٠،١٦٥،١٦٦
مارة- الماء المر فيها: ٢٥٠
متوشالح- كان أمينا لله : ٧٢
أعان نوحا في بناء الفلك: ٧٢
المجيء الأول-
أظهر لأخنوخ في رؤيا نبوية: ٦٥
سمح لموسى أن يرى المخلص في مجيئه الأول: ٤٢١
المجيء الثاني-
إنذار العالم:٨١
يسبقه زمان الضيق: ١٧١
قبل المجيء يغلق باب الرحمة: ٧٧
حدوث اهتزازات وتقلصات في الطبيعة عند المجيء الثاني: ٨٧،٢٩٦
مجد ذلك اليوم: ٢٩٥
خلاص الأبرار: ٦٨
هلاك الأشرار عند المجيء الثاني: ٢٩٧
المحرقات- ٣٠٧
محنايم- ١٦٧،٦٦٥
تتويج ايشوبشث فيها: ٦٣٠
مخماس-
حلول جيش الفلسطينيين فيها: ٥٥٦
مدارس الأنبياء- ٥٣٣-٥٤١
مديان- هروب موسى إليها: ٢١٥
المديانيون-
صلتهم بالموآبيين: ٣٨٩
انتقام بني إسرائيل منهم: ٤٠٥،٤٣٦
المديانيون يقومون بالنهب والتخريب شرق الأردن: ٤٨٩،٤٩٠
كسر شوكتهم إلى الأبد: ٤٩٤،٤٩٥
مذبح-
مذبح البخور-وصفه: ٣٠٢
مذبح الشفاعة الدائمة: ٣٠٢
الكفارة الدائمة: ٣٠٧
المذبح المقام بجوار الأردن كان شاهدا: ٤٦١
المرحضة- وصفها: ٣٠١
المريا- قدم إسحاق على جبل المريا: ١٢٧،١٢٨،٦٧١
مريم-
تحرس موسى وهو في السفط: ٢١١
صفاتها: ٣٣٦
هي شاعرة وموسيقارة ونبية: ٢٤،٣٣٦
حسدها لصفورة: ٣٣٥-٣٣٨
حكم الله عليها: ٣٣٨،٣٤٩
موتها: ٦٦٣
مسة أومريبة- تذكار: ٢٥٧

المسيح–
صورة الله: ١٧،١٣
واحد مع الله: ٤٦٢،١٧،٤٦٢
سيادة المسيح: ٤٢٤،١٧
هو المهيمن على كل العوالم: ٤٩
به تم الخلق: ١٧،١٤
المجد في وجه المسيح: ٢٩٧
لوسيفر يحسده: ١٨،١٦
ألقاب المسيح: ٣٠٦
هو الماء الحي: ٣٦٥
ونور العالم: ٣٢١
في العهد القديم: ٣٢٠
تكلم في الأنبياء: ٣٢٠
نطق بكلمات الشريعة في سيناء: ٣١٩
قائد إسرائيل: ٣٦٩،٣٥٠،٢٧٠
وهو على الأرض: ٥٧٤
تهذيبه وتعليمه: ٥٣٣
أعلن صفات الله: ٤١٧
راقبته العوالم الأخرى: ٤٩
الرؤساء والكهنة يحسدونه: ٢٠٧
العجائب التي أجراها: ٢٢٧
الفادي الوحيد للإنسان: ٤٧،٤٤
وساطة المسيح: ٣١٩،٣١١،٢٩٩،٢٨٢،١٥٨
الذبائح برهنت على إيمان الناس به: ٥٢
استحقاقات دمه: ٣١١،٢٣٧
الفصح يرمز إليه: ٤٨٣،٢٣٧
هو حمل الله: ٤٤
الإنباء بآلام المسيح وموته: ٤٥
الملائكة يخدمونه: ٤٦
موت المسيح برهان محبة الله للعالم: ٤٤٠،٤٦،٤٥
برهن على عدم تغيير الشريعة: ٣١٩
ما الذي يتممه المسيح: ٣١٢
لاحظت السماء الإهانات التي انصبت عليه: ٥٠
اليهود يرفضونه ولكنهم يقبلون الناموس: ٤٢٢
أما المسيحيون فيقبلونه ولكنهم يرفضون الناموس: ٤٢٢
يحمل على قلبه أسماء تابعيه: ٣٠٦
وعندما يكون قد مضى وقت قبول الناس للمسيح فهم يضعون له تمثالا: ٢٣١
هو الآن في قدس الأقداس: ٣٠٧
مجيء المسيح الثاني: ٢٩٥–٢٩٨
الرموز للمسيح–
الذبائح الكفارية: ٤٩،٤٤
آدم: ٤٧
يوسف: ٢٠٧
الكبش: ١٢٩
موسى: ٤٢٥،٣٦٧
الحية النحاسية: ٣٨١

مدن الملجأ: ٤٥٨
الفقراء: ٤٧٩
(انظر ما جاء عن الرموز)
المسيح والشيطان– العداء المستحكم بينهما: ١٦٥
المسيحيون–
تأثيرهم: ٦٠١،١٢١
هم تحت نفس الالتزامات كاليهود: ٤٠٦
وينبغي أن يكون لهم نفس اختبار المسيح: ٢٣٨
كما يجب أن يملأ العطف قلوبهم: ٥٦٧
(انظر ما ورد عن الأبرار)
مصر–
نفوذ الكهنة في مصر: ٢٨٩
الحيوانات التي كان يقدسها شعب مصر: ٢٩٠،٢٢٩،٢٢٨
كان بنو إسرائيل سيصيرون أمة عظيمة في مصر: ٢٩٠،٢١٠،٢٠٠
ضربات مصر: ٢٢٧-٢٤١
المصري– **قتله موسى**: ٢١٤
المصري الذي حاول أن ينصب خيمته في المحلة: ٣٦٠
المصريون–
أرسل إليهم نور عظيم: ٣٢٢،٢٨٩
يبيعون أنفسهم لفرعون: ٢٠٩
يقتنعون بقوة الله: ٢٣٤،٢٣٣
وكثيرون منهم طلبوا الاحتماء مع بني إسرائيل: ٢٣٩
كانوا أول المتذمرين في البرية: ٣٣١
يغرقون في بحر سوف: ٢٤٦
المصفاة–
صيرورة صموئيل قاضيا في المصفاة: ٥٣١
مفيبوشث–
كيف صار أعرج: ٦٤٠
داود يصنع معه معروفا: ٦٤٠
المكفيلة– ٦٢٨،٢٠٥،٢٠٢،١٤٣
الملاك–
ظهور الملاك لإبراهيم: ١١٦،١١٤
ظهور الملاك لهاجر: ١٢٢
وللوط: ١٣٣
ولموسى: ٢١٧
ولبلعام: ٣٩
وليشوع: ٤٣٤
ولجدعون: ٤٩٠
ولمنوح: ٥٠١
ولداود: ٦٧١
وفي عمود السحاب: ٣٧٠،٣٢٠،٢٧٠
الملاك يتصارع مع يعقوب: ١٦٩
الملائكة–
امتحانهم: ٣٥،٢١
توسلهم إلى لوسيفر: ٢٠،١٧
فرحهم بالخليقة: ٢٤

يزورون الإنسان في عدن: ٣٤،٣١
خدام الله : ٤٧،٤٦،٣١،١٧،١٤
يشتهون أن يفهموا سر الفداء: ١٣٠
يتطوعون لأن يموتوا لأجل الإنسان: ٤٧،٤٦
عملهم في القدس السماوي: ٣٠١
خدموا المسيح على الأرض: ٤٦
يحرسون طريق شجرة الحياة: ٢٢١
قادوا البهائم إلى الفلك: ٧٥
شاهدوا ذبيحة إسحاق: ١٣٠
يعقوب يرى الملائكة في حلمه: ١٥٨
راقبوا يوسف وهو تحت التجربة: ١٥٨
راقبوا الطفل موسى: ٢١١
حرسوا موسى: ٢٢١
دفنوا موسى: ٤٢٣
حاربوا في صف يوناثان: ٥٥٩
كيف طردوا من البيوت: ١٤٢
أضافهم أناس وهم لا يدرون: ١٣٣،١١٥
يحرسون المؤمنين في وقت الضيق: ٢٢١
الملائكة الأشرار–
إغلاق باب الرحمة دونهم: ٢١
رسل الشيطان: ٦١٦
يخدعهم لوسيفر: ٢٨٨
ملكي صادق–
إبراهيم يعطيه عشرا من كل شيء: ٤٦٩،١٣٢،١١٣
قدم المنعشات لجيش إبراهيم: ١١٣
المنارة الذهبية– وصفها: ٣٠١
المن–
الطعام المقدم لإسرائيل: ٢٥٣–٢٥٦
انقطاعه بعد عبور الأردن: ٥٥٢،٤٣٢
وعند إعطاء المن للشعب تعلموا أن يكرموا السبت: ٢٥٥
عند إعطائه حدثت عجيبة مثلثة: ٢٥٥
كان رمزا للمسيح: ٢٠٦
منسى–
البركة المعطاة له: ٢٠٢
ميراث سبط منسى في عبر الأردن شرقا: ٤٦٠
منوح– كان أهل بيته أمناء لله: ٥٠١
الموآبيون–
نسل لوط: ٣٨٤،١٤١
لم يسمح بطردهم من أرضهم: ٣٨٤
داود يودع أبويه عند الموآبيين: ٥٨٢
داود يضع الموآبيين تحت الجزية: ٦٤١
مورة– إبراهيم ينصب خيامه في مورة: ١٠٤
موسى–
تاريخه: ٢٠٩–٤٢٦
تربيته على يدي أمه: ٢١٠
تربيته في البلاط الملكي: ٢١٢

تعليمه في مدرسة الله في مديان: ٢١٥،٢١٦
صفاته: ٢٢،٢٣٥،٢٥٦،٣٣٧،٤٢٧
انطباعات مصر تمحى من نفسه: ٢١٦
مأموريته: ٢١٧
كان هو قائد إسرائيل المنظور: ٣٢٨،٣٣٠
كيف كلمه الله: ٣٣٨،٣٤٩
كان في الجبل مع الله ثلاث مرات: ٢٧٠،٢٧٢،٢٨٤،٢٨٥
خطية موسى الوحيدة: ٣٦٨،٤٢٠،٤٢٣،٤٢٥
حكم الله عليه: ٣٦٩،٤٤١،٤٢٥
لم يسمع له بأن يحمل ذنب إسرائيل: ٤١٣
توسله لأجل إسرائيل: ٢٧٦،٢٨٢،٣٤٣،٣٥٤
كان رمزا للمسيح: ٢٨٦،٣٧٧
كان مزمعا أن يكون تابعا للمسيح: ٤٢٤
وقد أعلن له تدبير الخلاص: ٢٨٦،٣١٩
تأهبه لخول كنعان: ٤٠٣
لماذا حرم من دخولها: ٤٢٥
الشكايات الموجهة ضده: ٢٢٢،٢٥٦،٢٦١،٣٣١،٣٤١،٣٥٠،٣٦٧، ٤١٣،٤١٨
وصيته لإسرائيل: ٤١٣
وصيته ليشوع: ٤١١
تقدير العبرانيين لموسى واحترامهم إياه: ٤١٢،٤١٨،٤٢٧
رؤياه النبوية: ٤١٩-٤٢٣
موته وقيامته: ٤٢٢،٤٢٤
لماذا أخفي قبره عن عيون الناس: ٤٢٥
أول إنسان قبل حياة المسيح: ٤٢٤
موسى عند التجلي: ٤١٩

موسى وهارون-
مقارنة بينهما: ٢٨٠
سرد اختباراتهما مجددا: ٣٧٥،٣٧٦
قصد الله لأجلهما: ٣٧٧

ميكال-
أعطيت لداود زوجة: ٥٨٧
أعانت داود على الهروب من شاول: ٥٨٧
عيرت داود عندما رقص أمام التابوت: ٦٣٨
وبخت على ذلك: ٦٣٨

نابال-
من نسل كالب: ٥٩٩
كان رجال داود يحرسون أمواله ومواشيه: ٥٩٩
رفض إجابة داود إلى طلبه فلم يعطه طعاما: ٥٩٩
موته: ٦٠٢

ناثان–
رسالته إلى داود: ٦٣٩
توبيخه لداود على قتله لأوريا: ٦٤٧
أمانته لداود: ٦٧١
ناحاش: ملك بني عمون: ٥٥٠
ناحور– أخو إبراهيم: ١٠٤
ناداب–
ناداب وأبيهو: تهذيبهما في صغرهما: ٣١٤
إدمانهما الخمر: ٣١٣–٣١٦
الناموس الأدبي– الإنسان وحده خاضع لـــه: ٣٣،٣٠
الناموس الطقسي– (انظـــر مـــا ورد عـــن الطقوس)
نبو– (انظر ما ورد عن الطقوس)
نثنائيل– ١٥٨
النذير– ٥٠٣،٥٠١
النسل–
الموعود به الأجداد – حواء: ٣٩
شيث: ٦٠
أخنوخ: ٦٤
نوح: سام: ٩٦
إبراهيم: ١٠٢
إسحاق: ١٥١،١٢٣
يعقوب: ١٥٨،١٥٢
يهوذا، وداود: ٢٠٤
النشوء والارتقاء–
عقيدة لا أساس لها في كتاب الله: ٢٥
نوب–
خيمة الاجتماع فيها: ٥٩٠
قتل الكهنة الذين كانوا فيها: ٥٩٣
نوح–
يقدم للناس الإنذار بمجيء الطوفان: ٧٢–٧٥
إخلاصه وأمانته: ٧٤،٧٣،٧٢
الإنجيل يعطى له: ٣٢٠
بنو نوح،الفرق بينهم: ٩٦
النيل–
كان المصريون يعبدونه: ٢٢٨
تحويل مائه إلى دم: ٢٢٨
أهل نينوى–
مقارنة بينهم وبين جيل ما قبل الطوفان: ٧٤
هابيل–
حياته: ٥٢–٥٩
توسله إلى قايين: ٥٦،٥٤،٥٢
لماذا غضب قايين عليه: ٥٦،٥٥
هارون–
شريك موسى: ٣٧٦،٢٧١،٢٢٠
صفاته: ٣٣٨،٣٣٦،٢٧٩،٢٧٦،٢٧٥
كان مسئولا عن ارتداد الشعب: ٢٧٩،٢٧٦
كهنوته: ٥٢٠،٣٧٦،٣٥٥،٣٠٥،٣٠٤
أخطاؤه: ٣٣٧،٣٣٦،٣١٤،٣٧٥
أعماله الصالحة: ٣٣٧،٣٧٦،٣٧٦

موته: ٣٧٨،٣٧٧
الهيكل–
لم يسمح لداود ببنائه: ٦٣٩
وكان على سليمان أن يبنيه: ٦٧٣،٦٣٩
موقع الهيكل الشهير الملىء بالذكريات: ٦٧٢
جمع داود مواد لبنائه: ٦٧٥،٦٧٤،٦٦١
الوصية– الوصية الرابعة– مقاومة الشيطان لها: ٢٩٣،٩٢
قرب انقضاء العالم ستوجه تجارب لمحاربة قداسة اليوم السابع: ٤٠٧
وستنتهك كرامة السبت باسم الدين: ٢٩٣
الوصايا–
أساسها المحبة: ٢٦٣
وقد نطق الرب بها من سيناء: ٢٦٢
مبادئها البعيدة المدى: ٢٦٨
قصاص من يتعداها هو الموت: ٣٦٢
مقارنة بين قصاص كسر الوصية الثالثة والوصية الرابعة: ٣٦٢
لماذا كتبت على لوحي حجر: ٣١٨
وقد علمها آدم ونوح وإبراهيم لأولادهم: ٣١٧(انظر ما جاء عن الشريعة)
الوصايا–
الوصايا شروحها: ٢٦٢–٢٦٨
الوصية الأولى: توقير الله وإكرامه–كيف نصنع لأنفسنا آلهة : ٢٦٦
الوصية الثانية: التماثيل أو الصور– الأوثان لتكون رموزا لله–انظر إلى أي دركة انحطت أفكار الناس عن الله–قال الله عن نفسه أنه غيور– إن عبادة الأوثان هي زنى روحي–الأبناء لا يعاقبون عن ذنوب آبائهم–الوراثة –عبادة الله الحقيقي –الرب يعطي رحمة لعابديه الأمناء– ٢٦٤،٢٦٣
الثالثة: الأقسام الكاذبة–النطق باسم الله باستحقاق–مرارا كثيرة–اللهج أو التأمل: ٢٦٤
الرابعة: وصية السبت ليست تشريعا جديدا–تذكار الخلق–وهي رمز الولاء– وتشتمل على اسم المشترع ولقبه–وعليها ختم الله–ستة أيام فيها نعمل–أي الأعمال يجوز عمله في يوم السبت–الكلام الذي لا ينبغي أن يقال–التحدث عن الأعمال التجارة–الأفكار العالمية: ٢٦٧،٢٦٤
الخامسة: الآباء يستحقون أن يحبهم أولادهم–فهم في مكان الله–رفض سطلان الآباء–احترام الخدام والحكام وتوقيرهم– أول وصية بوعد– تطبيق هذه الوصية على أوسع مدي: ٢٧٦،٢٦٦
السادسة: الظلم والبغضة والانتقام–رعاية المتألمين والفقراء–الانغماس في الملذات ،الحرمان–الارهاق في العمل: ٢٦٧

السابعة: الأفكار والنظرات الشهوانية- نوايا القلب الخفية: ٢٦٧
الثامنة: الخطايا العامة والخاصة-الرق- حروب الغزو-السرقة والسلب والخداع- الديون والأجور٢٦٧
التاسعة: الكلام الكاذب-نية الغش أو الخداع-الظنون الردية - الافتراء
المبالغة: ٢٦٧-٢٦٨
العاشرة: الاشتهاء الأناني-الطمع أصل كل الشرور والخطايا: ٢٦٨
يابيش جلعاد-
تهديدها : ٥١٢
شاول ينقذها: ٥١٢
أهل يابيش جلعاد- ينقذون جسد شاول وأجساد بنيه: ٦١٣،٦٢٨
يابين- يتصدر حلفا ضد إسرائيل: ٤٥٢
يافث- يأخذ نصيبا من بركات الإنجيل: ٩٧
يبوس- استيلاء بني إسرائيل عليها: ٦٣٣
يبوق- نزول يعقوب فيها: ١٦٨،١٧٨
يثرون-
كان رجلا يعبد الله: ٢١٥
زيارته لموسى في سيناء: ٢٥٨،٢٥٩
المشورة التي أشار يثرون بها على موسى: ٢٥٩،٣٣٧
كان موسى معه في مديان: ٢١٥
يسى- أبو داود: ٥٧٤
يسوع-
ولادته في بيت لحم: ٥٧٤
هو الألف والياء في الفداء: ٣٢١
(انظر ما ورد عن المسيح)
يشوع-
صفاته: ٤٢٧،٤٦٦،٤٥٠
في الجبل مع موسى: ٣٧١
وكان جاسوسا أمينا: ٣٤٣
صار خليقة لموسى: ٤١١،٤١٨،٤٢٧،٤٣١
وقفت الشمس ساكنة في مدارها امتثالا لأمره: ٤٥٠
اعتكافه في تمنة سارح: ٤٦٤
طالب بميراثه: ٤٥٧
دعا كل إسرائيل للاجتماع به لآخر مرة: ٤٦٤
نجاح إسرائيل تحت حكمه: ٥٤٣
يعقوب-
تاريخه: ١٥٥-٢٠٥
رؤيا السلم التي رآها: ١٥٧-١٥٨
نجاحه: ١٦٤
تشاؤمه: ١٦٧
ليلة الصراع: ١١٤-١٧٣
مرافقة الملائكة له: ١٦٧
إيمان إبراهيم يتألق في قلب يعقوب: ١٧٧
الإنجيل يعطى له: ٣٢٤

رؤياه النبوة: ٢٠٣
يعقوب وعيسو–
الإنباء بصفاتهما: ١٥١
التقاؤهما أمام سرير أبيهما عند موته: ١٧٧
يفتاح – يخلص إسرائيل: ٥٠٠
يهوذا–
بركة البكورية تعطى له: ٢٠٤
حججه البليغة دفاعا عن بنيامين: ١٩٧
الوعد بمجيء مسيا من نسله: ٢٠٤
سبط يهوذا–
كان داود ملكا عليه: ٦٢٨
الحرب بين يهوذا وإسرائيل: ٦٣٠
يهوه–
إثبات ذاتيته: ٢٦٣ (انظر ما جاء عن الله)
يوآب–
كان العداء مستحكما بينه وبين أبنير: ٦٢٩
أخطأ عندما أطاع داود: ٦٤٦
دبر خطة لإعادة أبشالوم إلى أورشليم: ٦٥٤
وكان قائدا لجيش داود: ٦٦٦
قتل أبشالوم: ٦٧٢
وبخ داود: ٦٦٨
احتج على إحصاء الشعب: ٦٧٠
انضم إلى المتآمرين ضد سليمان: ٦٧٢
قتل بسبب تمرده: ٦٦٨،٦٧٢
يهوه يرأه– معناها: ١٢٨
يوحنا–
يرى بابل في رؤيا: ١٤٠
يرى القدس السماوي: ٣١١
يسمع ترنيمة موسى: ٢٤٧
الدرس الذي نتعلمه من نفي يوحنا: ١٠٦
يوسف– صفاته: ١٧٨،١٧٩،١٨٣،١٨٩، ١٩٠،٢٨٩
كان يعقوب عديم الفطنة عندما جاهر بمجيئه ليوسف: ١٧٩،١٨٣
أحلامه: ١٧٩
تحقيقها: ١٩٢،١٩٥،١٩٦
يفضح شرور أخوته ونميمتهم: ١٧٩
يباع عبدا: ١٨١،١٨٤
نقطة التحول في حياته: ١٨٤
قصد الشيطان في بيعه: ٢٨٩
كان نورا للمصريين: ٢٠٠،٢٣٠،٢٣١
تربيته وتهذيبه: ١٨٥
امتحانه: ١٨٥
إلقاؤه في السجن: ١٨٦
تفسيره حلمي فرعون: ١٨٨
صيرورته رئيس وزراء مصر: ١٨٩
يعد العدة لمواجهة الجوع: ١٩٢
يصير بكرا وحصل على نصيب اثنين:

٢٠٣،٢٠٢
يوناثان-
عينت له حاشية من الاتباع قوامها ألف رجل: ٥٥٦
أحرز في الحرب انتصارا باهرا: ٥٦٠،٥٥١
حكم عليه بالموت لأنه ذاق العسل: ٥٦١
يوناثان وداود: ٥٨٤،٥٨٦-٦٢٧،٥٩٥،٥٩٠
محاولة شاول أن يقتل يوناثان: ٥٩٠
نبأ موته يبلغ مسامع داود: ٦٢٦
اصطفى داود ابن يوناثان صديقا له وجليسا: ٦٤٠